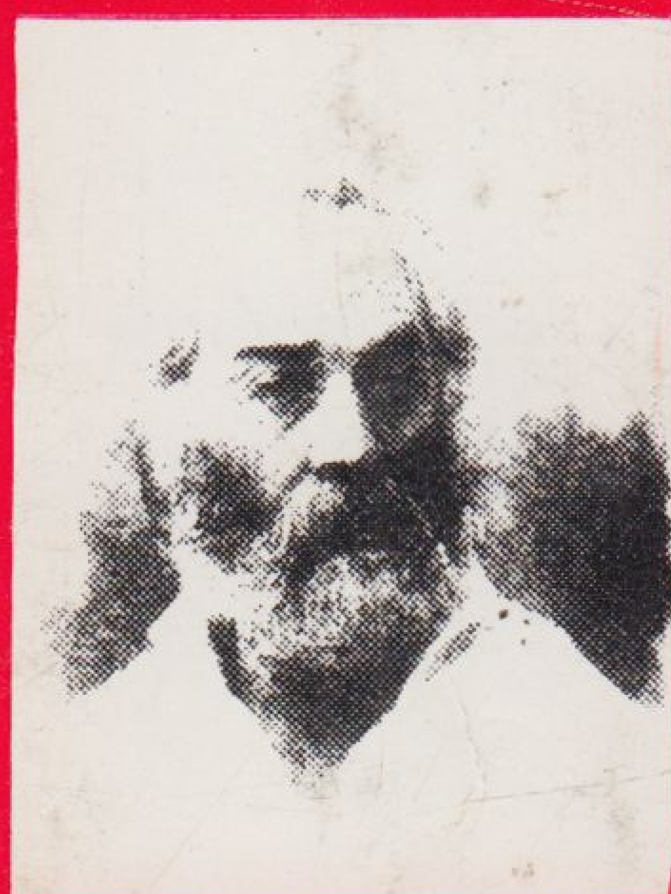
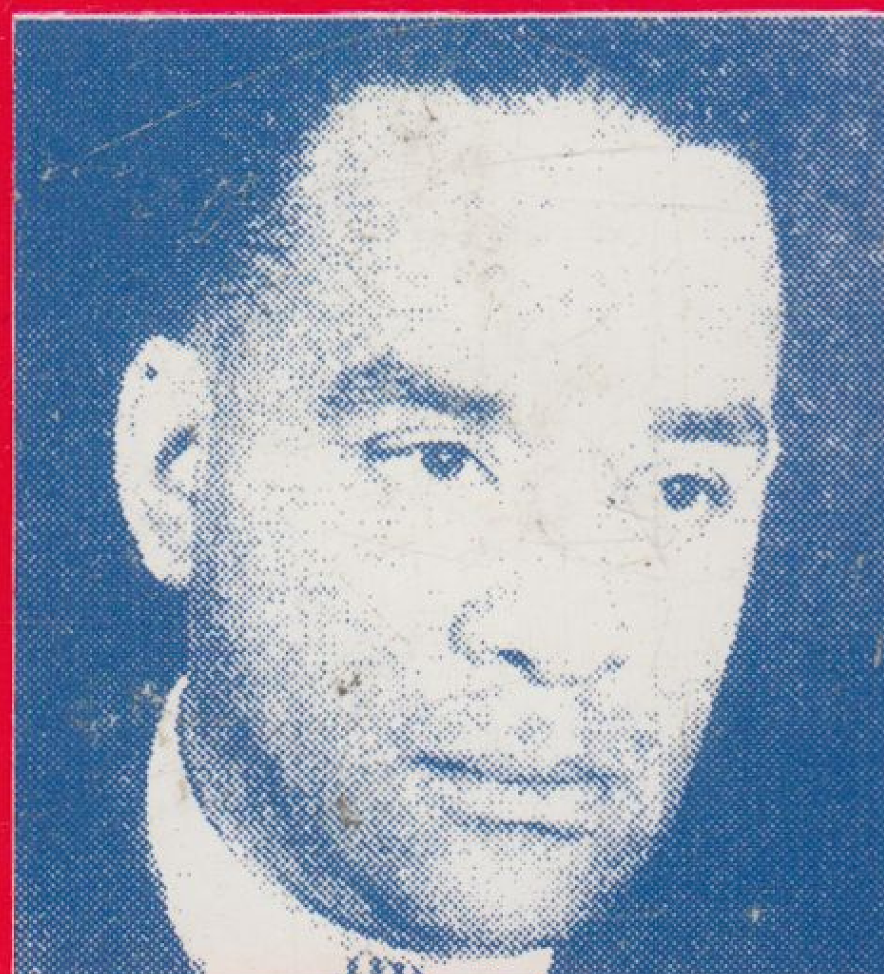
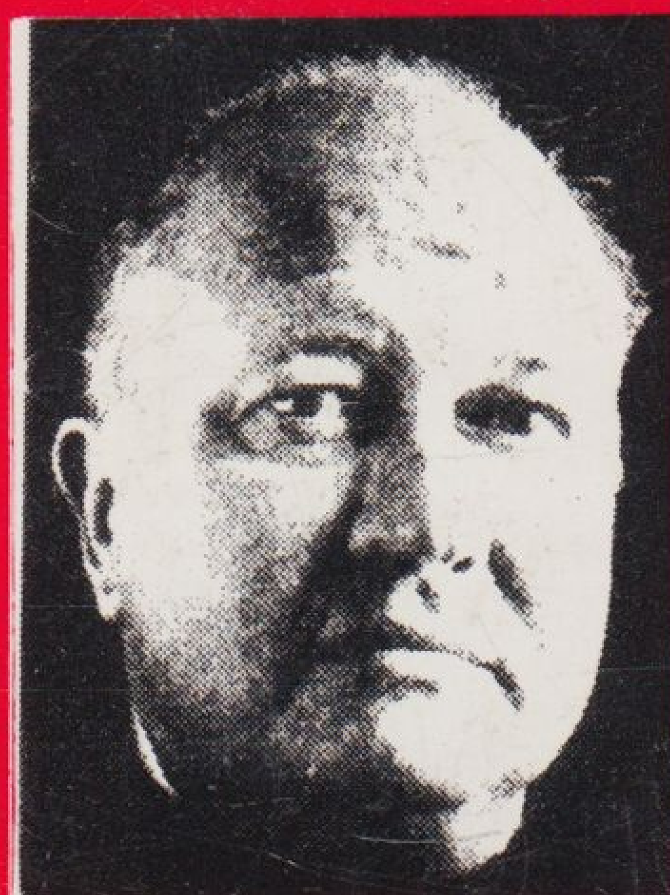
روائع الأدب الأمريكي

تحرير
د. نبيل الشريف د. ضياء الجبوري
د. أحمد المجدوبة د. عصام الصفدي








مركز الكتب الأردني

GIFTS OF 2002

U.S.GOVERNMEì

روائع الأدب الأمريكي

تحرير
د. نبيل الشريف
د. أحمد المجدوبة
د. ضياء الجبوري
د. عصام الصفدي

مركز الكتب الأردني

Authorized translation from English Language edition

JORDAN BOOK CENTRE 1995

يود محررو هذا الكتاب أن يعبروا عن شكرهم وتقديرهم للوقت والجهد اللذين بذلتهما لجنة الكتاب الاستشارية في سبيل إتمام كتاب «روائع الأدب الأمريكي» . تلك اللجنة التي ضمت عدداً من الأساتذة الأفاضل إضافة الى السيد بيتر كوفاتش مستشار الشؤون الثقافية والاعلامية في المركز الأمريكي للثقافة والإعلام والسيد جونثن رايس الملحق الثقافي الأمريكي والسيد أحمد صوفان اختصاصي برنامج الكتاب العربي في المركز الامريكي للثقافة والاعلام.

فبدون الوقت والنصيحة والاهتمام المتسم بالمثابرة والمتابعة لكل التفاصيل أثناء جمع الكتاب وترجمته وتحريره وتدقيقه، فإن ما يراه القارىء أمام ناظريه ما كان له أن يتحقق.

نحن محررو هذا الكتاب نقدم لهم شكرنا وامتناننا.

مقدمة (*)

تاريخ الأدب الأمريكي

بقلم : د. نبيل الشريف

تأتي (انطولوجيا) الأدب الأمريكي باللغة العربية لتسد فراغاً طالما أحس به القارىء العربي ولتمنح الدارس فرصة للوقوف على نماذج مختارة من الأدب الأمريكي عبر عصوره المختلفة . ولا يدعي محررو هذه الانطولوجيا انهم يقدمون الترجمة الاولى للأدب الامريكي باللغة العربية. اذ ثمة ترجمات عديدة لاعمال متعددة من الأدب الأمريكي موزعة في العديد من الكتب والكثير من عواصم العالم. ولكن ما يميز هذا العمل هو أنه جمع ما كان متفرقاً من ترجمات نشرت في أماكن مختلفة من العالم . اضافة الى ترجمات أمريكية جديدة . بحيث يخرج قارىء هذه (الانطولوجيا) بأول صورة شمولية للأدب الأمريكي في مصدر واحد . دون اضطراره للتنقل من عاصمة الى اخرى بحثاً عن مصادر هذا الأدب . ودون تكديس عدد كبير من المصادر التي لا تكون دائمًا على سوية واحدة من حيث المستوى والاداء المهني .

(*) إن هذه المقدمة وجميع المقدمات التي تلي هي مقدمات عامة غير موجهة للقارىء المتخصص، ولذلك فهي تعتمد على معلومات مستقاة من مقدمات مجموعات ادبية كثيرة مماثلة متداولة في ايدي الطلبة القراء. منها على سبيل المثال:

The Norton Anthology of American Tradition, The American Tradition in Literature, The Harper American Literature, American Literature: The Makers and the Making,

وغيرها ..

والتوثيق الدقيق لكل نقطة او فكرة، وتمييزها عن افكار كتّاب هذه المقدمات امر غير وارد في مثل هذا المضمار. وينطبق هذا الكلام على مقدمات المؤلفين.

وقد يقول قائل : وما هي الفائدة الحقيقية لترجمة انطولوجيا الأدب الأمريكي، وقد يكون السؤال بهذا الشكل المطلق صالحاً لاثارة الشك حول جدوى الأدب بشكل عام . فإذا ما اتفقنا أن الأدب يلعب دوراً في عكس معاناة الناس ، وتسليط الضوء على تجربتهم الإنسانية التي تتقاطع مع التجارب الإنسانية في كل مكان. فإن ترجمة انطولوجيا الادب الامريكي ستسهم، والحالة هذه، في سبر أغوار التجربة الانسانية في ذلك الجزء من العالم ، والتي من شأنها أن تثري المعرفة الانسانية وتضيف لها رصيداً جديداً من الخبرة والاطلاع . ولاشك أن شعوباً متعارفة منفتحة ، هي الاقدر على مد جسور الثقة والحوار فيما بينها . وباستطاعة الادب أن يلعب دوراً حيوياً في فهم الآخر ، وفي فتح قنوات الحوار والاحترام المتبادل معه . واذا استطاعت هذه (الانطولوجيا) أن تقدم صورة موضوعية دقيقة للحياة الأدبية في أمريكا ، فإنها تكون قد حققت الهدف الاكبر الذي راود القائمين عليها . واذا استطاعت أن تخلق نوعاً من الاستعداد لفهم الآخر والحوار معه بموضوعية وانفتاح ، فانها تكون قد حققت أكثر مما طمحنا للوصول إليه .

إن أول صورة سجلها الأدب الأوروبي للعالم الجديد حتى قبل هجرة المواطنين الاوروبيين اليه ـ هي صورة لأرض خصبة تمور بمختلف أنواع الخيرات والمصادر والثروات . ورسم الخيال الأوروبي كما سجلته أعمال أدبية عديدة ـ لوحة زاهية تقرب الى مشارف الخيال حول الوفرة التي يتمتع بها العالم الجديد . فصورت الأشجار وهي تنوء بحملها من الثمار الذي لا يجد من يفيد منه ، وصورت البحيرات وهي تعج بالأسماك التي يستطيع المار أن يغرف منها سمكاً طيباً بيديه . وصورت السماء وهي تستحيل سوداء داكنة بفعل الطيور الكثيفة التي تحجب أشعة الشمس . وكان أبرع من قدم هذه الصور للعالم الجديد الرحالة الكاتب (كابتن جون سميث) الذي نشر كتابه المسمى **وصف لانجلترا الجديدة** (١٦١٦) وقال فيه :

«إن الطبيعة والحرية تمنحانا هنا ما نفتقر إليه في انجلترا ، أو ما يكلفنا غالياً الحصول عليه» . وجاء بعده آخرون لإثراء هذا الجانب الوصفي لأحوال العالم الجديد ، وقد عرف منهم المزارع الفرجيني وليم بيرو في كتابه **تاريخ الخط الفاصل** وتوماس جيفرسون في كتابه **ملاحظات حول ولاية فيرجينيا** ، وقد ضاق الفارق كثيراً في هذه الكتابات بين الحقيقة والخيال. ولا أحد ينكر أن أحد أهداف هذه الكتابات المغدقة في وصفها لخيرات العالم الجديد هو اغراء فقراء أوروبا الذين كانوا يشكون الفقر والعوز للقدوم للعالم الجديد واتخاذه موطناً لهم . ودعم المهاجرين الجدد الذين كانوا يشعرون بالوحدة والخوف في البراري المترامية الاطراف التي كانت تخبأ في جنباتها المخاطر والاعداء .

ولكن المفارقة الكبرى في الحقبة الاولى من تاريخ الهجرة للعالم الجديد تكمن في ان المجموعة الرائدة التي لبت دعوة الكابتن سميث وغيره للقدوم الى العالم الجديد فعلت ذلك

انطلاقاً من دوافع لا دنيوية . ورغم أن الطهرانيين أو البيورتانيين الذين توجهوا من اوروبا الى شواطيء العالم الجديد في السفينة المسماة (زهرة أيار May Flower) كانوا على معرفة كاملة بالخيرات التي تنتظرهم في العالم الجديد ـ كما وصف ذلك الكابتن سميث وغيره ـ إلا أن دافعهم الأساس للهجرة كان الفرار بمعتقدهم الديني ، والنجاة من الاضطهاد الذي كان يمارس ضدهم في اوروبا . فعندما اعتلى عرش بريطانيا جيمس ستيوارت بعد وفاة ملكة بريطانيا ، ادرك الطهرانيون ان مقامهم في بريطانيا سيكون صعباً لما عرف عن جيمس ستيوارت من عداء لهم ، فشدوا الرحال الى هولندا . ولكن المقام هناك كان صعباً ايضاً بسبب حواجز اللغة ، فلم يجد الطهرانيون مفراً أمامهم سوى ان ييمموا وجوههم شطر العالم الجديد ، ويقيموا على أرضه مدينة الله على الأرض ، وينفذوا على ثراه حلمهم بتأسيس المدينة الفاضلة التي تجسد ما وعدوا به في الكتب المقدسة من اصطفاء وعيش طهور بعيداً عن مدن الخطيئة في اوروبا . ويصف أحد قادتهم وليام برادفورد ، كفاح هؤلاء الرواد ضد الطبيعة القاسية بشكل آسر ، ويصور محاولة من ينظرون الى أنفسهم على انهم الشعب المختار الذي يحاول أن يقيم مملكة الله على الارض رغم كل المعيقات والصعوبات . وهو لا يتحدث فقط عن الصعوبات الخارجية التي تمثلها الطبيعة القاسية ، ولكنه يتحدث أيضاً عن خطر الافساد والانحراف والتوجه نحو مغريات الدنيا داخل مجتمع الطهرانيين الذي كان يضع نصب عينيه دائمًا المثل السامية العليا ، والحياة الفضلى بعد الموت .

وقد استند المعتقد الطهراني الى قاعدتين رئيسيتين ، اولهما أن بابا روما لا يملك حق اصدار أي قانون على المسيحيين دون رضاهم ، وثانيهما أن الله قد اصطفى سلفاً الناجين مِن النار ، كما حدد من سيزج بهم في أتون جهنم . وتعكس القاعدة الثانية تأثير مبادىء جون كالفن ، وخصوصاً نظرته الى الاصطفاء Election . وقد وجه الطهرانيون خطابهم للقلب عوضاً عن العقل ، مع الحرص على التفريق بين الفهم العقلي للامور وبين الايمان الذي يمس شغاف القلب .

ولأن الطهرانيين كانوا يحسون انهم أصحاب رسالة ، فقد تحملوا كل اصناف البؤس والشقاء في البرية الجديدة دفاعاً عن معتقدهم وذَوداً عن حرية ممارسة شرائعهم الدينية . وتصف شاعرتهم (آن برادستريت) شظف العيش في العالم الجديد في سنوات الهجرة الاولى فتقول : إن الموت طرق كل الأبواب ، واذا ما تسنى للمهاجرين الجدد تجاوز صعوبة الشتاء بسلام ، فإنهم لم ينجو في كثير من الأحيان من الأمراض المعدية التي كانت تفتك بهم في الصيف نتيجة ارتفاع درجات الحرارة. ومن جهة أخرى ، فإن أدب هذه المرحلة من تاريخ الإبداع في العالم الجديد يسجل بالقصيدة والرسالة والمذكرة الشخصية اصراراً لا يلين على مواجهة

الصـعـوبات والصمود في وجهها ، انطلاقاً من إيمان راسـخ أن كل ما يحـدث إنما هو جـزء من خطة محكمة رسمتها يد الله . وقد جعل الايمان القدري الحياة محتملة بالنسبة لهـؤلاء القـوم .

وقـد اولى الطهـرانيـون أهميـة خاصة لكتابة التاريخ ، وعكفوا على دراسته بجدب بالغ ، واعـتـقدوا أن الحقائق الخالدة يمكن استخلاصـها من دراسة سير حياة العظماء والمتميزين . وقد دعـا القديس المؤرخ (كوتون ماذر) تلاميذه لدراسة سير حياة المؤرخيـن الكلاسيكييـن ، وعـدم الاكـتفاء بدراسة تاريخ رجالات الكنيسة الاوائل . فقد نظر الطهرانيون الى التاريخ الانساني على أنه سلسلة مترابطة الحلقـات تمتـد منـذ بـدء الخليـقة وحتى اكتمال ما رسمـه الله للبشرية على وجـه الأرض . ومن هنا ، فإن التـاريخ السـابق للمـسيحية يمكن ان يستوعـب على أنه تحضير لمجيء المسيـح . وقد تعلمـوا هذا الدرس من اسـاتذة الانجيـل في العصر القروسطـي Medieval الذين نظـروا الى بعـض الرجـالات ممن ورد ذكـرهـم في العهـد القديـم على أنهـم نماذج تمهـد الطريق لمجيء المسيح. وقد سميت هذه الطريقة بالمطابقة Typology . وقـد فتن بها الطهرانيون، واصـبـحـوا يعقدون المقارنات بين ما يمرون به من تجارب ، وبين ما يحفل به العهد القديم من احداث وسير .

ومن وحي هذا التفسير الديني للتاريخ ، فقد فسر الطهرانيون نجاح الامم أو اخفاقها على أنها اشـارة الهيـة تعكس رضـا الله أو غـضبه عن تلك الأمة . اذ يتمثل رضا الله في سعادة الأمة ونجـاحها ، ويتجسد غضبه في حظها التعس واخفاقاتها المتكررة. ومن هنا ، فقد نظر الطهرانيون الى كل الأحـداث التي تمر بهم من منظار رؤيتهم للصراع الأبدي بين الخير والشر . ويذكر كاتبهم (وليـام برادفـورد) أن شـاباً كان يتطاول على الطهرانيين في السفينة (ماي فلور) التي اقلتهم الى شـواطيء العـالم الجديد ، وكان يسخر منهم وينتقص من قدرهم، ولكن هذا الشاب سرعان ما وقع فـريسة المرض ولقي حتفه واضطر قبطان السفينة لإلقاء جسـده فـي البحـر . ولا ينـسى برادفـورد أن يسـهب في شرح المغـزى الدينـي لذلـك الحـدث ، حيث أن الشاب يمثل ـ في رأيه ـ العـصـيان والفسق اللذين كانا يهددان السفينة التي تقـل المؤمنين . وقد خلـص الله اتباعـه مـن الشرور التي كان يمثلها ذلك الشاب .

ولما كـان الطهـرانيون قد تمركـزوا في منطقـة انجلترا الجديـدة ، فان صـورة المهاجريـن الأوائل لا تكتـمل دون الحـديث عن منطقتي التجمع السكاني الاخرتين اللتين شكلتا نقاط جـذب تجـارية وزراعية لانماط اخرى من المهاجرين ،ونعني بها المستوطنات الجنوبية والوسطى . ففي حين خف الى منطقـة انجلترا الجديدة الطهرانيون المتدينون ، كانت المستوطنات الجنوبية تجسيداً لاحـلام السـاعين وراء الرزق والثـروة حـيث انشأوا مزارع ضـخمة في منطقة فرجينيـا ونـورث وسـاوث كـارولينا وجورجيا وغيرها . وبالتالي ، فقد كان حجم الابداع الادبي في المنطقة أقل من

نظيره في منطقة انجلترا الجديدة New England .

أما في المنطقـة الوسطـى ، فقد اقيمـت مستوطنـات بنسلفانيـا وديلاويـر ونيوجيرسـي ونيـويـورك والتـي سـميـت مجـازاً بمستوطنات الخبز ، لأن القمح كان المنتوج الرئيسي في تلك المنطقـة . وكـانت التركـيبة الاجتماعية في ذلك الجزء من العالم الجديد منوعة ، فكان ثمة لاجئين هولنديين وسـويديين والمان وفـرنسـيين . وكـان التسامح الديني هو السمة الابرز لمهاجري تلك المنطقة الذين كان من ابرزهم طائفة (الكويكرز) المعروفة بتسامحها واتساع أفق اتباعها .

وسرعـان مـا برز التحدي العلمي والفكري للمعتقدات الطهرانية ، والأسس والثوابت التي اسـتند اليها نهجهم في الحياة ونظرتهم لما حولهم . وقد أسهم العلماء والمفكرون المعروفون فـي ذلك الوقت من امـثـال اسحق نيوتن وجـون لوك في تفكيـك القاعـدة الصلبـة التي استنـد اليها الطهـرانيـون في احكام قبضتهم على مقدرات الحياة في المجتمع الجديد . وكان من نتيجة انتشـار هذه النظرة العلمـية العقلانية أن اصبح العالم في نظر كثير من الناس محكوماً بقوى عاقلة ، ولم تعد النظرة الغيبية مهيمنة كما كانت .

وسرعـان ما حدثت ردة فعل لهذه النظرة العلمية العقلانية للكون ، اذ شهد النصف الأول من القـرن الثـامن عشر محاولات عـديدة للعودة الى الينابيع الطهرانية الأولـى . وكانت أبرز تلك المحـاولات ما سميت بالصحوة الكبرى The Great Awakening والتي قـادها جونثان ادواردز في نورثامبتون وماساشوسيتس . ولعل أبرز خطبة لجوناثان إدواردز هي تلك المسماة (خاطئون في قـبضـة إله غاضب) والتي يصور فيها انحدار الانسان نحو مهاوي الخطيئة التي ستوصلـه الى عـذاب مـقيم لا راد له سوى تسامح الإله الذي لم يبق فيه متسـع لمزيد . ويصور ادواردز فـي اسـتعارات مجازية متتالية تنامي غضب الإله من جهة ، واصرار الانسان على التمادي في الخطايا من جـهـة اخرى . ويغفل كثير من الدارسين أن هذه الخطبة وغيرها قيلت بعد ما يقرب من مائة عـام على انتهاء سطوة الطهرانيين، وإن الهدف منها ومن غيرها من الخطب والقصائد هو محاولة استعادة المجد الذي ولى والسطوة التي أوشكت على الانهيار .

ويبقى يوم ٤ تمـوز ١٧٧٦ محفـوراً في ذاكـرة الامريكيين على أنه الفاصـل بين عهدين ، اذ انه يضـع حـداً لعهد الوصاية والتبعية لبريطانيا، ويفتح الطـريق أمام عهد الحرية والاستقلال. فقد قدم عضو مجلس الشيـوخ (ريتشارد هنري لي) مسـودة اقتراح في ٧ حـزيران ١٧٧٦ يعلن فـيـه أن « هذه المستوطنات المتحدة تملك الحـق لان تكون حرة مستقلة » . وسرعان ما توج هذا الاقتراح بمـوافقة مجلـس الشيوخ في ما سمـي باعـلان الاستقلال الذي يكتسب اهميته المعنوية التي مـهدت لبداية عصـر جديـد وأدب جديد يركز على معاني الحريـة والاستقـلال ويرفع مـن

مستوى الفرد والجماعة . ويتفق كثير من المؤرخين إن كتاب (توماس بين) المسمى منطق العقل والمنشور في كانون ثاني ١٧٧٦ هو الذي اعطى الدعم المطلوب لقضية الحرية ومطالب الاستقلال . وقد قرأ الكتاب كل سكان المستوطنات تقريباً في الشهرين الذين أعقبا نشره . وقد استند الكتاب الى نقطة أساسية مفادها إن الاستقلال عن بريطانيا هو الطريق العقلاني الأوحد . وقد خاطب (بين) ببلاغة نادرة توق سكان المستوطنات للحرية والانعتاق استناداً الى أسس عصر النهضة Enlightenment والخطاب العقلاني الذي بدأ يتشكل في تلك الحقبة .

أن خير من يجسد روح النهضة وقيمها هو بنجامين فرانكلين الذي كان يرتكز على مبدأ التجربة الذاتية كدخل للمعرفة ، وبمعنى آخر ، فان القيم والمعارف الموروثة تشكل بعداً يمكن التسليم به والبناء عليه . وتقدم الكثير من اعمال فرانكلين نمطاً جديداً من التفكير ، ونهجاً غير مسبوق في النظرة للحياة . ويقدم كتابه المشهور السيرة الذاتية دليلاً ناصعاً على هذه الطريقة الجديدة في الحكم على الاشياء، وقد كان لكتابه ونهج حياته وآرائه واقواله وممارساته السياسية النشطة أبلغ الاثر في تشكيل نمط جديد من الاعتماد على الذات والارتكاز الى التجربة العلمية كأساس للحكم على الاشياء ، مما افسح المجال لتغيير اشمل في نظرة المجتمع لنفسه وللعالم من حوله . وسرعان ما سادت هذه النظرة الجديدة واكتسبت شرعية من خلال «اعلان الاستقلال» الذي ينص على أن «بعض الحقائق مسلم بها ولا تحتاج الى دليل ، ومنها ان كل الناس خلقوا متساوين ، وأن خالقهم قد منحهم حقوقاً غير قابلة للتصرف ، ومنها الحق في الحياة والحرية والسعي نحو تحقيق السعادة» .

ازاء هذا الجو الليبرالي المتسامح المرتكز الى العقلانية والتجربة واعلاء قيمة الفرد وحقه في الحياة السعيدة ، فلم يكن غريباً أن يدلف الأدب الامريكي الى مرحلته الثانية الهامة ، وهي ما تسمى بالمرحلة الرومانسية . ومن رواد هذه المرحلة البارزين نذكر بريانت وامرسون وثورو ووتيمان .

في الفترة الممتدة بين عام ١٨٠٩ واندلاع الحرب الاهلية ، فان رمزاً أدبياً شامخاً يحتل مرتبة الصدارة ألا وهو واشنطن ارفينغ. وتتجسد اهمية هذا الكاتب متعدد المواهب في أنه اثبت، وللمرة الأولى أنه كاتباً من العالم الجديد يستطيع ان يبز اقرانه في العالم القديم ، وأن مادة هذا العالم تصلح للمعالجة الادبية . وقد اثبت أيضاً أن رواية او قصة تدور أحداثها في العالم الجديد يمكن ان تلقى النجاح والقبول لدى جماهير القراء . فقد كانت الذائقة الادبية الاوروبية حتى ذلك الوقت غير معتادة على قبول أي عمل أدبي يصدر في هذه الأرض الجديدة .

وسيبقى تأثير ارفينغ محفوراً في الذاكرة الادبية لتلك الحقبة من تاريخ الأدب الأمريكي، عبر أعماله المميزة مثل (رب فان وينكل) و (اسطورة الجرف الناعس) وغيرهما. ومع ذلك، فان كُتاباً آخرين كانوا على قدر أكبر من الشيوع والانتشار، ومنهم جيمس فنيمور كوبر الذي كان الروائي الأول في تاريخ الادب الامريكي عبر أعماله المختلفة، ورالف والدو امرسون الذي تميزت مقالاته وقصائده بالعمق والبعد الفلسفيين. ووالت ويتمان الذي يعد رائد القصيدة النثرية أو الشعر الحر في امريكا، وهيرمان ملفيل صاحب روايات البحر التي طبقت شهرتها الآفاق.

وكان من أبرز سمات تلك الحقبة من تاريخ الأدب الامريكي أن كُتّاب تلك المرحلة كانوا على معرفة وثيقة ببعضهم بعضاً، وكانوا يلتقون في حلقات نقاش ودرس. بل كان بعضهم ينتمي الى مدارس فلسفية وفكرية واحدة، مثل نادي التسامي Transcendental Club الذي كان امرسون أباه الروحي.

كما أن هذه المرحلة التي تزامنت مع بدايات عهد الاستقلال قد شهدت مخاضاً نحو ولادة أدب وطني أمريكي يعبر عن هوية الأمة الناشئة وتطلعاتها نحو الحرية والاستقلال، وقد حظيت هذه القضية بنقاش محتدم وحماس بالغ بين اطراف أدبية مختلفة. وعلا صوت المنادين بولادة أساليب جديدة في الأدب تتناسب مع روح الاستقلال الوطني. وبمعنى آخر، فان الاستقلال السياسي الذي تمتعت به الولايات الجديدة كان سيبقى في رؤية بعض الأدباء منقوصاً ما لم يتم رفده باستقلال أدبي في المواضيع والأساليب الأدبية. وكان من أبرز المنادين بهذا الاستقلال الشاعر والفيلسوف رالف والدو امرسون في مقالته الموسومة (الشاعر) والتي نادى فيها بوجوب ولادة شاعر أمريكي جديد يعبر عن خصوصية الأمة الناشئة وتوقها نحو التحرر والاستقلال. ونقتطف فيما يلي بعضاً مما قاله امرسون في رسالته تلك نظراً للأهمية البالغة في فهم الدوافع الوطنية والأدبية التي حركت أدباء تلك الحقبة:

«لم نحظ بعد في امريكا بوجود عبقري بعين نافذة تستطيع أن تدرك قيمة مصادرنا التي لا شبيه لها، وبقدرة على رؤية بربرية ومادية الصيغ القديمة التي لا تعدو كونها صورة مكررة للآلهة التي عبَّر الاقدمون عن اعجابهم بها كما نرى في أعمال (هوميروس) وفي أعمال أدبية أخرى في العصور الوسطى، وكما نراها أيضاً في الفلسفة الطهرانية لدى جون كالفن. أن البنوك والتعرفات المالية، شأنها في ذلك شأن الصحف والاجتماعات والنظريات الفكرية، كلها مسطحة وكئيبة لأناس مكتئبين. مع ذلك، فان مصائرنا وزنوجنا وهنودنا ومصادر فخرنا، وغضب أوغادنا ... والتجارة الشمالية والزراعة الجنوبية، والامتداد الغربي، وأريغون وتكساس ... كلها امور غير مغناة.

ولكن أمريكا كلها في أعيننا قصيدة ... وجغرافيتها المترامية تسحر الألباب، وهي لن تنتظر اوزان الشعراء طويلاً» .

وقد قال الشاعر والت ويتمان فيما بعد ان هذه الكلمات حركته ليبدأ عطاءه الادبي ، وقال أنه كان أشبه بالقدر الذي كان ينضج ببطء على نار هادئة ، الى أن جاء امرسون فأوصله الى مرحلة الغليان .

وينبغي التأكيد مع ذلك على أن سعي الكتاب الامريكيين في تلك الحقبة نحو الاستقلال الأدبي لم يكن مثالياً الى الحد الذي يفقدهم ارتباطهم بالحقائق الماثلة على الارض ، وأهمها أن هذا الأدب الجديد لا يمكن أن ينشأ من فراغ ، وأنه سيظل امتداداً ، فيه قدر من التنوع والاختلاف ، مع الأدب الاوروبي ، وأن جذر هذين الادبين واحد . فقد أقر كثير من كتاب تلك المرحلة ومنهم كوبر في كتابه أفكار حول الأمريكيين المنشور في سنة ١٨٢٨ ، بحقيقة التواصل بين الأدب الامريكي والأدب الاوروبي .

ومع هذا كله ، فان الموضوعية تفترض أن يقر الباحثون بخصوصية الادب الامريكي الذي تبلور في هذه الحقبة ، وبطابعه المميز . ورغم عدم وضوح جوانب التميز في الأدب الأمريكي الناشىء من حيث الشكل أو القوالب اللغوية ، فإن كثيراً من النقاد يجمعون أن بعض الكلمات التي كانت شائعة في تلك الفترة قد حملت بعض الخصائص الجديدة . فقد عكست بعض كتابات ارفينغ مثلاً احساساً خاصاً بآثار التغير السريع في البيئة والمكان على الأفراد . وعبرت روايات كوبر عن الامتداد الشاسع للطبيعة ، وقدرة الانسان الهائلة على تشويه الطبيعة وتدميرها . كما نقل ملفيل ببراعة متميزة احساساً صادقاً بعظمة الطبيعة . وأخذ ويتمان على عاتقه أن يكون شاعر الأمة الجديدة في عمله الشعري المتميز المسمى (أوراق العشب) . وحاول امرسون أن يقدم رؤية امريكية خاصة للعالم من خلال تصويره لاهمية الاستقلال الفردي في المقالات التي كتبها وأهمها (الاعتماد على الذات) التي غدت نموذجاً يحتذي به الامريكيون على مر السنوات .

ولاشك أن الطبيعة لعبت دوراً بارزاً في وجدان كتاب النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي اعمالهم أيضاً . وقد وجدت طبقة من الأدباء في تلك الحقبة ممن يصدق عليهم القول بأنهم «متصوفو الطبيعة». وأبرز هؤلاء: امرسون ، ثورو، وويتمان ، فقد أصر الكاتب ثورو في كتابه المشهور والدن أنه لا يشعر بالوحدة عندما يكون في احضان الطبيعة بالقرب من بحيرة والدن . ويضيف : «لا يسبح كوكبنا وحيداً في غياهب درب التبانة» . وقد أثرت الطبيعة تأثيراً بالغاً في نظرة هؤلاء الكتاب للعالم ، وهي نظرة تحمل قدراً من الشبه مع معطيات الحركة

الرومانسية التي كانت سائدة في نفس الوقت تقريباً في اوروبا .

ومن جهة أخرى ، فقد احس أدباء تلك المرحلة بنوع من النفور ضد الحس الديني السائد والذي كان يستمد سطوته من الايمان بالمسيحية البروتستانتية . وقد انتقد امرسون أعمدة هذا الايمان في مقالات عديدة وقال ان هذا المعتقد الديني ينظر الى الإله على أنه ميت .

ولا يمكن القفز هنا فوق الدور الذي لعبته فلسفة التسامي Transcendentalism في الادب والفكر في تلك الحقبة . وقد لعب امرسون دوراً كبيراً في بلورة هذه الفلسفة التي قد تعود جذورها الى اعمال الشاعرين الانجليزين الرومانسيين وردزورث وكوليردج الذين دعيا لايلاء الطبيعة نظرة دينية . ويبرر آخرون انها ترجع الى تأثير افلاطون الذي اعتبر العالم الحالي صورة طبق الاصل عن عالم المثل ، وهي صورة تنفي النظرة العلمية الجامدة للطبيعة . وبمعنى آخر ، فان فلسفة التسامي التي نادى بها امرسون وغيره لم تكن سوى صدى لنظرات اخرى وفلسفات مختلفة للعالم . ولكن اثر هذه النظرية لا يمكن نكرانه على الأدب في تلك المرحلة ، وخصوصاً في اعمال امرسون وثورو .

ومع اندلاع الحرب الأهلية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥)، أحسَّ عدد من الأدباء وعلى رأسهم ويتمان وملفيل ان السياسة بشكل عام هي مصدر للفساد . وكان ملفيل قد عانى من اثار العبودية على الضمير الامريكي ، واطلق صفة «الجريمة الاقذر» على معاملة العبيد . وقد زادت الحرب الاهلية من النظرة السوداوية التي صور بها الأدباء دهاليز السياسة . وقام الشاعر ويتمان بمداواة الجرحى في الحرب الاهلية، وكتب قصائد تفيض حسرة واسى ضد معاناة الناس جراء الحروب. وكنتيجة مباشرة لتبدد الحلم لدى هؤلاء الادباء والكتاب بعد الحرب الأهلية ، فقد علت نبرة بينهم لاجراء مراجعة صادقة مع النفس وللوقوف مرة أخرى لتأمل القيم واعادة النظر في توجهات الأمة ، لانقاذها من حالة الضياع والتردي .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر أيضاً ، تعرضت القارة الامريكية لتغيير جذري في نمط الحياة وحتى في القيم السائدة، فقد تضاعف عدد المهاجرين، مما ادى الى استنزاف المصادر واستهلاك الثروات الطبيعية . فقد كانت القارة قبل اندلاع الحرب الاهلية تتميز بكونها أرضاً زراعية معزولة ، وكان سكانها قرويين بسطاء ذوي قيم آخروية . ولكن بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، بدأت الجمهورية الناشئة تأخذ نمطا جديداً في الحياة . كما ان القيم السائدة نفسها خضعت لانعطافة حادة ، وأصبحت الأمة الناشئة صناعية الطابع ، مدينية المنحى ، وغدا أهل هذه البلاد الجديدة يناقشون افكار (داروين) وغيره حول النشوء والترقي ، واضحت القيم ـ بشكل عام ـ عملية ودنيوية الطابع .

ويبدو ان الحرب الأهلية التي وصلت كلفتها المادية الى ما يقرب من ثمانية بلايين دولار ، والبشرية الى ما يربو على ٦٠٠٠٠٠ قتيل قد تركت بصماتها على الحياة الروحية للامريكيين وعلى القيم الموروثة . وقد أعقب ذلك أيضاً نوع من الازدهار المادي الذي جاء على شكل طفرة شملت مختلف اوجه الحياة . وقد حدثت ثورة في مجال الاتصالات والمواصلات ، زادت من اندفاع عجلة التنمية والنهوض في كل المجالات .

وقد صاحب هذا الازدهار المادي ، ازدهار آخر في الحياة الادبية نفسها . وقد برز من الروائيين في الربع الاخير من القرن التاسع عشر كل من مارك توين ووليم دين هاولز وهنري جيمس . وكان توين اوسعهم انتشاراً من خلال اعماله المعروفة من مثل (مغامرات هكلبري فن) و (مغامرات توم سوير) . وقد نجح توين في تصوير الشخصيات بواقعية مذهلة، كما استطاع ان ينقل بامانة مذهلة طبيعة الحوار الشعبي الذي كان سائداً من خلال اللهجات المحلية لشخوص رواياته . ويطلق مؤرخو الادب على تلك المرحلة صفات الواقعية واللون المحلي والطبيعية .

ومن كتاب الجزء الأخير من القرن التاسع عشر المميزين ، نذكر الكاتب والروائي ستيفن كرين . والذي اعتقد ان البيئة تسهم في تشكيل شخصية الانسان .

وقد أولى أدباء هذه المرحلة اهتماماً خاصاً بوصف الأوضاع السياسية والاقتصادية، من خلال الاعمال النثرية غير الروائية وكثر الحديث حول حقوق المرأة ، والفساد السياسي ، واختلال ميزان العدالة الاقتصادية ، وهضم حقوق العمال. وتأتي مشكلة التفرقة العنصرية ضد السود على رأس قائمة القضايا التي شغلت بال الكتاب في تلك الحقبة .

وفي العقود الاولى من القرن العشرين ، برزت الولايات المتحدة كقوة سياسية يعتد بها في كل المجالات . وفي هذه العقود التي شهدت الانهيار الاقتصادي في سنة ١٩٢٩ ، وما أعقبه من معاناة اقتصادية وضائقة مالية ، انبرى الكتاب والادباء لتصوير هذه الأحوال الصعبة . وقد انتشر الفقر في المدن والتجمعات السكانية . وقد تأثر كتاب وشعراء تلك المرحلة بالأفكار السائدة في الفكر والفلسفة الاوروبية، كما تأثروا بالانماط التي كانت سائدة في أوروبا أيضاً . ومن أبرز الأفكار التي غيرت شكل الأدب والفكر في هذه الحقبة ، تبرز النظرية الماركسية وآراء عالم النفس المعروف فرويد . وقد أثرت الحركات الأدبية الاوروبية في الأدب الامريكي في المرحلة التي أعقبت الحرب العالمية الاولى ، ومن أبرز هذه الحركات ما يسمى بحركة تيار الوعي التي روج لها الكاتب الايرلندي جيمس جويس .

وسرعان ما اخذ تيار ما يسمى بالحداثة يضرب في أعماق التجربة الادبية في امريكا في

العقود التي تخللت الحربين الكونيتين ، وقد دعا بعض الكتاب والادباء الى مبادىء فكر الحداثة وعلى رأسهم الشاعر عزرا باوند الذي اصدر بيانات شعرية وادبية تحدد الثورة التي روج لها على القيم الادبية السائدة. وتبعه في ذلك ت. س. إليوت و إي. إي. كمنغز و وليام كارلوس وليامز. وتجسد قصيدة إليوت (الارض اليباب) الثورة التي دعا اليها الشاعر في الانماط الأدبية، كما تصور حالة الخراب الروحي التي كانت سائدة ، وحالة الانشداه الى كل ما هو مادي على حساب القيم الروحية الأصيلة .

وقد شهدت العقود الأخيرة من تاريخ الأدب الامريكي نشاطاً متميزاً وجهداً حافلاً بالعطاء ، وتميز عقد الستينات بتفجر العطاء الأدبي ، وبثورة أخرى على القيم . فقد كان هذا العقد بمثابة انعطافة حادة في النظرة الى العالم ، كما جسدها الشباب الثائرون على كل ما هو موروث . ولا يخفى ما لحرب فيتنام من أثر على قلب المفاهيم والثورة على الثوابت الدينية والسياسية والاجتماعية . وقد كان الأدب صدى اميناً لما تبلور على الساحة الاجتماعية والسياسية من احداث ومتغيرات .

وقد حرصنا في هذه الانطولوجيا ان نقدم صورة أمينة للاصوات الادبية الجديدة، كما حرصنا ان نقدم فصلاً خاصاً لأدب الاقليات. ولان هذه الانطولوجيا موجهة بالدرجة الاولى للقارىء العربي ، فقد عمدنا الى تقديم فصل خاص حول تجربة الكتاب الأمريكيين من أصل عربي لتسليط الضوء على تجربتهم ومساهمتهم في إثراء التجربة الامريكية في الأدب .

البدايات والقرن الثامن عشر

الأدب الطهراني والربوبي

بقلم : د. أحمد يعقوب المجدوبة

أ ـ الإطار الزمني :

لعل أول صعوبة تعترض سبيل مؤرخ الأدب الامريكي هي نقطة البدء . من أية سنة ، من أي عقد ، بل من أي قرن نبدأ ؟ إن قضية تحديد منشأ الأدب الأمريكي ليست قضية أدبية محضة، ذلك لأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأمور تاريخية وسياسية ووطنية وعرقية معقدة الأبعاد. بل وتعتري المؤرخ حيرة حتى على المستوى الأدبي . فهل كتاب برادفرد حول مستوطنة بلمث، والذي هو نص تاريخي بكل ما في الكلمة من معنى ، أدب أم تاريخ ؟ وهل خطبة جونثن إدوردز «آثمون في قبضة إله غاضب» ، والتي ندرّسها مثلما ندرّس كتاب برادفرد وأعمال جون ونثرب وكتن ماذر ، أدب أم دين ؟ ثم ماذا عن معظم كتابات القرن الثامن عشر ، والتي هي في جزء كبير منها (إن لم نقل في معظمها) علم سياسة واجتماع وفلسفة ؟ وإذا قررنا أن نستثني كل ماهو «غير أدبي» ، فإننا سنجد أنفسنا نطرح جانباً أعمالاً لا تعد ولا تحصى في القرنين السابع والثامن عشر ؛ بل وإننا ، وهذا ما يهمنا هنا ، سنجد أنفسنا نبدأ ، كما يبدأ العديد من مدرسي الأدب الأمريكي ، في نهاية القرن الثامن عشر . أما فيما يتعلق بالمعيار الزمني، فيختلف المؤرخون حول نقطة البدء اختلافاً كبيراً .

منهم من يرجع نشأة الأدب الى اثنين وعشرين قرناً خلت . ومبررهم في ذلك أن جذور الأدب «الأمريكي» ، وبخاصة إذا ما فهمنا كلمة أمريكي بمعناها الواسع الذي يضم كل من قطن أراضي أمريكا الشمالية قديمًا وحديثاً ، تمتد الى الشعوب الأمريكية التي عبرت القارة من آسيا

قبل ٢٢ ألف سنة ، ألا وهم الهنود الحمر الذين يعتبر أحفادهم اليوم أدباء أمريكيين بكامل معنى الكلمة . ولاشك في أن لهؤلاء حضارات وثقافات وآداب ذات أهمية كبيرة على الرغم من بدائيتها وبساطتها ، ولاشك في أن لهم تجربة إنسانية جديرة بالاهتمام . وإذا كان روجر وليمز ، وهو أحد قادة الحركة الطهرانية الذين انشقوا عن المهاجرين البيض ، قد تنبه لاهمية دراسة الثقافة الهندية التي عدّها الثقافة الأمريكية الأصل ، فلا نستغرب إذا ذكرّنا اليوم عدد من المؤرخين بأن الولادة الحقة للأدب الأمريكي هي ولادة ثقافة الشعوب الأصلية ذاتها .

ويؤمن فريق آخر من المؤرخين بأن البداية الأولى هي اكتشاف أمريكا ، فهم يصرّون على أن الحضارة بدأت في العالم الجديد عندما دخلها الإنسان الاوروبي . فمنذ اكتشاف أمريكا صدفة على يد كرستفر كلمبس ، زار القارة عدد متزايد من الرحالة الاوروبيين . ومن هنا يبدأ أدب الرحلات . ومع أن الكتّاب ينتمون الى جنسيات أوروبية ولغات مختلفة، فإن موضوعهم على الأقل واحد : العالم الجديد . وإن كان الكتّاب غير أمريكيين ، فإن الموضوع أمريكي ، بل إنه أمريكا ذاتها . كذلك فإن أدب الرحلات لعب دوراً في تسليط الأضواء على أمريكا وجلب الناس إليها. وبما أن أمريكا هي المادة وهي الإلهام ومحط الرحال ، فإن ما كتب عنها يعدّ أدباً أمريكياً. ومن هنا نجد عدداً متزايداً من كتب التاريخ الادبي الأمريكي يسهب في اقتطاف ما كتب عن العالم الجديد ، وكأنه أدب يعود للعالم الجديد . ولا نقصد هنا كتابات جون سمث في أوائل القرن السابع عشر ، بل كل ما كتب عن أمريكا الشمالية منذ أيام كلمبس .

ويَعدّ فريق آخر ، وربما يكون هذا أقوى فريق لغاية الآن ، بداية الاستيطان الإنجليزي في أمريكا الشمالية الولادة الحقيقية للأدب والثقافة الأمريكية . وقد يكون لهذا الموقف مبرراته القوية، ذلك أن اللغة والثقافة وأساليب الحياة الانجليزية هي التي كانت لها السيطرة والغلبة منذ البداية ، وبقيت مسيطرة الى حد كبير حتى عندما تدفق سيل الهجرة العارم من أقطار اوروبية مختلفة في نهاية القرن السابع عشر. هذا وما زالت اللغة الانجليزية ، بنكهتها الأمريكية ، هي اللغة السائدة في الولايات دون منازع . لقد جرت أول محاولة استيطان إنجليزية فاشلة في نورث كارولاينا عام ١٥٨٥ . بيد أن المحاولة الناجحة كانت في جيمس تاون في ولاية فيرجينيا عام ١٦٠٧ . وتتحدث كتابات جون سمث عن هذه التجربة بإسهاب . ومن هنا فإن العديد من المؤرخين يعدون ١٦٠٧ بداية التاريخ الادبي الامريكي . لكن نفراً آخر من النقاد يفضل أن يبدأ التاريخ الادبي الأمريكي عام ١٦٢٠ ، وهو تاريخ وصول أول فوج من افواج الحركة الطهرانية التي غزت العالم الجديد وأثرت في مسيرته أيما تأثير . فبينما كان مستوطنو جيمس تاون تجاراً وسفراء لبريطانيا ، كانت الحركة الطهرانية طليعة حضارة جديدة منفصلة عن الحضارة الأم ، على الرغم من ارتباطها الظاهري بها . لقد شاء الطهرانيون أن يكوّنوا مدناً

ومستعمرات تكون مثلاً يحتذى في العالم أجمع ، مدناً ومستعمرات أنقى وأطهر من كافة المدن الاوروبية مجتمعة . يضاف الى ذلك أن الطهرانيين كانوا على درجة عالية من الالتزام والتعليم ، ومن هنا فقد أثروا في المسيرة الامريكية وفي العقل والضمير الامريكيين أكثر بكثير من غيرهم من المجموعات الأخرى .

بعد هذا العرض السريع لمشكلة البداية (أو البدايات إذا أردنا الدقة في الحديث) ، نقول ، ولتسهيل المهمة على القارىء ، أننا ومع وعينا لاهمية الثقافة الامريكية الأولى ولاهمية الكتابات التي سبقت جون سمث ، سنأخذ برأي الأغلبية ونقرر أن حقبتنا تبدأ منذ أوائل القرن السابع عشر .

بيد أنه لابد من التأكيد على أننا نتعامل هنا مع حقبتين منفصلتين : الاولى ، الحقبة الطهرانية ، وتحتل القرن السابع عشر كاملاً ؛ والثانية ، الحقبة الربوبية ، وتحتل القرن الثامن عشر برمته تقريباً .

ب ـ تطورات وحقائق عامة :

١ ـ القرن السابع عشر :

كانت امريكا في ذلك الحين ، والتي لم تطلق على نفسها رسمياً اسم أمريكا بعد ، عبارة عن مستوطنات منفصلة شبه مستقلة . ومما زاد في انفصالها وشبه استقلالها ، بل وانعزالها احياناً ، عدة عوامل من أهمها : اختلاف الطابع او النزعة المسيطرة عليها (فمنها الدينية بأنواعها ، والتجارية ، والقومية) وتباعد المسافات وصعوبة الاتصال بينها . اذ لم يكن ممكناً التنقل بين الواحدة والاخرى ، في غالب الأحيان ، إلا من خلال الأنهار والخلجان . وقد تركزت معظم المدن الرئيسية فيها في المنطقة الساحلية وذلك لان سلاسل الجبال أعاقت المستوطنين ومنعتهم الى حين من التغلغل في قلب القارة والذي لم يستطيعوا الوصول اليه (أي قلب القارة) إلا عبر نهر سنت لورنس الذي كان يسيطر الفرنسيون عليه . وقد قسم المؤرخون المستوطنات الى ثلاث مجموعات . المجموعة الاولى وتضم المستوطنات الجنوبية ، التي تكونت بشكل رئيسي من فيرجينيا وكارولاينا وجورجيا . وهي زراعية بوجه عام وقد استخدمت العبيد فيما بعد ، وبخاصة عندما توسعت في زراعة التبغ والقطن. أما المجموعة الثانية فهي مستوطنات نيو انجلند والتي كانت دينية الطابع، من أهمها مستوطنة بلمث ومستوطنة خليج مستشوستس . وقد اشتغل سكانها بالزراعة وببعض الصناعات ، منها بناء السفن . وقد عُرف قاطنوها بتشددهم في أمور الدين وفي عدم تسامحهم مع الآخرين . أما المجموعة الثالثة فيطلق عليها اسم

المستوطنات الوسطى ، وقد تركزت في نيويورك وبنسلفانيا ودلاوير . وهي خليط من أجناس وقوميات مختلفة ، اهتمت بالتجارة ، وعُرفت بالتسامح الديني . وقد سيطرت على أجزاء كبيرة منها الديانة الصاحبية Quakerism (وهي طائفة مسيحية غلب عليها طابع الإخاء والمحبة والتسامح إزاء منتسبيها وإزاء غيرهم من بني البشر) . وقد كانت أمريكا في هذه الحقبة ريفية بوجه عام .

وقد كان العنصر الانجليزي اكثر العناصر عدداً في معظم عقود القرن . ففي عام ١٦٨٠ كان المستوطنون من أصل انجليزي يشكلون ٩٠٪ من السكان. وقد هاجر هؤلاء الى العالم الجديد لأسباب مختلفة ، من أهمها العامل التجاري ، والذي كان وراء إنشاء أول مستوطنة انجليزية في جيمس تاون . لقد كانت الدولة الأم، بريطانيا، بحاجة الى مواد خام ، مثل الأصواف والأخشاب وغيرها . فرأت أن تنشيء مستعمرات لها في العالم الجديد ، أسوة بغيرها من الدول الاوروبية ، لتأمين حاجاتها المختلفة . يضاف الى ذلك أن بريطانيا عانت من ظروف اقتصادية قاسية جداً في الفترة الواقعة بين ١٦٢٠ و ١٦٣٥ ، وعمَّت البطالة أرجاء البلاد . وقد أدت هذه الظروف الى نزوح العديد من السكان الى العالم الجديد طلباً للرزق . وقد توجه الى العالم الجديد نفر آخر من الناس كانوا ميسوري الحال ، طمعوا في زيادة ثرائهم . وقد هاجر آخرون بحثاً عن المغامرة وتحقيق الأحلام المختلفة ؛ كما أمّها نفر آخر بحثاً عن حياة البساطة الفردوسية . ومن أهم الأسباب العامل الديني . لقد كان الطهرانيون والذين تأثروا بحركة مارتن لوثر التصحيحية (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) وبكتابات المصلح الفرنسي جون كالفن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) يطالبون بإجراء تغييرات جوهرية في الكنيسة الانجليزية . وقد نتج عن مطالبتهم تلك اصطدامهم ليس فقط بالفئة الكاثوليكية التي أرادت أن تبقي الوضع على ما كان عليه ، بل كذلك بالسلطة الملكية في عهدي جيمس الأول وتشارلز الاول في العقود الأولى من القرن السابع عشر واللذين أرادا إخضاع الثورة الطهرانية . وقد نجم عن اضطهاد الطهرانيين وعدم نجاحهم في مساعيهم لتغيير الظروف أن قرروا الرحيل عن بريطانيا، وغادر أول فوج منهم ، وعرفوا باسم الحجاج المنشقين ، الى هولندا ومن ثم الى بلمث في العالم الجديد عام ١٦٢٠ . وقد تبعتهم مجموعة أكبر عدداً وأيسر حالاً واكثر دبلوماسية عام ١٦٣٠ بزعامة جون ونثروب. وقد عُرف العام الأخير المذكور بعام الهجرة الكبرى . وقد استقر هؤلاء في خليج مستشوستس . وتشاء الاقدار ، وخصوصاً عند تعاظم قوة الطهرانيين في بريطانيا وتوليهم فيما بعد مقاليد الحكم بعد مصرع تشارلز الأول في الاربعينات من القرن ، أن يهاجر بعض الملكيين الكاثوليك الى أمريكا ، والذين استقر أول فوج منهم في ميرلاند عام ١٦٣٣ . كما توجهت الى العالم الجديد مجموعات متزايدة من الصاحبيين . لكن بعد عام ١٦٨٠ أخذت

الصـورة تتـغير بشكل مـفـاجـىء ، اذ تدفـقت أعـداد كبيرة من المهاجـرين من بلـدان اوروبية أخـرى ، مثل المانيا وإيرلندا واسكتلندا وسـويسرا وفرنسـا هرباً من الحروب والمجاعات والفقر والاضطهاد الديني . ولقد بلغ عدد سكان المستوطنات عـام ١٦٩٠ ربع مليـون نسمـة ، تضاعف مرة كل ٢٥ سنة .

ولقـد كـانت الظـروف صـعبـة الى حـد بعيـد . فقد تفشـت الأوبئـة بين الحين والآخر ، وأودت بحـيـاة العـديد من السـكان ؛ فلقد توفي نصـف مجموعـة بلمث في السنة الأولى . وكانت الطبـيعة قاسيـة أشـد القسـوة ، وقد صرف المستوطنـون جهداً كبيراً في محاولة تكييف أنفسهم مـعـهـا من ناحية والتحكم بها من ناحية أخرى. ولقد نشبت حـروب بين بعضهم وبين الهنـود الحـمر أهمها حـربي عـام ١٦٣٥ والتي كانت امتحانـاً شـديداً وعام ١٦٧٥ والتي خلفّت دماراً كبيراً . وتعرض الطهرانيون، وهـم أهـم مجموعـة في هذه الحقبـة ، الى محن مريرة تمثلـت فـي الصراع مع فئات أخـرى حاولت بشكل غير مباشر تقويض اواصر المجتمع الطهراني ، كما تمثلت في الانشـقـاق الداخلـي عندمـا هجـرهـم بعـض الاتبـاع المخلصين مثل آن هتشنسـن وروجـر وليـمـز وعندمـا أخـذ الأولاد والأحـفـاد يتـجـهـون نحـو العالم المـادي ويتركون طريقـة الآباء والأجـداد. كما واجهوا بعض الاحتكاك المزعج أحياناً مع الدولة الأم، بريطانيا .

ولقـد أبدت مـعظم المسـتوطنـات اهتماماً ملحوظـاً بالتعليم . فقد انشئـت عـدة جامعات مرموقة في هذه الحقبة ، منها جامعتي هارفرد عام ١٦٣٦ ، وجامعة ويليم ومـاري عام ١٦٩٣ . ولقـد كـان التعليم إلزامياً في مدارس مستشوستس . ولقد اهتم الجنوب بالتعليم ، على الرغم من بعـد التجمعات السكنيـة عن بعضهـا ، مما أعـاق انتشار التعليم بالصورة المطلوبـة . أما سكان المسـتوطنـات الوسطـى ، فـقـد اهتمـوا بالمال والتجارة اكثر من اهتمامهم بالعلم ، ومن هنا لم تُنشأ أية جامعات في نيويورك إلا في القرن الثامن عشر .

٢ ـ القرن الثامن عشر :

تغير الحـال الى الأفـضـل في كـثير مـن الأمـور . فلقـد نمـت الحـيـاة الثقافيـة والتربوية والعلمـيـة والسـيـاسيـة بشكل أفضـل من ذي قبـل . ازداد عـدد الجامعـات بشكل ملحـوظ ، وانتشرت الجـرائد والمجـلات بشكل واسـع . وولدت أول جـريدة مهمـة في بوسطـن عام ١٧٠٤ ، واخـذ عـدد الجرائد في التزايد المستمـر . وقـد بلـغ عـدد المجـلات التي تصدر في اسبوع واحـد عام ١٧٦٥ (٢٦) مجلة ، ارتفـع في عام ١٧٨٩ الى ٤٠ مجلة . وقد تعاظـم اهتمام الناس بالقراءة واقتناء الكتـب ، كما أخذ عدد كبير من الناس يبني مكتبات خاصـة له . ويعد كل هذا دليلاً قوياً على توسع آفاق الفرد وعلى شعوره بأهمية المعرفة .

ولقـد فـتن العصـر بالعلـم أيما افتتـان . فبعـد أن ترك معظـم الناس الاهتمام بالدين ، انصب جـل اهتمامهـم علـى العلـم . ولقـد كان لإسحـق نيوتـن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) ولجون لوك (١٦٣٣ ـ ١٧٠٤) أكبر الأثر في عقول أبناء القرن . فتوجه عدد لا بأس به منهم الى العلم ، نذكـر في هذا المجـال بنجـمن فرانكلن ، الذي كانـت له تجـارب علمية واختراعـات على جانـب كبير من الأهمية .

ولقـد تميـز العصر بتنوع وتزاوج الثقافات والأجناس في كثير من الأحيان . فنتيجة لبروز روح التـســامح الديني والتركـيـز المتزايد على حماية حقوق الفرد واحترامها ، اخذت المستوطنات تقترب من بعـضــهـا وتفتح ابوابها وتمتزج وتختلط شيئاً فشيئاً لتكوّن ثقافة فريدة من نوعها . ولعل مـا تغنى به كـرفكور فـيـه الكثير من الصـحــة . فالحضارة الجديدة هي وليدة حضارات وثقافات مختلفة ، امتزجت واتحدت لتكون مجتمعاً يتميز في اوجه كثيرة عن غيره من المجتمعات. وفي حـالة تلك المجـمـوعـات والجـيـوب الثقافية التي حاولت المحافظة على كينونتها ، فانها كانت تبدي احتراماً لغيرها من المجموعات يوازي احترامها لنفسها .

وأهم حـدث سـيـاسي اجـتماعي في القـرن الثامن عشـر هو بالطبع الاستقـلال . وحتى نفـهـم أبعـاده لابد لنا من الرجـوع الـى الوراء بعـض الشـيء . ولعل في مـقـولـة جـون آدمـز ، الرئيس الثاني للولايات المتحدة ، التي مفادها أن استـقلال أمريكا بـدأ عام ١٦٢٠ حقيقة مهمة . فلقـد تمتـعت المستوطنات منذ البداية بشيء من الاستقـلال الـذاتي وبحكـم نفسـهـا . ويذكر لنا المؤرخـون أن المسـتـوطنين الأوائل أصـروا على الاشـتـراك في تصـريف أمـور المستوطنات مع الشـركـات البريطانيـة التي كـانـت تديـر امـورها . فلقـد نجـحـوا في إقنـاع الشـركات بقبـول ممثلين عن المسـتـوطنين في اتخـاذ القـرارات المخـتلفـة . ولقـد تركت بريطانيا الأم المستوطنـات تدير شـؤون نفـسـهـا فـي معظـم الأحيـان ، على الرغـم من وجـود بعـض التوتـر والاحتكاك السلبـي أحيانـاً . فلقد حال بُـعد المستوطنات من جهة، وانشغال ملوك بريطانيا من جهة اخرى بأمـور داخليـة وأوروبيـة دون قـيـام الدولـة الأم بحكم مـستعمـراتهـا حكمًا مباشـراً . ولقـد حاولت بريطانيا أحياناً فعل ذلك . فقد قامت ، مثلاً ، فـي عام ١٦٨٤ بإلغاء ميثاق مستشوستس وتعيين حكام للمستعمرات .

لكن التدخل الحقيقي في أمور المستعمرات بدأ بعد هزيمة فرنسا في حربها مع بريطانيـا . فـقـد أخـذت الأخيرة تقـحـم نفـسـهـا بشكل جلـي في أمـور الصـادرات والـواردات الأمريكيـة وتراقب سـفنهـا . وقد حـاولت منع أمريكا من الاستيراد إلا من اراضـي التـاج البريطانـي . ثم أخذت بعد ذلك بفرض ضرائب مختلفة على العديد من السلع المستوردة والمصنعـة . بدأ التأزم في العلاقـات يأخـذ زخمـاً عـام ١٧٦٥ ، وقـد عمَّـت الاضـرابات والاضطـرابات أجـزاء كبيـرة من

المستوطنـات . وفـي عـام ١٧٧٣ قامـت مجموعـة من المتحمسيـن في بوسطـن بإلقاء حمـولات السـفـن من مـادة الشـاي في المحـيط والتي كـانت بريطانيـا قـد فـرضـت ضريبـة عليـها كما فـرضـت على الولايات شراء هذه المادة من أسـواقـهـا هي فـقـط . أثار ذلك غضب بريطانيا التي طالبت بتسليم المتطرفين . وقد تفاقمت الأزمة ، وحدثـت أول مواجهة دموية عـام ١٧٧٦ عندمـا هاجـم البريطانيـون لكسنغـتن وكنكـورد . وفي طـريق عـودة الجـيـش البريطاني بعـد تنفـيـذ مـهـمـتـه تعـرض الى هجوم مستمر من القرى والمدن المختلفـة أدى الى إلحاق هزيمة كبرى به . واسـتـمـر الموقف في التأزم ، وازداد الامـريكيـون عناداً ، وصممـوا على نيـل الاستقـلال . وتم إعـلان الاستقـلال في الرابـع من تمـوز عـام ١٧٧٦ .

ولم يكن تسلط بريطانيـا وطغيانها هو السبب الوحيد في إعلان الاستقلال ، بل قد يكون السبب الحقيقي هو شعور الولايات بأنها ، لتميزها فـي أمور عديـدة عن الدولـة الأم ، يجب ان تكون مستقلة . ولعل الاستقلال بدأ فعلاً ، كما قال جـون آدمـز ، عام ١٦٢٠ . فالحـريـات التي كـانت تتـمتـع بها امريكا ، والنظـام الاجتماعي المختلف عن التركيبـة الاجتماعيـة الانجليزيـة ، والقـوة الاقـتصاديـة المتناميـة ، والتي رغبت المستوطنات ـ التي شعرت أن الآبـاء والأجـداد قد حـقـقوها بعد تخلصهم من شوكة بريطانيا ـ بالمحافظة عليها ، كل ذلك دفع بأمريكا للوقوف في وجه بريطانيا واعلان الاستقلال .

وقد استمرت الثورة الامريكية ست سنوات تقريباً بعد إعلان الاستقلال . ودخلت امريكا في حـروب عديدة مع بريطانيا ، انتصرت الاولـى في بعضـهـا والثانيـة في بعضـهـا الآخـر . وبعد نشـوب الحـرب ، انضمـت فرنسـا الى أمريكا ، وتمت الغلبـة للأخيـرة . وفي عـام ١٧٨٢ وقعت معاهدة سلام بين الدولتين اعترفت بعدها بريطانيا باستقـلال الولايات المتحـدة . وفي عام ١٧٨٩ تبنت أمـريكا الدسـتـور والـذي كان بمثابة الوحدة الحقيقية للولايات . وهكذا ولدت أمريكا من جديد .

جـ ـ خصائص أدب الحقبة وفكرها :

لعل أول قـضية يجب ان نركز عليها هنا فيما يتعلق بأدب القرنين السابع والثامن عشر ، والتي قـد اشرنا إليـهـا في بداية هذه المقدمة ، هي قضية «أدبية» الادب . إن معظم كتابات القرن السـابع عشر ، باسـتثناء أشعار آن برادستريت وإدورد تيلر وقلة قليلة من الشعراء، هي كتابات قـد لا تنضـوي تحت مظلة الأدب. فـهي كـتـابات تاريخية ودينية وجغرافية وسياسية؛ وينطبق الحـال ذاتـه عـلى القـرن الثـامن عشر . الانماط السـائدة في القـرن السـابع عشر تمثلت في أدب

الرحلات الدعائي الترويجي بأبعاده الاقتصادية والسياسية ، والخطبة الدينية ، والمفكرة ، والسيرة الروحية ، والنصوص التاريخية ، الخ . أما الانماط التي هيمنت على القرن الثامن عشر، فنذكر منها الخطاب السياسي ، والمقالات ، والرسائل الشخصية ، وسير الحياة الذاتية ، والأطروحات السياسية ، وما الى ذلك . لماذا يُقتطف من هذه النصوص بسخاء في الانثولوجيات الادبية المختلفة ، ولماذا تُقرأ وتُدرّس وتحُلّل على أنها أدب ؟ ودون الدخول في إشكالية ماهو أدب وماهو غير أدب (وهي اشكالية لم يسعفنا النقد في إيجاد جواب حاسم إزاءها ، وربما لن يسعف) ، نقول أن هذه النصوص إضافة الى الاسلوب الفني الأدبي الرفيع الذي كتبت به ، تشكل الأرضية الفكرية التي ينطلق منها الأدب الأمريكي . وبوجه عام ، نستطيع القول أن الادب هو تعبير وتصوير وهندسة بنية ، لكنه ايضاً مشاعر وعواطف ومواقف وأفكار . هو مشاعر وعواطف وأفكار تشربها الأبناء وأبناء الأبناء ، وأبناؤهم وأبناء أبنائهم ، الى يومنا هذا ، من كتّاب قصة قصيرة ورواية وشعر ومسرح . ولا نغالي إذا قلنا أننا لن نستطيع فهم العديد من روائع الأدب الامريكي ، قديمه وحديثه ، دون الرجوع الى كتابات الأجداد والآباء . كيف نفهم رائعة الروائي الامريكي هوثورن ، الشارة القرمزية ، مثلاً ، فهمًا واعياً عميقاً إذا لم نفهم مفهوم الاثم والخطيئة والزواج والقانون والعُرف في الفكر الطهراني ؟ كيف نقرأ الروايات العديدة التي تعالج موضوع «الحلم الامريكي» اذا لم نتمعن في كتابات بنجمن فرانكلن ؟

أما السمة الثانية لأدب القرنين المذكورين فهي أنهما متباينان متعاكسان في العديد من توجهاتهما . بل ويمكننا النظر الى أدب القرن الثامن عشر على أنه نسف لمبادىء القرن السابع عشر برمتها . ففي الوقت الذي يركز فيه الطهرانيون على أهمية الدين ، والعالم الآخر ، والحياة الروحية ، وإثم الطبيعة البشرية ، ورفض المادة والترف ، يركز الربوبيون على ثانوية الدين والعالم الآخر والحياة الروحية ، وعلى سلامة الطبيعة البشرية ومركزية المادة .

إضافة الى هاتين السمتين المشتركتين ، نذكر بعض الخصائص المنفردة لكل عصر ، وبخاصة فيما يتعلق بالموضوعات التي طرقت في النصوص المختلفة .

من أهم موضوعات القرن السابع عشر :

١ ـ الدعاية والترويج للعالم الجديد ووصف محاسنه ، لحث الإنسان الاوروبي على الهجرة اليه واستغلال ثرواته وإعماره ؛ وهذا الموضوع واضح كل الوضوح في كتابات سمث ، كما ذكرنا .

٢ ـ تبرير الهجرة الطهرانية الى العالم الجديد ، وتفصيل أسبابها بهدف توضيح الأمر للإنسان

الاوروبي الذي ربما لام الطهرانيين على قرارهم وتوضيحه للأبناء من أجل إبقاء ذكرى الهجرة وأسباب الرحيل حية في وجدانهم . وهذا واضح في كتابات برادفورد حول تاريخ بلمث .

٣ ـ تبرير الاعمال والافعال التي قام بها الطهرانيون ضد غيرهم من أبناء جلدتهم الذين يدينون بغير الطهرانية مثل تُمس مورتن وأتباع الحركة الصاحبية والسحرة، وضد من هم من غير أبناء جلدتهم . ونسوق أعمال برادفورد وكتن ماذر كمثالين حيين على ذلك .

٤ ـ شرح وتحليل أسس العقيدة الطهرانية لمساعدة اتباع العقيدة على التوبة وعلى فهم أمور الدين . والاعمال هنا لا تعد ولا تحصى .

٥ ـ وصف الظروف القاسية التي عاشها المهاجرون في كفاحهم ضد الطبيعة وضد الاعداء المحيطين ، وخصوصاً الهنود . وقد اشتهرت في هذا العصر سير الأسر على أيدي الهنود .

أما موضوعات القرن الثامن عشر فمن اهمها :

١ ـ تبرير الانسلاخ عن الآباء والاجداد الطهرانيين من ناحية والانفصال عن اوروبا والاستقلال من ناحية ثانية . لقد وجد انسان القرن الثامن عشر نفسه رافضاً لجميع انواع الهيمنة والتسلط ، وخصوصاً طريقة الآباء الطهرانيين في معاملة الفرد وكأنه عبد لمعتقده والطريقة الفوقية التي تعامله بها بريطانيا . واهم المؤلفين الذين يتناولون مثل هذه القضايا بنجمن فرانكلن وتمس بين وتمس جفرسن .

٢ ـ شرح معتقدات العصر الجديد والتي تقوم على تمجيد الفرد والرفع من شأنه ، والاهتمام بالمجتمع ورفعته وازدهاره ، واعتماد المنهج العلمي العقلاني في النظرة للأمور ، وتبني العلم بدلاً من الدين ، ورفض المؤسسات الدينية بكافة أنواعها . ومن هنا سمي هذا العصر بعصر التنوير Enlightenment . ولعل اهم نص يدلل على معظم هذه المعاني كتاب بين «عصر العقل» .

٣ ـ (وهذا موضوع يرتبط بالموضوع السابق ، لكن نفرد له لاهميته بنداً خاصاً) . نادى كتاب العصر ومفكروه بالاهتمام بحقوق الانسان وبحرياته . والحقوق عديدة من اهمها ، كما نص اعلان الاستقلال ، الحياة والحرية ونشدان السعادة . وتندرج تحت هذه الحقوق العامة حقوق خاصة تتمثل في الحرية في اختيار الدين او المعتقد الملائم وممارسته دون مضايقة، وحق التمتع في الملكية الخاصة، الخ . وكتابات جفرسن تتحدث عن هذا الموضوع بإسهاب .

٤ ـ كان هنالك توجه ، او بداية توجه ، نحو الطبيعة . فقد نظر العديد من الكتاب الى الكون على

انه تجسـيـد لعظمة الخالق . وقد كانت هنالك مسحة رومانسية تجلت بوضوح في اشعار فيليب فرنو .

د ـ الحركات الدينية والفلسفية التي اثرت على فكر العصرين :

١ ـ الطهرانية Puritanism :

تمتد جـذور هذه الحـركة الدينية الانجليزية المنشأ الى المصلحين الدينيين مارتن لوثر في المانيـا وجـون كـالفن في فـرنسا . وهـي فرع من فروع الطائفة البروتستنتية . فمثلما وجد لوثر وكـالفن الكنيـسـة بحـاجـة الى اصـلاحات جذرية ، اصر الطهرانيون على ان الكنيسة الانجليزية (الكاثوليكية) Anglican Church بحاجـة الى تطهيـر شـامل من ممارسـات وطقوس عفى عليها الزمن ومن افـعـال وشـخـوص أناس نصـبـوا أنفسهم زوراً وبهتانـاً قائمين عليها . وقد نادت الطهـرانيـة بتبسيط الطقوس ما أمكن والغاء سلطة البابوات والكهنة والقساوسة المتسلطين الذين جـعلوا انفسهم وسطاء بين العبد والخالق . رفض الطهرانيون ذلك بشدة وركزوا على ان الكنيسة مكان للعـبـادة اولاً وعـامل مـسـاعد بسيط في شرح امور الدين ثانياً ؛ الاصل ان تكون العلاقة مـبـاشرة بين الانسـان والإله . وقـد اصطدموا مع سلطة الكنيسة الانجليزية القوية ومع السلطة الملكيـة التي كانت تعد نفسها قـيّـمة على أمور الكنيسة . وبسبب الاصطدام اضطهد الطهرانيون ايما اضطهـاد وخـصـوصـاً في أواخر القرن السادس عشر واوائل السابع عشر . فقد زج البعض منهم في السـجـون وفـرضـت رقـابة صـارمـة على البعض الآخر ، وشرد آخرون خارج البلاد . ونتـيـجة لكل ذلك رأت مجموعات منهم في الرحيل الى العالم الجديد سبيلاً للخلاص من ناحية ، وفـرصـة لاقـامة كنائس طاهرة نقية من ناحية اخرى . وقد منّوا أنفسهم ان يكونوا قدوة لبقية العـالم المسـيحي ؛ ومن هنا ركزوا على أن تكون كنائسهم وان تكون مدنهم امثلة تحتذى . ومن هنا قـال جـون ونثـرب (وهو أحـد أهم زعمائهم) عبارته المشهورة ، والتي تفيد أنهم ارادوا بناء «مـدينة فـوق تلة» حـتى يتسنى للجميع رؤيتها . ويؤمن الطهرانيون بأن الانسان آثم، وان هذا الاثم مـوروث لا مكتـسب . فعندما خلق الله الفردوس، اجاز لآدم وحواء ان يتمتعا بكل شيء عدا الشـجرة الممنوعة . لكن الشيطان تسلل الى الفردوس على شكل افعى واغوى حواء التي أكلت من الشـجـرة والتي قـامت بدورها بإغـواء آدم بفعل الشيء نفسه . وهكذا اقترف آدم وحواء أول اثم كـبير ، وهو عـصيان الخالق. غضب الإله غضباً شديداً وكاد يفتك بهما؛ بيد أنه إله رحيم. لذلك منحـهم فـرصة اخرى للتوبة وعاقبهم بأن هبطوا الى الحياة الدنيا ، والتي هي حياة ندم وعذاب وعـبـادة . يركـز الطهـرانيـون على مـسـألتي العصيان والهبوط ، ويرونهما دليلاً على عدل الإله

ورحمته من ناحية وعلى هبوط طبيعة الانسان البشري من ناحية ثانية . الانسان ، كل إنسان ، آثم ليس لعمل يقترفه ، بل لهذا الفعل العصياني الاول الذي اقترفه آدم وحواء . ويجب ان نؤكد هنا أن الاثم موروث ومتوارث . هذا اولاً . أما ثانياً ، فإن آدم وحواء نمط ونموذج للطبيعة البشرية ، فمع ان الفرد لم يفعل ما فعلا في الفردوس فانه سيفعل الشيء ذاته لو انه كان في مكانهما . ومن هنا فإن الطهرانيين يشعرون بامتنان شديد لرحمة ورأفة الإله بهم وعدم الفتك بآدم وحواء عند اقترافهما فعلتهما النكراء . ولذلك فهم يرون في الحياة الدنيا فرصة للتكفير عن خطاياهم ، وعلى الانسان ان يمضي حياته كلها في التوبة حتى تكون له فرصة في النجاة وفي دخول الجنة . بالطبع من لا يتوب يذهب للجحيم مباشرة ؛ أما من يتوب فأمامه فرصة ، فقد يكون من بين من يختار الإله لحياة النعيم . لكن الصعوبة في الامر تكمن في إن الإله يختار نخبة من التائبين ، وليس كلهم ، لدخول الجنة . ولا يمكن للانسان ان يعرف اذا كان من النخبة أم لا (وهذا يزيد في صعوبة الأمر) إلا بعد البعث ؛ ولكن يمكنه من خلال امتحان يجريه شيوخ الكنيسة ان يأخذ فكرة عن وضعه . وعليه أن يَخْبَر تحولاً نفسياً / روحياً يشبه الولادة الجديدة Conversion Experience . لكن هذا التحول وهذه الولادة لا يكفيان ، فعليه ان يعيش حياته كلها في قلق وارق وندم . وعليه ان يمضي سني حياته في تطهير نفس لا يمكن تطهيرها . وفي نهاية المطاف ، وبعد كل هذا القلق والارق والندم، لا يفوز الا من تقع عليهم رحمة المولى، وهم قلة قليلة. ولشدة ايمانهم بعقيدتهم ارتكب الطهرانيون ، لاسباب قد تبرر او لا تبرر ، اعمال عنف ضد غيرهم من المستوطنين من امثال الصاحبيين وضد أناس اتهموهم بأنهم سحرة وضد الهنود الحمر .

٢ ـ الربوبية Deism :

هي دين علماني ، ان جاز لنا التعبير . فالربوبيون يؤمنون بوجود إله يسيِّر الكون وينظم أموره . لكنه إله يختلف مفهومه عن مفهوم الإله عند الطهرانيين . فإله الطهرانيين ، مثله مثل الإله عند العديد من الطوائف المسيحية ، ثالوث يتكون من الآب والإبن والروح القدس . أما الإله عند الربوبيين فهو كيان واحد أحد . وهو إله محب متسامح لا يتدخل كثيراً في حياة الأفراد، والذين هم أيضاً طيبون ، إلا بصورة ايجابية ، بل يكاد يكون غائباً ـ يذكره الكتّاب عندما يودون شكره ، بعكس الإله عند الطهرانيين الذي هو حاضر في الاذهان والقلوب طيلة الوقت والذي يعاقب ويزمجر ويدمر حتى في الحياة الدنيا . ولا توجد في هذا الدين العلماني اية مؤسسة دينية ، ذلك لأن الدين الجديد هذا يخلو من اية شعائر . فهو دين على مستوى القلب والعقل . ومن هنا قال تُمس بين (وهو أحد مفكريهم) : «ان عقلي هو كنيستي» . والربوبيون ينكرون الوحي والكتب المقدسة ، ويؤكدون على قدرة كل انسان على التحدث مع الإله . وهم

اناس عـقـلانيـون ؛ ومن هنا تجدهم يرفضون المعجزات الدينية ويكادوا يهملون الغيبيات كلها . ويؤمن الربوبيـون بالعلم أشـد الايمان ، ويعظمـون قيمتـه ويمجـدون أهميته . الإله في نظرهم مـثل صـانع الساعة ؛ والعالم كالساعة يسير حسب قواعد وقوانين متناهية في الدقة . النظام هو أسـاس الخلق . ومن هنا فإن أفـضل «عـبـادة» يمكن ان يقـدمها الانسان هي اكتشاف وتفسير وفـهم نظم الكون وسننه وقـوانينه من ناحـيـة ، واستخدام هذه الاكتشافات في خدمة البشرية ، والتي خلق الله الكون من أجلهـا ، من ناحـيـة أخـرى . الطريق الى الإله ليـست من خلال الكتب المقـدسـة، بل من خـلال الكون ذاته . وخدمة المجتمع وعمل الخير هما اهم اسهام يقدمه الفرد . ومن هنا نجـدهم يركـزون على مـسـاهمات تهم حـيـاة الناس وعلى حقوق الانسان ورفاهيته . والربوبيـة تركز على أهمية المادة والتجارة والصناعة .

جون سمث
(١٥٨٠ ـ ١٦٣١)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

هو أول مؤلف يأتي عليه قارىء الأدب الأمريكي ، وذلك لأنه أول كاتب إنجليزي مهم يكتب حول أمريكا الشمالية من داخل أمريكا ، في أثناء إقامته في المستعمرة الانجليزية الأولى في وسط شمال شرق العالم الجديد ، ومن خارجها بعد تركه إياها عائداً إلى وطنه الأم . ومع العلم بأنه لا يعد أديباً أمريكياً بكل ما في الكلمة من معنى ، فإن تاريخ الأدب الأمريكي يبدأ به في العادة . يضاف إلى ذلك أن فكره يعد جزءاً رئيساً من التجربة الأمريكية، وبالذات ذلك الجانب من التجربة الذي يتمحور حول قضايا الرحلات والاكتشاف والإعمار والاستعمار والمعتقدات المادية الرأسمالية التي أثرت كثيراً في سير ركب الحضارة في العالم الجديد. كل ذلك يجعله يتبوأ مكانة خاصة عند مؤرخي الأدب الأمريكي ودارسيه .

حياته :

إنجليزي المولد والنشأة. ولد في لنكنشير عام ١٥٨٠ لعائلة متواضعة الغنى اشتغلت بالزراعة. تلقى تعليمه الأساسي في مدرسة صارمة كانت تعرف آنئذ بمدرسة النحو الإنجليزي. تتلمذ لفترة قصيرة على يدي أحد التجار المرموقين، وفي نيته أن يصير تاجراً . بيد أن خطته تلك تغيرت كلياً عندما التحق بالسلك العسكري في سن الخامسة عشرة للمحاربة في هولندا. دامت مهنته كجندي مقاتل عشر سنوات، حقق خلالها نجاحات عديدة، واكتسب خبرة وضراوة وصلابة جأش. كما تنقل في العديد من البلدان الأوروبية والشرق أوسطية خلال الحروب المختلفة التي خاضها كجندي مرتزق. جُرح خلال معركة للقوات النمساوية مع تركيا، ووقع في الأسر .

بيع بعـدها كـعـبـد في الشرق الأدنى؛ إلا أنه قام (كما أخبرنا) بقتل سيده، وهرب إلى روسيا وشرق أوروبا، ثم إلى بريطانيا.

صـادق المـلـك جيـمـس الأول عـلى ميـثـاقين يمنحـان شركـتين إنجليـزيتين حـق إنشـاء المسـتـوطنـات في أراضي أمـريكا الشمالية . كان ذلك في عام ١٦٠٦ . اغتنـم سمث تلك الفرصة والتـحق بمجموعة كانت تزمع إنشاء مستوطنة في منطقة فرجينيا. وبالفعل تم في عام ١٦٠٧ إنشاء مـستعمرة جيمس تاون. ولقد عانت تلك المستعمرة من مصاعب جمة. فقد كانت الظروف المناخية والمعيـشـية قاسية جداً. كما اتسم الكثير من المستوطنين بالأنانية والكسل، وطغت حمى البحث عن الذهب على عـقـولهم بحيث لم يفكروا إلا فيه. كما تعرضوا لعدة هجمات من جانب الهنود الحمر. ويحدثنا الرواة أن أكـثـر من نصف سكان المسـتـوطنة لاقوا حتفهم في أول شتاء بسبب البرد القارس وبسبب هجمات الهنود.

لعب سـمث دوراً مـهماً في تنظيم أمـور المستوطنة، وفي رفع الروح المعنوية فيها، وفي توجيه أنظار المسـتـعـمـرين إلى الزراعـة وإلى بناء التحصينات ضد الأعداء المحيطين. وقد حقق نجاحاً لا بأس به، وأصـبح رئيساً للمستعمرة عام ١٦٠٨ .

قـام سـمث في تلك الأثناء بعـدة جولات استطلاعية داخل القارة. ولقد تم أسره على أيدي الهنود في إحـدى تلك الرحـلات. وقـد حكم عليه بالموت. بيد أن ابنة الزعيم تدخلت وطلبت من أبيـهـا أن يخلي سـبيله، فـفعل. هذا وقد شكك بعض المؤرخين بهذه الرواية، كما شككوا بحكاياته في الحروب التي خاضها في أوروبا. أما سـمث فيصـرّ على أنها حدثت حقاً.

عـاد إلى بريطانيـا مـرة أخـرى عـام ١٦٠٩ . ولكنه مـا لبث أن أبحـر صـوب أمريكا عام ١٦١٤ ، بحثـاً عن الذهب والفـراء . وقـد رسم في تلك الأثناء خرائط مهمة لساحل نيوإنجلند، والتي أطلق هو عليـهـا هذا الاسم. فـشلت مهمته فرجع إلى بريطانيا، وأخذ يحاول تنظيم رحلات استطلاعية إلى العالم الجديد. غير أنه لم يفلح. فكرس معظم وقته للكتابة .

كتاباته وأفكاره ومساهمته :

كـان أول عـمل جـدير بالاهتمام كـتـبـه سـمث هو رسالة بعثها عام ١٦٠٨ إلى صديق في إنجلترا يصف فـيـهـا أحـوال العـالم الجـديد. وتعد هذه الرسالة أول عمل يكتب في العالم الجديد. وقـام في عـام ١٦١٦ بنشر كتابه الشهير: **وصف نيوإنجلند**. أمـا في عام ١٦٢٤ فقد نشر **تاريخ فرجينيا العام** ، وهو أضـخم كـتـاباته وأغناها تجـربة . كما كتب تاريخ رحلاته ومغامراته وأفكاره عام ١٦٣٠ .

هذا وتنبع أهمية سمث من كونه من أول من روّج وحث على إعمار العالم الجديد. وتنتمي معظم مؤلفاته إلى ما يعرف بالأدب الترويجي والدعائي . كما يوجد لنصوصه بعدٌ تاريخي وفكري وأدبي لا يمكن نكرانه . وهو من السباقين إلى كتابة سير الأسر على أيدي الهنود، ذلك الجنس من الكتابة الذي أصبح نمطاً أمريكياً مهماً فيما بعد. ومن هنا نقول أن كتابات سمث هي من الوثائق التي لا بد لكل من أراد أن يفهم البعد النفسي والاقتصادي والسياسي والحضاري للتجربة الأمريكية الأولى من الاطلاع عليها.

مــن

وصــف نـيـو إنـجـلـنـد

تـرجمــة : محفــوظ خلف الجبوري

تنقيح وتحرير : د. أحمد يعقوب المجدوبة

[يمثل هذا النص الأدب الترويجي الدعائي خير تمثيل . فتجد الكاتب يستخدم العديد من الحـجج، والتي يستند فيـهـا على الترغـيب تارة وعلى الترهيب تارة أخرى ، من أجل اقناع سكان العـالم القـديم إمـا بالسـفـر إلى العـالم الجـديد وإما باستثمار أموالهم في سبيل إعماره . من هنا نجد الكاتب يغـدق في وصف خيرات العـالم الجـديد ومفاتنه ومحاسنه ، إلى درجة الغلو . ويفيد النص، إضـافـة إلى قـيـمته الأدبية والفكرية ، في فهم النفسية الأوروبية والعقلية التي كانت سائدة آنئذ ، إضـافـة إلى تصـوير الوضع الاجتماعي والاقـتـصـادي الذي كان قائماً في أوروبا ، والذي أدى إلى التوجه نحو استعمار وإعمار أمريكا] .

المحرر

لا زالـت كل هذه الأشـيـاء وأصناف أخـرى من الأشـيـاء الحـسنة، ولغـيـاب الاسـتـخـدام، في تزايد مستمر، وإن تناقصت فبشكل بسيط؛ وقد تصبح من الغزارة بمكان يصـعب مـعـه وجـود أي خليجٍ أو شـاطـىء ضحل أو ساحل رملي إلا وامتلأ بالبطلينوس والروبيـان أو بكليـهما لِـحَدٍّ يمكنك أن تملأ زورقاً منها وفي أماكن كثيره. كما أنك لن تجـد جـزيرة تخلو من الفـواكه والطيور والتفاح البـرّي وسمك المسكي أو كلهـا مـعـاً. ففي المياه الضحلة والتي هي ملك لك، وفي كافة المرافيء التي زرنا فإن صـبّيـاً يمكنه أن يلتـقط من سـمك الكنرز والبنكاس وما شابه من لذيذ السمك عند حـافـة مؤخرة السفينة بما يتجاوز ما يكفي لستة عشر فرداً في اليوم. أما إذا ما رميت بشـبكة صـيد فقد يصل العدد إلى آلاف من الأسماك . وفي مقاطعة مثل كود وكاسك

وهوليبون وماكيريل وسكيت فإنه بالإمكان اصطياد ما ترغب به من السمك بالحربة أو الصنارة. أمـا في الخلجان الرملية المختلفة فإن بإمكان الصياد التقاط كميات هائلة من سـمك الموليت والبـاس وأنواع أخـرى ممتازة من السمك قدر ما تتحمله الشباك. ولـيس هناك نهر إلا وامـتـلأ بسـمك السترجيـون والسلمـون أو كليـهما وفي المواسم الخـاصـة بها. أما إذا ذهب أحد ما في عيد الميلاد لجمع الفراولة في منطقة كينت فقد يصـاب بخيـبـة أمل كـونها لا تنمو بوفرة إلا في الصيف حيث إن مثل هذه الثمار لها مواسمها هنا كما أسلفت.

لم نكن نملك في مـعظم الوقت غير الخـبـز والخل: ورغم شح السمك في تموز والعـمل على امـتـداد النهار والاستلقاء في الجزر طوال الليل وأكل القليل مما يتيسر إلا أن أحـداً لم يصب بسوء. لكنني آمل ألا يعرض البعض نفسه لكل هذه الأخطار إلا مـا تحـتـمـه الضرورة. إن من لا يحـتمل العـيش هنا وبخـاصة من يكون مدبراً قوياً صـحـيح الجـسم فإنه يسـتـحق أن يتـضـور جوعاً. ينفرد هذا المكان بهذه الخيرات، حـيث أن مـائة رجل وفي زمن لا يتـجـاوز ساعة أو ساعتين يمكنهم أن يجمعوا قوت يوم؛ أمـا من كـانت له تجـربة في انجاز مثل هذه الأمور فقد يتمكن برفقة أربعين أو حـتى ثلاثين رجـلاً مجداً، وباسـتـخدام الشعوب المتوحشة إن وجدوا، أن يوفر الطعام لمـائتـين أو ثـلاثمائة رجـل من الذرة والسـمك واللحـوم مما تحـويه هذه الأرض. وقـد يمكنهم أن يعـتبروا هذا العالم متعة ، على افتراض أنهم يمتلكون معدات ملائمة لمثل هذه الأهداف.

من ذا يطمح بالمزيد من كـانت تعـوزه الوسـيلة: أو ربما كـان لا يملك سـوى الحق في تطوير ثروته ومن ثم ليـدخل ويزرع الأرض التي اشتراها بالمجـازفـة بحـياته؟ وإذا كـان يتـصف بالفضيلة والاستعداد للعطاء فأي متعة ستكون بالنسبة له أكثر من مـتـعـة زراعـة وإعمار الأرض للأجـيال القادمة، واستصلاحه الأرض الخام بعون الله وجـهـده الخـاص دون ازعـاج أحد؟ وإذا كان مؤمناً ومتحمساً للدين فما العمل الذي يـمـكنه أن يؤديه ويكون أقل ضـرراً للناس وأكـثـر ارضـاءً لله من أن يحاول أن يهدي هذه الأقـوام البـدائيـة الكئيبـة إلى طريق المسـيح والانسـانيـة والذي يعادل ما قدموه أضـعـاف الجـهـد والألم الذي نقـدمـه؟ ما الذي يساوي شرف اكتشاف أشياء مجهولة

وإنشاء المدن وتأهيل البلدان وتعليم الجهلة واستصلاح المهمل وتعليم الفضيلة وإنشاء مملكة لتدعيم المملكة الأم وإيجاد العمل للعاطلين: وليس هناك أجمل من أن تجعل الأجيال تذكرك بالخير والفخر والمديح دوماً. تذكر: ماذا يستشف من البداية والنهاية لممالك الكلدان والأشوريين والإغريق والرومان إلا هذه القاعدة البسيطة: ماذا كان سيحدث لو أنهم لم يعملوا من أجل خير بلدانهم ودولهم الأم ؟ فكيف أصبحت روما مملكة ؟ أليست هي مغامرات شبابها ، ليس باشاعة الفوضى في الداخل ، بل بالمخاطر خارج بلدانهم ؟ وبالحكمة والعدل الناجمين عن التجربة والسن . ثم ما الذي أدى بها إلى الانهيار والسقوط غير الخمول المفرط والتشبث بالوالدين وقلة التجربة لدى الحكام وحبهم للشرف الزائف وازدرائهم للجدارة أو حنقهم الجائر وزيف سياساتهم وفضيلتهم الزائفة وأعمالهم الفاسقة الخفية؟ وبالنتيجة فقدانهم في أيام ما بناه الأجداد عبر السنين. فقد أصبح أولئك بمعاناتهم وفضائلهم سادة للعالم بينما صار هؤلاء بترفهم وعارهم عبيداً لعبيدهم؛ هذا هو الفرق بين استخدام السلاح في ساحة المعركة ونحته على النصب الحجرية، وبين العصر الذهبي والعصر الرصاصي ، والرفاه والتعاسة ، والعدل والفساد ، والجوهر والشكل ، والأقوال والأفعال ، والتجربة والخيال ، وصنع الامبراطوريات وهدمها ، وثمار الفضيلة ونتائج الرذيلة. ثم من ذا يفكر أن يحيا عاطلاً في بلده يأكل ويشرب وينام ثم يموت ، وبينما هو يستهلك بلا معنى ، يزداد أصحابه غنى . وبينما هو يزداد تعاسة يحافظ الآخرون على الفضيلة أو كونه قد انحدر عن أصل نبيل تراه يسحق نفسه تحت وطأة الفقر وهو يتفاخر بأصله. أو من يستهلك عمره وروحه وقلبه، من باب شجاعة زائفة بفعل أشياء حقيرة كالخداع والمقامرة والاحتيال. أو بنقل أخبار الأخرين أو التحايل هنا وهناك من أجل وجبة غداء أو عَشاء، وخداع الأصحاب بوعود كاذبة والاقتراض ممن لا ينوي ايفاءهم ، أو مخالفة القوانين وتحميل البلد فوق طاقته والإساءة لنفسه والعيش في يأس (وتحميل الأخ والقريب أعباء طائلة) ثم يذهب إلى حد تمنيّ الموت لأبويه كي يستحوذ على إرثهم، على الرغم من كون العالم مليء بالأمجاد والمكافآت التي ينالها من يستحقها فعلاً.

يؤسفني أن أقول ذلك، أو ربما يسيء البعض فهم غايتي، لكنني أتمنى الخير

للجميع ولا أتمنى الشر لأحد. إلا أن الأغنياء غالباً ما يصابون بالخرف لشدة اعتزازهم بالثروة وكأنهم وأموالهم محصّنون من أي خطر.

أي جحيم هذا الذي يجعل مالهم سبباً لتعاستهم وخراباً لبلدهم خاصة إذا ما كان البلد بحاجة إليهم؟ بِكَسبهم من الأمير وشعبه وحتى من أكثر الناس أهمية وكأنهم في حصن منيع عن أي خطر.

ألا يذكرنا إنهيار القسطنطينية بأسوارها الحصينة وما كان لها من أموال وترف وهي تنهار على يد الأتراك (والذين كانوا قلة قليلة آنئذ) بنتائج الأنانية؟ ففي زمن كان فيه الامبراطور منشغلاً بجمع الثروة له ولاتباعه المسرفين حتى أصابه الافلاس مما حدى بالمواطنين الى التخلي عنه وقد أفنى ثروته على جنوده الذين ما عادوا يقتنعون بالقليل حتى باتت مدنهم فريسة للأتراك وإن ما لم يوفروه من المال للمحافظة على أولئك الذين جازفوا للدفاع عنهم لم يخدم غير الأعداء ليذيقوهم وأصدقاءهم وبلدانهم أشد العذاب حتى يومنا هذا. فليكن هذا النموذج درساً للأغنياء (الذين يجب أن يعرفوا أن العالم مليء بالقراصنة الذين يمكن أن يسلبوهم أموالهم) كي لا يبخلوا بالقليل لمساعدة المحتاجين والذين هم مستعدون للدفاع عنهم قبل فوات الأوان. لقد كان حال الامبراطورية أسوأ من ذلك. فإن مجرد أنانية البعض كان حافزاً للأخرين للتحرك ممن هم لا يمارسون أي عمل غير التأمل. لقد تحولت حكمتهم العظيمة إلى حقد عظيم حتى وصلوا إلى حد تحطيم أنفسهم بالأنانية وحب النفس : فليكن ذلك حافزاً لك على توفير العمل لمن لا يحتاج تعليمهم ومعنوياتهم وحكمتهم إلا لمالكم : فليس الهدف من ذلك منع الأخطار فحسب بل من أجل المزيد من الخير.

أما أنتم أيها الأباء من المولعين والأنانيين التعساء والجاهلين عمداً والمهملين حدّ ترككم أبناءكم في لهو عاطل حتى يصبحوا سادة عليكم ، ثم ينقلبوا إلى أشرار يتمنون لو تفارقوا الحياة . إنكم تتمنون لهم أن ينجوا من المقصلة : ورغم كونهم ينفقون مائة أو مائتين أو ثلاثمائة باوند في السنة إلا إنكم تبخلون عليهم نصف هذا المبلغ لتكون لهم ثروتهم والتي ستزداد مع الزمن حتى تصبح أكبر

من ثروتكم : أما إذا أخبركم مَلاك أن هناك أماكن مجهولة قد تتحمل مثل هذه الثروة فانكم لن تصدقوه كما لم يُصَدَّق كولمبس عندما أخبر الناس عن أمريكا .
هناك الكثير من الأراضي المجهولة في أماكن كأفريقيا وآسيا والقارة المجهولة حيث تتوفر فرص للرجال بما يتناسب ومؤهلاتهم بدلاً من أن يستجدوا العون من أُمرائهم.

١٦١٦

وليم برادفرد
(١٥٩٠ ـ ١٦٥٧)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

من أبرز قادة الحركة الطهرانية وأهمهم. أثّر في معاصريه والأجيال التي تلت أيّما تأثير. ويعود ذلك فيما يعود من أسباب لتولّيه منصب حاكم المستوطنة الدينية الأولى في أمريكا (مستوطنة بلمث) لمدة طويلة ولكتابه الذي روى من خلاله تاريخها مُفصَّلاً بأسلوب غاية في الذكاء والحنكة ظروف نشأتها وتطورها وأسباب انهيارها. هو رجل سياسة ودين وفكر وعمل في آن واحد، وهو نموذج تجدر دراسته لفهم الشخصية الطهرانية، وبخاصة شخصية مؤسسي الدولة الأُوَل .

حياته :

ولد في آوسترفيلد في يوركشير بانجلترا. وقد عملت عائلته في مجال الزراعة. توفي والده وهو طفل ، بعد أن ترك له ثروة لا بأس بها . تزوجت والدته بعد وفاة أبيه، فقام بتربيته أعمامه وأجداده الذين علّموه فنون الزراعة وتربية الماشية. كان ينوي أن يصبح مزارعاً مثله مثل أفراد عائلته . لكنه عندما بلغ الثانية عشرة من عمره أخذ يدرس الكتاب المقدس بحماس شديد؛ وقد تغير تاريخ حياته كله عندما أخذ يستمع لخطب بعض رجال الدين الذين عارضوا الكنيسة الانجليزية . انضم بعدها، رغم أنف ذويه ، إلى جماعة بروستر التي آمنت أن لا أمل من الكنيسة الإنجليزية، وأن السبيل الوحيد أمام المؤمن الحق هو الانسلاخ والانفصال عنها. وقد كلّفهم موقفهم هذا ثمناً باهظاً، ذلك أن كل من ينشق عن الكنيسة الإنجليزية يعد خارقاً للقانون وخائناً للوطن والأمة.

اضطر برادفرد أن يغادر انجلترا إلى هولندا مع جماعته هرباً من طائلة القانون وطمعاً في الحرية الدينية التي كانت تتمتع بها هولندا ورغبة في مساندة أبناء طائفته الروحية. كان ذلك في عام ١٦٠٨ . عمل برادفرد في مجال النسيج كي يكسب رزقه، وأكبّ على دراسة اللغات (ومنها الهولندية والفرنسية واللاتينية والإغريقية) وعلى دراسة اللاهوت . وفي الحقيقة أن برادفرد يختلف عن معظم أتباع الحركة الطهرانية في أنه لم يكن ، على العكس من الكثيرين منهم ، قد تخرج من جامعات بريطانيا العريقة؛ بل لقد ثقّف نفسه بنفسه . ومع ذلك ، فإن علمه يفوق علم الكثيرين من أبناء عصره ، وذلك بسبب كثرة مطالعاته وعمقها . أظهر في أثناء مكوثه في هولندا (في أمستردام أولاً ومن ثم في لايدن) سمات قيادية. وقد كان من بين القلائل الذين خططوا للهجرة إلى العالم الجديد ورتبوا أمر الرحيل. فلقد خافت الطائفة على نفسها أن تتلاشى وتنقرض في هولندا، كما خافت على أبنائها من جو الحرية الزائدة والفساد القائم هناك.

وبالفعل تم الرحيل إلى العالم الجديد على متن سفينة «زهرة الربيع» في أيلول عام ١٦٢٠ . ولما وصل برادفرد وجماعته الشاطىء الأمريكي بعد شهرين قاسيين، كانوا في حالة يرثى لها. فقد أصاب المرض العديد منهم. يضاف إلى ذلك أن عدداً آخر لم يستطع التكيف مع الظروف الجديدة القاسية. ومن هنا فقد توفي حوالي (٥٠) رجل وإمرأة منهم من أصل (١٠٢) بُعيد وصولهم. كانت السفينة متجهة إلى فرجينيا ، لكنها وصلت شاطىء رأس كود. ولما أصر ركابها على الاستيطان في نيو انجلند لعدم مقدرتهم على مواصلة السير إلى فرجينيا، تم نتيجة ذلك إنشاء مستوطنة بلمث ، وهي أول أهم مستوطنة في أمريكا الشمالية (أهم بكثير من مستوطنة جيمس تاون) .

انتخب برادفرد حاكماً للمستوطنة بعد وفاة جون كارفر في نيسان عام ١٦٢١ ، وشغل منصبه هذا لمدة تزيد عن ثلاثين عاماً. كان في البداية لا يتقاضى أي أجر مقابل عمله، لكن خُصص له مبلغ ٢٠ جنيهاً كل عام ابتداء من ١٦٣٩ . ولقد قام بعمله خير قيام في أصعب ظروف شهدتها تلك المستوطنة. ولقد كان حاذقاً حازماً معطاءً وحكيماً.

ولقد عاصر كافة مراحل تطور مستعمرة بلمث الأولى منذ التخطيط لها ونشأتها ، مروراً بعصرها الذهبي وأوج قوتها ، وانتهاء ببداية انحطاطها وحيادها عن الهدف السامي الذي رسم لها. فلقد أرادها الطهرانيون مستوطنة دينية روحية الطابع؛ ولقد نجحوا في هذا المسعى في بداية الأمر. بيد أن الأبناء أخذوا فيما بعد يتجهون نحو بناء المزارع ـ ومن هنا اضطروا إلى مغادرة بلمث ـ أو نحو التجارة والعالم المادي.

كتاباته وفكره وأهميته :

ولقـد كـتب برادفرد العديد من الأشعار، وهي دينية الطابع بوجه عام. إلا أن أهم عمل له هو **تاريخ مستوطنة بلمث** ، والذي يحكي فيـه قصة قاطني تلك المستوطنة ، منذ خروجهم من انجلترا عـام ١٦٠٧ ولغـاية نهاية مسـتـوطنتهم . بدأ كتابة تاريخه هذا عام ١٦٣٠ وفرغ منه ، على أغلب الظن ، عـام ١٦٥٠ . اختفى كتابه، والذي لم يكن قد طبع بعد، في أثناء الحرب الثورية. لكنه عُثر عليـه مـرة أخـرى في مكتبة تعود لأحد رجالات الدين في انجلترا. وقد طبع للمرة الأولى عـام ١٨٥٥ . ومع ذلك، فـقـد اطلع على المخطوط، قـبل طبـاعته، العديد من المؤرخين. ويذكر النقـاد أن خمسـة مـؤرخين على الأقل اسـتـخـدموه كأحد مصادرهم قبل عام ١٧٣٠ . ومن هنا فإن برادفـرد يعـد واحـداً من مـؤرخي وكـتـاب الحـركـة الطهـرانية، وهو كاتب جلّي الأسلوب، سلس العبـارة، دقـيق الملاحظة، ثاقب النظر. ومـؤلَّـفَـه لا غنىً عنه لكل قارىء جاد ولكل دارس لنشأة الطهـرانية ولجذور فكر الحضارة الأمريكية القديمة والحديثة.

مقتطفات من

حول مستعمرة بلمث

ترجمة : د. أحمد يعقوب المجدوبة

محمد قاسم

[يروي لنا وليم برادفرد في طيات كتابه تاريخ أول فوج طهراني يهاجر إلى أمريكا وذلك منذ قيام الحركة الطهرانية في إنجلترا وحتى تأسيس المستعمرة الدينية الأولى في أمريكا وانهيارها. يركز في كتابه، كما سيلاحظ القارىء من المقتطفات التي اخترناها ، على الصعاب الجمة التي واجهها الطهرانيون بوجه عام والفوج الأول منهم بوجه خاص ، وذلك منذ إعلانهم التشبث بديانتهم في إنجلترا ، وفي أثناء رحيلهم بحراً إلى العالم الجديد، ولغاية وصولهم ومحاولتهم إنشاء مدينة روحية طاهرة في أرض قفر مليئة بالمخاطر. كما يركز على شدة تدين الطهرانيين وتمسكهم بالأصول وعرفانهم بجميل الإله ورحمته وتصميمهم على تحقيق مأربهم الديني بأية وسيلة كانت ومهما تطلب الأمر من تضحيات، ضارباً بالرعيل الطهراني الأول الذي ينتمي برادفرد نفسه له مثلاً للأجيال القادمة ومدافعاً عن وجهة النظر الطهرانية وطريقتهم في العيش. ويتّسم أسلوبه بالسرد المشوق وبالتحليل الذي يستند على الحجة والبرهان . ولا يخلو النص بالطبع من لمسات دعائية ذكية. نقتطف هنا أجزاء من فصول الكتاب الأولى ، وهي تعطي القارىء صورة لا بأس بها عن المحتوى والأسلوب] .

المحرر

الفصل الأول

يعرف التقاة الورعون معرفة حقة أنه ومنذ انبثاق النور من إنجيل الهداية في بلدنا الكريم إنجلترا (وهي من أوائل البلدان التي حباها الله النعيم بعد أن خيّم عليها ظلام دامس سبّبته العقائد البابوية التي كانت سائدة في العالم المسيحي) ،

فلقـد أثار الشـيطان الحـروب وأحدث معارضة من وقت لآخر وبأشكال متعددة ضد القـديسين ، مـتخذاً من الموت الدامي أو العذاب الأليم أسلوباً له خشية أن تتهاوى مملكتـه وتسـود الحـقـيـقة وتعود كنائس الإلٰه إلى طهارتها القديمة وإلى جمالها الروحاني ونظامها الأوّلي وإلى حريتها.

وعندمـا لم يسـتطع أن يسود من خلال هذه الممارسات، حيث أخذت الكنائس تمد جـذورها في أمـاكن مـتعددة رويت بدم الشهداء وبوركت من السماء ، بدأ باتباع حـيلة قـديمة كان يستخدمها ضد المسيحيين الأوائل . ولـمّـا لـم يستطع وقف مسار الهداية وتدميره من خـلال العذاب الدموي الوحشي على أيدي الأباطرة، ذلك الهدي الذي تعـاظـم وانتشر بقـوة فـائقـة في أفـضـل بقـاع الأرض المعـروفـة آنئذ ، قام بنثر بذور الشـقـاق والإثم والفـوضى والنزاع بين المسـيـحـيين أنفـسـهم مـستغلاً غرورهم وطمـوحـهم وفـساد مشاعرهم، بل وكان قادراً على إغواء القديسين أحياناً، مما تسبب في حـدوث بعض العـواقب الوخـيـمـة. ولم يكتف بحيله آنفة الذكر بل وزرع طقوساً شريرة ومـعـتـقـدات دينية باطلة أوقعت في شركها الكثير من الناس البسطاء السذّج حتى أيامنا هذه.

وكما كـان خـطـر الأبـاطـرة الـوثـنـيين منذ القـدم عظيماً ، كـان الخـلاف بين المسـيـحيين واضطهاد الآريّن وشركائهم لأصحاب العقيدة الصحيحة والمسيحية الحقة عظيماً أيضاً. وكما قال سقراط (*) في كتابه الثاني:

«لم يـكن العنف الموجـه ضـدهم بأقل من ذلك الذي فـرض على المسـيـحـيين الأوائل الذين كـانوا يجبرون على تقـديم الأضـحيات للأوثان. فلقد ذاقوا ألواناً كـثيرة من العـذاب، إذ قُطِّعت أطرافـهم وصـودرت ممتلكاتهم. وأُرغم البعض على هجـر دياره، وكـان منهم من مات بسبب التعذيب، ومنهم من لقي حتفه في المنفى وحرم من رؤية موطنه ثانية» .

(*) سـقـراط سكولاسـتكس Socrates Scholasticus مـؤرخ إغـريقي عـاش في القـرن الخـامس الميلادي. (المحرر)

كـان هذا هو الأسلوب الذي اسـتـخـدم الشـيطان مثله في الأيام حديثة العهد تلك، عندما أخذت الحقيقة في البزوغ بعد تعاظم عصيان أعداء المسيح.

* * *

ويروي لنا فوكس (*) كـيف أنه إضـافة إلى حرق العديد من الشهداء والمؤمنين في أيام الملكة مـاري وتعـذيبـهم بشتى الصور، «فرّ نفر كبير من التلاميذ وآخرين بلغ عـددهـم ٨٠٠ وشـكلوا طوائف دينيـة عـديدة في وزل وفـرانكفـورت وبازل وإمـدن ومـاركبرغ وستراسـبـورغ وجنيف وغيرها». ولقـد نشب بينهم (وخـصـوصـاً بين أولئك الذين كـانوا في فـرانكفـورت) نزاعـات مـريرة ومـشـاحنات حـول الطقوس والشعائر وحـول عـدد آخـر من القـضـايا البـابوية والتي هي غير مـسيحية، تلك التي أرّقت انجلترا لغـاية يومنا هذا ، والتي هي بمـشـابة «الأماكن العليا» في عهد بني اسرائيل ، تلك التي حـذر منهـا الرسل وعـارضـوها ، والتي كـانت سـبباً في الهلاك . وقد قام الفريق الفاضل بمحاولة القضاء عليها أو طرحها جانباً ، مهتدين بنور الهدايه الحق. أمـا الفـريق الآخـر فـقـد قـامـوا ، مغلّفين نواياهم الحقيقية ، بمحاولة الاستمرار في الدفـاع عنهـا بضراوة وحمايتـهـا من أجل تحـقـيق غـايات ومـآرب خاصة بهم. وقصة ذلك كله توجد في كتاب جدير بالقراءة نشر في عام ١٧٧٥.

ولقـد حـاول الفـريق الأول جـاهداً أن يقـيم العـبـادة في الكنيسة حسب شرع المسيح، مـركزاً على بساطة الشعائر، مبتعداً عن بدع بني البشر، كما أكد على ضرورة الاحـتكام والامـتـثـال إلى شريعـة الإله وكـلامه والذي يناط بمسؤولية تطبيقه الكهنة والمعلمـون وكـبـار رجـال الكنيسة حسبما ورد في الكتاب المقدس. أما الفريق الآخر، والذي كـان يلّون ويغلّف نواياه، فـقـد عـمل على محاولة التـمـتع بالكبرياء الكهنوتي (على غـرار مـا يفـعل البابوات) والابقاء على نفوذه الكبير وسلطاته الواسعة ، مضافاً إليـهـا المنابر المخـتلفـة والشرائع والشـعـائر والطقوس والريع المادي والمناصب الأخرى والتي كـان من خـلالها يستعبد عباد الله المساكين ويسومهم سوء العذاب. وقد كانت

(*) جـورج فوكس (١٦٢٤ ـ ١٦٩١) زعيم ديني إنجليزي. (المحرر)

الفتنة عظيمة لدرجة أن الاحتكام إلى جلال المولى ورجاحة العقل وتوسط كالفن (*) وغيره من الأخيار لم تجُدِ نفعاً مع هؤلاء الذين تحكمت بعقولهم الثروات الكهنوتية. بل لقد قام هؤلاء بكل ما أوتوا من قوة بتعكير صفو تلك الكنيسة المسكينة المعذبة، حتى أنهم اتهموا ظلماً وبهتاناً بعض مناهضيهم بتدبير الثورة والتحريض على الخيانة ضد الامبراطور ، إضافة إلى جرائم أخرى .

فكان أن اجتمع الكثير من المؤمنين الحقيقين الذين عانوا من انتشار عقائد الشيطان في هذه البلاد والذين أنعم الله عليهم بالهداية والنور. وثاروا ضد العبودية البابوية وانطلقوا أحراراً منظمين صفوفهم متحدّين في ظل عهد مع الله قطعوه على أنفسهم ومشوا تحت راية كنيسة واحدة مستمدة من تعاليم الإله المعروفة لديهم أو التي سيعرفونها مصممين على بذل قصارى جهدهم في ذلك غير آبهين لما سيعترضهم وما سوف يكلفهم متمتعين بعناية إلهية ترعاهم. ولقد كلفهم ذلك الكثير كما سنبين فيما يلي.

* * *

الفصل التاسع ـ رحلتهم وعبورهم البحر ووصولهم بسلام إلى رأس كود

السادس من أيلول. رغم ما واجهوه من صعاب، إلا أنهم تجمعوا في سفينة واحدة وأبحروا ثانية. كانت الريح مواتية، وقد استمرت على هذه الحال عدة أيام. مما رفع من روحهم المعنوية بعض الشيء . لكن البعض ، وكما يحدث عادة في مثل هذه الظروف، أصيب بدوار البحر. ولا يسعني إلا أن أذكر هنا حادثة تدل على عظمة الخالق. لقد كان من بين ملاّحي السفينة شاب متكبر غير ذي دين يتمتع بقوة جسدية، مما زاده غروراً، أخذ يسيء معاملة المسافرين المرضى المساكين ويسبّهم؛ ولم يتردد في قول أنه يأمل أن يلقي نصفهم في البحر قبل أن يصلوا إلى نهاية الرحلة؛ كان يسخر منهم ويزجر غضباً وشتيمة إذا ما قام أحدهم بزجره بلطف. لكن إرادة المولى شاءت أن تصيب هذا الفتى بمرض شديد مات على إثره ميتة بائسة

(*) جون كالفن المصلح الديني الفرنسي المعروف الذي تأثر به معظم الطهرانيين. (المحرر)

وألقي في البحر في منتصف الرحلة. وهكذا فقد كان هو أول من ألقي في البحر. ولقد جنى على نفسه بشتائمه ووقع ضحيتها؛ ولقد اعتبر أصحابه جميعاً ذلك درساً يجسّد عدالة المولى.

ثم كان أن مرّت رحلتهم بأيام هادئة وصادفتهم رياح معتدلة. لكن الحال لم يستمر طويلاً إذ ما لبثت الأحوال أن تبدلت وواجهتهم عواصف عاتية مزقت أجزاء السفينة العليا والتي تسربت من خلالها المياه وحطمت إحدى الصواري الرئيسية مما أثار الفزع والهلع في نفوس المسافرين وبدا لهم أنهم لن يكملوا الرحلة . وعندما بدا لهم الشك الذي أخذ يساور البحارة حول جدوى المضي قدماً في رحلتهم تلك قام زعماؤهم بالتشاور مع قبطان السفينة وبحّارتها حول الاستمرار في الخطر المحدق الذي قد يؤدي للهلاك أم العودة . وفي حقيقة الأمر فقد كان البحارة أنفسهم منقسمين فيما بينهم . . . غير أن القبطان وبعض البحارة أصروا على أن سفينتهم متينة وقوية . . . فأسلموا أمرهم لله وقرروا مواصلة السفر.

* * *

وأحذف تفاصيل عديدة بهدف الإيجاز فأقول إنه وبعد انقضاء رحلة مضنية ظهرت اليابسة للعيان في خليج كود والذي سرّوا كثيراً لرؤيته لما تأكدوا منه. وبعدما تشاوروا مع بعضهم ومع القبطان قرروا التوجه جنوباً صوب مناطق نهر الهدسن ، متمتعين بطقس جميل وريح هادئة ، بهدف إيجاد مأوى لهم. ولكن وبعد أن أبحروا في هذا المسار مدة تقارب نصف يوم، وقعوا في مخاطر جمة بسبب ضحالة المياه في تلك الشواطىء وعِتيِّ الأمواج. بسبب ذلك وبسبب ضعف قوة الريح قرروا العودة إلى الرأس مرة أخرى فرحين بنجاتهم من تلك المخاطر قبل أن أدركهم الليل ، وتم ذلك بعون الله ورعايته لهم . وعبروا في اليوم التالي مرفأ الرأس وأبحروا بسلام.

* * *

وبمجرد دخولهم المرفأ الآمن وهبوطهم على اليابسة ، خرّوا ركعاً سجداً لرب السموات الذي أتى بهم عبر محيط هائل هائج بسلام، وأنجاهم من كل المخاطر والمآسي، لتلامس أقدامهم الأرض مرة أخرى ، تلك التي خلقوا منها .
ولا عجب في فرحتهم ، فلقد تأثر الحكيم سينيكا (*) نفسه أيّما تأثر عندما أبحر لعدة أميال على ساحل موطنه إيطاليا ، كما روى لنا ، قائلاً إنه يفضل أن يسافر مدة عشرين عاماً براً على أن يصل في وقت قصير بحراً ، وذلك بسبب الملل القاتل والخطر الكبير.

ولا يسعني هنا إلا أن أتوقف مندهشاً لحال هؤلاء المساكين ، مثلما سيفعل القارىء نفسه لا ريب عندما يتمعن في وضعهم. فبعد أن عبروا المحيط الهائل وتغلبوا على الصعاب الجمة منذ البدء بالتحضير للرحلة (كما أسلفنا) ، لم يجدوا بعد كل ذلك صديقاً يرحب بهم أو خاناً ينزلون فيه ليريحوا أجسادهم المتعبة، أو منزلاً أو بلدة يلقون مساعدة فيها. ولم يكن حال هؤلاء كحال الرسول وصحبه، حسبما روى لنا الكتاب المقدس، الذين لقوا بعد تحطم سفينتهم كل العون من البرابرة رحمة من الإله بهم؛ لا لم يكن حالهم كذلك، فلقد كان المتوحشون البرابرة هنا على أتم استعداد، عندما التقوا بهم كما سنبين، لغرس السهام في جثثهم. ولقد كان موسم الشتاء قد حل ؛ ومن يعرف موسم الشتاء هنا في هذا البلد يدرك كم كان قاسياً قارساً ، تهب فيه عواصف عاتية مدمرة ، ويكون السفر فيه محفوفاً بالمخاطر حتى عندما ينشد الواحد الأماكن التي يعرفها ، فما بالك في التجوال على شاطىء غير معروف. يضاف إلى ذلك، أنهم لم يروا سوى أرض قاحلة مقفرة ، تعج بالوحوش المفترسة والشعوب المتوحشة التي لم يعرفوا عددها.

١٦٣٠ ـ ١٦٥٠

(*) لوسيوس آنايوس سينيكا Seneca (٤ق .م ـ ٦٥م) خطيب وزعيم سياسي روماني ألف عدداً من الأعمال الفلسفية والمسرحية. (المحرر)

آن بــرادســتـريــت
(١٦١٢ ـ ١٦٧٢)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

هي من أهم أوائل الشعراء في أمريكا. إزداد إقبال القراء والنقاد عليها في السنوات الأخيرة ازدياداً ملحوظاً. كان يعدها الكثيرون شاعرة على قدر بسيط من العمق والأهمية، أما اليوم فيعدها نفر لا بأس به من النقاد كاتبة رئيسة . ويعود ذلك لكونها إمرأة تتحدث عن هموم المرأة وحقوقها ، ولكونها تصور الحياة اليومية الطهرانية تصويراً دقيقاً ، ولكون شعرها طليعة للحركة الرومانسية التي ستظهر فيما بعد. هي دقيقة في عرض أفكارها ، عميقة في تناولها لها ، على الرغم من بساطتها الظاهرة .

حياتها :

ولدت في نورثهامبتن بانجلترا . كان والدها ، وهو من الطهرانيين المخلصين لعقيدتهم، يعمل مديراً مالياً في قصر أحد نبلاء لندن، والذي كان أرستقراطياً طهرانياً. ولقد اهتم والدها ، والذي كان على درجة عالية من الثقافة، بتعليم ابنته. وقد كان يدّرسها هو بنفسه أحياناً . ويروى أن آن برادستريت كانت تقرأ الكتاب المقدس عندما بلغت سن السادسة أو السابعة . وقد عاشت آن طفولتها في بيئة مثقفة؛ وكان بامكانها استخدام مكتبة القصر الذي عمل فيه والدها. كما أفادت شاعرتنا في صغرها من المناقشات والمناظرات التي عقدها عدد كبير من زعماء الطهرانيين، والتي تركت أثراً واضحاً على تفكيرها.

تزوجت آن دَدْلي في سن مبكرة عام ١٦٢٨ من سايمن برادستريت، الذي حملت اسمه

بعـد الزواج، والذي كـان يعـمل مـسـاعـداً لأبيـها. تخرج زوجها، وهو طهراني أيضاً، من جامعة كيـمبردج والتي عـرفت آنئذ بنزعـتـهـا الانشـقـاقية. ساءت أحوال أبيها في العشرينات من القرن، واتهم بأنه يخبيء أحـد الفـارين، فـقـرر الرحـيل مع آن وزوجـهـا إلى أمـريكا عام ١٦٣٠. وهكذا انـضم الأب وابنتـه وزوج ابنتـه لمجـمـوعـة جـون ونـشـرُب التي هاجـرت إلى أمـريكا وشكلت أكبر مـستوطنة طهرانية في خليج مستشوستس. تنقلت برادستريت في عدة بلدان (منها سيلْم وكيمبردج بـوسطن وايبـسـوتش) قبل أن تستقر في أندوفر، والتي حطت رحالها فيها وعاشت حتى وفاتها.

ولقـد عـانت آن برادستريت الكثير. فلقـد أربك التنقل صـفـو مزاجها، كما داهمها المرض مـراراً. فـعندمـا تزوجت كـانت مـا تزال تتماثل للشـفاء من مرض الجدري. وكانت قد أصيبت في طفـولتـهـا بعـدة أنواع من الروماتيزم. وعانت من المرض معظم حياتها، فقد كانت تصاب بالإعياء والحـمى والغـيـبـوبة. كما عـانت من وحـدة قاتلة عندما كان زوجها يتركها ويسافر، إذ كان يعمل سكرتيراً في شركـة الخليج، كما عـمل حـاكماً لعـدة سنوات ومـثّل المسـتـوطنة في بريطانيـا في قضايا مختلفـة. ولقـد وجـدت برادستريت نفسها أماً لثمانية أطفال يحتاجون إلى رعاية دائمة في ظل ظروف غاية في الصعوبة.

لكن، وعلى الرغم من ذلك كله، فلقـد تمتعت آن برادستريت بروح غاية في التفاؤل، رغم أنها لم تعـجـبـهـا الحـيـاة في العالم الجديد في البداية. وقد وجدت وقتاً كافياً للقراءة ولكتابة الشعر، والذي بدأته بشكل جـدّي عندما انتقلت من كيمبردج إلى إيبسوتش.

كتاباتها وأهميتها :

تعـد أول من نشر كـتـابـاً من سكان أمـريكا الانجليزية وذلك عندما قام زوج أختها بطباعة أول مجمـوعـة من قصائدها في بريطانيا دون علمها عام ١٦٥٠. ولقد كتبت برادستريت الكثير من الشـعر الجيد، على المستويين العام والخاص. من أشهر قصائدها «الفاتحة» «The Prologue» والتي تعبر فـيـهـا عن همومـها كشاعرة وأنثى في عالم ذكوري. ولعلها من أهم القصائد التي ترسي قواعد الحـركـة النسـوية في أمـريكا. ثم هناك قـصـيـدة «الجسد والروح» التي تعرض من خلالها آرائها الدينيـة؛ لكن ليس بصـورة تقليـدية. فـهي على غير عـادة أهل زمـانها تتـيح المجال «للجسد» أن يتكلم بصراحـة في بداية الأمـر. ثم هنالك قـصـائدها لزوجـها وأبنائها وقصيدتها المهمة التي تحمل اسم «تأمـلات»، والتي قد نعدّها رومانسية / دينية في آن واحد.

هذا ولقـد أفـادت آن برادستريت من مطالعاتها الكثيرة والتي من بينها أعمال مشاهير الأدب الانـجـلـيـزي والأوروبي من أمـثـال السير ولتر رالي والسير فـيليب سـدني وإدمند سـبنسر ومـايكل

درايتن وروبرت بيرتن وفرانسيس بيكن وجون فوكس ، وربما شكسبير.

قامت آن برادستريت بمراجعة قصائدها عام ١٦٦٦ استعداداً لنشرها، لكنها لم تنشر إلا بعد وفاتها، وذلك في عام ١٦٧٨ .

ولأن برادستريت أهمية متزايدة وخصوصاً مع بزوغ فجر حركة النقد النسوي وتعاظم زخمها. وهي مهمة أيضاً لكل من هو مهتم بفهم الحركة الطهرانية وفكرها، سيما وأنها، كما أشرنا قبل قليل، لا تقدم المعتقد الطهراني من زاوية نظرية أو تنظيرية، بل من وجهة نظر إنسان عادي، كما تبين معظم قصائدها بوضوح، وخصوصاً قصيدتها التي نظمتها عندما حرق بيتها، تلك القصيدة التي تظهر فيها بلا تردد قوة الرغبات البشرية الدنيوية وعمقها ، على الرغم من وجوب إيمان الفرد بأن كل ما يملك هو للخالق يأخذه منه متى يشاء. فتجد آن برادستريت تبدي في القصيدة حسرة ولهفاً على فقدان بيتها وممتلكاتها، مع قناعتها بأن مثل هذه الحسرة ومثل ذلك التلهف ليسا من سمات المؤمنين. إن مثل هذا التناقض أو التباين، الذي تحتويه معظم قصائدها ، هو ما يجعلها ثرية في معانيها عميقة في مراميها.

الجسد والروح

ترجمة : محفوظ خلف الجبوري

تعديل وتحرير : د. أحمد يعقوب المجدوبة

[تمثل الشاعرة في القصيدة التالية موقف الطهرانيين من الجسد والروح خير تمثيل. فهي، مثلها مثلهم، تضع الروح في مكانة أسمى بكثير من مكانة الجسد. وهي تنظر إلى الأخير على أنه تجسيد للنزوات والشهوات والخطايا والإثم. ومن هنا فإن مهمة أي مؤمن تكمن في محاربة الجسد وفي قتل الشهوات والتوجهات المادية وفي محاولة السمو. ويبدو أن هذا هو مفهوم العبادة في الحركة الطهرانية. هنالك بعض الشعائر والطقوس لا ريب، لكن أهم إنجاز للمؤمن هو محاولة تطهير نفسه من الرغبات والشهوات والآثام. الكل آثم، لكن السمو والخلاص مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بقدرة الفرد على كبح جماح النفس وطمس نزعاتها المادية. ورغم ذلك، فيمكن للقارىء أن يلحظ أن برادستريت نظرت بعين العطف للجسد، عندما أعطته الفرصة كي يعبر عن ذاته بحرية في القصيدة] .

المحرر

حين وقفت في مكان منعزل ذات مرة
بجوار ضفاف نهر لاكْرِم ، (*)
سمعت شقيقتين تتجادلان
حول أمور خلت وأخرى ستأتي .
كانت احداهما تدعى الجسد ،
وضعت نصب عينيها
ثراء الدنيا وما فيها من متاع .
أما الأخرى فكانت الروح ،

(*) نهر الدموع .

سمت بفكرها إلى عالم أرفع.
أختاه، قالت الجسد، على ماذا تحيين،
ألا شيء سوى التأمل؟
هل صار التفكرّ يمدّك بالحياة
حتى تضربين الدنيا بعرض الحائط؟
هل يُشْبِعُ التخيل،
وهو كنه لا حياة فيه؟
أتحلمين بما وراء القمر،
أم تأملين بأن تكوني هناك عما قريب؟
أتراك كدست الكنوز هناك في خزائن
حتى صرت تعدين العالم كله شيئاً حقيراً؟
هل عقلك قد مرض، أم هل تحولتِ إلى شارب مخمور
يمسك بالظلال التي لا وجود لها؟
هلمي ، هلمي ، سأجعلك ترين بعينك
إن المثابرة لها جزاء.
ماذا تراك ترغبين، سوى أن تبصري
الحقيقة الملموسة في ألوانها؟
أتنشدين الشرف؟ افعلي ذات الشيء،
كما يفعل البعض من أجل شهرة الخلود،
من أجل أن تشيِّد لذكراك النصب
التي لا تبلى مع الزمن.
أمن أجل الغنى كنت تحلقين طويلاً؟
حدّقي ملياً بالمخازن المكتنزة.
فالأرض فيها من الفضة واللآلئ والذهب،
فوق ما تقدر العين أن ترى واليد أن تحمل.
اتنشدين المتعة؟ خذي كفايتك
ففي الأرض كفاية مما تريدين.

لا تنصرفي عما قد تجدينه
لأشياء مجهولة إلا في الخيال.

الروح : اصمتي أيتها النفس الخبيثة،
لا تُقلقي قلبي الذي قد عقد العزم،
لأنني أقسمت (وسوف أبرّ بقسمي)
كعدو لي سأطاردك.
وسوف أقارعك دوماً
حتى أراك وقد ووريتِ التراب.
اختاه نحن، نعم، توأمان،
لكن بيننا عداءً قاتلاً؛
لأننا لسنا لأب واحد،
فأبوك من نسل آدم القديم
أما أبي فمن علٍ،
ومن أجل هذا حبي لأبي الغالي.
ومع انك تخاطبينني بلطف فأنت تغضبينني.
إطراؤك يعلمني الا أثق بك.
كم من مرة عبداً لك جعلتني،
عندما صدقت كل ما كنت تقولين.
ما كان لي من سبب للنحيب
أكثر منه لما فعلت ما أمرتني به،
سأصم اذني عن مفاتنك،
وسوف أعدها مصدراً للأذى القاتل.
ملذاتك الآثمة بت أمقتها
وكل ما تملكين لا يغريني.
ولا أحب ما تملكين وتعدّينه شرفاً،
لأن طموحي يكمن في الأعالي.

أما شرفي الأعظم فسيكون
حين أنتصر عليك.
وسيكللني النصر بالغار،
حين أقتادك أسيرة،
فكيف أحيا، ولا حاجة لك أن تسخري،
فلي لحم لا تدركين كنهه.
فأنا أقتات على المن الخفي ، (*)
كلمات الحياة هي لحمي.
فأفكاري تمنحني من الرضى
أكثر مما تعطيك الساعات التي تقضيها بالملذات.
وليست بظلالٍ تلك التي امسك،
ولا بالخيال الفارغ ما أتعلق به،
لكني أدرك أشياء سامية،
خارج حدود قدراتك البليدة؛
ومادة الخلود ما أرى،
تلك التي سأغدو غنياً بها.
عيني تنفذ من خلال السماء وترى
ما هو غير مرئي لك.
ولباسي ليس حريراً أو ذهباً .
ولا من أمثال هذه القمامة مما تحمل الأرض،
لكنني سأرتدي ثياباً رفيعة،
أكثر بهاء من الشمس الناصعة؛
وتاجي ليس من الجواهر واللؤلؤ والذهب،
بل مما يطوق رؤوس الملائكة.
والمدينة حيث أتوق أن أقطن،
ليس على الأرض ما يوازيها؛

(*) غذاء الهي روحي ، اشارة الى كلمات المسيح في سفر الرؤيا.

والأسوار الفخمة شامخة وقوية،
مبنية بحجارة اليشب النفيسة؛
وأبواب اللؤلؤ ، ثمينة وناصعة،
والملائكة تقوم هناك كبوابين،
أما شوارعها فمن الذهب الشفاف،
مثلما لم تر عين قط،
هنالك ينساب نهر البلور،
الذي ينبع من عرش الحمل . (*)
للحياه، هناك أنهار أكيدة،
والتي ستبقى نقية للأبد،
لا شمس، ولا قمر، لا حاجة لهم بذلك،
حيث يأتي المجد من الله .
لا شموع هناك، ولا ضياء المشاعل،
حيث لن تكون هناك ليالٍ مظلمة،
ومن الامراض والعلل
سيتحررون إلى الأبد؛
وسن الهرم لن يأتي هناك،
لكن الجمال سيكون براقاً وصافياً؛
هذه المدينة النقية ليست لك،
فلن يكون هناك أشياء غير نقية،
ولو أخذتُ من السماء كفايتي
فلك الدنيا وكل ما تبتغين فيها.

(*) عرش يسوع المسيح

قبيل مولد أحد أطفالها

ترجمة: د. أحمد يعقوب المجدوبة

[تعد هذه القصيدة من القصائد التي تمثل الشاعرة خير تمثيل ، إذ يبرز فيها موضوعان رئيسان ركزت عليهما جل اهتمامها. أما الأول فيتمثل في حبها لزوجها وأفراد عائلتها، ذلك الحب الذي تعتبره برادستريت أثمن شيء تملكه في هذا العالم الفاني، وأما الثاني فهو شعورها الذي اكتسبته من صلب العقيدة الطهرانية والذي يتمثل في يقينها بزوال الحياة وفناء الروابط . فالموت قريب ، ولا يمكن لأحد أن يخلد في هذه الحياة على الرغم من بقائه في الذاكرة وفي الشعر إلى حين. وتدمج الشاعرة الموضوعين دمجاً غاية في المهارة. وهي تعبّر عما يجول في خاطرها حقاً، لا عما ينبغي أن تقول] .

المحرر

كل ما في هذا العالم الفاني له نهاية،
وتأتي المحن حتى في أفراحنا.
لا روابط متينة ولا صحب أعزاء طيّبون
إلا وتطالهم يد الموت التي تباعد بيننا.
وهذا حكم لا مفرّ منه،
شيء عادي، بيد أنه محتوم.
متى يأتي الموت، يا عزيزي، يقتفي أثري،
ومتى يتحتم أن تفقد رفيقة دربك.
كلانا جاهل، لكن الحب يحثنيّ أن
أبعث بأبيات الوداع هذه إليك،
حتى إذا ما حُلّ الرابط الذي جعلنا واحداً

أبدو وكأنّي لك، مع أنني قد لا أكون شيئاً.
وإن لم أشهد نصف أيامي المرتقبة،
فالإله، مثلما الطبيعة، يهب لك ولما لك.
دع الخطايا الكثر التي تعرف أنها فيّ
تُدفن معي في قبر النسيان.
وإن كان فيَّ أي قدر أو فضيلة
دع ذاك يبقى دوماً في الذكرى.
وعندما لا تشعر بالأسى، كما لا أشعر بالأذى،
فهبْ حبّك موتاك الذين طالما استلقوا طويلاً بين ذراعيك.
وإذا ما عُـوِّضت عن خسرانك بمغانم كثر
فانظر بعين العطف لأبنائي الصغار، فهم أعز بقاياي.
وإن كنت تحب نفسك أو تعشقني
فاحفظ أولئك من جراحات الكيد.
وإن أتت هذه الأبيات إلى ناظرك صدفة
فاذكر رحيلي بآهات الأسى
وقبّل وريقاتي لأجل حبيبة
ذرفت دموع الحزن في وداعنا الأخير هذا.

١٦٤٠ ـ ١٦٥٢م

إلى زوجي العزيز المحب

ترجمة: د. أحمد يعقوب المجدوبة

محفوظ خلف الجبوري

[تنبع أهمية القصيدة التالية من أنها تصور حياة الانسان الطهراني العادي الذي لم يكن يمضي كل وقته في الصلوات والعبادة. فلقد كان يحب مثله مثل غيره من الناس ويستخدم اللغة والمشاعر التي يستخدمها جموع البشر. وهي تصور كذلك، من خلال مشاعر الزوجة المخلصة حيال زوجها، ارتباط الطهرانيين ببعضهم وتراصّهم في بيئة قاسية أهم ما يعينهم على البقاء فيها مشاعر الود والحب بينهم] .

المحرر

لو قدّر لاثنين أن يكونا واحداً، لكنّا لا ريب نحن.
لو أن رجلاً واحداً أحبته زوجه، لكان هو أنت.
لو أن هنالك زوجة واحدة تشعر برجل
قارنّها بي أيتها النسوة لو تستطعن؛
حبك عندي أثمن من مناجم الذهب
ومن كل كنوز الشرق.
إن حبي لا تطفئه الأنهار،
ولا يروي ظمأي سوى حب ينبع منك.
إن حبك من نوع لا أقدر أن أوفيه حقه،
وأصلي أن تكافئك السماء بسخاء.
أما ما حيينا، فلنحيا بالحب،
فإذا لم نعد نحيا، فسوف نحيا به إلى الأبد.

١٦٤١ ـ ١٦٤٣

إدورد تيـلـر
(١٦٤٢ ـ ١٧٢٩)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحـة عـامـة :

يعـدّه كـثير من النقـاد أفـضل شـاعر في أمريكا قبل وليم كَلِن برايِنت. وهو يجسّـد الشعـر الميتـافـيزيقي في أحسـن صوره. وعلى الرغـم من أن تيلر قد وظف قصائده لخدمة الفكر الطهراني، فإن ذلك لم يكن على حسـاب لمحـاتها الفنيـة وأبعـادها الأدبيـة، فـهي تتـسم بعـمق الفكرة ودقـة التـصوير ورصانة التعبير.

حـيـاتـه :

ولد بالقـرب من لسترشير في إنجلترا لعـائلة اشـتغلت بالزراعـة ، في أثناء اشـتعال الحرب الأهليـة المدمـرة والتي شـهـدت مقتل الملك تشارلز الأول وفوز الطهرانيين وتحويل بريطانيا من دولة ملكيـة إلى دولة جمهـورية . ويبدو أن عائلة تيلر كانت من العوائل المنشقة التي كانت تدين بولائها للطهـرانيين. وقـد تلقى تيلر تعليمه الابتدائي على يد مدرس له نفس الانتماء. كما ويبدو أنه التحق بجـامـعـة كـيمبردج، إلا أن عودة الملكية إلى بريطانيا لم تكن في صالحه. فلقد رفض حضور بعض مـراسم الكنيـسـة الانجليـزية والتي كانت تفرضها الحكومة انذاك، وأخذ يفكر جدياً في الهجرة إلى أمريكا طلباً للحرية الدينية والعلم.

وصل بوسطن في تموز عـام ١٦٦٨ ، وبعـد أن قـدم نفسه إلى عدد من مشاهير البلدة الذين كـانوا يدعـمـون أتبـاع الحركة الطهرانية، دخل جامعة هارفرد. تعرف في أثناء دراسته على الكاتب الطهـراني الذي اشـتهر بمفكرته المهمة، ساميل سول. تخرج من هارفرد عـام ١٦٧١ بعد أن حقق نجـاحـاً مـرمـوقـاً في دراسـتـه . عمل بعدها قسيساً في بلدة ويستفيلد في مستشوستس، وبقي فيها حتى نهاية حياته.

تزوج مرتين ورزق أربعة عشر طفلاً ، توفي خمسة منهم في طفولتهم . كما توفيت زوجته الأولى. وشهد حرب الملك فيليب (١٦٧٥ ـ ١٦٧٦) بين المستوطنين والهنود ، وقد لعب دوراً قيادياً مهماً في إلهاب حماس الناس وفي مواساتهم . وقد قام مراراً بممارسة مهنة الطب.

شعره واهميته :

كتب العديد من القصائد الشعرية والتي يغلب عليها الطابع الديني التأملي. لم ينشر أياً منها في حياته، بل إنه أوصى أبناءه وأحفاده ألا يقوموا بنشر شعره. بيد أن حفيده إزرا ستايلز أودع المخطوط الذي يحتوي على أشعار تيلر في مكتبة جامعة ييل والتي كان رئيسها آنئذ. وبقي المخطوط في المكتبة لما يقرب من قرنين. اكتُشف تيلر وذاع صيته عندما تم نشر قصائده عام ١٩٣٩ . أما في حياته فلم يطلع على أشعاره إلا نفر قليل من الصحب والناس.

تبوأ تيلر بعد اكتشافه مكاناً مرموقاً بين شعراء أمريكا ، ويعود ذلك في الدرجة الأولى إلى عمق تفكيره ورصانة تعبيره. وينتمي تيلر إلى ما أطلق عليه النقاد اسم المدرسة الميتافيزيقية في الشعر، وهي مدرسة لها خصائص تميزها عن غيرها، من أهمها الخروج عن المألوف في التصوير والتعبير. فتجد أتباعها يأخذون صوراً من الحياة اليومية / البيتية والتي لم يعتبرها كثير من الشعراء مادة تصلح للشعر. فنرى تيلر يشبه الانسان في إحدى قصائده بآلة الغزل وآلة النسيج. وتقوم المدرسة كذلك على إظهار الحنكة والذكاء والفذلكة أحياناً من حيث التلاعب بالألفاظ. وقد شاع عندهم أسلوب التورية «Pun» في التعبير. كما أن أعراف المنطق في قصائدهم مخالفة لأعراف المنطق في قصائد غيرهم. وتتميز ألفاظهم وتراكيبهم بالرصانة والصعوبة والتعقيد ، لا بالسلاسة ، في معظم الأحيان . وقصائدهم في أغلبها حِوارِيّة، يقوم متحدث فيها بمحاورة الإله أو العشيقة أو الصديق أو الموت بأسلوب جريء صريح. ومن أشهر زعماء هذه المدرسة ، والذين تأثر بهم تيلر تأثراً واضحاً ، الشعراء الانجليز جون دّن وجورج هربرت وريتشرد كرشو وغيرهم.

وقد قرأ تيلر إضافة إلى هؤلاء الكتاب المقدس وعدداً كبيراً من كتب النحو. كما كان على اطلاع بأشعار آن برادستريت والتي كان يحتفظ بجزء منها في مكتبته الخاصة.

وتيلر هو شاعر صوفي النزعة، ومعظم قصائده تأملية تعبدية. من أشهرها مجموعة قصائد التفكر والتأمل التي كتبها في مجموعتين: الأولى بين عام ١٦٨٢ وعام ١٦٩٣ ، والثانية بين عام ١٦٩٣ وعام ١٧٢٥ . وهي قصائد تركز على موضوع الخطيئة والخلاص. وكتب قصائد أخرى مهمة في موضوعات دينية متشعبة تتعلق بمواضيع القضاء والقدر وشخص الإله وإرادته.

منحته جامعة هارفرد درجة الماجستير عام ١٧٢٥، وتوفي عام ١٧٢٩ .

بيتيّات (*)

ترجمة : د. أحمد يعقوب المجدوبة

محفوظ خلف الجبوري

[القصيدة التالية نموذج حيّ للشعر الميتافيزيقي الذي يعتمد على التشابيه الغريبة والرموز المعقدة والتراكيب الصعبة واللغة الرصينة. يخاطب الشاعر في القصيدة الإله طالباً منه أن يقوم بتغييره تغييراً كاملاً. ويشبّه عملية تنقية وتطهير نفسه من الآثام بإعادة بناء أو صنع آلتين استخدمها الطهرانيون في بيوتهم، آلة الغزل والنول، وبعملها. الهدف من تطهير الشاعر الصوفي نفسه هو التمكن من تمجيد الإله، ذلك الفعل العظيم الذي يتوجب على المؤمن أن يمضي كامل حياته في إعداد نفسه له] .

المحرر

اجعلني يا رب أكون بكمال مغزلك.
واجعل كلمتك القدسية فلكتي (**) .
اجعل عواطفي تكون مثل دواليب محاذفك (**) الرشيقة.
ثم اجعل ملفة (**) خيوطك المقدسة روحي.
وحديثي اجعله بكرتك.
ثم لف الخيوط التي غزلت من عجلتك.

اجعلني نوْلك اذن، لتنسج من خلاله هذه الجدلة،

(*) يشير العنوان إلى بعض الحرف البيتية التي كانت تقوم بها النسوة عادة.

(**) الفلكة ودولاب الحذف والملفة هي أجزاء من آلة الغزل.

واجعل روحك القدس، أيها الرب، تلف الخيوط،
ثم انسج النسيج بنفسك، فإن الخيط ناعم.
واملأ أواني التقطير (*) بحسب مشيئتك.
ثم اصبغ بألوان تختارها من السماء،
وطرزها بأزهار الفردوس اللامع البراق.

ثم اكسُ بعد ذلك فهمي وإرادتي
ومشاعري وملكة حكمتي وضميري وذاكرتي
وكلماتي وأفعالي، حتى يملأ إشراقها
سُبُلي بالمجد كي أُمـجّـدك.
ثم سيبدو مظهري أمامك
أني ارتديت ثياب المجد القدسية.

١٦٨٥

(*) تحتوي على سائل لغسل الخيوط وتقويتها .

الطوفان العارم

ترجمة: د. احمد يعقوب المجدوبة

[«الطوفان العارم» قصيدة ميتافيزيقية تأملية أيضاً. تقوم على التصوير الرمزي الدقيق والتعبير الايحائي؛ وهي تتطرق إلى موضوع اثم النفس الانسانية وضرورة تطهيرها عن طريق تقربها من الإله] .

المحرر

آهِ لو كان لي دمعة تطفىء ذاك اللهيب
الذي أذاب السموات العلى
فحولها إلى قطرات تنهمر
لتغرق حبنا الجسدي.
جفت خدودنا وأحجمت عيوننا عن البكاء.
أما دموع السماء فقد تفجرت، تنساب فوق خد الفضاء المعتم.

هل كانت السموات عليلة؟ وهل يجب أن نكون طبيبيها
نداويها بأقراص إثمنا؟
تتطهر فترى ما في الحشى
وتخُرج إفرازها؟
قد أذقناها العذاب بذاك الدواء حتى أمطرت
فوق رأسينا الشامخين إفرازا .

١٦٨٣

جونثن إدوردز
(١٧٠٣ ـ ١٧٥٨)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

يعدّه النقاد أول فيلسوف أمريكي مهم وآخر طهراني عظيم في نيوإنجلند. كرس معظم كتاباته، وحتى الفلسفية منها، لخدمة الدين الذي حاول نشره في فترة فتر خلالها الحماس للدين بسبب تكالب الناس على العلم والمادة. وعلاوة على ابداعه في مجال الفلسفة واللاهوت ، فإن لكتاباته صبغة أدبية جديرة بالدراسة وبخاصة نثره السلس وسرده الدقيق وتشابيهه الأخاذة. ولقد كان له تأثير كبير على أدباء أمريكا وفلاسفتها في آن واحد.

حياته :

ولد في الخامس من تشرين الأول عام ١٧٠٣ في بلدة إيست وندسر بولاية كنكتكت. وينحدر من عائلة اشتغل معظمها، أباء وأجداداً (من طرف الأم وطرف الأب)، قساوسة في الكنائس الطهرانية. وهو الابن الوحيد بين عشر بنات. أشرف على تدريسه في طفولته والداه اللذان تمتعا بعلم غزير. التحق بجامعة ييل في الثالثة عشرة من عمره، وتخرج منها عام ١٧٢٠. مكث في بلدة نيوهيفن لمدة سنتين أخريين لدراسة اللاهوت. عمل قسيساً في إحدى كنائس مدينة نيويورك عام ١٧٢٢ بعد اكماله دراسة اللاهوت، وغادرها عام ١٧٢٤ ليعمل مدرساً في ييل. بيد أن المرض حال بينه وبين عمله في ييل فغادرها ليعمل مساعداً لجده الذي كان يشرف على كنيسة نورثامبتن في ولاية مستشوستس، وكانت إحدى كنائس العصر المهمة. كان ذلك في عام ١٧٢٦. تزوج إدوردز في العام التالي. توفي جده بعد سنتين من توليه منصبه في كنيسة نورثامبتن، فاضطر ادوردز والذي كان ما زال في مقتبل العمر آنئذ إلى القيام بالمهمة الكبيرة. لم يتبع ادوردز أسلوب جده، بل أراد أن يحُيي في الناس روح الدين الحق. ولعل أهم ما يميز جونثن ادوردز إصراره

على بعث الروح والحماس اللذين كانا سائدين في أيام المستوطنات الأولى. وقد ساعده في مهمته، إضافة إلى ثقافته وحرارة إيمانه ، إلمامه بالعديد من الفلاسفة وخصوصاً جون لوك. أراد ادوردز أن يحُدث في نفس رعيته ليس فقط العلم بالدين ، بل كذلك إحساساً به. وقد تأثر بفلسفة لوك أيما تأثر. فيروي لنا النقاد أنه فرق بين معرفة الشخص لمفهوم النار مثلاً، وبين إحساسه عندما يُصلى بها. كان إدوردز يهدف من خطبه ودروسه أن يحس الناس بحرارة الإثم والايمان، وأن يكتووا بها. وقد نجح في ذلك نجاحاً كبيراً. فقد وفق في توصيل الرسالة هذه ليس فقط إلى رعيته ، بل إلى العديد من كنائس الساحل الشرقي. وقد ظهر نتيجة لعزم وتصميم إدوردز ما يسمى «الصحوة الكبرى»، وهي الشعور القوي بالدين، في زمن أخذت المادة والتوجه الرأسمالي يطغيان على عقول العديد من الناس، ولعل من أشهر أعمال إدوردز التي تظهر فلسفته الدينية هذه، خطبة «آثمون في قبضة إله غاضب» والتي يروي لنا المؤرخون أن الناس كانوا يبكون خوفاً وهلعاً وخشوعاً عندما يستمعون إليها.

بيد أن الخلاف اشتد بين ادوردز ورعيته بسبب تشدده، فاضطر إلى ترك عمله في تلك الكنيسة، بعد أن خطب فيهم خطبة وداع عام ١٧٥٠. انتقل بعدها إلى بلدة سكتبرج، والتي كانت بلدة تبشيرية يقطنها قليل من البيض وكثير من الهنود. أخرج إدوردز خلال مكوثه في هذه البلدة العديد من الأعمال الفلسفية والدينية القيمة التي لفت من خلالها أنظار العديد من الناس . وقد عرض عليه منصب رئاسة جامعة برنستن عام ١٧٥٧ ، وهو مركز مرموق لبث فيه أدوردز بضعة أشهر، ثم توفي نتيجة حقنه بطعم الجدري، ذلك المرض الذي كان منتشراً في المنطقة آنذاك، بعد أن تطوع إدوردز لأخذ الطعم.

كتاباته وأهميته:

كتب العديد من الأعمال المهمة، منها ما هو ديني ومنها ما هو فلسفي. ومن أشهر مخلفاته سيرته الذاتية التي تحكي قصة علاقته بالدين، والتي لم تكن منذ البداية علاقة حب وانسجام ، بل اعترتها مصاعب شتى. كما كتب العديد من المقالات والأعمال الفلسفية من أهمها «حرية الإرادة». وادوردز كاتب صوفي النزعة ، ومن هنا فهو يركز على الاحساس وعلى الكون والطبيعة ، لدرجة أن القارىء قد يظنه كاتباً رومنسياً للوهلة الأولى. وهو متشدد لدرجة التزمت أحياناً، على الرغم من عمق تفكيره وغزارة علمه ووضوح أسلوبه وسلاسة تعبيره. وكتاباته مهمة جداً لفهم التناقض الذي اعترى القرن الثامن عشر ، بين النزعة الدينية الأصولية والصحوة الكبرى ممثلة بادوردز وبين النزعة العقلانية العلمانية. وهي كذلك ضرورة لا بد عنها لفهم الفكر الطهراني والنفسية التي تكمن وراءه.

مختارات من

« آثـمـون فـي قـبـضـة إلـه غـاضـب »

ترجمة : محفوظ خلـف الجبوري

مراجعة : د. أحمد يعقوب المجدوبة

[تعد خطبة «آثمون في قبضة إله غاضب» من أشهر الخطب في تاريخ الأدب الأمريكي، بل لعلها أشهرها وأهمها، فقد لا يضاهيها سوى الخطبة التي استمع إليها اسماعيل قبل ركوبه البحر في رواية هيرمن ميلفل موبي ديك . ولقد قيل بأن الحاضرين كانوا يذرفون الدموع ندماً وحسرة وخوفاً كلما ألقاها عليهم إدوردز. تنبع أهمية هذه الخطبة من تفصيلها لمفهوم الإثم في العقيدة الطهرانية، وبدرجة أقل لمفهوم الخلاص. الكل آثم؛ لكن هنالك فرق بين من يتوب بحق وبين من لا يتوب. وأسلوب عرض الأفكار في الخطبة أسلوب مشوق مؤثر. ويعد ادوردز شاعر في نثره من حيث جمال الصياغة وحسن اختيار الألفاظ وهندستها] .

المحرر

« ستنزلق أقدامهم في حينه »

داود ٣٢ ـ ٣٥

في هذه الآية يهدد الإله بالانتقام من بني اسرائيل الجاحدين الأشرار الذين كانوا شعب الله المختار والذين عاشوا في ظل الرحمة الالهية، لكنهم ورغم عطايا الإله بقوا (كما في الآية ٢٨) (٢) يعوزهم الرشاد كونهم يفتقرون إلى الإدراك الحق. وبالرغم من تمتعهم بكامل العناية السماوية إلا إنهم لم يحملوا إلا الثمر الخبيث والسام كما يرد في الآيتين التاليتين السابقتين للنص. إن التعبير الذي اخترته للنص

(ستنزلق أقدامهم في حينه) يبدو موحياً للأشياء التالية، متعلقاً بالعقاب والدمار الذي تعرض له هؤلاء الاسرائيليون التعساء.

١ ـ إنهم كانوا دائماً عرضة للدمار؛ كما يكون السائر في الأماكن الزلقة عرضة للسقوط. إن ذلك توحيه طريقة الدمار التي حلت بهم حيث تُقدمهم على أن أقدامهم منزلقة. ويرد ذكر نفس الشيء في مزمار ٧٣ ـ ١٨: «إنك بحق قد وضعتهم في أماكن منزلقة؛ لقد القيت بهم الى التهلكة».

٢ ـ إنهم كانوا دائماً عرضة للدمار المفاجيء وغير المتوقع، كما يكون السائر في الأماكن الزلقة عرضة في كل لحظة للسقوط. إنه ليس بمقدوره أن يتنبأ باللحظة القادمة فيما إذا كان سيسقط أم سيبقى واقفاً؛ وعندما يسقط فإنه يسقط فجأة وبلا إنذار. كما يرد في المزمار ٧٣. ١٩ ـ ١٨: «إنك بحق قد وضعتهم في أماكن زلقة؛ لقد القيت بهم إلى التهلكة: كيف أُحضروا إلى الدمار في برهة».

٣ ـ إنهم يسقطون من تلقاء أنفسهم دون أن تتدخل يد في اسقاطهم. كما هو الحال مع ذلك الذي يقف على الأرض الزلقة فلا يؤثر عليه غير وزنه عندما يسقط أرضاً.

٤ ـ إن السبب في كونهم لم يسقطوا ولن يسقطوا الآن هو أن الله قد قدر لهم وقتاً للسقوط لم يحن بعد. فيقال أن أقدامهم ستنزلق عندما تحين ساعة القدر. حيث سيتركوا للسقوط من تلقاء أنفسهم وإن الله لن يبقيهم واقفين في هذا المكان الزلق مدة أطول من الزمن. وعندما يكونوا مهيئين فإنهم سيسقطوا في التهلكة؛ كما هو حال من يقف في أماكن زلقة مائلة على حافة هوة فإن ليس بمقدوره الوقوف بنفسه، فعندما يترك فإنه يهوي على الفور ويختفي.

إن الملاحظ من الكلمات التي أصر عليها هو «إنه لا شيء يقي الأشرار من جهنم سوى رغبة الإله المجردة. واقصد برغبة الإله المجردة رغبة الرب وإرادته المطلقة التي لا يحددها وعد ولا تعيقها صعوبة. لا شيء سوى إرادة الرب نفسه على أقل تقدير أو في أي اعتبار وليس أية قوة أخرى للحفاظ على الأشرار في لحظة.

إن حقيقة هذه الملاحظة قد تظهر في الاعتبارات التالية :

١ ـ إن الله لا تعوزه القوة ليلقي بالأشرار في الجحيم وفي أية لحظة. إن أيدي الناس تصبح عاجزة إذا ما هم الرب بشيء. الأقوياء لا حيلة لهم أمامه، ولا يستطيع أن يفلت من يديه أحد.

إنه ليس قادراً على إلقاء الأشرار في النار فحسب، بل إنه يفعل ذلك بسهولة بالغة. إن أميراً من أمراء الأرض قد يواجه صعوبة في دحر من تمرد عليه لا سيما إذا ما تحصن ذلك المتمرد أو عزز قوته بأتباع. لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لله . فلا شيء يقف بوجه قوة الله ، حتى لو تلاحمت الأيدي أو تجمع العدد الهائل من أعداء الرب فإنهم سوف يتناثروا إلى أجزاء. إنهم كأكوام من القشور في مهب الريح أو كالقش تلتهمه النار. إنّا قادرون على سحق دودة تزحف على الأرض؛ ولذلك فإنه من الهين أن نقطع أو نحرق خيطاً رفيعاً يتعلق به شيء ؛ وهكذا فإنه هين على الله ، عندما يرغب ، أن يلقي بأعدائه بالنار. ماذا نكون نحن حتى نعتقد أننا قادورن على الوقوف بوجه الله الذي تهتز له الأرض وتسقط أمامه الصخور.

٢ ـ إنهم يستحقون أن يلقى بهم في الجحيم؛ فلا تقف في طريق الله عدالة السماء ولا تعترض على استخدامه لسلطته ليهلكهم في أية لحظة. بل على العكس فإن العدالة تدعو إلى عقوبة غير محددة جزاء لذنوبهم. فعدالة السماء تقول عن الشجر الذي يحمل أعناب سدوم (*) « اقطعها ، فلماذا تثقل كاهل الأرض ؟ » لوقا ١٣ . ٧. إن سيف عدالة السماء شرع دائماً على رؤوسهم ولا شيء يعيد هذا السيف سوى يد الرحمة وإرادة الله .

٣ ـ إنهم قد حكموا فعلاً باللعنة في الجحيم. إنهم لا يستحقون أن يلقوا في النار فحسب، بل حكم القانون الالهي، وهو الحكم الأزلي الثابت العادل الذي قدره الله بينه وبين البشر، يقع عليهم ويقف ضدهم ولذلك فهم مدعوون إلى الجحيم. يوحنا ٣ ـ ١٨ «من لم يؤمن يكون قد حكم عليه حقاً» لذلك فإن كل

(*) Sodom مدينة بفلسطين القديمة غضب الله على أهلها بسبب فسقهم. (المحرر)

من لم تثبت توبته بعد فهو في النار التي هي مثواه، وهو منها. في يوحنا ٨ ـ ٢٣: «أنتم من الأسفل». وهناك مصيره : إنه المكان الذي حدده الله والعدالة السماوية وحكم الله بقانونه الأزلي.

٤ ـ إنهم الآن هدف لنفس ذلك الغضب الإلهي المعبر عنه بعذاب الجحيم. وإن سبب عدم هبوطهم الى الجحيم في كل لحظة ليس كون الله ، الذي يخضعوا لسلطته، غير غاضب جداً كما هو الحال مع الكثير من المخلوقات التعيسة التي تتعذب في النار، والذين يحسون ويتحملون هناك شدة غضب الله. بلا إن الله غاضب كثيراً على عدد كبير من سكان الأرض: نعم ،بلا شك، مع الكثير ممن هم الآن في مخلوقاته ممن يعيشون في دعة أكثر مما هو غاضب على أولئك الذين يتعذبون في الجحيم.

لذلك فإن هذا لا يعني جهل الله لشرهم أو شعوره بالمرارة لإنه لا يتنزل بهم العذاب، فالله ليس شبيهاً بهم حتى لو إنهم اعتقدوا أنه كذلك. إن غضب الله يتأجج عليهم وإن لعنته لا تنام فالجحيم جاهزة والنار حاضرة وحامية ومستعدة لابتلاعهم؛ فاللهب يتأجج ويتوهج. السيف اللامع قاطع ومرفوع فوق رؤوسهم والجحيم فاغرة فمها تحتهم.

٥ ـ الشيطان يقف مستعداً للانقضاض عليهم وامتلاكهم في اللحظة التي يسمح الله له بها . إنهم جزء منه ، وإنه يمتلك أرواحهم وهم تحت سلطته . ويقدمهم الانجيل على إنهم حاجيات الشيطان. انجيل لوقا ١١ ـ ١٢ تراقبهم الشياطين؛ أنهم تحت متناول يدهم اليمنى؛ إنهم يقفون بانتظارهم كأسود جائعة نهمة تنظر إلى فريستها وتتوقع إمساكها، لكن لم يأذن لها بعد. فإذا ما سحب الله يده التي تحدد حركتهم فإن الشياطين سوف ينقضوا عليهم فوراً. والأفعى (*) العجوز تتلهف لازدرادهم والجحيم فاغر فاه لتلقيهم، ولو أوعز لها الله فإنهم سيبتلعون بسرعة ويختفون.

٦ ـ هناك في أرواح الأشرار تكمن مبادىء جهنمية يمكن أن تحترق وتتأجج اشتعالاً

(*) أي الشيطان . (المحرر)

لو شاء الله . إن في جسد الانسان ذاته ما يبرر عذاب الجحيم. فهناك تلك المبادىء الفاسدة، تسود في أجسادهم وتتملكهم وهي بذور نار الجحيم. وهذه المبادىء فعالة وقوية وتفوق بطبيعتها حدود العنف ، ولولا تحكم الله بها لانفجرت واشتعلت بنفس الطريقة التي يؤثر بها نفس الفساد ونفس الكراهية في قلوب الأرواح الملعونة ولسوف يجلب نفس العذاب الذي يفعله بهم. إن الكتاب المقدس يشبه قلوب الأشرار بالبحر الهائج ، سفر عيسى ٥٧ ـ٢٠ (٥) فإن الله في هذا الزمن يتحكم بخطرهم بما يمتلك من قوة تماماً كما تكون الأمواج الهائجة في البحر بقوله «هنا ستأتين، وليس أكثر من هذا الحد». أما إذا ما ترك الله التحكم بها فإنها ستجرف كل ما يأتي في طريقها. إن الخطيئة هي سبب الهلاك والتعاسة للروح؛ إنها مدمرة بطبيعتها؛ وإذا ما تركها الله بلا رادع فلن تكون هناك حاجة لشيء آخر ليجعل الروح أكثر شقاءً. إن فساد قلب الانسان ليس له حدود في الغضب ؛ فبينما يعيش الناس هنا فإنها كالنار التي تحبسها إرادة الله، أما إذا ما أطلقت فإنها ستحرق كل شيء؛ وكما يكون القلب غشاءً للخطيئة فإن لم تكن الخطيئة محجمة فإنها ستحول الروح إلى جحيم حارق.

٧ ـ إن عدم وجود دلائل على كون الموت وشيكاً لا يمثل مصدراً للطمأنينة للأشرار. إنه ليس من الأمان بشيء أن يتمتع أحدنا بالصحة فهو لا يدرك في أية لحظة سوف يفارق الحياة في حادث مفاجىء. فليس هناك خطر محدق فيما يتعلق بوجوده. إن تجربة العالم المتواصلة والمنوعة وفي كل الأزمان تظهر أن لا دليل على أن الانسان على حافة الخلود وأن الخطوة التالية لن تكون في العالم الآخر. إن الطرق غير المتوقعة واللامرئية للأشخاص ممن يغادرون الحياه بغتة هي متعددة وغير محسوسة. إن الذين لم يتوبوا يسيرون فوق غطاء الجحيم المهترىء، وهناك الكثير من نقاط الضعف في هذا الغطاء مما لا تتحمل معه أي ثقل وهذه النقاط غير مرئية. إن سهام الموت تحلق غير مرئية في النهار؛ كما أن أكثر الأبصار حدة تعجز عن ادراكها. إن لله وسائل متنوعة لارسال الأشرار خارج الحياة وإلقائهم في الجحيم. حتى أن الله ليس بحاجة الى أن يبدو أنه على

وشك القيام بمعجزة أو أنه بحاجة إلى الخروج عن المألوف عن عنايته لكي يهلك الأشرار في أية لحظة.

* * *

تطبيق

إن الجدوى من هذا الموضوع المخيف ما هي إلا لايقاظ أولئك الأشخاص الذين لم يحققوا شروط التوبة بعد في هذا الجمع. وهذا ينطبق على كل من هو خارج المسيح. إن ذلك العالم من التعاسة وتلك البحيرة من الكبريت تتسع تحتك. هناك تكمن الهوة المرعبة للهب الغضب الالهي المتأجج. هناك تفتح الجحيم فمها. وأنت لا تجد شيئاً تقف عليه ولا شيئاً تتمسك به. ليس هناك بينك وبين الجحيم سوى الهواء، إنها قوة الله وإرادته وحدها التي تمسك بك.

قد لا تكون تدرك ذلك فأنت ترى نفسك وأنت بعيد عن النار لكنك لا ترى يد الله . لكن لو نظرت الى أشياء أخرى مثل خلقتك الرائعة واهتمامك بحياتك والوسائل التي تستخدمها للمحافظة على هذه الحياة. تجد أن هذه الأمور حقاً لا تمثل أي شيء، فلو سحب الله يده فلن يبقى هناك ما يحفظهم من السقوط أكثر من ذلك الهواء ليمسك بالفرد المتعلق به.

إن الشرور تجعل منك ثقلاً كالرصاص لتنحدر بثقل وبضغط هائل بإتجاه الجحيم؛ وإذا ما تخلى عنك الرب فإنك ستغرق وتنحدر بسرعة في ذلك البحر الذي لا قرار له. وكل ما تملك من حسن الخلقه والاهتمام والمهارة والقدرة وحب العدل لن يكون لها أي دور للإبقاء عليك بعيداً عن الجحيم، تماماً كما يعجز خيط العنكبوت عن إيقاف حجر ساقط . ولولا أن أراد الله لما احتملتك الأرض ولو لبرهة لأنك عبءٌ عليها ؛ والخلق يئن معك ، فالمخلوق جُعل عرضة لتسلط فسادك ، مجبراً . إن الشمس لا تشرق بإرادتها لتعطيك النور لتخدم المذنبين والشياطين ، والأرض لا تعطي من الثمر بإرادتها لتشبع رغباتك ، ولا تجعل من نفسها مسرحاً تؤدي عليه شرورك ولا الهواء يوفر لك النفس لتبقى جذور الحياة في

عـروقك، بينما أنت تفني حيـاتك في خـدمـة أعداء الله. إن مخلوقات الله مفيدة وقد خلقت ليـخـدم الناس بها الله، وهي لا تنحـرف بإرادتها لأغراض أخرى وتئن إذا ما استـغلت لأغـراض تناقض بشكل مـبـاشر طبـيـعـتـها والقصد من وجودها. والعالم سيـلـفـظـكـم لولا أن أرادت يد الله غير ذلك. وفي السماء هناك غـيـوم سـوداء من غـضب الله فـوق الرؤوس مليئة بالأعـاصير المرعبة ومثقلة بالرعد، ولولا أن تحكمت بها يد الله لانفـجـرت فـوقكم. إن الرغبة الإلهية في هذا الزمن الحاضر تؤجل زوبعتها التي لو حضرت لحضرت بكل عنفـوانها ولجـاء هلاككم كـالدوامة ولكنتم كالهشيم.

إن غـضب الله يشـبـه البـحـار الهائلة التي قد سُدت منافذها في الحاضر وهي تزداد وتزداد ثم تعلو حـتى يؤذن لها. فكلما حـبـست أكـثـر كلما كان اندفاعها أعنف وأسرع. صـحـيح أن الحكم على أفـعالك الشريرة لم ينفذ بعد وأن طوفان انتقام الإلٰه لا زال محبـوسـاً لكن ذنبك يزداد باضطراد وأنت تكتنز كل يوم غـضـباً فوق غضب، فـالميـاه تزداد ارتفـاعـاً وليس هناك سـوى إرادة الله تصدها وهي تأبى التوقف وتضغط بشـدة من أجل الخـروج. فلو سـحب الله يده عن بوابتـهـا لاندفعت ولاندفع طوفان غـضب الله القـاهر بغـضب لا يقـدر ولو كـانت قـوتك عشرة أضعاف، نعم، عشرة أضـعـاف قوة الشيطان الأقوى والأشد فلن يمكنك الصمود ولا التحمل.

إن قـوس الغـضب الالهي منحني والسـهم على أهبـة الانطلاق والعـدالة تسدد السـهم الى قلبك وتشـد ، وليس سوى إرادة الله، الله الغاضب الذي ليس ملزماً بأي وعـد على الاطلاق، هي التي تصد السهم لبرهة من أن يتجرع دمك.

وهكذا فكل من لم يجرب قلبـه التـبـدل، بقوة روح الله على أرواحكم، كل من لم يولد من جـديد وجـعل منه مخلوقاً جديداً ورفع من حالة الموت في الخطيئة إلى حالة أخـرى جـديدة ولم يحيـا من قـبل حـيـاة النور هم في يدي الإلٰه الغاضب. وعلى كل حـال فـربما تكون قـد اصلحت جـوانب كثيرة في حياتك وقد تكون لك عاطفة دينية أو قـد تـكون محافظاً على شيء من الدين في عـائلتك ومحيطك، وفي أرض الله، ليس هناك سـوى إرادته التي تحفظك في هذه اللحظة من الهلاك الأزلي.

ومـهما تكن درجـة شكك بالحـقيقة التي تسمعها إلا إنك في النهاية سوف تقنع بها كليـاً. وأولئك الذين مـا عـادوا معك في الحال يرون أن الأمر كان كذلك معهم،

لأن الهلاك حل بهم بغتة عندما لم يكونوا يتوقعون وبينما كانوا يرددون السلام والأمان: الآن يرون أن تلك الأشياء التي ظنوا أنها تمنحهم السلام والأمان ما هي إلا هواء وأوهام فارغة.

إن الرب الذي يمسك بك فوق فوهة الجحيم كأنه يمسك عنكبوتاً أو حشرة حقيرة فوق نار مشتعلة ، يمقتك ويغضب عليك بشدة ويتأجج غضبه كالسعير . إنه ينظر إليك كمخلوق لا تستحق أكثر من أن تلقى في النار . إن عيناه أطهر من أن يرتسم فيها منظرك. إنك أبغض إليه ألف مرة من بغضنا لأفعى سامة حقيرة . لقد أغضبته أكثر مما يفعله أي متمرد عنيد على سيده . ومع ذلك فإنه وحده الذي يقيك شر السقوط في الجحيم . له وحده يرجع السبب في أنك لم تذهب الى الجحيم في الليلة الماضية ؛ وأنك استيقظت مرة أخرى في هذا العالم بعد أن أغمضت عينيك . وليس هناك تفسير لكونك لم تسقط في الجحيم ساعة نهضت في الصباح سوى أن يد الله قد منعت ذلك . ليس هناك سبب لعدم دخولك الجحيم منذ أن جلست في دار الرب ، تثير غضب عينيه الطاهرتين بفعلك الخاطيء الشرير بابتعادك عن عبادته . نعم ليس هناك مبرر لأنك لم تسقط في هذه اللحظة بالذات في الجحيم.

أيها الآثم! فكر بالخطر الذي يحدق بك؛ إنه جحيم من الغضب، هوة واسعة لا قرار لها تتأجج بنار الغضب التي تتعلق فوقها بيد ذات الرب، الذي استثار غضبه عليك بقدر غضبه ضد العديد من نزلاء الجحيم. إنك تتدلى بخيط واهن تتهددها نيران الغضب الالهي. وهي مستعدة في كل لحظة لتحرقها وتمزقها إرباً. وأنت لست مهتماً بأي وسيط ولا شيء تمسك به لتنقذ نفسك: لا شيء يبعد ألسنة اللهب الغاضب، لا شيء مما تمتلك، لا شيء مما فعلت وليس بمقدورك فعل شيء لتقنع الله ليبقيك لحظة أخرى.

تمعن هنا على وجه التحديد بما يخص الغضب الذي أنت في خطر منه.

١ ـ غضب من ذلك؟ إنه غضب الرب الدائم. لو كان غضب البشر فقط، حتى لو كان ذلك البشر هو أشد الأمراء فإنه بالمقارنة حقير جداً ليؤخذ بالاعتبار . إن غضب الملوك مرعب كثيراً لا سيما الملوك المطلقون الذين يمتلكون حياة

وممتلكات الرعية كلياً، ليجردوهم من إرادتهم. المثل (*) ٢٠ ـ ٢ : «إن غضب الملك كزئير الأسد : من أثار غضبه ، يذنب بحق نفسه» . إن التابع الذي يثير حنق الأمير مستبد يعرض نفسه لأشد أنواع العذاب قسوة مما ابتدعته أيدي البشر أو ما تستطيع أن تلحقه قوة البشر. إلا أن أعظم ملوك الأرض بكل ما يمتلكون من قوة وجبروت ما هم إلا مخلوقات واهنة، ديدان تراب حقيرة بالمقارنة بالخالق والملك العظيم للسماء والأرض. ومهما استشاطهم من الغضب أو استثاروا غضبهم إلى أقصاه فليس بوسعهم أن يفعلوا غير القليل وما هم إلا كالجراد . إنهم لا شيء بل أقل من ذلك . ويا لسخف حبهم وبغضهم . إن غضب ملك الملوك العظيم أشد هولاً من غضبهم كما هو حال جلاله. وفي انجيل لوقا ١٢ . ٤ ـ ٥ : «واخبركم يا أصحاب، لا تخشوا القتلة فإنهم بعد ذلك لن يكونوا قادرين على فعل شيء. لكني أحذركم ممن يجب أن تخشوه: اخشو من له قدرة على أن يلقي في الجحيم ذلك الذي قتل النفس: أجل، إني أخبركم أن تخشوه» .

٢ ـ إن ما تتعرضون له ما هو إلا شدة غضب الله . غالباً ما نقرأ عن غضب الله كما يرد في سفر عيسى ٥٩ ـ ١٨ : « طبقاً لما يفعلون، طبقاً لذلك سوف يسلط الله غضبه على خصومه » ، كذلك في اصحاح عيسى ٦٦ ـ ١٥ : « انظروا ، سيأتي الرب بناره وعرباته كالزوبعة ليؤطر غضبه بالعنف وتعنيفه بلهيب النار » كما في أماكن أخرى كثيرة. فمثلاً في سفر الرؤيا ١٩ ـ ١٥: نقرأ عن « معصرة الغضب والعنف الالهي » . إنها لكلمات مرعبة جداً . لو أنها كانت مجرد «غضب الله» لكان معناها يوحي عن تلك الأشياء المرعبة بشكل لا متناهي: إلا أنها «الغضب والعنف الالهي». الغضب الالهي ! العنف الالهي ! إن ذلك لابد أن يكون مخيفاً جداً ! من ذا يقدر على نطق أو إدراك ما تحمله هذه التعابير من معاني ! لكنها أيضاً «الغضب والعنف الإلهي» . كما لو سيكون هناك اظهار هائل لجبروته فيما سيُلحقه عنف غضبه ؛ كما لو أن هيمنته ستكون كما هي في حالات الغضب وعندما تمارس كما اعتاد الرجال ممارسة العنف في حالات

(*) من الكتاب المقدس

الغـضـب . فماذا سـتكون العـاقـبة ! ماذا تراه يحل بتلك الديدان المسكينة التي سـتـقع تحت طائلتـه . لمن القـوة إذن ؟ ومن سيكون له قلب يحتمل ؟ وإلى أية أعماق رهيبـة من البؤس الذي يعجـز عنها التعبير والادراك ، ستلقى المخلوقات المسكينة ممن سـيكونون تحت رحمة هذا الغضب!

* * *

كم هي مـرعـبـة حـالة أولئك الذين هم في كل يوم وكل سـاعـة في خطر هذا الغـضب العظيم وهذا التـعس الأبدي! إلا أن هذه هي الحـال القـائمة لكل روح في هذا الحـشـد لم تولد من جديد مهما كانت عليه من خلق وصرامة ووقار وإيمان، إنك سـوف تنظر في ذلك سـواء كنت شـاباً أو شـيـخـاً. هناك سـبب كاف للاعتقاد بأن العـديد من بين هذا الجـمع ممن يسـتـمـعـون إلى هذا الحـديث سيكونون عرضة لهذا التـعس حتى الأزل، إننا نجهل من يكونوا أو في أية مقاعد هم يجلسون أو بأي شيء تراهم يفكرون الآن. ربما كـانوا في دعة الآن، أو يستمعون لكل هذا بلا أدنى قلق، أو تراهم يخادعـون أنفـسـهم بأنهم ليـسـوا هم الأشـخـاص المقـصـودين، أو يعدون أنفسـهم النجـاة. فلو علمـوا أن هناك فـرداً واحـداً، ليس إلا، في كل الجمع، هو الذي سـيكون عـرضـة لهذا البـؤس، فأي أمـر مرعب سيكون التفكير في ذلك! فلو علمنا من يكون ذاك، فأي مـشـهد مفزع هو مشهد ذاك الفرد. فأي صرخة رثاء مرّة سـيطلقـهـا الجمع لمصيره! لكن واحسرتاه! بدلاً من واحد، كـم من الناس سيتذكرون ذلك في الجـحـيم وسـيكون أمـراً غـريبـاً إذا لم يذهب بعض من الحـاضرين الآن إلى الجـحيم في زمن قصير حتى قبل نهاية هذا العام. ولن يكون غريباً لو أن البعض ممن يجلسـون هنا الآن في بعض مـقـاعد هذا الملتقى وهم يرفلون بالصحة والهدوء والأمان سـيـذهبون هناك حتى قبل صباح الغد. أما الذين سيستمرون بشكل طبيعي والذين سـيـبـقـون بعيدين عن الجحيم فسرعان ما سيكونون هناك. إن لعنتك لا تغفو بك، سـتأتي مسرعـة وعلى أغلب الاحـتـمال ستأتي بسرعة فائقة على الكثير منكم. لك الحق أن تعـجب انك لا زلت بعـيداً عن الجحيم. لا شك أن تلك حال بعض من عرفت أو رأيت ممن هم ليـسـوا أحق بالجـحـيم منك، لكن الظاهر أنهم لا زالوا يتـمـتـعـون بالحـيـاة كما تفـعل أنت. إن حـالتـهـم مـيـؤسة ،هم ينعبون في يأس وبؤس بالغين.

لكنك هنا في أرض الحياة وفي بيت الله ولك نصيب في النجاة. ترى ما الذي تعرضه تلك الأرواح اليائسة الملعونة لقاء فرصة يوم واحد كيومك الذي تستمتع به.

إنك تملك الآن فرصة استثنائية، يوماً فتح فيه السيد المسيح أبواب الرحمة على مصاريعها. ويقف منادياً وصارخاً بصوت مرتفع بأولئك المخطئين المساكين. إن كثيراً من الناس يحضرون في كل يوم من الشرق والغرب والشمال والجنوب؛ الكثير ممن كانوا قبل وقت قصير بحال بائس كحالك والآن هم في سعادة حيث امتلأت قلوبهم بحب الله الذي أحبهم، الذي غسل عنهم خطاياهم بدمه وهم فرحين في أمل مجد الله. أي تعس أن يَخَلّف أحد ما في يوم كهذا! لترى كثيراً من الناس ينعمون بالخير بينما أنت تذوي وتهلك! ولترى الناس تحتفل وتغني لفرط السعادة بينما أنت تجد مناسبة للنعيب لما في القلب من حزن وتصرخ لحيرة الروح! كيف يمكنك أن تجد دقيقة راحة في حال كهذا؟ أليست أرواحكم غالية كأرواح سكان سوفيلد (*) الذين يتوجهون بجماعات يوماً بعد يوم إلى المسيح.

* * *

فدع أولئك الذين هم خارج المسيح وهم معلقون على فوهة الجحيم سواء كانوا شيوخاً أم متوسطي العمر أم شباباً أو أطفالاً صغاراً دعهم يسمعوا الدعوات العالية من كلام الله وعنايته. إن سنة الرب المقبولة هذه، اليوم المفضل للبعض، ستكون بلا شك يوم انتقام مشهود للآخرين. حيث تقسى قلوب الرجال وتتعاظم ذنوبهم في يوم كهذا فيما لو استخفوا بأرواحهم؛ ولم يكن هناك خطر أكبر من أولئك الذين أسلموا أنفسهم لقساوة القلب وعمى العقل. إن الرب يبدو وكأنه بدأ يجمع بسرعة الأخيار في الأرض ومن المحتمل أن الجزء الأكبر من الشباب البالغين ممن سينجون سيُحضَرون في زمن قصير وستكون كما كانت في انسكاب الروح العظيم على اليهود في أيام الرسل؛ سيحصل الاختيار وتعمى بصيرة الآخرين. فإذا ما كنت من هذا النوع فستلعن هذا اليوم إلى الأبد وستلعن اليوم الذي فيه ولدتك أمك لتشهد هذا الفصل الذي ينهال فيه غضب الله وستتمنى لو أنك مت وذهبت إلى

(*) «مدينة في الجوار» . (ملاحظة ادوردز)

الجحيم قبل هذا اليوم. والآن لا شك إن هذا ما يحصل كما كان في أيام يوحنا المعمدان فالفأس قد وقع بطريقة غريبة على جذور الشجر حيث تقطع كل شجرة لا تحمل ثمراً نافعاً وتلقى في النار.

إذن ليصحو كل البعيدين عن المسيح الآن ولينجو بأنفسهم من الغضب القادم. فمما لا شك فيه أن غضب الله يخيم الآن فوق جزء كبير من هذا الجمع. فليهرب الجميع عن سدوم «أسرعوا بالهرب وانجوا بأنفسكم ولا تلتفتوا إلى الوراء، اهربوا إلى الجبال، وإلا التهمتكم النار» .

١٧٤١

بنجمن فرانكلن
(١٧٠٦ ـ ١٧٩٠)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

يعدّه البعض العمود الفقري للقرن الثامن عشر ولعصر التنوير بالذات . وهو أنموذج يحتذى، عاش حياة مفعمة بالعمل والنشاط. طرق أبواباً عديدة وحقق نجاحات باهرة في مجالات شتى. فلقد كان عاملاً في إحدى المطابع ثم صار مالكاً لها ، وكان ناشراً وصحفياً وكاتب مقالات وعالماً وفيلسوفاً وتاجراً وتربوياً ومخترعاً وسياسياً مخضرماً، الخ.

حياته :

ولد في مدينة بوسطن الأمريكية في ١٧ كانون الثاني ١٧٠٦ . كان الطفل الخامس في عائلته. اشتغل أبوه في صناعة الصابون والشموع. دخل فرانكلن مدرسة النحو في بوسطن وحقق تميزاً واضحاً فيها، انتقل بعدها إلى مدرسة خاصة. بيد أنه ترك المدرسة في سن العاشرة وساعد والده في إدارة عمله. لكنه كره طبيعة العمل، فأخذ يتتلمذ على يدي أخيه جيمس في حقل المطابع. أحب العمل مع أخيه، سيما وأنه كان قريباً من صناعة نشر وبيع الكتب التي عشقها كثيراً. ألف بضع قصائد ، غير أن أباه لم يشجعه على ذلك قائلاً إن الشعر صنعة الفقراء والمتسولين . فوجه فرانكلن جل اهتمامه للكتابة النثرية . كتب العديد من المقالات في جريدة أخيه عام ١٧٢٢ . لكنه اختلف معه، ولم ينسجما قط، فهرب فرانكلن إلى مدينة فيلادلفيا عام ١٧٢٣ .

كانت تلك بداية اعتماد فرانكلن على نفسه وبداية نجاحاته والتي تحققت بعد ثمة محاولات فاشلة. عمل في فيلادلفيا في مطبعة متواضعة يملكها شخص اسمه كايمر. اقترح عليه حاكم

فيلادلفيا آنئذ أن يسافر إلى لندن من أجل أن يتعلم صناعة المطابع ويشتري آلات ويعود إلى فيلادلفيا. سافر فرانكلن إلى إنجلترا، وكان حماسه للمشروع منقطع النظير. لكنه اكتشف هناك أنه لا يستطيع الاعتماد على الحاكم وأنه قد خدع. ومع ذلك فقد كان صلب الشكيمة قوي العزيمة. فوجد لنفسه عملاً في إحدى المطابع المهمة. كان يعمل بنشاط في النهار ويلم بأمور الصنعة وخباياها ويجتمع مع بعض مشاهير العلماء والمفكرين والفلاسفة في الليل.

رجع إلى فيلادلفيا عام ١٧٢٦ واشتغل كاتباً عند أحد التجار. لكن ذلك التاجر ما لبث أن توفي فعاد فرانكلن للعمل عند كايمر مرة أخرى. أشرف فرانكلن في تلك الأثناء على إحدى الصحف وتزوج عام ١٧٣٠ من فتاة كان قد رآها عند دخوله فيلادلفيا هارباً من أخيه ومن أهله. كان فرانكلن قد أسس في تلك الأثناء نادي «الجنتو»، وهو عبارة عن محفل يجتمع فيه نخبة من المفكرين والقراء بهدف التثقيف وتبادل الآراء.

كان فرانكلن مقتنعاً أن الفرد يجب أن يعمل ليس فقط لرفعة ذاته وسموها ، بل كذلك للنهوض بمجتمعه. وتعتبر خدمة المجتمع من وجهة نظر فرانكلن أعظم شيء يقوم به الانسان. ومن هنا تجده يتوجه إلى إنشاء العديد من المؤسسات العامة، من أهمها مكتبة عامة تهدف إلى نشر العلم والثقافة. وقد ساهم في إنشاء مجموعة صحف ومجلات.

وفي عام ١٧٣٧ عين مديراً للبريد في فيلادلفيا. ونتيجة لاهتمامه بالعلم وتطبيقاته المختلفة اخترع مدفأة فرانكلن. وقام، مدفوعاً برغبته في خدمة الثقافة في مجتمعه، بإنشاء الجمعية الأمريكية الفلسفية، التي كان لها وما زال دورها الفاعل في خدمة الفكر والعلم والثقافة. بدأ بدراسة الكهرباء عام ١٧٤٦ ، وساعد عام ١٧٤٩ في تأسيس أكاديمية فيلادلفيا، والتي أخذت تعرف بعدها بجامعة بنسلفانيا.

شرع بعد ذلك ، وبعد تحقيق نجاحات ملحوظة في مشاريعه التجارية المختلفة، بتكريس وقت أكبر للعلم والسياسة. فقد ساهم في عقد اتفاقية مع الهنود الحمر عام ١٧٥٠ . وكشف من دراسة الكهرباء عام ١٧٥١ ، وتمكن من اكتشاف مانعة الصواعق والتي انتشرت في العالم أجمع وحمت العديد من الخطر الناجم عن الرعد والبرق . ومن ضمن أفعاله الخيرية في تلك الفترة تأسيسه مستشفى في فيلادلفيا.

عين عام ١٧٥٣ نائباً لمدير البريد في ولايات شمال أمريكا ، وقام عام ١٧٥٤ باقتراح فكرة إتحاد الولايات الأمريكية في مدينة أولبني. مثّل ولاية بنسلفانيا في بريطانيا بين ١٧٥٧ و١٧٦٢، وقد تجول في خلال تلك الفترة في عدد من البلدان الأوروبية وحصل على عدد من الشهادات العليا من جامعات بريطانية مرموقة في مجال القانون . رجع إلى أمريكا مدة من الزمن ، ثم مثل

ولاية بنسلفانيا وعدداً آخر من الولايات في بريطانيا بين ١٧٦٤ و ١٧٧٥ .

عين عام ١٧٦٩ أول رئيس للجمعية الأمريكية الفلسفية. بدأ بكتابة سيرته الذاتية الشهيرة عام ١٧٧١ . توفيت زوجته عام ١٧٧٤ ، وعين في العام التالي مديراً لبريد الولايات كلها ، ثم اختير في عام ١٧٧٦ عضواً في لجنة تحضير إعلان الدستور . أما في الفترة الواقعة بين ١٧٧٧ و١٧٨٥ فغادر إلى فرنسا ليكون سفيراً لبلاده في بلاط الملك لويس السادس عشر، وقد خدم بلاده في تلك الفترة الحرجة (فترة الثورة الأمريكية والتي ساعدت فيها فرنسا أمريكا على الاستقلال) أيما خدمة. وقد اختير في عام ١٧٨١ عضواً في لجنة الهدنة والسلام مع بريطانيا. وتوفي، بعد أن قضى حياته في خدمة بلاده، عام ١٧٩٠ .

كتاباته وأهميته :

تنبع أهمية فرانكلن، إضافة إلى إسهاماته العديدة المبينة أعلاه، من أنه أولاً ، وكما ذكرنا آنفاً، يعد مثلاً يحتذى أثّر في الأجيال الأمريكية من بعده تأثيراً كبيراً . فلقد حذى حذوه العديد، في يومه وفي أيامنا هذه . فهو الذي قد رسخ فكرة الاعتماد على النفس في أذهان الكثير، وهو الذي علم الأجيال كيف يمكن أن يبدأ الفرد حياته «فقيراً وشبه نكرة»، كما قال، ثم يحقق شهرة وصيتاً. وهذا ما أخذ يعرف فيما بعد بفكرة «الحلم الأمريكي». وتنبع أهميته، ثانياً، من أنه وجه المجتمع الأمريكي وجهة علمانية تقوم على احترام قدرات الفرد ومواهبه والثقة العمياء في عطائه. وهو يخالف بذلك فكر الآباء الطهرانيين المثبط للعزيمة في بعض من جوانبه. فهو يمثل وجهة نظر عصر التنوير، وجهة نظر الانسان العقلاني المتفتح الواقعي. وتنبع أهميته كذلك من حكمه المختلفة التي أطلقها ومارسها في ذات الوقت. فهو القائل، على الرغم من الأموال الطائلة التي كان يملكها : «لا تبذير، لا عَوز» . وهو القائل : «نم مبكراً ، تجد نفسك صحيح الجسم طائل الثروة حكيماً» . لقد كان فرانكلن يبدأ يومه الساعة الخامسة صباحاً ، ولقد كان يستثمر كامل وقته وجهده.

كتب فرانكلن الكثير . بيد أن أهم مؤلفاته سيرة حياته ، والتي قص فيها بأسلوب سلس مشوق وبتفصيل دقيق ونظر ثاقب أسباب نجاحه وفشله في حياته ومشاريعه المختلفة التي أقامها. كما قص علينا كذلك الحياة الفلسفية والعقلية والايدولوجية التي وقفت وراء ذلك النجاح أو الفشل . وأعماله مهمة جداً لفهم نمط تفكير وأسلوب حياة شريحة كبيرة من المجتمع الأمريكي ومن الثقافة الأمريكية قديماً وحديثاً.

مختارات من
السيرة الذاتية (*)

[سيرة بنجمن فرانكلن هي من أفضل كتاباته، ذلك لأنها تروي لنا ليس فقط قصة حياته بأدق تفاصيلها، بل كذلك أسباب نجاحه وشهرته. وهي كذلك تضع أمامنا صورة حية لنموه العقلي والنفسي، إضافة إلى مبادئه التي آمن بها وطريقة العيش التي اختار. والسيرة الذاتية بشكل عام هي نمط أدبي تجدر دراسته لما تحتويه من أفكار تساعد على فهم فلسفة الكاتب نفسه وفلسفة شريحة لا بأس بها من العصر الذي ينتمي إليه. ولعل سيرة فرانكلن هي أهم النوافذ التي نتمكن من خلالها من الاطلال على عصر التنوير. نختار هنا الجزء الذي يتحدث فيه فرانكلن عن المثل التي بنى حياته عليها والتي تعد من أهم مبادىء الحركة الربوبية التي انتمى إليها فرانكلن بإخلاص] .

المحرر

«هنا سأرضي تلك النزعة المألوفة في الشيوخ : نزعة التحدث عن أنفسهم وأعمالهم الماضية، دون أن أزعج بها غيري ممن يحسبون ـ رعاية للسن ـ أنهم مطالبون بالإصغاء إليَّ، إذ كان في وسعهم أن يقرأوا أو يدّعوا القراءة متى شاءوا. وسأعترف أخيراً بأنني سأرضي غروري لأنني ان أنكرته لن يصدقني أحد. والحق أنني ما سمعت ولا قرأت قولة لقائل في التمهيد لكلامه أنه لا يريد أن يدعى أو يغتر. . . إلا رأيت بعد ذلك ضرباً من الادعاء أو الغرور يأتي على الأثر. وإن كثيراً من الناس ليبغضون الغرور في الآخرين مهما يكن من وفرة نصيبهم منه ، ولكنني تعودت أن أفسح له مكاناً كلما التقيت به، لعلمي أنه يفيد أحياناً من يغترون ومن يتصلون بهم في جوارهم، وليس من العبث إذن أن يشكر الانسان ربه على ما يسديه إليه من الغرور بين سائر النعم التي يستمتع بها في حياته.

(*) أخذت هذه الفقرات من عباس محمود العقاد ، **بنجامين فرانكلن** (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥) .

«والآن أقول بعد حمد الله متطامناً بين يديه أنني مدين بما نعمت به من السعادة لحكمته الرحيمة التي هدتني إلى الوسائل التي توسلت بها وبلغت ما بلغت من النجاح بفضلها، وإن يقيني بهذا يدعوني الى الأمل، وإن كنت لا أعلم الغيب، أن تلك الحكمة الرحيمة سوف تتولاني لاستبقاء تلك السعادة أو للصبر على ما يصيبني من خيبة الرجاء كما يصيب الآخرين. إذ لا يعلم مصيري غير اللّٰه القدير على أن يجعل في كل شيء بركة حتى العذاب.

«إن المذكرات التى أسلمها إليَّ أحد أعمامي المعنيين مثلي باستطلاع الأخبار والنوادر عن أسلافي قد زودتني ببعض المعلومات الخاصة عن أولئك الأسلاف، وقد علمت من هذه المذكرات أن العائلة سكنت القرية بعينها ـ قرية أكتون في نور ثامبتون شاير ـ ثلثمائة سنة ولا يعلم كم من السنين أقامت فيها قبل ذلك، ولعلها بدأت منذ اتخذت اسم فرانكلن الذي كان علماً على طائفة من الناس، لقباً لها يوم ذهب الناس جميعاً يقرنون أسماءهم بالألقاب في سائر أنحاء المملكة.

«وكانوا يعيشون على نحو ثلاثين فداناً مستعينين مع غلتها بصناعة الحدادة التي احترفتها الأسرة الى أيامه، وكان أكبر الأبناء يتدرب من نشأته على هذه الصناعة: عادة جرى عليها الأبناء من القدم ونهج هو وأبي على مثالهم فيها.

«ولما ذهبت لمراجعة السجلات المحفوظة في قرية أكتون وجدت تسجيلات لمولدهم وزواجهم ووفاتهم منذ سنة ١٥٥٥ ولم أجد لهم تسجيلات محفوظة قبل تلك السنة، وعلمت من تلك التسجيلات أنني كنت أصغر الأبناء لأصغر الأبناء خمسة أجيال متعاقبة، وكان جدي توماس الذي ولد سنة ١٥٩٨ معمراً عاش في أكتون حتى أقعدته السن عن مباشرة الصناعة فذهب الى بانبري من اقليم «أكسفورد شاير» ليعيش مع ابنه جون الذي كان يحترف الصباغة وعلى يديه تعلم أبي هذه الصناعة، وقد توفي جدي ودفن بها ورأينا شاهد قبره سنة ١٧٥٨.

«وسكن ابنه الأكبر ـ توماس ـ في منزل أكتون ثم تركه ومعه الأرض لابنته الوحيدة التي باعت الميراث ـ هي وزوجها المسمى فيشر من ولنجبور ـ لمستر استيد مالك الأرض الآن.

«وقد كان لجدي أربعة أبناء شبوا وكبروا وهم توماس وجون وبنيامين وجوشيا، وسأخبرك بما علمته عنهم بعيداً من مراجعي وأوراقي معتمداً على ما وعته الذاكرة. فإن لم تكن تلك الأوراق قد ضاعت فإنك واجد فيها مزيداً من التفصيلات.

«نشأ توماس حداداً بصحبة أبيه، ولكنه كان ذكياً فشجعه السيد بالمر عميد البلد كما شجع اخوته على التعلم والاستزادة من المعرفة، فتدرب على كتابة العقود ونبه شأنه في أمور البلد وأصبح وعليه المعول في توجيه المسائل العامة بنورثامبتون وقريته التي روت لنا أخباراً كثيرة عنه، وذاع صيته في أكتون فتولاه لورد هليفاكس يومئذ برعايته . ثم مات في السادس من شهر يناير سنة ١٧٠٢ حسب التقويم القديم قبل مولدي بأربع سنوات، وتدل سيرته التي تلقيناها من شيوخ أكتون كما أذكرها على أمر عجب لشدة الشبه بينها وبين أسرتي، ولو أنه مات في نفس اليوم الذي ولدت فيه لخطر ببالك أنني تقمصت روحه!

«ونشأ جون صباغاً يشتغل على ما أظن بصبغ الصوف، ونشأ بنيامين صباغاً للحرير متتلمذاً في الصناعة بلندن. وكان رجلاً ألمعياً أذكره جيداً لأنه جاءنا إذ كنت طفلاً ليزور والدي في بوستون، وسكن معنا بالمنزل بضع سنوات، وقد عمر طويلاً، وحفيده صمويل فرانكلن يعيش في بوستون اليوم، وقد ترك بعده مجلدين من نظمه يشتملان على مقطوعات منظومة لمناسباتها موجهة الى أصدقائه وأقاربه، ومنها واحدة وجهها إليَّ (١) .

«واخترع طريقة للاختزال علمني إياها ولكنني لم أستعملها قط ونسيتها الآن. وقد سميت على اسم هذا العم للعطف المتبادل بينه وبين أبي، وكان تقياً جداً شديد المواظبة على حضور العظات من أبلغ الوعاظ يسمعها ويدونها بطريقة الاختزال ويحتفظ عنده بمجموعات كبيرة منها . وكان كذلك مشغولاً بالسياسة كثيراً ولعل اشتغاله بها كان أكثر مما يلائم مركزه . وقد عثرت له في لندن على

---

(١) لم تنشر الأبيات في نسخة المفكرات الأولى ، وعلم من أوراق أخرى أنها نصيحة باجتناب الحياة العسكرية لأن الحرب صناعة خطرة .

مجموعة للكراسات التي صدرت في موضوعات المسائل العامة من سنة ١٦٤١ الى سنة ١٧١٧ ضاع منها بعضها كما يتبين من ترقيمها وبقي منها ثمانية مجلدات من القطع الكبير وأربعة وعشرون مجلداً بين متوسط وصغير، وكان رجل من باعة الكتب القديمة أعرفه وأشتري منه بعض الكتب قد عثر بها فأحضرها إليّ، ويظهر أن عمي تركها عند سفره الى أمريكا إذ كان قد جاوز الخمسين من عمره، ودوّن على هوامشها كثيراً من تعليقاته وملاحظاته.

«لقد كانت عائلتنا الخاملة هذه بين السابقين الى قبول مذهب الاصلاح ولبثت على المذهب البروتستانتي خلال حكم الملكة ماري وتعرضت للمتاعب أحياناً من جراء غيرتها في مقاومة البابوية، وكان لديهم نسخة انجليزية من الكتاب المقدس يحتالون على اخفائها بوضعها في داخل كرسي ينطوي وينبسط ويضعه جدي الأكبر على ركبتيه كلما أراد أن يقرأ على الأسرة شيئاً من آياته، وكان أحد الأطفال يقف عند الباب لينبههم الى قدوم الرقيب الموظف بالمحاكم الروحية كلما بصر به قادماً من بعيد، فينطوي الكرسي في هذه الحالة، ويختفي الكتاب المقدس فيه كما كان. وقد أنبأني بهذه القصة عمي بنيامين وعلمت أن الأسرة كلها دانت بمذهب الكنيسة الانجليزية الى أيام شارل الثاني التي حدث فيها فصل بعض القساوسة لانحرافهم عن مذهب الكنيسة الملكية، فاستقلوا بنحلتهم في (نورثامبتون شاير) وانضوى إليهم بنيامين وجوشيا وظلت بقية الأسرة على مذهب الكنيسة الرسولية.

«وتزوج أبي ـ جوشيا ـ صغيراً فانتقل بزوجته وأطفاله الثلاثة الى نيو انجلاند بأمريكا حوالي سنة ١٦٨٢ لصدور القانون بتحريم قيام النحل المخالفة للكنيسة في البلاد الانجليزية، وأقنع طائفة من صحبه بالهجرة الى هذه البلاد لما كان يلقاه من العنت في وطنه، فاقتنع هو وصحبه بضرورة الهجرة أملاً في التحرر من الحجر على عقائدهم، وولد له من زوجته الأولى نفسها أربعة أطفال آخرين ثم عشرة أطفال من زوجة أخرى فتم عددهم سبعة عشر، وأذكر منهم ثلاثة عشر يجلسون على مائدته عاشوا حتى أصبحوا رجالاً ونساء وتزوجوا جميعاً. وكنت أنا أصغر الأبناء وأصغر الأطفال جميعاً ما عدا طفلتين أصغر مني، وولدت في بوستون بنيو انجلاند.

«وزوجته الثانية ـ أمي ـ هي آبيا فولجر بنت بطرس فولجر أحد السابقين من المهاجرين الى نيو انجلند، وأشار إليه كوتون ماثر اشارة مشرفة في تاريخه لكنيسة ذلك الاقليم فقال عنه ـ إذا لم تخني الذاكرة ـ : إنه رجل انجليزي صالح مثقف.

«وسمعت أنه كتب مقطوعات متفرقة كثيرة في مناسباتها لم تطبع منها غير واحدة اطلعت عليها منذ سنوات، وقد نظمها في سنة ١٦٧٥ على النسق الذي كان متداولاً مألوفاً يومذاك ووجهها الى القائمين بالحكم في ذلك الحين حاثاً فيها على حرية الضمير منافحاً عن عقيدة العماديين وجماعة الصاحبيين وغيرها من النحل التي كانت عرضة للحجر والاضطهاد ، وعزا فيها مصائب الحرب الهندية والمصائب الأخرى التي ابتليت بها البلاد الى تلك السيئة البغيضة التي يصب الله غضبه على مرتكبيها، داعياً الى الغاء القوانين التي سنت للتضييق على ضمائر الناس، وقد لاح لي أن المقطوعة كلها كتبت بأسلوب الصراحة اللائقة والرجولة الكريمة في الذود عن الحرية، وإني لأذكر سطورها الستة الأخيرة حيث يقول : « إنني لأمقت المذمة من كل قلبي، وأناديكم من مدينة شربورن التي أقيم فيها موقعاً باسمي، غير مسيء الى أحد منكم، أنا بطرس فولجر. . » .

«وتتلمذ إخوتي الكبار جميعاً في صناعات مختلفة، وأدخلت أنا مدرسة الأجرومية في الثامنة من عمري وأراد والدي أن ينذرني للكنيسة لأنني كنت عاشر أبنائه، وقد كان استعدادي المبكر لتعلم القراءة ـ ولا بد أنه كان مبكراً جداً لأنني لا أذكر زمناً كنت فيه أجهلها ـ موافقاً لنبوءة أصدقائه الذين اعتقدوا أنني خليق بمستقبل حسن في الأستاذية ، فشجعه اعتقادهم على اتمام مقصده. وقد أقره عمي بنيامين على رأيه واقترح أن يهب لي كل ما عنده من مجاميع العظات الدينية، ولكنني بقيت في المدرسة مدة لا تزيد على السنة نقلت خلالها من وسط الفصل الى مقدمته ثم نقلت من هذا الفصل الى الفصل الذي يليه كي أنتظم في الفصل الثالث عند نهاية السنة.

«على أن والدي وجد أثناء ذلك أن التعليم الجامعي كبير النفقة لا ينهض بأعبائه مع تكاليف عائلته الكبيرة ووفرة مطالب المعيشة التي تلائم المتعلمين، وسرد هذه الأسباب على مسمع مني لأصدقائه تسويغاً لنقلي من مدرسة الأجرومية الى

مدرسة أتعلم فيها الكتابة والحساب يديرها رجل مشهور يسمى جورج برنويل ناجح في صناعته لوداعته وطيب معشره، ومنه تعلمت الكتابة المقبولة في وقت وجيز ولكني أخفقت في تعلم الحساب ولم أتقدم فيه، ولما بلغت العاشرة خرجت من المدرسة لمساعدة والدي في صناعته وهي صناعة الشمع والصابون التي لم يكن قد تدرب عليها منذ صباه بل اتخذها بعد وصوله الى نيو انجلاند لأن رزقه من الصباغة لم يقم بنفقة العائلة الكبيرة لقلة الحاجة إليها في نيو انجلند ، فعملت في قطع الفتائل للشمع وصب السائل في القوالب وملاحظة الدكان وايصال الرسائل والطلبات.

«ونفرت من هذه الصناعة وشعرت بميل شديد الى العمل في البحار، ولكن والدي أبى عليَّ هذا العمل ، وظللت ـ لقربي من الماء ـ متعلقاً بالبحر فتعلمت السباحة وتسيير الزوارق وأصبح من المألوف كلما اجتمعت في زورق أو قارب مع زملائي من الصبية أن يعهدوا إلى في تسييره وبخاصة في الحالات المتعسرة، وتكررت قيادتي لهم في غير تلك الحالات فكنت أقودهم الى بعض المناوشات التي أذكر هنا مثلاً منها لما فيه من الدلالة على الدوافع العامة وإن لم يكن مثلاً لحسن تدبيرها وتصريفها .

«كان في جوارنا مستنقع ملح يحيط ببركة المصنع تعودنا أن نقف عند حافته ساعة المدّ لنصطاد السمك الصغار ، وطال ترددنا على تلك الحافة حتى توحلت وجعلت تسيخ بأقدامنا . فعنّ لي أن نبتني عليها رصيفاً نستخدم في بنائه كوماً من الحجارة معداً لاقامة منزل جديد بجانب المستنقع وصالحاً كل الصلاح لبناء الرصيف الذي نريده ، وعلى هذا جمعت بعض الرفاق ـ بعد انصراف العمال في المساء ـ وأخذنا في نقل الحجارة كأننا سرب من النمل يتعاون اثنان منا أو ثلاثة أحياناً على نقل الحجر الواحد حتى نقلنا الحجارة كلها وأتممنا بناء الرصيف ، وجاء العمال في صباح اليوم التالي فدهشوا لاختفاء الحجارة وعلموا أنها نقلت الى الرصيف الذي بنيناه، وبحثوا عن الجناة فعرفونا وشكونا الى آبائنا ، ولم ينفعني عند أبي اعتذاري له بأنه عمل نافع، لأنه قال لي أنه ما من عمل يخل بالأمانة يوصف بالمنفعة .

«وأحسبك تواقاً الآن الى الإلمام بشيء من صفاته وأخلاقه. فاعلم انه كان ضليع البنية معتدل القامة لا بالطويل ولا بالقصير ولكنه مدمج الجسم قوي الأركان، ذكياً يرسم رسماً حسناً يجيد العزف على آلات الموسيقى بعض الاجادة، وله صوت مقبول يتغنى به حين يوقع المزامير على القيثار كما تعود في المساء بعد الفراغ من أعمال النهار فيطربنا جداً أن نصغي إليه، وكانت له براعة في تناول الأدوات والآلات يستخدم منها ما ليس من صناعته فيحسن استخدامه. غير أن المزية الواضحة التي كان يمتاز بها سلامة الفهم والرأي في تناول المسائل الخاصة والعامة، وإن تكن شواغله العائلية لم تدع له قط وقتاً للعمل في هذه المسائل العامة واستغرقت أوقاته جميعاً في القيام بتعلمها والتفرغ لكسب الرزق مع قلة المورد والعائدة. إلا أنني أذكر جيداً أن أناساً من الوجهاء البارزين كانوا يزورونه فينة بعد فينة لاستشارته في شؤون البلد أو شؤون الكنيسة التي ينتمي إليها ويتقبلون منه الرأي والنصيحة بالتجلة والاحترام ، كما أذكر أن أناساً من أصحاب المشكلات الخاصة كانوا يسألونه النصيحة ويحتكمون إليه فيما يشجر بينهم من خلاف ، وكان من عاداته أن يدعو إلى مائدته صديقاً أو جاراً من ذوي الفطنة يتحدث إليه ويحاول على الدوام أن يختار للحديث موضوعاً يفتق أذهان الأطفال ويلفتنا بهذه الوسيلة لما ينبغي من الخير والعدل والحكمة في تدبير شؤون الحياة» .

تابع مختارات من **سيرته الذاتية** (*)

لقد وجدت أن الفضائل المختلفة التي قرأت عنها تزداد أو تنقص عدداً ومضموناً وفقاً لاختلاف الكتّاب . فالاعتدال ، على سبيل المثال ، يقتصر لدى البعض على الأكل والشرب بينما هو لدى البعض الآخر يتسع فيشمل الاعتدال في أية لذة أو شهوة أو رغبة أو عاطفة أخرى، جسدية كانت أم فكرية، بل يتسع حتى يشمل الطمع والطموح. وبغية الوضوح ارتأيت استعمال تسميات أكثر، كل واحدة منها ذات أفكار أقل، بدل تسميات قليلة تشتمل كل واحدة منها على أفكار كثيرة.

(*) أخذ هذا الجزء من **ثلاثة قرون من الادب** ، تأليف فوستر وفوك ، وترجم باشراف الأديب جبرا ابراهيم جبرا (بغداد : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٧) .

وقد وضعت تحت أسماء ثلاثة عشرة فضيلة كل ما خطر لي في ذلك الوقت أنه ضروري أو مرغوب فيه ، والحقت بكل منها وصية تُعبِّر تعبيراً كاملاً عن المدى الذي أعطيه لمعنى كل فضيلة.

وكانت أسماء الفضائل مع وصاياها هي:

١ ـ الاعتدال

لا تأكل حتى الهمود ولا تشرب حتى السكر.

٢ ـ الصمت

لا تتحدث إلا بما يفيد الآخرين أو يفيدك، وتجنب الحديث التافه.

٣ ـ النظام

دع كل شيء لك يحتل موضعه، ودع كل جزء من أعمالك ينال وقته الملائم.

٤ ـ العزم

صمم على عمل ما يجب، واعمل من غير تسويف ما صممت عليه.

٥ ـ الاقتصاد

لا تصرف إلا لما فيه نفع للآخرين أو لنفسك أي لا تضع شيئاً.

٦ ـ الجد

لا تُضع وقتاً . وكن على الدوام مشغولاً بأمر نافع، واستبعد كل الأعمال غير الضرورية.

٧ ـ الاخلاص

لا تقم بأية خدعة مؤذية، وفكر ببراءة وعدل، وإذا تحدثت فتحدث وفاقاً لذلك.

٨ ـ العدالة

لا تـؤذ أحـداً بـايـقـاع الضرر بـه أو باهمال تقـديم المنافع له حين يكون ذلك واجبك.

٩ ـ الرفق

تجنب التطرفات، وقابل الأذى بما تعتقد أنه خليق به من الاحتمال.

١٠ ـ النظافة

لا تحـتمل أياً من مظاهر الوساخة في الجسم والملبس والمسكن.

١١ ـ الهدوء

لا تزعـجك التـوافه ولا الأحداث المألوفة أو التي لا يمكن ردها.

١٢ ـ العفة

اقـتصر في الاتصـال الجنسي على أغراض الصحة والتناسل، ولا تفرط في ذلك مما قـد يؤدي إلى ايذائك أو ايذاء غيرك.

١٣ ـ التواضع

تشبه بالمسيح وسقراط.

* * *

ولما كـان غرضي هو ممارسة هذه الفضائل فقد رأيت أن من الأحسن ألاّ أشغل انتـبـاهي بممارسـتـهـا جميعاً مرة واحدة، ولكن بالتركيز على واحدة منها في كل حين، وعندمـا أتقن واحـدة فإني أنتـقل الى الأخـرى ، وهكذا حـتى انتـهي من الفـضـائل الثـلاث عشرة ، ولإن اتقـان بعـضـهـا يُسـهل اتقان البعض الآخر فإني قد رتبتها كما سـبق وصـفـه . وقـد وضـعت الاعـتـدال في رأس الفـضائل ذلك لأنه يسعفنا بهدوء الفكر وصـفـائه، وهما أمران ضروريان حيث تزداد الرقابة الدائمة والحذر الثابت تجاه اغـراء العـادات القـديمـة الذي لا هوادة فـيه ، وتجاه قوة المغريات الأبدية . وعندما يتم امـتـلاك هذه الفضيلة وتوكيدها ، يكون الصمت أكثر سهولة وإن رغبتي هي أن

أحصل على المعرفة وفي الوقت نفسه أن تتحسن فضائلي، وعند تذكر أن المعرفة تستحصل في الحديث عن طريق استعمال الأذنين أكثر من استعمال اللسان وإذ رغبت في التخلص من عادة أخذت أوغل فيها وهي عادة التنكيت والفكاهة واللعب بالألفاظ التي جعلتني مقبولاً عند التافهين من الناس لا غير، فقد أعطيت للصمت المكان الثاني. وتوقعت من هذه الفضيلة والفضيلة التي تليها، وهي النظام، أن تهيئان وقتاً أكثر للعناية بمشروعي وبدراساتي. أما العزم فإنه حين يصبح عادة فخليق به أن يجعلني أكثر تصميماً في محاولاتي حيازة الفضائل التالية لها كلها. أما الاقتصاد والعمل فإنهما يحرراني مما تبقى من ديوني، ويخلقان لي رفاهية واستقلالاً، ويجعلان ممارسة الاخلاص والعدالة الخ . . . أكثر يسراً. وعندما أدركت، تمشياً مع نصيحة فيثاغورس في أشعاره الذهبية، أن التمحيص اليومي ضروري، فقد ابتكرت الطريقة الآتية للقيام بهذا الفحص.

لقد صنعت كتاباً صغيراً، أفردت فيه صحيفة واحدة لكل فضيلة. وخططت كل صحيفة بالحبر الأحمر لكي يكون فيها سبعة أعمدة، واحدة لكل يوم من أيام الأسبوع، ووضعت على كل عمود اسم يوم من أيام الأسبوع، ثم قطعت هذه الأعمدة بثلاثة عشر خطاً أفقياً ، ووضعت على بداية كل خط منها فضيلة ، وعلى كل خط وفي مكانه الملائم، أضع علامة سوداء صغيرة تمثل، عند تدقيقي اليومي، الخطأ الذي ارتكبته بحق تلك الفضيلة في ذلك اليوم.

وصممت على أن أفرد اهتماماً دقيقاً لمدة أسبوع لكل واحدة من الفضائل على التوالي. وهكذا ففي الأسبوع الأول أوجبت على نفسي الحذر الكامل من أقل تفريط بحق الاعتدال، تاركاً الفضائل الأخرى لحظها الاعتيادي من العناية، إلا أنني كنت أراجع كل مساء الأخطاء التي ارتكبت في ذلك اليوم. وهكذا فإنني في الأسبوع الأول أستطيع أن أبقي السطر المسمى: اعتدال ، خالياً من العلامات ، وأظن أن اعتياد هذه الفضيلة سيكون قوياً والأخطاء المقابلة لها تضعف ضعفاً شديداً ، بحيث أجرؤ فأوسع اهتمامي ليشمل الفضيلة التالية لها، وفي الأسبوع التالي له أبقي كلا الخطين خاليين من العلامات. وعلى هذا المنوال حتى نهاية العدد فأستطيع أن آتي عليها في ثلاثة عشر أسبوعاً، ولأربع مرات في السنة . . . إن مثلي كمثل من يريد

شكل الصحائف

الاعتدال

لا تأكل حتى الهمود ولا تشرب حتى السكر

	أحد	اثنين	ثلاثاء	أربعاء	خميس	جمعة	سبت
الاعتدال							
الصمت		*	*		*		
النظام		**	*	*			
العزم							
الاقتصاد				*			
الجد			*				
الاخلاص							
العدالة							
الرفق							
النظافة							
الهدوء							
العفة							
التواضع							

أن يشذب حديقة، فلا يزيل الأعشاب الضارة كلها مرة واحدة مما قد يكون فوق طاقته، وإنما يحصر اهتمامه في بقعة واحدة من الحديقة، وحين ينجز المنطقة الأولى فإنه يشرع في المنطقة الثانية، وهكذا أنا حين أجد السرور المشجع يمتلكني لدى رؤيتي الخطوط تقل عليها العلامات أسبوعاً بعد أسبوع، وأجدني متقدماً في الفضيلة وفقاً لذلك، حتى لربما وجدتني بعد عدد من الامتحانات سعيداً بالحيازة على كتاب نظيف من العلامات، بعد تدقيق استغرق ثلاثة عشر أسبوعاً .

سنت جين ديكرفكور
(١٧٣٥ ـ ١٨١٣)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

فرنسي الأصل. وجد نفسه في الحياة الأمريكية ولعب دوراً لا بأس به في ابراز ملامحها والتعريف بها، وخصوصاً في كتاباته. وهو على الرغم من كونه كاتباً ثانوي الأهمية، فإن ما ألّفه حول الحياة الزراعية الأمريكية يعتبر بمثابة تعبير دقيق، مع ما فيه من رومانسية ومبالغة، عن الآمال والتطلعات التي كانت تسود أجواء إنشاء الدولة الأمريكية المستقلة.

حياته :

ولد بالقرب من كيون في نورماندي لأسرة عريقة أرستقراطية . تلقى تعليمه الأساسي في مدرسة يسوعية ، ثم تابع دراسته في بريطانيا . وعندما بلغ التاسعة عشرة من عمره عمل ضابطاً مع القوات الفرنسية في كندا . تجول خلال خدمته في العديد من الأماكن الكندية والأمريكية ، وبخاصة في منطقة البحيرات العظمى. استقال من الخدمة عام ١٧٥٩ وتجول في المستوطنات البريطانية ، ومن ضمنها نيويورك وبنسلفانيا وولايات الجنوب.

في عام ١٧٦٥ استقر في نيويورك وعدَّ نفسه مواطناً ينتمي للعالم الجديد . حصل على مزرعة كبيرة في مقاطعة أورنج وتزوج وعمل في الزراعة، ثم أخذ يكتب خواطره وأراءه حول البيئة الجديدة. اندلعت الحرب الثورية الأمريكية وعكرت صفو مزاجه وحياته . حاول ديكرفكور أن يلتزم الحياد خلال الحرب ، لكنه بفعله ذاك كسب عداء الطرفين، فغادر الى بلده الأم مع أحد أبنائه عام ١٧٨٠ . خطَّ ونشر خلال وجوده في أوروبا كتابه الشهير **رسائل فلاح امريكي** عام

١٧٨٢ . عُيّن بمساعدة من بنجمن فرانكلن قنصلاً فخرياً يمثل فرنسا في نيويورك وكنكتكت ونيوجرسي، فعاد الى أمريكا عام ١٧٨٣ ليجد زوجته قد توفيت وأبناءه تحت وصاية عائلة في بوسطن؛ ووجد مزرعته قد دمرت بسبب هجوم مشترك شنه الهنود والموالون. مكث في نيويورك حتى عام ١٧٩٠ ، وعمل على تقوية العلاقات بين أمريكا وفرنسا. عاد بعدها إلى فرنسا وأمضى بقية حياته في نورماندي.

اهـمـيـتـه :

تأثر ديكرفكور بفلسفة روسو القائلة إن الانسان طيب في طبعه. ولقد آمن أن أصل الاقتصاد وعماده يكمنان في الزراعة ، وعشق حياة الريف والفلاحة على الرغم من نزعته الارستقراطية. أعجب أيّما إعجاب بالحياة الأمريكية وببساطتها. اتهمه بعض النقاد بأنه كان يغالي في وصفه حياة البساطة والريف ، وأنه كان ينظر إليها في أحيان كثيرة من منظار عاطفي مثالي . وفي هذا شيء من الصحة . لكنه كان واقعياً في العديد من كتاباته . ويمكن النظر الى كتاباته على أنها من نمط مشابه لنمط كتابات جون سمث، من حيث كونها ترويجية دعائية. وهو مهم في فهم جانب من العقلية التي كانت تسود أمريكا قبل وبعد الثورة الأمريكية والاستقلال.

مقتطفات من

رسائل فلاح أمريكي

الرسالة الثالثة ـ من هو الأمريكي؟

ترجمة: محفوظ خلف الجبوري

مراجعة: د . أحمد يعقوب المجدوبة

[تنبع أهمية «رسائل فلاح أمريكي» من عرضها للمثل التي تغنى بها العديد من أبناء أمريكا قبيل وبعد حرب الاستقلال. يركز النص على أن الانسان الأمريكي يختلف عن غيره من أبناء الشعوب الأخرى ، وبخاصة شعوب أوروبا. بل يكاد ديكرفكور يصرح أن الانسان الأمريكي هو أصلح من غيره بكثير ، ويبرز ذلك من خلال تأكيده على أن إنسان العالم الجديد هو مزيج من أجناس، ومن هنا فهو يرث أفضل سماتهم، ومن خلال إيمانه بأن البيئة لها أكبر الأثر في صقل شخصية الانسان ـ سواء كانت البيئة جغرافية أو سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية. ويهدف المؤلف هنا إلى تقوية إيمان الفرد في أمريكا بوطنه والى غرس وتعزيز فكرة الاستقلال والى الدعاية والترويج إلى الدولة الجديدة] .

المحرر

أمنيتي أن أتعرف على المشاعر والأفكار التي يستثار لها القلب والتي تقدم نفسها لعقل رجل انجليزي متنوّر لحظة وضعه قدمه على تراب هذه القارة . لا بد وإنه يشعر بغبطة عارمة كونه عاش في زمن يشهد فيه اكتشاف هذا البلد الجميل والاستقرار فيه؛ إنه بالضرورة سوف يشعر بشيء من الفخر الوطني إذ هو يلحظ سلسلة المستوطنات التي تزين هذه الشواطىء الممتدة. وعندما يحدث نفسه قائلاً: «هذا انجاز أبناء وطني الذين عندما زلزلتهم النزاعات وأصابتهم أنواع المصائب والحاجات المؤرقة والمنفذة للصبر ، قد لجأوا الى هذا المكان . لقد احضروا معهم

عبقريتهم من أوطانهم والتي يدينون لها بما ينعمون به من تحرر وما يمتلكون من ثراء . هنا يجد صناعة بلده الأم متمثلة بأسلوب جديد ويقتفي في أعمالهم أجنّة كل الفنون والعلوم والعبقرية التي تزدهر في أوروبا . ويبصر هنا مدناً جميلة وقرى حقيقية وحقولاً فسيحة؛ بلاد مترامية امتلأت بالمساكن الراقية والطرق الجيدة والبساتين والحقول والجسور في مكان كان قبل مائة عام قفراً مدغلاً غير منتظم! فأية سلسلة من الأفكار السعيدة يحدثها هذا المشهد؛ إنه منظر يلهم المواطن الحقيقي السعادة القلبية. إن الصعوبة تكمن في طريقة النظر الى مشهد بكل هذه السعة. إنه يحط أقدامه على أرض قارة جديدة؛ مجتمع عصري يقدم نفسه للمتأمل، مختلفاً تماماً عما شهده من قبل. إن الحال هنا ليس كما هو في أوروبا حيث تمتلك مجموعة من اللوردات كل شيء، إلى جانب جموع من البشر ممن لا يملكون شيئاً. هنا لا وجود للعوائل الارستقراطية ولا للقصور ولا للملوك ولا للأساقفة ولا لهيمنة الكنيسة ولا لقوى مخفية تعطي القوة للصفوة ولا لمصانع هائلة تستخدم الآلاف ولا لمظاهر الترف المفرط. فالفقراء والأغنياء ليسوا منفصلين عن بعضهم كما في باقي أوروبا. وفيما عدا بعض المدن، فنحن هنا كلنا فلاحون في الأرض ابتداءً من نوفاسكوتيا وحتى فلوريدا الغربية. إننا فلاّحون ننتشر على امتداد مناطق مترامية ووسيلة الاتصال بيننا هي الطرق الجيدة والأنهار الصالحة للملاحة. وفي ظل روابط حريرية لحكومة رفيقة، يحترم الجميع القانون من دون أن يهدد ذلك سلطتهم لأن الكل هنا على قدم المساواة. وكلنا هنا مفعمون بروح العمل غير المحدودة وغير المقيدة لأن كل فرد يعمل لصالح نفسه. فلو تجول في مناطقنا الريفية فلن يجد القلاع العدوانية ولا القصور الشامخة مقارنة بالأكواخ الطينية والبائسة حيث يحافظ كل من القطعان والناس على دفء بعضهم بعضاً وحيث يعيش في تحقير ودخان وعوز. سيظهر التناسق السعيد للإكتفاء الشريف في أماكن سكنانا. إذ إن أسوأ منازلنا الخشبية هي مسكن مريح وجاف. وإن لقب محامي أو تاجر هو غاية ما تحتمله مدننا، أما لقب فلاح فهو كل ما يحمله سكان ريف بلدنا. وسيحتاج لزمن حتى يعتاد على قاموسنا الفقير بكلمات الفخار وألقاب الشرف. وهنا في أيام الأحد فبوسعه رؤية جمع من الفلاحين المحترمين برفقة زوجاتهم كل كسى نفسه بلباس شعبي أنيق ممتطين أو راكبين في عرباتهم المتواضعة. وليس بينهم من يحمل لقباً رفيعاً ، فيما عدى القضاة

الأمـيـين. وسيرى هناك شـخص ببسـاطة قطعـيـة ، فـلاح لا يتـجـاوز على أعمال الآخـرين. وليس لدينا أمـراء نعـمل ونجوع وننزف من أجلهم؛ إنّا أكمل المجتمعات الموجـودة في العـالم. فـالانسان هنا حر كما ينبغي أن يكون وليست هذه الميزة السعيدة بزائلة كما هو حـال الميـزات الأخـرى . إن دهوراً عـديدة لن تشـهد شواطىء بحيراتنا العظيـمـة تمتلىء بالأمم الوطنيـة ولا حـدود أمريكا الشمالية المجهولة قد سكنها الناس كلهـا. فـمن تراه يعلم حـدود امتدادها ؟ من يمكنه أن يخبر عن ملايين البشر الذين ستطعـمـهم وتحـويهم ؟ فما سـافـرت قدم أوروبي حتى الآن نصف مدى هذه القارة الهائلة !

إن ثاني أمنيـة لهذا المسـافر ستكون الرغبة في معرفة المكان الذي حضر منه كل هـؤلاء. إنهـم مـزيـج من الانجليـز والاسكتلنديين والهولنديين والالمان والسـويديين. إن من هذا المنبت المخـتلط قـد ظهـر هذا الجنس الذي يدعى بالأمـريكيين . إن مـا يسـتـوجب توقـعـه أن تكون المقـاطعـات الغـربيـة من أصل انجليزي خالص . لقد سـمـعـت كـثـيراً من الناس يتـمنى لو كـانوا مختلطين ! وبالنسـبـة لي فلست من بين المتـمنين وأعـتـقد إن ما حصل هو خير ما كان سيحدث . إنهم يمثلون أكثر الصور تألقـاً في هذا المشـهد الملون. إنهم يسهمون أيضاً بحصة كبرى في هذا المشهد السعيد المتـمـثل في هذه المقـاطعـات الثلاثة عشرة . أعرف أن من المناسب التحدث عنهم، لكنني أحترمـهم لما أنجـزوه؛ وللدقـة والحكمـة في اسـتقرارهم في مقاطعاتهم؛ وللياقة في سلوكـهم ولحـبـهم المبكر للعلم؛ ولجامعتهم القديمة، وهي الأولى في نصف الكرة الأرضـيـة؛ ولصناعـتـهم والتي تعني لي كـفلاح المعيار لكل شيء. فليس هنالك من شـعب في مـوضع كـمـوضـعـهم ممن صنعوا ما صنعوا في أرض عاق كهذه بهذا الزمن القـصير. هل تعتقد أن عناصر الملكية السائدة في البلدان الأخرى قد طهرتهم من كل العوالق السيئة؟ إن التاريخ يثبت العكس.

في هذا الملاذ الأمـريكي العظيم التـقى فـقـراء أوروبا بطريقـة مـا وبالنتـيـجـة لأسـبـاب عـدة ؛ فـلأي قـصـد يتوجب عليهم أن يسألوا بعضهم أي مواطنين هم ؟ واحسرتاه ! ثلثاهم كـانوا بلا وطن . فـهل بوسع البائس الهائم على وجهه ممن يعمل ويتـضـور جـوعاً من كانت حياته مشهداً متصلاً من الحزن المرير والفقر المدقع ـ فهل

يدعـو هذا الانسـان انجلترا أو أية من الممالك الأخـرى وطنه ؟ وطن لا يقدم له الخبز وحـقـول لا تعطيـه حـصـادها ولا يقـابل إلا بعبس الأغنياء وقسوة القانون بالسجون والعـقـوبات، وممن لم يملك قـدماً واحدة من هذا الكوكب المترامي؟ كلا! لقد جاؤوا واهنين تدفـعـهم مجموعـة من الحـوافز. كل شيء يميل لأن يعيد ولادتهم من جديد: قـوانين جـديدة، وأسلوب حياة جديد، ونظام اجتماعي جديد. هنا يصبحون أناساً: في أوروبا كـانوا كنبـاتات عـديمـة الفـائدة يعـوزها تراب مفيد وزخات منعشة؛ ذبلوا وقطعـتـهم الحـاجـة والجـوع والحـرب؛ لكنهم اليـوم وبقـوة الاثبـات الانتـقالي وأسوة بـالنبـاتات الأخـرى فـقـد نمت جـذورهم وازدهرت ! وفـيما مـضى لم تكن أسماؤهم تحـسب ضـمن أي تعـداد مدني لبلدانهم سوى تعداد الفقراء؛ أما هنا فإنهم يتمتعون بحق المواطنة الحـقـيـقـيـة . ترى مـا هي القـوة الخـفية التي قد أحدثت هذا التحول المفـاجىء ؟ إنها قـوة القـوانين وقـوة جـهـدهم. إنها القـوانين ، والقوانين المواتية التي تحـمـيـهم لدى وصولهم وتصمهم برمز التبني، ويتلقون جزاءً حسناً لقاء عملهم؛ إن تراكمات المكافأة تهبـهم ملكيـة الأرض؛ وتلك الأراضي تضـفي عليـهم أسماء الحـرية وتلحق بتلك الألقـاب كل حـقوقها المكتسبة. إن هذا هو العمل العظيم الذي تمارسه قـوانيننا يومـياً . من أين تراها تصدر هذه القوانين ؟ من حكومتنا . ومن أين جاءت تلك الحكومـة ؟ إنها إنبـثـقت عن العـبقرية الأصيلة والرغبة القوية للشعب يصدِّقها ويقـرها التـاج . إنها السلسلة التي تربطنا جميـعـاً ، وهذه هي الصورة التي تعرضها كل مقاطعة باستثناء نوفا سكوتيا. فهناك قد فعل التاج كل شيء ، فإما ان الناس لا يتـمـتـعـون بالعبقرية أو أن العبقرية لم يتم استغلالها؛ والنتيجة أن المقاطعة لا يقطنها سـوى القليل حـقـاً . فـسلطة التاج مع جملة البنادق قد منعت الناس من الاستقرار هناك. ومع ذلك فـقـد ازدهرت أجـزاء منهـا، كما إنها احـتـوت شعباً لطيفاً ومسالماً. ولكن بسـبب أخطاء عـدد قليل من القـادة فقد اختفى الكل. فقد كان الخطأ الأكثر جسـامـة الذي ارتكبـه التـاج في أمـريكا هو عزل الناس عن بلد لم يكن بحاجة إلا للرجال.

فما الذي يربط مـهـاجراً أوروبياً فقيراً ببلد لم يكن يملك فيه شيئاً؟ إن المعرفة باللغـة والحب لبـعض الأقـرباء الفـقـراء مثله كانت هي كل الروابط التي تربطه؛ إن وطـنـه الآن هـو البلد الذي يهبـه أرضـاً وخـبـزاً وحماية وجـدوى «وطنك حيث تجد

خبزك» قد أصبح شعار كل المهاجرين. فما هو إذن هذا الأمريكي، هذا الانسان الجديد؟ إنه ليس الأوروبي ولا بالمتحدر عن أصل أوروبي، وبذلك يكون ذلك المزيج الغريب من الدماء والذي لن تجد له مثيلاً في أي بلد آخر. وبوسعي أن أشير الى عائلة جدّها انجليزي وزوجته هولندية وتزوج ابنهما من فرنسية وأبناؤهما الأربعة الآن قد تزوجوا من أصول مختلفة . إنه أمريكي ترك خلفه كل صفاته وتحيزاته السابقة فاكتسب صفات جديدة من أسلوب الحياة الذي تبنّى ومن الحكومة التي يتبع والرتبة الجديدة التي يحمل. إنه قد أصبح أمريكياً باحتضانه في الحضن الفسيح لمدرستنا الأم. فهنا ينصهر الأفراد من شتى الأمم في عرق جديد ممن ستحدث أعماله وأجياله القادمة في يوم ما تغييراً هائلاً في هذا العالم. إن الأمريكيين هم حجاج الغرب ممن حملوا معهم الكم الهائل من الفنون والعلوم والقوة والصناعة التي بدأت قبل زمن طويل منذ أيام الشرق وبذلك سيكملون الحلقة العظيمة. لقد كان الأمريكيون منتشرين على امتداد أوروبا، وهم هنا قد اندمجوا في أكثر الأنظمة البشرية التي ظهرت دقة ، والتي ستصبح فيما بعد متميزة بفضل قوة الأجواء المختلفة التي انحدروا منها. ولذلك يتوجب على الأمريكي أن يحب هذا البلد أكثر من حبه للبلد الذي ولد فيه هو أو أجداده. وإن ما يعود عليه هنا يتبع تقدمه في العمل بخطوات متساوية. إن عمله يستند على أساس الطبيعة والحرص على المصلحة؛ فهل يتطلب الأمر إغراء أكثر من ذلك؟ إن الزوجات والأطفال الذين كانوا في السابق يطلبون من أبيهم بلا جدوى كسرة من الخبز تراهم الآن أجسادهم ممتلئة وتعلو وجوهم الفرحة حيث يعينون إياهم بسرور على تنظيف الحقل حيث ستنشأ منها محاصيل وفيرة لتوفر لهم المأكل والملبس من دون أن يطالبهم بجزء منه أمير مستبد أو كاهن موسر أو سيد قوي. هنا لا يتطلب منهم الدين إلا القليل: راتب بسيط للكاهن وعرفان لله، فهل تراهُ يرفض ذلك؟ إن الأمريكي رجل جديد يتصرف ضمن مبادىء جديدة ولذلك فسوف تدور في خلده أفكار جديدة وسيشكل أراء جديدة. فتراه قد تحول من البطالة اللاطوعية والاعتماد الكلي والفقر المدقع والعمل غير المجدي الى جهد من طبيعة خاصة يعود عليه بالعيش الوفير . هذا هو الأمريكي.

تنقسم أمريكا البريطانية الى عدة مقاطعات تشكل اتحاداً كبيراً يمتد على طول الساحل البالغ ١٥٠٠ر١ ميل طولاً وما يقارب ٢٠٠ ميلاً عرضاً. وسأحاول دراسة هذا المجتمع على الأقل كما يبدو لي في مقاطعاته الوسطى؛ فلو لم يحتمل ذلك التنوع من الألوان والتدرج الظاهر في أوروبا فلدينا ألواننا الخاصة. فمثلاً تجد من الطبيعي ادراك أن الذي يعيش قريباً من البحر يختلف كثيراً عن ذلك الذي يعيش في الغابات وأن المنطقة الوسطى ستحوي صنفاً مختلفاً ومنفصلاً.

إن الناس كالنباتات؛ فنكهة الثمرة وجودتها تنبع من خصوصية التربة والمناخ التي تنمو فيها . نحن لسنا إلا ما نستخلصهُ من الهواء الذي نتنفس والطقس الذي نحيا والحكومة التي نتبع ونظام الدين الذي نقر وطبيعة عملنا . هنا لن تجد إلا القليل من الجرائم، فلم تنبت جذور مثل هذه الأمور فيما بيننا بعد. كم أتمنى لو أني قادر على تتبع كل أفكاري؛ ولو منعني جهلي من وصفها بطريقة مناسبة فإني أتمنى أن أكون قادراً أن أضع الخطوط العامة والتي هي كل ما أنوي.

إن الذي يحيا قرب البحر يقتات على السمك أكثر من اللحوم وغالباً ما يواجه ذلك الأمر الشديد . وهذا ما يجعله أكثر صلابة وحباً للمغامرة مما يؤدي به الى تجاهل التملك المحدود بالأرض، فهم يقابلون ويتحدثون الى مختلف الناس وإن اختلاطهم بالجنس البشري يصبح أكثر اتساعاً. فيلهمهم البحر حب الانتقال ورغبة بالمتاجرة من مكان لآخر ويقودهم الى تشكيلة من الموارد والتي ترفد المكان بالعمل. فأولئك الذين يقطنون المستعمرات الوسطى ، وهم الأكثر تنوعاً ، لا بد أن يكونوا مختلفين ؟ حيث يطهرهم حرث الأرض البسيط ؛ إلا أن لطف الحكومة ولين الدين وتمتعهم برتبة الملاكين المستقلين لا بد أن تلهمهم بالعاطفة التي لا يعرف عنها الكثير في أوروبا بين أبناء نفس الطبقة. فماذا أقول؟ فليس في أوروبا طبقة كهذه. فأول معرفة يكتسبونها وأول صفقة يعقدونها تعطيهم درجة كبيرة من الحصانة. وكونهم احراراً فإنهم سيكونون من النوع المشاكس؛ فالفخر والعناد هما السبب في الدعاوى القضائية؛ وقد تكون طبيعة قوانيننا وحكوماتنا السبب الآخر. وكمواطنين فمن السهل علينا تخيل إنهم سيقرأون الصحف بعناية وسيدخلون في بحث سياسي حقيقي وسيلومون أو ينتقدون الحكام والأناس الآخرين بحرية. وكفلاحين فإنهم

سيكونوا مهتمين ومتلهفين لتحصيل أكبر كم ممكن لأن ما يحصلون عليه يبقى ملكاً لهم. وكشماليين فإنهم يعشقون الكأس السعيد. وكمسيحين فإن الدين لا يكبح أراءهم، والاهتمام العام يترك كل واحد ليتأمل في الأمور الروحية لنفسه؛ والقانون يتفحص سلوكنا، إلا أن الأفكار متروكة لله وحده. إن الصناعة وسعة العيش والأنانية والمشاكسة والعقلية السياسية الريفية وغرور الأحرار واللامبالاة الدينية هي خصائصهم. ولا يزال الدين يمتلك تأثيراً قليلاً، وإن سلوكهم لم يتحسن كثيراً.

والآن نصل الى جوار الغابات العظيمة بالقرب من آخر ما سكن من مقاطعات. فكأن الناس هناك قد وضعوا خارج متناول الحكومة والتي تتركهم في كثير من الأحيان لأنفسهم. فكيف تراها تملأ كل الزوايا بما أنهم وصلوا هناك بفعل سوء الطالع وضرورة البدء والرغبة في الحصول على مساحات شاسعة من الأرض والبطالة والرغبة المتكررة للاقتصاد والديون السابقة؛ إن إعادة اللحمة لمثل هؤلاء الناس لا يكون منظراً ممتعاً. فعندما تهيمن الخلافات وعدم الوحدة وفقدان الصداقة أو تعاطي الكحول أو البطالة في مقاطعات نائية كهذه فلا بد أن ينشأ النزاع والخمول والبؤس. وليس هناك علاج لمثل هذه الآفات شبيه بذلك المتوفر لدى المجتمعات العريقة. فحكامهم القلة هم بشكل عام ليسوا أفضل من سواهم؛ فهم على الدوام في حالة حرب حقيقية! حرب الانسان ضد الانسان؛ فتحسم تارة بالقوة وتارة بالقانون؛ أو حرب للانسان ضد كل المخلوقات البرية لهذه الأحراش البهية في محاولة سلبها منهم. وهنا يظهر الناس على أنهم ليسوا بأفضل من الحيوانات آكلة اللحوم من رتبة راقية ، ممن تعيش على لحوم الحيوانات التي تصطادها ، وإذا لم تتمكن من ذلك فهي تلجأ الى الحبوب . وإن من يرغب في رؤية أمريكا في صورتها الحقيقية وإذا أراد أن يأخذ فكرة لبدايتها الواهنة ونشأتها البربرية فعليه أن يزور حدودنا المتسعة حيث استقر آخر المستوطنين وحيث يشهد أول أعمال الاستيطان وطريقة تهيئة الأرض، في كل مظاهرهم المختلفة حيث ترك الناس ليعتمدوا كلياً على نزعتهم الأصلية وعلى النشاط المتقطع والذي غالباً ما يخيب عندما لا يكرس بفعالية مجموعة من القواعد الأخلاقية. وهناك وبعيداً عن قوة النموذج ووازع الخجل، تبدي الكثير من العائلات الجزء الأكبر بشاعة في مجتمعنا. فهم يمثلون أملاً

بائساً يسبق بعشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة لظهور جيش معتبر من المحاربين المتمرسين من الذين تبعوهم. في ذلك الفضاء سيزين الازدهار بعضاً بينما يجرف القانون والرذيلة البقية الباقية والذين سيتحدون مع آخرين كمثلهم وسيتقدمون الى الأمام ليتركوا مجالاً لأناس أكثر جدية ممن سيضعون اللمسات الأخيرة لانجازاتهم ليحيلوا البيت الخشبي الى مسكن ملائم وباحتفالهم بانتهاء الجزء الأكبر من العمل سيحولون البلد البربري بعد سنوات قليلة الى مقاطعة جميلة وخصبة ومنظمة بشكل جيد. هذا هو انجازنا، وهذه هي مسيرة الأوروبيين في قلب هذه القارة. في كل مجتمع يوجد منبوذون؛ وإن هذا الجزء غير النقي يمثل السلف والرائد؛ لقد كان أبي واحداً من هذه المجموعة؛ لكنه جُبِلَ على المبادىء الشريفة ولذلك صار واحداً من قلة ممن صمدوا. وبالسلوك الحسن وضبط النفس فقد نقل لي إرثه الحسن حيث لم يكن واحد من كل أربعة عشر من معاصريه يمتلك ثروة كهذه.

قبل أربعين عاماً قُطنتْ هذه البلاد الباسمة. وهي الآن مطهرة ويسودها لياقة في السلوك، وهكذا كان قدر أفضل أوطاننا.

وباستثناء تلك الخصائص العامة، فلكل مقاطعة خصائصها الخاصة، مستندة على الحكومة والمناخ وخصوصية التزاوج والأعراف وخصوصية الظروف. فيسلم الأوروبيون بشكل لا شعوري لهذه القوى الهائلة ليصبحوا مع الأجيال، ليسوا أمريكيين فحسب، ولكن بنسلفانيين أو فرجينيين أو تحت اسم أية مقاطعة أخرى. وكل من يمر بهذه القارة سيلاحظ ببساطة تلك الفروقات القوية والتي ستزداد وضوحاً بمرور الزمن . وسيكون سكان كندا ومستشوستس والمقاطعات الوسطى والجنوبية مختلفين كاختلاف مناخاتهم؛ أما نقطة اتحادهم فهي الدين واللغة.

وكما جهدتُ في اظهار طريقة تحول الأوروبين الى أمريكيين ، فلا ضير أن أبين وبنفس الطريقة تجرد الكثير من أبناء الطوائف المسيحية التي دخلت الى أمريكا عن دينهم وكيف عم التسامح الديني . فمتى ما حل عدد لا بأس به من أية طائفة الى جوار بعضهم سارعوا الى بناء معبدهم حيث يمارسون فيه عباداتهم لله بما يتفق مع أفكارهم الخاصة. ولا أحد يتسبب لهم بالازعاج. وإذا ما انبثقت طائفة جديدة في أوروبا فسرعان ما ينتقل منظروها للعيش في أمريكا . وبما يحضرون به من حماس

فإنهم أحرار في جمع الأنصار لو أمكنهم ذلك لبناء الملتقى ليتبعوا ما تمليه عليهم ضمائرهم، فلا أحد يتدخل سواء أكان حكومة أو أي طرف آخر. فإذا كانوا أناساً سالمين، فما الذي يضير جيرانهم بطريقة وأسلوب الصلاة للرب والتي يعتقدون إنها مناسبة؟ أما إذا لم يستقر أبناء الطائفة الى جوار بعضهم وإذا اختلطوا بطوائف أخرى فسيخبو عزمهم وسينطفىء في زمن قصير . ومن ثم يصبح الأمريكيون فيما يتعلق بالدين كحالهم فيما يتعلق بالبلد متآزرين . فتضيع لديهم تسميات الانجليزي أو الفرنسي أو الأوروبي ؛ وفي نفس الطريقة تختفي الأنماط المتصلبة للمسيحيين التي تسود في أوروبا. إن هذا التأثير سيزداد مع الوقت وإن بدا لك ذلك غريباً ، إلا أنها الحقيقة. وقد أتمكن فيما بعد أن أعبر عن نفسي بطريقة أفضل ؛ أما الآن فليكن النموذج الأتي أول مبرراتي.

فلنفترض أنا وأنت بأننا في سفر؛ نلاحظ أن في أحد البيوت الى اليمين يسكن كاثوليكي ، وهو يصلي لله كما تعلّم ويؤمن بالاستحالة (*) ، وهو يعمل ويزرع القمح وله عائلة كبيرة كل يتمتع بصحة وقوة؛ وإن اعتقاده وصلواته لا تلحق ضرراً بأحد. وعلى بعد ميل من نفس الطريق فقد يكون جاره ألمانياً لوثرياً جيداً وصادقاً وكادحاً، وهو يتضرع لنفس الرب، رب الجميع بما يتناسب مع الأسلوب الذي تعلم فيه ويؤمن بالاتحاد بين جسد المسيح والخبز. وبفعله ذلك فهو لا يشهرّ بأحد؛ وهو يعمل كذلك في حقله ويحرث الأرض ويزيل السبخ عنها وما الى ذلك. فما للعالم ولمبادىء هذا اللوثري ؟ فهو لا يضطهد أحداً ولا أحد يضطهده ؛ وهو يزور جيرانه وجيرانه يردّون له الزيارة. والى الجوار يعيش منشق عن الكنيسة، وهو من أكثر الطوائف تحمساً وحماسة، جاد ولاهب إلا أنه منفصل عن الآخرين من نفس بني جلدته، فليس له جماعة خاصة به ليلوذ بهم إذا ما أراد أن يكوّن عصبة أو ليشاركهم افتخارهم الديني بعناد دنيوي . وهو يزرع المحاصيل بالطريقة نفسها وقد طلى داره بشكل جميل ، وله بستان من أجمل البساتين في المنطقة . فكيف عساه يؤثر على سعادة البلد أو المقاطعة بشكل عام ما لهذا الرجل من مشاعر دينية أو لو لم يكن

(*) أي مبدأ استحالة خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه، حسبما تعتقد بعض الطوائف المسيحية. (المحرر)

له؟ إنه فلاح جيد ومواطن حسن رزين ومسالم. إن وليم بين نفسه لن يتمنى أكثر من ذلك. هذا هو الشخص المرئي، أما اللامرئي فهو مدار التكهنات وهو ليس من شأن أحد. والى الجوار أيضاً يسكن مواطن من أصل هولندي جنوبي وهو يؤمن ضمنياً بالقواعد التي وضعها مجمع دورت الكنسي. إنه لا يفهم فكرة رجل الدين أكثر من كونه أجيراً؛ فإذا قام بعمله بشكل جيد، فإنه سوف يدفع له أجره بالتمام؛ وإن لم يفعل فإنه سيطرده وسيعمل من دون عظاته وسيترك كنائسه مغلقة لسنوات. ولكن رغم هذه الفكرة الغريبة فستجد بيته ومزرعته الأكثر ترتيباً في كل البلد؛ وستحكم عليه من خلال عربته وخيله السمان إنه يفكر في أمور الدنيا أكثر من جاره. إنه رزين ومجد، فإنه يتناسب تماماً مع ما تتطلبه شؤون الحياة. أما فيما يتعلق بالآخرة فعليه أن يتركها للخالق العظيم. وكل هؤلاء الناس يعلم أطفاله بأحسن ما أمكن، إلا أن هذا التعليم يعد بسيطاً بالمقارنة لما يقدم للشباب في أفقر طبقات أوروبا، ولذلك ينشأ أطفالهم وهم يتمتعون بحماس أقل وأكثر لامبالاة من آبائهم فيما يتعلق بأمور الدين.

١٧٧٤ ـ ١٧٨١

★ ★ ★

تُمس بين
(١٧٣٧ ـ ١٨٠٩)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

من أبرز من ترك بصمات واضحة على الفكر الثوري والتحرري وعلى حقوق الانسان التي دفع الثمن الغالي في دفاعه عنها وفي بلورة مبادئها. ولعل أكثر ما يميّز بين جرأته وصراحته اللتين كانتا أحياناً على درجة كبيرة من التطرف. وقد كتب في السياسة والدين وعلم الاجتماع والفلسفة والعلم.

حياته :

ولد في تثفورد في إنجلترا لعائلة صاحبية. درّبه والده في بداية حياته في معمله الذي كان ينتج المشدّات. وعندما بلغ التاسعة عشرة من عمره، أمضى بين سنتين في البحر، ثم عاد بعدها لممارسة مهنة والده في العديد من التجمعات السكنية الانجليزية. لم يوفق بين في تحقيق أي نجاح يذكر. في عام ١٧٦٢ عمل، ولمدة اثنتي عشرة سنة، جابياً، وقد كان في تلك الأثناء يكرس وقتاً لا بأس به للمطالعة، وبخاصة في ميدان الفلسفة الإجتماعية والعلوم الطبيعية . تزوج مرتين ، ولم يكن موفقاً في زواجه. فلقد توفيت زوجته الأولى في السنة الأولى من زواجه؛ أما زوجته الثانية، فقد انفصل عنها بعيد زواجه منها .

تغيرت سلسلة الفشل والنحس والمآسي التي اتسمت بها سني حياته الأولى، عندما هاجر إلى أمريكا يحمل رسائل توصية من بنجمن فرانكلن، وحط رحاله في مدينة فيلادلفيا عام ١٧٧٤ . وتصور الرسالة التي بعثها الى بنجمن فرانكلن خير تصوير شعوره بالنجاح ككاتب صحفي

وكـاتب مقالات في خلال الستة أشهر الأولى من وصوله لأمريكا . فقد أشرف على تحرير مجلة في بنسلفـانيـا ، وكـتب حـول العـديد من الموضـوعات ، منها العبودية والزواج والاختراعات وحقـوق المرأة . وقـد سـاند بين استـقـلال أمـريكا وكـتب يدافع عن حق الأمريكيين في دولتهم المستقلة، لدرجـة أنه أصـبح ناطقاً باسم الثورة الأمريكية. وقد كتب في تلك الأثناء **الأزمة الأمريكية**، ذلك الـكـتـيـب الـذي كـان له أكبر الأثر في رفع مـعنويات الجنود وإلهاب حماسـهم، مما جـعل جـورج واشنطن يأمـر بقـراءة أجـزاء منه للجنود الذين كـانوا يخوضـون مـعـركـة الاسـتـقلال . وقد منحته جـامـعـة بنسلفـانيـا شـهـادة فـخـرية . وقد قام بين بخدمات جلى منها سفره إلى فرنسا من أجل الحـصول على دعم لولايات الاتحاد.

وقـد كـرس بين مـعظم وقـته عندما وضعت حرب الاستقلال أوزارها للاختراعات العلمية، فـقد طور أحد الجسور التي لا تستند إلى أعمدة ، كما طور شموعاً تخلو من الدخان عند اشتعالها. وقـد سـافر عام ١٧٨٧ إلى فرنسا وبريطانيا في مهمة تتعلق بالجسر الذي طوره، وقد استقبل كرجل مهم.

لكن سرعـان مـا انقلبت حـيـاته رأسـاً على عقب، فقد كتب كتابه الشهير **حقوق الانسان** الذي دافع فـيـه عن حـقـوق الفرد وعن الثورة الفرنسية. وقد سبب له ذلك عداء في بريطانيا واتهم بالخيانة. وقد اضطر نتيجة لذلك أن يهرب إلى فرنسا عام ١٧٩٢ . في بداية الأمر استقبل استقبالاً حـافـلاً وعـرضت عليـه الجنسـيـة الفرنسية، لكنه زُجّ في السجن عندما عارض إعدام الملك لويس السـادس عشر. كـتب في تلك الأثناء الجزء الأول من كـتـابه المهم **عصر العقل** والذي هاجم فـيـه المسـيـحية ومجد الانسان العادي . أطلق سراحه بعد موت روبزبيير، إثر تدخل السفير الأمريكي في فـرنسـا، وعـاد إلى أمـريكا عـام ١٨٠٢ ، ليـجـد الناس قـد نسوا إسهاماته الأولى، وليجد البعض يتـحـرش به ويؤذيه بسـبب أفكاره المعـادية للدين؛ فلقد نادى بوحدانية الإله. لكنه شن حربـاً على الكنيسـة التي لم يعترف بأهميـتـهـا وبوجـودها ؛ كما شـن حربـاً على الكتاب المقدس وأنكر مفهوم الوحي . عـاش بقـيـة حـياته شبه منسي تماماً إلى أن توفي عام ١٨٠٩ . يروى عنه أنه قال ، وهذا خير مـا يصف حياته كلها ، وخصوصاً في أواخرها :

«إنني أتحـدث بلغـة صريحة ومجردة، لا يحكمـهـا سوى حب البشرية . . . تكمن سعادتي في استـقـلالي، ولا أنظر للأشـيـاء إلا كما هي عليـه، غير آبهٍ بالمكان والغرض. إن موطني هو العالم بأسره، وأن ديني هو فـعل الخير» .

أهميته :

تكمن أهمية بين في أنه عبّر عن روح العصر خير تعبير. فلقد كانت العقود الآخيرة من القرن عقود ثورة في أمريكا وفرنسا وبلدان أوروبية أخرى، ثورة سياسية واجتماعية واقتصادية ـ ثورة على الأعراف والتقاليد وأنماط التفكير. ويمثل بين الفلسفة الربوبية خير تمثيل، من حيث تركيزه على رفض التسلط الكنسي، وعلى حرية الفرد في اختيار المعتقد الذي يشاء، رغم أهمية العلم، وأهمية حقوق الانسان، وأهمية الديمقراطية واستقلال الفرد. فقد كتب بأسلوب سلس منطقي قريب من النفس. وهو أحد الأطر المهمة التي لا يمكن أن نفهم عصر التنوير وعصر الاستقلال في أمريكا فهماً عميقاً إلا من خلال دراستنا لأعماله.

مختارات من

« الأزمـــة » (*)

(١٩ كانون الأول ١٧٧٦م)

[يبيّـن هذا النص مدى حماس بين للثورة ومدى قربه منها وانشغاله بها؛ إذ لم يكن منظّـراً فـحسب، بل كـان فاعلاً نشطاً. وعلاوة على كون الأزمة نصـاً تاريخيـاً، فهو يبرز جوانب عديدة مـن شـخص بين ومن أفكاره وآرائه] .

المحرر

إن هذه الأيام تمتـحن فـيـهـا أنفس الرجال . إن المحاربين ومحبي الوطن وقت السـلام قـد يحجـمون عن الخدمة في هذه الأزمة ، ولكن من يجالد الآن ويصمد فإنه يستحق حب الجميع ويحظى بشكرهم . الطغيان كالجحيم، لا يسهل قهره، غير أن لـديـنـا السلوى في إنه بازدياد عنفـوان الصراع يزداد مجد النصر . ومـا نحـصل عليـه رخـيصاً ننظر إليه دون التفات كبير وليس سوى الرفعة ما يجعل كل أمر ثميناً.

إن السماء تعلم كـيف تضع السـعر الملائم على بضائعها ، ولسوف يكون غريباً في الحق إن لم ينل شيء سماوي كـالحـرية هذا التـقييم العالي . إن بريطانيا ، بجيش يمكنهـا من فـرض طغـيـانها ، قـد أعلنت أن لها الحق ، لا في أن تفـرض ضرائبـها وحـسب ، وإنما في أن تقـيدنا بالسلاسل مهما تكن الأحوال . وإن لم يسمَّ قيدنا بهذه الطريقـة عـبـودية ، فليـست هنالك عـبودية على وجه الأرض . إن مجرد هذا التعبير مناف للدين. ذلك لأن الله وحده يمتلك هذه السلطة التي لا حد لها.

إن كـان اسـتقلال القارة قد أُعلن قبل الأوان أو أنه تأخر طويلاً ، فهو أمر لن أناقـشه الآن ، فإن رأيي اليسير هو لو أن الاستقلال قد أعلن قبل ثمانية شهور لكان أفـضل كـثيراً . إننا لم نسـتـفـد كـثيراً من الشتاء الماضي ، وما كان لنا أن نفعل ذلك

(*) الـترجمة مأخـوذة من ثلاثة قرون من الادب ، تـألـيـف فـوستر وفـوك ، ترجم باشراف جبرا ابراهيم جبرا (بغداد : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٧) .

ونحن في حالة خضوع. ومهما يكن فإن الخطأ، إن وجد، فهو خطؤنا، وليس لنا أن نلوم سوى أنفسنا . غير أن ما فقد حتى الآن ليس بالأمر الكثير . إن كل ما استطاع أن يفعله (هاو) خلال الشهر الماضي هو التدمير أكثر من القهر، وإن روح أهالي (جرسي) المعنوية كانت قبل سنة مضت قادرة على صده السريع، ولسوف يمكننا الوقت وقليل من التصميم على استعادة ما فقد.

ما عندي من الخرافات قليل جداً ، غير إن فكرتي الدفينة كانت على الدوام وما زالت هي: إن الله القدير لن يترك شعباً للدمار العسكري أو يدعهم يفنون دون معين، وهم قد قاموا بكل جد ودون انقطاع بمحاولة تجنب كوارث الحرب بكل وسيلة شريفة تستطيع الحكمة اكتشافها، كما إني لست عديم الايمان بحيث أعتقد أن الله قد تنازل عن حكم الكون وترك العناية بالعالم للشياطين، وحيث أني لا أعتقد بذلك فإني لا أستطيع أن أري الحجج التي يستطيع بها ملك انكلترا أن يصلي للسماء طالباً نصرتها ضدنا، فإن القاتل وقاطع الطريق والمعتدي على البيوت الآمنة لهم من الحق في تلك الصلاة ما له.

غريب أن تلاحظ كيف يدب الفزع أحياناً في بلاد بأكملها، كل البلدان في كل العصور عانت من الفزع. فقد ارتجفت بريطانيا ارتجافها من البرداء عند سماعها بأسطول فرنسي من القوارب ذات القعر المسطح، وفي القرن الرابع عشر طرد الجيش الانكليزي كله من فرنسا بعد أن أحدث في مملكتها الدمار وعاث فيها، طرد الجيش كله كأنهم رجال صعقهم الخوف، وقد قامت بهذه المأثرة الجريئة قوات متناثرة قليلة جمعتها وقادتها امرأة هي «جان دارك» . فهل توحي السماء الى فتاة من جرسي لترفع من معنويات أبناء جلدتها وتنقذ أصحابها الذين يعانون الإيلام والنهب والسلب؟! ومع هذا فإن لحالات الفزع فوائدها، فهي تأتي بالمنافع على قدر ما تأتي بالاضرار. وإن مدتها قصيرة دائماً، كما إن الادراك يعتاد على مغالبتها والتسلط عليها. غير أن فائدتها الخاصة هي في أنها المحك في الكشف عن الاخلاص والنفاق، حين تسلط الأضواء على الأشياء والرجال الذين لولا الفزع لظلوا بعيدين الى الأبد عن أن تكشف حقيقتهم. إن لها في الحقيقة بالنسبة الى الخونة المخفيين الأثر نفسه الذي يحدثه الشبح المرئي بالنسبة الى القاتل. إنها تغربل الأفكار الدفينة لدى

الانسـان وتعـرضـها على الملأ كله فكم من محافظ مبرقع أظهر رأسه مؤخراً وقد كان، لولا حـالات الفـزع والرعب، يمكن أن يظل لاعناً بكل حماسـة اليوم الذي وضع فيه (هاو) قدمه في ديلاوير.

وبما أني كنت من القـوات المحـاربة في (فـورت لي) وسرت مـعـهم حتى حدود بنسلفـانيـا، فـقـد أصـبـحت حـسن الاطلاع على أمور وأوضاع يجهلها أولئك الذين يحيـون بعـيـداً عنهـا. لقـد كـان وضعنا حرجاً للغاية، فالمكان يقع في رقبة ضيقة من الأرض بـين نهـر نورث وهاكنسـاك، ولم تكن قـواتنا كـثيرة، إذ لم تزد على ربع قـوات (هاو) التي استـطاع أن يلقـيـها ضدنا. ولم يكن لدينا جيش قريب يخفف من الوطأة على الحـاميـة لو أننا قـررنا الصمود داخل القلعة والدفاع عن أنفسنا. كانت ذخيرتنا ومـدفـعـيتنا الخـفـيـفـة والجـانب الأكبر من مخازننا قد نقلت خشية أن يخترق (هاو) جيرسي، وحـينذاك لن تصـبح (فـورت لي) نافـعـة لنا، حيث إنه يجب على كل رجل عـاقـل أن يـنـكـر، سـواء أكـان في الجـيـش أم في غيره، إن هذه الأنواع من القـلاع العـسكرية لا تجـدي إلا لأغراض مؤقتة. ويدوم استعمالها بالقدر الذي يقوم به العدو في توجـيـه قطعانه ضد نقاط معينة أقيمت هذه القلاع من أجل الدفاع عنها، وهكذا كـان وضـعنا في قلعـة (لي) صـبـاح اليوم العشرين من تشرين ثان حين جاءنا ضابط يبلغنا بأن العـدو مع مئتي قـارب قد نزل على مبعدة سبعة أميال منا. وعلى الفور أمر الجنرال غـرين آمـر الحـامـية أن تكون القطاعات تحت السلاح، وأرسل رسولاً مسرعاً الى الجنرال واشنطون في مـدينة هاكنسـاك وهي تبـعد بطريق العبارة ستة أميال. وكان غـرضنا الأول تأمين الجسر على هاكنسـاك، ذلك الجسر الذي يصل النهـر بين العدو وبيننا ويـبـعـد عنا سـتة أميال، أما عنهم فيبعد ثلاثة أميال. وصل الجنرال واشنطون خـلال ثلاثة أرباع السـاعـة، وسـار على رأس القطعات نحو الجسر وهو المكان الذي كنت أتوقع أننا سنلتحم فيه مع العدو إلا أنه اختار أن لا يقاتلنا عنده، فقام الجانب الأعظم من قـواتنا بعـبـور الجسر، أمـا الآخرون فذهبوا بالعبّارة ما خلا البعض الذي عـبر النهـر عند مـضـيق فـيـه أو لدى طاحـونة قـريبـة منه تقع بين الجسر والعـبّارة، واخترقـوا طريقـهـم خـلال المستنقـعـات حـتى مدينة هاكنساك، وهؤلاء عبروا النهر. واشترينا من المؤونة مـا يمكن للعربات أن تحمل أما الباقي فقد ضاع. وكان الغرض

اليسير من كل ذلك هو السير بالحامية حتى يمكن زيادة معنوياتها عند جرسي وبنسلفانيا لدى اتصالها بالمليشيا الوطنية هناك ؛ وهكذا يمكنها أن تصمد . وبقينا أربعة أيام في نيوارك Newark وجمعنا نقاط استطلاعنا مع بعض ميليشيا جيرسي ، وسرنا مرتين لنقابل العدو عند سماعنا أنه يتقدم، على الرغم من أن عددنا كان أقل من عدده بما لا يقاس . لقد قام هاو في رأيي الساذج بخطأ في القيادة حين لم يرم بقسم من قواته من جزيرة ستاتن الى امبوي ، ولو فعل ، لاستطاع بذلك أن يضع يده على كل مؤونتنا في برونزويك، ولأمكنه أن يوقف مسيرتنا نحو بنسلفانيا، ولكن إذا اعتقدنا أن قوة الجحيم محدودة فعلينا أن نعتقد في الوقت نفسه أن وكلاء الجحيم واقعون تحت سيطرة القدرة الالهية.

لن أحاول الدخول الآن في كل تفاصيل انسحابنا الى ديلاوير، بل يكفي أن أقول الآن، إن الضباط والجنود جميعاً، على الرغم من اجهادهم وتعبهم وانعدام الراحة والكساء والمؤونة في أغلب الأحيان لديهم، وذلك أمر لا مندوحة منه في انسحاب طويل ، قد تحملوا هذه التجربة برجولة وبروح عسكرية . وكانت كل رغباتهم منصبة على أمر واحد وهو أن البلاد ستعاونهم في رد العدو الى الوراء. لقد قال فولتير ان الملك وليام لم يظهر أقصى القدرة والكفاية إلا في أوقات المحن في الأحداث، وإن الملاحظة نفسها يمكن أن تقال عن الجنرال واشنطون، فإنها تلائمه كل الملائمة. إن لدى بعض العقول صلابة لا يمكن للتوافه أن تفتحها، ولكنها إن تفتحت أبانت عن طاقة سرية من المقاومة والمجالدة، وإني أعدها من النعم التي لا نستطيع رؤيتها بسهولة، إن الله قد منّ على واشنطون بعافية موفورة ووهبه عقلاً يزدهر في الملمات والصعاب.

سأختم هذه المقالة ببعض الملاحظات المتفرقة حول أمورنا العامة وسأبدأ بطرح السؤال الآتي : لماذا ترك العدو أقاليم نيو انجلند وجعل مكان الحرب أقاليم ثلاثة في الوسط؟ إن الجواب هو: إن نيو انجلند ليست موبوءة بالمحافظين ، أما أقاليمنا نحن فهي موبوءة بهم. لقد كنت رفيقاً في كشف هؤلاء للملأ، وأجريت ما لا يحصى من المحاورات معهم لأريهم خطرهم ، غير أنه لا يمكن السماح بتضحية عالم كامل من أجل حمقهم أو من خستهم . لقد آن الأوان لكي يغيروا مشاعرهم أو

نغير نحن مشاعرنا، وإلا فإن أحداً منا ينبغي عليه أن يسقط . . وما المحافظ؟ يا الهي! ما هو؟ إني لن أخاف أن أذهب مع مئة من الأحرار ضد ألف محافظ حين يحاولون أن يلتحموا بالسلاح. إن كل محافظ جبان، إذ إن الخوف العبودي، الخوف الحريص على المصالح الأنانية هو أساس الرجعية والمحافظة، وإن الرجل الذي يقع تحت هذا المؤثر، حتى إذ كان قاسياً، لا يمكنه قط أن يكون شجاعاً.

ولكن قبل أن نضع الخط الفاصل الذي لا رجوع عنه بيننا، دعونا نتأمل في الأمر معاً: إن سلوككم دعوة للعدو، ولكن ليس بينكم واحد في الألف من يتمتع بالشجاعة الكافية لينضم الى العدو. إن «هاو» مخدوع بكم بالمقدار الذي توقعون به الضرر للقضية الأمريكية نفسه. إنه يتوقع منكم أن تحملوا السلاح وتسيروا معه، إذ أن أفكاركم لا تنفعه ما لم تسندوها بعونكم له شخصياً، وإن ما يريد هو الجنود وليس مجرد الرجعيين.

أحسست ذات مرة بكل هذا النوع من الغضب الذي يحس به الانسان نحو مبادىء الرجعيين الخسيسة : كان صاحب خان معروف واقفاً لدى بابه ومعه طفل جميل في الثامنة أو التاسعة من العمر، وبعد أن أعلن رأيه، بالقدر الذي اعتقده حصيفاً، في الحرية ختم قوله بهذا التعبير البعيد عن شعور الأبوة: «حسناً، هب لي سلماً في أيام حياتي» . وليس هناك من رجل يحيا في القارة لا يعتقد أن فراقاً لا بد أن يحدث بيننا يوماً ما، وإن أباً كريماً كان ينبغي عليه أن يقول: «لئن كان لا بد من المتاعب فلتكن في أيامي لكي يحيا طفلي بسلام. » وإن هذا القول إذ يقال في محله لخليق أن يهيب بكل انسان أن يعنى بالواجب. ليس هناك مكان على الأرض يمكن أن يكون سعيداً كسعادة أمريكا. فإن مكانها بعيد جداً عن المشاحنات في العالم، وليس لديها ما تفعله سوى المتاجرة معه ـ إن الانسان ليستطيع أن يميز بين العاطفة والمبدأ، وإنني على ثقة، كثقتي بالله يهيمن على الكون، من أن أمريكا لن تكون قط سعيدة ما لم تتخلص من السيطرة الأجنبية. ولسوف تندلع حروب لا انقطاع لها حتى يتم الوصول الى ذلك اليوم، ولا بد أن تكون القارة في النهاية هي المنتصرة فإن شعلة الحرية وإن توقفت أحياناً عن التوهج إلا أن الفحم لن ينفذ أبداً.

* * *

مختارات من

عصر العقل

الفصل الأول : تعريف المؤلف بعقيدته

ترجمة : د. أحمد يعقوب المجدوبة

[عصر العقل من أهم الكتب التي ألفها بين، ذلك أنه يحتوي على معظم الأفكار التي آمن بها الربوبيون في القرن الثامن عشر، فهم يؤمنون بوحدانية الإله (لا بمبدأ الثالوث الذي آمن به الطهرانيون)، ويؤمنون بحرية الفرد، وبفصل الدين عن الدولة، وبحقوق الانسان، وبأهمية العقل. يلحظ القارىء أن بين ليس ضد الدين من ناحية المبدأ، بل هو ضد المؤسسة الدينية عندما تستغل الدين لأهدافها. أما بالنسبة لإشارته للدين الإسلامي فهي تدل من خلال استخدام كلمة «كنيسة» وكلمة «التركية» على جهله الواضح به. فهو يعدّ المؤسسة الدينية الإسلامية مماثلة في البنية والفكرة للمؤسسة الدينية اليهودية والمسيحية، وهذا غير صحيح] .

المحرر

لقد عزمت ومنذ سنوات على نشر آرائي فيما يتعلق بالدين . ولما كنت على علم تام بالصعوبات التي تحيط بالموضوع ، فقد أرجأت ذلك لوقت متأخر من حياتي. لقد أردت أن يكون هذا آخر ما أهب أحبتي من بني الأمم جمعاء ، وأن يتم ذلك في وقت لن يشكك فيه أحد ، حتى أولئك الذين قد لا يستحسنون العمل هذا، بصدق نواياي ودوافعي.

إن ما حدث للتو في فرنسا، من حيث الإلغاء التام لنظام الكهنة الوطني برمته وكل ما يتعلق بالأنظمة الدينية القسرية ومتطلبات الإيمان الإلزامية، لم يقو عزمي فحسب بل جعل من عمل كهذا ضرورة لا غنى عنها، كي لا نغفل عن أهمية المثل

والنوازع الانسانية والديانة الحقة في خضم هذا البحر المتلاطم من الشعوذة وفساد أنظمة الحكم وزيف التدين.

واقتداء بما قام به العديد من صحبي ومن أبناء فرنسا الأعزاء من تعبير طوعي وذاتي عن معتقداتهم، فقد قررت أن أفعل ما فعلوا، بكل الصدق والصراحة التي يعرفها الضمير الانساني في مخاطبته ذاته.

إنني أومن بإله واحد، لا أكثر؛ وإنني أرجو السعادة في الحياة الأخرى.

إنني أومن بمبدأ المساواة بين بني البشر، وأومن بأن الواجب الديني يتمثل في فعل ما هو حق وفي الميل نحو الرأفة وفي السعي إلى إسعاد بني الانسان.

لكن وحتى لا يُظن أنني أومن بأشياء كثيرة أخرى إضافة إلى هذه، أرى لزاماً علي أن أبين في سياق هذا الحديث الأشياء التي لا أومن بها ، معللاً ذلك بالأسباب.

إنى لا أومن بالمذهب الذي تنادي به الكنيسة اليهودية أو الكنيسة الرومية أو الكنيسة الإغريقية أو الكنيسة التركية (*) أو الكنيسة البروتستنتية ، أو أية كنيسة أخرى غيرها. إن عقلي هو كنيستي .

إن مؤسسات الكنائس الوطنية كافة ، سواء كانت يهودية أم مسيحية أم تركية، لا تبدو لي سوى بدع بشرية أنشئت كي ترعب الناس وتستعبدهم وتستحوذ على السلطة والنفع.

ولا أقصد بتصريحي هذا أن أنتقص من قدر أولئك الذين يؤمنون بغير ذلك؛ إن لهم الحق فيما يؤمنون به، مثلما لي الحق فيما أومن به. لكن من الضروري، ولكي تتحقق سعادة الانسان، أن يكون صادقاً كل الصدق مع نفسه. إن الكفر لا يكون بالإيمان أو بعدمه، بل بالإدعاء بأننا نؤمن بما لا نؤمن به.

إنه لمن المستحيل أن نحصي الأضرار الخلقية، إذا جاز لنا التعبير، التي تنجم عن الافتراء على النفس في المجتمع. فعندما يفسد الواحد نفسه ويدنس طهارتها،

(*) المقصود هنا الدين الإسلامي الذي كانت تحمل رايته آنئذ الدولة العثمانية.

وذلك بأن يدعى الإيمان بما لا يؤمن به، فإنه يكون قد هيأ نفسه لاقتراف أية جريمة أخرى. فتجده يمتهن مهنة الكهنة بهدف النفع، ويبدأ لكي يعد نفسه لتلك المهنة بممارسة الرياء. هل يعقل أن نجد شيئاً أكثر خطراً على الخُلُق من ذلك؟

بعد أن قمت بنشر كتيّبي « المنطق » (*) في أمريكا بقليل بدأت أدرك بيقين متزايد احتمالية أن تتبع الثورة في النظام السياسي ثورة في النظام الديني. ان الرباط الآثم القائم بين الكنيسة والدولة أينما وجد، سواء كان يهودياً أو مسيحياً أو تركياً، قد قام بمنع مناقشة الأعراف العقائدية والأسس الدينية الرئيسة منعاً باتاً وبشتى وسائل التعذيب والعقاب. ولم يتم الكشف عن هذه المواضيع بالصراحة والوضوح إلا بعد تغيير النظام السياسي؛ وكلما تم فعل ذلك، تم حدوث ثورة في النظام الديني. يتم الكشف دوماً عن بدع بني البشر وأفعال الكهنة، ويعود الإنسان إلى إيمان نقي طاهر وغير مدنّس بإله واحد لا غير.

١٧٩٣

★ ★ ★

(*) Common Sense .

فليب فرنو
(١٧٥٢ ـ ١٨٣٢)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

شاعر وصحفي سياسي كرس حياته للدفاع عن معتقداته ومبادئه، قبل الثورة الأمريكية وبعدها، في وجه الهيمنة البريطانية من جهة والآراء الفدرالية الهاملتونية من جهة أخرى. لقد ناصر حقوق الانسان بقوة وكتب شعراً مزج فيه بين السياسة والطبيعة والفكر الربوبي. وهو شاعر يمثل خير تمثيل المرحلة الانتقالية التي عاشتها أمريكا قبيل وبعيد الاستقلال، من الربوبية إلى الرومانسية ومن التبعية لبريطانيا إلى الاستقلال عنها ، ويصور خير تصوير هموم أمريكا والأفكار المتصارعة فيها في تلك الحقبة .

حياته :

ولد في مدينة نيويورك في الثاني من كانون الثاني عام ١٧٥٢ لأسرة ميسورة الحال تمتد جذورها إلى عائلات فرنسية واسكتلندية عريقة. انتقل مع أهله إلى نيوجرسي في سن العاشرة، والتحق بجامعة برنستون في سن السادسة عشرة بهدف أن يصبح قساً. كتب وهو على مقاعد الدراسة أول أهم قصائده بعنوان «قوة الخيال» وظهر لديه في هذه المرحلة حب للشعر وميل له.

اضطر إلى أن يتجه للعمل لكي يكسب رزقه بعد وفاة والده . فاشتغل في التدريس لفترة وجيزة ؛ بيد أنه لم يستمر في هذه المهنة، حيث لم يجد نفسه فيها. سافر بعد ذلك إلى جزر الهند الغربية ، وكتب فيها بعض الأشعار . كان ذلك عام ١٧٧٦ . التحق عام ١٧٧٨ بالقوات الثورية التي كانت تحارب ضد بريطانيا وأسره الانجليز وهو في سفينة في عرض البحر فذاق مرارة ظروف

قاسية، سببت له عداءً للبريطانيين وللطغيان والاستعمار . وقد قام بهجاء البريطانيين ومهاجمتهم في العديد من مؤلفاته .

وبعد الثورة كرس معظم كتاباته للتغني بها وبالحرية وحقوق الإنسان وبالسخرية من البريطانيين. تزوج عام ١٧٩٠ . ثم ما لبث أن وجد نفسه يدخل غمار صراع سياسي بين أعضاء الديمقراطية الجفرسونية وأنصار الفدرالية الهاملتونية. ومع أنه كسب ودّ جفرسون والذي عينه مترجماً في وزارة الخارجية عندما كان وزيراً لها، فإنه كسب في ذات الوقت عداء الفدراليين الذين حقدوا عليه بشدة. أسس عام ١٧٩١ بمساعدة جفرسون الناشنل غازيت التي دافع من خلالها عن الحريات وعن وجهة النظر الجفرسونية؛ وقد شكل فرنو في تلك الأثناء ثقلاً صحفياً وسياسياً لا يستهان به. كان من أنصار التحرر السياسي والديني، وهذا ما زاد في عداء الهاملتونيين له. تلاشى عن الأنظار عندما اعتزل جفرسون الحياة السياسية مؤقتاً.

استقر في نيوجرسي عام ١٧٩٤ حيث قام بتحرير صحيفة هناك. ظهرت مجموعات شعرية وكتابات مهمة له عام ١٧٩٥ و ١٧٩٧ . دفعه الفقر في سن الخمسين ليعمل ربّان سفينة تجارية في الأعوام ما بين ١٨٠٣ و ١٨٠٧ . حُرق بيته عام ١٨١٨ ، وقد وجد نفسه في سن السبعين يجوب الشوارع ويطرق الأبواب في الأحياء يكسب عيشه من خلال اصلاح الساعات ومن أعمال مشابهة. مات في عاصفة ثلجية في أثناء عودته من إحدى الحانات عام ١٨٣٢ .

كتاباته واهميته :

كتب فرنو الكثير من المقالات والأشعار. وكان معظم ما ركز عليه هي الكتابات السياسية. ولقد خط كذلك الأشعار الرومانسية. يتسم شعره في الفترة الأولى بالسمات الكلاسيكية المحافظة من حيث الموضوع والشكل، بيد أنه ألّف أشعاراً رومانسية على درجة كبيرة من الأهمية والعمق. ويعدّه الكثير من النقاد الشاعر الرومانسي الأول في أمريكا. ومع أن شهرته كصحفي وكشاعر ثورة فاقت في أيامه شهرته ككاتب مبدع عميق الفكر، فإنه بدأ فيما بعد يحظى باهتمام النقاد. ولقد انصب جزء كبير من اهتمامه على المواضيع الأمريكية، كما أبدى اهتماماً بالموت والزوال، وذلك على الرغم من فلسفته الربوبية التي تدعو إلى التفاؤل، وقد أطلق عليه البعض لقب شاعر المتناقضات، حيث كان رومانسياً وكلاسيكياً في آن واحد، كما أسلفنا، ويكتب عن المجتمع وعن الطبيعة، ويتفاءل ويتشاءم في ذات الوقت.

أيـك الـرحـيـق (*)

ترجمة: د. أحمد يعقوب المجدوبة

[«أيك الرحيق» قصيدة مشهورة تمثل شعر فرنو الرومانسي خير تمثيل ، وذلك من خلال تركيزها على الطبيعة كموضوع للشعر وعلى التأمل في الحياة ومعناها . وهي تعالج قضية الموت ، مؤكدة أن الموت شيء غير مخيف، بل هو على العكس من ذلك محبب ومرغوب لأنه يعيد النفس إلى الطبيعة التي كانت هي جزءاً منها أصلاً] .

المحرر

أيتها الوردة الحسناء، تنمو بشموخ،
تختبئين في سكون هذه العزلة الصامتة،
تختال أزهارك الملأى بالرحيق لا يمسها أحد،
وتومىء أفنانك الصغيرة غير مرئية :
سوف لن تدوسك قدم هائمة هنا
ولن تسبب يد قاسية سيل دمعك.

كستك الطبيعة ذاتها حلة بيضاء،
جعلتك تجتنبين نظرات عموم الناس،
ضربت حولك ظلالاً وارفة،
وفجرت عيون الماء الصافي تنهمر بقربك.
ينقضي صيفك بصمت،
وتنتهي بسكون أيامك.

(*) شجيرة أزهارها غنية بالرحيق.

وحين أقف أمام جمال لا محالة زائلٌ،
ينتابني الأسى عند التفكر بذاك الزوال الآتي،
فقد هلكت تلك الورود التي تفتحت من قبل في جنة عَدْن (*) ،
ولم تكن أكثر منك بهجة.
لن يترك الصقيع القاسي، ولن تترك يد الخريف
أي أثر لهذا الأيك.

من شموس الصبح، من قطر الندى،
ولدتِ كائناً صغير البنية،
ولما لم تكوني شيئاً، فإنك لن تخسرين
فعند قدوم الموت، تضحي كما كنتِ.
ليس بين الحالتين سوى سويعة.
تكون بقدر حياة وُرَيْدَةٍ رقيقة.

١٧٨٦

(*) الجنة التي خلقها الله في البداية لآدم وحواء ثم أخرجهما منها.

مقبرة هندية

ترجمة : د. أحمد يعقوب المجدوبة

[تبرز هذه القصيدة اهتمام فرنو بالطبيعة وبالحضارة الأمريكية الغابرة (ويقصد بها حضارة الهنود الحمر)؛ وهذان موضوعان يركز العديد من الأدباء الرومانسيين عليهما. فالحركة الرومانسية تركز على الطبيعة وعلى الماضي السحيق] .

المحرر

برغم كل ما يقوله الحكماء
فإني ما زلت أومن بفكرتي القديمة :
الوضع (*) الذي نختار للموتى
يحدد ما تكون عليه الروح في نومها الأبدي .

ما هكذا يفعل قاطنوا هذه البلاد القدامى ـ
فعندما يطلق سراح الهندي من الحياة هذه،
يجُلسُ (*) مع أصحابه
ويشارك مجدداً في عيدهم البهيّ.

رسوم الطير وزخارف الأواني
والطرائد وحلة السفر
تدلل كلها على كنه الروح،
نشاط لا يعرف الكلل .

(*) أي الوضع الذي يكون عليه الجسد عند دفنه.

(**) يكون الجسد عند دفنه في وضع جلوس.

قوسه الموتّر الجاهز للرمي
وسهامه حجرية الرؤوس،
تعني قضاء الأجل،
لا فناء الأفكار القديمة .

أيها الغريب الذي سيمر من هنا،
لا تقترف أي تزوير بحق الموتى.
انظر إلى انتفاخ الأرض،
إنهم لا يستلقون، بل هم هنا يجلسون .

ما زالت صخرة كبيرة باقية هنا،
تقتفي العين الفاحصة عليها
(برغم تلاشي نصفها بفعل غزارة الأمطار)
آثار جنس بدائي قديم .

ما زال هنا شجر الدردار الشامخ،
الذي لعب في ظلاله الوارفة
(والتي ما زال يتغنى بها الرعاة)
أبناء الغاب .

هنا أميرة هندية لا تغمض عينيها
(ملكة سبع (*) شاحبة، بشعرها المجدول)
وأشكال بدائية أخرى ترى
لتغيظ من يأتي هنا يتجول .

(*) نسبة إلى ملكة السبع في الكتاب المقدس .

وتحت أقمار منتصف الليل وفوق قطرات الندى،
يرتدي حلة الصيد،
ما زال الصياد يطارد الغزلان،
صياد وغزلان وظل .

سوف ترقب المخيلة لمدة طويلة هنا
زعيمًا مزركشاً ورمحاً مصوباً،
وسوف يركع العقل نفسه
أمام ظلال وأمام أوهام .

١٧٧٨

إلى نحلة

شربت من كأس خمر فغرقت فيه

ترجمة: د. أحمد يعقوب المجدوبة

[قصيدة وصفية تأملية تظهر الجانب الثوري والتشاؤمي من شخصية فرنو. ولعل النحلة رمز يمثل كفاح الشاعر نفسه، وغيره ممن هم في مثل حاله] .

المحرر

ولدتِ كي ترشفين من بحيرة أو من ينبوع ماء
أو تشربين من مياه الجداول.
لَم يا ترى أتيت هنا بأجنحة شريدة؟ ـ
هل يعقل أن أغراكِ باخوس (*) ـ
وهل أعدّ لك هذا الكأس؟
أأقبلُ أن تشاركيني ؟

هل شردتكِ العواصف، أم هل تراك حيرّك الخصوم،
أثبطتكِ الدبابير وملوك الطير،
أأرقتك الحروب أم أزعجتك المشاغل،
أم هل أضعت طريقك؟
لن تجدي مقعداً مريحاً
غير حافة هذه البحيرة .

مرحى ـ أرحب بك إلى كأسي،
تجدين أن الكل موضع ترحيب هنا؛

(*) إله الخمر في الأساطير اليونانية .

هنا تنقشع غيوم الحسرة
وتذوب كافة الأحزان.
لن يُخْفق الشراب هذا في الترويح عنك
أو في أن يغرق هموم الناس أو هموم النحل .

لن نعرف ما الذي أرغمك على المجيء إلينا،
فأنت لن تُفصحين.
ندعك تذهبين في حرية
ونودعك بسرور.
نتمنى أن تطيري بخفة،
وتغيظي في تحليقكِ الخصوم .

لا، لا تغرقي من الشراب كثيراً،
ولا تموتي في هذا المحيط؛
قد يغرق نحل أكبر منك حجمًا،
نحل قد يبلغ طوله أقدام (*) .
سيقال عنك أنك مثل فرعون
غرقت في بحر أحمر .

افعلي ما شئت، فإن إرادتك إرادتي،
تمتعي بلا خوف؛
وليكن مثواك كأس الخمر هذه،
وليكن رثاؤك دمعة.
خذي مقعداً في فُلْك كارن (**) ،
سنقول للخلية أنك غرقت وأنتِ تسبحين .

(*) حرفياً: «ستة أقدام» .

(*) قبطان الموتى.

فـلـيـس ويـتـلـي
(١٧٥٤ ـ ١٧٨٤)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

شـاعـرة أمـريكية سوداء من أصل افريقي، ولعلها تكون أهم أول من كتب الشعر من أبناء العـرق الأسـود في أمـريكا. وعلى الرغم من أنها لم تهتم كـثيراً بمـوضوع العبودية والتحرر في أمريكا ولم تـعـبر بطريقـة صريحة عن هموم السـود في العـالم الجـديد، فإن مجرد كـونها سـوداء وامـرأة يجعل لكتاباتها نكهة وأهمية خاصة.

حـيـاتـهـا :

أغلب الظن أنها ولدت في أفريقيا. بيعت في مدينة بوسطن، بعد أن خطفها تجار العبيد إلى العـالم الجديد، إلى زوجة خياط موسر الحال عندما كانت في سن السابعة أو الثامنة، كما يستدل من أسنانها التي كـانت تتـسـاقط آنذاك، وذلك عـام ١٧٦١ . وقد منحتها سوزانا ويتلي، زوجة الخياط التي اشترتها لتكون خـادمة في منزلها، اسماً مسيحياً.

أظهـرت فِليس ذكـاءً حاداً ونبوغاً مبكراً ، مما حذى بالعائلة التي اشترتها أن تعاملها بلطف وأن تهتم بتـعليـمـهـا. وبالفعل فقد أتقنت فِليس اللغة الانجليزية في غضون ستة عشر شهراً . وقد شـجـعـتـهـا العائلة على دراسة علم الفلك والجغرافيا والتاريخ، إضافة إلى الكتاب المقدس بالطبع. قـامت بعـد ذلك بتـعلم اللغـة اللاتينيـة ودرست العديد من كتّاب العصر الكلاسيكي. كانت أول تجربة ناجـحة لها في الشعر في سن الثالثة عشرة. وقد كتبت في عام ١٧٧٠ قصيدة مؤثرة ترثي فيها المبشر والخطيب المفـوه جورج وايتفيلد.

سافرت بمعية أحد أفراد أسرة ويتلي إلى لندن في سن التاسعة عشرة، وقد لفتت الأنظار بشكل كبير هناك، وبخاصة عندما نشرت عام ١٧٧٣ مجموعة شعرية تتناول فيها موضوعات في الدين والأخلاق وما إلى ذلك ، قد تكون أول كتاب ينشر في تاريخ الأدب الأمريكي الأسود . زارها عمدة لندن وأهداها ملحمة **الفردوس المفقود** ، كما زارها بنجمن فرانكلن . ويقال بأن فولتير نفسه قد قرأ أشعارها وأثنى عليها.

قرأت العديد من أشعار بوب Pope وكتّاب عصره وتأثرت بأسلوبهم في الكتابة . كانت صاحبة موهبة ومتحدثة بارعة، نالت إعجاب الكثيرين.

عادت بعد ذلك إلى أمريكا ونالت حريتها، ثم تزوجت من عبد محرر يدعى جون بيترز بعد أن انفصلت عن عائلة ويتلي. توفيت في سن الثلاثين في مدينة بوسطن بعد أن عانت من فقر شديد ونسيان الناس لها ووفاة أطفالها.

أهميتها :

كتبت العديد من القصائد في موضوعات دينية وفكرية. كما أبدت اهتماماً خاصاً بالأحداث العامة. وهي من قلائل الكتاب السود الذين لم ينخرطوا انخراطاً تاماً في الموضوعات التي تهم المجتمع الأسود بالدرجة الأولى، مع أنها لم تغفلها. قصائدها تتسم بعمق التجربة وقوة العبارة وسعة الخيال.

حول إحضاري من أفريقيا إلى أمريكا

ترجمة: وفاء عوني الخضراء

[هذه إحدى قصائدها المهمة . يلحظ القارىء اهتمامها بالدين وشعورها ، في ظاهر الأمر على الأقل، بالإمتنان لاعتناقها المسيحية والتي ترجع تحضّرها إليها، وهي الفكرة التي زرعها المبشرون في نفوس السود آنذاك . ويتضح إهتمامها بأبناء جلدتها ومحاولتها الدفاع عنهم . لا أدري إن كان هنالك نبرة ساخرة فيما تقول ، كما قد يتضح من خلال قراءتنا للنصف الثاني من القصيدة] .

المحرر

كان رحيلي من أرضي الوثنية رحمة؛
تعلمت روحي المعتمة أن تدرك،
حين كنت لا أعرف الخلاص ولا أسعى إليه،
وجود الإلٰه ووجود المنقذ.
يرمق البعض عرقنا الأسود بعين ساخرة :
«لونهم طلاء شيطاني. »
تذكروا أيها المسيحيون : قد يهُذّب الزنوج،
الذين هم بسواد قابيل، ويسيروا في الركب الملائكي.

١٧٧٣

إلى س . م .

رسّام افريقي شاب
عند رؤية اعماله

ترجمة : د. أحمد يعقوب المجدوبة

وفـاء عـونـي الخضـراء

[القـصيدة التالية بديعة بلا أدنى شك. تدّل على سعة خيال واطّـلاع الشاعرة، وعلى عمق أفكارها ودقـة وصـفـهـا. وهي تظهـر بشكل جلـيّ قـدرتها على تخطي واقـعـها الملموس وخلق واقع أكـثـر سـمـواً وجـالاً ، ذلك الواقع الذي يعبـر عنه فـيما بعد شعـراء عظام مثل إمرسـن وستيفنز وآمنز] .

المحرر

لـمّـا أمسكتَ القلم للمرة الأولى كي تُبدع الجمال،
وتُصوّرَ نفساً أرقّت خباياها هواجس عميقة،
وترسم في رموز حية أفكارا،
وتعطي للأطياف النابضة من روحك روحا،
خبرتُ في أعماقي بهجةً لكل ذاك،
وبتُّ قريرة العين إزاء هذا الخلق.
قُدماً ، يا أيها الفتى المثابر ، سر على كل دروب النبل،
واضعاً أمجاد الخلد صوب عينيك الحائرتين.
أمنيتي أن تلهب نار الشعر والرسم
حماس ريشتك فتبدع شعراً.
وأرجو أن تغذ مفاتن كل مغزىً
ملائكي خطاك للخلود وللعلياء.

لترفع ناظريك إلى أعاجيب السماء،
فتبهج روحك بالمحاسن.
سعدت أضعاف ما سعدت لما رمقت متفحصاً بنشوة
عِظَمَ المدينة تُـوِّجت بنهار لا يزول،
تسند بواباتها الإثنتي عشرة مفاصل صنعت من نور،
وتزهو (سيْلم) (*) السماوية بربيع سرمدي.
تمضي لحظات عمرك بالهدوء وفي سلام،
ولتوحي آلهات الشعر لك بكل الأناشيد المستقبلية.
نرجو وقد حُبيت بما يلذ من التأمل
أن تكسو جناحاك البلسميان روحك بالسكينة.
وعند تبديد ظلال الوقت هذه
ولما ينتهي الظلام إلى نهار سرمدي،
على متن أي أجنحة ملائكية سنُحمل،
لنرقب المشاهد في الربوع العلى؟
هناك سوف تنساب من فيك همسات سماوية،
وسوف يزهو إلهامي الشعري بالحلل السماوية.
لن نذكر آهات دامون (**) اللطيفة،
ولا البريق الذي ينبعث من عين أورورا (***) ،
فالمغازي الأكثر نبلاً تَنْشُدُ لحناً أكثر نبلا،
وتنشد من بطح الفضاء عبارات تكون أسمى.
كفى، إلهة الشعر اللطيفة، فظلام الليل المهيب
أخذ يحجب عن ناظري بديع هذا الخلق.

١٧٧٣

(*) هي مدينة معرقة في القدم في ولاية مستشوستس، لكن يقصد بها هنا القدس.
(**) أحد الرعاة المشهورين في قصائد فيرجل.
(***) إله الفجر في الأساطير الرومانية.

القرن التاسع عشر

الأدب الرومانسي وعصر النهضة

بقلم : د. أحمد يعقوب المجدوبة

أ ـ الإطار الزمني :

اختلف النقاد بعض الشيء في تحديد هذه الحقبة المهمة من تاريخ الأدب الامريكي . فمنهم ، مثلاً ، من حصرها بين عامي ١٨٠٠ و١٨٥٩ . وهؤلاء النقاد اعتبروا الأديب واشنطن إيرفنج ، وهو أول كاتب أمريكي يحقق شهرة عالمية وبخاصة في اوروبا ، حجر الأساس في العصر كله واعتبروا بعض التواريخ المهمة في حياته موازية لبداية ونهاية الفترة الرومانسية . فالتاريخ الأول المذكور يشير الى عام ارتقاء إيرفنج أعالي نهر الهدسون ، في حين يشير التاريخ الثاني الى عام وفاته . بيد أن هنالك نقاد آخرين ، ونخص بالذكر أولئك الذين لا يربطون تاريخ العصر بحياة مؤلف واحد ، يرون غير ذلك . فمنهم من يصر على ان سنة ١٨٢٠ هي البداية الحقيقية للحقبة الرومانسية وان سنة ١٨٦٥ هي نهايتها . ومن النقاد من يعدّ عام ١٨١٥ عام البداية وعام ١٨٦١ عام النهاية . ومنهم من يذهب الى أبعد من ذلك ويقول ان البداية في واقع الأمر هي ١٨٣٦ ، وهو عام نشر كتاب **الطبيعة** لإمرسن ، والذي ينظر اليه البعض على أنه الأب الفعلي للرومانسية (لا للحركة المتسامية فحسب) . وان هنالك من يقدم تواريخ مختلفة تماماً عن كل ما ذكر .

ولا عجب في ذلك ، فحقب التاريخ الأدبي الامريكي ، كحقب غيره من الآداب ، هي في

جـوهرها اصطلاحـيـة واعـتـبـاطيـة ، وضـعـت كي تسهـل مهمـة الدارس والمؤرخ . واذا كان بالامكان تحديد المعالم الجغرافية بدقة ويسر في كثير من الأحيان ، فاننا قد لا نتمكن قط من فعل شيء من ذلك بالنسبة للتاريخ ، وبخاصة تاريخ الادب الذي هو مواقف وافكار تتشعب وتختلط وتتشابك الى حد كبير . وعند الحديث عن الاطر الزمنية للحركة الرومانسية ، وهي الحركة التي يجمع النقـاد على احـتلالها مكان الصدارة في هذه الحقبـة الأدبيـة ، فاننا نجد انفسنا أمام مهمة أصعب بكثير مما قـد نظن للوهلة الاولى . فـيـجب ان نمـيـز هنا بين الحديث عن تاريخ الفكرة الرومـانسـيـة او الموضـوع الرومانسـي وبين الحديث عن المدرسة او الحركة الرومانسية . أما بالنسبة للأولى فهي تبدأ قبـل ١٨٠٠ بكثير . فالفكـرة الرومانسيـة موجـودة بوضوح في قصائد آن برادستريـت ، وخـصـوصـاً قصيـدة « تأملات » Contemplations التي تصف فيها مشاهد طبـيـعـية تكاد تضاهي في حسنها وصدق عاطفتها مشـاهد ويردزورث وإمرسـن وثورو . بل ويمكن ان نرجـع الفكـرة الرومـانسـيـة الى اعمال جـون سـمـيث في وصفه الحي والمثير لمناظر العـالم الجديد في بدايات القرن السابع عشر . ويحتل الموضوع الرومانسي مكانة مرموقة في أدب القـرن العشرين ، فـهـو بمـثـابة العـمود الفقري في شعر وليم كارلـس وليمز وولاس ستيفنز وآرتشي آمنز ، مـثـلاً . أمـا عندما نتحدث عن الحركة الرومانسية ، فان مهمتنا تبدو اكثر يسراً . فـهي مـدرسة ادبية تألق نجمها بعد حرب الاستقلال ، وأفل بشكل متسارع مع نهايات الحرب الاهليـة . ومن هنا نسـتطيع القـول بشـيء من الثـقـة ، ولتيسير الامر على القارىء ، ان الحقبة الرومانسية بدأت بدايتها الحقيقية بعيد حـرب الاستقـلال ، ولنقـل عـام ١٨٠٠ (وهو عام بداية القرن) وانتهـت (اذا جـاز لنا استخـدام هـذه الكلمـة) عـام ١٨٦٥ ، وهـو عـام نهـايـة الحرب الاهليـة الامريكية .

ب ـ تطورات وحقائق عامة :

بعـد حـصـول امـريكا على استقلالها رسمياً ، اخذت رقعتهـا الجغرافيـة في الاتسـاع ، وخـصـوصـاً باتجـاه الغرب . ومع ان مدن السـاحل الشرقي ، مثل بوسطن ونيويورك ، بقيت تسـتـحـوذ على اهتمام العـديد من السكان ، لاهميتها الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، إلا ان نفـراً كـثيراً من الناس بدأ يتـجـه غـرباً ، لدوافع مختلفة ؛ منها ، كما ذكر بعض المؤرخين ، حب المغـامـرة وكسب العـيش والهرب من القانون وتأكيد الذات . يضـاف الى ذلك ان سياسة الدولة شـجـعت على الاسـتـيطان والتوسع . وقد ساد في هذه الحقبة مفهوم «القدر المحتوم» Manifest Destiny ، ويعني باخـتـصـار شـعور الامريكيين بمسؤولية اعمار القارة ونشر الحضارة المدنية ومـبـادىء الديمـقـراطيـة ، واحياناً المسيحية في كافة ارجائها حتى يكونوا مثلاً يحتذى في العالم

اجمع . وهذه فكرة ورثهـا الابناء ، جـزئيـاً على الاقل ، من الحركة الطهرانية التي وجدت نفسها امام مسؤولية بناء المدينة الروحية المثلى . وقد حصلت امريكا بعد نهاية الحـرب ضـد المكسيـك على مساحات كبيرة من الارض ، منها اراضي تكساس وكاليفورنيا ونيومكسيكو وغيرها .

وقـد تضاعف في هذه الحقبـة عـدد الولايات التي انضمـت الى الاتحاد ، كما ازداد عـدد السكان زيادة ملحوظة . فقد بلغ عدد سكان الولايات المتحدة عام ١٨٢٠ عشـرة ملايين نسمـة ، أما في عـام ١٨٦٥ ، وهو نهايـة الحقبة تقريبـاً ، فقد بلغ ٣٦ مليون نسمـة . وقد شهـدت هـذه الفترة نقلة كـمـيـة ونوعية في أوجه كثيرة . فقد طرأ تحسن كبير على المواصلات المائية والبرية . لقـد افـاد الامـريكيون من الانهار والبحيرات بشكل كبير ، وسيروا مراكب بخارية بين العديد من المدن والبلدات التي تقع على حـافـة الانهار والبـحيرات الكبرى ، مما سـهل الاتصال بينها بشكل ملحـوظ وزاد من تماسك اطرافـهـا المترامية . كما ساهمت سكك الحديد ، التي انتشـرت بشكل منقطع النظير في هذه الفترة ، في تماسك ارجـاء الدولة من جـهـة ، وفي تقبل فكرة اتساع رقعتها الجغرافية من جهة اخرى ، اذ لم يعد الواحد يخشى الاستيطان في مناطق نائية .

ولـقـد اخـذت امـريكا في التـحـول السريع نحـو التـصنيع . ويقـول البـعض ان كلمـة «تكنولوجيا» نفسها ظهرت لأول مرة عام ١٨٢٩ . لقد بقي للزراعة أهمية كبرى ، بيد ان التوجه نحـو الصناعة بأنواعها اخذ يغزو عقل الكثير من الناس . وقد أثر ذلك في الحياة الامريكية بشكل كـبير . فلقـد كـانت امريكا تفخر بأنها دولة مزارعين يتساوى ابناؤها في كل شيء تقريباً . نذكر هنا اصرار كـرفكور على أن مـا يميـز العالـم الجديـد (ويقصد به أمريكا) هو غيـاب الطبقيـة الاجـتماعـيـة . الكل سـواسية لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات . هموم الشعب واحدة . آمـالهم واحدة ، عاداتهم واحـدة ، وأنماط تفكيرهم واحـدة . أما العالم القديم (اوروبا) فهو عالم طبـقي اقطاعي ، تسـتحوذ النخبة القليلة فيه على السلطة وتستعبد الملايين . وقد يكون كرفكور مبالغاً بعض الشيء ، لكن كان في كلامه الكثير من الصحة . أما في حقبتنا هذه فقد تغير الوضع . لقـد اخذت امريكا تفقد الطابع الريفي المهيمن، وسيطرت عليها المدن التجارية والصناعية الكبرى. فـقـد ازداد عدد الذين يتركون القرى الى المدن بشكل ملحوظ ، مما اثار غضب العديد من انصار الحـركة الرومانسية . ولا ننسى بالطبع ان امريكا بعد رفضها للحركة الطهرانية في القرن الثامن عشر ، قـد اخـتـارت النهج الرأسمالي ، ذلك النهج الذي يمجد المدينة والمدنية ويقوم على التصنيع والاتجـار وتكديس الامـوال . وقد قضى هذا التوجه على روح المساواة واللاطبقية التي تغنى بها كـرفكور وسـبب شرخـاً في التركيبة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمجتمع . فاصبح هنالك غني وفـقير ، واغنى وأفقر . كما سبب ، من جهة اخرى ، تعاظم القوة الامريكية . فالثروة تخلق القوة ، اقتصادياً وسياسياً ؛ واخذت امريكا تبرز شيئاً فشيئاً كقوة لا يستهان بها .

ومن الاحداث التي تركت بصمات واضحة على بنية المجتمع السياسية والاجتماعية في الدولة الجديدة، وعلى مكانة تلك الدولة عالمياً ، حرب عام ١٨١٢ بين الولايات المتحدة وبريطانيا . كانت فرنسا وبريطانيا ، وهما الدولتان العظميان آنذاك ، في صراع مستمر لتوسيع نفوذهما في العالم من جهة وحماية مصالحهما من جهة ثانية . لقد حاولت امريكا جاهدة ، انطلاقاً من قناعات الرئيس تُمس جفرسن ، ان تبقى على الحياد. لكن تجارتها ، والتي شكلت مورداً أساسياً للدخل القومي ، عانت نتيجة سياسات وممارسات الدولتين المذكورتين ، وخصوصاً من بريطانيا التي كان لها اسطول بحري ضخم والتي اباحت لنفسها ضرب أية سفينة تجارية لا تتجه الى موانئها واعتراض السفن الامريكية وتفتيشها بحثاً عن جنود البحرية البريطانيين الهاربين من الخدمة . وقد سبب ذلك تعاظم استياء من الجانب الامريكي انتهى الى سلسلة حروب بحرية وبرية بين امريكا وبريطانيا ، انتصرت امريكا في معظمها . وقد ادت نتائج هذه الحرب ، والتي اطلق عليها البعض اسم حرب الاستقلال الثانية ، الى تزايد ثقة امريكا بنفسها واعتزازها بقوتها المتنامية .

ومن التطورات الايجابية في هذه المرحلة التاريخية انتشار دور النشر ، وبخاصة في مدن نيويورك وبوسطن وفيلادلفيا ، التي كانت مراكز علم وثقافة مشعة والتي ساهمت في خلق جو ثقافي وفكري رفيع المستوى وفي مد جسور المعرفة الى قطاعات واسعة من المجتمع . لقد نشر العديد من الكتب القيمة ومن المجلات . فلقد بلغ عدد المجلات التي كانت تصدر في أمريكا عام ١٨٢٥ ، حسب تقديرات بعض المهتمين ، نحو ١٠٠ مجلة ، مقارنة بخمس مجلات فقط عام ١٧٤٥ . وقد نشرت أعمال مهمة في شتى ميادين المعرفة في هذه الفترة ، نذكر منها على سبيل المثال ، قاموس ويبستر . كما اشتهر عدد من الفنانين كانت الطبيعة مصدر إلهامهم وموضوعاً ملحاً في رسوماتهم .

جـ - خصائص فكر وأدب العصر :

يستطيع من يتبحر ملياً في الاعمال الادبية التي انتجها العصر، بشتى انماطها، من شعر وحكاية ورواية ومقالة وخاطرة وخطبة ومحاضرة ومفكرة واطروحة فلسفية، وعلى اختلاف توجهاتها العقائدية ومستوياتها الفكرية، ان يخلص الى بعض السمات المشتركة ، او حتى المتنافرة ، التي تكسب العصر ، منفردة ومجتمعة ، اهم ملامحه . نذكر فيما يلي ابرزها .

ينظر العديد من النقاد الى هذا العصر على أنه عصر نهضة أدبية حقيقية . وهذه هي السمة العامة المسيطرة على روح الحقبة . ومفهوم النهضة مفهوم له دلالاته وله مبرراته .

والمقصود به هنا ظهور زخم ادبي بكم وكيف لم يسبق لهما مثيل في تاريخ الادب الامريكي . صحيح ان أدب امريكا شهد منذ بداياته في اوائل القرن السابع عشر ولادة اعمال عظيمة ـ سواء كانت أدبية أم دينية ذات طابع أدبي أم تاريخية لها ابعاد فنية وفكرية رفيعة ـ صقلت عقل معاصريها ووجدانهم صقلاً متيناً وأثّرت في المسيرة الادبية الامريكية وما زالت تؤثر الى يومنا هذا . لقد كان الآباء المؤسسون ، كما نذكر، على درجة كبيرة من العلم والثقافة والايمان والالتزام، وقد ابدعوا فيما قالوا أيّما ابداع . وما زلنا الى هذا اليوم نقرأ وندرّس اشعار آن برادستريت وادورد تيلر وكتابات وليم برادفرد وجون ونثرب . ومثلما تالق الآباء الأولون فقد تألق الابناء كذلك سواء من حمل الراية الطهرانية منهم ، مثل جونثن ادوردز ، او من سار في خط معاكس للآباء مثل بنجمن فرانكلن وتُمس جفرسن وتُمس بين . للقرنين السابع والثامن عشر ، اذاً ، تميز وتأثير لا يمكن أن نقلل من شأنهما . بيد أن ما حدث في الثلثين الأولين من القرن التاسع عشر هو شيء فريد من نوعه . فكثافة النصوص الأدبية وجودتها وظهورها فجأة لهو أمر يثير الدهشة والاعجاب معاً . يذكر الناقد ماثيسون في كتابه **النهضة الامريكية** أنه في نصف عقد واحد فقط ، ١٨٥٠ ـ ١٨٥٥ ، ولدت مجموعة أعمال ذاع صيتها ليس في امريكا فحسب بل في العالم أجمع. منها رواية **الشارة القرمزية** (١٨٥٠) لهوثورن، ورواية **موبي ديك** (١٨٥١) لِملفِل ، وكتاب **وولدن** لثورو (١٨٥٤) ، وديوان **أوراق الحشائش** (١٨٥٥) لويتمن ، الخ . هو عصر نهضة لأنه عصر أعمال عظيمة الشأن بالغة الأثر في المسيرة الادبية الامريكية والعالمية ، وصل الأدب الامريكي فيها الى ذروة الابداع وقمة الرقي .

وهو عصر «نهضة» كذلك لانه ، كما يعرّف لنا قاموس ويبستر الكلمة وكما يبلورها الناقد الامريكي م. هـ. إيبرمز ، عصر «ولادة» و «بعث» جديدين . لقد تخلص الأديب الامريكي من نوعين من التبعية : تبعية اوروبا الأم ، وتبعية الماضي الامريكي نفسه . لقد شعر الكاتب الجديد ، كما يؤكد لنا إمرسن ، باستقلاله الفكري وبثقته بقدراته على الخلق والإبداع . يقول إمرسن في مقالته «العالم الامريكي» : «سوف نمشي على اقدامنا نحن ، سوف نعمل بأيدينا نحن ، سوف نقول ما في أذهاننا نحن » . لكن الجيل لم ينسلخ كلياً عن الماضي . وهذا هو بعد آخر لمفهوم النهضة ، أي مفهوم «الإحياء» . فلقد ركز إمرسن نفسه في مقالته المشار اليها ، كما ركز الجيل كله ، على أهمية «عقل الماضي» ، ويقصد به ما خلف الآباء والاجداد ، وما خلفت الانسانية جمعاء ، من فكر . فلقد قرأ إيرفنج وإمرسن وثورو وهوثورن ودِكنسُن وِتمن وملفِل وبو كتباً لا تعد ولا تحصى ، وهضموا التراث (الامريكي والانساني) هضمًا لا نظير له ، و «أحيوه» من خلال أعمالهم هم .

من هذه السمة العامة (سمة النهضة) تتفرع سمات أخرى تصبُّ في المصب العام

المذكور في جزء منها ، وتصب في مصبها الخاص في جزء آخر. منها ، أولاً ، ان العصر هو عصر تحرر وتمرد ورفض في الكثير من جوانبه . لم يثر الادباء والمفكرون على الماضي فحسب، بل ثاروا كذلك على كل ما لم يعجبهم في الحاضر . وقصة حياة إمرسن هي خير مثال . فلقد ثار في بداية حياته العملية على ممارسات الكنيسة التوحيدية التي كان يستظل بظلها ، لانه وجدها غير منطقية . وقد تشدد في موقفه الرافض المتمرد واستقال من منصب رفيع كان يدر عليه المال والشهرة والجاه . ولم يزحزحه من انتقدوه ومن عادوه عن موقفه قيد أنملة . ومن الامثلة كذلك تمرد هنري ديفد ثورو على السلطة ورفضه دفع الضريبة للدولة احتجاجاً على الحرب الامريكية المكسيكية . وفضل ان يدخل السجن على أن يدفع الضريبة . وكتب على أثر ذلك مقالته المشهورة « العصيان المدني » . ثم هنالك ولت وتمن الذي حارب النزعة المحافظة القمعية في المجتمع ، وخصوصاً النظرة الضيقة للجسد البشري والجنس والمرأة، وقال بيته المشهور : «أنا شاعر الجسد؛ أنا شاعر الروح». ثم قال : «أنا شاعر المرأة ، مثلما انا شاعر الرجل» . وقد رفض العديد من الكتاب اضطهاد المجتمع للسود وغيرهم واستعبادهم ، ونادوا بضرورة تحريرهم ، مثل لُنجفلو في قصيدته «حلم عبد» وهاريت ستو في روايتها كوخ العم توم .

ومنها ، ثانياً ، أن العصر هو عصر تمحيص ومساءلة ومحاسبة ومراجعة . لقد ركز كتّاب العصر على ضرورة اخضاع المفاهيم والعادات والتقاليد والقيم والمبادىء السائدة والبائدة الى مقياس العقل . لقد كتب إمرسن الطبيعة وكتب ثورو وولدن من أجل إعادة النظر في كل الاساسيات ومناقشتها من جديد . فلقد بحثا مفهوم الذات والخلق والحقوق والواجبات والمجتمع والدين والتجارة ، وكيف يعيش المرء ، ولم يعيش . وضعوا كل شيء على بساط البحث . نذكر هنا الفصل الاول من وولدن الذي يبحث في اساسيات العيش : المأكل والمأوى والملبس والدفء . لقد كتب واشنطن إيرفنج قصة «رب فان وينكل» ليمحص في جزء منها المردود الفعلي للثورة الامريكية ، وكتب هوثورن حول الحركة الطهرانية والثورة الامريكية والحركة المتسامية وشرّحها تشريحاً ثاقب النظر رزين الفكر . وكتب مِلفل قصة «الناسخ بارتلبي» ليرى إن كان يمكن فعلاً أن يكون الانسان متسامياً (مثل بارتلبي) في مجتمع مادي راسمالي (وول ستريت) .

ومنها ، ثالثاً ، أن العصر عصر ايمان وتفاؤل واصلاح وتحقيق الاشياء العظيمة . لقد آمن العديد من الكتاب ، ومنهم إمرسن وثورو ووتمن وكوبر ، بلا محدودية طاقات الفرد الكامنة وقدرته على عمل المعجزات ؛ وإن كان هنالك العديد من السلبيات والاخطاء فذلك لان الفرد شاء ان يخالف طبيعته وشاء ان يطمس نفسه ويكبت قدراته. ويقول إمرسن في الطبيعة ، بروح غاية في التفاؤل: «لا يوجد سؤال لا نستطيع الاجابة عليه» . بل ويذهب الى أبعد من ذلك

بكثير ويؤمن ان الإنسان إله في روحه وعزيمته . ويعزز ثورو الفكرة نفسها ويذهب ليعيش في الغاب مدة سنتين ليبرهن على أن الانسان يستطيع بناء بيته بيده من لا شيء ، ويستطيع الاعتماد على ذاته بعيداً عن المجتمع ويعيش سعيداً حتى في أقسى الظروف ، ويجعل من فصل الشتاء القارس ربيعاً دافئاً . ويستطيع ان يكون في آن واحد بناءً ومزارعاً ومفكراً وفيلسوفاً وتاجراً ومعلمًا وتلميذاً ومساحاً ومهندساً وعالم فلك وفيزيائياً وعالم نبات وعالم حيوان وطبيباً وعالم نفس ومكتشفاً ومخترعاً ، الخ. وقد أسست جماعة «مزرعة بروك» نفسها لاغراض شبيهة بأغراض ثورو . ونجد نفس الروح في قصائد وِتمن وفي روايات كوبر .

ومنها ، رابعاً ، وهذه نزعة تخالف وتتنافر مع ما ذكرنا للتو ، ان العصر عصر تخوف وشكّ وتثبيط عزيمة . وينضوي تحت هذه المظلة ، بدرجات متفاوتة بالطبع ، ايرفنج وهوثورن ومِلفِل وبو ودِكنسُن، الذين اثاروا تساؤلات وقدموا مواقف كادت تنسف العديد من مفاهيم إمرسن وثورو والثورة الامريكية والحركة الربوبية والحركة الطهرانية من جذورها . خذ مثلاً موقف ايرفنج وموقف هوثورن من الثورة الامريكية . في نظر العديد من الامريكيين في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، بل وحتى في يومنا هذا ، تُعد الثورة الامريكية حدثاً عظيمًا ، فهي الولادة الفعلية للدولة والحضارة ولكيان الفرد ولحقوقه . هي ولادة الديمقراطية الحقة التي ما زالت تتغنى بها الاجيال جيلاً بعد جيل. هي الاستقلال، هي الكينونة: «نحن الشعب» . هذه هي النظرة التي كانت سائدة عندما كتب واشنطن إيرفنج حكايته . بيد أن إيرفنج في قصته «رب فان ونكل» لا يخلص الى هذه المعطيات ، بل على العكس تماماً ، فهو ، وبخاصة اذا ما قرأنا بين السطور ، يكاد يمحوها من الوجود . فهو في نهاية المطاف ، ومن خلال نظرة بطل القصة الذي هو ليس ببطل قط ، يرى أن أثر الثورة هو أثر سطحي شكلي بسيط . لقد تغير العلم بعض الشيء ، وتغير زي القائد وملامح وجهه ، واختلفت اللغة السياسية الانتخابية بعض الاختلاف ، بل إن اختلافها سلبي لان بطل القصة لم يفهم منه شيئاً . يريد ايرفنج ان يقول أنه لا ينظر الكل الى الثورة على انها ذلك الحدث الجلل . إنها بالنسبة لشخص عادي من عامة الناس من مئات القرى والبلدات الامريكية الصغيرة ، وما اكثرها ، شيء مبهم غريب في بداية الامر وحدث عابر عادي في نهاية المطاف . فسرعان ما يتأقلم رب مع الوضع الجديد ، بعد ارتباك مبدئي ، يجد لنفسه اصدقاء من الجيل القديم والجيل الصاعد . وتركه في نهاية القصة وكأن شيئاً لم يحدث . بل إن موت زوجته أهم بالنسبة اليه من أي حدث عام . وكأني بواشنطن إيرفنج يقول : ماذا فعلت الثورة للانسان العادي ؟ ماذا عنت له ؟ ويفعل هوثورن شيئاً مماثلاً في قصة «قريبي الرائد مولينو» ، اذ يترك روبن ، بطل القصة الذي يمثل الجيل الامريكي الجديد بعيد الاستقلال عن بريطانيا، وحيداً حائراً في «شارع صامت» . وأي

هلع او فراغ تتركهما كتابات في نفس القارىء مثل كتابات بو ؟ اي سقوط أبشع من سقوط اشر وبيته ، واي هروب أصعب وآلم من هروب الراوي في تلك القصة ؟ وأية خيبة أعظم من خيبة المتحدث في قصيدة «الغداف» ، ذلك الطير الذي لا يمكن لطير او رسول أن يجلب انباء شؤم اقسى من الانباء التي جلبها ؟ فهو لم يدع للمتحدث في القصيدة اي بصيص أمل ، مهما قل او صغر .

د ـ الحركات الأدبية والفلسفية والدينية التي أثرت على فكر العصر :

١ ـ التوحيدية Unitarianism : وهي حركة دينية ظهرت في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ؛ وقد حاولت ، من أجل استقطاب الجيل الجديد ومن اجل انقاذ الدين من الهجران وملاءمة روح العصر ، ان تجمع او تزاوج بين الحركة الطهرانية البائدة والتوجه العقلاني الربوبي الذي ساد في القرن الثامن عشر . فأخذت شيئاً من هذا وشيئاً من ذاك ، وطرحت شيئاً من هذا وشيئاً من ذاك . فتجدها تأخذ من الطهرانية التأكيد على اهمية الحياة الروحية والكتاب المقدس والكنيسة والعبادة ، وهي اشياء رفضتها الحركة الربوبية . واخذت من الربوبية اهمية العقل والعلم ووحدانية الإله ، وقد رفضت مبدأ الاثم الذي ركز عليه الطهرانيون ومبدأ النخبوية ، ونادت بأن الانسان طيب والإله طيب . وقد عارضت تركيز الربوبيين الزائد على المادة . وقد شددت على ضرورة قراءة وفهم الكتاب المقدس فهمّا عقلانياً ، وقالت إن العقل قادر على تفسير آيات الكتاب المقدس على اختلاف مواضيعها وصعوبتها ورمزيتها . ومن اشهر زعماء هذه الحركة وليم إليري تشاننج واندروز نورتن . والتوحيدية على درجة من الأهمية لأنها تؤثر بشكل مباشر، سلباً وايجاباً، على الحركة المتسامية التي حمل لواءها إمرسن وزمرته. فلقد بدأ إمرسن حياته الروحية والعملية موحداً ، اذ كان يعمل قسيساً في إحدى كنائسها ، قبل ان يتمرد عليها ويستقيل . وقد لعبت هذه الحركة دوراً كبيراً في تربية جيل بداية القرن التاسع عشر ومنتصفه ، حين كان العديد من اتباعها اساتذة في جامعة هارفرد، وكانت لهم سيطرة شبه تامة على مدرسة اللاهوت التي تخرج منها إمرسن وثورو وغيرهم من مفكري وكتاب العصر .

٢ ـ الحركة المتسامية Transcendentalism : حركة تتنوع في توجهات اتباعها وتتشعب. منهم من اعتبر نفسه مفكراً بالدرجة الاولى يعبر عن حقائق ذهنية وقناعات تنبع من تأملاته ومطالعاته . يعيش حياة عادية في ظاهرها مع زوجه واولاده ويقتصر على إلقاء الخطب والمحاضرات وكتابة المقالات والقصائد ، مثل إمرسن ؛ ومنهم من حاول تطبيق مبادئها في حياته

اليومية بعد ان انتقل للعيش في الطبيعة يزرع حقل الفاصوليا تارة ويكتشف اعماق بحيرة وولدن تارة اخرى ويقرأ كتب الدين والفلسفة والادب ، مثل ثورو ؛ ومنهم من عدَّ نفسه مصلحاً اجتماعياً نشطاً يريد قولبة المجتمع من جديد عن طريق انشاء مجتمع مثالي مصغر يكون نواة لمجتمع مثالي اكبر ، مثل جماعة مزرعة بروك ؛ ومنهم من تفرغ للتصوف والتفكر مثل آموس برونسُن آلكوت ، ومنهم من اخذ من هذا شيئاً ومن ذاك شيئاً .

ولعل أفضل وصف لهذه الحركة ما قاله الناقد والمؤرخ بِري مِلَر : هي «بحث عن الايمان، ورد فعل ضد التوحيدية ، وحرب على العقلية التجارية المادية» . وفيما يقول مِلَر الكثير من الحقيقة. هي حقاً بحث عن ايمان وثورة على التوحيدية . ذكرنا قبل قليل كيف أن إمرسن ، وهو احد زعمائها ، قد بدأ حياته قسيساً . وإن كان قد ترك الكنيسة ، كما بين في خطابه أمام طلبة اللاهوت في هارفرد عام ١٨٣٨، فليس لانه لا يحترم الدين بحد ذاته . كلا ، لقد استقال من منصبه لانه اعتبر أن مفهوم القائمين على الكنيسة للدين مفهوم ضيق ، يكاد يكون سخيفاً ، ولانه كان متعطشاً لايمان اقوى واعمق . الدين في رأيه اوسع وارحب من أن يحبس بين جدران معبد ما ويقتصر على طقوس معينة . يقول في الخطاب المذكور ، «إن المسيحية الحقة ـ وهي ذلك الدين الذي يقوم على ايمان المسيح بلا محدودية الفرد ـ قد فقدت» . وإن ثورة إمرسن على التوحيدية هي ثورة على طغيان المؤسسة الكنسية وممارساتها على الدين . ومن هنا فيمكن أن ننظر الى الحركة المتسامية على أنها محاولة تحرير إيمان الفرد من القيود الشكلية المفروضة عليه. وان كان إمرسن يدعو الفرد للتوجه للطبيعة فذلك لانها المعبد الحق . يقول : «إن أبواب المعبد (يقصد الطبيعة) مفتوحة ليل نهار أمام كل انسان» . والحركة المتسامية كذلك ثورة على طغيان المادة والاستسلام للرغبات والشهوات . ان يعيش الانسان حياته عبداً لتطلعات مادية وحاجات فسيولوجية لهو امر مرفوض لدى معظم اتباع الحركة . الانسان أسمى من أن يكون جسداً وشهوات ، فهو عقل وروح في الدرجة الاولى. وان كانت الرأسمالية قد مسحت دماغ العديد من الناس وجعلتهم يعيشون حياتهم محاولين تلبية الرغبات المختلفة ، تقليداً واسوة بما يفعل الغير ، فهذا خطأ لا بد من تصحيحه . والحركة المتسامية هي حركة تصحيحية ، أتت لتقلب الموازين السائدة رأساً على عقب ، لتفهم الانسان ان يترفع عن سلوك لا يليق بمن ولد ليحقق شيئاً معنوياً روحياً عقلياً عظيمًا في حياته . ومفهوم التسامي يعني في جزء منه الترفع عن الحاجات الجسدية والمادية والانطلاق الى عوالم ارفع . وللحركة المتسامية ثقة عمياء بقدرات الفرد .

هذا وتشترك الحركة المتسامية مع الرومانسية ، كما سيلاحظ القارىء ، في وجوه عديدة .

٣ ـ **الحركة الرومانسية Romanticism** : وهي بشكل عام حدث أدبي فلسفي نفسي له ابعاد اجتماعية وسياسية واقتصادية واضحة المعالم ، وخصوصاً في أدب الولايات المتحدة حيث ارتبط المبدأ وارتبطت الفكرة ، كما ذكرنا في الحديث عن امرسن وثورو وعلاقتهما بالمجتمع ومؤسساته ، بموقف الأديب الحياتي اليومي. ولا يوجد تعريف واحد للرومانسية يتفق عليه النقاد . ويرجع السبب في ذلك ، فيما يرجع من اسباب ، الى تنوع وتعدد فروع الحركة ، بل وتباينها احياناً . فبراينت وايرفنج وإمرسن وثورو ووِتمن ومِلفِل وكوبر وويتير وبو ودِكنسُن يعدون كلهم رومانسيين ، على اختلاف مواقفهم وتنافرها . فلقد خالف هوثورن ، كما بينا سابقاً ، إمرسن وثورو في العديد من مواقفهما الأساسية ، وفعل مِلفِل الشيء ذاته؛ ومع ذلك فهما يعدان رومانسيين . كما ان الرومانسية الامريكية قد تختلف بعض الشيء عن الرومانسية الانجليزية وعن الالمانية ، مع انها تأثرت بهما تأثراً كبيراً . ففي الوقت الذي نادى ويردزورث وغيره من الرومانسيين الانجليز بترك المدينة والتوجه نحو حياة الريف البسيطة ، نجد إمرسن ، مع تأكيده على موقف ويردزورث كخطوة اولى ، يدعو الى العودة الى المجتمع . يقول إمرسن في إحدى الفقرات المهمة في مقالته «استقلال الذات» ، والتي غالباً ما يغفل عنها كثير من القراء: «إنه لمن السهل أن يعيش الواحد في المجتمع حسب ما يمليه عليه الآخرون؛ وإنه لمن السهل أن يعيش الواحد في العزلة حسب ما تمليه عليه ذاته ؛ بيد ان الانسان العظيم هو الذي يبقي استقلاله الذي مارسه في عزلته بروح عالية متيناً وسط الزحام» . وإن إمرسن يقول إن الذهاب الى الطبيعة هو وسيلة ، يعد الفرد من خلالها نفسه للحياة في المجتمع ، لا غاية في حد ذاتها . وربما يكون هذا السبب الذي جعل ثورو يعود للحياة المدنية بعد سنتين كاملتين في الغاب .

ولكننا وبالرغم من كل ما ذكر ، يمكن ان نسوق هنا أهم سمات الحركة الرومانسية ، ونضعها تحت مظلتين رئيسيتين :

١ ـ هي حركة تدعو الى التوجه نحو الطبيعة . ويرى معظم الرومانسيين ان المدينة تفسد الحياة البشرية وتفسد نفس الفرد ؛ فالمدينة تفصل بين الفرد وذاته ، فتجده يصبح مقلداً للآخرين من ناحية وعبداً لرغبات فرضها عليه المجتمع من ناحية اخرى . فهو يشقى ويتعب للحصول ليس فقط على لقمة العيش ، بل كذلك على رغده . فترى الناس يتسابقون على اقتناء الاشياء المادية التي قد لا يكونوا بحاجة فعلية اليها والى الانخراط بعادات وتقاليد وممارسات شكلية تخلو من أية فائدة حقيقية . ومن هنا نادى الرومانسيون بضرورة ترك المجتمع والذهاب الى الطبيعة . والطبيعة مهمة ليس في حد ذاتها بقدر ما هي مهمة في أثرها الايجابي على الإنسان . فبمجرد ترك الفرد للمدينة يترك وراءه الكثير من

العادات والتقاليد الاجتماعية السلبية ، ويترك العديد من الامتعة والمقتنيات التي ليس لها فائدة كبيرة . ومن هنا يكون قد خلص ذاته من اعباء كثيرة . واذا ما قلّت حاجات الانسان ، وهذا ما يوضحه ثورو في «الاقتصاد» ، وهو الفصل الاول من كتابه وولدن ، فإنه يتفرغ الى اشياء اهم واعمق . الحاجات الجسدية والمادية الزائدة تقف عائقاً يحول بين الانسان واتصاله مع روحه وعقله وشعوره . أما اذا ما سيطر الانسان عليها وتحكم بها ، فانه يبدأ بتلبية حاجات أنبل وأرفع . فتجده يستمتع بالمناظر الطبيعية ، من انهار وجبال وتلال واودية واشجار وطيور ، وباستمتاعه هذا تتحرك فيه مشاعر وعواطف سامية وتتفجر ، مشاعر وعواطف كانت قد طمستها حياة المدينة . وهذا ما يبينه إمرسن بوضوح في الفصل الثاني من الطبيعة عندما يقول إن الجمال هو حاجة نبيلة للإنسان لا تلبيها الا الطبيعة . وهذه الفكرة أيضاً قريبة مما عبر عنه ويردزورث حينما ركز على «انسياب المشاعر العفوية» . هذا من ناحية . اما من ناحية اخرى ، فان الطبيعة تفجر في الانسان ، الذي هو عقل وروح قبل ان يكون جسداً ، ملكات التخيل والتفكر والتأمل . وهذه اسمى الغايات . نعم ، الطبيعة، في جزء منها ، جبال وانهار ومروج خضراء ، بيد انها في ذات الوقت رمز . ومن هنا فإن اية رحلة قصيرة في ربوع الطبيعة لابد وان ينجم عنها ، اضافة الى المشاعر السامية ، افكار وتأملات في معاني مشاهدها وفي دلالاتها .

٢ ـ التركيز على طرق ما هو غير مألوف وغير سائد وسبر غوره وتمجيده وتعظيمه . أغلب الناس اجتماعيون في توجهاتهم مقلدون في سلوكهم . واغلبهم لا يرتاح إلا للمألوف . أما الرومانسية فتدعو الى الخروج عن كل ما هو مألوف . وهذا ما جعل مِلفِل مثلاً يبحر في أعماق المحيطات ويسافر الى الجزر البولونيزية النائية والبدائية ، وهو ما جعل براينت يشق طريقه الى البراري الامريكية وجعل ثورو يكتشف منطقة وولدن شبراً شبرا . وهذا ما حث كوبر على وصف حياة سكان التخوم وتمجيدهم . وحب ماهو غير مألوف هو الذي دفع بإيرفنج لدراسة الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس والكتابة عن حياة الرسول الكريم محمد وصحبه ، وهو الذي دفع بإمرسن لدراسة شيء من القرآن الكريم واحاديث الرسول محمد (ﷺ) وألف ليلة وليلة والآداب والفلسفات الهندية ، وهو الذي حثّ هوثورن على تصوير الماضي الامريكي بايجابياته وسلبياته .

واشنطن إيرفنج
(١٧٨٣ ـ ١٨٥٩)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

لعله يكون حقاً أول أمريكي يكرس حياته للكتابة وينال شهرة عالمية ، وبخاصة في اوروبا التي كان كتابها ومفكروها ينظرون بازدراء أو بعدم اكتراث لأدباء العالم الجديد. ومن أهم ما يميز إيرفنج أنه كتب في معظم الأنماط الأدبية من أشعار ومقالات ومسرحيات وسير حياة وتاريخ وما الى ذلك . وهو بلا أدنى شك من عمالقة أقطاب الحركة الرومانسية الأُوَل في أمريكا، ويعده الكثيرون الأب الحقيقي للقصة القصيرة الحديثة. وهو كاتب ساخر وصاحب نكتة.

حياته :

ولد في مدينة نيويورك في الثالث من نيسان عام ١٧٨٣ ، وكان الابن الأصغر لعائلة اشتغلت بالتجارة ونعمت بشيء من الثراء . وقد نال إيرفنج حظاً وافراً من التعليم والتربية الحسنة. وعندما بلغ سن السادسة عشرة بدأ بدراسة المحاماة ، بيد أنه لم يمل اليها كثيراً ، وفضل عليها القراءة وصحبة الكتّاب والأدباء ، وكأن قدره أخذ يسوقه نحو احتراف التأليف . قام عام ١٨٠٠ برحلة موسعة في مناطق نهر الهدسون، تفتحت أنظاره من خلالها على جمال الطبيعة وعلى الحضارة الأمريكية التي كانت في نمو وتعاظم . كتب عام ١٨٠٢ مجموعة مقالات في جريدة مورننغ كرونكل ، كانت باكورة أعماله .

قام بأول رحلة له الى اوروبا عام ١٨٠٤، ومكث فيها مدة سنتين زار خلالها عدداً من الدول الاوروبية العريقة بحضارتها مثل بريطانيا وهولندا وايطاليا وفرنسا. وقد قرأ الكثير في تلك

الفترة المهمة من حياته. عاد الى نيويورك في نهاية جولته الاوروبية ليمارس مهنة المحاماة. وتوفي والده عام ١٨٠٧ . كما فجع بوفاة خطيبته ماتلدا هوفمن والتي كان على وشك الزواج منها عام ١٨٠٩.

اشترك عام ١٨١٠ مع أخوته في مشروع تجاري ، وبقي يمارس كتابة المقالات . وقد حرر عام ١٨١٢ مجلة أنَلِكْتِك . وسافر عام ١٨١٥ الى مدينة لفربول البريطانية ليرأس فرع الشركة هناك. وقد مكث في اوروبا مدة سبعة عشر عاماً، جاب خلالها مناطق متعددة واطلع عن كثب على حضارة اوروبا الأم ، ذلك الاطلاع الذي أفاده في العديد من مؤلفاته . توفيت والدته عام ١٨١٧ ، وأفلست الشركة التي كان يدير فرعاً لها عام ١٨١٨ ، مما جعله يكره التجارة ويتجه نحو الكتابة كي يكسب رزقه.

وبالفعل ألف عام ١٨٢٠ أول أهم أعماله، **الكشكول The Sketch - Book**، الذي حقق من خلاله شهرة بين الناس ومكانة بين الأدباء . وتنبع أهمية كتابه هذا من أنه يحتوي العديد من المقالات والقصص التي لاقت رواجاً كبيراً ، مثل قصة «ريب فان ونكل» وقصة «أسطورة سليبي هولو».

زار المانيا عام ١٨٢٢ حيث مكث في مدينة درزدن واطلع على أعمال الكتاب الرومانسيين الألمان، ثم زار فرنسا في العام التالي وقد شارك في اعداد مسرحيات مثلت في باريس. تنقل بين باريس ولندن لعدة أعوام، ثم قام بكتابة **سيرة حياة كرستفر كلمبس وأعماله** عام ١٨٢٨ . زار اسبانيا في مهمة سياسية عام ١٨٢٩ ، وأبدى اهتماماً كبيراً بقصر الحمراء ودرس تاريخ اسبانيا. كتب **فتح غرناطة** . وقد حصل عام ١٨٣٠ على مدالية الجمعية الملكية للآداب وشهادة فخرية من جامعة اكسفورد عام ١٨٣١ .

عاد الى نيويورك عام ١٨٣٢ وزار مناطق جنوب أمريكا الغربية. كتب عام ١٨٣٥ **اسطورة فتح اسبانيا** . أقام عام ١٨٣٦ في منطقة سني سايد بالقرب من تاري تاون في نيويورك، حيث بنى بيتاً وقد عاش بقية حياته فيه يقرأ ويؤلف. ولم يغادره سوى لمدة أربع سنوات عمل خلالها وزيراً مفوضاً في اسبانيا، بعد أن رفض الترشيح لمنصب عمدة نيويورك. استقال من منصبه السياسي في اسبانيا عام ١٨٤٥ ليعود الى سَني سايد ويكمل أعمالاً مهمة منها (١٨٥٠) **محمد وخلفاؤه** و **حياة جورج واشنطن**. توفي عام ١٨٥٩ بعد حياة طويلة قضاها في الترحال والكتابة.

اهـمـيـتـه :

تدل عناوين كـتـبه التي أشرنا الى بعض منها أنه كتب في موضوعات عدة، من أهمها المقالة الصـحـفـيـة التي أثرت في أسلوبه ، من حـيث أنها جـعلته يكتب عبارات سلسة واضحة ، لكنها كـانت عـمـيـقـة في مـراميها . وقد كتب إيرفنج العديد من الحكايات والتي تعد النمط الأم الذي انبـثـقت منه القصة القصيرة. وتعود أهمية هذه الحكايات، والتي كانت تقوم على أساطير وحكايات مـقـتبسة من ثقافات مختلفة وضعت في قالب أمريكي، من حيث كونها فتحاً جديداً في أدب الدولة الجـديدة، والتي أراد أبناؤها كـتـابة أدب مميـز. وقـد أثرت تلك الحكايات في كـتابات إدغر ألن بو وهـوثـورن وملفل وغيرهم. وقـد خطَّ ايرفنج العـديد من سير الحـيـاة المهـمـة والتي كـانت كـذلك النمط الام لسير الحـيـاة الحـديثـة، ذلك النمط الذي طوره إيرفنج ويلور ملامحه بمهارة. وقد كتب كـذلك العـديد من كـتب التـاريخ المهـمة، من أهمها تلك التي تتحدث عن الحضارة الاسلامية في الأندلس وعن حـيـاة الرسـول الكريم محـمـد (ﷺ) وحـياة صحبه. وهـذه الكـتب جديرة بالدراسة، على الرغم من أنها لا تخلو من بعض التـشـويه في الحـقـائق والتـفـسير، وهي تهم القـارىء العـربي المسلم لا ريب.

يلاحظ القـارىء أن رومـانسـيـة إيرفنج تـتـمثل في وصف الطبيعة وبخاصة في حكاياته التي تدور أحـداثها في منطقة الهدسُن؛ كما تتمثل في معالجة الماضي. وهنالك الكثير من الحقيقة في مقولة أن إيـرفنج هو الأب الروحي للأدب الأمـريكي الحـديث وأنه أول من لفت أنظار الناس الى الأدب الأمـريكي عـامـة. وعلى الرغم من ذلك، فـيـبـقى إيرفنج حـجـر أسـاس مـهم في الصرح الأدبي الأمـريكي . فـقد نقل الأدب الأمريكي من النزعة التعليمية didactic والتي كـانت سائدة في القرن السـابع والثامن عشر الى النزعة الابداعية التخيلية التي أصبحت سمة الأدب بمعناه الحديث.

ريب فان ونكل (*)

[هي قصة سهلة في لغتها وحبكتها ، لكنها غامضة في مراميها . تصور حياة قرية ريفية أمريكية قبل فترة الاستقلال وبعدها . ولعلها من خلال نظرة بطل القصة ـ والذي ليس هو ببطل بالمفهوم التقليدي ، فهو ساذج وخامل ومثير للضحك إضافة الى كونه طيباً ومحبوباً ـ ترسم لنا وجهة نظر الانسان الأمريكي العادي فيما يتعلق بالثورة الأمريكية وقيمها ومثلها ، مركزة على أن الاختلاف بين حقبة ما قبل الثورة وما بعدها اختلاف بسيط وشكلي . فالتحولات السياسية تترك أثراً طفيفاً على حياة الانسان العادي] .

المحرر

« وحق أودين رب السكسون، الذي ينسب إليه يوم أودين أو الأربعاء ، ليكونن الحق لزاماً أحرص عليه الى اليوم الذي أتوارى فيه الى الضريح .. » .

كل من ألقى به المسير الى هدسون يذكر ولا ريب جبال كاتسكل : فرع الأسرة الجبلية التي تعرف بالابلاشية ، وترى على غرب النهر من بعيد، مرتفعة الى علو نبيل، مشرفة على ما حولها من الأرضين، يطرأ عليها في كل موسم أو جو يتغير، بل في كل ساعة من ساعات النهار، طارىء من الألوان الساحرة التي تغشى أشكالها وملامحها ، وتحسبها ربات البيوت في تلك الجيرة مقياساً من أدق مقاييس الجو والهواء . فإذا اعتدل الجو واستقر تسربلت بالزرقة والاحمرار ، وارتسمت صورتها الفخمة على أفق الغروب، ويتفق أحياناً حين يصحو الأفق من حولها أن تتجمع فوق رأسها كمية من الأبخرة المرحة تطيف بقمتها ، فتلمع في أشعة الشفق الأخيرة كأنها تاج العظمة والفخار.

(*) أخذت الترجمة من **ألوان من القصة القصيرة** ، اعداد وترجمة عباس محمود العقاد (مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٤) ، الطبعة الثانية .

وربما تراءى للمسافر تحت أقدام تلك الجبال السحرية دخان يتلوى، وهو صاعد من سقوف القرية القرميدية التي تلمع بين الأشجار حيث تلتقى الزرقة من أعالي الأرض بخضرة البطحاء النضرة. وهي قرية صغيرة معرقة في القدم، أسسها بعض المستعمرين من الهولنديين منذ أوائل أيام الإقليم، حوالي عهد الحاكم الطيب «بيتر ستوفيزان» طيب الله ثراه ، ولم تزل هناك بقايا من بيوت السكان الأوائل ، تخلفت الى سنوات قريبة، بنوها بالحجارة الصفر الصغار التي جلبوها من هولندة ، وفتحوا فيها الشبابيك تحت سقوفها الحدباء ، يعلوها «أبو رياح» (١) .

في هذه القرية، وبين جدران بيت من هذه البيوت التي أبلاها الزمن، وران عليها طول العهد بتقلب الأجواء، كان يعيش من زمن بعيد - أيام كانت القرية ولاية بريطانية - رجل طيب ساذج يسمى ريب فان ونكل، ينحدر من سلالة فان ونكل الذي ذاعت شهرته في تلك الأيام، أيام البطولة والفروسية في عهد الحاكم بيتر ستوفيزان، وقد صحبه حين ذهب الى حصار قلعة كرستيا ، ولكن «ريب» لم يرث إلا القليل من خلائق أجداده الحربية، فهو رجل سمح بسيط حسن العشرة لجيرانه، مستسلم لزوجته التي لا تفتأ تنهره وتسيء اليه. ولعل هذا الخلق الأخير هو الذي أورثه تلك الهوادة التي تحبب صاحبها الى الناس، وتلازم خارج الدار كل من ابتلي داخلها بالخضوع للزوجات السليطات. إذ تراض أمزجتهم ولا ريب بالمطرقة والكير في نيران الخلاف المحتدم، حيث تغني الخطبة الواحدة عن عظات المنابر في العالم كله. وهي تحاول أن تعلم الناس فضائل الصبر والاحتمال، ومن ثم تحسب الزوجة الصاخبة عداد النعم المرضية، ويقال عن «ريب فان ونكل» بحق إنه مثلث البركات !

والواقع أنه كان على حظوة عظيمة عند زوجات القرية الصالحات، وهن على عادة الجنس اللطيف يعطفن عليه في كل مشكلة بيتية، ولا يفوتهن في سويعات السمر أن يلقين اللوم كله على السيدة فان ونكل، كلما قلبن شجون الحديث . . . وقد تعود الأطفال أن يتلقوه بصيحة الفرح كلما طلع عليهم، فيساعدهم في اللعب،

---

(١) صورة على شكل الديك تتقلب مع الريح وتدل على أحوال الجو .

ويصنع لهم ألاعيبهم ويعلمهم كيف يرسلون الطيارات في الهواء ، وكيف يصيبون المرمى، ويقص عليهم أقاصيص العفاريت والساحرات والهنود. وحينما ذهب يدلف في أزقة القرية أحاط به جيش منهم يتعلق بأذياله ويصعد على ظهره ويداعبونه بغير احتشام، ولا تسمع كلباً واحداً ينبحه بذلك الجوار !!

وآفة «ريب» الكبرى كراهته العصية لكل عمل نافع، وليس ذلك لقصور منه عن الدأب والمثابرة، فإنه قد يجلس النهار كله وفي يده سنارة أثقل من رمح التتري، يصطاد بها السمك ، ثم لا يسأم الجلوس وإن لم يسعده الحظ بانتفاضة واحدة من الخيط تبعث فيه الأمل ، وربما حمل بندقية الصيد ساعات ، بين الغابات والمستنقعات، وفوق التلال، وتحت الأودية، عسى أن يظفر ببعض السنجاب أو الحمام، ولم يرفض قط أن يمد يد المعونة لجار يدعوه الى أشق الأعمال، ولم يزل في الطليعة في كل مهرجة من مهارج الحصاد، أو في كل حشد يتلاقى لإقامة الحواجز والحدود. وقد تعودت النساء كذلك أن يبعثن به في رسائلهن، وأن يندبنه لتلك المهام التي لا يتقبل الأزواج منهن أن يستجيبوهن إليها ! فكان بعبارة أخرى على استعداد لأن يقوم بكل عمل غير عمله . . . أما المستحيل عنده فهو أن يعنى بحقله، أو شئون داره، وكل ما له فيه منفعة أو صلاح !

وواقع الأمر أنه كان يقول إن العمل في مزرعته عناء ضائع، فإنها كانت ألعن قطعة من الأرض في الإقليم كله، وليس فيها إلا ما هو غلط ينتهي الى غلط على الرغم منه. فحواجزها لا تزال تتساقط وحدها، وبقرته تضل الطريق أو تجوس خلال الكرنب ، والعشب فيها كأنما أقسم ليسبقن في نموه وتكاثره كل عشب مثله في المزارع الأخرى، وكذلك كان المطر على عهد أن ينهمر كلما اتفق له عمل خارج داره، ومن ثم فنيت مزرعته الموروثة فداناً في أثر فدان، ولم يبق منها غير رقعة صغيرة يزرع فيها الحبوب والبطاطس، وهي أسوأ المزارع حالاً على الإطلاق.

وكان اطفاله كذلك شعثاً غبراً ، كأنهم شرداء لا ينتسبون لأحد، ومنهم ابنه «ريب» الذي نشأ على صورته، تنم مخايله على أنه سيخلف أباه في عاداته وأطواره، كلما شوهد بملابس أبيه البالية. وكان كالعجل الصغير يقفو آثار أمه حيث سارت، ملتفاً بسراويل أبيه، وقد طوى فضولها بيده، فعل السيدات الرشيقات إذ يأخذن

أذيالهن بأيديهن في الهواء العاصف.

على أن «ريب فان ونكل» كان من اولئك السعداء الذين رزقوا ذلك المزاج الرضي الأبله، الذي يتلقى الدنيا على علاتها في يسر وقلة اكتراث.. يأكل الخبز أبيض أو أسمر حسبما يتفق، ويؤثر أن يعيش جوعان بدرهم على أن يعيش بالعمل والمشقة على دينار. ولو أنه ترك وشأنه لصفر للحياة يطويها في غير اكتراث، ولكنها هي امرأته التي لا تني تطن في أذنيه مؤنبة له على كسله وتراخيه، وعلى الخراب الذي يسوقه الى أهله، وتدأب على ذلك صبحاً وظهراً وعشياً فلا يهدأ لها لسان. ومهما يقل فهو على يقين أن كلمة منه يتبعها لا محالة فيض من تلك البلاغة المنزلية، حيلته الوحيدة حياله أن يصبر عليه، وأن يهز كتفيه وينفض رأسه ، ويمط شفتيه، ويرسل بصره أمامه، ولا ينبس بحرف.. وتلك على الدوام مناسبة جديدة لانطلاق زوجته في طوفان آخر من التأنيب والتبكيت، فلا يسعه إلا أن يشد عزمه ويفارق المنزل الى الخلاء، وهو المكان الوحيد الذي يملكه الزوج المغلوب !

وكان أليفه الوحيد في الدار كلبه «وولف» الذي كان حظه من مدام «ريب» كحظ صاحبه! كلاهما رفيق بطالة وكسل، وربما لحظته السيدة بعين السخط لاتهامها إياه بإغراء الرجل والتواطؤ معه على الكسل والتشرد.. والحق أن «وولف» كان كما ينبغي لكل كلب شجاع مثلاً للكلاب، لا يسبقه سابق في مطافه بالغاب. ولكن ما جدوى ذلك كله أمام لسان امرأة سليط.. فما هو إلا أن يدخل المنزل، حتى يهبط صدره، ويتدلى ذنبه، أو ينطوي بين رجليه، ويتسلل في خجل ورهبة، ملقياً بالنظر من هنا وهناك الى «مدام ريب»، متأهباً للفرار كلما لمح من بعيد شبح المكنسة في يدها..!

وساء الزمن عاماً بعد عام مع «ريب فان ونكل» ، في حياته الزوجية، فليس من شأن السن أن تداوي طبيعة النكد... ومن شأنها دائماً أن تزيد مرانة اللسان وتشحذه بكثرة الاستعمال ! وطالما عزّى نفسه كلما برح المنزل بالتردد على نادي الحكماء وذوي الحنكة والخبرة وزملائه في الكسل والهوادة ، حيث كان المجلس ينعقد على كنبة عند باب خان ، تعلوه صورة صاحب الجلالة «جورج الثالث» وتأوي اليها الزمرة ، فتقضي نهار الصيف في الظل، وتتحدث هنالك بفضول الغيبة

القـروية أو بلا شيء، ولكن الإصـغـاء إليـهم في بعض ثرثرتهم مـتعة تساوي دراهم السياسي الأريب ، إذ يجيلون النظر في صحيفة من الصحف القديمة، يلتقطونها من مـسـافـر عابر ، ويصغون سكوتاً الى الاستاذ العلامة دريك «فان بومل»، وهو يتنقل بين مـوضـوعـاتها، ولا تخيفه منها أضخم كلمة من كلمات المعجمات الغامضات، ثم يتبادلون الرأي في أصداء من الحوادث العامة مضت عليها بضعة أشهر. . !

وكـان المسيطر التـام على آراء هذه النخبة شيخ القرية وصاحب خانها «نيقولا فـيـدار» ، وعلى بابه يقضي النهـار من الصبـاح الى المساء، لا يتحرك إلا ريثما يتقي الشـمس في ظل شـجرة كبيرة، يستطيع من يراه على مقعده وراءها أن يعرف الساعة كما يعـرفـهـا من عـلامة المزولة !. . نعم إنه كان كثير الصمت، كثير التدخين، قلما تنفـرج شـفتاه ، إلا أن مريديه ـ ولكل عظيم مريدون ـ كانوا قد عرفوه وعرفوا كيف يستـشـفُّـون رأيه من مـلامح وجـهـه، فاذا سمع كلاماً لا يعجبه فآية ذلك ان ينفخ الدخـان نفـخـة الغـضب والاسـتياء ! أما اذا وافق الكلام هواه ، فآية ذلك أن يطيل النفس ثم يرسله سـحباً هينة خفيفة ، أو ينحي البيبة عن فمه ، ويطلق منه الدخان المتـمـوج ليهز رأسه هزة التأمين والاستحسان!

وحتى هذا المعـقل الأمين قـد طورد فيـه « ريب فـان ونكل » آخـر الأمـر ، ولاحـقـته عنده زوجته اللجوج، حيث كانت تفاجىء الجمع بصيحاتها ، وتصف كل عـضـو من أعـضـائه بصفاته عندها، فلا يعتصم منها حتى تلك الشخصية الموقرة ، شـخـصـيـة «نيـقـولا فـيـدار»، ولا يأمن أن يسـمع من ذلك اللسـان الصاخب تهمة التحريض على البطالة يغرى بها قرينها المسكين. . !

وران اليـأس بـعـد طـول الصبر على المسكين «ريب» ، ولم يكن له منجى من هذه المطاردة ومن مـتاعب الحقل، إلا أن يحمل بندقيته ويأبق الى الغابات، ويستريح الى جـذر شـجـرة، يشـاطره في ملجئه منها كلبه وولف الأمين، وهو قسيمه أيضاً في البلاء والاضطهاد.

وربما التـفت الى «وولف» حـينا بعد حين ، يناجيه بكلمات العزاء والمواساة :

« آه يا وولف العـزيز ، إن سـيـدتك تسـومك سـوم الكلاب ، فـلا تأس ولا

تحزن، إنك لن تعدم ما دمت بقيد الحياة صديقاً يقف الى جانبك ويواسيك! » .

ويقابل وولف هذا العزاء ناظراً الى وجه مولاه مبصبصاً بذنبه، وما من شك أنه كان يجاوبه من أعماق قلبه، ويفصح له كامل عطفه، لو يقدر كلب أعجم على الإفصاح!

وفي إحدى هذه الرحلات، يوماً من أيام الخريف، صعد «ريب» على غير قصد منه الى قمة من أعلى قمم التلال، يتشاغل بملهاته المحببة ـ صيد السنجاب ـ ويستمتع بالسكينة حيث تتجاوب أصداء بندقيته كرة بعد كرة، ثم ألقى بنفسه وقد أجهده التعب عند الأصيل على ربوة خضراء، تجللها الأعشاب الجبلية على حافة الهاوية، ولاحت له من فرجة الغصون غابات الوادي التي تمتد تحته ميلاً بعد ميل، وعلى مد البصر منظر النهر الفخم في مجراه الصامت تنعكس عليه سحابة حمراء أو شراع زورق يتهادى هنا وهناك، ثم يتوارى في زرقة التلال، والى الجانب الآخر وهدة عميقة في عزلة موحشة يمتلىء قاعها بفتات الهضاب المطلة عليها، وقلما يبلغ اليها شعاع الشمس الغاربة. .

وراح «ريب» يسرح البصر في هذه المشاهد هنيهة، والليل يقبل بأكنافه، والظلال تتطاول من حوله، فبدا له أن الظلام ملق سدوله ولاشك قبل أن ينتهي الى القرية، لو أنه أزمع الهبوط اليها، وتنهد طويلاً حين جال بخاطره ما سيلقاه من أهوال السيدة «فان ونكل» وزماجر غضبها! . .

وأنه ليهم بالنزول فاذا بهاتف يصيح به : ريب فان ونكل. . ريب فان ونكل. . . ويلتفت فلا يرى أحداً هنالك، اللهم إلا غراباً على جناحيه خلال التلال، فيخيل إليه أن سمعه قد خدعه، ويستدير لينحدر فيعاوده الصوت : ريب فان ونكل. . ريب فان ونكل، كما سمعه أول مرة. . واذا «بوولف» يقوس ظهره ويعوي عواء عالياً، ويزحف الى جانب مولاه، وفي عينيه نظرات الخوف، وهو يطل على الوهدة ، فيخامر الخوف جوانح ريب، وينظر حيث رأى كلبه يطيل النظر، فيلمح ثمة انساناً يدلف مصعداً في الجبل بين تلك التلال المهجورة، وعلى ظهره حمل ينوء به ويثقله. . فأدهشه أن يلقى أحداً هناك، وخطر له لعله ان يكون جاراً من جيرانه في حاجة للعون ، فأسرع منحدراً اليه.

وتضاعفت دهشته حين اقترب منه لغرابة مرآه، اذ كان قصيراً ، ممتلئاً، مربع القامة ، كث اللحية ، يلبس ملابس أهل هولندة ، وحول حقويه صدار يستدير عليهما فوق سراويله القصار التي ترصعها الأزرار على الجنبين وفوق الركبتين، وكان يحمل على كتفه برميلاً يبدو عليه أنه مترع بالشراب، ويومىء الى «ريب» ملتمساً منه المساعدة.

فبادر «ريب» الى نجدته كعادته، وان ساورته خاطرة من الاستغراب والتهيب، وتعاونا معاً على الصعود بالحمال الى مثعبة جفت في طريق السيل، وكان ريب يسمع كلما ارتقيا مصعدين قصفا كقصف الرعود البعيدة، يخيل اليه أنه آت من بعض الشقوق بين الجبال حيث يتجهان، فتمهل قليلاً، ثم خطر له أنها قد تكون نوبة من نوبات الرعود المعهودة في تلك الذرى. فتقدم ، وطفق يتقدم هو وصاحبه، حتى أفضيا الى فجوة كالمدرج تحيط بها مزالق الوهاد، وتعلوها الاشجار التي تشابكت فروعها، فلا تبدو من خلالها غير رقعة هنا ورقعة هناك، من قبة السماء الزرقاء وسحائب المساء اللامعة.. وكان «ريب» وصاحبه يرزحان بحملهما صامتين ، لأنه ـ وإن عجب لهذا الحمل يصعد به صاحبه الى تلك الذروة ـ كان يحسُّ حول الرجل الغريب شيئاً من الغموض يحول دون الألفة ورفع التكليف بينهما..!

واعتراه طارق جديد من الغرابة حين انتهيا الى الفجوة المدرجة؛ إذ نظر ثمة فلمح طائفة من الشخوص الغريبة تلعب لعبة الأوتاد التسعة، وعليهم تلك الأكسية العجيبة من السراويل والصدائر قد تعلقت من نطاقها الخناجر، وفي لباسهم مشابهة لملابس دليله، وعلى سماتهم عجب عجاب. إذ كان فيهم الضخم الدماغ العريض الوجه، الذي تحكي عيناه أعين الخنازير، ومنهم من يبدو عليه كأنما ركب وجهه من أنف ولا شيء، وعلى رؤوسهم قلانس يتدلى الريش فوق أقفيتها، وكلهم من ذوي اللحى التي اختلفت ألوانها وأشكالها، يرأسهم واحد منهم قصير القامة في لون بشرته سفعة من تقلب الأجواء، وعلى صدره «عنترى» مطرز الحواشي، وفوق رأسه قبعة يعلوها الريش، وفي قدميه حذاء مرتفع الكعبين تزينه وردتان.. ومنظرهم جميعاً يخيل الى «ريب» أنه ينظر الى الصورة الفلمنكية التي كان يراها في حجرة

«القس فان شيك» معلقة هناك منذ أيام الهجرة الأولى . . . !

والذي أدهش «ريب» بصفة خاصة أن هؤلاء السادة كانوا في تسليتهم ولعبهم يتشحون بوشاح الرهبة والوقار ، ويلتزمون الصمت الخفي ، ويلوحون للعين كأغرب ما وقعت عليه من محفل أناس يلعبون ويتلهون ، ولا يتخلل صمتهم غير ما كان يسمعه حين يلقون بكراتهم من دوي كدوي الرعود . . . !

فلما اقترب منهم «ريب» وصاحبه ، أمسكوا عن اللعب ، ونظروا اليهما فأطالوا النظر ، كأنهم التماثيل الجوامد، وتراءت على ملامحهم صرامة أفزعته، فسقط قلبه، واختلجت ركبتاه، وعمد صاحبه الى البرميل فأفرغه في بواط واسعة، وأومأ اليه أن يدور بها على الرفاق، فلبى الأمر وهو يرتجف من الرعب. ورآهم يجرعون الشراب في صمت عميق ثم يعودون الى اللعب . .

وسكن روعه رويداً رويداً ، وبلغ من طمأنينته أن اجترأ على هذا الشراب يتذوق منه، فاستعذب مذاقه كأطيب ما تكون الأشربة الهولندية. وكان من دأبه اللهفة على الشراب حيث وجده ، فعاود الكرة وأغرته لحسة بلحسة ، وأكثر من معاودة البواطي لحظة بعد لحظة حتى غام حسه وغامت عيناه ، ومال رأسه ، واستغرق في نوم عميق !

فلما تنبه ألفى نفسه على الربوة الخضراء حيث التقى بصاحبه، ومسح عينيه ونظر، فاذا الصباح مشرق وضيء، وإذا الطير تقفز وتغرد بين الغصون، والنسر محلق باسط جناحيه يستقبل النسيم صافياً على قنن الجبال. وهجس في نفسه :

أتراني قضيت الليل كله ها هنا ؟ ثم راح يستعيد ما حدث قبل استغراقه في النوم، ويذكر ذلك الرجل الغريب صاحب برميل الشراب، وفجوة المدرج، وتلك الرفقة العبوس اللاهية بلعبة الدبوس، وتلك الباطية الخبيثة. يا لها من باطية خبيثة حقاً! فكيف يكون اعتذاره «للسيدة فان ونكل» يا ترى؟

والتفت الى جانبه ينظر بندقيته، فلم يجد في موضعها غير هنة رثة أكل الصدأ حديدها ، فخطر له أن تلك الرفقة العبوس قد عبثت به وأسكرته لتختلس منه بندقيته . واختفى وولف أيضاً . . فهل تراه انطلق وراء حجلة أو سنجابة ؟ إنه

ليصفر له ويناديه ولا من سميع. إنما يجيبه الصدى بمثل صفيره ونداثه، ولا كلب هناك.

واعتزم أن يعود إلى مكان الرفقة يسألهم حيث وجدهم عن كلبه وبندقيته ، فما هو الا أن همّ بالحركة حتى أحس في مفاصله بيبوسة، وعجز عن الحركة على غير عهده بنشاطه ! فقال لنفسه : إن هذه المراقد الجبلية لا توافقني ، ويا له من وقت ممتع أقضيه بين يدي «السيدة فان ونكل» لو لزمت الدار بداء المفاصل والعياذ بالله !

لقد وصل الى الوهدة بمشقة، ورأى الهضبة التي ارتقاها مع صاحبه، ولكنه لفرط دهشته وجد عندها جدولاً يتدفق من صخرة الى صخرة، ويملأ الجبل بأصداء خريره ، فعالج أن يتخطاه ، وسلك طريقه في جهد ومشقة بين ألفاف الشجر وهي تعترضه كالشباك في الطريق وبلغ آخر الأمر الى حيث الفجوة المدرجة، ولكنه لم يجد هناك ثغرتها التي كان يذكرها ، ووجد الصخر قائماً أمامه كالسد المنيع يهوى عليه الماء ، كأنه الدخان مندفعاً الى حوض غائر قد اسود في ظلال الغاب التي أحاطت بجهاته . . . واضطر « ريب » المسكين أن يقف في ذلك الموضع ، فعاود الصفير والنداء على كلبه، ولم يستمع من جواب غير النعيب من سرب غربان تحوم كسلى من فوق شجرة يابسة على الهاوية وتنظر دونها آمنة في فضائها ، كأنما تسخر من ذلك الآدمي المسكين في حيرته. . !

ماذا تراه يصنع؟ إن الصباح يمضي وهو يتضور جوعاً ، وتلعجه لوعة الحزن على كلبه وبندقيته، ويكربه لقاء زوجته المنتظر ، ولكنه لا يقدر على البقاء حيث يهلك جوعاً في مكانه، فهز رأسه وحمل بقايا بندقيته وتحول وهو مثقل الفؤاد بالغم والقلق الى ناحية داره .

راح يقترب من القرية ، فيلقى عندها طوائف من الناس لا يعرف منهم أحداً، ويدهشه أن ينكرهم جميعاً، وهو يحسب أنه على معرفة تامة بكل فرد في أفراد المكان وما حوله، ويلاحظ أن ملابسهم تخالف الزي الذي يعلمه، وأنهم ينظرون اليه بدهشة كدهشته، ويتأملونه طويلاً ثم يحكون ذقونهم. فلما مد يمينه يصنع مثل صنيعهم، اذا بلحيته قد طالت نحو قبضتين أو تزيد !

وكـان قـد دنا من ظاهر القـرية، فلحـقت به زمرة من الصغار تهلل في أعقابه وتشير الى لحيـتـه البـيضاء ، ونبحته الكلاب التي لم يكن كلب منها ينبحه من قبل، فنظر اليـها فلم يعرف أحداً منها. وتبدلت القرية كلها، فهي أكبر وأحفل بسكانها ، ولا أثر فـيـهـا لمزاراته التي كـان يألفها، وعلى الأبواب أسماء غريبة، وفي النوافذ وجوه غريبة، وكل شيء يراه غريباً غريباً !!

خـانـه عـقلـه ، وداخلتـه الشكـوك ، ولاح له أنه يمـشي مـسـحـوراً في عـالم مـسـحـور ! فـلا ريب أنها قريته التي فارقها بالأمس ، وهذه جبال كاتسكل، ما في ذلك ريب، وهناك نهر «الهدسـون» المفـضض على مـسـافته حيث كان، وهنالك كل هضـبـة ووهدة حيث كانت من قديم . . ! فيا للشراب الخبيث . . إنه قد بلبل رأسي أيما بلبال !!

ولم يعـرف طريق بيـتـه إلا بعـد لأي . . فـجـعل يمشي إليه متهيباً متوجساً ، يترقب في كل لحظة أن يسمع صيحة امرأته مجلجلة في أذنيه. فاذا بالدار قد تداعت، والسـقف قـد تهدم، والنوافـذ قـد تهشـمت، والأبواب قـد تفككت من مـفـاصلها، ولديها كلب يحوم حـولها يوشك أن يهلك من هزال الجـوع، كأنه صـاحبه «وولف» . . فناداه باسـمـه فكشر له عن أنيابه . . يا له من جحود . . : كلبي ينساني فيما بين ليلة ونهار ؟!

ودخل المنزل. ولا نكران أن السـيـدة فـان ونكل تدأب على تنظيمه وتنظيفه . فـوجـده خـلاء خـواء. يلوح عليه أنه مهجور ومتروك ، وغلبت وحشته على خوفه ، فنادى زوجتـه وأطفـاله ، فـرنّ صـوته هنيـهـة في الحـجرات الخالية ، ثم ران عليها السكوت .

وهرول الى الخـان مـزاره المعـهـود . ولكنه ذهب . . أمـا المكان فقد قام فيه ، في مـوضـع الخـان بناء من خـشب مـتـخاذل ، مفغور النوافذ ، مرقع الثغرات هناك بالقـبـعـات والسراويل، وعلى بابه نقـشـة تقـول : «فندق الاتحـاد» لصاحبه «يوناتان ديلتل» . . . وعـاين ـ بدلاً من الشـجـرة الكبيرة التي تظل الخـان ـ عموداً فوقه شيء كـالقلنسوة الحمراء عليه خطوط ونجوم. كل ما هنالك غريب غريب !!

وتعـرف هنالك صـورة «الملك جـورج» التي دخن تحتها كم من بيبة مشتهاة ، ولكنهـا ـ حـتى هذه الأخـرى ـ قـد تبدلت ، وحلت في محل الكسوة الحمراء أخرى زرقـاء ، وسـيف في اليـمين بدل الصـولجان، وقبعة في مكان التاج، وتحت ذلك كله حـروف تـقـول : «جنرال واشنطون» ! وكـان على البـاب زحـام ، لكنه غير الزحـام الذي ألفـه «ريب» . . . . تغيرت منهم حتى حركاتهم وخلائقهم وعاداتهم، فحلت الجلبـة محل السكينة التي تعـودها في زمرة «الحكيم نقولا فدار».

وتـطـلـع ملياً عـسى أن يرى الحكيم نقـولا فـدار بوجـهـه العـريض ، وذقنه المزدوجـة ، وبيـبـتـه الطويلة المليحة تلفظ الدخان بدلاً من سقط الكلام. ولكن على غير جـدوى، أو عـسى أن يرى الأستاذ «فان بوميل» ينثر ما احتوته احدى الصحف القـديمـة . . أو سائر تلك الرفقة ، ولا من حس لهم أو خبر ، وإنما يشغل مكانهم مخلوق نحـيل صـفـراوي، مـفـعم الجـيـوب بالاعـلانات، يهدر بها يـسـمـيـه حقوق المـواطنين، والانتـخـابات، وأعـضـاء المؤتمر، والحـرية، وتل بنكر، وأبطال سنة ست وسـبـعين، ومـا شـابه ذلك من رطانة كأنها أخـلاط برج بابل في سـمع «فان ونكل» الحائر المشدوه . . !

ولم يلبث مطلع «ريب» ، بلحـيـتـه الطويلة البـيـضـاء، وبندقـيـتـه الصدئة، ومـلابسـه المشـعـثة، وفي ذيله جيش من النسوة والصبية، أن لفت أنظار ساسة الخان إليـه، فـتكوفـوا حـوله يرمـقـونه من رأسـه الى قدمه مستطلعين، وأسرع إليه الخطيب فـانتحى به جانباً يسأله : في أي جانب ينتخب؟ . . فحملق ريب وأثار النظر اليه في غير فـهم وبغير مـعنى ! وجاءه شخص آخر قصير ملهوج فجذبه من ذراعه وسأله : إتحـادي أنت أم ديمـقراطي ، فذهل ريب ، ماذا يعني هذا السـائل ؟ . . وإنه لفي ذهوله لما يفق، اذا بشـخص بادي الخطر، مزهر السمات، تنحرف قبعته المستقرة على رأسـه ، يدفع الجـمع يمنة ويسرة ، ويثني احـدى ذراعـيـه على خـاصرته ، ويستند بالأخـرى الى عـصاه ، وينظر اليه نظرة نافذة فاحصة عن دخيلة ضميره ، ثم يسأله في جـد وصرامـة : كـيف سـولـت له نفـسـه أن يحضر الى مجتمع الانتخـاب مسلحـاً ببندقـيـتـه قـائداً وراءه ذلك الجـيش من النسوة والصبية ؟ أتراه ينوي أن يثير الشغب في القرية ؟ . .

قـال ريب: مـعذرة يا حضرة السيد.. إنني رجل هادىء فقير من أبناء الموطن ومن رعـايا الملك الموالين لجـلالته.. حفظه الله وأسبغ بركاته عليه ..

فـانفـجـرت من الجمع صرخة عاتية وهتفوا به : محافظ، محافظ، جاسوس.. هارب.. اطردوه.. اقـذفوا به الى بعيد ..

ولأيـا مـا اسـتـطـاع الرجل المزهو الخطير أن يعـيـد السكينة الى المكان ! واتخذ وجـهـه من سمات الجـد والصرامـة عشرة أضـعـاف ما كان عليه، وعاد يسأل المتهم : ما باله قد حضر الى ذلك المكان ، وعمن يبحث فيه ؟ فأكد له المسكين أنه لا يضمر شراً، وأنه لم يقـصـد إلا السؤال عن بعض جيرانه من أصحاب الخان ..

قال الرجل المزهو الخطير : حسناً . من هم ؟ أخبرنا عن أسمائهم ؟

ففكر «ريب» لحظة، ثم قال متسائلاً : أين «نقولا فدار» ؟

وأتبع سـؤاله صـمت وجـيـز، وارتفع صـوت كصفير الغاب من قبل شيخ كبير مـردداً مـا سـمع : « نقولا فدار » ! .. إنه مات منذ ثماني عشرة سنة ، وهنالك في مـقبرة الكنيسة شاهد على قبره ينبىء عنه، ولكنه كذلك قد فنى منذ حين .

قـال «ريب» : وأين «بروم» الهولندي؟

فأجـيب : إنه ذهب الى الحـرب عند نشـوبها، وقـيل إنه مات في الهجمة على «أسـتـوني بونيت».. وقـيل غير ذلك إنه غـرق بجوار «أنتوني نوز».. ولا ندري فإنه لم يعد قط منذ رحل عن هذا المكان !

قال «ريب» : ، أين الاستاذ «فان بوميل» ؟

فأجـيب : إنه ذهب أيضاً الى الحرب، وأصبح من قادتها الكبار، وهو الآن في المؤتمر «الكونغرس»..

وانقـبض قلب «ريب» وهو يسـتـمع الى أنبـاء هذه الغير والأحـداث في موطنه وبين أصـحـابه، وبدا له أنه في الدنيـا غريب منفرد يحيره الجواب عن كل سؤال، كما يحيره التـحـدث عن تلك الفترات من الزمن، وتلك لا يفـقـه لها مـعنى : الحـرب . المؤتمر. «اسـتـوني بونيت».. فلم يلق في نفـسه الجرأة على المزيد من الأسئلة، وصاح

يائساً : أليس في هذا المكان أحد يعرف «ريب فان ونكل» ؟

فأجابه اثنان أو ثلاثة : ريب فان ونكل ؟ آه . . انه هناك مستند الى تلك الشجرة . .

فالتفت «ريب» فلمح نسخة أخرى منه كما كان يوم أصعد في الجبل . . ورآه مثله في أسماله، وفيما يبدو عليه من الكسل. . فتمت دهشة المسكين، وشك في ذاته، ولم يدر أهو هو ؟ أم ذاك إنسان سواه في جلده !

وإنه لفي هذا البحران، إذ سأله الرجل المزهو الخطير : من عسى أن تكون ؟ وما اسمك ؟

قال : يعلم الله أنني لست «أنا» . . ! إنني كائن آخر. ! فهذا أنا هناك . . ! كلا! بل ذلك إنسان آخر دخل في حذائي! . . وقد كنت أنا بعيني ليلة أمس، ثم أخذتني سنة فوق الجبل، فغيروا بندقيتي، وتغير كل شيء . . وتغيرت أنا. . ولا أحسبني أعرف ما اسمي، ولا من أكون . . !!

وتبادل الواقفون النظرات والغمزات والإشارات ذات المغزى، وراحوا يضربون جباههم بأصابعهم، ويفكرون في انتزاع البندقية من الرجل، والاحتماء من أذاه إن أراد شراً . . وتراجع الرجل المزهو الخطير على عجل، وتقدمت في تلك اللحظة الحرجة امرأة أنيقة تتأمل الرجل الأشيب ، وكان على ذراعها طفل سمين راعه منظره فانطلق يبكي . . . فصاحت به : صه. صه «يا ريب» . لا تكن أحمق، فإن الرجل الأشيب لن يمسّك بأذى. .

وأعاد اسم الطفل وهيئة المرأة ونبرة صوتها طائفة من الذكريات الى ذهنه، فسألها :

ـ ما اسمك أيتها المرأة المباركة ؟

قالت : اسمي «جوديت جاردنير».

قال : واسم أبيك ؟

قالت : آه ! يا للمسكين . . كان اسمه «ريب فان ونكل» ! . . ولكنه منذ

عشرين سنة ترك البيت ببندقيته ولم يسمع عنه خبر. وعاد كلبه وحيداً . . ولكننا لا نعلم هل بخع نفسه أو اختطفه الهنود ؟ . . وإنما كنت طفلة صغيرة يومذاك . .

لم يبق على لسان «ريب» غير سؤال واحد سأله وهو مرتجف ، فقال : وأين أمك ؟

فتنهدت وقالت : إنها ماتت بعده بقليل، وكانت تساوم بائعاً متجولاً من «نيو انجلاند» فأخذتها سورة غضب وانفجر لها شريان فقضى عليها . .

خبر فيه أخيراً شيء من الراحة، فلم يطق الرجل أن يملك نفسه ، بل راح يعانق بنته وطفلها، ويقول لها : أنا أبوك . . أنا الفتى «ريب» بالأمس، وأنا «الشيخ ريب» اليوم . . أليس ها هنا من يعرف «ريب فان ونكل» المسكين ؟!

فوجموا جميعاً ، ودرجت اليه عجوز من الزحام ، فرفعت كفها الى جبينها، ونظرت اليه من تحتها هنيهة، ثم صاحت:

ـ هو هو لا ريب بعينه . مرحباً بك في جوارك عائداً اليه بعد حين، أيها الجار الكريم. أين كنت طوال هذه السنين العشرين؟

وعرفت قصة «ريب» على الأثر، فما كانت السنون العشرون لديه إلا كليلة واحدة، وفتح الجيران حماليقهم حين سمعوها، وجعل بعضهم يغمز لبعض، ويديرون ألسنتهم في أشداقهم. أما الرجل الخطير المزهو الذي عاد الى المكان عقب هدوء الحال وانفشاء الروع، فقد زم فاه، وهز رأسه، وتبعه الجمع فهزوا رؤوسهم مقتدين به.

وعولوا بعد على الرجوع الى «بيتر فاندردونك» الذي شوهد تلك الساعة مصعداً في الشارع، وكان سليل المؤرخ المعروف بهذا الاسم، وأقدم سكان القرية، وله إلمام واف بعجائبها ونوادر أنبائها . . عرف ريب لساعته، فأول لهم قصته على أحسن الوجوه، مؤكداً لهم بالرواية عن سلف المؤرخ أن جبال كاتسكال كانت على الدوام مزار الغريب من الأطياف والأشباح، وإن «هنريك هدسون» العظيم أول من كشف النهر الذي سمي باسمه كان يَغُبُّها للحراسة كل عشرين سنة مع النواتية من سفينة الهلال، فتهيأت له الفرصة لغشيان ميدان مساعيه الأولى، وتعهد

«النهـر» الكبير برعـايتـه، وان والده قـد بصر بتلك الأطيـاف في أكسيتهم الهولندية، يلعبـون لعبتهم الى جانب فجوة الجبل ، وأنه هو نفسه قد سمع دوي كراتهم وهي كالرعد المجلجل من بعيد.

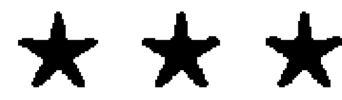
والخـلاصـة الوجيـزة أن الجـمع قـد انفض وعـاد الى مـا هو أجد وأجدى من شـواغل الانتـخـاب، وأخـذت «بنت ريب» أباها ليـعيش معها في كنها الأنيق حيث تقيم وزوجـهـا الفـلاح المرح القوي، وقد تذكره «ريب»؛ إذ كان واحداً من اولئك الأطفـال الذين عـودهم أن يتـسنمـوا ظهـره. أما وريثه وابنه الذي شوهد مستنداً الى الشـجـرة وكان نسخة منه، فقد كلفوه العمل في المزرعة، فجرى على دأب أبيه وطفق يولي عنايته كل شيء إلا عمله..

وقـد عـاد ريب الى جـولاته وعـاداته، ولم يلبث أن عـثـر بطائفـة من صحابته الأقـدمين، إلا أنهم قـد أبلاهـم الزمن وجـارت عليـهم السن، فـآثر صـحـبـة الجـيل الناشيء على صـحـبـتهم، ولم ينقض غير قليل حتى ظفر بالحظوة بين أبناء هذا الجيل الجديد.

ولما كـان خلواً من الشـواغل في البيت، وكان قد بلغ السن التي تبيح لصاحبها أن يركن الى الكسل غير ملوم، فـقـد اتخذ مكانه مرة أخرى الى جوار الخان، وأحيط هنالك بالتـوقير والإجـلال على اعـتـبـاره شـيـخـاً من شيوخ القرية الأجلاء، وسجلا لأخـبـارها قـبل أيام الحـرب، وظل برهة ريثما اسـتطاع أن يتابع الأحاديث عن تلك الوقـائع التي غبرت في سنوات رقـاده!! فـعلم كـيف ثارت البلاد على انجلترا وخلعت نـيرها، وكـيف أنه أصبح مـواطناً حـراً من أبناء الولايات المتـحـدة، ولم يعـد رعـيـة خاضعاً لصاحب الجلالة «جورج الثالث»..

وواقـع الأمـر أن ريـب لم يـكـن مـن أهـل السـيـاسـة، ولم يكن تبـدل الدول والـعـروش ممـا يعنيـه. وإنما كـان هناك سلطان مطلق ظل يشكوه ويئن من طغـيـانه عليـه. وذلك هو سلطان المرأة، ولكنه قـد نجـا منه بحـمد الله وخلص عنقه من نير الحـيـاة الزوجـيـة، وأصبح قادراً على الطواف حيث شاء، غير متهيب لسطوة السيدة فـان ونكل ! على أنه كـان اذا سـمع اسـمها حرك رأسه، وهز كتفيه، وأرخى بصره، ولا يدري من يراه : أذاك منه عـلامة استسلام لقدره، أو علامة اغتباط بخلاصه.

وراح يروي قـصـته لكل طارىء على خان مستر «دولتل» . . ولوحظ عليه أنه يتصرف في سرد بعض الأخـبـار كل مرة، لعله كان متأثراً بقرب عهده بالسبات، ثم صـقلهـا أخيراً على صـيـغـة واحدة، هي هذه الصيغة التي نرويها، فلم يبق رجل أو امـرأة أو طفل في الجيرة إلا وقـد حفظها واستظهرها. . وكان منهم من يبدي شكوكه فـيـهـا ويحسب أن «ريب» مخامر في عقله، وأن هذه القصة إحدى فلتاته . . ! إلا أن السكان الهولنديين الأقـدمين، كـانوا مجمـعين على تصديقها والثقة بصحتها، ولم يزالوا حـتى اليوم كلما سمعوا قصف الرعود أصيل يوم من أيام الصيف على جبال كاتسكل قـالوا : ذاك «هنريك هدسـون ونواتيـته»، يلعبون لعبة الأوتاد التسعة . . . . ويتمنى منهم كل مـبتلى بزوجة سليطة لو تتاح له جرعة من باطية «فان ونكل».



جيمس فنمور كوبر
(١٧٨٩ ـ ١٨٥١)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

من قلة من الكتاب الذين لاقوا استحساناً كبيراً ونجاحاً باهراً في حياتهم، لكن سرعان ما فتر الحماس ازاءه بعد موته. يعود اليه الفضل في خلق شخصية بطل الغرب الامريكي والفضل في تصوير حياة التخوم التي جمعت بين الانسان الابيض وبين الهندي الامريكي . وقد أثر على جيل لا بأس من كتاب الرواية ، سواء عن طريق تقليدهم له أو معارضتهم إياه. وقد انتقد الحياة المعاصرة ، وتشبب بحياة البساطة. وهذه سمة جميع من ينتمون الى المدرسة الرومانسية .

حياته :

ولد في الخامس عشر من أيلول عام ١٧٨٩ في بيرلنغتن بولاية نيوجرسي . كان والده من كبار ملاك الأرض. انتقل مع عائلته للعيش في كوبرزتاون، تلك البلدة التي سميت على اسم أبيه عام ١٧٩٠ . تلقى تعليماً على أيدي مدرسين خصصوا له . دخل جامعة ييل Yale عام ١٨٠٣ ، بيد أنه طرد منها عام ١٨٠٥ بسبب اشتراكه باعمال فوضى مع عدد من الطلبة . ثم سمح له بالتخرج منها عام ١٨٠٦ .

عمل لفترة وجيزة بحاراً في احدى السفن وتمكن من زيارة بريطانيا واسبانيا عام ١٨٠٦ . عاد الى امريكا عام ١٨٠٨ ودخل سلاح البحرية الامريكية التي اتخذت من بحيرة أونتاريو مركزاً لها. توفي والده عام ١٨٠٩ وترك له مبلغ خمسين الف دولار . استقال على أثر ذلك من سلاح البحرية بعد أن تزوج من فتاة ثرية. عاش حياة مترفة لفترة في بلدة كوبرزتاون والتي

اشتغل بأمورها السياسية والاجتماعية والمالية.

بنى بيتاً له في أنغفيني عام ١٨١٧ وتوفيت والدته في نفس السنة. كتب أول رواية له عام ١٨٢٠ وهي بعنوان **الحرص Precaution** ، بيد أنها لم تكن ناجحة . وقد كانت تقليداً لأعمال الروائية البريطانية جين أوستن . في العام التالي ألّف رواية **الجاسوس The Spy** ، عالج من خلالها أحداث الثورة الأمريكية . لقيت روايته هذه نجاحاً كبيراً لفت بها أنظار الكثيرين.

انتقل الى نيويورك عام ١٨٢٢ وألف عدداً متزايداً من الروايات. أبحر عام ١٨٢٦ الى بريطانيا لنشر أعماله. ثم زار باريس واجتمع بلافيت وبسير ولتر سكوت الذي تأثر به كثيراً وقلده في معظم أعماله. عاد الى نيويورك عام ١٨٣٣ ثم غادرها بعد عامين الى كوبرزتاون. وقد كان ينظر اليه الكثير من أهل البلدة الذين كانوا يتغنون بالمساواة والديمقراطية، على أنه أرستقراطي الفكر والسلوك. كتب في عام ١٨٣٩ **تاريخ سلاح البحرية الأمريكية** ورواية **صائد الغزلان** سنة ١٨٤١. توفي في كوبرزتاون عام ١٨٥١.

أهميته :

لقد كتب كوبر عدداً كبيراً من الروايات نافت عن الثلاثين. وقد ركز فيها على ثلاثة محاور رئيسة : أ ـ محور حياة التخوم الامريكية التي صورها بمنظار رومانسي مَجَّدَ من خلاله حياة البساطة وانتقد طغيان الحضارة فيها. ب ـ محور الحياة البحرية والتي تعرف على جزء منها من خلال عمله في السفن. جـ ـ محور الحياة الاوروبية التي شهدها بأم عينه والتي انتقد النزعة الاقطاعية فيها. وقد اشتهر الكثير من رواياته التي حولت الى مسرحيات وأفلام سينمائية. ويعد كوبر على الرغم من خبو سيطه من أوائل من طوروا القصص الرومانسية التاريخية. ولم يقتصر في اهتمامه على الرواية، بل كتب العديد من الدراسات التاريخية والاجتماعية والسياسية. وله مساهمة لا يمكن التغاضي عنها في مجال أدب الرحلات. وعلى الرغم من ازدراء العديد ممن خلفوه له من أمثال مارك توين وعلى الرغم من تراجع الحماس ازاء أعماله وبخاصة من قبل النقاد، فهو ما زال يتبوأ مكانة مهمة في تاريخ الأدب الأمريكي.

مقتطفات من

صائد الغزلان (*)

[هي من أهم الروايات التاريخية التي تركز على بساطة حياة التخوم وطهرها، وتعالجها بأسلوب رومانسي يمجد العفوية والصدق في التعامل والبطولات الخارقة. نقتطف هنا أجزاء منها. هذا ولقد قام المترجم بحذف بعض السطور والكلمات من النص الأصلي، ودلل على ذلك بوضع نقاط في النص المترجم].

المحرر

الفصل الأول

وقعت حوادث هذه الحكاية في الفترة بين سنتي ١٧٤٠ ، ١٧٤٥ ، عندما كانت الشعب المستقرة في مستعمرة نيويورك تنحصر في نطاق ضيق من الريف، على جانبي نهر الهدسن، وفي بقاع قليلة متجاورة على الموهوك والشهاري. وكانت تجتاز الموهوك مناطق واسعة من الأرض البرية البكر، تمتد في نيو انجلند، ويتخذ المحارب من عشبها النامي غطاء لنعله فلا يسمع له صوت، وهو يطأ طريق الحرب المحفوف بالأسرار والدماء.. ويلوح الإقليم بأسره شرقي الميسيسيبي، لعين الطائر، رقعة واحدة متسعة من الغابات تبرز على جانبها حافة ضيقة من المزروعات على طول البحر، وتتوزعها البحيرات، وتتقاطع فيها الأنهار بمجاريها المتعرجة.

وكانت شموس الصيف ـ قروناً متعاقبة ـ قد جففت قمم الصنوبر والبلوط العتيق، الذي ظل ثابتاً على حاله، عندما سمعت أصوات تتنادى، في يوم صحو

(*) أخذت الترجمة من صائد الغزلان، ترجمة د. عبدالحميد يونس (القاهرة : مؤسسة سجل العرب، ١٩٨٦).

من أيام يونيه، وكانت في نبرتين مختلفتين، وقد ظهر جلياً أنها تنبعث عن رجلين ضلا سبيلهما بعد أن بحثا عنه في اتجاهات مختلفة، ثم ندت صيحة تعلن الظفر واذا برجل ضخم البنية ، يندفع من مستنقع صغير ويأخذ في الخروج الى مكان مكشوف. وكانت هذه المساحة الصغيرة تتيح للمرء أن يرى السماء في منظر بهيج، وهي وإن اكتظت بالأشجار النخرة، إلا أنها تقع على سفح أحد التلال المرتفعة التي ينتهي عندها سطح الإقليم المجاور كله تقريباً.

وصاح رجل الغابة المتحرر، وقد وجد نفسه تحت قبة السماء الصافية :

ـ هذا مكان نتنفس فيه . . . مرحى يا صائد الغزلان ، ها قد وجدنا ضوء النهار آخر الأمر . . وتلك هي البحيرة . . ولم تكد تتحرك شفتاه بهذه العبارة حتى أزاح رجل الغابة الثاني أغصان الشجيرات النامية على المستنقع ، وظهر في تلك البقعة من الأرض، وسأل رفيقه :

ـ اتعرف هذا الموضع ؟ . . أم تصرخ لمرأى الشمس ؟ . .

ـ الاثنان . . يا فتى . . . إنني أعرف الموضع، ولست آسفاً لرؤية صديقة مفيدة كالشمس! . . ولست أدعى هري هاري إذا لم يكن هذا الموضع الذي نصب فيه صيادو البر خيامهم في العام المعني . . انظر . . تلك هي الاغصان المتخلفة عن عرائشهم . . وهذا هو الغدير . . ومع أنني أحب الشمس كثيراً يا فتى، إلا أنني لست في حاجة الى أن تقول لي إننا في الظهيرة ، دعنا نتزود لمدة ست ساعات أخرى.

وعند هذا الاقتراح شرع كلاهما في إعداد الطعام . . ولم يكن من اليسير أن تجد نموذجاً للرجولة أنبل من ذلك الذي يتمثل في الشخص، الذي يسمي نفسه هري هاري . . فإن اسمه الحقيقي هنري مارش . . . . وقد عُرف أيضاً باسم «هري سكري» وهو اسم مستعار، اكتسبه من اندفاعه وتهوره ، وعدم تبصره بالعواقب ، ومن قلقه الجسماني الذي يجعله دائم الحركة.

وكانت قامته تزيد على ستة أقدام وأربع بوصات ، وهي متناسبة الأجزاء الى حد عجيب . . أما وجهه فكان سمحاً جميلاً . ولكن صائد الغزلان ، كما يسميه

رفيقه هري ، شخص مختلف في مظهره ومخبره كل الاختلاف . . فقد كان طوله ، وهو واقف ، وقدماه في نعليه، يبلغ ستة أقدام . . بيد أن هيكله كان يبدو، إذا قيس الى رفيقه ، خفيفاً نحيفاً ، وتنبيء عضلاته عن رشاقة غير مألوفة ، تحمل قوة عجيبة . . ولولا ما يعبر عنه وجهه من صدق بريء من الخبث ، ونبل مقصد ، واحساس متدفق، لما كان فيه شيء يستحق الملاحظة، غير ما يمتاز به من امارات الفتوة والشباب.

وكان هذان الرجلان من الأفاقين ، لا يزالان صغيرين ، فقد بلغ هري السادسة أو الثامنة والعشرين من عمره ، في حين كان صائد الغزلان يصغره بسنوات . . وكانت ملابسهما يتألف معظمها من جلود الغزلان ، وفيها المظاهر المألوفة التي تدل على أنهما ينتسبان الى أولئك الذين يقضون حياتهم بين أطراف المجتمع المتحضر ، والغابات المترامية التي لا نهاية لها . . وكان من الملاحظ أن صائد الغزلان كان يبدي بعض العناية بالاناقة في هندامه، وبخاصة فيما يتصل بأسلحته وأدواته، وكانت بندقيته كاملة العدة، ومقبض خنجره متقن النقش ، والقرن الذي يضع البارود فيه مزخرفاً ، وجعبة الطلقات مزينة بعقود من الأصداف . أما هري هاري فكان يرتدي كل شيء بإهمال واستهتار . . ولعل الجو الذي يثيره باهماله وعدم اكتراثه ، يزيد ولا ينقص من الأثر الخاص لصورته الجميلة وجسمه العظيم.

وصاح هري بزميله، وهو يفتح فمه ليتلقى شريحة باردة من لحم الغزال.

ـ تعال يا صائد الغزلان . . أقبل ، وبرهن على أن لك معدة من معدات آل ديلاوير ، كما تقول أن لك أخلاقهم . . أقبل ، وبرهن على رجولتك بهذا الغزال المسكين، تجري عليه أسنانك، كما برهنت عليها ببندقيتك.

واتجه الى زميله وهو يجلس قائلاً :

ـ لا . . لا يا هري . . انها رجولة صغيرة هذه التي تبدو في قتل غزال، وقد فات أوانها . . ولم يمنحني آل ديلاوير اسمى لأن لي قلباً جريئاً ، بقدر ما منحوني إياه لحدة البصر وسرعة الدم . . وقد لا يكون هناك جبن في التغلب على غزال . .

ولكن المحقق أنه لا يحتاج الى شجاعة فائقة.

وتمتم هرى :

ـ ان آل ديلاوير أنفسهم ليسوا أبطالاً، وإلا لما سمحوا للأفاقين المحتطبين من آل منجو، أن يجعلوهم كالنساء.

فقال صائد الغزلان في نبرة من الاخلاص ، لأنه كان صديقاً حميماً لآل ديلاوير.

ـ ان هذا الأمر لم يفهم ولم يفسر على وجهه الصحيح. . فان آل منجو يملأون الغابات بأكاذيبهم وألفاظهم ومعاهداتهم المضللة. . ولقد عشت مع آل ديلاوير عشر سنين، وعرفت أن فيهم من الرجولة مثل ما في أمة أخرى، عندما يحين وقت القتال.

ـ اصغ اليّ يا سيدي، صائد الغزلان، ما دمنا نتحدث في الموضوع، أجبني عن سؤال واحد، فان لك حظاً في الصيد والقنص، كسبت به لقباً تعرف به . . فهل من خلقك أن تطلق زناد بندقيتك على عدو لا يستطيع أن يفعل ذلك بك؟

فأجاب صائد الغزلان :

ـ اذا أردت الحق. . فانني لم أفعل ذلك قط، ما دمت أرى أن الفرصة المناسبة لم تسنح، وكان آل ديلاوير مسالمين منذ حللت بهم، ومن رأيي أنه من غير المشروع أن تزهق روح انسان الا في حرب سافرة غير خسيسة.

ـ ماذا ؟ ألم تجد في يوم من الأيام شخصاً يتلصص بين فخاخك وجلودك، فتنفذ العقوبة عليه بيدك .

فرد الشاب في كبرياء :

ـ لست من الذين يستعينون بالفخاخ يا هري. . انني أعيش على بندقيتي. . ولا أقدم جلدا ليس في رأسه ثقب بندقية، الى جانب الثقوب التي خلقتها الطبيعة فيه، ليرى بها أو يتنفس منها. .

ـ بلى . . بلى . . هذا كله حسن جداً في قفص الحيوان. . بيد أنه يقدم جسماً

مـشـوهاً الى جـانـب ما يتعرض له من سلخ الرأس والحبس في كمين. . وأمامنا الآن مـا تسـمـيـه حـربـاً مشروعـة، وكلما بادرت بغـسل هذا العار عن شخصيتك كلما زاد نـومـك هـدوءاً. . لن يكون ذلك إلا اذا عـرفت أن لك عـدواً واحـداً أقل تجـولاً في الغـابات طلبـاً للفريسة ، ولن أصاحبك طويلاً يا صديقي ، إلا اذا ارتفعت نظرتك الى مـستوى أعلى عن ذوات الأربع، وهي أن تعمل بندقيتك في عدوك.

ان رحلتنا قـاربت النهـاية كما تقـول، يا سيد مارش، ونستطيع أن نفترق الليلة اذا وجـدت الفرصة المناسبة، فان صديقاً ينتظرني ولا يرى من العار أن يعاشر مخلوقاً مثله، لم يقتل بعد، واحداً من بني جنسه.

وتمتم هري لنفسه :

ـ لكم أحب أن أعرف ، ما الذي جاء بهذا الديلاويري المختبىء . . . مبكراً في هذا الفصل من السنة.

ـ عند صـخـرة صـغيرة مـستديرة بالقرب من أول البحيرة، حيث قالوا لي أن القـبائل ستأوى الى الموضع الذي يتحالفون فيه ويتصالحون. . فان الاقليم يدعيه كل من المنجـوبين والموهيكانيين، وهو عـبـارة عن موضع عام للقنص وصيد الأسماك أيام السلم. . . أما لمن يصبح في وقت الحرب، فالله وحده يعلم. .

فصاح هري متعجباً وهو يضحك :

ـ اقليم عـام ؟. . انني أحب أن أعلم مـا سـوف يقـوله «توم هاتر العائم» رداً على ذلك . . فـهـو يدعى أن البـحيرة ملك له. . لأنه وضع يده عليـهـا خمس عشرة سنـة ، وليس من المنتظر أن يسلمها لآل منجو أو الديلاوير بغير قتال.

ـ ومـاذا عـسى أن تقول المستعمرة في مثل هذا القتال. . فان هذا الاقليم يجب أن يكون له مـالك. . وأصـحاب الأملاك يبسطون مطالبهم الملحة على البراري؟

قـد ينفع هذا في أنحاء أخرى من المستعمرة يا صائد الغزلان، ولكنه لا يجدي هـنـا. . وليس هناك امـرؤ يملك هذه الأرض إلا الله . . ولم يوضع المداد على الورق قط فـيها يتـعلق بكل من التل والوادي هنا، وكما بلغني فان توم العجوز قال أكثر من

مـرة : أنه أحق بها من أية نسـمـة من الناس. والذي يدعيه توم، يعمل جاهداً على الاحتفاظ به.

ـ مـا أسـمـعك تقـوله يا هري. . أرى أن توم العـائم هذا لابد وأن يكون رجلاً خـارقاً، فما هي سيرته وما هي فطرته ؟

ـ لماذا ؟ . . فـيما يختص بفطرة توم العـجـوز البشرية . . فـانها لا تشـبه كثيراً طبـائع الرجـال الآخـرين، وانما تشـبـه طبـيـعة فأر المسك. . وأنا أرى أنه يسير على طريقـة هذا الحـيـوان أكثر مما يسير على طريقة مخلوق آخر. . ويظن بعضهم أنه كان يعـيش هائماً على الماء الملح في شبابه. . وكان رفيقاً لشخص معين يدعى «كيد» الذي أعـدم بتـهمة القرصنة قبل أن يولد واحد منا بزمن طويل، وجاء الى هذه الربوع وهو يظن أنه يستطيع أن يستمتع بالغنيمة آمناً في الغابات.

ـ على هذا فـهـو مخطىء جـداً يا هري. . مخطىء جداً. . فان المرء يستطيع أن يستمتع بالغنيمة في كل مكان.

ـ ذلك يتـوقف على اتجـاه عـقله أكـثر من أي شيء آخر، فان بعض الناس لا يحـصـلون على الطمأنينة اذا لم يجدوا الغنيـمـة . . وبعـضـهـم لا يحصلون عليـهـا اذا وجـدوها. . أمـا توم العـجـوز فـيظهر أنه لا ينتسب الى أحد الفريقين، وهو يستمتع بغنيـمـتـه، اذا حـصل عليـها برماح ابنتيه، بطريقة جد هادئة. . ولم يكن يرغب في شيء أكثر.

ـ أجل. . ان له ابنتين. . ولقـد سـمـعت أن آل ديلاوير قـد اكـتـشـفوا ذلك بطريقة ما، ويذكرون تواريخهم عن هاتين الفتاتين. . أليست لهما أم يا هري ؟

ـ كـانت لهما ذات يوم، كما يهدي الى ذلك العـقل، ولكنها ماتت وأغرقت منذ هاتين السنتين الموفـورتين.

ورفع صـائد الغـزلان رأسه الى زميله في شيء من الدهشة وتابع هري حديثه.

ـ أقـول مـاتت وأغـرقت. . فـان الرجل العـجوز أدلى بزوجته في البحيرة لكي يراها لآخر مرة، كما أقرر لأني كنت شاهد عيان لهذا الحفل.

ـ أكـانت المرأة المسكينة شديدة القسوة حتى يزعج زوجها نفسه بجثتها ؟

ـ قـد يكون هذا مـعـقـولاً . . وان كـانت لها أخطاؤها . . ولكني أذكر جوديث التي أقـدرها دائماً . . والتـزكـيـة الوحـيـدة لهذه المرأة التي أغرقت، أن تكون أما لهذه الفتاة، جوديث هاتر.

ـ أجـل . . وأن جـوديـث هـو الأسـم الـذي يـذكـره آل ديـلاوير، وان كـانوا ينطقونه على طريقتهم، وأنا اعتقد من أحاديثهم أن الفتاة ترضي خيالي.

وصـاح مارش :

ـ خـيـالك . . وماذا يريدك الشيطان أن تصنع بالخـيـال ؟ وخصوصاً اذا كان يتـصل بشـخص كـجوديث . . انك لا تزال غريراً . . فان بين خطاب جوديث رجالاً منذ كـانت في الخـامـسـة عشرة . . ولقـد مـضى على ذلك مـا يقـرب الآن من خمس سنوات . . ولن يرضـيـهـا حـتى أن تلقي نظرة على مخلوق مـثلك، لما يستكمل نموه بعد.

فأجـابه الآخر دون أن تثيره هذه العبارات :

ـ أمـا الآن . . في شـهـر يـونيـو . . وليس هناك سـحـابة بيننا وبين الشـمس يا هري . . فلا حاجة بنا الى كل هذه الحرارة. قد يكون لكل انسان خياله.

قال مارش في غضب :

ـ نـعـم . . ولكن هذا قـد لا يكون من الحكمـة دائماً . . وأنت صـغير عـديم التـفكير، ولأضرب صـفحاً عن جهلك . . تعال يا صائد الغزلان.

ثم أضـاف، وهو يرسل ضحكة رخيمة بعد أن سكت قليلاً كمن يتذكر :

ـ لقـد أقـسمنا أن نكون صديقين . . ولن نتشاجر من أجل هذه الفتاة الحمقاء المخـادعـة . . لأن الصدفة جعلتها شيقة، وبخاصة لأنك لم ترها قط . . فان جوديث انها تـصـلـح لـرجل تبـدي نواجـزه كل امـارات الرجـولة . . ومن الحماقـة أن أخـشى حبيباً . . ماذا يقول آل ديلاوير عن الفتاة الوقاح ؟

ـ يقولون أنها جميلة لمن يراها ، عذبة الحديث . . ولكنها كثيرة الاستسلام للمحبين . . خفيفة العقل.

ـ هذه هي شخصية جوديث بالضبط، أقول لك الحق. . انه كان يجب عليّ أن أتزوج الفتاة منذ سنتين، ولم يحل بيني وبين تنفيذ ذلك سوى أمرين معينين، أحدهما خفة عقلها هذه.

ـ وما هو الأمر الثاني ؟

ـ الثاني هو عدم التحقق من قبولها لي. . فالفتاة جميلة. . وهي تعرف هذه الحقيقة. . وليست هناك شجرة يا فتى تنمو على هذه التلال، أكثر اعتدالاً من قوامها. . ولا تموجات في الهواء أيسر تمايلاً منها. . ولن تجد غزالاً فطر على الحركة أطوع من حركتها. . واذا كان هذا هو كل ما تتصف به، فقد وجب على كل لسان أن يشيد بمدحها. . بيد أن لها من السقطات ما جعلني أرى من الصعب أن أتغاضى عنها. . حتى لقد أقسمت مرات ألا أزور البحيرة ثانية.

ـ وما هو السبب الذي يجعلك تعود اليها دائماً وليس هناك ما يزيد تأكيد أمر من الأمور سوى أن تقسم عليه ؟

ـ آه. . يا صائد الغزلان. . اذا عرفت ما أعرف عن جوديث، فقد تجد مبرراً لهذا الأمر. . فالضباط يجوسون أحياناً خلال البحيرة، من القلاع التي على الموهوك، لقنص الوحش وصيد السمك. . واذا بالمخلوقة جوديث تخرج عن طبيعتها. . وأنت ترى ذلك في الطريقة التي تضع بها زينتها ومظاهر التجميل التي تسبغها على نفسها مع هؤلاء المتطرفين .

فرد عليه صائد الغزلان في جد :

ـ لا يكفي ذلك مع ابنة رجل مسكين . . ان الضباط جميعاً نبلاء . . وهم لا ينظرون الى مثل جوديث بنية سيئة.

ان هناك شكا في ذلك فان لي ظنوني حول ضابط معين برتبة كابتن. وليس لجود، أن تلوم أحداً سوى حماقتها. . اذا كنت محقاً.

ـ لو كنت في مكانك لما فكرت في امـرأة كـهـذه. . ولاتجـهت بعقلي كله نحو الغابة التي لن تخدعك، فان يداً لا تتذبذب أبداً ترعاها وتحكمها.

ـ لو عـرفت جـوديث لأدركت أن مـا تقـوله أيسر جـداً من أن تعـمله. . ولو أنني حملت عـقلي على الهدوء من ناحـيـة هؤلاء الضـبـاط لحـملت الفـتاة الى الموهوك عـنـوة، وأرغـمـتـهـا على الزواج مني، ونترك توم العـجـوز في رعـاية هيـتي، طفلتـه الثـانيـة، وهي ـ وان لم تكن جميلة ـ سريعـة الخـاطر كأختها، الا أنها أكثر منها قياماً بالواجب.

وسأل صائد الغزلان :

ـ أهـنـاك طـير آخـر في الـعـش ؟ . . ان آل ديلاوير لم يتـحـدثوا اليّ إلا عن واحدة.

ـ هذا طبـيـعي جداً. . اذا كان الأمر يتصل بجوديث هاتر، وهيتي هاتر. فان جـوديث حـاضرة البـديهة، كثيرة الحديث، وماكرة كخطيب هندي عجوز. في حين أن هيـتي المسكينة تعـيش على مـا أسميه، حافة الجهل. . وهي تتعثر أحياناً على هذا الجانب، وأحياناً على الجانب الآخر.

قال صائد الغزلان في خشوع :

ـ انهـا مخـلـوقـات يـكلؤها الله برعـايتـه الخـاصـة. . لأنه يرعى جميع الذين لم يحـصـلـوا عـلى حـظ مـن الـعـقل السليم. . والهنود الحـمـر يجلبـون اولئك الموهوبين ويحترمـونهم، لعلمـهم أن الروح الشريرة يسرها أن تسكن في جسم متحايل أكثر من جسم عاطل من دهاء تستعين به.

ـ انني أجـيب عن ذلك اذن. . فإن الروح الشريرة لن تمكث طويلاً مع هيتي المسكينة. . فـتوم العجوز يعطف على الطفلة، كذلك جوديث، وإلا لما استطعت أن اطمئن الى سـلامـتـهـا تماماً بين هذا الصنف من الرجـال الذين يلتـقـون أحياناً على شاطىء البحيرة. .

وقـال صائد الغزلان في قلق واضح عندما شعر بأنه يقترب جداً من العالم.

ـ ظننت صفحة هذا الماء مجهولة لا يطرقها أحد.

ـ هذا كله صحيح يا فتى.. فان عيون عشرين من الرجال البيض لم تشاهدها قط.. كما أن عشرين من الأفاقين الاصلاء.. من الصيادين وناصبي الفخاخ والكشافين ومن اليهم، يستطيعون أن يعملوا شراً كثيراً اذا هم حاولوه.. وسيكون الأمر مزعجاً لي يا صائد الغزلان، اذا وجدت جوديث قد تزوجت بعد غياب ستة أشهر..

ـ ألك عقيدة الطفل لكي تشجعك على الأمل ؟

ـ لا ... مطلقاً.. فأنا لا أعرف كيف تكون.. فأنا جميل القسمات يا فتى.. وهو ما أستطيع رؤيته على صفحة أي غدير تتلألأ الشمس عليه.. ومع ذلك لم أستطع أن أحصل من الفتاة على وعد، أو حتى على بسمة مخلصة ودود، وان كانت تضحك معي طوال الساعة.. واذا تجرأت وتزوجت في غيبتي، فسوف تعرف مباهج الترمل قبل أن تبلغ العشرين من عمرها.

ـ انك لن تسيء الى الرجل الذي تختاره، يا هري.. لا لشيء إلا لأنها وجدته أقرب الى مزاجها منك.

ـ ولم لا.. أنظر الي.. هل تراني رجلاً يسمح لأي خسيس أو متلصص أو تاجر جلد، أن يتغلب عليّ في مسألة تمسني في الصميم.. كجوديث هاتر ؟.. أضف الى ذلك أننا اذا عشنا خارج نطاق القانون فيجب علينا أن نكون قضاة أنفسنا، واذا وجد أحد الرجال مقتولاً في الغابة، فمن ذا يقول من ذبحه؟.. واذا كان القتيل هو زوج جوديث هاتر.. فانني أستطيع بعد الذي حدث أن أقول ما يكفي ليجعل المستعمرة تتعقب على الأقل، أثر الفاعل.

....

ـ أنت.. تجرؤ على التفكير في التبليغ ضد هري هاري.. حتى في موضوع يتعلق باقتناص نمس أو فرخ ؟

ـ انني أجرؤ على قول الحق يا هري : اذا كان الأمر يتعلق بك أو بأي رجل قدر له أن يعيش..

فقبض مارش على عنق رفيقه بكلتا يديه وهزه بعنف ، والتمع الغضب في عيني العملاق منذراً بحدة تفوق ما تدعو اليه المناسبة.. وظل صائد الغزلان ثابتاً لا يتحرك .. وقال في هدوء :

ـ انك تستطيع أن تزلزل الأرض يا هري حتى تسقط الجبال، ولكنك لن تستطيع أن تنتزع مني غير الصدق.. وقد لا يكون لجوديث زوج يذبح.. وقد لا تسنح لك فرصة تترصد فيها أحداً.. وإلا سوف أخبرها بتوعدك هذا، في أول حديث لي مع الطفلة.

وأرخى مارش قبضته، وأخذ يلاحظ رفيقه في دهشة صامتة.. ثم أضاف بعد برهة :

ـ ظننت أننا كنا صديقين، ولكنك حصلت على آخر سر من أسراري يصل الى أذنيك.

ـ اني لا أريد شيئاً منها.. اذا كانت مشابهة لهذه.. فأنا أعرف أننا نعيش في الغابات يا هري .

ويقال عنا اننا خارج نطاق القوانين البشرية.. ولكن هناك قانوناً ومشرعاً للقانون.. يحكم القارة بأسرها.. ان الذي يفر أمامها ينبغي ألا يسميني صديقاً.

ـ عليك اللعنة يا صائد الغزلان، لم أكن اعتقد أنك في قرارة نفسك، الصياد الراجح العقل.. الواضح التصرف كما تظاهرت :

ـ راجح العقل.. أو غير راجح العقل يا هري.. فانك ستجد تصرفي واضحاً في الأفعال، وضوح الأقوال.. ولكن هذا الاستسلام لبادرة الغضب حماقة.. وليس هناك شك في أن جوديث هاتر سوف تتزوج، ولكنك تحدثت بما جرى به لسانك، لا بما شعر به قلبك.. وهذه يدي.. فلن نتحدث أو نفكر في هذا الموضوع مرة أخرى.

وزادت دهشة هري حتى تجاوزت كل حد.. ثم اندفع في قهقهة رضية الى أن دمعت عيناه. وما لبث أن أقبل على اليد المبسوطة نحوه وأصبح المتخاصمان صديقين.. وصاح مارش :

ـ ان من الحماقة أن نتشاجر على فكرة من الأفكار كالمحامين في المدن . لا كالرجال المتعقلين في الغابة.

وما بلغا هذا القدر من الحديث ، حتى استأنفا طعامهما، ولما فرغا قال صائد الغزلان :

ـ ما دامت الشمس قد بدأت تميل، أليس من الأوفق أن نعاود المحاولة، وأن نتقدم، فقد تسنح الفرصة التي ترى فيها هاتين الأختين الرائعتين.

وأبدى هري مارش موافقته في سرور ، ووضع الرحالتان متاعهما على كواهلهما ، واختفيا في ظلال الغابة.

الفصل الثاني

وعرف هري اتجاه السير، وأخذ يسير بخطى الواثق من الطريق، خطى رجل متأكد من غايته. . وبعد أن تقدم ما يقرب من ميل توقف، وألقى على ما حوله نظرة متفحصة، واتفق أن وقع بصره على جذوع الاشجار المتساقطة التي تزحم الطريق. وأخيراً قال مارش :

لابد أن يكون هذا هو المكان يا صائد الغزلان. . فهذه شجرة زان الى جوار شجرة شوكران، وبالقرب منها ثلاث من شجرات الصنوبر، وهناك شجرة بتولا بيضاء محطمة الرأس، ومع ذلك فأنا لا أرى صخرة ما ولا أغصاناً متدلية، وهي التي انبأتك أننا سنعثر عليها.

والتفت إليه رفيقه قائلاً :

ـ ان الاغصان المهشمة ليست معلماً جيداً من معالم الطريق، وهي تقود الى الاشتباه فينا واكتشاف أمرنا وآل ديلاوير لا يثقون مطلقاً في الأغصان المهشمة، إلا في فترات الأمن والسلام وفي موضع مكشوف. . أما أشجار البتولا والصنوبر والشوكران، فهي لا ترى من حولنا مثنى وثلاث، وانما تشاهد بالمئات.

ـ عين الصواب يا صائد الغزلان . . ولكنك بهذا لا تحدد الموضع . . فهنا شجرة بتولا وشجرة شوكران.

ـ أجل . . وهناك شجرة بتولا أخرى . وشوكران ثانية متعانقتان كشقيقتين، وعلى بعد غيرهما . . انني أخشى يا هري أن تكون أبرع في اقتناص ثعلب الماء وصيد الدب، منك في الارشاد باقتفاء الأثر الى موضع من المواضع!! . . ها . . ها هو ما تريد أن تعثر عليه بعد هذا كله .

ـ والآن يا صائد الغزلان، هذا واحد من مزاعمك التي اكتسبتها من آل ديلاوير . واشنقني اذا كنت أبصر شيئاً غير هذه الأشجار التي تنتصب من حولنا بطريقة مربكة جداً.

ـ انظر . . هذا طريق يا هري . . هنا في موازاة البلوط الأسود.

ألا تبصر هذه الشجرة المتعرجة التي شدت الى أعلى في أغصان زيزفون قريبة منها ؟ . . وهذه الشجيرة كانت مثقلة بالجليد فانحنت، ولم تستطع أن تقيم عودها بعد ذلك، فارتبطت بأغصان الزيزفون على الصورة التي تراها . ويد الانسان هي التي قامت لها بهذا الصنيع عطفاً عليها ؟

فصاح هري :

ـ إنها يدي . . فلقد وجدت هذه الشجيرة النحيلة تنحني الى الأرض ، فأقمتها حيث تراها . . وأرى لزاماً عليّ بعد هذا كله، أن أعترف يا صائد الغزلان بأنك توشك أن تحصل على عين خارقة تلائم الحياة في الغابة.

ـ إنها تتحسن يا هري ، وأنا مع ذلك أعترف بأنها لا تزال عين طفل ، بالقياس الى عيون أشخاص أعرفهم، فهناك «تامناند» وهو ان كان الآن قد شاخ حتى أن قليلين يذكرون أنه عندما كان في عنفوانه، لم يكن يسمح لشيء أن يفلت من نظره . . وكانت هذه الحاسة عنده أقرب الى كلب الصيد في الشم منها الى عين الانسان . . وهناك أيضاً «انكاس» والد شتجاتشكوك وكذلك الرئيس الشرعي للموهيكيين . . ويكاد يكون من المستحيل أن تمر بهم دون أن يروك . . انني أتحسن كما أقرر لك . . ولكنني لا أزال بعيداً عن الكمال .

وسأل هري وهو يتجه الى هذه الشجرة المشدودة :

ـ ومن ذا يكون شتجاتشكوك الذي تتحدث عنه كثيراً يا صائد الغزلان .

ـ سيصبح زعيماً كبيراً إذا حصل على حقوقه. . ولكنه الآن في الواقع ليس إلا رجلاً شجاعاً موفور العقل ومن آل ديلاوير. . يحترم ويطاع في بعض الأمور. . وهذا حق، ولكنه من شعب مضمحل وأمة متداعية.

ـ أنظر . . ها هي البقعة التي جئت للعثور عليها.

وقطعت هذه الملاحظة الحديث ، وأشار صائد الغزلان الى جذع ضخم لشجرة أنيليا ، يرقد حيث سقط ، وقد نخر بفضل تعاقب الفصول . . وهاجم البلى وسطه حتى وهو منتصب القامة في عنفوان ازدهاره ، وجوف قلبه . . وفيما كان هذا الجذع ملقى، وقد تمدد مائة قدم على الأرض، اكتشفت عين الصياد الحادة هذه السمة فيه. . وأدرك أنها الشجرة التي يبحث عنها مارش. . وصاح هري ، وهو ينظر خلال الطرف الأكبر من طرفي الجذع :

ـ نعم. ها قد حصلنا على ما نريد. . ان كل شيء مدخر كأنما ترك في صوان امرأة عجوز. . تعال. . أعنّي يا صائد الغزلان، وسنسبح في مدى نصف ساعة.

وأزال هري بعض القشور من الفتحة الكبيرة للشجرة، ثم أخذ الاثنان يسحبان قارباً من لحاء الشجر ، مجهزاً بالمقاعد والمجاذيب الصغيرة ومتعلقاتها الأخرى، حتى الشص والحبال الخاصة بصيد السمك. . وحمله هري على كتفه بغير عناء . . وقال :

ـ سر أمامي يا صائد الغزلان ، وافتح لنا بين الأغصان طريقاً. . أما الباقي فأستطيع أن أعمله بنفسي.

وأطاعه رفيقه ، وترك الرجلان هذه البقعة . . وفي أقل من عشر دقائق ، واجها فجأة ضوء الشمس الساطع عند منحدر أكلت المياه ما يقرب من نصفه.

* * *

وليم كَلن براينت
(١٧٩٤ـ ١٨٧٨)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

من أهم رجالات عصره وأول شاعر أمريكي يحظى باهتمام عالمي. اشتغل بالصحافة والسياسة والشعر طيلة حياته ، وترك بصمات واضحة في المجالات الثلاثة. وهو كاتب يمثل المرحلة الانتقالية من العصر الربوبي الى العصر الرومانسي، حيث له مؤلفات تمثل روح العصرين. بدأ حياته محافظاً في السياسة والشعر ، ثم ما لبث أن تحول الى رجل تحرّري يناصر حقوق الانسان والتجديد في الشعر .

حياته :

ولد في الثالث من تشرين الثاني عام ١٧٩٤ في قمنغتن بولاية مستشوستس في بلدة اتسمت بجمال طبيعتها الخلاب. ولعله كان لذلك أكبر الأثر في توجيه شاعرنا نحو الحركة الرومانسية فيما بعد. وقد عزز من حبه للطبيعة رحلاته فيها مع والده الذي كان محباً لها. وقد انحدر براينت من سلالة قساوسة ناصروا الطائفة الطهرانية وروجوا لافكارها. وينعكس الطابع الديني هنا على كتابات براينت الأولى والتي كان يركز فيها على مُثل الديانة المسيحية. كتب الشعر من سن الثامنة. وقد نشر أول قصيدة له عام ١٨٠٧ في إحدى المجلات . وقد تأثر في البداية ببوب وجونسن وأدسون. درس عام ١٨١٠ في جامعة ويليمز، بيد أنه لم يجد فيها ما كان ينشد فتركها، وبدأ بدراسة القانون. مارس المحاماة عام ١٨١٥ .

كتب في عام ١٨١٩ العديد من المقالات في الشعر الأمريكي وغيره وأصبح ناقداً مرموقاً،

تزوج عـام ١٨٢١ ودعي لإلقـاء قصائده في هارفرد في نفس السنة. حـرر في ١٨٢٥ مجلـة نيويورك ريفـيـو ، وأصـبح في عـام ١٨٢٨ محـرراً وشريكاً في صحيفة إيفننج بوست ، والتي بقي فيها حتى وفـاته . ذاع صيـتـه في تلك الأثناء في مـدينة نيـويورك وشـارك بحماس في أمـور السـياسة والأدب والأحـداث العامة . وقد أصبح شاعر المناسبات في البلدة.

زار ولاية إلينوي عـام ١٨٣٢ ، ثم بدأ سلسلة رحـلات الى الخـارج، وبخـاصـة الى اوروبا والشـرق الأدنى في الأعـوام الواقـعـة بين ١٨٣٤ ـ ١٨٥٧ . سـاعـد عـام ١٨٥٥ في إنشاء الحـزب الجـمـهـوري ، وقد قام من خلال عمله في صحيفة البوست بمساندة ابراهام لنكن في أثناء الحرب الأهليـة (١٨٦٠ ـ ١٨٦٥). توفيت زوجتـه عـام ١٨٦٦. كـرس بقـية حياته للعمل في الصحافة وللترجمات المختلفـة. فـقـد قـام عام ١٨٧٠ بترجمة الالياذة شعراً؛ وترجم الاودسة شعراً أيضاً عام ١٨٧١. عـاش حـياة مفعمة بالعمل الدؤوب والتقدير وتوفـي عام ١٨٧٨ . خلف وراءه بيتاً تقدر قـيـمتـه بمليـون دولار أمـريكي . عند وفـاته أعلن الحـداد على مـوته في مـدينة نيـويورك كافة ، ونكست الأعلام.

اهـمـيـتـه :

لقـد كـتب العـديد من القـصـائد والتي تعـد على درجـة كـبيرة من الأهمية . بدأ محافظاً في شـعـره، بيـد أنه مـا فـتـيء أن تأثر بشـعر كولاردج وويردزورث وبيرنز . وقد ساهم في نقل الشعر الأمـريكي من تعـقـيد اللفظ ورصانة البيت الى السلاسة والبساطة الرومانسية . كان ثورياً في شعره الذي كـتبـه في مـرحلة النضـوج ، وقد رفض فكرة تفسير المسيحية للموت وتغنى بحياة الطبيعة. دافع في كـتـاباته عن حقوق الانسان ، وساهم في دفع عجلة الأدب الأمريكي الى الأمام عن طريق المناداة باسـتـقـلال الشـعر الأمريكي قلباً وقالباً. وحاول التركيز في العديد من قصائده على المواضيع الأمريكية؛ يعد معلماً من معالم الشعر الأمريكي.

تَـفَـكُّـرٌ فـي المـوت

ترجمة : د. أحمد يعقوب المجدوبة

[من أهم قـصـائد الأدب الرومـانسي الأمـريكي. تنبع أهميـتها أولاً من كونها تحتوي عدداً من مـبـادىء الحـركـة الرومانسية. فهي تركز على الشروط الواجب توفرها كي تحقق النفس البشرية السـعـادة. تدعـو القـصيدة الانسان الى ترك المدينة والمجتمع والتوجه الى الطبيعة كخطوة أولى ، ثم تدعـوه الى مـراقبة المشاهد الطبيعية، ثم الى الشعور والتفكر والتأمل . والطبيعة هي مصدر السعادة للبشرية لأنها تحـرك في النفس المشـاعـر والأفكار التي تحـاول المدينة طمسها. وتنبع أهميتها ثانياً من أنها تحـاول البرهنة على أن الموت لا وجـود له في حـقـيـقة الأمر، فالانسان عندما يحين أجله يصبح جـزءاً من الطبـيـعـة والتي هي شيء حي؛ ومن هنا فـالموت هو تحـول من شكل حياة ما الى شكل آخر، من حياة فردية الى حياة جماعية. وهو أشبه بالحلم السعيد] .

المحرر

من في حبه للطبيعة يتصّل
مع ما يرى منها من أشكال، فهي تخاطبه
بشتى اللغات ؛ ففي ساعات فرحه
لها صوت ينم عن سرور ، وبسمة
وبديع جمال ؛ وتتسلل الى
أفكاره الأكثر ظلمة، بعواطف
رقيقة وشافية، تصدّ عنه
اللظى قبل أن يشعر به. وعندما تنصبُّ
أشجان الساعة الأخيرة المريرة على روحك

مثل الغمّ؛ وعندما تجعلك الصور الحزينة التي يثيرها
الأسى الشديد أو الكفن أو النعش
أو الظلام الدامس أو البيت الضيق،
ترتعد خوفاً وتصيب فؤادك بالعلل ـ
أخرج تحت قبة السماء ، واصغي
لتعاليم الطبيعة، حين ينبعث من كل ما هو حولك،
من الأرض وبحورها، ومن أعماق الفضاء،
صوت ساكن ـ

ما هي سوى بضعة أيام ، وتتوقف
الشمس التي ترى كل شيء في مسارها
عن رؤيتك؛ وسوف لن يكون أثر لك
حتى في باطن الأرض التي ووري جسدك
الشاحب فيها حين ذُرفت عليك دموع كثيرة،
او في عرض المحيط. فالأرض التي قد غذتك سوف
تطلب أن تُؤخذ وتودع في الأرض مرة أخرى؛
وبعد أن تفقد كل آثارك الانسانية وتخلع
كينونة ذاتك، سوف
تمتزج للأبد مع العناصر الأخرى،
تكون أخاً للصخر الذي لا يشعر
وكتل التراب الهامد التي يحركها الفلاح الساذج
بمحراثه ويدوسها . وسوف تشق
جذور البلوط التي تضرب في أعماق الأرض تربتك.

بيد أنك لن تجد نفسك في مكان راحتك الأبدي
وحيداً ، ولن تنشد صحباً
أكثر عظمة. فسوف ترقد

مع آباء العالم الأول، مع الملوك،
وأقوى من في الأرض، والحكماء، والصالحين،
وذوي الأشكال البهية ، وأنبية العصور السابقة الذين كسى الشيب
رؤوسهم ،
الكل في ضريح كبير واحد. والهضاب
التي تتخللها الصخور والتي هي بقدم الشمس،
والوديان التي تخترقها تمتد بسكون يثير في النفس التأمل؛
والغابات المقدسة ـ والأنهار التي تسير
بعظمة ، والجداول التي كأنها تتذمر
تكسو المراعي حلة خضراء؛ ويحيط بالكل
يباب ذاك البحر الرمادي الخريف القديم ـ
هي كلها ليست سوى زخارف جليلة
لضريح بشري كبير. الشمس الذهبي
والكواكب وكل ما في السماء من جموع لا تحصى،
تشع كلها على مساكن الموت الحزينة،
على مر العصور الساكنة، وكل ما يدب على
وجه البسيطة هو بضع حفنات حين يقارن بالقبائل
التي تخلد للنوم في صدرها ـ . خذ أجنحة
الصباح، اقطع صحراء برقة (١) ،
أو انس نفسك في الغابات الشاسعة
حيث يجري الأورغون (٢) ، لا يسمع أي صوت ،
سوى صوت هديره هو ـ ومع ذلك فالموتى هناك :
والملايين في تلك العزلة، منذ بدأت
هجرة السنين، قد استلقوا هناك
في نوم أزلي ـ يحكم الموتى هناك وحدهم.

---

(١) في ليبيا .
(٢) نهر كولومبيا .

وهكذا فسوف تخلد للراحة؛ وماذا لو انسللت
بصمت من بين الاحياء دون أن يلحظ
رحيلك أي صديق. كل من يتنفس
سوف يناله مصيرك. سوف يضحك السعيد
عند رحيلك؛ وسوف يتفكر بالهم
الانسان الجادّ، والكل كما من قبل سوف يطارد
الطيف الذي ينشد؛ كيف سيترك كل هؤلاء
لهوهم ومساعيهم وسوف يأتون
ليناموا بقربك. وما دام قطار الزمن
الطويل يسير، فإن أبناء آدم :
الفتى في ريعان الشباب، ومن يتمتع
بكامل قواه، والسيدة والخادمة،
والطفل الذي لم يتعلم الكلام بعد، ومن كسى الشيب رأسه ـ
سوف يجُمعون واحداً تلو الآخر الى جانبك،
على يد اولئك، الذي سوف يتبعونهم حين يأتي الأوان.

لذلك عش ؛ فإذا ما جاء دورك كي تنضم
الى القافلة التي لا تعد ولا تحصى، والتي تسير
وجهة الأماكن المهمة، حيث سيحتل كل واحد
حجرته في سرايا الموت الصامتة،
لن تذهب مثل العبد الطريد ليلاً،
الذي يقاد الى زنزانته ، بل بعز وإباء
وبخطى واثقة ، تقبل على مثواك الأخير ،
مثل من يلف غطى أريكته على نفسه
ويستلق لِيَخْبَـر أحلاماً سعيدة .

١٨١١

البـــراري

ترجمة : د. أحمد يعقوب المجدوبة

[هذه القصيدة رومانسية. تركز على التغني بمحاسن الطبيعة وعلى الافكار التي تثيرها في الذهن تلك المحاسن. ولعل أهم ما يميزها أنها تحاول البحث عما هو أمريكي في الطبيعة، ولا غرابة في ذلك، فهي قد كتبت في مرحلة ما بعد الاستقلال والتي شدد فيها الكتّاب على أهمية استقلال الأدب الأمريكي شكلاً وموضوعاً. يجد الشاعر في البراري ضالته المنشودة، اذ لا تضاهيها، كما يخبرنا في البيت الثالث أية طبيعة في أوروبا. ويركز أيضاً على الهنود الحمر وثقافتهم وعلى الحياة في الطبيعة بعد الموت] .

المحرر

هذي جنائن الصحاري، هذي
حقول ليست للحصاد، بديعة الحسن ليس لها حدود،
لا يوجد في لسان انجلترا ما يرادفها،
هي البراري. ألمحها للمرة الأولى،
فيخفق قلبي، ويتسع رسمها
في خيالي عندما أرقب رحبها المحيط بي. أنظر ، كيف تتمدد
مع تموج الهواء ، بعيداً ،
كأن البحر ، حين ينتفخ برفق،
يتوقف، وتثبت أمواجه في دورانها،
بلا حراك الى الأبد. بلا حراك؟ ـ
كلا ـ فقد فُك وثاقها مرة أخرى. يمر السحاب
بظله فوقي، وتحتي
تميد الأرض وتموج أمام العين؛

وتبدو الوهاد تنهض من ظلمتها تطارد
شمس الهضاب. نسائم الجنوب،
تداعب الورود التي تشبه اللهيب والذهب،
وتمر بصقر البراري يحلق في الأعالي
يصفق بجناحيه العملاقين وهو في مكانه ثابت ـ بعد أن
لعبت في نخيل المكسيك وعنب
تكساس، وبعد أن موّجت الجداول الشفافة
التي انسابت من ينابيع سُنورا (*)
تعبر المحيط الهادي ـ هل هببتِ
على مشاهد أجمل من هذه وأنبل ؟
ليس للإنسان أي صنيع في هذا العمل البهي :
فاليد التي بَنَت القبة الزرقاء قد كورت
وبسطت هذي المروج الخضر ناعمة، يكسو سفوحها
العشب، يتوسطها أيك الُجزر،
وتحدّها بأسرها الغابات، بساط بديع
لمعبد سماوي عظيم ـ
بورود تضاهي في مجدها وعظمها
كوكبة النجوم. وتبدو السموات
العلى تنحني فوق هذا المشهد بمحبة ـ
قبة أقرب وأبهى زرقة
من تلك التي تنحني فوق هضابنا الشرقية.

أقود حصاني في هذا اليباب الأخضر،
بين العشب الطويل الذي يمسح جبينه؛
فيبدو وقع خطاه العميق كأنه

(*) مقاطعة في شمال غرب المكسيك.

صوت آثم . أفكر بمن
يدوس على مضاجعهم. هل هم هنا ـ
أموات الأيام الخوالي ؟ وهل تناثر غبار
أماكن الخلوة هذه التي كانت تملؤها
الحياة وتُفعم بالحماس ؟
دع عظيم الروابي التي
تطل على الانهار أو تعلو
في الغاب المليء بالبلوط الغابر
تجُيب. لقد أنشأها جنس مضى
من قبل، جنس مثابر عرمرم
كوّم التراب بعزم دؤوب، لما كان الاغريق
ينحتون من البنتلكون (*) أشكالاً متناسقة
ويشيّدون على قلعته
البارثون (**) المضيء. هذه الحقول الرحبة
أغنت غلالهم، ورعت قطعانهم هنا،
وربّ ثيران تخور قرب مرابطها
قد أذعنت للنير على أكتافها.
تنطق الصحراء طوال اليوم بما فعلوا،
حتى يحل الغسق، ويمشي العشاق يتبادلون الحب
بلغة منسية، وتمنح الألحان القديمة،
من آلات لم يعد شكلها يذكر،
الريحَ العليلَ صوته. أتي الرجال الحمر ـ
قبائل الصيد الرّحل، محاربة قوية الشكيمة،
ثم اختفى مشيدو الروابي من وجه الأرض.
وخيم الهدوء لقرون

(*) جبل في اليونان غني بالرخام.
(**) معبد الإلهة أثينا.

في مكان سكناهم. يصطاد ذئب البراري
في مراعيهم، يلوح وكره
المحفور للتو في طريقي.
ويقطن الغوفر (*) الأرض
التي وقفت عليها مدائنهم المزدحمة. قد ذهب كل شيء.
كل شيء ـ سوى أكوام التراب التي تحوي عظامهم،
والهياكلْ التي عبدوا فيها آلهة غير معروفة،
والعوائق التي شيدوا من التراب
لتقيهم من العدو ـ الى أن اندفع
الغزاة الجبارون فوق الأسوار واقتحموا
حصون السهول، حصناً تلو الحصن،
وتراكمت الجثث. وقد هرعت نسور الغاب
في أسراب الى تلك القبور الفسيحة التي ليس لها غطاء
وحطت في صمت غير خائفة على ولائمها.
وربّ فارّ وحيد
تلكأ في السبخ أو في الغاب حتى تغلب عليه
شعور الوحدة والهلع الذي
صار أمرّ من الموت، فأسلم نفسه للردى.
قد هيمنت طبيعة الانسان الأسمى حينها. تلقاه
كلمات الترحيب فتخفف من روعه؛ وقد أجلس
الغزاة البدائيون أسيرهم بين شيوخهم؛ واختار
زوجاً من فتياتهم، وبدا أنه نسي ـ
في حين لم ينس ـ زوجة
حبه الأول، وصغارها الظرفاء
ممن ذبحوا، وسط الصراخ، مع شعب برمته.

(*) سلحفاة امريكية ؛ أو قد يكون حيواناً يشبه السنجاب.

يتبدل هكذا شكل الحياة، فتنهض
أجناس من الأشكال الحية، وتغدو ماجدة في بأسها،
ثم تفنى، عندما ينفخ فيها الإله من
روحه، أو يفرغه منها. وكذلك الرجل الأحمر
قد هجر الخلاء المزهر الذي جاب زمناً طويلاً،
يبحث بقرب جبال الروكي عن
مواطن صيد موحشة. لم يعد القندس (*)
يبني بقرب هذه الجداول، بل بعيداً،
على المياه التي تعكس لزرقتها
وجه الانسان الابيض ـ بين منابع ميزوري،
والبرك التي تغذي الأورجون (**) ـ
يشيّد مدينة صغيرة كالبندقية (***) . في هذه السهول
لم يعد الثور يرعى. أبعد من عشرين عقدة بمرتين
عن أبعد خيمة صياد ينبعث منها الدخان،
يجوب ملك الوحوش في قطعان تهز
الأرض بخطى رعدية ـ أما هنا فلا أرى
سوى بصمات حوافره القديمة مختومة بقرب البرك.

ما زالت هذه العزلة العظيمة تخفق بالحياة.
أسراب من الحشرات ، مزخرفة مثل الورود
التي تحوم حولها، ذوات الأربع الرقيقة
والطير التي لم تعرف بعد خوفها من الانسان
ما زالت هنا، والزواحف التي تنزلق على الأرض
بديعة الجمال. وتطلق الأيائل الجليلة

(*) حيوان من القواضم ثمين الفرو.
(**) نهر كولومبيا.
(***) كمدينة البندقية في ايطاليا.

ساقيها للريح عند قدومي. والنحل،
وهو اكثر اقداماً من المستوطن الانسان،
أتى معه عبر المحيط الشرقي،
يملأ حقول السفانا طنيناِ،
يخبىء حلوه، كما في عصور الذهب،
في البلوط الأجوف. أصغي طويلاً
لهمهمته المألوفة، فأخالني اسمع
صوت زحف تلك الحشود
التي سوف تملأ هذه الصحاري عما قريب. تنبعث من
الأرض ضحكات الأطفال، وهمسات الفتيات،
وأناشيد المصلين العذبة الوقورة
أيام السبت. يمتزج خوار القطيع
بحفيف الحبوب الكثيف
فوق الثلم البنيّ القاتم. وفجأة
تهب نسمة ريح عليل، تقطع حلمي،
فأجد نفسي في البراري وحيداً.

١٨٣٢

إدجر ألن بو
(١٨٠٩ - ١٨٤٩)

من قلم الأديب الكبير

عباس محمود العقاد (*)

[لمحة عامة :]

شاعر ، ناقد ، قاص .

يتفق النقاد على ملكاته الشعرية والنقدية والقصصية ، ولكنهم يختلفون في ترتيب نصيبه منها، فيحسبه بعضهم شاعراً قبل كل شيء ، ويحسبه الآخرون ناقداً قبل كل شيء، والأكثرون على أنه استاذ في القصة القصيرة ، وأن أثره فيها أكبر الآثار، والمعترفون له بهذه المزية معظمهم من الفرنسيين ذوي الشهرة العالمية.

ترجم «بودلير» نثره وسماه الرائد الأول في القارة الأوروبية ، وترجم «مالرميه» شعره ونشر آراءه ومقاييسه في صناعة النقد وفي الأدب عامة ، وقال «فاليري» عنه إنه «خلاّق صور» وعدّد من الصورة الأدبية التي خلقها : صورة القصة البوليسية، وصورة القصة العلمية، وصورة الشعر الكوني الحديث، يعني بذلك ملحمته التي نظمها بعنوان «وجدتها».

ومن خصائص فنه حب الغريب أو حب الأغراب ، ومن ذلك ولعه بالشرق ، واختياره العناوين الإسلامية لقصائده ، كعنوان إسرافيل والأعراف ، ونظمه في سيرة تيمور لنك، ولهجه بالصوفية الشرقية على الاجمال.

(*) مأخوذة من **ألوان من القصة القصيرة** ، إعداد وترجمة عباس محمود العقاد (مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٤) الطبعة الثانية .

والى جانب الولع بالاغراب، ولع بالمزعجات والنوافر، والحاح على نوازع النقمة أو الانتقام.. ويلاحظ في [العديد من قصصه] أن النقمة هي المحور المهم الذي [تدور] عليه دون الإشارة الى الاساءة ... التي أوجبتها ، كأنها تعبر عن شعور ناقم بمعزل عن الحوادث والجرائر، ويظن أن مرجع هذا الشعور فيه الى نشأته المضطربة، ومعيشته السيئة، وعثرات الجد التي لازمته من طفولته، وأضاف اليها هو جناياته على نفسه بالإدمان والمقامرة وقلة الانتظام في عمل من الأعمال !

[حياته :]

كان مولده في بوسطون (١٩ من يناير سنة ١٨٠٩) من أبوين ممثلين يعملان في فرقة جوالة، وماتت أمه وهو في الثانية، ومات أبوه وهو لم يبلغ الرابعة، فتبناه رجل عقيم على حظ من اليسار والطيبة، يسمى «جون ألان» وباسمه تسمى بقية حياته.

وانتقل ألان ـ ومعه الطفل ـ الى انجلترا، فأحسن تعليمه بالمدرسة الابتدائية، ثم عاد الى أمريكا فأدخله مدرسة راقية في ريشموند، ثم دخل جامعة فرجينيا وبلغ سن الفتوة، فتجسمت الفوارق بين مزاجه الفني الخيالي ومزاج ولي أمره العملي الواقعي. وزاد الفجوة بينهما أن وليّ أمره قرر حرمانه من تركته، ورفض تسديد دينه في القمار.. وبعد فترة من الجفاء والوفاق بينه وبين وليّ أمره لحق بالجيش، وتقدم فيه، ثم تعمد سوء السلوك ليفصل منه، فتقرر فصله، وتزوج قريبة له في نحو الرابعة عشرة، فلم تعمر طويلاً، ورثاها بقصيدة من خيرة شعره.

وقد ظهرت له دواوين شعرية وقصص منظومة ومنثورة، وهو في نحو العشرين، وعمل في الصحافة، فلم ينجح، ولم تحسن العلاقة بينه وبين شركائه فيها، ولكنه أحرز بعض الجوائز في الصحف السيارة وشاعت له شهرة ملحوظة جاوزت حدود الإقليم.

وخليق بهذه الحياة القلقة أن تطوى النفس على النقمة والمرارة ، ولكن الاحتراس واجب من أقوال مترجميه الذين جمعوا ترجمته من أوراقه، وبخاصة ترجمة «ريونس جريسولد» الذي أفرط في الإنحاء عليه. وثبت من تعقيب الكاتب الانجليزي «انجرام» أنه افترى عليه في مزاعم كثيرة تبين بطلانها بالدليل القاطع.

توفي ولم يكد يجاوز الأربعين، نزيلاً بأحد المستشفيات، في السابع من شهر أكتوبر سنة ١٨٤٩.

[اهـمـيـتـه :]

وبما لا خـلاف عليـه أنه رسم للقـصـة الصـغيرة خطوطاً مميـزة عـرفت بها طريقـتـه في اللغة الانجليـزية وسـائر اللغـات الغربية، وامتاز باستقلاله في هذه الطريقة، وعلى وفرة اطلاعه ومحصوله من القـراءة في الآداب العـالميـة. ولاشك أنه اسـتفاد من ديكنز وبرونتج، كما استفاد من «هوفمان» الألماني، ولكن صـبغته في كتابة القصة القصيرة لا تلتبس بصبغة أخرى.

الغُداف

ترجمة : د. أحمد يعقوب المجدوبة

[من أهم القصائد الرومانسية في الأدب الأمريكي. تصف من خلال حوار غريب، من جانب واحد على الأغلب ، بين المتحدث في القصة وغداف زاره في منتصف ليل عاصف معتم، معاناة النفس البشرية في هذا العالم الموحش. وهي بعكس العديد من القصائد الرومانسية الأخرى تصور احباط الانسان ووحدته القاتلة على الرغم من محاولاته الدؤوبة للبحث عن الخلاص والسعادة. وهي بذلك تمثل نقيضاً صارخاً لفكر إمرسن التفاؤلي، وهو القطب الرومانسي الرئيس في أمريكا. تتميز القصيدة بايقاعها الأخاذ وأنغامها الجميلة المتقنة] .

المحرر

لما انتصف الليل الموحش، حين كنت أتفكر ذات مرة بوهن وإعياء
في كتب حكمة قديمة، منسية غريبة،
وحين انحنى رأسي كأني قد غفوت، سمعت فجأة صوت نقر،
كأن أحداً أخذ يدق، يدق على باب حجرتي برفق.
«هو ثمة زائر»، تمتمتُ ، «يقرع باب حجرتي ـ هو فقط ذلك ، ليس غير».

أذكر بوضوح تام أن ذلك كان في كانون الأول شديد البرد،
وأنّ كل جمرة تخبو رسمت شبحاً لها على الأرض.
بلهفة تمنيت الصباح ـ وعبثاً سعيت كي تعيرني
كتبي بعض السلوى من حزني ـ حزني على فقد لينورا ـ
تلك الحورية البهية نادرة المثيل والتي تدعوها الملائكة لينورا
والتي لا إسم لها هنا على الاطلاق.

أفزعني حفيف ستائر الحرائر الارجوانية الغامض الحزين
هزّني ـ ملأني بخوف رهيب ليس لي به عهد ؛
نهضت بعدها، أخفف من روع قلبي الخافق، أردد :
« هو ثمة زائر على باب حجرتي يرجو الدخول ـ
ثمة زائر متأخر على باب حجرتي يرجو الدخول ـ
هذا كل ما في الأمر ، لاشيء غير ذلك ».

أضحت عزيمتي أكثر قوة؛ وبعد تخلصي من التردد
قلت « سيدي ! أو سيدتي ، إني استمحيك عذراً ؛
كنت في الحقيقة قد غلبني النعاس، حين جئت تدق برفق
ورحت تنقر نقراً خافتاً على باب حجرتي
حتى انّـي ما كدت أسمع» ـ وهنا فتحت الباب على مصراعيه ـ
ظلام دامس لا غير.
وقفت طويلاً أحملق في قلب الظلام، أحارُ أخافُ
أشك أحلم أحلاماً لم يجرؤ أن يحلم بها بشر من قبل؛
لكن الصمت لم يكسر، ولم يفصح السكون عن إشارة،
ولم تُسمع كلمة حينها غير همس كلمة «لينورا»
همستها فأجابني صدى الهمسة «لينورا».
فقط ذلك، لا غير.

استدرت أدخل حجرتي، وكامل روحي تضطرم في داخلي،
لأسمع بعدها نقراً أقوى قليلاً من ذي قبل.
«لابد» قلت «لابد أن ثمة شيء على شبك نافذتي؛
لأنظر إذن ماذا هناك، وأتبين غموض هذا السر ـ
ليهدأ روعي لحظة لأتبين هذا السر الغامض ـ
هي الريح، فقط لا غير».

فتحت عندها المصراع، فدخل بصخب ورفيف
غداف جليل كأنه من قُدس الأيام الخوالي ؛
لم ينحني قط، لم يتوقف أو ينتظر لحظة؛
بل بهيبة سيد أو سيدة حط فوق باب حجرتي -
حط على تمثال بالاس (*) فوق باب حجرتي -
حط واستقر ، فقط لا غير.

أحال الطير الأسود هذا حيرتي بسمة
بما ارتسم على محياه من وقار وتجهم وجه.
قلت : «حتى لو كان عرفك مقصوصاً وحليقاً، فانك بالتأكيد لست جباناً
أيها الغراب القديم المتجهم المروع الآتي من شواطىء الليل -
قل لي، ما اسمك الجليل في شاطىء بلوتو (**) المعتم !»
أجاب الغداف « كلا » .

عجبت كثيراً لطير أخرق يفهم الكلام بوضوح،
مع أن جوابه لا يحمل غير معان قليلة، وليس له سوى صلة بسيطة؛
ولا يمكن الا أن نوافق أنه لم يحظ انسان على
وجه البسيطة برؤية طير فوق باب حجرته -
طير أو وحش على التمثال المنحوت فوق باب حجرته،
باسم مثل « كلا » .

بيد أن الغداف ، يجلس وحيداً فوق التمثال الساكن، لم يقل
سوى كلمة واحدة، كأنه صب روحه في تلك العبارة.
لم يتفوه بشيء بعدها - وما حرك ساكناً -

(*) آلهة الحكمة في الأساطير اليونانية .

(**) إله الجحيم في الأساطير اليونانية .

حتى أني نطقت دون أن أشعر «غادرني صحبٌ من قبل ـ
سوف يتركني عند حلول الصبح مثلما تلاشت آمالي من قبل».
أجاب الطير « كلا » .

قلت وقد ذعرت من سكون كسرته إجابته الحاذقة تلك
« لا ريب ينطق ما حفظ وخزن
من معلم بائس حلت به كارثة مقيمة
تتابعت فتتابعت حتى لم تحمل أناشيده سوى عبئاً واحداً ـ
حتى حملت ترانيم جنازة أحلامه ذلك العبء الحزين
عبء « كلا » .

لكن الغراب لا يزال يحيل حيرتي الحزينة بسمة،
فدفعت كرسي وثير أمام الطائر والتمثال والباب؛
ثم غرقت في المخمل وأسلمت نفسي
لفكرة توصلني بفكرة، أفكر بما عنى طائر الشؤم القادم من الماضي ـ
هذا الطائر المتجهم الأخرق المروع السقيم المشؤوم القادم من الماضي
عند قوله « كلا » .

جلست أتحزر، دون أن أفصح عن حرف
للطائر الذي اتقدت عيناه في قرارة صدري؛
بهذا وبغيره أخذت أتكهن، ورأسي يرتكز برفق
على الوسادة المخملية المسطرة التي انصبّ نور المصباح عليها،
والتي رغم انصباب نور المصباح على سطورها المخملية البنفسجية،
لن ترتكز هي عليها ، كلا.

خلت تعاظم كثافة الهواء بعدها، كأنه عطرته مبخرة خفية،

تلوح بها ملائكة بان وقع أقدامها الخفيف على الأرض المخصلة.
صرخت : « أيها الشقي، قد اعطاك الإله، بعث لك مع هذه الملائكة
الراحـة، الراحة وشراب السلوى من ذكريات لينورا.
عب ، عب هذا الشراب اللذيذ ولتنسى لينورا الفقيدة».
قال الغراب « كلا ».

« أيها الرسول،» قلت « أيها الآثم ! رسـول أنت، سواء طيراً كنت أم كنت شيطاناً ـ
سواء جئت طاغياً أم قذفتك عاصفة على شاطئي هذا،
خائب لكن غير هياب، في هذه الأرض المسحورة ـ
في هذا البيت المسكون بالرعب ـ قل لي بصدق، أتوسل إليك ـ
أيوجد ـ أيوجد بلسم في جلعاد ؟ ـ قل لي، قل لي، أتوسل اليك ».
أجاب الغراب « كلا ».

« أيها الرسـول، » قلت « أيها الآثم ـ رسـول أنت، سـواء طيراً كنت أم كنت شيطاناً!
بحق تلك السماء التي تخيم فـوقنا ـ بحق الإله الذي كـلانا يعبد ـ قل لهذه الروح المثقلة بالهم، في عدن البعيدة،
أنها ستعانق حورية قدسية تدعوها الملائكة لينورا،
تعانق حورية بهية نادرة المثيل تدعوها الملائكة لينورا ».
أجاب الغراب « كلا » .

« لتكن هذه العـبارة اشارة فراقنا، يا طير ، يا شيطان »، صرخت واثباً ـ
عد الى العاصفة والى شواطىء بلوتو الليلية !
لا تدع وراءك ريشة سوداء تذكر بالأكاذيب التي رويت
لا تعكر صفو خلوتي ـ اترك التمثال الذي على بابي!

انزع منقارك من قلبي، وابعد طيفك عن بابي ».
أجاب الغراب « كلا » .

لم يتحرك الغراب قط؛ ما زال يجلس، ما زال يجلس
على تمثال بالاس فوق باب حجرتي؛
وفي عينيه ملامح شيطان يحلم
ونور المصباح فوقه يعكس طيفه على الأرض،
وروحي من ذلك الطيف الذي ما زال يطفو على الأرض
هيهات ترفع بعد الآن.

سقوط بيت أشر (*)

[من القصص التي تنتمي الى النمط القوطي Gothic ، وهي قصة رمزية متعددة المعاني، تشبّه الدخول في النفس البشرية المعتمة بدخول قصر موحش ومرعب على الرغم من جمال وعراقة مظهره الخارجي. وتنتهي القصة كالعديد من قصص بو نهاية سلبية، اذ لا يجد بطل القصة مفراً في النهاية من الهروب كي ينجو بنفسه. بطل القصة يذكرنا بأبطال العديد من القصص والروايات المحدثة الذين يجدون أنفسهم وحيدين دون ايمان بأي شيء ودون انتماء لمجتمع أو صحبة؛ بل هم غرباء حتى مع أنفسهم] .

المحرر

بعد أن سافرت وحيداً على فرس عبر منطقة ريفية شديدة الرعب طوال يوم خامل مظلم صامت من أيام خريف السنة، عندما تتدلى السحب من السماء بانخفاض ووطأة ثقيلة، وجدت نفسي أخيراً عند حلول ظلال المساء انظر الى بيت أشر الحزين. لا أدري كيف كان ذلك ـ فبمجرد أن لمحت المبنى غمر روحي شعور لا يطاق من الكآبة. أقول لا يطاق لأن ذلك الشعور لم تخفف من حدته تلك العاطفة الشاعرية، نصف السارة ، التي يستقبل بها العقل عادة حتى أكثر صور الخراب والرهبة في الطبيعة ظلمة. نظرت الى المشهد الذي أمامي ـ الى البيت نفسه وملامح أرض المسكن البسيطة، الى الحيطان الجرداء ، والى النوافذ الفارغة التي تشبه العيون، الى بعض نباتات البردي، والى بضعة جذوع أشجار بيضاء بالية ـ بحزن تام في روحي لا يمكن أن يقارن بشكل ملائم بأي حس دنيوي سوى بشعور ما بعد الحلم لمتعاطي الأفيون، ذلك الشعور المر بالسقوط في الحياة العادية أو بالسقوط المريع للحجاب. كان في القلب برود كالصقيع، سقوط، علة ـ رهبة

(*) أخذت كما هي من **اربع حكايات من عصر النهضة الامريكية** ، ترجمة د. أحمد يعقوب المجدوبة . (مركز الكتب الأردني ، ١٩٩٠) .

فكرية قاضية لا يمكن لأية قدرة تخيلية أن تحولها الى روعة. ما الذي ـ توقفت لأفكر ـ أثر على أعصابي هكذا عند تأملي بيت أشر ؟ إنه سر غامض لا يمكن حله، ولم أستطع أن أصرع التصورات الخيالية التي انصبت علي عندما بدأت أفكر. وقد أجبرت على التراجع مستنداً الى المحصلة غير المقنعة، أنه، بلا شك، على الرغم من وجود مزيج من مواد طبيعية بسيطة جداً لها القدرة على التأثير فينا، فإن معرفة مسبب هذه القدرة وتحليلها يقعان ضمن إطار اعتبارات خارجة عن فهمنا. فمن الممكن، تابعت متأملاً، أن مجرد إعادة ترتيب مكونات المشهد، أو تفصيلات الصورة، قد تكون كافية للتخفيف أو للقضاء التام على قدراتها على إثارة انطباعات محزنة. قدت فرسي من عنانها، منفذاً تلك الفكرة، الى الحافة الجرفية لبحيرة سوداء لامعة صافية غير مكدرة تقع بقرب المسكن؛ ثم نظرت للأسفل ـ بارتجاف أكثر شدة من ذي قبل ـ الى الصور المعاد تشكيلها والمقلوبة لشجرة البردي الرمادية وجذوع الأشجار المخيفة والنوافذ الفارغة التي تشبه العيون.

ومع ذلك فقد قررت أن أقيم في قصر الكآبة هذا بضعة أسابيع. كان صاحبه رودريك أشر أحد رفاقي المقربين في طفولتي؛ لكن سنوات عديدة قد انقضت منذ آخر لقاء لنا. وصلتني مؤخراً، عندما كنت في مكان ناء في الريف، رسالة منه لا تفصح، بالرغم من طبيعة إلحاحها الغريب، سوى عن مضمون شخصي. يظهر النص دليل ارتباك عصبي. تحدث الكاتب عن مرض عضوي حاد يسبب له أطواراً ذهنية غريبة مثيرة للشفقة ومؤرقة، وعن رغبة صادقة في مشاهدتي، ذلك لأني أعز صديق له والمقرب الوحيد لديه؛ كان يأمل من خلال رفقتي التي تبعث في النفس المسرة أن يخفف من وطأة مرضه. والذي لم يدع لي مجالاً للتردد وجعلني ألبّي ما اعتبرته مطلباً شديد الغرابة هو الأسلوب الذي قيل فيه كل ذلك وأكثر، **والقلب** الصادق الذي ظهر جلياً من خلال تلك الدعوة.

ومع أننا كنا في طفولتنا رفيقين حميمين، فإنني في حقيقة الأمر لم أكن أعرف إلا القليل عن صديقي. كان تحفظه دائماً شديداً ومتأصلاً في طبعه. لكنني كنت على علم بأن عائلته المعرقة في القدم عرفت منذ زمن غابر بشذوذ في طبيعة مشاعرها، أظهر نفسه عبر العصور الطويلة من خلال العديد من الأعمال الفنية الرفيعة وتجسد

مـؤخـراً في أعمال خيرية مـتـواصلة نابعـة من الكرم لا من حب التظاهر وكـذلك في تعلق شـديد بخبـايا علم الموسيقى لا بجماله المعروف أو الملاحظ بسهولة. كما أنني علمت أيضـاً الحـقـيـقـة المدهشـة جداً والتي مفادها أن جذع عائلة أشر، على عراقة قـدمـه، لم ينـمُ منه في أية مـرحلة كـانت أي غـصن ثابت. بمعنى آخر، تسلسلت العـائلة بأكـملهـا في خط مـباشر وبقـيت كـذلك، بالرغم من بعض التـغير المؤقت والبسـيط أحيـاناً. وكـان هذا العيب هو الذي ركزت عليه عندما محصت في ذهني التـوافق التـام بين حـال المبنى وشـخصية أناسه المحددة، وعندما فكرت بالأثر الذي يمكن أن يكون قـد مـارسـه الواحـد على الآخر خلال تعاقب القرون الطويلة. لربما كـان العـيب في هذا التـلازم ـ وفي التـوصـيل المتـتـابع والمستقيم من الأب للابن فيما يخـص الإرث والاسـم ـ هـو الـذي جمـع بـين الاثـنـين، يـدمج عنوان الملك الأصلي بالتسـمـية الغريبة والمبطنة لـ «بيت أشر» ـ تلك التسمية التي بدت في عقول المزارعين الذين اسـتعملوها وكأنها تتضمن كلاً من العائلة وقصر العائلة.

قلت للتـو إن الأثر الوحـيـد لتـجـربتي شـبـه الطفـولية، عندما نظرت داخل البـحيرة، هو تعـمـيق انطباعي الأول الغريب. ومما لا شك فيه أن شعوري بالتعاظم السريع لتـهـيـؤاتي ـ إذ لم لا أسـمـيـها كذلك ؟ ـ هو الذي عمل بالدرجة الأولى على زيادة التـعـاظم نفـسـه. ذلك هو، كما علمت منذ أمـد، القانون المتناقض للعواطف التي يكون الرعب مـسـبـباً لها. ويمكن أن يعود لهذا المسبب فقط نشوء تخيل غريب في عـقلي ـ تخيل أذكـره من شـدة سـخفه لأدلل فقط على القوة الكبيرة للمشاعر التي أرقـتني ـ عندمـا رفـعت عيني الى البيت نفسه من ظله في البركة. لقد اشغلت مخيلتي لدرجـة جـعلتني أعـتـقـد حـقاً أنه هيمن على القصر والملك بأكمله جو غريب عنهما وعن المنطقـة المجـاورة ؛ جـو خـامل، بليـد ، رصاصي اللون ، لا يكاد يرى بالعين المجـردة؛ جـو ليس له شبه بهواء السماء، بل إنه خرج من الأشجار الخربة والحيطان الرمـادية والبحيرة الساكنة على شكل بخار أو غاز كثيف. بعد أن نفضت عن روحي مـا يشـبـه الحلم، تفحصت بتركيز أكثر الشكل الحقيقي للمبنى. يبدو أن أكثر سماته أهميـة هي عراقته البالغة. كانت التغيرات التي حدثت في ألوانه الأصلية عبر العصور كـثيرة. كـست الفطريات الصـغيرة جميع أجـزائه الخـارجيـة وتدلت من الأفـاريز في

خـيـوط جميلة. تم ذلك دون إحـداث تفـتت كبير. لم يسقط أي جزء من البناء، وقد بدا هنالك تناقض صـارخ بين مـعالم أجزائه الكاملة وبين حالة حجارته الفردية، التي ذكـرتني رؤيتها بالمظهر الإجمالي البراق الخادع للأعمال الخشبية التي أخذت في التعفن سنوات طويلة في قبـو مـهجور دون أي تأثير لهبة من الهواء الخارجي عليها. ما عدا هذا الدليل على الخـراب المتأصل لم ينم الهيكل عن أية عـلامة ضعف. ولربما تمكنت عين مـراقب فـاحص من اكـتشاف شق يُـرى بصعوبة بالغة، امتد من الجزء الأمامي لسـقف المبنى شـاقـاً طريقـه عبر الحائط في اتجاه تعرجي حتى اختفى في مياه البحيرة الكئيبة.

بعـد أن لاحظت هذه الأشـيـاء، سرت راكـبـاً في ممر قـصير الى البيت. لقيني خـادم وأخذ فرسي، ثم دخلت قلعة قوطية (١) الأقـواس. قادني مرافق خفيف الوطء بعـدها في سكون عبر العـديد من الممـرات المظلمـة المتـداخلة التي تؤدي الى ستوديو سـيـده. أدى الكثير مما صادفت خلال الطريق، لا أدري كيف، الى تعزيز العواطف الغـامضة التي تحدثت عنها قبل قليل. بالرغم من أن الأشياء التي أحاطت بي ـ مثل نـحـوتات السـقف وزخـارف الحـيطان الهادئة والسـواد الأبنوسي للأرضـيـة والأسلحـة التـذكارية المكتظة التي أصدرت رنيناً أثناء مروري ـ هي أمور كنت معتاداً عليها، أو على أمـثـالها، منذ طفـولتي، ومع أنني لم أتردد في عـد كل هذه أشياء مألوفة، فإنني شـعـرت بالحيرة عندمـا اكـتـشـفت غرابة التخيلات التي تثيرها المشاهد المألوفة. على أحـد السلالم قابلت طبيب العائلة، الذي لاحظت أن تعابير ملامحه تفصح عن مزيج من الدهاء والحيرة. حـيـاني بتـحـية تنم عن الذعر ومـرّ. فتح المرافق أحد الأبواب على مصراعـيه عندها، وقادني الى مكان وجود سيده.

كـانت الغـرفـة التي وجـدت نفسي فـيـهـا واسعة جداً وفاخرة بمبالغة. كانت النوافـذ طويلـة وضـيـقـة ومحـددة، والمسافة بينها وبين الأرضية الدردارية (٢) السوداء كـبيرة لدرجـة تجـعلهـا بعـيـدة المنال من الداخـل. اخترقت خيوط ضعيفة من النور القـرمـزي الألـواح الزجـاجـيـة المغطـاة، فـمكنتني من رؤية الأشـيـاء البارزة حولي

(١) النظام القـوطي هو أحد أنظمة فن العمارة المميزة.
(٢) نوع من الخشب.

بوضوح كاف؛ لكن العين كانت تحاول دون جدوى الوصول الى الأركان الأكثر بعداً في الغرفة أو الى أعماق السقف المقنطر المتآكل. غطت الحيطان ستائر جوخية داكنة. كان الأثاث الرئيس مكتظاً وغير مريح وقديماً جداً وممزقاً. تناثرت الكتب والأدوات الموسيقية في أرجاء الغرفة، لكنها أخفقت في إضفاء شيء من الحيوية على المشهد. شعرت بأنني اتنفس في محيط يملؤه الحزن. هيمن جو من الكآبة العميقة التي لا يمكن التخلص منها، وانتشر في جميع الأرجاء.

عند وصولي نهض أشر من إحدى الكنبات التي كان ممداً عليها بطوله، ورحب بي بحرارة شديدة فيها، كما ظننت في البداية، الكثير من المودة المصطنعة ـ الكثير من ترحيب مفتعل لإنسان يعيش حياة ملل رتيب. لكن مجرد نظرة مني الى وجهه أقنعتني بصدقه التام. جلسنا. وفي اللحظات التي انقضت، والتي لم يتفوه فيها بكلمة، نظرت اليه بشعور حزن مشوب بالهلع. حقاً، لم يتغير إنسان من قبل هذا التغير المخيف في وقت شديد القصر مثل تغير رودريك أشر. بصعوبة بالغة أرغمت نفسي على الاعتراف بأن شخصية هذا الانسان الهزيل الذي يجلس أمامي هي شخصية رفيق طفولتي المبكرة. لكن ملامح وجهه قد كانت في جميع الأوقات خارقة. وجه شاحب وعينان واسعتان لزجتان لامعتان لدرجة لا توصف؛ شفتان رفيعتان نوعاً ما وشاحبتان جداً، لكن تتكوران بجمال مدهش؛ أنف عبري لطيف بالرغم من عرض فتحته، يختلف عن أشباهه؛ ذقن ناعم التكوين، يدلل عدم بروز ملامحه على نقص في الروح المعنوية؛ شعر أكثر نعومة ورقة من نسيج العنكبوت؛ اتساع غير عادي فوق الصدغ. وقد شكلت هذه الملامح جميعها محيا لا يمكن نسيانه بسهولة. أما الآن فقد حدث تغير كبير في تميز هوية الملامح الرئيسة ذاتها وفي التعبير الذي كانت تنم عنه ، لدرجة أنه ساورني الشك في الشخص الذي أخاطب . الامتقاع المخيف الحالي في لون الجلد والبريق الخارق الحالي للعين أفزعاني وأرهباني أكثر من أي شيء آخر. الشعر الحريري أيضاً ترك ينمو دون عناية؛ ولما كان بسبب طبيعته الشائكة الغشائية يتطاير بدل أن يتدلى فوق وجهه ، لم استطع ، حتى بعد محاولة، الربط بين تعبير زخرفه العربي وأية فكرة للإنسانية البسيطة.

وقد لمحت على الفور في سلوك صديقي شيئاً من عدم الاتزان ـ شيئاً من

التناقض؛ واكتشفت بعد قليل أن هذه السمة تنتج عن سلسلة من المحاولات الضعيفة وغير المجدية للتغلب على ارتعاش اعتيادي أو ارتجاج عصبي شديد. لقد كنت مهيأً لرؤية شيء من هذا القبيل ليس فقط من رسالته بل من تذكري بعض مزاياه الطفولية ومن بعض النتائج المستخلصة من دراسة بنيته الجسدية والمزاجية الغريبة. كان فعله ينم عن تقلب بين الغبطة والتجهم. تغير صوته بسرعة من تردد كبير (عندما تكون طاقته الحيوانية في حالة ركود تام) الى نوع من الإفصاح الصاخب ـ ذلك اللفظ المفاجىء المفعم الفارغ؛ ذلك النطق الحلقي الثقيل المتزن المترنم بكمال، الذي يمكن ملاحظته في لحظات الانفعال الحادة عند السكير الثمل أو متعاطي الأفيون الميؤوس منه.

تحدث بهذه الطريقة عندما تكلم عن هدف زيارتي وعن رغبته الصادقة في رؤيتي وعن العزاء الذي توقع أن يجده عندي. دخل بشيء من التفصيل فيما اعتقد أنه طبيعة مرضه. قال إنه شر تكويني وعائلي وإنه فقد الأمل في العثور على دواء ـ لكنه استدرك قائلاً إنه مجرد حالة عصبية ستزول لا ريب عما قريب. ولقد عبرت تلك الحالة عن ذاتها بالعديد من المشاعر غير الطبيعية. بعضها، حسب وصفه لها، أثار اهتمامي وحيرّني ـ مع أنه ربما كان لانتقاء الألفاظ ولطريقة السرد وزنهما. لقد عانى كثيراً من إرهاف مرضي في حواسه. احتمل فقط الطعام الذي لا نكهة له، ولبس ملابس من نوع معين أيضاً. جميع روائح الورود أزعجته، كما أن عينيه أرقهما حتى أكثر الأضواء خفوتاً. والأصوات التي لم تثر الرعب في نفسه كانت من نوع غريب، تصدر عن آلات وترية.

وجدته عبداً مستسلماً لنوع غريب من الخوف. قال لي: «سوف أموت. يجب أن أموت من هذه الحماقة المقيتة. هكذا، ليس غير. سوف أضيع. إنني أخاف أحداث المستقبل، ليس لذاتها بل لعواقبها. إنني أرتجف من التفكير بأي حدث، فحتى أكثر الأحداث سخفاً يمكن أن يزيد من هذا الهيجان الروحي الذي لا يطاق. إنني في الواقع لا أمقت الخطر، إلا فيما يتعلق بنتيجته المطلقة ـ الرعب. في هذه الحالة المثيرة للأعصاب والمحزنة أشعر أنه يتوجب علي بالضرورة أن أترك الحياة والتعقل معاً في صراعاتي ضد أحد شياطين الخوف المميتة».

يضـاف الى ذلك أنني عـرفت على فترات ، ومن خلال بعض التلميحات غير الواقـعـيـة والمبطنة، سـمـة أخـرى فـريدة من سمات حالته العقلية. كان أسير بعض الانطبـاعـات الخـرافـيـة فـيما يتـعلق بالمسكن الذي يقيم فيه والذي لم يخرج منه لعدة سنوات ـ وفـيما يتـعلق بأثر عبرّ عن قـوته المفترض وجـودها بعبارات لا يمكن طرحها هنا بسـبب غـموضها ـ أثر قال إنه قد فرضته على روحه بسبب المعاناة الطويلة بعض الميـزات الغـريبـة في شكل ومـضمون قصر عائلته ذاته، أثر أحدثته في الروح المعنوية لوجـوده الحـالة المادية للحيطان الرمادية والأبراج والبحيرة التي انعكست كلها فيها.

لقـد اعترف، مع ذلك، بشيء من التردد بأن الكثير من الكآبة العـجـيـبة التي أرقـتـه على هذا النحـو يمكن أن يعـزى الى سـبب أكـثر طبيعية وأكثر محسوسية ـ الى العلة الحـادة والمسـتـديمـة، أو في الواقع الى الفناء الظاهري المسـتمر، لأخت محبوبة رقـيـقـة، هي رفـيـقـه الوحـيـد لسنوات عديدة؛ كما أنها قريبته الأخيرة والوحيدة على هذه الأرض. «مـوتها»، قـال لي بمـرارة لا أسـتطيع نسيانها، «سوف يجعل منه (وهو البـائس الضـعيف) آخر فرد من جنس أشر العريق». بينما كان يتكلم، مرت السيدة مـادلين (إذ هكذا كـانت تدعى) ببطء في جـزء بعـيـد من الحـجـرة واختفت دون أن تلحظ وجـودي. نظرت إليـهـا بتـعـجب تام لا يخلو من بعض الرهبـة. قـوامـهـا، هيأتها، مـلامحهـا كلهـا، حـتى في أدق تفصيلاتها، كانت مطابقة (لا أسـتطيع اختيار تعـبير أدق من ذلك) لتلك التي يتـمـتع بها رودريك أشر الذي كـان يجلس أمامي. انتـابني شـعور من الذهول عندما تابعت عيناي خطواتها المتباعدة. عندما أغلق أحد الأبواب في النهـاية بعـد خـروجـها، انتقل بصري غريزياً وبتلهف الى ملامح أخيها ـ لكنه كـان قـد أخفى وجهه بين يديه، واستطعت أن الحظ أن شحوباً غير طبيعي قد غمر الأصابع النحيلة التي سال من بينها الكثير من الدموع الغزيرة.

لقـد حير مـرض السـيدة مادلين عقول أطبائها. فتور مزمن في الشعور، تلاش تدريجي للشـخص، انفـعـالات من نوع الإغماء التـخـشبي قصيرة المدى لكنها تحدث مـراراً ـ هكذا كـانت نتـائج التشـخـيص الغـريب . حتى الآن صمدت بثبات أمام ضـغـوط علتـهـا، ولم تعد طريحة الفراش ؛ لكن بحلول المساء الذي وصلت فيه الى البـيت ، استسلمت ، كما قال لي أخوها ، تلك الليلة برجفان لا يوصف الى القدرة

القاهرة للمرض المحطم ـ وعلمت أن النظرة التي رأيت شخصها من خلالها، ستكون آخر نظرة أحظى بها ، إذ أن السيدة ، على الأقل ما دامت على قيد الحياة، سوف لن ترى من قبلي بعد ذلك.

لعدة أيام بعدها ، لم يذكر اسمها سواء على لسان أشر أم على لساني أنا، وخلال هذه الفترة، كنت منهمكاً بمحاولات جادة للتخفيف من حزن صديقي. رسمنا وقرأنا معاً ـ أو كنت أستمع، كما لو أنني في حلم، الى الألحان الغريبة لقيثارته الشادية. هكذا، وكلما أدخلتني علاقتنا المتزايدة شيئاً فشيئاً ودون تحفظ الى أعماق روحه، كلما لاحظت بمرارة عدم جدوى محاولتي إدخال المسرة الى نفس انبعث منها الظلام، كأنه صفة متأصلة وايجابية، يغمر جميع أجزاء العالم المعنوي والمادي بشعاع كثيف واحد غير منقطع.

سوف أحمل معي دائماً ، مثل المسلمين في ثياب الإحرام في مكة ، ذكرى العديد من الساعات الصامتة التي قضيتها وحيداً مع سيد بيت أشر. لكنني سوف أخفق في أية محاولة لرسم فكرة عن الكنه الدقيق للدراسات أو الأعمال التي اشركني فيها أو قادني اليها. مثالية ثائرة وحادة المزاج نثرت بريقاً كبريتياً فوق كل شيء. سوف تبقى ألحانه الطويلة ترن في أذني للأبد. من بين أشياء أخرى، أحمل في عقلي بألم صورة مشوهة فريدة ومكبرة للحن الرقصة الأخيرة الغريب لفون فيبر (١) . من بين اللوحات التي خيم حولها خياله المعقد، والتي نمت لمسة لمسة الى غموض أرتجف منه بإثارة ، لأنني أرتجف غير عارف لماذا ؛ من هذه اللوحات التي ترتسم صورتها بحيوية الآن أمامي، أحاول دون جدوى استنباط أكثر من مجرد جزء بسيط يمكن أن يقع ضمن نطاق الكلمات المكتوبة . تمكن عن طريق السهولة المطلقة وعن طريق تجريدية رسوماته من أن يجذب النظر ويبهره. إذا كان هنالك بشر قد رسم فكرة فهذا الانسان هو رودريك أشر. بالنسبة لي على الأقل ـ في الظروف التي أحاطت بي حينها ـ برزت من بين التجريدات المطلقة التي سعى ذلك المهووس بالمرض ليضفيها على لوحته، كثافة من الرهبة التي لا تطاق والتي لم أرَ ظلاً لها حتى

(١) موسيقار ألماني (١٧٨٦ ـ ١٨٢٦) .

في أثناء تأملي تخيلات فوسيلي (١) الصاخبة حقاً والمحسوسة جداً.

إحـدى تصـورات صـديقي الوهمية التي لا تنغـمس كثيراً في الروح التجريدية يمكن التـعـبير عنهـا بشيء من الغـموض في كلمات. أظهرت إحدى الصور الصغيرة جـوف قبر أو بهو طويل جـداً ومـسـتطيل، له حيطان منخفضة ناعمة الملمس بيضاء خـاليـة من أية عـوائق أو زخـارف. ساعدت بعض الأجزاء الزائدة في المخطط بشكل جيـد على توصيل فكرة أن المكان المحفور يوجد على عمق كبير تحت سطح الأرض. لم يلاحظ وجـود أي منفـذ في أي جـزء من مـسـاحـتـه الشاسعة ولم يلاحظ وجود أي مـشـعل أو مصدر ضوء صناعي ـ ومع ذلك فإن كمية كبيرة من الأشعة المركزة دارت في أجـزائه وأغرقت المكان جميعه بعظمة مخيفة ومبالغ فيها.

لقـد تحـدثت للتـو عن تلك الحـالة المروعـة للعـصب السـمعي التي جعلت الموسـيـقى كلهـا غير محتـملة لدى هذا الانسـان المعـاني، باستثناء بعض آثار الآلات الوترية. قـد تكون الحـدود الضـيـقـة التي قيد نفسه بها في عزفه على القيثارة هي التي ولدت، الى حـد بعـيـد، السـمـة العـجـيـبـة لمعـزوفـاته. لكن السهولة البالغة لتلك المعـزوفـات المرتجلة لا يمكن تفـسيرها ضـمن هذا السـيـاق. إذ لابد وأنها كـانت في النغـمـة الموسيقيـة المدونـة لتخيلاتـه المذهلـة وفي كلماتهـا (فقد كانت تصاحب عزفه أحـياناً كثيرة أغان كلامية مقفاة) ، نتيجة ذلك التجمع والتركيز العقلي المكثف الذي أشرت إلـيـه آنـفـاً ، والذي كـان يلاحظ فـقط في لحظات محددة من الاثارة الشـديدة المصطنعـة. كلمات إحـدى تلك المقطوعـات الخطابية حملتها بسهولة في ذاكرتي. لربما كنت قـد أعـجـبت بها بشكل قوي، كما سردها، لأنني تخيلت أنني وجدت في التيار التـحـتي أو الصـوفي لمعناها ، ولأول مـرة ، وعياً كاملاً لدى أشر بترنح عقله الرفيع في عـرشـه. الأبيـات التي كـانت مـعنونة «القصر المسكون» كانت تقريباً، إن لم تكن تماماً كما يلي:

---

(١) رسام سويسري (١٧٤١ ـ ١٨٢٥).

ـ ١ ـ

في أكثر ودياننا خضرة،
إذ تسكن الملائكة الطيبة،
كان هنالك قصر جميل عظيم ـ
أبيض كالثلج، شامخ القامة.
في فناء الفكر الجليل ـ
هنالك تربع.
لم يرفرف ساروف (١) بجناحيه
فوق شيء بنصف حسنه.

ـ ٢ ـ

رايات صفراء شامخة ذهبية،
خفقت ترفرف على سطحه؛
(وكان هذا ـ كله ـ في غابر
الزمن القديم)
وكل ريح لطيفة داعبت
في ذلك اليوم الجميل
الأسوار الريشية الشاحبة
أصدرت منها عبيراً

ـ ٣ ـ

رأى المتجولون في هذا الوادي السعيد
من خلال نافذتين مضيئتين
أرواحاً تمشي موسيقياً

(١) ملك له ثلاثة أجنحة يحرس العرش الإلهي .

مع نغمات العود المتقنة.
شوهد حول عرش
(ابن الملوك)
في حالة تناسب المجد تماماً
سلطان الديرة يجلس.

ـ ٤ ـ

كان باب القصر الجميل
مرصعاً بالجواهر والياقوت،
انبعثت من خلاله تطير تطير تطير
تتوهج بلا انقطاع
مجموعة من الأصداء التي كان واجبها الوحيد
أن تغني،
بأصوات جميلة عذبة،
عقل وحكمة ملكها.

ـ ٥ ـ

لكن أشياء شريرة، في ثياب الحزن،
انصبت على ملك العاهل الرفيع
(آه، دعنا نندب لأن الصباح لن
يطلع عليه، فهو مهجور!)
وحول بيته المجد
الذي احمر خجلاً وتفتح
أصبح الآن قصة يذكر القليل منها،
فهي مدفونة في غابر الزمان.

- ٦ -

من يمر الآن في ذاك الوادي
يرى من خلال النوافذ حمراء الضوء
أشكالاً ضخمة تتراقص بخيلاء
مع لحن متنافر؛
في حين، مثل نهر متدفق بزخم
من خلال الباب الشاحب،
يندفع حشد قبيح، ينبعث باستمرار،
يضحك ـ لكن لا يبتسم قط.

أذكر جيداً أن بعض الايحاءات التي أثارتها هذه القصيدة قادتنا الى سلسلة من الأفكار تبلور من خلالها رأي لأشر أذكره هنا ليس لحداثته (حيث أن أناساً آخرين فكروا بالطريقة نفسها)، بل للإلحاح الذي أظهره عند إبدائه. هذا الرأي، بشكله الموجز، يتمثل في قدرة الأشياء النباتية جميعاً على الإحساس. لكن بسبب خياله غير المتزن اتخذت الفكرة طابعاً أكثر جرأة وتعدت تحت ظروف معينة على مملكة اللاترتيب. افتقد الكلمات التي أعبر بها عن الإطار الكامل أو الحماس الصادق لهذا المعتقد. لكن الاعتقاد مرتبط (كما قد ألمحت آنفاً) بالحجارة الرمادية لمسكن أجداده. لقد تخيل أن حالة الإحساسية هنا قد تجسدت في طريقة تنظيم هذه الحجارة ـ في طريقة صفها وفي طريقة تغطية الفطريات لها، وفي الأشجار الخربة التي انتصبت حولها ـ وأهم من ذلك كله في قوة الاحتمال المعمرة وغير المتأثرة لهذا الترتيب وفي صورة انعكاسها في مياه البركة الساكنة. الدليل ـ دليل وجود الإحساسية ـ يمكن مشاهدته كما قال (وهنا جفلت قليلاً عندما تحدث) في التركيز التدريجي والحتمي في نفس الوقت لمحيطها هي المنتشر حول المياه وحول الحيطان. وأضاف قائلاً إن النتيجة يمكن رؤيتها في ذلك الأثر الصامت والملح في ذات الوقت الذي لقرون عدة قولب مصائر عائلته والذي جعله هو على الحال الذي رأيته آنئذ ـ تماماً على ما كان عليه. هذه الآراء لا تحتاج الى تعليق، ولن أعلق عليها.

كُتُبُنا ـ الكتب التي لسنوات شكلت جزءاً ليس بالقليل من الكيان العقلي لهذا الانسان المريض ـ هي ، كما يمكن أن يلاحظ ، في تناسق تام مع هذه السمة الخيالية . انكببنا معاً على كتب مثل فيرفيرت وشارتروز لجريسيت ؛ البلفجور لميكافللي ؛ جغرافيا القمر الطبيعية لبروستر ؛ فردوس وجحيم سويد نبورغ ؛ رحلة في باطن الأرض لنيقولاس كليم هولبيرج ؛ كشف البخت لروبرت فلدّ وجين دي إنداجين ودي لاكامبر؛ رحلة في الفضاء الأزرق لتيك؛ ومدينة الشمس لكامبانيلا. كان أحد المجلدات المحببة نسخة من القطع المثمن من المحقق العام لإيميريك دي جيروني الدومنيكاني . وكانت هنالك مقتطفات من بومبونيس ميلا تتعلق بالساطيرات الأفريقية القديمة والإيجابينات (١) ، جلس أشر لساعات يحلم عليها. أما مبعث سروره الرئيس فكان التفحص الجاد والمتكرر لكتاب قوطي من القطع المربع ، غريب ونادر جداً ـ وهو عبارة عن كتيب حول كنيسة مفقودة : **يقظة الأموات ، حسب فرقة كنيسةماينس .**

لم أستطع إلا أن أتذكر الطقوس الغريبة في هذا العمل وأفكر في أثرها المحتمل على حالة هذا الانسان المصاب بالوسوسة، بعدما أخبرني في إحدى الأمسيات على عجل أن السيدة مادلين قد قضت نحبها، معرباً عن نيته في الحفاظ على جثتها لمدة اسبوعين، تمهيداً لدفنها النهائي في أحد الأقبية داخل أسوار البناية الرئيسة. لكن السبب الدنيوي لهذا الإجراء الفريد من نوعه هو سبب لم أشعر برغبة في مناقشته. توصل الأخ الى قراره (هكذا أخبرني) لاعتبارات تتعلق بغرابة ماهية مرض المتوفاة وباستفسارات معينة ملحة ومبهمة من قبل معالجيها وبسبب الموقع البعيد والمكشوف لمقبرة العائلة. لا أنكر أنني عندما استرجعت في ذاكرتي مظهر الشخص الشرير الذي لقيت على السلم يوم وصولي البيت ، لم أرغب في معارضة ما ظننته في أحسن الأحوال وفي تلك الظروف إجراءً احتياطياً بريئاً وطبيعياً.

بناء على طلب أشر، ساعدته بنفسي في ترتيبات الدفن المؤقت. بعد أن تم تكفين الجسد، حملناه معاً الى مثواه. كان القبو الذي وضعناه فيه (والذي لم يفتح

---

(١) الساطير إله إغريقي له قرنان صغيران ، ورأس وجسد إنسان ، ورجلا ماعز .
الإيجابين رجل ـ ماعز أفريقي .

لفترة زمنية طويلة، حتى أن مشاعلنا التي كادت تنطفىء في جوه الخانق لم تمكننا من تفحصه بشكل جيد) صغيراً رطباً يخلو تماماً من أي منافذ للضوء. وهو يقع، على عمق كبير، مباشرة تحت ذلك الجزء من المبنى الذي تقع فيه غرفة نومي. ويبدو أنه كان يستعمل في الأيام الإقطاعية الغابرة لأسوأ الغايات التي تستخدم من أجلها الزنازن، وفي الأيام التي تلت كمخزن لملح البارود أو أية مواد أخرى سهلة الاحتراق، إذ إن جزءاً من أرضيته والأجزاء الداخلية للممر القوسي الذي أوصلنا إليه كانت كلها مكسوة تماماً بالنحاس. وكان الباب المكون من الحديد الصلب أيضاً مقوى بطريقة مماثلة. وزنه الضخم أحدث صوتاً صريرياً شديد الحدة عندما تحرك فوق مربطيه.

بعد أن أودعنا حملنا المخزن على مسند داخل منطقة الرعب هذه، فتحنا غطاء الكفن، الذي لم يثبت ببراغي بعد، جزئياً ونظرنا الى وجه النزيلة. التطابق التام بين الأخ والأخت حتى في هذا الموقف أخافني وأذهلني مرة أخرى. تفوه أشر، الذي ربما قد خمن ما يدور في خلدي، ببضع كلمات فهمت منها أنه كان هو والفقيدة توأمين، وأن تعاطفاً لا يفهم كنهه كان دائماً يربطهما. لكن لم نطل القاء النظرة على المتوفاة، وذلك لأن رؤيتها قد سببت لنا الخوف. والمرض الذي أودع السيدة القبر في ريعان شبابها ترك ـ كما هي العادة في جميع الأمراض ذات الصبغة الإغمائية التخشبية ـ احمراراً خجلياً خفيفاً ساخراً على الصدر والوجه، كما ترك ابتسامة الشك تلك التي ارتسمت على شفتيها، والتي تكون مرعبة على شفاه الأموات. أعدنا الغطاء الى موضعه وثبتناه ببراغي، وبعد أن أحكمنا إغلاق الباب الحديدي شققنا طريقنا بصعوبة الى غرف الجزء العلوي من البيت التي كانت أقل ظلمة.

والآن ، وبعد مضي عدة أيام من الحزن المرير ، طرأ تغير ملموس على خصائص الحالة العقلية لصديقي . اختفت طريقة مسلكه المعتادة ، كما أن أعماله المعتادة أهملت أو نسيت . تنقل من غرفة الى غرفة بخطوات مسرعة غير منتظمة خلت من أي مغزى . امتقاع محياه اتخذ ـ إن كان ذلك ممكناً ـ لوناً أكثر شحوباً، لكن بريق عينيه قد انطفأ تماماً. قوة نبرة صوته التي ظهرت من وقت لآخر لم تعد تسمع، واتسمت طريقة لفظه أحياناً بتهدج مرتعد كأنه ناتج عن هلع شديد. كانت

هنالك حقاً لحظات جعلتني أفكر أن عقله المرتعش بلا توقف كان يملؤه سر مؤرق، كما بدا وكأنه يحاول تجميع قواه من أجل الإفصاح عنه. وفي بعض الأحيان كنت مضطراً أيضاً أن أعزو كل ذلك الى مجرد تقلبات الجنون الغامضة ، إذ كنت أراه يحملق في الفراغ لساعات طوال في هيئة تركيز عميق، وكأنه يستمع الى صوت خيالي. لا عجب في أن حالته أفزعتني ـ بل لقد انتقلت الي. شعرت بأن التأثيرات الغريبة لتهيؤاته الخارقة والمثيرة للإعجاب في آن واحد تتولد في داخلي ببطء وبتنام أيضاً.

ولقد خبرت القوة الكاملة لمثل هذه المشاعر أكثر ما خبرت عندما أويت للفراش متأخراً في ليلة اليوم السابع أو الثامن بعد تكفين السيدة مادلين. لم يقترب النوم من فراشي ـ وانقضت الساعات ببطء شديد. عملت جاهداً على إبعاد الرهبة التي تملكتني بالمنطق. حاولت إقناع نفسي أن معظم، إن لم يكن كل، ما شعرت به يرجع الى التأثير الكابوسي لأثاث الغرفة ـ للستائر الداكنة البالية التي تطايرت على الحيطان ـ بسبب إحدى العواصف المشتدة ـ بجنون من جهة الى أخرى وضربت بشكل مزعج زخارف السرير. لكن جهودي باءت بالفشل. فقد تملك جسدي ارتجاف تدريجي لا يمكن السيطرة عليه؛ وأخيراً تربع فوق قلبي كابوس لا مبرر له. بعد أن تخلصت من ذلك بمجهود كبير، رفعت نفسي على الوسائد وحملقت بتركيز في ظلام الغرفة الدامس أصغي ـ لا أدري لماذا، سوى أن دافعاً غريزياً حثني ـ الى بعض الأصوات الخافتة وغير المميزة التي أتت لا أدري من أين في أثناء الفترات المتباعدة التي كانت تتوقف فيها العاصفة . بعد أن تغلب عليّ شعور مركز من الرعب، غير مفهوم وغير محتمل، ارتديت ملابسي على عجل، إذ قررت عدم النوم اطلاقاً خلال الليل، وحاولت إنقاذ نفسي من الحالة المزرية التي وصلت إليها عن طريق التمشي بسرعة ذهاباً وإياباً داخل الحجرة.

كنت قد قمت بعدة حركات من هذا القبيل عندما شدت انتباهي خطوة خافتة الوقع على سلم مجاور. عرفت على الفور أنها خطوة أشر. بعد لحظة قرع بابي بلطف ودخل يحمل مصباحاً. كان محياه كالعادة شاحباً كالموت ـ لكن كان هنالك نوع من الصخب الجنوني في عينيه وهستيريا مكبوتة في سلوكه كله. أخافني منظره،

لكنني فضلت أي شيء على الوحدة التي احتملتها طويلاً، ولذلك فقد رأيت في قدومه خلاصي.

« أو لم ترها ؟ » قال على عجل، بعد أن نظر يحدق حوله لهنيهات بصمت - « لم ترها إذن ؟ - لكن انتظر ! سوف تراها ». بعد أن تكلم هكذا وغطى مصباحه بحرص، أسرع نحو إحدى دفات النوافذ الكبيرة وفتحها أمام العاصفة.

كاد الاندفاع الغاضب للهبة التي دخلت أن يرفعنا عن الأرض . لقد كانت حقاً ليلة عاصفة لكنها شديدة الجمال، وهي فريدة بشكل عجيب في رعبها وجمالها. بدا وكأن زوبعة أخذت تتجمع في منطقتنا، حيث كانت هنالك تحولات كثيرة وعنيفة في اتجاه الريح. ولم تمنعنا الكثافة المتزايدة للسحب (التي تدلت بانخفاض شديد، لدرجة أنها لامست أبراج البيت) من ملاحظة السرعة التي كانت تتطاير بها من جميع النقاط حول نفسها دون أن تمر وتختفي في الأفق. أقول إنه حتى كثافتها المتزايدة لم تمنعنا من ملاحظة ذلك - مع أننا لم نلمح القمر أو النجوم - ولم يكن هنالك أي وميض برق. لكن الطبقات السفلى من الكتل الكبيرة للبخار الهائج، وكذلك جميع الأجسام الأرضية المحيطة بنا عن قرب، كانت تشع في الضوء اللاطبيعي لزفير يلمع بشكل خافت ويرى بوضوح، كان يهيمن حول القصر ويغطيه.

« يجب ألا - بل سوف لن ترى هذا ». قلت لأشر مرتجفاً بينما قدته بقليل من العنف من النافذة الى المقعد. «هذه المظاهر التي تحيرك إنما هي مجرد ظواهر كهربائية عادية - وقد تعود في جوهرها المخيف الى ميزم البركة. دعنا نغلق هذه النافذة - فالريح قارسة ومضرة بصحتك. هذه إحدى رواياتك الرومانسية المفضلة. دعني أقرأ، واستمع أنت - وهكذا سنمضي هذه الليلة المخيفة معاً » .

كان المجلد القديم الذي تناولت هو « اللقاء المجنون » للسير لونسيلوت كانتج (١) - وإذ قلت إنه المفضل عند أشر فإن ذلك من باب المزاح الحزين لا من باب الجد، إذ لا يوجد في الحقيقة في استرساله الغريب وغير الخلاق سوى القليل مما يمكن أن يثير مثالية صديقي الرفيعة والروحية. لقد كان الكتاب الوحيد الموجود

(١) ليس كتاباً حقيقياً .

على مقربة، وتولد لدي أمل غامض بأن الإثارة التي أرجفت المريض الموسوس يمكن أن تجد متنفساً (حيث تاريخ الاضطراب العقلي مليء بحالات شاذة مماثلة) حتى في تطرف السخافة التي سوف أقرأ. لو أنني حكمت فقط من خلال الطريقة التي استمع بها، أو بدا وكأنه استمع، باهتمام بالغ جداً لكلمات الحكاية، لهنأت نفسي على نجاح خطتي.

كنت قد وصلت عند ذلك الجزء الشهير من القصة حينما يقوم إذرليد، بطل اللقاء ، بعد أن حاول بلا جدوى الدخول سلمياً الى مسكن الناسك ، بمحاولة الدخول المثير بالقوة. وهنا، كما نعلم، كانت كلمات القصة كالتالي :

« وإذرليد، الذي حبته الطبيعة بقلب باسل والذي عظمت قوته الآن بسبب التأثير الكبير للخمر الذي كان قد شرب، لم يتوقف ليخاطب الناسك العنيد الحقود حقاً، بل أشهر صولجانه، بعد أن شعر بالمطر يتساقط على كتفه وخشي تزايد قوة العاصفة، وبعدة ضربات سريعة في ألواح الباب الخشبية أحدث فتحات وضع فيها يديه القويتين وسحب هنالك بقوة يشقق ويمزق ويحطم الباب كله، حتى أن صوت الخشب الجاف المدوي انطلق بشدة وارتدت أصداؤه في كافة أنحاء الغابة ».

عند نهاية هذه الجملة جفلت، حيث إنه خيل إلي (مع أنني أكدت على الفور أن خيالي المنفعل قد خدعني) ـ خيل إلي أن ما يمكن أن يكون، للشبه المطابق في هويته، صدى الشق والتمزيق (وهذه المرة كان مخنوقاً وخافتاً) الذي وصفه السير لونسيلوت بدقة قد وصل الى أذني بشكل غير واضح من مكان بعيد جداً من القصر أو المنطقة المحيطة به. كانت بلا أدنى شك المصادفة وحدها هي التي شدت انتباهي، إذ إنه في خضم تراقص أطر ألواح النافذة وأصوات العاصفة العادية المتداخلة التي ما زالت تشتد، لم يكن في الصوت ذاته الذي سمعت، بالتأكيد، ما يثير اهتمامي أو يزعجني. تابعت القصة.

« لكن البطل الطيب إذرليد الذي دخل الآن قد غضب كثيراً وتعجب عندما لم ير أثراً للناسك الحقود، إذ بدلاً منه وجد هنالك تنيناً محرشفاً هائل الجثة، لسانه من نار، جلس يحرس قصراً من الذهب كانت أرضيته مكسوة بالفضة. كان معلقاً على الباب ترس نحاسي محفور عليه هذه الأسطورة :

من يدخل الى هنا فإنه منتصر،

ومن يقتل التنين فبالترس يفوز.

رفع إذرليد صولجانه وضرب التنين على رأسه؛ فسقط أمامه، ولفظ آخر أنفاسه البغيضة بصرخة كانت من البشاعة والإزعاج والنفاذ بحيث كان على إذرليد سدّ أذنيه بيديه في وجه صوتها المخيف، الذي لم يسمع من قبل ».

هنا أيضاً توقفت فجأة، والآن بشعور من حيرة غريبة ـ إذ لم يعد لدي أدنى شك أنني في تلك اللحظات سمعت بالفعل (مع أنني وجدت من المستحيل تحديد الجهة التي جاء منها) صوت خشخشة أو صراخ خافت وبعيد على ما يبدو، لكنه مزعج ومطال وغريب جداً ـ وهو على النقيض تماماً من صوت صراخ التنين اللاطبيعي، كما وصفه كاتب المغامرات وكما تخيله عقلي.

ومع أنه قد أرقتني بالفعل عند حدوث هذه المصادفة الثانية الغريبة آلاف العواطف المتباينة التي طغى عليها طابع الاستغراب والرعب الشديد، إلا أنني حافظت على حضور ذهني كافياً لتجنب إثارة الحالة العصبية الحساسة لرفيقي، وذلك بعدم إبداء أية ملاحظات. لم أكن متأكداً قط من أنه قد سمع الأصوات المذكورة، مع أنني متأكد من أن تحولاً غريباً قد طرأ على حاله خلال الدقائق القليلة الأخيرة. من مكان مقابل لمكاني تماماً تمكن من إزاحة كرسيه تدريجياً حتى أصبح يجلس ووجهه شطر باب الحجرة؛ وهكذا فإنني لم استطع رؤية ملامحه سوى جزئياً، مع أنني لاحظت أن شفتيه كانتا ترتعدان وكأنه يتمتم بصمت. كان رأسه قد سقط فوق صدره ـ ومع ذلك فقد عرفت، من اتساع وجمود فتحة عينه التي رمقتها من الجانب، أنه لم يكن نائماً. كذلك لم تتطابق حركة جسمه مع ما كان يجول بخاطره من أفكار ـ حيث أنه اهتز من جانب لجانب بترنح هادىء مستمر متسق. بعد ملاحظتي كل ذلك، تابعت رواية السير لونسلوت التي استمرت كالآتي :

« والآن وبعد أن تمكن البطل من النجاة من غضب التنين وفكر بالترس النحاسي وبإبطال مفعول التعويذة السحرية المضروبة حوله، أزاح الجثة من أمامه وتقدم بشجاعة فوق الرصيف الفضي للقلعة حيث كان الترس معلقاً على الحائط،

والذي لم يبق في الواقع معلقاً حتى يصله بل سقط أمام قدميه فوق الأرضية الفضية بطنين ضخم هائل مخيف ».

لم تكد تنطق شفتاي هذه المقاطع حتى ـ وكأن ترساً من النحاس قد سقط بشدة بالفعل في تلك اللحظة على أرضية فضية ـ سمعت صدى معدنياً واضحاً مدوياً صاخباً، لكنه بدا مكتوماً. نهضت لا شعورياً على قدمي فاقداً أعصابي تماماً؛ لكن أشر الذي كان يهتز بحركة متناسقة لم يتأثر بشيء. هرعت نحو الكرسي الذي كان يجلس عليه. كانت عيناه تنظران بتركيز أمامه، وكان محياه كله ينم عن قساوة أكثر من قساوة الحجارة. لكن عندما وضعت يدي على كتفه، اهتز بدنه بقوة، وارتسمت ابتسامة صفراء على شفتيه؛ ولاحظت أنه كان يتكلم بتمتمة خافتة سريعة غير مفهومة، وكأنه لا يحس بوجودي. بعد أن انحنيت مقترباً منه، فهمت أخيراً مغزى كلماته المقيتة.

« ألا أسمعها ؟ ـ بلى، أنا اسمعها، كما أنني قد سمعتها. طويلاً ـ طويلاً ـ طويلاً ـ لعدة ساعات، لعدة أيام، سمعتها ـ ومع ذلك لم أجرؤ ـ آه، أشفق علي. أنا الإنسان البائس التعس. لم أجرؤ أن أتكلم. لقد وضعناها حية في القبر. ألم أقل إن حواسي حادة ؟ ـ أقول لك الآن إنني سمعت أولى حركاتها الضعيفة في الكفن الفارغ. لقد سمعتها ـ لأيام عديدة خلت ـ ومع ذلك لم أجرؤ أن أتكلم. والآن ـ الليلة إذرليد ـ ها ها ـ تحطم باب الناسك، وصرخة موت التنين، وطنين الترس ـ قل بدلاً من ذلك انفتاح الكفن، صرير الزوايا الحديدية، وصراعاتها داخل الممر النحاسي للقبو. آه، أين المفر ؟ ألن تكون هنا عما قريب ؟ أليست هي قادمة الآن لتوبخني على تسرعي ؟ ألم أسمع خطواتها على السلم ؟ ألا أميز دقات قلبها الثقيلة المخيفة ؟ مجنون !» ـ وهنا نهض بقوة عنيفة على قدميه وصرخ مقاطع كلماته، كأنه كان يلفظ أنفاسه الأخيرة في أثناء ذلك ـ « مجنون! أقول لك إنها تقف الآن خارج الباب ».

وكأن القدرة الخارقة التي لفظ بها عباراته تنم عن وجود لعنة سحرية ـ دفعت الواح الأبواب الكبيرة العتيقة التي أشار اليها المتحدث ببطء على الفور فكيها العاجيين الثقيلين. كان ذلك فعل الهبة المندفعة ـ لكن طيف السيدة مادلين أشر

الطويل الملفوف كان يقف هنالك خلف تلك الأبواب بالفعل. كانت ثيابها البيضاء ملطخة بالدم، وبدت آثار صراع مرير على كل جزء من بدنها الهزيل. لهنيهة، وقفت ترتجف وتترنح للأمام وللخلف فوق العتبة ـ بعد ذلك، وبصرخة أنينية خافتة انقضّت بتثاقل نحو الأمام على شخص أخيها ، وفي سكرات موتها الأخير المخيف طرحته أرضاً جثة هامدة، فسقط ضحية الرعب الذي كان يخشى.

هرعت مذعوراً من الحجرة ومن القصر. كانت العاصفة في الخارج ما زالت تقصف بكل غضبها عندما وجدت نفسي أدخل الممر القديم. فجأة انطلق عبر الممر ضوء غريب؛ نظرت خلفي لأرى من أين أتى هذا الوميض غير الطبيعي ـ إذ لم يكن خلفي غير البيت الكبير وظلاله. كان الإشعاع يصدر من القمر المدور الذي كان على وشك الغروب والذي كان لونه أحمر كلون الدم؛ وقد أطل من خلال الشق الذي لم يكن مرئياً بوضوح قبل الآن ـ ذلك الشق الذي تحدثت عنه سابقاً والذي أمتد من سقف البناية حتى قاعدتها بشكل متعرج. بينما كنت أرقب، اتسع الشق بسرعة ـ جاءت هبة زوبعية قوية ـ برز القمر كله الآن أمام عيني مرة واحدة ـ أصيب رأسي بدوار عندما رأيت الحيطان المنيعة تنهار ـ كان هنالك صوت فوضوي صارخ كأنه صوت آلاف أنهار المياه ـ ببطء وبصمت ابتلعت البحيرة العميقة الرطبة القريبة من قدمي بقايا « بيت أشر ».

١٨٣٩

رالـف وولـدو إمـرســن
(١٨٠٣ ـ ١٨٨٢)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

علم من أعـلام الفكر الامـريكي والأدب والفلسفـة. ذاع صيـته في عصره كخطيب مفـوّه ومحاضر آخّـاذ ورجل مـواقف . وهو مـصلح ديني واجـتماعي ، ركـز على ضرورة اسـتـقـلال الفرد وتحـريره من القـيـود التي تحد من إبداعه. كما نادى بتحرر امريكا الفكري والأدبي والثقافي وتخلصها من التبـعـيـة لاوروبا وغيرها . وهو قطب من أقطاب الحـركـة الرومـانسـيـة وقائد عظيم من قادة المدرسـة المتـسـامية، هضم فكر وأدب وفلسفة العديد من بلدان العالم وقدّمها من خلال كتاباته الى أجـيـال مـتـعاقبة رأت في إمرسن قائداً يحتذى وأباً روحياً يجدر الاقتداء به. وأهميته في ازدياد اليوم، وبخـاصـة في ضـوء التطورات الجـريئة في النقد الحديث والتي تجد في العديد من مفاهيم إمرسن ما يتلاءم مع مبادئها .

حـيـاتـه :

ولد في الخـامس والعشرين من أيار عـام ١٨٠٣ في مـدينة بوسطن. وهو ينحـدر من عـائلة اشـتـغل معظم أسلافها في الدين، وقد كان أبوه قساً توحيدياً . توفي والده عـام ١٨١١ ، فتكفلت أمـه بإعـالة الأسـرة والتي عـانـت لفـتـرة لا بأس بها من الفـقر المدقـع . درس في جامعـة هارفرد وتخـرج منهـا عـام ١٨٢١ . اشتغـل بعد ذلك في التدريس ولم يهـوَ تلك المهنـة . درس اللاهـوت في هارفـرد لمدة سنة عـام ١٨٢٥ وعـمل بعـد تخرجـه قساً في كنيسة بوسطن التوحيدية الثانية. ومع أن إمـرسن أحب مـهنتـه هذه حبـاً كبيراً ، ومع أنه أبدع فيها أيّـما إبداع وأحبه كل من كان يستمع

اليه واعجب به ، إلا أنه اختلف مع القائمين على الكنيسة حول أمور شكلية رفض إمرسن الاعتراف بشأنها ، فاستقال من منصبه احتراماً لمبادئه وحرصاً عليها عام ١٨٣٢ . كان قد تزوج عام ١٨٢٩ الا أن زوجته توفيت بمرض السل عام ١٨٣١ . وقد ترك ذلك جرحاً في نفس إمرسن ظل يلازمه طوال حياته .

سافر عام ١٨٣٢ الى اوروبا ، فزار فرنسا وايطاليا وانجلترا واجتمع بويردزوورث وكولردج وكارلايل . وقد نشأت بينه وبين كارلايل (وهو كاتب وفيلسوف ينتمي الى الحركة المثالية العملية) صداقة استمرت مدى الحياة .

عاد إمرسن من رحلته عام ١٨٣٤ لينتقل الى بلدة كنكورد ويبدأ حياته كمحاضر. وقد كسب عيشه عن طريق المحاضرات التي كان يلقيها في أنحاء مختلفة من أمريكا وعن طريق مقالاته. وقد كان من ألمع المتحدثين والمحاضرين وقد دعاه الكثيرون لإلقاء الخطب والدروس. وقد أصبح إمرسن المتحدث الأول باسم الحركة المتسامية والتي قدّمها بدلاً من الديانة التوحيدية التي ركز على أن الزمن قد أكل على تعاليمها وشرب .

تزوج عام ١٨٣٥ من ليديا جاكسن ، ونشر أول كتاب له ويحمل عنوان **الطبيعة** عام ١٨٣٦ ؛ ويعد هذا الكتاب عصارة الفكر الرومانسي حسبما يراه إمرسن. ألقى في عام ١٨٣٧ خطابه المهم « العالم الأمريكي » والذي نادى فيه بضرورة استقلال أمريكا فكرياً وحضارياً. أما آراؤه في الدفاع عن الحركة المتسامية وفي الهجوم على الفكر التوحيدي فقد ضمنها في خطاب ألقاه في طلبة اللاهوت في جامعة هارفرد عام ١٨٣٨ . ولقد لقي الخطاب اعجاباً كبيراً من الطلبة الذين اتبعه منهم عدد كبير بعدها.

نشر في عام ١٨٤١ كتاباً بعنوان **مقالات** ، نقل آراء مؤلفه في موضوعات شتى تدور حول إصلاح الفرد والمجتمع . قام بتحرير مجلة الديل Dial عام ١٨٤٢ لمدة سنتين، وهي مجلة تنطق باسم الحركة المتسامية. كتب العديد من الاشعار المهمة عام ١٨٤٧ ، والتي أثرت على العديد من الشعراء فيما بعد سيما وأنها كانت غير تقليدية . سافر الى بريطانيا وباريس في نفس العام . وبعد عام ١٨٥٠ اهتم بأمور السياسة والحياة العامة وتحرير الزنوج . وقد ألف العديد من الكتب المهمة في نهاية حياته. حرق بيته عام ١٨٧٢ . سافر الى اوروبا والشرق الادنى في نفس العام. توفي في كنكورد عام ١٨٨٣ .

اهميته :

تنبع أهمية إمرسن من مواقفه الشخصية ومن كتاباته، فلقد كان صادقاً فيما يقول ويفعل .

ولقد قرأ الكثير وتأثر بالكثير. فقد ألمَّ بالفلسفات الهندية والصينية واليونانية والألمانية والانجليزية وغيرها. ولقد اطلع على القرآن وعلى الديانة الاسلامية، وقرأ **الف ليلة وليلة** وتأثر بها. ولقد أعجب إمرسن بالديانة الاسلامية والأدب العربي، وأفاد من الكثير من الأقوال المأثورة في أعماله. ولقد كان إمرسن مثالياً فيما يقول ويكتب وعملياً في ذات الوقت. كتب الكثير. فقد كتب الخطب الدينية في بداية حياته، ثم المقالات والمحاضرات والخطب العامة . وكتب الشعر والكتب النثرية والدراسات الاجتماعية، وله مفكرة في مجلدات عدة.

لقد أثر على فكر العديد من الأدباء والشعراء، نذكر منهم ثورو وويتمن ودكنسن وستيفنز وغيرهم . وهو يعد الأب الحقيقي للشعر المحدث والنقد الحديث. وهو شاعر في نثره مثلما هو شاعر في شعره. وهو مصلح اجتماعي، وفلسفته غاية في التفاؤل على الرغم من الأحداث المؤلمة في حياته مثل وفاة زوجته وابنه وأخويه. لقد كان بحق رجل الكلمة الصادقة الشجاعة، ومثالاً يضرب في استقلال الذات. أهم أعمال إمرسن هي مقالاته التي أشرنا الى بعضها. أما شعره فيأتي في الأهمية بعدها. معظم أفكاره تدور حول رفضه التيار المادي الرأسمالي السائد والحركة التوحيدية التي تكبل الفكر وتحد من الخيال. ركز إمرسن على البساطة في العيش وعلى سبر غور العقل والروح، والاقتراب ما أمكن من صفاء الطبيعة ونقائها.

الاعتماد على النفس (*)

[هذا مقال من أشهر مقالاته، يركز فيه على ضرورة تثقيف النفس أولاً ثم استقلالها عن المحيط التي تعيش فيه كخطوة أساسية في الاصلاح. ينادي إمرسن أولاً باصلاح الذات ومن ثم الانطلاق الى اصلاح المجتمع. والفرد المثقف على حق حتى لو خالفه بقية الخلق، وعليه أن يصر على موقفه دائماً والا يخضع للضغوط التي سوف يمارسها المجتمع عليه لا محالة. فالناس لا يحبون إلا من يجاملهم. والمجاملة ليست من صفات الذات المستقلة. وعلى الرغم من تشدد إمرسن في آرائه هنا ومن تطرفه، إلا أن هنالك حقائق مهمة وصائبة فيما يقول. ويلاحظ التأثر الواضح لإمرسن بآراء الخليفة علي رضى الله عنه] .

المحرر

« لا تجشم نفسك مشقة البحث فيما وراءها »
الإنسان نجم نفسه؛
والروح التي تستطيع أن تخلق إنساناً أميناً كاملاً
تسيطر على كل ضوء، وكل أثر، وكل مصير؛
ليس هناك لهذا الانسان ما يقع مبكراً أو متأخراً.
إنما فعالنا ملائكتنا، طيبة أو خبيثة،
وهي ظلالنا المحتومة التي تسير الى جوارنا أبداً

(مقدمة « نصيب الإنسان الأمين » لبومنت وفلتشر)

* * *

(*) أخذ من **مختارات من مقالات إمرسن** ، تعريب محمود محمود (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٥).

ألقِ الطفل الرضيع فوق الصخور،
وأرضعه من ثدي أنثى الذئب؛
ودعه يقضي الشتاء مع الصقر والثعلب،
تدب القوة في يديه والسرعة في قدميه.

قرأت ذات يوم قريب بعض أبيات من الشعر كتبها مصور مشهور فوجدتها أصيلة لا أثر للتقليد فيها. والروح دائماً تستمع الى العبرة والموعظة في مثل هذه الأبيات مهما يكن موضوعها. والعاطفة التي تمليها أعظم قيمة من أية فكرة قد تحتويها. إن العبقرية هي أن تعتقد في رأيك، وأن تعتقد أن ما هو صادق في قلبك الخاص صادق لجميع الناس. انطق بعقيدتك الخفية تكن هذه العقيدة قولاً معقولاً للعالم أجمع، لأن الباطن يصبح ظاهراً حينما يحين الحين، يوم ينفخ في الصور يذكر كل امرىء ما قدمت يداه. أن أكبر فضل نعزوه الى موسى وأفلاطون وملتن، هو أنهم أهملوا الكبت والتقاليد كل الإهمال، ونطقوا بما دار في خلدهم لا بما دار في خلد الناس كل وفق ما أملاه عليه عقله. يجب على المرء أن يتعلم أن يلاحظ ويرقب ذلك الشعاع من الضوء الذي يومض في ذهنه من الداخل، أكثر مما يرقب بريق السماء التي يحلق فيها الشعراء والحكماء. ولكن المرء مع ذلك ينبذ رأيه عن غير علم، لأنه رأيه الخاص. وإنا لنتبين في كل عمل من أعمال العبقرية آراءنا المنبوذة وتعود الينا هذه الآراء في نوع من الجلال غريب عنا. إن الأعمال الفنية العظمى تلقي علينا درساً له أثره في نفوسنا، وذلك الدرس هو أننا نتعلم كيف نتمسك بانطباعنا التلقائي في صلابة مشوبة بروح طيبة، وبخاصة عندما تكون جميع الأصوات في غير جانبنا، وإلا فسوف نجد أن شخصاً غريباً سيقول في الغد في حكمة نافذة نفس ما فكرنا فيه وأحسسناه دائماً؛ ونرغم على أن نتقبل في خجل رأينا الخاص صادراً إلينا من غيرنا.

وتمر فترة في تعليم كل فرد يصل فيها الى الاعتقاد بأن الحسد جهل، والتقليد انتحار، وأنه يجب عليه أن يأخذ نفسه على أنها نصيبه، خيراً كان أو شراً، وأن الدنيا الواسعة قد تكون مليئة بالخير، إلا أن الحبة الواحدة من الحنطة المغذية لا تأتيه

إلا عن طريق عـمله الذي يهبه قطعة الأرض التي أعطيت له ليفلحها. إن القوة التي تسكن بين جنبيـه جـديدة في الطبـيعة، ولا يعرف أحد سواه ماذا بوسعه أن يعمل، ولا يعـرف هو نفسـه إلا بعـد التـجـربة. وليس عـبثاً أن يكون لوجه من الوجوه أو لشـخـصية أو لحقيقة ما، أثر كبير في نفسه، في حين أن غيرها لا يكون له مثل هذا الأثر. وليس هذا النحت في الذاكـرة بغير اسـتعداد ثابت سابق. فلقد وضعت العين بحـيث يقع عليـهـا الشـعاع من الضوء فتستطيع أن تختبر هذا الشعاع المعين. إننا لا نعبر عن أنفـسنا إلا نصف تعـبير، ونخـجل من تلك الفكرة المقدسة التي يمثلها كل مـنا. ويجب علينا أن نثق آمنين أن هذه الفكرة منسـقـة تبشر بأطيب النتـائج، ولكن الله لا يُظهـر عـمله عن طريق الجـبناء. يشعر المرء بالفرج والسرور عندما يضع قلبه في عـمله ويبـذل قصارى جهده. وما يقوله أو يفعله بغير ذلك لا يريح نفسه. فهذا عـمل لا ينقذ صاحبه. وهو في محاولته إياه يفتقد قوى عقله، لا يصادقه الفكر، ولا يخالفه ابتكار أو أمل.

ثـق بـنـفسـك : كل قلب ينبض بهذا الرباط الحـديدي. وارض بالمكانة التي أوجـدتها لك العناية الالهيـة، وبمجتمع معاصريك، وبارتباط الحوادث. هذا ما فعله عظماء الرجـال دائماً، فـقـد أسلمـوا أنفسـهم كالأطفال الى عبقرية عصرهم، فأوهموا مـداركـهم بأن الشيء الذي يوثق فـيه كل الثـقة مستقر في قلوبهم، يعمل عن طريق أيديهم ويسـود كـيـانهم كله. ونحن اليـوم رجال، ويجب أن نقبل لعقولنا الكبيرة هذا الحكم الإلهي نفسـه الذي يفوق الإدراك. لسنا صغاراً مرضى في زاوية محمية، ولسنا جـبناء نفـر من الثـورة. وإنما نحن مـرشدون ومـخـلصون ونافعون، نخضع لما يبذله العلي العظيم، ونتـقدم فوق الفوضى وفوق الظلام.

أي دليل قـوي ذلك الذي تقـدمـه لنا الطبيـعـة تعـزيزاً لهذا الرأي، في وجـه الأطـفـال والـرضّع - بـل والـوحـوش - وسـلوكـهم ! هؤلاء لا يملكون ذلك العـقل المنقـسم العـصـيّ ، ذلك الإنكار للعاطفة، لأن حسابنا قد قدَّر القوة والوسائل التي تعترض أغـراضنا. ولما كـان عـقلهم كُـلاً ، فإن عينهم لم تُقهر بعد ، وعندما نتطلع الى وجـوههم تتبلبل خـواطرنا. الطفـولة لا تخضع لأحد، بل الكل يخضع لها، ولذا فـالرضـيع الواحد يساوي أربعة أو خمسة من الراشدين الذين يرغون ويلعبون معه،

وبدرجة لا تقل عن ذلك سلح الله الشباب والمراهقة والرجولة بحدتها وفتنتها، وجعلها محسودة جليلة، لا تهمل مطالبها اذا وقفت وحدها. لا تحسب أن الشباب لا قوة له ، لأنه لا يستطيع أن يتحدث إليك أو يتحدث إليّ . انصتوا ! إن صوته في الغرفة المجاورة واضح مؤكد بدرجة كافية. يبدو أنه يعرف كيف يتحدث الى معاصريه. فإن كان خجولاً أو مقداماً إذن فلسوف يعرف كيف يستغني عنا نحن الذين نكبره.

إن استهتار الصبية الواثقين من غدائهم ، والذين يزدرون ـ كما يزدري السادة ـ أن يعملوا أو يقولوا شيئاً يسترضون به أحداً ، هو الموقف الصحيح للطبيعة البشرية . الصبي في غرفة الاستقبال كالمتفرج في ساحة المسرح : مستقل غير مسئول، ينظر من زاويته الى الاشخاص والوقائع الذين يمرون به ، فيفحصهم ويحكم عليهم بما يستحقون بطريقة الأطفال السريعة الموجزة ، فهم طيبون أو خبيثون، أو شائقون أو مملون، أو فصحاء، أو متعبون، ولا يعرقل نفسه البتة بالنتائج أو المنافع، وإنما يصدر حكماً مستقلاً صادقاً. ويجب عليك أن تتملقه، فهو لا يتملقك ولكن كأن وعي الانسان قد أودع هذا الانسان سجناً. فبمجرد ما يعمل أو يتكلم بشكل يبهر الأبصار ، يمسي شخصاً مسئولاً ، ترقبه المئات بعطفها أو مقتها، المئات التي يقيم الآن لمحبتهم وزناً. وليس له عن ذلك معدي. آه لو استطاع أن يرتد ثانية الى حيدته ! ومن ثم فإن من يستطيع أن يتحاشى كل ارتباط، ويلاحظ مرة أخرى ـ بعدما لاحظ أولاً ـ بنفس السذاجة التي لم تتأثر ولم تنحز ولم ترتش ولم تخش شيئاً، مثل ذلك الرجل لابد أن يكون جليلاً دائماً. إنه ينطق بآرائه في كل ما يمر به من أمور. ولما كانت هذه الآراء لا تُرى كأنها خاصة، وإنما ضرورية، فإنها تهبط كالسهام في آذان الناس، وتشيع الذعر في نفوسهم.

تلك هي الأصوات التي نصغي اليها في عزلتنا، ولكنها تنخفض ولا تسمع عندما ندخل العالم. فالمجتمع في كل مكان يتآمر ضد رجولة كل فرد من أعضائه. المجتمع شركة مساهمة يتفق أعضاؤها ـ لحسن ضمان الخبز لحامل السهم ـ على أن يتنازل الآكل عن حريته وثقافته. والفضيلة في أكثر الأمور هي الانسجام مع الآخرين ولكن الاعتماد على النفس على نقيض ذلك ، وهي لا تحب الحقائق

والرجـال المبدعين، ولكنها تحب الأسماء والعادات.

ومـن أراد أن يكون رجـلاً ينبـغي أن ينشق على السـائد المألوف. ومن يحب أن يجمع ثمـر النخـيل الخـالد ينبـغي ألا يعوقه ما يسميه الناس خيراً. بل يجب عليه أن يكتـشف إن كان ذلك خيراً حقاً. لاشيء في النهاية مقدس سوى نزاهة عقلك، حرر نفـسك لنفـسك يؤيدك العـالم. اذكـر إجابة دُفعتُ وأنا صغير جداً الى أن أجيب بها على ناصح له قـيـمـته اعتاد أن يلحف عليّ بمبادىء الكنيسة القديمة العزيزة. عندما كنت أقـول : مـالي ولقـداسة التقليد إذا كنت أعيش كل حياتي من الداخل ؟ اقترح صـاحـبي قائلاً «ولكن هذه الدوافع قد تكون سفلية لا علوية» فأجبت بقولي «إنها لا تبـدو لي كذلك، ولكني إن كنت ابن الشيطان، فسوف أعيش إذن عيشة الشيطان». ليس عندي قـانون مـقدس سوى قانون طبيعتي. الخير والشر إسمان يمكن في سهولة شـديدة أن ينتـقـلا الى هذا أو ذاك. والشيء الوحـيـد الصحيح هو ما يتبع تكويني، والشيء الوحـيـد الخطأ هو مـا يقـاومـه. وعلى المرء أن يثبـت أمام كل معارضة، كأن كـل شيء إسـمي زائل مـا عـداه . وانّـي ليـخـجلني أن أرى كـيـف يسـهل علينا أن نسـتـسلم للشـارات والأسماء وللمـجـتـمـعـات الكبيرة والنظم البائدة. كل فرد دمث الأخـلاق، حلو الحـديث، يؤثر في نفسي ويستميلني أكثر مما ينبغي. يجب أن أسير مـعـتـدلاً حـيـاً، وأن أنطلق بالحق الصراح بكل وسـيلة. واذا ارتدى الحـقـد والغرور ثيـاب حب البشر، فهل يجوز علينا ذلك ؟ وإذا تحمس متعصب غاضب لأية قضية، فلماذا لا أقـول له «اذهب، كن ذا طبـيـعـة طيـبـة ومـتواضعاً. كن فاضلاً، ولا تلون مطامـعك الجـامـدة الجـافـية بهذا العطف الكاذب». هذه التحية خشنة لا رقة فيها، ولكن الحق أجمل من التظاهر بالحب. يجب أن يكون للخير عندك حـافـز ـ وإلا فهو لا شيء ـ يجب أن نبشر بمـبدأ كراهية الفاسد الزائف، نقابل به مبدأ الحب اذا نضب مـعـينه وفترت حـرارته. وإني لأتحـاشى أبي وأمي وزوجـتي وأخي اذا دعاني عقلي الى ذلك. وإني لأكـتب على عـتـبـة الدار «هذا هواي». وآمل أن يكون شيئاً أحسن من الهـوى في النهـاية، ولكنا لا نسـتطيع أن نقضي اليـوم في الشرح. ولا تنتظروا مني أن أبين السـبب لماذا أبحث عن الرفـاق أو لماذا أسـتبعدهم. وكذلك لا تذكروا لي ـ كما ذكـر اليـوم لي رجل طيب واجبي في رفع مـستوى الفقـراء . هل هم فقرائي ؟ وإني

لأقول ذلك يا أيها الرجل الغافل الذي يحب البشر، إني أحقد على الريال وعشر الريال، والسنت الذي أعطيه الى قوم لا يتعلقون بي ولا أتعلق بهم. هناك طائفة من الناس أُباع لهم وأشترى لما بيني وبينهم من قرابة روحية؛ من أجلهم أذهب الى السجن إن دعا الداعي. ولكن صدقاتكم المتنوعة العامة، وتعليم الأغبياء في الكليات، وبناء النوادي لغرض التظاهر الذي يتمسك به الآن الكثير، والاحسان للسكارى، وجمعيات الإعانة التي تعد بالألوف ـ هذه الجمعيات أعترف في خجل أني أحياناً أضعف وأهبها الدولار ، إلا أنه دولار أثيم سوف تكون عندي الرجولة قريباً فأمنعه.

الفضائل في تقدير الشعب هي الاستثناء وليست القاعدة. هناك الرجل وهناك فضائله. يعمل الناس ما يسمى بالفعل الطيب، كعمل فيه شجاعة أو إحسان، كما يدفعون الغرامة يكفرون بها عن عدم ظهورهم يومياً في الصفوف. يقومون بأعمالهم بالاعتذار أو للتخفيف عن حياتهم في الدنيا ـ كما يدفع العجزة والمجانين أجراً عالياً لإبرائهم. ففضائلهم كفارة. ولست أريد أن أكفّر، ولكني أريد أن أعيش. حياتي لذاتها وليست للتظاهر. وإني لأوثر جداً أن تكون من مستوى منخفض، لكي تكون صادقة ثابتة، على أن تكون مضيئة ولكنها غير ثابتة. أريدها أن تكون صحيحة حلوة، ليست بحاجة الى غذاء وإراقة دماء. إني أطلب دليلاً مبدئياً على أنك رجل، وأرفض أن يجيبني هذا الرجل الى مطالبي بفعاله. وأعرف عن نفسي أنه لا فارق عندي إن كنت أؤدي أو أمتنع عن تلك الأفعال التي تعد ممتازة. لا أستطيع أن أوافق على أن أدفع ثمناً لامتياز ما حيث يكون لي حق ذاتي. وقد تكون مواهبي قليلة ووضيعة، ولكني أنا نفسي فعلاً، ولست بحاجة الى شهادة ثانوية لأن أثبت ذلك لنفسي أو أن أثبته لرفاقي.

كل ما يهمني : هو ما ينبغي لي أن أعمله، لا ما يفكر فيه الناس. وهذه القاعدة صارمة سواء في الحياة الواقعة أو الحياة العقلية، ولذا فهي تصلح لأن تكون تمييزاً كاملاً بين العظمة والوضاعة. ويزيد هذه القاعدة عسراً أنك تلقى دائماً أولئك الذين يظنون أنهم يعرفون واجبك خيراً مما تعرفه أنت. ومن الميسور أن تعيش في الدنيا وفقاً لآرائها. ومن الميسور في العزلة أن نحيا وفقاً لآرائنا. بيد أن الرجل

العظيم هو ذلك الذي يحتفظ وسط الجماهير باستقلال العزلة في سهولة تامة.

والاعتراض على اتباع العادات التي أصبحت ميتة بالنسبة إليك هو أن ذلك يشتت قواك، ويفقرك وقتك، ويمحو أثر شخصيتك. إذا أنت حافظت على كنيسة ميتة، وأسهمت في جمعية إنجيلية ميتة، وأعطيت صوتك مع حزب كبير إما مع الحكومة أو ضدها، وأعددت مائدتك كما يفعل أصحاب البيوت السفلة ـ فإني تحت هذه الستائر أجد مشقة في أن أكشف عن حقيقتك تماماً كانسان . وتُحرم حياتك الصحيحة ـ بطبيعة الحال ـ من قوة كبرى. ولكنك إن أديت عملك عرفتك وعززت نفسك. ينبغي لك أن تدرك أنك كالأعمى حينما تلعب دور التبعية لغيرك. اذا عرفتُ طائفتك توقعت جدلك. وإني لأستمع الى الواعظ يعلن أن مادته وموضوعه هما من مستلزمات نظام من النظم الخاصة بكنيسته. أفلا أعرف مقدماً أنه لا يستطيع أن يقول كلمة جديدة من تلقاء نفسه ؟ أفلا أعرف أنه لا يفعل ذلك، برغم كل ذلك التظاهر بفحص أسس هذا النظام ؟ وألا أعرف أنه عاهد نفسه ألا ينظر إلا الى جانب واحد ـ وهو الجانب المسموح به ، لا كرجل ولكن كقسيس الدائرة الدينية؟ إنما هو محام محافظ، وهذه الهيئة التي يتخذها وهو يعتلي المنصة تظاهر أجوف. ثم إن أكثر الناس قد عصبوا أعينهم بنوع من أنواع المناديل، وربطوا أنفسهم الى إحدى هذه الشيع الفكرية. هذه التبعية لا تجعلهم مخطئين في قليل من التفصيلات ، أو مبدعين لقليل من الأكاذيب ، ولكن مخطئين في التفصيلات كلها. كل ما لديهم من صدق ليس صادقاً تماماً. والاثنان عندهم ليسا الاثنين الحقيقيين ، وأربعتهم ليست الأربعة الحقيقية ، ولذا فإن كل كلمة ينطقون بها تضايقنا ، ولا نعرف من أين نبدأ كي نقوّمهم ، وفي الوقت عينه لا تتوانى الطبيعة في إمدادنا بزي السجن الذي يرتديه الحزب الذي ننتمي إليه . إننا نبدو في ملامح وأشكال متشابهة، ونحصل تدريجاً على أصدق ملامح الغباء . وهناك بنوع خاص تجربة قاتلة لها أثرها الملحوظ في التاريخ العام، وأعني بها «ناحية الإطراء السخيفة» ، تلك الابتسامة المفتعلة التي تبدو علينا في صحبة الجماعة حينما لا نشعر بالراحة عندما نجيب على حديث لا يشوقنا . إن العضلات حينئذ لا تتحرك حركة تلقائية ، وإنما يحركها تعمد غاصب ، فتتصلب في خطوط الوجه وتحدث إحساساً لا يُرغب البتة فيه.

إن الدنيا تضربك بسياط الغم إذا أنت لم تسر في الركب. ولذا فمن واجب المرء أن يتعلم كيف يجابه الوجوه المريرة. فالمتفرجون ينظرون إليه شزراً في الطريق العام أو في حجرة استقبال الصديق. وإن كان هذا النفور منشؤه ازدراء أو مقاومة مثلها لديه فإنه يعود الى بيته بوجه مكتئب. غير أن وجوه الجماهير المريرة، كوجوهها السمحة، ليس لها سبب عميق، ولكنها تتلبس بها أو تنزعها وفقاً لهبوب الريح أو توجيه الصحف. ومع ذلك فإن سخط الجمهور أشد رعباً من سخط الشيوخ أو الكلية الجامعية. ومن اليسير على رجل حازم يعرف العالم أن يصبر على سخط الطبقات المثقفة، فسخطها محتشم حكيم، فهم جبناء لأنهم هم أنفسهم عرضة للتجريح. ولكن إذا أضيف الى غضبهم النسوي سخط العامة، إذا أثَرت الجاهل والفقير، وإذا أنت واجهت القوى الوحشية غير العاقلة التي تكمن خلف المجتمع، كنت بحاجة الى اعتياد النخوة وعقيدة الدين، كي تواجهها متألهاً على أنها من توافه الأمور التي ليس من ورائها خطر.

والفزع الآخر الذي يبعدنا عن ثقتنا بأنفسنا هو ثباتنا على حال واحدة، أو تقديسنا لأعمالنا وأقوالنا الماضية، لأن أعين الآخرين ليست أمامها حقائق أخرى تقدر بها مدارنا سوى ماضي فعالنا، ونحن نكره أن نخيب رجاءهم.

ولكن لماذا تُبقي على رأسك فوق كتفك ؟ ولماذا تحمل عبء ذاكرتك ـ وكأنك تحمل جثة هامدة ـ خشية أن تناقض شيئاً بُحث به في مكان عام ؟ هب أنك ناقضت نفسك، ماذا وراء ذلك؟ يبدو أن من قواعد الحكمة ألا تعتمد على ذاكرتك وحدها، حتى في أفعال الذاكرة البحتة، ولكن يجب أن تزج بالماضي في أحكامك وسط الحاضر الذي يملك ألف عين، وتعيش دائماً في يوم جديد. إنك في عقائدك الميتافيزيقية قد أنكرت الشخصية للإله، ومع ذلك فعندما تأتي الحركة المقدسة للروح، استسلم لها بقلبك وحياتك، حتى إن أكسبت الإله شكلاً ولوناً، وتخلّ عن نظريتك كما تخلى يوسف عن قميصه في يد العاهرة، ثم أهرب.

إن الثبات السخيف على رأي واحد هو غول العقول الصغيرة، الذي يقدسه صغار السياسيين والفلاسفة ورجال الدين. أما الروح العظيمة فليس لها البتة شأن بهذا الثبات. وإلا فكأنها تأبه لظلها فوق الحائط. انطق بما تفكر فيه الآن في ألفاظ

قـوية، وانطق غـداً بما تفكر فـيـه غداً في ألفاظ قوية كذلك، حتى إن ناقض كل ما قلتـه اليـوم ـ «وإذن فـثق إنك سـوف يُسـاء فـهمك» ـ وهل من شر الأمور أن يُساء فـهـمك؟ لقـد أسيء فـهم فـيـثـاغـورس، وكذلك سقراط ويسوع ولوثر وكوبرنكس وغـاليليـو ونيـوتن وكل روح طاهرة عاقلة، تجسدت. لكي تكون عظيماً لابد أن يُساء فهمك.

لست أحـسب أن أحـداً من الناس يسـتطيع أن يناقض طبـيعته. وكل نزوات الإرادة عند الإنسـان محاطة بقـانون وجـوده، كما أن التـواءات الأنديز والهملايا تافهة في اسـتـدارة الكرة الأرضـيـة. ولا يهم كـيف تقـيس المرء أو تختبره. الشـخصية تشبه المـوشـح العبري المعكوس أو الموشح الاسكندري . إن قـرأته الى الأمـام أو الى الوراء أو عـرضـاً فإن هجـاءه لا يتغير. وفي هذه الحياة السارة المحدودة الجامدة التي وهبني الله إياها، دعني أسـجل كل يوم آرائي المخلصة دون نظر الى المستقبل أو الى الماضي، ولست أشك في أنها سـوف تكون مـتناسـبة حتى إن لم أقصد الى ذلك وإن لم أدركه. يجـب أن ينم كـتـابي عن رائحـة الصنوبر وأن يرن بصـدى طنين الحشرات. والسنونوة التي فـوق نافذتي يجب أن تسهم بالخيط أو بالقش الذي تحمله في منقارها في نسيجي كـذلك. يجب أن يرانا الناس على حـقـيـقـتنا. فإن ما تعلّمه الشخصية فوق ما تمليه الإرادة. ويتـصـور الناس أنهم يُظهـرون فضائلهم ورذائلهم بالعمل العلني فقط، ولا يدركـون أن الفضيلة والرذيلة ترسل الأنفاس في كل لحظة.

ولابـد أن يـكون هناك اتفـاق في الأعمال مـهما تنوعت، حـتى يكون كل منهـا صـادقـاً وطبيعياً في ساعته. لأن الأفعال التي تصدر عن إرادة واحدة تتسق مهما بدت مـتـبـاينة. وهذا التنوع لا يُرى عن كـثب أو على ارتفاع قليل من الفكر. فهناك اتجاه واحـد يوحـد بينها جميعاً. إن رحلة أحسن السفن خط متعرج في مائة اتجاه. انظر الى الخط من بعـد كـاف يسـتقم في متوسط اتجاهه. إن عملك الصادق يفسر نفسه، كما يفسر أعمالك الصـادقـة الأخرى، ولكن تبعيتك لا تفسر شيئاً. اعمل بمفردك، وما عـملتـه حتى الآن بمفردك يبررك الآن. إن العظمة تنظر الى المستقبل. ولو استطعت أن أثبت اليـوم ثبـوتاً كـافـيـاً على فعل الصواب، وازدريت الأعين، فلا بُـدَّ أن أكون قـد فـعلت صـواباً كـثيراً فـيما مـضى أدفع به عن نفسي اليـوم . ومهما يكن من شيء

فـعليك أن تفعل الصواب الآن. احتقر المظاهر دائماً، وإنك لتستطيع ذلك دائماً. إن قـوة الشخصية قوة متجمعة. كل ما انقضى من أيام الفضيلة يفعل فعله الصحيح في ذلـك. مـا الذي يكسب أبطال مجلس الشيـوخ وأبطال الميـدان جـلالهم الذي يمـلأ الخـيـال ؟ هو الإحساس بسلسلة من الأيام العظيمة والانتصارات القديمة. إنها تلقي ضـوءاً مـتـحداً على الرجل العامل الذي يتقدم الناس وكأن حرساً ظاهراً من الملائكة يحدوه. وذلك هو مـا يُلقي الرعـد في صـوت تشاتهام، والكرامة في مسلك واشنطن، ومـا يلقي بأمـريكا في عين آدمز. الشرف مقدس لدينا لأنه لا يتغير بتغير الأيام ولكنه فـضيلة أزليـة. نعـبـده اليـوم لأنه ليس ابن اليوم. نحبه ونقدم له الولاء لأنه لا يكيد لحبنا وولائنا، ولكنه مـسـتـقل استقلالاً ذاتياً، مشتق من نفسه، ولذا فهو من سلالة طاهرة قديمة، حتى اتصف به شخص صغير السن.

وإني لآمل أن تكون هذه الأيام آخـر عـهـدنا بالتبعية والثبات. ولنسجل هاتين الكلمتين في الجـريدة الرسـمـيـة ونهزأ بهما بعـد الآن. دعنا نستمع الى صفير المزمار الاسبرطي بدلاً من الطبل الذي يُدق إيذاناً ببـدء الغـداء. دعنا لا ننحني ولا نعـتـذر بعـد اليـوم. إن رجـلاً عظيماً قادم ليأكل في بيتي، فلست أود أن أسُـرُّه، وإنما أود لو أراد سروري. سـوف أقف هنا أمـثل الانسـانيـة، وسوف أجعلها صادقة وإن جعلتها رفـيـقـة. دعـنا نعـتب على ضـعف عصرنا الشـديد وقناعـتـه الذليلة، ولنُلق في وجـه التـقـاليـد والمهنة والعـمل الذي تؤديه تلك الحقيقة التي هي مغزى التاريخ، وهي أن هناك مـفكراً وعـامـلاً عظيماً مسئولاً يعمل حيثما يعمل الانسان، وأن الرجل الصادق لا ينتـمي الى زمـان أو مكان آخـر ، وإنما هو مـركـز الأشـيـاء . حينما يكون تكون الطبـيعة: وهو الذي يقيسك ويقيس الناس والحوادث جميعاً. إن كل فرد في المجتمع ـ عـادة ـ يذكـرنا بشيء آخر أو بشخص آخر، ولكن الشخصية، والواقع، لا تذكرك بـشيء آخـر. انها تحل محل الخليـقـة كلهـا. ويجب أن يبلغ المرء هذا الحـد كي يجعل الظروف كلها تافهة.

كل رجل حـقـيـقي سـبب، وقُـطْـرٌ ، وعصر ، يحتـاج الى مـساحات وإعداد ووقت لا ينتـهي كي ينجز خطته كاملة ـ ويبدو أن الأجيال القادمة تتبع خطاه كرتل من الأتبـاع. يولد الرجل القـيصر، وبعـد ذلك بعدّة عصور تكون لدينا الإمبراطورية

الرومانية. ويولد مسيح ، ثم تنمو ملايين العقول وتلتصق بعبقريته حتى تذهله الفضيلة وما يستطيعه الإنسان. المذهب هو الظل الممتد لرجل واحد، كالرهبانية فهي ظل الناسك أنتوني ، والاصلاح الديني ظل لوثر ، وطائفة الأصحاب ظل فوكس ، والنظامية ظل وزلي ، والغاء الرق ظل كلاركسون . ولقد سمي ملتن سكبيو «أوج روما» . والتاريخ كله يرتد بأسره بسهولة جداً الى سيرة أشخاص قلائل عظام جادين.

فليعرف الانسان إذن قيمته، ويجعل الأشياء تحت قدميه. دعه لا يتطلع الى غيره ولا يسرق ولا يتوارى هنا أو هناك وعليه مسحة الصبي يطلب الإحسان، أو ابن الزنا، أو المتطفل، في العالم الذي يوجد من أجله. ولكن رجل الشارع الذي لا يجد قيمة في نفسه توازن القوة التي شيدت برجاً أو نحتت إلهاً من المرمر، يشعر بالفقر عندما ينظر الى هذه الأشياء. والقصر أو التمثال أو الكتاب الثمين يبدو له غريباً ممتنعاً، كالبضاعة الزاهية، وكأنها تقول له : «من أنت يا سيدي ؟» ومع ذلك فكل أولئك له، يتطلب التفاته، ويلتمس من مواهبه أن تبرز لكي تملك. تأتمر الصورة بأمري ولا آتمر بأمرها، وإنما عليّ أن أحكم على قيمتها. إن تلك القصة الشائقة التي تقول ان مدمناً من مدمني الخمور وجد مخموراً الى حد الموت في الطريق، فحُمل الى بيت الدوق ، ثم اغتسل وارتدى الملابس واستلقى في سرير الدوق، ولما استيقظ عومل بالاحتفال والخضوع كما يعامل الدوق. والقي في روعه أنه كان في غير وعيه ـ هذه القصة تدين بشيوعها الى أنها ترمز رمزاً حسناً الى حالة الإنسان الذي يكون في الدنيا كأنه مدمن خمر، ولكنه يصحو بين الفينة والفينة، ويمارس عقله، ويجد نفسه أميراً حقاً.

إن قراءتنا ضعيفة منافقة. وفي التاريخ يخدعنا خيالنا، فالملك والسيادة، والنفوذ والضيعة، كلمات لها بريق ليس للفرد العادي جون أو إدوارد في البيت الصغير وعمل اليوم المألوف. ولكن حاجات الحياة هي بعينها لكليهما، والمجموع الكلي لكليهما هو عينه، فلماذا إذن كل هذه الرعاية لألفرد وسكاندريج وجستافس ؟ هب أنهم كانوا فضلاء، فهل تحلوا بفضيلتنا؟ إن خطراً عظيماً يتوقف على عملك الخاص اليوم، كما كانت لخطواتهم العامة المشهورة خطورتها. عندما يعمل الأفراد

بأفكار مبتكرة ينتقل البريق من أعمال الملوك الى هؤلاء السادة من الأفراد.

لقد تعلمت الدنيا من ملوكها الذين جذبوا أعين الأمم. تعلمت الدنيا من هذا الرمز الضخم الاحترام المتبادل الذي يستحقه الإنسان من أخيه الانسان. فكما أن الإخلاص الأعمى الذي حمله الناس في كل مكان للملك أو النبيل أو المالك العظيم، فسمحوا له أن يسير بينهم بقانون من وضعه، وأن يعمل للناس والأشياء مقياساً من عنده، ويقْلبَ مقاييس غيره، ولا يدفع ثمناً للمنافع مالا وإنما يدفع شرفاً، ويمثل القانون في شخصه ـ ذلك الإخلاص كان الرمز الهيروغليفي الذي تبين به الناس في شيء من الغموض ماهم من حق وقيمة، فتبينوا حق كل إنسان.

إن الجاذبية التي يتصف بها كل عمل مبتكر يمكن تفسيرها عندما نبحث في علة الثقة بالنفس. من هو صاحب هذه الثقة؟ وما هي هذه النفس الأصيلة التي نعتمد عليها في كل شيء؟ وما طبيعة وما نفوذ ذلك النجم الذي حير العلم، والذي لا يتغير، والذي يخلو من العناصر التي يمكن حسابها، ذلك النجم الذي يرسل شعاعاً من الجمال حتى الى الأعمال التافهة الفاسدة، إن بدت عليها أقل علامة من علامات الاستقلال؟ إن البحث يهدينا الى ذلك المنبع، الذي هو لب العقل، وجوهر الفضيلة والحياة في وقت واحد، الذي نسميه التلقائية أو الغريزة. إننا ندعو هذه الحكمة الأولى «بالبداهة» في حين أننا نسمي كل ما عرفنا بعد ذلك «بالتعاليم». في تلك القوة العميقة ـ وهي القوة الحقيقية النهائية التي لا تخضع للتحليل ـ تجد كل الأشياء أصلها المشترك. لأن الإحساس بالوجود الذي يظهر في ساعات الهدوء في الروح بطريقة لا نعرفها ، ذلك الاحساس لا يختلف عن الأشياء ، أو المكان أو الضياء، أو الزمان، أو الإنسان ولكنه يتحد مع هذه الأشياء، ومن الواضح أنه يخرج من المصدر عينه الذي خرجت منه الحياة والوجود. إننا في أول الأمر نشارك الأشياء حياتها التي توجد بها ، ثم نراها بعد ذلك مظاهر في الطبيعة وننسى أننا قاسمناها علتها. هنا مصدر العمل والفكر. هنا الرئتان لذلك الإلهام الذي يهب الإنسان الحكمة، والذي لا يمكن إنكاره إلا مع الإلحاد والكفر أننا نطوي تحت ذكاء عام نتقبل حقيقته، ولسنا سوى أعضاء لنشاطه. وحينما نتبين العدالة أو نتبين الصدق لا نعمل شيئاً بأنفسنا، ولكنا نفسح السبيل لأشعته. فإن سألنا من أين يأتي

هذا، وإن أردنا أن نمحص الروح التي كانت السبب، شطحت بنا الفلسفة عن الصواب. إن وجوده أو غيابه هو كل ما نستطيع أن نؤكده. وكل إنسان يميز بين أعمال عقله الإرادية ومدركاته اللاإرادية، ويعرف أن أعماله اللاإرادية جديرة بالإيمان الكامل. أنه قد يخطيء في التعبير عنها ولكنه يعرف أن هذه الأشياء هي كذلك، كالليل والنهار، لا جدال فيها. إن تحصيلي وأعمالي المقصودة ليست إلا عابرة ـ إن أسخف الأحلام، وأضعف العواطف الطبيعية تستحق مني البحث والتقدير. ولكن الذين لا يفكرون يناقضون ما تقرره الحواس كما يناقضون ما تقرره الآراء، بل هم أقرب الى مناقضة ما تقرره الحواس، ذلك لأنهم لا يفرقون بين الحس والرأي. إنهم يتوهمون أنني أختار رؤية هذا الشيء أو ذاك. بيد أن الحس لا يخضع للأهواء، وإنما هو حتمي. إن أنا رأيت خاصة من الخواص، رآها أطفالي من بعدي، ثم رآها الناس جميعاً بمرور الزمن ـ حتى إن حدث أن أحداً لم ير تلك الخاصة من قبلي، ذلك لأن إحساسي بها حقيقة واقعة كالشمس.

إن العلاقات بين روح الانسان والروح المقدس مباشرة، وحرام علينا أن نقيم بينهما الوسائط. إن الله عندما يتكلم لا يتصل بشيء واحد إنما يتصل بجميع الأشياء. إنه يملأ الدنيا بصوته، وينشر النور في الطبيعة والزمان والأرواح من مركز الفكرة الراهنة، ويعيد تاريخ كل شيء ويعيد خلق كل شيء. وعندما يكون العقل ساذجاً، ويتقبل الحكمة الإلهية، تزول الأشياء القديمة ـ فتسقط الوسائل والمعلمون والنصوص والمعابد. فهو يعيش الآن ويتشبع بالماضي والمستقبل في الساعة الراهنة، ويصبح كل شيء مقدساً باتصاله به ـ لا فرق بين شيء وشيء. كل الأشياء تعود الى مركزها بعلّتها، كما تختفي المعجزات الصغيرة الخاصة في زحمة المعجزة المطلقة. ولذا فإذا زعم انسان أنه يعرف الله ويتكلم عنه، ويعود بك الى مصطلحات أمة قديمة بالية في بلد آخر، أو في عالم آخر، فلا تصدقه. هل بذرة البلوط خير من شجرة البلوط، والشجرة هي كمال البذرة وتمامها؟ وهل الوالد خير من الطفل الذي أودعه كيانه الناضج. من أين إذن جاءت هذه العبادة للماضي؟ إن القرون تتآمر ضد صحة الروح وسلطانها. وليس المكان والزمان سوى ألوان فيزيقية تخلقها العين، ولكن الروح ضياء؛ حيث تكون يكون النهار، وحيث كانت يكون الليل. وليس التاريخ

إلا سفاهة وأذى إذا زاد على أن يكون قصة وجودي ومصيري أو مغزاهما.

الإنسان جبان يلتمس المعاذير. إنه لم يعد مستقيماً، ولا يجرؤ أن يقول «إني أفكر» أو «أنا أكون» وإنما يعيد ما قاله قديس أو حكيم معين، إنه يخجل أمام ورقة العشب أو الزهرة اليانعة. وهذه الورود تحت نافذتي لا تشير الى ورود سابقة أو الى ورود أحسن منها، إنما هي كما هي ليس لها زمان. هناك الوردة فقط، وهي كاملة في كل لحظة من لحظات وجودها. وقبل أن تتفتح الأكمام تكون حياتها كلها دائبة في حركة، لا تزيد شيئاً عندما تصبح زهرة يانعة، ولا ينقص عنها في شيء الجذر الذي لا ورق له. طبيعتها مكتفية بذاتها، وهي تكفي الطبيعة، في كل لحظة على السواء. ولكن الإنسان ينظر الى المستقبل أو يتذكر الماضي، لا يعيش في الحاضر، ولكنه بعين مرتدة يبكي الماضي؛ أو لا يلتفت الى الكنوز التي تتحوطه ، فيقف على أطراف أصابعه كي يتنبأ بالمستقبل . إنه لا يستطيع أن يكون سعيداً قوياً حتى يعيش هو كذلك مع الطبيعة في الحاضر، فوق الزمان.

يجب أن يكون ذلك واضحاً وضوحاً كافياً. ولكن انظر الى العقول القوية تجد أنها لم تجرؤ بعد على الاصغاء الى الله نفسه، إلا إذا تكلم بألفاظ داود وأرميا وبولس وغيرهم. يجب ألا نقيم دائماً وزناً كبيراً لنصوص قليلة أو حيوات قليلة. نحن كالأطفال الذين يرددون من الذاكرة عبارات العجائز والمربين، كما يرددون كذلك عندما يكبرون عبارات ذوي المواهب والشخصيات الذين يقابلونهم مصادفة ـ ويجهدون أنفسهم لكي يذكروا الكلمات بعينها التي تفوهوا بها؛ وبعد ذلك، عندما يصلون الى وجهة النظر التي كانت لدى أولئك الذين صدرت عنهم هذه الأقوال يفهمونهم، ويرغبون في اختفاء الكلمات، لأنهم يستطيعون في أي وقت أن يستخدموا ألفاظاً مثلها عندما تحين المناسبة. إذا عشنا عيشة صادقة، شهدنا مشاهدة صادقة. ومن اليسير على الرجل القوي أن يكون قوياً، كما أنه من اليسير على الضعيف أن يكون ضعيفاً. وعندما ندرك شيئاً جديراً يسرنا أن نخفف عن الذاكرة عبء الكنوز المكدسة كأنها نفايات عتيقة. وعندما يعيش الإنسان مع الله يصبح صوته عذباً كخرير الغدير وحفيف نبات القمح.

وأخيراً بقيت الحقيقة العليا في هذا الموضوع دون ذكر، وربما لا نستطيع

ذكرها، لأن كل ما نقوله إن هو إلا تذكر من بعيد للفطرة الأولى. تلك الحقيقة ـ في أيسر أسلوب لديّ الآن للتعبير عنها ـ هي هذه : حينما يكون الخير قريباً منك، وحينما تدب فيك الحياة، فإن ذلك لا يكون بطريقة معروفة أو مألوفة، فإنك لن تتبين مواقع خطى شخص آخر، ولن ترى وجه إنسان، ولن تسمع أي اسم ـ وإنما طريقك وفكرتك وما لديك من خير كله جديد مستحدث. إنك في ذلك تستبعد ما سبق من مثال وخبرة، وتسير بعيداً عن الإنسان، ولا تقترب منه. كل إنسان عاش فيما مضى قسيس بَشَّر بفكرتك وغاب عن ذكرك. وهي فكرة لا تعبأ بخوف أو أمل. لأن هناك شيئاً من الوضاعة حتى في الأمل. وفي ساعة الرؤيا، ليس هناك ما يمكن أن نسميه الاعتراف بالجميل، أو أن نسميه بالسرور ونحن صادقون. إن الروح عندما تعلو العاطفة ترى تماثل الأشياء، وترى العلة الخالدة، وتدرك البقاء الذاتي للحقيقة والصواب، وتهيء نفسها بمعرفتها إن الأشياء جميعاً تسير سيراً حسناً. فالمساحات الشاسعة من الطبيعة، والمحيط الأطلنطي، والبحر الجنوبي ـ والفترات الطويلة من الوقت، والسنين والقرون ـ ليست بذات بال. وهذا الذي أفكر فيه وأحسه كان يكمن تحت كل حالة سابقة من حالات الحياة والحوادث، كما هو كامن تحت حاضري، وما نسميه الحياة وما نسميه الموت.

الحياة وحدها تجدي، ولا يجدي ما عشناه فيما سبق. والقوة تزول ساعة السكون، وتوجد في لحظة الانتقال من ماض الى حالة جديدة، وفي انطلاق الماء من الخليج، وفي تصويب السهام نحو الهدف. وهذه الحقيقة الواحدة تمقتها الدنيا : وهي أن الروح «تصير». لأن ذلك يحط من شأن الماضي دائماً، ويحيل كل الكنوز الى فقر، وكل سمعة طيبة الى عار، ويخلط بين القديس والوغد، ويلقي بيسوع ويهوذا جانباً على السواء. فلماذا إذن نلغط بالاعتماد على النفس؟ بمقدار ما تكون الروح حاضرة، تكون هناك قوة عاملة وإن تكن خفية. إن الكلام عن الاعتماد ليس سوى طريقة ضعيفة سطحية للكلام. وإنما يجب أن تتكلم عن ذلك الذي يعتمد لأنه يعمل ولأنه كائن. من يركن الى نفسه أكثر مما أفعل يسيطر عليّ حتى إذا لم يرفع إصبعه. ولابد لي أن أدور حولة بجاذبية الأرواح. إننا عندما نتكلم عن علو الفضيلة نتوهم أن ذلك من فصاحة اللسان. فنحن لم ندرك بعد أن الفضيلة «علو»،

وأن الرجل ـ أو مجموعة الرجال ـ إذا استكان ورضخ للمبادىء العليا، وجب ـ وفقاً لقوانين الطبيعة ـ أن يتسلط وأن يسيطر على جميع المدائن والأمم والملوك والأغنياء والشعراء، الذين لم يستكينوا كما استكان.

هذه هي الحقيقة القصوى التي سرعان ما ندركها في هذا الموضوع، كما ندركها في غيره من الموضوعات، وهي : ذوبان كل شيء في «الواحد» المبارك دائماً. فالوجود الذاتي هو صفة «العلة العليا»، ومن هذا الوجود الذاتي يتألف مقياس الخير بمقدار تغلغله في جميع الصور الدنيا. والأشياء حقيقية بمقدار ما فيها من هذه الصفة. والتجارة والزراعة والقنص وصيد الحوت، والحرب والفصاحة، وقيمة الفرد، هي شيء ما، وتظفر بتقديري كأمثلة لوجود هذه الصفة وأثرها غير المباشر. وإني لأرى القانون عينه يعمل في الطبيعة للبقاء والنمو. القوة في الطبيعة مقياس للحق لا مفر منه. والطبيعة لا تسمح لشيء أن يبقى في ممالكها إذا كان لا يعتمد على نفسه. ونوع الكوكب وقوته، وموضعه ومداره، والشجرة المنحنية التي تسترد استقامتها بعد هبوب الريح العاتية، والموارد الحيوية لكل حيوان وكل خضرة، كل اولئك دليل على الروح التي تكفي ذاتها فتعتمد على نفسها.

وهكذا يتركز كل شيء. دعنا لا نتجول، ولنقبع في دورنا مع العلة الأولى. دعنا نُذهل ونُدهش أولئك الغوغاء من الناس والكتب والنظم بإعلان بسيط للحقيقة المقدسة . مُرْ الغزاة أن يخلعوا نعالهم لأن الله هنا في دخيلة أنفسنا. ولتحكم عليهم بساطتنا، وليبين انصياعنا لقانون أنفسنا فقر الطبيعة وكل ما يصيب الإنسان إذا قيس الى ثروتنا الأصيلة فينا.

ولكننا اليوم رعاع. لا يقيم الانسان لإنسانية وزناً، ولم يتعلم أن يلزم داره كي يتصل بمحيطه الداخلي ، ولكنه يرحل الى الخارج ، يطلب كأساً من الماء من أوعية الآخرين. يجب أن نسير وحدنا . وإني لأحب الكنيسة صامتة قبل أن تبدأ الصلاة أكثر مما أحب الوعظ أيا كان . كيف يبدو الأشخاص بعيدين باردين طاهرين، كل منهم تحوطه رحبة أو معبد . ولذا فلنقعد دائماً. لماذا نحمل وزر الصديق والزوجة والوالد والولد ؟ ألأنهم يجلسون حول موقدنا، أو لأنه يقال إن في عروقهم نفس دمائنا؟ الناس جميعاً في عروقهم دمائي، ودماؤهم جميعاً في عروقي.

ولن أحمل نزق حماقتهم من أجل ذلك، حتى أبلغ حد الخجل. بيد أن عزلتك ينبغي ألا تكون آلية، بل روحية، أي ينبغي أن تكون سمواً. إن الدنيا بأسرها أحياناً تتآمر على أن تشغلك بتوافه ليس لك عنها من محيص. يطرق باب غرفتك الصديق والعميل والطفل والمرض والخوف والحاجة والاحسان في وقت واحد وتقول «اخرج الينا»، عندئذ إلزم حالتك ولا تخرج الى ما يضطربون فيه. إن القوة التي يمتلكها الناس لمضايقتي إنما أعطيهم إياها بضعف في نفسي، هو حب التطلع. لا يستطيع أحد أن يقترب مني إلا عن طريق ما أعمل. «إننا نملك ما نحب، ولكننا بالاشتهاء نحرم أنفسنا من الحب».

إذا لم نستطع في الحال أن نرتفع الى قدس الخضوع والايمان فلا أقل من أن نقاوم ما يغرينا، ولنعلن الجهاد، ونوقظ الشجاعة والثبات في صدورنا السكسونية. نؤدي ذلك في أوقاتنا الرخية بقولنا الصدق. ولنكف عن الجود الزائف والحب الكاذب. دعنا لا نعيش بعد اليوم كما يتوقع هؤلاء القوم الخادعون المخدوعون الذين نتحدث اليهم . قل لهم : أبي، وأمي، وزوجي، وأخي، وصاحبي، لقد عشت معكم وراء الظواهر حتى اليوم ، ولكني منذ الآن ملك للحقيقة . ولتعلموا أني منذ اليوم لن أطيع قانوناً سوى القانون الأبدي . لن أخضع لما تقولون ، ولكن لما تمليه على نفسي . سوف أحاول أن أطعم والديّ ، وأن أعول أسرتي ، وأن أكون الزوج الطاهر لزوجة واحدة ـ ولكن هذه العلاقات لابد أن أؤديها بطريقة جديدة لم يسبقني اليها أحد. إني أبتعد عن عاداتكم، ولابد أن أكون نفسي. لن أستطيع بعد اليوم أن أحطم نفسي من أجلكم، ولن تستطيعوا ذلك. إذا أمكنكم أن تحبوني على حالي كنا أسعد حالاً، وإذا لم يمكنكم ذلك فسوف أعمل على أن أستحق منكم ذلك. لن أخفي ما أميل إليه وما أعزف عنه، وسوف أثق بأن كل ما يختفي في أعماق الفؤاد مقدس. وسأؤدي بقوة أمام الشمس والقمر أي شيء يسرني في دخيلة نفسي أو يمليه قلبي. إن كنتم نبلاء أحببتكم ، وإن لم تكونوا لن أوذيكم وأوذي نفسي برعايتي إياكم نفاقاً. وإن كنتم صادقين ، ولكنكم لستم معي فيما أصدق ، فتمسكوا برفاقكم ، وسوف أبحث عن رفاقي ، وإني لا أفعل ذلك عن أنانية ، ولكني أفعله متواضعاً صادقاً. وإنه ليهمكم كما يهمني ويهم الناس جميعاً ـ مهما طال

انغماسنا في الأكـاذيب ـ أن نعيش في الصدق. هل يبدو هذا اليوم صارماً؟ سرعان ما تحبـون مثلي مـا تمليـه عليكم طبـائعكم. واذا نحن تابعنا الصـدق فسوف ينقذنا في النهـاية ـ ولكنكم ربما سببتم بذلك للأصـدقاء آلاماً. أجل، ولكنني لا أستطيع أن أبيع حـريتي ونفوذي لكي أنقذ إحساسهم . ثم إن الناس جميعاً لهم لحظات يتعقلون فـيهـا ، وذلك عندما يتطلعون الى دولة الحق المطلق . إنهم حينئذ يبرروني ويفعلون مثلما أفعل.

تظن العـامـة أنك حين تنبـذ المعـايير العـامة تنبذ كل المعايير، وتعصي القواعد الخلقـيـة لمجـرد العـصيان. ويستخدم الشهواني الجريء اسم الفلسفة ليكسو جرائمه بـالـذهب. ولكن قـانون الوعي قـائم. وهناك كـرسيـان للاعتراف، يجب أن نقـبل الاعتراف في أحـدهما. فإمـا أن تؤدي مـا عليك من واجبات بتخليص نفسك بطريق مـباشر أو بـطريق الانعكاس، فـقـد يهمك أن يرضى عنك أبوك وأمك وابن عـمك وجـارك وبـلـدك وقـطـتـك وكـلبك، وألا يوجـه إليك أحـد من هؤلاء لومـا. ولكني أسـتطيع كـذلك أن أهمل هذا المعيـار المعكوس وأرضي ضميري أمام نفسي، وأجعل مطالبي مـسـتـقلة ودائرتي كـاملة. هذه النفس المستقلة تنكر اسم الواجب لكثير من الأعمال التي تسـمي واجبـات؛ وإن اسـتطعت أن أدفع ديونها مكنتني من الاستغناء عن القـانون العـام. وعلى من يتـصـور أن في هذا القـانون تراخـياً أن يخضع له يوماً واحداً.

إن من ينبـذ الدوافع العـامـة للإنسـانيـة ويجرؤ على الثقة العامة فيما تمليه عليه نفسـه لابد له أن يتـمـيـز ببعض صفات الآلهة. ولكي يكون المرء لنفسه حقاً مذهباً ومجتـمـعـاً وقـانوناً، ولكي يكون الغـرض اليسير له قوياً قوة الحاجة الماسة عند غيره، لابد أن يكون قلبـه كبيراً، وإرادته صادقة وبصره صافياً.

لو أن أي إنسـان فكر في الصـفات الحالية لما نسميه على وجه الدقة «بالمجتمع» لأدرك الحـاجـة الى هذه القـوانين الخلقـيـة. ويبـدو أن أعـصـاب الإنسـان وقلبـه قد تراخت وأصبـحنا بكائين هيّابين يائسين. إننا نخـشى الحق، ونخشى القدر ونخشى الموت، ويخشى بعـضنا بعـضـاً. وعصرنا لم يتـمـخض عن شخصيات عظيمة كاملة. نريد رجـالاً ونسـاء يجددون الحـيـاة ويجددون حـالتنا الاجتماعية ، ولكننا نجد أن أكثر

الطبـائع مـفلسـة ، لا تسـتطيع أن تسـد حـاجة نفسها ، لها مطامع لا تتناسب البتة وقـوتهـا الـعـمـلـيـة ، وتـلين وتتـسـول ليـلاً ونهـاراً بغير انقطـاع . إن تدبيرنا المنزلي ضـعـيف ، وفنوننا ، وأعمالنا ، وزواجنا وديننا ، لم نختره لأنفـسنا ، وإنما اخـتاره لنا المجتـمع . إنما نحن جنود في غـرفة الاستقبال ، نتحاشى معركة القدر الحامية التي تتولد فيها القوة.

إذا فـشل شـبـابنا في مشروعـاته الأولى فـقـد كل شجاعته. وإذا خاب التاجر الناشيء قـال الناس عنه إنه «أفلس». وإذا درس أبرع النابغين في إحـدى جـامعاتنا، ولم يعين في وظيـفـة بعـد عـام واحـد في مـدينتي بوسطن ونيـويورك أو ضواحيهما بدا لأصـحابه وبدا له أنه على حق في يأسه وفي شكواه بقية حياته. إن الصبي القوي من نـيـوهـامـبـشير أو فـرمنت الذي يحاول جميع المهن بالدور، يرعى، ويفلح، ويطوف بالبـيع، ويدير مدرسة، ويعظ، ويحرر في صحيفة، ويذهب الى الكنجرس ويشتري أرضـاً في المدينة، ومـا الى ذلك، في سنوات متتالية ، ويقع دائماً كالقطة على قدميه، يسـاوي مائة من دمى المدن هؤلاء. إنه يسير قدماً مع أيامه ولا يشعر بالخجل لأنه لم «يدرس مـهنة مـا» لأنه لا يرجىء حـيـاته، وإنما يحيـاها فـعـلاً. ليـست لديه فرصة واحـدة، بل أمـامـه مـائة فرصة. ينبغي على الرواقي أن يدرك مواهب الإنسان، وأن يبلّغ الناس أنهم ليـسوا كشجر الصفصاف الذي يميل مع الريح، ولكنهم يستطيعون - بل وينبـغي لهم - أن يسـتـقلوا بأنفـسهم، وليعلمهم أنهم إن وثقوا بأنفسهم ظهرت لهم قـوى جـديدة، وأن الإنسـان هو الكلمـة قـد تجـسـدت، ولد لينشر الشـفاء بين الأمم، ويجب أن يخجل من رحمتنا به، وليـعلم أنه في اللحظة التي يعـمل فـيها بوازع من نفسـه، ويلقى بالقوانين والكتب والأوثان والعادات من النافذة، لا نشفق عليه، بل نقـدره ونحترمـه - من يعلمنا ذلك يضـفي على حـيـاة الانسـان سناءً وبهاءً ويرفع ذكره في جميع صفحات التاريخ.

ومن اليـسير أن نرى أن مـزيداً من الثقة بالنفس لابد أن يحدث انقلاباً في جميع وظـائف الناس وعـلاقـاتهم، في ديانتـهم، وفي تربيتـهم، وفي أهدافـهم، وأسـاليب عـيشهم، واجتماعهم، وفي امتلاكهم، وفي آرائهم التي يتدبرون.

١ - أي الصلوات يسـمح الناس لأنفـسـهم بها ! إن مـا يسـمـيه الناس وظيفة

مـقـدسـة ليس فـيـه من الشـجـاعة والرجولة بمقدار ما فيه من القداسة. إن دعاءنا عـجـيب، نلتـمس فيه الزيادة فيما نملك عن طريق فضيلة غريبة عنا، وهو يضل في متـاهات لا نهاية لها مما هو طبـيـعي ومـا هو غير طبـيـعي، ومـا هو وسـيط وما هو مـعـجـز. إن الدعاء الذي نطلب فيه سلعة خاصة ـ ولا نتطلب الخير خالصاً ـ دعاء مـرذول. إنما الصـلاة هي تأمل حقائق الحياة من أعلى وجهة من وجهات النظر. هي مناجـاة النفس المبصرة المنشرحـة. هي روح الله تعلن أن أعمإله طيـبـة. ولكن الصلاة كـوسـيلة لتـحـقـيق غـرض خـاص، صناعـة وسرقة. إنها تفرض في الطبيعة والوعي الثنائيـة بدلاً من الوحـدة. إن الانسـان إذا اتحـد مع الله لا يتـسـول. إنه عندئذ يرى الصـلاة في كل عـمل. إن صـلاة الفـلاح راكـعـاً في حـقله يشذبه، وصلاة صاحب الزورق جـاثيـاً يضرب بمـجذافه، صلوات صادقة تصغي اليها الطبيعة بأسرها، وإن تكن لأغـراض رخـيـصة. في «بندوكا» لفلتشر يجيب «كاراتاش» عندما نُصح بالبحث في عقل الإله «أوديت» :

إن معانيه الخفية تكمن في محاولاتنا ؛

وأعمالنا الباسلة خير آلهتنا .

والندم نوع آخـر من الصـلاة الزائفـة. فالضجر نقص في الاعتماد على النفس، وعـجـز في الإرادة. . . انـدم عـلى الـكـوارث إن كنت بهذا الندم تعين من يكابدها. وإلا فـبـاشر عـملك وسـوف يشرع الشر في إصـلاح ذاته. وعطفنا لا يقل عن الندم وضـاعـة. إننا نتـوجـه الى اولئك الذين يكون غافلين، ونجلس الى جوارهم، ونبادي بصـحـبـتهم، وذلك بدلاً من أن نعرّفهم بالحق والصواب ونصدمهم صدمات كهربية عنيفـة، كي نردهم ثانيـة الى الاتصـال بعقولهم. إن سر ما يصيب الإنسان من خير هو الابتـهـاج بما بين يديه. والرجل الذي يعين نفسه ترحب به الآلهة والناس في كل حين. تتـفـتح له الأبواب، وتحـيـيـه الألسنة جميـعـاً، ويتوّجه الشرف، وتتبعه الأعين كلهـا في شـغف. نهبـه حـبنا ونطوقـه به، لأنه لم يحتج إليـه. ونلاطفـه ونحفل به في اهتمام واعـتـذار، لأنه ثبت على طريقته واستهان باستنكارنا لها. تحبه الآلهة لأن الناس قـد كرهوه . قال زرادشت :

«إن الآلهة المباركة تخف الى الانسان المثابر» .

وكما أن صلوات الناس مرض في الإرادة فكذلك عقائدهم مرض في العقل. إنهم يقولون مع أولئك الأسرائيليين الحمقى «لا تدع الله يتحدث الينا خشية أن نموت، بل تكلم أنت أو ليكلمنا أي إنسان، نطعه». في كل مكان أجد عقبة في سبيل لقاء الله في نفس أخي، لأنه أغلق آبواب معبده، واكتفى بتلاوة حكايات إله أخيه، أو إله أخي أخيه. كل عقل جديد نوع جديد. إن ثبت أنه عقل له نشاط وقوة غير عادية، كعقل لوك أو لافوازييه أو هَتُنْ أو بنتام أو فوربيه فإنه يفرض نوعه على غيره من الناس، ثم انظر فإذا نظام جديد! وإن اطمئنان الطالب يتناسب وعمق تفكيره، وبالتالي يتناسب وعدد الأشياء التي يمسها هذا التفكير ويجعلها في متناوله. ويظهر هذا خاصة في المذاهب والكنائس المتنوعة، وهي كذلك ضروب من عقل قوي يعمل وفقاً لفكرة الواجب الأولية، وعلاقة الانسان بربه. هكذا كانت الكالفنية والكويكرية ومذهب سودنبرج. إن التلميذ يُسر لإخضاع كل شيء للمصطلحات الجديدة، كالفتاة التي تعلمت علم النبات حديثاً عندما ترى تربة جديدة وفصولاً زراعية جديدة تتفق وما تعلمت. وقد يحدث لفترة ما أن يجد الطالب أن قواه العقلية قد نمت بدراسة عقل أستاذه. ولكن العقول غير المتزنة تعبد الفرع عبادة الأوثان، وتجعله هدفاً في ذاته، ولا تجعله وسيلة سريعة الزوال، بحيث تندمج في أعينهم ـ في الأفق البعيد ـ حدود النظام الجديد في حدود العالم بأسره؛ بل تبدو لهم الأجسام المضيئة في السماء معلقة على البناء الذي شيده أستاذهم. أصحاب هذه العقول الناقصة لا يستطيعون أن يتصوروا كيف يكون لكم أنتم أيها الأغراب أي حق في المشاهدة ـ أو كيف تستطيعون الرؤيا «لابد أن تكونوا قد اختلستم النور منا بطريقة ما». إنهم لم يدركوا بعد أن النور لا يسير على نسق واحد ولا يمكن إخضاعه فهو يسطو على أي كوخ حتى على كوخهم. هلا ابتهجت نفوس هؤلاء القوم مرة ورأت أن النور نورها! إنهم إن أخلصوا وحسنت أعمالهم ضاقت حظيرتهم المحدودة الجديدة في الحال، وانخفضت، وتشققت، ومالت، وانهارت ثم اختفت، وأشرق على الدنيا ضياء خالد كذلك الذي يشرق في أول الصباح، قوي بهيج، متعدد الأفلاك، مختلف الألوان.

٢ ـ إن خرافة السفر التي تقدس الرحلة الى ايطاليا وانجلترا ومصر تستمد

جاذبيتها لجميع الأمريكيين المهذبين من نقص ثقافتهم الذاتية. إن أولئك الذين جعلوا بلادهم ـ انجلترا وايطاليا واليونان ـ مقدسة في الخيال، إنما فعلوا ذلك بثباتهم في أمكنتهم كمحور الأرض. وإننا في ساعات الرجولة نحس أن واجبنا أن نثبت في مكاننا. الروح لا تسافر، والرجل العاقل يبقى في بيته، وعندما تستدعيه ضروراته وواجباته في أية مناسبة الى مغادرة بيته أو الى ارتياد بلاد أجنبية فإنه برغم ذلك يكون في بيته، ويجعل الناس يحسون بما يبدو على ملامحه من تعبير أنه إنما جاء ليبشر بالحكمة والفضيلة، وأنه يزور المدائن والرجال كما يزورها السيد لا كما يزورها المتطفل أو التابع.

ليس عندي اعتراض سخيف على الطواف بالكرة الأرضية، في سبيل الفن والدراسة وفعل الخير، إن كان المرء يتوطن أولاً، ولا يرحل الى الخارج آملاً أن يجد شيئاً أعظم مما يعرف. من يرحل للتسلية، أو لكي يظفر بشيء لا يحمله بين جنبيه إنما يرحل بعيداً عن نفسه، ويشيخ حتى في شبابه بين الأشياء العتيقة. إن إرادته وعقله، تشيخ وتتحطم في طيبة وبلميرا، مثلهما. إنه يضم أطلالاً الى أطلال.

الأسفار جنة «العبيط». ورحلاتنا الأولى تبين لنا ما بين الأماكن من تشابه. إنني في وطني أتخيل أن جمال نابلي وروما يمكن أن يخدرني وينسيني أحزاني. فأحزم متاعي، وأعانق أصدقائي، وأقلع في البحر، واستيقظ أخيراً في نابلي، وهناك الى جواري أجد الحقيقة الصارمة، أجد نفسي الحزينة، التي فررت منها، هي هي لم تذعن ولم ترضخ. إنني أقصد الفاتيكان والقصور. وأتظاهر بأني ثمل بالمناظر وما تثيره، ولكني لست كذلك، فإن ماردي يرافقني أنى ذهبت.

٣ ـ بيد أن سورة السفر ليست إلا عرضاً لاختلال أبعد مدى يؤثر في الأعمال العقلية جميعاً. فالذهن متشرد، ونظامنا في التعليم يربى القلق. ترحل عقولنا حينما تضطر أجسامنا الى البقاء في الدار. إننا نقلد ، وليس التقليد سوى رحلة من رحلات العقل. ونبني بيوتنا بذوق أجنبي ، ونزين رفوفنا بأدوات الزينة الغريبة عنا. وآراؤنا ، وأذواقنا ، وكفاياتنا ، تخضع ، وتتبع الماضي والبعيد. لقد أبدعت الروح الفنون حيثما ترعرعت هذه الفنون . ولم يبحث الفنان عن نموذجه إلا في عقله. كان يطبق فكره على الشيء الذي يصنعه والشروط التي يراعيها. وما حاجتنا

الى تـقليـد النمـوذج الدوري أو الغـوطي؟ إن الجمال وراحـة الفكر وعظمـتـه وغـرابة التـعـبير قـريبـة منا قـربها من أي إنسـان آخـر. وإذا درس الفنان الأمريكي ـ يحدوه الأمل والحب ـ الشيء الذي يريد صنعـه تماماً، وأخـذ في اعتباره المناخ والتربة وطول النهـار وحـاجـات الناس وتقـاليـد الحكومـة وشكلها، لأنشأ بيتاً تجد فيه هذه الأشياء كلها لنفسها مكاناً ملائماً لها ويرضى به كذلك الذوق والعاطفة.

اعـتـمـد عـلى نـفسك، ولا تقلد مطلقـاً. إنك تسـتطيع في كل لحظة أن تمد مـوهبـتك بالقـوى المتـجـمعة من ثقافة حياة بأسرها، ولكن ذكاء غيرك الذي تستعيره لا تملك إلا نصـفـه امـتـلاكـاً مزعزع الأصول. إن ذلك الذي يستطيع الفرد أن يتقنه أكـثـر من إتقـانه أي شيء سواه لا يستطيع أن يعلمه إياه إلا بارئه. لا يعرف أحد ما هو، ولا يسـتطيع أن يعـرف، حـتى يعـرضـه صـاحبه. أين ذلك الأستاذ الذي كان يسـتطيع أن يعلم شـيكسـبير، وأين الأسـتـاذ الذي كـان يمكنه أن يعلم فرانكلن أو واشـنـطـن أو بـيـكون أو نيـوتن ؟ كل رجل عظيم فـريد في نوعـه. إن آراء سكبـيـو الخـاصـة هي ذلك الجـانب بعـينه الذي لم يكن يسـتطيع اسـتـعارته. وإنك لن تخلق شـيكسبير بدراسة شيكسبير. إن أنت فعلت ما عُين لك لم تكن مغالياً في أملك أو في إقـدامك. لك في هذه اللحظة رسـالة جـريئة عظيمة كرسالة أزميل فدياس الضخم، أو مـسـطـار المصريين، أو قلم مـوسى أو دانتي، ولكنهـا تختلف عن كل هؤلاء. إن الروح الفنيـة الفـصيحة ذات اللسان الذي له ألف شق، لا يمكن أن ترضى بتكرار نفـسـهـا. ولكنك لو استطعت أن تصغي الى ما يقوله هؤلاء الشيوخ أمكنك بالتأكيد أن تجـيب عليـهم بصـوت مـرتفع كـصـوتهم، لأن الأذن واللسـان عضوان من طبيعة واحـدة. إلزم دائرة حـياتك الساذجة النبيلة، وأطع قلبك، تستعد الدنيا القديمة مرة أخرى.

٤ ـ وكما أن ديـانـتنا وتربيـتنا وفنوننا تبـدو غـريبـة عنا، فكذلك روح الجماعـة عندنا. كل الناس يفـخرون بارتقاء المجتمع. ولا يرتقي منهم أحد.

إن الجماعـة لا تتـقدم مطلقاً . إنما هي تتراجع في جانب بمقدار ما تكتسب في جـانب آخـر . إنها تتـعرض لتغير مستمر . فهي وحشية ، ومتحضرة ، ومسيحية ، وغنيـة، وعلمـيـة. ولكن هذا التـغير ليس تقـدماً، إنما يؤخذ منها بمقدار ما تُعطى.

تكتسب الجماعة فنوناً جديدة ، وتفقد غرائز قديمة . ما أشد التباين بين الأمريكي المهندم اللباس، القارىء، الكاتب، المفكر ، ومعه ساعته وقلمه وقائمة الحساب في جيبه ، وبين الرجل العاري من نيوزيلاند ، الذي لا يملك سوى العصا والرمح والحصير، وجزءاً من عشرين لا يقبل التجزئة في حظيرة ينام تحتها ! ولكن وازن بين صحة الرجلين، تجد أن الرجل الأبيض قد فقد قوته الأصيلة. وأن صدق ما يروي الرحالة فإنك إن ضربت المتوحش بفأس عريضة التأم لحمه بعد يوم أو يومين وتم شفاؤه كأنك ضربت ضربتك في قارٍ لين . في حين أن الضربة عينها تقذف بالرجل الأبيض الى قبره.

أنشأ الرجل الأبيض العربة، ولكنه فقد استخدام قدميه. تسنده عكازته، ولكنه يفتقر الى مثل هذا السند من عضلاته. لديه ساعة جميلة من جنيف، ولكن تنقصه مهارة معرفة الوقت بالشمس. ولديه تقويم بحري من جرينتش، ولذا فإن رجل الشارع لا يعرف نجماً في السماء لأنه قمين ببلوغ المعرفة كلما أراد. إنه لا يرصد الانقلاب الشمسي، ولا يعرف عن الاعتدالين إلا قليلاً. وليس للتقويم المشرق السنوي في ذهنه منزلة. مذكراته تضعف ذاكرته، ومكتباته تبهظ ذكاءه. ومكتب التأمين يزيد من عدد الحوادث ، وأشك في أن الآلة معطلة ، وأننا فقدنا بالتهذيب شيئاً من النشاط ، وبالمسيحية المستغرقة في المؤسسات والصيغ شيئاً من قوة الفضيلة الطبيعية . لأن كل رواقي كان رواقياً ، ولكن أين المسيحي في العالم المسيحي.

لم يحدث تغير في مستوى الأخلاق أكثر مما حدث في مستوى الطول أو حجم الجسم. ولا يوجد اليوم رجال أعظم ممن وجدوا في أي عهد سبق. ويمكن أن تلاحظ المساواة التامة بين عظماء العصور الأولى وعظماء العصور المتأخرة. ولا تستطيع جميع العلوم والفنون والديانات وفلسفة القرن التاسع عشر أن تجدي في تربية رجال أعظم من أبطال فلوطارخس الذين عاشوا منذ ثلاثة أو أربعة وعشرين قرناً. ولم يتقدم الجنس البشري مع تقدم الزمان. وفوكيون وسقراط وانكساجوراس وديجونيس رجال عظماء. ولكنهم لم يخلفوا طبقة معينة. من يكن حقاً من طبقتهم لا يتسمى باسمهم، وانما يكون رجلاً معيناً، ومؤسساً بدوره لطائفة من الطوائف. إن

فنون كل عصر ومخترعاته هي رداء العصر فقط، لا تمد الناس بالقوة. والضرر من تحسين الآلة قد يعادل الفائدة منها. إن هدسن وبهرنج قد أنجزا عملاً ضخماً في زوارق الصيد أذهلا به باري وفرانكلن اللذين استنفد اعدادهما موارد العلم والفن. كما أن غاليليو بمنظاره المسرحي قد كشف عن مجموعة من الظواهر السماوية أفخر مما كشف أي انسان حتى اليوم. وكشف كولمبس العالم الجديد في سفينة مسطحة. وإنك لتعجب لو عرفت أن الوسائل والآلات التي تقابل عند اختراعها بالتهليل والتمجيد يبطل استعمالها وتموت بعد فترة لا تتجاوز بضع سنوات أو بضعة قرون. وانها العبقرية العظمى مردها الى الانسان الذي لا مناص منه. كنا نعد تقدم فنون الحرب من انتصارات العلم، ومع ذلك فإن نابليون قد هزم أوربا بإقامة جيشه في العراء من غير خيام، وهي طريقة تتوقف على الشجاعة المجردة التي تخلو من كل معين. يقول لاس كاساس إن الامبراطور كان يعتقد أنه من المستحيل أن يكوّن جيشاً كاملاً «دون إلغاء أسلحتنا ومستودعات الذخيرة ورؤساء المؤن والعربات، فيتسلم الجندي نصيبه من القمح ـ جرياً على عادة الرومان ـ ويطحنه بطاحونته اليدوية، ويخبز خبزه بنفسه».

المجتمع موجة، والموجة تسير الى الأمام، ولكن الماء الذي تتكون منه لا يتحرك. وذرة الماء عينها لا ترتفع من الأخدود الى القمة؛ إنما وحدتها ظاهرية فقط. والأشخاص الذين تتألف منهم اليوم أمة من الأمم، يموتون في عام مقبل، وتموت معهم تجاربهم.

ومن ثم فإن الاعتماد على الملك، الذي يتضمن الاعتماد على الحكومات التي تحميه، نقص في الاعتماد على النفس. إن الناس قد صرفوا أبصارهم عن أنفسهم لينظروا الى الأشياء، ولبثوا على ذلك طويلاً حتى باتوا ينظرون الى النظم الدينية والعلمية والمدنية كأنها حماة الملكية، وهم يستعيذون من التهجم على هذه النظم لأنهم يحسون أنه تهجم على المِلكية. وهم يقيسون تقدير أحدهم للآخر بما لدى الفرد لا بما هو عليه. ولكن الرجل المثقف يخجل من ملكه لأنه يحترم طبيعته احتراماً لا يحسه سواه ، وهو يمقت ما يملك بوجه خاص ، إذا رأى أنه عرضي ، أتاه عن طريق الميراث، أو الهبة، أو الجريمة. انه حينئذ لا يشعر شعور الملكية،

ويحس أن ما لديه لا يخصه، ولا تمتد جذوره في نفسه، وهو ملك لا يثبت في مكانه إلا لأن الثورة أو الغاصب لا تنزعه منه، ولكن ما يكون عليه الانسان هو دائماً بالضرورة مما يكتسبه، وما يكتسبه المرء هو الملكية الحية التي لا تنتظر اشارة الحكام، أو الرعاع، أو الثورات، أو النيران، أو الزوابع، أو الإفلاس، ولكنها تجدد نفسها دائماً حيثما تنفس الانسان. قال الخليفة علي ما معناه: «إن نصيبك أو حصتك من الحياة يبحث عنك، ولذا فأرح نفسك من البحث عنه». إن اعتمادنا على هذه السلع الأجنبية يؤدي بنا الى احترامنا لكثرة العدد احتراماً مذلاً. إن الأحزاب السياسية تلتقي في مؤتمرات عديدة، وكلما تضخم الحشد، وعند كل ضجة جديدة تعلن «وفد اسكس» أو «الديمقراطيين من نيو هامبشير»، أو «الأحرار من مين» يشعر الشاب المحب لوطنه أنه أقوى من ذي قبل بألف عين وألف ذراع جديدة. وكذلك المصلحون يجمعون المؤتمرات، ويبدون رأيهم ويبرمون أمرهم وسط الجماهير. ولكن الله أيها الرفقاء لا يسلك هذا السبيل كي يدخل في نفوسكم ويسكن فيها، ولكنه يفعل ذلك بطريقة تناقض هذه الطريقة تماماً. إنني اعتقد أن المرء لا يقوى ولا يسود إلا إذا تخلى عن كل معونة أجنبية، ووقف وحيداً. إن كل جندي ينضم الى لوائه يضعفه. أليس الإنسان أفضل من المدينة ؟

لا تسأل الناس شيئاً، وفي التقلبات التي تفوق الحصر قف وحدك كالطود الشامخ واظهر في الحال عماداً لكل ما يحيط بك. من يعرف أن القوة فطرية، وأنه ضعيف لأنه بحث عن الخير خارجاً عنه وفي مكان آخر، يدرك ذلك فيعمد بغير تردد الى أفكاره. مثل هذا الرجل يستقيم في الحال عوده، وتعتدل قامته، ويسيطر على اعضائه، ويأتي بالمعجزات. فالرجل الذي يقف على قدميه يكون أقوى من الرجل الذي يقف على رأسه.

على هذه الصورة ينبغي أن تستغل كل ما يسمونه «نصيب الانسان». إن أكثر الناس يقامرون بهذا النصيب فيكسبون كل شيء، أو يخسرون كل شيء، حسبما تدور عجلته. ولكن عليك أن تتخلى عن هذه المكاسب وأن تعدها غير شرعية، وأن توجه اهتمامك نحو العلل والنتائج ففيها سر القوة الإلهية، وأعمل واكتسب بإرادتك، فإنك بذلك تضع عجلة «الحظ» في الأغلال، وتكون حينئذ في مأمن من

دوراتها. ان نصراً سياسياً، أو ارتفاعاً في الأجور، أو شفاء مريض لك، أو عودة صديق غائب عنك، أو أي حدث غير ذلك مما تحب، ينهض بروحك فتحسب أن الأيام الطيبة تتأهب لك. لا تعتقد ذلك، فلا يجلب لك السعادة غير نفسك، ولا يجلب لقلبك الطمأنينة غير انتصار المبادىء.

البراهما (١)

ترجمة : د. أحمد يعقوب المجدوبة

[من القصائد التي تركز على أهمية النظر الى ما هو غير مرئي وعلى أهمية الايمان بجوهر الروح. وتدل القصيدة على تأثر إمرسن بالفلسفات الهندية القديمة وبنزعاتها الروحية. وفي القصيدة لمحة تساميّة من حيث الوصول الى حالة نفسية أو روحية يكون فيها «البعيد والمنسي قريبان» ويكون «الظل ونور الشمس سيان». وهذا تجسيد لفكر إمرسن من حيث الخروج عن المألوف ومن حيث النظر للأشياء من خلال العقل] .

المحرر

إن ظن القاتل الأحمر أنه يَقْتُلُ
أو ظن المقتول أنه يُقْتَلُ،
فهما لا يدركان كنه تدابيري
التي أُمسك وأُطلق وأُسيِّر .

البعيد والمنسي قريبان مني
والظل ونور الشمس سيان؛

(١) العلة الأولى ، أو الذات العليا، أو روح الكون وجوهره في الفلسفات الهندوسية.

وتظهر الآلهة الخفية لي،
والمجد والعار واحد أمامي.
يسيء الظن من يتركني،
فعندما يطيرون بي، أكون أنا الجناح،
وأكون الشاكّ والشكّ أنا.
وأنا الانشودة يغنيها البرهمي (١) .

يتوق الآلهة العظام الى مهدي،
وتحترق شوقاً السبع المقدسات دون جدوى،
أما أنت يا من تعشق الحسنى بلطف،
جدني، وأدر ظهرك للسماء.

١٨٥٦

---

(١) الذي يتبع العقيدة البرهمية .

نـثـانـيـل هـوثـورن
(١٨٠٤ ـ ١٨٦٤)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحـة عـامـة :

روائي خـلاَّق وكـاتـب حـكـايات من الطراز الأول ، لعله أفـضل من سبر غـور الماضي الأمـريكي بحلوه ومـرة ومن أفـضل من شخّص مشاكل الحاضر الذي كان يعيش. يعد من الأدباء القـلائل في عصره الذين تبـوأوا مكانة مـرمـوقـة ، وهو قطب من أقطاب النهـضـة الأمريكية يعرفه مـعظم القـراء ، وبخـاصـة القارىء العربي ، من خلال روايته العظيمة **الشارة القرمزية** ، تلك الرواية التي تمثل هوثورن في أوج تألقـه وعظمـته.

حـيـاتـه :

ولـد هـوثـورن فـي الـرابـع مـن تموز عـام ١٨٠٤ في بلـدة سيلْـم فـي ولايـة مـسـتـشـوسـتس لأسرة تنحـدر من أصـول طهرانية . فلقد كان أحد أجداده من الطهرانيين الذين اشتركـوا في تعـذيب الصـاحـبيين، وكـان أحدهـم من الذين حكموا على «السحرة» بالموت حرقاً . وكـان لهاتين الفـعلتين أثر كـبير في وجـدان وكتابات هوثورن التي عالجت في جزء كبير منها التجربة الطهـرانية . توفي والده والذي كان يعمل قبطاناً بحرياً عندما بلغ هوثورن سن الرابعة ، فعاش مع أمـه واخـوته في فـقـر مدقع. وقد اضطرت الأم أن تعيش مع أقاربها فترة من الزمن ، فقد صحبت هوثورن مـعها في سن الثانية عشرة الى مين Maine للعيش عند أخيها.

درس هـوثـورن في كـليـة باودوين عـام ١٨٢١ وتخرج منهـا عـام ١٨٢٥ . وقـد تعـرف في أثناء دراسـتـه على الشـاعـر لونغـفلو وعلى فـرانكلن بيرس الذي أصـبح فـيها بعـد رئيـسـاً للولايات المتحدة الأمريكية.

مـرّ هوثورن بعـد تخرجـه بما يسـمى بفترة العـزلة والتي قـضـاها في بيـته في سيلْم حتى عام

١٨٣٧ . وقد قضى معظم تلك الفترة في الدراسة والتفكر والتدرب على الكتابة . وقد أفاد من مطالعاته في التاريخ الأمريكي والعقيدة الطهرانية فائدة ستنعكس على كتاباته ايجابياً . كتب عام ١٨٢٨ أول رواية له واسماها Fanshaw ويعالج من خلالها حياة الدراسة في باودوين ، بيد أنها لم تعجبه فقام باتلافها . في عام ١٨٣٨ وفي أعقاب نهاية عزلته خطب جارته صوفيا بيبدي . عمل عام ١٨٣٩ في بيت الجمارك في بوسطن ، وانتقل عام ١٨٤١ للعيش في مزرعة بروك ، وهي تلك المزرعة الفلسفية التي أنشأها عدد من أنصار فلسفة التسامي ، والتي أرادوا من خلال العيش فيها أن يعدوا برنامجاً لاصلاح المجتمع . تزوج هوثورن من صوفيا عام ١٨٤٢ وانتقل للعيش في كنكورد . وقد كوّن هناك صداقات مع إمرسن وثورو وغيرهم. ومع أنه نشر العديد من الكتب إلا أنه لم يفلح في كسب الرزق المطلوب.

عاد عام ١٨٤٦ يشتغل في بيت الجمارك في سيلْم ، ولم يتغير ويتبدل الحال الا عندما نشر روايته **الشارة القرمزية** عام ١٨٥٠ والتي جلبت له الشهرة والمال . عينه صديقه الرئيس بيرس عام ١٨٥٣ قنصلاً في مدينة لفربول بانجلترا. ومع أنه لم يحب عمله فقد قام به على خير وجه . وقد استغل تلك الفرصة ليزور بريطانيا وايطاليا وفرنسا. عاد عام ١٨٦٠ الى كنكورد وبقي فيها حتى وفاته عام ١٨٦٤ .

أهميته :

يعد هوثورن كاتب روايات وحكايات عالمي . ذاع صيته ليس في أمريكا فحسب، بل في بلدان عديدة في العالم الغربي وغيره. ولقد طور الحكاية وعزز من مكانتها الأدبية . هذا وقد كتب هوثورن في ثلاثة محاور . الأول ويعالج التاريخ الامريكي بسلبياته وايجابياته . فقد كتب حول التجربة الطهرانية وكتب حول الصاحبيين والهنود والثورة الأمريكية ، وقد ابدع فيها كتب خير إبداع ، ولقد قام بتشريح التاريخ الامريكي تشريحاً ذكياً . أما المحور الثاني ، فهو كتاباته حول العصر الذي عاش فيه والتي تضاهي في رقيها مؤلفات المحور الأول ، فيعالج الحاضر الأمريكي الذي سيطرت عليه الحركة المتسامية. وقد ألف هوثورن حكايات مهمة تشرح فكر حركة التسامي التي قرأ عنها وخبرها من خلال تجربة مزرعة بروك. أما المحور الثالث، فهو المحور الاوروبي والذي ألف عنه رواية وعدة حكايات.

ولعل أهم ما يميز هوثورن في حكاياته اسلوبه الرمزي أولاً وصوته الذي يقوم على الوصف والتحليل والسرد ، دون أن يتحدث لنا مباشرة ويخبرنا بما يريد، تاركاً الحرية للقارىء في تأويل ما يقول. وهذا ما يزيد كتاباته صعوبة ومتعة في آن واحد. أثّر هوثورن في الكثيرين، نذكر منهم على سبيل المثال هنري جيمس.

الشاب جودمان براون (*)

[من أروع قصص هوثورن الرمزية. تعالج فيها تعالج مسألة الايمان في الديانة الطهرانية، والتي تقوم على مبدأ يصعب على انسان عادي مثل جودمان براون فهمه، حيث أن الطهرانية تؤكد أن الانسان يمكن أن يكون آثماً وصالحاً في آن واحد. تركز أحداث القصة على صعوبة هضم الانسان العادي مبادىء العقيدة الطهرانية والتي تسبب لبراون إرباكاً يستغله الشيطان فيغويه ويشوش عقله ويدمر ايمانه دماراً شبه كامل. الانسان ميال بطبعه لتقسيم الأمور الى أقسام محددة المعالم، لا الى خلط الأبيض بالأسود] .

المحرر

خرج الشاب جودمان براون (١) عند المغيب الى شارع قرية سالم، (٢) لكنه بعد أن تخطى العتبة أدار رأسه الى الوراء ليبادل زوجته الشابة قبلة وداع . أما فيث، (٣) الجديرة بهذا الأسم، فأطلت برأسها الحسن للشارع وتركت الريح تداعب أوشحة قبعتها القرنفلية، بينما كانت تحادث جودمان براون.

«يا حبيب قلبي» ، همست بنعومة وبشيء من الحزن عندما اقتربت بشفتيها من أذنه ، «أرجوك أن ترجىء رحلتك حتى شروق الشمس ، وأن تنام في سريرك

(*) أخذت من **اربع حكايات من عصر النهضة الامريكية** ، ترجمة د. أحمد يعقوب المجدوبة (عمان : مركز الكتب الأردني، ١٩٩٠).

(١) الألقاب والأسماء في هذه القصة لها مغازيها، فمع أن كلمة «جودمان» تعني «الرجل الطيب» فإنها أيضاً استخدمت هنا كلقب. الـ «جودمان» هو أدنى منزلة من السيد. وقد تعني «جودمان» أيضاً «رب البيت» .

(٢) من القرى التي استوطن فيها المتطهرون.

(٣) وتعني «الإيمان» .

هذه الليلة . المرأة الوحيدة تزعجها الاحلام والافكار حتى أنها تخاف من (١) نفسها أحياناً. أرجوك يا زوجي العزيز، ابق معي هذه الليلة بالذات من ليالي السنة كلها».

«يا حبي ويا فيْثي» (٢) أجاب الشاب جودمان براون ، «من كل ليالي السنة ، هذه الليلة بالذات يجب أن أسافر بعيداً عنك. رحلتي، كما تسمينها، يجب أن تتم ذهاباً وإياباً بين الآن وشروق الشمس. ماذا يا زوجتي الحلوة المليحة ، أتشكّين بي من الآن ، ولم يمض على زواجنا سوى ثلاثة أشهر» .

«إذن ليباركك الله»، قالت فيث صاحبة الأوشحة القرنفلية، «وأرجو أن تجد كل شيء على ما يرام عندما تعود».

«آمين»، أجاب جودمان براون «اتلي صلواتك، يا عزيزتي فيث، واخلدي للنوم عند حلول الظلام، وسوف لن يصيبك أي أذى» .

هكذا افترقا؛ تابع الشاب مسيره وكان على وشك الانعطاف عند زاوية الشارع قرب مبنى الاجتماعات، عندما نظر خلفه ورأى رأس فيث، التي كانت وما زالت ترمقه بعينين حزينتين بالرغم من أوشحتها القرنفلية.

«مسكينة صغيرتي فيث»، أخذ يفكر، إذ أن ضميره أنبه، «إنني لشقي حقاً لتركها والذهاب في مثل هذه المهمة. إنها تتحدث عن الأحلام أيضاً. لاحظت عندما تكلمت أن وجهها ينم عن شعور بالأسى؛ كأن حلماً قد انبأها عن العمل الذي سيتم القيام به هذه الليلة. لكن لا، لا، لو جال في خاطرها مثل ذلك لقضي عليها. حقاً، إنها ملاك على هذه الأرض؛ بعد هذه الليلة سوف أتشبث بثيابها وأتبعها إلى السماء» .

بعد اتخاذ هذا القرار المستقبلي الحازم، شعر جودمان بروان بضرورة الإسراع

---

(١) أو «على» .

(٢) من المهم ملاحظة أن «فيث» تمثل شخصية الزوجة ، لكن من المهم أيضاً ملاحظة أنها تمثل «إيمان» الزوج، ومن هنا ارتأيت ترجمة «my Faith» «يا فيثي» ، بدلاً من «يا عزيزتي فيث»، مثلاً.

في اتمام مهمته الآثمة الحالية. كان قد سلك درباً مخيفاً، ازداد ظلمة بسبب اشتداد عتمة أشجار الغابة، التي كانت من الكثافة بحيث أنها تنحت بصعوبة لتريه الممر الضيق ثم أغلقته بعد مروره مباشرة. كان المكان يبعث في النفس شعوراً عارماً بالوحدة؛ والغريب في مثل تلك العزلة أن المسافر، الذي يمشي بخطى وطيدة بين الحشود غير المرئية، لا يدري من يمكن أن يكون مختبئاً بين الجذوع التي لا تحصى والأغصان الكثيفة فوق رأسه.

«من الممكن أن يكون شيطان هندي خلف كل شجرة»، قال جودمان براون يخاطب نفسه، ونظر وراءه بوجل، عندما أضاف، «ماذا لو كان الشيطان نفسه خلفي مباشرة» .

كان ينظر خلفه عندما دخل طريقاً متعرجاً؛ وعندما نظر أمامه مرة أخرى رأى طيف رجل في حلة مرتبة ومحافظة، يجلس إلى جذع شجرة قديمة. نهض عند اقتراب جودمان براون ومشى معه جنباً إلى جنب.

«لقد تأخرت يا جودمان براون» ، قال له ، «ساعة الجنوب القديمة كانت تدق عندما دخلت بوسطن، وكان ذلك قبل خمس عشرة دقيقة كاملة» (١) .

«أخرتني فيث قليلاً»، أجاب الشاب بصوت مرتبك، سبّبه ظهور رفيقه المفاجيء، والذي لم يكن غير متوقع.

كان الظلام آنئذ حالكاً في الغابة، والجزء الذي يسافر فيه هذان الإثنان كان أكثر الأجزاء حلكة . مما يمكن رؤيته، تبين أن المسافر الثاني في الخمسين من عمره تقريباً؛ بدا وكأنه ينتمي إلى نفس المستوى الاجتماعي الذي ينتمي إليه جودمان براون، وكان يشبهه كثيراً، مع أن الشبه ربما كان في التعبير أكثر منه في الملامح. ومع ذلك فيمكن أن يعدّا أباً وإبناً. وبالرغم من هذا كله، ومع أن الشخص الأكبر كان يلبس لباساً ببساطة لباس الأصغر وأن رونقه ببساطة رونقه أيضاً، فقد كان له، مع صعوبة وصف ذلك، سمة إنسان خبر الدنيا، وأنه لم يكن ليشعر بالحرج لو

(١) المسافة بين المكانين بعيدة جداً مما يعني أن المتحدث يملك قوىً خارقة.

جلس على مائدة الحاكم أو في حضرة الملك وليم، إذا ما تطلب عمله الذهاب هناك. لكن الشيء الوحيد، فيما يخصّه ، الذي يمكن اعتباره خارقاً فهو عصاه التي كانت تشبه حيّة سوداء عظيمة ، صنعت بدقة تامة بحيث يمكن تخيلها وهي تنثني وتتلوى مثل أفعى حيّة. لكن لا بد أن ذلك كان مجرد خداع بصري، سببه عدم وضوح الرؤيا.

«هيا يا جودمان براون»، قال رفيق دربه، «هذه خطىً بطيئة لشخص ما زال في بداية الرحلة. خذ عصاي إن كنت قد تعبت بهذه السرعة» .

«أيها الصديق»، قال الآخر مبدلاً خطواته البطيئة بوقفة تامة، «بعد أن وفيت بوعدي وقابلتك هنا، فإنني أعتزم الآن الرجوع من حيث أتيت. تراودني الشكوك إزاء ما تريده مني» .

«أتعتقد ذلك؟» أجاب صاحب الأفعى، بابتسامة جانبية، «دعنا مع ذلك نتابع سيرنا ونتحاور، فإن لم أتمكن من إقناعك عدت أدراجك. لم نقطع سوى مسافة قصيرة في الغابة، لغاية الآن» .

«بل مسافة طويلة جداً، طويلة جداً»، قال الجودمان، وتابع مسيره دون وعي. «لم يسافر والدي في الغاب قط لأجل مهمة من هذا القبيل، ولا أبوه من قبله. إننا ننتمي إلى أسرة مكوّنة من رجال مخلصين ومسيحيين مؤمنين منذ أيام الشهداء. هل أكون أنا أول من يسير في مثل هذا الدرب من عائلة براون، وأن أقابل ـــ» .

«مثل هذا الرفيق، تود أن تقول»، قال الشخص الأكبر، يفسر ما توقف عن قوله. «حسناً يا جودمان براون. لقد كنت على معرفة تامة بعائلتك، قدر معرفتي بأي من المتطهرين (١) ؛ ولا أقول هذا مازحاً . لقد ساعدت جدك الحاكم ، عندما جلد المرأة الصاحبية (٢) بقسوة في شوارع سالم. وكنت أنا الذي أحضر لوالدك عقدة

(١) حركة دينية انشق أنصارها عن الكنيسة الكاثوليكية في بريطانيا على وجه الخصوص، وهاجروا إلى أمريكا الشمالية في أوائل القرن التاسع عشر.

(٢) الصاحبيون هم أفراد حركة دينية استوطنوا بالقرب من المتطهرين الذين اضطهدوهم لخلافاتهم العقائدية.

الصنوبر الراتنجي، المُشعلة من مدفأتي، ليضرم النار في قرية هندية في حرب الملك فيليب (١) . كانا كلاهما صديقين حميمين لي ، وقد خرجنا في نزهات جميلة كثيراً عبر هذا الدرب ، ورجعنا مرحين بعد منتصف الليل . إنني أريد مصادقتك من أجلهما» .

«إذا كان الأمر كما تقول»، أجاب جودمان براون، «فإنني أعجب أنهما لم يذكرا قط هذه الأمور. أو في الواقع إنني لا أعجب، لأنني متأكد أن أبسط إشاعة من هذا القبيل كانت كفيلة بأن تدفعهما للرحيل من نيو إنجلند. نحن أناس مصلّون وأفعالنا جيدة ولا نعذب أو نقترف مثل تلك الآثام» .

«آثام أم غير آثام»، قال المسافر صاحب العصا المثنية. «إن لي معارف كثيرين هنا في نيو إنجلند . شماسو العديد من الكنائس شربوا خمر الصداقة معي . وجهاء من بلدان عديدة يجعلون مني رئيسهم، والغالبية من أعضاء المحكمة العليا والعامة هم مساندون أقوياء لمصالحي. وأنا والحاكم أيضاً ــ لكن هذه أسرار دولة» .

«أيعقل أن يكون ذلك !» صاح جودمان براون ونظر بتعجب إلى رفيقه الذي لم يبدُ عليه التأثر . «ومع ذلك، لا علاقة لي بالحاكم أو المجلس؛ إن لهم طرائقهم الخاصة بهم، وهم ليسوا قدوة لإنسان عادي مثلي. لكن إذا مضيت معك، كيف أواجه نظرة قسّنا الرجل العجوز الطيب في قرية سالم. آه، سوف يجعلني صوته أرتعد، يوم الأحد (٢) ويوم الدرس» .

لغاية الآن، كان المسافر الأكبر يصغي باهتمام بالغ . لكنّه الآن انفجر ضاحكاً بلا تحفظ، واهتز بقوة، لدرجة أن عصاه التي تشبه الأفعى بدت حقاً وكأنها تتلوى متعاطفة معه.

«ها، ها، ها»، صاح مرة تلو المرّة؛ وبعد أن تمالك نفسه قال : «حسناً ، استمر يا جودمان، استمر. لكن أرجوك لا تقتلني من الضحك» .

«حسناً إذن ، حتى أنهي المسألة بشكل حاسم» ، قال جودمان براون بغضب شديد، «هنالك زوجتي فيث. سوف يحطم ذلك قلبها الصغير الغالي ؛ وأنا أفضل

(١) حرب بين الهنود الحمر والمتطهرين (١٦٧٥ ـ ١٦٧٦).
(٢) وقد يكون السبت أيضاً لبعض الفرق المسيحية.

أن يحطم قلبي أنا» .

«لا، إذا كان الأمر كذلك»، أجاب الآخر، «إذهب في حال سبيلك يا جودمان براون. لا أرغب، وحق عشرين امرأة عجوز مثل تلك التي تعرج أمامنا، أن تصاب فيث بأي مكروه» .

بينما كان يتكلم أشار بعصاه إلى طيف أنثوي في الدرب؛ عرفها جودمان براون امرأة شديدة التقوى ومثالاً يحتذى به ؛ كانت قد علمته أساسيات عقيدته في صغره ؛ وهي ما زالت ، بالإضافة إلى القس والشماس جوكن ، مرشدته الروحية والخلقية» .

«إنه لعجيب حقاً أن تكون جودي كلويس موجودة في هذا المكان النائي من البرية أثناء الليل» ، قال . «لكن بعد إذنك أيها الصديق ، أريد أن أسلك طريقاً مختصراً في الغاب من أجل أن أسبق هذه المرأة المسيحية. إذ بما أنها لا تعرفك ، قد تسألني مع من أتحدث وإلى أين أنا ذاهب» .

«ليكن ما تريد»، قال رفيقه في السفر. «سر بين الشجر ودعني أنا أمشي في الدرب». وبالفعل، انعطف الشاب نحو أحد الجوانب، لكنه حرص على أن يرقب رفيقه الذي تقدم بهدوء في الطريق حتى أصبح بينه وبين السيدة العجوز مسافة تبلغ طول العصا. في تلك الأثناء، كانت هي تبذل قصارى جهدها في المشي، تشق طريقها بسرعة مذهلة لامرأة في مثل سنها؛ وكانت خلال مسيرها تتمتم بعض الكلمات الغامضة، لا شك أنها صلوات. مدّ المسافر العصا ولمس رقبتها الذاوية بالطرف الذي يشبه ذيل الأفعى.

«الشيطان» ، صاحت المرأة العجوز التقية.

«إذن تعرف جودي كلويس صديقها القديم»، قال المسافر الذي وقف أمامها متكئاً على عصاه المتحركة.

«آه، إنه إذن سيادتك حقاً»، قالت السيدة الطيبة. «نعم إنه أنت بالفعل، وفي الصورة المطابقة لصديقي القديم الثرثار جودمان براون ، جد الشخص التافه الذي يسمى بهذا الاسم الآن. لكن، أتصدق سيادتك أن عصا مكنستي قد اختفت

فـجأة؛ سرقـتـهـا، كما أعتقد، جودي كوري، تلك الساحرة التي لم تشنق بعد، وتمّ ذلك عندمـا كنت مـدهونة بسائل الكرفس البري والبوطنطلة وخانق الذئب ــ» (١).

«الممـزوج بالذرة المطحـونة وشـحم الطفل المولود حـديثـاً»، قال طيف جودمان براون الشيخ.

«حـقـاً، إن سـيـادتك يعـرف الوصـفـة»، قـالت المرأة العـجـوز، وضحكت بصـخب. «إذن، كما كنت أقـول، بعـد أن وجـدت نفسي جاهزة لحضور الاجتماع، ولم أجـد حـصـانـاً أركبه، قررت الحضور مشياً، إذ أنني أخبرت أن شاباً مليحاً سوف يضم إلى الملّة الليلة. أمـا الآن فـسـوف يعيرني سـيادتك الطيب ذراعه، وسوف نصل هناك بلمح البصر» .

«هذا غير ممكن» ، أجـاب صـديقـهـا . «لا أسـتطيع أن أعطيك ذراعي ، يا جودي كلويس، لكن هاك عصاي، إن شئت» .

بعـد أن قـال ذلك، ألقاها عند قدميها ، حيث من المؤكد أنها أصبحت حية، لكونها إحـدى العصي التي أعـارها صـاحـبـها قديماً لسحرة مصر. لم يستطع جودمان براون في الواقع التـحـقق من هذا الأمـر، إذ كـان قـد رفع عـينيـه للأعلى بتـعجب، وعندمـا نظر للأسـفل مـرة ثانيـة لم ير جـودي كلويس ولم ير العـصـا الأفعوانية، بل وجـد رفـيق دربه وحيداً، ينتظر بهدوء وكأن شيئاً لم يحدث.

«تلك المرأة العـجـوز علمـتني أسـاسـيـات عـقيدتي»، قال الشاب ، ونمّ هذا التعليق البسيط عن عالم كامل من المعاني.

تابعـا مـسيرهما قـدماً، وكان المسافر الأكبر يحث رفيقه على الإسراع والاستمرار في الدرب، ويتـحـدث ببراعـة؛ لدرجـة أن آراءه بدت وكأنها تتـولد في صدر المصغي له لا وكأنه هو الذي يقترحـهـا. بينما كـانا يمـشـيان، اقتطف غصناً من القيقب كي يسـتـخـدمـه كـعـصـا للمشي، وبدأ يجرّده من البراعم والأغصان الصغيرة التي كانت مبـتلة بندى المسـاء. في اللحظة التي لمسـتـهـا أصـابعه، بدأت تذبل بشكل غريب وتجف، كأنها تعـرضت لأسـبوع كامل من الشمس. هكذا تقدم الاثنان بخطىً واثقة

---

(١) أعـشاب ونباتات برية لها علاقة بالشعوذة.

مسرعـة، إلى أن جلس جـودمـان براون فـجأة في وهدة مظلمة في الطريق فوق جذل شجرة ورفض التقدم أكثر من ذلك.

«أيها الصـديق» ، قـال بتـصميم ، «لقد عقدت عزمي. إنني لن أخطو خطوة أخرى في هذا السبيل. ماذا لو اختارت امرأة عجوز شقية أن تذهب للشيطان عندما ظننتـها ذاهبة إلى السماء. أهذا مبرر لأن أترك عزيزتي فيث وأسير خلفها» .

« سـوف تتـقـبل الفكرة شـيئـاً فـشيئـاً » ، قال صاحبه بثقـة . « اجلـس هنا وأرح نفـسـك قليـلاً ؛ وعندما ترغب في السير ثانيه هذه عصاي تساعدك على المضي قدماً » .

رمى لرفـيـقـه العـصا القيقبية، دون التفوه بكلمة أخرى، واختفى عن الأنظار فـجأة، كأنه قـد تلاشى في الظلام المتكاثف . جلس الشاب لعدة لحظات على حافة الطريق يهنىء نفـسـه بحـرارة ويفكر كـيف أنه سـيـلاقي القس في جـولتـه الصباحية بضـمير نقي، وكـيف أنه لن يتفادى نظرة الشماس العجوز الطيب جوكن. ويا لهدوء النوم الذي سيستمتع به تلك الليلة، بكل طهارة وعذوبة، في أحضان فيث، بعد أن كـان على وشك أن يمـضـيـه في أفـعـال شريرة. في أثناء هذه التـخـيـلات الجـميلة والمحـمـودة، سمع جودمان براون خبب حُصن في الطريق، فرأى من الحكمة إخفاء نفـسـه داخل الغـابة، يشعر بالغرض الآثم الذي جاء به إلى هنا، مع أنه الآن سعيد لعدوله عنه.

اقترب وقـع الحـوافـر وصـوتا الراكـبينْ (١) ، وهما صـوتان عجـوزان جـادان ، يتـحـدثان باتزان. بدا هذان الصـوتان المـتـزجان وكأنهما يسيران في الدرب، على بعد بضع ياردات من المكان الذي اختـبأ فـيـه الشـاب ؛ لكن بسبـب شـدة الظلام ـ لا ريب ـ في تلك البـقـعـة بالذات لم يُـر الراكبان ولا الجوادان . ومع أن طيفيهما احتكا بـالأغـصـان الصـغيرة على حـافـة الطريق ، فإنه لم يلاحظ أنهما تلقـيـا ، ولو للحظة

(١) لاحظ أن جـودمـان براون لم ير الرجلين ولم ير الحـصانين ـ كما أنه عندما اعتقد أنه رأى جودي كلويس آنفـاً كـان في الحـقيقة قد رأى طيفاً أنثوياً ظنّه جودي كلويس. يقصد الكاتب من وراء ذلك كله التـشكيك بحقيقة ما يرى جودمان براون أو ما يسمع؛ وبالتالي قد يكون كل ما يرى أو يسـمع مجرد أطياف وأصوات، لا أشخاص من لحم ودم.

واحـدة، الـضـوء الخـافـت الـقـادم من الجـزء المضيء من السماء، والذي لا بد وأنهما انحـرفـا عنه. كـان جـودمـان براون ينحني تارة وتارة يقف على رؤوس أصابعه يبعد الأغـصـان جـانبـاً ويمـد رأسـه إلى الأمام أقصى ما يستطيع دون أن يرى حتى مجرد طيف. والذي زاده غـيظاً أنه يكاد يقـسم، لو كـان ذلك ممكناً، أنه ميز صوتي القس والشماس جـوكن يهرولان قـدماً بهدوء كما كانا يفعلان عندما يذهبان إلى حفلة سيامة أو إلى اجتماع ديني . وعندمـا كـان صـوتاهما مـا يزالان مـسـمـوعين ، توقف أحـد الراكبين ليقتطف غصناً.

«لو أنني خُيِّـرت بالنسبـة للاثنين، سـيدي العزيز» ، قال الصوت الذي يشبه صـوت الشماس، «فإنني أفضل فقدان مأدبة سيامة على فقدان اجتماع الليلة. يقولون إن بعـضـاً من جماعـتنا سيحضرون إلى هناك، من فالماوث وما بعدها، ومن كنكتكت وورود آيلند؛ بالإضـافـة إلى العـديد من الأطبـاء الهنود الذين تبـعـاً لتقاليدهم يعرفون بأمـور الشـيطنة مـعـرفـة أفضلنا. يضاف إلى ذلك أن هنالك فتاة مليحة ستضم إلى الجمع» .

« حـسنـاً جـداً ، يا شماس جـوكن » ، أجـاب القـس بنبرته الجادة المعروفة . « لنسرع ، وإلا سـوف نتأخـر ، لن يفـعلوا شـيئـاً كما تعلم إلا بعـد وصـولي أنا إلى هناك » .

تابعت الحـوافـر وقـعها ثانية ومر الصوتان بالقرب منه، يتحدثان بغرابة شديدة في ذلك الجو الفارغ، غبر الغابة التي لم تجتمع فيها طائفة كنسية ولم يصلّ فيها ناسك مـسـيـحي. إلى أين إذن يذهب هذان الرجـلان المبـاركـان في هذا العـمق من البرية الوثنيـة؟ تمسك الشـاب جـودمان براون بإحدى الشجيرات ليسند نفسه، إذ كان على وشك السـقـوط على الأرض شـبـه مغشي عليه ومصاباً باعتلال شديد في قلبه. حملق في الفـضـاء، وسـاوره الشك في حـقـيـقـة وجود السماء فوقه . ومع ذلك ، فقد كان هنالك القـوس الأزرق، وكانت النجوم تشع فيه.

« بـوجـود الـسماء فـوقـي وفـيث على الأرض ، سـوف أقف صـامـداً في وجـه الشيطان » ، صاح جودمان براون .

بينما كـان مـا يزال ينظر للأعلى في القوس السماوي العميق، وبعد أن رفع يديه

ليدعو، مرّت سحابة مسرعة على طول السمت، بالرغم من عدم هبوب أية ريح، وحجبت النجوم المشعة. كانت السماء الزرقاء ما تزال مرئية، ما عدا الجزء الواقع فوق رأسه مباشرة، حيث كانت تلك الكتلة من السحب تمر منه بخفة شطر المشرق. جاء من أعالي الجو، وكأنه يصدر من أعماق السحابة، مزيج من الأصوات مبهم ومشكوك فيه. تخيل المستمع تارة أنه يميز لهجات أبناء بلدته رجالاً ونساء، أتقياء وفاسقين، كان قد اجتمع العديد منهم على مائدة القداس كما شاهد الآخرين يسمرون في الحانة. وتارة أخرى، كانت الأصوات على درجة من عدم الوضوح بحيث أنه شك فيما إذا كان قد سمع شيئاً غير همهمة الغابة القديمة، التي تهمس بالرغم من عدم وجود ريح. بعدها جاء صدىً أقوى لتلك النبرات المألوفة التي تسمع يومياً في وضح النهار في قرية سالم، والتي لم تسمع قط لغاية الآن من سحابة ليلية. كان هنالك صوت لامرأة شابة، يلفظ الرثاءات بحزن غير أكيد ويطلب شيئاً ما يبدو أن الحصول عليه يشقيها. وبدا الجمع غير مرئي كله، المكون من القديسين والآثمين، وكأنه يحثها قدماً.

«فيث»، صرخ جودمان براون، بصوت ينمّ عن معاناة ويأس. وترددت (١) الأصداء في الغابة ساخرة منه ـ «فيث»، كأن هنالك أشقياء حائرين كانوا يبحثون عنها في جميع أنحاء البرية.

كانت صرخة الحزن والغضب والهلع ما زالت تشق الليل، عندما حبس الزوج التعس أنفاسه وأخذ ينتظر الإجابة. أتت صيحة بعد ذلك؛ لكنها غرقت على الفور في همهمة أصوات عالية انتهت إلى ضحك ناء، في حين تلاشت السحابة السوداء تاركة السماء فوق رأس جودمان براون صافية صامتة. لكن شيئاً ما سقط يرفرف بخفة من الفضاء وتعلّق على غصن شجرة. التقطه الشاب فوجد أنه وشاح قرنفلي.

«ضاعت فيثي»، صاح بعد لحظة المفاجأة. «لا يوجد خير على هذه الأرض؛ والإثم هو مجرد اسم، تعال أيها الشيطان، فإن هذا العالم قد وهب لك».

(١) أو «صاحت» إذا ما اعتبرنا الأصداء شخوصاً.

بعـد أن جنّ جـودمـان براون من شـدة اليأس، حيث أنه ضحك بأعلى صوته ولفترات طويلة، التـقط العـصـا وانطلق مـرة أخرى بسرعة بدا من خلالها وكأنه يطير فـوق الممر في الغـاب، لا وكأنه يمشي أو يركض. ازدادت الطريق وحـشـة وظلمـة وقلّ وضـوح مـعـالمها إلى أن تلاشت في النهـاية، تاركـة إياه في قلب البرية المعـتم، ينطلق مسرعـاً إلى الأمـام بتلك الغـريزة التي تقود المخلوقات البشرية إلى الشر. كانت الغـابة كلهـا تعج بالأصوات المخيـفـة: صرير الأشـجـار وعـواء الوحوش الضارية وصراخ الهنود؛ في حين أصـدرت الريح أحـيـاناً رنيناً يشبه رنين جرس كنيسة بعيدة، وأصـدرت أحـيـاناً زمجرة شـديدة حـول المسـافر، كأن الطبيعة كلها ضحكت ساخرة منه. ولكن مـصـدر الرعب الرئيس في المشـهـد، كـان يتجسد في شخصه، ولم تخفه أشكال الرعب الأخرى.

«ها ، ها ، ها» ، زمجر جـودمـان براون عندمـا سـخرت منه الريح . «دعينا نسـمع من يضـحك بصـوت أعلى. لا تظني أنك تخيـفـيني بشـيطانيتك. تعالي أيتها السـاحـرة، تعـال أيها الساحر، تعال أيها الكاهن الهندي، تعال أيها الشيطان نفسه، فـها قد أتى جودمان براون. من الواجب أن تخافوه كما يخافكم» .

في الحقيقة، لا يوجد شيء أكـثـر هـولاً في الغـابة المسكونة كلهـا من طيف جـودمـان براون. اسـتـمـر في طيرانه بين الجـذوع السـوداء، يلوح بعـصـاه بحركات محمـومـة، يتـفـوه بكلمات تنم عن كـفـر مـريع تارة، وتارة أخـرى ينفجر ضاحكاً مما جـعل الأصـداء في الغـابة تضـحك وكأنها عـفـاريت تحيط به. إن رؤية العـفـريت بشـخـصه لأقل قبحاً من رؤيته ثائراً في صدر إنسان. هكذا تابع الرجل الذي تلبّسه الشـيطان طريقـه حـتى رأى أمـامـه ضـوءاً أحمر يتـلألأ بين الشـجـر ، كأن النار قـد أضرمت في مـسـاحـة هائلة من جـذوع وأغـصـان جـزء من الغـابة، وأخـذت ترسل وهجـهـا المشع إلى السماء في سـاعـة منتـصف الليل. توقف مع هدوء العـاصفة التي كـانت قـد ساقته قدماً وسمع ما يشبه الترنيمة الدينية تنبعث بهيبة من بعيد من خلال مـزيج من الأصـوات . عرف اللحن . فهو لحن مألوف تعزفه فرقة بيت الاجتماعات في القـرية. تلاشت الترنيـمـة البعيدة ببطء، وقد أطالت أمدها جوقة مكونة ليس من الأصـوات البشرية، بل من أصـوات البرية المعـتـمة كلها، كانت تنشد بتناسق مخيف

معاً. صرخ جودمان براون ، لكن صرختـه تلاشت حتى في أذنيه هو ، وذلك لتداخلها بصرخة الصحراء.

في فترة الصمت التي تخللت، تسلل إلى الأمام حتى أصبح الضوء يشع كاملاً في عينيه . في أحد الأركان البعيدة لمكان مكشوف محاط بحائط الغابة المعتم، ارتفعت هنالك صخرة، تشبه بشكل بدائي وطبيعي المذبح أو المنبر، تحيط بها أربع شجرات صنوبر مشعة، كانت قممها تحترق في حين أن جذوعها لم تصبها النار، تماماً مثل حال الشموع في اجتماع مسائي. كانت الكتلة الكبيرة من أوراق الشجر، والتي كانت أطول من قمة الصخرة، كلها في احتراق، تشع عالياً في العتمة وتضيء بشكل متراقص الحقل كله. كان كل غصن متدلّ وكل فسطون (١) مورق متوهجاً. كلما اشتد الضوء الأحمر وخفت ، ظهرت مجموعة كبيرة من الناس ثم اختفت في الظل ، ثم نمت مرة أخرى ، كأنها تخرج من الظلام وتملأ قلب الغابات الهادئة بالناس مرة واحدة.

«إنه لجمع مهيب ومظلم» ، قال جودمان براون .

وفي الحقيقة كانوا كذلك. ظهرت متأرجحة من بينهم غادية رائحة بين الظلمة والنور وجوه يمكن أن ترى في اليوم التالي في اجتماع مجلس المقاطعة، وأخرى تنظر أحداً بعد أحد بورع نحو السماء وبعطف نحو المقاعد المرصوصة من أكثر منابر الأرض قدسية. بعضهم يؤكد أن زوجة الحاكم كانت هناك، على الأقل كانت هنالك نساء من علية القوم يعرفنها، وزوجات رجال نبلاء، وأرامل بأعداد كبيرة، وعوانس جميعهن يتمتعن بسمعة جيدة، وصبايا صغار حسناوات ارتجفن خوفاً من أن تراهن أمهاتهن. إما أن شعاعاً من الضوء مفاجئاً، يلمع فوق الحقل المبهم، قد أفزع جودمان براون، أو أنه قد رأى مجموعة من أعضاء الكنيسة في قرية سالم كانوا يعرفون بطهارتهم الشديدة. كان الشماس العجوز الطيب جوكن قد وصل، ووقف ينتظر بجانب القديس المبجل، قسيسه الموقر. لكن كانت تخاطب هؤلاء الناس الوقورين طيبي السمعة الورعين، وكبيري الكنيسة هذين، وهذه النسوة العفيفات والعذارى اليانعات، بشكل غير مهذب مجموعة من الرجال الذين أمضوا حياتهم في

(١) حبل من الزهور .

الفسق، والنساء المشكوك في سمعتهن، أشقياء يسعون وراء الخطايا الوضيعة القذرة ويشتبه في أنهم اقترفوا جرائم مريعة. كان غريباً أن ترى الطيبين لا ينفرون من الآثمين، كما لم يكن يخجل الآثمون من القديسين. انتشر أيضاً بين أعدائهم ذوي الوجوه الشاحبة كهنة الهنود أو أطباؤهم الذي أفزعوا غابتهم الأم بتعاويذ أكثر روعة من أية تعويذة يعرفها السحرة الإنجليز.

«لكن أين فيث؟» فكّر جودمان براون ، وارتجف عندما دخل الأمل قلبه.

انطلق لحن ترنيمي ديني آخر عالياً، لحن بطيء وقور، مثل الذي يحبه الورعون، لكنه كان مصحوباً بكلمات تفصح عن كل ما يمكن أن تتصور طبيعتنا من إثم، ويوحي أيضاً بأشياء أكثر إثماً. لا يفهم حكمة العفاريت البشر العاديون. غُني اللحن تلو اللحن، وكانت الجوقة الصحراوية تتعاظم، كأنها أضخم صوت لأعظم أورغون. وبانتهاء الصدى الأخير لذلك النشيد المريع، جاء صوت، كأنه الريح المزمجرة والجداول المنطلقة وكل صوت آخر من أصوات البرية الآثمة، تمتزج وتتناسق مع صوت الإنسان المذنب وتعرب عن ولائها لأمير الجميع. أطلقت شجرات الصنوبر الأربع المشتعلة لهيباً أكثر قوة مظهرة بشيء من الوضوح أشكالاً ووجوهاً مرعبة فوق أكاليل الدخان التي كانت تعلو الاجتماع الفاسق. في ذات اللحظة، انطلقت النار الحمراء فوق الصخرة تكوّن قوساً متأججاً فوق القاعدة، التي ظهر الآن فيها طيف. لنقل ذلك بكل إجلال، إذ لم يكن الطيف في لبسه وطريقته إلا شبيهاً بأحد رجال كنائس نيو إنجلند المباركين الوقورين.

«أحضروا المهتديْن الجديدين» ، صاح صوت ملأ صداه الحقل وانتشر في الغابة.

عند سماع تلك الكلمات، تقدم جودمان براون من مكانه في ظلال الأشجار واقترب من الجموع التي شعر - متعاطفاً بكل ما هو شرير في قلبه - بأخوة مقيتة حيالها. كاد يقسم أن طيف أبيه الميت، الذي كان ينظر إليه من إكليل الدخان، أشار إليه بالتقدم، بينما قامت امرأة، ملامحها شاحبة تنم عن يأس، بمد يدها تحذّره من فعل ذلك. هل كانت أمه ؟ لكنه لم يمتلك أية قوة تمكنه من التراجع خطوة واحدة - أو من المقاومة ، حتى في عقله - عندما أمسك القس والشماس العجوز

الطيب بذراعيه وقاداه إلى الصخرة المتأججة. إلى هناك أيضاً جاء الطيف الرشيق لأنثى مغطاة تقودها جودي كلويس ، أستاذة أساسيات العقيدة الورعة تلك ، ومارثا كارير (١) التي تلقت وعداً من الشيطان بأن تصبح ملكة الجحيم . لقد كانت عجوزاً شمطاء. هنالك تحت ظلة النار وقف العضوان الجديدان.

«مرحباً بكما يا طفليّ» ، قال الطيف المعتم ، «في قداس أبناء جنسكما . لقد اكتشفتما في هذه السن المبكرة طبيعتكما ومصيركما. يا طفلي، انظرا خلفكما» .

نظرا فرأيا عبدة الشيطان يتلألأون كأنهم في صفيحة من لهب، وقد ارتسمت ابتسامة الترحيب المظلمة على كل وجه.

«هنالك» ، تابع الطيف الأسود، «تجدان كل من احترمتما منذ سن البلوغ. لقد اعتبرتموهم أكثر منكما قدسية وفزعتما من إثمكما عندما قارنتموه بحياة الاستقامة التي يتمتعون بها وبتوجهاتهم إلى السماء. لكن، ها هم هنا جميعاً في مجلس عبادتي. هذه الليلة سوف تمنحان معرفة سر أفعالهم: كيف همس كبار رجالات الكنيسة ذوو اللحى المكسوة بالشيب كلمات خليعة في آذان الخادمات الصغيرات في بيوتهم؛ كيف أن العديد من النساء، في شغفهن لثوب الحداد ، أعطين أزواجهن مشروباً عند المنام، وتركنهم ينامون نومهم الأخير في أحضانهن؛ كيف قام الشبان الذين لم تنبت لحاهم بعد بالتعجيل في وراثة أموال آبائهم؛ كيف قامت الصبايا الحسان ـ لا تخجلن أيتها الحسناوات ـ بحفر قبور صغيرة في الحديقة ودعونني، الضيف الوحيد، إلى حلقة دفن رضائعهن. بميل قلبيكما الفانيين للإثم، سوف تشتمان جميع الأماكن ـ سواء في الكنيسة أو في غرفة النوم أو في الشارع أو في الحقل أو في الغاب ـ التي اقترفت فيها الجرائم، وسوف تسران لرؤية الأرض كلها بركة من الذنب، نقطة دم واحدة كبيرة. بل أكثر من ذلك بكثير، سوف تكون لكما القدرة على كشف السر العميق للإثم في كل قلب، مكمن كل أسرار الإثم العميقة ومنبع كل ضروب الشقاء الذي يزود بلا انقطاع بالرغبات الشريرة، والتي هي أكثر مما تقدر القوة البشرية ـ بل قوتي أنا في أشدها ـ على إشباعها. والآن، يا طفلي، انظرا إلى بعضكما» .

(١) امرأة اتهمها المتطهرون بمحالفة الشيطان .

فعلا ذلك، وفي وهج المشاعل المأخوذة من نار جهنم، رمق الرجل الشقي فيث، والزوجة زوجها، وقد كانا يرتعشان أمام ذلك المذبح غير المقدس.

«انظرا، ها أنتما تقفان هنالك يا طفلي»، قال الطيف بنبرة عميقة وقورة حزينة إلى حد ما، وبروعة يائسة، كأن طبيعته هي التي كانت مرة ملائكية ما تزال تستطيع أن ترثي لحال جنسنا التعس. «متعمدين على قلبي بعضكما، كنتما أملتما أن الخير لم يكن جميعه حلماً، الآن لن تعودا مخدوعين. الإثم هو طبيعة الجنس البشري، وفي فعل الإثم تكمن سعادتكما الوحيدة . مرحباً مرة أخرى بكما يا طفلي في قداس جنسكما» .

«مرحباً»، ردد عبدة الشيطان في صرخة يأس وانتصار واحدة.

هكذا وقفا؛ وقد كانا الزوجين الوحيدين، كما يبدو، الذين ما زالا في تردد على حافة الشر في هذا العالم المعتم. كان هنالك حوض طبيعي محفور في الصخرة. هل احتوى على ماء احمرَّ لونه نتيجة للضوء المتوهج؟ أم هل هو دم؟ أم هل من الممكن أن يكون سائلاً لهبيّاً ؟ هنا غرس طيف الإثم يده استعداداً لرسم علامة التعميد على جبهتيهما حتى يشاركا في معرفة سر الخطيئة ويكونا أكثر دراية بالإثم السِّري في نفوس الآخرين، في كل من الفعل والفكر، أكثر من درايتهما الآن بآثامهما. ألقى الزوج نظرة واحدة على زوجته الشاحبة وفعلت فيث الشيء ذاته، لا شك أن النظرة الثانية كانت ستظهرهما لنفسيهما كإنسانين بشعين ملوثين ينفران سوياً مما أبديا ومما رأيا.

«فيث، فيث، » صرخ الزوج، «انظري إلى السماء، وقاومي ذاك الخبيث».
لم يدر إن كانت فيث قد استجابت، إذ ما كاد ينهي كلامه حتى وجد نفسه وسط الليل الهادىء وفي عزلة ، يستمع إلى زمجرة الريح التي تلاشت بتباطؤ بعيداً في الغاب. ترنّح متكئاً إلى الصخرة وشعر ببردها ورطوبتها ، في حين أمطر أحد الأغصان المدلاة، والذي كان قد احترق كله، على خدّه ندى شديد البرودة.

في صباح اليوم التالي، دخل جودمان براون بتثاقل شارع قرية سالم، يحملق حوله مثل إنسان مذعور. كان القس العجوز الطيب يتمشى بجوار المقبرة، تمهيداً لفتح شهيته للفطور وللتفكير في خطبته؛ وأنعم بإحدى تبريكاته أثناء مروره على

جـودمـان براون. نفـر جـودمـان براون من القـديس المبجل، وكأنه يتحاشى شخصاً نبـذته الكنيـسـة. أمـا العجوز الشماس جوكن فقد كان مكباً على عبادته البيتية، وقد سـمـعت كلمات صلواته الطاهرة من خـلال الشبـاك المفـتـوح. «من هو الإله الذي يصلي له هذا السـاحـر؟» قـال جـودمـان براون. أما جودي كلويس، تلك المسيحية العـجـوز الممتـازة، فـقـد وقفت في شمس الصباح الباكر على باب حجرتها، تدرس طفلة صغيرة كـانت قـد أحضرت لها وعـاء من حليب الصبـاح. سـحب جـودمان براون الطفلة بعـيـداً، كأنه يأخـذها من قـبـضة الشيطان نفسه. بعد أن انعطف عند ركن بيت الاجتماعـات، لحظ رأس فـيث بأوشـحتـهـا القـرنفلية تنظر إليه بتلهف، وتنفـجـر فـرحـاً عندمـا تراه، لدرجـة أنها هرعت إلى الشارع وكادت أن تقبل زوجها على مـرأى من القـرية كلهـا؛ لكن جـودمـان براون نظر بحـدة وبحزن إلى وجهها، وتركها دون أن يحييها.

هل كـان جودمان براون قد نام في الغابة وحلم حلماً مزعجاً باجتماع السحرة؟

ليكن الأمـر كذلك إن شئتم . لكنه مع الأسف كان حلماً ينذر بالسوء للشاب جـودمـان براون. لقـد أصـبح، منذ ليلة ذلك الحلم المخيـف، رجـلاً عـابساً حزيناً سـوداوي التـفكير شكاكـاً، إن لم نقل يائساً. أيام الأحد، عندما كانت الجموع تردد أغنيـة دينيـة ، لم يستطع الإصغاء ، حيث أن نشيداً آثماً قد أصم أذنيه وأغرق اللحن المبـارك كله. عندمـا تحـدث القس من المنبر، بقـوة وبراعـة واضحة، واضعاً يده على الإنجيل المفـتـوح، حـول الحـقائق المقدسة لديننا وحول حياة أشباه القديسين وحول الميتـات المشرفـة وحـول النعيم المستقبلي أو الشقاء الذي لا يوصف، أصبح جودمان بروان شـاحب اللون، يخاف أن ينهـال السـقف على رأس الكافـر الكبير ومستمعيه. مـرات عـديدة، عندمـا كـان يصحو فجأة عند منتصف الليل، كان يفر من أحضان فيث؛ وفي الصباح أو المساء عندما كانت العائلة تسجد للصلاة، كان يعبس ويتمتم لنفـسـه ويحدق في زوجـتـه بحدة، ثم يغادر. وبعدما عاش طويلاً وحمل إلى قبره جثة ضـاوية مـصحوباً بفيث، التي أصبحت امرأة عجوزاً، وبأبناء وأحفاد، شكلوا موكباً مـهـيباً، بالإضافة إلى الجيران الذين لم يكونوا قلة، لم يحفروا أية أبيات أمل على شاهد قبره، حـيـث أن ساعة موته كانت ساعة كآبة.

١٨٣٥

الشارة القرمزية (*)

[رواية عظيمة تعالج موضوع الخطيئة في العقيدة الطهرانية من خلال قصة حب تدور بين قس في إحدى الكنائس وإحدى النساء التي ترتاد كنيسته ؛ يقع في حبها ويقترف جريمة الزنى بحقها، فتحمل منه وتسجن ثم تضع مولودة وتُنبذ. يتركها القس تعاقب وحدها وتهان ، بينما يتعذب هو في صمت إلى أن يقرر الاعتراف في النهاية ويموت دافعاً روحه ثمناً لجريمته. تمثل القصة فيما تمثل قسوة المبادىء وقسوة الانسان على أخيه الانسان وانعكاسات مشاعر الإثم على الضمير. نقتطف هنا أجزاء من الرواية] .

المحرر

الفصل الثاني

ساحة السوق

ذات صباح . . من ذات صيف . . ومنذ حقبة من الزمن لا تقل عن قرنين، احتشد جمع من أهالي «بوسطن» على رقعة الحشائش التي تنمو أمام السجن ، وقد تعلقت عيونهم كلها بالباب الخشبي الثقيل ذي المسامير الحديدية الضخمة . ولو أن ذلك الجمع عينه كان في عشيرة أخرى أو في حقبة أخرى من تاريخ «انجلترا الجديدة» لكانت الصلابة العبوس التي تحجرت على سجن هؤلاء الملتحين الطيبين نبوءة لأمر خطير فظيع ، ليس أقل من تنفيذ حكم اعدام مرتقب في مجرم شهير مثلاً . . جاء حكم القضاء عليه مؤكداً لما قر عليه الشعور العام. ولكن في تلك الفترة الأولى من صرامة خلق «البيوريتانز» لم يكن في المقدور مخالفة الشعور العام.

(*) أخذت من **الشارة القرمزية** ، ترجمة جاذبية صدقي (القاهرة : مؤسسة سجل العرب ، ١٩٨٦).

قـد يدل جمع كـهـذا على أن عـبـداً كسولاً أو طفلاً لا يطيع والديه أسلم الى السلطة المدنيـة لتـؤدبه على منصة الجلد، أو أن أحد أفراد شيعة «الكويكرز» أو «الأنتينوميانز» أو ضـالاً آخـر من المتـدينين سـيـجلد حتى يخرج من البلدة، أو هندياً أحمر أفاقاً قد أطاشت لبـه الخـمـر التي يسميها «ماء نار الرجل الأبيض»، وسار صخاباً مشاغباً في الشـوارع فـهم سـيطاردونه بالسـيـاط الى قلب الغـابة، أو أن ساحرة كالسيدة «هيبنز» العـجـوز أرملة المأمـور السليطة اللسان ستلقى حتفها على المشنقة. وفي كل حالة من تلك الحـالات كان الوقار عينه يبدو على المتفرجين، فهم قوم لا فارق لديهم بين دين وقـانون، بل إنهما يمـتـزجـان في قلوبهم، حتى ان أي قرار ينفذ لتطبيق القانون سواء كـان هيناً أو قـاسـيـاً يثير في تلك النفـوس الرعب والتـقديس معاً في آن واحد. فلم يكن المذنب وهو على المشنقـة ينتظر من المتـفـرجين كـهؤلاء سوى عطف هزيل بارد، ومن جـهـة أخـرى فإن العـقـوبة التي نعـتبرها في أيامنا هذه مـهـزلة وعاراً لا بد أنهم كـانوا يوقـعـونها بنفس الوقار الصارم الذي يوقعون به عقوبة الموت نفسها.

ومما هو جـدير بالملاحظة أنه في ذلك الصباح . . من ذلك الصيف الذي تبدأ فـيـه قـصتنا . . انحشرت بين الجموع نساء كثيرات بدا عليهن اهتمام خاص بالعقوبة التي سـتـوقع مـهما يكن نوعـهـا. فلم يكن لذلك العصر من الرقة التي تثير الشعور بعـدم اللبـاقـة في نفـوس النسـاء مـا يمنعهن أن يخرجن إلى الطرقات العامة ويحشرن أجـسـادهن الضخمة حشراً ـ كلما لاحت فرصة ـ في الجموع الأقرب الى المقصلة عند تنفـيـذ حكم اعـدام. فـقـد كـان هناك ـ حـقـيقة ومجازاً في هؤلاء الزوجات والفتيات الانجليـزيات مـولداً ونشأة قديمة ـ عرق خشن أغلظ مما كان في حفيداتهن الرقيقات واللاتي تفـصلهن عنهن سلسـلة من قرون سـتـة أو سبعـة . فإن كل أم على التعاقب ـ خـلال هـذه الـسلسلة الطويلة من القـرون ـ أورثت ابنتـهـا ازدهاراً أقل . . وجمالاً أرق . . وقـامـة أدق . . وإن لم تورثهـا خلقاً أقل صلابة وقوة من خلقها. أما النساء المتجـمـهـرات الآن حـول باب السجن فلا يفصلهن سوى أقل من نصف قرن عن المـلكة «أليـزابث» المسترجلة والتي لم تكن نمـوذجـاً سـيئاً لجنسـهـا فـهن مـواطناتها، وتـدخـل في تـكوينهن لحـوم وخمور من مـسـقـط رأسـهن، وقـائمـة من طعـام خلقي ونفـسـاني لا يزيد في رقـتـه عن رقة تلك الملكة. فشمس الصباح البهيجة كانت تلقي

أشعتها إذن على أكتاف عريضة . . وصدور ضخمة نامية . . وخدود مستديرة قانية نضجت في الجزيرة النائية ولم يلحقها الشحوب ولا الضمور بعد في جو «انجلترا الجديدة» . كذلك كان حديث هؤلاء الزوجات ـ كما تبدو سمته على معظمهن ـ حديثاً جريئاً متدفقاً الى درجة تزعجنا اليوم سواء من حيث موضوعه أو من حيث الصوت الذي يعلو به.

قالت امرأة منهن في الخمسين لها قسمات حادة:

ـ «أيتها الزوجات الطيبات ! سوف أقول لكن شيئاً مما يدور في خلدي : لو كنا نحن النساء ذوات السمعة الطيبة في عضوية الكنيسة واللاتي بلغن سناً ناضجة ـ لو كان لنا الحق في عقاب الخاطئات مثيلات «هيستر براين» لجنى المجتمع نفعاً عظيماً. ما قولكن أيتها الثرثارات؟ إذا وقفت تلك الفتاة أمامنا لنحاكمها نحن الخمس المجتمعات هنا الآن، أكان نصيبها حكماً بسيطاً كالذي كافأها به القضاة المتدينون؟ لا أظن . .

فقالت الأخرى :

ـ «يقول الناس إن السيد القس الجليل ديمسدال . . أباها الروحي . . كان حزيناً كل الحزن على أن فضيحة كهذه وقعت في أبرشيته ! » .

فأضافت زوجة ثالثة في خريف عمرها :

ـ «إن القضاة رجال يخشون الله لكنهم رحماء أكثر مما ينبغي، هذا قول صادق لا شك فيه. فعلى الأقل كان يجب عليهم أن يسموا جبهتها بحديد محمى، وأؤكد لكن أن السيدة «هيستر» كانت سترتجف ألماً حينئذ . . بلا شك ! أما الآن فلن تهتم كثيراً ولا قليلاً بما يضعونه على صدر ثوبها من شارة. ففي امكانها أن تخفيها بدبوس حلية أو بأي زينة شيطانية أخرى وتسير في الطرقات بوقاحة كعهدها ! » .

فتدخلت بلطف زوجة صغيرة تمسك بيدها طفلاً :

ـ «أواه . . فلتخف الشارة كما تريد، ولكن غصتها سوف تظل في قلبها الى الأبد !» .

فصاحت أنثى أخرى هي أقبح هؤلاء القاضيات اللاتي ولين أنفسهن وأقلهن شفقة :

ـ «كيف نتحدث عن الشارات ووسم الحديد المحمى سواء كان على ثوبها أم على لحم جبهتها؟ لقد جلبت هذه المرأة العار علينا كلنا، فيجب أن تموت. ألا يوجد قانون بذلك؟ الحقيقة أنه موجود في الانجيل وفي كتاب القوانين. فليحمد القضاة أنفسهم ما داموا لم يسمحوا لهذا القانون أن يأخذ مجراه إذا فجرت زوجاتهم وبناتهم ! » .

فصاح رجل في الحشد :

ـ «الرحمة بنا أيتها الزوجة الطيبة ـ أليس في المرأة أي فضيلة إلا التي تنبع من خوفها من المشنقة ؟ إن هذه لأقسى كلمة سمعتها حتى اليوم صه أيتها الثرثارات . . صه ! فالمفتاح يدور الآن في باب السجن وها هي ذى السيدة براين نفسها ! » .

دفع باب السجن من الداخل وانفتح ليظهر أول ما يظهر ـ كظل أسود يبرز الى نور الشمس ـ سادن (قواص) كنيسة البلدة بهيئته الضامرة العابسة يحمل سيفاً على جنبه وصولجان الوظيفة في يده اليسرى التي تحمل الصولجان الرسمي ممدودة أمامه، وكان يمسك بيده اليمنى على كتف امرأة شابة يسحبها إلى الخارج. حتى وصلا إلى عتبة باب السجن فصدته عنها بحركة يميزها وقار طبيعي وشخصية قوية، وخطت إلى الهواء الطلق كأنما ذلك تعبيراً عن ارادتها الحرة. وكانت تحمل على ذراعيها رضيعاً ابن ثلاثة أشهر . دف بجفنيه عندما واجه الضوء السديد ، وأدار وجهه الصغير الى جانب. فهو لم يعرف منذ وجوده في هذه الدنيا سوى غبشة الزنزانة أو الضوء الشاحب الذي يسود حجرات السجن الأخرى.

فلما برزت المرأة الشابة ـ أم ذلك الطفل ـ أمام الحشد المجتمع كان أول ما خطر لها أن تضم صغيرها الى صدرها. ولم تكن تلك الحركة الصادرة عن أمومة حانية بقدر ما كانت لاخفاء شارة علقت على صدر ثوبها، لكنها سرعان ما فطنت إلى أن رمزاً من رموز خطيئتها هو وسيلة فاشلة لاخفاء رمز آخر، فحملت طفلها على ذراعها، وبخدين يلتهبان ولكن بابتسامة متعالية وبنظرة مكابرة، تلفتت حولها

تنظر إلى جيرانها وأهل بلدتها. وبدت على صدر ثوبها قطعة من نسيج أحمر فاخر قد طرزت تطريزاً متأنقاً متقناً بخيط مذهب على شكل حرف أبجدي. وكان التطريز فنياً سخياً، لعب فيه خيال رحب رائع دوراً كبيراً حتى إنه بدا حلية ملائمة للزي الذي ترتديه، والذي كان من طراز يلائم ذوق العصر لكنه ثمين أكثر مما يسمح به قانون النفقات في المستعمرة.

وكانت المرأة الشابة طويلة وقامتها متناسقة تناسقاً تاماً. شعرها حالك غزير لامع حتى إنه عكس ضوء الشمس في شعاعات. لها وجه بجانب جماله من حيث انسجام القسمات والبشرة الرائعة، يترك أثراً في النفس كالأثر الذي تتركه دائماً جبهة عالية وعينان سوداوان عميقتان. لها سمة السيدات المهذبات وفقاً لأنوثة تلك الأيام التي يميزها وقار وترفع، لا الرشاقة الرقيقة الضامرة الهشة التي نعتبرها الآن أولى علامات الأنوثة. ولم تبد «هيستر براين» قط من قبل بتلك الأنوثة ـ بالمعنى العتيق للفظ ـ كما بدت الآن وهي خارجة من السجن. حتى إن الذين عرفوها من قبل وتوقعوا أن يروها ذابلة قد انطفأت تحجبها غمامة مدمرة، دهشوا بل انزعجوا لرؤية جمالها مزدهراً مضيئاً أحال الكارثة والفضيحة هالة تحيطها وتلفها لفاً. ولكن ربما بدا في كل ذلك شيء مؤلم لمتفرج مرهف الحس. فقد كان زيها ـ الذي خاطته في السجن بنفسها ووفق هواها خاصة لتلك المناسبة ـ يعبر بغرابته وزخرفته عن نفسيتها وعن عدم مبالاتها ويأسها. ولكن الشيء الذي لفت كل الأنظار وبدا كأنه أحال من ترتديه امرأة أخرى حتى إن كل النساء والرجال الذين عرفوها معرفة وثيقة صعقوا كأنما يرونها أول مرة ـ كانت الشارة القرمزية التي لعب الخيال في تطريزها دوراً كبيراً والتي راحت الآن تتضوأ على صدرها، لها فعل السحر، كأنما قطعت علاقة المرأة بالانسانية كلها وسجنتها في كون آخر وحدها.

وصاحت إحدى المتفرجات :

ـ «إنها ماهرة بإبرتها . . ما في ذلك شك ! ولكن . . هل تخايلت امرأة قط من قبل هذه الوقحة على إظهار مهارتها بتلك الطريقة ؟ أيتها الثرثارات ـ أليس ذلك مضحكاً في وجوه قضاتنا الأتقياء ومباهاة بما كانوا يريدونه عقاباً . . هؤلاء السادة المحترمون ؟ » .

فغمغمت أكثر النسوة العجائز قبحاً بسحنتها الحديدية القاسية :

ـ «الأجدى بنا أن نمزق ثوب «السيدة هيستر» الفاخر عن كتفيها الرقيقين، أما «الشارة القرمزية» التي طرزتها بمهارة فسوف أهبها بدلاً منها مزعة من «فانلتي» التي أرتديها للروماتيزم كي تصنع منها شارة أكثر ملاءمة ! » .

فهمست زميلتهن الشابة :

ـ الهدوء يا جاراتي . . الهدوء ! لا تجعلنها تسمعكن فإنها لم تطرز خيطاً في تلك الشارة إلا وهي تحس به في قلبها ! » .

ولوح ساعتئذ سادن (قواص) كنيسة البلدة العبوس بصولجانه :

ـ «أفسحوا الطريق باسم الملك، أيها الناس الطيبون ! افتحوا الطريق ـ وأعدكم أن «السيدة براين» سيطلق سراحها بحيث يراها كل رجل وامرأة وطفل في زيها الجريء هذا ـ من الآن الى ما بعد الظهر بساعة ! ليبارك الله مستعمرة «مستشوستس» حيث يُجرُّ الشر الخفي خارجاً . . تحت نور الشمس ! هيا . . تقدمي يا سيدة «هيستر» واكشفي عن شارتك القرمزية في ساحة السوق ! » .

فانفتحت على الفور سكة ضيقة بين المتفرجين. وسارت «هيستر براين» نحو المكان المعد لعقابها. يتقدمها سادن الكنيسة ويتبعها موكب غير منتظم من رجال متجهمين ونساء ذوات سحن قاسية. وراح جمع متلهف فضولي من تلاميذ المدارس الذين لم يفهموا من الأمر كله شيئاً سوى أنه هيأ لهم عطلة نصف يوم ـ راحوا يركضون أمامها ويلتفون نحوها كل لحظة ليحملقوا في وجهها . . وفي الطفل الذي على ذراعيها . . . وفي الشارة المهينة على صدرها. ولم تكن المسافة بين باب السجن وساحة السوق كبيرة تلك الأيام. لكنها في نظر السجين رحلة طويلة. فعلى رغم تعالي «هستر» ووقار هيئتها، قاست ألماً بالغاً مع كل خطوة من خطوات الذين تهافتوا ليروها كأنما ألقي بقلبها نفسه على الأرض ليدوسوه بأقدامهم وطبيعة النفس البشرية معدة إعداداً رائعاً ورحيماً بحيث لا يفطن المتألم الى عنف ما يحتمل أثناء تعذيبه، ولكن تحرقه بعد ذلك غصة فكان أن مرت «هيستر» بذلك الجزء من محنتها في هدوء يكاد يكون رزانة حتى وصلت الى منصة في أقصى ساحة السوق الغربية،

تقع بجـوار كنيسة «بوسطن» الأولى وتبدو كأنها ثابتة في مكانها هناك.

وقـد كـانت تلك المنصـة جزءاً من آلات العقاب ظلت متعطلة مدى قرنين من الزمـان أو ثلاثة، ونعـتبرها نحن فـيما بيننا شيئاً تاريخياً موروثاً. لكنها في الأيام الغابرة كـانت عـامـلاً هامـاً ذا أثر فـعـال في الارتقاء بالوعي الوطني ـ تماماً كالمقصلة في نظر الإرهابيين الفـرنسـيين. كـانت باختـصار منصة يعلوها لوح خشبي عريض له فتحة مسـتـديرة في وسطه، صنعت بحيث تطبق على الرأس البشري في نطاقـهـا الضـيق وتمسك به هكذا ليراه الجـمـيع فـصـارت فكرة الفضيحة نفسها تتجسم وتتضخم فوق تلك الآلة المصنوعـة من خـشب وحديد. وفي اعتقادي أنه ليس هنالك انتهاك لحرمة طبـيـعـتنا العادية ـ مهما اقترف المرء ـ أفظع من أن يحرم الجاني إخفاء وجهه من فرط الخـزي. كما كـان الغـرض الأسـاسي من تلك العـقوبة. أما في حالة «هيستر براين» فكان الحكم الذي صـدر ضدها هو أن تقف فترة محدودة على المنصة، ولكن دون أن تعـاني ذلك الإطبـاق على العنق الذي يتميز باحناء الرأس بطريقة جهنمية تعتبر أولى خـصـائص تلك الآلة القـبـيـحـة . ولما كـانت «هيستر» تعرف سلفاً دورها جيداً فقد صـعـدت بضع درجـات خشبية . وهكذا عرضت لأنظار الحشد الملتف حولها ، على ارتفـاع يقرب من قامة رجل فوق مستوى الشارع.

ولو كـان بين جموع «البـيـوريتـانز» أحد رجال البابا لرأى في تلك المرأة الجميلة الرائعـة بزيها وهيئتـهـا وبالطفل على صـدرها، شيئاً يذكره بصورة الأمومة الإلهية التي تنافس رسـامـون كـثيرون ذائعـوا الصيت في التعبير عنها في صورهم، شيئاً يذكره بلا شك ـ ولكن مع الفـارق ـ بالصـورة المقـدسـة للأمـومـة الطاهرة التي افـتـدى طفلها العـالم. أمـا هنا، فكانت لطخة لأعمق خطيئة مجسمة في أعلى صفات البشرية قدسية ـ مـزاجاً زاد شقاء الدنيا بجمال تلك المرأة وزادها ضياعاً بهذا الطفل الذي أنجبته.

ولم يكن المشـهـد خـالياً من الرهبة التي لا بد أن تغشى رؤية خطيئة وخزي في مخلوق مـثلنا، وإلا لكان المجـتمع قد انحط لدرجة أن يبتسم لا أن يقشعر. ولم يكن أولئك الذين شـهـدوا خـزي «هيـستر براين» قـد أضاعوا سذاجتهم وسلامة طويتهم بعـد. لقـد كـانوا حـقاً صارمين حتى إنهم ليشهدون موتها ـ لو حكم عليها به ـ دون احـتجاج على قسوة ذلك الحكم، ولكن الفظاظة التي لحقت بمجتمع آخر لم تكن قد

أصـابتـهم حـتى إنهم في عرض كهذا يجدون مجالاً للسخرية وحسب. ولو كان هناك مـيل لقلب الأمـر كله مـهزلة ساخرة، فلا بد أنه قمع وكبت تغلب عليه وجود رجال لا يقلون وقـاراً عن الحـاكم نفسه ، ثم جمع من مستشـاريه. . ثم قاض. . وقائد. . ومـوظـفـو الـبلدة، وقـفـوا جميـعـاً في شرفـة منزل يطل على المنصـة. وعندمـا تشترك شـخـصـيـات كهذه في المشهد دون مجازفة بجلال المركز وقدسية الوظيفة، يمكننا بلا تردد اسـتنتـاج أن تنفيذ عقوبة ما كان له أثر أكيد فعال. ولهذا وقف حشد المتفرجين في جـد وكـآبة. وقـد تحـاملت الخـاطئة البائسة على نفسها كأقصى ما تستطيعه امرأة تحـت وطـأة ألـف عين لا ترحم ولا تلين بل تـتـعلق بها وتركـز نظرها على صـدرها. كـان أمـراً غير محتـمل. ولما كـانت «هيـستر» ذات طبيعة حارة مندفعة، فقد حصنت نفـسـهـا وأعـدتها لمواجـهـة اللدغـات والطعنات السـامـة التي سـتصيبها من احتقار الجـمـهـور لها والتي تتبدى في صور شتى من الإهانة. ولكن أذهان الجموع كانت في حـالة أفظع مما خـشـيته «هيستر» حتى إنها تمنت لو رأت تلك الوجوه الجامدة تتقلص في ضـحك ساخر . . . وإن كانت هي نفسها الهدف. فلو أن قهقهة عالية انفجرت من بين الجـمـوع واشترك فـيـهـا بجهده كل رجل . . وامرأة . . وطفل بصوته الرفيع الحـاد، لاستطاعت «هيستر» حينئذ أن تكافئهم، كلهم بابتسامة مريرة مترفعة. لكنها الآن تحت وطأة الابتـلاء الـثـقيل ثقل الرصاص، والذي قدر لها أن تتحمله، شعرت في بعض اللحظات أنه لا بد من أن تصرخ بملء رئتـيـهـا وتقذف بنفسها الى الأرض من فوق المنصة، أو تجن من فورها.

ومع ذلك، مـرت فترات كـان فـيـهـا المشهد كله ـ ذلك الذي كانت هي أكثر شيء بارز فـيـه ـ يختفي من عينيها، أو على الأقل راح يومض في غير وضوح أمامها، ككتلة من مـشـاهد خـيـاليـة مـتداخلة . . لا شكل لها ولا نظام. أما عقلها وخاصة ذاكرتها، فكانا يعملان بنشاط غير طبيعي، وظلا يتذاكران مشاهد أخرى غير مشهد ذلك الشـارع الممـهـد بخـشـونة كـيفما اتفق في تلك البلدة الصغيرة الواقعة على طرف الغـابة الغـربيـة، يتـذكران وجوهاً أخرى غير التي تحملق فيها الآن من تحت حافات تلك القـبـعات العالية المخروطة ـ ذكريات تافهة . . مقتطفات عن عهد الطفولة . . وأيام الدراسـة والألعـاب الرياضـيـة . . والشجار الغرير . . والعادات المنزلية في زمن

صباها تدفقت عليها مختلطة بذكرى أخطر ما مر بها في حياتها التي تلت تلك المراحل. وكل صورة في توهج صورة أخرى سواء بسواء، كأنها لها كلها الأهمية عينها . . أو كأنها كلها مشاهد من مسرحية. ربما كانت هذه حيلة غريزية ابتدعتها روحها لتخفف عن نفسها ـ بعرض تلك الأشكال الوهمية عينها ـ بعض ثقل الواقع القاسي وخشونته.

ليكن السبب الحقيقي ما يكون، أما المنصة فقد هيأت لها فرصة رؤية الطريق على امتداده، ذلك الذي سارت فيه طفولتها الهانئة. فرأت مرة أخرى وهي على هذا الارتفاع التعيس، مسقط رأسها في «انجلترا القديمة» ثم بيت والديها متداعياً من أحجار رمادية عليه سيماء الفقر، لكنه يحتفظ بدرع حربية نصف مطموسة معلقة فوق مدخله إشارة الى كرم محتد عتيق. ورأت وجه أبيها برأسه الأصلع. ولحيته البيضاء الوقور التي تنسدل على رباط رقبته المنفوش (الطراز القديم للثياب في عهد الملكة «اليزابيث») . كما رأت وجه أمها الذي كانت تكسوه دائماً نظرة الحب الحذر القلق وكثيراً ما كان بعتابه الرقيق عقبة في طريق الإبنه. ورأت وجهها هي متوهجاً بجمال الصبا، ينير تلك المرآة القاتمة التي جبلت هي على التحديق فيها. وفي المرآة أيضاً رأت وجهاً آخر وجه رجل تقدمت به السنون . . سحنة ضامرة شاحبة لعالم أنهك عينيه نور المصباح الذي أعانه على الانكباب على كتب ضخمة كثيرة. ومع ذلك كانت لهاتين العينين الذابلتين قوة غريبة نافذة عندما يهدف صاحبها الى قراءة النفس البشرية. كما كان جسم ربيب المكتبة والدير هذا مشوهاً لم يفت خيال «هيستر براين» الأنثوي أن يذكر أن كتفه اليسرى تعلو شيئاً عن كتفه اليمنى. ثم برزت أمامها في معرض الصور الذي أقامته ذاكرتها : الأزقة الضيقة الملتوية في مدينة أوربية . . وبيوتها الطويلة الرملية . . وكاتدرائياتها الضخمة . . ومبانيها العامة العتيقة ذات الهندسة الغريبة حيث كانت تنتظرها حياة جديدة في رباط مع ذلك العالم المشوه. حياة جديدة لكنها تستمد غذاءها من مواد أكل عليها الدهر وشرب ككتلة من طحلب أخضر على جدار متداع. وأخيراً تلاشت كل تلك المشاهد المتلاحقة لتحل محلها، مرة أخرى ساحة السوق الخشنة في مستعمرة « البيوريتانز » وقد تجمع أهل البلدة يرمقون « هيستر براين » بنظرات قاسية ثابتة . . نعم ،

يرمقـونها هي . . التي تقف على منصـة العـقـاب . . بطفل على ذراعـها . . وشارة قـرمزية مطرزة بخيط ذهبي تطريزاً غريباً على صدرها!.

أيمكن أن يكون هذا حـقيقة واقعة؟ جذبت الطفل بعنف الى صدرها حتى إنه أطلق صرخـة، وأدارت عـينيـها نحو الشارة القرمزية تتأملها ثم لمستها بإصبعها لتؤكد لنفـسـهـا أن الطفل والعـار حقيقتان ـ نعم . . إنهما حقيقتان. أما كل ما عداهما فقد تلاشى ! .

الفصل الثالث والعشرون

الكشف عن الشارة القرمزية

أما الصوت البليغ الذي حمل أرواح مستمعيه الى أجواء عالية كأنها فوق أمواج البحر الهائلة، فلم يلبث أن توقف. وساد سكون عميق مؤقت كالذي يعقب إلقاء الخطب، تبعته غمغمة وجلبة متخافتة كأنما المستمعون وقد تخلصوا من ربقة السحر الذي حملهم الى ساحة عقل آخر عادوا الى أنفسهم تثقلهم رهبة بعد دهشة. ولم تمض دقيقة أخرى حتى راح الجمع يتدفق خارج أبواب الكنيسة. فقد شعروا وقد انتهى الخطاب أنهم في حاجة الى هواء آخر يستنشقونه أكثر ملاءمة للحياة الواقعية الشاقة التي عادوا إليها من تلك الأجواء التي أحالها الواعظ كلمات من لهب وأثقلها بعطر أفكاره الدسمة. وفي الهواء الطلق، تفجرت نشوتهم حديثاً وهدر الشارع وساحة السوق من جانب بتصفيق حاد للقس. فلم يسترح مستمعوه حتى تبادلوا رواية ما سمعه كل منهم وفهمه خيراً من زميله. وشهدوا جميعاً أن رجلاً لم يتحدث قط من قبل بروح حكيمة رفيعة طاهرة كروح ذلك الرجل الذي تحدث إليهم اليوم! كما لم يخرج الوحي من شفتي مخلوق في وضوح كما خرج من بين شفتيه! وكان تأثير الوحي جلياً وهو هابط عليه، يتملكه ويرفعه على الدوام بعيداً عن الخطاب المكتوب والموضوع أمامه ويملؤه بأفكار أخرى رائعة لا بد أنها أعجبت مستمعيه. كان موضوع حديثه فيما يبدو العلاقة بين الخالق وعبيده، باشارة خاصة الى «نيو انجلاند» التي كانوا ينشئونها هنا في البرية، وفيما هو يقترب من نهاية خطابه، تملكته روح تنبؤية صعدته الى هدفها بقوة هائلة كما كان يحدث لأنبياء اسرائيل، بفارق واحد وهو أنه على حين كان أنبياء اليهود ينذرون بلادهم بالدمار والويل والثبور ، تنبأ هو بمستقبل رائع رفيع لأولئك الذين تجمعوا هنا باسم الله. ولكن سادت الخطاب كله نبرة شجن حزينة عميقة فسرت على أنها ندم طبيعي لرجل سيقضى قريباً. أجل، فقس كنيستهم المحبوب الذي يبادلهم كلهم حباً عظيماً حتى لا يسعه الصعود الى السماء دون تنهدة قد تنبأ بموته السابق لأوانه وسوف

يتركهم سريعاً لدموعهم! وكانت فكرة حياته العابرة على هذه الأرض هي التي أضفت قوة على التأثير الأخير الذي أوحى به القس! - تأثير غريب، كأنما هناك ملك طائر نحو السماوات فهز جناحيه فوق رؤوس الناس لحظة رائعة قاتمة في آن واحد، ليتساقط عليهم سيل من الحقائق الذهبية!

وهكذا مرت بالسيد الجليل «ديمسدال» - كما يحدث لمعظم الرجال في دوائر حياتهم المختلفة وإن لم يفطنوا إليها إلا بعد أن يخلفوها وراء ظهورهم - مرت به فترة من حياته زاهية متألقة تفيض بالانتصار أكثر من أي فترة أخرى سابقة أو لاحقة. فوقف تلك اللحظة على قمة الفخار والمجد التي رفعته إليها مواهبه الذهنية وعلمه الغزير .. وبلاغته .. وسمعته الناصعة - مزايا كانت تزيد من رفعة قس من قساوسة «نيو انجلاند» في أيامها الأولى عندما كانت المهنة نفسها مهنة رفيعة. كان ذلك هو المركز الذي يشغله، وهو يحني رأسه فوق وسائد المنبر في ختام خطابه الانتخابي على حين وقفت «هيستر براين» بجوار منصة العقاب في ساحة السوق والشارة القرمزية تحرق صدرها!

وتعالت الآن، مرة ثانية، صلصلة الموسيقى وضجيجها .. ثم وقع الخطوات المنتظمة والفرقة العسكرية تخرج من الكنيسة وقد تقرر أن يعود الموكب بكامل هيئته الى قاعة احتفالات البلدة حيث تقام وليمة يختتم بها حفل اليوم.

فمرة ثانية سار القساوسة بوقارهم في صف عريض بين الناس الذين تقهقروا باحترام على كلا الجانبين وأفسحوا طريقاً للحاكم .. والقضاة .. والكبراء .. والحكماء .. وللقساوسة المطهرين. ولحق بهم كل شخص بارز ذي مكانة، وانضم الى صفوفهم. فلما وصلوا الى ساحة السوق حيتهم صيحة عالية. كانت صيحة اعجاب تعبر عن الحماسة التي أشعلتها بلاغة القس في قلوب المستمعين - صيحة استمدت قوة من الولاء الساذج الذي كان يدين به الناس لحكامهم في ذلك العهد. شعر كل شخص بالدافع عينه، والتقط الصيحة من جاره. فدوت الكنيسة بها، أما في الخلاء فارتفعت الى أجواز السماء . كان هناك جمع حاشد من الناس - ناس شعورهم متوافق .. متلائم ، فاقوا بصيحة اعجابهم نغمات الأرغن المدوية .. أو صوت الرعد .. أو هدير البحر . اتحدت صيحاتهم كلها ذات الدافع العام

وامتـزجت صـوت واحـد، تماماً كما تتحد قلوب كثيرة وتنبض معاً كأنها قلب واحد. لم يحدث قط أن صـعـدت صـيحة كهذه من أرض «انجلترا الجديدة» ! ولم يحدث قط مـن قـبل أن وقف رجل على أرض «انجلترا الجـديدة» وقـد كلله قـومـه بذلك الشرف كله !

فكيف كـانت حـالته حينئذ، ألم تتشكل في الهواء هالة من نور حول رأسه؟ ألا مست خطواته تراب أرضنا هذه حقاً وهو يفيض بالروحانية الشفافة، كما كان حينئذ وقـد مجده قومه ـ بل ألـهوه ؟

وتـركـزت الـعـيـون كـلـهـا على القس وهو يتـقـدم بين صـفـوف العـسكريين والقـسـاوسـة. فماتت الصـيـحـة وأضـحت غمغمة وهمساً عندما وقعت أعين الحشد عليـه. شـد مـا بدا شـاحـبـاً ضعيفاً بين آيات انتصاره وفوزه! بدا وكأنما النشاط، أو بقـول أصح الوحي الذي أمـدته به السماء والذي أضـفى عليـه قوة حتى يُلقي رسالته المقـدسـة، سـحب منه ثانية بعد أن أدى مهمته بأمانة. فانطفأ التوهج الذي رأوه منذ برهة يحترق على خـده، كلهب خائر هوى بين الرماد. لم يبد هذا وجه رجل على قيد الحـيـاة، ذلك الوجـه الذي تعلوه صـفـرة الموت. لم يبد رجلاً تنبض فيه حياة، ذلك الرجل الذي يتـخبط في سيره بلا قوى ، ومع ذلك التخبط. . ويسير. . ويتخبط. . ولا يهـوى على الأرض !

فلما لاحظ أحـد اخـوانه القـسـاوسـة ـ السـيـد الجليل «جون ويلسون» ـ حالة «ديمـسـدال» التي تركـتـه عليـهـا موجة الحساسية والذهن المتوقد، أسرع إليه وعرض عـلـيـه مـعـونـتـه. ولكن القس رفض باصرار وهو يرتجف من الذراع المبـسـوطة ذراع الرجل الهرم . وظل يسير ويتـقـدم ـ إذا سمينا حركته هذه سيراً ، تلك الحركة التي تشبـه محاولة طفل مـتـذبذبة وهو يسير تحـضـه ذراعا أمه المبسوطتان أمامه ـ واقتربت خـطـاه الآن وهو يكاد لا يشـعـر بها من منصـة العـار التي سـودتها الرياح ، حـيـث وقـفـت عليـهـا منذ زمن طويل مرير «هيستر براين» لتواجه نظرة العالم المهينة . فلمح هـنـاك «هيـستر» تقف الى جـوارها وقـد أمـسـكت «بورل» من يدها ! وهناك . . على صـدرها . . لمح الشـارة القـرمـزية تتـوهج! فتوقف القس، مع أن الموسيقى كانت ما تزال تدوي بنغمات مـرحـة حماسـية سار عليها الموكب. كانت تدعوه ليتقدم معها الى

الأمام . . الى الحفل العظيم لكنه توقف.

كانت عين «بيلينجهام» القلقة لم تفارقه تلك اللحظات الأخيرة. فترك الآن مكانه في الموكب وتقدم منه يعرض عليه معونته، وقد ظن من هيئة «ديمسدال» أنه لا بد هاو على الأرض. ولكن تعبيراً غامضاً على وجه القس حمل الحاكم على التراجع مع أنه رجل لا يؤمن كثيراً بالايحاء الوهمي بين الأرواح ولا يعمل به. أما الجمهور فراح يرقب الأمور برهبة ودهشة. كان شحوب القس، في نظرهم، دليلاً آخر على قوته الروحية. ولو أنه صعد حينئذ الى السماء وهو يتزايل ويزداد بهاء حتى يذوب أخيراً في نور السماء، لما اعتبروا ذلك معجزة خارقة لرجل طاهر ورع كالقس.

استدار القس نحو المقصلة وبسط ذراعيه أمامه وهو يقول :

ـ «أي «هيستر» . . تعالي هنا! تعالي يا صغيرتي «بورل» ! »

كانت نظرة مفزعة تلك التي رمقها بها، لكنها مع ذلك في الوقت عينه، كانت نظرة فيها رقة وانتصار غريب. فطارت الطفلة إليه كالعصفورة وأحاطت ركبتيه بذراعيها. كما أن «هيستر براين» تقدمت منه كأنما تسير على خلاف رغبتها . . أو كأنما يدفعها قدر لا يقاوم. لكنها قبل أن تصل إليه، توقفت. وفي هذه اللحظة دفع «روجر شيلينجورث» الهرم نفسه بين الحشد ـ أو لعل العالم السفلي انشق عنه بقبح نظرته هذه الشريرة القلقة ـ ليختطف فريسته ويمنعها من أن تصنع ما هي مقدمة عليه! وسواء كان هذا هو السبب الحقيقي أم لم يكن فإن الرجل الهرم اندفع الى الأمام وأمسك القس من ذراعه يهمس له :

ـ «قف . . أيها الرجل المجنون! ما غرضك؟ اطرد هذه المرأة . . وألق بهذه الطفلة بعيداً! سوف تتحسن الأمور! لا تلوث صيتك وسمعتك وتهلك في العار! ففي وسعي أن أنقذك بعد! أتجلب العار على مهنتك المقدسة؟ »

فأجابه القس وهو يواجه عينيه بخوف ولكن بحزم :

ـ «أيها الوسواس الخناس : لقد جئت متأخراً : إن سلطتك عليّ لم تعد كما هي : فبمعونة الله سوف أهرب منك الآن !» .

ومـرة ثانية، بسط يده الى امرأة الشارة القرمزية. وصاح بلهفة حادة عالية :

ـ «أي هيـستر براين» باسم الرحـيم الجبار الذي تكرم عليّ بنعمته الآن . . في هـذه اللحظة الأخيرة . . لأفـعل مـا أمـسكت عن فـعله منذ سـبع سنوات، لعـذابي البـائس وإثـمـي المرهق الثـقـيل، تعـالي إليّ الآن وأحـيطيني بقـوتك . . قـوتك يا «هـيـسـتر» ! ولكن دعي الله يقـودك بنوره وإرادته التي وهبني إياها! هذا الرجل الهرم البـائس الذي أسأنا إليـه يعـارضني بكل قـواه الآن . . بكل قـواه وقـوى الشيطان : تعـالي يا «هيستر» تعالي ! ساعديني على الصمود فوق هذه المنصة . .

هاج الحـشـد ومـاج. وصـعق الكبراء ذوو المكانة الذين كانوا يحيطون بالقس. ودهشـوا دهشـة بالغـة محيرة فـلا هم أدركـوا مـعنى مـا يجري أمـام أعـينهم، ولا هم اسـتطاعـوا أن يتـقبلوا التفسيـر والتوضيـح الذي يعرض عليهم . . فلبثوا بلا صـوت وبلا حـركـة يتـفـرجون بالمحاكمة التي يجريها القدر. فشاهدوا القس يستند الى كتف «هيـستر» ، وهي تحـيط خصره بذراعـهـا ، ويقترب من المنصة ثم يصعد درجاتها على حين كـانت أصـابعـه تقـبض بعـد على يد طفلة العـار. وتبـعـهم روجر شيلينجورث الهرم، بوصـفـه شـخصاً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمأساة الإثم والأسى التي قاموا جميعهم بأدوارهم فـيـها والتي أشرفت الآن على النهاية.

وقال القس وهو يرمقه بحقد :

ـ «لو أنك بحـثت في الدنيـا كلها لما وجدت مخبأ سرياً . . ولا مكاناً عالياً . . ولا آخر منخفضاً خافياً تستطيع أن تهرب فيه مني ـ غير تلك المقصلة :

فأجاب القس :

ـ «حمداً لله الذي قادني إليها؟ »

ومع ذلك ارتجف واسـتـدار الى «هيـستر» بنظرة شك وقلق في عـينيـه حاول أن يواريها بابتسامة شاحبة على شفتيه. وغمغم :

«أليس هذا خيراً مما حلمنا به في الغابة؟ »

فأجابته بسرعة :

ـ لست أدري . . لست أدري : خير ؟ أجل . . حتى نموت كلانا . . وتموت «بورل» معنا : »

فقال القس :

ـ «دعي الله يتصرف في أمرك وأمر «بورل» . . الله رحيم . . دعيني الآن أنفذ إرادته التي أوضحها لعيني : اعلمي يا «هيستر» أني رجل ميت؟ فدعيني أحمل على كاهلي بسرعة نصيبي من العار؟

واستدار القس الجليل «ديمسدال» وهو يستند الى «هيستر براين» ويقبض على يد «بورل» الصغيرة، استدار الى الحكام ذوي الوقار . . والى اخوانه القساوسة . . والى الشعب الذي صعق قلبه الكبير . . ومع ذلك فاض بعطف باك وقد تكشفت له زاوية عميقة من الحياة، إن كانت آثمة فهي ملأى بالعذاب والندم. وألقت الشمس بنورها على القس. فظهر بقامته النحيلة عالياً فوق الأرض ليعترف بإثمه أمام القضاء الإلهي. وصاح بصوت ارتفع فوق رؤوسهم عالياً . . رائعاً . . مهيباً، ولكن تشوبه رعشة وأحياناً صرخة تتصارع خارجة من أعماق ندم سحيقة !

ـ يا أهل «نيو انجلاند» ! يا من أحببتموني . . يا من ظننتموني طاهراً قدسياً! الّي هنا . . الإثم الأول في هذا العالم : أخيراً. أخيراً أقف على المكان الذي كان يجب أن أقف عليه منذ سبع سنوات : أقف هنا . . مع هذه المرأة التي تسندني بذراعها والتي تمدني بقوة، في هذه اللحظة الرهيبة، لأزحف الى هنا ولتمنعني من التعثر والسقوط أمامكم على الأرض : ويلي من الشارة القرمزية التي تضعها «هيستر» على صدرها! لقد نفرتم منها جميعاً؟ فأينما سارت بحملها التعيس . . أينما أملت أن تجد راحة ما . . كانت الشارة القرمزية تلقى حولها بضوء قاتم من الرهبة والنفور، على حين وقف بينكم شخص لم تنفروا من شارة عاره وإثمه! »

وبدا الأمر كأنما يحتم على القس أن يدع بقية السر في طي الكتمان. لكنه قاوم ضعف جسده، وأكثر من ذلك، ضعف قلبه ووهنه الذي كان يحاول أن يتغلب عليه. فطرح عنه كل عون وتقدم خطوة في انفعال أمام المرأة والطفلة. واستطرد بشراسة وقد قرر باصرار افشاء السر كله :

ـ «كـان مـوسـومـاً بالشـارة! رأتها عين الله وحـده! كـان الملائكة يشيرون إليـها دومـاً! وعلم الشـيطان بها وألهب لسـعـتـهـا دائماً بطرف اصبعه الحارق! لكنه أخفاها بخـبـث عن أعين الناس، وسـار بينكم مـتخذاً هيئة روح طاهرة تتعذب لأنها خلقت في دنيـا آثمـة! روح حـزينة لأنها فـارقت رفـاقـهـا في الجنة! والآن . . وهو على شـفا الموت . . ها هو يقف أمـامكم! وهو يرجـو منكم أن تتأملوا مرة ثانية شارة «هيستر» القـرمـزية! وهو يقـول لكم انها برغم النفور الذي تثيره في النفوس ما هي إلا ظل لما يضـعـه هو على صـدره ـ وحـتى هذه التي يضـعـهـا على صـدره . . شـارته الحمراء الخـاصـة . . مـا هي إلا مثال لما حرق أعماق قلبه! أيوجد بينكم من يشك في عقاب الله الذي ينزله بالآثمين؟ انظروا! انظروا الى هذا الدليل الرهيب المفزع! »

وبحـركـة مـتقلصة، نزع عن صدره شريط الكهنوتية. لقد ظهرت الشارة وإنه لأمـر شـائن أن نصـفـهـا. وقـد ظلت الجـمـوع المصـعـوقة تحملق برعب في المعجزة الرهيـبـة، على حين وقف القس يغـشى وجـهه تورد الانتصار بوصفه شخصاً في ذروة آلامـه دانت له الغلبـة. ثم هوى فـجأة فـوق المنصـة! فـرفعته «هيستر» شيئاً وأراحت رأسـه عـلى صـدرهـا. وركع «روجـر شـيلينجـورث» الهرم الى جـواره بسـحنة خـاملة جـامدة كأنها فارقتها الحياة وراح يكرر مرة بعد مرة :

ـ لقد هربت مني. هربت مني.

فقال القس :

ـ ليغفر الله لك فأنت أيضاً آثم.

وحـول عـيـنـيـه عـن الرجل الهرم وسلطهما على المرأة والطفلة. وقـال في وهن بابتـسـامـة على وجهه حلوة رقيقة كابتسامة روح تسقط في نوم عميق! بل لا، فالآن، وقـد انزاح عن صدره الحمل، شعر برغبة في مداعبة الطفلة :

ـ «أي صـغيرتي «بورل» . . عـزيزتي الصغيرة بورل . . أتهبينني قبلة الآن؟ لقد رفـضت هناك . . في الغابة، ولكن الآن، أتقبلينني» .

فـقـبلت «بورل» شفتيه وكأنما انحل سحر! فإن المشهد الآسى الذي لعبت فيه الطفلة دوراً ، أثار عطفـهـا كله . . ومشاعرها كلها. فسطرت دموعها على خد أبيها

وعـداً منهـا أن تنشأ بين سـعـادة الانسانية وآلامها امرأة لها مكان فيها لا تقاتل العالم وتحـاربه الى الأبد! كما أن بورل أدت مـهمة رسول العذاب لأمها.

وقال القس :

«الوداع . . يا هيـستر»

فـهمست له وهي تنحني وتقرب وجهها من وجهه :

ـ «ألا نلتقي ثانية؟ ألا نمضي حياة الخلد معاً؟ فنحن دون شك قـد افتدى أحـدنا الآخـر بكل ذلك العـذاب والأسى؟ إنك تنظر الآن الى العـالم الآخـر بعينيك هاتين البراقـتين اللتين هما على شفا الموت؟ قل لي . . ماذا ترى !

فقال بوقار وهو يرتجف :

ـ صـه . . يا «هيـستر» صـه؟ القـانون الذي خـرقناه . . والإثم الذي كـشف سره هـنا بفظاعـة. ليكن هذا مـا يدور بفكرك وحـسب : إنني خـائف لعلنا عندمـا نسـينا الله . . عندمـا انتهكنا حرمة أرواحنا أضعنا الأمل الى الأبد في لقاء خالد. الله مطلع عليم، وهو رءوف رحـيم، لقـد أثبت رحمتـه أكـثـر مما أثبـتـها بآلامي وأشجاني بـاعـطـائي ذلـك الـعـذاب الخـارق لأحمله على صـدري، بارسـال ذلك الرجل الهرم الأسـود الرهيب إلـيَّ ليظل العذاب على صدري ملتهباً كاوياً . . دائماً بارسالي أنا الى هنا لأمـوت مـيـتـه العـار المنتصرة الظافرة تلك أمام الناس جميعاً : فلو أن أحد هذه الآلام غـاب عني لضـعت أنا الى الأبد : الحـمد للة والشكر، سبحانه هو الفعال لما يريد؟ الوداع !

وخـرجت هذه الكلمـة الأخيرة مع آخـر أنفاسه. فإذا الحشد الذي ظل ساكناً طوال هذه الفترة يصـيح بصـوت واحـد عـميق تملؤه رهبة ودهشة، لا بكلمات مفهومة بل بغمغمة هادرة صعدت خلف الروح الراحلة !

هيرمن ملفل
(١٨١٩ - ١٨٩١)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

يعرفه القارىء العربي من خلال روايته **موبي ديك** والتي حققت شهره عالمية كبيرة. بيد أن الكثير لا يعرفون أن ملفل قد كتب العديد من الروايات الأخرى المهمة والقصص القصيرة والأشعار والمقالات . وهو يعد بحق أفضل من كتب روايات البحر ومن أفضل من انتقد الحضارة الغربية وسبر غور إثم النفس البشرية والجانب غير المشرق منها . وهو كاتب رمزي ومحلل نفسي . حقق شهرة كبيرة في بداية حياته، لكنه فقد جمهوره سريعاً ونسيه الناس في سني حياته الأخيرة وبقي شبه منسي حتى اكتشفه النقاد في العشرينات من القرن الحالي ، فذاع صيت مؤلفاته وتبوأ مكانة مرموقة بين كتّاب أمريكا والعالم.

حياته :

ولد في مدينة نيويورك في الأول من شهر آب عام ١٨١٩ . وقد كان والده يتمتع بشيء من الثراء إلا أنه أفلس عندما كان ملفل في الحادية عشرة من عمره، ثم ما لبث أن توفي بعد سنتين. عاشت عائلته بعدها في ضائقة مالية ، وانتقلت لتعيش بالقرب من مدينة أولبُوني . ساعد ملفل أخاه في متجره ثم عمل في بنك وفي مجال التدريس، ومارس الكتابة.

من أهم أحداث حياته الأولى رحلته على متن سفينة تجارية إلى لفربول عام ١٨٣٩ سجل تفاصيلها في رواية **ردبيرن Redburn** فيما بعد . وقد أخذ يفكر ، من خلال الظلم الذي شاهده على السفينة ومن خلال الفقر ومشاهد الموت في لفربول، في النفس البشرية ومواجعها . عمل

بعد عودته إلى أمريكا كاتباً عند بعض المحامين، وهي تجربة أفاد منها في كتابة قصته المشهورة «الناسخ بارتلبي» .

اضطرته ظروف الحياة المعيشية القاسية إلى أن يسافر للعمل في سفينة صيد حيتان عام ١٨٤١ ، وقد قفز من السفينة وهرب في السنة التالية ليعيش مع أقوام جزر البولونيز فترة من الزمن. وقد تعرف على عاداتهم وسجل أحداث مغامراته معهم في روايته الأولى «**تايبي Typee**» (الجزر الوحشية) . سافر بعدها على متن سفينة استرالية إلى جزر هاواي والتحق هناك لبعض الوقت بسلاح البحرية الأمريكية.

عاد إلى أمريكا عام ١٨٤٥ بعد أربع سنوات في البحر واستقر في نيويورك بعد أن تزوج. نشر روايته الأولى **تايبي** والتي لقيت استحساناً كبيراً لدى القراء الذين شدهم وصفه للمغامرة والحياة البدائية البسيطة في الجزر.

نشر عام ١٨٤٩ رواية **ماردي Mardi** ورواية **ردبيرن** . أما الأولى فقد كانت رمزية فلسفية ، على الرغم من اتخاذها البحر مكاناً لأحداثها. ولم تعجب القراء قط ولم تحقق نجاحاً مادياً. حاول ملفل انقاذ الموقف بكتابة رواية ذاتية عن مغامراته في رحلته الأولى إلى ليفربول في نفس السنة. بيد أنه لم يستطع أن يحظى بالإهتمام الذي حظي به عند نشره الرواية الأولى.

سافر وفي نفس العام إلى بريطانيا والقارة. ثم عاد في بداية الخمسينات من القرن ليستقر في بتسفلد في غرب مستشوستس بعد أن تعرف إلى الروائي هوثورن وصادقه. نشر عام ١٨٧٢ رواية **بيير Pierre** والتي كانت أكبر اخفاق مالي له، وعاش فترة في ضيق مالي . سافر عام ١٨٥٦ إلى أوروبا والشرق الأدنى . وقد زار الأراضي المقدسة في فلسطين . وقد سجل تجربته تلك في قصيدة رمزية طويلة تحمل عنوان كلاريل Clarel . حاول بعد عودته أن يكسب عيشه عن طريق المحاضرات، بيد أنه لم يفلح كثيراً.

اندلعت الحرب الأهلية فسجل ملفل مشاهد منها وتعليقاً عليها في مجموعة من القصائد نشرها عام ١٨٦٦ . استقر في نيويورك في نفس العام وعمل مفتشاً في مصلحة الجمارك لمدة عشرين عاماً . توفي وقد نسيه معظم قرائه عام ١٨٩١ بعد أن خلف مجموعة قصائد ورواية مهمة تحمل عنوان **بيلي بدّ Billy Budd** .

أهميته :

هو بلا ريب العمود الفقري للرواية الأمريكية في القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من عدم استحسان القراء معظم رواياته في أثناء حياته ، فلقد اكتشفه النقاد فيما بعد وقدموه على أنه الروائي الأمريكي الأول. هذا وقد حقق فيما بعد شهرة عالمية كبيرة. تنبع أهميته من معالجته للقضايا الأمريكية والغربية والانسانية بأسلوب رمزي رفيع ، مع أنه يغلّفها في مغامرات وأحداث واقعية إلى حد كبير. ويبقى لرواياته سحر وعمق لا تكاد تضاهيه روايات الكثيرين ، على الرغم من ركاكة ورتابة بعض الأجزاء فيها . ولقد أثر في عدد من الروائيين الذين أتو بعده . نذكر منهم، على سبيل المثال، جوزف كونراد.

النـاسـخ بـارتـلـبـي
قصة من وول ستريت (*)

[من روائع القـصص العـالمية. على الرغم من بساطتها الظاهرية ، فإن للقصـة التي تدور أحـداثهـا في وول ستريت ، وهو جـزء من مـدينة نيـويورك تكثـر فـيـه الشركات التجارية والمراكز الماليـة، أبعـاد رمـزية مـهـمة. لعل أهمها الصراع بين التيار المادي الرأسمالي، ممثلاً بمكتب المحامي وبجـزء من شـخـصـيـة المحامي نفسـه ، وبين نزعة التسامي الرومانسية الممثلة بشخصية بارتلبي . ولمثل هـذا الموضـوع أهميـة كبرى ، ذلك أن العـديد من النقـاد ينظـرون للحـضـارة الأمـريكية على أنهـا صـــراع مـنذ البـداية بين الرأسمالـيـة الماديـة والنزعـات الروحـيـة . وتكون الغلبـة في مـعظم الأحيان للمادة] .

المحرر

إنني رجل كـبير في السن إلى حـد مـا. مكنتني طبـيـعـة عملي خلال السنوات الثـلاثين المنصرمـة من الاحـتكاك أكـثر من غيري مع صنف من الرجال مثير وفريد بـعض الشيء، لم يكتب عنه لغـاية الآن، على حـد علمي، أي شيء قط ـ وأقـصـد بذلك نسـاخـة الأوراق القـانونية أو كتبتها. لقد عرفت الكثير منهم، على الصعيدين الرسـمي والشخصي؛ وإن باستطاعتي، إن شئت، سرد العديد من تواريخهم التي قد يبـتسم لها الرجـال المهـذبون وقـد تبكي عليها النفوس العاطفية. لكنني أطرح سير حـيـاة الكتـبة الآخرين جميعهم جانباً، في سبيل كتابة بضع فقرات من حياة بارتلبي، الذي كـان ناسـخـاً أكـثر من كل من رأيت أو سـمعت غرابة. وبينما أستطيع كتابة تاريخ الحـيـاة التـام للنسـاخة القانونيين الآخرين، لا يمكنني فعل أي شيء من هذا القـبـيل فـيما يتـعلق ببارتلبي. فلا أعتقد أنه توجد معلومات تكفي لرسم حياة كاملة

(*) أخذت من **أربع حكايات من عصر النهـضة الامريكية** ، ترجمة د. أحمد يعـقوب المجدوبة (عمان : مركز الكتب الأردني، ١٩٩٠) .

ومرضية لهذا الرجل. وهذه خسارة لا تعوض للأدب. لقد كان بارتلبي واحداً من أولئك الذين لا يتوافر شيء أكيد عنهم، سوى ما يؤخذ من المصادر الموثوقة التي كانت في حالته قليلة جداً. كل ما أعرفه عن بارتلبي هو ما رأته عيناي الحائرتان، إضافة إلى تقرير غامض وحيد سيكشف النقاب عنه فيما بعد.

قبل أن أقدم الناسخ ، كما ظهر لي منذ البداية ، أرى من المناسب ذكر شيء عن نفسي وعن مستخدميّ وعن مهنتي وعن مقرّي وعن محيطي العام ، وذلك لأن مثل هذا الوصف ضروري لفهم الشخص الرئيس الذي سوف أقدم فهماً جيداً.

أولاً: إنني رجل آمنت بيقين منذ بلوغي سن الرشد أن أفضل طرائق الحياة هي أسهلها. لذلك فمع أنني أنتمي ألى مهنة يعرف أنها شاقة ومثيرة للأعصاب، لدرجة الاضطراب الشديد أحياناً، إلا أنني لم أدع شيئاً من ذلك يعكر صفوة مزاجي. إنني واحد من أولئك المحامين غير الطموحين الذين لا يخاطبون محلفين ولا يحصلون، بأي شكل كان، على تصفيق الجماهير. بل إنني أقوم، في الهدوء الملائم لمعزل مريح، بعمل تجاري مجز بين مستنبدات وقروض وعقود الرجال الأغنياء. كل من يعرفني يعدّني إنساناً آمناً للغاية. لم يتردد المرحوم جون جاكوب آستر، وهو شخص لا يميل كثيراً إلى المبالغة العاطفية، في عدّ الحنكة سمتي الأولى والعظمى، والأسلوب سمتي الثانية. لا أقولها من باب التفاخر، إنما فقط أدون الحقيقة، عندما أقول إنني قمت ببعض الأعمال للمرحوم جون جاكوب آستر؛ وهو اسم أعترف بحبي التغني به ، إذ أن له نغماً كامل العذوبة ، رنينه كرنين سبيكة الذهب. كما وأضيف بصراحة أنني كنت أفخر بعض الشيء برأي المرحوم جون جاكوب آستر الحسن.

قبيل نقطة بدء هذا التاريخ، توسعت أعمالي بشكل كبير. كنت قد منحت منصب رئيس محكمة المحفوظات، وهي وظيفة قد تم إلغاؤها في ولاية نيويورك. لم يكن ذلك المنصب مجهداً، وقد كان مجزياً بشكل واضح. إنني قليلاً ما أفقد أعصابي، وقلما أسمح لنفسي الشعور بالغضب الجامح إزاء الأخطاء والمنغصات؛ لكن أود التهور بعض الشيء هنا وأعلن أنني أعتبر الإلغاء المفاجىء والمجحف

لمنصب رئيس محكمة المحفوظات في الدستور الجديد هو فعل ـ متسرع؛ كنت قد حسبت أنني سأجني ثماره مدى الحياة، لكنني جنيتها لبضع سنوات فقط. غير أن هذا أمرٌ هامشي.

كانت حجراتي في الطابق العلوي، ورقمها ـ، وول ستريت (١). وكانت في إحدى نهاياتها تطل على الحائط الأبيض من الجزء الداخلي لبرج منور فسيح، كان يتخلل المبنى من قمته حتى قاعدته. والمنظر هذا مألوف، أكثر من كونه أي شيء آخر، حيث يفتقر إلى ما يطلق عليه رساموا المناظر الطبيعية «الحيوية». لكن إن كان حال هذا المنظر كذلك، فإن المنظر من الجهة الأخرى لحجراتي يشكل تبايناً على الأقل، إن لم نقل أكثر. في تلك الجهة أطلت نوافذي، التي لم يحل بينها وبين المشهد أي عائق، على حائط قرميدي شاهق، أسوّد بفعل الزمن وبفعل الظل الدائم. ولم يكن الواحد بحاجة إلى منظار ليتبين مواطن الحسن في هذا الحائط، والذي قد دفع، لفائدة جميع من يعانون من قصر النظر، إلى ما يقرب من عشرة أقدام من دفات نوافذي. بسبب العلو الشاهق للبنايات المحيطة، وبسبب وقوع حجراتي في الطابق الثاني، كانت المساحة الفاصلة بين هذا الحائط وحائطي تشبه إلى حد ليس بقليل صهريجاً ضخماً مربعاً.

كان عندي في الفترة التي سبقت قدوم بارتلبي بقليل، شخصان يعملان ناسخين وفتى واعد يعمل مراسلاً. الأول تيركي والثاني نبرز والثالث جنجرنت. وقد تبدو هذه أسماء لا يعثر عادة على مثيلاتها في الدليل. وهي في الواقع ألقاب، أنعم بها كتبتي الثلاثة على بعضهم؛ وقد عدّت معبرة عن خلائقهم وطبائعهم. كان تيركي رجلاً إنجليزياً قصيراً ملفوفاً من جيلي تقريباً، أي لا يتعدى الستين بكثير. يمكننا القول أن لون وجهه كان وردياً صافياً في الصباح؛ أما بعد الثانية عشرة ظهراً ـ ساعة غدائه ـ فكان يتوهج مثل موقد مليء بفحم عيد الميلاد، ويستمر في التوهج ـ (لكن إن جاز لنا التعبير) بتلاش تدريجي ـ حتى السادسة مساءً أو ما يقاربها. بعدها لم أر صاحب ذلك الوجه الذي يصل ذروته مع الشمس ويبدو وكأنه أيضاً يغرب معها: ثم يشرق ويتألق ويتلاشى في اليوم التالي بنفس الانتظام والمجد

(١) جزء من مدينة نيويورك يضم عدداً ضخماً من المحلات التجارية والمصرفية.

الشـامخ. لقـد شـاهدت العديد من المصادفات في حياتي، إحداها وليس أقلها أهمية كـانت حـقيقة أنه تماماً عندما يبعث محيّا تيركي القرمزي المتوهج أقوى أشعته، عندها تماماً وفي تلك اللحظة الدقيقة تبدأ أيضاً المرحلة اليومية التي أعتبر أن قدراته فيها قد أخـذت بالتراجع بشكل واضح للمـدة المتبـقـية من الأربع والعشرين ساعة. لا لأنه يكون خـامـلاً تمامـاً، أو لأنه يكره العمل حينها. كلاّ. فالمشكلة تكمن في أنه يكون أكـثـر حـيـوية مما هو مطلوب ، إذ تتـسم أفـعـاله بتـهـور غريب مشحون مضطرب صـاخب. فيكون غير حريص عندما يغمس ريشته في المحبرة ؛ وتتساقط جميع نقاط الحبر على وثائقي منه بعـد الثـانيـة عـشـرة ظهـراً . وفي الحـقـيـقة أنه لم يكن متهوراً ومـعـتـاداً على إسـقـاط نقـاط الحبر بعد الظهر فحسـب ، بل كان في بعض الأحيان يذهب إلى أبعـد من ذلك ويكون صـاخباً إلى حد كبير. في مثل تلك الأوقات أيضاً، توهج وجـهـه بلهـيب قـوي ، كأن كـمـيـة من فـحـم وقـاد قـد أضيفت إلى فحـم الانثراسيت (١) . كـان يحدث صـوتاً مـزعـجاً بكرسيه، ويقلب مرملة الكتابة؛ وعند ترتيب أقـلامـه، كـان يكسرها قطعـاً بعصبية ويرميها بغضب مفاجىء على الأرض.
كما كـان يقف وينحني فـوق طاولتـه ثم ينهـال على أوراقـه ضرباً بطريقـة غير لائقة أبـداً. إن رؤية ذلك من رجل كـبير في السن مـثله لشيء محزن بالفـعل. ومع ذلك، ولأنه إنسـان نافع لي كـثيراً من عـدة جـوانب ، ولأنه كـان طوال الوقت قـبل الثـانيـة عشرة ظهـراً من أكـفأ الناس وأكـثـرهم مـثـابرة ، ولأنه كان ينجز الكثير من الأعمال بأسلوب لا يكاد يضـاهى، كنت ـ لهذه الأسباب ـ أتغاضى عن سلوكه الغريب، مع أنني كنت أحـتج عليه بين الحين والآخر . لكنني فعلت ذلك برفق بالغ ، إذ مع أنه كـان من أكـثـر الناس تهذيباً ورقة واحتراماً في الصباح ، فإنه كان بعد الظهر يصبح، عـقب أي اسـتفزاز، متهوراً بعض الشيء بلسانه ، بل ووقحاً . وبالرغم من تقديري لخـدمـاته الصـبـاحـيـة كثيراً والتي لم أرد فقدانها؛ إلا أنني في ذات الوقت، لانزعاجي من أفـعـاله الملتـهـبـة بعـد الثانية عشرة، ولكوني رجلاً مسالماً لا أرغب في أن أحدث عن طريق توبيـخـاتي له ردود فعل غير لائقة منه ، أخذت على عاتقي ظهر أحد أيام السـبت (وكـانـت حالتـه دائماً أسـوأ ما تكـون أيـام السبـت) التلميح له ، بلطف

(١) فحم سريع الإشتعال .

شـديد، أنه ربما يكون من المستحسن له الآن بسبب تقدمه في السن ، لو اختصر من أعماله. باختـصار ، لم يعد هو بحاجة للمجيء إلى مكاتبي بعد الثانية عشرة ، حيث من الأفـضل له بمـجـرد انتـهـاء فترة الغداء أن يذهب إلى بيته ويستريح حتى حلول مـوعـد تناول الشاي . لكن لا؛ لقد أصـرَّ على واجبات ما بعد الظهر . أصبح محيّاه متّقداً بشكل لا يطاق ، عندما قال لي يطمئنني بفصاحة ـ وهو يلوح بمسطرة طويلة في النهاية الأخرى للغرفة ـ إنه إذا كانت خدماته لي في الصباح مهمة، فكيف يمكن الاستغناء عنها إذن بعد الظهر؟

«بـكـل احترام يا سيـدي»، قـال تيركي في تلك المناسبـة، «إنني أعـدّ نفسي ذراعك الأيمن. في الصبـاح، أقـوم بنشر واستعراض صفوفي، أما بعد الظهر فأقف على رأسـهم وأنقض على العدو ببسالة هكذا» ـ وأحدث ضربة عنيفة بالمسطرة.

«لكن نقاط الحبر يا تيركي» ، ألمحت له .

«صـحـيح ـ لكن بكل احترام يا سيـدي، انظر إلى شـعـري. إنني أتقـدم في السن. بالتأكـيد يا سيدي ليس من العدل أن تؤخذ نقطة أو نقطتان في أحد أيام بعد الظهـر الحـارة ضـد إنسـان شيخ. الشيـخـوخة ـ حتى لو أفسدت الصفحات ـ لها هيبتها. بكل احترام يا سيدي، إننا معاً نتقدم في السن» .

إنه لمن الصـعب مـقـاومـة مخاطبـتـه عـواطفي الإنسانية بهذه الطريقة. على أية حـال، رأيت أنه لن يذهب. ولذلك قـررت أن أدعـه يبـقى، لكنني عزمت مع ذلك التأكـد من أنه لن يتعامل في فترة ما بعد الظهر إلا مع الأوراق الأقل أهمية.

أمـا نبرز، الثـاني في قـائمـتي، فـقد كان شاباً مسبّلاً شاحباً يشبه إلى حد كبير القـراصنة في هيئتـه. اعـتبرته دائماً ضـحـيـة قوتين شريرتين ـ الطموح وعسر الهضم. كـان الطمـوح يظهـر في نفـاذ صبر ملحـوظ حيـال واجـباته كناسخ واحتكار واضح للقـضـايا ذات الطابع الرسـمي فقط، مثل تحرير الوثائق القانونية الأصلية. أما عسر الهضم فـبـدا واضـحـاً في نزق عـصـبي وتوتر ضحكي، جعلا أسنانه تصطك بشكل مـسـمـوع عـقب ارتكابه الأخطاء أثناء النسخ؛ كذلك في لعنات غير لائقة تصدر في هسـيس، لا في كلمات ، في خِـضَـمٍّ زخم الحياة ؛ ثم ، وبشكل خـاص ، في تذمر يتـعلق بعلو الطاولة التي يعـمل عليـها . فمع أن لنبرز موهبة ميكانيكية بارعة ، فإنه

لم يستطع جعل علو الطاولة ملائماً. وضع تحتها رقاقات ومواد من أنواع مختلفة وقطعاً خشبية؛ كما وصل به الحال في نهاية الأمر إلى محاولة تعديلها بشكل غريب عن طريق طيّ قطع من ورق المسودّة تحتها. لكن لم يف أي من اختراعاته بالغرض المطلوب. فإذا ما رفع سطح الطاولة عالياً حتى يصل إلى ما يقرب من ذقنه ، من أجل أن يريح ظهره ، وكتب مثل رجل يستخدم السقف المنحدر لبيت هولندي كطاولة - ادعى أن ذلك يوقف دوران الدم في ذراعيه. وإذا ما أنزل الطاولة حتى خاصرته وانحنى فوقها ليكتب، كان يسبب له ذلك ألماً شديداً في ظهره. باختصار، إن حقيقة الأمر تتمثل في أن نبرز لم يعرف ماذا يريد. وإن كان يريد شيئاً حقاً، فهو التخلص من طاولة النسخ نهائياً. كما كان من بين مظاهر طموحه الشاذ ولعه بتلقي الزيارات من أشخاص غامضين يرتدون معاطف بالية، قال إنهم زبائنه. لقد كنت أعلم أنه لم يكن أحياناً جديراً بأن يكون ممثلاً سياسياً لأحد الأقاليم فحسب، بل كان أيضاً معروفاً في أرجاء التومز (١) كافة . ولدي سبب قوي يدعوني للاعتقاد أن أحد الأشخاص الذين كانوا يترددون عليه في الحجرات ، والذي كان يصرّ بتفاخر أنه زبون له ، لم يكن سوى جابياً ؛ وأن ما يدعي أنه عقد إنما كان فاتورة . لكن بالرغم من جميع سيئاته تلك، وبالرغم من الإزعاجات التي سببها لي، كان نبرز، مثل صاحبه تيركي ، مستخدماً نافعاً لي بشكل كبير . فقد كتب خطاً أنيقاً واثقاً، وعندما شاء كان لا ينقصه أي تهذيب في سلوكه . يضاف إلى ذلك أنه كان دائماً يلبس كالسادة، وهكذا، وبشكل غير مباشر ، كان يضفي نوعاً من الهيبة على الحجرات ؛ في حين أنني كنت ، بالنسبة لتيركي ، أحاول جاهداً ألا أجعل منه مصدر تأنيب لي ، إذ كانت ملابسه تبدو دائماً قذرة تفوح منها رائحة المطاعم. فقد لبس بنطالاً ساحلاً فضفاضاً في الصيف . معاطفه كانت رديئة ، وقبعته لا يجب لمسها (٢) . وفي الوقت الذي لم أكن أكترث فيه بالقبعة ، حيث أن طبعه المهذب ووقاره كإنسان إنجليزي جعلاه يخلعها دائماً فور دخوله المكتب ، فقد كان معطفه يشكل مسألة مختلفة تماماً . وقد حاولت التحدث معه بشأن معطفه ، لكن بدون جدوى . والحقيقة ، على ما أعتقد ، أن رجلاً له مثل ذلك الدخل المحدود لا

(١) سجن ويعني حرفياً «القبور» .
(٢) بسبب قذارتها.

يستطيع أن يكون له وجه لامع ومعطف لامع في آن واحد . كما قال نبرز ذات مرة ، إن نقود تيركي يذهب معظمها في شراء الحبر الأحمر . في أحد أيام الشتاء قدمت لتيركي أحد معاطفي الفاخرة جداً ، معطفاً رمادياً مبطناً ، دافئاً بشكل كبير ومريحاً ، كان يزرر من الركبة إلى العنق. ظننت أن تيركي سيقدر المعروف ويخفف من تهوره وصخبه في أوقات ما بعد الظهر . لكن لا . إنني أعتقد جازماً أن لفّ تيركي نفسه في مثل هذا المعطف الريشي الشبيه بالبطانية كان له أثر سلبي عليه، وذلك حسب المبدأ القائل إن الإفراط في أكل الشوفان يضر بالخيل . وفي الواقع أنه تماماً كما أن أكل الشوفان يؤثر على الفرس الطائش الشموص، كذلك أثر المعطف على تيركي. فقد جعله وقحاً. إنه رجل يضرّه النعيم.

ومع أنه كان لي موقفاً خاصاً إزاء عادات تيركي الأنانية، إلا أنني، فيما يتعلق بنبرز، كنت مقتنعاً تماماً أنه مهما كانت أخطاؤه في الجوانب الأخرى، فقد كان على الأقل شاباً متعقلاً. لكن يبدو أن الطبيعة ذاتها، والتي كانت في حالته أشبه ما تكون بصانع الخمر، قد شحنته عند مولده شحناً تاماً بمزاج سريع الغضب كان أثره على شخصه كأثر البراندي؛ إذ تكون جميع الجرعات التي تلي الجرعة الأولى لا لزوم لها. عندما أفكر كيف كان نبرز ينهض من مقعده بعد نفاذ صبره، في سكون حجراتي، ويمسك بالطاولة كلها، ويحركها دافعاً إياها دفعة غاضبة طاحنة فوق الأرضية ـ كأن الطاولة هي كائن شرير يملك إرادة ويصر على إحباطه ومرمرته ـ فإنني أدرك بوضوح أن البراندي والماء لهما نفس الأثر على نبرز.

كان من حسن حظي أن غضب نبرز وما يتمخض عنه من عصبية، كنتيجة لمسببه الغريب (عسر الهضم) ، كان يلحظ بشكل رئيس في الصباح، إذ أنه بعد الظهر يكون وديعاً بالمقارنة. وبما أن نوبات تيركي تبدأ بالظهور عند حوالي الثانية عشرة ليس قبل، لم أكن لأتعامل مع سلوكهما الغريب في آن واحد. تعاقبت نوباتهما مثل تناوب الحراس. عندما كانت نوبة نبرز مشتعلة، كانت نوبة تيركي ساكنة، والعكس صحيح. وكان هذا ترتيباً طبيعياً مقبولاً في تلك الظروف.

جنجرنت، الثالث في قائمتي، كان غلاماً في الثانية عشرة من عمره تقريباً.

وكـان والده سـائقـاً، يطمح في رؤية ولده على المقـعـد بدل العربة قبل وفاته؛ لذلك أرسـلـه إلى مـكـتـبـي كـدارس للقـانون ومـراسل ومنظف وكناس، براتب أسـبـوعي مـقـداره دولار واحـد. كـان له مقعد صغير خاص به. لكنه لم يستخدمه كثيراً. عند تفـتـيش جـرار مـقعده وجد أنه يحتوي على عدد كبير من قشور أنواع مختلفة من ثمار الأشـجـار. والواقع أن علم القانون العظيم كله كان بالنسبة لهذا الشاب سريع الفطنة محصـوراً في قشرة ثمره (١) . وكـان من بين مهامـه التي لا يستهـان بها مهمـة قام بها بـنـشـاط بـالغ ، ألا وهي تزويد تيركي ونبرز بالكعك والتـفـاح . فـلأن نسخ أوراق القـانون هو عـمليـة طبـيـعـتـها جافة وعسيرة، نزع ناسخاي إلى تطرية فميهما معظم الأحـيـان بتـفـاح السبتسنبرغ الذي كان يحصل عليه من المحلات العديدة القريبة من قـاعـة الجمارك ومكتب البريد. وكـانا يرسلان جنجرنت أيضاً مرات عديدة لإحضار تلك الكعكة الغـريبـة الصـغيرة المسطحة المدورة والمبهرة بشدة التي عرف باسمها. في صبـاح الأيام البـاردة عندما يكون العمل مملاً، كان تيركي يبتلع العشرات من حبات الكعك تلك، كأنها مجرد رقـاقـات من البـسكوت ـ وكـانوا في الواقع يبـيـعـونها بنسبة ست أو ثماني حبـات للبنس الواحـد. وكـان صوت كشط قلمه يختلط بصوت طحن الجـزيئات الهشـة في فـمـه. وكان من بين مغامرات تيركي وأفعاله المتهورة، في أوقات مـا بعـد الظهر المتأججة، وضعه إحدى كعكات الزنجبيل مرة بين شفتيه لترطيبها ثم إلصـاقـهـا إلى أحـد عقود الدين كالختم. كنت على وشك طرده حينها، لكنه هدأني بأن انحنى أمـامي إنحناءً شرقـيـاً وقـال ، «بكل احترام يا سيدي، إنه لكرم مني أن أزودك بالأوراق على حسابي» .

ازداد حـجم عـملي الأصلي ـ بوصـفي مـدققاً ومحرراً لوثائق نقل الملكية والعديد من الوثائق المعـقـدة الأخـرى ـ بشكل كـبير عند تسلمي وظيفة الرئيس. وازداد عمل النسـاخـة آنئذ كـثيراً، إذ لم يكن يتـوجب علي الضـغط على الكتـبـة الموجودين عندي فـحـسب، بل إضـافـة آخـرين إليـهم. وقف على عـتبة مكتبي، مستجيباً لإعلاني، صـبـاح أحـد الأيام شـاب خـفـيف الوطء، عندمـا كان الباب مفتوحاً لكون الوقت صـيـفـاً. إنني مـا زلت أذكـر هيئته لغاية الآن ـ لقد كان أنيقاً بشحوب ووقوراً بحزن

(١) أي يأخذ الأمور ببساطة.

وكئيباً إلى حد كبير. كان ذلك الشخص بارتلبي.

بعد استفسار سريع حول مؤهلاته، استخدمته؛ وكنت مسروراً لإضافة رجل فريد الهدوء إلى مجموعة النساخة لدي، ظاناً أنه قد يؤثر بشكل إيجابي على مزاج تيركي العاصف ومزاج نبرز المشتعل.

كان يجب أن أذكر آنفاً أن أبواباً زجاجية من النوع الذي يطوى قد قسمت مكتبي إلى قسمين. واحد لناسخي والآخر لي. وقد كنت أفتح أو أغلق تلك الأبواب حسب مشيئتي. لقد قررت تخصيص زاوية بالقرب من الأبواب الزجاجية لبارتلبي، وكانت في قسمي أنا، من أجل أن يكون هذا الرجل الهادىء قريباً مني عندما أناديه، عندمل يلزم فعل شيء ما. وضعت مكتبه بالقرب من نافذة جانبيه، في ذلك الجزء من الحجرة؛ وكانت تلك النافذة تطل قديماً على منظر جانبي لبعض الساحات الخلفية وحيطان القرميد الوسخة، لكن الآن وبسبب تعاقب عمليات البناء لم تطل على أي منظر، مع أنها أدخلت بعض الضوء. على بعد ثلاثة أقدام من دفات النوافذ كان هنالك حائط؛ أما الضوء فكان يأتي من علو بعيد ـ بين عمارتين شاهقتين ـ كأنه يدخل من فتحة صغيرة في إحدى القباب. وحتى يكون ذلك الترتيب ملائماً ، وضعت بيننا ستارة مرتفعة خضراء ، تسحب عند الحاجة، تحجب بارتلبي تماماً عن بصري، لكنها لا تبعده عن مجال صوتي. هكذا، وبهذه الطريقة، جمعنا بين الصحبة والعزلة.

في البداية أنجز بارتلبي كمية مدهشة من النسخ. فقد كان يلتهم وثائقي التهاماً، كأنه قد تاق طويلاً لنسخ شيء ما. ولقد عمل ليلاً ونهاراً بدون توقف، ينسخ في ضوء الشمس وفي ضوء الشمع. وكنت سأسّر بعمله لوأنه كان مثابراً ببهجة؛ لكنه نسخ بهدوء وشحوب ورتابة.

التأكد من صحة النسخة كلمة كلمة هو بالطبع جزء أساسي من عمل الناسخ . وعندما يكون اثنان أو أكثر من النساخة في المكتب ، فإنهم يتعاونون في عملية الفحص هذه: الأول يقرأ من النسخة والآخر يحمل الأصل. وهذه عملية مملة جداً ومتعبة وثقيلة. إنني أتفهم بكل سهولة عدم تحمل بعض الأمزجة الحيّة

إياها. فلا أستطيع، مثلاً، تخيل الشاعر بايرن (١) ، المفعم بالنشاط ، يجلس مرتاحاً مع بارتلبي ليفحص نسخة قانونية مكونة من خمسمائة صفحة ، مكتوبة بخط مموج متراص.

كان من عادتي بين الحين والآخر المساعدة في مقارنة بعض الوثائق القصيرة؛ وكنت أدعو تيركي أو نبرز لهذه الغاية. ولقد كان أحد الأهداف من وضع بارتلبي على مقربة مني خلف الستارة للإستفادة من خدماته في مثل تلك المناسبات الهامشية. كان ذلك في اليوم الثالث لوجوده عندي، على ما أعتقد، وقبل حصول أية ضرورة تدعو لفحص خط يده، عندما ناديت بارتلبي فجأة ، إذ كنت في عجلة من أمري لإتمام عمل بسيط كان في يدي. بسبب عجلتي وتوقعي التلقائي الإذعان الفوري من بارتلبي ، جلست وقد انحنى رأسي فوق الأصل على مكتبي وامتدت يدي اليمنى جانباً بالنسخة ، بشيء من التوتر ، وذلك حتى يتمكن بارتلبي من التقاطها فور خروجه من معزله ونباشر العمل دون أي تأخير.

كنت أجلس في مثل تلك الهيئة عندما ناديته، وقد تليت عليه بسرعة ما أردته أن يفعل ـ أي، أن يفحص ورقة صغيرة معي. تخيل دهشتي، لا بل هلعي، عندما أجاب بارتلبي ، دون أن يتحرك من مكان خلوته ، وبصوت فريد اللطف والحزم «إنني لا أحبذ ذلك» .

جلست هنيهة في سكون تام، أحاول تجميع ملكاتي المصعقة. لكن تبادر إلى ذهني مباشرة أن أذني قد خدعتاني، أو أن بارتلبي قد أساء فهم مقصدي تماماً. كررت طلبي بأوضح ما استطيع من عبارات. لكن تماماً وبنفس وضوح العبارة جاءت الإجابة السابقة «إنني لا أحبذ ذلك» .

«لا تحبذ ذلك»، أجبت واثباً بانفعال شديد واتجهت نحوه بخطوات سريعة، «ماذا تعني؟ هل جننت؟ أريدك أن تساعدني في مقارنة هذه الصفحة ـ خذها»، ورميت بها نحوه.

---

(١) شاعر إنجليزي رومانسي (١٧٨٨ ـ ١٨٢٤).

«إنني لا أحبذ ذلك»، قال.

نظرت إليـه بحـزم. كـان وجهه نحيلاً، وعيناه الرماديتين هادئتين بخفوت. لم تظهر عليه أية تجاعيد انفعالية. لو كان هنالك شيء إنساني عادي فيه، فإنني كنت لا محالة قـد طردته من المكتب بعنف. لكن كنت وكأني أفكر في إلقـاء تمثال سيسيرو [1] الـشـاحب المصنوع من الجص خـارجـاً. وقـفت أحـدق فـيـه بعض الوقت بينما تابع نسـخـه، ثم عدت وجلست على مكتبي. إن ذلك لغريب حقاً، أخذت أفكر. ماذا يجب على الواحـد أن يفـعل؟ لكن عـملي استعجلني. فقررت التغاضي عن الأمر في الوقت الحـاضر، وتأجـيل البتّ فـيـه لوقت فـراغ مـستقبلـيّ. دعوت نبرز من الغرفة الأخـرى فتم تدقيق الورقة بسرعة.

بعـد عـدة أيام، أتم بارتلبي نسخ أربع وثائق طويلة، كـانت عـبـارة عن أربع نسخ من شـهـادة مـدّتها أسـبـوع أخـذت أمـامي في محكمـة المحـفوظات. وكان من الضروري فـحـصـها، فقد كانت تلك القضية مهمة والدقة المتناهية لا بد منها. بعد أن تم ترتيب كل شيء، ناديت تيركي ونبرز وجنجـرنت من الغـرفـة المجاورة، أقصد وضع النسخ الأربع في أيدي كـتـبـتي الأربعـة ، بينما أقـرأ أنا من الأصل . وبالفعل جلس تيركي ونبرز وجنجـرنت في صف واحـد ، كل بيـده وثيـقـتـه ، عندما ناديت بارتلبي كي ينضم إلى هذه المجـموعة المثيرة.

«بارتلبي، أسرع، إنني أنتظرك ! »

سـمـعـت كـشـطـاً بطيئاً صـادراً عن أرجل كـرسـيـه على الأرض العـارية من السجاد، وظهر بعدها يقف على مدخل خلوته.

«ما المطلوب مني» ، قال بلطف.

«النُسخ، النُسخ» ، قلت على عـجل ، «نحن على وشك فـحـصـها . خذ» ـ وقدمت له النسخة الرابعة.

«إنني لا أحـبذ» ، قال ثم اختفى بهدوء خلف الستارة.

---

(١) سـياسي وخطيب وفيلسوف روماني (١٠٦ ـ ٤٣ ق. م.) .

لعـدة لحظات تحـولت إلى قـالب من ملح، وأنا أقف على رأس صف كـتـبـتي الجـالسين. بعـد أن تمالكت نفسي، تقـدمت نحـو السـتارة وطلبت معرفة سبب هذا السلوك الغريب.

«لماذا ترفض ؟ »

«إنني لا أحبذ» .

لو كـان الذي أمـامي رجـلاً غيره ، لغـضبت على الفور غضباً مريعاً ، ولمنعته من قـول أي شيء آخر، ولطردته بتحقير من أمامي . لكن كان في بارتلبي شيء ما لم يجردني من أسلحـتي فـحـسب ، بل أثر علي وأحـزنني بطريقة رائعة . بدأت أخاطبه بالمنطق.

«إن النسخ التي نريد فـحـصـهـا هي نسـخك أنت . إننا نريد أن نوفر عليك جـهـداً، حـيث أن فـحصاً واحداً ينهي أربع أوراق. هذه ممارسة متعارف عليها. كل ناسخ يجب أن يساعد في فحص نسخته. أليس كذلك؟ ألا تتكلم؟ أجبني» !

«لا أحـبـذ» ، أجـاب بنبرة تشـبه لحن الناي . بدا لي عندما كنت أخاطبه أنه كـان يفكر بكل جملة أقـولها ويسـتـوعب مـعناها كـامـلاً ، ولم يسـتطع إنكار النتيجة الحـتـمـيـة ؛ لكن في الوقت ذاته ، حتم عليه أحد الإعتبارات العظمى إعطاء إجابته تلك.

«لقـد قـررت إذن ألا تسـتـجـيب لمطلبي ـ وهو مطلب مبني على العادة المتبعة والمنطق الشائع» .

أفـهـمني باخـتصار أن حكمي فيما يتعلق بتلك النقطة كان صائباً. نعم : إن قـراره لا رجعة فيه.

عندمـا ينهـزم الانسان بشكل غير معهود وغير منطقي أبداً فليس من المستغرب أن يـبـدأ إيمانه ذاته في الترنح . ويمكن القـول أنه يبـدأ يفكر أن العـدل كله والمنطق كله، مـهما بدا ذلك عـجيباً ، قد أصبحا في الجانب الآخر . لذلك ، وإذا وجد أي إناس حـياديين، فإنه يلجأ إليهم من أجل تعزيز موقفه المتردد.

«تيركي» ، قلت «ماذا ترى في هذا ؟ ألست على حق» ؟

«بكل احترام يا سيدي» ، قال تيركي بنبرة رقيقة جداً ، «أعتقد أنك على حق».

«نبرز» ، قلت «ماذا ترى أنت في هذه المسألة» ؟

«أرى أن يطرد من هذا المكتب» .

(سوف يلاحظ القارىء شديد الفطنة هنا أن إجابة تيركي، بما أن الوقت صباح، كانت مغلفة بعبارات مهذبة ومتزنة؛ أما نبرز فقد أجاب بعبارات غاضبة. أو حسب ما قلنا سابقاً، كان مزاج نبرز القبيح ثائراً، بينما كان مزاج تيركي مستريحاً) .

«جنجرنت»، قلت آملاً كسب حتى أضعف صوت إلى جانبي، «ما رأيك أنت فيها» ؟

«أعتقد، يا سيدي، أنه معتوه بعض الشيء»، أجاب جنجرنت مبتسماً.

«أتسمع ما يقولون»، قلت متجهاً نحو الستارة «تعال وقم بواجبك» .

لكنه لم يتفوه بابنة شفة. أخذت أتفكر للحظات في حيرة مريرة، لكن عملي استعجلني مرة أخرى. فقررت مرة أخرى ارجاء النظر في هذه المحنة إلى وقت فراغ مستقبلي. بشيء من العناء بدأنا بفحص الأوراق بدون بارتلبي، مع أنه بعد فحص كل صفحة أو صفحتين كان تيركي يفصح بوقار عن رأيه في أن أسلوب العمل هذا خارج تماماً عن المألوف، في حين أن نبرز، الذي ارتعش في كرسيه بعصبية جامحة، أخرج من بين أسنانه لعنات هسيسية ضد العنيد الأبله الجالس خلف الستارة. بالنسبة له (لنبرز) هذه أول وآخر مرة يقوم فيها بعمل إنسان دون أن يتقاضى أجراً إضافياً.

في تلك الأثناء كان بارتلبي يجلس في صومعته، غير آبه إلا بعمله الغريب هناك.

مرت بضعة أيام، كان يشتغل الناسخ خلالها على عمل طويل آخر. سلوكه الأخير المدهش جعلني أنظر إلى طرائقه بعين فاحصة. لاحظت أنه لم يخرج لتناول

الـغـداء قـط، وفي الواقع أنه لم يخرج لأي مكان أبداً. لغـاية الآن لم أعلم، بناء على معـرفـتي الشخصية، أنه قد غادر مكتبي. كان يلازم زاويته دائماً كأنه حارس. لكن عند حـوالي الحادية عشرة صباحاً تقريباً، لاحظت أن جنجرنت كان يقترب من فتحة ستـارة بارتلبي، كأنه يدعى سراً بإشـارة لا أراها من حيث أجلس. كان الغلام يغادر المكتب بعـدها يخشـخش ببـضـعـة بنسات، ثم يرجع بحفنة من كعكات الزنجبيل، يدخلها الصومعة ويتلقى اثنين منها مكافأة لجهوده.

يعـيش، إذن، على كـعكات الزنجـبـيل، قلت في نفسي؛ لا يأكل وجـبـة غـذاء قط، أقـصـد وجـبـة حـقـيقـيـة؛ إنه خُضـاري إذن؛ لكن لا، إنه لا يأكل حـتى الخضروات؛ إنه لا يأكل سوى كعك الزنجبيل. بدأ عقلي بعدها يتأمل الآثار المحـتملة على الجسم الانساني من العيش المطلق على كعك الزنجبيل. تسمى كعكات الزنجـبـيل كـذلك بسبب احتوائها على الزنجبيل كمكون غريب من مكوناتها، والذي هو أكـثـر نكهـة. والآن، مـا هو الزنجبيل؟ إنه شيء حارٌ مبهّر. هل بارتلبي حارٌ ومـبـهّر؟ قطعـاً لا. ليس للزنجـبـيل إذن أي تأثير على بارتلبي. ربما قـد حبذ ألا يكون له أي تأثير عليه.

لا شيء يثير الشـخص الجـاد مـثل المقاومة السلبية. إذا كان الإنسان المقاوَم لا يتـمـتع بمـزاج وحشي والمقـاوِم غير مـؤذ قط في سلبـيـتـه، فإن الأول سـوف يسعى بحـسن نيـة، في حـالاته المزاجـية الهادئة، لكي يحلّ بمخيلته ما يكون مستحيلاً حلّه عـن طـريـق أحـكامـه العـقـليـة. نظرت إلى بارتلبي مـعظم الوقت من تلك الزاوية. مـسكين هذا الإنسـان، أخـذت أفكر؛ إنه لا يقـصـد أي أذى، ومن الواضح أنه لا يضـمـر أية وقاحة. تدل هيئته بوضوح على أن أطواره الغريبة لا إرادية. إنه نافع لي. وإن باستطاعي التفاهم معه بسهولة. إذا طردته، فأغلب الظن أنه سيقع تحت سطوة مـسـتـخـدم أقل تحـمـلاً مني، ولذلك سوف يعامل بقسوة، وربما يدفع بتعاسة نحو هلاكـه. نعم، إن باسـتطاعتي الحصول هنا بثمن بخس على شيء من الرضى اللذيذ عن نفسي. مـصـادقة بارتلبي واحتمال غرابة أطوار إرادته، يكلفاني إما القليل وإما لا شيء، ويمكنانى من الاخـتـزان في روحي مـا سـوف يصـبح لقـمـة حلوة يلتـهـمـهـا ضـميري. لكن تلك الحالة العقلية لم تكن مستقرة. فسلبية بارتلبي أغضبتني أحياناً.

وشعرت أنني أستفز لمواجهته في مشاحنة جديدة، من أجل أن أثير في نفسه شرارة غضب موازية لما في داخلي. لكنني كنت كما لو أنني أحاول إشعال نار من احتكاك براجم أصابعي مع قطعة صابون وندسر (١) . لكن تملكتني بعد ظهر أحد الأيام نزعة شريرة في داخلي، ونجم عن ذلك المشهد التالي:

«بارتلبي»، قلت، «عندما يتم نسخ كل هذه الأوراق، سوف أقارنها معك».

«إنني لا أحبذ ذلك» .

«كيف؟ من المؤكد إنك لا تنوي الاستمرار في هذا العناد البهيمي» ؟

لا إجابة.

فتحت الأبواب المجاورة التي تطوى وبعد أن نظرت إلى تيركي ونبرز، قلت بنبرة ثائرة:

«يقول للمرة الثانية إنه لن يفحص الأوراق. ماذا ترى في ذلك يا تيركي» ؟

كان الوقت بعد الظهر، لنتذكر. جلس تيركي يتوهج غضباً مثل وعاء غلي نحاسي، كان البخار يصدر من رأسه الأصلع وكانت يداه ترتجفان بين الأوراق الملطخة بالحبر.

«ماذا أرى» ؟ زمجر تيركي، «أرى أن أدخل خلف ستارته وأفقأ عينيه» .

بعد قول ذلك، نهض تيركي على قدميه وأشهر يديه كما يفعل الملاكم، كان في طريقه لتنفيذ وعيده عندما أوقفته، إذ خفت من عاقبة إثارة قدرات تيركي القتالية بعد الغذاء.

«إجلس، يا تيركي»، قلت له، «واستمع إلى ما سيقوله نبرز. ماذا ترى في المسألة يا نبرز؟ أليس لدي المبرر لطرد بارتلبي على الفور» ؟

«معذرة يا سيدي، فاتخاذ هذا القرار متروك لك. أرى أن سلوكه غير طبيعي قط، وفي الحقيقة ليس في ذلك عدل فيما يخصّ تيركي ويخصني. لكن يمكن أن

---

(١) نوع من الصابون .

يكون ذلك مجرد نزوة عابرة» .

«آه»، قلت له، «لقد غيرت رأيك بشكل غريب إذن ـ تتحدث برفق شديد حياله الآن» .

«هذا كله بسبب البيرة»، صاح تيركي، «الرفق هو من آثار البيرة ـ لقد تغديت أنا ونبرز معاً اليوم. هل ترى مدى رفقي أنا يا سيدي؟ هل تريدني أن أذهب وأفقأ عينيه» .

«تعني بارتلبي، لا شك. لا ليس اليوم، يا تيركي». أجبته، «وأرجو أن تنزل يديك» !

أغلقت الأبواب وتقدمت مرة أخرى نحو بارتلبي. شعرت بحوافز إضافية تحثني نحو مصيري. كنت أحترق شوقاً لكي يثار ضدي مرة أخرى. تذكرت أن بارتلبي لم يترك المكتب قط.

«بارتلبي»، قلت، «إن جنجرنت ليس موجوداً. هلا ذهبت إلى مكتب البريد المجاور (كان يبعد حوالي ثلاث دقائق مشياً) لترى إن كان هنالك شيء لي» !

«إنني لا أحبذ» .

«لا تريد» ؟

«بل لا **أحبذ**» .

ترنحت على مكتبي وجلست غارقاً في تفكير عميق . رجع لي عنادي الأعمى. هل بقي هنالك شيء آخر أستطيع من خلاله جعل هذا الفتى الشقي النحيل المفلس ـ مستخدمي أنا ـ يصدني بإذلال؟ هل تبقى شيء آخر منطقي تماماً سيكون من المؤكد أن يرفضه» ؟

«بارتلبي» !

لا إجابة.

«بارتلبي» ، بصوت أعلى.

لا إجابة.

«بـارتلبي» ، زجرت.

مـثل شـبح بعـينه ، وحـسب قـوانين الاستحضار السحرية ، أطل عند النداء الثالث من مدخل صومعته.

«إذهب إلى الغـرفة المجاورة وقل لنبرز أن يأتي إلي» .

«لا أحـبذ ذلك»، قال باحترام وببطء واختفى بهدوء.

«حـسناً يا بارتلبي»، قلت بنبرة هادئة خـفـيـفـة الحـدّة وقـورة معرباً عن عزمي الأكـيد القيام بعقاب شديد في القريب العاجل. في تلك اللحظة نويت بالفعل شيئاً من هذا القـبـيل. لكن على أية حال ، رأيت من الأفضل ، خاصة وأن ساعة غدائي قـد اقتربت ، ارتداء قـبـعـتي والذهاب للبـيت بقـية اليوم ، أعاني من الحيرة والكآبة الشديدتين.

هل أعترف ؟ إن خـلاصـة كل هذه المسألة تكمن في أنها أصـبحت على الفور حـقـيـقـة ثابتة من حقائق حجراتي؛ وفي أن ناسخاً شاباً شاحباً، يدعى بارتلبي، قد أصـبح له مـقـعـد هناك؛ وفي أنه نسخ لي حـسب الأجر المعتاد ـ أربعة سنتات لكل ورقـة مخطوط (مـائة كلمـة)؛ وفي أنه مـعـفى للأبد من تدقـيق العمل الذي يقوم به، حـيـث أن المـهـمـة تحوّل إلى تيركي ونبرز مكافأة لهما لا ريب على حـدتهما المتناهيـة؛ يضـاف إلى ذلك أن المدعـو بارتلبي لا يمكن بأي حـال من الأحـوال أن يرسل حتى في أسـهل المهماتِ، فـحـتى لو رجـوناه القيام بمثل هذا العمل، فقد كان من المفهوم بشكل عـام أنه لن يحبذ فعل ذلك ـ بمعنى آخر، سيرفض بوضوح.

مع مـرور الأيام، أصـبـحت مـعتاداً على بارتلبي بشكل كبير. ثبوته وخلّوه من التـبـذير واجـتـهـاده المسـتـمر (ما عدا عندما يختار الوقوف متفكراً لمدة طويلة خلف السـتـارة) وسكونه العظيم وعـدم تزحزح إرادته تحت أي ظرف ـ كل هذه جعلت منه سلعـة لا تثمن . والشيء الأساسي المهم هنا يتمثل في أنه **كان دائمًا موجوداً** ـ أولاً في الصـبـاح، وثانياً باستمرار خلال النهار، وأخيراً في الليل. كنت أثق بأمانته بشكل فـريد. شـعـرت أن أثمن أوراقي كـانت أمـينة تماماً بين يديه. لا شك أنني أحياناً لم أسـتطع، وحق روحي، تجنب الوقـوع في انفـعـالات ثائرة مـفاجئة حياله. ذلك لأنه

كـان من الصـعب جداً علي الأخذ بعين الاعتبار والتذكر في كل الأوقات تلك الميزات الغـريبـة والامـتيـازات والإعـفاءات التي لم يسمع بها والتي شكلت الشروط الضمنية الـتي بقي بارتلبي بناء عليـهـا في مكتـبي. كنت بين الحين والآخـر، وبسـبب حماسي لإتمام المهـام الملحـة، أنادي بارتلبي لا شـعـورياً بعـبارة قصيرة سريعة، وأطلب منه، مـثـلاً، وضع إصـبعـه على بداية جـزء من شريط لاصق أحمر كنت أود تثبيت بعض الأوراق به. بالطبع كـانت تأتي من خلف السـتـارة الإجـابة المعـتادة: «إنني لا أحبذ ذلك»؛ كـيف يمكن عندها لمخلوق بشر له عـيـوب طبيـعـتنا المشتركـة الامتناع عن الاحـتـجـاج بمـرارة على مثل ذلك الانحراف ـ على مثل تلك اللامنطقية. ومع ذلك فـإن كل إحـبـاط جـديد من هذا القـبـيل عـمل على تقليل احـتـمالـيـة تكرار سلوكي اللاشعوري.

يجب أن يقـال هنا إنه حـسب عادة معظم رجال القانون الذين يحتلون مكاتب من بنايات قـانونيـة كـثـيـفـة السكان، كانت هنالك عدة مفاتيح لبابي. واحد كانت تحـتـفظ به امـرأة تسكن في العليـة، وهي التي كـانت تنظف أسبوعياً وتكنس وتمسح الغـبـار يومـياً من شقتي. والآخر كان يحتفظ به تيركي للضرورة. والثالث كنت أحمله أحياناً في جيبي. أما الرابع فلا أدري مع من كان.

حـدث وأن ذهبت صباح أحد أيام الأحد إلى الكنيسة الثالوثية، لسماع خطيب شـهير. وبعـد أن وجـدت نفسي مـبكراً بعض الشيء، قـررت التـمشي نحـو مكاتبي وقـضـاء بعض الوقت هناك. لحسن الحظ، كـان مفتاحي معي؛ لكن عندما وضعته في القـفل، وجـدته يقاوم بشيء من الداخل. ناديت وقد انتابني شعور من الدهشة، وذعـرت عندمـا أدير المفـتـاح من الداخل وظهـر شـبح بارتلبي يطل بوجـهه النحيل ويمـسك البـاب المفـتـوح. كان في قميص نومه وفي فضال بال بشكل عجيب؛ قال بهدوء إنه مـتأسف، وإنه مـشـغـول جداً في ذلك الوقت ويحبذ ألا يدخلني في الوقت الحـاضر. ثم أضاف، بعد ذلك، بكلمة أو كلمتين مختصرتين إنه ربما يتوجب عليّ أن أمشي حول البناية مرتين أو ثلاثة، عندئذ سيكون أغلب الظن قد فرغ من عمله.

كـان لظهـور بارتلبي غير المتـوقع أبداً وتواجـده في مكاتبي القـانونية صباح يوم الأحـد، بلا مـبـالاته الشـاحبة المترفعة وبثقته وتمالك نفسه، أثر غريب علـيّ، حيث

أنني انسللت دون مقاومة بعيداً عن الباب الذي أملكه، وفعلت كما أراد. ولكن ليس بدون وخزات تمرد عقيمة ضد التحدي اللطيف لهذا الناسخ المبهم. وبالفعل، كان لطفه العجيب بالدرجة الأولى هو الذي جردني ليس من أسلحة مقاومتي فحسب، بل كذلك، إن جاز لي التعبير، من رجولتي. إنني أعتبر أن من يسمح من غير معارضة لكاتبه المستخدم أن يملي عليه ويأمره بمغادرة مقره هو مجرد من رجولته بعض الشيء. يضاف إلى ذلك أنني كنت مفعماً بالحيرة إزاء ما يمكن لبارتلبي أن يكون يفعل في مكتبي بقميصه الداخلي وبحالته المهلهلة تلك في صباح يوم الأحد ذاك. هل كان يفعل شيئاً مريباً؟ لا، إن ذلك مستحيل. يجب ألا يظن ولو للحظة واحدة أن بارتلبي إنسان منحل أخلاقياً. لكن ماذا يمكن أن يكون يفعل هناك؟ ينسخ؟ لكن لا، فمهما بلغت شدة غرابة أطواره، فإنه رجل محتشم جداً. إنه آخر إنسان يمكن أن يجلس على مكتبه في حالة قريبة من العري التام. ثم إنه يوم الأحد؛ وهنالك شيء يتعلق ببارتلبي يحول دون الافتراض أنه يفعل أي عمل دنيوي يخالف حرمة ذلك اليوم.

ومع ذلك، فلم يهدأ لي بال. وأخيراً عدت إلى الباب مفعماً بحب استطلاع مؤرق. أدخلت مفتاحي دون إعاقة، وفتحته ودخلت. لم أرَ بارتلبي. نظرت حولي بشغف، نظرت خلف الستارة، لكن بدا من الواضح أنه قد غادر. بعد أن فتشت المكان بدقة أكثر، توصلت إلى أن بارتلبي قد أكل ولبس ونام في مكتبي لمدة لا يمكن تحديدها. وكان قد فعل ذلك دون طبق أو مرآة أو سرير. لقد أظهر المقعد المبطن لإحدى الكنبات القديمة البالية التي وجدت في إحدى الزوايا أثراً خفيفاً لشكل نحيل كان قد اضطجع هناك. ثم وجدت بطانية ملفوفة تحت مكتبة . وتحت الموقد الخالي وجدت صندوق دهان وفرشاة، ثم فوق أحد الكراسي وجدت وعاءً قصديرياً فيه صابون ومنشفة بالية، وفي جريدة وجدت فتات كعك الزنجبيل وقطعة صغيرة من الجبن. نعم، قلت في نفسي، من الواضح تماماً أن بارتلبي قد جعل من هذا المكان مأوى له، وقد سكن وحيداً في شقة كاملة. عندها جاءتني على الفور فكرة ملكت وجداني : يا لتعاسة الهجر والوحدة اللتين تريان هنا بوضوح. إن فقره لشديد، لكن يا لقبح عزلته. فكروا بذلك. يوم الأحد يكون وول ستريت مهجوراً

مثل البتراء، وكل ليلة من كل يوم يكون فارغاً. هذا المبنى أيضاً، الذي يعج أيام الأسبوع بالنشاط والحيوية، يَنُم عند حلول الليل عن فراغ تام، ويكون مهجوراً طوال يوم الأحد. هنا جعل بارتلبي بيته، وكان المشاهد الوحيد لعزلة كان قد رآها مليئة بالناس ـ أنه مثل ماريوس (١) بريء يتجول ويتفكر بين آثار قرطاجنة.

لأول مرة في حياتي ينتابني شعور عارم من الكآبة اللاذعة. قبل ذلك لم أخبر سوى حزن بسيط. أما الآن فقد جذبني ارتباطي بالبشرية العامة دون مقاومة نحو الكآبة. كآبة أخوية، ذلك لأنني أنا وبارتلبي إبنا آدم. تذكرت الحرائر اللامعة والوجوه المشرقة التي كنت قد رأيت ذلك اليوم في زينة مهرجانية تبحر مثل الأوز في مسيسيبي برودوي. وقارنتهم بالناسخ الشاحب، ثم قلت في نفسي: آه، السعادة تنشد الضوء، لذلك نعتبر العالم مرحاً، لكن البؤس يختفي منزوياً، لذلك نعتبر البؤس غير موجود. هذه التخيلات الحزينة ـ والتي لا شك في أنها أحلام عقل مريض سخيف ـ ساقتني إلى أفكار أخرى أكثر خصوصية تتعلق بأطوار بارتلبي الغريبة. حامت حولي هواجس مكتشفات غريبة. بدا لي جسد الناسخ الشاحب ملقىً تحت قطعة ترتجف وتتموج بين أناس غرباء غير مكترثين به.

فجأة لفت انتباهي مكتب بارتلبي المقفل، وقد تُرك المفتاح في القفل ظاهراً للعيان.

إنني لا أقصد أي أذى، ولا أريد إرضاء حب استطلاع خبيث، قلت في نفسي؛ علاوة على ذلك، المكتب ملكي، وكذلك محتوياته. لذلك فإنني سأجرؤ على النظر داخله. كان كل شيء مرتباً بطريقة منتظمة وكانت الأوراق موضوعة بلطف. كانت الجوارير عميقة، وبعد أن أزحت ملفات الوثائق بحثت في أعماقها. بعد قليل وجدت فيها شيئاً فسحبته. كان منديلاً مزركشاً ثقيلاً معقوداً. فتحته فوجدت أنه محفظة توفير.

استرجعت في ذاكرتي عندئذ جميع الأطوار الغريبة الهادئة في الرجل. تذكرت أنه لم يتكلم إلا عندما يجيب؛ وإنني لم أره يقرأ قط، لا، ولا حتى جريدة، مع أنه

---

(١) جايوس ماريوس هو جنرال روماني (١٥٧ ـ ٨٦ ق. م.).

كـان بين الحين والآخـر يمـتلك وقـتاً كبيراً لنفسه؛ وأنه كان يقف لفترات طويلة ينظر من خـلال نافـذته الشـاحـبـة خلف الستارة إلى الحائط القرميدي الميت؛ وأنني كنت متأكـداً أنه لم يزر أي مطبخ أو مطعم؛ وأن وجـهـه الشاحب قد دلّ بوضوح على أنه لم يشرب البيرة قط مـثل تيركي أو الشـاي أو القـهـوة حتى مثل غيره من الناس؛ وأنه لم يذهب إلى أي مكان محدد أعلمـه؛ وأنه لم يخرج ليـتمشى، اللهم إلا إذا كان يفعل ذلـك في الوقت الحـالي؛ وأنه قـد رفض التصريح بمن هو، أو من أين أتى، أو فـيما إذا كـان له أقـارب في هذا العـالم ؛ وأنه لم يشك من اعتلال في صحته ، مع أنه كان نحـيلاً وشـاحـبـاً ؛ وعـلاوة على كل ذلك ، تذكـرت شـعوراً غير مقصود بـ ـ بماذا أصـفـه ؟ ـ بالتـعـالي الشـاحـب ، أو قل بالتـحفظ الوقور ، وهو ما أرهبني لا ريب وجـعـلـني أذعن بوداعـة أمـام أطواره الغـريبـة ، وأخـاف أن أطلب منه فـعل أبسط الأشـيـاء لي ، بالرغم من أنني ربما كنت أعرف من سكونه الدائم أنه لا شك واقف خلف الستارة في إحدى حالاته التفكرية الصامتة تلك.

بعـد أن فكرت بكل تلك الأشـياء، وبالحقيقة التي اكتشفت حديثاً، وهي أنه اتخذ من مكتبي مكان إقـامـة وبيـتـاً دائماً، وبالتقلب المرضي لمزاجه ـ بعد أن فكرت بكل ذلك، بدأ يتـسلّل إلى قـرارة نفسي شـعـور تعـقلي. كانت انفعالاتي الأولى تتسم بالكآبة الحـادة وبالعطف الخـالص ؛ لكن بقـدر مـا تنامى حـزن بارتلبي ، بقـدر ما تحـولت تلك الكآبة إلى خـوف والعطف إلى نفـور. إنه لصحيح، وإنه لمخيف أيضاً، أن التـفكر في البؤس إلى حد معين أو رؤيته يثير فينا أفضل مشاعرنا؛ لكن في بعض الحـالات الخـاصـة، عندمـا يتعدى ذلك الحد، لا يحدث ذلك. يخطىء من يظن أن ذلـك يرجع دائماً إلى الأنانيـة المتأصلة في الوجـدان الإنسـاني. لا، إنه ينشأ من يأس مـعين من شـفـاء من مـرض عضوي مستفحل. العطف، بالنسبة لإنسان حساس، ليس ألماً نادر الوجـود. وعندمـا يلاحظ في النهـاية أن مـثل هذا العطف لا يمكن أن يـؤدي إلى فـائدة مـؤثرة، فإن المنطق يحث النفس على التـخلص منه. مـا رأيت ذلك الصباح أقنعني أن الناسخ كان ضحية اضطراب متأصل لا يمكن شفاؤه. يمكننا أن نعطي جـسـده العـقـاقير، لكن جسده يؤلمه؛ إنها روحه التي كانت تعاني، وروحه لا أستطيع وصولها.

لم أتم مهمة الذهاب إلى الكنيسة الثالوثية ذلك الصباح. لا أدري كيف، لكن الأشـيـاء التي رأيت منعتني حينها من الذهاب إلى الكنيسة . عدت للبيت ماشياً ، أفكر بماذا أفـعل ببـارتلبي. أخيراً توصلت إلى ما يلي: سوف أوجه إليه بعض الأسئلة الهادئة في الصبـاح التـالي تتـعلق بتـاريخه، إلخ؛ وإن رفض الإجـابة عليـها بوضوح وصراحـة (وأعـتـقـد أنه سوف يحبذ ألا يجيب)، فسوف أعطيه عشرين دولاراً فوق كل مـا يسـتـحق مني من أجـر وأخبره أنني لم أعـد بحـاجة إلى خدماته؛ وأنني إن كنت أسـتطيع مـسـاعدته بأي شكل آخر، فسوف أكون مسروراً لفعل ذلك. خاصة إذا ما رغب في العـودة إلى مـسـقط رأسـه، أينما يكون، فـسـوف أتحـمل نفقاته. إضافة إلى ذلك، لو وجـد نفـسـه، بعد رجوعه إلى موطنه، في أي وقت بحاجة إلى معونة، فإن رسـالة من طرفه تكون كافية لحصوله على مبتغاه.

جاء الصباح التالي.

«بارتلبي»، قلت منادياً بلطف من خلف سـتارته.

لا إجابة.

«بارتلبي» ، قلت بنبرة أكـثـر لطفاً ، «أخرج إلي ؛ سوف لن أطلب منك فعل شيء لا تحبذ فعله ـ أريد فقط أن أتحدث إليك» .

عندها ظهر أمامي دون أن يصدر عنه أي صوت.

«هـلا قلت لي يا بارتلبي أين ولدت» .

«أنني لا أحبذ» .

«هلا أخبرتني أي شيء عن نفسك» .

«أنني لا أحبذ » .

«لكن، أي اعتراض منطقي يمكن أن يمنعك من التـحـدث معي؟ إنني أشعر بمودة نحوك» .

لم ينظر إلي في أثناء تكلّمي، لكنه أبقى نظرته مـركـزة على تمثال سيسيرو الذي كـان، من طريقـة جلوسه آنئذ، خلفي مباشرة، فوق رأسي بست بوصات.

«مـا هو جـوابك يا بارتلبي؟ » قلت بعد أن انتظرت الإجابة وقتاً طويلاً، كان محياه خـلاله غير مـتأثر بشيء، باسـتـثناء رجـفـة لا تكاد ترى حـول فـمـه المبـيّض الموهون.

«في الوقت الحـاضر أحبذ ألا أعطي أية إجابة»، قال ثم رجع إلى صومعته.

أعـترف أنني ضـعـفت بعض الشيء، لكن أسلوبه هذه المرة لدغني. لم يظهـر شـيئاً من الازدراء الهادىء فـحسب، بل بدا في تماديه غير ممتن كذلك ـ خاصة إذا ما أخـذنا بعين الاعـتبـار المعـاملة اللطيـفـة التي لا يمكن إنكارها والاهتمام الذي لقـيه مني.

مـرة أخرى جلست أفكر فيما يجب أن أفعل. مع أنني كنت مستاءً من سلوكه ومع أنني كنت قـد عـزمت طرده بمـجـرد دخـولي المكتب، إلا أنني شـعـرت بشيء غـريب خارق يدق على فؤادي ويمنعني من تنفيذ غرضي ويعدّني مجرماً إذا ما تجرأت على التـفوّه بكلمة مرة ضد من هو أكثر الإنسانية كلها حزناً. أخيراً، بعد أن سحبت كرسيّي خلف ستارته ، جلست وقلت له بود : «بارتلبي ، إنس مـوضوع الإفصاح عن تاريخك، لكن دعني أرجـوك كـصديق أن تحترم قدر الإمكان أعمال هذا المكتب. قل الآن إنك سـوف تسـاعـد في تدقيق الأوراق غداً أو بعد غد. باختصار، قل الآن إنك خـلال يوم أو يومين ستصبح أكثر تعقلاً؛ قل ذلك يا بارتلبي» .

«في الوقت الحـاضر لا أحـبـذ أن أكـون أكـثـر تعـقـلاً»، كانت إجابته المهذبة الواهنة.

عندها فُتـحت الأبواب التي تطوى، وتقـدم نبرز . بدا وكأنه قد عانى من قلة نوم غير اعـتيـادية الليلة الماضية سببها له عسر هضم أكثر حدة من العادة . كان قد سـمع كلمات بارتلبي الأخيرة تلك.

«لا تحبذ، ها»، قال محدثاً صريراً. «لو كنت مكانك، لحبذته يا سيدي»، قال يخاطبني، «لحبذته ، لأعطيته تحبيذاً ، ذلك البهيم العنيد. لو سمحت يا سيدي، ما الذي لا يحبذ أن يفعل الآن» ؟

لم يحرك بارتلبي ساكناً.

«سيد نبرز»، قلت، «إنني أحبذ أن تذهب أنت الآن» .

لا أدري كيف، لكنني مؤخراً أخذت أستخدم بشكل لا إرادي كلمة «أحبذ» في عدة مناسبات قد لا تكون ملائمة في كلها. وارتعدت عندما أخذت أفكر كيف أن احتكاكي بالناسخ قد بدأ يؤثر عليّ ذهنياً بشكل فعلي. أي انحراف أبعد وأعمق قد لا يحدث بعد ذلك؟ دفعني هذا الخوف بقوة نحو أفعال غير متزنة.

بينما كان نبرز، الذي بدا عليه الامتعاض والتهور، يغادر، تقدم تيركي بأدب ووقار.

«بكل احترام يا سيدي»، قال، «كنت بالأمس أفكر ببارتلبي هذا، وأعتقد أنه إذا كان يحبذ أن يأخذ ربع جالون من المزر كل يوم. فسوف يحسن ذلك من حالته ويمكنه من المساعدة في تدقيق الأوراق» .

«إذن أنت أيضاً اكتسبت الكلمة»، قلت بشيء من التوتر.

«بكل احترام يا سيدي، أية كلمة» ؟ سأل تيركي ودخل بأدب في الحيز الضيق خلف الستارة مما جعلني أصطدم بالناسخ. «أية كلمة يا سيدي» ؟

«أنا أحبذ أن أترك وحيداً هنا»، قال بارتلبي، كأنه قد تضايق من هجومنا عليه في خلوته.

«تلك الكلمة يا تيركي»، قلت، «تلك هي» .

«آه، أحبذ؟ نعم ـ كلمة غريبة. أنا نفسي لا أستخدمها. لكن يا سيدي، كما كنت أقول، إن كان هو يحبذ ـ » .

«تيركي! » قاطعته، «هلا خرجت من فضلك! » .

«بالتأكيد يا سيدي، إن كنت تحبذ أن أفعل» .

عندما فتح الباب الذي يطوى ليغادر، رآني نبرز الذي كان جالساً على مكتبه وسألني إن كنت أحبذ نسخ إحدى الوثائق على ورق أزرق أم أبيض. لم يلفظ كلمة «أحبذ» بخبث أبداً. كان من الواضح أنها خرجت من فمه بطريقة غير مقصودة. قلت في نفسي، يجب أن أتخلص من إنسان معتوه قد أثر بعض الشيء على ألسنة، إن

لم نقل عـقـول، كـتبتي ونفسي. لكن رأيت من الحكمة ألا أفاتحه بموضوع الطرد على الفور.

لاحظت في اليـوم التـالي أن بارتلبي لا يفـعل شيئاً سوى الوقوف على نافذته في إحـدى حالات تفكره الصامتة. عندما سألته لماذا لم يكتب، أخبرني أنه قد قرر عدم القيام بأية كتابة بعد ذلك.

«لماذا؟ كيف ذلك؟ ماذا بعد؟ » سألته، «لن تقوم بالمزيد من الكتابة؟ »

«لن أقوم! »

«وما السبب» ؟

«ألا ترى بنفسك؟ » أجاب دون اكتراث.

نظرت إليـه بتـمـعن فلاحظت أن إحدى عينيه بدت متعبة ولامعة. على الفور تبـادر إلى ذهني أن اجتـهاده الذي كان لا مثيل له في النسخ في ضوء نافذته الخافت خـلال الأسـابيع الأولى من اقـامته عندي يمكن أن يكون قد أثر على نظره سلبياً إلى حين.

تأثرت. قلت له بعض كلمات مـواسـاة، وأكـدت له أنه محق بالطبع بالامـتناع عن الكتـابة لفترة مـا، وشـجعته أن ينتهز الفرصة ويذهب ليتمشى في الهواء الطلق. لكنه لم يفـعل ذلك. بعـد مـرور عدة أيام، وبسبب غياب كاتبـيَّ الآخرين وكوني في عـجـلة كـبيرة لارسـال بعض الرسـائل بالبريد، ظننت أن بارتلبي، الذي لم يقم بأي عـمل دنيـوي آخـر الآن، سـيكون أقل تصلبـاً من العـادة ويحمل تلك الرسـائل إلى مكتب البريد. لكنه رفض بإصرار. لذلك، ذهبت أنا بالرغم مما سـبـبـه لي ذلك من إرباك.

ومـرت أيام عـديدة أخـرى. لا أسـتطيع القـول فيها إذا كانت عينا بارتلبي قد تحسنتا أم لا . حسب ما بدا لي ، ظننتهما تحسنتا . لكن عندما سألته إن كانتا تحسنتا بالفـعل، لم يعطني أية إجـابة . وعلى أية حـال ، فـهـو لن يقوم بأي نسخ . وأخيراً أخبرني مجيباً على إلحاحاتي أنه قد تخلى عن النسخ نهائياً.

«ماذا؟ » سألت متعجباً، «إفرض أن عينيك ستشفيان تماماً ـ وتصبحان أفضل

من ذي قبل ـ ألن تقوم بالنسخ عندها» ؟

«لقد تخليت عن النسخ» ، أجابني واختفى عن الأنظار.

بقي كعادته راسخاً في حجراتي. لا بل ـ إن كان ذلك ممكناً ـ لقد أصبح أكثر رسوخاً من ذي قبل. ماذا يجب أن أفعل؟ لن يعمل شيئاً في المكتب: لماذا يبقى هناك إذن ؟ بصراحة لقد أصبح الآن عبئاً ثقيلاً علي ، فهو لم يعد عديم الفائدة كالعقد فحسب، لكنه أصبح لا يطاق أيضاً. ومع ذلك فقد كنت أشفق عليه. إنني لا أقول الحقيقة كاملة عندما أقول، وأقولها من أجله هو، إنه قد سبب لي عدم الارتياح. لو أنه فقط يُفصح عن إسم أحد أقاربه أو أصدقائه، فسأقوم بالكتابة إليه مباشرة وأحثه على أخذ هذا الإنسان المسكين إلى معزل آخر ملائم. لكنه بدا وحيداً، وحيداً على الإطلاق في هذا الكون، مثل جزء من حطام وسط الأطلسي. أخيراً تغلبت بعض الضرورات الملحة المتعلقة بعملي على كل الإعتبارات الأخرى. قلت لبارتلبي، بأقصى ما أستطيع من أدب، إن عليه مغادرة المكتب دون قيد أو شرط خلال ستة أيام . ونبهته أن يأخذ في الحسبان ، خلال تلك المهلة ، البحث عن مأوى آخر له . عرضت عليه المساعدة في هذا المسعى ، إذا ما اتخذ هو نفسه الخطوة الأولى من أجل الرحيل . «عندما تتركني أخيراً يا بارتلبي» ، أضفت ، «فسوف أتأكد من أنك لن تذهب دون أخذ كل ما تحتاجه . ستة أيام منذ هذه الساعة، تذكر» !

في نهاية المدة، نظرت خلف الستارة فإذا ببارتلبي هناك.

زرّرت معطفي، وقفت باتزان، وتقدمت نحوه ببطء، ثم لمست كتفه وقلت: «لقد حان الوقت؛ يجب أن تترك هذا المكان؛ إنني آسف من أجلك؛ هاك النقود؛ لكن يجب أن تذهب» .

«إنني لا أحبذ» .

«بل يجب أن تذهب» .

بقي صامتاً.

كنت أثق ثقة عمياء بأمانة هذا الرجل. لقد أعاد إلي مراراً قطعاً نقدية مكونة

من بنسات وشلنات سقطت مني غفلة على الأرض، حيث أنني كنت غير مكترث بمثل هذه الأمور الصغيرة. لن يُعدّ المشهد الذي يلي مستغرباً.

«بارتلبي»، قلت، «إنني مدين لك باثنى عشر دولاراً تحت الحساب؛ خذ اثنين وثلاثين؛ والعشرون الزائدة هي لك ـ هلا أخذتها» ؟

وقدمت القطع النقدية.

لكنه لم يتحرك نحوها.

«سوف أتركها هنا إذن»، وضعتها تحت جسم ثقيل فوق الطاولة. أخذت بعدها قبعتي وعصاي واتجهت نحو الباب ثم نظرت نحوه وأضفت بهدوء ـ «بعد أن تزيل أشياءك من هذه المكاتب يا بارتلبي، ستقوم بالطبع بإغلاق الباب ـ إذ أن الكل قد غادر الآن لبقية اليوم سواك أنت ـ وإن سمحت، ضع مفتاحك تحت ممسحة الأرجل حتى أتمكن من أخذه في الصباح. سوف لن أراك ثانية ؛ وداعاً إذن. إذا احتجت إلى أية خدمات بعد اليوم في مكان إقامتك الجديد، لا تتردد في الكتابة إليّ. وداعاً يا بارتلبي، وإني أتمنى لك التوفيق» .

لكنه لم يتفوه بكلمة. مثل آخر عمود من معبد محطم، وقف صامتاً ووحيداً في وسط الغرفة المهجورة.

عندما عدت للبيت ماشياً في حالة تفكر، تغلب غروري على عطفي. لم أستطع إلا أن أهنىء نفسي بحرارة على معالجتي قضية التخلص من بارتلبي ببراعة. أقول ببراعة، وهي ستبدو لا ريب كذلك لأي مفكر موضوعي. جمال خطتي تمثل في هدوئها التام. لم يكن هنالك أي تأنيب غير لائق، ولا تبجح من أي صنف، ولا غطرسة جامحة، ولم أفشخ ذهاباً وإياباً في الغرفة، ولم ألقِ أوامر غاضبة على بارتلبي كيف يلفّ نفسه ومتاعه البالي ويغادر. لا شيء من ذلك. ولم أطلب من بارتلبي المغادرة بصوت مرتفع ـ مثلما قد يفعل إنسان أقل قدراً مني ـ بل **افترضت** وجوب مغادرته؛ وبنيت كل ما كان عليّ قوله على هذا الافتراض. وكلما أمعنت النظر في منهجي، كلما ازددت سروراً به. لكن عندما أفقت صباح اليوم التالي، ساورتني بعض الشكوك ـ كنت قد خلعت ملابس الغرور بطريقة ما. إن من أكثر

الساعات تعقلاً وحنكة لدى الإنسان تكون بعد أن يصحو في الصباح مباشرة. بدا منهجي حكيماً تماماً - لكن من الناحية النظرية فقط. كيف سيبدو عند التطبيق؟ - هذا هو الامتحان. لقد كانت فكرة افتراض رحيل بارتلبي فكرة جميلة حقاً؛ لكن على أية حال كان ذلك افتراضي أنا، ولكن ليس افتراض بارتلبي. وتكمن النقطة المهمة ليس في افتراضي أنه سيتركني، بل فيما إذا كان هو سيحبذ فعل ذلك أم لا؛ فلقد كان رجلاً صاحب تحبيذ أكثر منه صاحب افتراض.

بعد الفطور، تمشيت إلى مركز البلدة وأخذت أفكر بالاحتمالات الإيجابية والسلبية. اعتقدت تارة أن الفكرة ستبوء بالفشل الذريع، وأن بارتلبي سيكون حياً يرزق في مكتبي كعادته؛ وتارة أخرى كنت شبه متأكد أنني سأرى كرسيه فارغاً. وبقيت أتجول على هذا النحو. في الزاوية التي تصل شارع برودوي بشارع القنال، رأيت مجموعة من الناس ثائرة تتحدث بجد.

«أراهن أنه لن يفعل»، قال أحد الأصوات أثناء مروري.

«لن يذهب؟ - إتفقنا»، قلت، «ضع نقودك» .

كنت على وشك وضع يدي في جيبي غريزياً لإخراج نقودي، عندما تذكرت أن ذلك اليوم كان يوم انتخابات ؟ الكلمات التي سمعت لم تكن لها علاقة ببارتلبي، بل بنجاح أو عدم نجاح بعض مرشحي رئاسة البلدية . من خلال عقلي المصمم تخيلت أن جميع برودوي تشاركني شعوري بالتوتر ، وأنها تناقش المسألة معي . مررت شاكراً جداً أن المعمعة في الشارع قد حجبت شرود ذهني المؤقت.

وصلت باب مكتبي أبكر من العادة، كما قصدت. وقفت أتنصت هنيهة. سكون تام. لابد وأنه قد رحل. حركت يد الباب. كان الباب مغلقاً. نعم، لقد نجحت خطتي بشكل رائع؛ لابد وأنه قد اختفى بالفعل. لكن بعض الكآبة دخلت الى نفسي : وكنت على وشك الندم لنجاحي الباهر. كنت أبحث تحت الممسحة عن المفتاح الذي كان على بارتلبي تركه هناك لي، عندما ارتطمت ركبتي بالباب باعثة صوت دق. تبع ذلك صوت استجاب من الداخل - «ليس بعد، إنني مشغول» .

كان ذلك بارتلبي .

صُعقت. لهنيهة وقفت مثل الرجل الذي قتله برق الصيف وغليونه في فمه بعد ظهر أحد الأيام الخالية من الغيوم قبل مدة طويلة في فرجينيا؛ قتل على نافذته الدافئة المصرعة، وبقي منحنياً نحو الخارج في ذلك العصر الجميل حتى لمسه أحدهم فسقط .

« لم يذهب » ، قلت أخيراً. لكنني أطعت مرة أخرى تلك السطوة العجيبة التي كانت لذلك الناسخ اللغز عليّ، تلك السطوة التي لم استطع، بالرغم من كل غضبي، التخلص منها كلياً. نزلت الدرج بتثاقل وخرجت الى الشارع؛ وبينما كنت أسير حول مربع المباني، فكرت فيما يجب فعله إزاء هذه القضية المحيرة الفردية. لم أستطع طرد الرجل بإلقائه خارجاً؛ إبعاده عن طريق شتمه لن يجدي؛ استدعاء رجال الشرطة فكرة غير لائقة؛ ومع ذلك، أن أتركه يتمتع بتغلبه عليّ، هذه أيضاً فكرة لم أستطع مجرد التفكير بها. ماذا يتوجب عليّ أن أفعل ؟ أو، إن لم يكن هنالك شيء يُفعل، هل بقي أي شيء آخر يمكن افتراضه في هذه المسألة ؟ نعم، كما أنني افترضت سابقاً أن بارتلبي سيغادر، يمكنني الآن أن أفترض لاحقاً أنه قد غادر بالفعل. وفي تنفيذي المشروع لهذا الافتراض، يمكن أن أدخل مكتبي بسرعة كبيرة وأتظاهر بأنني لا أرى بارتلبي قط، وأن أشق طريقي باستقامة خلاله وكأنه مجرد طيف. وسيكون لهذه الطريقة بشكل لا جدل فيه مظهر رمية انتصار أكيدة. إذ ليس من الممكن أن يحتمل بارتلبي تنفيذ مبدأ الافتراضات. لكن بعد أن أمعنت النظر وجدت أن نجاح هذه الخطة مشكوك فيه. لذلك قررت مناقشة المسألة مرة أخرى معه .

«بارتلبي»، قلت ، بعد أن دخلت المكتب، بنبرة حازمة هادئة، «إنني منزعج بحق؛ إنني أتألم يا بارتلبي. لقد ظننت بك خيراً من هذا، فقد خلتك رجلاً مهذباً وخلت أنه عند حدوث أية مشكلة حساسة فإن أي تلميح بسيط ـ أو باختصار أي افتراض ـ يكون كافياً . لكن يبدو أنني قد خدعت. ماذا ؟» أضفت جافلاً دون تأثر، «لم تلمس تلك النقود بعد» ، مشيراً إليها حيث تركتها في المساء المنصرم .

لم يجب بشيء.

«هل تتركني أم لا ؟» طالبت الآن بغضب مفاجىء مقترباً منه .

«إنني أحبذ ألا أتركك»، أجاب مؤكداً «لا» بلطف .

«أي حق دنيوي لك في البقاء هنا ؟ هل تدفع أي إيجار ؟ هل تدفع أية ضرائب ؟ أم هل هذه الأملاك لك» ؟

لم يجب بشيء .

هل أنت مستعد لتذهب وتكتب الآن ؟ هل شفيت عيناك ؟ هل تستطيع نسخ ورقة صغيرة لي هذا الصباح ؟ أو تساعد في تدقيق بضعة سطور ؟ أو تذهب الى مكتب البريد المجاور ؟ باختصار، هل تفعل شيئاً على الإطلاق لتبرر رفضك مغادرة المقر» ؟

رجع بصمت الى معزله .

كنت حينها في حالة اشمئزاز وتوتر، لذلك اعتقدت أنه من الحكمة أن أمنع نفسي من القيام بأية أفعال أخرى. كنت أنا وبارتلبي وحيدين. تذكرت مأساة التعس آدمز والأكثر منه تعاسة كولت (١) ، التي حدثت في مكتب الأخير المنزوي. وتذكرت كيف أن المسكين كولت، بعد أن استفزه آدمز بشدة وبعد أن سمح لنفسه عن جهل أن يثار بشكل متوحش، سيق دونما قصد الى فعلته المميتة ـ وهي فعلة لا يمكن لأي إنسان نبذها أكثر من الفاعل نفسه. لقد خطر ببالي كثيراً عند تفحّص المسألة أنه لو تمت المشاجرة في الشارع العام، أو على الأقل في بيت عائلي، لما انتهت الى ما انتهت إليه. إن ظرف تواجدهما وحيدين في مكتب منعزل في الطابق العلوي لبناية خالية من التجمعات البشرية الحميمة ـ وقد كان لا ريب مكتباً لا سجاد فيه مليئاً بالغبار مهلهل المنظر ـ قد ساعد كثيراً على تقوية اليأس والغضب في نفس كولت .

أما أنا فعندما تحرك آدم الحقد في داخلي وأغراني فيما يتعلق ببارتلبي، أمسكت به وطرحته أرضاً. كيف ؟ فقط عن طريق تذكر إحدى الوصايا المقدسة : «إنني أعطيكم وصية جديدة، أن يحب بعضكم بعضاً». نعم، هذا هو الذي أنقذني. إن فعل الخير، بغض النظر عن الاعتبارات العليا، غالباً ما يكون فعلاً بالغ الحكمة

(١) يشير الراوي هنا الى جريمة قتل حقيقية وقعت عام ١٨٤١ .

والتعقل ـ وهو صمام أمان كبير للذي يملكه. لقد اقترف الناس جرائم بسبب الغيرة وبسبب الغضب وبسبب الكره وبسبب الأنانية وبسبب الكبرياء الروحي؛ لكن لم أسمع بأحد يرتكب جريمة شنعاء بسبب فعل الخير الحسن. مصلحة النفس ذاتها إذن، إن لم نجد دافعاً أفضل، هي التي يجب أن تحث جميع المخلوقات، خاصة أصحاب الأمزجة الحادة منهم، على فعل الخير والأعمال الإنسانية. على أية حال، عملت في المناسبة المذكورة على طمس عواطفي المنفعلة حيال الناسخ عن طريق محاولة تفسير سلوكه بهدوء. مسكين هذا الإنسان، مسكين هذا الإنسان، قلت في نفسي، إنه لا يقصد شيئاً، كما أنه قد شهد أياماً عصيبة ويجب أن يحتمل .

عملت أيضاً على الفور على إشغال نفسي، وفي ذات الوقت على التخفيف من خيبتي. حاولت تخيل بارتلبي خلال فترة الصباح. في أي وقت يكون مناسباً له، يطل من صومعته ويتخذ، بمحض إرادته، خطوات واثقة نحو الباب. لكن لا. حلّت الساعة الثانية عشرة والنصف. بدأ وجه تيركي يغلي، قلب المحبرة، وأصبح صاخباً بشكل كبير. هدأ نبزر وأصبح كله سكوناً وأدباً؛ مضغ جنجرنت حبة تفاح الظهيرة؛ أما بارتلبي فقد بقي واقفاً على شباكه في إحدى حالات تفكره العميقة الصامتة. هل أدون ذلك ؟ هل أعترف ؟ ذلك العصر تركت المكتب دون التحدث بكلمة أخرى معه .

مرت بضعة أيام. اطلعت قليلاً خلالها، في فترات الفراغ، على «إدواردز والإرادة» (١) و « بريستلي والضرورة » (٢) . في تلك الظروف لقيت في تلك الكتب شيئاً من المواساة. وبدأت أميل شيئاً فشيئاً الى الاعتقاد أن مشاكلي المتعلقة بالناسخ هي من الأمور المكتوبة منذ الأزل. وأن بارتلبي قد سُلط علي من أجل هدف تقف وراءه العظمة الإلهية الحكيمة، لا يمكن لبشر مثلي أن يفهمه. نعم يا بارتلبي، إبق هنالك خلف ستارتك، قلت في نفسي؛ سوف لن أؤذيك أكثر من ذلك؛ إنك غير

---

(١) جوناثن إدواردز قس وفيلسوف أمريكي (١٧٠٣ ـ ١٧٥٨) كتب العديد من الكتب والمقالات من بينها كتاب يتعلق بموضوع الإرادة .

(٢) جوزيف بريستلي عالم ورجل دين إنجليزي (١٧٣٣ ـ ١٨٠٤) كتب أيضاً حول موضوع الإرادة .

مـؤذ وغير صـاخب، مـثلك مـثل أي من هذه الكراسي القديمة؛ باختصار، إنني لا أشعـر بالخلو بنفسي مـثلما أشعر عندما أعرف أنك هنا. أخيراً أراه، أخيراً أشعر به؛ إنني أتبين هدف حـياتي المكتوب. إنني قانع. بعض الناس يمكن أن تكون لهم أدوار أكـثـر سـمـواً يقـومـون بها؛ لكن مـهـمتي في هذا العالم، يا بارتلبي، هي أن أمنحك مكاناً في مكتبي للمدة التي ترى أنت من المناسب البقاء فيها .

إنني أعـتـقد جازماً أن هذه الحالة العقلية الحكيمة المباركة كانت ستستمر معي لولا أن أخـذ زمـلاء مـهنتي الذين زاروني في حـجراتي بإطلاق كلمات ساخرة قاسية. لكن هكذا هو الحـال غـالبـاً؛ إن الاحتكاك المستمر مع العقول غير المتحررة يضعف في الـنهـاية عـزائم أولئك الذين هم أكـثـر تحـرراً . مع أنني عندمـا فكرت بالأمـر ، وجـدت أنه ليس من المسـتـغرب أن يدهش الذين يدخلون مكتبي من مظهر بارتلبي الـغـريـب والمـحـير، وأن يـغـريهم إبداء بعض الملاحظات السـاخـرة منه. في بعض الأحيان عندما كان يحضر لمكتبي أحد المحامين ممن له عمل عندي ولا يجد أحداً غير الناسخ هناك، يبـدأ محاولاً الحـصـول على بعض المعلومـات الدقـيـقـة منه فيما يتعلق بمكان تواجـدي؛ لكن بارتلبي كـان، دون أن يأبه بكلامه الممل، يبقى واقفاً بصلابة في منتـصف الغـرفـة. بعـد أن يتأمل في وضـعـه ذاك لفترة من الزمن، كـان المحامي يغادر راجعاً بمثل ما جاء به من علم .

كـذلك وعندمـا كنا نعـقـد قضية تحكيم وتكون الغرفة مليئة بالمحامين والشهود ويـكـون العـمل في أوجـه كـان يطلب أحـد رجـال القـانون الحـاضرين الذي يكون منهـمكاً جداً من بارتلبي، عندما يراه دون أي انشغال، أن يركض الى مكتبه المجاور (مـكـتـب رجـل الـقـانـون) ويحضر لـه بعض الأوراق. كـان بارتلبي يرفض بهدوء، ويبـقى غير منشـغل كما كـان. عندها كـان يحملق المحـامي فيه، ثم ينظر إليّ. ماذا استطيع أن أقـول ؟ علمت أخيراً أن همسـات تعـجب كانت تسري بين زمرة معارف مـهنتي حـول المخلوق العـجيب الذي أبقيت في مكتبي. أقلقني ذلك كثيراً. وعندما خطر ببـالي أن بارتلبي قـد يكون من أولئك الذين يعـيـشون طويلاً، وأنه سيستمر في احـتـلال حـجـراتي وفي عـدم الانـصـيـاع لأوامـري وفي إربـاك زوّاري وفي النيل من سـمعتي المهنية وفي إضفاء جو من الكآبة على مقري، وأنه سيبقى قوياً جسداً وروحاً

الى الأبد نتيـجة لتوفيره (إذ أنه كان بكل تأكيد لا ينفق سوى نصف دايم (١) يومياً)، وفي النهـاية ربما يعـيش أكـثـر مني ويستـولي على مكتـبي بسـبب إقامته الدائمة فيه (انـصـبـت كل هذه الأفكار السـوداوية علي بتـعـاظم واسـتـمـر أصـدقـائي في إبداء الملاحظات التي لا تنتـهي إزاء ذلك الشـبح القـابع في غـرفـتي)؛ حدث داخلي تغير كـبير. صـمـمت أن أجمع كل ملكاتي مـعـاً وأتخلص للأبد من هذا الكابوس الذي لا يطاق .

لكن قـبل التفكير بأي مشروع معقد من أجل تحقيق هذا الهدف، اقترحت على بارتلبي أولاً لبـاقـة مـغـادرته النهائية، بنبرة هادئة جادة. قلت له إنني سأترك الفكرة لدراسـتـه المستفيضة والناضجة. لكنه أعلمني بعد أن أخذ ثلاثة أيام للتأمل بها، أن عـزمـه الأول بقي كما هو؛ إنه ما زال يحبذ البقاء معي .

مـاذا أفـعل ؟ قلت الآن في نفسي بعـد أن زرّرت مـعطفي حتى آخر زر. ماذا أفـعل ؟ ماذا يجب أن أفعل ؟ ماذا يقول ضميري فيما يجب أن أفعل بهذا الرجل، أو بالأحـرى بهذا الشـبح ؟ أن أخلّص نفسي منه، هذا أمر محتّم؛ ذهابه أمر لا بد منه. لكن كـيف ؟ لن ترمي هذا المخلوق الفـاني الفـقير الشـاحب المسالم ـ لن ترمي مثل هذا المخلوق الضـعيف خارج الباب ؟ لن تلطخ سمعتك بمثل هذا العمل القاسي ؟ لا، لن أفـعل، لا أسـتطيع فعل ذلك. بدلاً من ذلك، سأتركه يعيش ويموت هنا، ثم سأضع مـا يتبقى منه في الحائط وأقصره. ماذا ستفعل إذن ؟ إن ملاطفتك إياه لن تزحـزحـه. الرشـاوي يتركـهـا تحت الجـسم الثـقـيل على طاولتك؛ باختصار، إنه لمن الواضح جداً أنه يحبذ الالتصاق بك .

إذن يجب فعل شيء قاس، شيء غير عادي. ماذا ؟ بالتأكيد لن تجعل الشرطة تعـتـقله وتترك هذا الإنسـان الشـاحب البريء يدخل السـجن ؟ ثم على أي أسـاس يمكن أن تدبر فـعل مـثل هذا الشيء ؟ ـ ألكونه مـتشرداً ؟ وهل هو فـعـلاً كذلك ؟ مـاذا ؟ هل هو مـتشرد ومـتـجـول من يرفض التزحزح ؟ إذن لأنه لا يريد أن يصبح مـتشرداً تحـاول أنت عـدّه كـذلك . هذا شيء سخيف جداً. لا توجد لديه إمكانات محـسوسـة يعـيل نفـسـه من خلالها : هذا ما يمكنني منه. خطأ مرة ثانية : فهو بلا

(١) «دايم» = ١٠ سنتات ، أو عُشر دولار .

شك يعيل نفسه، وهذا هو الدليل الوحيد الذي يستطيع الواحد أن يرى من خلاله امتلاكه الأسباب لفعل ذلك. لا مزيد إذن. بما أنه لن يتركني، سوف أتركه أنا. سوف أغير مكاتبي؛ سوف أرحل الى مكان آخر وأعطيه مدة إنذار كافية؛ وإن وجدته في مقري الجديد سوف أقاضيه عندها كمعتد على الممتلكات .

خاطبته منفذاً تلك الفكرة في اليوم التالي كما يلي : «إنني أجد هذه الحجرات بعيدة للغاية عن محكمة المدينة؛ كما أن هواءها غير نقي. باختصار، إنني أنوي نقل مكاتبي الأسبوع القادم، وسوف لن أكون بحاجة الى خدماتك بعدها. أقول لك ذلك الآن، حتى تتمكن من البحث عن مكان آخر» .

لم يجب ولم يقل أحدنا شيئاً بعد ذلك .

في اليوم الموعود، استأجرت العربات والرجال وتوجهت الى مكاتبي، وبما أنني لا أملك سوى القليل من المتاع، تم نقل كل شيء في بضع ساعات. في تلك الأثناء، بقي الناسخ واقفاً خلف الستارة التي أردت إخراجها آخر شيء. وقفت في المدخل أرقبه لحظة، بينما أنبني شيء في داخلي .

رجعت ويدي في جيبي و ـ قلبي في حنجرتي .

«وداعاً يا بارتلبي، إنني راحل ـ وداعاً، وليباركك الله بطريقة ما؛ خذ هذا»، وضعت شيئاً في يده. لكنه سقط منه على الأرض. بعد ذلك ـ وكان ذلك غريباً حقاً ـ أجبرت نفسي على تركه بالقوة مع أنني كنت تواقاً للتخلص منه منذ أمد بعيد .

بعد أن استقريت في مقري الجديد أبقيت الباب مقفلاً مدة يوم أو يومين، وجفلت عند سماع كل خطوة في الممر. عندما كنت أعود الى حجراتي بعد أي غياب بسيط، كنت أقف على العتبة هنيهة وأُصغي بانتباه قبل إدخال مفتاحي. لكن هذه المخاوف لم يكن لها ما يبررها. لم يقترب بارتلبي مني بعدها قط .

ظننت أن كل شيء كان يسير على ما يرام، حتى زارني رجل غريب بدا على وجهه قلق ظاهر، وسألني فيما اذا كنت الشخص الذي كان يسكن في بناية رقم ـ في وول ستريت .

أجبت بخوف شديد أنه أنا .

«إذن يا سيدي» ، قال الغريب الذي تبين أنه محامي ، «أنت مسؤول عن الرجل الذي تركت خلفك. إنه يرفض القيام بأي نسخ؛ إنه يرفض القيام بأي شيء؛ يقول إنه لا يحبذ، ويرفض أن يغادر المكان» .

«إنني آسف يا سيدي» ، قلت مصطنعاً السكينة بينما كنت أرتجف في داخلي، «لكن الرجل الذي تشير إليه لا يمت لي في الواقع بأية صلة - إنه لا قريب ولا تلميذ لي حتى تعدّني مسؤولاً عنه» .

«بحق الرحمٰن ، من هو» ؟

«لا أستطيع إخبارك. لا أعرف شيئاً عنه. استخدمته سابقاً كناسخ، لكنه لم يفعل شيئاً لي منذ مدة خلت» .

«سوف أنهي موضوعه إذن - عمت صباحاً يا سيدي» .

مرت عدة أيام ولم أسمع المزيد؛ ومع أنني شعرت أحياناً من منطلق فعل الخير برغبة في زيارة المكان ورؤية بارتلبي المسكين، فإن حساسية معينة من شيء أجهله منعتني .

كل شيء انتهى الآن بالنسبة له، قلت في نفسي أخيراً عندما لم تأت من طرفه أية أخبار أخرى لمدة أسبوع آخر. لكن عندما رجعت الى غرفتي في اليوم التالي وجدت عدة أشخاص ينتظرون على بابي في حالة إثارة عصبية شديدة .

«ذاك هو الرجل - ها قد أتى»، صاح أقربهم إليّ، وهو المحامي الذي زارني وحده .

«يجب أن تأخذه يا سيدي في الحال»، صاح رجل بدين من بينهم يتقدم نحوي عرفت أنه مالك البناية رقم - في وول ستريت. هؤلاء السادة المستأجرون عندي لا يستطيعون تحمل الوضع أكثر من ذلك؛ لقد قام السيد بـ» أشار الى المحامي «بطرده من حجرته، لكنه يصر الآن على ملازمة المبنى بشكل عام؛ يجلس على أعمدة السلم في النهار، وينام في المدخل أثناء الليل. الكل منزعج؛ الزبائن

يـتركـون المكاتب؛ وهنالك خـوف من ثورة جماهيرية؛ يجب أن نفـعل شـيئاً دون أي تلكؤ» .

تراجـعت أمـام هذه السـيل مـشـدوهاً وتمنيت لو إنني حبست نفسي في مقري الجـديد. أكـدت دون جـدوى أن بارتلبي لا يعني لي شـيئاً ـ ليس أكثر مما يعني لأي إنسـان آخـر. لكن دون جـدوى ـ كنت آخـر من كـان له صلة به فاعتبروني مسؤولاً عن ذلك. بسبب خـوفي من أن أفـضح في الجـرائد (حيث هدَّد أحـد الأشـخاص الحـاضرين بشيء من هذا القـبيل)، فكرت في المسألة؛ وأخيراً قلت، إنه إذا ما سمح لي المحـامي بمـقـابلة الناسخ سراً في غـرفـته (غرفة المحامي)، فسوف أحاول جاهداً عصر ذلك اليـوم تخليصهم من مصدر الازعاج الذي يشكون منه .

عندمـا صـعـدت الأدراج الى مـقـري القـديم، كان بارتلبي يجلس صامتاً على العمود عند المنبسط .

«ماذا تفعل هنا يا بارتلبي ؟» قلت .

«أجلس على عمود السلم» ، أجاب بلطف .

سرت به الى حجرة المحامي الذي تركنا بعدها .

«يـا بـارتـلبي»، قلت، «هل تدرك أنك مـصـدر إزعـاج كـبير لي بإصرارك على احتلال المدخل بعد خروجك من المكتب» .

لا إجابة .

«واحـد من شـيئين يجب أن يحدث. إمـا أن تفـعل شيئاً، وإما أن يفعل شيء حـيـالك. قل لي الآن، مـا نوع العـمل الذي تود الانخـراط فـيه ؟ هل تحب العودة للنسخ عند شخص ما ؟» .

«لا، إنني أحبذ ألا أجري أي تغيير» .

«هل تحب أن تكون كاتباً في متجر بضاعة جافة ؟»

«إن في ذلك تقـيـيـد شـديد. لا، لا أرغب في أن أكـون كـاتباً؛ لكنني لست صعب الارضاء» .

«تقييد شديد»، صحت به «كيف ؟ أنت تبقي نفسك محبوساً كل الوقت» .

«أحبذ ألا أعمل كاتباً» ، أضاف قائلاً كأنه يريد إنهاء هذا الموضوع البسيط على الفور .

«ما رأيك أن تعمل ساقياً في حانة ؟ لا يوجد أي تأثير سلبي على العيون في هذه» .

«لا أرغب بذلك أبداً، مع أنني، كما قلت من قبل، لست صعب الإرضاء». شجعني إسهابه غير المعتاد في الكلام. رجعت الى المهمة .

«إذن هل ترغب في السفر في الريف لتجميع الفواتير من التجار ؟ سوف يساعد هذا على تحسّن صحتك»!

«لا، إنني أحبذ أن أفعل شيئاً آخر» .

«ما رأيك في الذهاب الى أوروبا كمرافق لتسلية أحد الشبان بكلامك ـ هل هذا يناسبك» ؟

«لا يناسبني على الإطلاق. لا أرى في هذا شيئاً محدداً. إنني أحب أن أكون مستقراً. لكنني لست صعب الإرضاء» .

«مستقراً ستكون إذن»، صرخت بعد أن نفذ كل صبري، وللمرة الأولى خلال علاقتي المشوبة بالتوتر معه انفجرت غاضباً. «إذا لم تذهب بعيداً عن هذا المقر خلال الليل، فسوف أكون مضطراً، وفي الواقع إنني مضطر الآن لأن ـ لأن ـ لأن ـ أغادر أنا نفسي». أتممت جملتي بهذه الطريقة السخيفة، بعد أن لم أدر بأي تهديد يمكن أن أحاول تغيير صلابته الى إذعان. بعد أن يئست من أية محاولات أخرى وكنت أغادره على عجل، خطرت ببالي فكرة نهائية ـ كانت قد جالت في خاطري من قبل .

«بارتلبي»، قلت بأكثر نبرة عطف أستطيع التفوه بها في حالة الغضب تلك «هل تذهب معي الى البيت الآن ـ ليس الى مكتبي ، بل الى مكان سكني ـ وتبقى هنالك حتى نستطيع الاتفاق بروية على ترتيب مريح لك ؟ هيا ، دعنا نذهب الآن على الفور» .

«لا، في الوقت الحاضر أحبذ ألا أجري أي تغيير قط» .

لم أقل شيئاً؛ قمت على الفور، وعن طريق فراري المفاجيء، بتفادي الجميع بحزم. غادرت المبنى مسرعاً، ركضت نحو الجهة العليا من وول ستريت باتجاه برودوي، قفزت في أول عربة ترام، وتخلصت من الملاحقة بسرعة. عندما عادت السكينة الى نفسي أدركت بيقين أنني الآن قد فعلت كل ما بوسعي إزاء مطالب صاحب الملك ونازليه وإزاء رغبتي وشعوري بالواجب من أجل مساعدة بارتلبي وحمايته من قسوة الاضطهاد. قررت الآن أن أصبح حراً وغير مكترث، وقد طاوعني ضميري في محاولة تحقيق ذلك، مع أنني في الواقع لم أنجح على نحو ما أردت. بلغت شدة خوفي من ملاحقة المالك المحموم ونازليه الغاضبين لي لدرجة أنني، بعد أن أوكلت العمل لنبرز، ركبت لعدة أيام عربتي وطفت حول الجزء العلوي من البلدة مخترقاً الضواحي، ثم قطعت الجسر الى مدينة جرزي وهوبوكن، وقمت بزيارات خاطفة لمنهاتسفيل وأستوريا. وكنت في الحقيقة أسكن في عربتي طوال ذلك الوقت تقريباً .

عندما عدت لمكتبي مرة أخرى، وجدت ملحوظة من المالك ملقاة على طاولتي. فتحتها بيدين مرتجفتين. أنبأتني أن الكاتب قد أرسل في طلب رجال الشرطة الذين نقلوا بارتلبي الى «التومز» بتهمة التشرد . وبما أنني أعرف عنه أكثر من أي شخص آخر، طلب مني أن أذهب الى ذلك المكان ، وأدلي بشهادة ملائمة حول حقائق المسألة . أثار هذا النبأ مشاعر متناقضة فيّ . في البداية غضبت ، لكنني في النهاية أيدت تقريباً. طبع المالك النشيط والحازم جعله يتخذ منهجاً لا أظنني كنت أتخذه أنا؛ ومع ذلك، وكآخر إجراء يلجأ إليه في مثل تلك الظروف العجيبة، بدت مثل تلك الخطة وكأنها الخطة الوحيدة .

علمت فيما بعد أن الناسخ المسكين، عندما أخبر أنه يجب أن يقاد الى التومز، لم يبد أية مقاومة، بل أذعن بهدوء، كما هي عادته الشاحبة المسالمة .

انضم للجمع بعض الواقفين من المتعاطفين ومن أصحاب حب الاستطلاع،

وشق الموكب الصامت، وعلى رأسه أحد أفراد الشرطة الذي وضع ذراعه بذراع بارتلبي، طريقه عبر الضجة والحر ومرح المارين المزمجرين عند الظهيرة .

في نفس اليوم الذي تسلمت فيه الملحوظة ذهبت الى التومز أو، للتحدث بطريقة أكثر لياقة، قاعة العدل. بعد أن بحثت عن المسؤول المعني، أفصحت عن سبب حضوري، فأخبرت أن الشخص الذي وصفت هو بالفعل في الداخل. بعدها طمأنت الموظف أن بارتلبي، بالرغم من غرابته المبهمة، هو إنسان أمين تماماً وأنه بحاجة الى العطف الشديد. سردت له كل ما أعرف، وانتهيت بأن اقترحت فكرة أن يترك في الداخل بأقل قيود ممكنة الى أن يتوصل الى إجراء أقل قسوة ـ مع أنني في الواقع لم أدر ماذا . على أية حال ، إذا لم يتوصل الى حل ما ، فإن بيت الصدقات يمكن أن يستضيفه. بعدها توسلت من أجل مقابلته .

لأنه لم يكن محكوماً بتهمة مشينة ولأنه هادىء الطبع وغير مؤذ في تصرفاته، سمحوا له بالتجول بحرية في السجن، وخاصة في حدائق العشب المسوّرة هناك. وهكذا وجدته هنالك، يقف وحيداً في أكثر الساحات هدوءاً، وجهه شطر حائط عال، في حين تخيلت أنني رأيت عيون القتلة واللصوص تحدق به من الشقوق الضيقة في نوافذ السجن المحيطة .

«بارتلبي» .

«إنني أعرفك»، قال دون أن يلتفت حوله، «ولا أريد أن أقول لك شيئاً» .

«لست أنا الذي أحضرتك الى هنا، يا بارتلبي»، قلت متألماً بشدة من إتهامه غير المباشر. «بالنسبة لك لا أظن أن هذا المكان سيء الى هذا الحد. كما لا يمكن أن ينالك أي لوم من جرّاء وجودك هنا. ثم إن هذا المكان ليس كئيباً كما قد يظن الواحد منا. أنظر، فهنالك السماء وهنالك العشب» .

«أعرف أين أنا » ، أجاب ولكنه امتنع عن قول أي شيء آخر ، ولذلك تركته .

عندما دخلت الصالة مرة أخرى، اعترضني رجل بدين ضخم يلبس وزرة، وبعد أن أشار بإبهامه خلف كتفيه قال : «هل هذا صديقك» ؟

«نعم» .

«هل يريد أن يموت جوعاً ؟ إن أراد، فدعه يعيش على مخصصات السجن؛ هذا كل ما هنالك» .

«من أنت» ؟ سألته، ولم أدر ما أقول في هذا الشخص الذي يتحدث بصفة غير رسمية في هذا المكان .

«أنا رجل الطعام. السادة الذين لهم أصدقاء هنا يدفعون لي من أجل تزويدهم بالطعام الجيد» .

«صحيح» ؟ قلت ملتفتاً الى السجان .

قال إن ذلك صحيح .

«حسناً إذن» ، قلت، واضعاً بعض القطع الفضية في يد رجل الطعام (إذ هكذا كانوا يسمونه) «أريدك أن تعير صديقي هذا اهتماماً خاصاً؛ أعطه أفضل طعام يمكنك الحصول عليه. وأريدك أن تكون مهذباً ما أمكن في معاملته» .

«قدمني له إذن» ! قال رجل الطعام، يلتفت اليّ بتعبير يوحي بأنه يريد فرصة كي يعطيني صورة عن حسن طبعه .

وافقت، معتقداً أن ذلك سيعود بالفائدة على الناسخ؛ وبعد أن سألت رجل الطعام عن اسمه، ذهبت معه الى بارتلبي .

«بارتلبي، هذا هو السيد كتلتس؛ سوف تجده نافعاً جداً لك» .

«خادمك، يا سيدي، خادمك» ! قال رجل الطعام صاحب الوزرة بعد أن حيّاه منحنياً له انحناء شديداً. «أرجو أن تجد الإقامة هنا طيبة يا سيدي ـ إن الأماكن فسيحة والغرف باردة، وإنني آمل أن تقيم عندنا بعض الوقت يا سيدي ـ وسوف أحاول جعل إقامتك طيبة. هلا شرفتنا، أنا والسيدة كتلتس بحضورك الى الغداء يا سيدي في صالة السيدة كتلتس الخاصة» .

«لا أحبذ أن آكل اليوم»، قال بارتلبي يلتفت الى الجهة الأخرى. «إن الغداء لا يناسبني، فأنا لست معتاداً على تناول وجبات الغداء». بعد أن قال ذلك تحرك

ببطء الى الجانب الآخر من الحديقة، وأخذ موقعاً مقابل الحائط الساكن .

«ما هذا» ؟ قال رجل الطعام يخاطبني بتعجب، «إنه لإنسان غريب، أليس كذلك» ؟

«أعتقد أنه مصاب بعض الشيء بمس في عقله» ، قلت بحزن .

«ممسوس، ممسوس إذن ؟ هكذا إذن، يا إلهي، ظننت أن صديقك هذا مزور، فهم يكونون دائماً شاحبي الوجوه ومثل الأسياد. هؤلاء المزورون، لا أستطيع إلا أن أشفق عليهم ـ لا أستطيع إلا أن أشعر بذلك. هل كنت تعرف مونرو إدواردز؟» (١) أضاف بشفقة ثم توقف. وبعد أن وضع يده برفق على كتفي، تنهد : «لقد مات بالسل في سنج سنج. إذن لم تكن تعرف مونرو؟ »

«لا، لم أتعرف في دائرتي الاجتماعية على أي مزور؛ لكني لا أستطيع البقاء أكثر من ذلك. اعتن بصديقي هذا. سوف لن تخسر إن فعلت ذلك. وسوف أراك ثانية» .

بعد عدة أيام حصلت على إذن لدخول التومز، وجبت القاعات بحثاً عن بارتلبي، لكنني لم أجده .

«رأيته يخرج من زنزانته قبل قليل» ، قال السجّان، «ربما ذهب ليتمشى في الحدائق» .

ذهبت في ذلك الاتجاه .

«هل تبحث عن الرجل الصامت» ؟ قال سجان آخر مرّ بي، «إنه يضطجع هناك ـ إنه نائم في الحديقة. رأيته مستلقياً هناك قبل أقل من عشرين دقيقة» .

كانت الساحة هادئة تماماً. لم يكن مسموحاً للسجناء العاديين دخولها. حجبت الحيطان المحيطة، ذات السمك المدهش، جميع الأصوات خلفها وأثار نمط البناء المصري الكآبة في نفسي . لكن طبقة عشبية ناعمة مسورة قد نمت تحت الأقدام. بدت كأنها قلب الأهرامات الخالدة، إذ نمت من خلال الشقوق، عن

---

(١) محتال ومزور شهير (١٨٠٨ ـ ١٨٤٧) .

طريق بعض القوى السحرية الغريبة بذور العشب التي اسقطتها العصافير .

رأيت بارتلبي الهزيل مكوّماً بغرابة عند قاعدة الحائط؛ كان مستلقياً على جنبه وركبتاه مضمومتان الى صدره ورأسه متكيء الى الحجارة الباردة. لكنه لم يحرك ساكناً. توقفت هنيهة ثم تقدمت حتى أصبحت على مقربة . انحنيت فوقه ، فرأيت أن عينيه الخافتتين مفتوحتان؛ ما عدا ذلك، بدا وكأنه نائم بعمق. دفعني شيء ما للمسه. تحسست يده فسرى ارتجاف واخز وصل حتى قمة ساعدي ثم نزل متخللاً عمودي الفقري حتى قدمي .

نظر إليّ الآن الوجه المدوّر لرجل الطعام. «إن غذاءه جاهز. ألن يتغدى اليوم أيضاً ؟ أم هل يعيش بدون أكل ؟»

«يعيش بدون أكل» ، قلت وأغلقت عينيه .

«هو نائم إذن، أليس كذلك ؟»

«مع الملوك والمستشارين» ، تمتمت .

* * * * *

لا داعي للاستمرار في هذا التاريخ أكثر من ذلك . فالمخيلة كفيلة بتصور وقائع دفن بارتلبي المسكين. لكن قبل توديع القاريء، دعوني أقول له، إنه إذا كانت هذه القصة القصيرة قد نجحت في إثارة اهتمامه وزادت من شغفه لمعرفة من هو بارتلبي وما نوع الحياة التي كان قد عاش قبل تعرّف الراوي الحالي عليه، فانني استطيع القول فقط إنني اشترك مع القارىء بشكل كامل في شغفه، وإنني لست قادراً على إشباعه تماماً. ومع ذلك فإنني غير متأكد فيما إذا كان يتوجب عليّ ذكر إحدى الشائعات الصغيرة التي وصلت الى مسامعي بعد وفاة الناسخ ببضعة أشهر. لم أستطع التحقق من الأساس الذي بنيت عليه ؛ ولذلك لا أستطيع تأكيد مدى صحتها. ولأن هذا التقرير، كيفما نظرنا اليه، لا يخلو بالنسبة لي من بعض الأهمية التلميحية الغريبة المبهمة، فإنه يمكن أن يؤدي نفس الغرض بالنسبة للآخرين؛ ولذلك سوف أذكره باختصار. كان التقرير كما يلي : أن بارتلبي كان كاتباً ثانوياً في

مكتب الرسائل الميتة في واشنطن (١)، وقد نقل منه فجأة بسبب تغير في الإدارة. عندما أتذكر هذه الشائعة لا أستطيع وصف المشاعر التي تنتابني بدقة. الرسائل الميتة! ألا يبدو ذلك كالرجال الميتين؟ تصور انساناً ميالاً بطبعه وبخيبته الى يأس شاحب، هل يمكن أن يجد عملاً أكثر ملاءمة لتعزيز ذلك الميل من الاشتغال الدائم بهذه الرسائل الميتة، يجمعها من أجل حرقها؟ فهي تحرق سنوياً بما يعادل أحمال عربات كاملة. كان الكاتب الشاحب أحياناً يلتقط خاتماً من أحد الأوراق المطوية ـ الأصبع الذي أرسل له الخاتم يمكن أن يكون الآن يتحلل في تربة القبر؛ أو كان يلتقط ورقة نقدية أرسلت بدافع من فعل الخير: لكن الذي أرسلت له لم يعد يأكل أو يشعر بالجوع؛ أو أمر عفو لأناس ماتوا من اليأس؛ أو خبر أمل لمن ماتوا بلا أمل؛ أو أخبار سارة لمن ماتوا مخنوقين بفعل المصائب العاتية. مع أن هذه الرسائل كانت في طريقها لتبعث الحياة، فإنها تسارع الآن نحو الموت.

آه يا بارتلبي! آه يا إنسانية!

١٨٥٣

(١) مكتب تودع فيه الرسائل التي لم يتسلمها أصحابها.

مقتطفات من

موبي ديك (*)

[يعدها كثير من النقاد من أهم خمس روايات في العالم أجمع. هي رواية رمزية اضافة الى كونها واقعية. تحكي ملحمة صيد الحيتان ، تلك التجارة الأمريكية الرائدة آنئذ. ومن خلالها يحكي قصة الصراع المميت بين قبطان السفينة إيهاب، والذي هو إنسان مثالي ومتسلط وغير واقعي وحساس الى أبعد الحدود، والحوت الأبيض الذي يمثل من وجهة نظر القبطان الشر والعدوان. يقوم إيهاب في النهاية بقتل الحوت، على الرغم من تحذير العديد من الناس، ويموت هو ومن في السفينة بعد أن جرفهم الحوت معه. الانسان الوحيد الذي ينجو هو راوي الحكاية، اسماعيل، والذي وإن كان قد بدأ حياته مثل إيهاب، إلا أنه غير رأيه في أثناء الرحلة ورفض اسلوب إيهاب في الحياة ورفض مغامراته غير المبررة. وأخذ يدعو الى المحبة والايمان والعيش المستقر مع أفراد العائلة. وهي قيم أنقذت حياته] .

المحرر

وفي إحدى المرات رأيت اثنين من هذه الحيوانات الهائلة (الحيتان) وربما كانا ذكراً وأنثى يسبحان في بطء، متعاقبين، على مرمى حجر أو أقل من الشاطىء (شاطىء ترا دل فويجو) الذي تمد فوقه شجرة الزان أغصانها .

(رحلة عالم طبيعي لداروِن)

« جميعاً الى المؤخرة ! » كذلك هتف الضابط حين استدار فرأى فكي حوت عنبر فاغرين ، قرب رأس القارب ، وهما يهددانه بخراب وشيك . « إلى المؤخرة جميعاً، نجاةً بأنفسكم » .

(وارتون صياد الحوت)

(*) نقلها الى العربية الاستاذ احسان عباس . **موبي ديك** (بيروت : مؤسسة ناصر للثقافة ، ١٩٨٠) .

تذرعوا بالبشر يا فتياني، وبرباطة الجأش،
حين يغرز الزراق الجسور رمحه في الحوت .

(اغنية نانتوكتية)

آه يا للحوت الفذ الفريد، بين العاصف والنكباء ،
يظل في بيته في الماء
مارداً في قوته، حيث القوة هي عين الحق
وملكاً على البحر المديد، الذي لا تعرف له حدود .

(أغنية الحواتين)

تبـاشـيـر

قـبل بضع سنوات، لا أدري عددها على وجه الدقة، كنت أنا ـ وليكن اسمي الذي أُعـرف به هو اسماعـيل ـ خـالي الوفـاض من الدراهم أو كالخالي، ولم يعد على البر شيء يبـعث المتعـة في نفسي ، فـخطر لي انني قد اقضي بعض الوقت مبحراً (١) وأرى الجـزء المائي من العـالم. ذلك انني كلما أحسست بالتجهم يرتسم حول شفتي، كلما احـسـست في روحي بشيء من رطوبة تشرين ونضحه البليل، كلما وجدت نفسي أقف، وقـفـة المأخـوذ، أمـام دكـان التوابيت، واشيع كل جنازة صادفتها في الطريق، بل قل كلما سيطر عليّ الشعور بالمرة السوداء حتى أصبحت بحاجة الى وازع اخلاقي رادع يحـول بيـنـي وبـين الضرب في الشـوارع وتسـديد اللكمات المحكمـة الى رؤوس السـابلة ، كلما كنت في مـثل تلك الأحـوال أحـسـست أنه قد آن لي أن أركب البحر بـأقـصـى مـا اسـتطيـعـه من سرعـة ، فـذلك هو مـا أوثـره ان آثـر غيري المسـدس والرصاص . في رباطة جأش المتفلسف القى كاتو (٢) بنفسه على سيفه ، أما أنا فاني اتوجـه نحـو السـفـينة في هدوء. وليس في هذا مـا يثير استغراباً، فلو ان الناس على اخـتـلاف درجـاتهم عـرفـوا هذا الأمر لاصبحوا بين الحين والحين يشركونني مشاعري نحو البحر أو يكادون .

ها هي مـدينة منهـاتو البـحـرية ، يلفها نطاق من الأرصفة كما تلتف الحواجز المرجـانيـة حول الجزائر الهندية؛ ويكللها زبد البضائع من كل ناحية، وشوارعها جميعاً تفضي بك الى البـحـر، يميناً جعلت وجهتك أو شمالاً، وعند اقصاها يقع ذلك السد العـتـيـد الذي تغـسله الموجـات وتنعـشه النسمات ، وإذا كنت في الطرف الآخر من

(١) قـام ملفل في الواقع بعـدة رحلات بحرية، اولها رحلة من نيويورك الى لفربول عام ١٨٣٩ .

(٢) يعني مـاركـوس بوركـيـوس كـاتو (٩٥ ـ ٤٦ ق. م.) حـفـيد كاتو الرقيب؛ انتحر بعد مقتل بـومـبي لئلا يقع اسيراً في قـبـضـة يوليـوس قـيصر وقـيل أنه قـضى آخـر ليلة من حـيـاته يقـرأ «الفيدون» لافلاطون .

المدينة لم تره لأن بينك وبينه مسيرة بضع ساعات. تأمل عند ذلك السد الحاجز جماهير المحدقين في الماء.

أو إن شئت فطوّف ارجاء هذه المدينة في أصيل يوم حالم قد أخلد الناس فيه الى الراحة؛ توجه من «ثنية كورلير» الى «مزلقان كوينتي» ومن ثم انعطف شمالاً ماراً بهوايتهول، فماذا ترى ؟ آلافاً مؤلفة من الاحياء، قد استبحروا في تأمل الماء، كأنهم حرّاس صامتون قد انبثوا في كل الأرجاء، بعضهم يتكىء على الاسوجة، وبعضهم يجلس على مشارف الارصفة، وبعضهم يمد عينيه فوق جنبات السفن القادمة من الصين، وآخرون قد امعنوا في تسلق الحبال كأنما يحاولون أن يبذّوا من عداهم في تفرّس الماء. هؤلاء جميعاً ابناء البّر يقضون ستة أيام في كل أسبوع سجناء خلف جدران من الخشب والطين، مشدودين الى مكاتبهم، مسمّرين في مقاعدهم، مقيدين عند مناضدهم. ما السرّ ؟ هل اختفت من الأرض مروجها الخضر ؟ ماذا يصنع هؤلاء الناس عند البحر ؟

انظر! ها هي افواج أخرى عامدة الخطوات نحو الماء كأنما تريد أن تغوص فيه. يا عجباً ! لاشيء يرضيهم دون الوقوف على حافة الماء، فاما التخطر تحت المشارف الظليلة في تلك المصانع فانه لا يرضيهم. بل انهم يقتربون من الماء اقتراب من يود ان يعانقه دون أن يقع فيه، وهناك يقفون صفوفاً تبلغ الأميال أو الفراسخ طولاً. كلهم من سكان البّر، وفدوا من الزقاقات والمنعطفات، والشوارع والطرقات، جاءوا من جميع الجهات، واتحدوا جميعاً عند الماء، أترى القوة المغنطيسية في إبر البوصلات المستعملة في تلك السفن قد اجتذبتهم نحوها ؟

ثم هب أنك كنت في الريف، في منطقة مرتفعة ذات بحيرات، واسلك أي مسرب شئت، وأنا على يقين ان كل مسرب يقودك الى سرارة الوادي، وهناك تجد نفسك قد وقفت عند حوض في جدول. ان في الماء لسحراً، وان شئت على ذلك برهاناً فاعمد الى رجل هوّامة في أحلامه غريق في مطاويها، ثم اسنده حتى يقف على قدميه، وادفع به حتى يمشي، تجد أنه يقودك ـ دون أن يضل ـ الى الماء، ان كان في تلك البقعة ماء. واذا ظمئت وانت في الصحراء الأمريكية الكبرى فاعمد الى هذه التجربة ان كان في القافلة استاذ سابح في غيوب المتافيزيقا فكل الناس يعلمون

ان التأمل الفكري والماء قرينان الى الأبد .

وهـا هو فنان يريد أن يختـار للصـورة التي يرسـمـهـا منظراً خـلاباً من مناظر وادي ساكو (١) هو أشـدها امعـاناً في الحلم واكثفها ظلالاً ، واهدأها واكثرها سحراً وخـلابة. فما أهم عنصر يدرجـه في الصـورة ؟ سيرسم ، ولابد ، شـجرات جذوعها مجوفـة كأن في داخلهـا ناسكاً يحمل صليـبه، وهناك يبسط المرج الغافي، وهنا القطيع الجـاثي، ويجعل عند الطرف الاقـصى كـوخـاً يتصاعد منه الدخان الواهي، وتتغلغل في الغـابة النائيـة طريق مـتـعـرجـة تبلغ أنوف الرّعـان الغارقة في زرقة الافق. وتظهر الصـورة على هذا النحو سابحة في غيبوبة النشوة، وشجرة الصنوبر تنثر تنهداتها فوق رأس الراعي كأنها اوراق تتسـاقط . إلا إنها رغم ذلك كله صـورة باهتـة لا حياة فيها لو لم تكن عين الراعي مـعلقة بالجدول السحري الذي يترقرق أمامه . اذهب في زورة الى منطقـة السهوب الشاسعة (البريري) (٢) في شـهر حزيران (يونيه) حيث تغرق رجـلاك حـتى الركـبـتين بين ازهار الزنابق على مـدى عشرات من الأمـيـال. لكن ما السـحـر الذي تفـتـقر اليه تلك المنطقة ؟ ـ هو الماء ـ فليس فيها قطرة منه. ترى لو كـانت نيـاجـرا شلالاً من الرمل أكنت تقطع آلاف الأميال من أجل أن تراه ؟ وحين تسلـم شـاعر تنسي البائـس (٣) قبضتين من الفضـة : لماذا تراه وقف يميـلُ بين شراء مـعطف هو في أشـد حـاجـة اليـه وبين أن يستغل نقوده في رحلة الى شاطي روكوي يقـوم بها راجـلاً ؟ لِـمَ يكاد كل غـلام جـزل سليم ذي روح جزلة سليمة يتوق ـ بين الحين والحين ـ توقـان المجنون للذهاب الى البـحـر ؟ ولماذا أحـسست أنت نفسك في أول رحلة قـمت بها مـسـافـراً باختلاجات غريبة وقد قيل لك أنك أنت والسفينة قد توارى عنكما منظر البـرّ ؟ لِـمَ كـان الفرس القدمـاء يعـدون البحـر مقدسـاً (٤)؟ لِـمَ

---

(١) نهر سـاكو، ينبع من قاعدة جبل واشنطن ويجري الى الجنوب ويصب في الأطلسي عند مين .

(٢) في الانتـقـال الى الغرب في منتصف القرن التاسع عشر كان لمنطقة السهوب سحر جذاب يأسر نفوس الأمريكيين .

(٣) لا أحـد يدري الى من يشير ملفل في هذه العـبـارة . ولعل المقصـود هو بايارد تيلور الذي كان يكثر من الرحلة ماشياً .

(٤) ذكـر هيرودتس أن المجـوس يقـدمـون الضـحـايا والقرابين للشمـس والقمر والتراب والنار والماء والريح .

جعل الاغريق للبحر رباً عدّوه أخاً لرب الأرباب نفسه (١) ؟ حقاً ان لذلك كله مغزى . وأعمق من هذا مغزى قصة الفتى «نرجس» فانه حين عجز عن أن يمسك خياله الوديع المتمثل أمامه في النبع ، وعذبه شعوره بعجزه ، ألقى نفسه في الماء وآثر الغرق. ونحن أنفسنا نرى ذلك الخيال في كل نهر وكل بحر، ذلك هو خيال شبح الحياة، الخيال الروّاغ الذي لا نستطيع ان نضم عليه جمعُ اليد ، وذلك هو السر في كل ما هنالك .

واذا قلت ان من عادتي ان أذهب الى البحر حين أحس بدوائر من التجهم تنعقد حول عيني ، وحين احس بضيق في التنفس ، فلست أعني انني أذهب الى البحر في صورة رحالة مسافر ، اذ المسافر لابد له من كيس ، وما الكيس إلا خرقة إذا كان فارغاً لا خشخشة له؛ ثم ان المسافرين يصابون بدوار البحر، ويعتريهم النكد والتحفز للشجار، ويأرقون ولا يجدون لأنفسهم متعاً. كلا. ولا أذهب الى البحر في صورة كومودور أو قبطان أو طبّاخ، وان كنت أعرف شئون الملاحة. بل اتخلى عما في هذه الوظائف من مجد ورفعة لمن كان يهواها، ذلك أني أمقت كل ما يعده الناس مشرّفاً محترماً من ضروب الكدح والمحن والبلايا، أياً كان نوعها. فانا أحبّ ان اهتم بشئون نفسي دون أن أهتم بالسفن والمركبات المثلثة الاشرعة والمثناة والشواني وهلم جرا. وانا اقرّ أن وظيفة الطباخ ذات مجد وفير، إذ الطباخ في السفينة يشبه ان يكون ضابطاً، ومع ذلك لم يخطر لي أبداً ان اشوي الفراخ، مع أن الفرخة اذا شويت، وأضيف اليها القدر اللازم من الزبد، وملحت وتبلت في أحكام، فلن تجد أحداً مثلي يستطيع ان يتحدث عنها باحترام ، ان لم أقل بتوقير وإجلال. ان شغف المصريين القدماء بأبيس المشوي وبفرس الماء المحمرة هو الذي حدا بهم الى وضع مومياءات هذين الحيوانين في مخابزهم الضخمة التي يسمونها «الأهرام» .

غير أني حين أذهب الى البحر أختار أن أكون بحاراً بسيطاً يقف أمام الصاري ، ويسبر غور الماء أمام منارة السفينة ، ويصعد الى قمة الصاري الملكي . حقاً ان رؤسائي يأمرونني بهذا أو بذاك، فأقفز من دقل الى دقل كأنني جندب ينطّ

(١) هو بوسيدون أخو زفس في الأساطير الاغريقية .

في المروج الربيعية، ومثل هذا الأمر في البدء يكون مثار غمّ وكآبة، اذ يجرح شعور المرء بالاعتزاز ، وبخاصة ان كان ينتمي الى إحدى العائلات العريقة (١) كبني رينسلار وبني راندولف والهردكانوتيين. ولعله أشد شيء مساساً بالكرامة الذاتية ان كان المرء ـ قبل أن يغمس يده في برميل القار ـ معلماً في مدرسة ريفية، يحرّك يده الآمرة الناهية أمام طلابه، فيجعل اطولهم قامة يقف في رهبة وخشوع. دعني أؤكد لك أن النقلة من وظيفة معلم الى مهنة بحّار أمرٌ حادّ مرهف لا يستطيع المرء ان يصر بأسنانه مكشراً وهو يأخذه على عاتقه إلا إذا أثار حماسته لقبوله فيلسوف مثل سنكا وسائر الرواقيين. إلا أن حدة هذا الشعور تتضاءل بمرور الزمن .

أي عار في أن يستدعيني قبطان فظ عبوس ويأمرني أن احضر مكنسة انظف بها ظهر السفينة ؟ ترى أي درجة تبلغها هذه المهانة ـ اعني أي وزن تبلغه ـ في ميزان الانجيل ؟ هل ينحطّ قدري في نظر جبريل ـ سيد الملائكة ـ لاني خففت باحترام ملبياً أوامر ذلك الفظ العبوس في ذلك الأمر عينه ؟ خبروني أيّنا ليس خادماً ؟ اذن فمهما يأمرني القبطان العجوز، ومهما يصبني من صفعاته ولطماته فاني اراني راضياً لأني أعلم أنه لم يأت شيئاً إدّا، ولأني على يقين ان كل انسان تقدم له الخدمة على نحو أو آخر، أي على نحو مادي أو معنوي، وهكذا تدور اللطمة فتصيب كل الوجوه، وتنزل اللكمة على كل منكب؛ وحين أعلم كل ذلك يستولي عليّ الرضى .

ثم أنا أذهب الى البحر في صورة بحار لأني اتقاضى أجراً عن كل أتعابي، أما الذي يركب البحر مسافراً فانه لا يقبض درهماً واحداً ـ فيما أعلم . بل الأمر على النقيض اذ على المسافر أن يدفع أجراً وفي هذا نفسه كل ما في الكون من فرق بين الدفع والقبض. وربما كان الدفع اسوأ عقوبة انزلها بنا لصّا الجنة (٢) . أما القبض ،

---

(١) كانت عائلة ملفل نفسه عريقة، اشتهر منها غير واحد، وكان هو نفسه معلماً، والقطعة الاولى التي جعل عنوانها «فصل في الاشتقاق» وتحدث فيها عن المعلم الشاحب المسلول انما يشير فيها الى نفسه في أغلب الظن، ولعله أراد أن يقرن نفسه بمعلمين صاروا أدباء مرموقين مثل روسو والدكتور جونسون .

(٢) في هذا إشارة الى قصة آدم وحواء .

فهل شيء يوازيه ؟ إن الحيوية الوديعة التي يبديها المرء وهو يقبض نقوداً غاية في إثارة الاعجاب، هذا مع أننا جميعاً نعتقد مخلصين أن المال أصل كل الشرور الدنيوية، وان الغني لا يدخل باب السماء إلا حتى يدخل الجمل في سمّ الخياط. ما أسرع ما نسلم أنفسنا الى التهلكة راضين مستبشرين !.

ثم أنا أختار دائماً أن أكون بحاراً لأني أمارس رياضة بدنية مفيدة واستنشق هواءً نقياً عند منارة السفينة، اذ الأمر في السفينة كالأمر في العالم الذي نسكنه، اعني إن الرياح في المقدمة أشد انتشاراً من الرياح في الكوثلة (هذا اذا انت لم تنقض الحكمة الفيثاغورية السائرة) (١) ولذلك فان البحارة عند منارة السفينة يستنشقون الهواء أولاً ثم يسلمونه الى الكومودور في موضعه خلف الدقل الكبير، فيستنشقه وقد تبدد جوهره، وهو يظن مخطئاً أنه أول من يتلقاه؛ وبمثل هذه الطريقة يتحكم المرؤوسون في رؤسائهم في شئون أخرى، والرؤساء غافلون عما يجري. لقد عبأت رئتي من هواء البحر عدة مرات وأنا بحار تاجر، فما الذي أوحى اليّ أن أذهب هذه المرة في رحلة لصيد الحيتان ؟ ان مصرّف الاقدار المحجوب وراء الغيب الذي يرعاني في كل خطاي ، ويحفزني سرّاً الى عمل ما أعمل ، ويسيطر عليّ بطريقة لا استطيع تفسيرها، هو وحده القادر على أن يجيب عن هذا السؤال. ولا ريب في أن رحلتي هذه لصيد الحيتان تمثل جانباً من ذلك المخطط العظيم الذي رسمته عناية الله منذ الأزل، فقد جاءت نوعاً من الراحة القصيرة، نوعاً من النغم المفرد بين فصلين كبيرين من رواية. ولعل ما خط في اللوح المحفوظ انما كتب على النحو الآتي :

التنافس على الجولة الانتخابية الكبرى لرئاسة الجمهورية في الولايات المتحدة (٢) .

رحلة لصيد الحيتان يقوم بها شخص يدعى اسماعيل

معركة دامية في افغانستان (٣)

---

(١) تنص الحكمة الفيثاغورية على الامتناع عن أكل الفول «فذلك خير للمعدة، وهذا يجعل الرؤى في النوم أقل اضطراباً وأشد هدوءاً» .

(٢) لعله يشير الى انتخابات عام ١٨٤٠ قبل ابحاره على السفينة اكوشنت .

(٣) قامت في كابل ثورة عام ١٨٤١ قتل فيها عدد من الضباط الانجليز .

لماذا خصص لي مديرو المسرح، أعني الاقدار، هذا الدور الخسيس، دور صيد الحيتان؟ ولَم قدّروا لغيري ادواراً كبرى في تراجيديات سامية، وأدواراً قصيرة سهلة في كوميديات ظريفة، وأدواراً مفرحة في مجونيات ضاحكة ؟ لست أعرف لذلك جواباً ملائماً ولكني حين استعيد في ذاكرتي جميع الظروف والملابسات، اعتقد انني قد أتبين بصيصاً يفصح عن جانب من المنابع والدوافع التي تسللت إليّ ماكرة تحت شتى ضروب التنكر والتخفي، واغرتني بالشروع في اداء ذلك الدور الذي قمت به، هذا الى أنها داهنتني فجرتني الى التوهم بأن ما اديته انما اخترته بمحض ارادتي الحرة السديدة وحكمتي الرشيدة .

وأقوى هذه الدوافع فكرة مهيمنة عن الحوت الكبير نفسه، فمثل هذا الوحش المهول الغامض يثير لديّ كل رغبة في الكشف والتطلع. ثم تلك البحار الموحشة النائية حيث يتدحرج الحوت بجثة كالجزيرة ضخامة، وأخطار الحوت، تلك الأخطار التي لا استطيع أن اتحدث عنها أو اسميها باسمائها، وما يصحب ذلك من عجائب تقدمها آلاف المرئيات والمسموعات عند محاذاة بتاغونيا، كل هذه الأمور كانت عوامل تحكمت بي لتوجهني الى غايتي. وقد تعجز هذه الأمور نفسها عن أن تغري أناساً آخرين، أما أنا فاني امرؤ تعذبه الحُرقة الدائمة نحو الأمور النائية، فأنا أعشق الابحار في بحار ممنوعة والنزول على شواطىء موحشة همجية. واستطيع، دون أن أغفل عما هو خير، ان اسرع الى ادراك الرعب، كما استطيع أن أكون مع الرعب على وئام ـ وليتهم يسمحون لي بذلك ـ اذ من الخير أن يكون المرء على وفاق مع كل ما في المكان الذي يحل فيه من نزلاء .

لهذه الأسباب جميعاً رحبت صدراً برحلة صيد الحيتان، وكأن عالم الاعاجيب فتح أبوابه أمامي على مصاريعها. وبين الاخيلة الغريبة التي حدتني الى غايتي أخذت تحوّم في آفاق روحي ، مثنى مثنى (١) ، مواكب مسترسلة من الحوت لا تنتهي، وبينها جميعاً أرى شبحاً عظيماً مقلنساً كأنه تلة ثلجية في الفضاء .

---

(١) يقارن ملفل هنا بين ازدواج الاخيلة في آفاق روحه وبين دخول الحيوانات في سفينة نوح «في كل زوجين اثنين» مشبهاً روحه بالسفينة .

حقيبة من القماش

دسست قميصاً أو اثنين في حقيبة قماشية عتيقة وطويتها تحت ذراعي، وشرعت في رحلتي نحو رأس هورن والمحيط الهادي، فغادرت مدينة منهاتو الطيبة القديمة ووصلت نيوبدفورد (١) دون ابطاء، وكانت ليلة سبت في شهر كانون الأول (ديسمبر) ، ولشد ما كانت خيبة أملي حين علمت أن سفينة الركاب الصغيرة كانت قد أقلعت الى نانتوكت وان ليست هناك من وسيلة لبلوغ ذلك المكان حتى يوم الاثنين التالي .

إن معظم الشبان الذين يرشحون أنفسهم لتلقي آلام صيد الحيتان وعقوباته يقفون في نيوبدفورد كي ينطلقوا من ثم في رحلتهم، غير أني لم أكن أريد ذلك ولا خطر لي في بال، اذ كنت قد ازمعت أن ابحر في سفينة نانتوكتية، وذلك لأن شيئاً جميلاً مثيراً يتصل بكل شيء ذي علاقة بتلك الجزيرة القديمة الشهيرة، وكان ذلك الشيء الجميل المثير يبعث في نفسي سروراً وارتياحاً. نعم كانت نيوبدفورد قد أخذت تدريجاً تحتكر مهنة صيد الحيتان، حتى اصبحت نانتوكت القديمة المسكينة متخلفة عنها في هذا المضمار، ولكن هذه الثانية هي أمّ الأولى ـ هي صور التي ولدت قرطاجة ـ هي المكان الذي جُرّ فيه أول حوت أمريكي قتيل الى البرّ. هل تجمع الحوّاتون الأول ـ اولئك الرجال الحمر في قواربهم ليطاردوا الحوت (اللوياثان)، إلا في نانتوكت ؟ ومن أين ـ إلا منها ـ اندفعت أول سفينة مغامرة وحيدة الصاري وقد شحنت فيها حمولة من الحصى ـ كذلك تقول القصة ـ لتقذف بها الحيتان، حتى يكتشف الصيادون مدى اقترابها فيقذفوها بالرمح المريّش من محاذاة الدقل المائل الأمامي .

---

(١) على الساحل الجنوبي من ولاية مستشوستس ، على الضفة الغربية من نهر اكوشنت ، أما فيرهافن فتقع على الضفة الشرقية، وقد زار ملفل مدينة نيوبدفورد عام ١٨٤٠ يوم كانت أهم ميناء لزيت حوت العنبر .

كـان عليّ أن أقضي في نيـوبدفـورد ليلة ويومـاً، وليلة أخـرى تتلوهما، قـبل أن استطيع الاقـلاع الى الميناء المقـدور ، ومن ثم وجـدتني أفكر في أمـر الطعام والمنام، وكـانت ليلة مـريبة السحنة، لا بل قاتمة شديدة القتام والكآبة، مكفهرة قارسة البرد، ولم أكن أعـرف أحـداً في تلك المدينة. وسبرت غور جيبي بأصابع قلقة كأنها الخطّاف فلم ترجع اليّ إلا ببـضع قطع من الفـضـة. ووقـفت في وسط شـارع مـقـفـر، وقـد طرحت حـقـيـبـتي على عـاتقي، اقـارن بين جـهـمـة الأفق في الشمال وظلمـته جهة الجنوب، وفي وقـفـتي قلت لنفسي : حـيـثما وليتَ وجـهك يا اسماعيل، حيثما قدّرت لك حكمـتك أن تأوي الى نزل في هذه الليلة، يا عـزيزي اسماعـيل، فكن على يقين من أن تسأل عن الأجـر قبل أن تتورط، ولكن لا تمعن في التدقيق .

وذرعت الشـوارع بخطى مترددة وجـاوزت لافـتـة «الرمـاح المتـقـاطعة»، ولكن كـان يبـدو لي المكان الذي وصلت اليـه باهظ التكاليف مفرطاً في المرح، ومن أمامي كـانت «حانة الحوت المسيّف» ترسل من نوافذها الحمر اللامعة أشعة فياضة حتى لقد بدا لي أنها اذابت الثلج والجليـد المتراكم من أمـام الحـان، اذ كـانت كل بقـعة سواها تحـمل من الصـقـيع المتـجـمـد طبـقة يبلغ سمكها عشر بوصات وتكوّن رصيفاً صلباً كـالاسـفلت، وكان ذلك نفسه يكربني حين أنقل قدميّ على النتوءات الصوّانية، لأن الخـدمـات الشاقة المضنية التي ادّاها نعلاي جعلتهما في حالة بائسة مزرية. وخطر لي مـرة أخـرى أن المكان باهظ التكاليف مـفرط في المرح، وتوقفت لحظة لارقب اللألاء المـنسـاب على أرض الشـارع، واسـمع قـرع القـوازيز والاكـؤس في الداخل. وأخيراً قلت لنفسي : امضِ بنا يا اسماعـيل، ألست تسـمع ؟ هيـا ابتعد من أمام الباب فان حـذاءيك المرقـعين يعـرقـلان المرور. ومـضـيت، تقـودني الغـريزة في الشوارع المتجهة نحـو الماء، اذ عند الشـاطىء أجـد ـ ولا ريب ـ ارخص الحانات والفنادق ان لم أقل أرحـبها صدراً .

يا للشـوارع الخـاوية ! كِسَفٌ من ظلماتٍ على الجـانبين لا بيـوت، وهنا وهناك ذبالةٌ تنوس كأنها شـمـعـة منصـوبة في قبر. في تلك السـاعة من الليل، وفي آخر يوم من أيام الأسـبـوع بدا ذلك الحيّ من المدينة كأنه خـراب مـهـجـور. ولكن سرعان ما بلغت ضـوءاً يعلوه الدخـان منبـعـثاً من مبنى داني السقف واسع الباحة، بابه مفتوح

على مصراعيـه كأنما يرحب بالداخلين، وعليـه سمة من الاستخفاف وعدم الاكتراث كأنما أقيم ليـفـيـد منه الجـمـهـور؛ ودخلت، وكـان أول مـا فعلت أن وقعت متعثراً بـصـنـدوق لـلـرمـاد في الدهليـز. وحين كـادت الذرات المتطايرة تخنقني كنت اقـول لـنفسي: يا لهذا البلد ! أترى هذا رماد عـامـورة التي احترقت ؟ وتذكـرت «الرمـاح المتـعـارضـة» و «الحـوت المسـيف»، وقلت : لابد ان تكون هذه هي «المصـيـدة»، ولملمت نفسي واستـجـمـعت ناهضـاً، وتقـدمت وانا اسـمع صـوتاً عـالياً يصدر من الداخل وفتحت باباً داخلياً ثانياً .

وبـــدا لـــي كـأنني أشـهـد البرلمان الأسـود الكبير منعـقـداً في ظلمات توفـة (الجحيم) (١) ، وإن مئات الوجـوه تلفـتت في مقاعدها تتفرس في القادم، ومن دونها مـلاك المنيـة الأسـود يرتل في كتاب فوق منبر؛ كان المكان كنيسة للزنوج وكان حديث الواعظ عن ظلمـة الظلام وعن البكاء والعـويل وتحـريق الأرّم هنالك . وتمتـمت بيني وبـين نـفسي وانا متردد حـائر : واهاً لك يا اسماعـيل، مـا أتعسَ القِرى عند لافتـة «المصيدة» .

وتقـدمت فـبلغت أخيراً ضـوءاً خـافتاً غير بعيد عن أحواض السفن، وسمعت في الفـضـاء صريراً بائسـاً، وتطلعت الى أعلى فرأيت علامة تتأرجح فوق باب وعليها طلاء ابيض يمـثل ـ على نحـو باهت ـ فـوارة طويلة منتـصـبـة ذات رذاذ ضبابي وقد كتب تحتها : «حانة النفّاث لصاحبها بطرس التابوتي» .

وقلت لنفسي : تابوت ؟ نفـاث ؟ لفظتـان كـريهتـان في تلك الحال. غير أنهم يقـولون أن كلمـة التابوت اسم شائع في نانتوكت وأظن ان بطرس هذا هاجر منها الى هذا البلد. ولما بدا لي النور باهتـاً والمكان ـ لأول وهلة ـ هادئاً، وبدا البـيت الخـشبي الصـغير الذي تشـعـث كأنما عـمّر من خـرائب منطقـة التـهـمتها النيران ولما أوحت لي اللافـتـة المتأرجـحة ان الصرير الذي ترسله إنما هو قرقعة الفقر والتعاسة ـ لما بدا كل

(١) توفـة اسم مـرتفـعـات في وادي ابن هنوم حـيث جـعل الاسرائيليون الجاحدون ابناءهم يمرون خـلال النار الى الصنم في مـوكب ضـلال وجـحـود (ارمـيـا ٧ : ٣١ ـ ٣٢)؛ وذكـره ملتن في «الفـردوس المفـقـود» (١ : ٣ ـ ٤) وقـال : توفة هناك وجهنم السوداء .... ولعل ملفل رأى في نيـويدفـورد كنيسة للزنوج فقد كانت لهم فيها كنيسة يوم ذهب في السفينة الاكوشنت .

ذلك كـذلك قلت : لابد أن تكون هذه البقـعة أرخص نزل ، وخير مكان تقدم فيه قهوة الحمص .

كـان نوعـاً من البيـوت غـريباً ـ داراً قـديمـة تنتهي بجملون مفلوج من أحد جـانبيـه ـ ان صحّ التـعبير ـ مـائل على شقه الآخر في أسى. وتقع الدار عند زاوية حـادة كئيبـة حيث تظـل الريح العاصفـة اوروكليدون (١) ترسل عـواءً أسوأ من كل عـواء كـانت ترسله من حـول سفـينة بولس المسكين. وعلى ذلك فـان اوروكليـدون نسيم قـوي منعش لكل من استكنّ في البيت، ووضع رجليـه على المدفأة ليـدفئهما قـبيل النوم. يقـول مـؤلف قديم أملك أنا من كتابه النسخة الوحيدة التي استعصت على الفناء : «حين تحكم على هذه الريح العـاصفـة التي تسمى اوروكليـدون فيجـب أن تعين من أية الزاويتين تنظر اليـهـا ، لأن الاختـلاف بينهما ينشيء فرقاً مدهشاً في حكمك : أأنت ترمقـهـا من وراء الشبـاك الخـارجي حيث يتجمّع الصقيع كله في الجـانب الخـارجي، أم أنت ترقبها من خلال النافذة العارية التي لا إطار لها ، حيث يتـجـمع الصـقيع في الجـانبين الخـارجي والداخلي ، وحيث يكون شخص الموت هو الزجّاج الوحيـد». وحين خطرت هذه العبارة ببالي قلت في نفسي : حقاً أيها الأديب القـديم إنك لذو منطق سـديد. نعم هاتان العـينان هما النافـذتان وجـسدي هذا هو الـدار، يـا لـيت الناس رأبوا هذه الصـدوع وسـدّوا هذه الثـقـوب وجـعلوا هنا وهناك سطامـاً أو نسـالة. لكن لات حين اصلاح وترميم. فقد تكوّن الكون، ووضع حجر الزاوية في البناء، وسـوّيت الشظايا منذ مليـون عـام. مسكين هو لعازر يغرز اسنانه كـالمنشـار في صـوّة من الصـوى ليـتـخـذها وسـادة ، وترتجف فـوقه اسماله كلما اهتز وارتعش، وقـد يسـد كلتـا اذنيـه بالخـرق، وقـد يضع في فمه قرصة قمح، ومع ذلك فان هذا كله لن يحميه من الريـح العاصفـة اوروكليدون . ويقول دايفـس الشيـخ (٢) وهو ملفّع بمـعطفـه الحـريري الأحمر (ومن بعـد أصبح لديه مـعطف أشـد حمرة من

---

(١) هي الريح التي حطمت سفـينة بولس، جـاء في أعمال الرسل (٢٧ : ١٤) ولكن بعد قليل هاجت عليها ريح زوبعية يقال لها اوروكليدون.

(٢) وردت قـصـة لعـازر والرجل الغني في انجيل لوقا (١٦ : ١٩ ـ ٣١) ولم يعين الانجيـل اسم ذلك الغني، وانما ورد اسـمه Dives في بعض كتب الرحلات .

الأول) : اوروكليـدون أح ! أح ! مـا أجملهـا من ليلة ذات صـقـيع ! مـا أشد لألاء الجـوزاء ! أي أنوار تجيء من الشمال ؟ دع المتـحـدثين يتحدثون عن المناخ في صيفهم الشرقي ذي الاهراء الخـالدة واعطني الحق في أن أصنع لنفسي صيفاً بايقاد النار .

لكن مـا رأي لعـازر ؟ هل يسـتطيع ان يدفىء يديه الزرقـاوين بأن يرفـعـهما في وجـه الأنوار الشمـاليـة العظيـمـة ؟ ألا يؤثر لعـازر أن يكون في سـومطرة بدلاً من أن يكون هنا ؟ ألا يؤثر أن يستلقي على خط الاستواء ؟ بلى أيها الأرباب ! بل يؤثر أن يذهب الى قـرارة السعير ليبعد عن نفسه هذا الزمهرير .

فـاذا قلت لك أن لعـازر اسـتلقى هناك منطرحـاً ورأسـه على الصوّة أمام باب دايفس فـهذا أمر أشد اثارة للدهشة من أن تسمع بأن جبلاً من الجليد قد أرسى عند إحـدى جزائر مالوقا (١) . غير أن دايفس نفسه يعيـش كأنه قيصر روسي في قصر من الجليد (٢) مـصنوع من التنهدات المتجمدة ، وبما أنه رئيس هيئة اجتماعية تحرم الخمور فـانه لا يشرب الا العبرات الحرار التي يسكبها اليتامى .

ولكن حـسـبنا بكاء فنحن ذاهبـون لصـيـد الحـوت، ولابد لنا من دموع غزيرة من بعـد. أمـا الآن فلنكشط الجليـد عن أقدامنا المتجمدة، ولنحاول أن نرى أي نوع من المكان هو حانة «النفاث» .

---

(١) جـزائر مـالوقـا أو جزائر البهار تشمل كل الجزر الواقعة في ارخبيل الملايو .

(٢) كـان يقـام في بطرسبرغ قصر من الجليد كل عام يضوأ بالشموع والمشاعل خلال أحد الاعياد .

خاتمة

« ونجوت أنا وحدي لاخبرك » (سفر أيوب ١ : ١٥)

تمت الرواية. فلم يعود هذا الممثل للظهور على المسرح ؟ لان واحداً ظلّ حياً بعد الدمار .

واتفق ان كنت أنا الفتى الذي كتبت له الأقدار بعد اختفاء البارسي أن يحلّ محلّ القيّم على المقدمة في قارب آخاب، حين احتل ذلك القيم المكان الخالي بفقدان البارسي، وهو نفسه ذلك الملاح الذي سقط عند المؤخرة حين قذف الملاحون الثلاثة، آخر يوم من أيام المطاردة، من قاربهم الخطار. وكنت عائماً على حاشية المنظر التالي، والمشهد كله بمرأى مني، وحين بلغني ضغط السفينة الغائصة، وقد تبدد بعض قوته، كنت حينئذ انسحب ببطء نحو الدردور الآخذ بالانغلاق، واذ وصلته كان قد تحول الى بركة بيضاء مزبدة، فدرت ودرت مشدوداً نحو تلك النفاخة السوداء التي تشبه الزر في محور تلك الدائرة الدوّارة في بطء كأني اكسيون آخر (١) . حتى اذا بلغت ذلك المركز الحيوي انفجرت النفاخة السوداء الى أعلى ، واذا بالتابوت منفلتاً بقوة مرونته الدقيقة وقابليته الكبرى للعوم ينطلق طولاً من البحر بقوة عظيمة ثم يهوي ثم يعوم الى جانبي. وطفوت بعون ذلك التابوت مدة يوم وليلة وعمت فوق بحر ناعم كأنه المرثية الحزينة، وانسابت القرشان حولي دون أن تمسني بأذى، كأنما وضعت على أفواهها اقفالاً، وانسابت صقور البحر من فوقي بمناقير مغمدة. وفي اليوم التالي اقتربت مني سفينة، واقتربت، وانتشلني ملاحوها أخيراً. كانت هي «راحيل» الجراية الضالة، التي وجدت، اثناء بحثها المتردد عن ولديها الضائعين، يتيماً آخر .

---

(١) في أساطير اليونان والرومان إن اكسيون ملك لبيطاي في تساليا عوقب على فجوره بأن ارسل الى الجحيم وربط الى دولاب ناري دائم الدوران .

هنري ديفد ثورو
(١٨١٧ ـ ١٨٦٢)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

من أهم كتّاب حركة التسامي والقرن التاسع عشر برمته . لقد حاول بعكس الكثير من الأدباء والمفكرين أن يعيش حسبما يملي عليه ضميره وعقله . ولقد قام بالفعل بالعيش في الغاب ليبرهن على صدق مشاعره الرومانسية ومبادئه في اصلاح الذات واصلاح المجتمع. وقد أثر على عدد غير قليل من الاجيال الامريكية المتعاقبة بفكره وشخصه ، وأثر على الكثير من أدباء ومفكري العالم . فقد تأثر به الفيلسوف والسياسي الهندي مهاتما غاندي ، وبخاصة فلسفته في « المقاومة السلبية » .

حياته :

ولد ثورو في الثاني عشر من تموز عام ١٨١٧ في بلدة كنكورد بولاية مستشوستس. ولقد كانت تلك البلدة، بالرغم من صغر حجمها، بلدة مليئة بالإثارة، بحكم موقعها القريب من بوسطن وجامعة هارفرد وبحكم وجود العديد من المفكرين والأدباد فيها، مثل إمرسن وهوثورن، وزيارتهم لها. ولقد ولد ثورو لعائلة فقيرة . ومع ذلك فقد تلقى تربية غنية وثقافة رفيعة ساهم هو نفسه فيها بشكل كبير. فهو يعد مثالاً في تربية الذات وتعليمها.

التحق بجامعة هارفرد عام ١٨٣٣ وتخرج منها عام ١٨٣٧ . ولقد عمل بعد تخرجه بالتدريس ، إضافة الى قيامه بأعمال أخرى مختلفة هدف من خلالها كسب رزقه. وقد ساعد أخاه في ادارة مدرسة خاصة والاشراف على الطلبة فيها. ثم ساعد أباه في صناعة الأقلام. ظهر لديه

ميل للمطالعة والتفكر منذ بداية حياته، وقد تعلم من الحياة مثلما تعلم غيره من كبار الكتاب منها.

تصادق هو وإمرسن فترة طويلة من الزمن. وقد أقام في بيت إمرسن عدة مرات ولفترات طويلة، كان يساعده وافراد عائلته في مختلف الأعمال. ولقد تعلم الكثير من امرسن وأخذ عنه الكثير. ويعده نفر من النقاد من أتباع إمرسن. وهو كذلك بالفعل، على الرغم من أنه لم يكن مقلداً فحسب.

كتب عدداً من المقالات المختلفة لمجلة الديّل التي كان يديرها امرسن في السنوات الأولى من أربعينات القرن. وقد تعرف الى العديد من الأدباء والمفكرين. وشارك بفعالية في اجتماعات وانشطة نادي التسامي Transcendental Club الذي كان يضم إمرسن وبرونسون وآلكوت وفُلر وغيرهم . وقد تعرف الى ويتمن فيما بعد.

لعل أهم حدث في حياته هو عيشه في غابة وولدن لمدة سنتين. لقد قرر ثورو أن يبرهن لنفسه ولغيره أن الانسان لا يحتاج سوى لبضعة أسابيع من العمل كي يحصل على مقومات الحياة الأساسية، وإن ما يتبقى عنده من وقت يستطيع استغلاله في التفكر والتخيل والمطالعة والابداع. وبالفعل قرر في عام ١٨٤٥ أن يعيش وحده في الغاب، يبني بيته بيده ويزرع ويأكل ويعيش معتمداً على نفسه فقط. ولقد كان برنامجه هذا في الاعتماد على الذات وفي اصلاح النفس ، والذي استوحاه من إمرسن، ثمرة حياته كلها سجله في كتابه **وولدن** الذي يعتبر من أغنى كتب القرن بالفكر والمعطيات.

وقد عانى ثورو الكثير في حياته، فقد توفي أخوه الذي أحب وتوفيت أخته. وبالرغم من ذلك، فلقد كان فيلسوف التفائل والمحبة.

كتب في عام ١٨٤٧ أول كتاب مشهور له يحمل عنوان «أسبوع على نهريّ كنكورد ومريماك» ، ضمنه العديد من قصائده. ويروي في الكتاب العديد من مكتشفاته ومبادئه الفلسفية.

ومن الأحداث المهمة في حياته، والتي تبين بأنه كان رجل مواقف، رفضه دفع الضريبة عام ١٨٤٥ احتجاجاً على شن أمريكا الحرب على المكسيك واحتجاجاً على سوء معاملة السود في أمريكا ؛ ولقد قامت السلطات بسجنه ، وأذعن برضى مفضلاً السجن على دفع الضريبة . وقد جسّد هذه التجربة في مقالته الشهيرة «العصيان المدني».

فرغ من كتابة **وولدن** في عام ١٨٥٤ . وتوفي عام ١٨٦٢ نتيجة اصابته بمرض السل، ذلك المرض الذي قضى على العديد من أبناء جيله.

أهـمـيـتـه :

لقـد أعـجب الكثير في زمنه وفي الأجيـال المتـعـاقـبة بصدق قوله وجرأة فعله. ولقد أصبح نمـوذجـاً يحتـذى في أنفـة الذات واستـقـلالها. تظهـر مـعظم آرائه في كتابيه المذكورين المهمين وفي أشـعـاره وفي مـفكرته الضـخـمـة التي سـجل فـيها عصارة تجاربه. وهو كاتب سلس العبارة رصين الفكر عـمـيق التـجـربة. ومـثله مـثل إمرسن، فقد كان يهدف الى اصلاح الذات ومن ثم اصلاح المجتـمع. ومـثله مـثل إمرسن كذلك، فقد ثار على المادة والرأسمالية. وأراد أن يعيش الناس حياة أكـثـر روحـيـة ومـعنى. وتقـوم فلسفته على الاقتصاد ما أمكن في الحاجات والرغبات، وعلى العفة والزهد. ولقـد عـبّـر عن هذه الأفكار كـذلك بالمحاضرات التي كان يلقيها أمام الجموع المختلفة في شـتى المحـافل. وقـد كـان جـريئاً فيما يقول غير هيّاب. ولقد أهتم ثورو بقضايا عصره، وبخاصة قـضـيـة تحـرير الزنوج. وقـد قـرأ الكثير ونقل الكثير الى أبناء عصره. فـقـد قـرأ، مـثل إمـرسن، الفلسـفـات الشرقـيـة. وأطلع على الحـضـارة العربية الاسلامية، واعجب بها، مع أنه ينظر اليها في مـعظم الأحـيان من منظار رومانسي؛ وأعماله غنية بالاشارات إليها.

مــن

العصيان المدني (*)

[من أهم المقالات السياسية والفلسفية في آن واحد ، يعبر عن موقف فكري وعملي . يركز ثورو فيه على ضرورة قيام الفرد بالدفاع عما يؤمن به والتضحية بما يملك في التصدي لما يفرض عليه ، ولكن دون اللجوء الى العنف. ولعل هذه المقالة أفضل نقد للديمقراطية وللمجتمع الأمريكي في تلك الحقبة] .

المحرر

إن الشعار القائل بان (أصلح الحكومات هي أقلها سيطرة) لما يلقى عندي قبولاً صحيحاً، وبودي أن أراه موضع التطبيق السريع المنظم. وعندما يتم ذلك فإن الشعار سيعني ما يتضمنه القول التالي وهو ما أؤمن به أيضاً ـ «ان أصلح الحكومات هي تلك التي لا تمارس أية سيطرة أبداً» وعندما يهيأ الناس لذلك، فان هذا الطراز من الحكومات هو الذي سيكون من نصيبهم، فليست الحكومات مهما كانت جيدة إلا وسيلة مفيدة ولكن معظم الحكومات عادة وجميعها أحياناً عقيمة . ان الاعتراضات التي كانت وما زالت تثار ضد الاحتفاظ بالجيوش الدائمة (وهي كثيرة ووجيهة جداً وينبغي الآخذ بها) ، يمكن أن تثار أيضاً ضد الحكومات الدائمة. أما الحكومة نفسها والتي هي الطراز الذي يختاره الناس لتنفيذ ارادتهم به فحسب، فانها وقبل أن تمارس سلطتها بها عرضة لسوء الاستعمال والانحراف أيضاً وخير مثل على ذلك هو الحرب المكسيكية الحالية التي هي من صنع أفراد قلائل نسبياً اتخذت من الحكومات الدائمية أداة مسخرة لها وذلك لأن الناس في البداية لم تكن راغبة في الرضوخ لمثل هذا الاجراء.

(*) مأخوذ من **ثلاثة قرون من الأدب** ، تأليف فوستر وفوك ، ترجم باشراف الأديب جبرا ابراهيم جبرا (بغداد : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٧) .

ولنأخذ هذه الحكومة الأمريكية مثلاً، أليست هي مجرد تراث (رغم حداثته) يسعى لايصال نفسه كاملاً الى الاجيال اللاحقة ولكن مع تعرضه في كل لحظة الى فقدان شيء من كليته ؟ فهي لا تملك حيوية انسان واحد ولا قوته ذلك لأن الفرد الحي يستطيع أن يثنيها وفق أرادته . فهي أشبه ببندقية خشبية بالنسبة للناس أنفسهم، ولكن هذه الحقيقة لا تجعلها أقل ضرورة، إذ لابد للناس من نوع من الآلات المعقدة أو آخر، ولابد لهم أيضاً من سماع جلجلتها لكي يشبعوا تلك الفكرة التي يحملونها عن الحكومة. وهكذا تظهر الحكومات لنا المدى الذي يمكن خداع الناس فيه، بل وحتى خداعهم لانفسهم لفائدتهم الخاصة. ويجب أن نعترف جميعاً بأن ذلك شيء ممتاز. ومع ذلك فان هذه الحكومة لم تقطع من تلقاء نفسها شوطاً واحداً بأي مشروع مطلقاً بل تميزت بخفة سرعتها في الابتعاد عن طريقه. فهي لا تخلي سبيل البلد أبداً. وهي لا تحل مشكلة (الغرب) مطلقاً، كما انها لا تثقف البلد. أما ما أنجز من أعمال فيعُزى الى الخُلق الذي جبل عليه الشعب الأمريكي، وكان يستطيع أن يُنجز الكثير غيره لو لم تقف الحكومة في سبيله في بعض الأحيان. اذ ان الحكومة هي الواسطة التي يود الناس أن ينجحوا بها في ترك الحريات للآخرين وعدم التدخل في شؤونهم، وكما أسلفنا، كلما كانت الحكومة أصلح كلما تركت المحكومين دون تدخل. ولو لم تكن التجارة والحرف مرنة بطبيعة تكوينها، لما تمكنت من اجتياز الحواجز التي يضعها المشرعون أبداً في طريقها. ولو تسنى لنا محاسبة هؤلاء الأشخاص على أساس النتائج التي تترتب على أعمالهم كلياً وعلى أساس أغراضهم جزئياً فانهم ليستحقون الحشر مع أولئك الشقاة الذين يضعون العراقيل في طريق السكة الحديد ومعاقبتهم واياهم.

ولكنني كمواطن واقعي يختلف عن اولئك الذين يطلقون على أنفسهم (دعاة اللاحكومية) لا أطالب مباشرة بالغاء الحكومة بل أنادي بحكومة أفضل في الحال. فلو صرح كل فرد بذلك الطراز من الحكومات الذي يمكن ان ينال احترامه فان في ذلك خطوة نحو الحصول عليها.

ومع ذلك فليس السبب العلمي الذي يدعونا (حالما تودع السلطة في أيدي

الشعب وتستمر كذلك مدة طويلة) الى السماح للأغلبية في الحكم، ان الأغلبية أكثر صواباً على العموم وليس لأن في ذلك انصافاً أكثر للأقلية، بل لأن الأغلبية هي الأقوى مادياً. بيد أن الحكومة التي تحكم فيها الأغلبية في جميع القضايا لا يمكن أن تقوم على العدل حتى بالمعنى الذي يفهمه الناس . أفلا يمكن أن توجد الحكومة التي لا تقرر الأغلبية فيها فعلاً ما هو خطأ وما هو صواب بل يترك ذلك الى الضمير ؟ وتقتصر فيها أحكام الاغلبية على المسائل التي يسري عليها حكم الضرورة ؟ وهل لا بد للمواطن دائماً ان يتخلى لحظة واحدة أو بمقدار مهما كان ضئيلاً عن ضميره في صالح المشرع ؟ ولماذا إذا كان لكل فرد منا ضمير ؟ اعتقد اننا ينبغي ان نكون رجالاً أولاً وربما بعد ذلك ولا يستحسن غرس الاحترام للقانون في النفوس بقدر ما يستحسن غرسه للحق. فالالتزام الوحيد الذي يحق لي الارتباط به هو القيام بما اعتقد بانه حق في أي وقت من الاوقات. ولقد صدق حقاً من قال بان المؤسسات لا تملك ضمائر. بيد ان مؤسسات ذوي الذمم هي مؤسسات لها ضمائر.
ولم يزد القانون الناس عدلاً قط ، بل إن أكثر الناس استعداداً للعدل يتحول باحترامه للقانون الى عامل من عوامل الظلم. وينتج في الأحوال الاعتيادية الطبيعية عن هذا الاحترام الذي لا يستحقه القانون ما نشاهد كل يوم من طوابير الجنود والضباط وضباط الصف والضباط البحريين والمتطوعين وحملة البارود وغيرهم وهم يقطعون الأنهار والوديان بانتظام يثير الاعجاب في طريقهم الى ساحة الحرب رغم أنوفهم، أجل رغم حكمتهم وضمائرهم مما يجعل سيرهم شديد الانحدار حقاً، ويزيد من وجيب القلوب . ولا يتطرق أدنى شك الى نفوسهم في أن مهمتهم هذه إن هي إلا مهمة لعينة . فكل واحد منهم يميل الى السلم . إذا يا ترى ، أي شيء هم؟ أهم رجال حقاً ؟ أم قلاع ومخازن للعتاد صغيرة ومتنقلة يسيرون في خدمة بعض من ذوي السلطة ممن لا يتورعون في القيام بعمل ؟ وحبذا لو زرت المدرسة البحرية وتطلعت الى البحار وهو الرجل الذي تصنعه الحكومة الأمريكية أو التي يمكن أن تصنعه بفنونها السوداء والذي هو في الحقيقة مجرد ظل أو بقايا البشرية أو بالأحرى رجل سُجِنَ حياً ومنتصباً ودفن سلفاً كما يمكنك أن تقول تحت السلاح مع معدات الجنازة.

إن طبلاً لم يسمع، ولو لحناً جنائزياً واحداً
عندما هرعنا بجثمانه الى السور
ولم يطلق جندي ما طلقة واحدة في الوداع
فوق قبر البطل الذي قمنا بدفنه

ان جماهير الرجال هذه تخدم الدولة باجسامها، لا كرجال فقط بل كآلات، فهي تؤلف الجيش الدائم والجيش المرابط والسجانين والشرطة وجيش الشبان المساعد. وهي في أغلب الأحيان لا تتمتع بارادة حرة في الحكم ولا بالمسؤولية الأدبية، ولكنها تضع نفسها في مصاف الخشب والتراب والاحجار، بل ويمكن صنع رجال من خشب لأداء نفس الغرض الذي يؤديه هؤلاء أيضاً. فامثالهم لا يثيرون فينا احتراماً يزيد عما يثيره رجال القش أو أكوام الأوساخ. ولهم أهمية الخيول والكلاب فحسب ومع ذلك فمثل هؤلاء من ندعوهم عادة بالمواطنين الصالحين ونقدرهم على ذلك. أما الآخرين ـ كأغلب المشرعين والسياسيين والوزراء والموظفين الكبار مثلاً ـ فانهم يخدمون الحكومة بفكرهم على الأغلب. ولما كانوا عاجزين عن التميز الاخلاقي فانهم قد يخدمون الشيطان كما خدموا الله دون أن يقصدوا ذلك. وقليل منهم جداً كالابطال والوطنيين والشهداء والعظماء من المصلحين من يخدم الدولة بضمائرهم ايضاً. ولا يقاوموها الا بالضرورة القصوى. ولكنهم يعاملون في العادة كاعدائها. ان الرجل الحكيم هو من تثبت فائدته كرجل فقط ولن يقنع بان يكون «طيناً» و «يسد ثغرة ليحجب الرياح» بل يترك هذه المهمة الى ترابه على الأقل :

« لي نسب رفعته تأبى أن يمتلكني الغير
وأن اكون تابعاً لسيطرة أحد أو أن أخضع للغير
أو أن أكون خادماً مقيداً أو آلة ..
لأي دولة قوية في العالم » .

ان من يهب نفسه كلياً لاخوانه البشر يبدو لهم عديم النفع أنانياً، ولكن

الانسـان الذي يكرس جـزءاً من حـيـاته لهم فـقط يوسـمـوه بحب الخير والانسـانيـة فكيف يليق بالانسـان أن يسلك تجـاه الحكومـة الأمـريكيـة اليوم ؟ أما جوابي أنا على ذلك فهو أنه لا يستطيع أن يرتبط بها دون أن يجلب العار على نفسه، فأنا أجد نفسي عـاجـزاً كل العـجـز عن الاعتراف بتلك المنظمـة السـيـاسـيـة كحكومة لي والتي هي حكومة العبيد أيضاً.

ويـعـترف الـنـاس جمـيـعـاً بـحـق الـثـورة ، وهو الحق في رفض تقـديم الولاء للحكومـة أو مـقـاومـتها عندما يستفحل جورها وتتناقص كفاءتها بشكل لا يطاق بيد أن الجـمـيع تقـريباً يزعمون ان الحال قد تبدل الآن ولكنها كما يعتقدون كانت كذلك في ثـورة ١٨٧٥ . فـلـو زعـم لي أحـد بـان هـذه الحـكومـة رديئة وذلك لأنها تفـرض الضرائب على بعض المواد الأجنبـية التي تجلب الى موانيها، فمن المحتمل جداً اني لن اعير لذلك اهتمامـاً، ذلك لأني قـادر على الاسـتغناء عنها. وما من ماكنة إلا ويحصل فـيـهـا تهرؤ بالاحـتكاك ، وربما كـان في هذا التـهـرؤ بالذات من الحسنات ما يوازن سـيئاته. وعلى كل حـال فـمن الخطأ الاثارة حـوله ولكن عندمـا يعم التـهرؤ وينتشر ويخضع الظلم والسرقـات للتنظيم، عند ذلك أقول بأنه لم يعد لنا حاجة بهذه الماكنة. وبعـبـارة أخـرى عندمـا يتـحـول سدس السكان في دولة أخذت على عاتقها أن تكون مـعـقـلاً للحـرية الى عبيد ويغزو الجيش الاجنبي أنحاء القطر المختلفة ويستولي عليه فـيُخـضـعـه لحكمـه العـسكري عند ذاك يخيل لي، لن يكون الوقت مبكراً لكي يثور الرجل الشريف ويتـمـرد . ويزيد هذا الواجب ويتعاظم عندما يكون القطر المعتدى عليه بلداً آخر غير بلدنا والجيش الغازي جيشنا.

ويحلل (بيلي) ، وهو أحـد الكتـاب الـثـقـاة في المسـائل الاخلاقية في مقالة عن (واجب الخـضـوع للحكومـة المدنيـة) جميع الالتـزامـات المدنية الى ضرورة وتذرع، ثم يسـتطرد فـيـقـول : وانها طالما كـانت مـصلحة المجتمع كله تقتضي وجودها، ويعني ذلك انه طالما تعـذر مـقـاومـة الحكومـة القـائمـة أو تغيرها بدون التسبب في الازعاج العـام وسلب الراحة العامة، عند ذاك تقتضي ارادة الله بطاعة الحكومة القائمة والكف عن . . . . وإذا آمنا بهذا المبـدأ فـان عـدالة حـالة معينة من حالات المقاومة ستقتصر على مجرد حـسـاب مقدار الخطر ومدى الحيف من ناحية امكانية دفعه وتكاليف ذلك

من ناحيـة ثانيـة، وهذا كما يقـول، يُترك الى حكم الشـخص نفسه، ولكن يبدو أن (بيـلي) لم يـفـكر قط بتلك الحـالات التي لا تخضع الى حكم (الضرورة) والتي يجب على الأمـة كما يجب على الفـرد تحـقـيق العـدل فيها مهما كانت التكاليف فلو انتزعت قسراً لوحـة خـشـبـيـة من شـخص يوشك على الغرق، وجب عليّ اعادتها اليه وحتى ولـو أدى ذلـك الى غـرقـي وهـذا ، في نظر (بيلي) أمـر مـزعج وغير مـريح . ولكن الشـخص الذي يقـوم بانقاذ نفسه في هذه الحالة انها يخسرها. وهكذا وجب على الأمة الكف عن اقـتناء العـبـيـد أو اعـلان الحـرب ضـد المكسيك حتى وان كلفهم ذلك وجودهم كأمة.

ويـتـفـق الـنـاس في واقـعـهـم مع (بيلي) بيـد أنه هل من انسـان يعـتـقـد بان مـستشوستس تتصرف بحق تماماً في الأزمنة الحالية ؟

« دولة كالداعرة ، أو الفاحشة ذات الرداء الفضي .

هي تلك التي تـحمل أهداب ثيابها عالياً بينما تلطخ روحها في الأوحال » .

وليس خـصـوم الاصـلاح في (مـستشوستس) في الواقع، مائة ألف سياسي من الجنوب بل مـائة ألف تاجـر وفـلاح من هذه البـلاد تتركـز عنايتـهم بالتجارة والزراعة أكثر منها بالانسانية كما أنهم غير مستعدين لأن ينصفوا قضية العبيد أو المكسيك مهما كلف ثمن ذلك. ولا أود بهذا مخاصـمـة الاعـداء البـعيدين بل أولئك الذين يسكنون في جـوارنا والذين يتـعـاونون مع القـاصين ويأتمرون بأمـرهـم، ولولاهم لبقي الاعداء القـاصين بلا أذى، لقـد اعـتدنا القول ان الكتل البشرية تفتقر الى الاستعداد. ولكن الاصـلاح بطيء اذ ان الاقليـة لا تفـوق الاكثرية حكمة بالنواحي المادية ولا يهم كثيراً ان نجـد عـدداً كبيراً من الناس في صلاحك وطيبتك بل المهم ان نجد شيئاً من الخير المطلق في مكان مـا في المجـتـمع ، إذ أن وجـود هذه القلة سيؤثر على المجتمع كله . هنالك آلاف من الناس يقـاومـون فكرة الرقـيق والحرب ولكنهم في الواقع لا يقومون بـأي عـمـل مـن شـأنـه ان يـضع حـداً لها، وهم مع ذلك يحترمـون أنفـسـهم كأبناء (واشنطن) و (فـرانكلين) فـيـجلسون وأيديهم في جيوبهم ويقولون بأنهم لا يدرون ما يفـعلون بل أنهم لا يأتون شـيئاً، بل حـتى أنهم يؤخـرون قـضـيـة الحرية لكي يقدموا التـجـارة، ثم أنهم يقـرأون بهدوء قـوائم الاسـعار الجارية مع أحدث النصائح الواردة

من المكسيك بعد الفراغ من تناول الطعام. وربما أخذتهم سنة من النوم أثناء ذلك. فما هو السعر الجاري للانسان النزيه الوطني هذا اليوم ؟ انهم يترددون في الاجابة على ذلك ويأسفون ويرجون أحياناً ولكنهم لن يفعلوا بجد أي شيء ذي أثر. فهم ينتظرون بهدوء أن يقدم سواهم علاجاً للشر لكي لا يساورهم الندم. وفي أحسن الأحوال يعطون للحق أصواتهم الرخيصة ونظراتهم الضعيفة وتمنياتهم الباهتة كما هو معروف عنهم . فهناك تسع مائة وتسع وتسعون حام للفضيلة مقابل رجل فاضل واحد ولكن من الأسهل التعامل مع المالك الحقيقي للشيء من حاميه الموقت.

ان التصويت بجميع أشكاله عبارة عن نوع من اللعب . وذلك كالطاولة والنرد، ولكنه يمتاز بصبغة اخلاقية خفيفة انه لعبة من لعب الصواب والخطأ فهي تنطوي على مشاكل أدبية يرافقها البرهان طبعاً ولا تتعرض أخلاق المصوت فيها الى الخطر. فربما اعطيت صوتي الى جانب الحق كما يخيل لي. ولكن لا يعنيني بشكل خاص أن يتغلب ذلك الحق بالذات فأنا أميل الى ترك ذلك الى السلطة وعليه فان التزاماتها لا تتعدى الضرورة أبداً. وحتى التصويت الى جانب الحق لا يعني القيام بأي شيء من أجله. فهو لا يتعدى التعبير للناس عن رغبتك في ضرورة تغلبه. وليس الانسان الحكيم من يترك الحق تحت رحمة الصدف أو يتمنى له الفوز في حكم الأغلبية وليس من فضيلة في أعمال جماهير الناس إلا ما ندر. فعندما ستصوت الأغلبية أخيراً في جانب الغاء الرق فسيكون سبب ذلك عدم اكتراثهم به أو عدم وجود ما يستحق الالغاء منه. وسيصبحون حينئذ هم العبيد فقط. وسوف لا يعجل في الغاء الرق الا من استطاع أن يثبت تحرره باستعماله صوته.

لقد طرق سمعي نبأ الاجتماع المزمع عقده في (بالتيمور) أو في مكان آخر، من أجل انتخاب مرشح لرئاسة الجمهورية، مؤلف من محرري الصحف ورجال هم في الحقيقة سياسيون بالمهنة. ولكنني أتساءل عن أهمية ما يمكن أن يتوصلوا اليه من قرار في نظر الانسان المستقل الذكي المحترم ! ألا يمكننا الاستفادة من حكمته ونزاهته؟ أليس في الامكان الاعتماد على بعض الاصوات الحرة؟ أليس هنالك في هذا البلد عدد من الافراد ممن سوف لن يحضروا المؤتمرات ؟ ولكن لا ؛ أجد أن الرجل المحترم، أو من يدعى بالمحترم، ترك مكانه بسرعة وأخذه اليأس بصدد بلده في

الوقت الذي كـان لبلده كل الحق في أن ييأس منه. ويتـخـذ في الحال أحد المرشحين وقـد تم اخـتـيـاره باعـتـبـاره المرشح الوحـيد المتوفر عندهم مبرهناً بذلك أنه هو أيضاً مـسـتـعـد للقـيـام بجميع ألوان التهريج وليس لصوته أي قيمة تزيد عن صوت رجل أجنبي لا أخـلاق له ولا مـبـدأ أو مـواطن أجير، باع ذمـتـه. ألا ليت رجلاً له ـ كما يقـول جاري ـ عظم في ظهره يحول دون اختراق يدك له. ان احصائياتنا مغلوطة فقد ذكـر فـيـهـا أن السكان بتـزايد هائل. فكم رجلاً نجد في الالف المربع من الأميال في هذا البلد ؟ لا أحـد تقـريبـاً. ألا تقـدم أمـريكا من المشـوقات ما يحمل الرجال على الاسـتـقرار فيها ؟ لقد تضاءل الأمريكي حتى تحول الى فرد غريب ـ أي رجل يمكن أن يُعـرف بتطور غـريزة التـجـمـيع عنده ، وبنقص بارز في العـقـليـة وببـهـجة الثقة بالنفس. شـغله الشـاغل بعـد أن يتـدرج في الحـياة أن يتأكد من اجراء الاصلاح في مـلاجىء الفـقـراء وجمع الاعانات (قبل ارتداء لباس الرجولة بجدارة) من أجل الأخذ بيـد مـا قـد يجدون من أرامل ويتـامى والذي بعـبـارة مختصرة، يغامر ليحيا بمساعدة شركـة التأمين المتبادلة فقط، وتلك الشركة التي تعهدت دفنه بكل احتشام.

وليس من وظيـفـة الانسـان طبـعـاً، أن يكرس نفـسـه لاقـتـلاع أي خطأ من الأخطاء مـهما كـان كـبيراً. اذ قـد يكون مـا يزال منهـمكاً في أعمال مناسـبـة أخرى. ولـكن وظيـفـتـه مع ذلك تقضي على الأقل أن ينفض يده منهـا، وإن أراد أن يصرف فكره عنهـا فـعليـه أن لا يسـاندها أي مساندة عملية. فلو كرست نفسي لمطلب من المـطـالـب أو فكرة من الأفكار الأخـرى، فـعلـيَّ أولاً، على الأقل التأكـد من عـدم مـتـابعـتها وأنا جالس فوق أكتاف غيري من الناس، على أن أنزل من فوق كتفه أولاً لكي يتـابع تأمـلاته هو أيضـاً، تأمل التناقض الكبير الذي يجري التـسـاهل معه فقد سـمـعت بعض المواطنين هنا يقـول : «أود لو أنهم أمـروني بالخـروج لمسـاعـدتهم في الـقـضـاء على ثورة العـبـيـد أو التـوجـه نحـو المكسـيك ـ وعند ذلك سترون كـيف سأذهب. ومع ذلك فكل واحـد من هؤلاء الاشـخـاص أنفـسهم كان قد جهز بديلاً عنه سـواء أكـان ذلك بصـورة مـبـاشرة أي بولائه أو بصـورة غير مـبـاشرة بنقوده على الأقل. ان الجندي الذي يرفض الخـدمة في حرب ظالمة يقابل بالاستحسان والتشجيع مـن أولئك الـذيـن لا يـترددون في دعـم حـكـومـة ظـالمـة تـثـير الحـرب. ويـقـابل

بـالاسـتـحـسـان مـن اولئك الـذيـن يـعصي هو أعمالهم وسلطتـهم ولا يحسب لها أي حسـاب، وكأن الدولة تائب يكفـر عن ذنوبه باستئجار أشخاص يضربونه بالسياط أثنـاء ارتكابه لها. ولكنه لا يتـوب عنهـا كليـاً فترة قـصيرة من الزمن. وهكذا وباسم النظام والحكومـة المدنيـة اضطررنا جميـعاً الى اعلان ولائنا وتأييدنا لدناءتنا. وتتبع حمرة الخـجل الأولى التي يثيرها الاثم فينا، اللامبالاة بها ويصبح بعدها عمل (لا أخلاقي) بعـد أن كـان منافيـاً للأخـلاق، وليس مما يستـغنى عنه تماماً في هذه الحـيـاة التي صنعناها.

ان أكبر الأخطاء وأكـثـرها شـيـوعـاً هي التي تحـتـاج الى أشـد الفضائل نزاهة لمقـاومتها. وأبسط أنواع التعنيف الذي تتعرض له فضيلة الوطنية عادة هو ما يقع فيه أشـد الناس نبـلاً. إن اولئك الذين يستـسلمـون بولائهم وسندهم الى الحكومـة التي يستـهـجنون تصرفـاتها وشكلهـا، هم من غير شك من أشد مؤازريها اخلاصاً، وهم أخطر العـقـبات التي تقوم بوجه الاصلاح. ويتقدم البعض الآن طالبين من الحكومة حـل (الاتحـاد) وصرف الـنـظر عن مـتطلبـات رئيس الجـمـهـورية. فلماذا لا يحلّـونه بأنفـسـهم (بالاشتراك مع حليـفـتـهم الدولة) ويرفـضـون دفع حـصـتهم المقررة الى الخـزينـة؟ أليـست عـلاقـتـهم بالدولة هي كـعـلاقـة الدولة بالاتحـاد ؟ وألم تقم نفس الأسـبـاب التي منعـتهم من مقاومة الدولة حائلاً دون مقاومة الدولة للاتحاد ؟ وكيف يكتـفي الانسـان بمـجـرد تكوين فكرة، والتـمتع بها ؟ واذا كانت تلك الفكرة تدور حـول كـونه محزوناً، فـهل في ذلك من مـتـعـة ؟ فلو انتزع جارك دولاراً واحداً منك، فلن تقنعك شيئاً مـعرفتك أنك رحت ضحية الغش أو ترديد القول بذلك، أو حتى بالالتماس منه أن يعـيـد لك حـقك . بل انك ستهرع لاتخاذ خطوات فعالة في الحال للحـصـول على المبلغ كـامـلاً، واتخاذ الاحـتـيـاطات اللازمة لكي لا تخدع ثانية. ان العـمل وفق المبـدأ وادراك الحق والعـمل به يحدثان تغيراً في الاشـيـاء وفي العـلاقات. وهـذه ظاهرة ثورية في جـوهرها، لا تتـوافق كليـاً والاشـيـاء التي كـانت في الماضي. ولكنهـا تفـصل الكنيـسـة عن الدولة فحسب كما أنها تقسِّـم العائلة. أجل أنها تقسم (الفرد) فتفصل الجانب الشيطاني فيه عن الجانب المقدس.

ان القـوانين المجـحـفـة مـوجـودة، فـهل سنقنع باطاعـتـهـا، أم هل سنحاول

اصـلاحـهـا، وطاعـتها حتى نحقق النجاح ؟ أم هل سنبادر الى مخالفتها ؟ ان الناس عـادة وفي ظل حكومـة كـهـذه يعتقدون أنه يجدر بهم الانتظار حتى يفلحون في اقناع الاغلبيـة بتـغيرها. وهم يعـتـقـدون أنهم اذا ما قاوموها فان العلاج سيكون اسوأ من الداء بيـد أنه خطأ الحكومـة نفسها أن يكون العلاج أسوأ من الداء. فهي تزيده سوءاً أفـلا يـكـون من الأفـضل أن نسبق الاصـلاح ونعـد له ؟ ولماذا لا يعـزز الاسراع في الاصـلاح والاسـتـعداد له من مكانة دعاته وهم من الاقلية الحكيمة بل لماذا نبادر الى الصـيـاح والمقـاومـة قـبل أن يمسـهـا سـوء ؛ ولماذا لا تشجع الحكومة المواطنين على الانتـبـاه والتيقظ الى اخطائها، والقيام باعمال هي خير مما تريد لهم ؟ ولماذا نلجأ دائماً الى صلب المسيح وطرد (كـوبرنيكس) و (لوثر) من الكنيـسة والحكم على (واشنطن) و (فرانكلين) بالتمرد والعصيان ؟

وقـد يخيل للانسـان ان الاساءة الوحيدة التي لم تخطر على بال الحكومة أبداً هي التنكر الفـعلي المتـعـمد لسلطتها والا ، فلماذا لم تعين عقوبة ملائمة ومناسبة له ؟ فلو أن شـخـصـاً مـعـدمـاً، رفض مـرة أن يدفع للدولة تسـعـة شلنات فقط فانه سيودع السـجن مـدة غير محددة في القوانين التي لي اطلاع بها وهو قانون قررته حكمة الناس الذين وضـعـوه فقط بيد أنه إن قام بسرقة تسعين ضعفاً فقط. فسيخلى سبيله ويصبح طليقاً ثانية.

وإذا كـان الظلم جـزءاً من الاحـتكاك الضروري الذي يصـاحب ماكنة الدولة، فـلـنصرف النظر عنه، لنصرف النظر عنه : وربما زال واخـتـفى ـ ان الماكنة نفـسـهـا سـتـهترى طبعاً. أما اذا كان للظلم زر أو بكرة أو حبل أو رافعة أو عتلة خاصة به، عـنـد ذاك ربما جـاز لك أن تعـتبر العـلاج اسـوأ من الداء. أمـا اذا كـانت من نوع يتطلب منك أن تصـبـح عـامـلاً من عوامل التعسف ضد الآخرين، فعند ذاك، أقول لك «أخـرق القـانون». واصنع من حـيـاتك آلة لمقـاومـة ذلك الاحتكاك لكي توقف الماكنة عن العـمل. وعلى كل حـال فـان مـا ينبـغي علـيّ صنعه هو التأكد من عدم وقوعي في الخطأ الذي أهاجمه.

أمـا عن اتخاذ الوسـائل التي قـدمـتها الدولة لعلاج الفساد فأنا في جهل عنها. فـهي تتطلب وقتاً طويلاً وربما ذهبت بارواح بعض الناس أما أنا فلي شؤوني الأخرى

التي يجب العناية بها فـقد جئت هذا العالم لا لكي أجعل من هذا العالم مكاناً يصلح للعيش فـحـسب، بل للعـيش فـيـه خيراً كـان أم شراً. وليس للانسـان أن يأتي كل شيء، وعـلـيـه وبما أنـه لا يـفـعل كل شيء، فليس من الضروري أن يقـوم ببـعض الأخطاء. وليس من شأني أن أقـوم بالتماس الحـاكم أو السلطة التشريعية كما أنه ليس من شأنهم التماسي وان لم يشأ أحـدهم أن يعير طلبي أذناً صـاغـية، فما عساني صانعاً عـنـد ذاك، ولـكن الدولة لم تعـد سـبـيـلاً لمثل هذه الحـالات، ومـا الذنب الا ذنب دستـورها وقـد تبـدو هذه الحـقـيـقة صارمة وعنيدة لا تحقق التوافق والسلام. ولكنها وجـدت لكي تعـالج بمنتـهى العطف والعناية الروح الوحـيدة التي يمكن أن تقدرها وتسـتحقها. وهذه أيضاً حال كل التغيرات الحسنة التي يضطرب فيها الجسم ويتشنج بها كـالولادة والموت.

ولـن أتردد في القـول بأن على اولئك الذين يطلقـون على أنفسـهم اسم دعـاة الغـاء الاسترقـاق أن يسـحبوا تأييدهم لحكومة (مستشوستس) في الحال وبصورة فعالة سـواء كـان ذلك التأييـد بالنفس أو بالمال، وأن لا ينتظروا حـتى يؤلفـوا لهم أغلبـيـة تخولهم الحق الذي يسـودون له. اذ يكفي، كما أعـتـقد أن يكون الله في جانبهم، دون أن ينتظروا الجـزء الآخـر، زد على ذلك، أن أي انسـان يتـمـتع بحق أكثر من جيرانه يؤلف أغلبية بذلك سلفاً.

انني اقـابل هذه الحكومـة الأمـريكية أو ممثلها، حكومة الولاية، مباشرة ووجهاً لـوجـه مـرة كـل عـام ـ لا أكـثـر ـ وذلـك في شـخـص جـامع الضرائب. وهذا هو الاسـلوب الوحـيـد الذي لابد أن يقـابلهـا فـيـه رجل في مـوقـفي وعند ذلك تصـبح الحكومـة بجـلاء قـائلة : اعترف بي ، وعليـه فـان أبسط سبل التعامل معها وأبعدها أثراً بل ، وفي مـثل هذه الحـالة ، أكـثـرها ضرورة ، أي بالتـعـبير عن رضائك عنها وحـبك اياها، هو انكارك لها. ان جـاري الموظف المدني وأعني جـامع الضرائب، هو الرجل الذي ينبـغي التعامل معه. اذ اننا ان تخاصمنا فمع الرجال لا مع الورق طبعاً ـ ولقـد قـبل طوعـاً أن يصـبح وكـيـلاً للدولة. وكـيـف سيتسنى له الوقوف جيداً على حـاله أو عـمله كـمـوظف حكومي ، أو كـرجل ما لم يضطر الى التفكير فيما اذا كان سـيـعـامـلني أنا جـاره الذي يكن له الاحترام كـجـار وكـرجل مطبـوع على الخير، أو

كـمـعـتـوه ومـعكر للسـلام ومن ثم يجرب ان كان سيستطيع التغلب على هذه العقبة التي تقـوم أمـام شـعوره بالجيرة دون أن يقرن عمله ذلك بفكرة يتجلى فيها العنف أو كلمـة فظة ولو أن ألفـاً من الرجال أو مائة منهم، أو عشرة ممن يمكنني ذكر اسمائهم أو عشرة رجـال نزيهين فـقط لا بل رجـلاً نزيهاً واحـداً يكف في ولاية (مستشوستس) هذه عن اقـتناء العـبـيـد وينسـحب فـعـلاً من هذه الشركـة فـيـودع لذلك في سجن المقـاطعة، فسيؤدي عمله ذلك كما أعلم جيْداً الى الغاء تجارة العبيد في أمريكا. اذ لا يضر أبداً أن تبـدو البـداية صـغيرة جداً. فان الاجادة باداء عمل ما مرة واحدة يعني خلود ذلك العـمل. ولكننا نفـضل التـحـدث عنه. وهذا مـا ندعوه برسالتنا. ويبقي الاصـلاح عشرات من صـحف العـهـد السابق في خدمته ولكنه لا يبقي رجلاً واحداً ولو أن جـاري المحترم، سـفير الولاية الذي يكرس أيامه لحل مشكلة حقوق الانسان في غـرفـة المجلس بدلاً من أن يهدد بالايداع في سـجـون (كـارولاينا) أودع سجيناً في (مـسـتـشـوسـتس) تلك الولاية التي تتـوق دائماً وبشـوق الى أن ترمي شـقيقتها بداء العـبـودية ـ رغم أنها في الوقت الحـاضر لا تسـتطيع إلا الكشف عن حالة واحدة من الشح والعـقـوق لتـجـعله سبباً للخلاف معها ـ فان السلطة التشريعية لن تتخلى كلياً عن الموضـوع في موسم الشتاء التالي.

فـفي الحكومـات التي تودع أياً من أفـرادها السـجن ظلماً وجـوراً يصبح المكان الصـحـيح للانسـان المنصف هو السـجن أيضـاً. ان المكان اللائق أو المكان الوحـيـد الذي قـامت مـسـتـشـوستس بتوفيره لسكانها من الأحرار والذين هم أقل من سواهم بأسـاً هي السـجـون، وحـيث يوضـعـون ويعـزلون عن الولاية وفق تشريعـاتها بنفس الحماس الذي عـرضوا هم أنفسهم للسجن بتأثير مبادئهم. وهنالك فقط يمكن للعبد الهارب والسـجين المكسـيكي وقـد تم اخـلاء سبيله بشرط أن لا يحمل السلاح ثانية، والهندي الذي جـاء يعـتـذر عن مـسـاويء قـومـه، أن يعـثروا عليهم. أي على ذلك الصـعـيـد الحـر الشريف الذي تضع فـيـه الولاية أولئك الذين هم ليـسـوا معها، بل ضـدها ـ وهو الدار الوحـيـدة في ولاية العبيد حيث يستطيع فيها الرجل الحر أن يحيا بـشرف. ولو ظن أحـد أن نفـوذه سـيـذهـب هبـاء هناك في ذلك المكان، وأن صـوته سـوف لا يؤذي اذان الولاية، وانه سـوف لا يكون كـالعـدو بين ظهـرانيـهـا فـانه انما

يجهل مـدى تفـوق الحقيقة على الخطأ وكذلك مدى استطاعة الانسان، وقد ذاق شيئاً من الظلم بنفسـه، على الكفـاح بصـورة بليـغـة ومـؤثرة. فلتـعط اذاً بصوتك كاملاً وليس بقطعـة صـغيرة من الورق ولتمارس كل نفـوذك. وليس للأقلية التي تنسجم مع الأكـثـرية من قـوة أو حول. بل لن تكون أقلية في تلك الحالة. ولكنها تصبح قوة لا تقـاوم عندمـا تقف بثـقلهـا حجر عثرة في سبيل الحركة. فاذا كان الاختيار الثاني هو ايداع جميع الناس العـدول في السـجن أو التـخلي عن الحـرب والاسترقـاق فسوف لا تـتردد الـولاية في مـا تختـار. ولو أن ألفـاً من الرجـال امـتنعـوا عن اداء الضريبـة هذا العـام، فلن يكون ذلك الاجـراء منهم عنيـفـاً أو دمـوياً، كما لو أنهم دفعوها ومكنوا الـولاية من ارتكاب أسـاليب العنف واراقـة الدمـاء البريئة. وذلكم هو في الحـقـيـقـة تـعـريف الثـورة السلمـيـة، ان كـان وجـودها ممكناً. ولو أن جـامع الضرائب أو أي مـوظف عام آخر ألقى بهذا السؤال علـيّ كما حدث ذلك لأحدهم معي فعلاً وهو : «ولكن مـاذا سأصنع ؟» فـان جـوابي سيكون : «اذا كنت راغـباً فعلاً في عمل شيء مـا، فـاترك وظيـفـتك» وعندمـا يسحب المواطن ولاءه، ويترك الموظف عمله، تكون الثـورة عند ذاك قـد تحـققت فعلاً. ولكننا حتى اذا فرضنا أن دماً قد سال فيها، فلن يغير ذلك من أمرها. أفليس ثمة نوع من الدماء يسيل عند جرح الضمير الانساني ؟ اذ تسـيل من خـلال هذا الجـرح رجـولة الانسـان وخلوده الحـقيقي فينزف منهما حتى الموت الازلي ويخيل لي اني أرى هذا الدم يسـيل الآن.

١٨٤٩

★ ★ ★

مقتطفات من

وولـدن (*)

[قد يعد البعض وولدن سيرة حياة ثورو لفترة زمنية محددة، وهي تلك التي قضاها في الغاب، يصف فيها أفعاله اليومية وأفكاره. بيد أنه أكثر من ذلك بكثير، فهو كتاب رمزي فلسفي يصف عصارة تجارب ثورو في الحياة وعصارة قراءاته. وهو من أهم المداخل الى الحركة المتسامية، اذ يجسد العديد من مبادئها من حيث الاعتماد على الذات ومحاربة الشهوات والمادة واكتشاف العقل والتسامي والنفوذ من خلاله الى أعماق الكون ومهد الحضارات وأعماق النفس البشرية] .

المحرر

أين عشت ، ومن أجل ماذا عشت ؟

اعتدنا في فترة معينة من أعمارنا أن نعد كل بقعة من بقاع الأرض مكاناً صالحاً لاقامة منزل فيه ، فدفعني هذا الى دراسة جميع الأراضي التي تقع على بعد اثني عشر ميلاً من المكان الذي أقطنه، فجعلت أتفحصها من كل ناحية من نواحيها. واشتريت ـ في الخيال ـ كل ما فيها من ضياع، الواحدة تلو الأخرى، فقد كانت كلها تشترى، وكنت على علم بأثمانها ، ولذا جست خلال أرض كل مزارع، وتذوقت ما عنده من التفاح البري، وتحدثت إليه في شئون زراعته، ثم اشتريت منه ضيعته بالسعر الذي عينه، بل بأي سعر شاء، ثم رهنتها عنده في ذهني، بل قدرت لها ثمناً أزيد مما طلب ، وحصلت منه على كل شيء الا على حجة التمليك، فقد اكتفيت منها بكلامه ـ وما أشد غرامي بالكلام ! ثم تعهدت الارض بالزراعة، ولعلي تعهدت عقله بالثقافة أيضاً، ثم انسحبت منها آخر الأمر بعد أن استمتعت بها

(*) أخذت من والدن : **وحي الغاب** ، بقلم هنري ثورو ، ترجمة أمين مرسي قنديل، ١٩٣٩؟.

مـا شئت أن أسـتـمـتع، وتركتها له يزرعها ، ويدبر شؤونها بنفسه. فهذه الخبرة التي حـصلت عليـهـا، خولت لاصدقائي أن يعدّوني أشبه بسمسار للمزارع والضياع، فأنا حيـثما جلست استطعت أن أعـيش، وكانت المناظر الطبيعية تشع مني وتتفرع. وما عـسى أن يكون البـيت غير مـقـعـد للجلوس ؟ ومن الخير أن يكون ذلك المقـعد في الـريـف. فكم من مـوضع استكشـفت يصلح لإقـامـة بيت، ولا يحتـمل أن يكون بحـاجـة عـاجلة الى الاسـتـصـلاح ، وكـان الكثيرون من الناس يظنون أنه يبعد عن القـرية بعـداً كـبيراً، ولكن القـرية هي التي كانت بعيدة عنه البعد الشاسع. ثم قلت في نفسي : حـسناً ، فـهنا ينبغي لي أن أعيش ، وهنا عشت فعلاً ساعة من الزمان ، كـانت صـيف حياة وشتاءها، ورأيت كيف استطعت أن أجعل السنين تمضي، وأقاوم الشتـاء حتى آخره ، وأستقبل الربيع حين يحل. وليكن الذين سيقطنون هذا الأقليم في المسـتـقبل ـ أنّـى أقامـوا منازلهم ـ على ثقـة من أنهم قد سبقـوا الى ما اختـاروه من مـواضـــع . وحـسـبنـا مـسـاء يوم واحـد لتـخطيط جـزء من الأرض الى بسـتـان ، ولتـخـصـيص جزء منها للاخشاب، وآخر للمرعى، ولتقرير أي أنواع أشجار البلوط السليـمـة ، أو أشجار الصنوبر الرائعة ، يجب أن تترك قائمة أمام مدخل الدار حتى نسـتطيع أن نرى منه كل شـجـرة ذابلة مـتصوحة على خير ما يمكن أن ترى. وربما تركت الأرض بعـد ذلك كله هملاً غير مـزروعـة. فـالرجل منا لا يعد غنياً الا بنسبة عدد الاشياء التي يستطيع أن يدعها وشأنها.

هذا، وقـد جـرى بي الخـيـال شوطاً بعيداً، فتخيلت أن عدداً من المزارعين أبوا أن يبـيعوني ضياعهم ـ وكان هذا الرفض كل ما أبغيه منهم ـ غير أني لم أدع أصابعي تحترق بأن أتملك بعض المزارع فـعـلاً. وكـان أقـرب مـا وصلت اليـه من قـبيل الملك الحـقـيـقي، عندما اشتريت ضيعة «هلول» وشرعت أفرز بذوري، وأجمع المواد اللازمة لصنع عـربة يد لاحملها عليـهـا الى الضـيـعة أو منها. ولكن قبل أن يكتب لي البائع حـجـة التـمليك كـانت زوجـه قد غيرت رأيها، ولكل امرىء زوجة من هذا الطراز ـ فـقـد رأت أن تحـتـفظ بالمزرعـة، وعندئذ قـدم لي الرجل عشرة دولارات لقـاء اعفائي ايـاه من الاتفـاق الذي ابرمناه . وفي الحق ، كـان جميع مـا أملكه لا يزيد على عشرة سنتـات، وكـان أرقى مـا أعرفه من علم الحساب أني كنت الرجل الذي يملك عشرة

ستات، أو ذلك الذي يملك ضيعة أو عشرة دولارات، أو يملك هذه الأشياء كلها معاً. ومهما يكن من أمر، فقد تركت له الدولارات العشرة، والضيعة كذلك. فقد سرت في الأمر الى مدى بعيد، أو بالأحرى، أني، كي أكون كريماً معه، بعته الضيعة بالثمن الذي اشتراها به هو نفسه، واذ لم يكن بالرجل الغني فقد أهديت له عشرة دولارات، واحتفظت بالعشرة ستات التي لي، وبالبذور، والمواد اللازمة لصنع عربة اليد، وبذلك وجدتني رجلاً غنياً من دون أن يصاب فقري بأذى ما. على أني احتفظت مع هذا كله بالمنظر الطبيعي، وجعلت، منذ ذلك الوقت، أنقل ما يغله لي من دون حاجة الى عربة يد. فمن حيث المنظر الطبيعي:

« أنا ملك على كل ما أشاهده حولي،
وليس ثمة من ينازعني حقي في ذلك » (١)

فكم من شاعر رأيته ينسحب من شراء ضيعة بعد أن يكون قد استمتع بأجلّ ما فيها قيمة، على حين كان المزارع الجافي يتوهم أنه لم يحصل منها الا على بضع تفاحات برية ليس غير، ولم يدر مالك الضيعة، الا بعد مضي عدة سنين، أن الشاعر قد وضع ضيعته في قصيدة مقفاة، وذلك أروع نوع من أنواع الاسيجة غير المرئية، وانه قد احتجزها واحتلها، وانتزع قشدتها، فحصل بذلك على كل ما فيها من خير، ولم يدع له منها غير اللبن منزوعاً قشدته.

ان ما استرعى اهتمامي بمزرعة هلول هذه، هو انعزالها الكامل. فهي تقع على بعد ميلين من القرية، وعلى مسافة نصف ميل من أقرب جار لي. وكان يفصلها عن الطريق العام حقل واسع، ويحدها النهر الذي قال عنه المالك أنه يقيها بضبابه من الصقيع في فصل الربيع، وان كان هذا في ذاته لا يهمني البتة، أما الذي يعنيني فلونها الأدكن، وحالة المنزل والحظيرة الخربة، والأسيجة المشعثة التي تفصل بيني وبين آخر ساكن بفترة طويلة، وأشجار التفاح المجوفة المغطاة بالحزاز والطحلب، والتي قرضت الأرانب الكثير من أجزائها، مما ينبئني عن نوع الجار الذي سيكون لي. ولكن قبل كل شيء استرعتني الذكريات التي كنت حملتها معي

(١) مطلع قصيدة مشهورة في الأدب الانجليزي للشاعر وليم كوبر (١٧٣١ - ١٨٠٠) عنوانها «وحدة الكسندر سلكرك».

عنهـا منذ رحـلاتي الأولى التي كنت أقـوم بها في النهـر صـعـدا، عندمـا كـان البـيت محجـوباً وراء أجنة كـثيفة من أشجار الاسفندان الأحمر كنت أسمع عواء الكلاب من خـلالها. فـلا غـرو إذن أن تلهـفت على شرائها قبل أن يفرغ مالكها من نزع ما فيها من صـخـور، وقـبل أن يعـمـد الى قطع أشـجار التفاح الجوفاء، أو يجتث بعضاً من أشـجـار البـتولا الصغار التي نبتت في المرعى. وقصارى القول كنت أود شراءها قبل أن يدخل عليـهـا صـاحـبها مزيداً من اصلاحاته وتحسيناته. فحبا في الاستمتاع بهذه الميزات كنت مستعداً أن أحملها، بل كنت مستعداً مثل أطلس أن أحمل العالم كله على كـتفي ـ وان كنت لم أسمع قط عن أي تعويض ناله عن هذا العناء ـ وأن أقوم بعمل جميع تلك الأشـيـاء التي لا داعي لها ولا حـافـز سـوى أن أدفع ثمنها وأترك حراً في تملكي إياها، لا يضـايقني فيها أحد. فقد كنت أعلم طيلة الوقت كله أنها ستثمر لي أكبر غـائلة من النوع الذي أنشـده، لو أني استطعت أن أدعها وشأنها. ولكن العاقبة كانت كما ذكرت من قبل.

وكل مـا أسـتطيع أن أقـوله اذن بشأن الزراعة الواسعة النطاق وقد كان لي دائماً حـديقة خاصة أتعهدها بنفسي، هو أني حصلت على البذور اللازمة لي. هذا، ويرى كـثيرون من الناس أن البـذور تتـحسن كلما قدم عليها العهد وطال؛ وليس من شك في أن الزمن سـيـفـرق بين الصالح والطالح. وأخيراً، فاني عندما أزرع، لا يحتمل أن أصـاب بالفـشل وخـيبـة الآمـال، ولكنـي سأقـول لاخـواني مرة واحدة فحسب، أن عـيـشـوا أحـراراً ما استطعتم غير مرتبطين بشيء، فليس ثمة غير فرق ضئيل بين أن تكونوا مـرتبطين بمـزرعة أو مقيدين بالاغلال في سجن من السجون.

قـال « كاتو » الشيخ في كتابه عن شئون الزراعة وهو مرجعي (١) فيها. هذا ، والترجمة الوحـيـدة التي رأيتـهـا جـعلت من القطعـة المقـتـبـسة هنا هراء فارغاً قال : «عندمـا تفكر في الحـصـول على ضيعة، قلب الأمر على وجوهه في ذهنك، فلا تشتر بلهـفـة، ولا تأل جـهـداً في أن ترى الضـيـعـة وتفحص عنها. ولا يخطرن ببالك أن تكتـفي بالطواف حـولها مـرة واحدة، فكلما أكثرت من التردد عليها ازددت بها سروراً ان كـانت مـزرعة طيبة صالحة ». وغاية ظني أني لن اشتري بلهفة، بل سأمضي اليها

(١) الكتاب باللاتينية واسمه De Re Rultica .

وأطوف بها المرة بعد المرة ما دمت حياً، وسأدقق فيها أولاً حتى ازداد بها سروراً آخراً.

هذا وتجربتي الحالية هي ثاني تجربة لي من هذا القبيل، وهي التي أنوي أن أصفها هنا بشيء من التفصيل. ومن الملائم أن أدمج خبرة السنتين في سنة واحدة، فاني، كما ذكرت من قبل، لا أقصد أن أدبج قصيدة أشيد فيها بالاكتئاب وكسوف البال، وانما أبغي أن أتحدث بقوة، وأصيح كما يصيح الديك في الصباح، وهو واقف على مجثمه، ان لم يكن ذلك إلا لاوقظ النائمين من جيراني.

ولما اتخذت مسكني في الغابات لأول مرة، أي لما شرعت أقضي ليلي ونهاري فيها، كان ذلك مصادفة في «يوم الاستقلال» في الرابع من شهر يوليو سنة ١٨٤٥. ولم يكن بيتي قد تم بعد بشكل يتيسر لي السكنى فيه في فصل الشتاء، فهو لم يكن غير وقاية من المطر، ولم يكن قد زود بعد بموقد ومدخنة، ولم يتم طلاء جدرانه بالشيد، فقد كانت من خشب لم يصقل، ارتسمت عليه آثار الجو، وكانت لا تزال به شقوق كثيرة لطفت جوه في الليل. وكانت قوائمه البيضاء، وبابه، وحلوق النوافذ الممسوحة حديثاً بالفارة، قد جعلت له منظراً أنيقاً طلق الهواء، ولا سيما في الصباح عندما تكون أخشابه قد تشبعت بالندى، حتى كان يخيل إليّ أنه لا يحل الظهر حتى تكون قد أفرزت نوعاً من الصمغ الحلو. وقد تصورت أنه سيحتفظ طيلة النهار ببعض صفات من صفات الفجر هذه، قليلة كانت أو كثيرة، مما يذكرني ببيت معين على جبل زرته في العام الماضي. فكان كوخاً طلق الهواء غير مطلي بالشيد، خليقاً بأن يستضيف إلهاً سائحاً، أو يستقبل الآهة فتستطيع أن تجرر فيه أذيال ردائها. وكانت الرياح التي تتناوح مسكني من نوع الرياح التي تهب على سلاسل الجبال تحمل نغمات مقطعة من موسيقى أرضية، أو أنها تحمل منها ما فيها من الاجزاء السماوية فحسب؛ فكانت ريح الصباح تهب أبداً وباستمرار. فليس ثمة شيء يعوق شعر الخليقة ويعطله، ولكن ما أقل الآذان التي تصغى اليه، فما جبل أولمبوس الا غلاف الأرض البادي في كل مكان.

والبيت الوحيد الذي ملكته من قبل ـ مع استثناء قارب صغير ـ كان خيمة استخدمتها أحياناً فيما كنت أقوم به من رحلات في الصيف، ولا تزال مطوية قابعة

في عليه بيتي. أما القارب، فبعد أن ظل يتنقل من يد الى يد، جرفه الزمان. ويخيل إلّي أني بهذا البيت الكبير حولي قد تقدمت بعض التقدم في سبيل استقراري في هذا العالم. فهذا الهيكل المكسو كساء خفيفاً كان أشبه بتبلور حدث حولي، وكان له رد فعل على من بناه، ويلوح للرائي كأنه صورة لا تزال في دور التخطيط. فلم أكن اذن بحاجة الى الخروج من البيت لاستنشاق الهواء. فقد ظل الجو داخله محتفظاً بنضارته لم يفقد منها شيئاً، ولذا لم يكن جلوسي داخل البيت بأكثر من جلوسي وراء بابه حتى في اغزر الأوقات مطراً. جاء في الهاريفانسا «ان المسكن الذي لا أطيار تغرد فيه أشبه بلحم خال من التوابل». على أن مسكني لم يكن من هذا النوع. فقد وجدت نفسي فجأة جار للأطيار، لا لأني حبست واحداً منها، ولكني حبست نفسي في قفص على مقربة منها، ولم أكن أقرب الى بعض الطيور التي تألف الحدائق والبساتين عادة، بل الى تلك الطيور الغريدة البرية التي تسكن الغابات وتؤثر في النفوس، والتي لا تغرد أبداً لساكن القرية، أو هي لا تغرد الا نادراً مثل سمنة الغاب وسمنة ولسن، و «الطنجر» القرمزي، وعصفور الحقل والسبد الأمريكي (١) وغيرها.

وكان بيتي عند شاطىء بحيرة صغيرة تبعد قرابة ميل ونصف ميل عن قرية كنكورد، وتقع أعلى منها بقليل؛ وسط غابة مترامية الأطراف بين هذه البلدة وبين لينكولن، وعلى بعد ميلين من ساحتنا الحربية الوحيدة المشهورة ـ ساحة قتال كنكورد. وكنت في مكان منخفض من الغابة حتى أن الشاطىء المقابل لي كان أفقي البعيد ومرمى بصري ، وهو شاطىء مكسو بالغابات ، مثل غيره ويقع على بعد نصف ميل مني. وكانت هذه البركة تبدو لي طيلة الاسبوع الاول، كلما نظرت اليها كأنها بحيرة على سفح جبل عال، قاعها أعلى بكثير من سطوح البحيرات الاخرى. فكنت أشاهدها عند بزوغ الشمس تخلع عنها غلالة الضباب التي توشحت بها في أثناء الليل. وشيئاً فشيئاً أخذ سطحها الأملس العاكس، أو أخذت مويجاتها الساجية، تنكشف لي في هذا المكان أو ذاك، على حين كان الضباب ينحسر عن كل جبهة ويتسلل خلسة كالاشباح متجهاً نحو الغابات، أو يتفرق وينفض كما تنفض

(١) كلها طيور غريدة تعيش في أمريكا الشمالية .

أية جمعية سرية بعد انعقادها في الليل. وكان الندى نفسه يبدو لي أنه يظل متعلقاً بالشجر في النهار الى وقت أطول من المألوف، مثلما يحدث على سفوح الجبال.

وكان لهذه البحيرة الصغيرة قيمة كبيرة من حيث هي جارة لي، في الفترات التي تحدث في أثناء هبوب عاصفة مطر خفيفة في شهر أغسطس ، عندما يسكن الهواء ، ويسجو الماء كل السكون ، على حين يظل الجو غائماً ويهدأ النهار عصراً هدوءه مساء، وتغرد سمان الغابة حولك فيسمع تغريدها من شاطىء الى شاطىء. ان بحيرة كهذه لا يمكن أن تكون أسجى مما هي عليه في مثل هذا الوقت، ويكون الجزء الصافي من الهواء الذي فوقها ضحلاً، تعلوه السحب، وتضفي عليه الظلام؛ ويصبح الماء الحافل بالطيور، وبما انعكس عليه من صور الاشياء، سماء أخرى تحت السماء، لا تقل عن تلك شأناً ان لم تزد عليها، ومن قمة ربوة قريبة قطعت من عليها الغابة حديثاً كان منظر خلاب رائع يشاهد جنوباً عبر البركة من خلال ثنية كبيرة في التلال التي عند الشاطىء وحيث تنحدر سفوحها المتقابلة نحو بعضها بعضاً فيخيل اليك كأن نهراً يجري في ذاك الاتجاه وسط واد ظليل بالاشجار، ولكن من غير أن يكون ثمة نهر ما. فوليت وجهي شطر هذا الاتجاه، وشاهدت من بين التلال القريبة الخضراء، ومن فوقها، تلالاً أخرى أبعد منها وأشمخ تقوم عند الافق يشوبها لون أزرق. والحق اني عندما أقف على أطراف اصابع قدمي أستطيع أن ألمح بعض قمم لسلاسل جبال أشد منها زرقة وأبعد منها شقة في الشمال الغربي، تلك النقود الزرق التي صدرت من دار سك السماء ذاتها؛ وكذلك كنت استطيع أن أرى بعض أجزاء من القرية. أما من الاتجاهات الاخرى - حتى من هذه النقطة - فلم أكن أرى شيئاً من على الغابات المحيطة بي ولا من ورائها. فمن الخير أن يكون ثمّة مياه بجوارك تجعل الأرض كأنها تطفو وتتراقص. ومن فوائد عيون المياه هذه - حتى أصغرها - أنك اذا ما نظرت فيها أدركت أن الأرض ليست قارية بل جزرية، ولهذا أهميته، مثل أهمية حفظ الزبد بارداً. وعندما أنظر عبر البركة من هذه القمة متجهاً شطر بطائح «صدبري» التي كنت أراها في زمن الفيضان عالية، وربما كان منظرها هذا نتيجة سراب قام في واديها القلق المضطرب كقطعة من نقود ألقيت في حوض ماء. فكانت الأرض كلها التي وراء البركة تبدو أشبه بقشرة أرضية معزولة

طفت على هذا السطح المائي المتداخل، مما ذكرني بأن هذا الجزء الذي أعيش فيه ليس سوى أرض جافة صلبة.

ومع أن المنظر الذي يتراءى من عند بابي ضيق محصور ، فاني لم أكن أشعر بضيق أو ازدحام بأي حال من الأحوال . فثمة مراع كافية يسرح فيها خيالي ويهيم. فالهضبة المنخفضة التي تنمو عليها شجيرات البلوط ، والتي يرتفع اليها الشاطىء الآخر كانت تمتد نحو براري الغرب وسهوب التتار ، وتتيح مجالاً فسيحاً لجميع أسر الرجال المنتجعين . قال « دامودارا » عندما احتاجت قطعانه الى مراع جديدة أوسع مما اعتادت أن ترعى فيه « ليس سعيداً في هذه الدنيا غير الخلائق التي تستمتع بأفق واسع فسيح » .

لقد تغير الزمان والمكان كلاهما، وسكنت على مقربة من تلك الاجزاء من الكون التي استرعتني، ومن تلك العصور من التاريخ التي استهوتني أكثر من غيرها فحيث سكنت كنت بعيداً جداً بعد الأقاليم العديدة التي يرصدها الفلكيون كل ليلة. هذا وما أكثر ما نتخيل أصقاعاً بعيدة رائعة، في ركن سماوي سحيق من أركان هذا النظام الكوني، وراء كوكبة ذات الكرسي لتكون بمنأى عن الضوضاء وسائر أنواع الاضطراب، فاتضح لي أن بيتي يقع فعلاً في مكان قصي في الكون مثل ذلك المكان، ولكنه أبداً جديد لم يدنسه شيء ما. فان كان خليقاً بالانسان أن يستقر في تلك الأجزاء القريبة من الثريا أو من الفلاص، أو الديران أو النسر الطائر، فأنا فعلاً من سكانها اذن، أو على بعد مساو لها من الحياة التي خلفتها ورائي أتضاءل وأتألق بشعاع يبدو رفيعاً لأقرب جار لي، فلا أتراءى له الا في الليالي الحالكة غير القمراء. وهكذا كان هذا الجزء من الكون الذي اخترت أن أتخذ لي مسكناً ومستقراً.

كان في سالف الأيام راع ،

جعل افكاره في مستوى عال

علو الجبال التي ترعى عليها قطعانه

وتمده منها بالغذاء كل ساعة

فما عسى أن يكون رأينا في حياة الراعي يا ترى، ان كانت قطعانه تنتجع على الدوام مراعي أعلى من أفكاره وأسمى ؟

كان كل صباح يطلع دعوة بهيجة لي تشرح صدري وتهيب بي أن أجمل حياتي في بساطة الطبيعة ذاتها، بل وفي طهارتها أيضاً؛ فقد كنت مخلصاً في عبادة «أورورا» اخلاص الاغريق لها، فكنت استيقظ من نومي مبكراً وأستحم في البركة. واتخذت ذلك شعيرة من شعائري الدينية، وكان عملاً من خير ما قمت به من أعمال. قيل أنه كان للملك تشنج تانج وعاء كبير يستحم فيه حفر عليه ما معناه : «جدد نفسك كل يوم تجديداً كاملاً، وافعل ذلك وكرره المرة بعد المرة وداوم عليه باستمرار». واني لأدرك ما في ذلك من معنى وما له من مدلول. فالصباح يعيد الينا عصور البطولة. واني لأتأثر بطنين البعوضة الخافت، وهي تطوف بمسكني أول ما ينبثق الفجر، طوافاً غير مرئي، ولا يتصوره الخيال، وأنا جالس في البيت وبابه ونوافذه مفتوحة. فقد كنت أتأثر بهذا الطنين كما أتأثر بأي بوق يتغنى به صاحبه بمديح ذوي الشهرة والصيت البعيد. ان هذا الطنين ترنيمة لتأبين هوميروس. أنه الياذة وأوديسة معاً في الهواء تنشد أهازيج غضبها وطوافها ، وكأن فيه شيئاً كونياً . فهو اعلان دائم (الى أن حرم ومنع) عن نشاط الدنيا وعن خصبها الأبديين. فالصباح وهو خير وقت في النهار يهمني، هو ساعة التيقظ. فنحن فيه أقل ما نكون ميلاً للنعاس، وان جزءاً منا ليتيقظ فيه ساعة على الأقل ويغفو بقية النهار وطول الليل. وليس ثمة شيء كثير ينتظر من ذلك اليوم ـ ان صح أن يسمى يوماً ـ الذي لم توقظنا فيه عبقريتنا. بل يوقظنا خادم يظل يحركنا تحريكاً آلياً ـ ذلك اليوم الذي لا توقظنا فيه من باطننا قوانا ومطامحنا وآمالنا التي اكتسبناها حديثاً مصحوبة بنغمات من موسيقى سماوية، بدلاً من أجراس المصانع، وبرائحة عطرة تملأ الهواء كله بأريجها ـ توقظنا الى حياة أسمى وأنبل من الحياة التي كانت قبل أن ننام. فبمثل ذلك يؤتى الظلام ثماره، ويبرهن لنا على ما فيه من صلاح ونفع بما لا يقل عن صلاح النهار ونفعه. ان الرجل الذي لا يؤمن بأن كل يوم فيه ساعة أبكر وأقدس وأقرب الى الفجر من أي ساعة قد دنسها هو الى الآن ـ هذا الرجل يكون قد يئس من الحياة وسلك فيها طريقة هاوية منحدرة مظلمة. فبعد أن ينقطع الانسان عن حياته الحسية فترة ، تزداد روحه كل يوم نشاطاً ، أو بالأحرى تزداد أعضاؤه

قـوة، وتحيـا عـبـقـريتـه من جـديد الحياة النبيلة التي في قدرتها أن تحياها . ان جميع الاحـداث الهامـة انها تحـدث في الصـبـاح ، وفي جو من أجواء الصباح. وقد ورد في «الفيدات»(*) أن جميع الفطن وضروب الذكـاء انها تـتـيقظ وتنشط في الصباح، فالشعر والـفن وأروع أعمال الانسـان وأولاها بالذكـر، انها تبـدأ في تلك السـاعـة. فـجـمـيع الـشـعـراء وجمـيـع الابـطـال من مـثل ممنون كلهم أبناء «أورورا»، وكلهم يصـدحـون بموسيقاهم في الفجر مع شروق الشمس. فاليوم كله صبح دائم موصول لمن كانت أفـكـاره مـرنـة نـشـيـطـة تمـاشي الشـمس في مسراها. وليس بذي شأن مـا تقـول به السـاعـات، ولا مـا تنم عنه مـواقف الانسان وأشغاله. فالصباح صباح عندما أكون مـتـيـقظاً، وعندمـا يكون ثمـة فـجر في نفسي، وما الاصلاح الاخلاقي سوى الجهد المبـذول في اقـصـاء النوم عنا. فلم كـان الناس يقـدمـون تقـريراً مـسكيناً هزيلاً عن يومـهم، ان لم يكن ذلك الا أن النعـاس غـالب عليـهم ؟ فهم ليسوا بالعاجزين عن الحسـاب كل هذا العـجـز، فلو لم يغلبـهم النعاس لأنجزوا من الأعمال شيئاً يستحق الذكـر حـقـاً . فثم ملايين من الناس متيقظون يقظة تكفيهم للقيام بأعمال جسمانية، على حين لا يوجـد سـوى واحد في كل مليون متيقظ يقظة كافية للقيام بالاعمال التي تقـتضي جهوداً عقلية، كما أنك لا تجد سوى واحد في كل مائة مليون، متيقظاً للحياة الشـعرية أو القدسية. فأن يستيقظ الانسان صباحاً معناه أنه حي. اني لم أصادف قط رجـلاً متيقظاً كل اليقظة، ولو أني صادفته ـ لما عرفت كيف أنظر اليه في وجهه.

يجب أن نتـدرب على أن نوقظ أنفـسنا من جـديد، وان نسـتـبـقيها نشيطة، لا بوسـائل آليـة، ولكن بأن نتـوقع دائماً توقـعاً لا نهاية له، الفجر الذي لا يفارقنا أبداً، حـتى ونحن في أعـمق سـاعات نومنا. فلست أعرف شيئاً أكثر تشجيعاً على هذا من قـدرة الانسـان التي لا ريب فـيـها على أن يسمو بحياته وينهض بها بمجهود مقصود يبـذله وهو شـاعر به متفطن اليه. انه لحسن لاشك أن يقدر الانسان على رسم صورة خـاصـة، أو على نحت تمـثـال مـا ، وبذلك يكون قد استطاع أن يصنع بعض أشياء جميـلـة رائعـة ولكن أحـسن من ذلك وأروع أن يسـتطيع أن يصـور الوسط نفـسـه، وينحت الجـو نفـسـه الذي ينظر من خـلالهما . وذلك شيء يتـيسر له أن يقوم به من

(١) من الكتب الهندية المقدسة .

الوجهة الاخلاقية الادبية. ان قدرتنا على التأثير في نوع اليوم وفي صفته لهي أسمى الفنون كافة. فمن واجب كل انسان منا أن يعنى بجعل حياته كلها، في جميع تفصيلاتها وجزيئاتها، جديرة بأن يتأملها ويتدبرها في أسمى ساعة من ساعاته وأحرجها. فإنا إن رفضنا ، أو استهلكنا تلك المعلومات التافهة التي نحصل عليها، فإن الهواتف ستحدثنا بوضوح عن كيف يمكن أن يتم ذلك.

ذهبت الى الغابات حباً في أن أحيا قصداً وعن عمد، ولأواجه حقائق الحياة الاساسية وحدها دون غيرها؛ ولارى ان كنت لا استطيع أن أعرف ما لديها مما يمكن أن تعلمني اياه. ولم أذهب الى الغابات كي أعرف، وقد أوشكت على الموت، أني لم أحي بعد، فلست أبغي أن أحيا ما ليس بحياة. فالحياة عزيزة غالية. هذا ولا رغبة لي في الاستسلام والتوكل ، اللهم إلا إذا كان ذلك ضرورياً ولا مناص منه. لقد أردت أن أحيا حياة عميقة، امتص كل مشاشها، واعتزمت أن أعيش عيشة قوية اسبرطية ثابتة فأجتث من الحياة كل ما ليس بحقيقي ولا أصيل فيها، وأطرده عنها طرداً، وأن أضرب ضربة واسعة نجلاء فأدفع بالحياة الى ركن من الأركان فافحص عنها وادرسها وانزل بها الى ابسط معانيها وعناصرها. فاذا ما استبان لي أنها حياة دنيئة وضيعة عمدت اليها واستخرجت جملة ما بها من خسة أصيلة فيها ونشرتها على العالم كله. أما ان كانت جليلة رائعة، كان علي أن أعرف ذلك بالخبرة والعمل حتى استطيع أن أصفها وأقدم عنها تقريراً صحيحاً صادقاً في رحلتي التالية في الدار الآخرة، فيبدو لي أن معظم الناس في شك من أمرها غريب، فهل هي من عند الشيطان أم من عند الله ؟ فهم قد تسرعوا بعض التسرع واستنتجوا أن غاية الانسان في هذه الحياة أن يمجد الله ويحمده على الدوام.

ومع ذلك فما زلنا نحيا حياة وضيعة كالنمل، وان كانت الاسطورة تقص علينا أنا قد تحولنا الى بشر من زمن طويل. فنحن كالاقزام نحارب المردة العماليق، فالأمر كله غلط فوق غلط، ورقعة فوق رقعة. حتى أن خير فضيلة فينا انها تتجلى في وسط من البؤس والشقاء لا لزوم لهما، ومن الميسور تحاشيهما. وإنا لنبدد حياتنا هباء شيئاً فشيئاً. وليس الرجل الشريف بحاجة الى أن يعد أكثر من أصابع يديه العشر، وان اشتدت به الحال وتأزمت الأمور يمكنه أن يضيف اليها أصابع قدميه

العشر كذلك، أما الباقي فعليه أن يجمله اجمالاً . يا قوم ! البساطة ! البساطة ! البساطة ! اني أهيب بكم أن اجعلوا مشاغلكم بسيطة مثل ٢ ، ٣ ، لا مثل مائة أو ألف. فبدلاً من أن تعدوا بالمليون حسبكم نصف «دستة» فدونوا حساباتكم على ظفر ابهامكم. فبحر الحياة المتحضرة، المتلاطم الأمواج، حافل بالكثير من السحب والعواصف والرمال المنهالة وغيرها من آلاف الاشياء المنوعة التي يجب أن نحسب لها حسابها حتى يستطيع الانسان منا أن يحيا ، اللهم إلا ان كان يريد أن يغرق ويهوى الى القرار قبل أن يصل الى مرفأ السلامة الذي يقصده، وانه لماهر في العد والحساب حقاً، ذلك الذي يكتب له النجاح . فبسطوا أموركم وبسطوها ! فبدلاً من أن تتناولوا ثلاث وجبات في اليوم حسبكم واحدة ، ان كان لابد من وجبات. وبدلاً من مائة صنف من الطعام تقدمونها على موائدكم حسبكم خمسة، وخفضوا سائر الأشياء الأخرى بمثل هذه النسبة . لقد أصبحت حياتنا أشبه باتحاد ألماني (١) يتكون من عدة دويلات صغيرة تظل تخومها في تغير وتبدل مستمرين، حتى ان الرجل الألماني نفسه لم يعد يستطيع أن يخبرك بشيء عن حدودها في أي وقت من الأوقات . هذا ، وان الأمة نفسها ليست، على الرغم من كل ما يقال عما تم فيها من اصلاحات داخلية ـ وما هي بداخلية في الواقع، بل اصلاحات خارجية وظاهرية ضحلة ـ ليست سوى مؤسسة شائخة مترامية الأطراف، يصعب معالجة شؤونها، مزدحمة ازدحاماً سيئاً بما فيها من الأثاث، تورطت في شر أعمالها، فأهلكها الترف وأرهقها الانفاق الأخرق بغير حساب، وضيعها عدم التقدير وقلة التدبير، وعدم وجود غرض سام جدير بها تضعه نصب عينيها، شأنها في ذلك شأن ملايين الأسر والبيوت في البلاد . والعلاج الوحيد لها ـ ولهم ـ هو مراعاة الاقتصاد والتقشف، والتزام بساطة في الحياة أكبر من بساطة الاسبرطيين ، وكذلك السمو بالغرض الذي تتجه إليه. ذلك لأنها تعيش بسرعة وعجلة أكثر مما ينبغي. ويرى الناس أن الأمة يجب أن تكون لها تجارة ، فلابد أن تصدر الثلج ، ولابد من أن يتخاطب أفرادها بطريق البرق ، ويسافروا بسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة من غير شك، سواء فعلوا هم ذلك أو لم يفعلوه. أما ان كان علينا أن نعيش عيشة القردة

(١) كانت المانيا قبل اتحادها سنة ١٨٧١ تتكون من دويلات كثيرة مبعثرة غير ثابتة الحدود .

أو عـيشة بني الانسان فأمر مشكوك فيه بعض الشك. فاذا لم ننتج «فلنكات» ونصنع القـضـبـان الحـديدية، ونقضي في ذلك العمل أياماً وليالي، واتجهنا بدلاً من ذلك كله الى الـعناية بشئون حيـاتنا لنصلحـهـا ونحـسنهـا، فـمن ذا الذي يقـوم ببناء الطرق الحـديـدية إذن ؟ واذا لم تنشأ الطرق الحـديدية فكيف نبلغ السماء في الوقت الملائم ؟ ولكنا اذا لبـثنا في بيـوتنا، نعني بشئوننا الخاصة، فمن منا يريد طرقاً حديدية ؟ انا لا نركب السكك الحـديدية، بل هي التي تركـبنا. فـهل خطر ببـالك مرة ما هي تلك «الفلنكات» (١) التي توضع تحت قـضـبان السكك الحديدية؟ ان كل واحدة منها رجل ايرلندي، أو أمـريكي. فـالقـضبان انما توضع عليهم هم ثم يغطون بالرمال، وتجري عليـهم العـربات جـرياً سـهـلاً ! فهم «فلنكات» سلام، أؤكد لكم. ففي كل بضعة أعـوام توضع جماعـة جـديدة منهم في الأرض، فـيـمر عليهم القطار. فاذا كان بعض الناس يستـمـتـعون بركوب القطار فمن سوء حظ الكثيرين أن يركبهم القطار ويمر عليـهم واذا مـا مـروا فـوق رجل كـان يمشي في نومـه، بوصفه (فلنكة) زائدة وضعت في غير مـوضـعـهـا الصحيح، فأيقظوه من نومه أوقفوا العربات فجأة، وأحدثوا ضجة كـبيرة، وأقـامـوا الدنيـا وأقعدوها من أجله، كأنه كان حادثاً شاذاً. واني ليسعدني أن أعـلم أن الأمـر يستلزم فـرق من الرجـال لكل خمسـة أميـال لصـيـانة «الفلنكات» والمحافظة عليها مستوية في مواضعها، فتلك علامة على أنها قد تنهض من جديد.

ولماذا نعـيش بمثل هذه العجلة، ونضيع الكثير من الحياة سدى بهذا الشكل ؟ كأنا اعـتـزمنا أن نمـوت جـوعاً من قبل أن نجوع. يقول الناس أن عمل غرزة واحدة في ابانها يوفـر علينا تسع غـرز، ومن ثم نراهم يعـملون اليـوم ألف غرزة ليوفروا على أنفـسـهم تسـعاً في الغد. أما من حيث العمل فليس لدينا منه شيء ذو قيمة وخطر، كأنا قد أصابنا داء « الخوريا (٢) » فلم نعـد نستطيـع أن نستبقي رؤسنا هادئة ساكنة.

---

(١) «الفلنكات» هي تلك الكتل الخـشـبـيـة التي تثبت عليها قضبان السكة الحديد حتى تكون في مـسـتـوى واحد واسمها بالانجليزية Sleepers أي نـيـام . والمؤلف يتـلاعب هنا بمـدلولي هذه اللفظة : فلنكة، شخص نائم .

(١) الخـوريا أو الكوريا مـرض عـصـبي عوارضه حركات قسرية في عضلات الوجه ، (الاطراف) ويسـمي بالانجليزية عادة Saint Vitas Dance رقـصـة سـانت ويتاس . وقد يسمى في العربية بالزفن كما جاء في المخصص.

فلو أني استطعت أن اسحب حبل ناقوس الكنيسة بضع مرات كما أسحبه للانذار بحريق، لم يكد يبقى رجل واحد في مزرعته في أرباض كونكورد ـ على الرغم من ضغط ما عليه من ارتباطات ومن مواعيد كان يعتل بها ويعتذر مرات كثيرة هذا الصباح، واني لأكاد أقول أنه لا يبقى رجل ولا امرأة ـ الا وهجروا كل شيء وهرعوا الى مصدر ذلك الصوت، لا لينقذوا الأملاك من الحريق أصلاً، ولكن اذا أردنا أن نقول الحق ونعترف به، فانهم انما ذهبوا ليروها تحترق، ما دام ذلك كان أمراً محتوماً عليها وما دمنا نحن ـ وليكن ذلك مفهوماً ـ لم نشعل هذا الحريق، أو ليروها تخمد، ويكون لهم يد في اخمادها ما دام ذلك سيتم بمهارة وحذق. نعم ان الأمر لكذلك ، حتى ولو كان الذي يحترق هو كنيسة الابرشية ذاتها. فلا يكاد امرؤ يقضي نصف ساعة في النوم بعد الغداء إلا ويمسك برأسه عندما يستيقظ ويسأل ما الخبر ؟ . كأني ببني الانسان كلهم كانوا واقفين ديدبانات وحراساً عليه . ومن الناس من يتركون تعليمات بأن يوقظوا كل نصف ساعة، وليس من شك في أنهم لا غرض لهم من وراء ذلك الا سماع الاخبار، ثم يقصون علينا هم نظير ذلك ما رأوه في أحلامهم. فبعد قضاء ليلة من النوم تصبح الاخبار أمراً ضرورياً ضرورة تناول الفطور نفسه. «أرجو أن تقص علي خبراً جديداً حدث لرجل ما في أية بقعة من بقاع الأرض» ثم يقرأ عليك هو أثناء تناول قهوته وكعكاته في الفطور، أن رجلاً قد سملت عينه هذا الصباح على نهر واشيتو، من غير أن يحلم قط في أثناء ذلك أنه كان يعيش في كهف هذه الدنيا العتيق المظلم الذي لا يسبر له قرار، وأنه نفسه ليس له سوى أثر لعين واحدة.

أما من جهتي فليس أيسر علي من أن استغني عن مصلحة البريد برمتها. ففي رأيي أن قليلاً جداً من الأخبار الهامة يصلنا على يديها. والحق أني لم أتسلم في حياتي سوى خطاب واحد أو خطابين اثنين ـ كتبت هذا من بضع سنين مضت ـ كانا جديرين بما عليهما من ثمن طوابع البريد. فنظام البريد الذي جعل قيمة ارسال الخطاب بنساً واحداً ـ هو في العادة نظام يجعلك تقدم هذا البنس، جاداً غير مازح، ثمناً لافكار رجل واحد، وهو البنس الذي يقدم عادة، وفي أمان من قبيل المزاح والفكاهة. واني لواثق كل الوثوق أني لم أقرأ أي خبر ذي بال في جريدة ما. فان

قـرأنا أن رجلاً سلب أو قتل أو مات عرضاً في حادثة، أو عن بيت احترق أو سفينة تحطمت أو باخرة انفجرت، أو بقرة دهسها القطار على سكة وستون الحديدية أو أن كلبـاً مـسعوراً قتل، أو جماعات من الجنادب ظهرت في الشتاء ـ اذا قرأنا خبراً واحداً من هذه الأخـبـار لم نعد بحاجة الى أن نقرأ آخر، فحسبنا مثل واحد منها. فما دمت قـد عرفت المبدأ أو القاعدة فما حاجتك الى ألف مثال ومثال لها ؟ أو الى ألف تطبيق وتطبـيق عليـهـا ! فـالاخـبـار، في رأي أحـد الفلاسفة كلها هذر، وهراء في هراء وان الذين يذيعـونها ويقـرأونها ليـسـوا سـوى نسـوة عـجـائز يتـشـدقن بها، وهن يتناولن الـشـاي. ومع ذلك فكثيرون هم الذين يحرصـون كل الحـرص فـيما بينهم على سماع أمـثـال هذه الأخـبـار والأحـاديث الجـوفـاء . بلغني أن الناس هجـموا منذ أيام على مكتب من مكاتب البريد ليـعـرفـوا آخـر الاخبار الخارجية من آخر قادم الى المكتب، حـتى أن عـدة ألواح من ألواح الزجـاج الكبيرة التي في احـدى العمارات قـد تحطمت من جـراء مـا وقع عليـهـا من الضـغط ـ وهي أخبار أظن، جاداً غير هازل أن رجلاً ألمعـيـاً سريع البـديهة يستطيع أن يكتـبها بدرجة كبيرة من الدقة قبل أن تحدث باثني عشر شـهراً أو إن شئت باثني عشر عاماً. فمن حيث اسبانيا مثلاً، فأنت ان عرفت كـيف تضع في الجـرائد من وقت لآخـر أسماء الدوق كـارلوس والأمراء والدوق بدور وأشـبيلية وغرناطة مع مراعاة المحافظة على ما بين الجميع من نسب صحيحة ـ هذا، وربما كانت هذه الاسماء قد تبدلت بعض التبديل منذ اطلاعي على الجرائد ـ وعرفت كـيف تجـري مـصـارعـة للثيران، اذا لم تكن أمـامك وسـائل أخرى غير هذا للتسلية كنت صـادقـاً كل الصـدق فـيما قـصـصـتـه من أنباء، وأعطيتنا فكرة طيبة عن حالة الأشـيـاء في اسـبـانيـا أو في خرابها ودمارها ، كما يمكن أن يعطينا اياها أوضح ما في الصـحف عنهـا من تقـارير وأوجـزها تحت هذا العنوان نفـسه. أما من حيث انجلترا فـآخر خبر هام من هذه الجهة كان ثورة سنة ١٦٤٩ . وان أنت عرفت تاريخ غلاتها على أسـاس محصول سنة متوسطة لم تكن بحاجة أبداً الى أن تتنبه الى ذلك الشيء مرة أخـرى، اللهم إلا إذا كـان تفكيرك ذا صـبـغـة مـالية خاصة فان كان لرجل لا يقرأ الصـحف إلا نادراً ، أن يحكم ويبـدي رأيه ، فلا شيء جديد يحدث مطلقاً في البلاد الخـارجـية حتى ولا ما يقوم في فرنسا من ثورات وانقلابات.

ما الأخبار! أليس أهم من ذلك وأولى بكثير أن نعرف ذلك الذي لم يكن قديماً أبداً ؟ أرسل كيو - هي - يو، (وهو موظف كبير في دولة واي) رجلاً الى خونج تسو ليعرف أخباره، فأجلس خونج - تسو الرسول بجانبه وسأله عما يعمله سيده، فأجاب الرسول في احترام : انه يود أن يقلل عدد أخطائه وعيوبه، ولكنه لم يصل بعد الى آخرها. ولما انصرف الرسول قال الفيلسوف : «يا له من رسول خليق بالاحترام ! يا له من رسول خليق بالاحترام» ! ولننتقل الى الواعظ في كنيسته، فبدلاً من أن يصدع آذان الفلاحين الناعسين في يوم راحتهم آخر الاسبوع - فيوم الأحد خاتمة ملائمة لاسبوع أسيء استخدامه، وليس بداية جريئة ناضرة لاسبوع جديد - بدلاً من أن يصدعهم بتلك العظة الاخرى الطويلة الثقيلة، يجب أن يصرخ بصوت يدوي كالرعد «أن استأنوا ! قفوا مكانكم ! لماذا هذه العجلة السريعة في ظاهرها، والبطيئة كل البطء في الواقع ؟».

يقدر الناس الأوهام والخدع كأنها أصدق الحقائق وأثبتها، على حين أنهم يعدون الحقيقة نفسها خرافة أو اسطورة من الأساطير. فلو أن الناس لم يراعوا الا الحقائق وحدها، ولم يسمحوا لأنفسهم بأن يخدعوا، لكانت الحياة، اذا ما وزنا بينها وبين ما نعرف من الاشياء، أشبه شيء بقصة خيالية من قصص «الحور» أو من قصص ألف ليلة وليلة. فاذا ما اقتصرنا على احترام ما لا مناص من وجوده، وله حق في الوجود فعلاً، لصارت الموسيقى والشعر يسمعان في الشوارع. فان كنا مستأنين غير معجلين، وحكماء غير متهورين لادركنا أن الاشياء العظيمة والقيمة وحدها هي التي لها أي وجود مطلق دائم - وأن المخاوف الصغيرة والملذات التافهة ليست سوى ظل للحقيقة وخيال لها. أما الحقيقة نفسها فأمر جليل ومثير حقاً. أما اذا أغمض الناس عيونهم ونعسوا ورضوا أن تخدعهم المظاهر والخيالات، فانهم بذلك يقيمون حياتهم اليومية المبنية على «الروتين» والعادات في كل مكان ويزيدونها رسوخاً، ولكنها مع ذلك حياة تظل قائمة على أسس من خالص الوهم والخداع. ان الاطفال وهم يلعبون لعبة الحياة، يدركون قانونها الصحيح، ويعرفون علاقاتها الحقيقة، أوضح مما يدركها أولئك الرجال الذين فشلوا في أن يحيوا حياة حقة طيبة، ويخيل اليهم مع ذلك أنهم أصبحوا أعقل وأحكم بما حصلوا عليه من الخبرة، أي بما أصابوا من الفشل والخيبة. قرأت في كتاب من كتب الهندوكيين ان ابناً من أبناء

الملوك طرد من البلدة التي ولد فيها وهو لا يزال في نعومة أظفاره، فقام بتربيته رجل من رجال الغابات ولما كبر وبلغ رشده وهو على هذه الحال خيل اليه أنه من أبناء الشعب الهمجي الذي نشأ بين ظهرانيه، وظل على ذلك الوهم الى أن وقف أحد وزراء أبيه على جلية امره وكشف عن حقيقة حاله، فلم يلبث ان زال عنه سوء ما أدرك من نفسه وعرف أنه أمير، ثم أستأنف الفيلسوف الكلام وقال : وكذلك الروح فهي قد تنسى حقيقة ما هي عليه من صفات من جراء الظروف التي قد تجد نفسها فيها ، وتظل على ذلك جاهلة أحوالها الى أن تنجلي لها الحقيقة على يد معلم من القديسين ، وعندئذ تدرك أنها هي براهما . وفي رأيي ، أنا نحن معشر سكان نيو انجلند نحيا هذه الحياة الوضيعة، لان نظرتنا لا تتعدى ظواهر الأشياء ولا تنفذ الى بواطنها فنظن كائناً موجوداً ما يظهر أنه كذلك، فلو أن رجلاً طاف بأنحاء هذه البلدة ولم ير الا الحقيقة فما عسى تظن أن يكون مآل « ميل دام (١) » فلو أنه وصف لنا ما شاهده فيه من الحقائق ما استطعنا أن ندرك موضع ذلك المكان في الوصف الذي كتب. انظر الى ناد أو محكمة أو سجن أو متجر أو بيت من البيوت وقل لي بحقك ما عسى أن يكون هذا الشيء أو ذاك في الحقيقة اذا ما نظرت اليه نظرة فاحصة. انها كلها تنهار وتتحطم في وصفك لها. يرى الناس أن الحقيقة بعيدة نائية، وأنها تقع في أطراف هذا النظام الكوني وراء أبعد نجم منا، فهي تقع قبل آدم وبعد آخر رجل من أهل هذه الدنيا . ليس من شك في أن الابدية أمر جليل وحقيقي ، أما الأمكنة والأزمنة والظروف فكلها موجود في هذا الزمن وفي هذا المكان . والله نفسه يتجلى في هذه اللحظة حيث نحن الآن . ولن يكون أشد منه ألوهية بمضي العصور وكر الدهور كافة، وانا لن ندرك ما هو جليل ونبيل الا بدوام الحاحنا على الحقيقة التي تحيط بنا، وأن الكون كله ليستجيب دائماً لتصوراتنا، وسواء سافرنا ببطء أو بسرعة فالطريقة مرسومة أمامنا من قبل، فلننفق أعمارنا في ادراكها وتصورها، فلم يخطر بعد للشاعر أو للفنان تصميم بلغ من الجمال والنبل ما بلغه هذا التصميم، إلا وكان في استطاعة بعض من ذراريهما على الأقل أن يقوم به وينجزه.

---

(١) هو ميدان في وسط بلدة كنكورد حيث يجتمع الناس ليتحدثوا ويسمروا .

فلنقض يوماً واحداً بحسب خطة نضعها بقصد وعمد كما تفعل الطبيعة ، فلا نحيد عن طريقنا الذي رسمناه لانفسنا من أجل ما قد يعرض لنا فيه من توافه الأمور، من مثل قشرة جوزة أو جناح بعوضة، ولنستيقظ مبكرين وبسرعة ونتناول فطورنا في هدوء ومن غير اضطراب أو انزعاج، ولندع جماعة تغدو وأخرى تروح، ولندع الاجراس تدق والاطفال تضج وتصيح ـ لندع كل هذا ولنعزم أمرنا على أن نجعل من يومنا هذا يوماً حقاً ، فلماذا نستخذي ونستسلم ونجري مع التيار ؟ يجب ألا تنقلب بنا سفينتنا ، ونترك ذلك الشلال أو تلك الدوامة التي نسميها عشاء تغمرنا ـ تلك التي تقع في المواضع الضحلة عند خط الزوال ، فواجهوا هذا الخطر وانفذوا منه تسلموا ، فبقية الطريق سهلة تنحدر الى أسفل . فسيروا في طريقكم بأعصاب متينة غير مسترخية، وبنشاط الصباح، وسط خضم الحياة ، ناظرين الى اتجاه آخر، ولكن رابطين أنفسكم في السارية، كما فعل يوليسيز، فإذا ما صفرت القاطرة، فلتصفر ما شاءت حتى يبح صوتها. واذا ما دق الناقوس فما الذي يدعونا الى أن نجري ونهرول ؟ والأجدر بنا أن نفكر في أي نوع من أنواع الموسيقى هما. فلنستقر ولنعمل، ولنثبت أقدامنا راسخة، ولنخترق طبقات الأوحال ـ أوحال الآراء وضروب الهوى والتقاليد والاوهام والمظاهر الزائفة ـ تلك الأوحال التي تغطي الكرة الأرضية في لندن وباريس وبوسطن وكنكورد، وفي الكنيسة والدولة والشعر والفلسفة والدين . لنخترقها حتى نصل الى أسس صلبة ، وصخور صلدة في مواضعها نسميها الحقيقة. ولنقل هذه هي ولا خطأ. ثم بعد أن تحصل على نقطة ارتكاز تحت الماء الغامر، وتحت الصقيع والنار ـ نقطة يتسنى لك أن تقيم فيها مقياساً ما ، لا من مقاييس النبل ، ولكن مقياساً للحقيقة نفسها ، حتى يستطيع الخلف أن يعرفوا الى أي مدى بلغ سمك طبقة الأوهام والمظاهر الزائفة والاكاذيب التي تجمعت على مدى العصور من وقت الى وقت. فان أنت وقفت أمام حقيقة تنظر اليها وجهاً لوجه، رأيت الشمس تتألق على جانبيها، كأنها سيف بتار تشعر بحده الحلو يخترق فؤادك، وينفذ من نخاع عظامك ويشطرك شطرين، وبذلك تختم حياتك الفانية ختاماً سعيداً. لتكن حياة أو موتاً، فانا لا ننشد غير الحقيقة. فان كنا سنموت حقاً فلنسمع حشرجة الموت في صدورنا، ولنشعر بالبرودة تدب في أطرافنا. أما ان كنا أحياء فلنمض في سبيل شؤوننا التي اعتزمنا السير فيها.

ليس الوقت إلا النهر الذي أمضي إليه لاصيد السمك فيه ، وأشرب من عنده . ولكني عندما أشرب منه ، أشاهد قاعه الرملي ، وأدرك أنه ضحل بالغ الضحولة ، فتياره الضعيف يمر ، على حين تبقى الابدية وتدوم ، فأشرب شرباً أعمق وأصيد سمكاً في الجو المرصعة قيعانه بحصباء من الكواكب والنجوم. ولست أستطيع أن أعد واحداً منها، فأنا لا أعرف أول حرف من حروف الهجاء، ولقد كنت أتحسر دائماً على أني لم أظل عاقلاً حكيماً كاليوم الذي ولدت فيه، فالذهن أشبه شيء بشاطور القصاب يرى طريقه فيشقه الى أسرار الامور وخفاياها، ولست أبغي أن أكون مشغولاً أعمل أكثر مما ينبغي لي أن أعمل، فرأسي هو يداي وقدماي، وأشعر أن جميع قدراتي ومواهبي مركزة فيه. وتدلني فطرتي على أن يدي ليست سوى عضو للفحص والتنقيب، استعملها كما تستعمل بعض المخلوقات خراطيمها ومخالبها الأمامية. فأنا أستطيع أن أشق طريقي برأسي وأحفره خلال هذه التلال. ومن رأيي أن أغنى عرق في الارض انما هو في مكان ما، هنا ـ هنا في ناحية من هذه النواحي. وهكذا أستطيع بوساطة عصا الاستنباء وبالابخرة المتصاعدة أن أحكم على الأشياء وأبدي رأيي فيها. فهنا في هذا الموضع أبدأ في الحفر والتنقيب عن المعدن الثمين.

١٨٥٤

سارة مارغرت فُلَرْ
(١٨١٠ ـ ١٨٠)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

من ألمع نساء القرن التاسع عشر في أمريكا . تبنت الفكر النسوي مبدءاً ومسلكاً وقد تمكنت من فرض العديد من أفكارها ومبادئها على الرغم من المعارضة والمضايقة التي تعرضت لها. كانت ناقدة اجتماعية وكاتبة صحفية وشاعرة ومحررة ومترجمة. وقد عاشت حياتها منذ طفولتها في نشاط فكري منقطع النظير.

حياتها :

ولدت في الثالث والعشرين من أيار عام ١٨١٠ في كيمبردج بورت في مستشوستس . كانت أمها تعاني من ضعف ومرض ، فتولى أبوها ، الذي أمتهن المحاماة بعد تخرجه من هارفرد والذي كان عضواً في مجلس شيوخ مستشوستس وناقداً اجتماعياً، تربيتها هي واخوتها. وقد أعد لها والدها منذ الصغر برنامجاً دراسياً صارماً، تضايقت من زخمه في كثير من الأحيان. فقد بدأت دراسة اللغات والآداب الكلاسيكية في سن السادسة، ودرست شكسبير في سن الثامنة. وقد كان لذلك انعكاس ايجابي على فكرها وقدراتها العقلية وخلق منها فيما بعد كاتبة ومفكرة على درجة من التميز والابداع ؛ بيد أن ذلك النبوغ الفكري المبكر قد حرمها من التمتع بطفولتها وقد أورثها بعض الاوجاع النفسية، وعزلها عن المجتمع، وخصوصاً المجتمع النسائي، بعض الشيء.

التحقت في مدرسة ريفية في غروتن، لكنها عادت الى البيت تتابع الخطة الدراسية التي

أعـدها لها والدها عـام ١٨٢٤ . وقد كانت تتمنى دخول جامعة هارفرد التي كانت على مقربة، بيد أن الجـامـعـة لم تكن تفتح أبوابها للاناث. لكنها حظيت بصحبة عدد من المثقفين ورجال الفكر من أصـحـاب أبيـهـا. وقـد عـاشت في شبه عزلة فترة من الزمن. لكنها في العشرينات والثلاثينات من القـرن، تعـرفت الى العـديد من الأدباء والكتّاب. وتعلمت اللغـات الاورويـة الحـديثة، وبخاصة الالمانية.

توفي والدها فـجـأة عـام ١٨٣٥ ، واضطرت أن تعـمل في مجـال التـدريس كي تعيل أفراد عائلتها . طلـب منها عـام ١٨٤٠ تحـرير مجلـة **الدّيل Dial** فقامـت بتلك المهمة على خير وجه لمدة عـامين . تسلمـهـا بعدها إمرسن ، فقامت بمساعدته . وقد نشأ بينها وبين إمرسن صداقة حميمة لسنوات. زارت الوسط الأمـريكي عـام ١٨٤٤ فـتـوسعت مداركها وعظم المامها بالثقافة الأمريكية؛ عـملت في عام ١٨٤٤ في جريدة نيويورك تربيون ، وقد كان ذلك حدثاً مهماً . وقد قامت بمهامها الصـحفية بابداع وتميز.

سـافـرت الى اوروبا عـام ١٨٤٦ وتعـرفـت الى كـارلايـل ، الكاتـب والمفكـر الانجليزي . ثـم تعـرفت الى مـازيني وناصرته في ثورته لتـحـرير ايطاليـا . تعـرفت الى أحـد النبـلاء الايطاليين وأحـبـتـه وتزوجـتـه وانجـبت منه ولداً . بيـد أنها غرقت هي وزوجها وطفلها عام ١٨٤٨ في طريق عودتها بحراً الى امريكا.

أهـمـيـتـهـا :

هي من رواد الحـركـة النسـوية ، دافـعت عن حـقـوق المرأة بقـوة ، وكتبت بعمق وجرأة. ولقـد قـامت باختراق السـاحـة الادبيـة الأمـريكية التي لم تعتد في حينه على رؤية امرأة تخوض غمار الحـيـاة العـامـة. وقـد احـتـملت الكثير من النقـد من كـتـاب وأناس لم يستسيغوا فكرة وجود امرأة تزاحم الرجـال في عـالم ذكـوري. وتنبع أهميـتـهـا كـذلك من كتاباتها المتعددة في أمور الحياة العامة والثـقـافـيـة والأدبيـة والاجتماعية. ولقد تركت مجموعة مقالات لا تعد ولا تحصى. وكتاباتها ضرورة لا غنى عنها في فهم الفكر النسوي وفهم المجتمع الأمريكي في تلك الحقبة المهمة.

المرأة في القرن التاسع عشر

ترجمة : د. أحمد يعقوب المجدوبة

[القرن التاسع عشر قرن تحرر. ومن هنا فقد ظهرت مجموعة من الأدباء والكتاب الذين أخذوا يركزون، فيما يركزون، على حقوق المرأة وواجباتها. تنبع أهمية هذا النص من محاولته إعادة تحديد وتعريف العلاقة بين الرجل والمرأة في ضوء معطيات العصر الجديدة. وهو يمثل فكر العديد من أتباع الحركة النسوية وأنصارها. وتعتمد الكاتبة على الفلسفة والمنطق في طرح معطياتها، محاولة أن تكون مقنعة، دون أن تتسبب في اغضاب المجتمع الذي كان ما يزال فيه أناس محافظون في نظرتهم لعلاقة الرجل بالمرأة. وفي هذه المقتطفات العديد من مبادىء الحركة النسوية المعاصرة في أمريكا والغرب] .

المحرر

الانسان كائن ازدواجي في علاقاته ، مع الطبيعة في الأسفل ومع العقل في الأعلى . الأرض هي مدرسته ، إن لم تكن مسقط رأسه ؛ والإله غايته ؛ والحياة والفكر هما الوسيلة التي بها يفسر الطبيعة ويرنو الى الإله .

جزء فقط من هذا الهدف يتحقق في حياة أي انسان واحد. وتحقيقه كاملاً لا يُؤمل أن يتم الا من خلال مجموع حياة الأفراد، أو حياة الانسان ككل.

ولأن لهذا الكل روحاً واحدة وجسداً واحداً ، فإن أي خدش أو تعطيل لأي جزء أو للعضو الأقل يؤثر لا محالة على الكلّ . فالانسان ككل لا يمكن أن يكون سعيداً سعادة مطلقة الا اذا كان كل الناس كذلك.

وللتعامل مع الانسان بحكمة، لا يمكن أن ننسى أن طبيعته حيوانية في جزء منها، عرضة لمثل القوانين التي تكون الطبيعة بشكل عام عرضة لها.

لكن لا يمكن التعامل معه بحكمة كذلك إلا إذا اعتبر ــ بدرجة أكبر ــ روحاً، إلا اذا تم الاعتراف بكيان الروح ومصيرها.

والانسان في نموه ثنائي، ذكري وانثوي.

واذا ما أردنا تمييز هاتين الطريقتين، نقول بأنهما كما يلي :

الطاقة والايقاع

القوة والجمال

العقل والحب

وهذا تصنيف فيه شيء من الإجحاف، ذلك لأنه لا تتوفر لدينا لغة على درجة من البدائية والنقاء تمكننا من التعبير عن مثل هذه الأفكار بدقة.

ويفترض أن يتم التعبير عن هذين الجانبين من خلال الرجل والمرأة، وذلك بدرجة أقل أو أكثر، حيث لم تعط الملكات نقية لأي منهما، بل رجحت في أحدهما على الآخر. وهنالك حالات استثنائية بعدد هائل، مثل الرجل الذي يكون أكثر جمالاً منه قوة، والعكس صحيح. وبوجه عام، يبدو أن النية هي أن يرجح في جانب ما يسمى بالذكر، وفي الجانب الآخر ما يسمى بالأنثى.

ومما لا ريب فيه أنه لو كان هذان الشقان في انسجام تام، لكمّلا وعززا بعضهما مثل نصفي الكرة، أو مثل نغمتين متوازيتين (*) في معزوفة موسيقية.

لكن ليس هنالك انسجام تام في الطبيعة الانسانية؛ ويستجيب القطبان لبعضهما فقط بين الحين والآخر. واذا كان هنالك تناغم متواصل، فهو يتم بين فترات متباعدة، بدل أن يكون مثل لحن متسق.

ما السبب، يا ترى ؟

الرجل أتى في البدء ، في سلسلة التطور الزمني ؛ مثل مجيء الطاقة قبل الايقاع، أو القوة قبل الجمال.

(*) أو أداتين ، كالكمان والطبل مثلاً، تُعزفان بنفس الزخم .

لـذلـك أضـحت المرأة في كنفـه باعـتبـاره يكبرها. وكـان يمكن أن يكون هو راعـيها ومعلمها.

لكن وبما أن الطبـيعـة البشرية لا تسير قـدماً بل في مسار متعرج بفعل أعمال متطرفـة وردود فـعلهـا ، فـقـد أسـاء فهم مزاياها وأساء استغلالها ، فأصبح سيدها الدنيوي بدل أن يكون أباً روحياً لها.

وعلى نفسـه جنى. لقـد ربّـى المرأة لتكون جـارية بدل أن تكون ابنة، فـوجد نفسه ملكاً بلا ملكة.

وقـد أبدى أطفـال هذا الرباط غير المتكافىء طبـائع غير مـتكافئة، ومع مـرور الأيام بدا الرجـال وكأنهم أبناء جارية لا أبناء أميرة.

وفي الـنـهـاية كـان هنالك عـدد لا يحصى من الاسماعـيليين (*) ، مما أخـاف الآخـرين وأغـضـبهم. ولقد وضعوا اللوم على هاجر ونفوها الى الصحراء .

لكن ذلك لم يقلل من عدد الاسماعيليين .

وفي النهـاية أصـبح الرجال أكثر حكمة فتبينوا أن الرضيع موسى قد انقذته في كل مـرة الغريزة الطاهرة النابعة من صدر المرأة. لأن شدة النوائب أكثر ملاءمة لخلق البشر من قـوة الازدهار ، فلقـد كـان اخـفاق المرأة أقل من اخفاق الرجل ، مع أنها بقـيت في وجوه أخرى مثل طفل يمشي معتمداً على غيره (**) .

ولذلك فـقـد ازداد الرجل شيئاً فشيئاً انصافاً لها، وازداد رفقاً بها.

بيـد أنه، وبسـبب فـساد عاداته وارادته السابقة، لم يستطع أن يرى بوضوح أن المرأة هي نصف نفسـه، وان اهتمامـاتها تطابق اهتمامـاته، وأنه بحكم قـانون كـيانهما المشترك لا يستطيع أن يحقق أقصى طاقاته اذا بقيت محرومة بأي شكل كان.

واسـتـمـر هـذا الحـال لـيومنا ؛ وبقـيت الفكرتان في التطور ، لكن أبطأ من تطورهما في ظل اعتراف أوضح بالحـقـيـقـة والعدل يمكّن الجنسين من التمتع بتأثيرهما

(*) نسبة الى سيدنا اسماعيل والذي ينظر إليه الغرب المسيحي على أنه الابن غير المرغوب فيه .

(**) كان البعض يعلم الطفل المشي عن طريق ربطه بما يشبه الحبل أو الشريط .

الملائم في بعضـهما وتطورهما المشترك بناء على عـلاقات أكثر وقاراً .

وكلما كـان هنالك حب نقي، اسـتـعادا تأثيرهما الطبيعي ولو لفترة وجيزة.

وكلما عبّـر الشـاعـر أو الفنان بحـرية وابداع عن نفـسـه ، كلما رأى الحـقـيقة وجسّدها في أشكال لائقـة ، ذلك أن مـثل هؤلاء الرجال يشتركون بالعنصر الانثوي ويحتـاجـون إليـه . فالطيور المقدسة بحاجة الى أن تباشر حياتها وغناءها في ظل حنان أمهاتها .

وكلما أخـذ أيّ دين مجراه (وأقـصـد بذلك التـعطش للحقيقة والخير ، لا حب الطائفـة والمبدأ النظري) تُفهم الغاية الأولى ببساطة ويسود اليمامة احساس لطيف على جذع دَدونا .

إنني أحـاول أن أبين هنا أنه لم يخلُ عصر قط من شـواهد المساواة بين الجنسين في الغـاية والواجب والأمل.

وكـذلـك فـإنه عندمـا كـان هنالك عـدم اسـتـعـداد أو جـهل يمنع ذلك من الحـدوث، لم تضـعف قـوة المرأة ورغبتها في ظهور الحق والحرية. لكن القوة هي التي آذتهـن وآذت أولئك الذين أشـهـرن عليـهم سـلاح اسـتـعـبـادهن ـ الدهاء والتـملق والعاطفة اللامنطقية.

لـقـد آن الأوان لامـكـانـيـة أن تصير الرؤية أوضح والفـعل أفـضل ـ أن ينظر الرجل والمرأة الى بعـضـهما كأخ وأخت ، عـمـودين لسقف واحد، ناسكين في معبد واحد.

لـقـد آمنت ونوهت أن هذا الأمل سـوف يؤتي أكله اليـوم في بلدنا أكـثـر بكثير من ذي قبل.

وسـوف يتم ذلك اذا مـا قـام البلد بتطبـيق المبادىء التي انبثقت منها تطلعات الأمة.

إنني أومن أن النساء أفضل من يسـاعدن أنفسـهن في الوقت الحاضر .
ليفكرّن؛ ليفعلن، حتى يتعرفن على ما يردن.

إننا نطلب من الرجـال أن يقـومـوا بإزالة الحـواجـز المفتعلة. البعض يرغب في أكـثـر من ذلك. لكنني أظن أن على بعض النسـاء اظهار أنفسهن في حلل كرامتهن النابعـة من تراب الوطن ليـعلمـوهم كـيف يسـاعـدوهن، ذلك أن عقولهم قد سيطر عليها العُرف . . . .

تسألون ، مـاذا ستـفعل بالحرية التي كُبتت وكُبِّـلت لفترة طويلة ؟ أقول أولاً أنها سـوف لن تعطى فجأة . . . . وحتى لو افترضنا أن الحرية ستأتي فجأة، فإنني لا أخـاف العـواقب . قـد يقترف بعض الأفـراد أفـعالاً متطرفة ، لكن ليس في الجنس تقـديس للالتـزام والحـدود المتـوارثة التي تقـوى جـيـلاً بعد جيل فحسب ، والتي لن تمحـوها أيّ أنماط حـيـاة أخـرى ، بل حب غـريزي في المرأة كـمـرأة . . . . واذا ما سألتـمـوني عن الوظائف التي يمكن أن تتـبـوأ، أجـيـب ـ كلها . لا يهمني أي مثال تضربـونه ؛ دعـوها تكون ربان سـفـينة ، إن هي شـاءت . لا أشك في قـدرة بعض النساء على اشغال مثل هذه الوظيفة . . .

انني أطالب المرأة بالاسـتـقـلال عن الرجل ليس لايمان مني بأن الجنسين ليسا بحـاجة ماسة الى بعضهما ، بل لأن هذه الحقيقة قد ولّـدت في المرأة ولاءً مبالغاً فيه، فـفتر الحب وهبط مـفـهـوم الزواج، ومنع كل جنس من أن يكون كما يجب أن يكون مع نفسه أو مع الأخير.

أريـد مـن المرأة أن تعـيش أولاً لأجل الإله. عندها لن تصنع من رجل ناقص إلهـا وتغرق في عبادة الأصنام. عندها لن تقوم بما لا يلائمها بسبب ضعف أو فقر. حـينهـا عندمـا تكتـشف مـاذا ستحتاج من الرجل حقاً، ستعرف كيف تحب وكيف تكون أهلاً للحب.

عندما تكون أكثر روحاً، لن تكون أقل انثوية، لأن الطبيعة تكتمل بالروح.

اليوم لا يوجد أمرأة، بل طفلة كبيرة فقط ....

١٨٥٥

هنري وادزورث لنغفلو
(١٨٠٧ ـ ١٨٨٢)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

يمكننا القول أنه لم يحظ شاعر أمريكي بالشهرة التي حظي بها لنغفلو في عصره. أن يتبوأ روائي أو خطيب أو محاضر مكانة مرموقة في المجتمع الأمريكي، هو شيء طبيعي؛ أما أن يتبوأ تلك المكانة شاعر، يجلّه عامة الناس وتقدسه المؤسسات الاجتماعية المختلفة، فهو شيء غير طبيعي. لقد أسهم في دفع عجلة الأدب الأمريكي وبشكل ملحوظ من خلال غزارة أشعاره، ومن خلال مطالعاته في الآداب الاجنبية وهضمها وصياغتها في قالب محلي . كان أول شاعر أمريكي يوضع له تمثال في دير وستمنستر في بريطانيا .

حياته :

ولد في بلدة بورتلند في مين في السابع والعشرين من شباط عام ١٨٠٧ . وقد كانت عائلته متوسطة الحال. دخل أكاديمية بورتلند حتى يتأهل لدخول جامعة باودوين والتي تخرج منها (أي الأخيرة) عام ١٨٢٥ بعد أن درس فيها مع هوثورن. ولقد ظهر لديه ميل مبكر نحو كتابة الشعر ، ونشر أول قصيدة له عندما كان في الثالثة عشرة من عمره . حصل بعد تخرجه على بعثة تؤهله التدريس في باودوين بعد أن يمضي فترة دراسة وتدرب في أوروبا . وبالفعل زار أوروبا عام ١٨٢٦ وأقام في اسبانيا وايطاليا وفرنسا والمانيا بهدف دراسته اللغات والآداب الاوروبية الحديثة.

عاد الى أمريكا عام ١٨٢٩ ودرّس في باودوين لمدة ست سنوات ، كتب خلالها دراسات

على درجة من الأهمية في الآداب الاوروبية وحرر بعض المناهج. تزوج عام ١٨٣١ ، ثم بدأ فترة تدريسه في جامعة هارفرد (عام ١٨٣٦) والتي استمرت حتى عام ١٨٥٤ . قام وقبل بدء السنة الأولى في هارفرد برحلة علمية الى اوروبا ليتعمق في الآداب الاسكندنافية والالمانية، وتوفيت زوجته نفس العام.

كانت الفترة الواقعة بين ١٨٣٩ ـ ١٨٤٢ أخصب فترات انتاجه . فقد نشر ديوان **أصوات الليل** الذي جلب له شهرة واسعة وديوان **هايبيرين** وغيرها . زار اوروبا عام ١٨٤٢ بهدف التعمق في دراساته . تزوج للمرة الثانية عام ١٨٤٣ . بنى علاقة حميمة مع هوثورن ومع العديد من رجال الفكر والأدب في عصره بحكم شهرته وبحكم موقعه في هارفرد.

استقال من هارفرد عام ١٨٥٤ ليتفرغ للكتابة ، ونشر عام ١٨٥٥ نشيد **هيواثا** . توفيت زوجته الثانية حرقاً عام ١٨٦١ فأورثته حزناً شديداً. ترجم بعدها الكوميديا الإلهية لدانتي وكتب العديد من القصائد التي استوحاها منها . في العشرين سنة الأخيرة من حياته كتب أشعاراً أكثر نضجاً وعمقاً . توفي عام ١٨٨٢ .

أهميته :

لم يعد للنغفلو اليوم المكانة التي تبوأها في عصره. ذلك أن شعره فقد الكثير من سحره عندما أخذ القراء والنقاد يقارنونه بغيره. ويرجع ذلك فيما يرجع من أسباب الى اسلوبه الخطابي التثقيفي الذي يكون أحياناً على حساب اللمحة الفنية والى النزعة العاطفية فيه. فالقارىء الجيد والناقد ثاقب النظر تغريه الفكرة العميقة، ويغريه القالب الفني، أكثر مما تغريه الفكرة الواضحة والقصة العاطفية. لكن اسلوبه كان النمط المسيطر في ذلك العصر الرومانسي الذي ركز في جزء منه على العاطفة وعلى الاسلوب القصصي التثقيفي. ومع ذلك فلأشعاره الغزيرة أهمية فنية وفكرية. ويعد لنغفلو من أمهر كتاب القصيدة الروائية ومن أهم من قدم أفكاراً من خارج أمريكا. وقد أعجب به هوثورن وامتدحه، في الوقت الذي ذمّه بو .

من

نشيد هيواثا (*)

[لعل أفضل تقديم للقصيدة ما كتبه المترجم نفسه :

« يوم راد كولمبوس شمالي القارة الأمريكية كانت تلك الاصقاع ما تزال زاخرة بملايين البشر من الهنود الحمر. وأخذ عددهم بالنقصان أمام تيارات جارفة حتى بلغ في السنين الأخيرة بضع عشرة آلاف، فنُمي الى أفكار الناس وجرى على ألسنتهم أن تلك القبائل المتأخرة المنكودة الحظ كادت تنقرض نتيجة عسف مقصود من الغزاة البيض، فجهلوا أو تجاهلوا العوامل الأخرى التي آلت الى ما حلّ بها من دثار. وإني لعلى تأييد الحق لا أنكر ما كان للمرتزق الأبيض من تأثير على حياتها اذا استغلّ سذاجتها الفطرية فبادلها ابخس السلع بأغلى الأثمان والرهون وعوّدها من أسباب السّكر والميسر ما عزّ عليها أن تتحمله وغذّى أحقادها وثاراتها بالفتّاك من السلاح، فجاء كل هذا مساعداً للآفات الأخرى التي تنتاب الشعوب المتأخرة من مرض وفقر ووهن عن مقاومة الشدائد الطبيعية، ولكن العامل الأكبر في اضمحلال تلك القبائل، كما هو ثابت تاريخياً وعلمياً، وكما هي الحال في واقع كثير من الأمم، انما كان تلاشيها في ميعة الحضارة الغامرة التي يذوب اليها ما كان قابلاً للتحضير ويفنى أمامها ما عجز عن البقاء ، وذلك ما حدث لهنود أمريكا الحمر، فان العمران جرفهم في تياره العنيف وصهرهم ببوتقته الحامية فضاعوا في حياة أمريكا مثلما يضيع القليل في الكثير والضعيف في القوي، ولكن بعد أن خلّفوا اسماءهم على عدد من ولايات أمريكا المتحدة ومدنها وقراها وأنهارها وجبالها، وهي الأسماء التي تُعرف بها حتى اليوم .

وكانت لا تزال لهم بعض المميزات القبائلية يوم شغف الشاعر لونغفلو بالثمين الممتع من عاداتهم وتقاليدهم واساطيرهم فاختار لقصيدته بطلاً اسمه هيواثا (مُجري الانهار) زعيم قبيلة الاونونداغا الذي عاش في القرن السادس عشر واشتهر برجولته وحبّه للسلام وتوحيد كلمة القبائل المتحاربة والدعوة الى التقدم والعمران، واليه يعزى الفضل في زراعة الذرة والطبابة بالعقاقير وعلم الكتابة الصورية. واقترنت الحقائق التاريخية بالخيال فدوّنها لونغفلو كما وردت في عرف قبيلة الاجبوي التي سكنت الشاطىء الجنوبي من بحيرة سوبيرير في ولاية ويسكونسن (بلاد الجبال الزرقاء) .

(*) أخذت هذه المقتطفات من **نشيد هيواثا** ، ترجمة منح الراسي (بيروت : نوفل ١٩٥٥) .

ووافق تفهم الهنود وتحسسهم مواطن الجمال في الطبيعة ما كان في نفس لونغفلو من حب لتلك المواطن فاسترسل في وصف البحر والغاب والسماء وحالاتها في مختلف الفصول، وأنطق الحيوان والطير والشجر والأسماك والنهر، وجسّد الرّياح وقوى الخير والشر على غرار ما جاء في أساطير الأمم منذ أقدم العصور. وعبرّ عن نزوات وتصرّفات عشائرية تسفّ أحياناً لتُصبح صبيانية ساذجة ثم تسمو الى أعلى مراقي الخيال والجمال والحكمة، ولكن تربط هذه كلها روح جدية نبيلة هي التي احلت لونغفلو مكانته بين شعراء العالم وجعلت من نشيده رائعة لا يستسيغها الاحداث فحسب ـ كما يزعم الكثيرون، بل كل من يتذوق الشعر والأدب »] .

توطئة

إن تَسلْ مِن أين لي هذي الأساطيرُ القديمة
والِحكاياتُ التي يعبُق طيبُ الغاب منها
وشذا الروض وفيها رَطب أنداء المروجِ
ودُخانٌ صاعدٌ في الجوّ من تلك َالخيامِ
ودَويّ النهر في الأغوار أصداءٌ ترامَت
كهزيم الرّعد ما بين التِلال الشاهقات
● ليتَ شعري إنها جاءت من القفر البعيد
إنها جاءت من الآجام في أرض الشمال
من بُحيرات بها تُعكس ألوان السماء
من بلادٍ حَلَّها قومُ الأجبوي (١) القانَصونا
من بلاد حلها قوم الدّكوتاه (٢) الكُماةُ
من جبالٍ وقفار وسهول ووهادِ
حيث طير الواق يأوي يرتعي حبّ الهشيم
● دونك القصة مني، مثلما بُلغت أروي

(١) "Ojibways" القبيلة التي ينتمي اليها هيواثا .
(٢) "Dekotahs" القبيلة التي تنتمي اليها مينهاها .

مثلما أدلى بها ذاك المغني نوداها (١)
مطرب الأنفس ذو القيثار والصوت الجميل.
إن تسلْ من أين جاءت للمغني نوداها
أغرب الأخبار عن تلك البراري والشعوب
ليت شعري من عشوش الطير في الغاب النضير
من خطى الجاموس أو مكمن قندور جفول (٢)
من ذرى القشعم (٣) ما بين الصخور الشاهقات
هكذا القمري غناها له بين الظلالِ
هكذا انشدها الزقزاق يزهو باختيالِ
ورواها مالك ذو الساقِ والوجهِ الحزينِ
وقطاة رددتها بين شجوٍ وهديلِ
● أن ترى الإسهاب فرضاً أو تقلْ من نوداها
فإليك العلمَ بالإسهاب عن هذا المُغني :
كان هذا ساكناً عند المجاري والمراعي
في مدى الوادي الذي اسموهُ وادي توسنثا (٤)
حيثُ قامت قريةٌ هنديةٌ بين حقول
تترامى بعدها الغابات خضراء الإهابِ
تكتسي اثوابها البيضاءَ أيام الشتاء
وعويل الريح فيها رجع ضحك وبُكاء
ومجاري الماء في الوادي كآثار البنانِ
جدولٌ حفت به الحلفاءُ أيامَ الربيع
وصفوفُ الحورِ فصلَ الصيف حراسٌ عليـهِ

(١) "Nawadaha" .
(٢) أو القندس، حيوان مائي أحمر اللون تتخذ منه الفراء.
(٣) النسر .
(٤) "Tawasantha" قـرب نهر الهدصون في ولاية نيويورك .

وسديم (١) ناصع يكسوه إبان الخريف
وقماطٌ اسودٌ يعلوه أثناء الشتاء
كلها تشهدُ في آثارها عن توسنثَا
بلدِ المطرب ذي القيثار والصوت الجميل
أبداً يصعد في الإنشاد وجداً وزفيراً
كزفير الريح ما بين الغصون اليانعات
● هكذا حدّث عن عالي السجايا هيواثا
ذلك الشهم الذي عانى من الدنيا عذابا
بين صوم وصلاة وجهادٍ ونضالِ
كي ينجي شعبه من ربقة الجهل السخيفِ
وليهديهم سبيل النور والعيش الرهيفِ
● إن تكن تعشق ما في الكون من حسن وسحرِ
أو تكنْ تعشقُ نور الشمس يزهو في البطاحِ
أو تكن تعشق أفياء الرّوابي والوهادِ
أو تكن تعشقُ عصف الريح في حالي الغصونِ
أو تكنْ تعشق هطل الغيث أو نسف الثلوجِ
وهدير النهر والشربين يكسو ضفتيه
وهزيم الرعد يحكي في صداه خفق جيش
من نسور تتنزى (٢) في ذراها السامقات
فاستمع ما جاء في أسطورتي عن هيواثا .
● ان تكن ممن يحبون التقاليد القديمة
والأناشيد التي تأتي إلينا من بعيد

(١) الضباب الأبيض .

(٢) تتوثب .

مثل همسٍ ترجع الاسماع عنه حائرات
وهي لا تدري أشعراً كان هذا أم غناء
فاستمع ما جاء في أسطورتي عن هيواثا
● أيها المؤمن بالله وبالحب الكبيرِ
وبما في الناس من خير وشوق وطموحِ
لبلوغ الحق مهما عز عن كُنه وعلمِ
فيمدون الى الله يميناً في الظلامِ
ليقويهم ويهديهم الى سبل السلامِ
خذ بما أدلى به ذاك المغني نوداها
واستمع ما جاء في انشاده عن هيواثا
● وإذا أدى بك التجوال في الأرياف يوماً
لضريح وارف الأفياء ما بين القبور
وعليه أثرٌ عاف لتأبين بسيط
فاض إحساساً وايماناً بدنيا وخلود
فتمهل وتذكر قصتي عن هيواثا.

١ ـ غليون السلام

في ذرى تلك الجبال الشم، في تلك الأعالي
قامَ جبارٌ على عرشٍ من الصخر الصميم
كيتشي مانيتو (١) الشديد البأس وهّاب الحياة
واستوى يدعو اليه الناس من شتى الشعوب
● خطّ للأنهار مجراها بمر من بنانِه
فجرت تنساب ما بين الفيافي والمروج
ثم تهوي مثل شُهب ساقطات للحضيض
● كسر الجبارُ من صخر كبير بيديه
رأس غليون وحلاه بأنواع النقوش
وانتضى من قصب الغاب له عنقاً طويلاً
وحشاه بلحا الصفصاف (٢) ممزوجاً بورد
وانحنى ينفخ في الأشجار فاصطكت وشبت
شعلةٌ لما رآها الناس هبوا واجمينا،
واستوى جبارهم ينهل غليون السلام
مصعداً في الجو عاموداً كثيفاً من دخان
يملأ الآفاق غيمًا، حاجباً وجه السماء،
إذ رآه الناسُ جاؤوا من أقاصي توسنتا،
من أقاصي توسكالوسا (٣) من قفار ووهاد

(١) "Gitche Manito" إلهٰ الحياة .
(٢) كان الهنود يستسيغون قشر الصفصاف وورق الورد على الرغم من معرفتهم للتبغ .
(٣) "Toscaloosa" مقاطعة جنوبي خليج المكسيك .

من سهول وجبال، من جنوب وشمالِ
من شيوخ حكماء، ورجال أقوياء،
حسبوا إيماءة الجبار أمراً فتنادى
بعضهم بعضاً وأموا جانب الصخر الصميم ،
وبهم غصت رحاب الأرض من شرق وغربِ ،
كلهم معتمرٌ ريشاً كأجناح النسور
وعلى أكتافهم تلمع آلات القتال
وعلى أحقائهم ترقص أكنان النبالِ.
● صبغوا الأوجه ألواناً كأوراق الخريفِ
يستطير الشر من ألحاظهم ناراً وتغلي
في طواياهم (١) عداوات وأحقادٌ قديمةْ
فانجنى رفقاً عليهم، باسطاً كف التآخي
كيتشي مانيتو الشديد البأس وهّـاب الحياةِ
صاح فيهم زاجراً آناً، وآناً مستعيداً
لهجة الارشاد والانذار بالصوت الجليل :
● إيه أبنائي، اليكم حكمتي فاعتبروها
واقبلوا انذار سلطان الورى ربّ الحياة.
إنني اعطيتكم للصيد غاباً ومياهاً
مثلما اعطيتكم دباً وقندوراً ووعلاً
وملأت الجو والأنهار أسماكاً وطيراً
فلماذا ليس يرضيكم من النعمة شيءُ
ولماذا يفتك الواحد منكم بأخيه ؟

---

(١) ضمائرهم .

ساءني منكم خصامٌ واقتتالٌ وانتقامُ
لا تظنوا أن في هذا لكم أي انتصار
إنما كل قواكم باتحاد ووئام
وعليكم خطرٌ أعظم به عند انقسامِ
فـانشدوا السلمَ وعيشوا مثل اخوانٍ كرام.
سوف يأتيكم نبي مرسلٌ مني ليسعى
باتحادٍ ووئامٍ وخلاصٍ للشعوب
فاذا كنتم له خيراً فمنكم وإليكم
واذا كنتم له شراً فمنكم وإليكم
فانزلوا في النهر حالاً واغسلوا الأحقاد عنكم
وادفنوا كلّ متاع الحرب في بطن الترابِ
واقطعوا من مقلعي صخراً ومن غابي نضوبا
واصنعوا منها غلايين التآخي والسلام
ثم عيشوا بعد هذا مثل اخوان كرام» .

● نزع الأبطال عنهم كل ثوب ومتاع
وهوت أجسادهم في لجة الماء النّمير
فجرت من بعدهم حمراً باصباغ الوجوه
وانحنى الجبار من أعلى ذراه بابتسام
إذ رآهم نزعـوا عنهم طلي الحرب وراحوا
عُزلاً عارين إلا من غلايين السلامِ
ألبسوها أجمل الريش وعادوا للديار.
واختفى الجبار عنهم بين أستار السحابِ
صاعداً في موكب المجد لأبواب السماء .

١٨٥٥

مختارات من

الكوميديا الإلهية

ترجمة : د. أحمد يعقوب المجدوبة

وفاء عوني الخضراء

[وجد الشاعر بعد وفاة زوجته الثانية عام ١٨٦١ عزاء كبيراً في قراءة وترجمة رائعة دانتي، الكوميديا الإلهية . وقد أوحى له حزنه كما أوحت له ملحمة دانتي بالأفكار التي جسدها في مجموعة من القصائد القصيرة ، وهي من النمط المسمى سونت Sonnet والذي هو نمط ايطالي في منشئه ، بدأ بها مجلدات الملحمة المترجمة. والقصائد محاولة للتعبير عن الحزن والتخلص من الألم والبحث عن الأمل والخلاص] .

المحرر

- ١ -

رأيته مراراً أمام مدخل الكنيسة ،

عاملاً يتوقف في الغبار وفي الحرّ الشديد

يلقي أعباءه، وبمشية الهوينا

يدخل ويبدأ الصلاة مشيراً بيده ، ثم يركع

ويردد « أيها الأب » ،

تنحسر ضوضاء الدنيا بعيداً ،

وتختلط أصوات الشوارع

لتصير كتلة من صخب مبهم.

وهكذا ، عندما أدخل هنا يوماً بعد يوم ،

وألقي أعبائي أمام المعبد
راكعاً في صلاتي غير آبه بشيء،
يُمسي غم الحياة المزمجر
خريراً مبهماً ثم يتلاشى ،
تاركاً عصور الخلد ترقبُ وتنتظرُ

. . . .

- ٦ -

يا نجم الصبح، يا نجم الحرية !
تأتي بالنور الذي تضيء روعته
هضاب الأبنوس المعتم ،
تبشر بالنهار الذي سوف يكون .
صوت المدينة ، صوت البحر ،
صوت الجبال وصوت شجر الصنوبر
تردد أنشودتك، حتى تصير السطور التي نألف
دروب فكر ايطاليا .
يمر مشعلك فوق كل الهضاب
وعبر الأوطان كلها، ويُسمع صوت
مثل ريح تزمجر، ويَسمع التُقاة ،
وأغراب روما والمؤمنون الجدد ،
كلماتك البديعة بلغاتهم ،
فيُعجِب الكثير ويَعْجَب (*) الكثير .

١٨٦٤

(*) حرفياً « يشكّ » .

أولفر وندل هولمز
(١٨٠٩ ـ ١٨٩٤)

د. أحمد يعقوب المجدوبة

لمحة عامة :

هو طبيب واستاذ جامعة وشاعر وروائي ومحاضر وعالم. ولقد جمع بنجاح بين الطب والشعر . حقق شهرة كبيرة في عصره ، وقد قال عنه البعض أنه «أذكى رجل في نيو انجلند» . يعده النقاد شاعراً مهماً، على الرغم من ثانوية مكانته .

حياته :

ولد في كمبردج مستشوستس عام ١٨٠٩ وأمضى معظم حياته فيها . ولقد كانت كمبردج في حينها من أهم مراكز الاشعاع الفكري في أمريكا ، أمها معظم الأدباء والمفكرين .

درس في جامعة هارفرد وتخرج منها عام ١٨٢٩ . وقد كتب الشعر في أثناء دراسته. في السنة التالية درس المحاماة ليجد أنه غير ميّال لها، فتحول الى دراسة الطب، وقد بدأ سيطه يذع عندما كتب لمجلة نيو انجلند يدافع عن احدى السفن الحربية المشهورة التي كانت على وشك أن تشطب.

سافر بعدها (في عام ١٨٣٣) الى باريس لدراسة الطب . وقد اشتهر الفرنسيون حينها في هذا المجال ، ولقد ركز على دراسته ونبغ فيها ، لكن ذلك لم يمنعه من التجول في أوروبا. عاد الى أمريكا بعد سنتين ومارس مهنة الطب، فوجد أنها لا تروق له . نشر مجموعة قصائد ناجحة عام ١٨٣٦ من ضمنها « الورقة الأخيرة » . ترك مهنة الطب ، ليدرس العلوم

الطبيـة في دارتموث عـام ١٨٣٨ . عين استاذاً في علم التشريح في جامعة هارفرد عام ١٨٤٧ وبقي فيـهـا حتى تقاعد منها عام ١٨٨٢ . شغل منصب عميد كلية الطب في الفترة الواقعة بين ١٨٤٧ ـ ١٨٥٣ . نشر عام ١٨٥٤ مجموعة قصائد بعنوان **أناشيد طلبة عام ١٨٢٩** . ويظهر من عنوان هذه القصائد ومن كتاباته في مجلة نيو انجلند أنه كان شاعر مناسبات قريباً من الحياة العامة.

أسس عام ١٨٥٧ مجلة أتلانتك منثلي التي كتب فيها ونشر معظم قصائده.

توفي بعـد حـياة مليئة بالعمل الدؤوب والمطالعة والعلاقات الفكرية الوثيقة عام ١٨٩٤ .

أهـمـيـتـه :

لقـد كـتب هولمز بالطبع دراسـات هامـة في حـقل الطب ، وله اسـهـامـات يشـهـد عليـها الكثيرون. لكنه أسـهم كـذلك في مجال الأدب. فلقد كتب العديد من القصائد البديعة. ولقد كان ناقـداً اجـتماعـيـاً من الطراز الأول ، وكـتب العـديد من المقـالات الاجـتماعية الساخرة التي لقيت استـحـسـاناً كبيراً في معظم الاوساط. ولعل أهم ما يميزه أنه كان مجدداً في فكره وفي تعبيره. فلقد ثار ضـد الثـقافة الطهرانية والتوحيدية . وقد أثر على العديد من الأجيال التي قرأت له أو تتلمذت عـلى يديه . أمـا رواياته فلم تلق حماسـاً من القـراء أو النقـاد ، على الرغم من وجـود العـديد من الصفحات الشيقة والمؤثرة فيها .

الـورقـة الأخـيـرة

ترجمة : د. أحمد يعقوب المجدوبة

[كـتب الشـاعر القصيدة التالية ، كما أخبرنا هو ، عندما لمح شخص الرائد تمس ملفل ، جـد الأديـب هـيرمن ملفل ، والذي قـيل أنه كـان واحـداً من الامـريكيين الذين تنكروا بزي الهنود الحـمـر وألقـوا حمولات السـفن من الشـاي في المحيط؛ تلك الفعلة التي كانت بمثابة الشرارة الأولى في الحـرب الثـورية الأمـريكية . رآه الشاعر يمشي في الطريق وهو شيخ طاعن في السن ، فخيل له أنه كـآخـر ورقـة تتمسك في غصن مهجور قبل سقوطها. القصيدة تأملية وفكاهية وساخرة في ذات الوقت] .

المحرر

رأيته من قبل
حين مر من أمام الباب ،
ومرة أخرى
سمعت نقر حجارة الرصيف
حين مـرّ يترنح فوق الأرض
ممسكاً بعصاه .

يقولون لما كان في عنفوانه
وقبل أن تشذبه
وتهذب حجمه مِدية الزمان،
لم يكن يجد المنادي حين يجوب

أرجاء البلدة
من هو أفضل منه .

أما اليوم فهو يمشي في الطرقات
يحدّق في كل من يقابل
واهناً حزيناً ،
ويهز رأسه النحيل
كأنه يقول
« إنهم ذهبوا » .

وتجثم حجارة الرخام تكسوها الطحالب
فوق الشفاه التي كان يلثم
لما كانت تُزهر؛
والأسماء التي كان قد أحب أن يسمع
نُحتت من سنين
على شواهد القبور .

كانت جدتي قد قالت —
وهي العجوز المسكينة التي ماتت
منذ زمن بعيد —
أن أنفه كان روميا
وكان خده مثل وردة
في الثلج .

أما اليوم فإن انفه نحيل
يتدلى فوق ذقنه
كأنه عكاز
في ظهره انحناء
وفي ضحكته
نبرة حزينة .

أعي أنه لإثم
أن أجلس أسخر
منه هنا ؛
لكن تلك القبعة القديمة ، بأبعادها الثلاثة ،
والبنطال الفضفاض، وكل ذاك ،
لأشياء عجيبة .

لو قدر أن أعيش
مثل آخر ورقة على شجر
الربيع ،
دعهم يضحكون ، كما أفعل اليوم ،
على ذاك الغصن القديم المهجور ،
حيث أتعلق .

١٨٣١

النّوتي الحُجَرِي (*)

ترجمة : د. أحمد يعقوب المجدوبة

[هذه القصيدة، مثل سابقتها، هي من وحي شيء رآه الشاعر فأخذ يتأمل في الحياة الانسانية ويتفكر بها. تصف القصيدة طريقة عيش حيوان بحري يبني لنفسه حُجَراً جديدة كل فترة ينتقل اليها تاركاً الحجر القديمة. يتمنى الشاعر بعد ذلك أن تتعلم النفس البشرية فعل ما يفعل هذا المخلوق] .

المحرر

هذي سفين اللؤلؤ يدّعي الشعراء
أنها تمخر العباب التي ليس فيها ظلال —
الفلك المغامر تنشر أجنحتها في ريح الصيف العليل
في خلجان السّحر حيث تشدو الحور (**)
وتبدو سلاسل المرجان للعين ظاهرة ،
وحيث تخرج عرائس البحر وقد شعرت بالبرد لتفرد شعرها في الشمس .

لم تعد تنشر انسجة كالشاش حية ؛
فقد غرقت سفينة اللؤلؤ .

(*) النوتي حيوان بحري يقال أنه يوجد في المحيط الهادي الجنوبي والمحيط الهندي يبني الصدف الذي يعيش فيه وذلك باضافة حجرة جديدة سنوياً ينتقل اليها .

(**) حرفياً «السيرانة» وهي كائن اسطوري له رؤوس نسوة وأجساد طيور كانت تسحر الملاحين بغنائها فتهلكهم .

وكل خلية حُجرية ــ
حيث كان خيالها المعتم الحالم يقطن،
يشكل الصدف الحيّ مثل ساكن نحيل ،
يبدو للعين جلياً ــ
ثُقِب سقفها القزحّي، وفتحت سراديبها التي لا تراها الشمس .
يشهد سنة بعد أخرى شغله الصامت
به ينشر سلاسله المضيئة ،
ومثل حلزون ينمو بصمت
هجر منزله القديم الى الجديد ،
مشى مثل من يسترق الخطى عبر أقواس مضيئة ،
ثم شيد بابه الساكن ،
وتمدد في بيت جديد، لم يعد يأبه بالقديم .

لك الثناء للرسالة السماوية التي بها أتيت ،
يا ابن البحر الهائم ،
وقد ألقيت من حضنها حزيناً !
قد ولدتْ من شفتيك نغمة جلية
أنقى من نغمات ترايتن تنبعث من بوقه المكلل؛
وبينما تطن في أذني،
أسمع من كهوف أفكاري العميقة صوتاً يغني : ــ

شيدي لنفسك القصور البهية، أيتها الروح ،
كلما مضت تلك الفصول بخفة ؛

اهجري ماضيك ذي الدهاليز العتيقة.
دعي كل معبد جديد، أنبل مما يسبقه ،
يحجبك عن السماء بقبة أعظم،
لتضحي في النهاية حرّة،
فتهجري محارك التي كبرت عنه في بحر الحياة الذي لا يهدأ .

١٨٥٨

القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

عصر الواقعية

بقلم : د. ضياء الجبوري

الحرب الأهلية وما بعدها :

لقد كانت الحرب الأهلية الامريكية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) ضارية شرسة ، التهمت نيرانها مئات الآلاف من القتلى والجرحى . وعلى الرغم من انها لم تدم طويلاً ، إلا أن خسائرها المادية كانت بالغة ، يقدرها المؤرخون بآلاف الملايين من الدولارات . وإذا ما تذكّرنا ان التكنولوجيا الحديثة وأسلحة الدمار الشامل لم تكن معروفة في ذلك الوقت ، وان المتحاربين ولجوا سوح القتال بخطط وأساليب متواضعة ، بمعايير عصرنا هذا ، لأدركنا مدى الفجيعة التي حلت بالمجتمع الامريكي آنذاك .

وقد ظلت تأثيرات الحرب الأهلية في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والادبية شاخصة لسنوات طوال بعد ذلك وظهرت انعكاساتها على الجوانب النفسية والمعنوية للمجتمع الذي انهكه الاقتتال ، حتى اصبحت نظرته الى المستقبل بل الى الحياة عموماً مشوبة بالمرارة والقنوط بسبب المآسي والملمات التي عانى المجتمع منها لا سيما في الحقبة التي تلت الحرب مباشرة . فقد كانت الآثار التي خلفتها هذه السنوات العجاف تضرب في عمق الحياة الامريكية ومرتكزاتها وأدّت ، كما يقول (مارك توين Mark Twain) الى :

> اقتلاع الافكار التي ورثها الامريكيون منذ قرون ، وفعلت فعلها في الحياة السياسية للبلاد ، واحدثت ثورة في أوساط واسعة من المجتمع الامريكي ، بل وضعت بصماتها على معالم الشخصية الامريكية التي تأثرت بها تأثيراً يفوق كل تصور او تقدير .

وعلى الرغم من قساوة الظروف التي خلفتها الحرب ، فان مشاعر الاحباط والمرارة لم تكن لتتجذر او تستديم . فقد اخذت الجراح بعد لأي تلتئم ، والسواعد تبرأ ، وعندها بدأت الحركة تدب في حقول البناء والاعمار والمواصلات والتوسع في استغلال الارض ، سطحها وباطنها ، الامر الذي ادى الى احداث طفرات نوعية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً من قبل في ميادين الحياة كافة لا سيما في الانتاج الصناعي والمحصول الزراعي .

هجرة المزارعين وتوسع المدن :

من التطورات الكبيرة التي شهدتها الولايات المتحدة بعد الحرب الاهلية ، التغير الجذري الذي طرأ على هيكل المجتمع . فقد أخذت جموع المزارعين من القرى والارياف المتناثرة بالزحف نحو التجمعات الصناعية والمدن الكبرى لانهم كانوا يشعرون ان المدن توفر لهم الأمن والاستقرار والخلاص من شظف العيش . واشتد الاقبال على المدن الصناعية الكبرى لاعتقاد الفقراء من المزارعين انه كلما توسعت تخوم المدينة وامتدت ، اصبحت الحياة فيها أكثر رغداً وهناءاً، فبعد ان كان ربع السكان تقريباً يعيشون في المدن الكبيرة في عام ١٨٦٠ والقسم الاعظم يعيش في القرى والأرياف تصاعدت نسبة سكان المدن في نهاية القرن التاسع عشر بشكل كبير لتبلغ أكثر من الثلث .

وكان من أهم أسباب هذه الهجرة الى المدن ، التطور الذي شهده القطاع الزراعي في حقل المكننة ، وشيوع استخدام الآلات الحديثة من مثل الحاصدات والباذرات والقلابات الميكانيكية التي ادت الى تقليص الحاجة الى استخدام الايدي العاملة ، ووفرت الجهد والوقت والمال ، وكثفت انتاج الغلل لا سيما بعد شيوع استخدام الاسمدة والمبيدات والبذور المحسنة . وبسبب ذلك تحتم على كثير من المزارعين مغادرة الحقول والاحتماء بأفياء المدن القريبة والمجمعات الصناعية التي انطلقت تنمو وتتوسع .

على ان النزوح من المزارع والحقول لا يعني ان التوسع في الاستزراع قد توقف او هفت ، اذ استمر الزحف باتجاه الغرب عبر نهري (المسيسيبي) و (ميزوري) ، فوصلت طلائع المستوطنين في نهاية القرن التاسع عشر الى جبال (الروكي) وحافات الصحارى في (اريزونا) و (نيفادا) . وعند اندلاع الحرب العالمية الاولى لم يتبق في طول الولايات المتحدة وعرضها اية ارض غير مكتشفة او مستزرعة .

لقد شهدت مدينة (نيويورك) انفجاراً سكانياً لم يسبق له مثيل حيث اصبح عدد سكانها في نهاية القرن ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة ، بعد ان كان لا يتجاوز نصف المليون في عام

١٨٥٠ . ولم تحصل هذه الزيادة بسبب نزوح المزارعين اليها فحسب ، بل شهدت هذه المدينة وغيرها من المدن تهافت الكثير من المهاجرين القادمين من بقاع العالم المختلفة ، لا سيما من دول اوروبا واقاليمها الشرقية والجنوبية. أما (شيكاغو) التي لم تكن سوى مدينة صغيرة لم يتجاوز عدد سكانها العشرين الف نسمة في سنة ١٨٥٠ ، فقد اصبحت بعد جيلين فقط ، مدينة مترامية الاطراف يسكنها اكثر من مليوني شخص .

ويمكن اجمال التحولات الكبيرة التي طرأت على خارطة توزيع السكان في الولايات المتحدة ، بالقول انه بحلول عام ١٩٠٠ ، أصبح نصف سكان البلاد يعيشون في مدن كبيرة لم يتجاوز عددها اثنتي عشرة في الوقت الذي توزع النصف الباقي من السكان على القرى والقصبات والأرياف .

الأمة تنهض من جديد : القفزة الصناعية :

أثارت النهضة الشاملة التي تحققت في اعقاب الحرب الاهلية دهشة العالم واعجابه . فقد شهدت الصناعة تقدماً هائلاً وتجاوزت عمليات التصنيع الاطر التقليدية والاساليب التي كانت متبعة في اوروبا عموماً وفي انجلترا بخاصة . ففي نصف القرن الممتد من نهاية الحرب الاهلية وحتى اندلاع الحرب العالمية الاولى ، تزايد الاقبال على العمل في الصناعة ، وانتشرت المجمعات الصناعية التي ضمت المئات بل الآلاف من الايدي العاملة ، حتى بلغ عدد العمال في عام ١٩١٩ ثمانية ملايين ونصف .

وهناك عدة عوامل أسهمت في تطوير الصناعة وتقدمها ولعل من أهم هذه العوامل، النظرة الجديدة للحياة ، والجو العام الذي بات يسود المجتمع الامريكي بعد استتباب الامن في ربوع البلاد . واذا كانت سنوات الحرب قد دفعت بكثير من المبتكرين والصناعيين الى التكالب والتسابق في إيجاد طرائق جديدة لالحاق الأذى واشاعة الدمار ، فقد حفزت الاجواء الآمنة على التنافس والسعي الحثيث لتوجيه طاقات هؤلاء المبتكرين والصناعيين لاستنباط أساليب جديدة في الاستثمار واستغلال الامكانات الاقتصادية الهائلة وجني الارباح عن طريق تصنيع الحاجات الاستهلاكية وابتداعها في شتى مجالات الحياة .

وقد اسهمت بعض الحقائق والظروف الموضوعية في تفجير الطاقات الخلاقة وتوجيهها نحو المشاريع الصناعية. فبالاضافة الى توافر المصادر الطبيعية والمواد الخام اللازمة للانتاج الصناعي، واستقدام العمالة الرخيصة والقفزات التي تحققت في مجالات العلوم التطبيقية والمكننة والتصنيع ، فقد شجعت حكومة الاتحاد من ناحيتها الصناعات الفتية وذلك

بحمايتـها واعانتها وفسـح المجـال أمامها للتطـور ، وتشـجيع المسـتثمرين على توظيف المزيد من رؤوس الاموال في القطاع الصناعي حتى بلغ حجم الاستثمار في هذا القطاع عام ١٨٨٠ أكثر من أربعة أمثال ما كان عليه قبل ثلاثين سنة .

ومن العـوامل الأخـرى التي سـاعدت في بناء القاعدة الصناعية وتطويرها ، النهضـة التي شـهدها قطاع المواصلات ، لا سيما بعد انشاء اول خط حديدي يربط بين شرقي امريكا وغربيها فـي عام ١٨٦٩ . وباستكمال هذا المشـروع الجبـار ، اصبح بالامكان نقل المواد الخام والمنتجات المصنعـة بين المراكز الصناعية الآخـذة بالتوسع من مـثـل (ديترويت) و (شيكاغو) و (كليفلند) و (بيـتسبرغ) وغيرها من المدن والموانيء ومنافذ التوزيـع . وللتعـرف على حجـم هذا التطـور ، علينا ان نتذكر ان السكك الحديد التي اصبحت تربط بين المدن والولايات ، بلغت مائتين وثمانين الف ميل طولاً في عام ١٩٠٠، بعد أن كانت خمسة وثلاثين ألف ميل عند انتهاء الحرب الاهلية .

وكـان لاتبـاع الأسـاليب الحـديثـة في توليـد الطاقـة الكهربائيـة واستخدامها في المعامـل والمصـانع أثـر بالـغ في تكثـيـف الانتاجية . وأدى شيـوع استعمال المولد الكهربائي الى تسريع دواليب الانتـاج وطرح آلات ومـواد اسـتـهـلاكية مبتكرة ادت الى احداث انقلاب جذري في انماط السلوك الاجـتماعي والحيـاة العامـة . وكما قال (هنري آدمز Henry Adams) فان اختراع المولد الكهـربائي ادخل المجـتمع الانساني «مرحلة جديدة في تاريخ تطـوره» . وفي المعرض الكبير الذي اقيم في عـام ١٨٧٦ فـي (فيلادلفيا) ، احتفـالاً بالذكـرى المئويـة لتأسيـس هذه المدينـة ، قـام (اسكنـدر بل Alexander Bell) ، ولأول مـرة ، بعرض اختراعـه السحـري الجـديد ـ الهاتـف ، الـذي قلـص المسـافـات واخـتزل الزمن وشـرع بتحويـل العالم كلـه الى قريـة كبيرة. واسـهمت الاختراعـات الجـديدة الأخرى التي اخذت تترى كل عام ، لا سيما في علوم الميكانيك واستخدامات الطاقـة، في تثـوير عـمليـات اسـتـخراج المعادن الثمينة من باطن الارض من مثل الذهب والفضة والحديد والنفط .

إن النجـاحـات المادية التي تمخضت عنها الاختراعات العلمية والابتكارات الحديثة، جعلت البـعض، لا سـيما اولئك الذين يجيـدون اقتناص الفرص واستغلالها، يكسبون من الأرباح ما لم يحلمـوا به من قـبل . ومن ناحـيـة أخرى ، ولّدت هذه المنجزات المتلاحقة ، ولاول مرة ، مشاعر الاعـتزاز بالوطن والافتخار بالانتماء الى دولة قوية ترسـخـت أركانها وشمخ بناؤها وتطمـح الى المزيد من التـفـوق وتحـقـيـق الذات . وكـان لتنامي هذه الانطلاقة الجديدة أثره الكبير في اندلاع الحرب الامريكية ـ الاسبانية عام ١٨٩٨ .

سـطـوة المـال :

أشرنا فـيما تقدم الى ان التحولات الاقتصادية الجسام التي اعقبت الحرب ، أتاحت الكثير من الفـرص لاصحاب المواهب والمغامرين والمبتكرين والمضاربين لان يرتقوا ، وعلى نحو خاطف ، سلم الرفـاهيـة والرخـاء ، بل ان بعضهم امســى ، بين عشيـة وضحاهـا ، يهيمن على المفاصـل الحيوية للاقتصاد الامريكي . ومن أبـرز الاغنيـاء الجـدد نذكـر (جـي كوك Jay Cooke) ، اول مصرفـي امريكي كبيـر و (جون روكفلر John D. Rockefeller) الـذي عـرف بـ (ملك البترول) و (اندرو كارنيغي Andrew Carnegie) اكبر مطوري تصنيع الفـولاذ واستخـراج الحديد . ومن الاسماء الاخـرى التي لمعـت فـي سـمـاء الاقتصـاد الامريكـي نذكـر (جـي جولد Jay Gould) و (فاندربلـت Vanderbilt) و (كولـس هنتنغتن Collis Huntington) الذين جنوا ارباحـاً خيالية من استثماراتهم في حقل المواصلات وصناعة السكك الحديد .

ولقـد قـيـل الكثيـر فـي هـذه الطبقـة من الأثرياء ، فمنهم من وصفهم بـ «العصاميين» أو «أسياد الصناعة» أو «البارونات اللصوص Robber Barons» أو حـتـى «قراصنة المال». وبغية الحـفـاظ على مـصـالحهم واستثماراتهم، فقد حاول العديد منهم ان يتحالف مع اقطاب السياسة ورمـوزها آنذاك . وفي غـمـرة هذه التحولات الاقتصادية المتلاحقة ، سال لعاب الكثيرين لاهتبال فـرص الاثراء السريع ، حتى ان بعضهم لم يترفع عن اللجـوء الى سـبل ملتويـة بل لا اخـلاقية أحـيـانـاً طمعاً في المال. لذلك فقد تفشت الفضائح الماليـة الى الحـد الذي أدى الى قيـام الحكومـة الاتحـادية بتشـريع قانون خاص عـام ١٨٩٠ لاصـلاح النظام الاداري واحكام الرقابة على بيوت المال والحـيلولة دون انتـشـار الممارسات غير المشروعة او قيام التحالفات المشبوهة بين أصحاب المال ورجال السياسة .

التحولات الكبيرة : الوجه الآخر

ان هذه الطفـرات العـريضة في الميادين الاقتصاديـة والصناعيـة والاجتماعيـة لم تتحقـق فـي هذه المدة القـيـاسية دون ان تلحق اضراراً بالغة في بعض شرائح البنى الارتكازية للمجتمع . فـقد ادى التوسـع في مد السكـك الحديـد التـي وصفهـا الكاتـب (فرانك نورس Frank Norris) بـ «الاخطبـوط» ، الى تشـريد الآلاف من المعـدمين جـراء المضـاربات فـي تجارة الاراضـي ونقل ملكيـتـها ، وبات المزارعون يعيشون في هلع مستديم ، خشية ازاحتهم من الاراضـي التـي كانت مصدر رزقهم الوحيد .

وبسـبب توافـر العمالة التي كـان المهاجـرون الجـدد سـواء من الارياف والمزارع أم من

خـارج الولايات المتحدة يرفدونها باعداد كبيرة ، فقد بقيت الاجور متدنية ، وظلت ظروف العمل قـاسـية مما ادى الى توتر العلاقة بين ارباب العمل والعمال الذين لجأوا الى التمرد احياناً لانتزاع حقوقهم وتحقيق مطالبهم .

وعلى الرغم من تأسيـس نقابة العمـال الامريكية عام ١٨٨٦ بزعامـة (سـاميـول جمبرز Samuel Gompers) الذي أرسـى قـواعـد الحركة النقابية الامريكيـة وسعى الى تنظيمها والدفاع عن حـقـوق منتسبيهـا ، فقد بقيـت علاقـة العمال بأربـاب العمـل يسودها الشك وانعدام الثقة حـتى نهاية العـقـد الثـاني من قرننا الحالـي ، حين سُـنّت التشريعات التي منحت العمال بعض الامـتـيـازات والحـقوق ومنها حق الاضراب عن العمل والمطالبة برفع أجورهم وتحسين مستوى المعيشة .

أدباء الأمة : نداء الضمير

واذا ما انتقلنا الى الانماط السلوكية والمثل الجديدة التي افرزتها الحرب الاهلية وما تبعها من تحولات اقتصادية واجتماعية لوجدنا ان قيما مادية جديدة اخذت تنمو وتترسخ لتشكل فيما بعـد احـدى الثوابت في مجتمع ما بعد الحرب . ويتمثل ذلك في النظرة الجديدة للمال على انه أهم مـعيار يقاس به نجاح الفرد او اخفاقه في الحياة . ونتيجة لشيوع هذه المفاهيم الجديدة ، شرعت الحلقـات العليـا في المجـتمع بالانصراف الى المظاهر الاجتماعية البراقة والمبالغة في الاسراف والبذخ توكـيـداً لنجاحهم وتعزيزاً لمواقعهم في المجتمع الجديد . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا السياق ، ان بعض علماء الاجتماع والمفكرين في تلك الفترة من مثـل (وليـم سمنـر William G. Sumner) و (جـون فسك John Fiske) أخـذوا يفسرون نـزوع الصناعيين ورجـال الأعمال البارزين الى الفردية وتمجيد الذات على انه امر طبيعي افرزه مبدأ التنافس و (قانون البقاء للاصلح Survival of the Fittest) .

وكان الأدباء من أوائل الذين ساورهم الاحساس بالخطر المحدق الذي اخذ يهدد المجتمع الجديد حيث رفعوا عقيرتهم استياءً واحتجاجاً لان الاركان التي بنيت عليها القيم الروحية المستوحاة من العقيدة والتراث بدأت تهتز وتتداعى . وشرعوا يعبرون في كتاباتهم عن سخطهـم المرير وامتعاضهـم من نزعـة الانبهار بألـق المـال وانقلاب الموازين لصالـح النجـاح المادي على حسـاب القيـم الروحيـة . فقـد أشـار الشـاعر الكبير (ولت وتمن Walt Whitman) الى ظـاهرة اللهاث وراء المال منبهاً ومحذراً من العواقب الوخيمة لهذا المنحى حيث قال «ليـس بالمال وحده تبنى الأمـم العظيـمة» . وشـاركه معظم ادباء هذه الحقبة مهمة الاضطـلاع بالنقـد الاجتماعي ،

وتسليط الضوء على بعض ما وصفوه بالظواهر المدانة في المجتمع وقدّم (مارك توين) صورة قاتمة مريرة لهذا المنحى المادي الجديد في قصته (الرجل الذي أفسد هادليبرغ The Man Who Corrupted Hadleyburg) . وعلى الرغم من ان النداءات والصرخات التي اطلقها ادباء العصر لم تلق النجاح الذي لقيته دعوات أدباء ما قبل الحرب من أمثال (جيمز لول James Lowell) و(هاريت ستو Harriet B. Stowe) و(جون ويتير John Whittier) الذين كانت لكتاباتهم الاصلاحية اصداء ايجابية كبيرة في حركة تحرير العبيد ، فقد واصل ادباء فترة ما بعد الحرب هذه المهمة النبيلة دون كلل أملاً في الحد من الاندفاع خلف الموجة المادية الجديدة التي باتت تعصف بالمجتمع .

ويعد (جون وليم دي فورست John W. De Forest) من أهم الذين صوروا مآسي الحرب الاهلية الدامية والظروف القاسية التي نتجت عنها لا سيما في الولايات الجنوبية من الاتحاد حيث ظلت الاوضاع مضطربة تعمها الفوضى حتى بعد انتهاء ما يسمى بفترة اعمار الجنوب (Reconstruction) . وقد جسد هذه الاوقات العصيبة في عدد من كتاباته وفضح في روايته (اونست جون فين Honest John Vane) (١٨٧٥) ، العلاقات المشبوهة بين بعض رجال الاعمال والسياسيين . اما رواية (عصر البريق الزائف The Gilded Age) التي الفها (مارك توين) بالاشتراك مع (تشارلس ددلي ورنر Charles Dudley Warner) والتي اصبح عنوانها صفة مأثورة تطلق على هذا العصر كله لما يحمله هذا العنوان من دلالات عميقة ، فيمكن عدها محاولة جدية لفضح مخططات بعض الذين كانوا يسعون للاثراء السريع بطرائق ملتوية وسبل دنيئة . فقد قدم المؤلفان في هذه الرواية صوراً ذميمة لاساطين الشهرة والمال مجسدة في شخص (سيلرز Sellers) وشركائه وفضحت الرواية ايضاً بعض اوجه الفساد الاداري ممثلة بالمتاجرة باصوات الناخبين في بعض الاروقة السياسية . أما الروائي (هاملن جارلند Hamlin Garland) فقد وجه صرخات غضب مدوية بنشره (في قبضة الأسد Under the Lion's Paw) ومجموعته القصصية (الطرق المسلوكة Main - Travelled Roads) وغيرها من المؤلفات التي سلط فيها الضوء على معاناة الضعفاء والمعدمين الذين كانوا موضع استغلال المضاربين والجشعين وبخاصة في ولايات الغرب الاوسط الامريكي حيث نشأ الكاتب فيها وترعرع .

ولابد من الاقرار بأن الكتابات التي صدرت في هذه الفترة لم تعمد جميعها الى التشكيك بنزاهة أصحاب المال والجاه . اذ ان بعض روايات (وليم دين هاولز William Dean Howells) ولا سيما روايته (ارتقاء سايلس لافم The Rise of Silas Lapham (١٨٨٥)) التي تحكي قصة حياة رجل اعمال مستقيم بقي ضميره حياً حتى بعد تسلقه سلالم النجاح ، تظهر أن الشرف والنزاهة لا يتعارضان مع كسب الثروات او العيش الرغيد وان الفرد الذي جبل على حب الخير

لا يمكن ان يتهاوى أمام رنين الذهب أو بريقه .

إلا أن هذه الفترة لم تكن غنية بالروايات الاصلاحية الجيدة ، فباستثناء رواية (هاولز) المغرقة في الطوبائية المسماة (قادم من التروريا A Traveler From Altruria (١٨٩٤)) ، فليس هناك من النتاج الادبي ما يمكن عده عملاً فنياً متكاملاً .

الواقعية في الأدب

إن التطورات المذهلة التي تحققت في مجالات الحياة المختلفة ، لم تكن لتحدث دون أن يواكبها تطور مماثل على الساحة الادبية . فبينما كان العلماء والمبتكرون والصناعيون منكبين على اجراء تجاربهم وبحوثهم ، كان الادباء ، من جانبهم ، يبذلون جهوداً كبيرة لتطوير اساليب ادبية تناسب جمهوراً جديداً من القراء يختلف عن سابقيه بحبه للاستزادة من القراءة ، والتعرف على كل ما يعينه على فهم الحياة والتعامل معها في ضوء المستجدات والتحديات الجديدة . وبالفعل ، حدثت نقلة نوعية في الادب الامريكي في هذه الفترة تمثلت في المواضيع التي شرع الادباء يستوحون مادتهم منها والأساليب التي كتبوا فيها لا سيما بعد ان انتقل مركز الثقل الادبي خلال العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر من (بوسطن) الى (نيويورك) و (شيكاغو) وغيرها من مراكز الاشعاع الفكري . فلم يعد ابطال الاعمال الادبية يصورون على أنهم في غاية الاناقة والتهذيب ، يتدفقون حيوية ، وينتمون الى شرائح محترمة في المجتمع ، بل اصبح المغامرون والعمامل والمزارعون ورجال الاعمال الطموحون والمتسكعون والجنود المخذولون وغيرهم من الافراد المنسيين في المجتمع، أبطالاً في النتاج الادبي لهذه الفترة . وقد ظهرت أيضاً العديد من المؤلفات الجريئة التي تتناول موضوعات اجتماعية وفلسفية ونفسية، كان هدفها الأساس اثارة النقاش حول المفاهيم الموروثة او السائدة بغية التمكن من الواقع الجديد والاحاطة به ، واتخاذ المواقف اللازمة ازاءه . وشاعت في هذه الفترة ايضاً التراجم الادبية لكبار الكتاب الاوروبيين من مثل(تولستوي Tolstoy) و(ابسن Ibsen) و(تشيخوف Chekov) و(هاردي Hardy) و (زولا Zola) وآخرين غيرهم لاقوا استحساناً واعجاباً كبيرين لدى جمهور القراء المتنامي .

ولابد هنا ان نشير الى أن وراء هذا التحول الكبير في المناخ الادبي ، بعض العوامل والاسباب التي دفعت بالنتاج الفكري الى هذا المنحى الجديد . ومن هذه الأسباب ، الحرب الاهلية

ومـا خلفـتـه من ويلات ومـصـائب كابد منها الآلاف من الرجال والنساء . فالروايات المتضاربة التي كـانت تتـوارد من سوح القتال ، جعلت القراء يصرون على تلقي معلومات دقيقة حول سير المعـارك وبالتـالي شـجـعـتـهم على التحري عن الحقيقة والتمييز بين الكتابات التي تلتزم الامانة والصـدق في نقل التـجربـة الانسانيـة ، وتلك التي تبتعد عن هذا التوجـه . لذلك يمكن القول ان تعـقـيـدات الحرب الاهلية قد اسهمت ، ولو على نحو غير مباشر ، في تهيئة الاجواء العامة لنشوء هذا «المنحى الواقعي» الجديد. ومن أهم الاسباب الاخرى أن القراء، كما جاء على لسان (كلارنس دارو Clarence Darrow) عام ١٨٩٢ :

اخـذوا يسأمـون من الوعظ والوعـاظ .... فـقـد ضـجـروا من الشـخـصـيـات الخيالية والاسـطورية ذات السلوك الملائكي أو الملـحـمي ، واصـبـحـوا يرغـبـون بالتـعـرف على شـخـصـيات حقيقية من لحم ودم والاستزادة من معرفة الحياة ، حلوها ومرها ، غنيها وفـقيرها ، سـيـدها وعـبدها ، لكي يكونوا على بينة من امرهـم ويتهيأوا لاصلاح ما فسد من امور حياتهم .

فالواقعية اذن ، كانت تعبر عن الرغبة في التجديد واعادة النظر في المسلمات الأدبية وأساليب الكتابة ومواضيعها التي لم تعد معبرة عن روح العصر الجديد ، اي ان الواقعية اصبحت تمثل ثورة على الانماط والمعايير الادبية التي انتهجها الكتاب السابقون من الرومانسيين الذين كـانوا يستجيبون لرغبات القراء في اعمال تنطوي على الاثارة والمغامرة والتأجج العاطفي دون منح الواقع ما يستحقه من عناية واهتمام .

ومن أهم مـا يميز الواقعية عن الرومانسية ، ان الكتاب الواقعيين كانوا يفضلون «المشي في الارض» في حين كان الرومانسيون يرغبون في «ارتياد الفضاء واختراق حواجز الزمان والمكان» . اي أن الواقـعية كانت تحاول ان تخلق تأثيرها في القارىء من خـلال بناء مصداقيتها في تصوير واقع الحـياة الذي لا وجود فيه لابطال يماثلون شخصيـات «مغامـرات أليـس في بلاد العجائـب Alice's Adventures in Wonderland» لان الواقعيين يفضلون ما يمكن تلمسـه والتثبت منه على ما يمكن تخيله او التأمل فيه . فصناع الادب الجديد من أمثال (ولـيـم ديـن هـاولز) و (مـارك توين) و (بريت هارت Bret Harte) وغيرهم ، كـانوا يختلفـون في منطلقاتهـم عن الأدبـاء الذين سبقوهم من مثل (إمرسن Emerson) و (ثورو Thoreau) و (لويل Lowell) و (ملفل Melville) من حـيث تحـاشـيـهم الولوج الى عـوالم الخـيال واجوائه والتملص من الواقع المعاش الذي الزم الواقعيون انفسهم بعدم تخطي مساحته .

لقد كانت كتابات اعلام الواقعية في اوروبا من أمثال (زولا) و (هاردي) و (تـولسـتـوي)

و (بلزاك Balzac) و (فلوبير Flaubert) و (دوستوفسكي Dostoyevski) ذات تأثير واضح في كتاب هذه الفترة الذين أمسوا يصورون الحياة كما يرونها على حقيقتها دون زخرفة او تنميق، مؤمنين ان ماهو اعتيادي او مألوف او محلي يمكن ان يكون مصدراً ثراً يستوحون مادتهم الأدبية منه .

وكان شيخ الواقعيين (وليم دين هاولز) يرى ان المنهج الرومانسي مناقض للواقع الانساني ، وقاصر عن فهم مكانة الانسان في هذا الكون الفسيح ، لان الرومانسيين كانوا يؤمنون بعظمة الارادة البشرية وحتمية انتصارها ، في حين كان الواقعيون يؤمنون بأن قابلية البشر محدودة وان الانسان وليد الظروف المحيطة التي تتحكم به . وكان (هاولز) يؤمن بأن الاعمال الادبية ينبغي ان تظهر الحياة على حقيقتها ، وان على الاديب ان يبتعد حتى عن تصوير الحالات الانسانية المستمدة من واقع الحياة ان كانت تلك الحالات غريبة او نادرة ، ولذلك كان يشجع معاصريه على النظر الى الحياة بمنظار موضوعي متزن .

ولا يعني هذا ان الادباء جميعاً كانوا يلتزمون بهذا النهج او ان النتاج الشعري والروائي لهذه الفترة قد اصبح ، بين عشية وضحاها ، ينبذ المنحى الرومانسي وينأى عنه . ففي الوقت الذي كانت الواقعية فيه تطغى على الساحة الادبية ، كان الشاعر (ولت وتمن) منهمكاً بالاشراف على الطبعة التاسعة لمجموعة القصائد المغرقة في الرومانسية ـ المعروفة بـ («اوراق العشب» Leaves of Grass) .

ولم يكن هذا المنحى الجديد من الكتابة الواقعية يخلو من منتقديه حتى بين صفوف الواقعيين انفسهم ، فقد كتب الاديب الساخر (امبروز بيرز Ambrose Bierce) معرّفاً الواقعية على انها «محاولة لتصوير الطبيعة لا كما يراها الانسان بل كما تراها الزواحف والديدان وبقية المخلوقات الدنيا» . وكان (بيرز) يلمز بهذا من جانب الواقعيين الذين شخصت ابصارهم نحو المراتب البائسة في المجتمع والتي استحوذت على جل اهتمامهم ، واصبحت تحجب آفاق الحياة الواسعة عنهم . ومن جانب آخر كان خصوم المدرسة الواقعية يأخذون على الواقعيين عدم الاهتمام او الالتزام بالمنهج الاخلاقي المعهود الذي يسعى الادباء من خلاله الى «مكافأة الفضيلة ومكافحة الرذيلة» بل أن احد هؤلاء الخصوم وهو (جوناثن هاريسن Johathan Harrison) ذهب الى الحد الذي وصف فيه كتابات الواقعيين بأنها « أفيون القراء » . وفي عام ١٨٨٩ ذهب (توماس تالمج Thomas Dewitt Talmage) الى أبعد من ذلك حين نادى بحرق مؤلفات بعض الكتاب الواقعيين بل كل المؤلفات التي لا تستلهم القيم الدينية الموروثة .

ومن سمات الواقعية :

اللغة الدارجة Colloquial Language :

لعل أهم سمات الواقعية في الادب ، لجوء الكتاب والروائيين منهم بخاصة الى استعمال الانجليزية الدارجة بل حتى الانجليزية الهابطة او (السوقية Slang) احياناً. ولم يقتصر استعمال العامية الدارجة على بعض المفردات القليلة التي قد ترد هنا وهناك في ثنايا المتن الادبي ، بل تعداه الى الحوار الذي كثيراً ما استقاه الادباء من لغة الحياة اليومية . ومن الذين عمدوا الى استعمال الانجليزية الدارجة في مؤلفاتهم ، بهذا القدر او ذاك ، نذكر (وليم دين هاولز) و (فرانك نورس) و(هنري جيمز) و(هاملن جارلند) و(ميري فريمن Mary Freeman) وآخرين غيرهم .

على ان (مارك توين) كان يكثر من استعمال العامية الدارجة في رواياته الى الحد الذي غدت فيه سمة مميزة لاسلوبه الأدبي لا سيما في روايتيه (توم سوير Tom Sawyer) و(هكلبري فن Huckleberry Finn) غير مبال بما أثارته مفرداته من امتعاض لدى بعض معاصريه الذين كانوا يدعونه الى تهذيب اسلوبه وتشذيب مفرداته التي قد تستفز بعض الحساسيات او الهواجس لدى القراء . ومهما يكن رأي (وليم دين هاولز) او غيره في إغراق (مارك توين) لنصوصه الأدبية بالعامية الدارجة ، فلا يمكن لاحد ان ينكر ان (مارك توين) كان له دور كبير في الرفع من شأن اللغة الدارجة التي نقلها عن الشرائح الاجتماعية الفقيرة التي تقطن ضفاف المسيسيبي ، وملاحي المراكب البخارية ، وعمال المناجم والمزارعين والمشردين والمهرجين والفرق الجوّالة وغيرهم من المسحوقين .

ويعد (ستيفن كرين Stephen Crane) من الذين برعوا في تسخير اللغة الدارجة في خلق الاجواء المناسبة للحدث الروائي وتصوير شخوصه الادبية كما فعل ذلك عند تناوله شخصيتي (هنري فلمنغ Henry Fleming) بطل رواية (شارة الشجاعة القرمزية The Red Badge of Courage) الذائعة الصيت ، و(ماغي جونسن Maggie Johnson) في رواية (ماجي فتاة الشوارع Maggie , A Girl of the Streets) .

وكان من أهم الاسباب التي حدت بالواقعيين الى اعتماد اللغة الدارجة ان بعض المفردات السوقية كان لها وقع كبير لدى القارىء لما تتسم به هذه المفردات من دفق وحيوية تعين الكاتب في وضع شخصياته في الاطر المرسومة لها ، وتقربها من ارض الواقع تيسيراً لتقبلهم وتواصل القراء معهم . ونتيجة لذلك ، اخذ جمهور القراء المتسع يشعر انه ازاء نصوص جديدة قريبة من نفسه وانه يقرأ ، ولاول مرة ، ادباً امريكياً صميمياً مرتبطاً بالواقع المعاش ، له طعم خاص ،

ونكهة تختلف عما عوده عليه ادباء (بوسطن) أو (بريطانيا) . ومن المعلوم ان المفردات الجديدة التي وفدت مع موجات المهاجرين من مختلف بقاع العالم ادت الى اغناء لغة التداول اليومي التي اعتمدها الواقعيون في كثير من كتاباتهم .

لقد اولى الواقعيون لغة التعبير الادبي اهتماماً كبيراً . وكانوا من خلال انتقائهم لهذه المفردة او تلك يحاولون تحديد معاني بعض المفردات المألوفة واضفاء مضامين جديدة لبعض المصطلحات الشائعة التي لم يسبق للكتاب او القراء ان يتوقفوا عندها او يتفحصوا مدلولاتها . وكان ذلك ما يرمي (هنري فلمنغ) اليه حين اجهد نفسه محاولاً تحديد معنى «البطولة» و«المجد» و «الوطنية» . ويمثل صدور الكتاب اللاذع (معجم الشيطان The Devil's Dictionary (١٩١١)) ، الذي قام مصنفه (امبروز بيرز) بتسليط الضوء على المعنى المستتر او الوجه الآخر للكلمات ، خير دليل على اهتمام الأدباء بمفردات الخطاب وتصاعد الوعي العام بأهمية المفردة الحية في لغة التعبير الأدبي .

الصبغة المحلية Local Color :

ومن سمات الادب في هذه الفترة ، اهتمام الكتّاب الواقعيين بتصوير الملامح المحلية تصويراً شبه توثيقي ، يعبر عن مشاعر الحنين والارتباط العاطفي بهذا الاقليم او ذاك مدفوعين بحبهم لانماط الحياة التي كانت سائدة قبل ان يمحو التصنيع والتوسع العمراني معالمها . الا ان الكتاب تفاوتوا في دقة تصويرهم للمجتمعات والاقاليم المختلفة وفي قوة تأثير اعمالهم الادبية في نفوس القراء . فمنهم من اكتفى بتصوير القشرة الخارجية لمظاهر الحياة العامة ، ومنهم (مارك توين مثلاً) من حاول ان يدلف الى ما يكمن تحت السطح كي ينطلق مما هو اقليمي او محلي الى ماهو أعم وأشمل . وقد ساعدت الدوريات والمجلات التي كانت تعنى بالادب القصصي على اشاعة هذا اللون من الكتابة الاقليمية التي بلغت شعبيتها حداً جعل احد النقاد الامريكيين وهو (ادورد هيل Edward Hale) يتذمر قائلاً : ان الاهتمام بالصبغة المحلية أصبح داءاً متفشياً في أوساط أدبائنا كتفشي السعال الديكي بين أطفالنا .

وكان (بريت هارت) من أهم الكتّاب الواقعيين الذين اغنوا ، على نحو جاد ، ما بات يعرف بـ (الادب الاقليمي Regional Writing) حيث تناول في مؤلفاته القصصية نماذج مختلفة من طلائع المستوطنين في الغرب الامريكي . وتزخر قصته الموسومة (منبوذو بوكرفلات The Outcasts of Poker Flat) بالعواطف الانسانية العميقة تجاه العاملين في احدى مناجم كاليفورنيا . ومن الادباء الآخرين الذين أثروا الأدب الاقليمي نذكر (ميري ميرفري

(Mary Noailles Murfree) من ولاية تينيسـي و (جـول هـاريـس Joel Chandler Harris) من جورجيا و (سـارة جـويت Sarah Orne Jewett) التي خلدت ولايتها (مـيـن Maine) في روايـة (موطن السرو The Country of the Pointed Firs) و (مـيـري فـريـمـن) من مسـاشـوسـتـس Massachusetts التي صـورت في مجموعتهـا القصصيـة الموسومـة (راهبـة من نـيو انجلانـد وقصص أخرى A New England Nun and Other Stories (١٨٩١)) مشـاهـد تفصيلية دقيقة عن الحياة اليومية في قرى شـمال شـرق الولايات المتحـدة . ويمكن تلمس اثر الروائية الشهيرة (هاريت بيجرستو) مؤلفة (كـوخ العـم تـوم Uncle Tom's Cabin) في النتاج الادبـي للكاتبتيـن الاخيرتين ، لا سيما تأثير روايتها (لـؤلـؤة جـزيرة اور The Pearl of Orr's Island) حيث قدمت (سـتـو) صـوراً حـيـة لعادات اهل الريف وتقاليدهم في منطقة نيو انجلاند . وخصصت (كيـت شوبان Kate Chopin) معظم كتاباتها القصصية لعرض نماذج من حياة السكان البيض في ولاية لويزيانا . وقد حققت روايتها (أهالي المستنقعات Bayou Folk (١٨٩٤)) شهرة واسعة تضاهي شـهـرة روايتها المثيـرة للجدل (الصحـوة The Awakening) . أما (هاملن جارلند) الذي سبقت الاشـارة إليـه فـقـد رسـم صـورة قاتمة للظروف المعاشية البائسـة للمزارعين في منطقة الغرب الأوسط الامريكي .

وقام الكاتب الأسود (ولـيـم دبـويـز William Dubois) الذي وصفه (مارتن لوثر كنغ Martin Luther King) بأنه «من اعظـم رجالات العصر» بتكريـس اسلوبه الأدبي الثر للدفاع عن «المسألة الزنجية The Negro Question» ، وتحطيم ما اسماه بـ «حاجـز اللـون» ، احقاقاً للعدل والمسـاواة بين البيـض والسـود لا سيما في المناطـق الجنوبية من الولايات المتحدة . ويعد كتابـه (الاعماق الروحية لعامة السود The Souls of Black Folk) عملاً ادبياً خلاقـاً ، فضـلاً عن كونه وثيـقـة سـياسيـة ومقالـة فلسفيـة تعرض لواحـدة من اكثـر المشـاكل تعقيـداً في حيـاة الامـة الامريكية .

من الواقعية الى الطبيعية :

ومع اقتراب القـرن التاسع عشر من نهايته برز جيل جديد في الساحة الادبية الامريكية ، اتسـمت نظرته بالموضـوعية والجدية المفرطـة والتشـاؤم . وتميزت كتاباته بالجـرأة والمكاشفـة والاهتمام بالجـوانب المظلمـة من حياة الانسان ، الذي بدا لهم مخلوقاً ضعيفاً مغلوباً على أمره ، تسيّـره قوى خارجية قاهرة تفرض ارادتها عليه .

ويُعـرف هذا المنحى الجـديد في الأدب بـ «المذهب الطبـيـعي» . وعلى الرغم من الاختلاف

الواضح بين الطبيعية والواقعية ، فان الطبيعية تعد امتداداً عضوياً للحركة الواقعية من حيث الاهتمام بالصبغة المحلية والوصف الواقعي شبه الوثائقي ، والتركيز على العادات الاجتماعية واللهجات الخاصة والمعتقدات والتقاليد الشائعة في الاقاليم المختلفة وما الى ذلك . ويمكن تعريف « الطبيعية » في الأدب بأنها اعتماد المنهج العلمي في تخطيط الحدث الروائي ورسم الشخصيات وبناء الحبكة . ومصطلح «الطبيعية Naturalism» كما هو واضح ، مشتق من كلمة «الطبيعة Nature» التي نظر الادباء اليها على انها ذلك العالم الرحب بمكوناته وكائناته ، الذي لا يتحرك فيه ساكن الا لسبب ، والذي يمكن للمرء فيه ، لو تأمل بعمق ، ان يدرك سبب ما كان ويكون ، وان يفهم حركته وظواهره على أسس علمية ومادية بعيدة عن الغيبيات والمنطلقات الروحية .

لقد أفادت الحركة الطبيعية من النظريات العلمية التي وضعها كل من (داروين Darwin) و (فرويد Freud) و (ماركس Marx) لتفسير كنه الحياة وطبيعة المجتمع البشري وتاريخه والمؤثرات التي تحدد مصير الفرد ودوره في المجتمع . وقد تجلى تأثير هذه النظريات الحديثة في عدد من مؤلفات العصر لا سيما في كتابات (ستيفن كرين) و (فرانك نورس) و (امبروز بيرز) و (ثيودور درايزر Theodore Dreiser) بل وحتى في بعض كتابات «الرجل الظريف» (مارك توين) .

نشأت المدرسة الطبيعية في الأدب في زمن اخذت تتصاعد فيه حدة التناقضات التي افرزتها التحولات الكبيرة في بنية المجتمع . واسهم الطبيعيون على نحو مباشر في الحد من تطلعات الفرد واحلامه . فكان (ستيفن كرين) كغيره من الادباء الطبيعيين ، ينظر الى الزمن على انه رحلة فاشلة لابد للانسان ان يقوم بها وان البشر ليسوا سوى كائنات حية مقهورة لا حول لهم ولا قوة ، تتقاذفهم الاقدار كما تتقاذف أمواج البحر العاتية الركاب المنهكين في قصته القصيرة (زورق النجاة The Open Boat) حين صورهم يتعلقون بأهداب الحياة محاولين الوصول الى شاطىء النجاة وهم يستميتون في كفاحهم ضد الطبيعة التي لا ترحم .

اما (ثيودور درايزر) فقد كان في معظم رواياته يشبّه الانسان بقطعة الشطرنج التي تحركها قوى المجتمع الجبارة ممثلة باللاعبين الكبار ، وان الحياة ما هي الا غابة كبيرة لا يفلح فيها الا من تمرس بالانقضاض والجري السريع . وصوّر (درايزر) في روايته (الشقيقة كاري Sister Carrie) و (مأساة امريكية An American Tragedy) وغيرها نماذج متعددة من الشخصيات المشردة والبائسة التي تدفعها ظروف العيش للقيام بما قد لا يستسيغه حماة المجتمع ودعاة السلوك القويم ، ولم ينح (درايزر) باللائمة على الضعفاء الذين يجدون انفسهم منساقين وراء الخطيئة لتأمين لقمة العيش وتفادي الانسحاق . وقد وجهت عدة اتهامات

لـ (درايزر) بسـبب تعـاطفـه الشـديد مع شـخصياته ونزوعه للمكاشفة المريرة واسلوب كتابته الذي اسماه بعضهم بـ «الطبيعية البربرية» .

الـشـعـر :

بدأت الثـورة ضـد الانماط والقـوالب الادبيـة السـائدة قبل اندلاع الحرب الاهلية. وكانت الطبعة الاولى من (أوراق العـشب) (١٨٥٥) من أهم الابداعات الادبية المتمردة على الرغم من انها لم تقـابل بالترحـاب الذي كان يتوقعه ناظمها لها . وقد يحار المرء في تحديد هوية القصائد التي ضـمـهـا هذا الديـوان الجديـد والتي اتسمـت بثوريـة اسلوبها وطريقـة نظمها ورفضـها للقيود الشـعـرية التـقليدية مثل الالتزام بالوزن وتنميط المقاطـع الشعريـة واستعمـال الاخيلة المنمقـة والاحالة الى الأعمال الكلاسيكية أو الكتاب المقدس .

وتعكس هذه المجـموعة الشعريـة المهمـة عـدداً من المؤثـرات الادبيـة والثقافات الاجنبيـة التـي كـان الـشـاعـر قـد اسـتلهمهـا مـن ينابيـع عـدة منهـا فلسفـة التسـامي الامرسـونية Transcendentalism والاشتراكـية الطوباوئية، والفكر الوثني الاغريقي ، والفلسفة الالمانية والعلوم المعـاصرة ، والصـوفية والفكر الديمقراطي المتحرر . ويعد (وتـمـن) مؤسس «الشعر الحر» فـي امـريكا وهو ، بلاشك ، أهم اديب «انتقالي» ، بمعنى ان كتاباته كانت بمثابة حلقة ربط بين فتـرة (هوثورن Hawthorne) و (ثورو) الرومانتيكيـة التي كانـت تمر فـي مرحلة انحسـار ، وفتـرة (مـارك توين) و (هنـري جيمز) الواقعية التي كانت تنمو وتتسع .

وتعـد (املـي دكـنـسـن Emily Dickinson) الشاعرة التي قضت جل حياتها في انطـواء وعزلة، من ابرز شعراء الفترة . ومع ان تجربتها الحياتية كانت ضيقة جداً حيث انها ، باعترافها هي ، لم تكن تغـادر بيت ابيها الا اضطراراً ، وعلى الرغم من انها لم تنشر في حياتها سوى بضـع قصائد غير مذيلة باسمها ، فان نتاجها الشعري كان ضخمـاً ، ضـم حوالي ١٧٧٥ قصيدة يمكن تشبيهها بالمدائح الدينية (Hymns) أو الاناشيـد. وكما حقق (مـلـفـل Melville) شهرته الادبية بخـروجـه عن الانماط الادبية السائدة ، فان (دكنسن) احتلـت مكانـة متميزة في تاريـخ الشعر الامـريكي بسـبـب عوالمها الخاصة واصالتهـا وشاعريتهـا المتقـدة التي ترفـض القيود . على ان شعرها ظل بعيداً عن أنظـار العالم حتى بعـد وفاتهـا في عـام ١٨٨٦. ولم تصـدر الطبعة الأولى من قصائدها التي كانت مخبأة في ادراج مكتبها ، إلا عام ١٨٩٠ .

ومن الشـعـراء الذين ينبـغي ذكـرهم في هذا السـياق، (جون ويتير) الذي كان قد نشـر بعض مجمـوعـاته الشـعريـة قبل اندلاع الحـرب الأهلية . ويحتل (ويتير) مكانة مرموقة بسبب

اشـعـاره التي تنبض بالايمان والمشـاعـر النبيلة تجـاه العـبيد الذين تطوع للدفاع عن حقوقهم وتحـريرهـم عن طريق العـمل السـيـاسي أيضاً حيث حضر الشاعر المؤتمـر الشهير الذي عقد في فيلادلفيا لتحـرير العبيد عـام ١٨٣٨ . ومن أهم دواوينـه المنشورة (اناشيد من موطني Lays of My Home) و (اصوات الحرية Voices of Freedom) و (اغانـي العمال وقصـائد أخرى Songs of Labour and Other Poems) التي نشرت جميعها قبل الحـرب الأهليـة . أما في مرحـلة ما بعد الحرب فقد أصدر مجموعتين شعريتين أولهما (بيـن التـلال وقصـائد أخرى Among the Hills and Other Poems)(١٨٦٩) و (حكايات شعريـة من نيـو انجـلاند Ballads of New England (١٨٧٠)) . وتميـزت هاتان المجموعتـان باهتمامهـما بالمـوروث الشعبـي والمعتقـدات والتقاليـد الشائعة في ارياف نيو انجلاند .

وشـهـدت هذه الفترة ظهور عدد من مجموعات الشعر الشعبي والسرديات المنظومة التي لا يُعـرف مؤلفوها . اذ لم تمض سنة على انتهاء الحرب حتى ظهر ديوان شعري يضـم القصـائد والاغـانـي التي كـان الجنـود يرددونها في جبهـات القتال يحمل عنوان (شعـر الحـرب الأهليـة Poetry of the Civil War) . وفي عام ١٨٦٧ ظهـر ديوانان آخران بعنوان (قصائد من الجنوب في الحرب Southern Poetry of the War) و (أغانـي العبيد في الولايات المتحدة Slave Songs of the United States) وكـانت مـعظم الاناشـيـد والاشعار الشعبية المنشورة مستقاة من افواه الجنود مباشرة .

والى جـانب مـا نشـر في هذه الفترة من نصـوص شعريـة ، فقد ظهـرت أيضاً دراسـات متخصصـة تعنى بالأدب الشعبي كتلك الدراسـة التي اصـدرها (جـون لوماكس John Lomax) في مجموعتـه (اغانـي رعـاة البقـر وحكايـات التخـوم الشـعـريـة Cowboy Songs and Other Frontier Ballads) (١٩١٠) . وظـهـرت كـتـابـات شعريـة بلهجات محلية من اهمها المجموعة الشعريـة التي وضعهـا (جـون هَي John Hay) المسـمـاة (حكايات شعريـة من مقاطعـة بايـك Pike Country Ballads) التي عبرت عن مـشـاعر الشـوق والحنين الى الاغاني القديمـة والحيـاة البـسيطـة الخاليـة مـن التعقيـد . وقـد يكـون مـن المناسـب ان نذكـر ان المهاجريـن الانجليـز والاسكتلنديين الأوائل كـانوا قـد اغنوا المـوروث الشعبـي الامريكي بعـدد من القصـائد الشعبية والحكايات الشعرية .

على ان من ابرز وجـوه الاهتمام بالشـعـر الشعبي في هذه الفترة ، ما اقدمت عليه جمعيـة التراث الشـعبي الامريكيـة حين باشرت عام ١٨٨٨ بنشر الاغـاني الشعبية التي عنيت بتحقيقها وتصنيـفـهـا وجمعـهـا من مناطق مختلفـة في الولايات المتحدة . ولا نغفل هنا ما حققه الشاعر (ادجار لي ماسترز Edgar Lee Masters) من شهـرة كبيرة حين نشر قصـائده المسماة (مجموعة

سبون رفر الشعرية Spoon River Anthology (١٩١٥)) التي صور فيها عدداً من أهالي هذه البلدة الصغيرة وهم يتحدثون من عالم الأموات عن ظروف معيشتهم السابقة وطموحاتهم المكبوتة بكل صراحة وجرأة .

ومن الاصوات الشعرية الاخرى التي قد يكون من المناسب الاشارة اليها (ادوين روبنسن Edwin Arlington Robinson) الذي تميز شعره بنزعة التشاؤم التي رسخها الطبيعيون الاوائل . ويتجلى ذلك بوضوح في مجموعته الشعرية (أبناء الليل Children of the Night) (١٨٩٧) .

المسرحية :

لقد كانت فترة الواقعية في الأدب الامريكي فترة انتصار للفنون السردية : الرواية والقصة القصيرة على وجه التحديد ، ولم يظهر في هذه الفترة أي عمل مسرحي متميز ، إلا أن هذا لا يعني أن الفترة كانت خالية من المسرحيات التي لاقت بعض النجاح المادي . وقد يعود سبب ذلك الى ان ادباء العصر لم يهتموا بالكتابات المسرحية على الرغم من ان كبار الروائيين من أمثال (هنري جيمز) و (وليم دين هاولز) و (برت هارت) بل حتى (مارك توين) قد جربوا الكتابة للمسرح دون ان تحقق محاولاتهم هذه اي نجاح يذكر . وظلت الكتابة للمسرح لا تحظى بالاحترام او التقدير الذي يتمتع به الشعر او الرواية أو القصة القصيرة حيث كانت الغلبة في تلك الفترة لفناني المسرح من ممثلين ومنتجين ومخرجين وليس لمؤلفي المسرحيات الذين كانوا على نحو عام حديثي العهد بالكتابة المسرحية .

ومهما يكن من أمر فإن الفترة الواقعية لم تكن خالية تماماً من المحاولات المسرحية الجادة ، اذ حاول كل من (برونسن هاورد Bronson Howard) و (اغسطن دالي Augustin Daly) و (اغسطس توماس Augustus Thomas) تقديم نصوص مسرحية هادفة . وعرض (برنسن هاورد) في مسرحيته (شانندواا Shenandoah) صورة واقعية للحياة على ضفاف هذا النهر ابان الحرب الاهلية ، في حين تهكم من المصابين بحمى المال واللاهثين وراءه في مسرحيته النقدية (هنريتا The Henrietta) التي اخرجت عام ١٨٨٧ .

وكان معظم المسرحيين في تلك الفترة متأثرين بالكاتب النرويجي (هنريك إبسن Henrik Ibsen) ومسرحياته التي كانت تتناول المشاكل الاجتماعية. وقد حاول (كلايد فتش Clyde Fitch) ان يعرض نماذج واقعية من الحياة الاجتماعية والسياسية وما يدور من مخططات في بيوت المال في نيويورك في مسرحيته (المتسلقون The Climbers) و(المدينة The City). وتقدم مسرحيتاه

(الفتـاة ذات العينيـن الخـضـراويـن The Girl With the Green Eyes) و (الحقيقة The Truth) دراسـة نفـسية طريفة لشخصيتين تقليديتين ، اولهما (الـغـيـور) وثانيهما (الكـذوب) . وهناك مؤلفان آخران ينبغي ان لا نغفلهما في هذا السياق وهما (لانجـدن ميتشيـل Langdon Mitchell) و (ولـيـم مـودي William V. Moody) وقد كان لهذيـن الكاتبيـن اسهامـات واسعـة في الأدب المسـرحي . وجـاءت الملهـاة الســاخرة (فـكـرة نيويـورك The New York Idea) لـ (ميتشيل) لتظهـر كـثيراً من الملامح الواقعية . أما (ولـيـم مـودي) الذي كان شـاعراً واستـاذاً ، فقـد بـدأ مـشـواره المسـرحي بتأليف مسرحـيـات رصينة مكتوبة بلغة شعرية ، لكنها تفتقر الى مقومات العمل المسرحي الناجح . ولقيت مسرحية (الحاجـز الكبيـر The Great Divide) نجاحـاً كبيراً على الرغم من اعـتمادها الإثارة والميلودرامـا . وتصـور هذه المسرحية الصراع بين التراث البيوريتاني الروحاني في نيو انجلاند وشهوة الحياة التي تميزت بها فلسفة طلائع المستوطنين .

وقـد ظلت الكتـابة المسرحـية بدون أبطال حقيقيين حتى العقد الثاني من القرن العشرين حين ظهر (يـوجيـن أونـيـل Eugene O'Neill) ليكتسح المسرح بسلسلة رائعة من المؤلفات التي أثبتت أصالتها ونجاحهـا لا في المســرح الامريكي فحسـب بل في المسرح العالمي أيضاً . ونال هذا المسرحي الكبير أعظم تكريم يمكن أن يحصل عليه أديب في عصرنا الحاضر حين منح جائزة نوبل للآداب في عام ١٩٣٦ .

ولـت وتـمـن
(١٨١٩ ـ ١٨٩٢)

د. ضياء الجبوري

لمحـة عـامـة :

أصـبح عـام (١٨٥٥) مـشهـوداً في التاريخ الأدبـي للولايات المتحـدة لأنه صـادف صـدور الطبـعـة الأولى من سِفر (ولـت وتـمـن) الخالد (أوراق العشب Leaves of Grass) . وحال ظهور هذه المجـمـوعـة للشـاعـر الذي لم تكن بواكيره الأدبيـة قد أثارت اهتمامـاً يذكـر ، كتب (إمـرسـن Emerson) تحيته الذائعة الصيت «أحييـك وأنت فـي مستهّـل مستقبلـك العظيم ! إن انطـلاقتك الشـعـرية هذه لابد أن تكون قد سبقتها بدايات شعريـة كثيرة أخـرى!» . وبالفعـل ، فقـد سبـق لـ (وتـمـن) قـبل أن تحُقق له (أوراق العـشب) شـهـرته الكبيرة، أن أمـضى سنوات طوال يعمل في التـعليم والصـحـافـة، يكتب خلالها ويضيف ويشذّب، ويصقل مواهبه. وقد سجّل محاولاته هذه كلها في كتابه الذي يروي سيرة حياته (نماذج من الأيام Specimen Days) .

حـيـاتـه :

ولد (ولتر وتمن) في قـرية (وست هلز West Hills) التي لا تبـعـد عن مدينة نيويورك سـوى ثلاثين مـيلاً. وبسبب شظف العيش، انتقل والده الـى (بـروكـلـن Brooklyn)، واضطـر الصبـي (ولت) لترك الدراسـة وهو في الحـادية عشرة ليـدخل مـعترك الحـيـاة . فعمل ساعياً في مكتب أحد المحـامين ثم انتـقل للعـمل منضـداً للحروف في إحدى المطابع. وعمل بعض الوقت في التعليم في منطقـة ريفـيـة . وفي عـام ١٨٤١ ، ولج عـالـم الصحافـة حيث أصبـح محـرراً لجـريدة (بروكلـن ايجـل Brooklyn Eagle) الاّ انه مـا لبث ان تركها ليجـرّب حظهُ في العمل الصحفي في الجنوب في

(نيـو اورليـنـز New Orleans) . وتعـد الفتـرة التي قضاها هناك مهمّـة لأنها أمدّتـه بالكثير من التـجارب الغنية في الحياة وعززّت من قناعاته التي لم يتخل عنها حتى مماتـه . ثم استقـر منذ عـام ١٨٤٨ وحتـى ١٨٦٢ في (بـروكـلـن) يمارس عملـه الصحفـي ويسـاعد أباه الـذي كان يعمـل في مـشـاريـع البنـاء الصـغيـرة . وتنقّـل من صحيفـة الى أخرى وكتـب الى جانـب الشعر ، قصصـاً ومـقـالات في شتى المواضيع المحلية . وتوفي هذا الشـاعر العنيـد في عام ١٨٩٢ بعد أن قضى طيلة حياته يدافع عن أفكاره وفنّه .

مساهمته وموقعه في الأدب الأمريكي :

كـان (وتمن) تواقاً لأن تحـدث (أوراق العـشـب) دويـاً هائلاً في الأوساط الأدبية. إلا أن حلمـه هذا لم يتـحـقق ، فلم تحظ قـصائده الاثنتا عشرة التي تضمنتها الطبعـة الأولى من كتابه بأي رد فـعـل ايجـابي سـوى من لدن القلة من مـثل (إمـرسـن) و (ثورو) و (لنكن) . وبغـيـة الترويج للطبـعـة الثـانيـة التي ضـمت اثنتين وثلاثين قـصـيـدة، ثبّت (وتمن) مديح (إمرسن) لقصائده على الغـلاف ، دون أن يسـتأذنه في ذلك. وبعـد صـدور الطبـعـة الجـديدة، ظل (وتمن) ينقح شـعـره ويضيف الى ديوانه عشرات من القصائد في كل طبعة .

وعلى الرغم من ان (وتـمـن) كـان مـعاصراً لكل من (بو) و (إمرسن) و (ثورو) و (ويتير) و (لـويل) و (لونغـفلو)، الا أنه يـعـدّ حـقـاً أول شـاعـر أمـريكي حـديث لأن أفكاره في الحـرية والديمـقـراطيـة والعيش الرغيد هي أفكار تقدمية تماماً. أما تجاربه في الشعر الحر والايقاع والصور الشعـرية وانتقاء المفردة المعبرة التي قد يستمدها مباشرة من الواقع، فكانت مصدر الهام للعديد من شعراء القرن العشرين .

في البـدء ، عبّـر مـعاصرو (وتـمـن) عن احتجاجهم على اللون الشعري الذي كان يكتب فيـه، والذي كـان في نظر الكثيرين منهم يفتقر الى أبسط مقومات الشكل الفني. واعترض كثيرون على الأفكار التي ضـمّـنـهـا (وتـمـن) في شـعـره لاسـيـمـا مـا يتصل منها بتناوله الصريح للجنس وتعـاطفـه مع الرقـيـق والكادحـيـن ودعـوتـه للثـورة علـى الكثيـر من القيم الاجتماعيـة والسياسيـة والممارسـات المألوفـة. وإزاء تصـاعد الاستنكار ضد (وتـمـن) فقد حاول (إمرسن) أن يقنعه بحذف بعض المقـاطع الشـعرية التي اثارت حفيظة القراء ، إلا أن (إمرسن) فشل في مسعاه هذا، وبسبب تـعـنّـت (وتـمـن) واصـراره على آرائـه الجـريئـة ، فـقـد فُصـل من وظيـفـتـه في وزارة الداخليـة وذلك لكتـاباته «غير اللائقـة» . بيد أن بعض اصدقائه انبروا للدفـاع عنه ومنهـم (أوكـونـر W. D. O'Connor) الذي وصـف المتـمرد (وتـمـن) «بالشاعر الرمادي الطيب The good gray poet» تلك

الصفة التي لازمت اسمه حتى يومنا هذا .

ظل (وتمن) يناضل من أجل سعادة الانسان وحقوقه . وفي ١٨٧١ أصدر (آفاق ديمقراطية Democratic Vistas) التي كان يحاول فيها تثوير معنى الديمقراطية الأمريكية بغية الارتقاء بحياة الفرد والقضاء على السلبيات التي قد تقيّد من حركته في المجتمع المعاصر . وبعد صدور هذه الوثيقة المهمة بستتين أصيب (وتمن) بالشلل واستقر في مدينة (كامدن) بولاية (نيوجرزي) حيث قضى فيها أواخر حياته .

شعره وافكاره :

لم تكن الأفكار التي آمن بها (وتمن) تختلف كثيراً ، من حيث الجوهر ، عن تلك التي كان يؤمن بها الكثير من مفكري اوروبا وأمريكا وشعرائها الذين سبقوه من مثل (روسو) و (شيلي) و (وردزورث) و (إمرسن). بل أن (وتمن) نفسه إعترف بفضل (إمرسن) عليه حين قال بأنه «فجرّ طاقاته الشعرية» .

وعلى الرغم من أن قصائد (وتمن) كانت مغرقة في الرومانسية، إلا أنها تميزت أيضاً ببعض خصائص المدرسة الواقعية ومميزاتها، لاسيما في السعي الحثيث نحو إيجاد لغة شعرية حيّة تنبع من صلب الحياة الأمريكية ، وفي التركيز على تفاصيل الحياة اليومية، قبيحها وجميلها، والنزوع نحو توكيد دَوْر العلم والنظرة الجديدة الى الكون والطبيعة والانسان .

ولـلتعبير عن أفكاره هذه ، فقد رفض اللغة الشعرية السائدة في عصره التي اتسمت بالاهتمام بالتفعيلة المنتظمة والقافية والاخيلة المنمقة والاحالات الكثيرة الى الكتاب المقدس والأدب الكلاسيكي. وجرّب نوعاً جديداً من الشعر، يكون فيه النظم متصلاً اتصالاً عضوياً بالمضمون ويعكس ايقاع الحياة الحديثة بتنوعها وتعقيداتها. وكانت لغته الشعرية الجديدة هذه لغة صادقة، خالية من الغش وتزوير المشاعر، وتفصح، باختصار، عن الاحترام الكبير الذي يكنّه الشاعر للانسان الذي كان يغنّي لمجده ورفعة شأنه .

وصلت شهرة (وتمن) الأدبية ذروتها في العقد الثالث من القرن العشرين حيث أشار أحد النقاد الى أن « (وتمن) لم يكن أديباً فحسب، بل يكاد يكون أدباً قائماً بذاته» . وأن قصائده كانت من «الأدب المقدس». ولكن لم تكن جميع الأحكام الأدبية التي صدرت بحقة تمطره بمثل هذا الثناء والتبجيل. وأخيراً ومهما قيل في هذا الرجل، فليس ثمة شك في أن أساليبه الشعرية تركت بصماتها في العديد من شعراء القرن العشرين لاسيما في شعر (كارل ساندبرغ) و (الن جنزبرغ) وآخرين غيرهم في اوروبا وأمريكا واصقاع أخرى من هذا العالم .

مـــن

أوراق العـشـب
أغـنـيـة نـفـســي (*)

[تـعـد (أغـنـيـة نـفـسـي Song of Myself) وهـي أطول القـصـائد التي نظمـهـا (وتـمـن)، احـتـفـاليـة رائعـة بالانسـان الحـديث . وقد نظمت بلغة شعرية تتسم بالجرأة والصدق والبسـاطة تكاد تقـرب من لغـة التـخاطب في بعض مقاطعها . وينبغي ان لا تُفهم كلمة (نفسي) المثبتة في العنوان على أنها تقتصر على الشاعر حسب ، اذ كان يقصد بذلك الانسان في كل مكان .

وقـد أوضـح (وتـمـن) في مـقـدمـة الطبـعـة الأولى (١٨٥٥) ان ورقـة العشـب في نظره لا تقل أهميـة عن النظام الكوني كله. ومن هنا يمكن التـعـرّف على فلسـفـة الشاعر المرتكزة الى وحدة الوجـود وان كل مـا في الكون مظهر من مظاهر عظمة الخالق وتدبيره .

ومما يلاحظ ان القـصـيـدة التي تشتمل على اثنين وخمسين مقطعاً لا تعكس وحدة موضوعية أو تسلسـلاً واضـحاً في المضامين التي تناولها الشاعر. وإنها، أي القصيدة، جاءت لتعبرّ عن أفكار ازدحمـت في مخيّلة الشـاعـر وراح ينشـدها للقـارىء، مـثله في ذلك مـثل الشـعـراء الذين ينظمـون قصائدهم ارتجالاً أمام الجمهور . . . .] .

المحرر

- ١ -

اني احتفي بنفسي ، وأغني نفسي
وما سآخذ به ستأخذون به
وكل ذرّة فـيّ ، هي ذرّة فيكم
اني اطوّف ، وأدعو نفسي
اني اتكىء وأطـوّف ، مطمئناً
أرقب ورقة جديدة للعشب الصيفي

(*) ترجمة الشـاعر سعدي يوسف / دار ابن رشد / بيروت / ١٩٧٩ .

لساني ، وكل ذرة في دمي ، هي من هذا التراب ، وهذا الهواء
لقد وُلدت من أبوين ولِدَ أبواهما هنا ، ووُلد أبوا هذين هنا أيضاً .
اني الآن في السابعة والثلاثين ، موفور العافية
أبدأ ، آملاً ألا أتوقف حتى الممات .
العقائد والمدارس معطلة الى حين
متراجعة
مكتفية بما هي عليه
لكنها غير منسية أبداً
اني ألجأ الى الحسن والسيء
وأتحدث أمام كل خطر
وأتآلف دون حساب والطاقة الأصيلة .

ـ ٢ ـ

المنازل والحجرات متضوعة بالعطور
والرفوف مليئة بالعطور
وأنا اتنشق العَرْف ، أعرفه وأحبه
يسكرني التقطير ، لكن لن أسمح .
الفضاء ليس عطراً
ليس له طعم التقطير ، فهو عديم الرائحة
أنه أبداً لفمي
انني أهواه .
سوف أذهب الى ضفة النهر
جنب الغابة
وأخلع قناعي وردائي
انني متلهف الى أن أتصل بي .
أنفاسي :
أصداء ومويجات ، وهمسات أزّازة

وحبٌّ جوهرٌ ، وخيط حرير
وجذع وكرمة .
وشهيقي وزفيري ، وخفق قلبي
ودورة الدم والهواء في رئتيّ
ورائحة الأوراق الخضر ، والأوراق اليبيسة
والشاطىء ، وصخور البحر السود
والتبن في الُهرْي .
ضجة كلمات صوتي المندفعة في دوامات الريح
قليل من القبلات الخفيفة
قليل من العناقات ، والتفاف ذراعين
لعبة الضوء والظل على الأشجار
حيث الأفنان الرخصة تتمايل .
فرَحٌ أن تكون وحيداً ، أو في مزدحم شارع
أو في الحقول ، وسفوح التلال
الاحساس بالعافية ، وارتعاشة أصوات الهاجرة
أغنيتي تصّاعدُ من الفراش لتلقي الشمس .
هل عددتَ ألف «أكر» (*) كثيراً ؟
هل بقيتَ تتعلم القراءة طويلاً ؟
هل أحسست بالزهو لادراكك معنى القصائد ؟
توقفْ هذا النهار
وهذه الليلة ، معي
تملكْ جوهر كل القصائد .
ولتملكنّ خير الأرض والشمس
(ما تزال هناك ملايين الشموس)
لن تتناول الأشياء التي تداولتها الأيدي

(*) الأكر : مقياس للمساحة يساوي ٤ آلاف متر مربع .

ولن تنظر عبر عيون الموتى
ولن تغْتذي أشباح الكتب
لن تنظر حتى عبر عينيّ
ولن تأخذ الأشياء مني
سوف تنصب الى الجهات كلها ، وتصفيها خلل نفسك

- ٣ -

لقد سمعت قالة القائلين
قالة المبدأ والمنتهى
لكني لن أقول على المبدأ والمنتهى
ليس من مستهل أفضل من مستهل اليوم
ولا من شباب ، أو عصر
ولن يأتي كمالٌ كالذي هو الآن
ولا من جنة أو نار .
الاندفاع ، الاندفاع ، الاندفاع
للعالم ، أبداً هو الاندفاع الولود
وخارج العتمة ، يتقدم الأكفاء الأضداد
أبداً ، هو النبع والفيض
أبداً ، هو الجنس
أبداً ، هو رباط الهوية
أبداً ، هو السمو ونتيج الحياة

الايضاح ليس بالممكن
هكذا يشعر العازفون وغير العازفين .
وأنا أقف الآن مع هذا السر
واثقاً
شديد الأسْر

قوياً مثل جواد
حنوناً ، متسامياً ، مكهرباً
عذبة وصافية هي روحي

وعذب وصاف كل ما هو ليس روحي .
الحاجة الى الواحد ، حاجة الى الاثنين معاً :
اللامرئي يثبته المرئي
حتى يصبح ذاك لا مرئياً ، ويحتاج بدوره الى اثبات
باظهار الحسن وعزله عن الردىء ، يغيظ عصر عصراً

عندما يتناقشون أصمت .
أنا العارف منزلةَ الأشياء وتوازنها
وأمضي ، أغتسل ، فخوراً بنفسي
الرحب والسعة في كل عضو وصفة مني
ومن كل امرىء نظيف واسع الفؤاد
ليس من بوصة أو بعض بوصة . ذات رداءة
ولن تكون أي واحدة أقل ألفةً من البقية

انني لراضٍ :
أنظر ، وأرقص ، واضحك ، وأغني
ما دام ضجيعي المعانق والمحب .... الى جانبي طوال الليل
ويغادرني في طرّة الفجر ، متلصص الخطى
تاركاً لي سلالاً تغطيها مناشف بيض تملأ المنزل

هل اغض النظر عن تقبّلي وادراكي
واصرخ بعينـيّ :
كُفّا عن التطلع الى الطريق

ولا تعتبراني أكثر من سنت واحد
تماماً . مثل قيمة واحدة ، أو اثنين ، وما الى هذين ؟

ـ ٤ ـ

الجوابون والسائلون الذين يحيطون بي
والناس الذين ألقى
وميسن حياتي الأول
والحي ، والمدينة ، اللذان أعيش فيهما
أو الأمة
والمواعـيد الأخيرة ، والمكتشفات والمخترعات والمجتمعات
والمؤلفون : الجدد والقدامى
وطعامي وملابسي ومعارفي ونظراتي وتحياتي وفعالي
التجاهل الحقيقي أو المزيف لرجل ما أو امرأة أحبها
مرضُ قريب لي ، أو مرضي أنا
أو العمل الرديء
أو خسارة المال ، والحاجة اليه
أو الخذلان أو الازدهاء
المعارك ، وفظائع حرب الأشقاء
وحّمى الأنباء الغامضة ، والأحداث القاسية ـ
هذه كلها ، تأتيني أياماً وليالي ، وتغادرني
لكنها ليست أنا نفسي .

بعيداً عن الشد والجذب يقف ما هو أنا
يقف : دهشاً ، رضياً ، متدفقاً ، عاطلاً ، متوحداً
مطأطئاً ، منتصباً ، أو مستنداً على الذراع في استراحة ما
ناظراً برأس مائل يتطلع الى الآتي
داخل اللعبة ، وخارجها معاً

أرقبها وأدهش لها
وأعود الى الماضي ، فأرى حياتي
أيام كنت أعرقُ في الضباب
مع اللغويين والمتجادلين .
لست ذا حيل وحجج ...
انني أشهد وأنتظر .

ـ ٥ ـ

أؤمن بك يا نفسي
لكن عليّ الا أجعل الآخر أقل منكِ شأناً
وعليكِ أنت ألا تكوني أقل من الآخر شأناً

تسكعي معي على العشب
أطلقي العقدة من حنجرتك
لا أريد الكلمات ، ولا الموسيقى ، ولا الايقاع
ولا العادة ولا الثقافة
حتى ولا الأفضل من هذه كلها
أريد الهدهدة حسب :
خفوتِ صوتك المصّرع .
اتذكر مرةً
كيف تمددنا في صباح صيفي شفيف
كيف أرحتِ راسك على عجيزتي
واستدرت الـيّ لطيفةً
وكنتِ علـيّ
كيف فتحتِ قميصي من عظم الصدر
وبلغتِ بلسانك قلبي العاري الكشيف
واستمررتِ حتى شعرتِ بلحيتي

واستمررتِ حتى أمسكتِ بقدمـيّ .

فجأةً اشرقت حولي وانتشرت
الطمأنينة والمعرفة اللتان تفوقان كل جدال الأرض .
أنا أعلم أن يد الله هي وعدُ يديّ
وأعلم أن روح الله شقيقة روحي
وأن الرجال هم أشقائي
أن كل النساء شقيقاتي وعشيقاتي
أن أصل الخليقة الحب
وانها لا تحصى ولا تُـعـدّ :
الأوراق اليبيسة ، أو المتساقطة في الحقول
والنمل البني في الآبار الصغيرة أسفلها
وطحالب السياج المهترىء
وأكوام الحجر
ونبات اذن الدب ، وعنب الذئب .

- ٦ -

قال طفل ، وهو يقدم لي العشب بكلتا يديه :
ما العشب ؟
انّى لي أن أجيب الطفل ؟
انني لا أعرف أكثر مما يعرف
ربما كان العشب راية نزعتي
منسوجةً من مادة خضراء متفائلة
أو قد يكون منديل الله
حاملاً اسم صاحبه ، بصورة ما ، في الزوايا
فلربما رأيناه ، ولحظناه ، وسألنا : اسم من ؟
ولربما كان العشب بنفسه طفلاً ، وليد النبات

وربما كان كتابه هيروغليفية
معناها «التبرعم»
في المساحة الضيقة ، والمسافة الواسعة
نامياً بين السود ، نماءه بين البيض
انني أهَبُ كانوك ـ توكاهو ـ كاف ـ الشيءَ نفسه
وأتقبلهم التقبل نفسه .
الآن يتراءى لي العشب شعراً للقبور جميلاً مرسلاً .

رقيقاً سأتناولك أيها العشب الجعد
فربما كنتَ نجمتَ من صدور شبان أُحبهم لو رأيتهم
ربما كنت نجمت من جديدي الولادة
المنتزعين من أحضان أمهاتهم .
ان هذا العشب
هو أكثر سواداً من أن يكون قد نَجَمَ
من الرؤوس البيض للأمهات العجائز .
انه أكثر سواداً من أن ينجم
من لحى الشيوخ التي لا لون لها .
العشب أسود ، لأنه نَجَمَ من اللهوات الحمر
انني أحس الآن بألسنة عديدة تتمتم
وأحس أنها لم تنطلق من لهوات الأفواه عبثاً .

كم أحب أن أترجم ما يقوله الشبان والشابات الموتى
وما يقوله الشيوخ والأمهات
والوليد المنتزع من أحضانهن سريعاً !

ماذا ترى حلّ بالشبان والشِيب ؟
وماذا ترى حلّ بالنسوة والأطفال ؟

انهم أحياء معافون في مكان ما
فأدق برعم يقول : لا وجود للموت حقاً
ولو حدث أن كان موت
فسيقود الى الحياة قُدماً
ولن ينتظر في النهاية أن يحكم قبضته عليها .
انه يتوقف لحظة تتبدى الحياة .
كل شيء يسير قُدماً ، وعالياً ، ولاشيء يسقط .
أن يموت المرء ...
أمرٌ مختلف عما يُظَن :
أمرٌ أسعد حظاً .

- ٧ -

هل ظنّ امرؤٌ
أنه سعيد الحظ بأن ولد ؟
أسارع ، فأقول له ، أو ، لها :
انه لسعيد الحظ كذلك ، بأن يموت .
وأنا العارف السبب
انني ادع الموت للموتى
والولادة ، للطفل المغسول جديداً
فأنا لست مقتسمًا بين قبعتي وجزمتي .
انني أسعى من أجل غايات عديدة
لا تماثل واحدتها الأخرى ...
وكلها طيبة
الأرض طيبة ، والنجوم طيبة ، وتوابعها طيبة كلها
وأنا لست أرضاً ، أو تابع أرض
أنا عشير الناس ورفيقهم
وكلهم عادل ، وخالد ، وبعيد الغور ، مثلي

(انهم لا يعرفون كم هم خالدون ، لكني أعرف)

كل نوع ، على نوعه يقع
أما أنا ، فلي الذكر والأنثى
لي اولئك الذين كانوا أولاداً ، وأولئك الذين يحبون النساء
لي الرجل ذو الكبرياء ، والذي يحس بوخزة الاهانة
لي الحبيبة والعانس
لي الأمهات ، وأمهات الأمهات
لي الشفاه التي ابتسمت ، والعيون التي دمعت
لي الأطفال ، ومنجبو الأطفال .
أهتكوا الأستار ! انكم لم تذنبوا بحقي ، لست أكرهكم ، ولا أرفضكم
انني أبصر من وراء الأستار ...
منتبهاً ، مستفسراً
قوياً ، لا يهزني شيء .

من قصيدة

عندما تفتحت أزاهير الليلاك

ترجمة : د. ضياء الجبوري

[كتب (وتمن) قصيدة (عندما تفتحت أزاهير الليلاك When Lilacs Last in the Dooryard Bloom'd) في رثاء الرئيس (ابراهام لِنكن Abraham Lincoln) ، وهي واحدة من عدة قصائد نظمها الشاعر في رثائه. وقد كانت ازاهير الليلاك في اوج تفتحها عندما سمع (وتمن) نبأ اغتيال الرئيس الأمريكي . فاهتزت مشاعره لهذا الحدث، لاسيما أنه كان يسكن على مقربة من مقر اقامة (لِنكن) خارج واشنطن مما أتاح له رؤية موكبه وتبادل التحية معه كل يوم تقريباً .

ويعبّر الشاعر في هذه القصيدة عن الفجيعة التي عمّت البلاد أثر هذا الحدث الجلل من خلال رموز ثلاثة: النجمة (لِنكن)، وزهرة الليلاك (الحب) والعندليب (الشاعر نفسه)] .

المحرر

(١)

عندما تفتحت أزاهير الليلاك في باحة الدار آخر مرة ،
وهوى النجم العظيم (*) قبل أوانه في ظلمة الليل وغاب عن سماء الغرب ،
فجعت ، وسأظل افجع كلما حلّ الربيع !
أيها الربيع العائد أبداً ــ كلما تلّم بي ، جئتني بثالوثك :
الليلاك المزهر دوماً ، والنجمة الهاوية في الغرب
وذكرى من أحب

(*) المقصود هنا (ابراهام لِنكن) .

(٢)

إيه يا نجمة الغرب المنيعة التي هوت :
إيه يا عتمة الليل ـ إيه يا أيها الليل المغموم الباكي !
إيه أيتها النجمة العظيمة التي اختفت ـ
إيه أيها الظلام الدامس الذي يحجب النجمة عني !
إيه أيتها الأيادي الأثيمة التي تكبّلني ـ إيه يا روحي العاجزة !
إيه أيتها الغمامة الفظّة الخانقة التي تأبى أن تطلق روحي من الأسر .

(٣)

في باحة الدار المواجهة لكوخ قديم قرب السياج الأبيض
تنتصب شجيرة الليلاك السامقة ، بأوراقها الخضراء النضرة القلبية الشكل ،
وقد بانت البراعم الرقيقة المدبّبة بعبيقها النفّاذ الذي أحب .
في كل وريقة معجزة ـ ومن هذه الشجيرة في باحة الدار
بازاهيرها الرقيقة الألوان وأوراقها الخضراء النضرة
القلبية الشكل
قطعت غصيناً بازاهيره .

(٤)

وفي الأركان القصية في المستنقعات
ثمة طير خجول يردد أغنية من مخبئه .
هذا العندليب المنزوي
القابع بعيداً عن مواطن البشر
يشدو باغنية لوحده
اغنية حزينة دامية
أغنية الموت التي تفجرت منها الحياة
(فلو لم يكن بمستطاعك الغناء ، أخي الكريم ، لكنت ، حتمًا ،
في عداد الأموات)

إمـلـي دكـنـسـن
(١٨٣٠ ـ ١٨٨٦)

د. ضياء الجبوري

لمحة عامة :

ان قصة النجاح الذي حققته (املي دكنسن) من أكثر القصص اثارة في تاريخ الأدب الأمريكي كله. فقد أدّى اكتشاف قصائدها (التي كانت تكتبها على المغلفات وقصاصات الورق وترزمها لتخفيها في خزانات ملابسها) الى تسلقها سلم الشهرة على نحو خاطف لتصبح واحدة من أعظم من كتب الشعر في العالم بعد أن كانت طيلة حياتها امرأة مغمورة لا يكاد يعرفها أحد خارج مسقط رأسها .

حياتها :

ولدت (املي اليزابث دكنسن) عام (١٨٣٠) في (امهرست ، مستشوستس Amherst, Massachusetts) وكانت حياتها خالية من الأحداث المهمة. تلقّت تعليمها في اكاديمية (امهرست) التي أنشأها جدها بالقرب من المنزل الكبير الذي كانت تسكن فيه. وترعرعت في مجتمع متزمّت لم تكن المرأة فيه تتمتع بأي نوع من الحريات الاجتماعية أو الفكرية. وعلى الرغم من الأجواء المتدينة التي قضت طفولتها وشبابها فيها ثم انخراطها في احدى المدارس الكنسية المخصصة للبنات ، لم تكن (املي) تتقبل الأفكار الكالفينية Calvinist المتشددة السائدة في نيوانجلند آنذاك. وكان خجلها الظاهري يخفي وراءه قدراً كبيراً من الحزم والاعتداد بالنفس .

ومن المواضيع التي شغلت بال الكثيرين من مؤرخي الأدب الأمريكي ، انكفاء (املي) على نفسها وانطوائيتها المفرطة . فبعد أن بلغت منتصف العشرين من عمرها ، أخذت تنسحب شيئاً

فـشـيئاً من الحياة العامة وتعيش في عزلة شبه تامة عن العالم وقد تعود أسباب هذا الانكفاء الى قصة حب فـاشلة عـاشـتـهـا الشاعرة . على أن مما يبعث على الحيرة، ان هذه المرأة التي عاشت في بيئة محافظة وفي ظل الأفكار البـيـوريتـانيـة المتـزمتة، قد أنتجت شعراً يتسم بالشجاعة والرفض والثورة، ولا يخلو في الوقت ذاته من روح الدعـابة والطرفة .

شعرها وموقعها في الأدب الأمريكي :

بدأت (املي دكنسن) كـتـابة الشـعـر منذ سن الخامسة عشر وقد طرزّت أول قصيدة لها «أيها السـيد المسيح، ليُخَلد اسمك الكريم» على قطعة من الحرير . ولكنها لم تنصرف الى نظم الشعر على نحـو جـدي الا في عـام ١٨٦١ . وكـان شـعـر (امرسن) وكتاباته الأخـرى ، لاسيما مقالته الشهيرة (الاعتماد على النفس Self - Reliance) ، ذات تأثير مباشر على أسلوبها ومنطلقاتها الأدبية .

ان عـلاقـة (دكنسن) بعـالم الكتب لم تكن تختلف كـثيراً عن علاقتها بعالم البشر الذي كانت تختـار اصـدقـاءهـا فيه بعناية بالغة. فلم تكن تلتهم الكتب التهاماً، بل اقتصرت قراءتها على بعض المؤلفـات التي درسـتـهـا بعمق. وكان الكتاب المقدس وأعمال شكسبير ، وقصائد الشاعر الرومانسي (جـون كـيتس) ، من أهم هذه المؤلفات. وكانت أيضاً تشعر بميل شديد لكتابات الأدباء الانجليز الذين عـاصروها من مـثل الشـقـيـقـات (برونتي) و(روبرت براوننغ) وزوجـتـه الشـاعرة (اليزابث) و(الفـرد تنيـسن) والروائيـة (جـورج اليـوت). وعلى الرغم من شـغـفها بكتابات هؤلاء جميعاً، فلم يكن لأي منهم تأثير يُذكـر على أعمالها الأدبيـة. كـانت قـصائدها القصيرة التي بلغ عددهـا ١٧٧٥ قـصـيـدة تشـبـه الأناشـيـد والتراتيل التـي قـد تنطوي في بعض منهـا على اصـداء خـافـتة للشاعر الميتافيزيقي الكبير (جون دَن John Donne) .

ان شـعـر (دكـنـسـن) الـذي يبـدو في ظاهره بسيطاً ونمطيـاً وذا ايقـاع غير مـعـقّد، غنّي بالافكار، ويسـحـر القـارىء بجمال اللغـة وعـمق المشاعر النبيلة. وقد كتبت (دكنسن) في مواضيع شـتـى أهمهـا : الحب، الطبـيـعـة، الصـداقـة، الموت، سر الوجـود ومـا الى ذلك. ولعل من أهم المواضـيـع التي كـانت تحـاول التـعـبير عنها في قصائدها هي «الذات» و «النفس البشرية» و «القدر المحتـوم». وكـانت تسـعى الى فـهم العـلائق الخـفـيـة التي تربط الانسان بالوجود وحل هذا اللغز الأبدي . ولعـدم قـدرتها على التـوصل الى حلول مـقنعة ، فقد استمدّت بعض أجوبتها من فلسفة التـسامي الامرسونية، لأنها كانت تعد (إمرسن) أباً روحياً لها .

لم يُنشر لـ (دكنسن) عندما كانت على قيد الحياة سوى سبع قصائد فقط. ويرجـع الفضـل في الكشـف عن هذا الكنز الشـعـري الى شقيقـة الشـاعرة (لافينيا Lavinia) التي استطاعت، بعد

أربع سنوات من وفاة (املي) وبمعونة أحد اصدقاء العائلة، أن تقنع الناقد (هِجنسن Higginson) بالاشراف على تحقيق ونشر بعض قصائدها. ولم تُنشر أعمالها الشعرية الكاملة حتى عام ١٩٥٥ .

نماذج من شعر (إملي دكنسن)

يتّسم شعر (إملي دكنسن) بمسحة شبه صوفية لا تعترف بالنظرة التقليدية الى الزمان والمكان. وكانت في شعرها تضفي على الجماد خصال البشر وتتناول الافكار المجرّدة كما لو كانت هذه الأفكار واقعاً ملموساً. فالموت (سائق عربة) على جانب كبير من الوداعة والتهذيب، والسعادة (مُسافر) يتوارى عن الانظار، والسماء (لا تقوى) على حفظ سرها. أما السهول والجبال والبحار والطيور فانها جميعاً تنبض بالحياة وتنطق وتتحاور وتستجيب .

وتتمثل جرأتها الأدبية باصرارها على وصف مشاعرها على نحو صادق ودقيق يجعلها تبدو وكأنها ساذجة وبريئة كالاطفال أحياناً .

ولم تكن (دكنسن) تعبأ كثيراً بالتقاليد الشعرية السائدة المتصلة بالقافية والوزن. ومضت تنظم شعرها بوحي من دراستها لبعض الأنماط الشعرية التي سبق ذكرها ومن استلهام مشاعرها المرهفة ، فجاء شعرها غنياً بمعانية ودلالاته ومفعماً بالصور الشعرية غير المألوفة والالفاظ المتساجعة والعبارات التي قد تنطوي على بعض الغموض أو التناقض الظاهري .

لم تقوَ السماء أن تحفظ سرها ! (*)

لم تقوَ السماء أن تحفظ سرها !
فحدثت به الجبال ،
والجبال حدثت به السهول ،
والسهول حدثت به المزارع .
مرّ عصفور وسمع كل شيء
صدفةً بهدوء .
فلو هددتُ ذلك العصفور
من يدري ماذا يقص علي ؟
أظن أنني لن أفعل ذلك
ومن الأفضل الا اعرف شيئاً .
فاذا كان الصيف لغزاً
فكيف يكون سحر الثلوج ؟
احتفظ بسرك يا آلهي .
لا أريد أن اعلم شيئاً عنه ولو استطعت أن أعرف
ما يفعله رفاق الياقوت
بعالمك في وضح النهار !

* * *

(*) ترجمة محمد صالح البنداق - زورق السحر والخلود - بيروت ١٩٦٠ .

جميع قصائد إملي دكنسن الواردة هنا مأخوذة من نفس المصدر، ما لم يرد عكس ذلك.

ها أنا أتذوق شراباً جديداً

ها أنا أتذوق شراباً جديداً
صُبّ في كؤوس من لجين
ان جميع دنان نهر الرين
لا يُرشف منها نفس الطعم ،
انا نشوانة من النسيم المنعش
وقد أسكرني الندى
اقضي الصيف متسكعة على أبواب
حانات زرقتها في هذيان .
ارفعي أيتها الملائكة قبعاتك
الثلجية بالتحية أيها القديسون اقبعوا
عند الشباك كيما تشاهدون سكّيرة
صغيرة تتعلق بالشمس !

* * *

بيت على الجبل

بيت على الجبل
لا يبلغه أحد
لم يخرج منه أي نعش
ولم يقربه انسان .
ما تصاعد من وجاقه دخان ،
وشبابيكه تستقبل
الفجر والغسق ،
صباح مساء ،
عندما يتعلقان بمربعاتها الفارغة .
عرَفت مصيره الأوهام
ولم يعرفه الجيران .
ولم يتغنّ به صوت طفل
لأننا احتفظنا بسّره !

* * *

متّ من أجل الجمال ولم أكد

متّ من أجل الجمال ولم أكد
اوضع في حفرة القبر
حتى واروا في القبر المجاور
ميتاً من أجل الحقيقة .
سألني بلطف لماذا مت ؟
فأجبته : «من أجل الجمال»
فقال : أما أنا «فمن أجل الحقيقة» ،
هنا الاثنان يساويان واحداً : اذن
نحن اخوان .
وهكذا ، طفقنا نتحدث من قبر الى قبر ؛
لقد أصبحنا اهلاً في الظلمة ،
ففاض على شفافنا اللعاب
وغطى اسماءنا .

* * *

لماذا أحبك يا سيدي ؟

لماذا أحبك يا سيدي ؟ ..
لأن
النسيم لا يسأل العشب
ان تجيبه لماذا ،
عندما يمر ،
لا تستطيع ان تبقى واقفة في مكانها
فالبرق لم يسأل يوماً
العيَن أبداً
لماذا تنطبق
عندما يحصل
لأن البرق يعلم
ان العين لا تستطيع أن تتكلم
ولأن هناك أسباباً لا يملكها الكلام
بفضلها أناس عِذابٌ رِقاق !

* * *

إذا رغبت بالمجيء في الخريف

إذا رغبت بالمجيء في الخريف
فان يدي تزيح الصيف
هازئة باسمه
كالمرأة اذ تطرد الذبابة ...
لو استطعت ان اراك بعد عام
لصنعت من اشهره كرات ،
اضع كلاً منها في علبته
بانتظار ان يحين الموعد .
ولو اخّرتك العصور
لعددتها على أصابعي
فينطوي الواحد بعد الآخر وتذهب أصابعي
بعيداً الى أرض تسمانيا
ولو عرفتُ ، اذ أطفئت الحياة
اننا ما زلنا حيين
لقذفت بها باهمال
لأذهب واتذوق طعم الخلود .
اني أجهل الآن
طول جناح الزمن المريب
هكذا تهيّجني النحلة
اذ تتأخر بلسعي .

* * *

فراشتـان انطلقتـا عنـد الظهيـرة

فراشتان انطلقتا عند الظهيرة
وحوّمتا ترقصان فوق الغدير .
ثم اتجهتا باستقامة نحو الفضاء الكبير
لتقفا على شعاع منه .
ثم عاودتا رحلتهما
الى بحر برّاق
رغم أنه لم يُذكر وصولهما
في أي مرفأ من مرافئه .
فلو أن طيراً استدرجهما من بعيد
أو باخرة صادفتهما في البحر الاثيري
لما أُنبئت عنهما شيئاً —

* * *

يقيدونني في النثر

يقيدونني في النثر
كما كانوا يقيدونني ، وأنا بعد صغيرة ،
في الخزانة
رغبة في هدوئي .
«هادئة» آه لو تمكنوا ان يروا
كيف تتفاعل الأفكار في دماغي،
لكانوا يسجنون الطير لخيانته
وهم عندما يكونون حكماء .
يكفيه ان يريد ذلك
ليحتقرهم على سجنه، وهو في دَعَة كالنجم
وليضحك منهم .
وهذا شأني !

* * *

لأنني لم أستطع التوقف للموت (*)

لأنني لم استطع التوقف للموت ،
تلطف هو وتوقف لي ،
العربة حملتنا فقط وحدنا
مع الخلود .
سرنا ببطء ، فهو لا يعرف الاسراع ،
وأنا تركت جانباً
تعبي وراحتي معاً
لتأدبه .
مررنا بالمدرسة ، حيث الأولاد يتنزهون
في الملعب وقت الفراغ .
مررنا بحقول القمح المحدّقة ،
مررنا بالشمس الغاربة .
أو قلْ ، هو مرّ بنا ،
الانداء بعثت في الرجفة والقشعريرة ،
اذ كان ردائي شفاً
ومعطفي من تول .
وقفنا أمام بيتٍ بدا
كانتفاخة للأرض ،
السقف يكاد لا يظهر ،
والجدران تحت الأرض .
مذّاك مضت قرون ، ومع ذلك
فكأنما هي أقصر من يوم
حسبت رؤوس الجياد فيه
متجهة صوب الأبد .

* * *

(*) ترجمة يوسف الخال / ديوان الشعر الأمريكي / دار مجلة شعر / بيروت ١٩٨٥ .

الله يعطي كل طير رزقه

الله يعطي كل طير رزقه
أما أنا فلا أنال سوى كسرة خبز
لا أقضم منها شيئاً رغم جوعي
ان ما في نفسي من غبطة
لحصولي على خبزي ، تنبئني
كم أنا سعيدة في حالي هذه
ان أكون كالعصفور فاطلب المزيد
فلو عمّت المجاعة ما حولي
ماذا أفعل بسنبلتي ؟
وطالما رفرفت البحبوحة علـيَّ
فان معجني يرضيني
وكم وددت لو أسبر غور قلوب الأثرياء
قلب لورد أو تاجر من الهند
لكنني أراني ، وأنا مقتنعة بكسرتي ،
أميرة الأثرياء ، وسيدة الجميع !

* * *

هذا الرماد هو بقية من رجال ونساء

هذا الرماد هو بقيةٌ من رجال ونساء
وبنين وبنات
كانوا ملء الحياة ـ ابتساماً وتحسراً
ونشاطاً وألبسة وحُلى ،
وهذا المكان القاتم ، كان فيما مضى حديقة
ضاحكة ،
تتنقل فيها النحلة من زهرة الى زهرة
متابعة سيرها ابتداء من الشرق !
لقد فنيت كلها أيضاً !

* * *

عصفت الريح فأرقصت الأعشاب

عصفت الريح فأرقصت الأعشاب
وزأر الخوف بصوت منخفض
لكنه في هيجانه ،
هدد الأرض والسماء ؛
فتناثرت الأوراق على الأغصان
متطايرة هنا وهناك
وهبَّ الغبار في دورانه
يطارد الطريق .
سارت العربات مسرعة في دربها
وقصفت الرعود
وابرزت الصاعقة منقارها الكبريتي
وبراثنها الجامحة
فاحتمت العصافير بأعشاشها
ولجأت الحيوانات الى اوجارها
وهطلت نقطة هائلة ،
كما لو أنّ
الماء فاض في السماء
وقد رُفعت عنه السدود ،
لكنّ شجرة واحدة انفطرت
زائغة عن منزل والدي

* * *

عـنـدمـا أشـاهـد الـشـمـس

عندما أشاهد الشمس
تخرج من خدرها
لِتَهَبَ النورَ كل بيت
وتترك منها في كل مكان ،
عندئذ ، اعتبر ؛ ما عدا
هذا التفاصيل : المجد والضجيج ،
ان الأرض طبل كبير
يلحق به أولاد صغار ! ...

* * *

كانت عندي سعادة

كانت عندي سعادة انظر
اليها كل يوم دون مبالاة .
وفجأة اذا بها ترحل
وتعظم كلما طاردتها
حتى اختفت عن ناظري ،
خلف صخرة ،
كانت أكبر من أن يشملها بصري .
عندها عرفت معنى السعادة .

* * *

عندما تعود وتورق الزهور

عندما تعود وتورق الزهور
ـ هذا اذا نبتت ثانية ـ
اتساءل هل تعود
عندما تكون قد ذبلت ؟
واتساءل عن الطيور
هل تعود أيضاً ؟
اشك بأن أكون قد سمعت
زقزقتها ـ ذاتها ـ ثانيةً في العام الماضي .
عندما يزهر شهر أيار
ـ اذا كان في وسعه أن يزهر ـ
من لا يحسّ بالضيق
عندما يفكر بأن هذا الوجه الجميل
لن يعود الى الاغتباط به ؟
لئن كُتب لي بعدُ أن أعيش
اذ لا أحد يدري
غداً
أين يسوقه القدر ،
فسوف لن اقول شيئاً .

* * *

مـارك تـويـن
(١٨٣٥ ـ ١٩١٠)

د. ضياء الجبوري

لمحـة عـامـة :

يعد (ساميـول لانجهـورن كليمنـز Samuel Langhorne Clemens) الذي كان يكتب تحت اسم (مـارك توين) أعظم كـاتب سـاخـر في التـاريخ الأدبي للولايات المتـحـدة الأمـريكيـة . وقـد أحـرزت كـتـاباته، لاسيما تلك التي كان أبطالها من الصبية واليافعين، شهرة عالمية لا يضاهيه فيها الا القلّة القليلة من الأدباء. وترجمت أعماله الى مـعظم لغـات العـالم، وغدت مقولاته اللاذعة التي تهزأ من مـواطن الخلل أو الضعف في النفس البشرية، تسري على كل شفة ولسان .

حـيـاتـه :

ولد (سـاميول كليـمـنـز) عام ١٨٣٥ في إحدى قرى ولاية ميزوري Missouri وترعرع في مدينة (هـانـيـبـال Hannibal) التي تطل على نهر المسـيسيبي العظيم . وهناك قضى طفولته مأخوذاً بروعـة الطبيعة الحالمة ومفتوناً بما يجري حوله من حركة دائبة كان المسيسيبي يمثّل شريانها الحيوي. اضطر الصـبي (كليـمنز) لترك دراسته ليصبح عاملاً متدرباً في احدى المطابع المحلية. وأخذ يشتغل في مـهنة الطبـاعـة مـتنقـلاً في عدة مدن امتدت من سنت لويس غرباً الى نيويورك شرقاً. وعاد بعد ذلك الى ميزوري ليبحر منها بعد سنتين في نهر المسيسبي متجهاً نحو أمريكا الجنوبية، محاولاً تحقيق أحـلامـه في العـيش الرغيد على ضفاف (الأمزون) الخصبة. ولكنه قطع رحلته هذه في (نيو اورلينز) عندمـا عُرِض عليـه العـمل في أحـد الزوارق البخارية. وفي الحال انقضّ على هذه الفرصة الذهبية وبات يـبـحـر في المسيسبي جيئة وذهاباً وهو يستمد من حياة النهر دروساً عظيمة من خلال اختلاطه

بالانماط البشرية التي تعرّف عليها البحّار الشاب. وكان لهذه الفترة الأثر العميق في إغناء كتاباته الأدبية فيما بعد. وكانت روح (مارك توين) تنفر من الاستقرار والتموضع، لذلك كان كثير التنقل والسفر كلما أمكنه ذلك. وقام بجولات خارج الولايات المتحدة أيضاً، منها مرّة الى جزيرة هاواي ومرّة الى اوروبا والشرق الأدنى حيث زار فلسطين وذهب الى استراليا أيضاً .

تذوّق (توين) حياة الاستقرار بعد زواجه من (أوليفيا لانغدن Olivia Langdon) سنة (١٨٧٠) وكانت السنوات العشرون التي تلت اقترانه بها ، من أسعد فترات حياته واغزرها انتاجاً . وعندما دُعي لالقاء سلسلة من المحاضرات في استراليا وأوروبا اصطحب عائلته الى هناك، ولكنه قطع زيارته لدى سماع نبأ وفاة ابنته الكبرى المفاجىء . وتتابعت المآسي والأحزان على عائلة (مارك توين) فاصيبت ابنته الصغرى بمرض لا شفاء منه وانتهت مشاريعه التجارية الى الافلاس التام وبعد ذلك اصيبت زوجته بالانهيار والضعف العام . وفي محاولة لتغيير أجواء حياتها ، اصطحبها الى فلورنسا في ايطاليا عام ١٩٠٣ ، ولكنها فارقت الحياة بعد خمسة شهور وتركته صريع الحزن والوحدة القاتلة . وقد عبّر عن حالته تلك في العديد من مقالاته التي كتبها بعد وفاة زوجته التي كان يدعوها بـ(الملاك). وفي ١٩٠٦ بدأ كتابة سيرته الذاتية. ونشر بعد ذلك آخر عمل له وهو «مقتطفات من زيارة الكابتن ستورم فيلد الى الجنة Extracts from Captain Stormfield's Visits to Heaven » عام (١٩٠٩) الذي كتبه باسلوب ساخر مرير لم يستطع فيه اخفاء يأسه من «الجنس البشري اللعين».

توفي (توين) في ١٩١٠ بعد حياة حافلة زاخرة جمع فيها ثروات طائلة حيناً وغرق في الديون حتى اذنيه ، حيناً آخر . ولكنه ، على الرغم من تقلبات الدهر وصروفه، استطاع الصمود والوقوف على قدميه. وحوّل اخفاقاته المتكررة الى أعمال أدبية رائعة. وأخيراً فلا بدَّ من الاشارة إلى أن (ساميول كليمنز) استخدم اسمه المستعار (مارك توين) لأول مرة عام ١٨٦٣ . و (مارك توين) مصطلح انجليزي يستخدمه البحارة عند قياس عمق المياه في الأنهار .

ادبه وموقعه في الأدب الامريكي :

كان (مارك توين) الذي بدأت انطلاقته الابداعية الهزلية عام (١٨٦٣) يكتب بلغة أمريكية النكهة وباسلوب بليغ ومؤثر أدى الى الارتقاء كثيراً بالأدب الفكاهي الساخر . وساعدته خبراته المتنوعة واسفاره الكثيرة وتعدد الأعمال التي قام بها واختلاطه بعليّة القوم حيناً والشرائح المنحطّة حيناً آخر على أن يصبح المرآة التي تكشف عيوب الآخرين بكل دقة وصراحة. وكان فوق كل هذا وذاك، ينهل من تجارب طفولته وصباه. وعندما كتب توم سوير

The Adventures of Tom Sawyer عام (١٨٧٦)، استمد معظم مادته الأدبية من أعماله الصبيانية الطائشة وسلوك اقرانه في مدينته (هانيبال).

نال (مارك توين) أول شهرة أدبية له في الساحل الشرقي للولايات المتحدة بعد صدور قصته المسماة «الضفدع النطاط (١٨٦٥) The Celebrated Jumping Frog of Calveras Country». وتجلّت الروح الاصلاحية لديه عندما نشر كتاب «عصر البريق الزائف The Gilded Age» (١٨٧٣) مع زميله (تشارلز ددلي ورنر) .

ويعد (مارك توين) من أهم الذين أرّخوا للولايات المتحدة في كتاباته . فسلسلة الخواطر التي كان ينشرها في مجلة (اتلانتك Atlantic) التي كان يحررها صديقه (وليم دين هاولز W. D. Howells) بعنوان «الأيام الخوالي على ضفاف المسيسبي» (١٨٧٥) "Old Times on the Mississippi" أو "Life on the Mississippi" كما ظهر اسمها في طبعة عام (١٨٨٣) بعد اضافات رائعة عليها تزخر بالصور الحية لما يدور على متن السفن التي تجوب المسيسبي والمدن والقصبات التي ترتبط حياتها بهذا النهر العظيم .

ومن اسهامات (توين) الخالدة : «مغامرات توم سوير» و «هكلبري فن» . ونالت هاتان الروايتان شهرة اسطورية وحققتا شعبية واسعة في أوساط الصغار والكبار بسبب الأحداث الواقعية العفوية واللغة العامية غير المتكلفة والتصوير الشعري لعالم البراءة والطفولة والانطلاق. وعلى الرغم من ظهور بعض المؤلفات التي لم يكتب لها النجاح الذي كان ينشده ، من مثل «على مدار خط الاستواء (١٨٩٧) Following the Equator و «الرجل الذي أفسد هدليبرغ (١٩٠٠) The Man Who Corrupted Hadleyburg إلا أنه بقي محتفظاً بذلك السلاح السحري العجيب : اللغة، فقد كان (توين) عاشقاً للكلمة المؤثرة وسيّدها . وارتقى بفن استعمال اللغة الدارجة الى الحد الذي جعل ظهور المفردات العاميّة أو الهابطة أمراً متوقعاً بل مقبولاً في اللغة الأدبية .

وقد أثنى (وليم دين هاولز) على (مارك توين) الذي حرّر اللغة الأدبية من بعض القيود التي كانت تحدّ من حرّية الكاتب حين قال : «ان منزلة (مارك توين) في الأدب الأمريكي تماثل منزلة (ابراهام لِنكن) في التاريخ الأمريكي» .

حـكـايـة (أبـو زريـق)

ترجمة : د. ضياء الجبوري

[من اسـهـامـات (مـارك) توين الكثيرة أنه بعث الحياة في اسلوب سرد الحكايات الشعبية في التـخوم الأمريكية . ويحدثنا (مارك توين) في مقالة بعنـوان (كيف تروي حكاية How to Tell a story) ، إن طريقـة سرد الحكاية الفكهـة أو السـاخـرة، أهم من احـداثها، لاسيما حين يتظاهر الراوية بالجـدية التـامـة في أثناء سرده للمـفـارقـات أو الأحداث المثيرة للضحك. وكثيراً ما يستطرد الراوية ويتـحـدث عن أمـور متـشـعبة تبتعد كثيراً عن خيط الأحداث ثم ينهي حكايته بجملة أو تعليق مـقـتـضب . وهنا ، مـا على القارىء إلا أن يكون يقظاً ، متوقد الذهن كي لا يفوته المغزى الذي تنطوي الحكاية عليه] .

المحرر

لا يشـعـر المرء بالملل أو الاعـيـاء اطلاقـاً حين يتوغل في الغابات الكثيفة التي تكسو تلال (نيكر Nekar) على ضـفاف نهر الراين، فالولوج في أعماق الغابات حيثما كـانت ، يبـهج القلوب ويأسرها . بيـد أن الأسـاطير والحكايات الشعبية الألمانية قد اضـفت المزيد من السـحـر والجمال على هذه الغابات لأن الموروث الشعبي يحدثنا عن الجن والأقـزام والعـفـاريت وبقـيـة المخلوقـات العجيبة التي تسكنها. وقبل أن أتوجه الى هذه التـلال كنت قـد قرأت الكثير عن تلك الاساطير والحكايات حتى تهيأ لي أن الجن والعـفاريت كانت موجودة في عالم الواقع فعلاً .

وفي عصر أحـد الأيام ، وحـينما كنت اتجـول في الغابة على بعد ميل تقريباً من الفندق الذي كنت أنزل فـيـه، ضللت طريقي، وفي الحـال وجـدتني كمن ولج عوالم الجن والسـحـر والاسـاطير والحـيوانات الناطقة والأرواح. وتراءى لي أنني بدأت المح مخـلوقـات تظهـر لبرهة ثم مـا تلبث ان تـوارى بين الاشـجـار. وكـانت الافكار التي

تجول بخاطري حينذاك تتواصل والركن الذي ضللت طريقي فيه وتنسجم معه. وكانت اشجار الصنوبر كثيفة جداً غطت اوراقها الأبرية المتساقطة أرض الغابة وتشعر المرء بأنه يمشي على بساط بني من الصوف الذي لا يصدر أي صوت حين تطأه الاقدام. وكانت جذوع الاشجار تشبه اعمدة الرخام. وكانت اغصانها السفلى عارية تماماً بينما كانت الاغصان العلوية الخضراء متشابكة ومتراصة الى الحد الذي تحجب فيه كل شعاع للشمس. وعلى الرغم من أن الشمس كانت ساطعة في الخارج، كانت الغابة مظلمة موحشة يلفها سكون رهيب لا يكاد المرء يسمع فيها أي صوت سوى انفاسه .

وفي هذه الأثناء وبينما كنت واقفاً أتأمل واستحضر افكاري المشتتة واهيىء نفسي للأجواء التي يمكنني فيها أن استمتع بخوارق الطبيعة ، اطلق غراب نعيقاً فظاً انبعث من أحد اغصان الشجرة التي كنت أقف تحتها . فجفلت وانتابني الغضب لأنني جفلت . ثم نظرت الى الأعلى ورأيت الغراب ينظر اليّ وشعرت بالحرج والانزعاج كما يشعر المرء حينما يكتشف أن أحد الغرباء كان يتلصص على أسرار حياته الخاصة وخفاياها . ثم نظرت الى الغراب الذي بادلني النظرات المتفحصة ذاتها. وبقينا صامتين لبضع ثوان ثم خطى الغراب على الغصن كي يتمكن من مراقبتي على نحو أفضل ورفع جناحيه وأخفض رأسه تحت كتفيه باتجاهي وبات ينعق على نحو ينم عن ازدراء واضح لي. ولو كان الغراب يتحدث بالانجليزية لفهمت بكل وضوح أنه كان يقول : «ما وراء مجيئك الى الغابة يا هذا ؟» . وشعرت بالخجل كما لو كنت متورطاً بجرم مشهود يضبطني فيه أحد المسؤولين ثم يوبخني عليه . ولم أجب على ما تفوه الغراب به لأنني لم أرغب في تبادل الحديث معه. وصمت خصمي لبرهة قصيرة وما زال رأسه تحت كتفيه ونظرات عينيه البراقتين مصوبة تجاهي. وبعدها رماني بشتيمتين أو ثلاث لم أفهم منها سوى أن بعض ما جاء فيها من ألفاظ لا يمكن ان تسمع داخل الكنائس.

واصررت على عدم الرد . ثم رفع خصمي رأسه واطلق صرخة عالية أخرى وسرعان ما سمعت نعيقاً على مسافة قريبة منا . وبات واضحاً أن ثمة غراب آخر كان يستفسر عن الأمر . وشرع خصمي يشرح بحماس بالغ مما حدا بالغراب الآخر

أن ينطلق مسرعاً باتجاهنا . وعندما حط الغراب الثاني الى جانب خصمي ، أخذ الاثنان يتباحثان بأمري كما لو كانا من علماء الطبيعة الكبار المنهمكين بدراسة نوع جديد من حشرات البق. وتصاعد شعوري بالحرج حينما استدعيا صديقاً آخر لهما . ولم أعد أطيق الأمر لاسيما أنهم كانوا يتفوقون عليّ عدداً . ولذلك قررت أن أنجو بنفسي من هذه الورطة بالهروب. وابتهجوا لهزيمتي على نحو بذيء كما يبتهج الارذال من السكان البيض. ومطوا رقابهم ضاحكين ومستهزئين. فالغربان تضحك تماماً كما يضحك البشر. وباتت شتائمهم تلاحقني وأنا ابتعد عنهم. لقد كانوا مجرد غربان، فأنا أعلم ذلك ولا يمكن أن اشغل بالي بالافكار التي حملوها عني .

وعلى الرغم من ذلك كله فان المرء ليشعر بالاستياء والغضب حتى لو سمع اتفه التعليقات التي توجه ضده من الغربان من مثل : «يا لها من قبعة!» أو «اعتن بقيافتك» لاسيما أن المرء لا يستطيع أن يتفادى المشكلة بالحوار الهادىء والمنطق السليم. والحيوانات يكلم بعضها الآخر بالطبع. ليس ثمة شك حول هذا الأمر، انني اعتقد ان هناك عدداً قليلاً من الناس يتمكنون من فهمها . ولكنني لم أعرف في حياتي سوى شخصاً واحداً فقط كان بامكانه ذلك ، بل انني واثق من ذلك تماماً لأنه ابلغني بمقدرته هذه بنفسه وكان عامل المنجم البسيط هذا في اواسط العمر وقد قضى سنوات طوال في ركن قصي من كاليفورنيا بين الغابات والجبال، يدرس عادات جيرانه الوحيدين وهم الطيور والحيوانات. حتى بات متأكداً أن بامكانه أن يترجم على نحو دقيق كل ما كانوا ينطقون به. والرجل الذي أتحدث عنه هو (جيم بيكر). ويرى (جيم بيكر) هذا أن بعض الحيوانات ليس لها الا نصيب ضئيل من الثقافة ولا تنطق الا بكلمات بسيطة جداً وغير قادرة على الاتيان بأية تشبيهات أو مصطلحات بلاغية، بينما تمتلك بعض الحيوانات الأخرى خزيناً وافراً من المفردات وملكة لغوية رائعة وتجيد فن الخطابة والالقاء. ولذلك تكثر هذه الحيوانات من الحديث الذي لا تمل منه لأنها تشعر أنها موهوبة وهي تستمد متعة كبيرة باظهار موهبتها هذه والتباهي بها. وقال لي (بيكر) أنه، بعد أن راقب الحيوانات هذه عن كثب ولفترة طويلة خلص الى أن طيور أبي زريق هي أكثر المتحدثين لباقة بين الطيور والحيوانات طراً .

حـدثني (بيكر) قـائلاً : «لأبي زريق خـصائص لا تتوافر في أي مخلوق آخر . فبـمـسـتطاعه ان يفصح عن مشاعره وأهوائه بكل سهولة ويسر . فأما أحاديثه فإنها تتـدفق حـيـوية وعـذوبة وتزخـر بالصور البلاغية وتنم عن معرفة واسعة . واما تمكنه من اللغـة، فانك لن تجد أي طائر من طيور أبي زريق تخونه الكلمات مطلقاً. فلسانه يطفح بفـصـيح الكلم وثمـة شيء آخـر، لقـد ثبت لي أنه يلتـزم التزاماً كاملاً بقواعد الـلغـة لا يجاريه في ذلك طير أو بقـرة أو أي مخلوق آخـر. لربما قلت بأن الهر يلتـزم بقـواعـد اللغة عندما يتكلم. هذا صحيح. ولكن ما ان يتملكه الغضب أو يتخاصم مـع هر آخـر اثناء الليل على سطح احـدى الحظائر، حـتى تتناهى الى اسماعك لغـة سـقـيـمـة هابطة لا أثر لأي قـواعد أو أحكام فيها مما قد يصيبك بمرض فتاك يلجم فكيك. ان الجـهلة من الناس يعـتـقـدون أن الضـجيج المنبعث من الهررة المتخاصمة يثير مـشـاعـر الغـضب والاكـتئاب في نفـوسنا الا إن الأمـر ليس كذلك ـ ان ما يثير الغـثـيـان هو كثرة الاغلاط النحوية التي يرتكبونها. لكنني لم اسمع مطلقاً بأن طيور «أبو زريق» لا تجـيـد اسـتـعمال القـواعـد الا فـيما ندر وعندما تقوم بذلك فسرعان ما تشـعـر بالخجل تماماً كالبشر وعند ذلك تتوقف عن الحديث وتتوارى عن الانظار .

بامكانك ان تصف أبا زريق بأنه أحـد أنواع الطيـور. بل هو كـذلك الى حـد كـبير ـ اذ أنه لا ينتـمي الى أية كنيـسـة أو مـذهب ولأن الريش يكسو جسمه. وفيما عـدا ذلك ، فانه مثل البشـر له من الصفـات والخصـال ما تملكه أنت وإليك سبـب ذلك .

ان أبا زريق يشـبـه البشر في مـواهبـه وغـرائزه ومشاعره واهتماماته. فليس هذا الطائر أكـثـر إيماناً بالمبادىء من عضو الكونغرس. فأبو زريق يكذب ويسرق ويخدع ويخون الأمـانة وكـثيراً مـا ينكث حـتى بأقـدس العهود التي يقطعها على نفسه. ومهما أوتيت من قـوة، فلن تتـمكن من أن تجـعل هذا الطير يحفظ عـهـده ويفي بالتـزاماته وفـوق هذا وذاك، فـبـامكان «أبي زريق» ان يتـفـوه بكلمات أكثر بذاءة من تلك التي يـتـفـوه بها عمال المناجم. لربما تصـورت ان الهر يتـفـوه بكلمات نابيـة، وهذا أمـر لا يـمـكن انكاره، ولكن أطلب من أبي زريق ان يتـحـدث في مـوضـوع يتـوجب مـعـه اسـتـعمال بعض من خـزين مـفـرداته وحـينذاك سـتشعر بالفرق الكبير بين الهر وأبي

زريـق. من الأفـضل أن لا تعـارضني فـيما أقـول، فأنا أعلم الكثير عن هذا الأمـر. وثمـة شيء آخر، فاذا اخذنا موضوع التوبيخ ـ التوبيخ الصريح المباشر ـ فبامكان أبي زريق ان يدحـر كل خـصـومـه، بشراً كانوا أم غير ذلك. نعم يا سيدي. فأبو زريق يماثل الانسان تماماً، اذ ان بامكانه ان يبكي ويضحك ويشعر بالخجل وبامكانه ايضاً ان يفكر ويناقش ويخطط. ويحب هذا الطير ايضـاً الفـضـائح والقـيل والقـال. ولهذا الطير روح الدعـابة، ويعلم مـتى يتصرف بغباء كالحمار، مثلك تماماً أو ربما على نحو أفـضل. فان لم يكن هذا الطير يشابه الانسان فمن الأجدر به أن لا يحسب نفسه من طيور أبي زريق. أما الآن فسأروي لك احدى الحقائق المؤكدة عن هذا الطير .

عندمـا بدأت أفـهم لغـة أبي زريق على نحو صحيح، وقعت حادثة بسيطة في هذا المكان. فـقـبل سبع سنوات خلت، غـادر آخـر رجل هذه المنطقـة، وذاك بيـته الذي بقي خـاليـاً منذ رحـيله، وهو كوخ جدرانه وسطحه من الألواح الخشبية ـ غرفة كـبيرة واحـدة لا غير. وفي احـدى المرات، وبينما كنت جالسـاً مع هرتي خارج كوخي في صبـاح يوم أحـد ونحن نسـتـمتع بدفء الشمس وننظر الى التلال الزرقاء ونستمع الى حـفـيف الأوراق الموحش وأنا استرجع ذكـريات من مـوطني البـعـيـد في الولايات المتـحـدة الذي لم تردني أية أخـبـار منه منذ ثلاث عشرة سنة حطّ طير من طيـور أبي زريق على ذلك البـيت وفي فـمـه ثمـرة بلوط وهو يقـول : «واخيراً وجـدت شـيئاً ذا قـيـمة». وما أن نطق بذلك حتى سقطت ثمرة البلوط من فمه وتدحـرجت على أحد الواح السـقف. الا أنه لم يعـبأ بذلك لأنه كـان منشـدهاً بما عثر عليه. ولم يكن ذلك الشيء الذي اسـتـحـوذ على اهتمامـه سـوى ثقب صـغير في خـشب السقف . فأمال برأسـه الى الأسـفل مقرباً احدى عينيه الى الثقب ومغلقاً الأخرى وراح ينظر بتفحص وامـعـان شـديدين ثم برقت عـيناه وصـفق بجناحـيه مرة أو مرتين (معبراً عن بهجته ورضـاه، كما تعلم) وقـال : «يبـدو أن هذا يشبه الثقب، لان موقعه يدل على ذلك. وأراهـن ان مـا أراه لـيس سـوى ثقب» . ثم أخـفـض رأسـه والقى بنظرة أخـرى على الثـقب ثم رفع رأسـه ثانيـة وهو في غـاية السعادة وبات يخفق جناحيه وذيله هذه المرة وهو يقـول : «آه، يبـدو انني سأجني الكثير من هذا الثقب ان كنت محظوظاً اذ يبدو انه ثقب رائع». وعندها توجـه نحـو ثمـرة البلوط والتقطها ثم وضعها في ذلك الثقب

وارتسمت على وجهه ابتسامة ما بعدها ابتسامة سرعان ما تلاشت وحلت محلها علائم العجب والدهشة ثم قال : «ما هذا، لم اسمع صوت سقوطها!» وحبس انفاسه كمن يمرر شفرة الحلاقة على وجهه. ثم ادنى برأسه من الثقب مرة أخرى والقى نظرة دامت طويلاً ثم هز رأسه وخطا نحو الجانب الآخر من الثقب ملقياً نظرة ثانية ثم هز رأسه مرة أخرى وفكر لبرهة ثم أخذ يلف ويدور حول الثقب يتفحصه من كل جانب ولكن دون جدوى. وانغمر في التفكير وهو على السقف وحك مؤخرة رأسه بقدمه اليمنى لبرهة قصيرة وأخيراً قال : «يبدو أن هناك امراً لا ادركه فلابد ان يكون الثقب عميقاً جداً ولا ينبغي علي أن انشغل بأمر الثقب فيضيع الوقت سدى. علي أن اباشر العمل في الحال والذي احسب اني سأجني ثماره. ونرى ما يحدث بعد ذلك» .

ثم طار وأتى بثمرة بلوط أخرى واسقطها في الثقب وحاول أن يدني برأسه بسرعة لرؤية ما الذي يجري لها، الا أنه لم يتمكن من رؤية أي شيء. وظل يحدق في الثقب لمدة تقرب من الدقيقة ورفع رأسه وقال بحسرة : «يا للعنه. يبدو انني لا افهم ما يجري ومع ذلك ساحاول ان أحل هذا اللغز. وأتي بثمرة بلوط أخرى وبذل قصارى جهده لكي يرى ما يجري لها، بيد انه لم يتمكن من ذلك وعندها قال : «لم أر في حياتي ثقباً كهذا قط. واعتقد ان هذا الثقب من نوع جديد تماماً». وثارت ثائرته وظل يخطو بسرعة جيئة وذهاباً على خشب السقف وهو يهز رأسه ويتمتم لنفسه، الا ان مشاعر الحنق طغت عليه وانفجر غاضباً وهو يلعن نفسه على ما حل به. فلم يسبق لي أن رأيت أي طير يفعل كل ذلك من أجل شيء تافه. وبعد أن نفّس عن خاطره توجه نحو الثقب وأخذ ينظر فيه لمدة نصف دقيقة تقريباً وهو يقول : «أيها الثقب انك عميق جداً وفريد من نوعك وما دمت قد شرعت في ذلك فستحل اللعنة علي ان لم انته من ذلك حتى لو استغرق ذلك مني مائة عام» .

وبعد ذلك غادر السقف ليعاود عمله الذي انكب عليه على نحو لم تشهده طيلة حياتك. فلقد انهمك في عمله الشاق كالعبيد، وكان مشهده وهو يروح ويجيء لمدة ساعتين ونصف تقريباً من أكثر المشاهد المثيرة. ولم يتوقف بتاتاً بل واصل عمله بهمة ونشاط حتى اضناه التعب ولم يعد بامكانه ان يصفق بجناحيه. وبدا كسيراً

والعـرق يتصبب منه مثل قطرات الماء المتجمعة حول كأس مليء بالثلج. والقى بثمرة البلوط في الثـقب وقـال : «لقد غرفت من البلوط ما يكفي لتأمين حاجة العائلة لمدة ثلاثين سنة وكل مـا أتمناه هو رؤية بلوطة واحـدة بعـيني مـسـتـقرة في هذا الثقب ولا يهم بعـد ذلك ان وافـتني المنيـة ومـلأوا احـشـائي بنشـارة الخشب وانتهى بي الأمر في أحد المتاحف» .

ولشـدة اعـيـائه شـعـر بمـشقة بالغة وهو يحاول الوصول الى المدخنة كي يسند ظهـره عليـهـا ليرتاح قليـلاً. وبعـد أن تم له ذلك بات فكره يجول في مـا أقدم عليه والصـعـوبات التي لم يكن قد أخذها بالحسبان وهو يحدث نفسه بلغة بذيئة تقشعر لها ابدان عمال المناجم. وصـادف ان مـر بقربه أحد اقرانه من الطيور الذي سمع تراتيله وتوقف ليسـتـفسر عما في الأمـر. واخبره الطير التعيس بالقصة كلها مضيفاً : «ذلك هو الثـقب، فان لم تصدقني، اذهب انت لتر بنفسك» وذهب هذا الطير والقى بنظرة الى الثـقب ثم عـاد فـسأله : «كم ثمـرة بلوط وضـعت في الثـقب ؟» فأجـاب الطير التـعيس : «ليس أقل من طـنّـيـن». وذهب الطير الآخر ليلقي نظرة ثانية واحتار في تفـسير مـا حدث، مما حدا به أن يطلق صرخة مدوية استجاب لها في الحال ثلاثة من طيـور أبي زريق الذين توجهوا نحو الثقب لتفحصه وطلبوا من الطير التعيس ان يعيد سرد الحكاية ثم شرعـوا بمناقـشـة الموضـوع مناقـشـة طرحت خلالها آراء غريبة خرقاء كتلك التي يدلي بها الادميون .

وتم اسـتـدعـاء المزيد من طيـور أبي زريق للبت في الأمر وجاءت الطيور تباعاً حـتى ازدحم بهم المكان الذي بدا وكأنه قـد اصطبغ باللون الازرق. وقـد يكون عدد الذين لبـوا النداء خمسة آلاف طير ليسـهـمـوا في الجـدال والنقـاش وتبـادل الشـتائم والسـبـاب. وكـان كل طير يلقي بنظرة في الثـقب ثم يدلي برأي أكـثر غباءاً من رأي الطير الذي سـبـقـه. ثم تفـحـصوا البيت كله، وكان الباب مواربا. واخيراً حط أحد الطيـور المسنين عليـها وبدأ يجول بنظره الى داخل الكوخ وبالطبع فان ذلك قد وضع حـداً للغـز باكـمله في لحظة واحدة. لقد كانت ثمار البلوط منثورة على الأرض في كل مكان. فـاخـفق جناحه واطلق صيحة وهو يقول: «هلموا ! هلموا جميعكم الى هنا ! ان هذا الأحمق كـان يحاول ان يمـلأ البيت جميعه بثمر البلوط» . وعندها اغارت جميع

الطيـور التي بدا حـشدها كالغيمة الزرقاء على الباب، وكان كل واحد منهم يحط على البـاب لبرهة ثم يلقي بنظرة خـاطفـة يدرك من خـلالها غباء ما أقدم عليه هذا الطير، ثم ينقلب على ظهـره ضـاحكاً تكاد انفاسه تتقطع من شدة الضحك وهكذا فعل كل واحد منهم .

ولفترة تزيد عن السـاعـة، بقـيت الطيور يا سيدي، في أعلى ذلك البيت، وفي الاشـجـار القـريبـة وهي تقـهـقـه وتطلق عاصفة من الضحك تماماً كما يفعل البشر، لـذلك، لا تقل ان طيـور أبي زريق تخلو من روح الدعـابة والنكتـة لانني اعـرف ان ذلك غير صـحـيح. بل انها تتـمتع بذاكرة جيدة أيضاً، وأخذوا يصطحبون طيور أبي زريق من كل بقـاع الولايات المتـحدة لالقاء نظرة على هذا الثقب في كل صيف ولمدة ثلاثة أعـوام وقـد وفـدت طيور من أنواع أخرى على هذا الثقب أيضاً وفهم الجميع ما حـدث مـا عـدا بوم واحـد كـان قـد قـدم من (نوفا سكوشيا Nova Scotia) لـزيارة شـلالات (يوزميتي Yo Semite) الذي عـرج على المكان في رحلة العـودة وقـال أنه لم يجد في الثـقب ما يدعو الى الضحك اطلاقاً. على ان هذا البوم نفسه شعر بخيبة أمل كـبيرة حـتى عند زيارته لشلالات (يوزميتي) التي تبهر الانفاس .

مـــن

كتاب الحياة على متن المسيسبي (*)

[في كتـاب «الحيـاة على متن المسيسبي» يتحدث (مارك توين) عن الفترة التي قضاها وهو يعـمل صبياً ملاحاً على متن أحد البواخر في المسيسبي. وتتسم الفصول المختارة هذه بالواقعية الحيّة والوضـوح والعـفـوية وروح الدعـابة وكما قـال أحـد مـؤرخي الأدب فان كتابات (مارك توين) عن نهر المسيسبي *ستبقى خالدة خلود النهر نفسه*] .

المحرر

ظهـرت «الأيام الخـوالي على مـتن المسـيـسـبي» لأول مـرة على صـفحات مجلة «اتلانتك الشهرية» عام ١٨٧٥ . وبعد ثماني سنوات أصبحت تلك الصفحات تشكل ثلـث كـتـاب « الحيـاة على متن المسيسبي » وهي الفصـول ٤ ـ ١٧ . وما تبقـى من الكتـاب لا يرقى الى مـسـتـوى هذه الفـصـول مـا عـدا بعض المقـاطع المتناثرة. أما الفـصـول التي نشرت في مجلة اتلانتك (والتي نقـدم سـتة منها فيما يلي) فانها «تشكل تمثـالاً خالداً خلود النهر نفسه» كما يقول كاتب سيرة المؤلف .

وعندمـا بلغ مـارك توين الأربعين من عـمـره، كـان يعـود بذاكـرته الى تجاربه الأولى في خير الأيام من حيـاة ذلك النهـر العظيم فـيـجد فيها على حد قول الكاتب «بين» أربع سنوات مـشـمـسـة رائعـة، تكفي عظمتها لتلوين كل ما اعقبها من سني حـياته» وكانت تلك السنوات نفسها ملونة بالذكرى والخيال .

كـان مارك توين في الثانية والعشرين عندما بدأ مغامراته، ولكنه كان يبدو فتى حـالماً في السـابعـة عشرة من عـمـره . ولابد أن المؤلف قـد غـيّـر كثيراً في روايته لأنه حـذف أشـيـاء مملة وغير مـفـيـدة من تجـاربه تلك . ومع ذلك فقصته تتميز بمسحة

(*) من ثلاثة قـرون من الأدب/ اختـاره وأشرف على ترجمتـه جبرا إبراهيم جبرا ـ دار مكتبة الحياة/ بيروت ١٩٦٧ .

شاملة من الفن الواقعي .

وفي هذه الرواية نجد نموذجاً من خير ما كتب المؤلف ، باسلوب يتميز بالجزالة وعدم التكلف ، والوضوح والمرح ، تسري في تضاعيفه دفقات من الحياة الحقيقية المشرقة . ولم يعد مراحه يشبه ما يقدمه مهرج على منبر، بل عاد مرحاً عفوياً لا مناص منه ، يطفر كالسمكة من بين سيل من الوصف وسرد الحوادث. وان لم يكن مارك توين يتميز بالوجوم فانه يتميز بقدر كاف من الجدية والرصانة، إذ أن عليه ديناً يؤديه تجاه (أبي المياه) والأيام الجميلة الخالية .

الفصل الرابع
طموح الفتى

يوم كنت فتى ، لم يكن يراود أحلام كل فرد من رفاقي في قريتنا، على الضفة الغربية لنهر المسيسبي سوى أمل واحد ، هو أن يصبح ملاحاً على ظهر سفينة بخارية .

لقد كانت لنا مطامح عابرة من نوع آخر، ولكنها كانت مؤقتة. وعندما كانت تزورنا فرقة من المهرجين، كانت تتركنا ونحن نتحرق لكي نصبح مهرجين، ولما جاءت الى منطقتنا أول فرقة من المغنين الزنوج، تركونا في غاية الشوق لتجربة ذلك النوع من الحياة. وكان يداعبنا بين الفينة والفينة أمل بأننا لو عشنا حياة مستقيمة، فان الله سيسمح لنا أن نصبح قراصنة .

وكانت هذه الآمال تتلاشى واحداً بعد آخر إلا ذلك الأمل في أن نصبح ملاحين في سفن بخارية، فانه ما انفك يداعب أحلام الجميع .

وكانت تمر بنا كل يوم سفينة مبهرجة صاعدة من (سانت لويس) وأخرى نازلة من (كيوكوك) . وقبل هذين الحدثين يكون النهار مليئاً ببهجة الانتظار، وبعدهما يعود النهار شيئاً فارغاً عقيماً. ولم يكن الفتيان وحدهم يحسون بذلك، بل

كان هذا شعور القرية برمتها .

وبعد كل تلك السنين لا زلت أتمثل أمام ناظري تلك الأيام السالفة، تماماً كما كانت بالأمس : المدينة البيضاء يداعبها النعاس في شمس صباح من أيام الصيف، الشوارع خالية أو تكاد، بضعة مستخدمين يجلسون أمام حوانيت (ووتر ستريت) على كراس مقاعدها من خيوط الخيزران، تنعطف مستندة الى الجدران، وقد تدلت رؤوسهم على صدورهم، تظللهم قبعاتهم وهم يغطون في سبات عميق، ينتشر حولهم من الحجارة ما يدل على مبلغ ما أصابهم من جهد، أنثى خنزير وصغارها يسرحون على الرصيف، يلتهمون ما يجدونه من قشور الرقي وبذوره، قطعتان أو ثلاث من أكداس البضاعة ملقاة على سدة النهر، كومة من جذوع الشجر على منحدر الرصيف المبلط بالحجارة ينام في ظلها سكّير المدينة بروائحه الفاغمة، قطعتان أو ثلاث من ألواح الخشب ملقاة عند بداية رصيف الميناء وليس من يصغي الى اصطفاق الموجات الناعمة وهي تنحسر عنها، المسيسبي الكبير، المسيسبي الجليل العظيم ينحدر بمدّه الذي يبلغ الميل عرضاً وهو يلتمع في أشعة الشمس، الغابة الكثيفة البعيدة على الجانب الآخر، «الحد» الأقصى و «الحد» الأدنى للنهر حيث يرى من المدينة فيلوح بحراً هادئاً لامعاً موحشاً. وان هي الا برهة ويظهر شريط من الدخان القاتم فوق واحد من ذينك «الحدين» البعيدين .

وفي الحال يرتفع صوت زنجي، عرف ببصر قوي وصوت جهوري، منادياً : «سفينة مقبلة!» فيتغير المشهد. ويتململ سكّير المدينة، ويفيق مستخدمو الحوانيت، ويرتفع صخب الجرارات، ويندلق البشر من كل دار وكل حانوت، وفي طرفة عين تنقلب المدينة الميتة مليئة بالحياة والحركة . جرارات، عربات، رجال، فتيان جميعهم يسرع من مختلف الأمكنة الى مركز واحد، هو رصيف الميناء. واذ يجتمع الناس هناك، يحملقون بأبصارهم نحو السفينة المقبلة وكأنها أعجوبة يبصرونها للمرة الأولى. ولا غربة في ذلك، فالسفينة في الواقع مشهد فتان، فهي طويلة مستدقة جميلة؛ ولها مدختنتان عاليتان ذواتا قمتين مزينتين، يربط بينهما شيء مذهب، وفيها مقصورة الربان الزجاجية الأنيقة الرابضة على قمة السطحة الفسيحة؛ كوى عتلاتها رائعة تزينها صورة أو أشعة مذهبة تعلو اسم السفينة؛ يحيط بسطحة المرجل

وسطحة العواصف والسطحة الكبرى ويزينها سياج من قضبان بيضاء ناصعة ؛ فيها علم يخفق شامخاً من على الصارية، أبواب مواقدها مفتوحة تنشب فيها ألسنة اللهب؛ سطوحها العليا مكتظة بالمسافرين؛ يقف قبطانها بجانب الناقوس الكبير، هادئاً، جذاباً وموضع حسد الجميع؛ تنقذف من مداخنها كتل ضخمة فاحمة من الدخان تنشأ عن حرق كتلة من خشب الصنوبر قبل الوصول الى المدينة بقصد الامعان في ابراز العظمة ؛ يجتمع ملاحوها عند المقدمة وتندفع سطحتها العالية أبعد من عطفة الميناء، فيقف عامل عند نهاية السطحة بزهو، يحسده الجميع، وبيده ربطة حبل ؛ يزعق من مراجلها البخار المحصور ؛ واذ يرفع القبطان يده يدق جرس فتتوقف العجلات، وبعد ذلك تدور الى الخلف وتحيل الماء زبداً فتهدأ الباخرة. ومن ثم تحمّل بضائع وتفرغ أخرى وتضطرب حركة الصعود والنزول، كل ذلك في آن معاً، تصاحبه جلبة وشتائم من عمال السفينة كأن ذلك يهوّن عليهم تعبهم. وبعد عشر دقائق تستعد الباخرة للاقلاع بدون علم على الصارية ولا دخان ينفث من مداخنها. وبعد عشر دقائق أخرى تمسي المدينة ميتة تارة أخرى، ويعود سكّير المدينة الى نومه قرب جذوع الشجر .

كان والدي حاكماً، وكنت أحسب أن في يده حياة الناس جميعاً أو موتهم، وأنه كان بوسعه أن يشنق أي شخص يسيء إليه. وكان ذلك مما يميزني عن الآخرين بصورة عامة، ولكن رغبتي في أن أصبح ملاحاً لم تغب عن بالي قط. وفي أول الأمر رغبت أن أكون خادماً فأخرج بصدرية بيضاء وانفض غطاء الخوان جانباً لكي يراني جميع رفاقي؛ وبعد ذلك طمعت أن أكون عامل سطحة يقف على نهاية اللوح وبيده ربطة حبل لأن ذلك مما لا تخطئه العين. ولم تكن تلك سوى أحلام يقظة فيها من الصفات السماوية ما يجعل تحقيقها صعباً .

وبعد مدة غاب أحد الفتيان ولم نعد نسمع عنه لمدة طويلة. ولكنه بعد ذلك عاد الينا بعد أن أصبح مهندساً متدرباً على سفينة بخارية .

لقد زعزع هذا الحدث إيماني من الأعماق. فقد كان ذلك الفتى مغرقاً في ميوله الدنيوية على العكس مني تماماً، ومع ذلك فقد ارتقى هو الى ذلك المنصب المرموق بينما بقيت أنا مغموراً تعساً. ولم يكن ذلك الفتى كريماً إذ نال تلك العظمة.

فقد كان دائماً يجد شيئاً صدئاً لينشغل بتلميعه أثناء توقف الباخرة في مدينتنا، وكان يختار مكاناً يجلس فيه بحيث نراه جميعاً فنحسده ونمقته، واذا ما توقفت باخرته عن العمل، أقبل الى بلدته يطوف بها مختالاً وهو يرتدي أسود ما لديه من ملابس غطتها الزيوت فلا يعود يخفى على أحد أنه يعمل في باخرة، ويستعمل في كلامه مختلف المصطلحات الخاصة بالبواخر وكأنه قد تعود استعمالها الى درجة أنسته أن عامة الناس لا يفهمون تلك المصطلحات . فكان يستعملها في حديثه عن الخيول بسهولة ويسر تجعلك تتمنى لو خرّ صريعاً . وكان دائم الحديث عن (سانت لويس) وكأنه من سكانها القدامى، وقد يشير اشارات عابرة الى مناسبات عندما كان «يتمشى في الشارع الرابع» أو «يمر بالقصر الزراعي» أو عندما شب حريق فتسلم قيادة «الباخرة العتيدة : المزوري الكبير»، ثم ينساق كاذباً فيتحدث عن عدد المدن التي احترقت ذلك اليوم وهي في حجم مدينتنا.

لقد كان اثنان أو ثلاثة من الفتيان يتمتعون بشيء من الامتياز بيننا، وذلك لأنهم قد زاروا (سانت لويس) مرّة فتكونت لديهم فكرة غامضة عن عجائبها ، ولكن أيام مجدهم قد زالت الآن . فاذا أقبل المهندس المتدرب غمرهم صمت ذليل وتعلموا كيف يتوارون عن الأنظار . فقد كان لدى هذا الصبي نقود وزيت شعر كذلك، ناهيك عن ساعة فضية معطلة وسلسلة معدنية براقة. وقد كان يستعمل حزام جلد لا حمالات بنطلون. ولئن كان ثمة شاب هو موضع اعجاب وكره رفاقه في الوقت ذاته فانه لم يكن سوى ذلك الصبي. فلم تكن ثمة فتاة تقف أمام جاذبيته، فكان «يقطع الطريق» أمام فتيان القرية. ولما تحطمت باخرته شاع بيننا نوع من الرضى لم نعهده منذ شهور. ولكنه إذ عاد الينا في الاسبوع التالي حياً، مشهوراً، وظهر في الكنيسة مثخن الجراح مثقلاً بالضماد وكأنه بطل لامع يرمقه الجميع بنظرات اعجاب، خيل الينا ان العناية الالهية قد بلغت حداً من الاشفاق بجرذ تافه بحيث عادت موضعاً للانتقاد .

ولكن ما آل اليه هذا المخلوق عاد بنتيجة واحدة سرعان ما ظهرت للعيان، وافلح الفتيان واحداً بعد واحد في البلوغ الى النهر. فاصبح ابن القسيس مهندساً، وأصبح ابن الطبيب وابن مدير البريد يقومان باعمال تافهة على ظهر باخرة، وأصبح

ابن تاجر الخمور ساقياً على ظهر باخرة أخرى، كما أصبح أربعة من أبناء كبار التجار واثنان من أبناء القاضي ملاحين .

وكان منصب الملاح أعظم المناصب جميعاً، إذ كان يتقاضى مرتباً فخماً، حتى في تلك الأيام التي كانت فيها الأجور ضئيلة، يتراوح بين مئة وخمسين الى مئتين وخمسين دولاراً في الشهر ولم يكن ليدفع نفقات معيشة. فكان مرتبه لشهرين يعادل مرتب واعظ الكنيسة لعام بكامله. ومع هذا فقد أصيب بعضنا بخيبة أمل اذ لم نفلح في الحصول على أمثال تلك الأعمال، أو قل إن ذوينا لم يسمحوا لنا بالحصول عليها .

ودفعني ذلك الى الهرب من داري مصمماً ألا أعود حتى أصبح ملاحاً متوجاً بالفخر .

ولكنني لم أوفق في مسعاي، إذ كنت أذهب الى بضعة من البواخر الصغيرة المزدحمة على رصيف سانت لويس وأسأل عن الملاحين بذلّة ، ولكنني لم ألق سوى عدم الاكتراث من الموظفين والعمال .

وكان عليّ أن أقتنع بذلك النوع من المعاملة ، وأعلل النفس بأحلام يقظة عن مستقبل أصبح فيه ملاحاً عظيماً مهاب الجانب ثرياً ، فيسعني وقتها أن أقتل بعضاً من أولئك الموظفين والعمال وأدفع دية عن قتلهم .

الفصل الخامس
أريد أن أكون صبي ملاح

وبعد أشهر كان الأمل يصطرع في نفسي حتى بلغ نهايته، فوجدتني بلا طموح. ولكنني خجلت من العودة الى داري، فقد كنت في (سنسناتي) أعد العدة لعمل جديد، اذ كنت أقرأ عن قيام بعثة أرسلتها حكومتنا لاستكشاف نهر الأمازون. وكان يقال ان بعض الصعوبات حالت دون التعمق في استكشاف جزء

من الأراضي تقع حـول منابع النهـر وتبعد حوالي أربعة آلاف ميل عن المصب .

ولم يـكن بين (سنسناتي) و (نيـو اورليـانز) سـوى ألف وخمسمائة مـيل، وهناك يسـعني الحـصـول على مكان في باخـرة. وكـان قد بقى لدي ثلاثون دولاراً، فعزمت على الذهاب وإكمال استكشـاف الأمـازون. ولم افكر بالموضـوع أكثر من ذلك، فلم يعرف عني الاهتمام بالتفاصيل .

فـحـزمت حـقـيـبتي وأقلعت على ظهر سفينة عتيقة اسمها «بول جونز» قاصداً نيـو اورليـانز. وأمكنني من التـمـتع بعظمتها الخابية المهلهلة ستة عشر دولاراً أدخلتني في صالتها الرئيسة بمفردي، فلم يكن فيها ما يجتذب مسافرين أكثر مني حكمة .

ولما انحـدرنا في نهـر أوهـايو العريـض أصبحـت انسـانـاً آخـر كثير الاعجاب بنفسي . لقـد عـدت مـسـافراً ! وتلك كلمة حلـوة المذاق لم تماثلها حـلاوة كلمة من قبل .

وكـان يداعبني شعور بانني مقبل على بلاد غريبة وأصقاع بعيدة ، شعور بهيج لم يعاودني مثله منذ ذلك الحين .

لقـد كنت في حـالة من الفـخـار بحـيث فارقتني جميع المشاعر الخسيسة، وعاد بوسـعي أن ارثي لحـال من لم يسـافـر قط، فأعطف عليهم بطريقة تكاد تخلو من أي احـتـقـار. ومع ذلك فكلما توقفنا عند القرى ومخازن الخشب رحت أتمطى بكسل عند سيـاج سطحـة المراجل، لأنعم بحسد أبناء الريف المجتمعين عند الشاطيء. فاذا لم يسـتطيـعوا أن يتبينوا أين أقف، كنت أعطس لأجلب انتباههم أو أنتقل الى موضع لا مـنـاص لهم من رؤيتي فـيـه. وحـالما أدرك انهم رأوني، أروح أتثـاءب وأتمطى وأعلن بشـتى الوسـائل انني ضقت ذرعاً بالحل والترحال .

ولم أكن أرتدي قـبـعـتي طيلة السـفـر، بل كنت أقف حـيث تلوحني الشمس والرياح لأنني أردت أن تبـدو عليّ سيماء مسافر كثير الترحال .

وقـبل أن ينتـصـف اليـوم الثـاني اعتراني فـرح ملأني بأصدق آيات الشكر، فقد وجـدت أن جلدي بدأ يتـقـشر عند الوجـه والعنق، وتمنيت لو رآني أصـحـابي وأنا على تلك الحال .

وصلنا (لويسفيل) في الوقت المحدد، أو على الأقل كنا قد بلغنا مشارفها. ولكننا علقنا بين صخور النهر فتأخرنا أربعة أيام .

وبدأت أشعر انني فرد من أسرة الباخرة : ابن وأخ صغير للملاحين. ولم يكن ثمة حد للفخر الذي كنت أشعر به تلك العظمة أو لما بدأ يفيض ويغمرني من محبة تجاه اولئك الناس .

ولم يسعني أن أتخيل كيف يسع الملاح العظيم أن يحتقر ذلك النوع من التعالي الذي يميز بعض من لم يفارق اليابسة. ولشد ما كنت أشتاق لأحظى بأقل اهتمام من مساعد الربان الصاخب، وكنت أحين الفرص لاقدم له خدمة في سبيل ذلك. وأخيراً سنحت لي فرصة .

لقد كان الصخب يعلو في مقدمة السفينة حيث كانوا يقيمون صارية، فذهبت لأراقب ما يجري ووقفت في طريقهم ـ أو قل انني كنت أتظافر متحاشياً طريقهم ـ حتى زعق مساعد الربان فجأة وهو يصدر أمراً ليناوله أحدهم قضيب خشب. فوثبت الى جواره سائلاً : «قل لي أين أجده، فأجلبه لك» .

ولو أن شحاذاً تقدم الى امبراطور روسيا ليقوم له بمهمة دبلوماسية لما ذهل العاهل العظيم كما ذهل مساعد الربان، الى درجة أنه توقف عن السباب. فاعتدل وحملق في وجهي، وطال به الأمر حتى لملم شتات أوصاله، ثم أطلق لسانه بشتيمة، وعاد الى عمله وكأنه انسان قابلته معضلة تستعصي على الحل .

وتواريت بعيداً، مؤثراً العزلة لما تبقى من النهار. ولم أذهب للغداء، ولما ذهبت الى العشاء كان الجميع قد انصرفوا. ولم أعد أحس كسابق عهدي بانني عضو في أسرة الباخرة. ولكن مزاجي تحسن تدريجاً عندما واصلنا السفر منحدرين في النهر .

لقد آلمني انني كرهت ذلك المساعد بتلك الصورة لأنه ليس من طبيعة البشر (الحدثان) الا أن يعجبوا به. فقد كان ضخم الجثة مفتول العضل، تكسو وجهه سوالف طويلة ولحية كثة، يزين ذراعه اليمنى وشم أزرق يصور مرساة بها حبل أحمر، على جانبيها وشم امرأة حمراء وأخرى زرقاء. أما في قذارة اللسان فلم يكن

يتفوق عليه أحد .

وعندما كان يفرغ حمولة في مرسى كنت أحرص على الوقوف حيث أستطيع السمع والنظر. فقد كان يدرك جلالة مكانته العظيمة ويجعل العالم يحس بها كذلك. وحتى اذا أصدر أبسط الأوامر فقد كان ينفلت كهزيم الرعد، يتبع ذلك بهدير مدو من فحش القول .

ولم يسعني إلا مقارنة أسلوب هذا المساعد في اعطاء الأوامر بأسلوب سواه ممن يعيش على اليابسة ولا يمت الى البحر بصلة .

فلو شاء غير البحار ان يزيح لوح خشب بمقدار قدم الى الأمام فربما يقول : «جيمس، أو وليام، ليرفع أحدكما هذا اللوح الى الأمام رجاء» .

ولكن لو وضعنا ذلك البحار مكانه لانطلق يرغي ويزبد باقذع السباب واغلظ الكلام (١) ولكنني وددت لو يسعني أن أتكلم مثله .

ولما تلاشت حرارة تجربتي مع مساعد الربان، بدأت أتقرب بوجل الى أكثر المستخدمين تواضعاً على ظهر الباخرة، وهو الخفير .

لقد أنكر علي جرأتي أول الأمر ولكنني تشجعت وأهديته غليوناً جديداً فلانت عريكته نحوي . ثم سمح لي أن أجالسه على «سطحة العواصف» قرب الناقوس، وسرعان ما بدأنا نتجاذب أطراف الحديث .

ولم يكن له بد من ذلك، فقد كنت أتسقط كلماته بخضوع وأبدي له في غاية الوضوح انني كنت أتشرف بمجالسته. فكان يخبرني باسماء الشواطيء المعتمة والجزر الظليلة ونحن نمر بها في هدأة الليل، تحت جناح من النجوم المتلألئة، وما زال كذلك حتى بدأ في الحديث عن نفسه .

وبالرغم من أن مرتبه لم يكن يتجاوز ستة دولارات اسبوعياً، فقد كان يبدو رجلاً بالغ الحماس، أو قل أنه كان يبدو كذلك لمن هو أكبر مني سناً. ولكنني كنت أتشرب كلماته بنهم، وبإيمان يكفي القليل منه لزحزحة الصم الرواسي. وماذا

(١) كلام البحار في الأصل لا يمكن نقله الى العربية، لكونه باللهجة العامية ومليئاً بسباب يفقد (نكهته) عند الترجمة . (المترجم) .

يضيرني ان كـان متسـخـاً مـهلهلاً يفوح بروائح الخمر ؟ وماذا يهمني ان كانت لغته سيئة وتراكـيـبـه أسـوأ وقـذارة لسـانه خـاليـة من أي فن بحـيث عـادت من عناصر الضعف لا القوة في حديثه ؟

لقـد كان انساناً مظلوماً، انساناً رأى متاعب، وكان في ذلك كفاية لي .

ولما وصل الى رواية قـصـتـه المحـزنة تسـاقطت دمـوعـه على المصـباح بين يديه وبكيت أنا كذلك من عطفي عليه .

قال أنه كان ابن نبيل انجليزي ـ برتبة ايرل أو رئيس بلدية ، فلم يعد يذكر ، بل يغلب على ظنه انه كان كليهما معاً .

وكـان أبوه النبيل يحبه، ولكن أمه كانت تكرهه من المهد .

ولما كـان فـتى يانعـاً أرسلوه الى «واحـدة من تلك الكليـات المشـهـورة» لم يعـد يذكـر اسـمـهـا ، وبعد مدّة توفي والده فاستولت أمه على جميع الاملاك و «نبذته» على حـد تعبيره. وبعد أن نبذته أمه تدخل بعض النبلاء من معارفه فحصلوا له على عمل بسيط على ظهر باخرة .

وعـنـد ذلك الحـد أهمل خـفيري كل قـيـود الزمـان والمكان وراح يروي حكاية تشـعـبت فـروعـهـا بمـخـتلف المغامرات التي لا يقبلها العقل ، حكاية تفوح بالدم المسفوك ، وتزدحم بمخاطر بينها وبين الهلاك قيد شعرة، وبنذالات يندى لها الجبين جعلتني أجلس صامتاً، مأخوذاً ، مرتعشاً، معجباً ، عابداً .

وكـانت مفاجأة مؤلمة أن أتبين فيما بعد أنه لم يكن سوى متسكع حقير جاهل لم يـبرح أرضـه في مجاهل (الينوي) ولكنه قـد اسـتـوعب قـدراً من قـصـص المغـامـرات والـعـجـائب وراح يحـوك أطـرافـاً مـن ذلك الخليط في هذه الحكاية التي كـان يرويها لأمثالي من البسطاء حتى أمسى هو نفسه من المقتنعين بها .

ستيفن كرين
(١٨٧١ ـ ١٩٠٠)

د. ضياء الجبوري

لمحة عامة :

يمكن تشبيه (ستيفن كرين) بالكاتب البريطاني (توماس تشاترتن Thomas Chatterton) الذي توفي وهو في عنفوان شبابه وعطائه . وعلى الرغم من قصر الفترة التي عاشها (ستيفن كرين)، فقد أغنى هذا الكاتب، الأدب الأمريكي والعالمي بمؤلفات تعد الآن من الروائع الخالدة. وتمثل كتاباته النثرية والشعرية بواكير نتاج المدرسة الطبيعية التي احتلت مساحة أدبية واسعة في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

حياته :

ولد (ستيفن كرين) في مدينة (نيورك Newark) في ولاية (نيو جرسي) . وأتم دراسته الابتدائية فيها. وكان الابن الرابع عشر والأخير لوالده القس الذي توفي عندما كان (ستيفن) في الثامنة من عمره. أما دراسته الجامعية فكانت غير منتظمة، حيث تركها الى غير رجعة للعمل في المجال الصحفي. ومما يذكر عن دراسته الجامعية أنه أذهل استاذ الأدب الانجليزي في كلية (لافايت Lafayette) حينما وصم شعر (الفرد تنسن) الذي كان يتربع على امارة الشعر في بريطانيا بالتفاهة والانحطاط .

امتهن (كرين) الصحافة وعمل مراسلاً لاحدى الصحف ابان الحرب اليونانية ـ التركية (١٨٩٧) ، والحرب الاسبانية ـ الامريكية في كوبا (١٨٩٨). وانتقل الى نيويورك بعد وفاة والدته وسكن أحد الأحياء الفقيرة فيها. وهناك كان دائم التردد على الحانات والأماكن المشبوهة. وعاش

حيـاة بوهيـمية لا يأبه بأية اعراف أو قيم سائدة. وفي (١٨٩٨) تزوج من (كورا هوارث تيلر Cora Howarth Taylor) التي كـانت تمتلك بيتـاً للدعارة في فلوريدا يُعرف باسم (فندق الأحلام Hotel de Dream) وقـضى مـعـهـا السنوات الأخيرة من حيـاته مـتنقلاً بين اليونان والمانيا وانجلترا . وفي انجلترا لقي (كـرين) استـقبالاً حافلاً من لدن الادباء الكبار من أمثال (جوزيف كونراد) و (هنري جيمز) و (اتش . جي . ويلز) و (فورد ماركس فورد) .

كـانت الشـهـور الأخيرة من حيـاة (ستيفن كرين) مشؤومة ويائسة، حيث كان يعاني من مـرض السل، ولم يكن لديه مـا يسـد رمـقـه فـحـاول ان يكتب قـصـصـاً وأشعاراً ومقالات لايفاء ديونه، الا ان حـالتـه الصـحـية ازدادت سوءاً بسبب الجهد المضاعف الذي كان يبذله. وبعد صراع مـرير مع هذا المرض الخـبـيـث الذي تفـاقـم عند اصـابتـه بحـمى الملاريا ، توفي في أحد المصحّات الالمانية في الخامس من حزيران عام ١٩٠٠ .

أدبه وموقعه في الأدب الأمريكي :

نشر (ستيفن كرين) (ماجي، فتاة الشوارع Maggie, A Girl of the Streets) عـام ١٨٩٣ وكـان (هـاولز) و (هملـن جـارلند) يعـدّان هذا العـمـل أفـضـل مـؤلفات (كـرين) . وتتناول هذه الرواية القـصيرة قـصـة فتاة من أحد الأحياء الفقيرة في نيو يورك ، كانت تحاول أن تحقق احلامها في العيش السـعـيـد، الا أنها تجـد نفـسها مضطرة لبيع الهوى ومن ثم وضع حد لمآسيها وذلك بالقاء نفسها في النهر لا سيما بعد أن هجرها عشيقها (بيت Pete) الذي ضحّت من أجله بالكثير . وقـد نشـر (كرين) هذه الرواية باسم مستعار هو (جونستن سمث Johnston Smith) ولم تلق قبولاً لدى القـراء الذين وجـدوا بعـض الفـجـاجـة فيها . وعندما اعيد طبع الرواية عام (١٨٩٦) أي بعد أن أصـبح مـشهوراً بفضل نشر رواية **شارة الشجاعة القرمزية** ، تم تنقـيح الطـبـعة الثانية وتشذيبها لتكون أكـثـر ملائمـة لاذواق القـراء ، وحققت النجاح الذي فشلـت في تحقيقه عندما نُشـرت أول مـرة .

ان اسـم (سـتـيفـن كريـن) مقترن على الدوام بروايـة شـارة الشجـاعة القرمزيـة **The Red Badge of Courage** (١٨٩٤) التي اكـسبت مؤلفها شـهرة واسعة لا في الولايات المتحدة فحسب، بل في خـارجها أيضاً. وتروي (الشـارة القرمزية) قصـة الشـاب (هنـري فلمنـغ Henry Fleming) الذي ينحـدر من أصل فـلاحي ويتطوع في (جـيش الاتحـاد). وتصف الصراع النفسي الذي يخوضه هذا المتطوع حين تندلع المعـركـة ويجد نفسه هارباً من جحيمها، منقلباً بذلك على كل ما كان يؤمن به من أوهام البطولة والبـسـالة والتـضـحـيـة . ومن مـفارقات القدر ان الجرح الذي أصيب به هذا

الشـاب في رأسـه على يد أحـد أقـرانه من جنود الاتحـاد هو الذي يمهد السبيل أمامه لأن يصبح في عداد الشجعان ! .

ومـن أعـــمـال (كـريـن) الأخـرى روايتـه (والدة جـورج George's Mother) (١٨٩٦) و(البنفسجة الثالثة The Third Violet) (١٨٩٧) والمجـمـوعة القصصية المسمـاة (الوحش وقصص أخـرى The Monster and Other Stories) (١٨٩٩) فـضـلاً عن بعض المجموعات الشعرية التي تميـزت ابيـاتها بلغـة مجازية بليـغـة وصـوت مبتكر والفاظ شعرية مكثفة تختلف عن الأنماط الشعرية السائدة التي كان يكتب بها (تنسين) و (لونغفلو) .

تـتـميـز كتابات (ستيفن كرين) بكونها موضوعيّة شبه تسجيلية ، تهدف إلى المكاشفة والجرأة والابتـعـاد عن التنميـق . ولم يكن يميـل إلى الاطناب في السرد أو التـحليل ، بل كان ينتقي كلماته بدقـة مـتناهيـة بغـية خلق اللقطات المؤثرة والأجواء المناسبة للأحداث التي يتناولها . ويجيد (كرين) تصـوير السـخرية المريرة والمفارقات التي تعجّ بها الحياة . وتعكس قصصه القصيرة من مثل (زورق النجاة The Open Boat) وكـذلـك (الـفندق الأزرق The Blue Hotel) نـضـوج أسلوبه السردي وتمكنّه من الفنّ القـصصي . وتتـجلى في مـعظم كـتـاباته نظرته السـوداوية إلى حـياة الإنسان الذي يشـبـهـه بطفـيليّات القـمل التي تسـتميت للبقاء حية بغض النظر عن نوعية الحياة البائسة التي قد تستمدها من الأجسام التي تلتصق بها .

أمـا اسـهـامـات (كـرين) الشعريـة فتمثلـت في نـزوعـه إلى التجريبيـة لا سيما في سعيه إلى نظم الشـعـر الحـر (غير المقـفّـى) وفي ابتـداعـه للـرمـوز والصـور الشـعـريـة التي تماثل مـا كـتبه الشعراء التصويريون (imagists) وإلى الايقـاع الذي لا يلتـزم بأي وزن شـعـري معيّـن . وانطوى شـعـره على شـيء من الغـمـوض الذي لم يكن يحبـذه النقـاد أو القـراء آنـذاك . على أن شـعره لم ينل الإعـجـاب الذي نالتـه كـتاباته النثرية . ونشر (ستيفن كرين) مجموعتيـن شعريتيـن صغيرتيـن : (الحرب نعيم War is Kind) (١٨٩٩) و (الـفـرسـان السـود The Black Riders) عـام (١٨٩٥) الـذي أهـداه إلى (هملن جارلند) .

ويعكس شـعـر (كـرين) نظرته القـاتمة للحـيـاة والتي كـانت محور كـتاباته النثرية عموماً . فـالبشر يعـيـشـون ، من وجـهة نظره في وادٍ سحيق من الوحدة والكون يرقب مآسي البشر دون أن يحرك ساكناً .

ان (سـتـيفن كرين) أديب أصيل متمرد استطاع خلال مدة قصيرة جداً أن يجد صوته المتفرد وأن يحتل مكانة أدبيـة متميزة .

حكاية من جبهة القتال

ترجمة : د. ضياء الجبوري

[نشرت (حكايــة من جبهة القتال An Episode of War) عـام ١٨٩٩ في المجلة اللندنية (السيــدة The Gentlewoman) وتسلّـط هـذه القصـة القصيـرة الضـوء علـى المـآسـي التي تسببها الحـرب من خلال تصوير المعاناة التي يواجهها أحد الضباط الشباب بدءاً باصابته برصاصة قـنّاص وانتـهـاءاً ببتر ذراعـه الجـريحة . ومن المفارقات في هذه الحكاية أن أهوال الحرب وما يمكن ان تخلفه من ويلات بدت تـتـضح للمـلازم الشـاب لا أثناء اشتراكه في القتال بل حينمـا كان خـارج ساحـة المعركة .

أمـا في القـصـائد المختارة فيمكن رؤية اللغة الشعرية المكثفة التي عمد اليها (ستيفن كرين) والى بعض المواقف التي قـد تصدم القـارىء بغرابتهـا بل وبقسـاوتها أحياناً] .

المحرر

بَسَط الملازم لحـافه المطاطي على الأرض ثم أفرغ عليه حصة تموين السَـرية من البـنّ . وكـان العـرفـاء وبقـيـة المبـعـوثين الذين انتـدبهم المقاتلون المنهكون العطشى ينتظرون على الساتر لتسلّم نصيب مجموعاتهم من البـنّ .

كـان الملازم مـتـجـهماً، تبـدو عليـه امارات الجد وهو يـزّم بشفتيه اثناء تقسيمه الحـصـص بسيـفـه . وقد أفلح في تقسيم البن الداكن الى مربعات متساوية على نحو مـذهل. وعندمـا أوشك على الانتـهـاء من هذا الانجاز الكبير في الرياضيات ، اندفع العـرفـاء الى أمـام، كلّ يحاول نيل مربعه الصغير . صرخَ الملازم فجأة، وألقى بنظرة خـاطفـة على أحـد الرجال القريبين منه كما لو كان يشك بوجود محاولة اعتداء عليه. وقـد صرخ الجـنـد الآخـرون ايضـاً حين وقع بصرهم على الدم الذي أخـذ يلطخ كمّ بزته العسكرية .

انتـفض الملازم ، كـمن اصـابتـه لسـعـة ، وبدأ يترنح ، وتمكن بعـد لأي من اسـتـعـادة توازنه وهو يتنفس بصـوت أجش يسـمـعه جميع من حوله، ثم ألقى بنظرة حـزينة مـبـهـمـة نحـو الساتر المواجه للغابة حيث أمكن رؤية العديد من السحابات الصـغيرة التي كـانت تنفـثـهـا البنادق. وفي تلك اللحظة، شرع الرجـال الذين كانوا حـوله يحدّقـون بصمت بعد أن تسمّروا في أماكنهم كالتماثيل، مندهشين ومرتعبين من هول الفـجـيـعـة التي تسنى لهم مـشـاهدتها عن كثب في وقت لم يكن أحد ينتظر فيه حلول أي فجيعة .

وعندمـا شـخص الملازم ببصره نحـو الغـابة، أدار الرجال جميعاً رؤوسهم وهم يمـعنون النظر في الغـابة البـعـيـدة بصـمت، مستغرقين بحل لغز هذا الطلق الناري الخاطف ومصدر انطلاقه .

وفي الحـال اضطر الضـابط لان يستّل سيفه بيده اليسرى. الا أنه لم يمسك به من المقـبض بل تناوله بارتبـاك من منتـصفه. وعندما أشاح ببصره عن الغابة اللعينة، نظر الى سـيـفـه وبدا محتاراً أين يضعه وما الذي يمكن ان يفعل به. وباختصار، فقد اصبح هذا السلاح فجأة شيئاً غريباً بالنسبة له. وأخذ ينظر اليه بانشداه، كما لو كان السـيف قد تحوّل باعجوبة الى صولجان أو مجراف أو رمح اسطوري .

حـاول الضابط ان يعيد السيف الى غمده. ولكن ان يغمد سيف باليد اليسرى محمـول من وسط النصل في غـمـد مـعلّق فوق الورك الايسر، فذاك أمر لا يحدث الا في حـلبـة العـاب السيرك الخطرة. وانهمك الضـابط في صراع يائس مع سـيـفـه ومع الغـمد الذي كان يهتز ويتأرجح. وخلال ذلك كان يلهث كمصارع منهك .

وفـجأة اسـتـفـاق الرجـال الذين كـانوا حـوله من هول المصـيبة التي سمّـرت اقـدامـهم على الأرض، وتقـدمـوا نحـوه بقلوب مـشـفـقـة. وتناول العـريف المأمـور السـيـف من يد الملازم وأدخله في الغـمـد برفق بعـد أن أمال بهامته الى الخلف خشية مـلامسـة الضـابط الجريح . فالجرح يكسب حامله مسحة عجيبة من الهيبة والوقار. وغـالبـاً ما ينفر الاصحاء من رهبة هذا المشهد. فكأن يد الجريح تمسك بالستارة التي تـكـشـف عـن اسرار الـوجـود : الـنـمـل والملوك والحـروب والمدن وشروق الشـمس والجليـد والريشـة التي تسـقط من جناح طائر. وكأن قوة هذا الوجود تضفي على كل

مخلوق ينزف، هالة متألقة، تجعل بقية الرجال يدركون أنهم ليسوا سوى أقزام في هذا الكون الرحيب. وكان رفاق الضابط الجريح يمعنون النظر فيه بل انهم كانوا يخشون ان مجرد لمسه بالاصبع قد يطرحه أرضاً ويزيد من معاناته ويقذف به الى عالم مجهول مظلم. ولذلك أمال العريف بهامته الى الخلف باضطراب وحذر وهو يعيد السيف الى الغمد .

تطوّع آخرون لتقديم العون. وعرض أحد الحاضرين كتفه سائلاً الملازم بكل تهيّب ان كان يود الاتكاء عليه. الا ان الملازم رفض هذا العرض بإيماءة محزنة من يده. وقد بدت عليه ملامح انسان مفجوع يدرك مبلغ عجزه ويعلم أنه اصبح ضحية مرض عضال. وحدّق مرة أخرى صوب ساتر الغابة ثم استدار وعاد بخطى ثقيلة الى الداخل. وكانت يده اليسرى تمسك بمعصمه الايمن بكل رفق كما لو كان ذراعه المصاب من زجاج سريع التكسر .

وكان الرجال يحدّقون بصمت في الغابة تارة وفي الملازم الذي شرع بمغادرة الموقع، تارة أخرى. وكرروا النظر الى الغابة ثم الى الملازم .

وعندما ابتعد الضابط الجريح عن موقع القتال، أخذ يرى أموراً عديدة لم يكن يلّم بها حين كان في ساحة المعركة. فقد رأى أحد الجنرالات على صهوة جواده الاسود وهو يحدّق في صفوف جنود المشاة في الغابة الخضراء التي كانت تحجب عنه رؤية مآسيه. ورأى أيضاً أحد المساعدين الذي كان يعدو بفرسه بسرعة جنونية، يتوقف فجأة ليؤدي التحية ويسلّم ورقة الى الجنرال. لقد بدا ذلك المشهد عجيباً حقاً، بل أشبه ما يكون بلوحة زيتية تصوّر احدى المعارك التاريخية .

رأى الضابط خلف الجنرال وضباطه مجموعة مؤلفة من نافخ البوق واثنين أو ثلاثة من الجنود وحامل الراية وهم يمتطون خيولاً شديدة الهياج ويحاولون بجهد بالغ احكام سيطرتهم عليها للحفاظ على مظهر يليق بهم في وقت كانت فيه نيران القذائف المتفجرة من حولهم تتوهج في الجو وتجعل خيولهم تجفل مرعوبة مرتعدة .

ورأى الملازم البريق المنبعث من احدى السرايا وهي تلتف مندفعة الى اليمين باضطراب وصخب شديدين. لقد دفع هياج الخيول ووقع حوافرها ونداءات بل

صرخات ممتطيها وهم يهتفون بعبارات المديح أو التقريع والتهديد أو التشجيع وكذلك هدير العجلات وبريق المدافع الموجّهة نحو العدو ـ كل ذلك دفع الملازم الى التوقف والتأمل. واندفعت تشكيلات السرية بخطوط متموجة تهز المشاعر على نحو مثير يشبه ارتطام الامواج بالصخور. أما بتسارعها الى الأمام فكانت هذه القوة الهادرة من العجلات والمكائن والرافعات تندفع بتكامل واتساق جميل كأنها قذيفة منطلقة. وكانت الاصوات المنبعثة منها تشبه انشودة حرب تنفذ الى أعماق العواطف الانسانية .

بقي الملازم ممسكاً بذراعه المصاب كما لو كان الذراع مصنوعاً من زجاج رقيق وهو يرقب هذه السرية التي باتت تتلاشى بعيداً ولم يعد يرَ منها سوى اشباح الفرسان التي كانت تعلو وتهبط وهي تضرب باسواطها، حتى توارت عن الانظار تماماً .

وبعد لأي استدار الضابط بناظريه صوب المعركة حيث كانت اصوات القذائف والاطلاقات تشبه الطقطقة المنبعثة من حرائق الغابات . فأحياناً كانت القذائف تفرقع على نحو متقطع بغيض . وأحياناً كانت تدوي كالرعد . ورأى أعمدة الدخان تتصاعد وحشود الرجال تندفع أو تتوقف لتطلق نيرانها العشوائية على الأفق البعيد .

وفيما كان الضابط يسير، صادف شرذمة من الجنود الذين أبلغوه كيف يمكنه الوصول الى مستشفى الميدان. ووصفوا موقعها بالضبط. وكان هؤلاء الرجال الذين لم يعد لهم أي دور في القتال يعرفون أكثر من سواهم عن أخبار المعارك. فقد تحدثوا عن اداء كل فيلق وكل فرقة بل عن أداء كل جنرال شارك في القتال. وشرع الملازم الذي كان يثني يده الجريحة الى الخلف، ينظر اليهم باستغراب وعجب .

وعلى جانب الطريق كان رجال أحد الألوية في فترة استراحة يتناولون القهوة. وكان ضجيجهم يشبه اللغط المنبعث من نزل الطالبات. ثم تقدّم نحوه عدد من الضباط ليستفسروا عن أمور لم يكن يعرف عنها أي شيء البتة. وعندما رأى أحدهم يده قال متفاخراً : «ما هكذا يُعالج الجرح يا رجل ، ساضمده لك بنفسي» . واستحوذ على الملازم وعلى جرحه. ثم قص كُم الملازم وعرّى ذراعه التي

كـان كل عـصب فـيـهـا يرتعش قليلاً عند ملامسته. وربط منديله حول الجرح وهو يـرعـد ويـزمجر. وكـانت نبرة هذا الضـابط توحي أنه كـان يصـاب بجـرح كل يوم. وازاء ذلك أحنى الملازم رأسـه وخـامـره شـعـور أنه لا يعـرف كـيف يجُرح على نحـو صائب .

كـانت خـيـام المستشفى البيضاء منصوبة حول بناية احدى المدارس القديمة. وكـانت الفـوضى تعم ذلك المكان. فأمـام المستشفى كانت سيارتا اسعاف غاطستين في الـوحل العـمـيق. وكـان كل سـائق يقـذف باللوم على الآخـر، ويحرك يده بعنف مـوبخـاً صـاحـبـه بغـلاظة فيما انبعثت أصوات متقطعة من الأنين المنبعث من بعض الجـرحى الذين اكتظت بهم سيارتا الاسعاف. وكانت اعداد لا حصر لها من الجرحى المضـمـدين تروح وتجيء بينما جلست اعـداد غـفيرة من الرجـال تحت الاشـجار وهم يعـالجـون الرؤوس والأذرع أو السـيـقـان المصـابة، في حين كـانت احـدى المشادات العنيـفـة تدور رحـاها على عتبة المدرسة. وجلس أحد الرجال الذي كان وجهه رمادياً كلون اغطيـة الجـيش الجـديدة وهو يسند ظهره الى أحد الاشجار ينفث دخان غليونه بهدوء تام. وانتـابت الملازم رغبـة ملحـة بالاندفـاع نحـو هذا الرجل ليبث آلامـه له ويبلغه انه يحتضر .

وفي أثـنـاء ذلك مـر بالملازم جـرّاح بدا عليـه الانهاك بالعـمل والقى بتـحـيـة الصـبـاح على الضـابط وهو يبـتـسم. وما أن وقع بصره على ذراع الملازم حتى انقلبت مـلامح وجـهـه وقـال : «هيـا نلقي نظرة عليـهـا» . وبدا الجـراح وقـد تملكه شعور مـفـاجىء بالازدراء الشـديد لهذا الملازم. فـذلك الجرح وضع الملازم في منزلة اجتماعية مـتـدنيـة جـداً إذ صرخ الجـراح بعـد أن نفذ صبره : «أي أحمق قام بربط الذراع على هذا النحو ؟» فأجابه الملازم : «أحد الرجال» .

وعندمـا كـشف الجـرح، أخذ الطبيب يجسّـه باصبعـه بترفـع وازدراء ثم قال : «طيب . هيـا مـعي لكي اعـالج اصـابتك» . وكأن نبرة الاحـتـقـار في صوت الجراح تقول: «يجب ايداعك السجن» .

كـان الملازم في غـاية الطاعـة والأدب الا ان الاحـتقان بدا على وجهه ونظر الى عـيني الطبـيب قائلاً : «أحسب ان ذراعي لن تبتر» . وهتف الطبيب : «هراء ، ايها

الرجل، هراء، هراء . . تعـال معي الآن، لن ابترها. تعال معي ولا تكن طفلاً» .

قـال المـلازم وهو يقـاوم بغـضب : «دعني وشأني» وتسـمـرت عـيناه على باب المدرسـة القديمة التي بدت له وكأنها بوابة الموت .

هذه اذن حكاية الملازم وكـيف فـقـد ذراعـه. وعندمـا عاد الى عائلته، واصلت امـه واخـواته وزوجـتـه النحـيب لفترة طويلة كلما وقـعت انظارهن على كُم قـمـيـصه الأجـوف. وكـان الملازم، وهو يشـعر بالخجل وسط هذه الدموع يقول : «لا أظن ان الأمر مهم الى هذا الحد» .

الـقـلـب (*)

في الصحراء
رأيت مخلوقاً عارياً وحشي الهيئة
جلس على الأرض
وحمل قلبه بيديه
وراح يأكل منه .
قلت : «أهو جيد، يا صاحبي ؟»
فأجابني : «انه مرّ ، مر
ولكنني أحبه
لانه مر
ولأنه قلبي ...»

(*) من كـتـاب (مـائة قصيدة من الشعر الانجليزي) / ترجمة د. رزوق فرج رزوق / وزارة الثقافة والفنون / بغـداد ١٩٧٨ . جميع قـصـائد سـتيفن كرين الواردة هنا مأخوذة من نفس المصدر ، ما لم يرد عكس ذلك .

رأيت رجلاً

رأيت رجلاً يطارد الأفق؛
وقد انطلق الاثنان مسرعين.
فأزعجني ان ارى ذلك المنظر؛
ورحت أنادي الرجل.
قلت : «انه لجهد ضائع،
فأنت لن تستطيع الى الأبد» .
صاح الرجل : «أنت تخدعني !»
وظل منطلقاً الى الأمام .

كتاب الحكمة

رأيت امرءاً
يحمل في يديه
كتاب الحكمة .
خاطبته : «سيدي ،
دعني أقرأ» .
فقال : «أيها الطفل»
قلت : «سيدي ـ لا تخلني طفلاً ،
فأنا أعرف كثيراً
مما تحمل .
نعم ، كثيراً» .

ابتسم ـ
ثم فتح الكتاب
وحمله نصب عيني
انه لأمر غريب
لقد عميت فجأة

رجـل مـثـقـف

جاءني مرة رجل مثقف
قال لي : «انا اعرف الطريق
تعال» .
فسررت كثيراً بما سمعت
وأسرعنا معاً ،
الى مكان قريب ، قريب جداً
واذا بنا حيث لا تنفع عيناي
وحيث لا اعرف طرق قدمي
فتعلقت بيد صديقي ،
ولكنه صرخ أخيراً : «لقد ضعت» .

إنـسـان يـنـاجـي الـكـون

ترجمة : د. ضياء الجبوري

انسان قال للكون مرة

«يا سيدي ، اني أكون»

فأجاب الكون : «اني أراك ولكن

ليس في ذلك ما يلزمني بأي عهد» .

بْــرت هــارت
(١٨٣٦ ـ ١٩٠٢)

د. ضياء الجبوري

لمحـة عـامـة :

اسـهـمت كـتـابات (برت هارت) القـصـصية في منح أدب (الصبغة المحلية Local color) شـعـبـيـة واسعة لاسيما بعد نشر قصته القصيرة (يتيم مخيم رورنغ The Luck of Roaring Camp) (١٨٦٨) . وأحـدثت كـتـاباتـه انقلاباً كبيراً في الذوق الأمريكي ما زالت نتائجه ملموسة حتى الآن في الاهتمام الواسع الذي يتلقف به الجـمـهور حكايات الغرب الأمريكي وتخومه .

حـيـاتـه :

ولـد (فـرانسس برت هارت Francis Brett Harte) في نيـويورك عـام ١٨٣٦ . وبعـد وفاة والده الذي كـان يشـتـغل في مهنة التعليم ، انقطع عن الدراسة لينصرف الى العمل في أحد مكاتب المحـامـاة أولاً ثم لدى أحـد التـجـار بعـد ذلك . وفي عام ١٨٥٤ ، انتقل مع والدته الى كاليفورنيا حيـث أقـام هناك ومـارس اعمالاً شـتى في التعليم والطباعة والتعدين . وبعد زواجه عام ١٨٦٢ ، من (أنـا جـريـسـولـد Anna Griswold) ، شـرع يكتب في احـدى المجـلات الاسـبوعيـة في سان فـرنسـسكو التي كـان (مـارك توين) يسـاهم في تحريرها . ولكنه لم يتفرغ للكتابة حتى عام ١٨٦٨ حين أصـبح أول محرر لمجلـة (اوفـرلاند Overland) الشـهـرية ونشر فيها بواكير أعماله التي أكسبته والمجلة نفـوذاً أدبياً واسعاً.

غـادر (هـارت) مـدينـة سـان فـرانسيسكـو عـام ١٨٧١ وهـو في أوج شهرتـه متوجهاً الى (بوسـتن) بعـد أن وقّع عـقـداً بمـبلغ عشرة آلاف دولار (وهو مـبلغ ضـخم جـداً في مقاييس ذلك

العصر) لقاء كتابة بعض القصائد والقصص القصيرة في المجلة الشهرية (اتلانتك Atlantic Monthly). ولم يتكرر هذا العرض السخي لأن (برت هارت) تأخر في تسليم كتاباته في الأوقات المحددة . وبسبب حبه لحياة الترف وانغماسه في البذخ والاسراف ، غرق حتى أذنيه بالديون ، الأمر الذي اضطره الى الكتابة والقاء المحاضرات دون انقطاع والتوجه نحو تأليف المسرحيات السوقية كي يتمكن من اطفاء ديونه . وقد أثرت العجالة التي كان يكتب فيها سلباً على مكانته الأدبية .

أما حياته الزوجية ، فهي الأخرى لم تكن مستقرة . فلم يكن على وفاق مع زوجته وانتهت العلاقة بينهما الى الانفصال والتحاق (هارت) بوظيفته القنصلية في المانيا التي عينه فيها الرئيس الأمريكي (رذرفورد هيز Rutherford Hayes) ثم انتقل بعد ذلك الى كلاسكو في اسكتلندة عام ١٨٨٠ بناء على طلبه . وفي أثناء زياراته المتكررة الى لندن و (بورنمث) ، تعرّف على عائلة بلجيكية ، سرعان ما كثرت الشائعات حول طبيعة العلاقة التي تربطه بالزوجة . وفي عام ١٨٥٥ فَقَدَ وظيفته القنصلية ولكنه لم يعد الى وطنه وظل يعيش في انجلترا ضيفاً شبه دائمي على اصدقائه البلجيكيين .

أدبه ومساهمته في الأدب الأمريكي :

من أهم ما يميز (برت هارت) انه لم يكن يدين بالمسلّمات الأدبية التي كانت سائدة في عصره لاسيما في تصويره للشخصيات المسحوقة . فقد كان الادباء الذين سبقوه ينوطون بمهمة الدفاع عن المستضعفين الى شخصيات طيبة ، محبة للخير ، تضحي بالكثير من أجل اسعاد الآخرين . أما (برت هارت) فقد قلبَ المعادلة الموروثة وأسند للشخصيات الفَظة والمنبوذة في المجتمع (كالمقامرين واللصوص والمومسات) أدواراً «بطولية» يتمكنون من خلالها اثبات انسانيتهم وتفانيهم .

ففي رائعته (يتيم مخيم رورنغ The Luck of Roaring Camp) ، تناول (هارت) قصة امرأة مشردّة تضع طفلها في أحد مخيمات عمّال المناجم ثم تفارق الحياة . وينبري العمال للعناية بالطفل والسهر على راحته ، بل أن أحدهم وهو السكّير البذيء (كنتك Kentuck) ضحّى بحياته من أجل انقاذ الطفل (توم لَكْ Tom Luck) من مخاطر الفيضان الذي اجتاح المخيم .

ومن كتاباته المشهورة أيضاً (منبوذو بوكر فلات The Outcasts of Pokerflat) التي تثير مشاعر الشفقة تجاه المشردين الذين يعانون من ظلم المجتمع وقساوة الطبيعة .

يُعد (برت هارت) من الكتّاب الذين اهتموا بتعريف القارىء بأحوال مواطنيه وحياتهم في الساحل الغربي للولايات المتحدة . وكان يستمد مادته الأدبية من المراتب الدنيا في المجتمع ومن «حمى البحث عن الذهب The Gold Rush» التي اجتاحت كاليفورنيا في منتصف القرن التاسع عشر. وكان من أشد المعجبين بصديقه الكاتب الساخر (مارك توين) لا سيما باستلهامه الشخصيات المنسوخة عن الواقع وبالبناء القصصي واستخدام اللغة الدارجة في الحوار. وقد تأثر (برت هارت) ايضاً بالروائي الانجليزي (تشارلز ديكنز) الذي أخذ عنه التفنن برسم الشخصيات الغريبة التي يصعب محوها من الذاكرة أو تلك التي تكشف عن خصال أو امكانات لا يتوقعها القارىء .

ويمكن تقسيم رحلة (برت هارت) الادبية الى مرحلتين : المرحلة الخلاقة ويمكن تسميتها بمرحلة كاليفورنيا التي كتب فيها أفضل مؤلفاته أثناء اقامته هناك والمرحلة الثانية وهي مرحلة ما بعد كاليفورنيا التي اتسمت بالانحدار في المستوى الفني وبتكراره للموضوعات التي كان قد تناولها في المرحلة الأولى .

وعلى الرغم من تمكّن (برت هارت) من كسب بعض الشعبية في اوساط القرّاء الانجليز الذين أعجبوا باسلوبه في تصوير حياة التخوم الأمريكية التي كان قد بنى شهرته عليها، فان شعبيته في امريكا قد تدّنت كثيراً. فقد بدأ قراؤه الذين أُخِذوا بطريقة معالجته للحب والعلاقات الجنسية في السبعينيات من القرن التاسع عشر وبتسليط الأضواء على العينات المرفوضة من المجتمع يشعرون بالملل لافتقار اعماله الجديدة الى عنصر المتعة أو التشويق. وبقي (برت هارت) يجتر الموضوعات القديمة بعيداً عن قرائه الامريكيين يفصله عنهم جيل كامل شهد تحولات كبيرة في الذوق الادبي .

ويختلف (برت هارت) عن ادباء المدرسة الطبيعية في كونه لا يتناول موضوعاته من منظور علمي توثيقي مجرد بل بحس مرهف وروح رومانسية. ومن اعماله الأخرى رواية (جابريل كونروي Gabriel Conroy) (١٨٧٦) أما (أحاديث صريحة من جيمز Plain Language from James) فهي قصيدة ساخرة كُتبت باللغة الدارجة في معظمها وتتناول محاولة شخصين الايقاع بمقامر صيني في أثناء لعب الورق .

منبوذو ناحية بوكر فلات (*)

[حقق (برت هارت) نجاحاً أدبياً كبيراً في ١٨٦٩ عندما نشر هذه القصة القصيرة التي اجتاحت منظومة الفنون السردية الأمريكية لتحتل مكانة سامقة فيها. ويتجلى في هذه القصة القصيرة ولع الكاتب بالصبغة المحلية واهتمامه بالمفردات العامية التي كانت متداولة في التخوم الغربية الأمريكية . ويعبّر (برت هارت) في هذا العمل الأدبي عن المشاعر الانسانية النبيلة وروح التضحية المتأصلة في نفوس مجموعة من الأفراد كان المجتمع قد لَفَظهم] .

المحرر

عندما خطا السيد جون أوكهرست، المقامر، أول خطوة في الشارع الرئيسي في ناحية بوكرفلات في صباح اليوم الثالث والعشرين من تشرين الثاني عام ١٨٥٠، كان شاعراً بتغير طرأ على جو الناحية الأخلاقي منذ الليلة السابقة. وكان ثمة رجلان أو ثلاثة يتحدثون بحرارة ، إلا أنهم توقفوا عن الكلام عندما اقترب منهم، وأخذوا يتبادلون نظرات ذات مغزى . . كان هدوء كهدوء يوم الأحد يسود الجو، فبدا ذلك نذيراً بالشؤم في ناحية لم تتعوده فضائي أيام الآحاد .

غير أن وجه السيد أوكهرست الوسيم الهادىء لم ينم الا عن اهتمام بسيط بهذه الدلائل. أما اذا كان شاعراً في دخيلة نفسه بأي نذير، فهذا أمر آخر . . . قال لنفسه «أظنهم وراء شخص ما، ولعلي أنا ذلك الشخص» وأعاد الى جيبه المنديل الذي كان ينفض به غبار بوكرفلات الأحمر عن حذائه الأنيق، ثم طرد بهدوء أي افتراض آخر من فكره .

في الواقع، كانت ناحية بوكرفلات «وراء شخص ما» فعلاً فقد عاشت في الآونة الأخيرة خسارة عدة آلاف من الدولارات، وجوادين ثمينين، ومواطن بارز،

(*) منشورة في **ثلاثة قرون من الأدب** ، اختيار واشراف جبرا ابراهيم جبرا / بيروت / دار مكتبة الحياة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين / ١٩٦٧ .

فـاخـتـلجت فيها اختلاجات الفضيلة . . . اختلاجات خارجة على القانون ولا ضابط لها ، كتلك الأفعال التي كانت السبب في اثارتها في البداية .

وصـمـمت لجنة سرية على تخليص البلدة من جميع الأشخاص المشبوهين، وقد تم ذلك نهائيـاً، بحق رجلين اثنين كانا معلقين من أغصان جميزة في الوادي الصخري العـميق، ومـؤقـتـاً بحق بضعة أشخاص آخرين غير مرغوب فيهم، وذلك بطردهم وابعادهم عن البلدة .

ويؤسـفني أن أقـول أن بعـضـاً من هؤلاء كن سـيـدات . ولكن من الانصاف للجنس الآخـر أن نذكـر أن أفـعـالهن المعـيـبة كانت من صلب مهنتهن، وبمقاييس للفـساد كهذه أقيمت بسهولة، تجرأت ناحية بوكرفلات على جعل نفسها قاضية للبت في الأمر.

كـان السـيـد اوكـهرست مصيباً في ظنه بإنه من ضمن هذه الفئة ، فقد طالب عـدد من أعـضـاء اللجنة بشنقه ليكون عبرة للغير ، ولكي يستعيدوا منه ، على وجه أكيد، المبالغ التي ربحها منهم .

وقال جم ويسلر بهذا الصدد :

«إنـه لـيس من العـدل أن نسـمح لهذا الشـاب من المعـسكر الصـاخب ـ وهو الغريب عنا كل الغربة ـ بالافلات، حاملاً معه نقودنا» .

ولكن عـاطفـة فجة من الانصاف غمرت صدور أولئك الذين كان قد أصابهم قـسط من الحظ فـربحوا من السيد أوكهرست، فاعترضوا على هذا التحامل الشخصي الضـيق، وأبطلوا مفعوله .

وتلقى السـيـد أوكـهـرست الحكم عليـه بهدوء فلسفي وببرود، ذلك لأنه أدرك تردد قـضـاته. ولا عـجب، فـهـو مـا كـان ليكون مقامراً حقيقياً لو أنه رفض حكم القـدر. وكـانت الحـياة في أحسن صورها بالنسبة اليه لعبة غير أكيدة، كما أنه لم ينس النسـبة المئوية المألوفة لصالح موزع الورق في القمار .

واقـتـادت ثلة من الرجـال المسلحين أهل الفـسـاد المبعدين من بوكرفلات الى خـارج الناحـية. وفيما عدا السيد أوكهرست الذي عرف عنه انه رجل متهور وجسور

والذي كـان الحـرس المسلح لارهابه ، كان المنفيون يتألفون من امرأة في مقتبل العمر اشـتـهـرت لدى السكان باسم «الدوقة» ومن أخرى اكتسبت لقب «الأم شبتن» ومن «العم بيلي» وهو لص مـشبوه وسكير عريق .

ولم يثـر الموكب تعليـقـات من المشـاهدين. ولم يتفوه الحرس بكلمة، إلا عندما وصلت الجماعـة الى الوادي الضـيق الذي كـان أبعـد نقطة لحـدود ناحية بوكرفلات، فـتكلم القـائد بايجاز وفي الصـميم، محرماً العودة على المبعدين، ومنذراً اياهم بالموت ان عادوا .

ومـا أن اخـتفى الحراس حتى وجدت مشاعر المبعدين المكبوتة متنفساً في دموع هسـتيرية قـلائل انسكبت من عـيني الدوقـة، وفي بضع كلمات بذيئة تفوهت بها الأم شبـتن، وفي دفق وداعي من الكلمات الجوفاء من العم بيلي. أما أوكهرست الفلسفي التـفكير، فـانه الشـخص الوحـيـد الذي ظل صامتاً يصغي بهدوء الى رغبة الأم شبتن في انتـزاع قلب أحـد الناس، والى عـبـارات الدوقة المتكررة بأنها ستموت في الطريق، والى الشـتائم المخيفة التي كان يقذفها العم بيلي وهو ينطلق راكباً. وبروح من الطيب الذي تتـمـيـز به طبـقـتـه، أصرّ أوكـهرست على استبدال جواده المسمى «خمس بقع» بالبغل الكئيب الذي كانت الدوقة تمتطيه .

ولكن حـتى هذه الالتفاتة أخفقت في التقريب بين عواطف الجماعة .

وسـوّت المرأة الفـتـيـة باناقـة هزيلة هندامـها الأشعث، وحدقت الأم شبتن في صـاحب «الخـمس بقع» بعين الشر، وأجمل العم بيلي الجماعـة بكاملها في لعنة واحدة كاسحة .

كـان الطريق الى «سـاندي بار» يمـتـد عبر سلسلة من الجبال الحادة الانحدار. وسـاندي بار هذا كـان مخيماً لم يعـرف بعد التيارات الاخلاقية السائدة في بوكرفلات، فـبـدا لذلك وكأنه يرحب بالمهاجرين. وكان يبعد عن بوكرفلات بمسيرة يوم شاق .

وفي ذلك الفـصل المتـقـدم سرعـان مـا ودعت القـافلة مناطق سـفـوح التـلال الرطبـة المعـتـدلة المناخ ودخلت الجـو البـارد الجـاف الصحي لسلسلة جبال السيرا. وكـان الممـر ضـيـقـاً وصـعـباً. وعند الظهيرة، وبعد أن سقطت الدوقة من على ظهر

مطيتـهـا وتدحـرجت على الأرض ، أعلنت عن نيـتها بعدم متابعة السير ، فتوقفت القافلة .

كـانت البـقـعـة فـريدة في وحشيتها، قوية الفعل في النفس. وكان ثمة مسرح طبـيـعي مـسـتـدير من الاحـراج محاط من ثلاث جـهات بصخور شديدة الميلان من الغـرانيت العـاري، ينحـدر بلطف نحـو حافة هوة أخرى تشرف على الوادي. فكان المكان، ولاشك، أنسب بقعة للتخييم، لو كان التخييم أمراً حكيماً .

ولكن السيـد أوكهرست كان يعلم أن نصف الطريق الى ساندي بار لم يقطعوه بعـد، وأن القـافلة لم تكن مجهـزة بها يسـمح بالتـواني. فـذكـر الحـقيقة لرفاقه بايجاز، وأردف تعليـقـاً فلسـفـيـاً على حماقـة «رمي اوراقهم قبل انتهاء اللعب». إلا أنهم كانوا مـزوديـن بـالـشراب الـذي قـام عـندهم، في هذه الظروف الطارئة، مـقـام الطعـام، والوقـود، والاستراحـة، وبعد النظر .

وعلى الرغم من تحـذيرات أوكهرست، لم يمض وقت طويل إلا كانت الجماعة قـد وقـعت تحت تأثيره بدرجات متفاوتة .

وتحـول العم بيلي عـاجـلاً من حـالة التحدي الى أخرى من الذهول واصبحت الدوقـة مـبـتـذلة العاطفة تذرف الدمع الرخيص، بينما أخذت الأم شبتن في الشخير. وبقي السـيد أوكهرست وحده منتصباً يتكيء على صخرة ويرمق الجماعة بهدوء .

كـان السـيـد أوكـهـرست يعـزف عن الخـمـرة لأنها تتنافى مع مهنة تحتم البرود وعـدم المبـالاة وحـضور البديهة، ولأنها، على حد قوله هو ، «فوق طاقته» . واذ كان يحدق في رفـاقـه المنفـيين ، وقع فريسة لعذاب الوحدة، وليدة حرفته الوضيعة وعاداته المعـيشية ورذائله الشخصية بالذات وذلك جدياً لأول مرة .

وأخـذ يشـغل نفـسـه بنفض الغـبـار عن ثيـابه السـوداء، وغسل يديه ووجهه واتيـان أعمال أخرى تتميز بها عاداته الأنيقة بحرص، ولوهلة نسي ما كان ينغصه .

ولـعل فكرة هجـر رفـاقـه المسـاكين الأضـعف منه، لم تخطر ببـاله اطلاقـاً . . ولكنه، مع ذلك، لم يجد مناصـاً من الشـعور بتلك الرغبة المثيرة التي، على غرابتها، كانت أكبر عامل في رباطة جأشه التي اكتسب بها شهرته الذميمة .

والقى نظرة على الجدران الكئيبة المنتصبة الى ارتفاع الف قدم فوق اشجار الصنوبر المحيطة به، ونظر الى السماء المغطاة بغيوم تبعث الشؤم، والى الوادي الذي راح يغرق في الظلال . . .

وعلى حين فجأة سمع أحداً يناديه باسمه .

وصعد الدرب ببطء رجل يمتطي حصاناً. وفي وجه القادم الجديد الغض الصبوح تعرف السيد أوكهرست على توم سمسن، الملقب بـ «البريء» من أهل ساندي بار .

كان قد التقى به قبل بضعة أشهر في «لعبة صغيرة» وربح، بمنتهى الرصانة، كامل ثروة الشاب البريء البالغة حوالي أربعين دولاراً .

وبعد اللعب جذب السيد أوكهرست الشاب المقامر الى خلف الباب وخاطبه قائلاً :

«اسمع يا تومي، أنت رجل صغير طيب، ولكنك لا تستطيع أن تقامر حتى بفلس واحد. لا تجرب المقامرة مرة أخرى». ثم أعاد له نقوده ودفعه بلطف الى خارج الغرفة، وهكذا جعل من توم سمسون عبداً مخلصاً له .

تذكر سمسون ذلك، فزاد في حماس تحيته الصبيانية للسيد أوكهرست. قال أنه في طريقه الى بوكرفلات سعياً وراء الثروة .

«لوحدك ؟»

لا ، ليس تماماً . في الواقع انه كان قد هرب مع بايني وودز .

ألا يتذكر السيد أوكهرست بايني ؟

بايني التي كانت تخدم على المائدة في «تمبرسن هاوس» ؟

كانا مخطوبين لمدة طويلة، ولكن جيك وودز العجوز عارض، فهربا، وهما في طريقهما الى بوكرفلات لكي يتزوجا، وها هما هنا الآن. كانا تعبين جداً، ويا لحسن الحظ ان يجدا مخيماً ورفاقاً .

أدلى «البريء» كل هذا بسرعة، بينما ظهرت بايني، وهي فتاة ممتلئة جميلة في

الخامسة عشرة من العمر ، من خلف شجرة الصنوبر ، حيث كانت مختبئة حياء، ولحقت بعشيقها .

قلّما أزعج السيد أوكهرست نفسه بالعواطف، بله الآداب. ولكن خطر له خاطر مبهم بأن الموقف لا يبعث على الارتياح. إلا أنه كان له من سرعة البديهة ما جعله يركل العم بيلي لأنه كان على وشك التفوه بشيء .

وكان العم بيلي صاحياً الى الحد الذي أدرك عنده بأن في ركلة السيد أوكهرست قوة لن تتحمل التوافه . ثم حاول أن يثني توم سمسون عن البقاء عندهم، ولكن دون جدوى، وحتى انه بين له أن لا زاد لديهم ولا وسائل لنصب مخيم .

ولكن، لسوء الحظ، قابل «البريء» اعتراضه بأن أكد للجماعة بأن لديه بغلاً اضافياً محملاً بالمؤن وأنه اكتشف كوخاً خشبياً بدائياً بالقرب من الدرب. وقال ان بايني تستطيع أن تبقى مع السيدة أوكهرست (مشيراً الى الدوقة) ، «وأستطيع أنا أن أهتم بنفسي» .

لم يكن ثمة ما يمنع العم بيلي من الانفجار في ضحكة مجلجلة سوى قدم المستر أوكهرست المنذرة. وشعر بأنه مجبر على الانسحاب الى جرف الوادي حتى يستعيد رصانته. . وهناك أسّر بالنكتة الى أشجار الصنوبر الباسقة مع عدة ركلات من قدمه وبالتواءات في وجهه، والشتائم المعهودة ! ولكن عندما عاد الى الجماعة ـ وكان الجو قد اشتدت برودته الى درجة غير مألوفة، والسماء قد تبلدت بالغيوم ـ وجدهم جالسين حول النار وقد انهمكوا في حديث ودي .

وفي الواقع كانت بايني تتحدث الى الدوقة باندفاع صبياني، وهذه تستمع اليها باهتمام وحيوية لم تظهرهما منذ أيام عديدة. وكان «البريء» أيضاً مسترسلاً في الحديث مع السيد أوكهرست ومع الأم شبتن التي كانت قد استكانت الى الهدوء فعلاً .

قال العم بيلي باحتقار خفي وهو يجيل الطرف في القافلة الريفية ويحدق في النار والحيوانات المربوطة في الواجهة :

«هل نحن في نزهة ؟»

وفجأة خطرت له فكرة اختلطت بأبخرة الكحول التي كانت تقلق دماغه. ويبدو أنها كانت فكرة مرحة، لأنه شعر برغبة جارفة لأن يضرب على ساقه بكفه ثانية ويحشو قبضته في فمه .

وعندما زحفت الظلال ببطء صعوداً على الجبل، هزت نسمة خفيفة رؤوس أشجار الصنوبر وأنّت خلال ممراتها الطويلة الكئيبة .

وخُصص الكوخ للسيدات، بعد أن رمم وغطي باغصان الصنوبر .

وعندما افترق العاشقان تبادلا قبلة حارة صادقة كان من الميسور سماعها فوق حفيف أشجار الصنوبر المتماوجة. ولعل الدوقة النحيفة والأم شبتن الشريرة لشدة دهشتهما لم تستطيعا التعليق على دليل البساطة هذا، فيممت كلتاهما وجهها نحو الكوخ دون أن تنبس ببنت شفة .

وجددت النار وتمدد الرجال أمام الباب، ولم تمض دقائق معدودات حتى غلبهم النوم .

كان السيد أوكهرست خفيف النوم، فاستيقظ قبل الفجر وقد تخدر وبرد. وإذ هو يحرك النار الخامدة حملت الريح، التي كانت تهب الآن بشدة، الى خديه قطعاً من الثلج !

هب على قدميه وهو يقصد ايقاظ النائمين، اذ لم يكن هناك وقت للضياع. ولكنه عندما التفت الى حيث كان بيلي ممدداً لم يجده هناك، فاعتراه شك فجائي وانطلقت من شفتيه لعنة. وركض الى البقعة التي كانت البغال مربوطة فيها ولكنه لم يجدها. وكانت الآثار قد أخذت في الاختفاء بسرعة تحت الثلج .

وبدافع من التهيج الآني عاد السيد أوكهرست الى جانب النار بهدوئه المعهود.

لم يوقظ النيام. وكان «البريء» نائماً في أمان وابتسامة تزين وجهه المنمش البادي الطيبة. وكانت العذراء بايني ترقد بالقرب من اختيها الأكثر ضعفاً باطمئنان وكأن حراساً سماويين يقفون على حراستها .

وإذ ألقى السيد أوكهرست بطانيته على كتفيه مسد شاربيه وراح ينتظر انبثاق الفجر. وجاء الفجر ببطء في دوامة من ندف الثلج تبهر وتشوش المنظر .

وما كان يُرى من المشهد الطبيعي بدا وكأنه قد تغير بقوة سحرية. فنظر الى الوادي، وأجمل الحاضر والمستقبل في كلمتين : «الثلج حاصرنا» .

وعند القيام باحصاء دقيق للمؤن التي كان من حسن حظ الجماعة أنها خزنت في داخل الكوخ فنجت بذلك من أصابع العم بيلي السارقة، دل على أنها، بشيء من الحكمة والحرص، تكفيهم لعشرة أيام أخرى .

وخاطب السيد أوكهرست «البريء» بصوت منخفض قائلاً :

«أعني اذا كنت راغباً في استضافتنا. واذا لم تشأ ـ ولعل من الأفضل ألا تفعل ـ فان بوسعك انتظار عودة العم بيلي بالمؤن» .

ولسبب غامض لم يستطع المستر أوكهرست أن يسمح لنفسه بفضح نذالة العم بيلي، فذكر أنه تمشى من المخيم وأجفل الحيوانات قضاءً وقدراً، ففرت مذعورة. ثم حذر الدوقة والأم شبتن اللتين كانت على بينة، ولا شك، من وقائع هرب شريكهن، وأضاف أنهما سيكتشفان حقيقتنا جميعاً بمجرد أن يطلعا على أي شيء. ولا فائدة ترجى من تخويفهما الآن .

لم يضع توم سمسون كل مخزونه الدنيوي تحت تصرف السيد أوكهرست وحسب، بل بدا وكأنه سعيد بهذه العزلة التي ستفرض عليها وقال :

«سنستمتع بالتخييم هنا لمدة أسبوع، وسيذوب الثلج عندئذ فنعود سوية» .

وسرى مرح الشاب وهدوء السيد أوكهرست الى السيدات وبعثا الطمأنينة في نفوسهن .

وارتجل «البريء» سقفاً للكوخ المفتوح من أغصان الصنوبر، وأرشدت الدوقة بايني في ترتيب الداخل بذوق ودقة فتحتا عيني تلك العذراء الريفية الزرقاوين الى أوسع مداهما، فقالت:

«أحسب أنك معتادة على الأشياء الجميلة في بوكرفلات» .

فاستدارت الدوقة بحدة لتخفي شيئاً أحمرّ منه خداها من خلال اصباغها المهنية، وطلبت الأم شبتن من بايني أن تكف عن «الثرثرة» .

ولكن عندما رجع السيد أوكهرست من بحث مضن عن الأثر، طرق سمعه صوت ضحك مرح رددت الصخور صداه .

فتوقف بشيء من القلق وتحولت أفكاره، رأساً بطبيعة الحال، الى الويسكي الذي كان قد خبأه بحرص .

وقال المقامر :

«ولكنه لا يبدو كويسكي» . ولم يطمئن بأن الأمر لا يعدو ان يكون «لهواً بريئاً» الا بعد أن رأى النار المتوهجة من خلال العاصفة التي كانت لا تزال على عنفها، والجماعة تحيط بها من كل جانب .

أما اذا كان السيد أوكهرست قد خبأ أوراق اللعب مع الويسكي كشيء محظور، فهذا ما لا استطيع أن أقوله .

ولكن من المؤكد، على حد قول الأم شبتن، أنه «لم يذكر اسم الورق ولو مرة واحدة» طوال تلك الأمسية .

ومما بعث على البهجة أنهم قضوا الوقت في الاستماع الى أنغام اكورديون أخرجه توم سمسون بشيء من الاعتذار من رزمته .

ورغم الصعوبة في معالجة هذه الآلة وتمنعها بعض الشيء على أصابع بايني وودز، فانه استطاع أن يعزف عدة الحان عاصية من مفاتيحها، «والبريء» يصاحبها على زوج من القفاشات العظمية .

ولقد بلغ الاحتفال أوجه بنشيد من أناشيد المخيمات الخفيفة، رتله العاشقان وأيديهما متشابكة، بحماس وصوت جهوري. وأخشى أن ما فيه من نغمة التحدي والايقاع الجماعي، أكثر مما فيه من تقوى وايمان، هو الذي جعل العدوى تنتشر الى الآخرين، فاشتركوا في النهاية في ترديد القرار :

«أنا فخور بأن أعيش في خدمة الرب،

قطعت عهداً بأن أموت في جيشه» .

واهتزت اشجار الصنوبر، وحوّمت العاصفة فوق الحلقة التعسة، وهبت لهب مذبحهم نحو السماء، وكأنها ترمز الى العهد المقطوع .

هدأت العاصفة في منتصف الليل، وتفرقت السحب المتقلبة، وتلألأت النجوم فوق المخيم النائم .

وكان السيد أوكهرست، الذي مكنته عاداته المهنية من أن يعيش على أقل قسط ممكن من النوم، قد تقاسم الحراسة مع توم سمسون، واستطاع، على نحو ما، أن يأخذ على عاتقه الجزء الأكبر من تلك المهمة .

واعتذر الى «البريء» بقوله أنه كثيراً ما قضى «اسبوعاً كاملاً بدون نوم» .

فسأله توم :

«وماذا كنت تفعل ؟»

فأجاب أوكهرست ببلاغة :

«بوكر !»

وأردف المقامر متأملاً :

«عندما تصادف المرء فترة مستمرة من الحظ ـ حظ العبيد ـ فانه لا يتعب. والحظ هو الذي ينهار أولاً . ان الحظ شيء غريب جداً. كل ما تعرفه عنه على وجه التأكيد هو أنه عرضة للتقلب. وان اكتشاف موعد تقلبه لأمر مهم. لقد ألمت بنا فترة من الحظ العاثر منذ أن غادرنا بوكرفلات ـ واذا بك تأتي وتقحم نفسك فيه ! فان استطعت الاحتفاظ بأوراقك طيلة الوقت فلا بأس عليك . لأن . . .» .

وهنا أضاف المقامر بمرح غير وارد :

أنا فخور بأن أعيش في خدمة الرب،

«قطعت عهداً بأن أموت في جيشه» .

وأقبل اليوم الثالث وأطلت الشمس من خلال الوادي المتلفع بغلالة بيضاء،

ترمق المنبوذين وهم يقتسمون مؤنهم المتضائلة لوجبة الصباح .

وكان من غرائب ذلك المناخ الجبلي أن أشعة الشمس بعثت دفئاً لطيفاً في المشهد الشتوي وكأنه تعبير عطوف ملؤه الندم على ما مضى . ولكنها كشفت عن ركام على ركام من الثلج حول الكوخ ـ خضم أبيض عديم الأمل ، عديم الأثر والمعالم ، يمتد الى أسفل الحواف الصخرية التي كان المنبوذون لا يزالون متشبثين بها .

ومن خلال الهواء الصافي صفاء يثير العجب، كان دخان ناحية بوكرفلات يرتفع على بعد عدة أميال . وما أن رأته الأم شبتن من فوق قمة حصنها الصخري النائي حتى قذفت في اتجاهه بلعنة أخيرة .

كانت هذه آخر محاولاتها القاذعة، ولعلها كانت لذلك على شيء من السمو والرهبة . وقد شرح هذا العمل صدرها، كما صّرحت للدوقة فيما بعد قائلة :

«ما عليك إلا أن تذهبي الى هناك وتلعني، ثم ترقبي النتيجة» .

ثم أخذت على عاتقها تسلية «الطفلة» ، كما كان يحلو لها وللدوقة أن تدعو بايني .

لم تكن بايني طفلة بالطبع، إلا أنه كان يحلو للدوقة والأم شبتن افتراض هذه النظرية الأصيلة المعزية لتبرير تجنبهما الشتم والتصرف المشين .

وعندما زحف الليل مرة أخرى من خلال مضايق التلال ارتفعت الأنغام الرفيعة من الاكورديون وأخذت تتساقط في نوبات متشنجة ولهثات طويلة حول نار المخيم المرتعشة .

ولكن الموسيقى اخفقت في ملء الفراغ المؤلم الناجم عن قلة الطعام، فاقترحت بايني طريقة أخرى لقضاء الوقت وذلك بسرد القصص . وكان الاخفاق سيصيب هذه المحاولة أيضاً لولا «البريء» ، فلم يكن السيد أوكهرست ولا زميلتاه يرغبون في استعراض تجاربهم الشخصية . إلا أن «البريء» كان قد عثر صدفة قبل أشهر خلت على نسخة شاردة لترجمة بارعة للالياذة بقلم الكسندر بوب، فاقترح أن يقص الأحداث الرئيسية لتلك الملحمة الشعرية باللهجة الدارجة في ساندي بار،

لأنه كـان قـد نسي مـعظم كلمات القـصـيدة الاصلية وإن كان قد تمكن من استيعاب فحواها كاملاً .

وهكذا وطأت الأرض ثانيـة أشبـاه الآلهة الهوميرية بقـيـة تلك الليلة، وتصارع في الريح المشـاكس الطروادي والداهيـة الاغريقي، وبدت أشجار الصنوبر الشامخة في الوادي السـحيق وكأنها تنحني لغـضب ابن بيليوس. وكان السيد أوكهرست ينصت برضى هادىء، وأبدى اهتماماً خاصاً بصبر أخيل «السريع القدم» .

وهكذا، وبقليل من الطعـام والكثير من هوميروس والاكـورديون ، مـر أسـبوع على رؤوس المنبـوذين ، هجـرتهم فيـه الشـمس ثانيـة ، ومـرة ثانيـة غربلت السماء الرصاصية ندف الثلج على الأرض .

ويومـاً بعـد يوم أخـذت حلقـة الثلج تضـيق من حـولهم، الى أن صاروا أخيراً ينظرون الى الخـارج من داخل سـجنهم عبر جـدران بيـضاء تبهر العين وتعلو عشرين قـدمـاً فـوق رؤوسهم. وأخذت المصاعب تزداد أكثر فأكثر في اذكاء نيرانهم بالاشجار المتسـاقطة بالقرب منهم، وذلك لتراكم الثلوج عليها. إلا أن أحداً لم يتذمر، وأشاح العـاشـقان وجهيهما عن المستقبل يرنو كلاهما الى عيني الآخر، وهما مغتبطان بذلك. واسـتكان السـيـد أوكـهـرست ببرود الى اللعبة الخاسرة أمامه. أما الدوقة فكانت أكثر مـرحـاً مما هي عليه عادة، وأخذت على عاتقها الاعتناء بابايني، بينما بدت الأم شبتن ـ وكـانت فيما مـضى أقـوى من الجماعـة ـ وكأنها فـريسة مرض وذواء. وفي منتصف الليلة العـاشرة نادت أوكهرست الى جانبها وقالت له بصوت ضعيف مشاكس :

«انني راحلة، ولكن لا تقل شـيئاً عن هذا، ولا توقظ الاطفـال. خـذ الحـزمـة من تحت رأسي وافـتحها» .

وفـعل السـيـد أوكـهـرست كما طلبت، ووجـد في الحزمة حصة الأم شبتن من الزاد للاسـبـوع المنصرم كاملة غير منقوصة .

وأشـارت الأم الى بايني المستغرقة في النوم وقالت :

«أعطها الى الطفلة» .

فقال المقامر :

«لقد قتلت نفسك جوعاً» .

فأجابت بلهجة مشاكسة وهي ترقد ثانية :

«هذا ما يسمونه» ، وأدارت وجهها الى الجدار واسلمت الروح بهدوء .

وضع الأكورديون والفقاشات جانباً في ذلك اليوم، ونسي هوميروس، وعندما أودع جثمان الأم شبتن بين الثلوج جذب السيد أوكهرست «البريء» جانباً وأراه زوجاً من الأحذية الثلجية كان قد صنعه من خرج قديم، وقال له وهو يشير الى بايني :

«إن هناك أملاً واحداً في المائة لانقاذها بعد، ولكنه أمل على كل حال» . وأشار باتجاه بوكرفلات وأضاف :

«وإن تمكنت من الوصول الى هناك في يومين، فانها ستنجو» .

فهتف توم سمسون :

«وأنت ؟»

وجاء الجواب باقتضاب :

«أنا سأبقى هنا» .

افترق العاشقان بعناق طويل. وعندما رأت الدوقة السيد أوكهرست وكأنه ينتظر ليرافقه هتفت :

«أذاهب أنت أيضاً ؟»

فأجاب :

«سأرافقه حتى الوادي» . واستدار فجأة وقبّل الدوقة مما جعل محياها الشاحب يلتهب وأطرافها المرتعشة تتصلب من الدهشة .

وجاء الليل ولكن السيد أوكهرست لم يعد . . جاء الليل من جديد بالعاصفة والثلج الهادر، وبينما كانت الدوقة تطعم النار وقع نظرها على كومة من الوقود تكفي لأيام أخرى معدودات، كان أحدهم قد هيأها بهدوء بجانب الكوخ .

فطفرت الدموع الى عينيها، ولكنها أخفتها عن بايني .

لم تنم المرأتان إلا قليلاً. وفي الصباح نظرت احداهما في وجه الأخرى فقرأتا مصيرهما، ولكنهما لم تتكلما، إلا أن بايني ، وقد ارتضت باتخاذ موقف الأقوى، اقتربت وأحاطت بذراعيها خصر الدوقة. وبقيتا على هذه الحالة طيلة ذلك اليوم. وفي تلك الليلة بلغت العاصفة أوجها من العنف وغزت قلب الكوخ بعد أن مزقت عنه جذوع الكرمة الواقية .

وقرب الصباح وجدت كلتا المرأتين نفسها غير قادرة على اذكاء النار التي خبت رويداً. وبينما كانت الجمرات تسود ببطء اقتربت الدوقة من بايني وقطعت الصمت الذي دام ساعات بتساؤلها :

«بايني، هل بوسعك أن تصلي ؟»

وأجابت بايني ببساطة :

«لا، يا عزيزتي» .

وبدون أن تشعر بالدافع الحقيقي، شعرت الدوقة بارتياح، ووضعت رأسها على كتف بايني وسكتت عن الكلام .

وهكذا وسّدت الفتاة الصغرى الطاهرة رأس اختها الملوثة على صدرها البكر واستغرقتا في النوم .

وهجعت الريح وكأنها خشيت ايقاظهما، وتطايرت على غير هدى كتل ناعمة من الثلج كعصافير بيضاء الجناح، وتساقطت حولهما وهما نائمتان .

ومن بين السحب المنقشعة أطل القمر على المشهد الذي كان من قبل مخيماً. ولكن كل لطخة بشرية، وكل أثر لألم أو مشقة أرضية كان قد أختفى تحت الرداء الناصع المسدل برحمة من العلي .

نامتا طيلة ذلك اليوم واليوم التالي ولم تستيقظا عندما قطعت أصوات ووقع أقدام سكون المخيم. وعندما أزالت أصابع مشفقةٌ الثلج من على وجهيهما الشاحبين

كـان من العـسير التـبين، بما استقر عليهما من سلام متساو أي منهما كانت الخاطئة. وحـتى قـانون بوكـرفـلات أقـر بهذا وقـفـل عـائـداً تاركـاً اياهما الواحـدة في حـضـن الأخـرى .

ولكن على قـمـة الهاوية، وعلى شجرة من أكبر شجرات الصنوبر، عثر الناس على احـدى أوراق اللعب، ورقـة «السـبـاتي» الثنائيـة، وقـد ثبـتت بمدية في اللحاء، وهي تحمل الجملة التالية مكتوبة بالقلم الرصاص وبيد ثابتة :

✝

تحت هذه الشجرة

يرقد جثمان

جون أوكهرست

الذي ألمت به نوبة من حظ عاثر في الثالث والعشرين

من تشرين الثاني عام ١٨٥٠

وسلم اوراقـه

في السابع من كانون الأول عام ١٨٥٠

وهـكـذا رقـد تحـت الـثلج عـديم النبض بارداً، ومـسـدس صـغير الى جـانبـه ورصـاصـة في قلبه، هادئاً هدوءه في الحياة، ذاك الذي كان في يوم ما أقوى، وكذلك أضـعف، منبوذي ناحية بوكرفلات .

هنري جيمز
(١٨٤٣ ـ ١٩١٦)

د. ضياء الجبوري

لمحة عامة :

ليس ثمة شك في ان (هنري جيمز Henry James) يعد من أغزر الأدباء الذين انجبتهم الولايات المتحدة انتاجاً. فقد واصل نشاطه الأدبي لفترة تزيد عن نصف قرن : منذ الأيام الأخيرة للحرب الأهلية الأمريكية وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى . ونظراً لاسهاماته الكبيرة ، لا سيما في الفنون السردية والنقد وأدب المذكرات والمسرحيات، فقد نال من الحفاوة والتكريم الشيء الكثير. وانهالت عليه الدعوات من مختلف المؤسسات الثقافية والأدبية في اوروبا والولايات المتحدة وكندا ، لالقاء المحاضرات في الأدب والنقد . ومنحته عدة جامعات مرموقة شهادات فخرية من مثل جامعة هارفرد (١٩١١) وجامعة أوكسفرد (١٩١٢) ثم تكريمه بوسام الاستحقاق البريطاني.

حياته :

ولُد (هنري جيمز) في نيويورك عام ١٨٤٣ وكان والده الثري من المهتمين بالفلسفة والثقافة والأدب ومن المتمردين على قيم المجتمع الذي نشأ فيه ومعاييره. ومنذ طفولة (هنري) المبكرة اصطحبه والده في جولات متعددة الى مدن اوروبا مثل جنيف وباريس وروما ولندن وكمبرج وغيرها التي وسّعت آفاقه ووفرت له منهلاً ثّراً أغنى كتاباته الأدبية فيما بعد. وفضلاً عن انخراطه في المدارس النظامية في اوروبا واستغلاله للفرص التربوية الكبيرة التي وفرها له والده من مربيات ومدرسين خصوصيين، فقد استقى (هنري) جزءاً كبيراً من ثقافته المبكرة من المتاحف

الاوروبيـة والمعـارض الفنيـة والمكتبـات والمسارح والنشاطات الاجتماعية والثقافية . وكان فوق ذلك شـغـوفـاً بالقراءة الى الحد الذي جعل أباه يصفه بـ «مُلتهم الكتب والمكتبات» . وعند عودة العائلة الى الولايات المتـحـدة ، التـحق الشـاب (هنري) بجـامـعـة هـارفـرد الا أنه سرعان ما اضطر لترك دراسـة الحقوق فيها لمرضه الذي أعفاه من الخدمة العسكرية في الحرب الاهلية الأمريكية .

أدّى التنقل والتـجـوال المسـتـمـران في مطلع حيـاة (هنري) الى تعـرفـه على عدد كبير من الشـخـصـيـات الفكرية والأدبيـة اللامـعـة في عصره. فـفي كمبرج مثلاً تعرّف على شيخ الواقعيين الأمـريـكـيين (وليم هاولز) الذي أصـبح صـديقـاً حميماً له. وفي لندن تعـرّف أيضـاً على (تشـارلس نـسـورتـــن) الـذي قـدمـــه الى أبـرز الأدباء الفكتـوريين من مـثـل (وليم مـورس) و (روزيتـي) و (رسكـــن) و (فـلـــوبـير) و (كـبـلـنـــك) و (مـاثـيـو ارنولـد) و (روبرت براونـنـغ) و (روبرت سـتـيـفـنـســن) و (جـوزيف كـونـراد) و (أمـيل زولا) و (مـوباسـان) وغيرهم. ولا يخفى ان هذه العـلاقـات الواسعة والمتنوعة أسهمت في تعميق ثقافة (جيمز) وأغنت تجاربه الأدبية والفلسفية .

لم يتـزوج (هنري جيـمـز) . الا ان ذلك لا يعني أنه لم يعـرف الحب . فـقـد كـان يكـنّ لاحـدى قـريبـاته وهي (ميري تمبل Mary Temple) حبـاً عـمـيـقـاً لم يفصـح عنه إلا بعد موتها المفـاجيء وهي في الرابعة والعشرين من عمرها . ولهذه التجربة المريرة صدى كبير في حياة الكاتب حيـث اسـتلهم منهـا أفكاراً وشخصيات كثيرة لا سيمـا في روايتيـه (صورة سيدة The Portrait of a Lady) (١٨٨١) و (أجنحة الحمامة The Wings of the Dove) (١٩٠٢) . وبعد ان شعر (هنري) بالملل من حيـاة التنقـل والترحـال، اسـتـقـر به المقام أخيراً في انجلترة. وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى، هبّ هذا الرجل الذي جـاوز السـبعين من عمره للاسهام في الأعمال الخيرية وتقديم العون للجـرحى والمشردين وزيارة المسـتـشفيات . وتوفـي في لندن في ٢٨ شباط ١٩١٦، ونقل رماد جثته الى مـقبرة العائلة في الولايات المتحدة .

أدبه وأفكاره :

يتـفق مـعظم النقـاد على أن النتاج الأدبي لـ (هنري جيمز) مـرّ عبر ثلاث مراحل متميزة : الأولى وهي مـرحلـة البـدايـات (١٨٧٠ ـ ١٨٨٢) ، انصب اهتمام الأديب فيها على معالجة بعض النماذج السلوكـيـة الأمـريكيـة التي كـانت في نظره تجسّـد البراءة والعـفـوية ثم مـقـارنتـهـا بالحياة الأوروبيـة وتجـاربها الضـاربة في العـمق. وقـد توجت هذه الفترة بصدور روايته الشهيرة صورة سيدة The Portrait of a Lady (١٨٨١) أمـا في المرحلة الثـانية ، فقد أصبح اسلوبه الأدبي أكثر تجريبية وتنوعـاً من حـيـث الشكل والمضـمـون . فـقـد ابتـعـد (جيـمـز) عن التركـيز على ما أصبح يعرف

«بالمواضيع العالمية»، وكتب روايات تعالج التيارات الاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة في السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر. ومن أبرز نشاطات هذه الفترة أيضاً توجهه نحو الكتابة المسرحية والأعمال السردية القصيرة التي تتناول علاقة الفنان بالمجتمع والاضطراب النفسي للطفولة المضطهدة والشخصيات المهووسة أو العصابية كتلك التي صورها في روايته القصيرة (دورة اللولب The Turn of the Screw) (١٨٩٨). أما المرحلة الثالثة والأخيرة التي تعد اغزر فتراته الأدبية انتاجاً، فقد عاد (جيمز) لتناول «المواضيع العالمية»، ولكن برؤية جديدة. وتميزت اعماله في هذه الفترة بالعمق والتعقيد، حيث شرع بتناول الجوانب النفسية لشخصياته وبسبر الأعماق غير المرئية فيها. واهتم في هذه الفترة ايضاً بالنقد الأدبي وجماليات الفن، وسطّر في المقدمات النقدية افكاره وآراءه حول نظرية الأدب وأساليب الفن السردي وتقنياته. وقد أثّرت كتاباته النقدية هذه في جيل كامل من الكتّاب منهم (جوزيف كونراد) و (ايدث وارتن) و(دي. اتش. لورنس). ومن مؤلفاته الروائية الأخرى نذكر: (الأمريكي The American) (١٨٧٧) التي عالج فيها سذاجة الأمريكي مجسّدة بشخصية (كريستوفر نيومن Christopher Newman) وهو يواجه الصراع بين العالمين القديم والجديد، هذا الصراع المتمثل باختلاف القيم والتقاليد والأعراف المتضاربة التي تتجاذبه. ومن الروايات الأخرى التي حققت نجاحاً واسعاً نذكر (السفراء The Ambassadors) (١٩٠٣) و (الوعاء الذهبي The Golden Bowl) (١٩٠٤).

وفي الفترة الممتدة من ١٨٩٠ الى ١٨٩٥، جرّب (جيمز) التأليف للمسرح فكتب سبع مسرحيات لم تحقق النجاح الذي كان يصبو إليه. وله دراسات نقدية عديدة عن الرواية والفنون السردية. وفي السنوات الأخيرة من حياته، كتب سيرته الذاتية في ثلاثة مجلدات صدر الأخير منها بعد عام من وفاته.

النموذج الأصيل

ترجمة : د. ضياء الجبوري

[تتناول هذه القصة التي نشرت لأول مرة في ١٨٩٢ ، محنة الفنان الذي يجد نفسه ازاء خيار صعب بين النوازع الانسانية الخيرة من جهة والالتزام بمتطلبات العمل الفني من جهة أخرى . وكان لهذه القصة القصيرة التي استوحاها من حادثة حقيقية مرَّ بها أحد الفنانين من اصدقائه، وقع خاص في نفس (هنري جيمز) وقام بتنقيحها وصقلها أكثر من مرة. ومما يميز هذه القصة ، بل الكثير من أعمال (جيمز) السردية ، ان الشخصية المركزية التي تروي الحدث فيها ، ظلت طوال الوقت غير مرئية ، مما يتيح للقارىء ان يرى الحدث ويتفاعل معه على نحو مباشر] .

المحرر

عندما اعلنت زوجة البواب (التي كانت تستجيب كلما قرع الجرس) بأن رجلاً وامرأة يودان رؤيتي، تبادر الى ذهني ما كنت اتمناه دوماً ـ وهو أن يكون القادم أحد الاشخاص الذين يودون ان ارسم لهم صورة شخصية. وبالفعل تبين ان زائرَيّ قد قدما لكي يمثلا أمامي للرسم. ولكن ليس على النحو الذي كنت افضله. وعلى أية حال، فلم المح منهما ما يشير الى أنهما قد قدما كي أرسم لوحة زيتية لهما.

كان الرجل في الخمسين من عمره : قامة طويلة منتصبة وشاربان قد اختطهما الشيب، أما معطفه الرمادي الداكن فقد اضفى عليه اناقة تثير الاعجاب . لقد انتبهت الى ذلك بحكم عملي ـ الذي لا يتصل بمهنة الحلاقة أو الخياطة بشيء . ولو كانت هيئة المشاهير تثير الاعجاب لتخيلته واحداً منهم. بيد انني أيقنت ومنذ مدة بان من كان وسيماً وحسن المظهر لا يمكن ان يكون شخصية مرموقة. وذكّرني منظر

السيـدة التي بمعيته بهذا التناقض. لقد كان مظهرها متميزاً الى الحد الذي لا يمكن تصـورها شـخـصـيـة بارزة. فـمن النادر جـداً ان نلتـقي اناسـاً تجـتمع لديهم هاتان الصفتان معاً .

لم يتـحـدث أي من الضـيـفين مـباشرة ـ بل جعل كلاهما يطيلَ النظر حوله في باديء الأمـر مما أوحى بان كـلا منهما كـان يرغب في افساح المجال للآخر. وقد بدا الاسـتحياء واضحاً عليهما وقد ظلا واقفين في انتظار السماح لهما بالدخول .

وادركت فـيها بعـد ان ترددهما وشـعورهما بالخجل كان في صالحهما. لقد مر بي أناس يشعـرون بحـرج بالغ حين يطلبون مني أن أرسمهم في لوحات زيتية. على ان تردد الضـيـفين الجـديدين كـان يفوق كل تصور تقريباً وقد بدا الرجل وكأنه يقول : «ارغب ان تقـوم برسم صـورة شـخـصـيـة لزوجتي» . والزوجـة : «أرغب ان تقـوم برسم صـورة شـخـصـية لزوجي» وقد لا يكونا زوجاً وزوجته، مما سيجعل الأمر أكثر حـسـاسـيـة بالطبع. ولعل الضـيفين كانا يرغبان ان ارسمهما في صورة واحدة مشتركة وفي هذه الحالة لربما كان من الأجدر بهما ان يصطحبا شخصاً ثالثاً لابلاغي الأمر .

ارتسـمت على محيـا السـيـدة ابتـسـامة باهتة توحي بجمال ذاو. وكان تأثير هذه الابتـسامة على ملامحها يشبه التأثير الذي تحدثه الاسفنجة الرطبة عند ملامستها لوحة زيتية بهتت الوانها . ثم قالت :

ـ «لقد بعثنا المستر ريفت Rivet» .

وكـانت، كـرفـيـقها الذي تصغره بعشر سنوات، امرأة طويلة منتصبة القامة. وبدا وجـهـهـا الذي لم يكن يفـصح عن أي تعـبير، حـزيناً ـ أي ان طلاء الزينة التي اصطبـغت به وجـهـهـا البيضوي لم يعد يخفي ما احدثته سنوات العمر من أثر. فقد كـانت يد الزمن طليـقـة في العـبث بها وازالة بعض ملامح حسنها. وكانت رشيقة في غـاية الاناقـة وهي ترتدي فـسـتـاناً ازرقـاً داكناً تتـسق فـيه الثنيات والجيوب والأزرار. وكـان من الواضح ان خـيـاط زوجـهـا الماهر نفسه هو الذي صمم بدلتها. وبدا على الزوجين انهما على جـانب من اليسر وانهما كـانا يسـتـمتعان بالترف الذي يعود المال به عليـهما. وشعرت انه من الأولى أن أفكر بمقدار ما أحصل عليه منهما من مال فلربما

قـدما الي كي ارسمها وامدهما ببعض مظاهر الترف.

ورَدَّدتُ : ـ « آه، كـلـود ريـفت Claude Rivet أوصـاكم بي ؟ » ثم اضـفت بأنني ممتن له حـقـاً ، على الرغم من أنني كنت اشـعـر بان توصيته هذه لم تنطو على أية تضحية من جانبه لأن (ريفت) لم يكن يرسم سوى المناظر الطبيعية .

شـخـصت السـيدة ببصرها نحو الرجل. أما هو فقد جال ببصره حول الغرفة وبعـد أن حـدق في الأرض لبرهة ولمس شـاربيه، القى عليّ بنظرة ودودة وقال : «لقد ذكـر بانك الشـخص المناسب» . ـ « احـاول أن أكون كذلك حين يرغب الناس ان يمـثلوا أمـامي للرسم» . وهنا قـالت السيدة بلهفة : «نعم ، نرغب بذلك» ـ «وهل سـتجلسان سوية ؟» وتبادل الزائران النظر فيما بينهما ثم قال الرجل متلعثماً «اعتقد ان الأجـر سيكون مضاعفاً لو تمكنت من اشراكي أيضاً». «نعم . بالطبع سيكون الأجر أعلى لشـخـصين منه لشـخص واحـد» . ثم قـال الزوج ـ «نود أن يكون الأمر مثمراً وذا جـدوى» . ولأنني فـهـمت انه يقـصـد المبلغ الذي سـيدفعه لي أجبت وأنا أشعر بالامتنان لهذا التعاطف غير المتوقع ـ «ان هذا لطف كبير منك» .

وفـجأة ظهـرت عـلائم الحيرة والاسـتـغـراب على السـيـدة ـ «نقـصـد الرسوم التـوضـيـحـيـة. لقـد ذكر المستر (ريفت) انه قد يكون بامكانك ان تشملنا بواحدة منهـا». واجـبت انا اشعر بالحيرة ذاتها : «اشملكما بواحدة منها في رسم توضيحي ؟» ثم هتف الرجل وقـد أحمر وجـهـه : «بمـعنى ان تجـعل منا نموذجين لتخطيطاتك». وعندها فـهـمت نوع الخـدمـة التي اسـداها (كلود ريفت) لي. لقد ابلغهما انني ارسم تخطيطات بالاسـود والأبيض للحـيـاة المعـاصرة لعدد من المجلات والروايات، ونتيجة لذلك فان بامكاني ان استأجر الكثير من الناس ليمثلوا أمامي.

لقـد كـان مـا ذكـر عني صحيحاً، وصحيح ايضاً انني كنت اعدّ نفسي رساماً كـبيراً واسـعـى لنيل مكافآت مجزية لقاء عملي واود ان اترك للقارىء ان يحدس فيها اذا كانت هذه الآمال التي تعتمل في نفسي ستفضي الى العدم أم الى تحقيق ما اصبو اليه. لقـد كنت اتكسب من «الرسـوم التـوضيحية» التي انجزها على عجل . وكنت اتطلع الى لـون آخـر مـن الـفـن ـ لون يسـتأثر باهتمامي لكي اخلّد اسـمي به ، وليس من المعيب ان ارى في هذا اللون من الفن مـصـدر ثروتي . الا ان ثروتي هذه اصـبحت

تنآى عني منذ اللحظة التي طلب فيها الزائران ان ارسمهما دون مقابل. لقد شعرت بالاحباط. وفجأة رأيتهما بعين الرسام النافذة وتمكنت من اكتشاف النمط الذي يمثلانه ثم استقر رأيي على أمر لن يدخل السرور الى قلبيهما البتة .

وحالما افقت من دهشتي سألتهما : «هل تودان أن . . . ان تمثلا أمامي ؟» وهنا وجدت نفسي غير قادر على التفوه بالكلمة الفظة «نموذجين» لانها بدت غير مناسبة واجابت السيدة : «ليس لدينا خبرة كبيرة في هذا الأمر» . واضاف زوجها: «علينا ان نجد عملاً ما . ونعتقد بان فناناً مثلك قد يستفيد منا» . وواصل حديثه قائلاً انهما لا يعرفان الكثير من الفنانين وانهما توجها الى المستر (ريفت) الذي كانا التقياه قبل عدة سنوات في أحد الأمكنة في (نورفلك Norfolk) حيث كان يرسم بعض التخطيطات. وهنا تذكرت ان المستر (ريفيت) الذي كانت جل رسومه مناظر طبيعية، كان يرسم اشخاصاً في بعض الأحيان أيضاً .

وذكرت السيدة : «لقد كنا في السابق نرسم بعض التخطيطات» إلا أن زوجها واصل حديثه قائلاً : «انه لأمر محرج حقاً ـ اذ يتحتم علينا ايجاد عمل ما» وقالت فيما يشبه الاعتراف وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة فاترة : «لم نعد في مرحلة الشباب اليافع بالطبع» وفيما كنت اطلب منهما ان يزوداني ببعض المعلومات عن وضعيهما، أخرج الزوج بطاقة شخصية من دفتر جيب صغير في غاية الاناقة وقد كتب على البطاقة «الرائد مونارك» . وعلى الرغم من الانطباع الطيب الذي خلفته هاتان الكلمتان لم اشعر بأنني قد ازددت معرفة به . واضاف الرجل في الحال: «لقد تركت الجيش، ومن سوء الحظ اننا فقدنا كل ما نملك من مال. في الواقع ان مصدر رزقنا ضئيل جداً» . وقالت السيدة (مونارك) مؤكدة : «ان وضعنا صعب للغاية» . ومن الواضح انهما كانا يتحدثان بتحفظ واستحياء وانهما كانا لا يبالغان في حديثهما لانهما ينتميان الى شريحة محترمة من المجتمع وقد ادركت انهما كانا يشعران بان هذا الأمر قد يضر بمصلحتهما وفي الوقت ذاته انتابني احساس ان معاناتهما قد خفت عند شعورهما بانهما أفلحا في كسب رضاي . لقد افلحا في ذلك بالفعل. بيد انني شعرت ان نقاط القوة فيهما تبرز أكثر ما تبرز في الأطر الاجتماعية وليس في رسوماتي. وعلى سبيل المثال يضفي حضورهما مسحة من الجمال على

صالات الاستقبال. فصالات الاستقبال كانت وينبغي لها أن تكون على الدوام بمثابة لوحات فنية .

قال (الرائد مونارك) بعد أن اشارت زوجته الى عمريهما : «وبالطبع فاننا نفكر بالولوج في هذا المجال لما لدينا من قوام وهيئة، فما زال باستطاعتنا ان ننتصب بقامتينا» . وفي الحال ادركت ان هيئتهما كانتا حقاً ابرز نقاط القوة لديهما. ولم أشعر ان كلمة «بالطبع» التي نطق بها كانت تنم عن احساسه بالكبرياء على الرغم من أنها اثارت في نفسي هذا التساؤل ، وواصل الرجل حديثه على نحو ودي ومباشر وهو يشير الى زوجته قائلاً : «لديها أروع قوام». واجبته كما لو كنا جالسين نحتسي النبيذ بعد العشاء بان ذلك لا يعني ان قوامه هو ليس على أحسن ما يكون، الأمر الذي جعله يضيف قائلاً : «ان كان عليك ان ترسم اشخاصاً مثلنا فقد نصلح ان نكون نموذجاً لذلك، وزوجتي بالذات تصلح ان تكون نموذجاً لسيدة ترسمها في الكتب او شيء من هذا القبيل» .

لقد ادخلا السرور الى قلبي. وللاستزادة من ذلك بذلت كل جهدي كي اتقبل وجهة نظرهما. ولقد شعرت بالحرج حين الفيت نفسي، كمن يتفحص اجساد الحيوانات المعروضة للأجرة أو الخدم العبيد، اقيّم مظهر زوجين وقورين قد التقي بهما في أحد المجالس الاجتماعية حيث يكون من غير اللائق ان يبوح المرء بانتقاده لمظهر الآخرين. والقيت بنظرة متفحصة على السيدة (مونارك) تمكنت بعدها ان اردد بنوع من الثقة : « نعم ، صورة لسيدة في كتاب ! » لقد كانت حقاً تشبه رسماً توضيحياً في غاية الرداءة .

وهنا قال الرائد وهو ينهض أمامي بتبختر : «بامكاننا ان نقف للرسم لفترات طويلة ان رغبت في ذلك» . وبلمحة بصر، استطعت ان اعرف مقاس طول هذا الرجل المحترم ـ ستة أقدام وبوصتان. وشعرت انه يصلح للعمل في الترويج لأي ناد جديد بالوقوف في الواجهة الرئيسية لقاء بعض الأجر. وهنا أدركت أنهما بقدومهما إليّ فانهما عبّرا عن جهلهما بالمهنة التي بامكانهما ان ينجحا فيها. ومن المؤكد انهما يصلحان للعمل في مجال الدعاية. ولا أعرف بالضبط طبيعة العمل الذي يناسبهما الا انني استطيع ان اؤكد ان بامكان شخص ما أن يستفيد منهما في جني

ثروة طائلة. فمن الممكن لهما مثلاً العمل لدى أحد اصحاب الفنادق، أو الخياطين أو تجار الكماليات والعطور. وارتسمت في مخيلتي صورتها وهما يعرضان، وعلى نحو يشد البصر، لوحة مثبتة على صدريهما تقول : «نحن نستعمل هذا المتوج دائماً» أو يقومان بخدمة الزبائن ويشرفان بدقة متناهية على موائد الطعام في أحد المطاعم أو الفنادق الراقية .

وفي غضون ذلك كانت السيدة (مونارك) تجلس دون حراك بسبب الخجل الذي اعتراها وليس بسبب الاستعلاء. ولم يلبث ان قال لها زوجها : «انهضي يا عزيزتي واعرضي اناقتك» وامتثلت للأمر على الرغم من أنها لم تكن بحاجة للنهوض للتدليل على ذلك . وخطت المسز (مونارك) الى المرسم ثم عادت وقد احمرت وجنتاها واضطربت نظرات عينيها وهي تشخص ببصرها الى زوجها. وذكّرني منظرها بمشهد مماثل في باريس حينما كنت أزور صديقاً لي كان منهمكاً باخراج مسرحية له عندما جاءته ممثلة تطلب منه ان يسند اليها أحد الأدوار وعندها اخذت تخطو أمامه جيئة وذهاباً. وكانت المسز (مونارك) تمشي بخطوات انيقة تشبه خطوات تلك الممثلة. بيد أنني لم افصح عن اعجابي بذلك. ومن الغريب حقاً ان تجد مثل هؤلاء الناس يطلبون العمل بأجر زهيد جداً . اذ كان منظر المسز (مونارك) يوحي بأن دخلها لا يقل عن عشرة آلاف باوند في السنة .

اطلق عليها زوجها صفة تطابق حالها تماماً. لقد كانت حقاً «انيقة» ، حسب ما يدل عليه هذا المصطلح الشائع في لندن. وإذا ما استرسلنا في الحديث عن الموضوع ذاته فان قوامها كان رائعاً لا ينتقص منه البتة. فقد كان خصرها، بالنسبة لأمرأة في مثل عمرها، نحيلاً الى الحد الذي يبعث على الدهشة. وكانت تثني مرفقها بلطف وتدير رأسها على نحو لا يلفت الانتباه. ولكن لماذا جاءت اليّ بالذات ؟ كان ينبغي عليها ان تعمل عارضة في أحد محلات الأزياء الكبيرة وأخشى أن لا يكون الزائران مشردين فحسب بل من ذوي الذوق الفني، مما سيجعل الأمر أكثر تعقيداً. وعندما جلست المسز (مونارك) ثانية شكرتها وذكرت لها ان أهم ميزة ينشدها الرسام في النموذج الذي يمثل للرسم هي الهدوء .

ثم قال الرائد (مونارك) : «بامكانها ان تلتزم الهدوء» ثم أضاف مازحاً :

«لقد أجبرتها دوماً على التزام الهدوء» واجابته المسز (مونارك) : «لست من اللواتي يتململن بعصبية كريهة، أليس كذلك ؟»

ثم التفت زوجها الي وقال : «ما دمنا نتوخى الجدية في العمل، ارجو ان يكون من المناسب ان اذكر لك بانني عندما تزوجتها كانت تعرف حينذاك بـ «التمثال الجميل» وبنبرة حزينة رددت المسز (مونارك) : «يا الهي، ما هذا الكلام !» ثم قلت لها : «وبالطبع، فانني أود ان يكون هناك بعض التعبير في الملامح» .

واجابا بصوت واحد : «بالطبع» .

- «ولابد انكما على علم بانكما ستشعران بتعب شديد» . وهتفا بلهفة : «كلا، نحن لا نشعر بالتعب اطلاقاً» .

- «هل لديكما أية خبرة سابقة في هذا المجال ؟»

وبان عليهما التردد وتبادلا النظرات ثم قالت المسز (مونارك) : «لقد التقطت لنا صور كثيرة جداً» . واضاف الرائد : «ان ما تعنيه زوجتي ان المصورين انفسهم كانوا يطلبون الينا ذلك» .

- «نعم، لانكما على جانب كبير من الجمال» .

- «لا أعرف ما الذي كان المصورون يفكرون به. الا أنهم كانوا في اعقابنا دوماً» .

وابتسمت المسز (مونارك) وهي تقول : «لقد كنا نحصل على صورنا الشخصية بالمجان على الدوام» .

وهنا اضاف زوجها : «كان من المفروض ان نجلب بعضها يا عزيزتي» . والتفتت المسز (مونارك) الي لتقول : «لست متأكدة من أن لدينا أية صورة الآن، لقد قمنا باهداء كميات كبيرة منها». وقال الرائد: «مذيلة بتوقيعنا وما اشبه ذلك».

ثم استفسرت مداعباً : «وهل يمكن الحصول على هذه الصور في المكتبات ؟»

- «نعم. صورها هي. وكان ذلك فيما مضى» .

- وعندها اضافت المسز (مونارك) وهي تشخص ببصرها الى الأرض :

- «ليس الآن» .

٢

وتخيلت ما يمكن ان تشير إليه عبارة «ما اشبه ذلك» التي كانا يثبتانها على الاهداء، وكنت على يقين ان خطهما كان جميلاً جداً. ومن الغريب انني سرعان ما شعرت وكأنني متيقن تماماً من كل ما يتصل بهما من أمور. وما داما بهذا الفقر الذي اضطرهما للسعي الى كسب دريهمات معدودة، فلابد انهما لم يكونا أبداً ميسوري الحال. لقد كانت ملامحهما الجميلة رأسمالهما الوحيد الذي قاما باستغلاله الى اقصى حد للتمتع بمباهج الحياة. وكان كل ذلك واضحاً في نبرة صوتيهما المحببة وملامح وجهيهما التي خلت من كل تعبير، جرّاء الراحة الفكرية وهدوء البال الذي تولد عن عشرين سنة من قبول الدعوات في القصور الريفية. وتخيلت المسز (مونارك) وهي تجلس في صالات الاستقبال المشمسة حيث تناثرت المجلات التي لم تقرأها. ثم تخيلتها وهي تتجول بين شجيرات الجنينة الرطبة . وارتسمت في مخيلتي ايضاً غنائم الصيد الوفير من الطيور التي شارك الرائد في قنصها والملابس الفاخرة التي كان يرتديها ليلاً حين يتوجه الى احدى الصالات للتحدث عنها. وارتسمت في ذهني صورتهما وهما يرتديان أرقى صنوف المعاطف والجوربات والبدلات الصوفية الفاخرة. وتهيأ لي أنني رأيت ايضاً السجاجيد وأحزمة العصي وصناديق عدة الصيد والمظلات الانيقة. وبت اتخيل وعلى نحو دقيق مشهد الخدم الذين كانوا برفقتهما والحقائب المتنوعة على ارضية محطات القطار في المناطق الريفية .

وعلى الرغم من انهما لم يجزلا العطاء للخدم أو للسعاة وانهما لم يكونا يقومان بأي عمل الا انهما كانا شخصيتين محبوبتين وموضع ترحاب في أي مكان يؤمانه. وكان وجودهما يضفي جمالاً وبهجة ، يشبعان رغبة كل من يتطلع الى التمتع برؤية الهيئة والبشرة الحسنة «والشكل» الجذاب، وكانا على دراية بذلك دون أن تظهر عليهما امارات التكبر أو الفظاظة. وبالتالي تمكنا من الحفاظ على الاحترام والمودة. ولم تكن شخصيتاهما تافهتين بل مكتملتين وواصلا الحفاظ على صورتيهما تلك لدى الآخرين ـ كان ذلك نهجهما في الحياة، فالاشخاص الذين لديهم مثل هذا الولع بالحياة الاجتماعية لابد ان يجدوا ما يشغلهم، وأكاد أجزم انه كان يعول عليهما في

ادخـال البهجة والانشراح حتى في البيوت التي تخيم الكآبة عليها .

لابد ان امـراً ما قد حدث في الوقت الحاضر وليس من المهم معرفة ذلك ـ الا ان دخلهما قـد تضـاءل تدريجيـاً وأصـبح لا يكفي، مما اضطرهما للبـحث عن عـمل يكسبـان به مصروف الجـيب. وخـرجت بنتـيجة مؤداها ان اصدقاءهما كانوا يودونهما ولكن ليس الى الحـد الذي يقـدمـون فـيه يد العون لهما. لقد كان في هيئتهما ما يوحي بأن لديهما بعض الرصـيـد ـ مـلابسـهما وسلوكـهما ونمط شـخصيتهما، بيد أن ذلك لم يكن ظاهراً للعـيـان تماماً. فلو كان الرصيد جيباً كبيراً يصدر عنه بعض الرنين أحياناً فـان على الرنين ان يكون في الأقل مـسـمـوعـاً . وهذا بالضبط ما كانا يطلبانه مني. ومن حـسن الحظ لم يخلفـا اي طفل ـ لقـد اكتشفت ذلك في الحال وشعرت انهما ربما كـانا يرغـبـان في أن يبـقـيـا على عـلاقـتهما معي في السر : ولذلك ركزا على « القوام والهيئة » بدلاً من رسم الوجـه الذي سيفضح هويتهما .

لقـد شـعـرت بالود تجـاههما، وكأني أحـد اصدقائهما. لقد كانا على درجة من البـسـاطة وليس ثمة مانع من استخدامهما نموذجين للرسم ان كانا يصلحان لذلك. وعلى الرغم من كل مـا يتـمـتـعـان به من كمال في الهيئة فلم أشـعـر انهما يناسبان ما انشـده. ثم انهما من الهواة، وان كان ثمة ما امقته في هذه الدنيا فهم الهواة .

ومن صـفـات مزاجي العكر الأخرى انني كنت افضل ما هو مصور أو مرسوم على ما هو حقيقي ، فمن عيوب الاشياء الحقيقية انها قد تفتقر الى التعبير المناسـب . وكنت شـغـوفـاً بالمعـالم التي تنم عن مـعنى واضح وحـينها يكون المرء واثقاً مما يراه. ولا يهم البـتـة سـواء نقل الفنان عن أشـيـاء كـائنة أم لم تكن. وثمة اعتبارات أخرى أيضـاً كـان أولها انني كنت اسـتـخدم شخصين أو ثلاثة، كان أحدهم شاباً من حي (كلبرن) في لندن ذا قـدمين كـبيرين ويرتدي الملابس الصـوفية على الدوام. وقد زاول عـمله مـعي بانتظام نمـوذجـاً للرسـوم التوضيحية منذ عامين أو أكثر، وكان وما زال يفي بالغـرض. وبكل صراحـة بينت للزائرين واقع الحـال. بيـد أنهما كانا قد احتاطا للأمـر أكـثـر مما تصـورت. فـقـد كـانا يحاولان اقناعي بضرورة تشـغيلهما لان (كلود ريفت) كـان قـد اخبرهما عن مشروع الطبـعة الممتازة لمؤلفات واحد من خيرة الروائيين المعـاصرين الذي كـانت العـامـة من الناس يصدّون عنه ـ والقراء المتمرسون يعتزون

به كثيراً (هل ثمة ما يدعو لذكر فيليب فنسنت ؟)

شهد هذا الروائي في مرحلة متأخرة من حياته فجر عهد جديد من النقد الأصيل الذي يمثل نوعاً من التكفير عما اقترفه الجمهور بحقه. وقد نهض بمشروع اعداد هذه الطبعة أحد الناشرين الذواقة الذي كان يحاول رد الاعتبار اليه. وكانت الرسوم التوضيحية التي ستزين صفحات مؤلفاته تمثل اعتراف الفنانين الانجليز بفضل أحد الكتاب الفريدين في الأدب الانجليزي وقد افصح الرائد (مونارك) وزوجته عن الأمل الذي يحدوهما بان اتمكن من استخدامهما لدى قيامي بانجاز الجزء المخصص لي من المشروع . وكانا على علم بأنني سأقوم برسم التخطيطات لأول رواية تصدر وهي بعنوان رتلند رمسي Rutland Ramsay وقد شعرت ان من الواجب ان اوضح لهما ان تكليفي في رسم مخططات بقية الكتب مرهون بجودة العمل الذي سأقدمه، ذلك ان الكتاب الأول الذي سيصدر يعد بمثابة اختبار لي، فان لم يقتنع المشرفون على المشروع بجودة أعمالي فسيتخلون عني دون أي تردد. وعليه فان المشروع يمثل تحدياً كبيراً لي وانني بالطبع كنت مهتماً بالاعداد له والبحث عن وجوه جديدة ان اقتضى الحال، كي اختار افضلهم. واوضحت لهما بانني كنت افضل ان استقر على نموذجين جديدين أو ثلاثة لأتمكن من انجاز المشروع برمته .

واستفسرت المسز (مونارك) بصوت وجل : «هل ينبغي علينا ـ ان نرتدي ملابس خاصة ؟»

ـ «نعم . بكل تأكيد، ان هذا يمثل نصف المهمة» .

ـ «وهل المطلوب منا ان نجهز الملابس بأنفسنا ؟»

ـ «كلا. ابداً . لدي الكثير منها في المرسم. فالنموذج يرتدي أو يخلع من الملابس ما يرتأيه الرسام» .

ـ «وهل تقصد ـ نفسها ؟»

ـ «نفسها ؟»

والقت المسز (مونارك) بنظرة على زوجها مرة أخرى وعندها قال الرائد شارحاً : «انها تستفسر فقط فيما اذا كان الجميع يستعمل الملابس نفسها» . وكان

علي ان اعترف لهما ان الأمر كذلك فعلاً واضفت (وكنت بالفعل احتفظ ببعض الملابس المتسخة التي تعود للقرن الماضي): «ان بعض هذه الملابس ارتداها الكثيرون في السابق قبل مائة عام وان الدهر قد أكل عليها وشرب» .

وهنا قال الرائد : «سنرتدي أي شيء يناسب مقاسنا» .

ـ «انني سأتدبر ذلك وعلى أية حال ستبدو الملابس مناسبة لكما في الرسومات» .

وقالت السيدة (مونارك) : «اخشى ان أكثر ما يلائمني هو الرسومات التي تظهر في الكتب الحديثة . وستبدو ملامح وجهي على النحو المطلوب» . واضاف الزوج : «ان لديها الكثير من الملابس التي قد تلائم الرسوم التوضيحية للحياة المعاصرة» .

ـ «بامكاني ان اتخيلك وانت تبدين طبيعية تماماً في رسوماتي» . وبالفعل ارتسمت صورتها وهي ترتدي الملابس القديمة لتمثل أحدى شخصيات الكتب الرخيصة التي كانت تضم قصصاً كنت أضع رسوماً توضيحية لها دون ان اعنّي نفسي حتى قراءتها. بيد انني تذكرت ان لدي من يقوم بمثل هذه المهام اليومية الرتيبة على نحو مرض تماماً .

وقالت السيدة بلهجة رقيقة وهي تنهض : «لقد جال ببالنا اننا قد نبدو أكثر شبها ببعض الشخصيات» .

ونهض زوجها ايضاً ثم وقف وهو يلقي بنظرة حزينة كانت ذات تأثير بالغ لأنها جاءت من رجل رائع مثله ثم قال : «أليس من الأفضل ان ـ ان ـ ؟» ثم توقف عن الكلام طالباً مني مساعدته على أكمال حديثه لكنني لم استطع ذلك لأنني لم اعرف ما كان يرمي اليه. ثم أكمل جملته على نحو مضطرب : «. . . . ان ترسم نموذجاً أصيلاً مثل رجل محترم أو سيدة مجتمع» . لقد كنت مستعداً لأن اوافقه على العموم وقلت له : «هذا الأمر وارد فعلاً» . وعندها استجمع شجاعته وابتلع ريقه على نحو غير متكلف وتابع حديثه بلهجة يشوبها الاسترحام : «اننا في عسر شديد ـ لقد حاولنا كل شيء» . ولقد كانت نبرته الحزينة ذات تأثير بالغ لم تستطع زوجته ان

تتمالك نفسـهـا حـيث اجـهـشت في البكاء فـجأة وهي تلقي بنفـسها على الأريكة. وجلس زوجـهـا بجـانبـها ممسكاً باحدى يديها وشرعت تجفف عينيها بيدها الأخرى. وقـد شعـرت بالحـرج حين نظرت الي ثم قـال زوجها : «لقد بذلنا كل ما في وسعنا للحـصـول على أي عـمل مهما كان، بل تضرعنا وطال انتظارنا، واتضَح لنا ان طلب الانتماء الى طبـقـة النبلاء قد يكون أسهل من التقدم لاشغال وظيفة كتابية أو ما أشبه ذلك وبامكاني القيـام بأي عـمل لأنني قـوي البنيـة. فـبامكاني ان أكون مراسلاً أو عـامل منجم أو أن اضع على رأسي قـبـعـة مـوشاة بالوان ذهبية وافتح ابواب العربات أمـام دكـاكين البـاعـة الصـغـار وبمـقدوري ايضاً أن أكون ساعي بريد أو أن اجول محطات القطار لحمل الأمتعة والحقائب الا ان اصحاب العمل لا يعبأون حتى بالنظر الينا فـهناك الآلاف من أمـثـالنا من السادة المحترمين الذين دارت بهم الأيام واصبحوا مـتـسـولين بعد أن كانوا متعودين على شرب نبيذهم الخاص والتمتع بالصيد وبمباهج الحياة الأخرى.

وشرعـت في بـعـث الأمل في نفـوسـهما على قـدر مـا اسـتطعت، ثم انتـصب الزائران واتفـقنا على أن نقـوم بتجربة أولية في موعد حددناه لذلك. وفيما كنا نتحدث في هـذا الأمـر فـتـحت البـاب ودخلت علينا المس (تشرم Churm) وفي يـدها مظلة مـبللة وكـان على الآنسـة (تشرم) ان تأخـذ الحـافلة الى (ميدا فيل Maida Vale) ثم تسير مسافة نصف ميل كي تصل الى المرسم.

وكـان شـعـرها اشـعثاً ووجنتاها متوردتين وقد ابتلت ملابسها قليلاً وكلما رأيتها تدخل المرسم، كنت أحس بالمفـارقـة لأن هذه المرأة الصـغيرة كانت على الدوام تبدو كـبيرة في نظر الآخـرين. وعلى الرغم من ضـآلة حـجـمـهـا فقد كانت بطلة كبيرة في العـالم الرومـانسي. وكـانت هذه المرأة التي تناثر النمش في وجـهـها تنحدر من أصل مـتـواضع بيد أنها كانت تصلح نموذجاً لكل شيء، من سيدة مجتمع راقية الى فلاحة بسـيطة. لقـد كـانت تمتلك مـوهبة طبيعية تؤهلها للقيام بذلك دون تكلف أو عناء، ولم تكن تجيـد القـراءة والكتابة وكانت مولعة باحتساء البيرة لكنها كانت تمتلك الخبرة والبراعـة وبعض الجـوانب الايجابيـة وذكـاء فطري وسـبع شـقـيقات. وعلى الرغم من النزوات التي تنتـابها فـقـد كـان احـسـاسها مرهفاً وتعشق المسرح. ولا تعترف بوجود

حرف (h) في اللغة الانجليزية. وكانت المظلة أول ما انتبه اليه الزائران اللذان جفلا لرؤيتها مبللة. لقد بدأ المطر بالهطول بعد وصولها الى المرسم .

قالت الآنسة (تشرم) : «انني مبتلة تماماً وكانت الحافلة مكتظة بالركاب. كم اتمنى ان يكون مرسمك قرب احدى المحطات» . وطلبت منها ان تهيأ نفسها على اسرع ما يمكن، وهمّت بالتوجه الى الغرفة التي كانت تغير ثيابها فيها، وقبل أن تنصرف سألتني عما سترتديه هذه المرة فاجبتها : «ملابس الأميرة الروسية، الا تعرفين ذلك ؟ الأميرة ذات العينين الذهبيتين والمخمل الأسود للمسلسلة الروائية الطويلة التي تنشرها مجلة (تشيب سايد Cheap Side)» .

وفيما كان الزائران يرقبانها عن كثب وهي تتجه الى غرفة الرسم رددت (تشرم) : «ذات العينين الذهبيتين . نعم ، تذكرت» . وكانت هذه المرأة الصغيرة ترتدي ملابسها بلمح البصر كلما تأخرت عن المجيء . وابقيت زائري ينتظران قليلاً لمشاهدتها بغية منحهما فرصة التعرف على ما ينبغي عليهما القيام به. وابلغتهما بانني اعّد هذه الفتاة النموذج الأمثل لانها كانت بارعة حقاً .

وسأل الرائد (مونارك) وقد بدت عليه امارات الفزع : «وهل تعتقد بأنها تبدو كأميرة روسية ؟»

ـ «نعم . عندما اهيئها لهذا الغرض» .

فاجابني بذكاء : «آه نعم، ان توجب عليك ان تهيئها» .

ـ «ان هذا اقصى ما يطلبه الفنان، فهناك الكثير من الذين لا يصلحون للقيام بذلك مهما حاولت» . وعندها قال الرائد (مونارك) والابتسامة تعلو شفتيه وهو يشبك يده بيد زوجته : «والآن اليك هذه السيدة التي لا تحتاج الى أي جهد أو تهيئة» .

واعترضت المسز (مونارك) ببرود : «لست أميرة روسية» . وادركت من كلماتها انها كانت تعرف بعض الأميرات التي لم تكن تشعر بأي ود تجاههن. وفجأة شعرت ان هذا الأمر ينطوي على بعض التعقيد الذي لم أكن أحس به مع الآنسة (تشرم).

وظهـرت الشـابة مرتدية فستاناً من المخمل الأسود الذي كان قديماً بفتحة عنق واسـعـة اظهـرت كتفيها النحيلين وهي تضع في يديها قفازين احمرين وتمسك بمروحة يدوية يابانيـة. وذكـرتها ان عليـها أن تبدو وكأنها تلقي بنظرة متفحصة في وجوه أحد الأشـخـاص وقلت : «لقـد نسـيت من يكون هذا الشـخص الا ان ذلك ليس بذي بال. المهم ان تتفحصي أو تحدقي في وجه ما» .

فـاجـابت المس (تشرم) : «انني افضل ان احدق في النار» وتقدمت نحو الموقد اسـتعداداً لبدء العمل فوقفت منتصبـة القامة وهي تميل برأسها قليلاً الى الوراء ويدها تمسك بمـروحـة مـتـدليـة وقـد بدت، وانا انظر اليـها بعيني الرضا، متميزة وجذابة، وكأنها من بلاد غـريبـة وهي ترمي بنظرات تنذر بالخطر» . وغـادرناها وهي على هذه الصـورة ثم نزلت السلم بصـحـبة المستر (مونارك) وزوجته .

قـالت السيدة (مونارك) : «اعتقد ان بإمكاني ان اقوم بالمهمة ذاتها» .

ـ «آه لابد انك تعـتـقـدين ان هذه الشـابة مهملة وبعيدة كل البعد عن الاناقة ولكن عليك ان تتذكري اللمسات الفنية وما تحدثه من أثر» .

ثم غـادر الزائران وهما يشـعران بالمزيد من الارتياح الذي استمداه من انهما كانا يمـثـلان نموذجين اصيلين لما كنت انوي رسمه. وبتّ اتخيلهما وهما يشمئزان من المس (تشرم). أمـا هي فقد استخفت بهما وقالت عندما اخبرتها بما كانا يطلبان مني :

ـ «لو اسـتطاعت هذه المرأة أن تكون نمـوذجـاً للرسم فبامكاني ان أكون خبيرة بشـؤون الحسابات والسجلات» واجبتها وانا أعبّـر عن بعض الاستياء من تعليقها :

ـ «انها سيدة مهذبة وانيقة» .

ـ «وهذا ما يزيد الطين بلة لانها لن تستطيع ان تظهر على نحو مغاير» .

ـ «يمكن الاسـتـفـادة منهـا في رسم بعض الشخصيات في الروايات التي تدور حول المجتمع الراقي» .

واجـابت بسـخـرية : «نعم يمكن الاستفادة منها في ذلك. ألا يكفي ما بهذه الروايات من سـخف وتفـاهة؟» ـ قالت ذلك لأنني كثيراً ما كنت أندد بهذه الروايات أمامها .

٣

اجـريت أول اخـتـبـار للسيدة (مونارك) عندما كنت اعد رسماً توضيحياً لحادثة يلفـهـا الغـموض في احدى الروايات. وقد حضر زوجها معها للمساعدة عند الحاجة ـ بيـد انه اتضح عـمـومـاً انه يفضل دائماً ان يرافق زوجته. وتساءلت في بادىء الأمر ان كـان قـدومـه مـعـهـا من باب الكيـاسة وفيما اذا كان سيشعر بالغيرة أو يتدخل في عـملهـا ـ وكـان مجرد التـفكير في هذا الأمـر مـبـعث انزعـاج لي، ولو تأكدت ظنوني لـقـمـت بـقـطع صلتي بهما في الحـال، بيـد انني سرعـان مـا طردت ذلك من ذهني وادركت انه اذ كـان يصـاحب المسـز (مونارك) فان ذلك مرده ان ليس هناك أي شيء آخـر يقـوم به ، فـضـلاً عن أن قـدومـه مـعـهـا قد يفسح الفرصة أمامه للعمل عند الضرورة. وعندمـا تبـتـعـد زوجـتـه عنه لم يكن لديه ما يشغله، لذلك لم يفترقا أبداً. ولقـد ادركت، وانا مـصيب في ذلك، بان التصاق أحدهما بالآخر وعلى نحو مستديم كـان مـصـدر راحـة لهما فـقـد كـانت العلاقة الزوجية التي تربطهما متينة جداً تشجع المترددين وتكذب المتشـائمين. وكـانا يسكنان في حي مـتـواضع (ادركت فـيـما بعد ان عـنـوانهما كـان الـشيء الوحـيـد الذي يناسب المهنة التي ينويان مـزاولتـهـا)، وتخيلت السكن الحـقير الذي كـان يتـوجب على الرائد ان يبـقى فـيـه وحـيداً لو لم يصطحب زوجـتـه اذ كـان بامكانه ان يتحمل مشاق السكن الوضيع ان كانت زوجته معه ولكنه غير قادر على تحمل ذلك دونها .

كـان المستر (مـونارك) على جانب كبير من الكياسة ولم يحاول ان يتودد لي حين كـان يترك لوحـده في المرسم وعندمـا كنت منشـغلاً واعمل بصمت كان ينتحي جانباً ويـنـتـظر بكل هدوء. بيـد اني كنت ارغب ان احمله على الكلام لان ذلك يخفف من وطأة عـملي ويجعله أقل رتابة ـ ان لم يكن في حديثه ما يلهيني عن واجبي .

وكنت استـمـد من كلماته مـتـعـة الحياة الاجتماعية ومباهجها دون ان يكلفني ذلـك شـيئاً مـن المـال. ولـكـن ثمـة عـقـبـة واحـدة بيننا، اذ لم أكن أعـرف أياً من الأشـخـاص الذين كـان المستر (مـونارك) وزوجـتـه يعـرفانهما. ولابد انه كان كثيراً ما يسـائل نفسه أثناء حديثنا ان كنت أعرف أي شخص على وجه الأرض. وفي أحاديثه

معي لم يحاول المستر (مونارك) ان يتطرق الى أية موضوعات فكرية ولذلك اقتصر حديثنا على بعض الأمور العامة من مثل المشروبات وأنواع الجلود (صناع السروج وسراويل الصيد وكيفية الحصول على نبيذ جيد بسعر زهيد) وعلى أمور أخرى من مثل القطارات الجيدة وعادات الطيور الصغيرة. وكانت معرفته بمثل هذه الأشياء مذهلة تماماً وكانت له المقدرة على نسج أحاديث يجمع فيها بين ناظر محطة القطار وعالم الطيور وعندما لم يكن بمقدوره الحديث عن الأمور الكبيرة فكان ينتقل باحاديثه بانشراح الى الأمور الصغيرة. وكان يهبط باحاديثه الى مستواي عندما يشعر انني لست بقادر على متابعة ذكرياته عن أيامه الخوالي وعن حياة المجتمع الراقي .

ومما يثير الشفقة حقاً ان تجد شخصاً ضخم الجثة مثل المستر (مونارك) وهو يحاول جاهداً ادخال السرور الى نفوس الآخرين. فقد كان، دون طلب مني، يهتم بالموقد وتيار الهواء الساخن المنبعث منه، وادركت انه كان يعتقد ان مرسمي لم يكن مرتباً على النحو الذي يرتضيه. واذكر مرة انني اخبرته انني لو كنت غنياً لعرضت عليه مرتباً كي يعلّمني كيف أعيش وكان أحياناً يتأوه بحسرة ولسان حاله يقول : «لو كنت مسؤولاً عن مثل هذه الثكنة القديمة المهجورة لجعلتها تثير العجب» . وحينما كنت اطلبه للعمل كان يأتي بمفرده وفي ذلك ما يشير الى أن النساء كن أكثر شجاعة من الرجال فقد كان بمستطاع زوجته ان تبقى وحيدة في مسكنها في الطابق الثاني من البناية. وكانت على العموم أكثر كياسة وتحفظاً من زوجها اذ كانت تشعر بضرورة المحافظة على العلاقة المهنية المجردة التي تربطنا ببعض، وتحول دون تطور هذه العلاقة الى روابط اجتماعية، وكانت ترغب في أن يكون واضحاً لدي انها وزوجها الرائد كانا يعملان عندي لقاء أجر وانهما لا يسعيان الى تطوير هذه العلاقة. واذا كانت ترتضيني رب عمل لها، فانني في نظرها، لا أرقى لأن أكون نداً لها في الحياة الاجتماعية، وكانت المسز (مونارك) تشعر بانفعال شديد وهي تمثل أمامي للرسم. وكان بمستطاعها ان تبقى لمدة ساعة دون حراك كما لو كانت تحبس انفاسها أمام عدسة المصور . وادركت انها كثيراً ما كانت تمثل أمام عدسات المصورين . بيد ان الخبرات التي اكتسبتها من ذلك جعلتها لا تصلح لي . وفي البدء شعرت بفرحة غامرة لملامحها التي تشابه ملامح سيدات المجتمع الراقي . ومما يبعث

على السرور ايضاً ان يتفحص المرء ملامحها وخطوط جسمها ويرى حسنها ويكتشف أثر ذلك في توجيه حركة القلم الذي يمسك الفنان به. الا انني بعد عدة جلسات بدأت أشعر ان ملامحها كانت جامدة لا حياة فيها ومهما فعلتُ فانها كانت تبدو في تخطيطاتي كصورة فوتوغرافية أو نسخة منقولة عن صورة فوتوغرافية. ولم ينم جسمها عن أي تنوع في التعبير ـ بل أنها كانت تفتقر الى أي احساس باهمية التنوع وربما قيل ان هذا الأمر من صميم عملي وانه مرهون بانتقاء الاطار المناسب لها . الا انني حاولت ان ارسمها في مختلف المواقف والاوضاع التي تخطر على بال ولكنها كانت تظهر على الشاكلة نفسها وكأنها تستطيع ، بقدرة قادر ، ان تمحو كل الفروق بين هذه المواقف والاوضاع ـ . ومن المؤكد انها كانت تبدو على الدوام سيدة مجتمع .

وكان علي ان ارسم مجموعة من المخططات لاحدى السيدات . وكانت المسز (مونارك) نموذجاً اصيلاً لهذه السيدة الا انها بدت في رسوماتي كافة النموذج نفسه دون أي اختلاف في التعبير .

مرت بي لحظات شعرت خلالها بشيء من الضغينة تجاهها جراء شعورها بالثقة التامة من أنها كانت نموذجاً اصيلاً لما ارسم. وقد شعرت من خلال التعامل معها انها تعتقد ان الحظ قد حالفني عندما عثرت عليها. وفي الوقت ذاته وجدت نفسي ابحث عن انماط تناسبها بدلاً من ان احور ملامحها لكي تناسب النمط الذي اريد رسمه كما كنت افعل مع المسكينة (تشيرم) التي كانت تؤدي كل دور ببراعة تامة، ومهما بذلت من جهد واتخذت من احتياطات فانها كانت تبدو على الدوام طويلة جداً مما جعلني اتورط مرة برسم احدى السيدات الجميلات التي بدت وكأنها تبلغ سبعة أقدام طولاً . ولما كنت أكن احتراماً لقامتي التي كانت تقل عن ذلك بكثير فقد ظهرت صورتها على نحو يختلف كثيراً عن التصور الذي كنت قد صورته في ذهني لهذه الشخصية .

وكان الحال أكثر سوءاً مع الرائد ـ فمهما حاولت، لم تظهر صوره وهو يجلس على النحو الذي أريد، ولم يكن بذي نفع لي إلا عندما كنت أرسم العمالقة الأشداء. إنني أعشق التنوع والتغيير وأحب الملامح البشرية المثيرة والمعبرة وكنت أسعى الى

ابراز الملامح التي تعبر عن الشخصية على نحو دقيق، وإن كان ثمة ما أبغضه في هذه الدنيا فهو خطر الوقوع في دائرة النمطية. وقد تخاصمت في إحدى المرات مع بعض أصدقائي حول هذا الموضوع وانصرفت عنهم لاعتقادهم إن على الفنان أن يلتزم بأحد الأنماط وإذا كان هذا النمط جميلاً (تذكر روفائيل وليوناردو) فإن الالتزام به سيضاعف من قيمة العمل الفني. لست بروفائيل أو ليوناردو بل ربما كنت في عداد الشباب المتعجرف الذي لا يكف عن البحث لكنني أؤمن أن على المرء أن يضحي بكل شيء إلا معالم الشخصية. وعندما أكد أصدقائي بأن النمط الأخاذ قد ينطوي على خصائص محددة لشخصية ما، أجبت، حتى دون أن أفكر بالأمر : «أية شخصية تكمن في النمط؟ ولما كان النمط قاصراً عن تمثيل الجميع والتعبير عنهم فإنه في الحقيقة لا يمثل أية شخصية» .

وبعد أن رسمت المسز (مونارك) عدة مرّات تأكد لي على نحو أكثر وضوحاً من ذي قبل بأن قيمة نموذج مثل الأنسة (تشرم) تكمن في أنه ليس لديها ملامح محددة فضلاً عن أنها كانت تمتلك مقدرة عجيبة على التقليد . وكان مظهرها الاعتيادي أشبه ما يكون بالستارة التي تتمكن من رفعها عندما يطلب إليها ذلك . وكانت تؤدي دورها وتعبر عن الشخصية التي تتقمصها بحركات ايحائية على نحو جميل يثير الاعجاب. وكنت أشعر أحياناً أنها على الرغم من افتقارها الى الجمال، ألا أنها كانت تتمتع بمسحة خفية من الحسن . وكنت اقرّعها بالقول إن الشخصيات التي أرسمها عنها كانت دوماً تبدو جميلة على نحو رتيب. وكان هذا يثير غضبها وحنقها عليّ واتهامها لي بالإساءة الى «سمعتها» وكانت تفتخر بكونها واثقة من أن بامكانها أن تتقمص شخصيات متباينة ليست لها أي صفات مشتركة اطلاقاً.

وبسبب الزيارات المتكررة لاصدقائي الجدد فقد قل اعتمادي على هذه المخلوقة الصغيرة بعض الشيء ، ولكي أتفرغ لاختبارهما لم أتردد في الاستغناء عن الأنسة (تشرم) مؤقتاً لأنها كانت معروفة في أوساط الفنانين الذين كثيراً ما كانوا يلجأون إليها للعمل معهم، وكان من الممتع في البداية أن أنقل ملامح الشخصيات التي أرسمها عن نماذج أصيلة. فقد استمتعت كثيراً وأنا أرسم سروال الرائد (مونارك)

الذي كـان يعـد ما يرتديه من ملابس ، النماذج التي ينبغي أن يعول عليها في الرسم حتى وإن أظهـرته كـتـمثال هائل في رسوماتي. وكان من الممتع أيضاً أن أرسم خصر المسـز (مـونارك) الذي كـانت تلف حـوله مـشـدات ضاغطة . وكانت تجيد الأوضاع التي تكون فـيه معالم الوجه ضبابية أو غير واضحة.

وكـانت مـلامح سـيـدات المجـتمع الراقي تظهر على أحسن ما يكون في رسوم وجـهـها الجانبية. وعندما كانت تقف منتصبة فإن قوامها كان يتخذ تلقائياً الهيئة التي كـان رسـامـو البـلاط يصورون فيها الملكات والأميرات. وجال بخاطري أن بالامكان الاسـتـفـادة من مـيـزات وجـه المسـز مونارك وقوامها لاقناع محرر مجلة (تشيب سايد) بنشر (قـصـة بكنغهام بالاس) ، تلك الرواية التي تعج بمغامرات الأمراء وغرامهم. وكـان النمـوذج الأصـيل أحـيـاناً يتقاطع مع النموذج الخيالي وأعني بذلك إن الأنسة (تشرم) كـانت تلتـقي أحـيـاناً بمنافسيها البغيضين عند مجيئها لتثبيت موعد أو لإداء واجب في الأيام التي كنت فـيـهـا مـثقلاً بالعمل. وكان اللقاء من جانب واحد فقط لأن الرائد (مـونارك) وزوجـتـه لم يمنحـاها أي اهتمام يزيد عن الاهتمام الذي قد يوليه الزائر لخـادمـة البيت. ولم يكن ذلك من باب التكبر المقـصـود بل إنهما كـانا يجهلان طريقـة كسب ود زملائهما في المهنة، إذ كنت أشعر أنهما كانا يرغبان بذلك ـ ولا سيما الـرائد (مـونارك)، فـعلى العكس من الأنسـة (تشرم) لم يكن بامكانهما التـحـدث عن الحـافـلات لأنهما كـانا يكثـران من المشي ولم يجرّبا المجيء بواسطة نقل أخرى. بينما لم تكن هي شـغـوفة بالقطارات الجيدة أو النبيذ الرخيص. وفضلاً عن ذلك فلا بد أنهما كـانا يشـعـران أن المس (تشرم) كانت تسخر منهما وتشعر بازدراء خفي لجهلهما المطبق بكل مـا يتـصل بالعمل في المرسم. فلم تكن من الأشخاص الذين يخفون مشاعرهم أو شكوكـهـم فـيما لو اتيحت الفرصة للتعبير عن ذلك . ومن الناحية الأخرى كانت المسـز (مـونارك) تعـتـقـد بأن الأنسة (تشرم) بعيدة كل البعد عن الأناقة فقد أخبرتني المسـز (مـونارك) في إحـدى المرات، وعلى غير عادتها، إنها لم تكن تشعر بأي ود تجاه النساء القذرات.

وفي إحـدى الأيام عندمـا كـانت الشـابة الصـغيرة في المرسم أثناء وجـود الرائد (مـونارك) وزوجـتـه (كـانت تزورني كلما كان ذلك ممكناً) طلبت منها أن تساعدني في

أعـداد الشـاي وهي خـدمـة كـانت متعودة على اسدائها لي . ولكوني أنتمي الى طبقة اجتماعـيـة ذات دخل واطىء فـقـد كنت أستعين بالذين يعملون عندي للقيام بهذه الخـدمـة. كـانوا يستمتعون بالعبث بممتلكاتي لكسر رتابة العمل أو كسر ما لدي من أواني خـزفـية وكان عملي معهم في المرسم يلهمهم مشاعر التحرر واللامبالاة.

وعـنـدمـا رأيت المس (تشرم) بعـد تلك الحـادثة أدهشـتني كـثيراً عندمـا ثارت بوجـهي واتهمـتني بأنني كنت أتعـمـد إذلالها . وقـد أخـفت في حينها الشعور الذي انتـابها بالحـيف بل إنها بدت منشرحـة ومـسـتـعدة لإداء المهمة مستمتعة بسؤال المسز (مـونارك) التي كـانت تجلس بصـمت وشرود فـيها إذا كـانت ترغب بشيء من السكر والحليب مع الشـاي. وقـد كـانت تتـحـدث إليها بابتسامة متكلفة وحاولت أيضاً أن تهزأ من ضـيـفاي بتقليدها نبرة الصوت التي كانا يتحدثان بها، وخشيت في اثنائها أن يشعر الرائد بالانزعاج.

ولكنهما كـانا مـصـمـمين على عدم الانزعاج . وكان صبرهما الذي يثير الشفقة يدل على العـوز والحـرمـان. وقـد كـانا يجلسـان لسـاعـات طوال من غير تذمر حتى أسـتـعـد لبـدء العـمل وكـانا يزوراني على غير مـوعد للاستفسار فيها إذا كنت بحاجة إليـهما وينصرفـان بانشراح إن لم أكن كذلك. وفي مثل هذه الحالات كنت أرافقهما الى البـاب (للتـمـتع بمـشـهد التراجع الذي كانا يؤديانه على نحو رائع) وحاولت أن أجد لهما فـرص أخرى. وقدمتهما الى العديد من الفنانين إلا أنهما لم يوفقا في ذلك لأسباب كنت أفـهـمـهـا تماماً. وبدأت أشعر بشيء من القلق. إنهما يلقيان بثقلهما علـيّ على نحـو مـتـزايد بسـبب خيبات الأمل المتلاحقة وكانا يشعراني بأنني كنت الفنان الوحيد الذي كـان العـمل مـعـه يناسـبـهما أكـثر من غيره. وكـان رسـامـو اللوحات الزيتية يشـعـرون أن ملامح وجهيهما لم تكن معبرة بما فيه الكفاية ومن جانب آخر لم يكن في تلك الفترة الكثير من أمـثـالي الذين يرسـمون تخطيطات بالأسود والأبيض، وعلى أية حـال، فإنهما كـانا يأمـلان في أن يعملا معي في المشروع الذي ذكرته لهما والذي كنت أحـاول من خـلاله أن أسـهـم في رد الاعـتبار لروائينا الكبير. وكانا على علم بأنني لن أسـتخدم المؤثرات البصرية مثل ملابس العصور القديمة الفضفاضة وما الى ذلك وإن اهتمامي سـيتركـز على الحـيـاة المعـاصرة للمـجـتـمع الراقي. فإن اسـتطعت تشغيلهما

سيضمنان مستقبلهما ، إذ سيكون العمل في هذا المشروع الكبير منتظماً وثابتاً.

وفي أحد الأيام جاءت السيدة (مونارك) دون أن يكون زوجها بصحبتها وذكرت لي أن غيابه كان بسبب اضطراره للذهاب الى الحي التجاري في لندن وبينما كانت تجلس بصلابة قوامها المعهودة سمعت طرقاً على الباب عرفت في الحال أن الطارق لا بد أن يكون أحد العاطلين الذين يبحثون عن العمل باستحياء ووجل. ثم دخل علينا شاب عرفت من مظهره أنه لا بد أن يكون أجنبياً، وقد تبين أنه ايطالي لا يعرف من الانجليزية غير اسمي الذي كان يلفظه بطريقة تنطبق على أي اسم آخر. ولم أكن قد زرت موطنه كما لم أكن أتحدث الايطالية. وكان هذا الشاب من ذوي البنية الضخمة (أليس الايطاليون كلهم كذلك ؟) واعتمد الاشارات والحركات الايمائية أسلوباً للتفاهم أدركت منها أنه كان يبحث عن العمل ذاته الذي كانت المسز (مونارك) تقوم به، ولم أعبأ به في بادىء الأمر وواصلت عملي وأنا أطلق بعض الأصوات كان الغرض منها أن أصرفه عني. ولكنه ظل في مكانه بوقاحة بريئة صامتة، لجوجاً ككلب وفي أو كخادم أمين عرف باخلاصه لسنوات طوال حين يشعر أن الشبهات تحوم حوله من دون وجه حق. وفجأة شعرت أن الموقف الذي كان فيه والملامح التي بدت عليه تصلح موضوعاً للرسم، وعندها طلبت منه أن يجلس وينتظر حتى أفرغ من عملي . واكتشفت مادة للوحة أخرى في الطريقة التي استجاب فيها لطلبي ووجدت وأنا منهمك في عملي أن نظراته الفضولية وهو يميل برأسه الى الخلف ويشخص ببصره نحو السقف العالي مادة خصبة لمشاريع رسم أخرى . فقد بدا خاشعاً وكأنه يصلي في كاتدرائية القديس بطرس وقبل أن أنهي عملي قلت لنفسي : «قد يكون هذا الرجل من المشردين التائهين إلا إنه كنز عظيم» .

وعندما همت السيدة (مونارك) بالمغادرة، انطلق الشاب الغريب كالبرق ليفتح لها الباب ووقف هناك كالمأخوذ وفي عينيه ما يشبه نظرات الوله الذي كان يرسلها (دانتي) الى معشوقته الشابة (بياترس) ولما كنت من الذين لا يصرون في مثل هذه الحالات على الانضباط الصارم الذي يميز الخدم البريطانيين ، فقد أدركت أن بامكان القادم الجديد أن يكون نموذجاً وخادماً لي في الوقت نفسه (كنت بحاجة الى

من يخدمني إلا أنني لم أستطع تحمل نفقات ذلك). وباختصار فقد قررت أن أحتضن هذا المغامر اللامع إن وافق أن يعمل معي لاشغال الوظيفتين معاً. وفي الحال تقبل هذا العرض . ولم أندم على تسرعي في اتخاذ هذا القرار (لأنني لم أكن أعرف أي شيء عنه) ، حيث تبين فيما بعد أن هذا الخادم المطيع ، وعلى الرغم من عدم انضباطه، كانت له موهبة فطرية عجيبة لتقمص الشخصيات والمثول أمامي بأوضاع مختلفة. وكانت موهبته هذه هي التي قادته الى باب مرسمي والتعرف على اسمي الذي كان مثبتاً عليها. وعندما تقدم لطلب العمل لم يكن لديه أية توصية من أحد أو معرفة سابقة بي بل إن ما أرشده إلّي لم يكن سوى دافع غريزي حدس من خلاله بعد النظر الى شكل النافذة الشمالية العالية بأن المبنى الذي كنت أشغله لا بد أن يكون مرسماً وإن هناك فناناً يعمل في داخله. وكان هذا السائح الايطالي ، كغيره من الذين يطوفون البلدان سعياً وراء لقمة العيش قد قدم بصحبة شريك له وعربة خضراء صغيرة كان سيستخدمها لبيع المرطبات الرخيصة. إلا أن المرطبات المثلجة قد ذابت والشريك قد اختفى في أثناء رحلة القطار. وجاءني يرتدي سروالاً ضيقاً أصفر اللون بخطوط حمراء وكان اسمه (اورنتي Oronte) وكان أشقراً يميل وجهه الى الشحوب. وعندما ارتدى بعض ملابسي القديمة بدا وكأنه شاب إنجليزي وكان ببراعة الأنسة (تشرم) التي كان بمقدورها هي الأخرى أن تبدو وكأنها فتاة ايطالية فيما لو طلبت إليها ذلك.

٤

وعندما عـادت المسـز (مـونارك) مع زوجـهـا ورأت (اورنتي) يجلس أمـامي ، شـعـرت أن الامـتـعـاض قد بدا على وجهها. وقد استغربت أن ترى في شحاذ كهذا منافسـاً لزوجـهـا الرائع . وكانت المسز (مونارك) قد شمت رائحة الخطر قبل زوجها الذي كـان على الدوام منشغلاً بسرد حكاياته. ثم قدم (اورنتي) لنا الشاي باضطراب بالغ إلا أنه لم يكن قـد تعـود بعـد على هذه العـادة الغـريبـة . واعـتـقد إنها حسنت انطبـاعـهـا عني لأنني لجأت أخيراً لتـشـغـيل أحـد الخـدم لدي في البيت . ولما رأى الزوجـان صـورتين كنت قـد رسـمـتهما للخادم الجديد المحت المسز (مونارك) أن ليس في الصـورتين مـا يشير الى إنهما تعـودان للخـادم نفسه وأضافت وقد ارتسمت ابتسامة النصر على شفتيها: «أما الصور التي ترسمها لنا فإنها تشابهنا تماماً» ، وكان هذا على وجـه التـحـديد، أبرز نقطة ضـعف فيهما. فعندما كنت أرسم الرائد وزوجته لم يكن باسـتطاعـتي أن أخـرج عن دائرة ملامحهما أو أرسم أية شخصية أخرى كنت أحاول ابراز مـعـالمها ولم تكن لدي أية رغـبـة اطلاقـاً في الكشف عن هوية النمـوذج الذي أرسـمـه. فلم يسـتطع أحـد التعرف على المس (تشرم) من رسوماتي لها. وكانت المسز (مـونارك) تعـتقد أنني كنت مصيباً في اخفاء معالم الأنسة (تشرم) لأنها كانت مبتذلة. ولم يدر في خلد السـيـدة (مـونارك) أن مـعـالمهـا الحقيقية كانت في واقع الحال مصدر إلهام لي اسـتـمـد منه مـادة غنيـة بالتـعـبير والايحاء فكنت بذلك كـمن يفـقد الجسد ليكسب الروح.

وبعـد مـرور فترة من الوقت أنجـزت بعضاً من الرسومات التي أعددتها لرواية (رتـلـند رمسي) وهي الرواية الأولى التي سـتـصـدر ضـمـن السلسلة الجـديدة . وقـد أكـملت عـدة رسـوم قام الرائد وزوجته بمساعدتي فيها وأرسلتها الى الناشر للمصادقة عليـهـا. وكما المحت في السـابق فـقـد كنت مـتفقاً مع ناشر هذه السلسلة المهمة بأن يكون لي الحـرية الكاملة في اعـداد الرسوم للكتاب برمته. وإن اسهامي في بقية كتب السلسلة يتـوقف على قـبـول هذه الرسـوم. ولا بد أن أعترف بصراحـة بأني شـعـرت بـالراحـة أحـيـاناً لأن النمـوذجين الأصليين كـانا في مـتناول يدي عندمـا كنت أرسم

بعض هذه التخطيطات لا سيما وأن العديد من الشخصيات في (رتلند رمسي) كانت كثيرة الشبه بهما من حيث الأناقة والسلوك. وكانت هذه الرواية تصور أيضاً حياة البذخ في البيوت الريفية التي تناولها الكاتب بنوع من الشاعرية والعمومية. وفي الرواية أيضاً تركيز واضح على مناظر الريف والنشاطات التي تدور في أجوائه الرحبة. وكان على أن أحسم بعض الأمور منذ البداية من مثل الملامح الدقيقة لبطل الرواية والجمال الأخاذ للبطلة. وعلى الرغم من أن المؤلف زودني ببعض الدلائل والمؤشرات حول ذلك، فقد كان لدي متسع من الحرية في التصرف. وفتحت قلبي لـ (مونارك) وزوجته وأخبرتهما عما كنت مقدم عليه وشرحت لهما بعض خطورة الموقف والبدائل المتاحة لي. وهنا همست السيدة (مونارك) بكل رقة وهي تنظر الى زوجها: «دع زوجي يقوم بالمهمة». أما زوجها فقد هتف بصدق ومن دون أي تكلف: «وهل ستعثر على أفضل من زوجتي نموذجاً لبطلة الرواية؟».

ولم أكن مضطراً للردّ على هذه التساؤلات بل كان يتوجب عليّ أن أهيىء النموذجين لاتخاذ أوضاع مختلفة أمامي. ومهما يكن من أمر فلم يكن قلبي مطمئناً، إذ كنت أتوجس بعض الخيفة فارجأت البت في هذا الموضوع والإجابة على هذا التساؤل. ولما كان الكتاب ضخماً فمن المزمع اعداد رسوم كثيرة لا سيما أنه يعج بشخصيات كثيرة أخرى عدا البطل والبطلة. وفي البداية وضعت بعض الرسوم التوضيحية التي يظهر فيها البطل والبطلة دون أن يبدو على وجهيهما أي تعبير محدد. فلو وقع اختياري عليهما لوجدت نفسي مضطراً للالتزام بملامحهما وهيئتهما في كل رسومات الرواية - فمن غير المعقول أن يبدو بطل الرواية سبعة أقدام طولاً تارة، وخمسة أقدام وتسعة بوصات تارة أخرى، واستقر رأيي على رسمه وفق المقاس الثاني على الرغم من أن الرائد ذكرني أكثر من مرة بأن له ملامح الشباب اليافعين - وبالفعل كان من السهل اعداده للرسم على نحو يتعذر فيه معرفة عمره الحقيقي.

وبعد مضي شهر على مجيء الشاب النشيط (اورنتي) وبعد أن أفهمته مراراً وتكراراً بأن سلوكه وعاداته الايطالية قد تحول بينه وبيني، غمرني احساس مفاجىء أن هذا الشاب يمتلك مهارات جبارة وكان يبلغ خمسة أقدام وسبعة بوصات طولاً، لكنه كان في نظري يبدو أطول قامة من ذلك. وقد اختبرته في بادىء الأمر سراً

لأنني كنت أخشى الحكم الذي سيصدره النموذجان الأصيلان على مثل هذا الاختبار، فإن كانا لا يعدّان الآنسة (تشرم) سوى امرأة محتالة فما الذي سيعتقدانه لو علما بأنني كنت أستوحي رسوماتي من نموذج غير أصيل وأعني بذلك البائع الايطالي المتجول الذي سأهيئه للظهور وكأنه بطل مكتمل الثقافة.

ولئن شعرت ببعض الخشية منهما فإن ذلك لم يكن مرده الى إنهما كانا يقرعاني أو إنهما أخذا يتدخلان بعض الشيء في عملي بل بسبب كياستهما التي تثير الشفقة واعتمادهما عليّ على نحو كبير لكونهما لم يتمكنا من عملهما وبقيا مستجديين طيلة فترة وجودهما معي، ولهذا السبب شعرت بسرور بالغ حين زارني (جاك هولي Jack Hawley) الذي كثيراً ما كان يسدي لي المشورة الحسنة . وعلى الرغم من إنه كان رساماً رديئاً إلا إنه كان يتفوق على سواه ببصره الثاقب وحسن تقديره للأمور. وقد قضى (هولي) عاماً كاملاً بعيداً عن انجلترة في مكان لا أعرفه ولا أتذكره على وجه التحديد، كي يشحذ بصره وينظر الى الحياة بمنظار جديد وقد كنت أشعر بالخشية من النقد الذي كان يوجهه لي وكانت صداقتنا تعود الى زمن بعيد وشعرت خلال غيابه عني أن حياتي أصبحت خالية تماماً من أية اثارة أو تغيير.

زارني (هولي) بعد أن أصبح حقاً ينظر الى الأشياء على نحو جديد وهو يرتدي ثوبه القديم نفسه الذي كان من المخمل الأسود. وقضينا الليلة الأولى في المرسم ونحن ندخن لفافة اثر أخرى حتى ساعات الصباح ولم يكن أثناء سفره قد أنجز أي عمل ولكنه اكتسب رؤية جديدة لذلك كانت زيارته فرصة مواتية لأن أعرض عليه رسوماتي القليلة التي أنجزتها، لقد أراد أن يعرف ما رسمته لمجلة (تشيب سايد) وعندما أطلعته عليها شعر بخيبة أمل. وقد فهمت ذلك من الزفرات التي أطلقها.

وبعد أن استلقى على الأريكة الكبيرة وثنى إحدى ساقيه، أشعل لفافة تبغ، وأخذ ينظرالى آخر رسوماتي.

سألته: «ما الذي يعكر صفوك؟ »

- « بل ما الذي يعكر صفوك؟ »

ـ «لا شيء سوى أنني أشعر بشيء من الحيرة»

ـ «إنك حقاً في حيرة. لقد ساءت أمورك كثيراً. فما معنى هذه النزوة الجديدة؟ » ثم قام بحركة تنم عن ازدراء واضح حين رمى بإحدى الرسوم التي ظهر فيها نموذجاي العظيمان وسألته فيما إذا كان يعتقد أن الصورة جيدة فأجابني بأنها تثير الاشمئزاز لا سيما أنني كثيراً ما كنت أحدثه عما كنت أسعى إليه في أعمالي الفنية. وتجاهلت كلماته لأنني كنت متلهفاً لمعرفة ما يقصده على نحو دقيق. لقد بدا النموذجان ضخمين جداً ولكنني لم أشعر أنه كان مستاءاً من ذلك، فمن يدريه بأنني لم أرسمهما بهذه الضخامة عن قصد. وأكدت له أنني أواصل عملي بالأسلوب نفسه الذي كنت أمارسه عندما شرفني بثنائه عليّ آخر مرة وبعد فترة من الصمت قال:

ـ «ثمة خطأ جسيم في مكان ما. انتظر قليلاً وسأكتشفه». وقد اعتمدت عليه في القيام بذلك، فلم إذن شحذ بصره وعاد؟ ثم نطق بحكمه وقال: «لا أعرف ـ ولكني لا أحب الأنماط التي ترسمها» لقد كان تعليقه هذا غامضاً لا سيما أنه يصدر عن ناقد لم يكن يرضى بمناقشة أي أمر معي سوى طريقة تنفيذ الرسم واتجاه ضربات الفرشاة أو حركة القلم ولغز القيم الجمالية.

ـ «أعتقد إن الأنماط في الرسوم التي كنت تنظر إليها كانت على جانب كبير من الأناقة والجمال».

ـ «بيد أنها لا تصلح»

ـ «لقد استخدمت نموذجين جديدين»

ـ «لقد أدركت ذلك. لكنهما لا يصلحان»

ـ «أمتأكد أنت من ذلك»؟

ـ «جداً ـ إنهما بليدان».

ـ «إنك تقصدني بذلك. إذ كان عليّ أن أتفادى هذا الأمر».

ـ «لا يمكنك ذلك ـ مع مثل هؤلاء الناس ـ من هما؟» ثم أخبرته عن هويتهما

الى الحد الذي كان ضرورياً للتعريف بهما وعندها قال بغلاظة : «ينبغي أن تقذف بمثل هؤلاء الناس خارجاً» .

واعترضت على ذلك وقلت بشيء من الشفقة: «لم يسبق لك أن رأيتهما. إنهما طيبان جداً» .

ـ «لم أرهما؟ إن كل أعمالك الحديثة تدنت وتداعت بسببهما. لقد اكتفيت بما رأيت منهما» .

ـ «لم يتفوه أحد قط بأي كلمة تنتقص من هذه الرسوم ـ فالعاملون في مجلة (تشيب سايد) مسرورون بها» .

ـ «كل الآخرين حمير والعاملون في (تشيب سايد) أكبر الحمير اطلاقاً» . «هيا لا تتظاهر الآن بأنك لا تفهم الجمهور ، وبخاصة الناشرين والمحررين . إنك لا ترسم من أجل الذين لا يعلمون بل للنخبة من الناس فكن صريحاً معي إن لم تكن صريحاً مع نفسك. لقد كنت تحاول أن تخلق شيئاً ما، شيئاً رائعاً في بداية العمل ولكنك لم تستطع اظهاره في هذه الرسوم» . وعندما تحدثت مع (هولي) فيما بعد عن (رتلند رمسي) وعن الروايات التي قد تصدر بعدها نصحني أن أحزم أموري وإلاّ فإنني سأهبط الى الحضيض.

ولم أسمع منه سوى كلمات التحذير.

وقد أصغيت للتحذير ولكنني لم أطرد صديقاي من العمل وأخذت أشعر بالضجر منهما على نحو متزايد ولكن مشاعر الضجر هذه بالذات حالت دون أن أسخط عليهما أو أن أتخلى عنهما فلربما احتجت إليهما. ويبدو لي وأنا أتذكر هذه الفترة أنهما كانا يشغلان حيزاً كبيراً في حياتي» . ولطالما رأيتهما وهما يجلسان على أحد المساطب المخملية القديمة المنزوية أو متكئين على الحائط في المرسم بصبر يماثل صبر رجال البلاط في إحدى صالات القصور الملكية. وقد كنت متأكداً أنهما كانا يطيلان الجلوس في المرسم في أثناء الأسابيع الباردة من الشتاء اقتصاداً في نفقات التدفئة. وقد أخذ بريق حداثتهما في العمل يزول تدريجياً وصار من المستحيل علي أن أغالب شعوري أنهما كانا يستحقان الرأفة والشفقة . وكانا يغادران المرسم كلما وصلت

الأنسة (تشرم) التي ازداد ترددها عليّ منذ أن بدأت العمل في مشروع (رتلند رمسي) وقد فهمت منهما ضمناً أنهما كانا يعتقدان أنني بحاجة إليها لإعداد الرسوم المتصلة بالطبقات الدنيا من المجتمع وقد أبقيت على تصورهما هذا لأنهما حاولا قراءة الرواية التي كانت أمامهما في المرسم، دون أن يكتشفا أنها كانت تتناول الطبقات العليا من المجتمع فقط. لقد كانا يطالعان كتاباً وضعه أحد الروائيين العظام دون أن يتمكنا من فهم مقاطع كثيرة فيه.

وعلى الرغم من تحذير (جاك هولي) فإنني واصلت تشغيلهما عندي لمدة ساعة تقريباً بين فترة وأخرى، فلدي متسع من الوقت لطردهما (إن كان الطرد ضرورياً) حين تخف حدة العمل لذلك الموسم . وقد تعرف (هولي) عليهما ـ التقاهما مرة في المرسم وشعر أنهما شخصان يثيران السخرية ، وعندما عرفا بأنه من أصدقائي الرسامين حاولا التقرب إليه واقناعه أيضاً إنهما كانا نموذجين أصيلين ولكنه نظر إليهما عبر المرسم الواسع كما لو كانا يبعدان عنه مسافة أميال طويلة. لقد كانا يمثّلان كل ما كان يمقته في النظام الاجتماعي لبلاده. فمثل هؤلاء الناس الذين يهتمون بالمظاهر ويحافظون على التقاليد ويقضون جل وقتهم في الأحاديث غير المجدية لا شأن لهم بالمرسم. فالمرسم هو المكان الأمثل لرؤية الأشياء والنفاذ الى جوهرها ولا مكان لمثل هذين البليدين فيه.

وكان أكثر ما يزعجني إنني كنت في البداية أشعر بالخجل فيما لو اكتشفا بأن خادمي الجديد الماكر قد بدأ يجلس أمامي للرسومات التي كنت أخططها لرواية (رتلند رمسي). لقد أدركا أنني كنت غريب الأطوار (لقد بدءا يتعودان على أن للفنان بعض الحق في أن يكون كذلك) الى الحد الذي يجعلني أنتشل مشرداً من الشارع للعمل معي في وقت كان يمكنني فيه أن أستخدم شخصاً انجليزياً محترماً وذا مظهرٍ أنيق . ولم يدركا مدى اعجابي بكفاءته إلا بعد مرور بعض الوقت .
وكثيراً ما كانا يدخلان المرسم ليجداه جالساً متقمصاً إحدى الشخصيات التي لم يساورهما أدنى شك في أنها كانت لأحد المتسولين أو المتكسبين وكانا على جهل مطبق بالكثير مما كنت أقوم به. لذلك فقد خطر ببالي وأنا أستعد لرسم أحد المشاهد المثيرة التي يظهر أحد الخدم فيها لبرهة وجيزة، أن أطلب من الرائد (مونارك) أن

يمثل أمامي متقمصاً هذه الشخصية الوضيعة. إلا أنني أرجأت ذلك عدة مرات لأنني كنت أخجل أن أطلب إليه أن يرتدي بدلة الخدم فضلاً عن الصعوبة التي كنت سأواجهها في العثور على بدلة تناسب مقاسه. وأخيراً وفي أحد الأيام من أواخر الشتاء وبينما كنت أعمل مع (اورونتي) الذي كان يفهم ما أريده منه بلمح البصر ويغمرني شعور بأنني كنت أحقق تقدماً كبيراً في العمل ـ وصل الرائد وزوجته وهما يطلقان ضحكة ارستقراطية جوفاء (إذ لم يكن ثمة ما يدعو الى الضحك) وقد قدما لقضاء بعض الوقت معي دون موعد سابق. وكان الرائد وزوجته قد قطعا المنتزه مشياً على الأقدام بعد مغادرتها الكنيسة. وفي الحال قبلا دعوتي لهما للبقاء وتناول الغداء . وبعد الانتهاء من تناوله تبين أن بامكانهما البقاء لتناول الشاي ـ كنت أعلم أنهما كانا يريدان ذلك. ولما كان ذهني منصرفاً الى العمل ولم أكن أرغب في تركه لا سيما إن الشمس أوشكت على المغيب وإن (اورونتي) كان قد استعد لاستئناف العمل ، فقد رجوت السيدة (مونارك) أن تقوم باعداد الشاي لنا. وسرعان ما اصطبغ وجهها بحمرة قانية ونظرت الى زوجها لحظة وكأنها تحدثه بصمت إلا أن الغمامة التي عكرت صفوهما انقشعت بعد أن تدخل زوجها بلباقة وانشراح. وبدلاً من أن يثير هذا مشاعر الشفقة في نفسي فقد صممت أن يكون ذلك درساً لهما. وانشغل الاثنان سوية وأخرجا الأقداح والصحون وقاما بغلي الماء في الابريق . وقد أدركت أنهما كانا يشعران وكأنهما يقومان بخدمة (اورونتي) وليس بخدمتي. وعندما أعد الشاي قلت لهما ـ «يرجى تقديم بعض الشاي له ـ إنه متعب» . وتقدمت السيدة (مونارك) من (اورونتي) وناولته الشاي فتسلمه منها بكل وقار وامتنان كما لو كان واحداً من المدعوين المحترمين في إحدى الحفلات.

وجال بخاطري أنها، وهي تعد الشاي لنا، كانت تبذل أقصى ما في وسعها لنيل رضاي (دون أن يمس ذلك بكرامتها وإنها كانت تتوقع أن أكافئها على ذلك). وكلما حضرت الى المرسم بعد ذلك كنت أتساءل عن نوع المكافأة التي يمكن أن أقدمها لها. إذ لم يكن بمقدوري مواصلة ارتكاب الخطأ ذاته لكي أجعلهما يشعران بالامتنان. آه لقد كان من الخطأ أن أطلب منهما أن يعملا في مرسمي لأنهما لا يصلحان لذلك البتة. فلم يعد (هولي) الشخص الوحيد الذي أخذ يردد ذلك الآن.

وبعد أن دفعت بمجموعة من الرسوم التي أعددتها لرواية (رتلند رمسي) تسلمت تحذيراً أكثر حدة من التحذير الذي كان (هولي) قد أطلقه. وكان رأي المستشار الفني لدار النشر التي كنت أُصمم الرسوم لها أن الرسوم التوضيحية لم تكن على النحو الذي كانوا يتطلعون إليه . وكانت معظم الرسوم التوضيحية تضم مشاهداً يظهر فيها الرائد وزوجته . وقد أدركت أن مهمة اعداد الرسوم للكتب الأخرى ستحجب عني حتى قبل أن أتداول مع دار النشر بشأن ما كان المسؤولين يتطلعون إليه. وانكفأت، وأنا أشعر باليأس، على الأنسة (تشرم) وشرعت أحملها كل أعباء العمل الجسيمة. وقد بات من الواضح للجميع أيضاً إن (اورونتي) أصبح في نظري أفضل النماذج التي أرسمها.

وفي صباح أحد الأيام، وفيما كان الرائد يزورني للاستفسار فيما إذا كنت بحاجة إليه لانجاز أحد المخططات لمجلة (تشيب سايد) التي بدأت برسمها قبل أسبوع، أخبرته بأنني قد غيرت رأيي وإنني سأرسم (اورونتي) بدلاً منه. ولما سمع ذلك علا الشحوب وجهه وحدق في وجهي وقال ـ «هل يمثّل هذا الخادم الاجنبي الفكرة التي تحملها عن الرجل الانجليزي المحترم؟» لقد شعرت بالخيبة والاضطراب وأردت مواصلة عملي ، فأجبته بشيء من الانزعاج: «يا عزيزي الرائد ، لا أريد أن يتحطم مستقبلي من أجلك . . . . . .» .

وظل واقفاً لبرهة قصيرة ثم غادر المرسم دون أن ينبس ببنت شفة وعند ذلك تنفست الصعداء وقلت لنفسي ينبغي أن لا أرى هذا الرجل مرة أخرى. ولكنني لم أخبره عن خشيتي من أن أعمالي ستلقى الرفض، بيد أنني شعرت بالانزعاج لأنه لم يدرك حجم الكارثة التي ستلم بنا أو يكتشف عقم عملنا سوية أو أن يفهم أن أرقى الأشخاص مقاماً قد لا يصلح أن يكون نموذجاً للرسم في أجواء الفن الخادعة.

وعلى الرغم من أنني لم أكن مديناً لهما بأي مبلغ من المال إلا أنهما جاءا لزيارتي مرة أخرى إذ ظهرا سوية بعد ثلاثة أيام وقد خيم على هذا اللقاء جو من الحزن المؤلم. وقد أيقنت أنهما في الفترة التي انقطعا عني لم يتمكنا من العثور على أي عمل ينشغلان به. فقد قلبا الأمر ملياً واقتنعا أخيراً أنهما لا يصلحان للعمل معي في السلسلة الجديدة مما أحزن قلبيهما. وأدركا أخيراً أنهما ما داما لا يصلحان للعمل

حتى في مجلة (تشيب سايد) فكان من المتعذر عليّ أن أطلب منهما العمل في هذه السلسلة الجديدة . وفي بداية اللقاء ساورني شعور بأن الرجل الطيب (مونارك) وزوجته الودودة قد جاءا لإلقاء تحية الوداع . وقد شعرت بسرور خفي لإن انصرافهما سيمكنني من إتمام إحدى المشاهد التي كنت أرجو انجازها على نحو افتخر به حيث كان النموذجان الآخران يمثلان سوية.

ويفهم من إحدى الفقرات في الرواية التي كنت أعد رسومي لها، إن (رتلند رمسي) كان يطلق عبارات تأسر القلوب عندما كان يقرب كرسيه من مقعد البيانو الذي كانت (ارتميسيا) تجلس عليه وهي تعزف إحدى القطع الموسيقية. لقد رسمت المس (تشرم) وهي تعزف على البيانو من قبل . إنه أحد المشاهد التي كانت تعرف جيداً كيف تضفي عليه جمالاً شعرياً . وقد كنت أسعى لرسم لوحة تتسق فيها شخصيتا هذين النموذجين لا سيما بعد أن أصبحت أعول على الايطالي الشاب في أعمالي كافة وبدا المشهد الذي يضمهما قرب البيانو يتدفق حيوية ويجمع بين نبض الشباب وهمس الحب . ولم يكن عليّ سوى الامساك به في مخيلتي وتخليده في اللوحة التي كنت على وشك البدء برسمها . وفيما كنت منهمكاً في تهيئة هذا المشهد كنت ، بين الحين والآخر ، ألقي بابتسامة ودودة نحو زائري اللذين كانا يرقبان هذا الموقف . لم ألحظ أي رد فعل في ملامحهما . ولما كنت معتاداً على الصحبة الصامتة، واصلت عملي وأنا أشعر ببعض العكر في مزاجي لأنني لم أستطع التخلص منهما (على الرغم من أنني كنت عموماً أشعر بسرور بالغ لعثوري على الحل الأمثل). ولم يمض بعض الوقت حتى سمعت صوت السيدة (مونارك) الجميل يهمس في أذني:

ـ «أتمنى لو كان شعرها مصففاً على نحو أفضل. » وعندما استدرت نحوها ألفيتها تسمّر نظراتها على نحو عجيب على الأنسة (تشرم) التي كان ظهرها بمواجهتنا ثم واصلت (مونارك) حديثها قائلة : «هل تسمح لي بأن أجري لمسة طفيفة عليه؟» وقد جفلت لطلبها هذا كما لو كنت أشعر بخوف غريزي من أن المسز (مونارك) قد تلحق الضرر بالشابة ولكنها هدأت من خواطري بنظرة لن أنساها ما حييت (واعترف هنا بأنني كنت أتمنى لو كان باستطاعتي أن أرسم ملامحها في تلك اللحظة) ثم توجهت نحو الأنسة (تشرم) وحدثتها بلطف وهي تحني رأسها وتضع

يدها على كتفها . وبعد أن وافقت الفتاة وهي تشعر بالامتنان ، شرعت المسز (مونارك) تساوي بعض خصلات شعرها ويدها تعمل بخفة ورشاقة، حتى بدا رأس الأنسة (تشرم) أكثر سحراً من ذي قبل. وبذلك أسدت لي المسز (مونارك) خدمة عظيمة. وبعد أن أطلقت تنهيدة خافتة، عادت المسز (مونارك) الى مكانها كما لو كانت تبحث عن شيء تقوم به . وانحنت الى الأرض بتواضع كريم لتلتقط خرقة متسخة كانت قد سقطت من علبة اصباغي.

وكان الرائد (مونارك) الذي انسحب الى الجانب الآخر من المرسم يبحث هو الآخر عما يمكن أن يقوم به. ووقعت عيناه على أواني الفطور التي تركت مهملة منذ الصباح. ونادى بنبرة مرتعشة لم يتمكن من اخفائها وهو يشير الى تلك الصحون المتسخة : «ألا يمكنني يا ترى، أن أكون بذي نفع؟ » وأومأت له بالموافقة وأنا أطلق ضحكة أداري بها الاضطراب الذي لازمني للدقائق العشر التي تلت. وبينما كنت أعمل، سمعت الأصوات المنبعثة من غسل الصحون والملاعق والأقداح حيث كان الزوجان منهمكين بتنظيفها واعادتها على نحو مرتب على رفوف الخزانة. وتبين لي فيما بعد بأنهما قاما أيضاً بجلي كل أدوات المائدة والأطباق التي اكتسبت لمعاناً لم أعرفه من قبل. وعندما أدركت المغزى العميق لما كانا يقومان به أصابني نوع من الدوار واهتزت اللوحة التي كنت أرسمها واختلطت ألوانها لبرهة من الزمن. فعلى الرغم من اقتناعهما بأنهما قد فشلا في العمل معي، فإنهما كانا يقاومان القدر الذي كان يتربص بهما . لقد أخفيا رأسيهما وقد لفتهما الحيرة وهما يواجهان بعضاً من الشرائع الظالمة المنحرفة في هذه الحياة حين تعزف الدنيا عن النماذج الأصلية وتقبل على ما هو زائف منها . ولكنهما لم يرتضيا لنفسيهما الموت جوعاً فإن كان من يعمل معي خادماً يصلح أن يكون نموذجاً للرسم فقد يصلح النموذج أن يكون خادماً لي. لقد كانا يحاولان تبادل الأدوار حيث يقوم الخادمان بالمثول أمامي لأرسمهما على أنهما من أفراد المجتمع الراقي ويقوم الزوجان بإداء مهام الخدم وبهذا يمكنهما البقاء في المرسم. لقد انطوى قيامهما بأعمال المنزل على نداء صامت بالغ الأثر أن لا أديرظهري لهما. وكأني بهما يتوسلان إليّ:

ـ «لا تنبذنا . فنحن مستعدان للقيام بأي عمل تريده» .

وفـيها كنت في تلك الدوامـة ، وقع القلم من يدي وتبـدد المشـهـد الذي كـان مجسـداً في مخيلتي . فطلبت من الأنسة (تـشـرم) و (اورونـتـي) اللذين غلبتهما الحيرة والانشـداد أيضاً، أن ينصرفا.

لقـد كـانت البرهة الوجيـزة التي انفـردت بها بالرائد وزوجته مشحونة بالحرج والاكـتئاب ولم ينطق الرائد الذي كان يسترحمني سوى جملة واحدة فقط : «تـرى هل بامكانك أن تجد لنا أي عمـل هنا ؟ » ولم أكن قـادراً على ذلك لأن من المؤلم حقـاً أن يقع نظري عليـهما وهما يقـومـان بأعمال المنزل ورمي الفضلات . ومن باب الاحسـان تظاهرت بأنني بحاجة إليهما للعمل معي لمدة أسبوع أو نحو ذلك. وبعد أن انقضت هذه الفترة دفـعت لهما مـبلغاً من المال كي ينصرفا ولم أرهما بعد ذلك أبداً.

لقـد نالت رسـومـاتي رضـا الناشرين الذين كلفـوني بمـواصلة العـمل في بقـيـة الكتب. بيـد أن صـديقي (هولي) كـان يردد على الدوام بأن الرائد (مـونارك) وزوجته قـد ألحـقـا ضرراً بـالغـاً بي وجـعـلاني ألجأ الى أسـاليب فنيـة هابطة. فإن كـان ذلك صحيحاً ، فإنني غير نادم على ما دفعته من ثمن ـ للذكرى.

همـلـن جـارلـنـد
(١٨٦٠ ـ ١٩٤٠)

د. ضياء الجبوري

لمحـة عـامـة :

عندمـا زار (هملن جـارلند) أبويه في مـزرعتهما البائسة في (كولورادو Colorado) عام ١٨٨٧ ، صـعِقَ لرؤية الفـقـر المدقع والظروف التعسة التي كانت تحيط بالمزارعين آنذاك. وصمّم منذ ذلك التـاريخ أن يكرّس مـعظم كـتـاباته للكشف عن مـعـاناة الفـقراء والتنديد بما يفعله الانسان لأخيهِ الانسـان . وبالفـعل فـقـد بـرَّ بوعده . فأعماله عن حياة المزارعين في الغرب الأوسط الأمريكي تعد اليـوم من أهم المصـادر الأدبيـة للحـيـاة في التخوم الزراعية الأمريكية في القرن التاسع عشر . وكان جـارلند ، وهو يصـوّر حـياة ذلك الجزء من الولايات المتحدة، يغمس ريشته بمعاناة الفقراء وعرق جـبـينهم مـؤكـداً أن (الغـرب الأوسط) كـان مـوطن المشّاق والاحباطات المريرة وليس (جنة عدن) جديدة، كما كان يحلو للرومانسيين تصويره.

حـيـاتـه :

ولـد (هملــن جـارلند) عـام (١٨٦٠) في إحـدى المـزارع في ولاية وسكونسن Wisconsin ، وقـضى طفـولتـه مـتنقـلاً مع أبويه من مـزرعـة إلى أخـرى في ولايات الغرب الأوسط وهـم يحاولون كـسب لقـمـة العـيش . وبدلاً من التـيـمم شطر الغرب الأمريكي ، كأقرانه من الشباب في تلك الحـقـبـة، فإنه توجـه إلى (بوسـتن) في الشرق . وهناك قـضى (جارلند) الذي كان شديد التحمس للتـزود بالمعـرفـة، السـاعـات الطوال وهو يلتـهـم كـتـب التـاريخ والأدب والفلسـفـة وعلوم الحـيـاة والطبـيـعـة في مكتـبـة (بوسـتن) العـامـة . وعلى الرغم من أن هذه الفترة كـانت تمثل فترة حـرمان

معيشي، إلا أنها كانت فترة التزود بالغذاء الفكري التحق جارلند خلالها بالمعاهد التعليمية. وكانت دراسته متقطعة وقصيرة إلا أنه تمكّن من الحصول على شهادة تؤهله للتدريس في إحدى مدارس بوستن.

كانت حياة (جارلند) حافلة بالنشاط على صعيد العمل الاصلاحي في الحقلين الاجتماعي والسياسي. فقد عُرف عنه حماسهُ الشديد لبرنامج الضرائب الذي تقدّم به المفكّر (هنري جورج) وساند من خلال كتاباته أيضاً، المواقف التي كان (الحزب الشعبي Populist Party) يتخذها. وأسهم (جارلند) أيضاً في حقل الدفاع عن حقوق المرأة. وألّف أكثر من عمل فني يصوّر نجاح المرأة في شق طريقها في الحياة وتحقيق ذاتها.

أدبه وأفكاره :

نشر (جارلند) أول مجموعة قصصيّة له عام (١٨٩١)، وكانت هذه المجموعة تسمى (الطرق المسلوكة Main - Travelled Roads) التي وصفها (وليم دين هاولز) «بالمسالك المريرة الموحلة»، لأنها كانت تبرز الكفاح اليومي المرير للمزارعين المعدومين. وفي كتابه (الأصنام المتداعية Crumbling Idols) (١٨٩٤)، وصف (جارلند) أسلوبه بالواقعية الصرفة Veritism وهو الأسلوب الذي كان يجهد من خلاله الى التركيز على حقائق الحياة المرة، لا من أجل توثيقها وتصويرها، بل من أجل استخلاص العبر والسعي نحو اسقاط الضوء على معاناة المحرومين والبؤساء ومن ثم العمل على رفع الحيف عنهم.

ولكن (جارلند) نفسه لم يلتزم بالمسار الذي كان يرى أن على الأدباء أن لا يحيدوا عنه. وظلّ يكتب في اطار المدرسة الواقعية التي حدد معالمها (هاولز) دون أن يتمكن من أن ينفذ ببصيرته إلى أعماق الشخصيات التي صوّرها. بل أن بعض كتاباته لم تكن لتخلو من النبض الرومانسي العاطفي. وقد اتسمت معظم مؤلفاته بمزيج من الرومانسية المفرطة والواقعية الصارخة. ويميل الكثير من النقاد إلى الاعتقاد أن ذلك كان بسبب نظرته للحياة التي كانت نفسها مزيجاً من الأحلام الوردية لمستقبل الانسان والنظرة الواقعية الصرفة للحياة وحقائقها المريرة.

وقد اتهم بعض النقاد (جارلند) بأنه استجاب لمتطلبات السوق عندما أصدر عدداً من روايات المغامرات الشعبية، لا سيما في العشرين سنة الممتدة بين ١٨٩٦ و ١٩١٦، حين التفتَ (جارلند) الى جبال الروكي التي جعل منها مسرحاً لأحداث هذهِ الروايات مثل رواية (هسبر Hesper) (١٩٠٣) و(حارس الغابات Cavanaugh, Forest Ranger) (١٩١٠) وغيرها.

وفي مطلع القـرن العشرين، انصبَّ اهتمام (جـارلند) على استـلهام سيرته الذاتية في كتاباته. وقـد نجح في ذلك نجـاحـاً باهراً لا سـيما بعـد أن انحسرت بعض جـوانب التطرف الفكري الذي لازمـه في بواكير انتـاجـه. وتعـد كـتاباته : (ابن التخوم الوسطى (١٩١٧ A Son of the Middle Border) و (إبـنـة الـتـخـوم الوسطى (١٩٢٠ A Daughter of the Middle Border) و (لقاءات على قارعة الطريق (١٩٣٠ Roadside Meetings) من أهم الاسـهامات الخلاقة في أدب الولايـات المتحـدة وتاريخها .

فـي قـبـضـة الأسـد

ترجمة : د. ضياء الجبوري

[تصـور قصة (جـارلنـد) (في قبضة الأسد، Under the Lion's Paw)، التي نشرها ضمن مجموعته القصصيـة الطـرق المسلوكـة (١٨٩١) Main-Travelled Roads ثـورة المزارعين في الغـرب الأوسـط الأمـريكي ضـد المضـاربين والمتـاجـرين في الأراضي الزراعـيـة وأولئك الجشعين الذين كانوا يسـتـغلـون عـرق الكادحين . وتجسّـد هذه القصـة أسلوب (جارلند) الهادف ونظرته الانسانية التي يعبـرّ فـيـها عن مسؤولية الأديب تجاه مواطنيـه في الكشـف عن مواضـع الضعـف والخلل في بُنيـة المجتمع الأمريكي] .

المترجم

كـان ذلك آخـر أيام الخـريف بل أول أيام الشتاء. وكان الفلاحون طوال ذلك اليـوم منهـمكين بحـراثة الحـقول المنبسطة الواسعة على الرغم من تساقط الثلوج التي سرعـان مـا كـانت تذوب حـال ملامستها الأرض. وكان البلل قد نفذ الى أجسادهم وهم يكدحـون خلف محاريثهم جيئة وذهاباً، غير عابئين بهبّات الجليد وقطرات المطر المتسـاقطة من الغيوم العابسة والوحل اللزج الذي كان يشابه القار في لونه.

كـانت الخـيـول تواصل الرواح والمجيء بصـمت وهي مطوقـة بنيرها الذي كان يقطر من البلل تكد وتكدح بذلك الصبر الجـمـيل المعـهـود في الخـيول دون أن يبدو منهـا مـا ينم عن التـذمـر أو الشكوى. وطوال اليوم، كان صياح الأوز البري الهائج يشـتـد ويعلو، والريح تعـصـف بهم وكأنهم يحاولون الفـرار من عـدو يلحق بهم وهم يمطون بأعناقـهم ، مشرعين أجنحـتـهم لتـتـقـاذفـهـا الرياح القارصة ثم لا يلبثوا أن يتـواروا عن الأنظار.

واصـل الـفـلاح عـمله خلف المحـراث، غير آبه بعـصف الريح الهوجـاء على الرغم من الجليـد الذي كـان يكسو معطفه المهلهل. وكان حذاؤه السميك يغوص في الأوحـال العـمـيـقـة اللزجـة التي تقـيّد حـركـتـه كالأصفاد. وفيها كان النهار ينقضي والجـليـد يتـوقف عن الذوبان ليكسـو الجـذامـة والأرض المحـروثة ، بدا كل أخـدود جـديد يشـقـه المحراث البطيء فاحماً ، لامعاً كالكهرمان الأسود وسط التربة المحروثة التي تناثرت عليها الجذامة الرمادية اللون .

وعند حلول الليل، وهبـوط الأوز تحت جنح الظلام في حـقل الذرة القريب ، كان (ستيفـن كاونسـل Stephen Council) مـا زال منكبـاً على عمله «لينجـز مهمة الحرث». وكان يجلس على مقعد عربة المحراث حين يسير باتجاه الريح، ويترجل من المحراث حين يعمل بعكس اتجاها.

على الرغم من برودة الجـو كـان الفـلاح الذي يرتدي قبعة عريضة منهمكاً في عـمـله ويشـعـر بنوع من الإنشراح وهو يكلم خـيـوله الأربعـة ويحثـهم على مـواصلة العمل.

ـ «هيـا استـديروا يا أولاد، مـرة أخـرى، لا بد أن ننتهي من الحرث، هيا يا دان ويا كيت، على مهلكما، لا تهتاجي يا كيتي، أعرف إن المهمة شاقة إلا أن علينا إنجازها. تقدم يا بيت، لا تدع كيت تسبقك، هيا مرة أخرى» .

ويبـدو أن الخـيل كانت تفهم ما يرمي إليه وتدرك أنه لم يتبق من العمل سوى الجـولة الأخيرة، لذلك أخذوا يعملون بجهد أكبر من ذي قبل.

ـ «هيـا يا أولاد، تذكـروا إن بانتظاركم وجـبـة من الشـوفان وحظيرة دافئة ونوماً هانئاً للجميع» .

وعندمـا انتـهى من شق آخـر أخـدود في الأرض شرع الجليـد يتـحول الى مطر مـرة أخـرى، وحلّ الظلام حـتى أمـسى من المتـعـذر رؤية النور المنبعث من المطبخ خـلال الشـجيرات الجـرداء المحيطة بالبـيت. ولدى اقترابه من البيت، هتف بصوت عال «جهزوا عشاء لنصف دزينة» .

كـانت السـاعـة تقترب من الثـامنة مـسـاءاً حين أنهى عمله وتوجه نحو البيت

لتناول عشائه ، وكان يتلمس طريقه بحذر في الوحل حين ظهر أمامه فجأة خيال رجل طويل كان سعاله ينم عن اعتلال في صحته . وعندما استفاق الفلاح من جفلته، بادر بالسؤال:

ـ «ماذا تريد؟ » .

أجاب الرجل الغريب بلهجة يشوبها الخنوع:

ـ «نعم، كما ترى، إ . . . إنـ . . . إننا . . . نبحث عن مأوى. . . نبيت فيه هذه الليلة. لقد حاولنا ذلك مع كل بيت على مسافة الميلين الأخيرين دون أن نفلح. وقد أوشك المرض أن يلم بزوجتي، أما الأطفال فإنهم يعانون من البرد والجوع» .

ـ «إنك تريد أن تقضي اللية هنا، أليس كذلك؟ » .

ـ «نعم يا سيدي، وبذلك تكون قد أسديت لنا معـ ـ » .

ـ «ليس من عادتي أن أرد طلب أي شخص جائع، لا سيما في ليلة كهذه. هيا. أسرع الى عربتك وتقدم بها الى الداخل، ليس لدينا الكثير ولكن في حالة مثل هذه سنقوم بما نقدر عليه. »

وبعد أن اختفى الرجل الغريب برهة، عاد بعربته التي كانت تجرها خيول منهكة، تنفث البخار، مطأطأة الرؤوس. واجتازت البئر وتوقفت عند المنصة على جانب الممر، ووقف (كاونسل) الى جانب العربة ومد ذراعيه نحو طفلين كانا يغالبان النعاس وامرأة ذات بنية صغيرة تحتضن طفلاً رضيعاً ليساعدهم على النزول من العربة.

وأخذ يتحدث الى الأطفال ببشاشة: «هيا يا أطفال، كل شيء على ما يرام الآن، أسرعوا الى الدار، هناك، وأبلغوا السيدة (كاونسل) أنكم ترغبون في تناول شيء من الطعام: «يا سيدتي، تفضلي من هنا» .

ثم التفت الى الرجل الغريب وزوجته المندهشين قائلاً: «اتجها الى اليمين من هنا، نعم، سأذهب لأحضر القنديل، هيا اتبعاني» .

وإذ اقترب من المطبخ الذي تفوح منه الرائحة الشهية وينبعث الضياء الدافىء منه، نادى زوجته قائلاً: «لدينا بعض المسافرين الذين هم بحاجة الى شيء من الطعام والى مأوى يرقدون فيه». وبعد ذلك دخل الجميع الى المطبخ.

كانت المسز (كاونسل) امرأة مرحة، ذات بنية ضخمة وملامح خشنة بعض الشيء. وما أن رأت الأطفال حتى احتضنتهم بذراعيها قائلة: «تفضلوا أيها الأرانب الصغار . يبدو أن النعاس قد غلبكم. ليشرب كل واحد منكم شيئاً من الحليب. سأجهّز بعض الشاي حالاً، اخلعوا معاطفكم واجلسوا حول النار» .

وبينما كانت المسز (كاونسل) تناول الأطفال حليبهم، كان المستر (كاونسل) الذي أحضر القنديل، يساعد الرجل الغريب في الاهتمام بأمر خيوله في الحظيرة، وكان صوته النافذ الودود يسمع وهو يتنقل بين الحظيرة ومخزن العلف.

وفي المطبخ، أمكن رؤية المرأة الصغيرة البنية التي بدا وجهها الحزين جميلاً ، على الرغم من الخوف والاحباط الذي كان يلفّها.

ـ «يا الهي، لقد قطعتم كل هذه المسافة من (كليرليك Clear Lake) في هذا الطريق الموحل، لا عجب إذن انكم تشعرون بالإرهاق جميعاً. لا تنتظري الرجال يا مسز . . .» وهنا ترددت المسز (كاونسل) وانتظرت أن تذكر السيدة اسمها. وجاءها الرد في الحال:

ـ (هسكنز Haskins) . ثم قالت المسز (كاونسل) :

ـ «تقدمي نحو المائدة واشربي بعض الشاي بينما أقوم بتحميص الخبز، إنه شاي أخضر ومن نوعية جيدة. ودائماً ما أذكر زوجي أنه كلما تقدم بي العمر فإنني لا استمتع بشاي (يونغ هايسن) أو غيره من الأنواع الرديئة. بل أصر على الشاي الأخضر الطازج الذي نحصل عليه فور اقتطافه من المزارع لأن نكهته تكون أقوى. بيد أن زوجي يقول إن هذا رأي خاص بي وإنني أفضل هذا الشاي لأن لونه يروق لي.

وكانت وهي تواصل حديثها على هذا النحو قد أشبعت الأطفال من الحليب والخبز، وأشعرت المرأة بأنها واحدة من أفراد الأسرة وناولتها الخبز المحمص ومربى

البطيخ والشاي.

ثم قالت المسز (كاونسل) ضاحكة «انظري الى الفئران الصغيرة. إنهم يريدون أن يخلدوا الى النوم بعد أن امتلأت بطونهم. كلا لا تنهضي يا مسز (هسكنز)، ابقي حيث أنت ودعيني أهتم بأمرهم لأن لي دراية بأمور الصغار على الرغم من أنني وحيدة الآن. لقد تزوجت ابنتي (جين Jane) في الخريف الماضي. وكثيراً ما أقول لزوجي إن من حسن حظنا أن صحتنا جيدة. ابق حيث أنت ولا تتحركي يا مسز (هسكنز). لن أدعك ترفعين اصبعاً واحداً» .

لقد شعرت المسز (هسكنز) بمتعة لا تضاهيها متعة وهي تجلس في ذلك المطبخ الدافىء المريح في مأمن من الريح التي تهب في الخارج دونما أي تأثير عليهم وهي تستمتع بالأحاديث الطريفة للمسز كاونسل.

اغرورقت عينا المرأة الصغيرة بالدموع التي انهمرت على طفلها الرضيع الراقد بين ذراعيها. ليس العالم، إذن، بالقفر الموحش القاسي الذي كانت تتصوره.

قالت المسز (كاونسل) «أرجو أن لا يبقى المستر كاونسل يتحدث في السياسة طوال الليل. إنه أكثر رجل يتحدث في السياسة ويقرأ (التربيون). وأضافت وهي تلقي بنظرها الى وجه الطفل الرضيع : «كم عمره يا ترى ؟ » وأجابت أمه بكل دقة «شهران وخمسة أيام» .

ـ «حقاً ما تقولين؟ يا له من طفل رائع». وأخذت تدغدغه بأصبع سبابتها الغليظ بين أضلاعه وتقول: «إنه لأمر شاق عليك، أيها الصغير، أن تقطع كل هذه المسافة» .

وفي غضون ذلك دخل المستر (كاونسل) الى المطبخ وهو يتحدث الى الرجل الغريب : «نعم ، إنه كذلك بالفعل. ليس بمقدور الانسان أن يزحزح الجبال». ثم أضاف : « (سارة) ، أقدم لك المستر (هسكنز) من (كنساس Kansas) . لقد قضى الجراد على حقله بالكامل مما اضطره الى الرحيل» .

«تشرفنا بمعرفتك، هيا، افرغ المغسلة من الماء ودع المستر (هسكنز) يغتسل».

كان (هسكنز) طويل القامة وذا وجه نحيف مكتئب. وكان شعره بنياً يميل

الى الإحمرار كلون معطفه الباهت بفعل تعرضه للشمس والريح. وكان وجهه الشاحب، على الرغم من قسوة ملامحه، يثير الشفقة. أما فمه الذي كان يعلوه شارب أشقر خفيف، فيوحي لكل من ينظر إليه أن هذا الرجل عانى الكثير في حياته.

ـ «هل عاد (آيك Ike) الى البيت يا سارة؟ » .

ـ «لم أره بعد» .

ثم التفت (كاونسل) الى رفيقه قائلاً: «هيا يا مستر (هسكنز)، تقدم لتناول بعض الطعام. ليس لدينا الكثير من القوت إلا إننا نتدبر أمرنا به» . وأضاف ضاحكاً وهو يشير بإبهامه الى زوجته: «أنظر إليها لقد أصبحت بدينة تماماً» .

وبعد تناول العشاء، وبينما انشغلت الامرأتان بتهيئة الأطفال للنوم، واصل (هسكنز) و (كاونسل) حديثهما وهما يجلسان قرب الموقد الكبير. وكان البخار يتصاعد من ملابسهما المبللة. وعلى عادة أهل الغرب الأمريكي، فقد تحدث (كاونسل) عن نفسه قدر استفساره عن أمور ضيفه. ولم يسأل (كاونسل) ضيفه سوى أسئلة قليلة أدرك من أجوبتها مدى كفاح (هسكنز) وتعاسته. لقد كانت قصة مروعة حقاً إلا أنه رواها بكل هدوء وهو يسند كوعيه على ركبتيه محدقاً في الموقد معظم الوقت.

ونهض وهو يلقي بنظرة الى زوجته قائلاً : «لم تعجبني طبيعة الأرض هناك، على أية حال . إذ لم أكن متعوداً على العيش في شمالي انديانا ، حيث كان المطر غزيراً والغابات كثيفة . كما لم تستهوني مناظر المروج الجافة . ومما يحز كثيراً في نفسي ، إنني قطعت مساحات شاسعة من الأراضي الطيبة التي تقبع جرداء لم يستغلها أحد» .

ـ «والجراد، أتلف المحصول لمدة أربع سنوات متواصلة، أليس كذلك؟ » .

ـ «أتلف المحصول! بل قضى على كل ما نملك ، والتهم كل ما هو أخضر . وكان في انتظار هلاكنا كي يلتهمنا أيضاً . يا الهي . كثيراً ما كانت تراودني

الـكـوابيس ، حيث تتراءى لي أسراب الجـراد محيطة بسريري الذي كـان طوله سـتـة أقـدام ، وهي تقـضـم خـشـب السرير بنهم ، كما التـهمت مقابض المذراة . وازدادت شراهة حـتى انقضّ بعـضها على بعض . وتكوّمت كما يتكوم الجليد في الشتاء. وعلى أية حـال، فـلا جـدوى من الحـديث عن ذلك. فلو بقـيت أتحدث طيلة الشتاء فلن يـكـون بـمـقـدوري أن أخـبرك بـكل مـا حـدث . وكنت طيلة الوقت أفكر بالأرض الخـصبة في هذه المنطقة التي لم يستغلها أحد والتي كان ينبغي أن أستقر فيها بدلاً من تلك الأراضي اللعينة» .

وسـأل (آيـك) وهـو يتناول طعـامـه بعـد أن عـاد الى البـيت: «طيب، لماذا لم تستقر هنا؟ » .

ـ «السـبب بسـيط هو إن أصـحاب الأراضي كانوا يطلبون عشرة أو خمسة عشر دولار للفـدان الواحـد من الأراض الجرداء ولم يكن لدي ما يكفي لذلك» .

وفي فترة الصـمت التي تلت حـديث الرجـال سـمع صـوت المسـز (كاونسل) وهي تقول: «نعم، إنني أقـوم بأعمالي كلهـا. وقد بدأت أشعر بالإرهاق طوال اليوم. ولـيس بامكاننا أن نسـتـقـدم أجيراً، لذلك أواصل أعمالي هنا مـثل حـصـان منهك. وغـالبـاً مـا أكـرر لزوجي بأنني أصبحت عرجاء، بيد إنه لا يتصور مقدار الألم الذي أشـعر فيه في كلتا ساقيّ». وضحكت هذه المرأة الطيبة القلب وهي تسخر من نفسها بينما كـانت تغرف كفاً من الطحين وتنثره فوق اللوح لتمنع العجين من الالتصاق.

وأجابتها المسز (هسكنز) : «لم أشـعـر في يوم من الأيام بأنني قوية جداً . إن أهلي من أصل كندي وبنيـتـهم صـغيرة. ومنذ ولادة طفلي الأخير، فإنني لم أتمكن من استـعـادة قـوتي. ولا أود هنا أن أبث شكواي. فقد تحمل زوجي (تِـم Tim) كل ما أمكن تحـمله بيـد أنه مـرّت علينا بعض الأيام في هذا الأسـبـوع تمنيت فـيها أن أتمدد وأفارق الحياة» .

ونادى المستر (كـاونسل) من الجـانب الآخـر للمـوقد وقد أسكت الجميع بنبرته المـادرة الـودودة «لو كنت مكانك لرأيت (بتلر Butler). أظن أنه سـيـؤجر لك أرضه بسـعـر زهيـد لأن مـزرعـتـه مـهـجـورة وإنه متلهف للعثور على من يستأجرها منه في السنة القـادمـة، وقد يكون في ذلك فرصة مواتية لك. على أية حال، اخلد الى النوم

ونم كما يهنأ الأطفال بنومهم فعلي أن أحرث جزءاً من الأرض. وسنرى ما يمكن عمله بصدد موضوعك. (آيك)، اذهب لتفقّد الخيول. وسأرشد الضيوف الى حيث ينامون» .

وعندما انسلّ الرجل المتعب وزوجته تحت لحاف الفراش الاحتياطي، أصغى (هسكنز) لبرهة للصوت المنبعث من ارتطام الريح بسقف الكوخ ثم قال بنبرة وقورة هادئة : «ثمة أناس في هذا العالم بطيبة الملائكة بل أنهم سيتحولون الى ملائكة بعد رحيلهم عن هذه الدنيا» .

٢

كان (جم بتلر Jim Butler) أحد الرجال الذين يطلق عليهم في الغرب بمالكي الأرض المعسرين. وعند نشوء مدينة (روكرفر Rock River) ، بدأ عمله بمتجر صغير بالبقالة. وكان يزاول عمله في بناية صغيرة في أحد الأحياء الفقيرة من البلدة. وفي تلك الفترة من حياته، حصل على كل ما يملكه بعرق جبينه وكان يبدأ عمله مبكراً ولا يخلد للراحة إلا في وقت متأخر وهو يقضي جل وقته في تصنيف البقول ، وتهيئة الزبدة ونقل بضاعته من المحطة وإليها. وفي نهاية السنة الثانية من عمله ، حصل تغيير أثر في مجرى حياته ، عندما باع قطعة من الأرض بأربعة أضعاف السعر الذي اشتراه بها. ومنذ ذلك الحين أخذ يؤمن بأن أضمن وسيلة للإثراء هي المضاربة بالأراضي. وكان كل سنت يربحه من تجارته يوفره لشراء الأراضي المرتهنة أو التي تباع اضطراراً أو التي كانت تدر أرباحاً تضاهي الأرباح التي تجنى من تجارة القمح كما اعتاد على القول.

وسقطت المزرعة تلو الأخرى في قبضة يديه حتى أصبح واحداً من أكبر ملاكي الأراضي في المقاطعة. وكانت الأراضي المرتهنة لديه منتشرة في أرجاء مقاطعة (سيدر Cedar) . وعند استحواذه عليها بعد انقضاء فترة استحقاق الدين ، كان يؤجر أراضيه لمالكيها السابقين. ولم يكن من أولئك الذين يستولون على أراضي الغير وقد ذاع صيته في البلدة بكونه من التجار الذين يمنحون التسهيلات، إذ كان

يرجىء استعادة مستحقاته من المستدينين مرة تلو الأخرى ويمدد فترة دفع الدين كلما أمكن ذلك.

وكان كثيراً ما يردد: «لا أريد أن استملك أرضك، كل ما أسعى إليه هو مبلغ الفائدة على نقودي. هذا كل ما في الأمر وإذا ما رغبت في البقاء في الأرض فسوف أمنحك سعراً مناسباً إذ لا يسعني أن أترك الأرض دون استغلالها». وفي كثير من الأحايين أصبح المالكون مستأجرين لأراضيهم السابقة.

وقام (بتلر) ببيع بقالته، إذ لم يعد لديه متسع من الوقت للبقاء فيها وكان يقضي معظم أيامه بتفقد مزارعه. أما في الأيام الممطرة، فقد كان يمكث في المدينة مع أصحابه ويشغل نفسه بالثرثرة والتدخين. وكان شغوفاً بصيد السمك لا سيما في موسم الصيد ويذهب مع أخلائه (دوك جرايمس Doc Grimes وبن اشلي Ben Ashley وكال جثم Cal Cheattham) الذين كانوا يرافقونه أيضاً في موسم رحلات قنص الدراج والطيور. وفي الشتاء، كانوا يتوجهون الى شمالي (وسكونسن) لصيد الغزلان.

وعلى الرغم من كل امارات الحياة المترفة، كان (بتلر) يصر على أن ليس لديه ما يكفي من المال لدفع الضرائب على أرضه. وكان دائماً يحاول أن يوهم الآخرين بأنه رجل فقير متناسياً امتلاكه لعشرين مزرعة. وقد ذكر في إحدى المرات أن قيمة الأراضي تبلغ خمسين ألف دولار، بيد أن الاقبال على شراء الأراضي قد قل كثيراً عما كان سابقاً ولم تعد ممتلكاته تقدّر بهذا الثمن. وقبل عام، استولى (بتلر) على إحدى المزارع الجيدة المسماة (هجلي بليس Higley Place) المعروفة بمزرعة (هجلي) بالطريقة المعتادة نفسها، إلا أنه لم يتمكن من إيجاد مستأجر لها. لقد أوشك المسكين (هجلي) أن يهلك من شدة عمله المضني لأجل دفع قيمة الرهان على أرضه. إلا أنه اضطر الى الرحيل الى (دكوتا Dakota) مخلّفاً مزرعته ولعنته لـ (بتلر).

ولم تكن المزرعة التي أوصى (كاونسل) ضيفه (هسكنز) باستئجارها سوى مزرعة (هجلي) بالذات. وفي اليوم التالي، جهز (كاونسل) عربته وقاد خيوله الى المدينة لمقابلة (بتلر).

وقبل الوصول الى (بتلر) قال (كاونسل) لصاحبه: «لا تنطق بشيء. دعني أتكلم مع (بتلر) الذي سنجده حتماً جاثماً على برميل ملح في أحد الحوانيت . لو عرف بأنك ترغب باستئجار إحدى المزارع فيسطلب ثمناً باهظاً. ما عليك إلا أن تبقى صامتاً وسأتولى الأمر بنفسي» .

كان (بتلر) بالفعل جالساً في مخزن (بِن اشلي Ben Ashley) وهو يتحدث عن صيد الأسماك عندما مرّ به (كاونسل) وهو يسير باتئاد: «مرحباً (بتلر) ، أما زلت تتبجح ببطولاتك في الصيد؟ » .

ـ «أهلاً ستيف، كيف حالك؟ » .

ـ «لا بأس. إلا أن الأمطار شديدة الوطأة هذه الأيام وشعرت الليلة الماضية بأن البرد القارص والثلوج ستمكث معنا الى الأبد، وقد أتمكن من انجاز أعمال الحرث بشق الأنفس هذا الموسم. كيف يسير العمل في حقولك هذه الأيام؟ » .

ـ «ليس الأمر على ما يرام. فلم ينجز نصف الحرث» .

ـ «قد يكون من المستحسن أن تذهب أنت وتقوم بالعمل بنفسك» . أجاب بتلر وهو يغمز بعينيه «لست مضطراً الى القيام بذلك» .

ـ «هل عثرت على مستأجر لمزرعة (هجلي)؟ » .

ـ «كلا. هل تعرف أحداً يرغب باستئجارها؟ » .

ـ «أوه . كلا . ليس على وجه التحديد . إن أحد أقاربي من (مشيغان Michigan) يفكر في القدوم الى الغرب لبعض الوقت إلا أنه ما زال متردداً. يبدو أنه قد يقرر القدوم فيما لو حصل على عرض جيد. بكم تفكر باستئجار الحقل؟ » .

ـ «لا أعرف في الواقع. فقد أؤجرها نقداً أو لقاء جزء من المحصول» .

ـ «حسناً. كم تطلب من النقد ايجاراً لها؟ » .

ـ «لنقل ١٠٪ من سعرها ـ ٢٥٠ دولاراً» .

ـ «هذا في الواقع سعر معقول. وهل ستنتظر حتى موسم الدرس؟ ». أصغى (هسكنز) بلهفة لهذا السؤال المهم. إلا أن (كاونسل) كان يتحدث وهو يقضم تفاحة

مجففة كان قد التقطها بمديته من أحد البراميل. تفحصه (بتلر) بعناية ثم قال:

- «في الواقع إن هذا يحرمني من ٢٥ دولار قيمة الفائدة على المبلغ» . قال (كاونسل) وهو يتحدث بعدم الاكتراث نفسه:

- إن قريبي بحاجة الى كل سنت لديه ليتمكن من المباشرة بالعمل». وعندها قال (بتلر) : «وهو كذلك. أوافق على الانتظار» .

- «حسناً . هذا هو الرجل . (هكسنز) ، أقدم لك المستر (بتلر) وهو أكثر الرجال جديّة في العمل في مقاطعة (سيدر Cedar) ، وهو بالمناسبة ليس من أقارب (بن) » .

وفي طريق العودة الى البيت، قال (هسكنز) :

- «لا أشعر إن وضعي قد تحسن الآن. أرغب باستئجار تلك المزرعة لأنها جيدة إلا أنها مهجورة ومقفرة مثلي تماماً. بإمكاني أن أحولها الى مزرعة جيدة فيما لو كان لدي نصف هذا المبلغ. إذ لا يمكنني شراء البذور أو الماشية الآن». وهنا صاح (كاونسل) في أذنه: «لا تقلق يا رجل، سنعمل على مساندتك حتى موسم الحصاد القادم. لقد وافق على ايجارها محروثة وبامكانك أن تحصل على مائة دولار من أجور الحراثة وأن تحصل مني على البذور ثم تعيدها لي عندما تتمكن من ذلك» .

كان (هسكنز) صامتاً وهو يجيش بالعاطفة ، وأخيراً قال : «ليس لدي ما أعتاش عليه مطلقاً» .

- «لا تقلق حول هذا الأمر، يمكنك الاقامة في بيت (ستيف كاونسل) العجوز وستشعر زوجتي بالسعادة لوجود زوجتك وأطفالك قربها. إنك تعلم أن ابنتي (جين) قد تزوجت مؤخراً وأن (ايك) غالباً ما يكون خارج البيت، لذلك سنكون مبتهجين لو قضيتم هذا الشتاء معنا. وفي الربيع القادم، سنرى إن كان بإمكانكم أن تبدأوا حياة جديدة» .

ثم صفر بالخيول وعندها أسرعت وهي تجر العربة التي كان صوت عجلاتها ووقع حوافر خيولها يسمع من بعيد . وصاح (هسكنز) في أذن رفيقه : « اسمع يا (كاونسل) لا يمكنك القيام بذلك. لم أر في حياتي - » .

تململ (كاونسل) في مقعده معبراً عن عدم ارتياحه وقاطع محدثه الذي كان يعبر عن مشاعر الامتنان بتلعثم.

ـ «هيا . كف عن ذلك . ليس ثمة ما يبرر هذه الضجة الكبيرة حول هذا الأمر البسيط. كل ما في الأمر أنني إذا رأيت أحداً خذله الزمان فلا يسعني إلا أن أحاول انتشاله ودفع الأذى عنه. إن هذا هو ديدني في الحياة وهي العقيدة التي أؤمن بها» .

وبقيا صامتين لما تبقى من الطريق. وعندما أنير قنديل العربة الأحمر في تلك الليلة العاصفة، وتذكر المأوى الذي حصل عليه لأطفاله وزوجته، انتابت (هسكنز) رغبة شديدة لعناق رفيقه ذو البنية الضخمة واحتضانه كما يفعل المحبون. إلا أنه اكتفى بالقول: «ستيف كاونسل، سأجازيك على صنيعك هذا في يوم ما» .

ـ «لا أريد شيئاً بالمقابل. ديانتي لا ترتكز الى مثل هذه الأسس التجارية» .

كانت الأرض مغطاة بطبقة بيضاء من الصقيع والريح تشتد برودة عندما وصلا الى بوابة مزرعة (كاونسل)، وعندها انطلق الأطفال الى الخارج وهم يهتفون مرددين «بابا وصل». لقد تغيرت ملامح هؤلاء الأطفال، حتى بدوا يختلفون تماماً عما كانوا عليه عندما جلسوا الى مائدة الطعام في الليلة الماضية. إذ تبدد الخمول بفضل نور الشمس والسيدة (كاونسل) وحل محله الانشراح والنشاط، تماماً كما تدب الحياة لدى تعرض المخلوقات الصغيرة للدفء في فصل الشتاء.

٣

انكب (هسكنز) على عمله في المزرعة دون كلل أو ملل، تعاونه في ذلك زوجته البطلة الصغيرة التي لم تتذمر قط من تحمل الأعباء مهما بلغت قسوتها. وكانا ينهضان مبكرا ويكدحان دون انقطاع حتى حلول الظلام ثم يرتميان في الفراش وهما يشعران بألم شديد في كل عظم وعضلة في جسديهما. وكانا ينهضان مع شروق الشمس في اليوم التالي ليواصلا العمل المضني ذاته.

وكـان الإبن الأكبر الذي بلغ تسع سنوات من العـمر يقود الخيول طوال موسم الربيع، يحرث ويبـذر ويحلب الأبقـار ويقـوم بمـهمات لا يمكن حصرها. وكان يقوم مـقـام رجل بالغ في مـعظم الأعمال التي يؤديها. وكـان منظر مـثل هذا الصـبي الذي يثير الشـفـقـة مألوفـاً في المزارع الأمريكية حيث لا تتوافر أية قوانين تحول دون تشغيل الأطفال.

ومن المشـاهد التي تبعث على الألم في نفس كل من يقدم من المدينة رؤية طفل يرتدي الملابس الخـشنة والأحـذية الكبيرة والقـبـعـة المهلهلة وهو مـثقل بحمل جردل المـاء من البئر أو يخطو مـرهقـاً خلف الخـيـول وقت الفـجـر في ذلك الطقس البـارد الكئيب في الحـقـول المتجمدة. بيد أن (هسكنز) كان يحب ولده وكان يود انتشاله من هذا الوضع لو تمكن من ذلك ولكن لم يكن في اليد حيلة.

وعندمـا حل شـهر حزيران من السنة الأولى أخذت نتائج هذا الصراع الملحمي تبـدو واضـحـة في المزرعـة. لقـد تم تعـشيب الرحبة، ونثر البذور فيها. أما الحديقة فـقـد حـرثت واسـتـزرعت وانجـز ترمـيم البـيت. وكـان (كاونسل) قد أعطى عائلة (هسكنز) أربع بقرات.

ـ «خـذ البـقـرات ولنتقاسم الحصص فيما بيننا. لست بحاجة كبيرة الى الحليب لأن (آيك) غـالبـاً مـا يكون خـارج البـيت في أيام السبت والأحد ولا يمكنني العناية بها على أية حال» .

حـين رأى الآخـرون أن (كـاونـسل) يمنح المزارع الجـديد كـامل ثقـتـه أخـذوا يبـيـعـونه المعـدات بالدفع الآجل. ولما كان (هسكنز) مزارعاً متمكناً، فقد دلّل بسرعة على براعـتـه وحـسن تدبيره. وعـمـلا بمشورة (كاونسل) ، استأجر المزرعة لمدة ثلاث سنوات وله حق الخـيـار في شرائها أو تجديد عقد ايجارها عند انتهاء مدة العقد.

قـال كاونسل: «إنها صفقة جيدة وينبغي عليك استغلالها. وإذا ما أفلحت في إنـتـاج أي محصـول فـبإمكانك دفع نصف ديونك وأن تعـيش وتخزن مـا يكـفـيك من البذور و القمح» .

وعندمـا بدأت سنابل القـمح تتمايل وتهـتـز وهي تحدث حفيفاً عند هبوب رياح

تموز، أخـذ الأمل الجـديد الذي نما في نفس (هسكنز) وزوجـتـه يكبر ويتـعاظم حتى لكأنهما كـانا في انتظار المخـاض. ويوماً بعد آخر كان (هسكنز) ينسلّ الى الحقل بعد العشاء ليمتّع ناظريه لبضع لحظات.

وسأل زوجـته في إحدى الليالي وهو ينهض بعد العشاء:

ـ «هل رأيت القـمح اليوم يا (نتي Nettie) ؟ » .

ـ «كلا يا (تِـم).. لم يكن لدي الوقت لذلك» .

ـ «طيب. لدينا الوقت الآن. لنذهب ونلق نظرة عليـه» .

وضـعت (نتي) قـبـعة قديمة على رأسها، قبعة (تومي Tommy) وبدت جميلة بالرغم مما يشـوب وجـهها النحيل من حزن. وذهبت مع زوجها الى سياج الحقل.

ـ «أنظري الى هذا، ألا يبدو الحقل رائعاً يا (نتي)؟ » .

لقـد كـان المنظر رائعاً بالفعل، حيث امتد أمامهما الحقل الواسع كبحيرة مترامية الأطراف وهو يعج بحـفيف السنابل وبريقها الذي يتدفق حيوية وعافية حتى بدا هذا الحـقل الشـاسع أمـامهما كمروج الذهب الشهيرة التي لبست أبهى حللها ذات يوم في (بيكاردي Picardy) .

ـ «أعـتـقـد بل أرجو أن يكون محصولنا جيداً يا (تِـم) . آه لكم كان القوم هنا طيبين معنا! » .

ـ «نعم. ولا أعـرف مـا الذي كان سيحل بنا لولا (كاونسل) وزوجته» .

وقـالت المرأة الصغيرة وصوتها يتهدّج عرفاناً بالجميل:

ـ «إنهـم أروع أنـاس في هـذه الـدنـيـا» . وقـال (هسكنز) وهو يمـسك بأعلى السياج ، متخذاً هيئة من يقوم فعلاً بالحصاد:

ـ «سنشرع بحصاد الحقل يوم الاثنين، بكل تأكيد» .

لقـد كـان القمح وفيراً ورائعاً. بيد أن الرياح التي هبت جعلت عيدان السنابل تتـشـابك وتتجعد وهي تكاد تلامس الأرض مما ضاعف كثيراً من مشقة حصده.

لَكَم أنهكوا أنفسهم في العمل في تلك الأيام التي لا تنسى. فقد كانت ملابس (هسكنز) ومساعده الأجير تنضح عرقاً والأذرع المليئة بالأشواك البرية تئن من الألم والأصابع الخشنة تنزف دماً وهما ينوءان بالأحمال الثقيلة على ظهريهما. وكان (تومي) يقود الحاصدة بينما انهمك (هسكنز) والأجير برزم أعواد القمح خلفه. وتمكنوا على هذا النحو أن يحصدوا عشرة هكتارات كل يوم. وفي كل ليلة بعد العشاء، وبعد أن يأوي الأجير الى فراشه، يعود (هسكنز) الى الحقل، في ضوء القمر، ليصف الرزم على نحو قائم كي يجف الحصيد بسرعة. وقد قضى العديد من الليالي منكباً على شغله الشاق هذا حتى يضنيه التعب وكان يواصل عمله بدأب شديد ، لا ينقطع عنه حتى ينتاب القلق زوجته فتخرج وتدعوه للراحة وتناول بعض الطعام.

وكانت زوجته تعد الطعام للرجال وتعتني بالأطفال وتغسل الملابس وتكويها وتحلب الأبقار في الليل وتستخرج الزبدة من الحليب. وكانت في بعض الأحايين تقدم العلف والماء للخيول حين يكون زوجها منشغلاً بأكداس القمح. ولو أوكلت الأعمال المضنية التي كان (هسكنز) يؤديها، الى أحد العبيد الرومان لخارت قواه وفارق الحياة، بيد أن هذا الرجل كان يعد نفسه حراً وأنه كان يكد ويكدح من أجل حياة أفضل لزوجته وأطفاله.

وعندما كان يرتمي في فراشه، دون أن يقوى على تغيير ملابسه المتّسخة المبللة لشدة تعبه، كان يطلق زفرات تنم عن الشعور بالخلاص، والاقتراب أكثر فأكثر من امتلاك مأوى له ولعائلته وطرد ذئاب الفاقة عن داره.

ليس ثمة يأس يضرب في أعماق النفس مثل اليأس الذي يشعر به الانسان المشرد. أن يجوب المرء طرق الريف وشوارع المدينة، وأن يشعر أن ليس ثمة بقعة من الأرض يمكن له أن يريح قدميه فيها وأن يتوقف عند النوافذ المضاءة متعباً وجائعاً مستمعاً الى كركرات الضحك وصوت الغناء في الداخل. إن كل هذا مما يدفع الرجال لارتكاب الجريمة، والنساء للإرتماء في أحضان الخطيئة.

إن ذكرى أيام التشرد هذه والخوف من عودتها ثانية حدت بـ (تيموثي هسكنز) وزوجته (نتي) الى الإنكباب على هذا العمل المضني في السنة الأولى.

٤

قال (بتلر) وعيناه تجولان في الحديقة المتسّقة وحظيرة الخنازير، والمخزن المليء بالغلة:

ـ «ايه، نعم، هائل، أصبح لديك الوفير من الغلة والماشية، أليس كذلك؟». وكان (هسكنز) يطلع (بتلر) على مزرعته. ولم يكن (بتلر) قد رأى المزرعة طيلة العام الماضي، لأنه كان في (واشنطن) و (بوستن) مع صهره (آشلي) الذي انتخب عضواً في الكونغرس.

ـ «نعم، لقد صرفت مبالغ كبيرة خلال السنوات الثلاث الأخيرة، وصرفت مبلغ ثلاثمائة دولار لنصب السياج». وكان بتلر يردد «نعم، نعم..» اثناء حديث (هسكنز).

ـ «وكلفني المطبخ هناك مئتا دولار. أما مخزن الغلة فلم يكلف كثيراً من النقود إلا أنني قضيت وقتاً طويلاً في إصلاحه وحفرت بئراً جديدة كذلك».

ـ «نعم. نعم، أرى إنك قمت بعمل جيد».

وقال وهو ينظف أسنانه بعود قش «إن لديك من أعواد القش ما قيمته ألف دولار».

فأجابه (هسكنز) بتواضع: «تقريباً. لقد بدأنا نشعر أننا على وشك أن نملك مأوى خاص بنا. لقد بذلنا أقصى ما في وسعنا. نعم. لقد بدأنا نشعر بذلك يا مستر (بتلر) وسنحاول أخذ قسط من الراحة قريباً. إذ إننا نخطط لزيارة عائلة زوجتي بعد الانتهاء من أعمال الحرث في الخريف القادم.

أجاب (بتلر) وكان على ما يبدو يفكر بأمر آخر: «بالضبط، أعتقد أنك ربما فكرت في البقاء ثلاث سنوات أخرى أليس كذلك».

ـ «نعم، في الواقع سيكون بمستطاعي شراء المزرعة هذا الخريف فيما لو عرضت علي سعراً معقولاً».

ـ «أم، ايه، وما هو السعر المعقول في رأيك؟ » .

ـ «لنقل ربع المبلغ نقداً والباقي يدفع على مدى ثلاث سنوات» .

القى (بتلر) بنظره على الأكداس الهائلة من القمح الذي كانت تملأ الباحة، وكانت الفراخ تلتقط الجراد وهي تتعقبها مصفقة بجناحيها، وأصوات صرار الليل تنبعث من أكداس القمح على نحو مستديم. ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة وقال : «لن أكون متشدداً معك . ولكن ما الذي تتوقعه أن تدفع ثمناً لهذه المزرعة؟ » .

ـ «بالسعر الذي عرضته عليّ سابقاً ـ ـ ألفان وخمسمائة دولار». ثم أضاف، وقد رأى مالك المزرعة يهز رأسه بعدم الرضى: «أو ربما ثلاثة آلاف دولار» .

أجابه (بتلر) بصوت حازم دون أن يعبأ بما قاله (هسكنز):

ـ «إن قيمة هذه المزرعة خمسة آلاف وخمسمائة دولار» .

صرخ (هسكنز) مصعوقاً: «ماذا؟ خمسة آلاف. إن ذلك ضعف المبلغ الذي عرضته علي قبل ثلاث سنوات» .

ـ «بالطبع، وهذا هو ثمن المزرعة الآن، لقد كانت في السابق مهجورة ومهملة. أما الآن فإنها في أحسن حال. لقد ذكرت أنت بأنك صرفت مبلغ ألف وخمسمائة دولار على تطويرها» .

ـ «ولكن ما شأنك أنت في كل ذلك . لقد تحسنت المزرعة بجهودي ونقودي».

ـ «بل إن كل ذلك من شأني. إنها مزرعتي» .

ـ «ولكن ما الذي سيعوضني عمّا دفعت؟ » .

فأجاب (بتلر) وهو ينظر إليه ويبتسم بهدوء : «ألم تكن المزرعة تحت تصرفك؟ » .

وشعر (هسكنز) وكأن كيساً ثقيلاً من الرمل قد هوى على رأسه. ولم يعد بإمكانه أن يفكر. وتلعثم وهو يحاول أن يقول: «إلا أنني لم أستفد مما أنفقت عليه

نـقـودي. إنـك تـسرقـنـي. والأدهـى من ذلك لقـد وافـقت بل وعـدتني أن أشتري المزرعـة أو أؤجرها بنهاية السنوات الثلاث بسعر ـ » .

ـ «هذا صـحـيح . ولكنـني لم أقـل لـك بأنـني سأستمـر بتأجير المزرعـة لـك بـ (٢٥٠) دولار سنـويـاً أو أن تسـتـعـيـد ما صـرفتـه على التحسينـات والترميهات في المزرعـة . ومـهما يكن من أمـر فـقـد تضـاعـفت قـيمة الأرض وبامكانك أن تستأجر المزرعـة الآن بخـمسمائة دولار سنوياً أو تشتريها بخمسة آلاف دولار وإلا فعليك أن تخرج منها» .

وكـان يهم بالعـودة حين بادره (هسكنز) الذي كـان وجـهـه يتـصـبب عـرقـاً بالقول:

ـ «ولكنك لم تبـذل أي جـهـد في تحسينها، ولم تصرف سنتاً واحداً عليها أما أنا فـقـد صرفت مـا صرفت على أمل امـتلاكها. لقد أجهدت نفسي وأضنيتها وأنا أعمل على تطويرها. لقد كنت أكدح لنفسي ولأطفالي» .

ـ «ولكن لِـمَ لَـمْ تبـتـعـهـا عندمـا عرضتها عليك أول مرة ؟ ما الذي يقلقك الآن ؟ » .

ـ «إنـني أشـعـر بالمرارة لأنني سأدفع لك الثـمن مـرتين، على السـيـاج الذي نصـبته والمطبخ الذي بنيته والحديقة التي أحنيت ظهري على استزراعها» .

ضـحك (بتلر) ـ «مـا زلت ساذجاً أيها الشاب. تتحدث عن التحسينات. إن للقانون رأي آخر فيما تقول» .

ـ «ولكنني كنت أثق بوعدك» .

ـ «لا تـثـق بـأي شـخص يا صـديقي. ثم إنني لم أعـدك بأنني لن أقـوم بهذا الأمـر، لا تنظر إلي على هذا النحـو، يا رجل، لا تعـتبرني لصاً. إنه القانون، والأمر المتـعارف عليه، والكل يفعل ذلك» .

ـ «لا يهمني إن كان الجميع يفعل ذلك. لأن ما تطلبه مني هو السرقة بعينها، إنك تسلبني ثلاثة آلاف دولار من مـالي الخـاص فـضـلاً عما بذلته وزوجتي من جهد

في هـذه المـزرعـة» . وهنا أوشك (هسكنز) على الانهيـار. فلم يكن قـوي الحـجّة كـ (بتلر). وكـان بامكانه أن يواجـه الصـعـاب والعـمل الشاق إلا إنه ليس بمقدوره أن يواجه ملامح (بتلر) الماكرة.

ثم أجابه (بتلر) بهدوء: «إنني لا أستعيد المزرعة منك. كل ما عليك أن تفعله هو أن تسـتـمـر في عـملك كـالسـابق. أو تدفع لي ألف دولار نقـداً وترتهن المزرعـة بالمبلغ البـاقي بفائدة قدرها عشرة بالمائة» .

جلس (هسكنز) على نحـو لا شـعـوري على كـومة من الشوفان كانت بالقرب منه. وأخـذ يفكر بالأمـر منكسـاً رأسه ومحدقاً بعينيه في الأرض. لقد أصبح في قبضة الأسـد. وأحسَّ بخـدر مروع في قلبه وأطرافه. ولفّه ما يشبه الضباب ولم يعد بامكانه أن يرى أي مخرج له.

وشرع (بتلر) يخطو جيئة وذهاباً وهو يتفقد الأكداس الهائلة من القمح ويعاود أخـذ حـفنات منهـا ويدعكهـا بيـديه ثم ينفث قشرتها. وكان في غضون ذلك يدندن بأحد الألحان مع نفسه حيث لم يكن يبدو عليه إنه كان يستعجل الجواب.

لقـد كـان (هسكنز) يسترجع في ذهنه صور الأيام المضنية التي قضاها في العام الماضي حـيث جـالت في ذاكرته صورته وهو يكدح في الوحل والمطر خلف المحراث. وشـعـر بالغـبـار المتطاير من درس القـمح واستذكر بمرارة موسم تقشير الذرة برياحه القـارصـة وجليـده اللزج الموجع. ثم فكر بزوجته وكيف كانت تواصل تحضير الطعام واعداد الخبز برحابة صدر دون أن تتمتع بأي قسط من الراحة.

وجـاء صوت (بتلر) الماكر وهو يستفسر بنبرة خبيثة ـ «ما هو قرارك، إذن؟ ».

صـاح (هسكنـز) وهو يهـب من مكانـه : «أعتقـد إنك لـص كاذب غليـظ القلب» . وعندمـا رأى (هسكنـز) ابتسامـة (بتلر) الخبيثة ، انتفض كمن أصابه مس من الجنون. ثم وثب وأمسك بالمذراة وأشـهـرها بوجـهه منفجراً «لن يكون بمقدورك أن تسرق شخصاً آخر بعد الآن ، حلّت عليك اللعنة». وشرع يصك بأسنانه ويلقي بنظرة مـتوحشة لا رأفة فيها.

انكمـش (بتلـر) وأخـذ يرتعـد وهو ينتظـر ضربة مـاحقة . وتسمر في مكانه

مأخوذاً بنظرات الرجل الذي كـان يشعـر بالإزدراء تجاهه قبل ثوان . الرجل الذي تحول فـجأة الى شيطان منتقم. وفي لحظة الصمت الرهيب بين اشهار المذراة ووقع الضربة، تناهت الى سمع (هسكنز) ضحكة طفولية خافتة، ورأى في مخيلته، وجه ابنته الصبوح التي ولدت قبل عامين وهي تتمايل راكضة في عشب الحديقة أمام المنزل. وعندها، ارتخت يداه وهوت المذراة الى الأرض، وأخفض رأسه ثم قال:

- «جهّز أوراق العقد والرهن، واخرج من هنا، وإياك أن تطأ أرضي ثانية وإلا قتلتك» .

انسحب (بتلر) بسرعة جنونية، ووثب الى عربته وأطرافه ترتعد، وانطلق مسرعاً، تاركاً (هسكنز) وراءه، يجلس صامتاً على أكداس القمح التي تغمرها أشعة الشمس وقد أطبقت يداه رأسه الغائص .

* * *

أمــبـروز بــيــرز
(١٨٤٢ ـ ١٩١٤)

د. ضياء الجبوري

لمحة عامة :

إن (أمبروز بيرز) من أكثر الرجال غموضاً وغرابة في التاريخ الأدبي الأمريكي. ومنذ اختفائه في عام ١٩١٣ ظلت شخصيته محاطة بالعديد من الأساطير والأقاويل والتساؤلات التي لم تجد حلاً حتى يومنا هذا . ومهما اختلفَ النقّاد ومؤرخو الأدب في تفسير ظاهرة (أمبروز بيرز) فثمة اتفاق تام في وجهات النظر حول منطلقاته ومواقفه الفكرية التي بلغت من السوداوية والتشاؤم ما دفع الكثير من معاصريه الى تسميته بـ (بيرز المرير) .

حياته :

ولد (أمبروز بيرز) في بلدة (ميغز في ولاية أوهايو ، Meigs, Ohio) لأبوين مُعدمين أنجبا تسعة أطفال كان (أمبروز) آخرهم. وبعد أن أمضى طفولة تعيسة، انتقل الى كنتاكي والتحق بالأكاديمية العسكرية هناك. وعند اندلاع الحرب الأهلية، شارك في عدة معارك ونال رتبة أعلى بسبب تحمسّه وتفوّقه . وقد استوحى من تجربته في الحرب الأهلية هذه بعض أهم أعماله الأدبية .
وبعد انتهاء الحرب ، انتقل الى (سان فرانسيسكو) وأخذ يعمل بالصحافة. وقضى حياته متنقلاً بين العديد من الصحف والمجلات ، ومحققاً نجاحات متلاحقة ومؤسّساً علاقات واسعة مع رجالات الأدب في (سان فرانسيسكو) من مثل (مارك توين) و(برت هارت) و (جورج سترلنغ).
وبعد زواجه عام ١٨٧٢ ، سافر الى انجلترة وبقي فيها حتى عام ١٨٧٦ وهناك، كان ينشر مقالاته في الصحف اللندنية تحت اسم مستعار . وعند عودته الى الولايات المتحدة ، واصل

الكتابة بأسلوبه التهكمي القارص الذي عُرف به في مجتمع لندن . وكانت الأوضاع الاجتماعية والسياسية والأحداث اليومية تحظى باهتمام خاص لديه لا سيما في تحرير مقالاته الدورية أو في كتابة أعمدته الصحفية الثابتة.

كان (أمبروز بيرز) يكره ماضيهِ وغير قانع بحاضرهِ وينظر الى المستقبل نظرة تشاؤم . وكانت حياته سلسلة من المصائب والنكبات . ففي عام ١٨٨٩ قُتل ابنه البكر في نزاع مع شبّان بسبب إحدى الفتيات . وانتهى زواجه بالطلاق عام ١٨٩١ . وفي عام ١٩٠١ توفي ابنه الأصغر الذي كان مدمناً على الخمرة. وأخيراً انتهت حياته نهاية مأساوية غامضة حين اختفى دون أن يترك أثراً بعد سفره الى المكسيك عام ١٩١٣ . وأغلب الظن أنه توفي هناك عام ١٩١٤ .

أدبه ومساهمته في الأدب الأمريكي :

استلهم (أمبروز بيرز) الكثير من تجاربه الانسانية وحوّلها الى قصص لا تقل تأثيراً عن تلك التي كتبها سواه من الأدباء الذين عاصروه من مثل (ستيفن كرين) أو الذين كتبوا من بعده من مثل (أرنست همنغواي). ومن أشهر أعماله المنشورة ضمن المجموعة القصصية (في غمار الحياة In the Midst of Life) (١٨٩٨) قصته (تشيكاموجا Chickamauga) و(رصاصة الرحمة Coup de Grace) التي تتحدث عن بعض جوانب المأساة التي سببتها الحرب الأهلية الأمريكية.

ومن أهم أعماله الأدبية الأخرى (معجم الشيطان The Devil's Dictionary) الذي صدر أولاً تحت عنوان (مسرد المتهكمين The Cynic's Word Book) عام ١٩٠٦ الذي يطفح بالتهكم والسخرية المريرة النافذة.

ويمكن القول أن أهم انجاز أدبي لـ (بيرز) هو تمكنّه من اللغة واستنباط الألفاظ والمسميّات على غرار ما كان يقوم به كل من (اوسكار وايلد) أو (جورج برناردشو) في بريطانيا.

إن (أمبروز بيرز) نبي الشؤم في الأدب الأمريكي. وقد اختّط لنفسه سبيلاً أبدي الظلمة لا يفضي الى النور. وقد تملّكته الأفكار السوداوية والعدميّة واستبّدت به. ولم ينحرف في مسيرتهِ هذهِ الى الكتابة عمّا يبعث البهجة والأمل في النفوس.

رصاصة الرحمة

ترجمة : د. ضياء الجبوري

[نُشرت القصة القصيرة (رصاصة الرحمة Coup de Grace) ضمن مجموعته القصصية (**في غمار الحياة In the Midst of Life**) عام ١٨٩٨ . وتتسمّ هذه القصة بقوّتها في شد الاهتمام وتأثيرها في النفس من خلال وصفها لأدق التفاصيل المتصلة بالحدث . وإذا ما وجد القارىء أن بعض الصور فيها قد تثير لديه الرعب أو الغثيان فإن (أمبروز بيرز) قد نجح في مهمتهِ : تجسيد بشاعة الحرب وأهوالها] .

المحرر

كان القتال متواصلاً وعنيفاً الى الحد الذي تشبعت منه الحواس كافة ، وحتى الهواء كان يحمل طعم المعركة ، لقد قضي الأمر الآن ، ولم يبق سوى اغاثة الجرحى ودفن الموتى ـ «القليل من التوضيب» كما قال أحد الساخرين من مجموعة الدفن. بيد أن الأمر في واقع الحال كان يتطلب «الكثير من التوضيب» . فعلى مد البصر، وعبر الأغصان المتكسرة في الغابة، يمكن للمرء رؤية جثث الجنود والخيل. وكان رجال الاسعاف يتنقلون بينهم، ويقومون باخلاء أولئك القلة الذين ما زال فيهم رمق من الحياة على النقّالات التي كانوا يحملونها ، وقد توفي معظم الجرحى بسبب الإهمال الذي صاحب النقاش الدائر حول جدوى معالجتهم أو أحقيتهم في الحصول على العلاج . إذ كانت تعليمات الجيش تقضي بأن على الجرحى الانتظار وإن أفضل سبيل للإعتناء بهم هو الانتصار في المعركة . وينبغي الاعتراف هنا بأن النصر يمثل امتيازاً كبيراً للجرحى الذين يحتاجون للعلاج ، ولكن الكثيرين منهم لا يبقون على قيد الحياة للتمتّع بهذا الامتياز.

كانت الجثث تجمع وترتّب وفق صفوف من عشرة أو عشرين جثة وترصف

جنباً الى جنب بينما كانت القبور الجماعية تحفر وتهيأ لاستقبالهم. أما الجثث التي يتم العثور عليها بعيداً عن نقاط التجمع هذه فيصار الى دفنها حيثما وجدت . . . ولم تبذل مجموعات الدفن أي جهد يذكر للتعرف على هوية القتلى على الرغم من أن التعليمات كانت تقضي بضرورة الاهتمام بذلك . ومهما يكن من أمر فإن أسماء الموتى «المنتصرين» كانت في معظم الحالات تعرف وتدون في قوائم ، أما الموتى من «الأعداء» فيكتفي بوضع احصائية بعددهم . وقد أخذ هؤلاء القتلى كفايتهم من الاحصائيات : فقد تم حصرهم أكثر من مرة وكان المجموع العام لعددهم المثبت في التقرير الرسمي يشير الى ما يصبو إليه القائد المنتصر وليس الى واقع الحال .

وعلى مسافة قصيرة من الموضع الذي انتهت فيه إحدى فرق الدفن من حفر قبر جماعي، وقف ضابط في الجيش الاتحادي ، متكئاً على إحدى الأشجار : وبدا عليه أنه كان منهكاً من أخمص قدميه الى قمة رأسه ، وأنه توقف هناك برهة ليستريح . وكان يحرك رأسه باضطراب يمنة وشمالاً ، ويبدو أنه كان منشغل البال. فلربما لم يكن واثقاً من الاتجاه الذي ينبغي أن يسلكه. ومن المستبعد أنه سيظل هناك طويلاً، فشمس الغروب أخذت تبعث بأشعتها المستوية خلال أشجار الغابة، والجنود المتعبون شرعوا بالإنصراف من مواقع عملهم. ولن يتمكن هذا الضابط من قضاء ليلته هناك وحيداً بين جثث الموتى. فليس ثمة شك أنه ضل طريقه. فتسعة من كل عشرة رجال تلتقيهم بعد المعركة يطلبون منك ارشادهم الى إحدى الوحدات العسكرية الصغيرة جداً كما لو كان بالإمكان معرفة ذلك. ويبدو أن الضابط سيتبع إحدى مجاميع الدفن المنصرفة بعد أن ينال قسطاً بسيطاً من الراحة.

ولما غادر الجميع، سار الضابط الى أعماق الغابة باتجاه الغرب الذي كانت تنبعث منه أشعة ذات لون أحمر جعلت وجهه يبدو وكأنه ملطّخ بالدماء. وبعد أن استرد قواه، أخذ يسير بخطوات واثقة تظهر أنه على علم بالمكان الذي هو فيه، أما الموتى الذين كانوا على يمينه أو شماله، فلم يلتفت إليهم. ولم يكترث بالأنين الخافت الذي قد يصدر من أحد المصابين التعساء الذين لم تصلهم مجموعات الاسعاف بعد، والذين كان يتحتم عليهم قضاء ليلة قاسية في العراء ليس لهم من

رفيق سوى العطش. فما الذي يمكن أن يقوم به الضابط في مثل هذه الأحوال لا سيما أنه ليس بطبيب جراح وليس لديه ماء؟ .

وفي صدر منحدر لأحد الوديان غير العميقة ، لمح الضابط عدداً من الجثث المتناثرة . وفي الحال غيّر اتجاه سيره وانحرف نحوها مسرعاً وأخذ يتفحص الجثث الواحدة تلو الأخرى ، ثم توقف أخيراً قرب أحدها، كانت بعيدة بعض الشيء، قرب أجمة كثيفة من الأشجار الصغيرة. وبعد أن تفحّص الجثة بإمعان، بدت وكأنها تتحرك ، فانحنى الضابط واضعاً يده على وجه الجسد المسجى ، فانطلقت صرخة منه.

كان هذا الضابط النقيب (داوننغ مادويل) من فوج مشاة (ماساشوستس) . وهو من المقاتلين الأذكياء الذين يتسمون بالشهامة والجرأة .

وكان في هذا الفوج شقيقان أحدهما (كفال هولكرو) والآخر (كريد هولكرو)، فأما (كفال هولكرو) فكان عريفاً في سرية النقيب (مادويل). وكان هذا العريف والرائد صديقين حميمين. وكانا يقضيان جلّ وقتهما سوية بقدر ما تسمح به ظروف العمل من اختلاف في الرتبة والواجبات الى اعتبارات الضبط العسكري. ولقد صاحب الرجلان أحدهما الآخر منذ الطفولة لذلك لم يكن من السهل عليهما أن يفترقا. أما (كفال هولكرو) فإن أطباعه وميوله كانت بعيدة كل البعد عن الحياة العسكرية، لكن مجرد التفكير بالابتعاد عن صديقه كان مصدراً للقلق. ولذلك تطوع في سرية (مادويل) عندما كان الأخير برتبة ملازم ثان. وحصل كل من الصديقين على ترقيتين أثناء خدمتهما العسكرية. بيد أن الهوّة التي تفصل أعلى ضابط صف وأدنى ضابط كانت عميقة وشاسعة، فلم تعد الصحبة القديمة كما كانت من قبل وباتت مواصلتها من الأمور الصعبة.

أما (كريد هولكرو)، شقيق (كفال)، فكان ضابطاً برتبة رائد فوج، وكان رجلاً متهكماً مريراً بينه وبين النقيب (مادويل) نفور طبيعي حوّلته الظروف الى عداء شديد. ولو لا ضبط النفس المتأتيّ عن العلاقة التي تربطهما بـ (كفال)، لقام هذان الضابطان الوطنيان، دون أدنى شك، بتصفية أحدهما الآخر رغم ما يمثل ذلك من خسارة لبلديهما .

عند اندلاع القتال في صبيحة ذلك اليوم، كان الفوج يقوم بمهمة عسكرية على بعد ميل تقريباً من القوات المتجحفلة . وتعرّض الفوج في أثناء ذلك الى هجوم من الأعداء الذين حاصروه في الغابة. بيد أن أفراد الفوج لم يهزموا وقاوموا بضراوة، وفي إحدى فترات الهدوء التي تخللت القتال، قدم الرائد (هولكرو) الى النقيب (مادويل)، وبعد أن تبادلا التحية العسكرية قال الرائد: «أيها النقيب، صدرت أوامر العقيد بأن تتوجه وسريتك الى صدر هذا المنحدر وأن تتمركز في موضعك ذاك حتى يتم تبليغكم بالإنسحاب. ولا أظنني بحاجة الى تذكيرك بخطورة الموقف ولكن بامكانك، إن رغبت، أن توكل أمر هذه المهمة الى الملازم الأول في سريتك. ولا بد أن أبين أنني لم أتلق تعليمات بالموافقة على هذا التغيير الذي يمثل رأياً شخصياً» .

وازاء هذه الاهانة القاتلة ، أجاب النقيب (مادويل) بهدوء : «سيدي ، إنني أدعوك لمرافقة سريتنا ، فالضابط الخيّال يمثل هدفاً سهلاً للعدو ، وإنني ما زلت أتمنى لك الموت » .

إن سرعة البديهة، من الفنون التي تمّ تطويرها في الدوائر العسكرية منذ عام ١٨٦٢ . ومهما يكن من أمر ، فبعد نصف ساعة ، تعرضت سرية النقيب (مادويل) الى هجوم تراجعت في أثره عن صدر المنحدر بعد أن فقدت ثلث مقاتليها. وكان العريف (هولكرو) ضمن أولئك الذين خرّوا صرعى في هذه المعركة ، واضطر الجنود بعد ذلك الى الانسحاب الى موقع القوات المحتشدة. ولكن عند انتهاء المعركة، وجد المقاتلون أنفسهم على بعد أميال عديدة من ذلك الموقع. ويقف الآن النقيب بجانب مرؤوسه وصديقه .

كانت اصابة العريف (هولكرو) مميتة. أما ملابسه المتسخة فتبدو وكأنها قد مزّقت بعنف لتكشف عن بطنه وكانت بعض الأزرار التي انتزعت من معطفه منثورة بالقرب منه على الأرض إلى جانب بعض الخرق الممزقة من ملابسه المنتشرة حوله. وكان حزام الجلد الذي يتمنطق به مفتوحاً ، كأنه قد سحب من تحته بينما كان ممدداً على الأرض. ولم يكن هناك نزف شديد في الدم. والجرح الوحيد البادي للعيان هو الشق الكبير الذي يمزق بطنه والذي تلوث بالتراب وأوراق الشجر

الميّتة. وقد برزت من أحشائه عقدة صغيرة من الأمعاء، ولم يسبق للنقيب أن رأى مثل هذا الجرح طيلة حياته كلها ولم يتمكن حتى من مجرد تخمين الكيفية التي حدث فيها هذا الجرح أو يفهم ما أحاط هذا الحادث من ظروف: الملابس الممزقة على نحو غريب والحزام المفتوح، والبشرة البيضاء الملطخة بالدم. ثم انثنى ركبتيه وانحنى ليلقي بنظرة أكثر تفحصاً، وعندما نهض على قدميه أخذ يتلفت حوله وكأنه يبحث عن الأعداء. وعلى بعد خمسين ياردة، وعلى قمة تلة صغيرة فيها القليل من الشجر، لمح أجساماً سوداء عديدة وهي تتحرك بين القتلى من الجنود - تبين أنها خنازير برية. ثم أبصر النقيب أمامه هذه أحد الخنازير ، وهو يرفع كتفيه الى أقصى حد، فيما كانت طرفاه الأماميتان على أحد الأجساد البشرية. أما رأسه فكان منخفضاً وغير مرئي، وقد بدا ظهر الخنزير الكث الشعر كالح السواد ازاء شمس الغروب الحمراء. وهنا أشاح النقيب ببصره عن الخنزير وثبّت عينيه مرة أخرى على الشيء الممدّد الذي كان صديقاً له يوماً ما.

كان الرجل الذي تحمّل هذا العذاب الوحشي ما زال على قيد الحياة ، يحرك ساقيه بين الفينة والأخرى ويطلق أنيناً كلما تنفس . وكان يحدق بوجه صديقه باندهاش ويصرخ حينما يلمسه أحد ، ومن شدة ألمه ومعاناته فقد تمزقت الأرض تحته، وكان كفاه يقبضان على أوراق الشجر والتراب ، ولم يكن في وضع يتمكن فيه من التفوه بأي شيء ، كان من المستحيل معرفة فيما إذا كان يحس بأي شيء سوى الألم . فثمة صرخة ونداء في ملامح وجهه . أما عيناه فكانتا تصليّان وتبتهلان ، ولكن لأي شيء؟ .

لا يمكن لأحد أن يخطأ في تفسير ملامح العريف، وكثيراً ما رأى النقيب هذه الملامح في عيون أولئك الذين كانت شفاههم لا تزال قادرة على التماس الموت، وكان هذا الصريع - هذه القطعة من البشر التي كانت تتلوى من الألم، هذا العذاب المرير، هذا الذي جنى عليه الانسان والحيوان، هذا البطل الأسطوري الكسير الذي هوى - يتضرّع ، سواء بوعي منه أم لا، الى كل ما في الكون، بحواسه وجوارحه كافة، أن ينعم بالراحة الأبدية ويكون في طي النسيان. وكانت معاناته الشديدة توجّه نداءاً صامتاً الى الأرض والسماء، الى الأشجار والانسان بل الى كل ما هو

حي في الفكر والوجـود.

ولكن لأي شيء حـقـاً كـان يتضرع؟ الى مـا نمنحـه لأدنى المخلوقـات التي لا تشـعـر به والتي لا تتـمكن من أن تطالب به، ولا ننكره إلا على التـعـيسين من أبناء جنسنا فقط. إلى الهبة التي تمثل أعلى مراتب الشفقة والحنان : رصاصة الرحمة.

نطق النقـيب (مـادويل) اسم صديقه وكرر ذلك عدة مرات دون جدوى حتى خنقـتـه العبرة فـتوقف. وتساقطت دموعه التي أعمت عينيه على الوجه الشاحب تحته ولم تر عـيناه سـوى منظراً مـشـوشـاً لجسم يتـحـرك ويطلق أنّات تتخللها بين الحين والآخـر صرخـات نافـذة. فـاسـتدار ولطم جبينه بكفه، وابتعد عن ذلك الموقع، ولما لمـحـتـه الخـنازير، رفـعت خطومـهـا الملطخـة بالدم وألقت بنظرات مـريبـة لبرهة ثم أطـلـقـت نـخيراً أجـشـا على نحـو جماعي وتوارت بسرعـة عن الأنظار . ورأى أيضـاً حـصـاناً فـقـد أحـد أطرافه الأمامية بقذيفة مدفع وهو يرفع رأسه عن الأرض ويطلق صـهـيلاً يثير الشفقة. وعند ذاك تقدم (مادويل) وقد سحب مسدسه وأطلق رصاصة بين عـيني الحـيـوان المسكين وشرع يرقب احـتضار الحصان الذي بدا، على عكس ما تـوقـع، صراعـاً طـويـلاً وعنيـفـاً. ولكنه أخيراً أصبح سـاكناً دون حـراك. وارتخت عـضـلات فـمـه فكشـفـت عن أسنانه، ورسمت على وجهه تكشيرة مرتخية لكنها تثير الرعب، وبدا الحـصـان الذي كـان ممداً على أحد جانبيه أنه بات أخيراً ينعم بالراحة والسلام.

وفي أعلى التلة الصـغيرة التي لم يكن فـيها سوى أشجار قليلة، خبا النور الذي كـان يـنبـعث من شـمس الغـروب، وغـدت أشـعـة الشـمس السـاقطة على جـذوع الأشـجـار تميل الى اللون الرمادي الباهت في الوقت الذي بدت الظلال في أعالي هذه الجـذوع وكأنها طيـور سـوداء هائلة حطّت على الأشـجـار. وبدأ الليل يرخي سـدوله وكـان بين النقـيب (مادويل) والمعسكر مسافة عدة أميال من الغابة اللعينة، لكنه ظل واقـفـاً الى جـانب الحـصـان الممـدّد وقـد فـقد على ما يبدو احساسه بما يدور حوله، وكـانت عـيناه تحدقان في الأرض التي تحت قدميه. ويده اليسرى متدليّة بارتخاء، فيما كـان ما زال ممسكاً بالمسدس بيده اليمنى، وفجأة التفت نحو صديقه المحتضر ومضى مسرعـاً تجـاهه. وأثنى إحـدى ركـبتيه بجانبه وصوّب مسدسه نحوه واضعاً الفوهة على

جبـهة صديقه. وبعد أن أدار رأسه، سحب الزناد، بيد إن أية رصاصة لم تنطلق -- لقد استخدم آخر اطلاقة من أجل الحصان.

وهنا أخـذ المقـاتل المحـتضر يئن وارتعـشت شـفـتاه بشدة، وكان الرغاء الذي تقيأه بلون الدم.

نهض النقـيب على قـدمـيه واستل سيفه من غمده وبدأ يتحسس حافة السيف من المقـبض حـتى نهاية النصل. ووجّهه الى الأمام باستقامة وكأنه يختبر قوة أعصابه. ولم تكن هناك أية رعـشـة ملحـوظة في السيف، وكان نور السماء الخافت ينعكس على نصل السـيف دون أي تذبذب أو ارتجـاج ، وانحنى ليـمزق قميص صديقه المحتضر بيـده اليسرى ثم نهض ووضع نهاية النصل المدببـة فـوق قلبه تماماً، وفي هذه المرة، لم يحد ببصره عن صـديقـه. وبعـد أن أمـسك بالمقبض بكلتا يديه، غرز السيف وطعنه مـسـتـجمعاً كل قواه ومستعيناً بثقل وزنه أيضاً، وغاص النصل في جسم الرجل ومن خـلال الجـسم الى الأرض، وكاد النقيب ينكفىء إلى الأمام جراء ذلك. ورفع الرجل المحـتضر ركـبـتيه وفي الوقت نفسه مد ذراعه اليمنى على صدره وأمسك بالسيف حتى صـار لون مـفـاصل أصـابعـه أبيـضـاً، وحاول أن يسحب النصل بحركة عنيفة دون جـدوى، بل إن الجـرح صـار أكبر، واندفع نهر من الدمـاء أخـذ يجري متعرجاً على مـلابسـه الممـزقة. وفي تلك اللحظة، ظهر ثلاثة أشخاص من خلف الشجيرات التي كانت قد حجبت مقدمهم، كان اثنان منهم من مستشفى الميدان ويحملان نقالة.

أما الشخص الثالث فكان الرائد (كريد هولكرو) .

من : معجم الشيطان

ترجمة : د. ضياء الجبوري

[إن (معجم الشيطان The Devil's Dictionary) من المعاجم الغربية حقاً ذلك لأنه يختلف عن سواه من المعاجم إذ أنه ليس مرجعاً لغوياً بل عملاً أدبياً خلاّقاً يقرأ كما تُقرأ الرواية أو القصيدة أو المسرحية . وتتجلّ في ثنايا هذا المعجم ، النظرة الثاقبة للمؤلف وتمكنّه من رؤية الوجه الآخر للكلمة . وقد حاول أمبروز بيرز في هذا المعجم أن ينسف المعاني التقليدية للكلمات وأن يشحن المفردة الانجليزية بدلالات جديدة تزيد من فاعليتها وتأثيرها] .

المحرر

Academy (أكاديميّة) :

مدرسة حديثة لتعليم كرة القدم «الأمريكية» .

Accuse (اتَّهم) :

التشديد على تفاهة الآخرين أو على ذنبهم وغالباً ما يكون ذلك تبريراً لإساءتنا إليهم.

Achievement (إنجاز) :

نهاية العمل المثابر وبداية الشعور بالقرف.

Adherent (مُريد) :

ذلك التابع الذي لم يحصل بعد على كل ما يودّ الحصول عليه.

Admiration(إعجاب) :

الاعتراف على نحـو مؤدّب بأن الآخرين يشابهوننا.

Alliance (تحالف) :

في لغـة السيـاسـة الدوليـة : اتحاد بين لِصّين يد كل منهما في جيب الآخر مما يتعذّر على أي منهما نهب طرف ثالث.

Alone (وحيد) :

من يصـاحب رفاق السوء.

Amnesty (عفو) :

هو ذلك النبل الذي تظهـرهُ الدولة تجاه المذنبين الذين لو أصّرت على معاقبتهم لكلّفها ذلك فوق طاقتها.

Apologize (إعتذر) :

تمهيد السبيل لاقتراف ذنب في المستقبل.

Bride (العروس) :

المرأة التي خلفّت آفاق سعادتها وراءها.

Cannon (مدفع) :

جـهاز يستخدم لتعديل الحدود الوطنية بين الدول.

Clairvoyant (قارئة البخت) :

المرأة التي لديها القـدرة على رؤية مـا لا يتـمكن زبونها من رؤيتـه ـ إنه شديد الغباء.

Clergyman(القس) :

الرجل الذي يتعهّد بتنظيم شؤوننا الروحية كوسيلة لتحسين شؤونه الحياتية.

Compromise (حل وسط) :

محاولة التوفيق بين المصالح المتعارضة التي تجعل كل طرف يشعر أنه حصل أكثر مما ينبغي أن يحصل عليه ولم يُحرم إلا ما كان حقاً مشروعاً له.

Congratulation (تهنئة) :

لونٌ من الحسد المؤدّب.

Conservative (محافظ) :

هو السياسي الذي يعشق السلبيات والشرور الموجودة في المجتمع ، على العكس من السياسي الليبرالي الذي يرغب باستبدالها بسلبيات وشرور جديدة.

Consul (قنصل) :

في السياسة الأمريكية يعني: الرجل الذي يفشل في الحصول على وظيفة مثل بقية الناس فتتدخّل الدولة لإنقاذهِ بمنحهِ وظيفة حكومية شريطة أن يغادر البلاد.

Consult (استشار) :

السعي لنيل موافقة الآخرين على عمل تمّ التصميم على القيام به.

Diary (يوميّات) :

سجل يومي لبعض الأحداث التي يتمكنّ كاتبها من قراءتها دون أن يحمرّ وجهه خجلاً.

Dictator (دكتاتور) :

زعيم دولة تفضّل وباء الاستبداد التسّلطي على طاعون الفوضى.

Diplomacy (دبلوماسيّة) :

فن الكذب من أجل مصلحة الوطن.

Discussion (نِقاش) :

طريقة تؤكدّ فيها خطأ الآخرين.

Education (تعليم) :

كل ما يكشف للحكيم جهله ويخفي ذلك عن الأحمق.

Friendship (صداقة) :

سفينة تتسّع لشخصين حين يكون الطقس جميلاً ولشخص واحد حين يكون الطقس رديئاً.

Future (مستقبل) :

ذلك الزمن الذي تتحسّن فيه أحوالنا ، ويخلص لنا أصدقاؤنا ، وتتحقق سعادتنا.

Hand (كف) :

الآلة العجيبة التي تُرتدى في نهاية الذراع والتي كثيراً ما تُدَسّ في جيوب الآخرين.

Happiness (سعادة) :

مشاعر الارتياح المُستمدة من التأمّل في تعاسة الآخرين.

History (تاريخ) :

روايات معظمها مزيّفة لأحداث معظمها غير مهمّة ، أبطالها حكّام معظمهم من الأوغاد، وعسكريون معظمهم من الحمقى.

Magic(سحر) :

فن تحويل الخرافات الى نقود . وهناك فنون أخرى تهدف الى تحقيق هذا الغرض النبيل إلاّ أن المصنف المهذبّ للمعجم يحجم عن ذكرها.

Monday (الاثنين) :

في البلدان الأوروبية : هو اليوم الذي يلي لعبة البيسبول.

Ocean (محيط) :

كتلة من الماء تحتل حوالي ثلثي عالم صُمِّم لأجل الانسان ـ الذي ليس له زعانف.

Patience (صبر) :

أحد أشكال اليأس حين يتنكرّ بزي الفضيلة.

Peace (سلام) :

في العلاقات الدوليّة : فترة الخُداع الممتدّة بين فترتي قتال.

Philosophy (فلسفة) :

طريق كثير التشعب يمتدّ من اللامكان لينتهي الى اللاشيء.

Plan (خطَّطَ) :

اجهاد النفس للتوصل الى سبيل لتحقيق نتيجة عرضيّة.

Politeness (تهذيب) :

أكثر أشكال النفاق قبولاً.

Politics(سياسة) :

فن إدارة الشـؤون العامّة لتحقيق المنافع الخاصة وإظهار صراع المصالح على أنه صراع المبادىء.

Preference (تفضّيل) :

هو شـعـور أو موقف فكري يتم التوصّل إليه عن طريق الاعتقاد الخاطىء بأن هناك شيئاً أفضل من شيء.

وفي اثناء شرح أحـد الفـلاسـفـة القُدامى إيمانه بأن الحـيـاة ليـست أفضل من الموت، سأله أحد أتباعه: «لِمَ لَمْ يمت إذن؟ » فأجابه قائلاً: «الموت ليس أفضل من الحياة. إنه أطول منها» .

Success (نجاح) :

الخطيئة التي لا تُغتفر ضد زملائك.

Take (أخَذ) :

الحـصـول عن طريق القوّة. ومن الأفضل أن يكون ذلك عن طريق السرقة.

Truthful (صادِق) :

شخص غبي وغير متعلّم.

Year (سَنة) :

فترة زمنيـة من ثلاثمائة وخمس وسـتين خيبة أمل.

* * *

كيت شوبان
(١٨٥١ ـ ١٩٠٤)

د. ضياء الجبوري

لمحة عامة :

أمدّت المجموعات القصصيّة التي نشرتها (كيت شوبان Kate Chopin) التأريخ الأدبي الأمريكي بلوحات أدبية حيّة عن مختلف أوجه الحياة في أرياف ولاية لويزيانا. وعندما نشرت روايتها القصيرة الصحوة The Awakening (١٨٩٩) ، ثارت عاصفة شديدة من الاحتجاج ضد نزعة التحلل التي اتهُمت (شوبان) بالترويج لها. وكان لهذه الضجّة الكبيرة تأثير سلبي كبير في نفسها جعلها تعزف عن الكتابة . وظلّت هذه الرواية بعيدة عن رفوف المكتبات العامّة والخاصّة . ومن المفارقات إن هذه الرواية التي حجبت الصيت الأدبي عن (كيت شوبان) ونغصّت عليها أواخر سني حياتها هي ذاتها التي منحتها شهرة كبيرة وموقعاً أدبياً في سجّل الأدب الأمريكي بعد ذلك بنصف قرن تقريباً حين تفتّحت الأذهان وتوسّعت المدارك ونالت المرأة الأمريكيّة بعض ما كانت (شوبان) تدعو إليه.

حياتها :

قضت (كيت شوبان) معظم حياتها في مدينة (سنت لويس) في ولاية (لويزيانا) حيث كانت عائلتها تتمتع بمركز اجتماعي مرموق. وكان والدها رجل أعمال ناجح وأمها كاثوليكية متدينّة كوالدتها العجوز التي أخذت عنها الطفلة (كيت) البراعة والتفنن في سرد الحكايات. وعند بلوغ (كيت) مرحلة الصبا ، سعت الى تثبيت استقلاليتها بالإقدام على ممارسات لم تكن بنات جنسها يملكن الجرأة حتى على التفكير فيها في ذلك الوقت ، كالتدخين في الأماكن العامة والاختلاط بالجنس الآخر والتنزّه لوحدها في الشوارع دون مرافق.

تزوجت (كيت) من (أوسكار شوبان) وهي في العشرين من عمرها. وقضت العقد التالي من عمرها في (نيو اورلينز) حيث كان زوجها يشتغل في تجارة القطن. وهناك شهدت (كيت) عن كثب ازدهار تجارة زوجها تارةً وفشلها الذريع تارةً أخرى . ثم انتقلت معه الى الأرياف في شمال غرب لويزيانا وقضت هناك بعض الوقت . وفي عام ١٨٨٤ أي بعد سنة تقريباً من وفاة زوجها المفاجئة، عادت (كيت) الى (سنت لويس) لتمضي بقية حياتها فيها. وشاءت الأقدار أن تحرمها من شخص آخر عزيز على قلبها ، إذ توفيت والدتها في السنة التالية وهكذا وجدت نفسها وهي في الخامسة والثلاثين، أرملة مسؤولة عن رعاية أولادها الستة.

أدبها ومساهمتها في الأدب الامريكي :

شرعت (كيت شوبان) بالكتابة الأدبية على نحو جاد، ولا سيما القصص القصيرة، بعد وفاة زوجها . وقد استعانت في ذلك بتجاربها الغزيرة وقراءاتها الواسعة في الأدب الفرنسي وبخاصة نتاج الكتّاب الواقعيين من أمثال (زولا) و (موباسان) وغيرهم.

أصدرت (كيت شوبان) مجموعتين قصصيتين ، الأولى عام ١٨٩٤ بعنوان (أهالي المستنقعات Bayou Folk) وبعد ذلك بثلاث سنوات أصدرت مجموعتها الثانية (ليلة في أكادي A Night in Acadie) التي عززّت من السمعة الأدبية التي اكتسبتها بعد صدور مجموعتها الأولى. وكما فعلت (سارة جويت) و (ميري فريمن) عند تصويرهما لمنطقة نيوانجلند وتقاليدها ، فقد اهتمّت (شوبان) بالصبغة المحلية التي بعثتها الى الحياة من خلال تصويرها لعادات سكّان الأرياف وتقاليدهم ولهجاتهم في أريزونا . وفي عام ١٨٩٩ ، نشرت (كيت شوبان) روايتها القصيرة الصحوة The Awakening التي سبقت الاشارة إليها . وتتحدث هذه الرواية الجريئة عن شابّة تتمرد على واقعها الاجتماعي وتسعى لتحقيق استقلالها الفكري والاجتماعي وتوكيد حقّها بالتمتع بمباهج الحياة وانتهاج نمط سلوكي خاص بها. وأثار أسلوب (شوبان) في سرد المشاعر الحسيّة والايماءات الجنسيّة لبطلة الرواية (إدنا بونتليه Edna Pontellier) مشاعر العداء تجاه الكاتبة والكِتاب الذي وُصف بأنه «سقيم» و «مبتذل» و «مناف للسلوك القويم» .

يتّسم أسلوب (كيت شوبان) بالعفوية الصادقة وعدم التكلّف. ويُعرف عنها إنها لم تكن تحبّذ صقل أعمالها أو مراجعتها لأن ذلك، في رأيها، يشّوه العمل الأدبي. واتّسمت طريقة سردها للأحداث بالتشويق والطرافة على الرغم من أن قصصها القصيرة لم تكن خالية من بعض الهنات أو المثالب ، مثل الحبكة غير المحكمة أو التناول السطحي للحدث.

كانت حصيلة (كيت شوبان) الأدبية مائة وخمسين قصة قصيرة ومجموعة واحدة من القصائد التي لم يلتفت إليها القرّاء كثيراً.

ابن دزريـه

ترجمة : د. ضياء الجبوري

[تعالج قصـة (ابـن دزريـه Desiree's Baby) واحـداً من أهم الموضوعات تعقيداً في تاريخ العـلاقـات الاجـتماعـيـة في الولايات المتـحـدة . وتصـوّر جانباً من المآسي التي نتجت عن التشبث بمـفـاهيم لاإنسـانية كالتميز العنصري والاصرار على النقاء العرقي الذي ذهب ضحيته الآلاف من الأبرياء والطيبين قبل الحرب الأهلية وبعدها] .

المحرر

لما كـان الجـو لطيـفـاً في ذلك اليـوم ، فقد قررت المدام (فالمونده) التوجه نحو قـصر (لابري) لزيارة (دزريه) والطفل . إنه لمن المضـحك أن يكون لـ (دزريه) طفل الآن فـ (دزريه) نفـسـها لم تكن سوى طفلة صغيرة بالأمس القريب عندما عثر عليها المسـتر (فـالمـونده) وهي تغط في النوم في ظل الدعـامـة الحـجـرية عند بوابة القصر. وعندمـا أفـاقت الطفلة وهي بين ذراعـيـه، بدأت تصرخ «بابا بابا» وكان ذلك أقصى مـا كـانت تتـمكن من القـيام به. وظن بعض الناس أن الطفلة قد ضلّت طريقها إذ إنها كانت في عمر تتمكن فيه من المشي دون مساعدة. بيد إن الاعتقاد السائد هو أن جماعـة من أهالي (تكسـاس) قـد تركـوها هناك عن عـمـد وأنهم عبروا النهر بعربتهم المغطاة بالجنفـاص بالعـبّارة التي يمـتلكهـا (كـوتن مـيز) على مقربة من المزرعة. ومع مـرور الوقت، باتت المدام (فـالمونده) لا تؤمن بأي تفـسير لما حدث سوى أن العناية الإلهيـة وحـدها هي التي بعـثت بهذه الطفلة لتكون مـوضـع رعايتها لا سيما أن المدام (فـالمونده) لم تنجب أي طفل في حـياتها، وقد كبرت الطفلة وأصبحت جميلة ورقيقة ـ ودودة ومخلصـة ـ يعبدها كل من في القصر .

فـلا عـجب إذن أن يقع (ارمـون أوبني) في غرامها عندما رآها بينما كان ممتطياً

صهوة جواده وهي متكئة على الدعامة الحجرية ذاتها التي وجدت راقدة في ظلها قبل ثمانية عشر عاماً خلت . هكذا كان (آل اوبني) يقعون في الحب ـ فجأة وكمن أصيب بطلق ناري. ومبعث العجب أن (ارمون) لم يسبق له أن أغرم بها من قبل، فقد كان يعرفها منذ أن عاد به أبوه من باريس بعد وفاة والدته هناك وهو ما زال في الثامنة من عمره. إن المشاعر التي تفجّرت في داخله حينما رآها عند البوابة في ذلك اليوم كانت كاسحة كالانهيار الجليدي أو كحرائق الغابات أو كمن يندفع على نحو أهوج غير عابىء بأية عوائق مهما كانت.

كان المسيو (فالمونده) رجلاً واقعياً ، وكان يطلب التأنيّ والروية لا سيما فيما يتصل بأصل الفتاة المبهم . أما الشاب (ارمون) فكان يتأمل في عينيها دون أن يعبأ بهذا الأمر ، وذكّروه إن اسم عائلتها غير معروف. وما أهمية ذلك حين يكون هو قادراً على منحها واحداً من أقدم الأسماء وأعرقها في لويزيانا . وأرسل في طلب الهدايا وجهاز العرس من باريس . وجمّل نفسه بالصبر الجميل لحين وصول طلبيته، ثم تزوجا.

لم تكن المدام (فالمونده) قد زارت (دزريه) أو الطفل منذ أربعة أسابيع، وكما هي العادة، فقد أصابتها رعشة عندما برز قصر (لابري) فجأة أمام ناظريها. فقد كان قصراً يبعث على الحزن لأنه يفتقر لوجود سيدة تهتم به إذ أن (اوبني) العجوز كان قد تزوج في فرنسا حيث التقى زوجته. وكانت تعشق موطنها الى الحد الذي لم تفارقه أبدا حتى وفاتها ودفنها هناك. كان سقف القصر شديد الانحدار، أسود اللون يشبه غطاء المدخنة. وانتصبت بالقرب من هذا القصر أشجار البلوط الكبيرة التي تفرض هيبتها على الناظر، بأوراقها السميكة وأغصانها الممتدة التي كانت تحيط به وتلقي بظلالها الكئيبة عليه كالبرقع الذي يلف النعش. لقد كانت تعليمات الشاب (ارمون) التي يصدرها الى الخدم السود صارمة الى الحد الذي نسوا فيه أيام المرح التي كانوا ينعمون بها في أيام سيدهم العجوز المتسامح، الطيب القلب.

استلقت الأم الشابة التي كانت تستعيد عافيتها على الأريكة بردائها الأبيض الموشّى. أما الطفل الذي تحمله بين ذراعيها فقد غطّ في النوم اثناء رضاعته. وكانت

المربيّة السوداء التي تميل بشرتها الى الصفرة تجلس بجانب الشباك وهي تحرك مروحتها.

أحنت المدام (فالمونده) جسمها الممشوق فوق (دزريه) وقبّلتها وهي تحتضنها بحنان بين ذراعيها ثم التفتت الى الطفل.

وهتفت بفزع «ليس هذا طفلك! » .

وكانت الفرنسية هي اللغة المستعملة لدى عائلة (فالمونده) في تلك الأيام، وضحكت (دزريه) وهي تقول «لقد كنت أعلم إنك ستدهشين للسرعة التي كبر فيها هذا الخنزير الصغير . انظري يا أماه الى ساقيه ويديه وأظافره ، إنها أظافر حقيقية ، وقد اضطرت (زاندرين) الى تقليمها هذا الصباح ، أليس كذلك يا (زاندرين) ؟ » .

وبكل وقار أحنت المربيّة رأسها الذي كانت تلفه بوشاح وقالت: «بكل تأكيد يا سيدتي» . وأضافت (دزريه) : «إن صراخه يصمّ الآذان ، لقد استطاع (ارمون) أن يسمع صراخه من مسافة تصل الى قمرة (لابلانش) .

كانت عينا المدام (دزريه) مسمّرتين على الطفل طيلة الوقت، ثم تناولته بيديها واتجهت به نحو الشباك كي تتمكن من رؤيته بوضوح، وتفحّصت الطفل بإمعان ثم ألقت بنظرة حائرة على (زاندرين) التي كانت تشيح بوجهها محدقة عبر الحقول. وقالت مدام (فالمونده) وهي تعيد الطفل الى جانب أمه ببطء «نعم لقد كبر الطفل، لقد تغير أيضاً، ما الذي يقوله (ارمون) ؟» . وأشرقت وجنتا (دزريه) وقد غمرتها سعادة ما بعدها سعادة وقالت: «نعم إن (ارمون) أكثر الآباء فخراً في المنطقة وأعتقد أن مرد ذلك هو أنه رزق بمولود ذكر سيحمل اسمه على الرغم من إنه ينكر ذلك ويقول أنه سيشعر بالحب نفسه لو كان رزق بطفلة. ولكنني أعلم أن ذلك ليس صحيحاً وإنه يقول ذلك لكي يدخل السرور الى قلبي» . وواصلت (دزريه) حديثها وهي تدني برأس (فالمونده) لتهمس في أذنها : «لم يعاقب أي أحد منهم اطلاقاً منذ ولادة الطفل. حتى إن (نجريون) الذي تظاهر أنه أصيب بحرق في ساقه كي يستريح من العمل لم يعاقب واكتفى (ارمون) بالضحك وهو يقول إن

(نجريون) دجّال كبير . أوه يا أماه ، إنني أشعر بالفزع لفرط سعادتي» .

إن ما تفوهت به (دزريه) هو الحقيقة، فالزواج ومن ثم ولادة الطفل قد خفّف من طبع (ارمون) الحاد ونزعتهْ المتسلطة، وهذا ما جعل (دزريه) الرقيقة تشعر بسعادة بالغة لأنها كانت تحبه حباً جنونياً وكان إذا ما قطّب وجهه فإنها ترتعد من شدة حبها له . أمّا إذا علت وجهه الابتسامة فكان ذلك في نظرها أعظم هبة سماوية لها، ولم تشوه معالم وجه (ارمون) الأسمر الوسيم أية تقطيبة منذ اليوم الذي وقع في غرامها.

ولما أصبح عمر الطفل حوالي ثلاثة شهور، أفاقت (دزريه) في أحد الأيام وهي تشعر أن ثمة ما يعكّر صفو حياتها، وكان من العسير عليها في بادىء الأمر أن تدرك ماهيّة الخطر على الرغم من أنها كانت تشعر بنوع من القلق مبعثه الغموض الذي يلف الزيارات غير المتوقعة للسود والذي لم تستطع أن تجد تفسيراً له. ثم لاحظت تغيراً كبيراً في سلوك زوجها، ولم تجرأ على أن تطلب منه أن يفسره لها، إذ أخذ، عندما يتحدث معها، يتحاشى النظر إليها بعينيه اللتين خبا فيهما بريق حبه لها.

وأصبح كثير التغيب عن البيت دون مبرر، وعندما يبقى فيه فإنه يتجنّب أن يكون معها أو مع طفلها . وفجأة بدا كأن روح الشيطان قد تلبّسته في تعامله مع العبيد. وتمنّت (دزريه) الموت من شدة تعاستها.

وفي عصر أحد الأيام الحارة جلست (دزريه) وهي مرتدية ملابس المنزل وأصابعها تعبث بشعرها البني الناعم المنسدل على كتفيها، وكان الطفل يرقد شبه عار في سريرها الكبير المصنوع من خشب المهاغوني الذي بدا كالعرش المهيب بقبّته المبطنة بالحرير، ووقف الى جانب السرير أحد الصبيان من الخلاسيين أبناء (لابلانش) وهو شبه عار أيضاً، يحرك ببطء مروحة مصنوعة من ريش الطاووس، وفيما كانت (دزريه) تلقي بنظرات شاردة وحزينة على طفلها، باتت تتأمل بها أخذ يحيط حياتها من كآبة خانقة . فنظرت الى طفلها ثم الى الصبي الواقف الى جانبه ، ثم الى طفلها مرة أخرى ، وكررت ذلك عدة مرات ، وفجأة صدرت عنها صرخة لا إرادية، انطلقت بغير وعي منها، وتجمّد الدم في عروقها وتصبب وجهها عرقاً.

حاولت أن تتحدث الى الصبي الخلاسي، ولكنها وجدت نفسها عاجزة عن النطق أو الكلام في البداية، ولدى سماعه اسمه، التفت الى سيدته التي كانت تشير نحو الباب، فأطاعها ووضع المروحة الكبيرة الناعمة جانباً وانسلّ وهو يمشي على رؤوس أصابعه العارية على البلاط الصقيل.

وبقيت (دزريه) في مكانها دون حراك وهي تمعن النظر في طفلها وارتسمت على وجهها معالم الرعب.

وفي اثناء ذلك دخل زوجها الى الغرفة دون أن يلحظها، وتوجه نحو المنضدة، وشرع يفتّش في بعض الأوراق التي كانت تغطيها.

نادته باسمه (ارمون) بصوت حاد كان سيشعر به كالطعنة لو كان زوجها من البشر، لكنه واصل عمله دون مبالاة. وهتفت ثانية «ارمون» ثم نهضت وخطت نحوه وأمسكت بذراعيه وهي تتنهد قائلة: « (ارمون)، انظر الى طفلك، ما معنى هذا، أخبرني؟ » .

ارخى أصابعها من ذراعه ببرود ورقة وأبعد يدها عنه، صرخت (دزريه) يائسة: «أخبرني ما معنى هذا؟ » .

وأجاب بهدوء: «إن هذا يعني أن الطفل ليس من البيض، وأن ذلك يعني أيضاً أنك لست بيضاء» .

وفي الحال، أمدّها هذا الاتهام بجرأة غير عادية وشجاعة مكّنتها من انكار ذلك. فقالت وهي تمسك برسغه: «إن هذا كذب وافتراء، إنني بيضاء. انظر الى شعري، إنه بني، أما عيناي فهما رماديتان، يا (ارمون) إنك تعلم إنهما رماديتان، وبشرتي بيضاء، انظر الى يدي، إنها أكثر بياضاً من يدك يا (ارمون) » ثم انفجرت ضاحكة على نحو هستيري.

فأجابها بقسوة : «نعم بيضاء ، كبياض آل لابلانش» . ثم انصرف ليتركها وحيدة مع طفلها.

وعندما تمكنت من الإمساك بالقلم، كتبت الى المدام(فالمونده) رسالة يائسة:

«أماه، يقولون لي إنني لست بيضاء. (ارمون) أبلغني أنني لست بيضاء، بالله عليك أبلغيهم أن هذا ليس صحيحاً، لا بد أنك تعلمين أن ذلك ليس بصحيح، سأفارق الحياة، سأموت كمداً لا محالة، إذ لا يعقل أن أبقى حيّة وأنا على مثل هذه التعاسة».

وجاء الرد مقتضباً كالرسالة: «حبيبتي (دزريه) تعالي إلينا، عودي الى أمك التي تحبك، تعالي مع طفلك».

وحال تسلّم (دزريه) لهذه الرسالة، ذهبت بها الى مكتبة زوجها وفتحتها ثم وضعتها أمام زوجها على المنضدة. وبدت بجانبه كأنها تمثال من حجر أبيض: صامتة لا حراك فيها.

وبكل برود، ودون أن ينبس ببنت شفة، جالت عيناه فوق الكلمات المسطّرة، وعند ذاك سألت زوجها: «هل أذهب يا (ارمون)؟» وبدت نبرة صوتها حادة بسبب مشاعر الهلع والترقب.

ـ «نعم، اذهبي».

ـ «هل تريدني أن أذهب؟».

ـ «نعم. أريدك أن تذهبي».

وكان (ارمون) يشعر بأن السماء قد ظلمته دون وجه حق وشعر في قرارة نفسه أنه كان يثأر لنفسه من السماء عندما كان يفتت روح زوجته على هذا المنوال. وفوق ذلك كله لم يعد يشعر بأي حب تجاهها بسبب الضرر الذي أوقعته على اسمه وعلى عائلته دون وعي منها.

واستدارت كمن صعق من هول صدمة، وخطت نحو الباب ببطء وهي تأمل أن يطلب منها العودة. وقالت بصوت متهدج: «الوداع يا (ارمون)». ولم يجبها. وكان بصمته هذا يسدد آخر ضربة للأقدار.

وذهبت (دزريه) تبحث عن طفلها الذي كانت تحمله (زاندرين) في الشرفة الكئيبة، وتناولته من بين ذراع المربية دون أن تنطق بكلمة، ونزلت درجات السلّم

وخرجت تسير في ظل أغصان السنديان.

وحينها كانت الشمس تميل الى الغروب في ذلك اليوم التشريني ، وفي الحقول الممتدة الساكنة، كان المزارعون السود ما زالوا يقطفون القطن.

ولم تغير (دزريه) رداءها الأبيض أو نعليها وكانت خصلاتَ شعرها المتشابكة تعكس بريقاً ذهبياً بسبب أشعة الشمس التي تخلّلته، ولم تسلك الطريق الواسع المعهود الذي ينفذ الى مزرعة (فالموندة) البعيدة، بل أخذت تقطع الحقول المهجورة حيث أدمت الجذامة قدميها الناعمتين ومزّقت رداءها الرقيق ارباً ارباً.

واختفت بين أشجار الصفصاف وأعواد القصب الذي كان كثيفاً على ضفاف المستنقع الراكد، ولم تعد بعد ذلك أبداً.

وبعد عدة أسابيع ، حدث أمر ينطوي على بعض الغرابة في قصر (لابري) . ففي منتصف الباحة الخلفية التي جرى تنظيفها بعناية، ارتفعت ألسنة اللهب، وكان (ارمون) يجلس في الشرفة الواسعة المطلة على هذا المشهد، وكان بنفسه يناول عدداً من الزنوج المواد التي كان يطعم بها لهيب النار المتوقّدة.

وكان مما القى في النار، مهد من خشب السنديان، يبهر الناظر بجماله. وقبل ذلك التهمت النيران أنفس التجهيزات التي يمكن أن يحظى بها طفل. وبعد ذلك تلقّفت النيران أنواعاً مختلفة من الملابس الحريرية والمخملية والفضفاضة وغيرها. وتلى ذلك قذف مجموعة من الملابس الموشاة والمطرزة وأنواع القبعات والقفازات، فهدايا العرس وجهازه كانت أرقى الأصناف وأندرها.

أما آخر ما قذف الى النار فكان حزمة صغيرة من الرسائل ـ مجموعة من الكتابات البريئة التي بعثت بها (دزريه) في أيام خطوبتهما.

وفي الدرج الذي استلت منه الرسائل وجدت قصاصة من رسالة قديمة لم تكن من (دزريه) بل من رسالة كتبتها والدته الى أبيه، تشكر فيها السماء على الحب الذي يكنّه زوجها لها. قرأ (ارمون) القصاصة:

«ولكن أولاً وقبل كل شيء، فإنني أسبّح بحمد الله ليل ونهار لتمكّننا من ترتيب أمور حياتنا على نحو لن يتمكن فيه العزيز (ارمون) مطلقاً من أن يكتشف أن أمه التي تتفانى من أجله تنحدر من العرق الذي حلّت عليه لعنة العبودية».

إدْوِن أرلنغتن روبنسن
(١٨٦٩ ـ ١٩٣٥)

د. ضياء الجبوري

لمحة عامة :

على الرغم من أن (روبنسن) نشر العديد من القصائد في القرن التاسع عشر، إلا أنه لم يحقق أية شهرة تذكر حتى العشرينات من قرننا الحالي حين منح جائزة (بولتزر) للآداب عام ١٩٢٢ . ومن أهم ما يميز (روبنسن) عن سواه من الأدباء إنه كان جريئاً في طرحه للعديد من القضايا والموضوعات التي لم تكن وفق المعايير التقليدية «مادة صالحة للنشر»، لا سيا لوحاته الشعرية التي رسم فيها التعساء من الناس أو المحبطين أو ضحايا الوهم.

حياته :

ولد (إدْوِن أرلنغتون روبنسُن Edwin Arlington Robinson) في قرية (هيدتايد) في ولاية (مين) Head Tide, Maine عام ١٨٦٩ وقضى شبابه في (جاردنر Gardiner) القريبة منها التي خلدّها باسم (تلبري تاون Tilbury Town) في قصائده. التحق بجامعة هارفرد ولكنه تركها بعد سنتين بسبب ضيق ذات اليد . وعاد بعدها الى (جاردنر) لعله يكسب من نظم الشعر ما يعينه على العيش. وانكبَّ على دراسة الآداب الكلاسيكية بلغاتها الأصلية ، ودرس من الأدباء الأمريكين (وتمن وامرسن وهنري جيمز) الذين استوحى من كتاباتهم حب التفرد المبدع والمثالية التي كانوا يتغنون بها . أما من الأدباء البريطانيين ، فقد انجذب الى رؤية (توماس هاردي) المأساوية للحياة ، والى الواقعية السردية لشاعر القرن الثامن عشر المبدع (جورج كراب) .

وفي عـام ١٨٩٧ انتقل (روبنسن) الى نيويورك حيث قضى بقية حياته فيها. ومما يعرف عن هذا الشـاعـر أنه لم يكن شـغوفاً بالسفر أو التنقل ، وإنه لم يسافر الى أوروبا سوى مرة واحدة. أما في الولايات المتـحـدة فلم يذهب أبعد من (نيوانجلند) ومدينة نيويورك.

كـان (روبنسن) خـجـولاً ومـتـشـائماً ويمـيل الى العـزلة ولم يتزوج في حياته قط، ولم تستقر أوضـاعـه المـاديـة إلا في فـترة الانبـعـاث الشـعـري في مطلع العشرينات حين نال أرفع وسـام أدبي أمريكي كما سبقت الإشارة إليه.

ادبــه وشــعــره :

شـهـدت رحلة (روبنسن) الشـعـرية مـرحلتين مـتـمـيزتين ركـزّ في الأولى منها على الصبغة المحليـة لـ (نيـوانجلند) وأكثر فيها من رسم اللوحات الشعرية لنماذج بشرية كان الشاعر قد عايشها وعـرفـهـا عن كثب لا سيما الشخصيات التي كانت غريبة الأطوار والسلوك من أبناء جيرانه ومعارفه في القـرية التي نشأ فيها. أما في المرحلة الثانية التي بدأت بعد ١٩١٦ تقريباً فقد أصبح (روبنســن) يستلهم مـادتـه الشـعرية من القرون الوسطى ونتاجها الأدبي، لا سيما الأساطير المتصلة بالملك أرثر وفرسان المائدة المستديرة.

وعلى الرغم من أن (روبنسن) كـان يشـعـر أنه يعيش خارج عصره ، رافضـاً الأنماط الأدبية التـقليـدية للقـرن التـاسع عشر فـقـد كـان صـوته الشـعـري متميزاً بلغته الحديثة وبمفرداته المؤثرة وبالغـموض الذي لازم بعض كتاباته التأملية الحزينة.

ويعد (روبرت فروسـت Robert Frost) شـاعر الطبيعة الحزين من أهم الأدباء الذين تأثروا بكتـابات (روبنسن) وواصلـوا مـسيرته الشـعرية ، وأبدعوا في نظـم القصائد الوجدانية ذات النبض الانساني والايقاع المتكامل.

أصدر (روبنسن) أكثر من عشرين مجموعـة شعريـة ، كان من أشهرهـا : (أبـنـاء الـلـيـل Children of the Night (١٨٩٧)) و(الـكـابـتـن كـريـغ Captain Craig (١٩٠٢)) و(مديـنـة على النهر The Town Down the River (١٩١٠)) والمجـموعة الشعريـة Collected Poems (١٩٢٢)) و(الـرجـل الـذي تـوفـي مـرتـيـن The Man Who Died Twice (١٩٢٥)) و (ترسترم Tristram (١٩٢٨)). ومما يذكـر أنه نال جـوائز تقديرية على الدواوين الثلاثة الأخيرة.

مـــن

أبـنــاء الـلـيــل

ترجمة : د. ضياء الجبوري

[تظهر المجموعة الشعرية (أبنـاء الليـل Children of the Night) التي نشرت في عـام ١٨٩٠ نزوع الشـاعـر الى التشاؤم والنظر الى الجوانب المأساوية في الحياة. إلا أن ذلك لم يقعده عن الصراع من أجل بلوغ السعـادة وتحـقـيق الذات. ويكثـر الشـاعـر في قصائده من استخدام «النور والظلام» اللذين يمثلان طرفي التناقض في معادلة الحياة] .

المحرر

لأولئك الذين لم يبصروا النور،
تغدو الحياة تعاسة وظلام.
ويظل أبناء الليل
تائهين في المسلك الصعب.

فمنهم المنهار ومنهم الشديد،
وهنا بيت القصيد : إذ ليس ثمة منجى
للقلوب التي لا تـحُصى،
تلك التي تنشد سُدى، بر الأمان.

فإن لم يجنوا سوى المشقّة في هذه الدنيا
وتقطعت سبل الحياة
وإن لم يعد هناك

سوى الخنوع والتسليم باحكام القدر

لكان خير أن نركب بحر الحياة المريرة لنغرق
قبل أن تغرب شمس هذا النهار
لأن ذلك بربيّ أجدى
من أن نتيه في بحر الظلام.

فهيّا يا أبناء الليل !
هلموا الى النور والحياة ...
نزيح ضماد الجراحات القديمة
كي نخبر الأزمان من نكون.

* * *

ريتشرد كوري

ترجمة : د. ضياء الجبوري

حين يأتي ريتشرد كوري المدينة
نحن أبناء الرصيف دائمًا نرنو إليه.
كان يبدو ذا احتشام من رأسه لقدميه
نضر القسمات ، نحيفاً بجلال.

كان دوماً يرتدي ثوب الوقار
كان دوماً ذا مروءةً إن نطق
لكنه كان خجولاً حين يلقي بالتحية
ثم يمضي بإباء وشموخ.

كان موفور الثراء ـ لا يضاهيه الملوك
وافر العلم في كل الأمور
كم تمنينا نحن أبناء الرصيف
أن نكون ما كان عليه.

وكدحنا رُبَّ نور بعد ظلمة !
ومضينا جائعين نلعن العيش السقيم.
وسمعنا أن كوري ذات مرة
عاد للبيت في ليلة صيف ساكنة
ليفرغ في الرأس رصاصة.

* * *

صديقي كلِف

ترجمة : د. ضياء الجبوري

دعاني (كْلِف) صديقي ذات مرة للعشاء.
وما أن تناولنا لحوماً وحساء
وتذوقنا من المأكل ما لذ وطاب
حتى قدّم كأسين : الأولى نبيذ
والأخرى علقم.
ثم، من دون أن يترك لي أي خيار
أفرغ العلقم ليروي بهدوء ظمأه
ثم قال إن كأس الخمر لي.

وحين ذهلت مما قد فعل،
لم يجبني، ظل ينظر،
باسمًا ويقول هذا ديدنه.

ورغم أني أعرف صاحبي منذ زمان
تساءلت طويلاً : هل سأغدو يا ترى ... ذات يوم
مثله في هناء ومسّرة ؟

* * *

البيت المهجور

ترجمة : د. ضياء الجبوري

لقد ارتحلوا جميعاً من هنا،
والبيت يطويه السكون،
وليس ثمة ما أقول.

وعلى الجدران القديمة المتداعية
تعصف الريح، تردد:
لقد ارتحلوا جميعاً من هنا.

لم يعد هناك من يذكرهم
بمديح أو مذمّة
ليس ثمة ما أقول.

إذن لم أمْسَينا نحوم
حول عتبة البيت العتيق ؟
لقد ارتحلوا جميعاً من هنا.

وما انشغال البال في ذكراهم
غير مجهود عقيم وسراب
وليس ثمة ما أقول.

آه ، ليس سوى الخراب والدمار
في ذلك البيت على التلة.
فقد ارتحلوا جميعاً من هنا
وليس ثمة ما أقول.

* * *

قـصـة قـديـمـة

ترجمة : د. ضياء الجبوري

غريبٌ أنني لم أعرفه حينئذ
صديقي ذاك
لم أظهر له حينئذ
أي رمز للصداقة.

إنما عاتبته على فعلته
لأنه كان يروم
أن يُشعِرَني بأنني أحسده
على ما نال من حسن الثناء
لأنه أثنى علـيَّ.

لكم وددت لو أُنقِذ العالم من شروره
مرة، من شدة الغرور.
لكنني أدركت ما كان له من منزلة
بعد أن فات الأوان ـ بعد موته.

* * *

إدجـار لـي مـاسـتـرز
(١٨٦٨ ـ ١٩٥٠)

د. ضياء الجبوري

لمحـة عـامـة :

حين صـدرت المجـمـوعـة الشـعرية المسماة (سبون رفر Spoon River Anthology) أثـارت ضـجـة واسـعـة، حـيث هاجمها الكثير من النقـاد لأنهم رأوا فـيـهـا ما يشوّه الصورة المحبّبة للقرى والمدن الأمريكيـة الصـغيرة التي كانت مرسومة في أذهان الجميع. وقد ذهب البعض منهم الى اتهام (مـاسترز) أيضـاً اتهامـات عديدة لتناوله موضوع الجنس الذي كان يصفه الشاعر بأنه إحدى القوى الفـاعلة التي تحـرك المجـتـمع. بيـد أن شعبية هذه المجموعة الشعرية تصاعدت كلما ازدادت التهم الموجـهـه ضـده. وقـد أعـيدت الطبعة الأولى منها التي صدرت عام ١٩١٥ تسع عشرة مرة. وبعد أن هدأت هذه العـاصـفـة التي دامت سنوات عـديدة، كـانت قـصـائد (ماسترز) قد تبوأت موقعاً مـتميزاً في السجل الأدبي الأمريكي.

حـيـاتـه :

ولد (ادجار لي ماسترز Edgar Lee Masters) في بلدة (جارنيت Garnett) في ولاية كنساس عـام ١٨٦٨ . وانتـقلت عائلته حين كان صبياً الى ولاية (الينوي) . وهناك درس القانون ، وأصبح محامياً مثل والده يعمل في أحد المكاتب القضائية في شيكاغو.

كـان (مـاسـتـرز) من المهـتـمين بدراسة الأدب، وقد بدأ ينظم الشعر في مرحلة مبكرة جداً من حياتـه إذ كتب ما يزيد عن أربعمائـة قصيـدة قبل أن يبلغ الرابعـة والعشرين من عمره . وفـي شيـكـاغـو ، التقى بالعـديـد من الكـتـاب والمـثـقـفـيـن الذين كانـوا يعرفـون بـ «أدبـاء نـهـضـة

شيكاغو Chicago Renaissance» الذين كانوا يسعون لجعل شيكاغو مركزاً للأدب والثقافة والفنون . وقد نشر عدداً من الدواوين الشعرية بأسماء مستعارة أثناء ممارسته للمحاماة. وفي عام ١٩١٢ تفرّغ للكتابة الأدبية بعد أن ترك هذه المهنة الى غير رجعة بسبب الفضائح التي طالت شريكه في المكتب.

تزوج (ماسترز) مرتين، وله ثلاثة أطفال . وفي عام ١٩٢٠ غادر شيكاغو للاستقرار في مدينة نيويورك. ومضى سني حياته الأخيرة في فندق (تشلسي Chelsea)، مرتع الأدباء المفضل آنذاك.

شعره وموقعه في الأدب الأمريكي :

كتب (ماسترز) ما يزيد عن خمسين كتاباً ، اشتملت على عدد كبير من الروايات وكتب السير والمسرحيات فضلاً عن المجموعات الشعرية الكثيرة . بيد أن عطاءه الأدبي بلغ ذروته في مجموعة (سبون رفر) ، التي ضمّت أكثر من مائتي قصيدة يتحدث فيها الموتى عن القرية التي عاشوا فيها (سبون رفر) وعن العلاقات التي كانت تربطهم بأقرانهم. وأكثر ما يركزون عليه هو الكشف عن سرائرهم وحياتهم الخاصة وخبايا نفوسهم بكل جرأة وصراحة. وكان سكان هذه المدينة الصغيرة يدوّنون مراثيهم بأنفسهم من خلال اعترافاتهم. ويحاولون وضع الحقائق أمام القارىء دون تبرير أو تنميق . وتعبر هذه المجموعة أيضاً عن الاحباطات المريرة التي عانى منها المتحدثون جميعاً والتي صوّرها الشاعر على غرار ما كان يقوم به كتّاب المدرسة الطبيعية.

ألهمت قصائد (ماسترز) عدداً كبيراً من الأدباء الأمريكين لا سيما في العقد الثاني من قرننا الحالي. فقد شرع (سنكلير لويس Sinclair Lewis) و (شِروود أندرسن Sherwood Anderson) و(إدْوِنْ روبنسن Edwin Robinson) في توجيه النقد للحياة المنغلقة في المدن الأمريكية الصغيرة.

وباستثناء هذه المجموعة الشعرية ، فإن معظم قصائده الأخرى ، في نظر النقاد ، لم تكن سوى أصداء باهتة لبعض الشعراء الانجليز في القرن التاسع عشر من مثل (كيتس Keats) و(تينسن Tennyson) و(سوينبرن Swinburne) و(شيلي Shelley). بيد أنه ترك بصمات واضحة على الفن السردي . إذ كان لأسلوبه المتّسم بتكثيف الحدث وحيوية السرد والتركيز على أدق تفاصيل الحياة، أثر مهم في تطوير فن كتابة القصة القصيرة.

ومن أهم مؤلفات (ماسترز) الأخرى نذكر (الوادي الكبير The Great Valley) (١٩١٧) وهي مجموعة شعرية تظهر تأثر (ماسترز) بالشاعر الانجليزي الفكتوري (روبرت براوننغ)

وكتاب (مجموعة سبـون رفـر الجـديـدة The New Spoon River) (١٩٢٤) الذي احتوى قصـائد عـديـدة تتفاوت في جودتها ومجموعته الشعرية (قـصـائـد عـن الناس Poems of People) (١٩٣٦) التي اسـتـعـاد فـيها الشاعر بعضاً من شعبيته في التصوير الحي لنماذج متنوعة من الأشخاص الذين يمـثلون مختلف شرائح الحياة الأمريكية.

لـوسـيـنـدا مـاتـلـوك (*)

ترجمة : د. ضياء الجبوري

[يمكن تلمُّس مشاعر المرارة والاحباط في القصائد الثلاث الأولى المختارة من مجموعته المهمة (سبون رفر) . أما القصيدة الأخيرة (الصمت) فقد نشرت عام ١٩١٦ ضمن المجموعة الشعرية المسماة (قصائد غنائية وهجائية Songs and Satires) وهي قصيدة مؤثرة تصف الصمت على أنه أبلغ من الكلمات] .

المحرر

كنت أرتاد المراقص في (شاندلرفل)
وألهو مع الشبان في (ونشستر)
وذات مرة تبادلنا رفاق الرقص
وعند العودة، وفي إحدى ليالي الصيف
في ضوء القمر
عثرت على ديفز.
فتزوجنا وعشنا معاً سبعين حولاً
نلهو ونعمل ونحنو على الأطفال
الاثنى عشر.
وقبل أن أبلغ الستين من عمري
شاءت الأقدار
أن نفقد منهم ثمانية
كنت أغزل، كنت أنسج، كنت للبيت أنظّف

(*) لوسيندا ماتلوك هي جدة الشاعر ادجار ماسترز .

كنت للمرضى أداوي، كنت للزهر وللزرع أداري.
وعندما كنت أنشد الراحة والهدوء
فالحقول أجوب فيها حيث يشدو العندليب
وعلى مقربة من قريتي - سبون رفر
كنت للأصداف أجمع
وأقطف الأزهار وأعشاب الشفاء
أنادي التل والغاب
وللوادي الأخضر اغني
وعندما جاوز عمري الستة والتسعين
شبعت من هذي الحياة
وتوجهت الى دنيا السلام.
ما هذا الذي أسمع عن حزن وعن شقاء
عن غضب وعن سخط وخيبات الرجاء ؟
أيها الفتية والفتيات ... يا حائرون !
إن الحياة عنيدة .. ليس كما تتوهمون
فلكي تنهلوا من مباهج الحياة
عليكم أن تنبضوا حياة !

* * *

مـارغـريـت سـلاك (*)

ترجمة : د. ضياء الجبوري

كان يمكن أن أحققَ شهرةً مثل اليوت (**)
لكنه شؤم القدر.
تأمل صورتي هذي
صوّرها أحذق الفنانين طرا
اسند الذقن بكفي
الى عينيّ انظر :
فهما غائرتان حائرتان
رماديتان كعينيها تماماً.
ولكن ثمة المعضلة الأبدية
أعزوفٌ، اقترانٌ ـ أم ملذّات نجاس ؟
وشاءت الأقدار أن يخطب ودّي (جون سلاك)
أحد تجار الدواء الأثرياء
وأغواني بحياة أنذر فيها كل وقتي للكتابة
فتزوجت ثم أنجبتُ ثمانية.
لم يعد لي بعدها أي وقت للكتابة.
وتلاشى بعدها أروع أحلامي
ثم جاءت وخزة الإبرة في كفيّ

(*) كـاتبة وصحفية (١٨١٠ ـ ١٨٥٠) اشتهرت بأفكارها التحررية ودفاعها عن المرأة الأمريكية.

(**) جـورج اليـوت: روائية انجليزية، اسمها الحقيقي (ماري آن ايفنز) كانت تنشر رواياتها باسم مستعار هو (جورج اليوت).

حينما كنت أنظف،
أغسل الأوساخ عن أشياء طفلي.
ثم فارقتُ الحياة .

يالسخرية القدر
هيا اسمعوني جيداً يا طامحون
إنما الجنس بلاء في الحياة.

* * *

دوك هــل

ترجمة : د. ضياء الجبوري

لطالما جبتُ الشوارع
في المجيء والذهاب
هنا وهناك في الليل والنهار
وكنت في الليل أداري
من الفقراء من خرَّ مريضاً.
أتعرفون يا ترى أسباب ذلك ؟
زوجتي تكرهني، وأما ولدي
فقد حلَّ به الدمار
فاتجهت صوبَ الناس
لأغمرهم بحبي
ولكم سررت
حين أبصرتُ حشوداً يوم موتي
يهمسون بحبهم لي، بالحزن
ولكن يا الهي،
ما هذه الخلجات التي ارتعشت لها روحي
وتعثّرت اثرها خطواتي، في عالمي الجديد
حين لمحتُ (ايم ستانتن)
خلف شجرة البلوط
الى جانب قبري
تخفي نفسها،
وتكتم الحزن عن الناظرين.

* * *

الصمت

ترجمة : د. ضياء الجبوري

أعرف صمت البحر والنجوم
وصمت المدينة حين تغفو
وصمت المعدمين
والصمت الذي تفتح الموسيقى مغاليقه
وصمت الغابات قبل هبوب رياح الربيع
وصمت السقامى
حين يجيلون في الغرفة البصر
وأسأل نفسي: هل يمكن للألفاظ أن تسبر الأغوار ؟
فحيوان الحقل يئنّ مرات قليلة
عندما يأخذ الموت صغاره.
ونغدو صامتين حين تحضر الحقيقة.
لا نقوى على الكلام

* * *

ويسأل صبي ذو فضول محارباً قديمًا
جالساً عند حانوت البقالة
يا ترى، «كيف فقدت ساقك؟»
ويصعق الصمت هذا المحارب القديم
ويلوذ ذهنه بالفرار
إذ ليس بمقدوره التفكير بـ (جيتزبرغ)
ومازحاً يعود :
«أكلها الدب» يقول.
ويعجب الصبي، ويسترجع المحارب المسكين.
صامتاً، وميض الرصاص ورعد المدافع

واستغاثات الجراح
وهو في الأرض ممدّد
وسكاكين الطبيب
ورقاد السقم في الليل الطويل
آه لو كان بمقدور المحارب أن يصف كل ذاك
لغدا في عداد الشعراء
ولكن لو غدا هذا المحارب شاعراً
زادت جراحات الألم
وأمسى عاجزاً عن وصفها

* * *

هناك صمت الحقد الدفين
وصمت الحب العظيم
وصمت صفاء السريرة العميق
وصمت صداقة مريرة
وهناك صمت النفوس الأسيرة
يبعث في الروح المعذبة الشقيّة
رؤى تحبس الألسن
تسمو بها الروح وتعلو
وصمت الآلهة الذي فيه يجري الحديث
هناك صمت الهزيمة
وصمت المعذبين دون ذنب
وصمت أولئك المحتضرين
يمدّون الأيادي متشبثين
وثمة صمت بين الإبن وأبيه
حين يعجز الأب عن تفسير مغزى حياته
حتى حين يُساء فهم هذا الصمت.

* * *

وهناك الصمت بين الزوج والزوجة
وصمت العاثرين
والصمت الرهيب الذي يلف
الأمم الكسيرة والقادة المغلوبين
وهناك صمت (لنكن)
متذكراً أيام فاقته
وصمت (نابليون)
بعد (واترلو)
وصمت (جان دارك)
يهتف من بين اللهيب: «رحماك ربي»
يفصح في اللفظتين كل الحزن والرجاء.

* * *

وهناك صمت الزمان البليغ
يطفح بالحكمة، لا يقدر اللسان
ان يصفه لمن لم يعش
كل آفاق الحياة.
وللأموات صمت
فإن لم يك بمقدورنا الكلام
نحن أبناء الحياة،
عن تجاربنا العميقة
لِـمَ هذا العجب إذن
حين لا ينطق الموتى عن الموت بشيء ؟
ولسوف نفهم صمتهم
حين نخطو نحوهم.

* * *

آن روتـلـدج (*)

ترجمة : د. ضياء الجبوري

منيِ، أنا الحقيرة المجهولة،
أنغام الموسيقى الخالدة؛
«لا أضمر السوء لأحد، وأكنّ الحبّ للجميع» .
مني صفح الملايين عن الملايين،
ووجه الأمة السخي
المشرق بالعدالة والحق.
أنا آن روتلدج التي ترقد تحت هذه الأشواك
والتي أحبني ابراهيم لنكولن في حياتي،
وتزوج مني، ليس باتحاد،
بل بانفصال.
دومي الى الأبد، أيتها الجمهورية،
من تراب صدري !

* * *

---

* ترجمة: يوسف الخال ديوان الشعر الأمريكي/ دار مجلة شعر/ بيروت : ١٩٥٨ .

القرن العشرون

عصر الحداثة

بقلم : د. عصام الصفدي

من العوامل التي تسهل مهمة من يتصدى لتقديم الادب الحديث أو المعاصر للقراء حداثته أو معاصرته. فالقراء، وعلى درجات متفاوتة ، يجدون في ذلك الأدب انعكاساً لحياتهم ولمشاعرهم ومشاكلهم . وكون الأدب الحديث الذي أحاول تعريف القارىء العربي به في هذه المقدمة أمريكياً يزيد من سهولة هذه المهمة . فقد ساهمت وسائل الاعلام الحديثة من تلفاز واذاعة وسينما وصحافة في جعل الثقافة الامريكية وطريقة الحياة الامريكية مألوفتين في جميع انحاء الارض. ولكن الصعوبة في تقديم الأدب الامريكي الحديث للقارىء العربي ، وهي صعوبة يواجهها كاتب المقدمة لا قراؤها ، هي في اختيار الأعمال التي تمثل القرن الذي نعيشه . فإن كوننا نعيش هذه الفترة تفقدنا القدرة على الابتعاد عن الأدب ـ اعني الابتعاد بشكل مجازي ـ ومثل هذا الابتعاد ضروري لتوضيح الرؤية وتحديد المنظور . قد يبدو أحد الشعراء المعاصرين شديد الاهمية لمن يؤرخ للأدب الأمريكي في أوائل التسعينات . ولو أعاد هذا المؤرخ نفسه النظر في الموضوع بعد ثلاثين أو حتى عشرين عاماً ، لما اعطى لذلك الشاعر نفس الاهمية او الاهتمام .

* * *

لعله مما يناسب روح القرن العشرين أن تبدأ مقدمته بذكر بعض الحقائق والارقام عنه ، فهو عصر العلم الذي تسحره الارقام وآلاتها الحاسبة . أطل القرن العشرين على الولايات المتحدة وعدد سكانها أقل من ٧٦ مليوناً يعيش اكثر من ثلثيهم في المزارع والمناطق الريفية . اما السيارة،

هذا الاختراع الذي سرعــان ما غير معالم الحياة في امريكا وفي العالم بأسره، فكانت ما تزال تحبو. كــانت العربات التي تجرهـا الخيول هـي الســائدة ، اذ لم يتجـاوز عـدد السيارات في طول البلاد وعرضهـا ٨٠٠٠ سيارة . ولا يكاد المرء يصدق عينيه إذ يقرأ أن طول الطرق المعبدة في الريف لم يزد عن ١٥٠ ميــلاً في ذلك الحيـن . كم تبدو غريبةـ هذه الأرقــام إذا ما قورنت مع احصــائيات الامس القريب . ففي عــام ١٩٨٩ تجاوز عدد سكان الولايات المتحدة ثلاثة أضعاف عدد سكانها في بداية القـرن الحالي ليبلـغ ٢٨٦ مليونا تعيش اغلبيتهم العظمى في المدن وفي تجمعات حضرية . ويملك هؤلاء حــوالي ٢٠٠ مليون سيارة تسير على ٣ ملايين ميلاً من الطرق والشوارع المعبدة . وقــد يصاب بالذهول أولئك المهاجرون الذين قدموا الى البــلاد مستوطنيـن قبل ثلاثــة قــرون لو بُعـثوا أو عَرفوا ان مساحة الطرق المعبدة اليوم تزيد عن مســاحة ما تبقــى من الغابــات العــذراء التي ارهبتهم كثافتها وامتدادها وحيواناتها المتوحشة .

مــا يهمنا من هذا هو مــلاحظة السرعــة الفائقة بل التسارع الذي تمت فيها تلك التغيرات المادية التي كــانت توازي الزيادة الهائلة في عــدد السكان والناتجــة عن موجات الهجرة العارمة . هذا يدعــو الى العــجب . أمــا مــا يدعــو الى الاعــجاب فهو مقدرة البلاد الفائقة على استيعاب تلك التــغيرات الشــاملة لجـميع مجالات الحياة وعلى التعبير الجيد عن روحـها وهويتها في خضـم تلك الظروف المتقلبة وذلك بنتاج أدبي سيكون محور اهتمامنا في الصفحات التالية .

لابد لمن يطلع على تاريخ الادب الامــريكي او على احــدى المجموعات الادبية المشابهة لهذه المجــموعة أن يقرأ مقولة تفيد بأن امريكا المعاصرة ، اي امريكا القــرن العشــريــن ، تختلف عن امــريكا القرن التاسع عشر اختلافاً بينا . ورغم ان هذه المقولة مقبولة اجمالاً في مجال الدراسات الامــريكيـة ومنهــا الدراســات الادبيــة ، فــلا بد من ابداء بعض الملاحظات حولها حتى لا تقــود القــارىء العــربي الى اســتنتــاجــات خاطئــة . واول هذه الملاحظات ان هذه المقولة لا تعني بتاتاً انقطاعــاً تامــاً في المجــال الأدبي والثقافي عموماً بين امريكا القرن التاســع عشر وامريكا المعاصرة . فــالقلق الروحي وكذلك الفكر التشككي في امريكا المعاصرة ، حسب رأي مؤرخي الفكر والفلسفة، يضربان بجذورهما في فكر القرن الماضي سواء في امريكا او في اوروبا .

لقد ساهم العديد من الأدباء الانجليز مثل توماس هاردي Thomas Hardy وماثيو آرنولد Matthew Arnold، في نشر هذين الاتجاهين اللذين انتقلا الى امريكا عبر كتابات فلاسفة امريكيين مثل وليم جيمس William James وجورج ســانتــايــانــا George Santayana وكذلك عبر كتابات أدباء امريكيين مثل ثـيــودور درايــزر Theodore Dreiser وغيره . والملاحظة الثانية هي ان روح الثــورة على الأوضــاع الاجـتماعية والاقتصــادية في أدب القرن العشرين هي في الحقيقة استمــرار لروح مماثلة لدى كتّاب القرن الماضي من مثل مارك تويـن Mark Twain وســواه . أما ثالث هذه

الملاحظات فإن المدرستين الفلسفيتين / الأدبيتين المعروفتين بالواقعية والطبيعية Realism and Naturalism اللتين اعطتا الفترة السابقة من الأدب الامريكي طابعها المميز استمرتا في القرن الحالي في استلهام دوستويفسكي Dostoevski وبلزاك Balzac وزولا Zola وهاردي وإبسن Ibsen من اعلام القرن الماضي . واخيراً فإن كتّاب القرن العشرين ونقّاده اعطوا مكانة بارزة لإدجار ألن بو Edgar Allan Poe وهرمان ملفيل Herman Melville والت ويتمان Walt Whitman واميلي ديكنسون Emily Dickinson وهم جميعاً من اعلام ادباء القرن الماضي . كان بعضهم قد أسدل عليه ستار النسيان والبعض الآخر بحاجة الى اعادة التقييم ورد الاعتبار ، وهو ما حصل فعلاً في القرن العشرين .

لابد من الالتفات لأمر آخر بعد أن تم توضيح الصلة بين امريكا المعاصرة وامريكا القرن التاسع عشر ، ألا وهو تحديد النقطة التي يفترض ان تبدأ بها امريكا المعاصرة . ويكاد يجمع دارسو الادب الامريكي ان نقطة البداية هذه ليست عام ١٩٠٠ أي بداية القرن الحالي بل هي ١٩١٤ أي بداية الحرب العالمية الاولى . وهناك من يذهب الى أن عام ١٩١٧ ـ وهو تاريخ دخول امريكا الحرب ـ هو نقطة البداية. ولا شك ان الحرب العالمية الأولى ، نظراً لخطورتها ولعالميتها ولشمول دمارها واختلاف طبيعة أسلحتها ولاشتراك امريكا بها ، وهي أول مرة تشارك فيها في شأن اوروبي على هذا المستوى من الأهمية ، لا شك أن تلك الحرب هي الفاصل بين العصرين .

والواقع ان الأدب الامريكي في فترة ما بين الحربين العالميتين قد بلغ ذروة توازي ان لم تتفوق على الذروة التي بلغها في منتصف القرن التاسع عشر في منطقة نيو انجلند New England ـ وهي الفترة التي تعارف مؤرخو الأدب على تسميتها باسم عصر الأدب الكلاسيكي الامريكي او العصر الذهبي للأدب الامريكي او عصر النهضة ، الى غير ذلك من الاسماء ذات الدلالات المتشابهة . غير ان الادب الامريكي بدأ في فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى يصبح أدباً وطنياً امريكياً وليس أدباً محلياً مرتبطاً بأية منطقة سواء نيو انجلند او غيرها . وما اود توكيده هنا ان تميز الأدب الجديد لا يعني انقطاعاً تاماً عن الأدب الامريكي في القرن الماضي وان تقدمه وازدهاره ما كان بطفرة عابرة . لقد بينت أعلاه صلة الأدب الامريكي الجديد بالأدب الامريكي في القرن الماضي (اعتبار ملفيل وويتمان وديكنسون أمثلة تحتذى ومنابع يرشف من معينها) وكذلك استمرار بعض كتاب القرن الماضي بالكتابة في هذا القرن . وذكرت كذلك تعرض الأدب الامريكي في القرن الماضي لبعض التأثيرات الأدبية والفكرية الاوروبية . فيمكن القول ان بعض معالم أدب ما بعد الحرب في امريكا قد تحددت في السنوات السابقة للحرب . ولابد لبيان ذلك من إلقاء نظرة سريعة على الأدب الامريكي منذ مطلع القرن ، أي قبيل بداية الأدب الامريكي المعاصر.

شـهـد العـقـد الأول من القرن العشرين تراجعاً في نوعية الأدب الامريكي . ازدهر في هذا العـقـد ذلك النوع من الأدب المعـروف باسم أدب التشهير وهمه الرئيسي فضح الفساد وأساليبه وغـاياته المشبوهة التي كانت مسيطرة في القطاع الخاص من ميادين التجارة والصناعة وكذلك في الجـهـات الحكومية والرسمية . وشاع هذا النوع من الأدب في العديد من المجلات والروايات مثل روايـة الـغـاب **The Jungle** للكاتب ابتـون سنكلير Upton Sinclair . على انه ينبغـي الا ينسينا انتشـار هـذا النـوع ان هـنـري جـيـمـس Henry James ، وكـان يقيـم في انجلترا انـذاك ، قـد ارتقى بالواقـعية الى ذروتها ، وذلك في عدد من روائع رواياتـه في هذا العقـد ، ومنها الـسـفـراء **The Ambassadors** واجـنـحـة الـحـمـامـة **The Wings of the Dove** والـوعـاء الـذهـبي **The Golden Bowl** . أما مـارك تـويـن ووليـم دين هولز William Dean Howells فقد ضعف انتاجهما ؛ في حين استمر ثيودور درايزر وجـاك لنـدن Jack London فـي حمل لـواء المدرسـة الطبيعية في الرواية . ومن كتاب هذا العقد أيضـاً وليـم فـون مودي William Vaughn Moody الذي كـتب الشـعـر المعبر عن الوعي الاجتماعي والمسرحيات التي لاقت رواجـاً كبيـراً . ولابد من ذكر إدويـن آرلنجتـون روبنـسـون Edwin Arlington Robinson الذي بدأ في هذا العقد مسيرة شعرية أدبية ستؤتي ثمارها الرائعة في العقدين الثاني والثالث .

شـهـدت سنـوات العقد الثاني وعلى وجه الخصوص سنوات ما قبل الحـرب (لم تدخـل امريكا الحرب إلا عام ١٩١٧) نشاطاً ملحوظاً مما حدا ببعض النقاد لتسميتها سنوات « النهضة الصـغيرة » وذلك لتمييزها عن النهضة الكبيـرة التي تحققـت بعد الحـرب . وتكاد تقتصـر هذه النهـضة على الشعر . بدأت ملامح العصر الجديد تلوح في الأفق الأدبي في هذه السنوات، وخاصة في أعمال هنري جيمس ودرايزر وروبنسن وجيرترود ستايـن Gertrude Stein وغيرهـم . ولكن حركة الشعر الجديد هي أهم ما يميز هذه النهضة الصغيرة . تم عام ١٩١١ ميلاد ائتلاف أدبي شعري بين عزرا باوند Ezra Pound وتي. إس. إليـوت T. S. Eliot (وهما امريكيان مقيمان فـي اوروبا) والكاتب الانجليزي تي . إي . هولـم T. E. Hulme ، وأصبح هذا الائتلاف مصدر الهام للكتـاب وخاصة الشعراء على كلا جانبي المحيط الاطلسي . وعلى ايديهم تمت ولادة الشعر الجديد وتحـديد مفهومه النقدي وإرساء قواعده . وقد استقطب هذا النشـاط شعراء امريكيين مثل هيلدا دولتل Hilda Doolittle ووليم كارلـوس وليمـز William Carlos Williams وإيمي لـوول Amy Lowell . ومن الجدير بالذكر بشـكل خاص انه كان لهذه الحركـة الشعرية النابضة بالحياة أثر كبير في دعم وانجاح مجلة شـعـر **Poetry : A Magazine of Verse** التي اسستها هاربيت منرو Harriet Monroe في شـيـكـاغـو عام ١٩١٢ . وهي المجلـة التي نشـرت شعر كثير من الشعراء المحدثيـن ، ومن بين ما نشرتـه قصيـدة «اغنيـة حـب لجيه ألفرد بروفروك The Love Song of

«J. Alfred Prufrock» للشاعر تي. إس. إليوت سنة ١٩١٥ . ومن مساهمات هذه المجلة ، مع العديد غيرها من « المجلات الصغيرة » التي انتشرت في هذا العقد وازدهرت كثيراً في العقد التالي ، خلق جمهور من محبي الشعر الجديد . وهذا النشاط كله يندرج تحت اسم «المدرسة التصويرية Imagism» في الشعر . وهذه مدرسة قامت أساساً كثورة على التقاليد الشعرية البالية .

ويمكن تلخيص أهم مفاهيمها ومبادئها في النقاط التالية :

(١) استعمال لغة الحديث العادية على ان تختار الكلمة المناسبة بكل دقة .

(٢) تجنب الكليشيهات والتعابير المبتذلة .

(٣) خلق انواع جديدة من الايقاع تتناسب والحالات النفسية أو الامزجة الجديدة وعدم التقيد بالاوزان الشعرية التي تحد من حرية الشاعر .

(٤) حرية الشاعر المطلقة في اختيار مواضيع شعره .

(٥) التركيز على خلق الصور في الشعر : الصور الحسية الدقيقة والمحددة تفاصيلها .

(٦) التركيز هو روح الشعر .

(٧) الشعر لا يقرر او يصرح بل يلمح .

وقد تأثرت هذه المدرسة الناشئة بأحد اتجاهات الشعر الفرنسي المعاصر والتي كانت تحمل نفس الاسم . وتأثرت كذلك بشعر التروبادور . وواضح في هذه المدرسة ايضاً تأثير بعض أنواع شعر الشرق الأقصى من صيني وياباني وبخاصة قصيدة الهايكو Haiku . (وهذه القصيدة او الشكل الشعري يتألف من ثلاثة ابيات يتكون الأول منها من ٥ مقاطع والثاني من ٧ مقاطع والثالث من ٥ مقاطع . وتخلق هذه القصيدة صورة واضحة تهدف الى اثارة عاطفة معينة او توحي بتبصر روحي). وقد ازدهر شعر المدرسة التصويرية هذه كشعر مدرسة ، كما أنه ترك أثراً ملموساً في دعم حركة الشعر الحر او المرسل الذي اشتد ساعده واتسع انتشاره . وبالاضافة الى ذلك فقد شاع التركيز على الصورة في شعر شعراء لا ينتمون لهذه المدرسة .

تنتمي هذه المدرسة التصويرية الى واحد من اتجاهين تنازعا الشعر الامريكي . أولهما الاتجاه الذي يحبذ التمسك بالطابع الامريكي وذلك باتباع خط والت ويتمان . والثاني (وهو الذي تنتمي إليه المدرسة التصويرية) ينادي بالانفتاح نحو اوروبا وثقافات أخرى قديمة كانت أم حديثة . على ان الحديث عن الشعر في هذه الفترة يتطلب ذكر شعراء آخرين يختلف شعرهم . وقد أثرى هؤلاء الشعراء الشعر الامريكي بقصائد فذة . ومن هؤلاء روبرت فروست Robert Frost وادجار لي ماسترز Edgar Lee Masters وفاتشل لندزي Vachel Lindsay وكارل

ساندبرج Carl Sandburg وإدنا سينت فنست ميلي Edna St. Vincent Millay .

وإذا ما تجاوزنا ربوع الشعر الى الرواية نجد ان هذا العقد الثاني قد شهد نشاطاً ملحوظاً . واصل درايزر كتابة رواياته في نطاق المدرسة الطبيعية . وقام جيمس برانش كيبل James Branch Cabell ـ الملقب بالكاتب «المفضل !» لدى الرقيب ـ وشيروود اندرسون Sherwood Anderson بعدد من التجارب في الفن الروائي . ومن الأمثلة على ذلك رواية يورجين Jurgen للاول ومجموعة قصص واينزبرج ، اوهايو Winesburg , Ohio للثاني . كما ظهرت اعمال روائية جديدة للكاتبتين إيديث وارتون Edith Wharton وويلا كاثر Willa Cather . إيثان فروم Ethan Frome وفترة البراءة The Age of Innocence للاولى وأيها الرواد O Pioneers ! للثانية . ومواكبة لهذا النشاط الأدبي ترعرعت حركة النقد الادبي وساهم فيها بول إلمر مور Paul Elmer More وفان ويك بروكس Van Wyck Brooks .

لا عجب إذن ، في ضوء ما تقدم من عرض للنشاط الأدبي في العقد الثاني من القرن العشرين ، ان اتفقت أغلبية دارسي الأدب الامريكي بأن سنوات ما قبل الحرب (دخلت امريكا الحرب متأخرة سنة ١٩١٧ كما ان الحرب لم تتسبب في وقف النتاج الأدبي الامريكي) قد شهدت تحديداً لاتجاهات وأشكال الأدب الامريكي المعاصر ، والذي سيصل ذروته في العقد التالي .

من الضروري ، قبل الحديث عن أدب ذلك العقد ، ذكر بعض الظروف والأحداث التي تشكل خلفية الادب في هذا العقد ؛ وهذا في الواقع استمرار للحديث الذي بدأت به هذه المقدمة عن خلفية القرن العشرين ككل . واول هذه الظروف الحرب نفسها . فقد كانت حرباً ضروساً تميزت عن غيرها من الحروب السابقة بكونها عالمية اولاً وشاملة الدمار الآلي ثانياً . أي انها لم تعد مسرحاً للبطولات والشهامة . دخلتها امريكا وهدفها المعلن مثالي : ألا وهو ان تجعل منها الحرب التي تضع نهاية للحرب والتي تجعل من العالم مكاناً آمناً للديمقراطية . ولكن سرعان ما تبين انها لم تكن كذلك أبداً . كان واضحاً انها لم تنه الصراعات بين القوى السياسية الاوروبية وانما اخذت تمهد الطريق لحرب أشد هولاً وخاصة بعد فشل معاهدة فرساي وعدم تحقيق سلام حقيقي . وسبب هذا شعوراً مريراً بالاحباط وخيبة الأمل لدى الجيل الجديد وخاصة بين الكتاب والفنانين . وادى ذلك الى شعور عام بأن الحرب كانت دليلاً على انهيار الحضارة الاوروبية ومثلها . ناهيك عن انتشار الفساد في عهد الرئيس وارن هاردنج Warren Harding في القطاعين الحكومي والخاص .

وإذا ما انتقلنا من الحرب والسياسة الى العلم والتقنية ، لوجدنا أن العلم التطبيقي ، الذي

ازدهر كثيراً اثناء الحرب ، قد قدم العديد من وسائل التقنية التي اثرت كثيراً في طبيعة الحياة اليومية . انتشر على نطاق واسع مثلاً استعمال الهاتف والكهرباء (وكلاهما من اختراعات القرن الماضي) . وما يهمنا اكثر في هذه المقدمة هو انتشار وسائل تقنية كان لها تأثير كبير في الأدب وثقافة الكلمة المكتوبة . فالسينما والمذياع افرزا نوعاً جديداً من الثقافة نافس كلاً من الثقافة الرفيعة وكذلك الثقافة والفنون الشعبية . ورغم عدم رضا الادباء عن هذا النوع من الثقافة في بداية الأمر على الاقل ، فلم يكن بد من التعايش معها . فالسينما فتحت للكتّاب مجالات للثروة . كما انها ، من حيث طبيعة نصوصها ، تركت أثراً واضحاً في أساليب السرد والكتابة . كما ان السينما نفسها كفنّ استفادت من بعض أساليب الكتابة الروائية . وفي سياق الحديث عن تطور العلم ونتائجه وما نجم عن ذلك في الوضع الادبي ، فلابد من ذكر تطور هام في المجال الثقافي : ألا وهو اتساع الهوة في هذا العقد وما تلاه بين الثقافتين العلمية والأدبية كما لاحظ كثير من مفكري هذه الفترة. لا عجب إذن ان تعتبر الحرب العالمية الأولى حداً فاصلاً بين امريكا المعاصرة وامريكا الماضي ، وذلك باعتبارها محصلة جميع عوامل التغير المذكورة .

كان الأدب الامريكي في السابق أدباً يافعاً بالنسبة للآداب الاوروبية ذات العراقة . كما انه كان أدباً محلياً وبعيداً عن مراكز الحضارة والذوق الفني في أوروبا كما قال هنري جيمس في معرض حديثه عن الكاتب الامريكي الكبير ناثانيل هوثورن Nathaniel Hawthorne والولايات المتحدة التي ازدهر فيها الكاتب المذكور أي حوالي منتصف القرن الماضي . ثم إن المؤسسة الادبية الامريكية كانت حديثة وغير مستقرة . وبذلك شعر الكتاب والفنانون الامريكيون بالغربة عن تيار الذوق العام في وطنهم . ولكن اثبت هذا الشعور بالاغتراب وعدم الاستقرار انه ميزة في بداية القرن العشرين . فقد اكتسب منه الكتّاب خبرة في التعامل مع ما أفرزته الحرب العالمية الاولى من مد اغترابي وخيبة أمل شديدين . وحسب تقييم جيرترود ستاين للموقف فقد ساعد ذلك الادباء الامريكيين في محاولاتهم لايجاد علاقة جديدة بين الشكل والمضمون وللبحث عن أساليب جديدة لبث حياة متدفقة في اللغة ، ولبناء جسور متينة بينهم وبين قرائهم .

ورغم هذه الصورة القاتمة للظروف العامة التي نجمت عن الحرب ، فقد كانت الانجازات الأدبية لعقد العشرينات (وهو العقد المسمى بعصر الجاز او الشباب الملتهب او العشرينات الصاخبة او عهد الغواني ـ وذلك نظراً لانتشار الغلو العام الشديد في التبذير والانهيار الاخلاقي والاجتماعي والمعنوي) من أعظم الانجازات الادبية سواء من حيث عدد الكتّاب او مستوى إبداعهم او تعدد الانواع الأدبية التي صاغ فيها الادباء نتاجهم . اتخذ كتابنا من وحشية الحرب وآثارها والاغتراب وخيبة الامل وانهيار القيم الانسانية مواضيع لروائعهم الادبية ، كما انهم تمكنوا من استيعاب مختلف المؤثرات الفنية والادبية الاوروبية .

واذا مـا بدأنا بالفن الروائي رأينا ما يبهر . ففي **الشارع الرئيسي Main Street** للروائي Sinclair Lewis (١٩٢٠) انتقد المؤلف الحياة فـي المـدن الامريكيـة الصغيـرة من حيث محليتها ومحدوديتها . وتوج زعيم المدرسة الطبيعية نتاجه برواية **مـأسـاة امـريكيـة An American Tragedy** (١٩٢٥) التي تعتبر قمة انتاج المدرسـة الطبيعيـة وانتـاج مؤلفها . أما الناطق بلسان عصر الجاز فـرانسيـس سكـوت فتـزجـرالـد Francis Scott Fitzgerald فقد اضاف الى رواياته السابقة درتها جميعاً **الجاتـسـبـي العـظـيـم The Great Gatsby** (١٩٢٥) التي أبدع فيها في التعبير عن بذخ العصر وتبذيره ومضارباته المالية الجنونية ، وما يترتب على ذلك كله من مشاكل نفسية واجتماعية. أما إرنست همنجواي Ernest Hemingway ـ وهو من أكثر الكتاب الامريكيين شـهـرة خارج بلاده ـ فقد تعلم اسلوبه الفذ في الكتابة في بداية عهده كمراسـل حربـي لجـريدة امريكية . ويمثل بطل روايته الأولى **الشمس تشرق أيضاً The Sun Also Rises** (١٩٢٦) انسان مـا بعـد الحرب بجراحه النفسية والجسدية وبضياعـه ورفضـه للقيم والتقاليد السائـدة والتـي زعزعتها الحرب . وبعد هذه الرواية نشر همنجواي رائعته **وداع للسلاح A Farewell to Arms** (١٩٢٩) التي جـعلته اكثر كتاب امريكا شهرة في العالم . ولابد من الاشارة الى اسلوب همنجواي في هذه العجالة . فقد اضحى اسلوبه، بسهولته الظاهرة، نموذجاً يحاول الكثير من الكتاب تقليده فـيكتـشفون صعوبة ذلك . فهو أسلوب موجز محكم مركز ، يخفي اكثر بكثير مما يظهـر . وقد أصـاب صـاحبـه حين وصفـه بأنه اسلوب الجبل الجليـدي الذي لا يبدو منه إلا جزء ضئيل لا يتـجـاوز الثمن من حجمه الحقيقي ، والذي يختفي باقيه تحت سطح الماء . وفي نهاية العقد ، أي عام ١٩٢٩ ، نشر وليم فولكنر William Faulkner رواية **الصخـب والعنـف The Sound and the Fury** وهي واحـدة من أعظم الروايات تأثيراً في هذا العصـر . وتتميز بفن السرد المعقد الذي أبدع فـيـه فولكنر . يقوم بسرد هذه الرواية أربعة أشخـاص لكل منهـم وجهـة نظـره الخاصـة ومنظوره المخـتلف . واحـد هؤلاء الرواة شخص أبله . وفولكنـر هو خالق مقاطعـة يوكناباتـووا الاسطـوريـة Yoknapatawpha في ولايـة مسيسيبـي Mississippi في الجنوب الامريكـي ، وهي المقـاطعة التي أسكن فولكنر فيها العديد من العائلات والشخوص الروائية . وترمز هذه المقاطعة الخـيالية للجنوب الامريكي وطريقـة حياتـه ، وما تتركـه الحيـاة الحديثـة في سكانها ـ البيـض والسـود سواء بسواء ـ من جروح وآثار .

ووليم فـولكنر هو أشـهـر كـتاب الجنوب الذين يمكن اعتبارهم مدرسة واحدة. لابد من الاشـارة هنا الى أسلوب فـولكنر المتـمـيـز والذي يختلف تمامـاً عن أسلوب همنجواي . فقد لجأ فـولكنر الى تيـار الوعي واسلوب لغوي معقد وطريقة في السرد تناسب روح العصر . اما الكاتب الزنجي جان تومر Jean Toomer (من حركة نهضـة هارلم التي ستكـون محـور مقدمة الفصل

القادم من هذه المجموعة الادبية) فقد نشر عام ١٩٢٣ رواية **كيـن Cane** وهي من أكثر التجارب الروائيـة ثورية في هذا العصر . ويصهر فيها المؤلف مقطوعات السرد القصصي والاجزاء الدرامية والاغـاني الشـعـبية والحكايات الشعبية (الفولكلورية) في بوتقة اسلوبه الفريد الذي يعكس ايقاع اللهجة الزنجية المحكية التي تعـرَّف عليها الكاتب في ولاية جورجيا الجنوبية .

اقـتصر حديث الرواية اعلاه على العشرينات . ولكن هذا العقد بثرائه الأدبي وتنوعه انتهى نهاية مأسـاوية وذلك بانهيـار السـوق المالـي الذي حصل في سنة ١٩٢٩ حين كانت البلاد تعد نفـسها لوصول قمة الازدهار الاقتصادي. وقد تسبب هذا الانهيار في سنوات الكساد الاقتصادي التي حلّت بالبلاد في الثلاثينات . نتـج عن هذين الحـدثين وضـع مالـي واقتصـادي واجتماعـي مأسـاوي في الولايات المتـحدة : بطالة وفقر مدقـع وتـردي في الـروح المعنويـة . ورغم تصدي الحكومة لهذا الوضع بسياستها الاقتصادية الجديدة The New Deal فلم تتحسـن الاوضـاع إلا في اواخـر الثـلاثينـات . وقـد أدى ذلك كله الى ازدياد وانتشـار الـوعي الاجتماعي لدى الكتّـاب وشـعـورهم بضرورة تصـوير واقـع حيـاة الناس في كتاباتهـم ، وخاصـة مع انتـشار الافـكار الماركسـيـة في امريكا في أعقاب نجاح الثورة البلشفية . وأهم روايات الاحتجاج التي لاقت رواجاً كبيراً في هذه الفترة رواية **عناقيـد الغضـب The Grapes of Wrath** (١٩٣٩) التي ألفها جون شتاينبك John Steinbeck وصور فيها حياة عائلة من اوكـلاهومـا Oklahoma اضطرت لمغادرة مزرعة اجدادها ، بعد أن دمرتها عواصف الرمال ، الى كـاليفـورنيـا California حيث معسكرات العمال والمهـاجرين . وتصور الرواية بسرد واقعي فني صراع تلك الأسرة من أجل تماسك العائلة والحفاظ على كرامتها.

شـيق حـديث الشـعـر في هذه الفترة (الثـلاثينات) . وفي الحق انه ينافس الرواية في غناه وتنوعـه ونضـجـه ومحاولاته التجديدية . فقدت المدرسة التصويرية والشعر المرسل زخمهما في هذا العقد . ولكن إلـيـوت وفروسـت وروبنسـون جفـرز Robinson Jeffers وارشيبالد مكليش Archibald MacLeish اعطـوا الشعـر حيويـة وتوجهـات جديـدة . أصبـح الشعـر اكثـر خبرة ونضـجاً في استعمال الرموز ، كما انه أصبح أكثر اعتماداً على التلميح لاعمال ادبية اخـرى وعلى الايمـاء للمـعـاني الاسطـوريـة . وقد اغتنى الشعر بالاستمـرار في استيحـاء مختـلف المدارس والاشكال الأدبيـة من ثقافات متعددة : كلاسيكيـة وفرنسيـة وتروبادورية وايطالية ، ناهيك عن الصـينيـة واليـابانية القديمة. وكان للشاعر تي. إس. إليوت دور بارز في إعادة اكتشاف الشعراء الاليـزابيثين والميتافيزيقييـن . كما أنه استلهـم الفكـر الفلسفـي والدينـي والتصوفـي الشرقـي والانثـروبولوجـي . وتظهـر هذه الخـصائص ، بعضها او جلها ، على درجات متفاوتة في شعـر ماكليش وماريان مور Marianne Moore وإي. إي. كمنجز E. E. Cummings وسواهم .

وقد احتدمت في ساحة الشعر عدة مناقشات . وتمركزت واحدة منها حول طبيعة الشعر: افن خالص هو في سبيل الفن ليس إلا أم فن يلتزم بمسؤولية انسانية اجتماعية او سواها ؟ وهل يحل محل الدين والعقيدة في عصر تزعزع فيه الايمان بالاديان والعقائد ؟ كما دارت مناقشات حول العديد من الامور الفنية: تأثر الشعر بموسيقى الجاز في اعمال لانجستون هيوز Langston Hughes وغيره من الشعراء الزنوج ؛ الايقاع في شعر كارل ساندبرج ؛ وبعثرة الكلمة الواحدة والعبارة الواحدة في مختلف ابيات واجزاء القصيدة كما في شعر كمنجز . والحديث عن التزام الشعر ووعي الشاعر يذكرنا بالوعي الاجتماعي الذي تزايد لدى الروائيين في الثلاثينات . ومن الطبيعي ان شغلت هذه القضية بال الشعراء أيضاً .

ظهرت في العقدين الاول والثاني من هذا القرن حركة «المسارح الصغيرة» . ومن انجحها فرقتا واشنطون سكوير Washington Square وفرقة بروفنستاون في جرنتش فليج Province-town in Greenwich Village وكلتاهما في مدينة نيويورك . وقد تخصصت هاتان الفرقتان في تقديم عروض مسرحيات اوروبية وامريكية فيها من التجديد ما جعل المسارح المحافظة ترفضها. ومن هذا المنطلق يمكن وصف هاتين الفرقتين بأنهما افتتحتا عصر الحداثة في المسرح الامريكي . وكانت فرقة البروفنستاون هي التي ستقدم أعمال يوجين أونيل Eugene O'Neill ، عملاق المسرح الامريكي ، في بدء حياته الفنية المسرحية . أما الحركة ككل فقد ساهمت في خلق جمهور مسرحي واع ، ولكنها بقيت في جوهرها حركة محلية وحركة هواة . كما ان حركة المسارح الصغيرة هذه اسهمت في خلق مسرح مرن للكتابة والتمثيل المسرحيين الجادين . كما ان الزيارات التي قامت بها فرق مسرحية اوروبية بارزة لامريكا كان لها نصيب أيضاً في تقديم تجارب مسرحية طليعية للجمهور الامريكي.

وفي طليعة كتاب المسرح يشمخ يوجين أونيل ، وهو كاتب مجدد وطليعي وتجريبي ناجح. وكما كان الروائيون والشعراء يحاولون التجديد في الشكل الادبي ، فقد حاول اونيل ان يجدد الشكل المسرحي لا في مجال اللغة فحسب بل وفي مجال المعمار المسرحي واستعمال التقنية وأساليب الانتاج الحديثة. وقام غيره من المسرحيين بانتاج انواع مختلفة من المسرحيات : الملهاة الرومانسية ، والملهاة العائلية والاجتماعية ، وملهاة الافكار . أما الملهاة الغنائية فهي اختراع امريكي كالملهاة العائلية الاجتماعية . بدأت الملهاة الغنائية كمجموعة من النكات والاغاني والرقصات ، ثم تطورت بحيث تم توحيد كل هذه العناصر في عمل فني متكامل واحد .

وطّد يوجين أونيل مركزه في المسرح في منتصف العشرينات واستطاع ان يحافظ عليه في العقد التالي . ويتبع اونيل في الاهمية ماكسويل اندرسون Maxwell Anderson . ويمكن القول

بأن الاتجـاه العام لتطور المسرحية هو في جعلها، ولأول مرة في امريكا ، جزء من الأدب الامريكي المعاصر .

تشترك الأنواع الأدبيـة الثـلاث التي تم اسـتعراض تطورها في الصفحات السابقة في انها تأثرت في فترة مـا بين الحربين بالفكـر الفرويـدي والماركسـي . كان لفـرويـد Sigmund Freud وعلم النفس والتـحليل النفسي أثر عـمـيق تفاوتت درجاته في مختلف الانواع الادبية المذكورة وفي كل عـمل على حدة . فاستخدام نظرياته في التحليل النفسي لشخوص الاعمال الادبية وفي محاولة اكـتـشــاف أسرار النفس البشرية واضح تماماً . كما ان تيار الوعي والتركيز على الحياة النفسيـة البـاطنة واستكناه نفسيات الأشخاص الشاذين او غير العاديين كلها من أوجه تأثير علـم النفـس الفرويدي في الأدب . وينبغي التأكيد على تأثير فرويد وعلم النفس في عملية السرد الروائي وكسر الاتجاه الزمني الواحد وتفتيته . أما كارل ماركس Karl Marx فقد كان لفكره أيضاً تأثير كبير في المجـال الأدبي، وخاصة بعد نجاح الثورة البلشفية وشعور العديد من الكتاب بأن المدينة الفاضلة أصــبحت قريبة المنال . كما انه كان للماركسيـة دور كبير في نشر الوعي الاجتماعـي والانسانـي لدى الكتـاب وفي دعم فكرة الالتزام ، التزام الأديب والأدب بقضايا مجتمعة . وقد كان للماركسية كذلك دور في دعم التيار الواقعي في الادب .

أمـر آخـر لابد من مـلاحظته لاشتراك الانواع الادبية المذكورة اعلاه فيه جميعاً ، ألا وهو مـدرسـة الـحداثة . وهذه حـركة عالمية اشتركت فيها أغلبية الفنون ، وهي مبنية على أساس ان جميع مـؤسسات الحياة البشرية : اجتماعية وسياسية ودينية وفنية قد تم انحلالها وثبت زيفها وخـيـاليـتـهـا . ويجب اذن تجـديد الأدب بتخليصه من محاولات بنائه على غرارها . وحيث ان عـوامل التـسلسل الزمني والتماسك والمنطق منتـفـيـة من واقع حـيـاتنا ، فينبغي عدم تبنيها في الأعمال الأدبيـة . أمـا التعميمات والافكار التجريدية ، واللغة المنمقة فانها تخفي الحقيقة بدلاً من تصـويرها على ما هي عليه . ولذا يجب ان يتميز العمل الأدبي ، في رأي مدرسة الحداثة ، بكونه مـؤلفـاً من شظايا وقطع . كما انه يجب ان يتميز بما يحذفه لا بما يحتويه من تفسير وتلخيص وكل مـا من شأنه ان يؤدي إلى التـسلسل والترابط في الأدب التـقليدي . أي ان العمل الأدبي يبدأ بشكل عـشـوائي ويتـقـدم ويتطور بدون تفـسير ثم انه ينتـهي دون حل . وهو عـمل يلمح ولا يصرح، ويستخدم الصور والرموز بدلاً من العبارات التقريرية ، ويتم فيه تغيير وتحويل المنظور الأدبي أو السردي . وإذا توفـرت هذه الصـفات في عمل ادبي تصبح عملية القراءة صعبة. أما في واقع الحــال ، فان الأعمال الأدبية التي تتسم بالحداثة ، وان كانت في ظاهرها غير مترابطة ، فهي مـبنيـة على ترابط خـاص بها ويكمن في اعماقـهـا . وعلى القـارىء ان يبحث عنه . فمعنى العمل الأدبي اذن هو البحث عن معنى ـ حتى ولو لم يتمكن القارىء من إيجاد ذلك المعنى !

روبـرت فـروسـت
(١٨٧٤ ـ ١٩٦٣)

د. عصام الصفدي

لمحـة عـامـة :

قـد يكون روبرت فـروست أكـثـر شـعـراء القـرن العشرين شـهرة وشعبية في أمريكا. وقد استطاع المحـافظة على مـوهبـتـه ومقدرته على الكتابة وكذلك على شهرته مدة تزيد على نصف قرن بين الحـرب العـالميـة الأولى ووفاتـه عـام ١٩٦٣ . وهو جزء هام من وعي كل أمريكي فقصائده في الكثير من الكتب المدرسـيـة وفي العـديد من المختـارات الشـعريـة . لا عجب إذن أن دعي لالقاء قصيدة في حفل تنصيب الرئيس الراحل جـون كـنـيـدي John Kennedy عام ١٩٦١ وهذا حدث فريد في تاريخ أمريكا.

حـيـاتـه :

ولد فـروست في مـدينة سـان فـرانسـسكو في ولاية كاليفورنيا لأب صحفي وأم تحب الأدب وتكتب الشـعـر. وأصل الأسرة من نيـو انجلند وكـانت قـد هاجـرت الى كـاليـفـورنيا. توفي والده وشـاعـرنا غـلام في الحـادية عشرة من عـمـره. بعـد وفـاة والده عادت الأسرة الى نيو انجلند حيث اتخذت الأم من التـعليم مـهنة تكسب بها عـيش أسرتها. بعد تخرجه من المدرسة الثانوية سجل على فترات مـتـقطعـة في عـدد من الجـامـعات وجرب العديد من الأعمال والحرف التي لا تتطلب مهارة خـاصـة (صنع الأحـذية ومـصـانع القطن) وغيرها كالصحافة. غير أن حبه الحقيقي كان العمل في المزارع وكـتـابة الشـعـر. ولكن النجاح لم يحالفه في أي من هذه الأنشطة المختلفة التي قام بها خلال السـنـوات الـعـشرين التي تلت تخرجـه من المدرسـة الثـانوية. ومما زاد الضـغـط عليـه نمـو الأسرة

والوضع العـائلي : فـقد ولد له أربعة أطفال وزادت مشاكله العائلية تعقيداً .

قـرر فـروست ان يـبدأ حـيـاة جديدة بالسفر مع أسرته الى انجلترا حيث تمكن من نشر أول دواوينه الشعريـة (**إرادة غـلام A Boy's Will**) عـام ١٩١٣ . وقـد نجح هذا الديوان في الأوساط الأدبيـة لدى القـراء والنقـاد. ومن بين الذين أعجبوا به وبطابعه الأمريكي الشاعر والناقد الأمريكي المقـيم حـينئذ في لندن عـزرا باوند . وقد شجع باوند فروست وسـاعده في نشـر قصائده ثم في نشر ديوانه الثاني (**شمالي بوسـطـن North of Boston**) عـام ١٩١٤ ، وقد لاقى هذا الديوان نجاحـاً كـبيراً في انجلترا وأمريكا .

بعـد أن بدأت مطامحه الشـعـرية تتـحـقق قـرر فـروست العودة الى وطنه واشترى مزرعـة في ولايـة نيـو هـامبشيـر New Hampshire واتخـذ مـن العـمـل الزراعـي مـادة لشـعره . وقد سـاعد دخله من كـتـاباته الشـعـرية والنقـدية ومحاضراته على اسـتـقـراره مادياً واستطاع المحافظة على ذلك النجـاح طيلة حـياته كما ورد أعلاه. ولكن حياته العائلية تعرضت لعدد من الهزات : فقد توفي ابنه البكر طفـلاً؛ وانتـحـر ابنه الوحـيـد، وتوفـيت إحـدى ابنتـيـه بعـد وضعها لطفل؛ واصيبت الابنة الأخـرى بمـرض عـقلي. ثم ان زوجته رفضت السماح له برؤيتها وهي على فراش الموت. ويذهب عـدد من النقـاد الى القول بأنه ورث عن والده الميل الى إساءة معاملة أسرته . هذه المآسي العائلية، بالاضـافـة الى مرارة الفشل التي رافقته في بداية حياته ، تسببت جميعاً في إيمان فروست بوجود الشر في الحياة وفي الكون وكذلك في نظرته التشاؤمية للحياة.

شعره وافكاره :

انتج فـروست خـلال عـمـره الشعري الطويل تراثاً شعرياً غنياً ومتنوعـاً . ويحـاول دارسـو شـعـره، على سـبيل التبسيط، تصنيف قصائده على أسس مختلفة حسب ميولهم ومبادئهم . فهناك القـصـائـد الغنائيـة التـي تصـف منظـراً أو موقفـاً أو حدثـاً طبيعيـاً (nature lyrics) مثـل قصيـدة «التـوقـف عند الغابـة فـي مسـاء مثلـج» "Stopping by Woods on a Snowy Evening" أو «بعد قطـف التفاح» "After Apple - Picking" وغيرهمـا . ويلمح القـارىء في هذه القصـائد تشابهـاً أو تبـايناً بين الحـالـة النفسيـة الداخلية للمتحدث والوضع الخارجي، وهذا ما عبر عنه فـروسـت بأنه «المناخ الخـارجي والداخلـي» . وتنتـمي هذه القصائد لتراث شعري غني أبدع فيه شكسبير وكيتس Keats وشيلـي Shelley . وهناك ثانيـاً قـصـائد السرد الدرامي الطويلة نوعاً ما مثل «مـوت العامل (الموسمي)» "The Death of the Hired Man" و «الدفن بجـوار البيـت» "Home Burial" . وهذه القـصائد غالباً ما تكون من الشعر المرسل الموزون وغير المقفى blank verse . وتتخذ هذه القصائد

من معاناة المزارعين وسكان الريف ومآسيهم موضوعاً لها ، ولهذه القصائد ومثيلاتها أيضاً تاريخ طويل يعود الى هوريس (Horace) ولولكريتس (Lucretius) وفيرجيل (Virgil) وما يعرف بالشعر الريفي أو شعر المزارع bucolic poetry . تختلف تأملات فروست وفلسفته عن فلسفة أولئك الأسلاف وخاصة في موقفه تجاه الطبيعة . كما أن فلسفته تختلف عن فلسفة أسلافه الأقرب من مدرسة التسامي من مثل اميرسون وثورو. فهو وإن شاركهم في أهمية الفرد وضرورة التركيز على الفردية وحمايتها من المجتمع والعمل الجماعي اللذين يميلان لاضعافها، إلا أنه يختلف عنهما فهو أكثر تشاؤماً منهما وأكثر واقعية في نظرته للطبيعة . واضح من هذا كله ان النوع الثالث من القصائد هو قصائد التأملات والتعليق على الحياة ومظاهرها المختلفة .

مساهمته وموقعه في الأدب الأمريكي :

رغم تباين القصائد التي كتبها فروست من حيث موضوعاتها وأشكالها الشعرية فهنالك ما يوحدها ويعطيها طابع فروست المميز . أهم عوامل هذه الوحدة هو ما يسمى persona أو شخص المتحدث في القصيدة أو القناع الذي يرتديه الشاعر في القصيدة . ورغم ان عامة القراء يميلون الى اعتبار فروست نفسه هو المتكلم، إلا أن هذا الشخص أو الصوت أو القناع هو من ابداع فروست . وهو شخص بسيط، غني بتجاربه، ذو حكمة، شديد التأمل في الحياة، ويتحدث بلهجة المواطن الأمريكي العادي المحكية . وهو سريع البديهة ، ذو حس فكاهي مرح حيناً ومتشائم ووقور حيناً آخر . لقد لمس فروست حاجة الناس ، في عصر أصبحت الحياة فيه شديدة التعقيد كثيرة الضغوط والمتطلبات ، إلى الاعتقاد بأن حياة الريف ببساطتها هي الملجأ . ويبدو المتحدث في قصائد فروست بأنه صوت تلك الحياة وممثلها.

ومن هذا الصوت المميز تكتسب قصائد فروست عدداً من السمات أهمها لغة فروست أو أسلوبه. فهو أسلوب سهل يتخذ من العبارة المحكية طبيعة سلسة تبدو وكأنها تنبع من جوهر القصيدة دون تكلف للبساطة. وحتى حين يكون الموقف فلسفياً أو تأملياً فإن طابع الاسلوب المحكي البسيط يميز القصيدة. ويتميز فروست بلمسة شعرية ماهرة تشعر القارىء بأن ما يكتبه من قصائد، سواء كان سوناتا sonnet أو شعر موزوناً مقفى أو مرسلاً غير مقفى ، هو من إبداعه وبأنه قام بأمركته وباعطائه طابعه الشخصي المميز .

وختاماً فإن فروست، بمساهماته وميزاته المذكورة أعلاه ، يمثل نقيضاً شامخاً لمدرسة الحداثة الشعرية : شعراء هذه المدرسة أوروبيّو التوجه أما فروست فأمريكي التوجه تماماً ؛ فضّل اولئك الشعراء الشعر الحر ونظّروا له أما فروست فحافظ على الشعر الموزون ونفث فيه من

روحه؛ كـان المحـدثون يفترضـون سـعـة الاطلاع على مختلف الثـقـافـات أمـا شـاعرنا فقد كانت تلمـيحاته غير مباشرة. وإذ آمن المحدثون بالقصيدة المؤلفة ، في ظاهرها على الأقل ، من قطع غير واضـحـة الترابط ، كـتب فـروست قصائده المترابطة منطقياً والمتينة المعمار . ورغم هذا كله ، ورغم التـصـاقه بتراب المزرعة وبأناسها وبحياتهم وبلهجتهم، فقد استطاع فروست أن يصبح شاعراً عالمياً يقـرؤه ويفهمه ويستمتع به ملايين القراء في معظم بقاع الأرض .

ترميم السور

ترجمة : د. عصام الصفدي

[تسرد هذه القصيدة ما حصل بين جارين من المزارعين التقيا ذات يوم في الربيع لكي يرمما السور الذي يفصل بين أرضيهما. ويدور حديثهما، فيما يقومان بعملية الترميم، عن الأسوار وضرورتها. ولكن السرد يأتي على لسان المتكلم الذي لا يكتفي بالسرد ووصف العمل بل يضمِّن القصيدة تأملاته حول موضوع الأسوار كما أنه يعطينا رأي جاره. يختلف الجاران في موقفهما : المتكلم لا يريده ويعتبر وجوده غير طبيعي وغير ضروري بل ويشكل إساءة لمشاعر الجيران. أما الجار فموقفه يناقض موقف المتكلم. ومن طريقة المتكلم في السرد، ومن لهجته الساخرة، ومن اسلوبه في عرض آراء جاره ـ من ذلك كله يدرك القارىء مدى سلبية موقف الجار. بل إن المتكلم في نهاية المطاف يشبّه جاره بإنسان العصر الحجري المتوحش والمتحجر التفكير. القصيدة واقعية من حيث وصفها للحدث وللمكان ولغتها. ورغم ذلك فهي رمزية إذ سرعان ما يصبح السور لا مجرد حاجز بين قطعتي أرض بل رمزاً للحواجز التي يقيمها الناس فيما بينهم، وهو موضوع رئيسي في أدب القرن العشرين] .

المحرر

ثمة شيء ما لا يحب الأسوار
فيجعل من تحتها حدبات متجمدة
ويبعثر حجارتها العليا في الشمس،
ويفتح فيها ثغرات يستطيع اثنان ان يمرا من خلالها جنباً الى جنب .
أما ما يفعله الصيادون فأمر آخر :
جئت بعدهم ورممت
حيث لم يتركوا حجراً فوق حجر .

فقد كان لابد لهم من اخراج الأرنب من مخبئه
إرضاء للكلاب النابحة. الثغرات هي ما اعني،
ما رآها أحد إذ فُتحت أو سمعها إذ عُمِلت ،
ولكننا وقت الترميم في الربيع نجدها حيث هي .
فأُشعر جاري وراء التلة ،
ونلتقي ذات يوم لنسير ازاء الحد الفاصل
ونقيم السور ما بيننا مرة أخرى .
نُبقي الجدار بيننا ونحن نسير مرممين .
لكلّ حجارته التي وقعت ناحيته
بعضها مدور كالأرغفة وبعضها يكاد يكون مثل الكرات
فعلينا ان نستعمل السحر لنثبتها .
«ابق مكانك حتى ندير ظهورنا !»
وتخشوشن أصابعنا من العمل بها .
ما ذلك إلا نوع آخر من الألعاب الخلوية، لا أكثر؛
لاعب على كل جانب .
حيث السور قائم نحن لا نحتاج اليه :
فبستانه كله صنوبر وجهتي كلها تفاح .
وشجرات تفاحي لا يمكنها ابداً أن تعبر
وتأكل اكواز الصنوبر من تحت شجراته، إذ أقول له هذا
لا يجيب إلا «الأسوار الجيدة تؤدي الى كون الجيران طيبين» .
ان الربيع يثير الخبث فـيّ ، فاتساءل
اذا ما كان بالامكان ان أضع فكرة في رأسه :
« لماذا تؤدي الى كون الجيران طيبين ؟ ألا تقام

الأسوار حيث يوجد بقر ؟ ولكن لا بقر هنا .
قبل ان ابني سوراً علي أن أسأل لأعرف
ماذا أسيج وما الذي اتركه خارج السور
ومن الذي يمكن أن أسيء إليه .
ثمة شيء ما لا يحب الأسوار ،
ويريد أن يهدمها . » يمكنني أن أقول له «الجن» ،
ولكنه ليس الجن تماماً، وأفضّل
ان يقولها هو بنفسه. اراه هناك ،
يحضر حجراً وقد قبض عليه من اعلاه
في كل يد، وكأنه همجي مسلح من العصر الحجري .
انه يسير في الظلمة كما يبدو لي ،
لا أعني ظلمة الغابات وظلال الأشجار فحسب .
لن يستطيع تجاوز قول أبيه ،
ويعجبه استحسانه له كثيراً
ويقول ثانية : «الأسوار الجيدة تؤدي الى كون الجيران طيبين» .

الطريق التي لم اسلكها

ترجمة : د. عصام الصفدي

[موضـوع هذه القـصيدة هو الخيار الصعب ما بين أشياء لا تختلف في ظاهرها كثيراً حين اتخاذ القـرار. ولكن يبـدو ان الفـروق الضئيلة لحظة القـرار تصبح هامة جداً مع مرور الأيام. هذا الموضـوع العـام يستنتـجه القارىء من تلميحات القصيدة. أما ما تتحدث عنه القصيدة حرفياً فهو الاختـيـار بين طريقين متشابهين في غابة لم يبد للمتكلم، الذي توقف عندهما ، أي فرق ذي بال بينهما ، رغم أنه دقق النظر فـيـهما وألقى عليـهما نظرة الى أقـصى ما يستطيع رؤيته . أمر آخر تثيره القـصـيدة : ألا وهو ان الناس يميلون بطبيعتهم الى العودة بذاكرتهم الى الماضي وما فيه من مواقف تتطلب الاخـتيار الصعب والى التأمل فيما كان يمكن ان يكون حالهم لو اتبعوا خياراً آخر] .

المحرر

طريقان تشعبتا في غابة صفراء
ويؤلمني الا أسلكهما معاً
وأظل المسافر الواحد. توقفت طويلاً
وأرسلت نظري في احداهما الى اقصى ما استطعت
حيث انعطفت بين الأعشاب التحتية؛

* * *

ثم سلكت الأخرى وهي تعادلها جمالاً
ولعلها اكثرهما جدارة،
لانها معشوشبة ولم يفسدها السير عليها؛
رغم ان المرور هناك

قد ترك فيهما نفس الأثر تقريباً، في الواقع،

* * *

ذلك الصباح استلقتا كلاهما

في أوراق لم يسوِّدها وطء أي قدم .

قلت أسلك الأولى في يوم آخر !

وبما انني أعرف كيف تقود طريق الى طريق،

فقد شككت في عودتي أبداً .

* * *

سأروي هذا متنهداً

في مكان ما، بعد أجيال وأجيال من الآن :

طريقان تشعبتا في غابة، وسلكتُ

الطريق المطروقة لدرجة أقل،

وأدى ذلك الى الفرق كله .

وقفة عند غابة في مساء مثلج

ترجمة : د. عصام الصفدي

[في طريقه الى بيته مساء ذات يوم مثلج، يتوقف المتكلم عند غابة ويشده جمال منظرها والثلج يتساقط عليها بسكون وهدوء وغزارة فيملؤها. ويصرح المتكلم برغبته في إطالة وقفته للاستمتاع بجمال الطبيعة. هذا الجمال الذي يغرقه ليس فقط في الجمال الذي يتفتح من حوله بل وفي مشاعره الداخلية أيضاً. أما ما لا يصرح به بل يلمح له تلميحاً عن طريق الجو الذي يخلقه ولهجته فهو ان المنظر، الذي سحره جماله، يثير فيه رغبة في الموت ـ من حيث هو راحة من عناء الحياة ـ فالموت والجمال المحيط بالغابة يشتركان في صفات البرودة والظلمة والعزلة. ولكن سرعان ما يعود الشاعر لوعيه، من تأملاته، فيدرك ان الحياة لها متطلبات وأنه لا يستطيع ان يطيل وقفته التأملية رغم استمتاعه بذلك ورغبته فيه] .

المحرر

لمن تُرى هذه الغابة أظن انني أعرف .
وعلى كل فان منزله في القرية
ولن يراني في وقفتي هنا
لأتأمل غابته تمتلىء بالثلج .

لابد وأن حصاني الصغير يستغرب
توقفي حيث لا منزل ريفي قريب
ما بين الغابة والبحيرة المتجمدة
في أشد ليالي السنة ظلمة .

يهز أجراس لجامه
كأنما ليسأل إن كان ثمة خطأ ما .
وليس من صوت آخر سوى
هبوب الرياح الخفيفة وسقوط رقائق الثلج الناعمة .

الغابة رائعة، حالكة وعميقة،
غير ان لدي وعود يجب أن أفي بها،
وأميال أقطعها قبل أن أنام،
وأميال اقطعها قبل أن أنام .

تي. إس. إليوت
(١٨٨٨ ـ ١٩٦٥)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

هو شخصية أدبية فذة في عدد من المجالات. فهو شاعر مرموق ساهم في إحداث ثورة في الشعر، وناقد ساهمت آراؤه في تكوين آراء أكثر من مدرسة نقدية وفي خلق وتغيير عدد من المفاهيم والمصطلحات النقدية ، وكاتب مسرحيات شعرية عديدة متميزة . أضف الى ذلك أنها شخصية أدبية مهيمنة في اوروبا وانجلترا وأمريكا. وما كان حصوله على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٤٨ إلا تتويجاً لأعمال هذا الشاعر الناقد المسرحي العبقري الذي بلور في عنوان إحدى قصائده (**الأرض اليباب : The Waste Land**) طبيعة وروح الحضارة الغربية في النصف الأول من القرن الحالي .

حياته :

ولد ونشأ في مدينة سينت لويس St. Louis في ولاية ميزوري Missouri الواقعة في الغرب الأوسط للولايات المتحدة. تلقى تعليمه في هارفارد واكسفورد والسوربون . تزوج عام ١٩١٥ من فيفيان هيج ـ وود ولم يكن الزواج موفقاً نظراً لحالة الزوجة العقلية مما أدى الى انفصالهما (دون طلاق) عام ١٩٣٢ . عمل في التعليم ١٩١٧ ـ ١٩٢٥ ، ثم في بنك لويد . كما أنه عمل في الصحافة وأسس مجلة **المعيار (Criterion)** . بعد وفاة زوجته تزوج من سكرتيرته فاليري فلتشر Valerie Fletcher عام ١٩٥٧ وعرف معها السعادة الزوجية .

اعماله وافكاره :

لعل أبسط مقاربة لأعمال كاتبنا أن يتم تقسيمها حسب الأصناف الأدبية : شعر ونقد ومسرحية . ولكن تبسيطاً كهذا لن يؤدي الى ادراك حقيقي لطبيعة أعمال هذا الكاتب نظراً لتداخلها أولاً ولكونها - ثانياً - تعابير مختلفة عن أفكار شخص واحد . ولذلك سأعالجها كوحدة واحدة ما أمكن في هذه المقدمة .

في بداية عهده بالشعر وهو طالب كتب شاعرنا الشعر على الطريقة التقليدية . ولكن مفهومه للشعر تغير تحت تأثير عدد من العوامل أهمها قراءته لكتاب **الحركة الرمزية في الأدب** للمؤلف آرثر سيمونز (Arthur Symons, **The Symbolist Movement**) وخاصة ما يتعلق بالشاعرين الفرنسيين بودلير Baudelaire ولافورج Laforgue . وقد بدا هذا التحول واضحاً في قصيدة اغنية حب جيه. الفرد بروفروك "The Love Song of J. Alfred Prufrock" في مجلة **شعر Poetry** عام ١٩١٥ . أما قصيدة **الأرض اليباب** (١٩٢٢) فقد كان ظهورها حدثاً ثقافياً وشعرياً هاماً. وفي هاتين القصيدتين وغيرهما تتجلى خصائص شعر إليوت ومفاهيمه الشعرية. فهي قصائد معقدة صعبة في معناها ومبناها ، وهي مفككة ومشظاة Fragmented في ظاهرها . كما أن هذه القصائد تجمع صوراً متباينة متجاورة ، وتتغير فيها المشاعر بشكل مفاجيء ، وتبدو الأجزاء المختلفة بحاجة الى توضيح الصلات بينها . وبالاضافة الى ذلك فهي مفعمة بالتلميحات والإشارات لرموز وشخوص وقصص من ثقافات عالمية شتى . بدا ان هذا الشعر لا يختلف عن الشعر التقليدي فحسب بل عن الشعر الحديث الذي ينضوي تحت لواء المدرسة التصويرية (Imagism) .

أما في مجال النقد فقد كتب اليوت عدداً من المقالات والمؤلفات التي حددت مواقفه من العديد من القضايا الأدبية ، ولابد من ملاحظة ارتباط نقده بنوع الشعر الذي كتبه . ومن أشهر ما كتب في النقد **التراث والموهبة الفردية (Tradition and the Individual Talent)** (١٩١٩) حيث عبر عن العلاقة الديناميكية بين الماضي والحاضر وعن ضرورة استيعاب الشاعر للتراث (سواء التراث الوطني أو التراث العالمي) لاثراء شعره . كما أنه من حق الشاعر ان يساهم في اثراء التراث وإعادة صياغة الانواع الموروثة وتقييمها من جديد . والشاعر وسيط يوجد علاقات وارتباطات لغوية جديدة ويبتعد بذلك عن شخصه وعن مشاعره الشخصية. وقد وجدت مدرسة النقد الحديث New Criticism سواء في انجلترا أو الولايات المتحدة نقاط لقاء بين افكارها وافكار اليوت وقصائده. فهي تتطلب قراءة مدققة للنص بكلماته وعباراته ، كما أن القصيدة تعتبر ، لدى الطرفين ، نصاً مستقلاً أو قطعاً فنية .

وفي دراساته في التراث الشعري أوجد إليوت توجهات جديدة . فقد سلط الأضواء على شعراء ومدارس شعرية لم تكن تحظى باهتمام كاف مثل مدرسة الشعراء الميتافيزيقيين. كما أنه صاغ بعض المفاهيم الأدبية النقدية التي أثارت العديد من ردود الفعل المختلفة. ومن أمثلة ذلك المعادل الموضوعي (Objective Correlative) أي ان العمل الأدبي هو عبارة عن معادل موضوعي للحالة العقلية لمؤلفه. وانفصام الحساسية (Dissociation of Sensibility) وهو مفهوم معقد يمكن تبسيطه بالقول انه انفصام المشاعر عن اللغة الذي حدث في القرن السابع عشر .

وفي المسرحية الف شاعرنا خمس مسرحيات شعرية لعل أشهرها **جريمة قتل في الكاتدرائية (Murder in the Cathedral)** (١٩٣٥) وأربع مسرحيات أخرى كلها ذات مواضيع دينية. وقد عُرضت كلها بنجاح في لندن ونيويورك .

مساهمته وموقعه في الأدب الأمريكي :

من المفارقات أن يحتل كاتب مثل إليوت المكانة الرفيعة التي يمثلها في الأدب الأمريكي وهو الذي هاجر من الولايات المتحدة وأصبح مواطناً انجليزياً . (وهذا يذكرنا بهنري جيمس، مع الفارق) . وهو يمثل الشعر الجديد الذي يغتني بالانفتاح على أوربا وغيرها من الثقافات وما فيها من تراث. وقد نجح في شعره في خلق ذوق جديد وفي اجتذاب قطاعات جديدة من القراء. كما أنه خلق شخوصاً وأماكن اصبحت رمزية لعمق وغنى دلالاتها . ويمكن الاستنتاج من الجزء السابق من هذه المقدمة أنه، من دون جدال، من أعظم ـ إن لم يكن اعظم ـ الشعراء والنقاد الأدبيين المحدثين .

ومما ينبغي إضافته هنا هو المكانة البارزة التي يحتلها كشاهد على موت ثقافة عاشها وعاصرها وكان ناقداً لها. فهو لم يكن مجرد ناقد أدبي، بل ناقد للثقافة بشكل عام. ورغم تجديده في الشعر وفي تنظيره النقدي الأدبي، فهو يميل الى المحافظة في نظرته للثقافة، وقد ازدادت قوة هذا الميل الى المحافظة مع تقدمه في العمر. وقد لخص مواقفه فيما يلي : كلاسيكي في الأدب، انجليكاني كاثوليكي في الدين، وملكي في السياسة. وقد أثار حفيظة الكثيرين من مؤيديه السابقين حين اشتد نقده لاتساع الديموقراطية وللاتجاه الدنيوي في التعليم .

أغنية حب جيه. الفريد بروفرك (*)

[هذه القصيدة مقدمة لشعر إليوت وهي من عيون شعر الحداثة. ويمكن أن نفهم هذه القصيدة، كما يقول المثل العربي، من عنوانها. رغم ان عنوان القصيدة يحمل اسم فرد واحد تصور حياته وأزمته ، فهي أيضاً تصور أزمة مجتمع بل وأزمة حضارة ـ حضارة الغرب المعاصرة. وإن كان العنوان يقول انها اغنية حب فإنه الحب ضمن نطاق وظروف المجتمع الغربي. فهو رغبة جامحة ولكنها محبطة. فصاحب هذه الرغبة عديم الإرادة لا يقوى على الفعل. كما ان المرأة التي يحبها هي مظهر ومساحيق. والعلاقة بينهما بالتالي مشوهة (مثيرة للاشمئزاز من وجهة نظر بروفروك) وأنّى لها أن تختلف عن مجمل العلاقات في مجتمع افراده مثل بروفروك والمرأة التي يحب.

ويلي العنوان أبيات مقتبسة من **الجحيم** لدانتي ، وهو اقتباس غني بمعناه. فالناطق بالعبارة المقتبسة هو مونتفلترو الذي يقاسي عذاب الجحيم : حياة بروفروك أيضاً في مجتمعه جحيم دنيوي .

يعاني بروفروك من انفصام في شخصيته ويتجلى ذلك في البيت الأول من القصيدة : «فلنمض ، إذن ، أنت وأنا» . ويختلف النقاد في تفسير هذا البيت، فمنهم من يقول إن **انت** هي الشق الآخر من بروفروك ومنهم من يقول إن **انت** موجهة للقارىء . ولكن الدلالة العميقة للقصيدة لا تتأثر كثيراً بهذا الاختلاف : سواء كان المخاطب هو القارىء أو شخصية بروفروك، فكلاهما يمثل المجتمع الغربي في تفاهته وخلوه من الروح وما يسببه من معاناة . يمضي بروفروك والشخص المخاطب في جولة في مساء مريض بخدر مضجر كالمجتمع الذي يعيشان فيه. وحين الوصول الى المكان المقصود (حفلة أو جمع من الرجال والنساء) يعجز بروفروك عن طرح السؤال الذي يريده، والذي سيطر على عقله ومشاعره أثناء الجولة، على المرأة التي ينوي ان يقابلها. فهو عديم الإرادة والمرأة غير مبالية والجو داخل الحفلة أسوأ من الجو خارجها . ويلخص بروفروك حياته في البيت المشهور «وقست حياتي بملاعق القهوة.» وتنتهي الجولة / القصيدة بالغرق : غرق المتكلم والمخاطب. وهذا الغرق يثير جدلاً بين القراء : هل هو الغرق في حياة بروفروك التافهة وعديمة المعنى ؟ أم هو موت الروح وبقاء الجسد حياً (لاحظ السخرية اللاذعة

(*) عن كتاب **ت.إس.اليوت : دراسة وترجمة** ، يوسف سامي اليوسف ، دار منارات للنشر ـ عمان ، الطبعة الأولى ١٩٨٦ .

هنا ـ فالمفروض ان ما يموت هو الجسد بينما تتحرر الروح بموت الجسد) ؟ أم هو الغرق في اللاوعي أو ربما الأوهام ؟ لكل من هذه التفسيرات ما يبررها وكلها مرتبطة بموضوع القصيدة : الحياة المحبطة والشيخوخة التي تدب في الفرد والمجتمع وهما في عز شبابهما في المجتمع الغربي المادي والهروب من هذا الواقع الى عالم اللاوعي والأوهام .

القصيدة عبارة عن حوار داخلي في ذهن المتكلم ونلمح في هذه القصيدة خصائص شعر إليوت التي ذُكرت في المقدمة الخاصة به وكذلك خصائص شعر الحداثة التي جرى استعراضها في مقدمة هذا الباب] .

المحرر

« لو علمت أن إجابتي موجهة الى امرىءٍ
سيعود الى الدنيا قطعاً
لما ارتجّت هذه الشعلة،
ولكن طالما أن أحداً قط لم يرجع من هذا العمق،
إذا كان ما أسمع هو الحق،
فدونما خوف من سوء الأحدوثة أجيبك» (١)

* * *

فلنمض، إذن، أنت وأنا،
حين ينتشر المساء على السماء،
كمريض مخدر على منضدة؛
فلنمض عبر شوارع معينة نصف مهجورة،
عبر التراجعات المغمغمة
للّيالي القلقة في فنادق الليلة الواحدة الرخيصة
ومطاعم النشارة ذات المحار :

---

(١) هذه الأبيات مثبتة أصلاً باللغة الايطالية . وهي مأخوذة من الكوميديا الالهية لدانتي . (المترجم) .

والشوارع الممتدة كحوار مضجر
ذي غرض ماكر
يفضي بك الى سؤال مربك ...
آه ! لا تسل «ما هو ؟»
فلنمض ونؤد الزيارة .
في الغرفة النساء يأتين ويذهبن
ويتحدثن عن مايكل أنجلو

الضباب الأصفر الذي يفرك ظهره على زجاج النوافذ،
الدخان الأصفر الذي يفرك خطمه على زجاج النوافذ،
ويمد لسانه ليلحس زوايا المساء
تلبَّث فوق البرك الراكدة في المجاري
وتهاوى على ظهره الهباب المُسَّاقِطُ من المداخن،
وزحل من عن المسطبة، وقام بقفزة فجائية،
وإذ رأى أنها ليلة تشرينية ناعمة،
تطّوى حول البيت مرة واحدة، وأغفى .

ولسوف يكون ثمة وقت حقاً
للدخان الأصفر المنزلق على الشارع
والذي يفرك ظهره على زجاج النوافذ،
لسوف يكون ثمة وقت، لسوف يكون ثمة وقت
لتهيء وجهاً تقابل به الوجوه التي تقابلها،
لسوف يكون ثمة وقت لتقتل وتخلق ،
ووقت لأعمال الأيدي وأيامها كافة،

وهي التي ترفع وتطرح سؤالاً في صحنك؛
ووقت لي ووقت لك،
وكذلك وقت لمئات الترددات ولمئات الرؤى والمراجعات،
قبل تناول الشاي وقطعة خبز محمص
في الغرفة النسوة يأتين ويذهبن
ويتحدثن عن مايكل انجلو

ولسوف يكون ثمة وقت حقاً
لأتساءل، «هل أجرؤ ؟» و «هل أجرؤ ؟»
ووقت لأعود وأهبط الدرج
ببقعة صلعاء في منتصف شعري -
(لسوف يقولون : «لكم أصبح شعره متفرقاً !»)
وبمعطفي الصباحي، وبياقتي الصاعدة بثبات الى ذقني .
رباط عنقي غال ومحتشم، ولكنه مثبت بدبوس بسيط -
(لسوف يقولون : «كم هما هزيلان ذراعاه ورجلاه !»)
هل أجرؤ على أن أزعج
الكون ؟

في دقيقة ثمة وقت
لقرارات ومراجعات تبطلها دقيقة
لأنني قد خبرتها كلها مسبقاً، خبرتها جميعاً -
خبرت الأمسيات والأصباح والآصال وقست حياتي بملاعق قهوة؛

أعرف الأصوات المحتضرة بسقوط محتضر

تحت الموسيقى المنبعثة من غرفة قصية .
إذن، أنّــى لي أن أتجرأ ؟

ولقد سبق لي أن خبرت العيون، خبرتها جميعاً ـ
العيون التي تقيدك في عبارة مصوغة،
وحين أصاغ، مهوّشاً على دبوس،
وحين يغرزني الدبوس فأتلوى على الجدار،
أنّــى لي عندها أن أبدأ
بلفظ النهايات الأرومية لأيامي ومسالكي ؟
وأنّــى لي أن أتجرأ ؟

ولقد سبق لي أن خبرت الأذرع، خبرتها جميعاً ـ
أذرع محلاة بالأساور، بيضاء وعارية،
(ولكنها في ضوء المصباح، يكسوها شعر بني خفيف !)
أتراه عطر ينبعث من فستان
ذاك الذي يجعلني أشرد على هذا النحو ؟
أذرع ترقد على منضدة، أو تتدثر بشال .
وهل أجرؤ عند ذاك ؟
وكيف أبدأ ؟
أأقول إني تجولت في الغسق عبر الشوارع الضيقة
وأبصرت الدخان المتصاعد من غلايين
رجال متوحدين يطلون من النوافذ
بقمصانهم ذات الأكمام ؟
كان ينبغي أن أكون زوجاً من المخالب الشعثاء

تشدخ قيعان البحار الصامتة

* * *

والأصيل، أو المساء، ينام بسلام !

مصقولاً بأنامل طويلة،

مغف .. منهك .. أو هو يتمارض،

يتمطى على الأرض، هنا الى جانبي وجانبك.

أو تكون لي، بعد الشاي والكعك والمثلجات،

القدرة على تصعيد اللحظة إلى أزمتها ؟

وعلى الرغم من أنني انتحبت وصُمت، انتحبت وابتهلت،

وعلى الرغم من أنني رأيت رأسي (الذي بدأ فيه الصلع قليلاً)

يقدّم على طبق،

فلست نبياً ـ وما تلك بمسألة عظيمة،

ورأيت لحظة عظمتي تترجرج،

ورأيت الخادم الأبدي يمسك معطفي، ويضحك بفتور،

وبإيجاز، لقد كنت خائفاً.

وهل الأمر جدير، بعد ذلك كله،

بعد الفناجين، والمربى، والشاي،

بين الخزف، وبين حديث عنك وعني،

هل هو جدير،

بأن تحسم المسألة بابتسامة،

وأن تهصر الكون فتصيره كرة

تدحرجها شطر سؤال مربك،

وأن تقول : «أنا العزير ، أتيت من الموتى،

وعدت لأسرد عليكم كل شيء ، لسوف أسرد

عليكم كل شيء» ـ
لو ان واحدة ، ترسخ وسادة قرب رأسها،
تقول : «ليس ذلك ما عنيت قط.
ليس ذلك، قط . »
وهل الأمر جدير، بعد ذلك كله،
هل هو جدير،
بعد غروب الشموس وباحات الأبواب
والشوارع المرقشة
بعد الروايات، وكؤوس الشاي، والتنورات
التي تتجرجر على الأرض ـ
وهذا، وما هو أكثر منه بكثير ؟ ـ
يستحيل أن أقول ما أعني تماماً !
ولكن كما لو أن فانوساً سحرياً أسقط الأعصاب
في نماذج على شاشة :
هل هو جدير
لو ان واحدة، ترسخ وسادة أو تطرح شالاً،
وتلتفت صوب النافذة، تقول :
«ليس ذلك قط،
ليس ذلك ما عنيت، قط» .

لا لستُ الأمير هاملت، وما كان لي أن أكون؛
إنني تابع الأمير، امرؤ يزيد الحاشية عدداً،
ويبدأ بمشهد أو مشهدين،
ينصح الأمير؛ أداة طيعة، لا ريب،

مُراع للآخرين، يبهجه أن يكون ذا نفع،
حصيف، حذر، موسوس؛
فخم العبارة، لكن بليد قليلاً؛
وفي بعض الأحيان، بل الحق، مضحك غالباً ـ
غالباً ، أحياناً ، الأبله .

إنني أشيخ ... انني أشيخ
ولسوف أرتدي سروالي معقوف العقبين .

هل سأفرق شعري الى الخلف ؟
هل أجرؤ على تناول خوخة ؟
سأرتدي سروالاً من الفانيلا البيضاء،
وأسير على الشاطىء .
سمعت حوريات البحر يغنين، الواحدة للأخرى.
لا أحسب أنهن سيغنين لي .

* * *

أبصرتهن يركبن صوب البحر على الأمواج
ويمشطن شعر الأمواج الأبيض المتناثر الى الوراء
عندما تعصف الريح بالماء الأبيض والأسود

نتلبث في حجرات البحر
مع فتيات البحر المكللات بالعشب البحري الأحمر والبني
الى أن توقظنا الأصوات البشرية، فنغرق .

إرنست همنغواي
(١٨٩٩ ـ ١٩٦١)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

لم يستطع أي من كتّاب أمريكا العظام أن يحرز الشعبية والسمعة العالمية اللتين أحرزهما ارنست همنجواي، سواء على نطاق حياته الشخصية أو أعماله الأدبية. ولابد من الاشارة هنا الى أن الاسلوب اللغوي الذي طوره كان نسيج وحده. حصل على جائزة نوبل للآداب لعام ١٩٥٤ ووضع حداً لحياته بإطلاق الرصاص على رأسه عام ١٩٦١ .

حياته :

تأثر كاتبنا وهو صغير بوالده الذي كان طبيباً مولعاً بالصيد والرياضة الخلوية. وكذلك بوالدته التي كانت معلمة موسيقى وتصطحب أطفالها الستة الى معارض الرسم والمسرحيات والحفلات الموسيقية. ومارس في المدرسة مختلف الأنشطة الأدبية والرياضية والثقافية . رفض دخول الجامعة وعمل كمراسل صحفي . التحق عام ١٩١٨ ، إثر دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى بالفريق الطبي (سيارات الاسعاف) وأصيب بجرح خطير وتبع ذلك جروح عديدة وكان لجروحه هذه تأثير كبيراً في تحوله نحو الكتابة الأدبية . تزوج عام ١٩٢٠ وسافر للاقامة في باريس وصار من أولئك الكتاب الأمريكيين الذين اختاروا الإقامة في فرنسا واطلقت عليهم جرترود ستاين لقب «الجيل الضائع» من أمثال باوند ودوس باسوس وفتزجرالد. وكان الشعور بخيبة الأمل والضياع وعدم الانتماء شائعاً لدى هؤلاء الكتاب وغيرهم بل والكثير من الناس العاديين وخاصة إثر الحرب وأهوالها والكلمات التي استعملها الساسة وتجار

الحروب لتبريرها . وصار هذا كله مادة لكتابات همنجواي .

امضى جزء كبيراً من حياته خارج الولايات المتحدة بما في ذلك رحلات صيد متكررة في افريقيا . تزوج أربع مرات . ودخل في خصومات (أحياناً قذرة) مع معظم الذين ساعدوه في حياته الأدبية. وأنهى حياته بالانتحار بعد ما أصيب به من أمراض وإحساسه بأنه لم يعد يستطيع الكتابة .

أعماله وافكاره :

ظهرت أولى رواياته **الشمس تشرق ايضاً (The Sun Also Rises)** عام ١٩٢٦ وما يزال الكثيرون يعتبرونها أفضل رواياته وهي تروي بشكل غير مباشر حياة مغتربين أمريكيين في اوربا وشربهم ومغامراتهم وسهراتهم . ويرويها مراسل صحفي أمريكي في باريس. واستطاعت هذه الرواية ان تقدم صورة حقيقية لا لحياة الجيل الضائع فحسب بل أيضاً للشعور العام السائد بعد الحرب العالمية الأولى وما تركته من جراح جسدية ونفسية. كانت روايته الثانية **وداع للسلاح (A Farewell to Arms)** وهي قصة حب ضابط إسعاف امريكي وممرضة انجليزية اثناء الحرب العالمية الأولى في ايطاليا . أما تغطيته كمراسل حربي للحرب الأهلية الاسبانية فقد اعطته مادة رواية **لمن تقرع الأجراس (For Whom the Bell Tolls)** وهي قصة أكاديمي أمريكي ، يعمل مع مجموعة من الفلاحين الاسبان الذين يحاربون ضد فرانكو، ويضحي بنفسه من أجل ثورتهم . أما مغامراته في الصيد عامة وفي أفريقيا فقد انعكست في عدد من قصصه القصيرة وخاصة «ثلوج كلمنجارو» (The Snows of Kilimanjaro) و «حياة فرانسيس ماكومبير القصيرة السعيدة» (The Short Happy Life of Francis Macomber) .

أما آخر رواياته القصيرة **العجوز والبحر (The Old Man and the Sea)** فكانت أكثر رواياته شعبية وأدت الى نيله جائزة نوبل عام ١٩٥٤ .

اتخذ همنجواي موقفاً خاصاً من المدرسة الواقعية التقليدية، فهو يعتمد عليها ويعارضها في آن واحد. **وهو يرى ان الكاتب يخلق شيئاً كاملاً جديداً أكثر صدقاً من أي شيء حقيقي آخر، وذلك من أشياء موجودة كما هي ومن كل الأشياء التي يعرفها والاشياء التي لا يمكنه أن يعرفها. ويتم ذلك الخلق بمقدرة الكاتب على الابداع.** وما يذكر في هذا المجال ان همنجواي تعرض لنقد **مرير في الثلاثينات لأنه لم يبد اهتماماً في كتاباته بمتاعب الناس** في تلك الفترة من **الكساد الاقتصادي والبطالة والمعاناة ، بل استمر في كتاباته** عن الاستمتاع بالحياة رياضة وشرباً **ومغامرة. وعلق همنجواي على ذلك بأنه** «ليس هناك من يسار ويمين في الكتابة، لا يوجد سوى

كـتـابة جـيدة وكتابـة رديئـة . » وفي قوله هذا تلميح الى انتقادات اليسار له كما سبق . واحدة فقط من رواياته ، وهي الوحـيـدة التي تدور أحـداثهـا في امريكا ، تروي قصـة قبطـان سفينـة يحـارب ضـد ظـروف فـتـرة الكسـاد ، وعنوان الروايـة أن تـمـلـك وأن لا تـمـلـك (١٩٣٧) (To Have and Have Not) .

من أشـهـر أوجـه أدب همنجـواي وجـود بطل ذي مـلامح خـاصـة يسمى بطل همنجواي. ولهذا البطل فلسـفـتـه أو نظامـه الخاص في الحياة. فهو يواجه الحياة بشجاعة مدركاً تفاهتها وانعدام مـعناها، ولذلك فـانه لا يخلق لنفـسـه أية أوهام يخدع نفسه بها. وهو يعرف ان الحقيقة الكبرى في الحـيـاة هي الموت ويعـرف ان عليه أن يواجهه بشجاعة ونبل. ويتبع في حياته وفي مواجهته للموت نظامـاً صـارمـاً يتـقـيد به. وفي مواجهته الهزيمة يقف بطل همنجواي بشجاعة ونبل. وفي وقفته هذه ضـد الهزيمـة أو الموت يستخلص البطل معنى لحياته في حياة لا معنى لها. وموقفه هذا يمليه عليه نظامـه الخـاص أو أسلوبه، سـواء كـان مصارعاً في حلبة مصارعة الثيران، أو جندياً في الحرب، أو صـيـاداً، أو عـاشـقاً، أو كاتباً. إذ يفرض كل من هؤلاء على نفسه نظاماً خاصاً صارماً هو وسيلته لخلق مـعنى لحـيـاته. ومن هنا اهتمام همنجـواي بمـواضـيـعـه هذه. وهذا البطل متذوق كثيراً لما في العـالم المادي من جمال وهو يستـمـتـع بهذا الجمال بحـواسـه. وأكبر هذه المتع الحـسـية هي الشراب والجنس اللذين يرقى بهما همنجـواي الى مرتبة تشبه الدين حيث انهما تساعدان بطله على ايجاد معنى للحياة. وباختصار فإن عالم همنجواي هو عالم بلا إلـه ولا معنى وعلى البطل أن يخلق ذلك المعنى باتباع نظامه .

مساهمته وموقعه في الأدب الأمريكي :

من النقـاد من يعتبر أن مـسـاهمته الرئيسية هي في ميدان القصة القصيرة التي أغناها بنظرة نفـسـيـة وبإبداع واضـح في بناء الحبكـة المتماسكـة وفي الحـوار الدرامي الرائع .

وسـواء في الـقـصـة القـصيرة أو الرواية القـصيرة أو الرواية، وفي الفن القـصصي أو السردي بشكل عـام ، فإن مـسـاهمتـه الرئيـسـيـة هي في مجال الأسلوب اللغوي. والأسلوب اللغوي لدى همنجـواي يكتسب أهمية خاصة ويتبين ذلك مما ذكر في الفقرة السابقة عن أن الاسلوب للكاتب هو النظام الذي يفـرضـه على نفسـه ويتبـعه بصرامة كما يتبع كل من الجندي ومصارع الثيران والصياد والعـاشق نظامـه الخـاص، الذي يؤدي به الى خلق مـعنى لحياته. وقد أثر اسلوبه في عدد كبير من الكتـاب الذين حـاولوا محاكـاته لما يبدو عليه من بساطـة . ولكن الواقـع ان بساطتـه من نوع آخر: لقـد سماه الكاتب نفـسـه بأسلـوب جـبل الجليـد الذي يكون في الماء فيظهر ثمنه فقط وتكون بقيته

تحت سطح الماء. وقد كره همنجواي الكلمات الكبيرة الجوفاء التي تستعمل لخلق أوهام تزور الحقيقة وكذلك الصفات التي يستعملها الكتاب للتعبير عن مشاعر فردية شخصية. لقد تخلص من هذين النوعين من الكلمات حتى يتمكن من تصوير الواقع على طريقته. وقد تبلور اسلوبه هذا بعد تجربته كمراسل حربي يهتم أول ما يهتم بالواقع كما هو .

ورغم تأثير اسلوبه هذا في جيلين من الروائيين فقد تعرض للكثير من المحاكاة التي تحاول السخرية منه ومما يبدو عليه من بساطة .

حياة فرانسيس ماكومبير القصيرة السعيدة (*)

[في ظاهرها هذه قصة رحلة صيد يقوم بها في كينيا امريكيان : زوج وزوجته. يرافقهما في الصيد صياد أبيض من كينيا وعدد من الخدم المحليين. الزوج ثري ومقبول الشكل؛ أما الزوجة فما زال عليها مسحة من الجمال. وهما في العام الحادي عشر لزواجهما الذي يبدو أنه سيستمر على روتينيته بعد أن عرف كل منهما الآخر على حقيقته. في محاولة لصيد الأسد يجبن الزوج (فرانسيس) ويهرب ولكن ويلسون (الصياد الأبيض) يصطاد الأسد . تشمئز الزوجة من زوجها لجبنه وتقضي تلك الليلة، بعد أن نام زوجها، في احضان الصياد إعجاباً به. يدرك الزوج ما حصل وتتوتر العلاقة بين الثلاثة. في نهاية القصة وفي موقف مفتوح لتفسيرات عديدة يسترد فرانسيس شجاعته ويقتل جاموساً ضخماً وهو هاجم عليه وعلى مقربة منه. ولكن رصاصة اطلقتها زوجته عليه (فرانسيس) ترديه قتيلاً. هل قتلته لما شاب علاقتها مؤخراً من أزمة ؟ خاصة بعدما رأته يسترجع شجاعته وثقته بنفسه (في الجزء الأخير من القصة الذي لم أشأ أن الخصه اعلاه لأترك للقارىء متعة تتبع الأحداث بنفسه) وخشيت أن يتركها بعدئذ ؟ هل نثق بكلام ويلسون ـ الصياد ـ مع أن هناك ما يشير الى أنه غير أهل للثقة إذ يتهمها بقتل زوجها ؟ أم ترى هل حملت البندقية لتقتل الجاموس المتوحش حين رأته يقترب من زوجها ولكن حين اطلقت الرصاص بالفعل كان ذلك استجابة لدافع داخلي أعمق وهو قتل زوجها ؟ لعل هذه الاحتمالات تشجع القارىء على قراءة القصة والتمعن فيها وتكوين استنتاجاته بنفسه] .

المحرر

حل وقت الغذاء وجلسوا جميعاً تحت الرفرف الأخضر المزدوج لباب خيمة الطعام متظاهرين بأن شيئاً لم يحدث .

سأل ماكومبير :

ـ أتريد عصير ليم أو عصير ليمون ؟

(*) من كتاب **حياة فرانسيس ماكومبير القصيرة السعيدة وقصص أخرى** ، ترجمة سمير عزت نصار ، دار الشروق للنشر والتوزيع ـ عمان ـ الأردن .

قال روبرت ويلسون :

ـ سآخذ جيمليت .

قالت زوجة ماكومبير :

ـ سآخذ جيمليت أيضاً. أحتاج الى شيء ما .

وافق ماكومبير على هذا قائلاً :

ـ اعتقد بأن هذا هو الشيء المناسب فعله . أطلب منه إعداد ثلاثة كؤوس من الجيمليت .

بدأ الصبي المسؤول عن الطعام باعدادها وقد أخرج الزجاجات من حقائب القنّب المبردة التي رشحت بللاً في الريح التي هبت خلال الأشجار التي ألقت ظلالها على الخيام .

سأل ماكومبير :

ـ كم يجب علي أن أعطيهم ؟

قال له ويلسون :

ـ جنيه واحدة مبلغ كبير، أنت لا تريد إفسادهم .

ـ هل سيوزعها رئيس المجموعة عليهم ؟

ـ دون شك .

قبل نصف ساعة حُمل فرانسيس ماكومبير ، مجللاً بالنصر ، الى خيمته من طرف المخيم على أذرع وأكتاف الطباخ وخادميه الشخصيين وسالخ الطرائد والحمالين. لم يشارك حاملا البنادق في المظاهرة . عندما أنزله الغلمان الوطنيون عند باب خيمته صافحهم واحداً واحداً وتلقى تهانيهم ثم دخل الخيمة وجلس على السرير الى أن دخلت زوجته. لم تكلمه حين دخلت وبادر هو بالخروج حال دخولها ليغسل وجهه ويديه في حوض الغسيل المحمول والمتنقل والموضوع خارج الخيمة ثم اتجه نحو خيمة الطعام ليجلس على كرسي قنّب مريح في النسيم والظل .

ألقت السيـدة ماكومبير نظرة سريعة على ويلسون. كانت امرأة مفرطة الأناقة وحسـنة المظهـر بجمال ووضع اجتماعي مرمـوقين استـحـقت عليـهما، قـبل خمس سنـوات، خمسـة آلاف دولار كـأجـر عـلى قـيـامـهـا بالدعـاية المصـورة لترويج بيع مسـتـحضرات تجـميـل لم تسـتـعـملها هي نفسها أبداً. لقد انقضى على زواجها من فـرانسيس ماكومبير إحدى عشرة سنة.

قال ماكومبير :

ـ إنه أسد رائع، أليس كذلك.

نـظـرت زوجـتـه اليـه الآن. نظرت الى هذين الرجلين كما لو أنها لم ترهما من قـبل. كـان أحـدهما : ويلسون، الصياد الأبيض الذي عرفت الآن بأنها لم تره على حقـيـقـتـه من قبل، متوسط الطول تقريباً بشعر رملي اللون وشاربين قصيرين غليظين ووجـه بالغ الاحمرار وعـينين مـفـرطتي البرودة والزرقة مع تجعيدات بيضاء طفيفة على زواياهما التي كـانت تتـغـضن بمـرح حـينما يبتسم. ابتسم لها الآن، وتحولت نظراتها عن وجـهـه واتجـهت بها الى طريقـة انحناء كـتـفـيه داخل ردائه الاغريقي الفضفاض الـذي كـان يـرتديه مع الخـراطيش الأربعـة المثبـتـة على شكل عُرى في المكان الذي يـفـترض فـيـه وجـود جـيـب الـصـدر الأيسر، والى يديه الكبيرتين السـمـراوين والى سرواله القـديم والى جـزمـتـه البـالغـة القذارة ثم عادت بنظراتها الى وجهه الأحمر مرة أخـرى. لاحظت المكان الذي ينتـهي فـيـه اللون الأحمر المحـروق من وجهه في خط أبيض حـدّدته الدائرة التي كـونتـهـا قـبعة ستيتسون التي كانت معلقة الآن على أحد مشاجب عمود الخيمة.

قال روبرت ويلسون :

ـ حسناً، نخب الأسد.

ابتـسم لها مـرة أخـرى، ودون أن تبـتـسم، نظرت بفـضـول الى زوجها. كان فـرانسـيس مـاكـومبير فارع الطول متناسق البنيان جداً، إذا صرفت النظر عن الطول المفـرط لعظامه ؛ أسمر بشعر قصير مثل شعر مجذفي القوارب، رقيق الشفتين الى حد مـا، ويمكن اعـتباره وسيماً. كان يرتدي نفس ملابس الصيد التي يرتديها ويلسون

إلا أن ملابسه كانت جديدة، وكان في الخامسة والثلاثين من عمره يحافظ تماماً على لياقته البدنية كما وأنه كان ماهراً في لعب التنس وكرة السلة والطائرة وقد سجل أرقاماً قياسية في صيد السمك، ومنذ لحظات بان وظهر، علانية وعلى الملأ، بأنه جبان .

قال :

ـ نخب الأسد. لن أفيك حقك من الشكر على ما قمت به .

حولت زوجته مارجريت نظراتها عنه وأعادتها الى ويلسون.

قالت :

ـ لنكف عن الكلام عن الأسد .

نظر إليها ويلسون دون أن يبتسم وابتسمت له الآن. قالت :

ـ كان يوماً غريباً. ألا ينبغي عليك أن تعتمر قبعتك حتى داخل الخيمة ظهراً ؟ لقد أخبرتني بذلك من قبل، كما تعلم .

قال ويلسون :

ـ قد أعتمرها .

قالت تخاطبه :

ـ أتعرف بأن لك وجهاً شديد الحمرة يا سيد ويلسون .

وابتسمت مرة أخرى .

قال ويلسون :

ـ الشراب .

قالت :

ـ لا أظن هذا . يشرب فرانسيس كثيراً ولكن وجهه لا يحمر أبداً .

قال ماكومبير محاولاً إطلاق نكتة :

ـ إنه أحمر اليوم .

قـالت مارغوت :

ـ لا. إن وجـهي هو الأحمر اليـوم، ولكن وجه ويلسون أحمر دائماً .

قال ويلسون :

ـ لابد أنه وراثي. أقـول لك : ألا تنوين الكف عن اتخاذ جمالي كـموضوع لحديثك، بالله عليك .

ـ بدأت به الآن فقط .

قال ويلسون :

ـ لنتركه جانباً .

قالت مارجريت :

ـ سيكون الحديث صعباً جداً .

قال زوجها :

ـ لا تكوني سـخيفة يا مارغوت .

قال ويلسون :

ـ بدون صعوبة حصلنا على أسد رائع لعين .

نظرت مـارجـريت اليـهما كليـهما ورأى كـلاهما بأنها سـتنفـجـر بالبكاء ، رأى ويلسـون بأن هذا كـاد يحصل منذ وقت طويل، وكان هذا يروعه. وكان ماكومبير قد تجاوز مرحلة الروع الذي سيسببه هذا البكاء .

قالت :

ـ يا ليت هذا لم يحدث، أوه. أتمنى أن لا يكون هذا قد حدث .

انطلقت نحـو خـيمتها. لم يصدر صوت بكاء عنها. ولكنهما رأيا كتفيها يهتزان تحت القميص الوردي غير المنفذ للشمس الذي ترتديه .

قال ويلسون للرجل الطويل :

ـ وعكة نساء لن تؤدي الى شيء. إجهاد أعصاب وتراكم مشاكل على بعضها البعض .

قال ماكومبير :

ـ لا. أظن بأنني سأحسب حساباً لهذا طيلة ما بقي لي من عمر .

قال ويلسون :

ـ هراء. لنلق نظرة على القاتل العملاق. إنس كل ما يتعلق بهذا الموضوع. لن يؤدي هذا الى شيء .

قال ماكومبير :

ـ يمكننا أن نحاول. ومع هذا لن أنسى ما قمت به من أجلي .

قال ويلسون :

ـ لا شيء. كل هذا لا شيء .

وهكذا جلسا هناك في الظل حيث نصبت الخيمة تحت أشجار السنط الوارفة ومن ورائها جرف مكسو بصخور جلمودية وامتدت أمامها بقعة عشبية حتى ضفة جدول ماء ازدحمت فيه الصخور الكبيرة بينما ترامت الغابة فيما وراءه، شربا عصير الليم البارد وتجنب كل منهما عيني الآخر بينما كان الولدان يعدان الطاولة للغذاء. استطاع ويلسون أن يستشف بأن جميع الأولاد قد عرفوا عن الأمر الآن، وحين رأى خادم ماكومبير الشخصي ينظر بفضول الى سيده وهو يضع الأطباق على الطاولة قذفه بكلمات باللغة السواحلية. أشاح الولد بوجه خال من أي معنى .

سأل ماكومبير :

ـ ماذا قلت له ؟

ـ لا شيء. طلبت منه أن ينشط بالعمل وإلا نال خمسة عشرة من أفضل الأنواع .

ـ ما هي ؟ جلدة ؟

قال ويلسون :

ـ إنه عمل قانوني تماماً. من المفروض أن تعاقبهم .

ـ ألا زلت تجلدهم ؟

ـ أوه. نعم. يمكنهم أن يقيموا الدنيا ويقعدوها إذا بدأوا بالشكوى. ولكنهم لا يفعلون هذا. يفضلون ذلك على الغرامة .

قال ماكومبير :

ـ يا له من موقف غريب .

قال ويلسون :

ـ ليس غريباً بالحقيقة . أيهما تفضل : أن تجلد أم تفقد أجرك ؟ ثم شعر بالحرج لطرحه هذا السؤال ، وقبل أن يتمكن ماكومبير من الإجابة ، تابع ويلسون قائلاً :

ـ كلنا يذوق طعم الضرب يومياً، بطريقة أو بأخرى كما تعرف. لم يكن هذا الكلام خيراً من سابقه. فكر : «يا إلهي، أنا لبق، أليس كذلك ؟» .

قال ماكومبير وهو لا يزال مشيحاً بنظره عنه :

ـ نعم. كلنا نتلقى الضربات . أنا آسف جداً لموضوع الأسد . يجب أن لا يصل الى أبعد من هنا ، أليس كذلك ؟ أعني بأن أحداً لن يسمع شيئاً عن هذا الموضوع ، أليس كذلك ؟

ـ تعني ، إن كنت سأقص ما حدث في نادي ماثايجا ؟

نظر إليه ويلسون الآن ببرود . لم يكن يتوقع هذا . فكر : ما هو إلا رجل دنيء إضافة الى أنه جبان رعديد . لقد أحببته حتى اليوم الى حد ما . ولكن، كيف يمكن للمرء أن يفهم أمريكياً ؟

قال ويلسون :

ـ لا . أنا صياد محترف. نحن لا نتحدث عن زبائننا أبداً . يمكنك الإطمئنان تماماً

فـيما يتعلق بذلك. من المفترض أن طلبك منا أن لا نتحدث عما حدث هو تصرف سيء .

قـرر بأن قطع عـلاقته به الآن سيكون أسهل بكثير. حينذاك، سيتناول الطعام لوحـده، وسـيكون من الممكن أن يقـرأ كـتـاباً أثناء تناوله وجباته. سيتناولان الطعام لـوحـدهما وسـيراهما خـلال رحـلة الصـيـد على أسـاس رسـمي فـقط ـ كـيف يدعـو الفـرنسـيـون وضـعـاً كـهـذا ؟ اعـتـبـارات متمايزة ـ سيكون مشهداً لعيناً، أسهل من الانغماس في ورطة هذه النفـاية العـاطفـيـة. سـيـهـينه وينهي العـلاقـة بطريقة جيدة ونظيـفـة. وحـينذاك، سيكون باستطاعته قراءة كتاب أثناء تناول الوجبات وسيواصل شرب ويسكيـهما. ذلك هو التـعـبير عن الوضع حين يسـوء الحـال أثناء رحلة صيد. تصـادف صـياداً أبيض آخر وتسأله : «كيف تسير الأمور ؟» ويجيب : «آه. ما زلت أشرب وسكيـهم.» وتعرف حينذاك بأن الأمور ساءت تماماً .

قال ماكومبير :

ـ أنا آسف .

ونظر إليـه بوجـهه الأمريكي الذي سيبقى مراهقاً الى أن يبلغ صاحبه منتصف العـمـر، ولاحظ ويلسـون شـعـره بقـصـة البحارة القصيرة وعينيه الجميلتين الماكرتين قليـلاً وأنفه الجميل وشفتيه الرقيقتين وفكه الجميل .

ـ أنا آسف. لم أعرف ذلك. هناك الكثير من الأشياء التي لا أعرفها.

فكر ويلسـون : ماذا يمكنه فعله، كان على استعداد كامل لقطع هذه العلاقة بسرعـة وبراعة، ولكن هذا المتسول يعتذر الآن بعد أن أهانه. قام بمحاولة أخرى .

قال :

ـ لا تـقـلق. لن أتكلم ، علـيّ أن أكسب رزقي . وكما تعـرف ، فما من امـرأة في أفريقيا تخطيء إصابة أسدها وما من رجل أبيض يفر هارباً .

قال ماكومبير :

ـ لقد فررت أنا كأرنب .

تساءل ويلسون : الآن ، ما الذي ستفعله ، بحق الجحيم ، برجل يتكلم بهذه الطريقة.

نظر ويلسون الى ماكومبير بعينين زرقاوين كامدتين لرام عِلى مدفع رشاش، ورد الآخر على ابتسامته. كانت ابتسامة بهيجة اذا لم تلاحظ كيف تبدو عيناه حين تجرح أحاسيسه .

قال :

- قد أتمكن من إصلاح هذا بجاموس. سنطاردها في المرة القادمة، أليس كذلك ؟

قال له ويلسون :

- في الصباح، إن أردت .

قد يكون مخطئاً. من المؤكد أن هذه هي الطريقة التي عليك أخذ الأمر بها. من المؤكد تماماً بأنك لن تستطيع تحديد الحال الذي يمكن أن يكون عليه أي أمريكي. أصبح في صف ماكومبير قلباً وقالباً مرة أخرى. لو أمكنك نسيان الصباح. ولكنك لن تستطيع نسيان هذا طبعاً. كان الصباح على نفس سوء الحال الذي وصلا إليه تقريباً .

قال :

- ها هي المصاحب (*) قادمة .

مشت بقربه من خيمتها وقد بدت نضرة سعيدة وفاتنة تماماً . كان لها وجه بيضاوي دقيق دقة متناهية تحملك على الظن أنها غبية. فكر ويلسون : لكنها ليست غبية. لا . إنها ليست غبية .

- كيف حال السيد ويلسون الجميل الأحمر الوجه ؟ أتحسنت حالتك يا فرانسيس يا لؤلؤتي ؟

(*) المصاحب : لقب يطلقه سكان الهند أو الأفارقة على السيدات البيض وخاصة زوجات كبار الموظفين ـ وذلك على سبيل التبجيل . [المحرر]

قال ماكومبير :

ـ أوه. كثيراً .

قالت وهي تجلس الى الطاولة :

ـ لقد اسقطت الموضوع كله من حسابي. ما أهمية أن يكون فرانسيس ماهراً في صيد وقتل الأسود ؟ هذه ليست مهنته. هذه مهنة السيد ويلسون . إن السيد ويلسون مؤثر حقاً في قتل أي شيء. أنت تقتل أي شيء أليس كذلك ؟

قال ويلسون :

ـ أوه أي شيء. ببساطة : أي شيء .

فكر : إنهن أصعب الخلق في هذا العالم أصعب الخلق وأقساهن وأكثرهن ضراوة وجاذبية، ويرق رجالهن أو يتناثرون قطعاً بعصبية عندما يزددن قسوة. أو أنهن يلتقطن الرجال الذين يستطعن تطويعهم فقط ؟ فكر : إنهن لا يعرفن الكثير عن هذا وهن في سن الزواج. كان ممتناً لأنه كان قد انهى تعليمه عن النساء الأمريكيات وتعامله معهن قبل الآن لأن هذه المرأة جذابة جداً .

قال :

ـ سنطارد الجواميس في الصباح .

قالت :

ـ سآتي .

ـ لا. لن تأتي .

ـ أوه. نعم. سآتي. أليس كذلك يا فرانسيس.

ـ لم لا تبقين في المخيم ؟

قالت :

ـ لا. ولا مقابل أي شيء. لن يفوتني شيء مثلما جرى اليوم مقابل أي شيء .

عندما غادرتها كان ويلسون يفكر : عندما تركتنا لتبكي بدت امرأة جميلة جمالاً باهراً. بدت بأنها تفهم وتدرك وتتألم من أجله ومن أجل نفسها ، وتعرف كيف تسير الأمور حقاً . غابت لمدة عشرين دقيقة وها هي تعود الآن وقد طلتها ببساطة تلك القسوة الأنثوية الأمريكية . إنهن ألعن النساء قاطبة . في الحقيقة ألعنهن .

قال فرانسيس ماكومبير :

ـ سنعد عرضاً آخر لكم غداً .

قال ويلسون :

ـ لن تأتي .

قالت له :

ـ أنت مخطيء تماماً ، تتآكلني رغبة عارمة لأراك تقوم بإنجازاتك مرة أخرى. كنت مدهشاً هذا الصباح. هذا إذا كان تفجير رؤوس الأشياء عملاً مدهشاً .

ـ الغداء جاهز. أنت مرحة جداً، أليس كذلك ؟

ـ لم لا ، لم أحضر هنا لأقضي وقتاً مملاً .

قال ويلسون :

ـ حسناً. لم يكن الوقت مملاً .

كان يمكنه رؤية الصخور في النهر والضفة العالية التي تغطيها الأشجار وراءه وتذكر الصباح .

قالت :

ـ أوه. لا. لقد كان ساحراً. وغداً. أنت لا تعرف مدى اشتياقي للغد .

قال ويلسون :

ـ إن هذا اللحم الذي يقدمه إليك هو لحم العلند .

ـ العلند : تلك الحيوانات البقرية الكبيرة التي تقفز مثل الأرانب البرية، أليس كذلك؟

قال ويلسون :

ـ أعتقد بأن هذه هي أوصافها .

قال ماكومبير :

ـ إن لحمها لذيذ جداً .

سألت :

ـ هل اصطدتها يا فرانسيس ؟

ـ نعم .

ـ إنها ليست خطرة، أليس كذلك ؟

قال ويلسون لها :

ـ إلا اذا انقضت عليك .

ـ أنا مسرورة جداً .

قال ماكومبير وهو يقطع شرائح العلند ويضع البطاطا المهروسة ومرق اللحم والجزر على الشوكة المقلوبة التي تخللت قطعة اللحم .

ـ لم لا تتوقفي عن الغمز واللمز حتى ولو قليلاً يا مارغوت ؟

قالت :

ـ أظن أنه يمكنني فعل هذا، ما دمت تعبر عن هذا بطريقتك الجميلة هذه .

قال ويلسون :

ـ سنشرب الليلة الشمبانيا نخب الأسد . إن الطقس بارد جداً عند الظهر .

قالت مارغوت :

ـ آه ، الأسد . لقد نسيت الأسد .

فكر روبرت ويلسون لنفسه : ها هي تفتح أمامه باباً، أليس كذلك ؟ أو ترى بأن هذه هي طريقتها بتقديم عرض ممتع ؟ كيف يجب أن تتصرف امرأة حين تكتشف بأن زوجها جبان رعديد ؟ إنها قاسية الى حد اللعنة، ولكنهن كلهن قاسيات. هن اللواتي يحكمن طبعاً، وعلى الإنسان حين يحكم أن يكون قاسياً أحياناً مع ذلك، فقد رأيت ما فيه الكفاية من إرهابهن اللعين .

قال بأدب :

ـ خذي المزيد من لحم العلند .

في ذلك الوقت المتأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، خرج ويلسون وماكومبير في سيارة مع السائق الوطني الأفريقي واثنين من حاملي البنادق. بقيت السيدة ماكومبير في المخيم. قالت بأن الطقس حار جداً بشكل لا يشجع على الخروج، وبأنها ستذهب معهم في الصباح الباكر. وفيما كانت السيارة تنطلق، رآها ويلسون تقف تحت الشجرة الكبيرة وقد بدت مليحة أكثر منها جميلة في ملابس الخاكي الوردي الفاتحة وشعرها الخروبي مزاح بعيداً عن جبينها ومجمّع في عقدة منخفضة على رقبتها، ووجهها نضرٌ كما لو كانت تقيم في إنجلترا. لوحت بيدها إليهما والسيارة تبتعد عبر منخفض مستنقعي مغطى بعشب عال وملتف عبر الأشجار الى داخل تلال صغيرة لدغل بساتين .

وبين دغل البساتين ، رأوا قطيعاً من بقر الوحش ، وبعد أن نزلوا من السيارة، طاردوا كبشاً كبيراً بقرون طويلة متفرعة وقتله ماكومبير بطلقة جديرة بالإكبار أطاحت بالوعل وطرحته أرضاً على مسافة مائتي ياردة وجعلت القطيع يفر مبتعداً يضرب الأرض بوحشية ويقفز الواحد فوق ظهر الآخر قفزات طويلة وأرجلها ترتفع الى الأعلى بطريقة لا يمكن تصورها وتطفو في الفضاء كما يطفو الإنسان في الأحلام أحياناً .

قال ويلسون :

ـ كانت رمية رائعة، إنها هدف صغير .

سأل ماكومبير :

ـ هل هو رأس يستحق الجهد الذي بذل من أجله ؟

قال ويلسون :

ـ إنه ممتـاز. إن أطلقت الرصاص بهذه الطريقة فإنك لن تواجه أية متاعب .

ـ أتظن بأننا سنجد جواميس غداً ؟

ـ هناك فـرصـة طيبة لهذا. إنها تخرج للرعي في الصباح الباكر وإذا حالفنا الحظ فإننا سنمسك بها في مكان مكشوف .

قال ماكومبير :

ـ أود أن أزيل أثر حـادث الأسـد من النفوس. ليس من المبهج أبداً أن تراك زوجتك تفعل شيئاً كذلك .

فكر ويلسـون : أظن أنه سيكون أكثر إيلاماً فعله، بزوجة أو دون زوجة، أو الكلام عنه بعد اقترافك له .

ولكنه قال :

ـ لو كنت مكانك لما عـدت الى التـفكير بذلك الأمـر أبداً. أي انسـان قد يفشل مع أسده الأول. لقد انتهى الأمر تماماً .

ولـكن الأمـر ـ وهو يجلس أمـام النار في تلك الليلة مع كأس ويسكي وصـودا وقـبل أن يأوي الى الفراش، وبينما كان فرانسيس ماكومبير مستلقياً على سريره النقّال والناموسـيـة تنتـصب فـوقه وهو يصغي الى ضجيج الليل ـ لم يكن قد انتهى بعد. لم يكن قـد انتـهى تماماً ولم يكن قد بدأ بعد . ما زال الأمر هناك كما حدث تماماً ، وقد تمّ تأكـيـد بعض أجـزائه بشكل لا يمكن إزالتـه ومحوه، وكـان يحس بالخـزي منه على نحـو يائس لكنه أحس بخـوف بارد خـاوٍ أكـثـر مما أحس بالخـزي. وكان الخوف لا يزال هناك مـثل تجـويف لزج بارد في كـامل الفـراغ الذي كانت ثقته بنفسه تشغله في وقت من الأوقـات ، وأثار هذا الخـوف الغـثـيـان في نفـسه . كان لا يزال هناك معه الآن .

بدأ يحس به في الليلة السـابقـة حين استيقظ وسمع الأسد يزأر في مكان ما على

امتداد النهر. كان صوتاً عميقاً يعقب نهايته نوع من زمجرة ساعلة جعلته يبدو بأنه يقف في مكان خارج الخيمة تماماً، وحين استيقظ فرانسيس ماكومبير في الليل ليستمع إليه تسرب الخوف الى نفسه. أمكنه سماع زوجته تتنفس بهدوء وهي نائمة. لم يكن هناك من أحد ليخبره بأنه خائف وليشاركه إحساسه بالخوف، ولم يكن يعرف ـ وهو يستلقي وحيداً في سريره ـ المثل الصومالي الذي يقول بأن الرجل الشجاع يخاف من الأسد ثلاث مرات دائماً : حين يرى آثار الأسد لأول مرة ، وحين يسمعه يزأر لأول مرة وحين يواجهه لأول مرة . وبعد ذلك وبينما كانوا يتناولون الإفطار على ضوء الفانوس في خيمة الطعام، وقبل بزوغ الشمس زأر الأسد مرة أخرى وظن فرانسيس بأنه عند طرف المخيم تماماً .

قال روبرت ويلسون وهو يرفع نظره عن سمك السلمون والقهوة :

ـ يبدو مثل عجوز متمرس. استمع اليه يسعل .

ـ هل هو قريب جداً ؟

ـ حوالي الميل باتجاه أعلى الجدول .

ـ هل سنراه ؟

ـ سنلقي عليه نظرة .

ـ هل يقطع صوته مثل هذه المسافة الطويلة ؟ يبدو صوته كما لو كان في المخيم تماماً .

قال روبرت ويلسون :

ـ يقطع مسافة طويلة جداً. من الغريب أن يقطع كل تلك المسافة. آمل أن يكون قطاً يمكن صيده. قال الأولاد بأن أسداً ضخماً يتجول قريباً من هنا .

سأل ماكومبير :

ـ إن اتيحت لي فرصة إطلاق النار، أين يجب أن أصيبه حتى أوقفه ؟

قال ويلسون :

ـ في الكتفين. في العنق إن استطعت هذا. اطلق النار على عظامه. حطمه واطرحه أرضاً .

قال ماكومبير :

ـ آمل أن أتمكن من وضعها في المكان المناسب .

قال له ويلسون :

ـ أنت رامٍ ماهر جداً. تمهل، تأكد منه. أول طلقة تصيبه هي التي يُعول عليها .

ـ ما هو المدى المطلوب ؟

ـ لا يمكن التحديد. لدى الأسد ما يقوله عن ذلك. لا تطلق الرصاص إلا بعد أن تصبح على قرب كاف حتى يمكنك التأكد من إصابته .

سأل ماكومبير :

ـ على أقل من مائة ياردة ؟

ألقى ويلسون عليه نظرة سريعة :

ـ مائة ياردة هي مسافة صحيحة الى حد ما. قد يكون عليك أن تطلق عليه من مسافة أقصر. لن تتاح لك فرصة إطلاق الرصاص عليه من مسافة تزيد عن هذه المسافة. إن مائة ياردة مدى معقول. تستطيع إصابته في أي مكان تريد إصابته فيه من على مسافة كهذه. ها هي الممصاحب قادمة .

قالت :

ـ صباح الخير. هل سنطارد هذا الأسد ؟

قال ويلسون :

ـ حالما تنهين إفطارك. كيف تشعرين ؟

ـ رائعة، أنا منفعلة جداً .

ـ سأذهب لأتأكد من أن كل شيء جاهز .

ابتـعد ويلسون. وفيما هو يخرج، زأر الأسد مرة أخرى .

قال ويلسون :

ـ مـتسول مزعج. سنوقف ذلك .

سألته زوجته :

ـ ما بك يا فرانسيس ؟

قال ماكومبير :

ـ لاشيء.

قالت:

ـ لا. هناك شيء ما. ما الذي يزعجك ؟

قال :

ـ لا شيء.

نظرت إليه :

ـ قل لي. آأنت مريض ؟

قال :

ـ إنه ذلك الزئير اللعين. استمر طيلة الليل، كما تعرفين .

قالت :

ـ لِـمَ لَـمْ توقظني ؟ كنت أحببت سماع صوته .

قال وهو يحس بالبؤس :

ـ عليّ أن أقتل هذا الشيء اللعين .

ـ حسناً ، ذلك هو الغرض الذي جئت من أجله الى هنا، أليس كذلك ؟

ـ نعم . ولكنني عـصبي. سماع الشيء يزأر يثير أعصابي .

ـ حسناً إذاً ، ،كما يقـول ويلسون : اقتله وأوقف زئيره .

قال فرانسيس ماكومبير :

ـ نعم يا حبيبتي. يبدو الأمر سهلاً، أليس كذلك ؟

ـ أنت لست خائفاً ، أليس كذلك ؟

ـ طبـعاً لا. ولكنني عصبي لسماعي له يزأر طيلة الليل .

قالت :

ـ ستقتله على نحو رائع. أعرف بأنك ستفعل. أنا متلهفة الى أبعد حد لرؤية هذا .

ـ أكـملي إفطارك وسننطلق .

قالت :

ـ لم يطلع النور بعد. إنها ساعة سخيفة .

وفي تلك اللحظة تماماً، زأر الأسـد بأنين عـميق صادر عن صدره تحوّل فجأة الى صـوت حلقي ثم الى رجـفـة متصاعدة بدت بأنها تهز الهواء وانتهى بتنهيدة وزمجرة عـميقة ثقيلة صادرة عن صدره .

قـالت زوجة ماكومبير :

ـ يبدو وكأنه هنا .

قال ماكومبير :

ـ يا إلهي، إنني أكره هذا الصوت اللعين .

ـ إنه مؤثر جداً .

ـ مؤثر . إنه مخيف .

عـاد روبرت ويلسـون حـينذاك حـامـلاً بندقيته القصيرة القبيحة ذات الماسورة البـالغة الضخامة من نوع جيبز عيار ٥٠٥ر٠ وهو مقطب الجبين .

قال :

ـ تعـال. بندقيـتك سبرنجـفيلد والبندقية الضخمة مع حامل بنادقك. كل شيء في السيارة. هل لديك طلقات ؟

ـ نعم .

قالت السيدة ماكومبير :

ـ أنا جاهزة .

قال ويلسون :

ـ يجب أن نجبره على إيقـاف هذا الضـجيج. اجلس في المقدمة، تستطيع المصاحب الجلوس معي هنا في المقعد الخلفي .

صـعـدوا الى داخل السيـارة ، وفي أول ضوء رمادي للنهار ، انطلقوا مبتعدين نحـو أعلى النهـر عبر الأشـجـار. فـتح مـاكـومـبير اخمص بندقيته ورأى الرصاصات المغلّفـة بالمعـدن ثم سـدّ مـغـلاق البندقية ، ثبّت مسهار الأمان . رأى يده ترتعش . تحـسس داخل جـيـبـه بحـثـاً عن خراطيش أخرى وحرك أصابعه فوق الخراطيش في عـروات مـقدمة سترته . التفت الى المكان الذي يجلس فيه ويلسون في المقعد الخلفي من السيـارة الخـالية من الأبواب وذات الهيكل الصندوقي الى جانب زوجته، وكلاهما مـقطب الجبين بانفعال، ومال ويلسون الى الأمام وهمس :

ـ أنظر الى الطيـور وهي تهوى. هذا يعني بأن الولد العجوز قد ترك فريسته .

وعلى الضـفـة البـعـيـدة للجـدول، رأى مـاكـومبير الطيور الجارحة محلقة فوق الأشـجـار راسمة دوائر ومنقضة عمودياً الى الأسفل .

قال ويلسون هامساً :

ـ من المحتمل أن يمر من هنا ليشرب قبل أن يمضي لينام. استمر بالمراقبة .

انطلقت بهم السيـارة ببطء على امتداد الضفة العليا للجدول حيث شق طريقه على عـمق شـديد ليـصل الى قـاعـه المليء بالصخور ، ثم داروا داخلين بين الأشجار الضـخـمـة وخـارجين منهـا والسيارة تنطلق بهم. كان ماكومبير يراقب الضفة المقابلة

حين أحس بويلسون يمسك بذراعه. توقفت السيارة سمع الهمس :

ـ ها هو. أمامك والى اليمين. إنزل واصرعه. إنه أسد رائع .

ورأى ماكومبير الأسد الآن . كان يقف بعرضه تقريباً ، ورأسه الكبير يرتفع عالياً ، التفت اليهم . حرك نسيم الصباح الباكر الذي كان يهب نحوهم عرفه الأسمر ، وبدا الأسد ضخماً ملقياً بظله على سفح الضفة في نور الصباح الرمادي وكتفاه ثقيلتان وجذعه ينتفخ بهدوء .

سأل ماكومبير وهو يرفع بندقيته :

ـ كم يبعد عنا ؟

ـ حوالي خمس وسبعين ياردة. إنزل وخذه .

ـ لم لا أطلق النار من هنا ؟

سمع ويلسون يهمس في أذنه :

ـ لا تطلق النار عليهم من السيارات. إنزل. لن يبقى هناك طول النهار .

خطا ماكومبير خارجاً من الفتحة المنحنية لجانب المقعد الأمامي الى الدرجة وهبط على الأرض. ما زال الأسد ينظر بجلال وبرود نحو هذا الشيء الذي تراءى لعينيه صورة ظلية فقط تكبر مثل خرتيت هائل . لم تصله رائحة إنسان وراقب الجسم وهو يحرك رأسه الكبير قليلاً من جانب الى آخر. وبينما هو يراقب هذا الجسم ـ وهو غير خائف منه ولكنه متردد قبل أن يهبط الى الضفة ليشرب وذلك الجسم أمامه ـ رأى شكل إنسان يفصل نفسه عن ذلك الجسم، فأدار رأسه الثقيل وانتقل مبتعداً نحو غطاء الاشجار حين سمع ضجة قرقعة وأحس بضربة حبة خردق بحجم ٣٠ر٠ ـ ٠٦/ ٢٢٠ من رصاصة صلبة تعض خاصرته وتشق طريقها الى معدته وتثير فيها غثياناً حارقا . خبّ ثقيلاً بقدمين ضخمتين مؤرجحاً معدة مليئة جريحة واتجه عبر الأشجار نحو العشب الطويل والمخبأ، ووصلته القرقعة ثانية لتمر به وتمزق الهواء الى أشلاء . وفرقعت مرة أخرى وأحس بخبطة ضربت أضلعه السفلى ومزقت جسمه في ذلك المكان ، واندفع الدم فجأة ساخناً ومزبداً في فمه،

وهرول نحو العشب العالي حيث يمكنه أن يربض دون أن يروه فيضطرهم الى جلب الشيء المفرقع الى قرب كاف بحيث يصبح قادراً على القفز والانقضاض على الرجل الذي يحمله .

لم يفكر ماكومبير، وهو يخرج من السيارة، بما أحس به الأسد. لم يعرف سوى بأن يديه ترتجفان. وعندما سار مبتعداً عن السيارة كاد أن يكون من المستحيل عليه تحريك رجليه. كانتا متيبستين عند الفخذين ولكنه أحس بالعضلات ترتجف. رفع البندقية وسدد على المفصل بين رأس الأسد وكتفيه وضغط على الزناد. لم يحدث شيء، مع أنه ضغط حتى أنه ظن بأن اصبعه سيقطع، ثم عرف بأنه كان قد ثبت مسمار الأمان ، وفيما هو يخفض البندقية ليحرك مسمار الأمان خطا خطوة متجمدة أخرى الى الأمام، وبعد أن رأى الأسد صورته الظلية واضحة ومنفصلة عن الصورة الظلية للسيارة، استدار وانطلق مبتعداً خبباً، وحين أطلق ماكومبير النار سمع صوت خبطة مكتومة أكدت له بأن الرصاصة استقرت في هدفها، ولكن الأسد واصل الجري. أطلق ماكومبير النار مرة أخرى ورأى الكل بأن الرصاصة تقذف بنافورة من الأوساخ وراء الأسد المهرول. أطلق الرصاص مرة أخرى متذكراً خفض تصويبه، وسمع الكل الرصاصة وهي تصيب الهدف، وهرول الأسد مختفياً داخل العشب العالي قبل أن يدفع بعتلة مغلاق البندقية الى الأمام .

وقف ماكومبير هناك شاعراً بغثيان في معدته، ويداه اللتان تمسكان ببندقية سبرنجفيلد التي ما زالت معدة للإطلاق ترتجفان، وزوجته وروبرت ويلسون يقفان بجانبه. ووقف الى جانبه كذلك حاملا البنادق يهذران بلغة واكامبا .

قال ماكومبير :

ـ أصبته . أصبته مرتين .

قال ويلسون دون حماس :

ـ أصبت أمعاءه ومكاناً في مقدمته .

بدا حاملا البنادق قاتمي الوجه جداً. كانا صامتين الآن .

تابع ويلسون قوله :

ـ ربما قتلته. علينا أن ننتظر لفترة من الزمن قبل أن ندخل للتأكد من هذا .

ـ ماذي تعني ؟

ـ لينهار قبل أن نطارده .

قال ماكومبير :

ـ آه .

قال ويلسون بمرح :

ـ أسد لعين رائع. لقد اختار مكاناً سيئاً مع ذلك .

ـ لم هو سيء ؟

ـ لن تراه إلا وأنت على رأسـه .

قال ماكومبير :

ـ أوه .

قال ويلسون :

ـ تعـال. تسـتطيع المـصـاحب البقاء في السيارة هنا. سنذهب لنلقي نظرة على آثار الدماء .

قـال ماكومبير لزوجته :

ـ إبقي هنا يا مـارغوت .

كان فمه جافاً جداً وكان من الصعب عليه أن يتكلم .

سألت :

ـ لماذا ؟

ـ ويلسون يقول هذا .

قال ويلسون :

ـ سنذهب لنلقي نظرة. إبقي هنا. تستطيعين رؤيته على نحو أفضل من هنا .

ـ حسناً .

تكلم ويلسـون باللغة الساحلية الى السائق. أومأ برأسه وقال : «نعم بوانا.»

ثم هبطوا منحـدر الضـفـة وعبروا الجدول متسلقين الصخور ودائرين حولها الى الضـفـة الأخـرى ومـتـمـسكين بجـذور ناتئة وبالضفة حتى وجدوا المكان الذي كان الأسـد يهرول فـيه عندما أطلق عليه ماكومبير النار أول مرة. كانت هناك دماء داكنة على عـشب قـصير أشـار اليـها حاملا البنادق بسيقان عشب كانا يحملانها، وامتدت الدماء مبتعدة خلف أشجار ضفة النهر .

سأل ماكومبير :

ـ ماذا سنفعل ؟

قال ويلسون :

ـ ليس أمـامنا مجال اختيار واسع. لا نستطيع احضار السيارة الى هنا، فالضفة شديدة الانحـدار. سندعه يتيبس قليلاً ثم نتوغل أنا وأنت داخل العشب بحثاً عنه .

سأل ماكومبير :

ـ ألا نستطيع إشعال النار في العشب ؟

ـ شديد الخضرة .

ـ ألا نستطيع إرسال مثيري الطرائد ؟

نظر إليه ويلسون متفحصاً. قال :

ـ نستطيع هذا طبعاً ، ولكنه عمل إجرامي. أنت ترى بأننا نعرف أن الأسد جريح. تسـتطيع أن تسـوق أسداً غير جريح ـ سيتحرك الى الأمام عند إثارة ضجة ـ ولكن أسـداً جـريحـاً سيهاجـم . لن تستطيع رؤيته إلا حين تكون فوقه تمامـاً . سيتمدد في مكان ضيق جداً لا يمكنك تصور أنه يتسـع لإخفـاء أرنب بـري . لا يمكنك

إرسـال الأولاد الى هـنـاك الى مـثل هذا النوع من العـرض. لابد أن يحطم واحـداً منهم .

ـ ماذا عن حاملي البنادق ؟

ـ أوه. سـيـذهبان معنا. إنه عملهما. أنت ترى معي بأنهما وقعا على هذا . ومع ذلك لا يبدوان سعيدين، أليس كذلك ؟

قال ماكومبير :

ـ لا أريد الدخول الى هناك .

خرجت الكلمات من فيه قبل أن يعرف بأنه قالها .

قال ويلسون بمرح شديد :

ـ ولا أنا. ليس أمامنا مجال اختيار .

ثم ، وبعـد أن أعمل التفكير ، ألقى نظرة سريعة على ماكومبير ، ورأى فجأة كـيف كان يرتجف كما رأى النظرة المثيرة للرثاء على وجهه .

قال :

ـ لسـت مجبراً عـلى الـدخـول طـبـعـاً. فـهـذا هـو عـملي الذي أتقـاضى عنه أجـراً واستخدمت من أجله. لهذا فأنا غالٍ الى هذا الحد .

ـ تعني بأنك ستدخل الى هناك لوحدك ؟ لم لا نتركه هناك ؟

شـعـر روبرت ويلسـون، الذي ركـز تفكيره على الأسـد والمشكلة التي اثارها، والذي لم يكن يفكر بماكـومـبير إلا بأنه ثرثار الى حـد مـا ـ شعر فجأة كما لو كان قد فتح باباً عن طريق الخطأ في فندق ورأى مشهداً مخجلاً .

ـ ماذا تعني ؟

ـ لم لا نتركه ؟

ـ تعني بأن نتظاهر ـ بيننا وبين أنفسنا ـ بأنه لم يصب ؟

ـ لا . فقط : لنسقطه من حسابنا .

ـ لا يمكن فعل هذا .

ـ لم لا ؟

ـ لسبب واحد : إنه يعاني من إصابته، ولسبب آخر : قد يقع عليه شخص آخر .

ـ فهمت .

ـ لست مضطراً أن تقوم بأي عمل إزاءه .

قال ماكومبير :

ـ أود أن يكون الأمر هكذا . إنني خائف فقط ، كما تعرف .

قال ويلسون :

ـ سأكون في المقدمة حين ندخل وسيكون كونجوني في أثري. ابق ورائي منحرفاً قليلاً الى أحد الجانبين. الفرصة المتاحة لنا هي سماعنا زمجرته. إذا رأيناه فسنطلق الرصاص معاً. لا تخشى شيئاً. سأساندك. في الحقيقة، قد يكون من الأفضل ألا تذهب. قد يكون الأمر على هذا الشكل أفضل بكثير. لم لا تذهب وتنضم الى المصاحب بينما أنهي أنا الموضوع .

ـ لا. أريد أن أذهب معك .

قال ويلسون :

ـ حسناً . ولكن ، لا تدخل إن كنت لا تريد. إنها مهمتي ، كما تعرف .

قال ماكومبير :

ـ أريد أن أذهب .

جلسا تحت شجرة ودخّنا .

سأل ويلسون :

ـ أتود العودة الى المصاحب والتحدث إليها بينما ننتظرك ؟

ـ لا .

ـ سأذهب إليها وأطلب منها أن تصبر .

قال ماكومبير :

ـ حسناً .

جلس هناك ، وتصبب عرق غزير تحت إبطيه وجف فمه وأحس بخواء في معدته وهو يتوق لأن يجد في نفسه الشجاعة الكافية ليطلب من ويلسون أن يتقدم وينهي الأسد من دونه. لم يعرف بأن ويلسون كان يتميز غيظاً لأنه لم يلاحظ الحالة التي كان عليها في السابق، فأعاده الى زوجته. وبينما هو جالس هناك وصل ويلسون .

قال :

ـ أحضرت بندقيتك الكبيرة. خذها. هيا بنا. لقد أعطيناه ما يكفي من الوقت .

أخذ ماكومبير البندقية الكبيرة .

وقال ويلسون :

ـ إبق ورائي وعلى بعد حوالي خمس ياردات الى اليمين ونفّذ ما أقوله لك بالضبط ثم تكلم بالسواحلية لحاملي البنادق اللذين بديا صورة مجسدة للكآبة .

قال :

ـ هيا بنا .

سأل ماكومبير :

ـ أيمكنني تناول جرعة ماء ؟

تحدث ويلسون الى حامل البنادق الأكبر سناً والذي كان يحمل مطرة مثبتة على حزامه، فك الرجل الحزام المثبت للمطرة ونزع سداداتها وناولها الى ماكومبير الذي أخذها وهو يحس بمدى ثقلها وبملمس غطاء اللباد الشعري والصوفي وهي في يده. رفع المطرة ليشرب ونظر أمامه الى الأعشاب العالية والأشجار المنبسطة القمم وراءها. هب النسيم نحوهم وتموج العشب تموجاً لطيفاً في الريح. نظر الى حامل

البنادق ولاحظ بأن حامل البنادق كان يعاني أيضاً من الخوف .

وعلى بعد خمس وثلاثين ياردة في داخل الأعشاب، استلقى الأسد متمدداً على الأرض. انتصبت اذناه الى الخلف وكانت الحركة الوحيدة التي يقوم بها هي اهتزاز ذيله الطويل المغطى بالشعر الأسود الى الأعلى والى الأسفل. لقد أصبح في وضع حرج يضطره للدفاع عن نفسه بضراوة حال وصوله الى المخبأ وهو يحس بالغثيان من ذلك الجرح في بطنه وبالضعف من الجرح الذي أصابه في رئتيه وأدى الى اندفاع زبد أحمر رقيق الى فمه في كل مرة كان يتنفس فيها. ابتلت خاصرتاه وأصبحتا ساخنتين وتجمع الذباب على الفتحة الصغيرة التي خرقتها الرصاصات في جلده الأسمر المصفر، ونظرت عيناه الصفراوان الكبيرتان اللتان ضيقهما البُغض الى الأمام وكانتا تطرفان فقط حين يحس بالألم عندما كان يتنفس، وأنشب مخالبه في الأرض الطرية المحروقة . تجمع كل الألم والغثيان والبُغض وما بقي له من قوة في تركيز شديد للإنقضاض . سمع الرجال يتكلمون وانتظر وهو يجمع كل ما في نفسه من قوة في هذا التأهب للهجوم حالما يدخل الرجال العشب . حين سمع أصواتهم، تصلّب ذيله لينتفض الى الأعلى والى الأسفل ، وعندما دخلوا الى طرف العشب، أطلق زمجرة ساعلة وهجم .

وما كادوا يدخلون ـ وكونجوني، حامل البنادق العجوز في المقدمة يراقب آثار الدماء وويلسون يراقب العشب بحثاً عن أية حركة وبندقيته جاهزة للإطلاق وحامل البنادق الثاني ينظر الى الأمام وينصت وماكومبير قريب جداً من ويلسون واصبعه على زناد بندقيته ـ حتى سمع ماكومبير الزمجرة الساعلة التي تخنقها الدماء ورأى الإنطلاق الصافر في العشب. وكان آخر ما تذكره بعد ذلك هو أنه جرى جرياً وحشياً عنيفاً، والفزع يأخذ بخناقه، في الأرض المكشوفة، جرى باتجاه الجدول. سمع صوت : كا ـ را ـ وونج الذي انطلق من بندقية ويلسون الكبيرة، ومرة أخرى سمع فرقعة ثانية : كاراوونج ورأى، وهو يلتفت الى الأسد وقد بدا مخيف الشكل الآن ، ونصف رأسه يبدو محطماً ، يزحف نحو ويلسون في طرف العشب العالي بينما كان الرجل الأحمر الوجه يعالج عتلة مغلاق البندقية القصيرة القبيحة الشكل ويسدد بدقة ، وتعالى صوت انفجار : كاراوونج من الفوهة ،

وتصلّب هيكل الأسـد الزاحف الثـقـيل الأصـفـر وانزلق الرأس الضـخم المبتـور الى الأمـام، وعـرف مـاكـومـبير ـ وهو يقف لوحـده في المكان المكشـوف حيث فر هارباً وهـو يحـمـل بندقـيـة محشـوة، والرجـلان الأسـودان ورجل أبيض ينظرون إليـه نظرة احـتـقـار ـ بأن الأسـد قـد مـات. اقترب من ويلسـون وقد بدا طوله الكامل توبيخاً صريحاً واضـحاً. نظر إليه ويلسون وقال :

ـ أتريد أخذ صور ؟

قال :

ـ لا .

ذلك كـان كل ما نطق به أي منهما من كلمات حتى وصلا الى السيارة. ثم قال ويلسون :

ـ أسـدٌ جهنمي رائع. سيسلخ الأولاد جلده. يمكننا أن نبقى هنا في الظل .

لم تنظر زوجـته إليه ولم ينظر إليها ، جلس بجانبها في المقعد الخلفي بينما جلس ويلسـون في المقـعـد الأمـامي. مـد يده مـرة واحـدة وأخذ يدها بيده. دون أن ينظر اليـها، فسحبت يدها من يده. تأكد وهو ينظر عبر الجدول حيث كان حاملا البنادق يسلخـان جلد الأسـد ـ بأنها رأت كل مـا حدث. وبينما كانا يجلسان في الخلف هناك تحـركت زوجـتـه الى الأمـام ووضـعـت يدها على كـتف ويلسـون، التفت الى الخلف ومـالت الى الأمام فوق المقعد المنخفض وقبلته على فمه .

قال ويلسون :

ـ آه. إنني ـ

وغـدا وجـهه أكثر إحمراراً من لونه الطبيعي المحروق .

قالت :

ـ يا سيد روبرت ويلسون. يا سيد روبرت ويلسون ذا الوجه الجميل الإحمرار .

ثم عـادت وجلست الى جـانب ماكومبير مرة أخرى ونظرت بعيداً عبر الجدول الى المكان الذي سـقط فـيه الأسد وقائمتاه الأماميتان العاريتان البيضاويتي العضلات

والواضحتي العروق مرفوعتان الى أعلى وبطنه الأبيض المنتفخ بعد أن نزع الرجلان الأسودان جلده عنه. وأخيراً، أحضر حاملا البنادق جلده مبللاً وثقيلاً وصعدا الى السيارة من الخلف وهما يحملان ذلك الجلد بعد أن طوياه قبل إدخاله في السيارة ثم انطلقت السيارة. لم يقل أحد شيئاً حتى عادوا الى المخيم .

تلك كانت قصة الأسد . لم يكن ماكومبير يعرف شعور الأسد قبل بدء اندفاعه ، ولا حينما صدمته في فمه الضربة العنيفة من عيار ٥٠٥ر٠ بسرعة فوهة البندقية التي تصل الى طُنين اثنين، كما لم يعرف ما الذي جعله يواصل الإندفاع بعد أن حطمت الصدمة الممزقة الثانية مؤخرته وظل يتقدم زاحفاً نحو الشيء المحطم المفجر الذي دمره. عرف ويلسون شيئاً عن ذلك وعبر عنه بقوله فقط : «أسد رائع لعين». ولكن ماكومبير لم يعرف ما يحس به ويلسون إزاء الأشياء. لم يعرف ما كانت تحس به زوجته سوى أن ما كان يربطها به قد انتهى. لقد ساءت علاقته بزوجته قبل هذه المدة، ولكن هذا لم يستمر لفترة طويلة. كان ثرياً ويزداد ثراؤه، وعرف بأنها لن تتركه أبداً. كانت هذه الأمور القليلة التي يعرفها تماماً. كان يعرف عن هذا الموضوع وعن الدراجات النارية، وذلك في وقت مبكر، وعن السيارات وعن صيد البط وصيد السمك : الطروتة والسلمون والمخلوقات البحرية الكبيرة وعن الجنس في الكتب، في كثير من الكتب في كتب كثيرة جداً، وعن ألعاب كرة المضرب والسلة والطائرة وعن الكلاب والقليل عن الخيول وعن التمسك بماله وعن أغلب الأمور الأخرى التي يتناولها عالمه وعن عدم هجران زوجته له. لقد كانت زوجته ذات جمال باهر ولا تزال باهرة الجمال في أفريقيا، ولكنها لم تعد على درجة كافية من الجمال في الوطن حتى يمكنها أن تتركه وتجد وضعاً أفضل من وضعها معه، وهي تعرف هذا وهو يعرف هذا. لقد أضاعت فرصة هجره، وهو يعرف هذا. لو كان في وضع أفضل مع النساء فلربما بدأت تخشى أن يحصل على زوجة جميلة جديدة، ولكنها تعرف الكثير جداً عنه مما جعلها لا تخشى هذا أيضاً. وكان هو كذلك متسامحاً معها، وبدا هذا التسامح أفضل خصاله إن لم يكن أسوأها .

وعلى وجه الإجمال ، فقد عُرفا ، بين الناس ، بأنهما زوجان سعيدان نسبياً ، واحدة من الزيجات التي كثيراً ما تنتشر إشاعة انفصالها ولا تتحقق هذه الإشاعة

أبداً، وكما صاغ هذا أحد كتاب الأعمدة : فإنهما كانا يضيفان ما هو أكثر من بهارات المغامرة على رومانسيتهما التي حسدهما عليها الناس كثيراً والتي احتملاها لمدة طويلة بالقيام برحلة صيد الى ما كان يعرف ـ بأكثر بقع أفريقيا ظلاماً حتى أضاءتها مؤسسة مارتين جونسون وشركاه على شاشات فضية كبيرة جداً ـ حيث كانوا يلاحقون الأسد : سيمبا العجوز والجاموس والفيل : تيمبو . إضافة الى تجميعهم العينّات لمتحف التاريخ الطبيعي. وقد كتب نفس صاحب العمود الصحفي بأنهما وصلا الى حافة الطلاق ثلاث مرات على الأقل في الماضي ، وهذا ما حصل فعلاً. ولكنهما سوّيا نزاعاتهما دائماً . كانت قاعدة اتحادهما سليمة. كانت مارغوت أجمل من أن يطلقها ماكومبير وكان لدى ماكومبير من المال أكثر مما يحمل مارغوت على تركه الى الأبد .

كانت الساعة حوالي الثالثة صباحاً، استيقظ ماكومبير الذي نام لبرهة وجيزة بعد أن توقف عن التفكير بالأسد ، ثم نام مرة أخرى واستيقظ فجأة مرتعباً من حلم رأى فيه الأسد الدامي الرأس يقف فوقه ، وأدرك وهو يصغي وقلبه يخفق بشدة ، بأن زوجته لم تكن في السرير النقّال الآخر الموجود في الخيمة . استلقى مستيقظاً لمدة ساعتين واعياً حقيقة هذا الوضع .

وفي نهاية هذا الوقت ، دخلت زوجته الخيمة ورفعت ناموسيتها ثم زحفت بحذر الى سريرها .

سأل ماكومبير في الظلام :

ـ أين كنت ؟

قالت :

ـ مرحباً . أأنت مستيقظ ؟

ـ أين كنت ؟

ـ خرجت من مدة قصيرة لاستنشق نسمة هواء .

ـ فعلت هذا كالجحيم .

ـ ماذا تريدني أن أقول يا حبيبي ؟

ـ أين كنت ؟

ـ في الخارج ، استنشق نسمة هواء .

ـ هذا اسم جديد لعملك . أنت عاهرة .

ـ حسناً . أنت جبان .

قال :

ـ حسناً . ماذا يهم هذا ؟

ـ لاشيء بقدر ما يهمني أنا ، ولكن ، أرجوك : لنكف عن الكلام يا حبيبي لأنني نعسانة جداً .

ـ أتظنين بأنني سأسكت عن هذا ؟

ـ أعرف بأنك ستسكت عن هذا يا جميلي .

ـ حسناً ، لن أسكت عن هذا .

ـ يا حبيبي، لنسكت من فضلك. أنا نعسانة جداً .

ـ اتفقنا ألا يحدث شيء من هذا، لقد وعدت ألا يحدث شيء كهذا .

قالت بعذوبة :

ـ حسناً ، ولكن هذا حدث الآن .

ـ قلت بأننا إذا قمنا بهذه الرحلة فإن شيئاً من هذا لن يحدث، لقد وعدتني .

ـ نعم يا حبيبي. هذا ما عنيته، لكن الرحلة فسدت أمس. يجب علينا أن لا نتكلم عنها، أليس كذلك ؟

ـ إنك لا تنتظرين طويلاً حين تسنح لك الفرصة، أليس كذلك ؟

ـ لنسكت من فضلك. أنا نعسة جداً يا حبيبي .

ـ سأتكلم .

ـ لا تشغل نفسك بي إذاً ، لأنني سأنام .

ونامت .

وأثناء الإفطار ، جلسوا ثلاثتهم حول الطاولة قبل طلوع ضوء النهار واكتشف فرانسيس ماكومبير بأنه يكره روبرت ويلسون أكثر من غيره من الناس الكثيرين الذين يكرههم .

سأل ويلسون بصوته الحلقي وهو يحشو غليونه :

ـ نمتما جيداً ؟

ـ وأنت ؟

قال له الصياد الأبيض :

ـ نوماً عميقاً .

فكر ماكومبير : يا ابن الحرام يا ابن الحرام الوقح .

وفكر ويلسون وهو ينظر اليهما بعينيه المنطفئتي البريق والباردتين : إذاً، فقد أيقظته عندما عادت الى الخيمة. حسناً ، لم لا يبقي زوجته في المكان الذي تنتمي إليه ؟ ماذا يظنني : قديس متحجر حقير ؟ ليبقيها في المكان الذي تنتمي إليه. إنها غلطته هو .

سألت مارجوت وهي تدفع طبقاً من المشمش بعيداً .

ـ أتعتقد بأننا سنعثر على جواميس ؟

قال ويلسون :

ـ ربما .

وابتسم لها وتابع قائلاً :

ـ لم لا تبقين في المخيم ؟

قالت له :

ـ لن أبقى مقابل أي شيء .

قال ويلسون لماكومبير :

ـ لم لا تأمرها بالبقاء في المخيم ؟

قـال ماكومبير ببرود :

ـ مرها أنت .

قـالت مارغوت بسرور عظيم :

ـ لنتجنب إلقاء أية أوامر .

والتفتت الى ماكومبير :

ـ وأية سخافة أخرى يا فرانسيس .

سأل ماكومبير :

ـ هل أنت مستعد ؟

قال له ويلسون :

ـ في أي وقت تراه مناسباً . هل تريد أن تصحبنا المصاحب ؟

ـ هل سيشكل رفضي أو قبولي لذهابها أي فرق ؟

فكر ويلسـون : الى جهنـم . الى جهنـم وبئس المصير . هكذا ستسير الأمور إذاً ؟ حسناً. على هذا الشكل ستسير الأمور .

قال :

ـ لا يشكل فرقاً .

سأل ماكومبير :

ـ أأنت مـتأكد بأنك لا تريد البقاء معها لأخرج أنا وحدي لاصطياد الجواميس ؟

قال ويلسون :

ـ لا يمكنك القيام بهذا وحدك، لو كنت مكانك لما نطقت بمثل هذا الهراء .

ـ ليس ما أقوله هراء. أنا قرفان .

ـ كلمة سيئة : قرفان هذه .

قالت زوجته :

ـ فرانسيس ، أرجوك : حاول أن تتكلم كلاماً معقولاً .

قال ماكومبير :

ـ أتكلم كلاماً معقولاً الى درجة اللعنة. هل سبق وتناولت طعاماً قذراً كهذا ؟

سأل ويلسون بهدوء :

ـ هل من خطأ في الطعام ؟

ـ ليس أكثر خطأ من كل شيء آخر هنا .

قال ويلسون بهدوء كبير :

ـ تماسك أيها الخنفسة. الصبي الذي يخدم على المائدة يفهم القليل من الإنجليزية .

ـ ليذهب الى الجحيم .

نهض ويلسون واقفاً وهو ينفث دخان غليونه وابتعد متمهلاً مردداً بضع كلمات بالسواحلية مخاطباً أحد حاملي البنادق الذي كان واقفاً ينتظره. ظل ماكومبير وزوجته جالسين الى الطاولة. كان يحدق في فنجان قهوته .

قالت مارغوت بهدوء :

ـ إذا أثرت فضيحة سأتركك يا حبيبي .

ـ لا . لن تفعلي هذا .

ـ يمكنك أن تحاول وترى .

ـ لن تتركيني .

قالت :

ـ لا. لن أتركك ولكنك ستتأدب .

ـ أتأدب ؟ هذه طريقة للكلام ؟ أنا أتأدب ؟

ـ نعم، تأدب .

ـ لم لا تحاولين أنت أن تتأدبي ؟

ـ لقد حاولت أن أتأدب منذ مدة طويلة جداً. لمدة طويلة جداً .

قال ماكومبير :

ـ أكره هذا الخنزير الأحمر الوجه. أمقت رؤيته .

ـ إنه لطيف جداً حقاً .

قال ماكومبير وهو يكاد يصرخ :

ـ أوه ، إخرسي .

وفي هذه اللحظة ، اقتربت السيارة ووقفت أمام خيمة الطعام ونزل منها السائق وحاملا البنادق. تقدم ويلسون ونظر الى الزوج والزوجة وهما يجلسان الى الطاولة .

سأل :

ـ ستذهب الى الصيد ؟

قال ماكومبير وهو ينهض واقفاً :

ـ نعم . نعم .

قال ويلسون :

ـ من الأفضل أن تحضري سترة صوفية. سيكون هناك برد في السيارة .

قالت مارغوت :

ـ سأحضر سترتي الجلدية .

قال لها ويلسون :

ـ إنها مع الولد .

صـعـد داخلاً الى المقدمة مع السائق وجلس فرانسيس ماكومبير وزوجته، دون كلام، في المقعد الخلفي .

فكر ويلسـون محدثاً نفسه : آمل أن لا يفكر الحقير بتفجير قفا رأسي. النساء مصدر إزعاج في رحلات الصيد .

صرّت السيارة هابطة لتقطع النهر على مخاضة مليئة بالحصى تحت ضوء النهار الرمادي ، ثم تسلقت بانحراف الضفة المنحدرة واتجهت الى الطريق الذي كان ويلسون قد أمر بتمهيده في اليوم السابق حتى يمكنهم أن يصلوا الى الأرض الوعرة الكثيفة الأشجار الشبيهة بمنتزه على الجانب البعيد .

فكر ويلسون : صباح جميل . وكان قد تجمع ندى كثيف ، وبينما كانت العجلات تخترق العشب والأشجار القصيرة الصغيرة، شم رائحة السرخس المسحوقة. كانت رائحة كرائحة نبات رعي الغنم وكان يحب هذه الرائحة الصباحية المبكرة للندى، وبدا السرخس المسحوق والشجيرات سوداء في ضباب هذا الصباح الباكر فيما أخذت السيارة تشق طريقها خلال الأرض غير المطروقة والشبيهة بالمنتزه. كان قد وضع الاثنين في المقعد الخلفي وطردهما من ذهنه الآن وفكر بالجواميس. كانت الجواميس التي يطاردها تقيم، خلال النهار، في مستنقع كثيف وكان من المستحيل إطلاق النار عليها هناك، كانت ترعى، ليلاً، في فسحة مكشوفة من الأرض، فإذا تمكن من الوصول بالسيارة الى مكان يقع بينها وبين مستنقعها، فستكون أمام ماكومبير فرصة جيدة لمهاجمتها في الأرض المكشوفة فلم يكن يريد أن يصطاد الجواميس مع ماكومبير في غابة كثيفة. لم يكن يريد اصطياد جواميس أو أي شيء آخر مع ماكومبير أبداً ، ولكنه صياد محترف وقد سبق له أن اصطاد مع أشخاص غريبي الأطوار أثناء حياته. إذا حصلوا على جاموس اليوم فلن يبقى عليه سوى خرتيت ليصطاده ويكون الرجل المسكين قد أنهى لعبته الخطيرة، وقد تعود المياه الى مجاريها بعد ذلك ، ولن يكون أمامه من شيء آخر يفعله للمرأة وسيتغلب ماكومبير على ذلك أيضاً . لابد أنه مر بالكثير من تلك التجارب من قبل كما يظهر من طبيعة الأشياء .

المتسول المسكين : لابد أن يجد طريقة ما للتغلب على هذه . حسناً ، كانت

غلطة الغر المسكين الدموية .

كـان هو، روبرت ويلسـون، يحمل معه سريراً نقالاً مزدوجاً ليقدم مكاناً عليه لمن ترمي بها الريح إليـه. لقـد اصطاد لمجـموعة رياضيين عالميين مَنغمسين بالملذات ولم تكن النسـاء اللواتي يضـاجعـهن يشـعـرن بأنهن حصلن على ما يقابل النقود التي يدفـعنهـا له إلا بعـد أن يشاركن الصياد الأبيض السرير النقّال. إنه يحتقرهن بعد أن يبتـعـد عنهن بالرغم من أنه أحب بعضهن وقت لقائه بهن، ولكنه كان يكسب رزقه من ورائهن ومسـتواهن هو نفس مستواه طيلة مدة استئجارهن له .

كن بمسـتـواه إلا فـيما يتـعلق بالصـيد وإطلاق النار. فله مستواه الخاص فيما يتـعلق بقـتل الطرائد. كـان يمكنهن به أن يرتقين الى هذه المسـتـويات أو يستأجرن صـياداً آخر ليصطادهن. عرف بأنه حاز على احترام الجميع لهذا الموقف الذي يتبناه. ومـاكـومـبـير هذا الرجل غـريب الأطوار حـقـاً. اللعنة إن لم يكن كـذلك. وها هي الزوجـة الآن. حـسناً ، الزوجة. نعم الزوجة إحم الزوجة ! حسناً ، لقد أسقط كل هذا من ذهنه. حول نظره اليهما. جلس ماكومبير وهو مقطب الجبين ويتميز غيضاً. ابتـسـمت مـارغوت له . بدت أصغر سناً الآن ، وأكثر براءة وأنضر وخالية من جمال المحترفـات . فكر ويلسـون : ماذا يعتلج في قلبها ؟ الله وحده يعلم . لم تتكلم كثيراً الليلة الماضـية. وهي مجلبة للسرور في ذلك الوقت .

صـعـدت السـيـارة مـرتفعاً طفيفاً وتابعت السير عبر الأشجار ثم خرجت من بينهـا الى أرض عـشـبية مكشوفة شبيهة بالبراري، واستمر سيرها تحت ظلال الأشجار على طول الحـافـة والسـائق يقـودها ببطء وويلسـون ينظر بتـمـعن عبر البراري حـتى الجـانب البـعـيـد منهـا. أوقف السـيـارة ودرس الأرض المكشـوفة بمنظار الميدان، ثم أشـار على السـائق أن يتابع، وتحركـت السيارة ببطء على طول الضفة والسائق يتجنب حـفيرات الخنزير الأفـريقي ، وقـاد السـيـارة حول قلاع الطين التي بناها النمل . ثم التـفت ويلسـون فجأة ، وهو ينظر عبر الأرض المكشوفة ، وقال :

ـ يا إلهي . ها هي .

وبينما كـان مـاكـومـبير ينظر حـيث أشـار ويلسـون والسـيـارة تقـفز الى الأمام

وويلسون يتكلم بسرعة باللغة السواحلية الى السائق ، رأى ثلاثة حيوانات ضخمة سوداء تبدو كأنها اسطوانية في ثقلها الطويل مثل سيارات صهريجية سوداء كبيرة تتحرك عدواً عبر الطرف البعيد للبراري المكشوفة. جرت بهرولة متصلبة الرقبة ومتصلبة الجسم، ورأى قروناً سوداء عريضة مائلة الى الأعلى على رؤوسها وهي تركض ورؤوسها مندفعة الى الأمام دون أن تتحرك .

قال ويلسون :

- إنها ثلاثة ثيران هرمة ، سنقطع الطريق قبل أن تصل الى المستنقع .

سارت السيارة بسرعة جنونية خمسة وأربعين ميلاً في الساعة عبر الأرض المكشوفة، وبينما كان ماكومبير يراقب، ازداد حجم الثيران حتى استطاع أن يرى الهيئة الرمادية الجرداء من الشعر الجرباء لثور ضخم ورقبته والطريقة التي كانت فيها رقبته جزء من كتفيه والسواد اللامع لقرنيه وهو يعدو على مسافة قصيرة خلف الحيوانات الأخرى التي كانت تسير على خط مستقيم في تلك المشية المندفعة الثابتة، بينما كانت السيارة تتمايل كما لو أنها قفزت من فوق طريق، اقتربوا من الثيران ورأى ماكومبير الضخامة المندفعة للثور والغبار في جلد شعره الخفيف والمقدمة العريضة لقرنه وخطمه الممدود العريض المنخرين، وكان ماكومبير يرفع بندقيته حين صاح ويلسون : «ليس من السيارة يا أحمق» ولم يحس ماكومبير بأي خوف، أحس فقط بكراهية ويلسون، وحين أطبقت المكابح وانزلقت السيارة جانباً شاقة أثلاماً جانبية حتى كادت أن تقف، وكان ويلسون قد نزل من السيارة من أحد الجانبين ونزل ماكومبير من الجانب الآخر متعثراً حينما مست قدماه الأرض التي كانت ما تزال تنسحب بشيء من السرعة ، ثم راح يطلق النار على الثور وهو يتحرك مبتعداً ، سامعاً أزيز الرصاصات في أذنيه مفرغاً البندقية في الثور وهو يبتعد بثبات، وأخيراً تذكر بأن عليه أن يطلق رصاصته في الكتف، وبينما كان يحاول بارتباك إعادة حشو بندقيته - رأى الثور يقع. وفيما هو يحط على الأرض على ركبتيه، والرأس الكبير يتمايل ، رأى الاثنين الآخرين لا يزالان يخبّان ، فأطلق النار على القائد وأصابه . أطلق النار مرة أخرى وأخطأ ، وسمع قرقعة : كاراوونج تهدر حين أطلق ويلسون الرصاص ورأى الثور القائد ينزلق الى الأمام ويقع على أنفه .

قال ويلسون :

ـ اضرب الآخـر ، دورك بالرماية .

ولكن الثـور الآخـر اسـتـمر بالجري بثبات بنفس طريقة العدو وأخطأه، قاذفاً بنثـار من الأوسـاخ، وأخطأ ويلسـون الهدف وارتفع الغبار على شكل سحابة، صاح ويلسـون : «تعـال ، إنه أبعـد مما يمكن إصابته» . وأمسك بذراعه ورجعا الى داخل السيـارة مـرة أخـرى، وتمسك مـاكـومـبير وويلسـون بجـانبي السـيـارة وهي تنطلق كـصـاروخ واهتـزا متمايلين وهي تسير على أرض غير مستوية، وخفت سرعتها لتسير بمحاذاة خبب الثور الثابت المندفع الثقيل العنق والسائر على خط مستقيم .

كـانا خلفـه، وكـان مـاكـومـبير يحشـو بندقـيـتـه والخـراطيش الفارغة تسقط، انحشرت بعـضـها، أزال الخراطيش العالقة، ثم أصبحا الى جانب الثور، حين صاح ويلسـون «قف» ، انزلقت السيارة الى جانب حتى كادت تنقلب وسقط ماكومبير الى الأمـام على قـدمـيـه وسـد عتله مغلاق البندقية وسدد الى الأمام وأطلق النار الى أبعد مـسـافـة الى الأمـام اسـتطاع أن يصـوبها الى الظهـر المسـتدير الأسود المندفع بسرعة، وسـدد البندقـيـة وأطلق مـرة أخـرى ، ثم مـرة أخرى ، والرصاصات كلها تصيبه، ولـكـن دون أن يـرى لهـا أثـراً على الثـور. ثم أطلق ويلسـون النار، أصـمّه صـوت الدوي ورأى الثـور يترنح. أطلق مـاكـومـبير مـرة أخرى، مصوباً بدقه وسقط الثور على ركـبتيه على الأرض .

قال ويلسون :

ـ حسناً. عمل رائع، ذلك هو الثالث .

أحسَّ ماكومبير بنشوة السكر.

سأل :

ـ كم مرة أطلقت أنت النار ؟

قال ويلسون :

ـ ثلاث مـرات فقط . أنت قتلت الثور الأول . أضخمها . وساعدتك على الإجهاز

على الإثنين الآخرين . كنت أخشى أن يصلا الى مخبأ . لقد قتلتهم أنت ، كنت فقط أنهي القليل. أطلقت النار بمهارة لعينة .

قال ماكومبير :

ـ لنذهب الى السيارة. أريد شراباً .

قال ويلسون :

ـ علينا أن ننهي ذلك الجاموس أولاً .

كان الجاموس على ركبتيه ويهز رأسه بعنف ويخور بهياج خنزير حينما اقتربا منه .

قال ويلسون :

ـ راقبه حتى لا ينهض .

ثم قال :

ـ أبعد قليلاً الى الجانب وأطلق النار عليه في رقبته خلف الأذن تماماً .

صوب ماكومبير بدقة الى مركز الرقبة الضخمة المهتزة التي يحركها الهياج ثم أطلق النار. ومع الطلقة سقط الرأس الى الأمام.

قال ويلسون :

ـ هذا ينهي الأمر. أصابت العمود الفقري. إنها رائعة كالجحيم، أليس كذلك ؟

قال ماكومبير :

ـ لنتناول الشراب.

لم يحس بمثل هذا الإحساس الرائع طيلة حياته .

في السيارة ، جلست زوجة ماكومبير بوجه شاحب جداً .

قالت لماكومبير :

ـ كنت رائعاً يا حبيبي . يا له من عمل .

سأل ويلسون :

ـ هل كان صعباً ؟

ـ كان مخيفاً . لم يسبق أن خفت بهذا القدر في حياتي كما خفت اليوم .

قال ماكومبير :

ـ لنتناول شراباً .

قال ويلسون :

ـ لم لا ، أعطه الى المصاحب .

شربت الويسكي الصافي من القارورة وارتعش جسمها قليلاً حينما ابتلعته . ناولت القارورة لماكومبير الذي ناولها لويلسون .

قالت :

ـ كان مثيراً جداً. أصابني بصداع رهيب . ومع هذا ، لم أكن أعرف أنه مسموح لكم إطلاق النار من السيارات .

قال ويلسون ببرود :

ـ لم يطلق أحد النار من السيارة .

ـ أعني مطاردتها في السيارة.

قال ويلسون :

ـ ليس هذا مسموحاً به العادة ، بدا لي الأمر رياضياً تماماً بينما كنا نقوم به بهذه الطريقة. أتاحت لنا مطاردتنا لها، بهذه الطريقة ونحن في السيارة، فرصة أفضل مما لو طاردناها ونحن نسير على الأقدام في هذا السهل المليء بالحفر وعقبات أخرى. كان يمكن للجاموس أن يهاجمنا في كل مرة أطلقنا عليه النار إذا أراد هذا. أتحنا له كل الفرص لمهاجمتنا. لا تذكري هذا لأحد بالرغم من كل هذا. إن هذا غير قانوني إذا كنت تقصدين ذلك .

قالت مارجوت :

ـ بدا بأنه ظلم صـارخ، مطاردة تلك الأشياء الضخمة عديمة الحيلة في السيارات .

قال ويلسون :

ـ هل الأمر كذلك ؟

ـ ماذا سيحدث إذا سمعوا عن هذا في نيروبي ؟

قـال ويلسون وهو يتناول جرعة من القارورة :

ـ سأفـقد رخصتي من جهة، وستكون المنغصات الأخرى هي فصلي من العمل .

ـ حقاً .

ـ نعم، هذا صحيح .

قال ماكومبير :

ـ حسناً .

وابتـسم لأول مرة في هذا اليوم .

ـ لديها الآن شيء ضدك .

قـالت مارجوت ماكومبير :

ـ لك طريقة تافهة بالتعبير عن الأشياء يا فرانسيس .

نظر ويلسـون اليـهما كليـهما ، كـان يفكر : إذا تزوج قـوّاد امـرأة عاهرة ماذا سيكون أطفالهما (*) وكان ما قاله :

ـ لقد خسرنا حامل بنادق، ألاحظت هذا ؟

قال ماكومبير :

ـ يا إلهي. لا .

(*) بالأصل : إذا تزوج رجل من أربعـة حـروف من امـرأة من خمسـة حـروف، كم سيكون عدد حروف أطفالهما .

قال ويلسون :

ـ ها هو قادم . إنه بخير ، لابد أنه سقط حين تركنا الثور الأول .

اقترب حامل البنادق المتوسط العمر منهم وهو يعرج مغطياً رأسه بقبعته المحبكة ومرتدياً سترته الخاكي وسرواله القصير وصندله المطاطي ووجهه المتجهم ترتسم عليه نظرة قرف . وعندما وصل اليهم، صاح لويلسون باللغة السواحلية، ورأيا كلاهما التغير الذي طرأ على وجه الصياد الأبيض .

سألت مارغوت :

ـ ماذا يقول ؟

قال ويلسون وصوته خال من أي تعبير :

ـ يقول بأن الثور الأول قد نهض ودخل الأجمة .

قال ماكومبير بصوت خاوٍ :

ـ آه .

قالت مارغوت متحفزة :

ـ إذاً سيكون مثل الأسد تماماً .

قال ويلسون :

ـ لن يكون مثل الأسد حتى لأدنى حد لعين. أتريد جرعة أخرى من الشراب يا ماكومبير ؟

قال ماكومبير :

ـ نعم ، شكراً .

توقّع أن يعاوده الاحساس الذي تملكه تجاه الأسد، ولكن هذا لم يحدث. ولأول مرة في حياته ، شعر شعوراً حقيقياً بأنه لا يحس بالخوف إطلاقاً . وبدلاً من الخوف، أحس بنشوة لا لبس فيها .

قال ويلسون :

ـ سنذهب ونلقي نظرة على الثور الثاني. سأطلب من السائق أن يضع السيارة في الظل .

سألت مارغوت ماكومبير :

ـ ماذا ستفعلان ؟

قال ويلسون :

ـ سنلقي نظرة على الجاموس .

ـ سأذهب معكما .

ـ تعالي .

اقترب ثلاثتهم من المكان الذي كان الجاموس الثاني منطرحاً فيه ككتلة سوداء في الأرض المكشوفة ورأسه يميل الى الأمام على العشب وقد انفتح قرناه على سعتهما .

قال ويلسون :

ـ له رأس رائع جداً ، يبلغ اتساعه حوالي خمسين بوصة .

كان ماكومبير ينظر إليه وقد غمرته البهجة .

قالت مارغوت :

ـ له منظر كريه. ألا نستطيع الدخول الى الظل .

قال ويلسون :

ـ طبعاً .

قال ماكومبير :

ـ انظر .

وأشار :

ـ أترى تلك البقعة من الأجمة ؟

ـ نعم .

ـ ذلك هو المكان الذي ذهب اليه الثور الأول. قال حامل البنادق بأن الثور كان قد وقع حين سقط هو على الأرض. كان يراقبنا ونحن نندفع الىَ الأمام كالجحيم والجاموسان الآخران يعدوان . عندما رفع نظره الى أعلى كان الثور يقف فوقه وينظر إليه . ركض حامل البنادق مثل الجحيم وسار الثور مبتعداً ببطء الى داخل الأجمة .

سأل ماكومبير بلهفة :

ـ أنستطيع أن ندخل وراءه الآن ؟

نظر إليه ويلسون نظرة تقييم ، فكر : ملعون أنا إن لم يكن هذا غريباً . بالأمس كان خائفاً لدرجة مقرفة وها هو اليوم بالع نار متورد الوجه .

ـ لا . سنعطيه مهلة .

قالت مارغوت :

ـ لنذهب الى الظل .

كان وجهها أبيض وبدت مريضة .

اتخذوا طريقهم نحو السيارة حيث استقرت تحت شجرة وحيدة وارفة الظلال وصعدوا اليها كلهم .

علّق ويلسون :

ـ هناك احتمالات لأن يكون ميتاً هناك . بعد لحظة قصيرة سنلقي نظرة .

شعر ماكومبير بسعادة عنيفة غير معقولة لم يعرف مثلها من قبل.

قال :

ـ يا إلهي. تلك كانت مطاردة . لم أحس بهذا الإحساس من قبل .

ـ ألم تكن مطاردة مدهشة يا مارغوت ؟

ـ اكرهها .

ـ لماذا ؟

قالت بمرارة :

ـ أكرهها ، أمقتها .

قال ماكومبير لويلسون :

ـ أتعرف ؟ لا أظن أنني سأخاف من أي شيء بعد الآن .

حصل شيء ما في نفسي بعد أن رأينا الجاموس لأول مرة وبدأنا مطاردته.

مثل سد ينفجر. كان إثارة خالصة.

قال ويلسون :

ـ ينظف كبدك. أشياء مضحكة الى حد اللعنة تصيب الناس .

كان وجه ماكومبير متألقاً .

قال :

ـ أتعرف ؟ شيء ما أصابني ، أحس بأنني تغيرت تماماً .

لم تقل زوجته شيئاً وحدجته بعينيها بنظرة غريبة. كانت تجلس في آخر المقعد الخلفي وماكومبير يميل الى الأمام، ليتحدث الى ويلسون الذي التفت الى أحد الجانبين ليتكلم من فوق ظهر المقعد الأمامي .

قال ماكومبير :

ـ أتعرف ؟ أود أن أجرب أسداً آخر. أنا لست خائفاً من الأسود الآن. وعلى كل، ماذا ستفعل بك ؟

قال ويلسون :

ـ هذا صحيح. أسوأ ما سيقوم به هو أن يقتلك. ماذا يقول شكسبير ؟

إنه رائع ، لأرَ إنْ كان يمكنني أن أتذكر . آه حسن . اعتدت الإستشهاد به بالسابق بيني وبين نفسي. لنرَ : «في الحقيقة ، إنني لا أبالي ، لا يمكن للإنسان إلا

أن يموت مرة واحدة فقط، نحن مدينون لله بميتة واحدة، فلتقع بالطريقة التي ترغبها، فمن يموت هذه السنة ينجو من الموت في السنة التالية» كلام جميل لعين، إيه ؟

كان مرتبكاً جداً لأنه عبر عن هذا الشيء الذي اتخذه شعار حياته، ولكنه كان قد رأى رجالاً يبلغون سن الرشد من قبل وكان هذا يحرك مشاعره دائماً .

لم يكن أمراً مرتبطاً بعيد ميلادهم الحادي والعشرين .

واتخذ بلوغ ماكومبير الى سن الرشد شكل فرصة صيد غريبة هي عبارة عن انغماس فجائي في عمل لم يتح له الوقت للإحساس بالقلق قبل ذاك، ولكنه وبغض النظر عن كيفية وقوع هذا، فإنه وقع على نحو مؤكد، أنظر الى هذا المتسول الآن. فكر ويلسون : أحياناً وطيلة حياتهم، تحتفظ أشكالهم بطابعها الصبياني حتى عندما يصلون الى الخمسين من عمرهم. هؤلاء الأمريكيون الرجال الصبيان شعب غريب لعين. لكنه أحب هذا الماكومبير الآن. شخص غريب لعين. قد يعني هذا نهاية التريث أيضاً. حسناً، سيكون هذا أمراً طيباً لعيناً. شيء جيد لعين. ربما كان هذا المتسول خائفاً طيلة حياته. لا تعرف ما الذي بدأ ببث هذا الخوف في نفسه. ولكنه انتهى الآن. لم يتوفر له ما يكفي من وقت ليخاف من الجاموس. ذلك هو السبب ولأنه كان غاضباً أيضاً. السيارة أيضاً. تجعل السيارات الأمر مألوفاً. كن الآن آكل نيران لعين. لقد رأى هذا يحدث في الحرب بنفس الطريقة. تغيير فقط أكثر منه فقدان للعذرية. انتهى الخوف كعملية جراحية. نما شيء آخر وحل محله. شيء رئيسي لدى الإنسان. جعل منه رجلاً. النساء تعرفن هذا أيضاً. لم يعد هناك خوف دموي .

من الركن البعيد للمقعد، نظرت مارجوت ماكومبير الى الرجلين. لم يطرأ تغيير على ويلسون. رأت ويلسون كما رأته في اليوم السابق حينما أدركت لأول مرة الموهبة العظيمة التي يتمتع بها. لكنها رأت التغيير الذي طرأ على فرانسيس ماكومبير الآن .

سأل فرانسيس ماكومبير وهو لا يزال يستكشف ثروته الجديدة.

ـ أيخالجك ذلك الشعور بالسعادة لما سيحدث ؟

قـال ويلسون وهو ينظر الى وجه الآخر :

ـ ليس من المفـروض أن تذكر هذا. من الأمور المألوفة جداً القول بأنك خائف .

ـ إنتـبه ، سترتعب أيضاً ولمرات عديدة .

ـ ولكنه سيخالجك شعور بالسعادة لما سيحدث .

قال ويلسون :

ـ نعم. ذلك هو الأمر. ليس مناسباً الكلام كثيراً جداً عن كل هذا.

أذكـر الأمـر كله دفـعة واحدة ثم أنهه . لن تجد لذة في أي شيء إن أنت لكته كثيراً .

قـالت مارغوت :

ـ كـلاكما يردد هراء. لمجـرد أنكما طاردتما بعض الحـيـوانات العاجزة في سيارة تتكلمان كالأبطال .

قال ويلسون :

ـ آسف. تبجحت كثيراً جداً .

فكر : «لقد أزعجها هذا الآن» .

سأل مـاكومبير زوجته :

ـ إذا لم تفهمي ما نقوله فلم لا تبتعدين عنا ؟

قالت زوجته باحتقار :

ـ أصبحت شجاعاً الى أبعد حد، وعلى نحو فجائي تماماً .

لم تكن باحتقارها تشعر بالأمان. كانت خائفة من شيء ما .

ضحك ماكومبير ضحكة طبيعية جداً :

ـ تعرفين بأنني أصبحت كذلك. لقد أصبحت كذلك حقاً .

قـالت مارغوت بمرارة :

ـ ألم يحدث هذا بعـد فوات الأوان ؟

لأنها بذلت قـصـارى جـهـدها لسنين عـديدة خلت ولأن ما وصلا إليه الآن لم يكن غلطة أي واحد منهما .

قال ماكومبير :

ـ لم يفت بالنسبة لي .

لم تقل مـارغـوت شيئاً ولكنها جلست في ركن المقعد الخلفي .

سأل ماكومبير ويلسون بمرح :

ـ أترى بأننا قد منحناه الوقت الكافي ؟

قال ويلسون :

ـ قد يمكننا إلقاء نظرة . أبق معك بعض الخراطيش.

ـ لدى حامل البنادق بعضها.

نادى ويلسـون باللغة السواحلية، فوقف حامل البنادق الكبير السن الذي كان يسلخ جلد الرأس، وأخـرج صندوق خـراطيش من جـيبه وقدمه لماكومبير الذي ملأ بها خـزنة بندقيته ووضع باقي الرصاصات في جيبه .

قال ويلسون :

ـ يمكنك أن تطلق بندقية سبرنجفيلد أيضاً. اعتدت على إطلاقها .

ـ سنترك بندقـيـة مـانليـتشر في السـيـارة مع المصاحب. يستطيع حامل بنادقك حمل بندقـيتك الثقيلة. ومعي أنا هذا المدفع اللعين. لأحدثك الآن عن الجواميس .

كـان قد وفر هذا القول الى آخر لحظة حتى لا يزعج ماكومبير .

ـ عندمـا يتـقـدم الجـامـوس يتـقـدم ورأسه يرتفع عالياً ويدفع به الى الأمام على خط مـسـتـقـيم. وتقي مقدمة قرونه الدماغ من الإصابة بأية رصاصة. والطلقة الوحيدة القـاضـيـة هي التي تسـتـهـدف الأنف تماماً. والطلقـة الأخرى الوحيدة هي التي

تخترق صدره أو التي تخترق رقبته أو كتفيه في حالة وقوفك الى أحد جانبيه. وإذا أصيبت مرة فإن قتلها يتطلب جحيماً من الجهد. لا تحاول القيام بأي عمل خيالي. خذ أسهل رمية متيسرة. لقد أنهوا سلخ جلد الرأس الآن. هل نبدأ ؟

نادى على حاملي البنادق اللذين حضرا وهما يمسحان أيديهما وجلس الأكبر سناً في الخلف .

قال ويلسون :

ـ سآخذ كونجوني فقط . يمكن للآخر المراقبة لابعاد الطيور .

وحالما تحركت السيارة ببطء عبر الفسحة المكشوفة نحو جزيرة الشجيرات الكثيفة التي امتدت على شكل لسان من الأوراق الخضراء على طول مسار مائي جاف يقطع المنخفض المكشوف، شعر ماكومبير بقلبه يخفق وبفمه يجف مرة أخرى ولكن هذا كان شعوراً بالإثارة وليس شعوراً بالخوف .

قال ويلسون :

ـ ها هو المكان الذي دخل اليه .

ثم قال لحامل البنادق بالسواحلية :

ـ اقتفِ أثر الدماء .

كانت السيارة موازية للأجمة. نزل ماكومبير وويلسون وحامل البنادق من السيارة. ورأى ماكومبير ـ وهو ينظر الى الخلف ـ زوجته والبندقية الى جانبها تنظر إليه. لوح بيده اليها ولكنها لم ترد التلويح إليه .

امتدت الأجمة بكثافة أمامهم ، وكانت الأرض جافة. كان حامل البنادق المتوسط العمر يتصبب عرقاً غزيراً وكان ويلسون قد وضع قبعته على عينيه وبدت رقبته الحمراء أمام ماكومبير. فجأة قال حامل البنادق شيئاً باللغة السواحلية لويلسون وجرى الى الأمام .

قال ويلسون :

ـ إنه ميت هناك. عمل رائع .

واستدار ليمسك بيد ماكومبير، وبينما كانا يتصافحان ويبتسم كل منهما للآخر، صاح حامل البنادق بعنف ورأوه يخرج من جانب الدغل مسرعاً سرعة سرطان البحر والجاموس يتقدم وأنفه يندفع أمامه وفمه محكم الاطباق والدم يقطر منه ورأسه الضخم أمامه وهو يندفع مهاجماً وعيناه الخنزيريتان الصغيرتان حمراوان حمرة الدم وهو ينظر اليهما. ركع ويلسون الذي كان في المقدمة، وأطلق النار، ورأى ماكومبير، وهو يطلق النار من بندقيته دون أن يسمع صوت طلقاته بسبب صوت بندقية ويلسون، شظايا مثل الأردواز تتناثر من المقدمة الضخمة للقرون، واهتز الرأس، وأطلق الرصاص مرة أخرى على المنخرين الواسعين ورأى القرنين يرتجفان مرة أخرى والشظايا تتطاير، ولم يرَ ويلسون في تلك اللحظة، فأطلق النار مرة أخرى، وهو يصوّب بدقة وجسم الجاموس الضخم يكاد يحط عليه وبندقيته تكاد تكون على مستوى الرأس المقتحم والأنف يندفع الى الأمام ، ورأى العينين الشريرتين الصغيرتين وأخذ الرأس ينخفض، ثم أحس بوميض فجائي ساخن أبيض يعمي الأبصار ينفجر داخل رأسه، وكان ذلك آخر ما أحس به .

ارتكز ويلسون الى أحد جنبيه حتى يمكنه إصابة الكتف وكان ماكومبير قد وقف وقفة صلبة وأطلق مصوباً على الأنف مطلقاً النار الى الأعلى قليلاً كل مرة ضارباً القرنين الثقيلين مشظياً إياهما ومقطعاً إياهما قطعاً صغيرة كما لو كان يضرب سطح إردواز، وأطلقت السيدة ماكومبير، وهي في السيارة، النار على الثور بطلقة ٦٫٥ من بندقية مانليتشر حينما بدا لها بأنه على وشك أن يبقر ماكومبير فأصابت زوجها على بعد بوصتين الى أعلى وعلى بعد أقل من أحد جانبي قاعدة جمجمته .

سقط فرانسيس ماكومبير الآن ووجهه الى الأسفل على بعد يقل عن ياردتين من المكان الذي انطرح فيه الجاموس على جنبه، وركعت زوجته فوقه وويلسون الى جانبها .

قال ويلسون :

ـ لن أقلبه .

كانت المرأة تبكي بكاء هستيرياً .

قال ويلسون :

ـ سأرجع الى السيارة . أين البندقية ؟

هزت رأسها وقد التوى وجهها . التقط حامل البنادق البندقية .

قال ويلسون :

ـ اتركها حيث هي .

ثم :

ـ إذهب وأحضر عبدالله ليشهد على طريقة وقوع الحادث .

ركع وأخذ منديلاً من جيبه وفرده فوق رأس فرانسيس ماكومبير بشعره المقصوص قصة البحارة القصير حيث ينطرح أرضاً . تسرّب الدم وغرق في الأرض الجافة الرخوة .

وقف ويلسون ورأى الجاموس منطرحاً على جانبه وقوائمه ترتفع عالياً والقرادات تزحف على بطنه الخفيف الشعر . سجل عقله بصورة تلقائية : «جاموس جهنمي رائع جداً . خمسون بوصة رائعة أو أروع . أكثر روعة . » نادى على السائق وطلب منه فرد بطانية على الجسم والبقاء الى جانبه ثم مشى مقترباً من السيارة حيث كانت المرأة تجلس باكية في الركن .

قال بصوت خال من أية عاطفة :

ـ كان ذلك عملاً رائعاً الذي قمت به . كان سيتركك .

قالت :

ـ أسكت .

قال :

ـ بالطبع إنه حادث . أعرف هذا .

قالت :

ـ أسكت .

قال :

ـ لا تنزعـجي. سيكون هناك قـدر معين من المنغصات ولكنني سآخذ بعض الصور التي ستكون مفيدة في التحقيق. هناك شهادة حاملي البنادق والسائق أيضاً. أنت آمنة تماماً .

قالت :

ـ أسكت .

قال :

ـ هناك جـحـيم من أعمال كـثيرة يجب القـيـام بها. ينبـغي علي أن أرسل شـاحنة الى البـحيرة ليـتـصلوا لاسلكيـاً بطائرة لتأتي لأخـذنا ثلاثتنا الى نيروبي. لم لم تسمميه ؟ هذا مـا يفعلونه في إنجلترا .

صرخت المرأة :

ـ أسكت. أسكت. أسكت .

نظر إليها ويلسون بعينيه الزرقاوين المسطحتين .

قال :

ـ انتهيت الآن . كنت غاضباً قليلاً ، لقد بدأت أحب زوجك .

قالت :

ـ من فـضلك اسكت . أرجـوك ، أرجوك أسكت .

قال ويلسون :

ـ هذا أفضل . الرجاء أفضل كثيراً . الآن ، سأسكت .

وليم فولكنر
(١٨٩٧ - ١٩٦٢)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

إن المملكة الاسطورية التي خلقها وليم فولكنر ، مقاطعة يوكناباتووا وبلدة جفرسون (Jefferson/ Yoknapatawpha) ، أكثر حقيقة وواقعية في مخيلة الملايين في مختلف أنحاء الأرض من أية منطقة حقيقية في الولايات المتحدة. ويعود الفضل في ذلك الى «صاحبها ومالكها الوحيد» وراسم خارطتها في رواية **ابسالوم ، ابسالوم! (Absalom, Absalom!)** الذي حدد عدد سكانها ١٥٦١١ من البيض و ٩٣١٣ من السود ، وأسكن فيها عشرات الشخصيات القصصية التي لا تنسى والأحداث التي تكتسب حقيقة صلبة . هذا هو وليم فولكنر ، الحائز على جائزة نوبل لعام ١٩٥٠ والذي يعتبر أعظم كاتب روائي أمريكي في القرن العشرين والذي اكتسب شهرة وتأثيراً عالميين رغم التصاقه بذلك الجزء من أمريكا (مقاطعة لافاييت Lafayette) وبلدة أكسفورد (Oxford) في ولاية مسيسبي (Mississippi) الذي هو أصل مملكته الاسطورية .

حياته :

قضى معظم حياته حيث ولد ونشأ باستثناء فترات قصيرة غادر فيها منطقته الى نيويورك أو نيواورليانز، ومرة الى كندا وأخرى الى اوربا ـ وكلها زيارات قصيرة لا تقارن بما فعله كتاب الجيل الضائع .

لم يكمل تعليمه الثانوي. ودرس فترة بسيطة في جامعة المسيسبي حيث كانت نتيجته متوسطة باستثناء اللغة الانجليزية ! ثم أخذ يتصرف وكأنه يبحث عن ذاته : فارتدى نظارة

أحـادية الزجـاجـة، وأطلق لحـيته ومشى حافي القدمين في الشوارع وارتدى الملابس الغربية . كما أنه جـرب العـديد من الأعمال : بائع كـتب في مخزن تجـاري ، مدير بريد في الجامعة ، ثم نجاراً وغير ذلك . واكتسب بذلك سمعة الشخص الذي لا يصلح لشيء .

بدأ حـيـاته الأدبيـة بكـتـابة الشـعـر . ويعـد سـفـره الى نيـواورليانز واختلاطه بالوسط الأدبي هناك، اتجـه، تحت تأثير شيروود اندرسـون، نحـو كـتـابة النثر. كتب روايتين لم يكتب لهما النجاح ولكنه كـان يتـحـسس فيهما طريقه الى عالمه الخاص. ولكن الفترة العظيمة في حياته ككاتب هي من ١٩٢٩ حتى ١٩٤٢ .

عـام ١٩٢٩ تزوج من الفـتـاة التي كـان يحبـها وهما في المدرسة . وحيث ان ما كتبه لم يكن يكفي لسـد نفـقـات عيشه، فقد عمل في نقل الفحم في محطة للطاقة . كان يعمل ١٢ ساعة يومياً ولكنه قـد الزم نفـسه بالكتابة مدة ٤ ساعات كل يوم وبأن تكون الكتابة هي مهمته الوحيدة .

لم تكن كـتـاباته في الأربعينات والخمسينات في مستوى الفترة الغنية التي ذكرت سابقاً. وفي عـام ١٩٥٠ حـصل على جائزة نوبل للآداب وألقى خطاباً يعتبر قطعة فنية وموقفاً انسانياً رائعاً .

أعماله وأفكاره :

أهم أعمـاله فـي الفتـرة الخصبـة هي **الصخـب والعنـف (The Sound and the Fury)** و **(As I Lay Dying)** ، و **(Sanctuary)** ، **والنور في شهر آب (Light in August)** .

إن أفكار فـولكنر تتركـز حـول الجنوب : ذاكـرته وواقعه واسطورته . بعد الحرب الأهلية ، وبينما كـانت بقـيـة أجزاء الولايات المتحدة تتوسع تجارياً وصناعياً وتركز على التفاؤل بالتقدم المادي، لم يتـمكن الجنوب من تقـبل هذه الأفكار وظل الماضي يسـتحوذ على تفكيره. ولم يتمكن الجنوب من انتـاج أدب جـاد إلا بعـد الحـرب العـالمية الأولى، أي عندما بدأ ينهار فيه الوعي المحلي. وقد كان الجنوب الأسطورة من مـواضـيع روايات فـولكنر المبكرة : الجنوب كـوطن اضطر لخوض حرب كان من المسـتـحـيل انتصاره فيها ومع ذلك حارب بشجاعة ونبل وحقق الأمجاد رغم الهزيمة. ولا يمكن تبـسيط مـوقف فـولكنر من الجنوب ومن الزنوج والعـلاقـات بين البـيض والسـود بجملة واحدة أو مـوقف واحـد. ويبـدو أنه يتـجه نحو الاعتراف بأن قيمه الحياتية لا يمكن أن تتحقق إلا في مجتمع جديد .

ونقـد فـولكنر للجنـوب والمجتمـع الجنوبـي شـديد في رواياتـه بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٢ ولكنه نقـد مـوجـه للحـيـاة الحـديثـة ونراه في أدب القـرن العشرين : انحـلال القـيم الخلقية تحت

ضغط الروح التجارية، الثمن الكبير ومخاوف العزلة في مجتمع فقدت شخصية الفرد فيه سماتها الرئيسية، انهيار الحساسية الفردية وطيبة الناس أمام هجمات الجشع والسوقية.

ومن الأفكار الهامة في أعمال فولكنر موقف الانسان من الطبيعة.

مساهمته وموقعه في الأدب الأمريكي :

هو بلا جدال أكثر كتاب عصره أصالة ومقدرة على تمثل مختلف التأثيرات وخلق ما هو جديد. وقد اعتُرف له بهذا في الولايات المتحدة وفرنسا حيث لعبت أعماله دوراً كبيراً في ما يسمى «بالرواية الجديدة». وتتجلى اصالته ومقدرته في خلقه لعالم خاص به (يوكناباتووا) وخلق عدد من الشخصيات لم يخلق مثلها أحد من الكتاب المعاصرين، تعيش في ذلك العالم .

كما أنه يتميز بأن كتاباته غامضة ومعقدة وبأنها تتطلب الكثير من الجهد والثقافة من القارىء ولكنه في النهاية يجني ثمرة ذلك الجهد متعة حقيقية. كما أنه أعطى رواياته شيئاً من طبيعة الشعر والخيال المتدفق.

أبدع فولكنر في القصة القصيرة وكذلك فيما يمكن أن نسميه الحكاية وهي قصة تتراوح في طولها بين القصة القصيرة والرواية. وينطبق هذا على بعض رواياته التي تتضمن حكايات كهذه مثل **الدب وشمس ذلك المساء (The Bear, That Evening Sun)** .

ولعل أهم مساهماته هي أسلوبه اللغوي ومبالغاته البلاغية وشاعريته ورموزه وإيماءاته الأدبية .

ولابد من التنويه أيضاً بمساهمته في استعمال اسلوب تيار الوعي والمونولوج الداخلي، والمنظور المتغير باستمرار وخاصة في **الصخب والعنف** .

وردة لإميلي (*)

[توحي القراءة السطحية لهذه القصة بأنها قصة رعب ، امرأة تعيش في بيت معزول عن البلدة ، لا تعترف بالحاضر ولا بالحقيقة الواقعة بل بالماضي وما أصبح مع مرور الزمن أوهامه. تقتل عشيقها وتحتفظ بجثته أربعين سنة وهناك ما يشير الى أنها تنام معه لفترة وهو جثة هامدة. يمكن القول إذن أن في المرأة مسّ من جنون. ولكن أهل البلدة يصفونها بأنها «عزيزة ، لا يمكن تجنبها ، مغلقة تماماً ، هادئة ، شكسة .» ولكنها مع ذلك تفرض احترامها واحترام عزلتها وخصوصيتها على البلدة .

ولكن القصة في الحقيقة ليست مجرد قصة رعب. بل انها تصوير لما يمكن ان يجر إليه التعلق بالماضي وأوهامه من نتائج مخيفة ومن حياة أقرب ما تكون للموت. وهي بهذا تشكل نقداً للجنوب أو تلك القطاعات من الجنوب التي تتشبث بالماضي وتتجاهل الحاضر. وهو موضوع يطرقه فولكنر كثيراً في رواياته وقصصه. كما أن للقصة مدلول أوسع فهي نقد لما يمكن أن يؤدي اليه التشبث بالماضي ليس في الجزء الجنوبي من الولايات المتحدة بل في جميع أرجاء العالم .

ولكن العنوان له دلالة بالنسبة لهذا الموضوع. فهل الوردة رمز محبة واحترام من البلدة لإميلي رغم ما قيل اعلاه عن موقفها الجنوني ؟

من الناحية الفنية يتجلى في هذه القصة اسلوب فولكنر في تفتيت مسار الزمن وتغيير اتجاهه. رغم ان القارىء يفهم القصة بسهولة فانه سيجد صعوبة في ترتيب احداثها على أساس زمني. ولكنها تبدأ عام ١٨٩٠ قبيل وفاة والدها وهي في الثلاثين من عمرها وتنتهي عام ١٩٣٤ بموت اميلي وعمرها أربع وسبعون عاماً. ويتفنن فولكنر كعادته في توزيع الأحداث ولكن بشكل مقنع] .

المحرر

(*) ترجمة : عباس محمود العقاد من كتاب ألوان من القصة القصيرة في الأدب الأمريكي.
الناشر : مكتبة الانجلو المصرية/ القاهرة .

(١)

لما توفيت السيدة إميلي جريرسون خرج لتشييعها عامة أهل المدينة. قام الرجال بهذا الواجب بعامل المحبة والاحترام لذلك الأثر الذي طوته يد المنون. وتبعهم النساء غالباً بعامل الفضول لاستطلاع منزلها من الداخل، ذلك المنزل الذي لم يُرَ فيه أحد منذ عشر سنوات . . . اللهم إلا خادماً عجوزاً يجمع في هذا البيت بين مهنة البستاني وعمل الطباخ .

كان منزلاً كبير الأركان، مربع البنيان، ويخيل أنه كان فيما مضى متألق الجنبات، تزينه القباب والطنف ذوات الأبراج على طراز القرن السابع عشر. وقد أقيم في شارع كان يعد من أهم شوارع المدينة. إلا أنه قد طغت عليه الآن حظائر السيارات ومحالج القطن، وعفت على كل ما فيه، حتى تلك العناوين الفخام التي كانت تحل في ذلك الجوار . . ولم يبق غير منزل السيدة إميلي الذي ظلَّ قائماً على رغم البلى في إصرار وعناد بين مركبات القطن ومضخات البترول : قذى بين أقذاء . . . وها هي ذي السيدة إميلي قد رحلت من هذه الدار لتلحق بمن سلفوا من أصحاب تلك العناوين الفخام ، وهم رقود في مقابرهم تحت أشجار الصنوبر الساحرة ، حيث مثوى جنود الاتحاد الأمريكي الذين لاقوا حتفهم في معركة جيفرسون . . .

كانت العناية بالسيدة إميلي تقليداً وواجباً وضرباً من الرعاية، وفرضاً يتوارثه الناس في المدينة منذ عهد الكولونيل سرتوريس ذلك الحاكم الذي أصدر أمره ذات يوم عام ١٨٩٤ ألا تخرج الى الطريق امرأة من الزنوج بغير ميدعة ، وظل يُعفي إميلي من الضرائب ويصرف لها معاشاً منذ مات أبوها ، وما كان معنى هذا أن السيدة إميلي تقبل الصدقة . . كلا. بل كان الكولونيل سرتوريس قد ابتدع قصة ليفهم الناس أن والد السيدة إميلي سبق فأقرض المدينة قرضاً وأنها تختار هذه الطريقة لسداده . . . ولم يكن لينخدع بهذه القصة غير رجل من ذلك الجيل الذي عاش فيه الكولونيل سرتوريس ولم يكن ليصدقها من النساء غير امرأة واحدة . . .

فلما انصرم ذلك الجيل وجاء بعده جيل له أفكاره وآراؤه ، وتغير الحكام

ومشايخ البلاد، ظهر بعض التذمر من جراء هذا التدبير، فأنفذ اليها رجال الإدارة في بدء السنة إعلاناً يطالبونها بالضرائب. وحل شهر فبراير ولم يظفروا منها بجواب. فأرسلوا اليها خطاباً يستدعونها الى مكتب الحاكم في الوقت الذي يلائمها. فلما انقضى أسبوع كتب اليها الحاكم نفسه يطلب اليها الحضور لمقابلته، فإذا لم تستطع وتعذر عليها الحضور فإنه يرسل اليها مركبته. فجاءه ردها وهو مكتوب بحبر باهت على ورقة قديمة، وفحواه أنها لم تعد تستطيع الخروج، ثم أعادت الإعلان دون أن ترد على ما فيه.

دعوا الى عقد اجتماع لشيوخ البلدة، فانعقد وتقرر أن يذهب اليها مندوبون منهم . . . فلما طرقوا بابها الذي لم يعبره قط أحد منذ انقطعت عن إعطاء دروسها في نقش الخزف قبل ثماني أو عشر سنوات. أدخلهم الزنجي الهرم الى ردهة مظلمة تفضي الى سلم يؤدي الى مكان أشد ظلمة . . وكانت تتصاعد هنالك رائحة الغبار والعفن، ومن ثم قادهم الى قاعة الاستقبال . وهي مفروشة بأثاث ثقيل مغطى بالجلد. فلما فتح شراعة إحدى النوافذ ظهر لهم ما في هذا الجلد من التشقق. فما كادوا يجلسون عليه حتى تصاعد عليهم التراب، وأخذت ذرات منه تطوف وسط الشعاع الوحيد الذي بدا من النافذة. ثم ظهرت أمام الموقد صورة على حمالة مذهبة للسيد والد إميلي .

فلما دخلت السيدة إميلي نهضوا واقفين : سيدة قصيرة ممتلئة في ثياب الحداد، تتدلى من عنقها سلسلة سميكة من الذهب، وتتوكأ على عصا من الأبنوس متوجة الرأس من الذهب، وكان هيكل جسمها ضئيلاً حتى إن ما يعد بدانة في غيرها يعد إفراطاً في السمن بالنسبة إليها وقد بدا جسمها منتفخاً كأنما ألقي زمناً طويلاً في ماء راكد، وكان لونها شاحباً . . وعيناها الضائعتان في غضون وجهها الممتلىء ، كقطعتين صغيرتين من الفحم ركبتا في كتلة من العجين ، تنتقل بهما من وجه الى وجه ، وهم يشرحون لها رسالتهم التي أوفدوا لتبليغها . لم تدعهم الى الجلوس ولكنها وقفت بالباب وأصغت في هدوء الى أن انتهى متحدثهم من حديثه . وقد استطاعوا أن يتسمعوا دقات ساعتها وراء سلسلتها الذهبية .

قالت وفي صوتها جفاف وبرودة : ليس عليّ ضرائب في جيفرسون ، بهذا

أخبرني الكولونيل سرتوريس، ولعل أحدكم يرجع الى سجلات المدينة، ويقنعكم بما يجده هنالك .

ـ ولكننا فعلنا. ونحن السلطة التنفيذية في المدينة يا سيدة إميلي . . ألم يصل إليك إعلان بذلك من الحاكم موقع عليه بخاتمه ؟

قالت السيدة «إميلي» : أجل لقد تسلمت ورقة ممن يعتبر نفسه الحاكم . . ومع ذلك ليس عليّ ضرائب في جيفرسون !

ـ ولكن ليس في سجلاتنا ما يدل على ذلك كما ترين. ويجب أن نذهب الى . .

ـ ليس عليّ ضرائب في جيفرسون، ويمكنكم أن تسألوا في هذا كولونيل سرتوريس !

ـ ولكن يا سيدتي إميلي، إن الكولونيل سرتوريس قضى نحبه منذ عشر سنوات !

ـ ليس عليّ ضرائب في جيفرسون على كل حال !

ثم ظهر الزنجي فأومأت اليه أن تقدم هؤلاء السادة الى الباب .

(٢)

وهكذا تغلبت عليهم بخيلهم ورجلهم كما تغلبت على آبائهم منذ ثلاثين سنة في أمر الرائحة بعد موت أبيها بعامين وبعد أن هجرها حبيبها بأيام قليلة . . وكنا نعتقد جميعاً أنه سيتزوجها .

لقد كانت بعد موت أبيها لا تغادر منزلها إلا في القليل النادر، وقلَّ أن رآها أحد بعد أن رحل عنها عشيقها . فكانت بعض السيدات يجازفن ويعبرن عن رغبتهن في زيارتها ، فلم يكن يسمح لهن بالمقابلة . وقد خلا هذا المنزل من كل علامة من علامات الحياة، إلا ذلك الزنجي الذي كان شاباً صغيراً في ذلك الوقت، يدخل ويخرج وفي يده سلة السوق .

كانت السيدات في دهشة حينما انتشرت هذه الرائحة الكريهة من بيتها، وكثيراً

مـا قلن : إن أي رجل يسـتطيع أن يقوم بتنظيف المطبخ، وهكذا كانت تلك الرائحة حلقـة اتصـال بين الدنيا الصاخبة اللاغبة وبين الاعزاء من آل جيرارسون .

وشكت سيـدة من الجيران الى القـاضي سـتيـفنسـون حاكم المدينة ـ شيخ في الثمانين ـ فقال لها : «وماذا تريدين أن أفعل يا سيدتي ؟»

قال السيدة : تأمرها أن تزيل هذه الرائحة. أليس ثمة قانون ؟

قـال القـاضي : لا ضرورة لذلك فـيما أرى، ولعله ثعبان أو جرذ قتله الزنجي وتركه في الفناء وسأخاطبه في ذلك .

وفي اليـوم التـالي تلقى شكويين أخـريين إحـداهما من رجل جـاء يسترحم وهو متردد، وقـال «حقاً إننا يجب أن نعمل شيئاً في هذه الرائحة يا سيدي القاضي» .

فأجـابه : إنني آخـر انسـان في العـالم يقدم على إزعاج السيدة إميلي ، إلا أننا نستطيع أن نعمل شيئاً . . .

واجـتـمـعت في تلك الليلة هيئة ـ شـيوخ المدينة ـ وهم ثلاثة من ذوي اللحى البيضاء ورجل أقل سناً ممن ينتمون الى الجيل الجديد .

وقـال : من السهل علينا أن نرسل إليها أمراً إدارياً بأن تنظف منزلها ونعين لها وقتاً لتنفيذ ذلك ، وإلا . . .

وقـال القـاضي : «بئس ذلك الرأي يا سـيـدي . . . أيجوز أن نخـاطب سيدة ونواجهها بتهمة الرائحة الكريهة؟»

وفي الليلة التـاليـة اقـتحم أربعة من الرجال عند منتصف الليل حديقة السيدة إمـيلي وانسلوا الى داخل المنزل كـاللصـوص يتشممون الرائحة في الطرق، والممرات، ومن النوافـذ المطلة على مخازن الطعـام ، وأحـدهم يبذر مادة مطهرة من حقيبة معلقة على كـتـفـه، وانطلقوا الى باب المخزن فرشوا به مقداراً من الجير وكذلك صنعوا بسائر مـباني المنزل من الخارج. وقد ظهر بصيص من النور من نافذة كانت مظلمة، وبدت وراءها السـيـدة إميلي مـائلة كالدمية بغير حراك وانسلوا من الحديقة بهدوء الى ظلال

شـجـر الخـروب المصطـف على طـول الطـريـق ، وقـد اختفت الرائحة بعد أسبوع أو أثنين.

كل هذا والناس يأسـون لحـالها في الحـقـيـقة . ويذكر أهل بلدتنا كيف جنت خـالتـهـا السـيـدة ديات. وكـانت تعتقد أن آل جيرارسون يترفعون كثيراً لما كانوا عليه من سمو المكانة، وأن أحداً من الشباب لا يستحق أن ينال يد السيدة إميلي وأمثالها. وكنا منذ زمـن نراهم في لوحـة مـصـورة تبـدو فـيـهـا السـيـدة إميلي رشيقـة القـد الى جـانب أبيـهـا ، وهو شـيخ ضـامر قد أسند ظهره إليها وحمل في يده سوطاً ، وكأنها البـاب من خلفهما إطار لتلك الصورة ، ولكننا جعلنا نقول في أنفسنا : إنها حتى مع الجنون الوراثي في الأسرة مـا كـانت لتـوصـد البـاب في وجه كل فرحة لو أتيح لها أن تتمها !

فـلـما مـات أبـوهـا وجـدت أنـه لم يـبـق لـديها غير المنزل ، وارتاح الناس لهذا المصير، ولكنهم اسـتطاعـوا أن يشـعـروا نحوها بالشفقة ، إذ كانت قد تخلفت وحيدة مـعـوزة ، فـاصطبـغت عندهم بالصبغة الإنسانية . . وإنها الآن تهتم بسحتوت يزيد وسـحتوت ينقص، شأنها شأن سائر الناس من المكدودين والفقراء .

وفي الـيـوم التـالي تهيأت جميع السـيـدات للذهاب الى المنزل لتـقـديم عـزائهن ومـعـونتـهن جرياً على العرف والعادة. فاستقبلتهن السيدة إميلي على الباب بملابسها اليـومـيـة، وليس على وجـهـها أثر من أمارات الحزن ، وقالت لهن إن أباها لم يمت، وظلت على ذلك ثلاثة أيام لم ينقطع في خـلالها وفـود من القسـاوسة والأطباء يحاولون إقناعـهـا بوجـوب التصرف في الجـثـة . وإنهم ليـهـمـون باللجوء الى سلطان القانون واسـتـخدام القوة إذا هي تتراجع وتأذن لهم أن يدفنوا أباها على عجل !

ولم نقل آنئذ إنها مجنونة ، بل اعـتـقدنا أنها خليقة أن تصنع ذلك. إذ كنا نذكر كل أولئك الفـتـيـان الذين طردهـم أبوها وعـرفنا أنها ـ وقـد صفـرت يداهـا من كل شيء ـ ستعلق بذلك الخطيب الذي غرر بها كما يفعل سائر الناس .

(٣)

مـرضت برهة ، فلما رأيناها بعـد ذلك إذا هي قد قصت شعرها وعقصته على زي الفـتيات الصغيرات متشبهة بسمات الملائكة المرتسمة على نوافذ الكنائس الملونة ، يجللهـا الحزن والوقار .

وكـانـت المدينـة قـد أتمت الاتفـاق على رصـف الطـرق وقـد بدىء العـمل في الصـيف بعـد مـوت أبيـهـا . وجـاءت شركـة المقـاول الذي قـام بهذا العمل بالزنوج والبـغـال والآلات البـخـارية ، وعلى رأسـهـم رجل يدعى هومر بارون : رجل ضخم الجـسم ، أسـمر البشرة ، غليظ الصوت ، عيناه سمراوان أخف من سمرة وجهه ، وكـان صـغـار الصـبـيـان يتـوافدون زرافات ليروه وهو يسوق الزنوج وينهرهم ، وهم يغنون مع حركة المعاول صاعدة وهابطة !

وسرعـان مـا تعـرف الى الناس في المدينة ، وحـيثما سمعت الضحكات تجلجل مـتـتـابعة في الحي ، فهي ضحكات هومر بارون بين رفاقه . ثم أصبحنا فإذا بنا نراه والسـيـدة إمـيلي يخرجـان في نزهات الأصايل أيام الأحد تسير بهما مركبة خفيفة ذات دواليب صفراء تجرها الجياد !

عـمنا الفرح بادىء الأمر لأن السيدة إميلي قد ظفرت بشيء من التسلية، وقال سـائر الناس : «إن سـيـدة من آل جيرارسـون بطبـيعة الحال لن تفكر تفكيراً جدياً في رجل شمالي يعـمل بقـوت يومـه ، إلا أن أناسـاً ممن هم أكبر سناً كانوا يقولون : «إن الحـزن لا يصح أن يجعل سـيـدة تنسى الكرامـة والعـرف وتتجاهلهما» ! وينتهي بهم القـول الى أن السـيـدة إمـيلي يجب أن يزورها أقرباؤها ، فإن لها أقرباء في «ألباما» قد قـاطعـهـم أبوها من جـراء ضـيـعـة السيدة ديات ـ تلك المرأة المجنونة ـ فلم يعد ثمة اتصـال بين العائلتين حتى أنهم لم يحضروا جنازته . . .

ومـا يكاد الرجـال المتـقـدمـون في السـن ينظـرون اليها ويقولون «يا للمسكينة إميلي !!» حـتى يتـهـامـسـوا ويقـولـوا : « أتظنونهـا كذلـك . . . وماذا تكـون غير ذلـك؟ » .

ولا يفتأون يقولون «يا للمسكينة إميلي !!» وهم فيها كانوا فيه ، وحفيف الديباج المخمل المقصب خلف الستائر المغلقة التي تحجب شمس الأصيل يوم الأحد، والركب يجدّ ، وحوافر الخيل تدوي في الطريق : يا للمسكينة إميلي !!

ذلك وهي لا ترى إلا رافعة الرأس حتى في حين كنا نرثي لحالها، كأنها تتقاضى الناس فوق ما تعودت أن تتقاضاه من قبل ـ كرامة تجدر بسلالة آل جيرارسون . . كذلك كانت ترى حين اشترت سم الزرنيخ، وكذلك بعد أن مضى عام وهم يقولون : «يا للمسكينة إميلي !!» وفي زيارتها يومئذ اثنان من أولاد عمومتها .

قالت للصيدلي : «أريد سماً» ، وكانت إذ ذاك قد جاوزت الثلاثين : هيفاء أنحف من المألوف، لها عينان سوداوان متكبرتان في وجه مشدود البشرة ، كأنما تانك العينان قد ركبتا فيه على مثال العيون التي تلمحها في وجوه حراس المنارات . . .

ـ قالت : أريد سماً . . .

ـ أجل يا سيدتي إميلي . وأي نوع تريدين ؟ ألأجل الفئران وما شاكلها ؟ إنني محضره إليك .

ـ أريد أحسن ما لديك . ولا أسأل عن النوع .

وأخذ الصيدلي يعدد لها أسماء شتى . . . إن هذه الأصناف تقتل ما تشائين وإن كان فيلاً . . . ولكن ما هو النوع الذي تريدين ؟

قالت السيدة إميلي : الزرنيخ ، أليس هذا نوعاً جيداً ؟

ـ الزرنيخ ؟ أجل يا سيدتي ، ولكن ماذا تصنعين به ؟

ـ أريد زرنيخاً !

وأخذ الصيدلي ينظر إليها وهي تنظر إليه وقد نصت إليه وجهها كالعلم ، فقال :

ـ إذا كان هذا طلبك فإن القانون يفرض علينا أن نسألك ماذا تصنعين به ؟

ولم تزد السيدة إميلي على أن نظرت إليه محملقة. وأمالت رأسها كأنها تريد أن تتمكن من مواجهته عينا لعين ، حتى مال بنظره عنها ومضى في إحضار الزرنيخ. ثم أرسله اليها مع الزنجي الذي يوزع الطلبات على أصحاب المنازل .

ولما فتحت الورقة التي لف فيها السم وجدت مكتوباً على الصندوق تحت علامة الجمجمة والعظام : «سم فيران» .

قلنا بعد يوم إنها تريد أن تبخع نفسها ، وخيراً ما تفعل . . . إنا كنا نقول حينما رأيناها أول مرة مع هومر بارون «إنها ستتزوجه» ثم قلنا «إنها تحاول أن تقنعه» لأن هومر نفسه قد صرح بأنه لا يهوى النساء، وكان معروفاً عنه أنه ينادم صغار الشبان في «نادي الوعل»، ثم عدنا فقلنا : «يا للمسكينة إميلي!» وهي تمر خلف الستائر في المركبة اللامعة عصر يوم الأحد. وكانت السيدة إميلي رافعة الرأس وهومر بارون يضع على رأسه قبعة عالية وفي فمه سيجار، والعنان والسوط في يديه، يغطيهما قفاز أصفر .

أخذ النساء يقلن : هذا عار على المدينة ومثل سيء لشبابها. أما الرجال فلم يشاءوا أن يتعرضوا للأمر. إلا أن النساء قد أرغمن القسيس على أن يستدعيها اليه، لأن أسرة السيدة إميلي كانت من أتباع الكنيسة الرسولية، فاستدعاها ولم يشأ أن يفضي بشيء مما دار بينه وبينها ، ولكنه رفض مفاتحتها مرة أخرى . فلما جاء يوم الأحد التالي خرجا في المركبة وطافا في شوارع المدينة ، فكتبت زوجة القس غداة ذلك اليوم الى أسرة السيدة إميلي في ألباما .

هكذا رأينا أقرباءها يعدن الى المنزل مرة ثانية، وتريثنا لنعرف ماذا سيكون. فلم يحدث شيء ما بادىء الأمر، ثم كنا على يقين بأنهما سيتزوجان لا محالة، وقد عرفنا أن السيدة إميلي كانت قد ذهبت الى بائع الجواهر وطلبت منه بعض أدوات الزينة الفضية من لوازم الرجال ، وعلى كل قطعة منها حرفا هـ. ب. ثم اشترت بعد يومين جهازاً كاملاً من ملابس الرجال ومنها قميص للنوم . وقلنا حينئذ : «لابد أنه قد تم زواجهما» وكنا مسرورين بذلك فعلاً. لأن ابنتي عمها كانتا أحرص منها على رعاية العرف والسمعة، ولم ندهش حينما رحل هومر بارون من المدينة على أثر فراغه من رصف الشوارع. وخاب ما كنا ننتظره من ثوران زوبعة من القيل

والقـال بالبلدة. إلا أننا اعـتـقـدنا أنه إنما ذهب ليـسـتـعـد لاستقبال السيدة إميلي أو ليـعطيـها فرصة تتخلص فيها من ابنتي عمها (وكان هنا تآمر بينهما على السيدة إميلي التي كنا نناصرها جميعـاً)، ثم تأكـدنا فـيما بعـد أنهن غـادرن منزلها بعد أن قضين به أسبوعاً آخر .

قـفـل الى المـديـنـة هـومـر بارون كما كنا نتـوقع بعـد ثلاثة أيام، وأبصره أحـد الجيران وراء الزنجي يقـوده من باب المطبخ في غـبش المساء .

ثم كـان آخـر عـهـدنا بهومـر بارون وكـذلك السيدة إميلي فترة من الزمن كان الزنجي يدخل خـلالها ويخرج من المنزل والبـاب مـغلق من آن لآخـر، ومن آن لآخر كنا نراها تقف لحظة في النافـذة كما فعلت عندما كان الرجال يلقون الجير . . . ولقد ظلت ستة أشهر محتجبة لا تظهر في المدينة .

وكـان هذا هو المنتظر كأنما كـانت خـصلة أبيـهـا التي عطلت حـيـاتها الأنوثية وراثة أقـوى من أن تموت في جوانح سليلته . . . !

فلما وقع نظرنا على السـيـدة إمـيلي أول مرة بعد ذلك كانت قد سمنت وشاب شـعـرها، وازداد الشـيـب مع السنين حتى صار ـ كما يقولون ـ في لون الملح والفلفل، وثبت على ذلك .

وحـتى وهي في الرابعـة والسـبعين من عمرها عندما وافاها الأجل كان شعرها قوياً حديدي اللون أشبه ما يكون بشعر الرجال الأشداء . . . !

ومنذ تلك الآونة لبث البـاب الأمـامي مـغلقـاً إلا خـلال أيام ستة أو سبعة لا يرى مـفـتـوحـاً، إلا فترة من الزمن حين بلغت الأربعين، وقـد كـانت في تلك الأيام تـعطي دروسـاً في نقش الخـزف وتـتـخـذ لها مـرسماً في حـجـرة من حـجـرات الدور الأرضي حـيـث كـانت بنات الخـاصة من كريمات جيل الحاكم وحفيداته يزرنها بانتظام في المواعـيـد التي كن يراعـينهـا في زيارة الكنيـسة أيام الآحاد ومعهن قطعة من ذوات الربع الريال لطبق الهدايا . . . وظلت الى ذلك الحين معفاة من الضريبة .

وتولى الجـيل الجـديد شئون البلدة . ونمت التلمـيذات وكبرن ، فانقطعن عن الدروس ولم يخلفـهن أحـد من أطفـالهن ليـذهب اليـهـا بصناديق الألوان، وريشـات

التصوير والرسوم المقصوصة من مجلات السيدات، وهكذا أغلق بابها على آخر تلميذة من تلميذاتها، وظل مغلقاً وهي لا تسمح لرجال البريد أن يضعوا على بابها لوحاتهم المعدنية وصناديقهم التي يودعونها ما يحملون من الخطابات .

وكنا نرقب الزنجي يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام. وهو يزداد شيباً وانحناء. ولا يزال يقبل ويدبر بسلة السوق . .

وفي كل شهر من شهور ديسمبر كنا نرسل اليها إعلاناً نطالبها فيه بالضرائب. فيُردّ بعد أسبوع بغير جواب ، وكنا نراها من آن لآخر مطلة من إحدى النوافذ بالدور الأرضي. فقد كان الدور العلوي مغلقاً على الدوام ، وكأنما هي وثن مكب في محراب. ولا نكاد ندري هل كانت تنظر الينا أو لا. وهكذا عاشت من جيل الى جيل عزيزة شكسة مستقرة .

ثم ماتت بعد أن دهمها المرض في منزل يعلوه التراب وتغمره الأشباح ، ولم يكن ليشهد وفاتها غير هذا الزنجي ، وان لا نعلم بمرضها ولا نسأل الزنجي شيئاً من أخبارها لأنه لا يكلم أحداً ، ومن المحتمل أنه كان لا يكلمها . . وقد غلظ صوته وصدىء من الإهمال وقلة الاستعمال .

وماتت السيدة إميلي في حجرة من الحجرات الأرضية على سرير من الخشب الثقيل ، ومطروح عليها ستار ، ورأسها الأبيض ملقى فوق وسادة صفراء وقد تعفنت من القدم والظلام .

قابل الزنجي أول وفود السيدات على باب المنزل، وأدخلهن وهن يتهامسن وينظرن نظرات خاطفة ملؤها الفضول. وكان يسير قدما داخل المنزل وخارجه، ثم اختفى بعد ذلك. وحضرت ابنتا عمها على الأثر ، وأقامتا الجنازة في اليوم التالي . وحضر أهل المدينة لينظروا السيدة إميلي في مرقدها الأخير تحت باقات الأزهار ، وقد أطل على النعش وجه أبيها من صورته الماثلة هنالك يتأمله في عمق وأناة والنساء يولولن في ذعر وأسى. وبدا الرجال الذين قد تقدمت بهم السن، على سدة الباب وفي طرقات الحديقة ، بعضهم يلبس الرداء الرسمي وبعضهم بغيره ، وهم يتحدثون عن السيدة إميلي كما لو كانت معاصرة لهم ، وربما قال بعضهم إنهم

راقصوها، وهم يخلطون بين الزمن وسياقه الحسابي كما يفعل الشيوخ عادة. إذ يخيل اليهم أن هذا الزمن مرج طويل لا يعفو أبداً ولا يمسه الشتاء، وإنما يفصل بينه وبينهم مدى السنوات العشر الأخيرات.

ونما الى علمنا أن بالدور العلوي حجرة لم يرها أحد منذ أربعين سنة ، وأن هذه الحجرة يجب أن تقتحم . وقد تريث القوم حتى دفنت السيدة إميلي وتولوا فتحها .

وكان اقتحام الباب كفيلاً بانتشار التراب في كل جانب ، وقد بدا كل ما في هذه الحجرة المؤثثة بجهاز العرائس ، وكأنما عليه غطاء كثيف من أغطية النعوش . هنا وهناك ستائر مهيأة للزفاف ناصعة اللون ، ومناضد مغطاة، وأوان بللورية وأدوات الزينة من لوازم الرجال . . تغيرت جميعاً حتى امّحت حروف الاسم المرقوم عليها ، وعلاها كلها الغبار ، وران عليها ظل كظل القبور . . وبينها جميعاً طوق وقلادة كأنما خلعا أخيراً ، متروكين على التراب . . ووضعت البدلة على كرسي مطوية معنياً بطيها، وتحتها الحذاء والجوارب . . أما الرجل نفسه فراقد على الفراش !

* * *

وقفنا هنيهة ننظر الى ذلك الوجه المكشر عن أسنانه معروقاً على جسم كان كأنما يتهيأ للعناق. ولكن خانه ذلك النوم الطويل الذي يبقى حين يذهب الحب ويطغى حتى على ملامح الهوى ، ويخالس فراش الغرام ، وقد تعفنت البقية الباقية من ذلك الحطام تحت ما تبقى من قميص النوم ، واختلطت بالفراش الذي يرقد فيه. واستقر على الوسادة الى جواره دثار من ذلك التراب الساكن الصبور .

ثم لمحنا على الوسادة رأساً منخوباً ، فأقامه أحدنا ورفعه الى الأمام ، وقد غشاه ذلك التراب الهزيل الذي تجمد في خياشيمه . فوجدنا خيطاً طويلاً من الشعر الأبيض الحديدي اللون ـ شعر إميلي . . ! .

والاس ستيفنز
(١٨٧٩ ـ ١٩٥٥)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

ساهم الديوان الأول لشاعرنا ، وعنوانه **القدمية** (١٩٢٣) (**Harmonium**) [نوع من الأرغن] في تحديد معالم مدرسة الحداثة في امريكا. وقد عاش صاحب الديوان حياتين : الأولى كرجل أعمال ناجح (نائب رئيس شركة تأمين) وكشاعر يكتب شعره في الليل والصيف والعطل .

حياته :

ولد في مدينة ريدنج (Reading) في ولاية بنسلفانيا وتخرج من مدرسة ثانوية عامة . التحق بجامعة هارفارد لمدة ثلاث سنوات ولكنه تخرج من كلية الحقوق في جامعة نيويورك. ولم يحالفه التوفيق في وظائفه بعد تخرجه وعمله في نيويورك، ولكنه اختلط بالأوساط الأدبية والشعراء الشبان وكون صداقات معهم (وليم كارلوس وليمز وماريان مور على سبيل المثال) ثم انتقل الى مدينة هارتفورد في ولاية كونكتكت حيث أصبح محامي تأمين ناجح جداً، ثم نائب رئيس شركة تأمين ناجحة . وعاش في هارتفورد من ١٩١٦ حتى وفاته عام ١٩٥٥ . زار عدداً من الولايات الأمريكية ولكنه لم يزر أوربا .

اعماله وافكاره :

ألف عدداً من دواوين الشعر ذُكر أولها اعلاه. وكان ظهور الطبعة الثانية من الديوان نفسه أثناء فترة الكساد مثيراً للاستغراب إذ لا ذكر فيه لمشاكل المجتمع والبلاد . وقد حاول التعرض لبعض القضايا العامة في ديوانه الثاني ، **برسيم البومة** (١٩٣٦) وكذلك في ديوان **أجزاء من**

عـالـم (١٩٤٢) **(Parts of a World)** . ولكن ستيفنز يبقى شـاعر الحياة الداخلية الذاتية ، رغم أنه أبدى طيلة حـياته اهتماماً شديداً بالوظيفة الاجتماعية للشعر وبمفهومه للشعر بشكل عام.

وفي كتـاب **الملاك الضروري** (١٩٥١) **(The Necessary Angel)** وهو مجمـوعة مقالات، عـرض الشاعر نظريته في الشعر. وهمه الرئيسي في الشعر هو الغاء الفجوة بين الذات والعالم ، بين الوعي واللاوعي (ومن هنا اعـتبـار سـتيـفنز شـاعـراً في المدرسـة الرومـانسية) . ووسيلة ذلك هي المخـيلة التي يعـرفـهـا سـتيـفنز بأنها «مجمل قـدراتنا.» وهي أيضـاً «كـوكب ثالث» يمكن مـقارنته بالشـمس والقـمر، إذ تجعلنا نرى العالم بطريقة شخصية تختلف مع كل مزاج . والشعر هو « مرح اللغة » . كما أنه «يعطي الحياة الخلق السامي الذي لا نستطيع بدونه فهمها .»

مساهمته وموقعه في الأدب الأمريكي :

إن كـان ديوانه الأول قـد سـاهم في تحـديد مـعـالم مـدرسة الحداثة في الأدب الأمريكي فإن **مجـمـوعـة شـعـره** (١٩٥٥) ، التي نالت جـائزة البـولتزر وجائزة الكتاب الوطني لذلك العام، هي من أهم دواوين الشـعـر في القـرن العشرين . لقـد خلق في شعره للقارىء عالماً جديداً ولكنه عـالم حقيقي، عالم يثبت جمال الواقع واعتماد الجمال على عين الرائي. لقد أضاء شعره سطوح العالم وأعماقه .

صباح الأحد (★)

[هذه القصيدة من أروع قصائد القرن العشرين. ليس من السهل فهمها ولكنها تكافىء بجمالها من يبذل الجهد الكافي لقراءتها وتذليل صعوباتها. نقابل في هذه القصيدة امرأة تتناول طعام الأفطار في وقت متأخر من صباح الأحد، وهي تجلس في شرفة مشمسة. واضح أنها ليست في الكنيسة في الوقت الذي يفترض أن تكون فيه هناك. وتنقلها أفكارها الى القدس والديانة المسيحية. وتتساءل إذا ما كان من الضروري الايمان بعالم روحاني وعدم الاكتفاء بالعالم الطبيعي كما هو في تغيره. وكيف يمكن أن تكون الحياة في الجنة، في العالم الآخر، بدون تغيير. تدور هذه الاستفسارات في مخيلتها. وفي ختام القصيدة تسمع صوتاً يقول لها ان القبر في القدس ما هو إلا قبر المسيح. ويوحي الصوت بأن السماء ما هي إلا هنا على الأرض في عالم التغير الذي نعيش فيه وان المرأة تقبل هذا. فالانسان إذن يستطيع أن يجد في نفسه وفي خياله كل ما هو بحاجة اليه في محاولته مواجهة أزمة العصر، عصر ماتت آلهته وضاع منه الإيمان.

القصيدة غنية بصورها وبموسيقاها وجرسها].

المحرر

١

نعيم المبذل (١) الفضفاض، والقهوة
المتأخرة والبرتقال في كرسي مشمس (٢)،
والحرية الخضراء لككتوة (٣)
فوق سجادة تمتزج لتبدد

(★) من كتاب **قصائد من قلم الشاعر والاس ستيفنز**. ترجمها د. أحمد المجدوبة. الناشر: مركز الكتب الأردني ١٩٩٠. جميع الحواشي للمترجم.

(١) الثوب.

(٢) المفروض أن يكون صباح الأحد صباح عبادة.

(٣) ببغاء ذو عرف.

سكون الأضحية القديمة المقدس.
تحلم قليلاً، وتشعر بوطء
تلك الكارثة القديمة المظلم،
حين يعتم سكون بين أضواء الماء.
تبدو حبات البرتقال حاد النكهة والجناحان الخضراوان
اللامعان وكأنها أشياء من موكب أموات،
تتمايل عبر سطح مائي عريض، دونما صوت.
النهار كالماء العريض، دونما صوت،
أسكت كي تمر قدماها الحالمتان
فوق البحار، الى فلسطين الصامتة،
مهد الدم والضريح (٤)

٢

لَم يتوجب أن تعطي هبتها (٥) للأموات ؟
ما الألوهية (٦) إن كانت تأتي
في ظلال صامتة وفي أحلام فحسب ؟
ألن تجد في نِعم الشمس،
في الثمر حاد النكهة والجناحين الخضراوين اللامعين، أم في
أي بيلسان أو جمال ارضي،
أشياء تُعشق كعشق التفكر في السماء ؟

---

(٤) موت يسوع المسيح .
(٥) أي ما تملك .
(٦) وقد تعني «القدسية» .

يجب أن تحيا الألوهية داخل ذاتها :
أحاسيس مطرية، أو حالات مزاجية في ثلج متساقط؛
أشجان في الوحدة أو مسرات
عاتية عندما يزهر الغاب؛ مشاعر
عاصفة في طرقات مبتلة في ليال خريفية؛
كل اللذات وكل الآلام، وتذكر
غصن الصيف وعود الشتاء.
تلك هي الأقدار المكتوبة لروحها .

٣

ولد جوف (٧) في السحب مولداً لا إنسانياً .
لم ترضعه أم، ولم تهب أرض جميلة
عقله الخرافي أي ميول عظيمة.
اختال بيننا، كما يختال ملك مدمدم،
بعظمة، بين رعيته ، (٨)
الى أن جلب دمنا العذري، المختلط
بالسماء، هذا التحرير للرغبة
وقد لحظته الرعية (٩) ، في نجم .
هل يُخفق دمنا ؟ أم هل سيصبح

---

(٧) ويدعى أيضاً جو بيتر، وهو ملك الآلهة في الأساطير الرومانية، ونظيره زيوس في الأساطير الأغريقية.
(٨) وتعني الكلمة ، حرفياً «إيلته» أو «أبقاره» ، إذ كان جوف يظهر على شكل حيوان أحياناً ، وقد تعني خدمه أو عبيده .
(٩) هنا إشارة الى الرعاة الذين رأوا نجم عيد الميلاد، حسب ما ورد في الإنجيل .

دم الفردوس ؟ وهل ستبدو الأرض
كلها الفردوس الذي سنعرف ؟
ستكون السماء عندها أكثر وداً منها الآن،
شيء من العمل وشيء من الألم،
تأتي بعد الحب الدائم في مجدها،
لا هذه الزرقة الفاصلة غير الآبهة .

٤

تقول : «أكون قانعة عندما تقوم الطيور الموقظة،
قبل أن تطير، بتفحص حقيقة
الحقول الضبابية، من خلال تساؤلاتها العذبة؛
لكن عندما تذهب الطيور، ولا تعود
حقولها الدافئة قط، أين إذن الفردوس ؟»
لا يوجد أي موطن للنبوءة،
ولا أي حلم (١٠) قبر قديم،
ولا أي عالم ذهبي تحت الأرض (١١) ، ولا جزيرة
غناءة، حيث الأرواح تُحضر، (١٢)
ولا جنوب حالم، ولا نخيل (١٣) غيمي
بعيد على تلة سماوية ، كان قد بقي
كما تبقى خضرة نيسان؛ أو سوف يبقى

---

(١٠) أو «وهم» وتشير الكلمة أصلاً الى وحش له رأس أسد .
(١١) فردوس الأبطال في الأساطير.
(١٢) مـاالجزر التي يؤخذ إليها أبطال الأساطير بعد موتهم .
(١٣) مكافأة الشهداء .

مثل تذكرها الطيور الموقظة،
أو رغبتها في حزيران والمساء، يزينها
اكتمال جناحي السنونو.

٥

تقول : «حتى في القناعة ما أزال أشعر
بالحاجة الى بعض السرور الذي لا يفنى.»
الموت هو أُمّ الجمال؛ لذلك فمنها،
وحدها، سوف يأتي تحقيق أحلامنا
ورغباتنا. مع أنها تنثر أوراق
الهلاك المحتم في دروبنا،
ويأخذ الدرب الحزن المريض، الدروب العديدة
التي قرع فيها النصر عبارته النحاسية، أو همس
الحب بعض الشيء من قبيل اللطف،
فإنها تجعل الصفصاف يرتعد في الشمس
من أجل صبايا اعتدن الجلوس والتحديق
في العشب، المتروك لاقدامهن .
تجـعل الأولاد يكدسون حبات البرقوق والأجاص الجديدة
في وعاء مهمل. تتذوق الصبايا
فيهمن ملتهبات العواطف بين الأوراق التي سقطت .

٦

ألا تغير في الموت في الفردوس ؟
ألا يسقط الثمر الناضج قط ؟ أم هل تتدلى
الأغصان دوماً مثقلة في تلك السماء التي تتسم بالكمال،
لا تتغير، غير أنها تشبه كثيراً أرضنا الفانية،
بأنهار مثل أنهارنا تنشد بحاراً
لا تصلها قط، ذات الشواطىء المتراجعة
التي لا تُلامس قط بحركة غير معبرة ؟
لِـمَ صف الأجاص على ضفاف تلك الأنهار
أو ملء الشواطيء بعبير البرقوق ؟
وا حسرتاه أن يلبسوا ألواننا هناك،
النسج الحريري عند العصر،
ويلتقطوا أوتار أعوادنا رتيبة النغم !
الموت أُمُّ الجمال، روحي،
نخترع داخل صدره المتأجج
أمهاتنا الدنيوية تنتظر، ولا تنام.

٧

برقة وعصف، سوف تنشد مجموعة
من الرجال معاً في صباح صيفي
ترانيمها الصاخبة للشمس (١٤)،
لا كإله، بل كما يمكن للإله أن يكون،
عار بينهم، مثل مصدر همجي.
ستكون أنشودتهم أنشودة فردوس،
تصدر من دمهم، ترجع للسماء؛
وسيدخل في انشودتهم، صوتاً تلو صوت،
البحيرة العاصفة (١٥) مبعث سرور سيدهم،
والأشجار، كالملائكة، والتلال التي
يصدح صداها بينها لمدة طويلة.
سوف يعرفون جيداً الرفقة السماوية
لرجال يموتون ولصباح الصيف.
من اي مكان أتوا وأينما يذهبون
ستظهر آثار الندى على أقدامهم.

---

(١٤) الشمس في اللغة الانجليزية مذكر.
(١٥) أو المائجة أو المتعرجة.

٨

تسمع، من ذلك الماء الذي لا صوت فيه (١٦) ،
صوتاً يصيح : «الضريح الذي في فلسطين
ليس شرفة تتجمع فيه الأرواح.
إنه قبر يسوع، حيث يرقد.»
نعيش نحن في فوضى الشمس القديمة (١٧) ،
أو تبعية الليل والنهار القديمة،
أو سكون الجزيرة، غير محكومة (١٨) ،
حرة (١٩) ، من ذلك الماء العريض، الذي لا مفر منه.
تختال الغزلان في جبالنا، وتشدو
طيور السلوى حولنا بصرخاتها العفوية؛
وتنضج حبات التوت في البرية؛
وفي عزلة السماء
عند المساء، تشكل أسراب الحمائم في تحليقها العادي
تموّجات غامضة عندما تهبط،
تندفع نحو العتمة، بأجنحة مفرودة.

١٩١٥

---

(١٦) أو «منه» .
(١٧) الحالة التي كانت سائدة قبل تشكل الكون .
(١٨) أو «غير محكومين»، إذا أرجعنا العبارة الى «نحن» .
(١٩) أو «أحراراً» .

حـكـايـة الـجـرّة

ترجمة د. عصام الصفدي

[هذه قـصـيـدة قـصيرة وهي في الواقع طرفـة أكـثر منها حكاية. يضع رجل ـ هو المتكلم في القـصـيـدة ـ جـرة على تلة في البرية في ولاية تنيسي فيتغير منظر المنطقة كلها. تكتسب البرية جمالاً واتساقاً، نتيجة ذلك التغيير البسيط .

طبـعاً يمكن الاكتفاء بهذا المعنى خاصة وان عنوان القصيدة هو طرفة أو حكاية (anecdote). ولكن في نطاق شـعـر سـتـيـفنز يتغير الموضوع تماماً. فالتلة هي الواقع والجرة رمز للخيال أو للعمل الفني. والجـرة، بما هي شيء «غير طبيـعي» بمـعنى أنها من صنع الانسـان، تشكل نقطة مرجعية تضفي على ما حولها شكلاً ونظاماً] .

المحرر

وضَعْتُ فوق تلة في تنيسي (١) ،
جرّة مستديرة.
فجعلت (٢) البرية الموحشة
تحيط بتلك التلة .

ارتقت البرية إليها،
وانبسطت حولها؛ لم تعد موحشة.

---

(١) ولاية أمريكية .
(٢) التاء تعود على الجرة .

كانت الجرّة فوق الأرض مستديرة
فارعة الطول، شامخة في الفضاء.

هيمنت في كل مكان.
كانت الجرة رمادية وعارية،
لم تكن كالطير أو الأيك
أو كأي شيء آخر في تنيسي .

١٩١٨

ثـورنـتـون وايـلـدر
(١٨٩٧ ـ ١٩٧٥)

د. عصام الصفدي

لمحـة عـامـة :

كـاتـب عـالمي الثـقـافـة والدراسـة منذ صـبـاه. جـدد في فن المسرح بشكل أدهش القـراء والمتـفـرجين . أبدع في المسرحية والرواية. وهو أكثر إبداعاً فيهما من أي كاتب أمريكي آخر ، وإن كـان غـيره قـد حـقـق نجـاحـاً أكبر في كل واحـد من هذين النوعين الأدبيين. حـصل على جـائزة البولتزر ثلاث مرات (Pulitzer Prize) . ويتميز وايلدر بنزعة انسانية عميقة .

حـيـاتـه :

ولـد ونشأ في مـدينة مـاديسـون في ولاية وسكانسـون في المنطقـة المعـروفـة بالغـرب الأوسط للولايات المتـحـدة. وفي التـاسعة من عمره انتقلت أسرته مع أبيه، الذي كان يعمل محرراً لجريدة، الى هونج كـونج. وفي هونج كـونج التـحق بمـدرسـة المانيـة ثم في مـدرسـة إرسالية في الصين. بعد عـودته الى الولايات المتـحـدة التـحق بجـامـعـة كاليفورنيا في بيركلي. درس علم الآثار في روما مدة أربع سنوات. وقـد درس الفـرنسـيـة وحـصل على شـهادة الماجستير في الأدب الفرنسي من جامعة برنسـتون. عام ١٩٢٧ استقر به المطاف في ولاية كونكتكت حيث تفرغ للكتابة .

أعماله وافكاره :

وايلدر كـاتب ذو نزعـة إنسـانيـة عـميقة ، ومن المؤمنين بالتراث الانساني للغرب. وقد كان محبـاً للحيـاة ومن دعـاة عدم الانغماس في شؤون الحياة اليومية الصغيرة دون الالتفات لروعتها. كما

أنه كـان يؤمن بمـقـدرة الانسـان على التكيف مع مـتـغيرات الحـيـاة وعلى البـقـاء رغم كل المصائب والصعوبات.

مساهمته وموقعه في الأدب الأمريكي :

يعـتبر وايلدر من كـتاب المسرح المجددين. فلم يكن قانعاً بالتقاليد البالية للواقعية كمدرسة أدبيـة وفنيـة ، كما أنه لم يكن قانعاً بالتقاليد المسرحية التي تتمسـك بخلق الوهم أو الخداع illusion بأن المسرحيـة في أحـداثهـا وشخوصها ولغتها ، الى غير ذلك، هي حقيقة فعلاً. ومثل كثيرين من كـتاب هذا القرن، حاول وايلدر أن يمزق قناع الخداع أو الوهم، ويبين للمشاهد أن ما يجري على المسرح هو مسرحيـة وليس حـيـاة حقيقية. وبذلك ينتمي للمذهب التجريبي الذي يشمل المدرسة الرمـزية والتـعبيرية والانطباعية وغيرها .

ومن الأسـاليب التي اتبـعـهـا في محاولتـه هذه جعل المسرح عار تقريباً من الأثاث، ومخاطبة الجـمـهـور مـبـاشرة من قـبل الممـثلين أو مـدير المسرح وتقـمص الممـثلين لدورهم حـينا والظهـور كـشـخـصـيـاتهم الحـقيقية حيناً آخر . وبذلك يكون وايلدر من المجددين في فن المسرح في أمريكا وينتمي لاتجـاه التجديد مثل برخـت الألماني Brecht وجـيرودو Giraudoux الفـرنسـي وغيرهما وان كـانت أسـاليبـه في التـجـديد تختلف عن أسـاليبها. وهو من أوائل الكتاب المسرحيين الأمريكيين الذين سـاروا في هذا الاتجاه التجديدي .

بلدتنا (*)

مسرحية في ثلاث فصول

[هذه المسرحية ثمرة من ثمرات محاولة كاتبها تخليص فن المسرح من تقاليد الواقعية التي تزور الواقع باسم محاولة تقديمه كما هو، وكذلك من كافة ما يمكن أن يحول بين الكاتب وإيصال ما يريده للجمهور. فخشبة المسرح في هذه المسرحية تكاد تكون خالية ويخلو من الستار الذي أصبح وكأنه لا غنى للمسرح عنه. ويظهر على المسرح مدير المسرح الذي يتحدث مباشرة للجمهور وينادي الممثلين ليمثلوا ما يطلبه منهم ويقوم كذلك بتمثيل بعض الأدوار الثانوية الى غير ذلك من أمور كانت تفاجىء المشاهدين والقراء. ومع ذلك فقد نالت المسرحية نجاحاً كبيراً في الولايات المتحدة وفي كثير من أرجاء العالم وترجمت الى العديد من اللغات .

والمسرحية دعوة للتمتع بالحياة التي ينسينا روتينها ما فيها من روعة وجمال حتى في أدق تفاصيلها التي لا نكاد نحس بها. ويتبدى هذا بشكل خاص في الفصل الثالث إذ تختار إميلي أن تبعث من الموت الى الحياة في عيد ميلادها الثاني عشر .

رغم أن المسرحية تحدد البلدة التي تدور فيها أحداث المسرحية فان **بلدتنا** ذات دلالة انسانية وعالمية عميقة. ويحقق الكاتب هدفه هذا بعدة أساليب منها مثلاً تحديد موقع البلدة على خارطة الولايات المتحدة وذلك بتحديد خط الطول والعرض وكذلك في الكون كله] .

المحرر

أشخاص المسرحية

مدير المسرح

دكتور جيبز

جو كرويل

(★) ترجمة صفية ربيع . من كتاب **أربع مسرحيات من الادب الأمريكي** . جمع ومراجعة حسن محمود . مكتبة الانجلو مصرية القاهرة ١٩٥٤ . نشر هذا الكتاب بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر. القاهرة ـ نيويورك .

هاوي نيوسم

مسز جيبز

مسز وب

جورج جيبز

ربيكا جيبز

واللي وب

اميلي وب

الاستاذ ويلارد

امرأة في الشرفة

رجل بين الحضور في القاعة

سيدة في اللوج

سيمون ستمسون

مسز سومز

الكونستابل وارن

سي كرويل

لاعبو البيسبول

سام كريج

جو ستودارد

أهل البلدة

تجري حوادث المسرحية في جروفرز كورنرز بنيوهامبشير بين سنتي ١٩٠١ و١٩١٣ .

الفصل الأول

(لا ستار

ولا منظر

يصل المتفرجون فيرون امامهم مسرحاً خالياً قد أضيء بضوء خافت .

ثم يدخل مدير المسرح بقبعته وغليونه في فمه، ويأخذ في وضع مائدة وبضعة كراسي في اليسار من المسرح، ومثلها في اليمين. «اليمين» و «اليسار» هما بالنسبة للممثل اذا ما واجه الجمهور، «وأعلى» ناحية الحائط الخلفي .

وعندما تطفأ أنوار الصالة يكون المدير قد فرغ من ترتيب المسرح، وانحنى على العمود الجانبي في اليمين من مقدمة المسرح، وراح يرقب المتأخرين في الحضور. عندما يسود الظلام الصالة تماماً يبدأ حديثه) :

مدير المسرح : اسم هذه المسرحية هو «بلدتنا» كتبها ثورنتون وايلدر، وانتجها واخرجها أ . . . . أو هي انتاج أ . . . . واخراج ب . . . . تشهدون في هذه المسرحية الآنسة ج . . . . والآنسة د . . . . والآنسة هـ . . . . والسيد و . . . . والسيد ز . . . . والسيد ح . . . . وآخرين كثيرين غيرهم .

أما اسم البلدة فهو جروفرز كورنرز بنيوهامبشير، على الجانب الأخر من خط مساشوستس تماماً ، والبلدة على خط طول ٤٢ درجة و ٤٠ دقيقة وخط عرض ٧٠ درجة و٣٧ دقيقة. والفصل الأول يعرض يوماً من أيام بلدتنا هو يوم ٧ مايو سنة ١٩٠١ قبيل الفجر بقليل .

(يسمع صياح الديك)

لقد بدت خطوط من الضوء في السماء ناحية الشرق هناك خلف جبلنا، وتزداد نجمة الصبح دائماً تألقاً في اللحظة التي تسبق أفولها .

(ينظر اليها لحظة ثم يتجه نحو أعلى المسرح)

والآن يجمل بي أن أعرض عليكم معالم بلدتنا. ففي هذه الجهة العليا .

(أي في خط موازٍ للحائط الخلفي) .

يوجد الشارع الرئيسي، ومن خلفه محطة السكة الحديدية وتمتد قضبانها في هذا الطريق. وعلى الجانب الآخر من القضبان توجد بلدة البولنديين وبعض أسر الكانوك .

(والى ناحية اليسار) .

وهنالك الكنيسة المذهبية وعلى الجانب الآخر من الشارع الكنيسة البرزبتيرية، أما كنائس المثوديست واليونتيريان فهنالك في الناحية الأخرى. وكنيسة المعمدانيين هناك في السهل الى جانب النهر. والكنيسة الكاثوليكية هناك عبر السكة الحديد. ونرى دار البلدية والبريد في بناء واحد، وفي أسفل ذاك البناء. وهنا يمتد صف طويل من المحال التجارية، وأمام المحال مواقف لعربات الركوب ورباط الخيول. وسوف تجري السيارة الأولى في مدينتنا بعد خمس سنوات تقريباً . . . هذه السيارة يأتي بها الشري كارترايت اغنى مواطنينا . . . وهو يسكن ذلك البيت الابيض الكبير في أعلى التل، وهنا محل للبقالة، وهذه صيدلية مورجان. واغلب سكان المدينة يلقي نظرة على هذين المحلين مرة كل يوم . وتقع المدرسة الرسمية هناك ، أما المدرسة الثانوية فأبعد منها . وقد تستمع المدينة في الساعة التاسعة والربع من الصباح ، وفي منتصف النهار ، وفي الساعة الثالثة بعد الظهر من كل يوم صوت التلاميذ يتصايحون ويصخبون في أفنية المدرستين .

(يقترب ناحية المنضدة والمقاعد الى الأسفل يمين المسرح) .

أما هنا فدار الطبيب دكتور جيبز . . هذا هو الباب الخلفي .

(تبرز تكعيبتان كل واحدة من أحد أعمدة مقدمة المسرح) .

هذه بعض مناظر لأولئك الذين يرون منكم أنه لابد من المناظر، هنا حديقة بها قمح. . . وبازلاء. . . وفول. . . ونبات الخبيزي الافرنجية ، والهليوتروب. . . والكثير من الباردوك الشائك .

(يعبر المسرح) .

وفي تلك الأيام كانت جريدتنا تظهر مرتين في الأسبوع . . واسمها «الحارس» . . . وهذا هو منزل مستر وب محرر الجريدة . . . وهنا حديقة مسز وب، وهي تشبه تماماً حديقة مسز جيبز، غير أن فيها الكثير من عباد الشمس أيضاً . . وفي هذه البقعة شجرة جوز كبيرة .

(ويعود الى مكانه الاول عند عمود مقدمة المسرح من اليمين، وينظر الى الجمهور لحظة) .

مدينة جميلة، هل تعرفون ماذا أعني ؟

لم تنجب هذه البلدة ـ فيما نعلم ـ أحداً من المشاهير .

وأقدم القبور في المقبرة القائمة هناك على الجبل تعود الى سنة ١٦٧٠ ـ ١٦٨٠ . . . وتقرأ عليها اسماء آل جروفر وكارترايت وجيبز وهيرسي وهي نفس الأسماء التي نسمعها من حولنا. لقد قلت لكم ان الوقت قبيل الفجر . . . ولا تجد في البلدة ضوءاً الا في ذلك الكوخ من قرب قضبان السكة الحديد . . . فهنالك أم بولندية ولدت توأمين . . . وهناك ضوء أيضاً في دار جو كرويل حيث استيقظ جو الأبن ليوزع الجرائد . . وفي المحطة حيث استعد شورتي هوكنز ليلوح لقطار الخامسة و ٤٥ دقيقة، المتجه الى بوسطن .

(يسمع صفير قطار ويخرج مدير المسرح ساعته ويهز رأسه مؤيداً) .

ومن الطبيعي ان تكون هنالك في الريف المحيط بالبلدة بعض الأضواء لبعض الوقت، حيث يقوم الناس بحلب الأبقار وما اليه من أعمال، ولكن سكان البلدة ينامون عادة متأخرين .

هكذا إذن . . . بدأ يوم جديد .

هذا دكتور جيبز نراه قادماً في الطريق الرئيسي للبلدة من حالة الوضع تلك، وهذه زوجته تنزل الدرج لتعد طعام الافطار .

لقد مات الدكتور جيبز في سنة ١٩٣٠ وسمي المستشفى الجديد باسمه . .

والواقع ان مسز جيبز ماتت قبله بوقت بعيد . . . لقد ذهبت الى أختها ربيكا

التي تزوجت من رجل في شركة تأمين ببلدة كانتون بولاية أوهايو وماتت هناك . . بالتهاب رئوي . . . غير أن جثتها نقلت الى هنا. انها الآن في المقبرة مع كثيرين غيرها من أسرتي جيبز وهيرسي . . . وكان اسمها جوليا هيرسي قبل أن تتزوج دكتور جيبز في الكنيسة المذهبية هناك.

وانا لنحب في بلدتنا أن نعرف الوقائع عن كل فرد ـ ومن أهمهم دكتور جيبز.

وهاك أيضاً جو كرويل الأبن يوصل جريدة «الحارس» الى مستر وب .

(كان دكتور جيبز منذ لحظات آتياً في الطريق الرئيسي ناحية اليسار وعند النقطة التي عليه ان يتحول فيها ليتجه نحو بيته يقف وينحني الى الأرض وكأنه يضع حقيبته السوداء الخيالية، ويخلع قبعته ويدلك وجهه من التعب بمنديل كبير، وفي هذه الأثناء تكون مسز جيبز قد دخلت المطبخ وراحت تقوم بحركات كأنها تضع الخشب في الفرن تشعله وتعد الافطار ... وفجأة يبرز جو كرويل الابن في الطريق الرئيسي من ناحية اليمين، ويحرك ذراعه وهو يلقي جرائد خيالية في مداخل الأبواب) .

صباح الخير يا دكتور جيبز .

دكتور جيبز : صباح الخير يا جو .

جو : أكنت تعود مريضاً يا دكتور ؟

دكتور جيبز : لا . . انهما توأمان ولدا في بلدة البولنديين .

جو : أتريد جريدتك الآن ؟

دكتور جيبز : نعم. شكراً ـ ولكن قل لي هل حدث في العالم شيء خطير منذ الأربعاء الماضي ؟

جو : نعم يا سيدي، ان مدرستي مس فوسترز ستتزوج من رجل في بلدة كونكورد .

دكتور جيبز : هذا رائع . . وما رأيكم انتم تلاميذها في هذا ؟

جو : على أي حال ليس هذا من شأني، ولكني اعتقد انها ما دامت قد

أصبحت مدرسة فكان عليها أن تظل كذلك .

دكتور جيبز : كيف حال ركبتك الآن يا جو ؟

جـو : أحـسن مما كانت يا دكتور، اني لا أفكر فيها الآن على الاطلاق، ولكن كما قلت لي انها تنبئني دائماً متى يسقط المطر .

دكـتور جيبز : وماذا تخبرك اليوم . . هل تمطر السماء ؟

جو : لا يا سيدي .

دكتور جيبز : أواثق ؟

جو : نعم يا سيدي .

(يخرج جو ويظل جيبز واقفاً يقرأ جريدته) .

مـدير المسرح : والآن لقد قدم هاوي نيوسم يوزع اللبن .

(يأتي هاوي نيـوسم من الشـارع الرئيسي ويمـر على دكـتـور جـيبز، ثم يسير الى أدنى المسرح فـيترك بعض الزجـاجـات أمام باب مسز وب الخلفي، ويعبر المسرح الى دار مسز جيبز. وهو يحادث فرسه) .

هاوي : انشطي يا بسي . . . ماذا حدث لك ؟ . . . صباح الخير يا دكتور.

دكتور جيبز : صباح الخير يا هاوي .

هاوي : هل هناك مريض .

دكـتـور جيبز : وضعت مسز جوروسلاوسكي توأمين .

هاوي : توأمين ؟ ان سكان هذه البلدة يتـزايدون سنة بعد أخرى .

دكتور جيبز : هاوي . . . هل تظن السماء تمطر اليوم ؟

هاوي : لا . . لا . . سـيكون يومـاً جميلاً ، وتشرق الشمس طول النهار هيا يا بسي .

دكتور جيبز : هالو بيسي .

(يربت عليها) .

ما عمرها يا هاوي ؟

هاوي : قاربت السابعة عشرة من عمرها. لقد اختلط على بسي الطريق تماماً منذ انقطعت عائلة لوكهارت عن أخذ نصيبها اليومي من اللبن، فهي تريد أن أترك لهم زجاجتهم، وكأنها تؤنبني على أننا لا نسير الى أطراف المدينة .

(يصل هاوي الى باب مسز جيبز الخلفي حيث كانت منتظرة) .

مسز جيبز : صباح الخير يا هاوي .

هاوي : صباح الخير يا مسز جيبز . رأيت الدكتور قادماً في الطريق .

مسز جيبز : حقاً ؟ يبدو أنك تأخرت اليوم .

هاوي : نعم لقد تعطلت فرازة اللبن قليلاً. لا أدري ماذا حدث لها .

(يعود الى الطريق الرئيسي ويعمل بفمه لبسي اشارة السير وينصرف الى اليمين .. يصل دكتور جيبز الى منزله ويدخل) .

مسز جيبز : هل سارت الأمور سيراً حسناً ؟

دكتور جيبز : نعم، ولدت في سهولة القطط .

مسز جيبز : سأعد لك الشرائح في دقيقة . . استرح وتناول قهوتك . هيا يا ولدي. هيا يا ولدي. حان وقت قيامكم. جورج ! ربيكا ! . . أظن أنك تستطيع النوم ساعتين في هذا الصباح، أليس كذلك ؟

دكتور جيبز : ان مسز ونتورث ستحضر في الساعة الحادية عشرة، واستطيع أن أقول لك ما ستخبرني به مقدماً . . . معدتها ليست كما يجب أن تكون .

مسز جيبز : عندئذ لا تكون قد نمت أكثر من ثلاث ساعات. . . لست أدري ما سيحدث لك يا فرانك جيبز . . كم أود أن أذهب بك الى مكان بعيد كي تستريح . . . اعتقد ان هذا يفيدك .

مسز وب : اميلي !! يجب أن تقومي ! . . . واللي !! الساعة السابعة !

مسز جيبز : اظن من الضروري ان تتحدث الى جورج. يخيل الي أنه قد

حدث له شيء في هذه الأيام الأخيرة. انه لا يساعدني على الاطلاق . . . فاني لا استطيع أن احمله على قطع بعض الاخشاب لي .

دكتور جيبز : ماذا هل يعاندك ؟

مسز جيبز : لا . . . انه يتأفف فقط . . . لا يفكر في شيء سوى البيسبول . . . جورج ! ربيكا ! انكما ستتأخران عن موعد المدرسة .

دكتور جيبز : أسرعا يا ولدي .

مسز جيبز : جورج !

دكتور جيبز : أسرع يا جورج .

صوت جورج : نعم يا أبي . . .

(وهو يغادر المسرح) .

دكتور جيبز : ألا تسمع نداء أمك .

مسز وب : والي ! اميلي ! سوف تتأخران عن المدرسة . . . والي ! اغتسل جيداً والا جئت وقمت بذلك بنفسي .

صوت ربيكا : اماه . . . أي ثوب ارتدي ؟

مسز جيبز : لا تحدثي ضجة . . لقد قضى أبوك الليلة ساهراً وهو في حاجة للنوم . . . لقد غسلت لك ثوبك الأزرق وسويته بالمكواة لك خاصة .

ربيكا : انا أكره هذا الثوب يا أماه .

مسز جيبز : اخفضي صوتك !

ربيكا : هل تريدين أن أذهب كل يوم الى المدرسة في هذا الثوب فأبدو كالديك الرومي المريض ؟

مسز جيبز : ربيكا ! . . . لا تكوني عنيدة . . انك دائماً حسنة المظهر .

ربيكا : أماه ! ان جورج يلقي الصابون علي .

مسز جيبز : سأضربكما انتما الاثنين - هذا ما سأفعله !

(تسمع صفارة مصنع. يدخل الأولاد مسرعين ويجلسون الى مائدتي الافطار. اميلي ووالي وب وجورج وربيكا جيبز) .

مدير المسرح : في بلدتنا مصنع أيضاً هل سمعتم صفارته ؟ إنه يصنع الملاءات، وتمتلكه أسرة كارتريت . . . ويدر عليهم ربحاً وفيراً .

مستر وب : اسمعا يا ولدي ! لن أسمح بهذا . . ان للافطار آداباً كأية وجبة أخرى . . . لا أحب أن تأكلا هكذا كالذئاب . . ان هذا يبطل نموكما . . . هذا هو الحق. وأنت يا والي ! أترك كتابك جانباً .

والي : اواه . . . يا أماه .

مسز وب : أنك تعرف القاعدة كما أعرفها . . . اني لا اسمح بكتاب أثناء الطعام، واني لأفضل أن يكون أطفالي أصحاء على أن يكونوا نبهاء .

اميلي : أما أنا . . . فأجمع بين الأثنتين يا أماه ! وانك تعلمين ذلك فأنا بالنسبة لسني أذكى صبية في المدرسة وذاكرتي عجيبة .

مسز وب : كلي طعامك !

والي : وأنا ذكي أيضاً عندما افحص مجموعتي من طوابع البريد .

مسز جيبز : سأحدث والدك في ذلك بعد أن يأخذ قسط من الراحة . . واني لأعتقد ان ٢٥ سنتاً في الأسبوع كافية لغلام في مثل سنك . . وأصارحك القول بأني لا ادري كيف تنفقها كلها .

جورج : أوه . . . يا أماه . . . هنالك أشياء كثيرة أحب أن اشتريها .

مسز جيبز : انك تنفقها كلها في جيلاتي الفراولة .

جورج : اني لا أفهم كيف استطاعت ربيكا أن يكون لديها كل هذه النقود . . . معها أكثر من دولار .

ربيكا : (وقد وضعت الملعقة في فمها ... تقول وهي حالمة)

اني وفرته تدريجياً .

مسز جيبز : اظن يا عزيزتي أنه يحسن انفاق بعض النقود أحياناً .

ربيكا : هل تعلمين يا أماه ما هو أحب شيء الي في العالم .. هل تعلمين ؟ ... النقود .

مسز جيبز : كلي طعامك !

(يسمع جرس المدرسة يدق) .

الأطفال : لقد دق الجرس الأول يا أماه، يجب ان نسرع ...، لا نريد أكثر من هذا .

مسز وب : اسرعا في المشي ولكن لا تجريا ... واللي ! ارفع بنطلونك الى الركبة ... اميلي ! اعتدلي في سيرك !

مسز جيبز : بلغي مس فوستر أجمل التهاني ... هل ستتذكرين هذا ؟

ربيكا : نعم يا أماه .

مسز جيبز : انك أنيقة يا ربيكا ! هيا اسرعا .

الجميع : الى الملتقى .

(يلتقي اطفال المنزلين وسط المسرح ويتجهون نحو الشارع الرئيسي ثم الى اليسار ـ تملأ مسز جيبز مريلتها بأكل الكتاكيت وتتجه الى أضواء المسرح الأمامية) .

مسز جيبز : هنا، تشيك ... كت ... كت ... لا ... اذهب أنت بعيداً ... تعالي هنا .. كت .. كت .. كت ماذا دهاك أنت ؟ ... ألا تفعل شيئاً سوى ان تقاتل وتقاتل ! ... لست من دجاجي ... من أين أتيت ؟

(تهز مريلتها) .

لا تخافوا فلن يؤذيكم أحد ...

(مسز وب وقد جلست الى تكعيبتها، وهي تنظم حبات الفول في خيوط) .

مسز جيبز : صباح الخير يا ميرتل .. كيف حال البرد عندك ؟

مسز وب : لقد تحسنت، ولكن أخبرت شارلس أني لست متأكدة من الذهاب الليلة للتمرن على النشيد في الكنيسة اذ لا استطيع ذلك . . .

مسز جيبز : على أية حال يا ميرتل تعالي لتجربي .

مسز وب : ان لم تزد حالتي سوءاً فمن الراجح أن أحضر . . . لقد فكرت ان أنظم بعض حبات الفول وأنا استريح .

(ترفع اكمامها وهي تعبر المسرح لتتحدث الى جارتها) .

مسز جيبز : اسمحي لي بمساعدتك. كان محصول الفول هذه السنة جيداً .

مسز وب : لقد قررت أن أخزن أربعين قدحاً (*) ، ولو ارهقني هذا . . . ان الأطفال يقولون أنهم لا يحبونه . . غير أنني لاحظت أنهم يأكلونه على أية حال في الشتاء .

(صمت) .

مسز جيبز : اسمعي يا ميرتل . . . أريد أن أفضي اليك بشيء لو كتمته في نفسي لانفجرت .

مسز وب : ماذا يا جوليا . .

مسز جيبز : اعطني كمية أخرى من الفول . . ألم يمر عليك يوم الجمعة الماضي أحد الذين يشترون الأثاث القديم من مدينة بوسطن ؟

مسز وب : لا . .

مسز جيبز : لقد مر علي . . وظننته بادىء الأمر مريضاً يريد رؤية دكتور جيبز، ولكنه انسل الى غرفة الضيوف، وتصوري يا ميرتل وب، لقد عرض علي فعلاً، أقرر ذلك وأنا جالسة أمامك، أن أبيعه الدولاب القديم لجدتي «ونتورث» بثلاثمائة وخمسين دولاراً !!

مسز وب : أحقاً ما تقولين يا جوليا ؟

(*) الكلمة بالانجليزية هي quart وتعني ربع جالون . [المحرر]

مسز جيبز : نعم ! .. عرض هذا الثمن لذلك الشيء الكبير الذي طالما تعبت في اختيار مكان له، حتى كدت أعطيه الى ابنة عمي هستر ويلكوكس .

مسز وب : ستقبلين هذا العرض .. أليس كذلك ؟

مسز جيبز : لا أدري .

مسز وب : لا تدرين ؟ ثلثمائة وخمسون دولاراً ؟ ماذا جرى لك ؟

مسز جيبز : اني على استعداد لأن أبيعه الآن لو استطعت أن اقنع زوجي بأن يأخذ النقود ويسافر بها في رحلة الى مكان بعيد .. أتعرفين يا ميرتل انني منذ كنت لا أزيد على هذا الطول كنت أفكر في رؤية باريس .. وفرنسا .. ولكن لعلني مخبولة .

مسز وب : اني أعلم ما تقصدين .. ولكن ما رأي الدكتور في ذلك .

مسز جيبز : لقد حاولت أن أحوم حول هذا الموضوع قليلاً، وقلت لو أنني ورثت بعض النقود، هكذا قلت له، فاني سأحمله على أن يأخذني الى مكان ما ...

مسز وب : وماذا قال لك ؟

مسز جيبز : انك تعلمين طريقته ... لم اسمعه يقول كلمة واحدة جدية منذ عرفته. قال لي أن السياحة في اوروبا قد تجعله غير راض عن جروفرز كورنرز. وهو يقول ان من الأفضل ترك الأمور في سيرها.. وأنه يذهب مرة كل سنتين في رحلة الى مواقع الحرب الأهلية، وفي هذا الكفاية لأي انسان .

مسز وب : ان مستر وب يعجب تماماً بالطريقة التي يعرف بها دكتور جيبز كل شيء عن الحرب الأهلية. وهو يفكر في أن يقلع عن اهتمامه بنابليون، ويهتم بالحرب الأهلية، الا ان دكتور جيبز من أعظم خبراء الدولة في هذه الناحية وذلك يحمله على اليأس .

مسز جيبز : هذا هو الواقع فان دكتور جيبز لا يشعر بالسرور مثلما يكون في أنتيتام أو جتسبرج .. اني لأتذكر تلك الأيام التي سرت فيها معه على تلك التلال يا ميرتل .. نقف عند كل دغل .. ونذرع المكان كله، كأننا نزمع شراءه .

مسز وب : اذا كان هذا الرجل جاداً في الشراء يا جوليا فلتبيعيه، وتتمكنين عندئذ من رؤية باريس !

مسز جيبز : اني آسفة على أني ذكرت هذا الأمر، ولكن يبدو لي أنه يجب على المرء أن يرى ولو مرة في حياته قبل أن يموت بلداً لا يتكلم أهله ولا يفكرون بالانجليزية، ولا يرغبون في ذلك .

(يعود مدير المسرح الى وسط المسرح) .

مدير المسرح : كفى ! كفى ! اشكركما .

(تجمع كل من مسز جيبز ومسز وب أشياءهما وتعودان لدارهما وتختفيان) .

والآن سندع النهار يتقدم بضع ساعات في جروفرز كورنز . . . غير أني قبل أن نستمر فيما نحن فيه أود أن اعرفكم أشياء أخرى عن بلدتنا، أشياء متنوعة. لذلك سألت الاستاذ ويلارد من جامعة ولايتنا أن يأتي الينا ويحدثنا عن بعض التفصيلات عن تاريخنا القديم . . . فيقدم نوعاً من التقرير العلمي. هل بروفسور ويلارد هنا ؟

(يدخل الاستاذ ويلارد وهو عالم ريفي ، ويضع على عينيه نظارة مثبتة الى انفه وفي طرفها شريط عريض من الساتان ويتقدم من اليمين وهو يتأبط بعض الأوراق) .

أقدم لكم الاستاذ ويلارد، بجامعتنا . . تفضل علينا يا سيدي الاستاذ ببعض الملاحظات القصيرة وشكراً لك ونأسف لأن وقتنا محدود .

ويلارد : بلدة جروفرز كورنرز . . . أريد أن أقول . . . تقع جروفرز كورنرز على صخر الجرانيت القديم من عصر الأركيزويك الذي تتألف منه سلسلة جبال بالاشيان، وأستطيع أن أقول ان ارضها من أقدم الأراضي في العالم، واننا لفخورون بذلك . . . وتقطعها طبقة من البازلت الديفوني، بها آثار من تربة رخوة ترجع الى العصر الميسوزي، وبعض نتوءات من الحجر الرملي . . . وهذه الطبقات العارضة ترجع الى عصر حديث، أي الى حوالي مائتي أو ثلاثمائة مليون سنة . .

ولقد وجدت في أرضها بعض الحفريات الهامة، واستطيع أن أقول أنها حفريات فريدة على بعد ميلين من البلدة، في مراعي أبقار سيلاس بكهام . . .

وهذه الحفريات معروضة في متحف الجامعة، ويستطيع أن يراها الانسان في كل وقت .

أتريدون أن أعرض عليكم أيضاً تقريراً عن الأحوال الجوية ؟

مدير المسرح : نعم شكراً .

ويلارد : متوسط سقوط المطر ٤٠ بوصة، والمعدل السنوي للحرارة هو ٤٣ درجة، تتراوح بين ١٠٢ درجة في الظل فهرنهايت، و ٣٨ درجة تحت الصفر في الشتاء ، . . . ال . . .

مدير المسرح : شكراً يا أستاذ. هل معك مذكرات الاستاذ جروبر عن تاريخ الحياة البشرية هنا ؟

ويلارد : . . . نعم . . . تدل الأبحاث الانثروبولوجية على أن أصل السكان هنا من الجنس الأميرندي وقبائل الكوتاهاتشي. وليس هناك أي بينة عن الأصول فيها قبل القرن العاشر من حقبتنا . . نعم . . . لقد اختفى كل دليل الآن ولكن يحتمل وجود بعض الآثار في ثلاث من الأسر . . . وكانت الهجرة الى هنا حوالي نهاية القرن السابع عشر من أجناس من الانجليز ذات رؤوس قصيرة زرق العيون في الغالب. ومنذ ذلك الحين جاءت بعض الأجناس السلافية ومن أجناس البحر المتوسط .

مدير المسرح : وما عدد السكان يا أستاذ ويلارد ؟

ويلارد : ٢٦٤٠ في حدود البلدة ، و ٥٠٧ آخرون في المناطق التي يشملها توزيع بريد البلدة . . . ونسبة الوفيات والمواليد ثابتة، وهي بحساب مكفرسون ٦٫٠٣٢ .

مدير المسرح : شكراً جزيلاً يا استاذ. اننا جميعاً مدينون لك.

ويلارد : لم أفعل شيئاً يا سيدي ! لم أفعل شيئاً!

مدير المسرح : من هنا يا استاذ. وشكراً مرة أخرى .

(يخرج ويلارد) .

والآن لنسمع التقرير السياسي الاجتماعي من المحرر وب. . أين مستر وب؟

(تظهر مسز وب من بابها الخلفي) .

مسز وب : سيحضر بعد دقيقة . . . فقد جرحت يده بينما كان يقطع تفاحة ليأكلها .

مدير المسرح : شكراً لك يا مسز وب .

مسز وب : شارلز ! الكل منتظر .

(تخرج مسز وب) .

مدير المسرح : مستر وب هو محرر وناشر جريدة «الحارس» بجروفرز كورنرز جريدتنا المحلية كما تعلمون .

(يخرج مستر وب من منزله وهو يرتدي معطفه وقد ربط اصبعه بمنديل) .

مستر وب : . . . اظنني لست في حاجة لأن أخبركم ان الذي يدير أمورنا هنا هو هيئة من الرجال المنتخبين ، وللذكور حق الانتخاب متى بلغوا الواحدة والعشرين ، أما النساء فهن ينتخبن بطريق غير مباشر ! ونحن ننتمي الى الطبقة المتوسطة الدنيا ، وبيننا جماعة صغيرة من أصحاب المهن . . . وعشرة في المائة من العمال الأميين .

أما نزعاتنا السياسية فمنا ٨٦٪ جمهوريون و٦٪ ديمقراطيون و٤٪ اشتراكيون، والباقي ليست لهم أية نزعة سياسية . أما من الناحية الدينية فإن ٨٥٪ منا بروتستانت، ١٢٪ كاثوليك، والبقية ليست لهم نزعة دينية ظاهرة .

هل تريدون احصاء عن حالات الفقر والجنون ؟

مدير المسرح : شكراً لك. لا داعي لهذا . هل لك ملاحظات أخرى تود أن تبديها ؟

مستر وب : ان بلدتنا عادية جداً، لو سألتموني، وان كان مستوى الاخلاق مرتفعاً قليلاً عنه في معظم البلدان الأخرى، على أنها قد تبعث على الملل أكثر من غيرها .

ولكن يظهر أن شبابنا يحبون الحياة في بلدتنا كثيراً، فان ٩٠٪ من الذين يتخرجون في المدرسة العليا يستقرون هنا . . . حتى اولئك الذين ذهبوا الى الكليات في بلاد أخرى .

مدير المسرح : اشكرك يا مستر وب، والآن أيوجد بين الحاضرين من يود أن يستفسر من مستر وب عن شيء خاص ببلدتنا ؟

امرأة في شرفة : أيكثر سكان البلدة من الشراب ؟

مستر وب : في الحق يا سيدتي لا أدري ماذا تعنين بالاكثار ؟ ففي مساء السبت يجتمع بعض الفلاحين في حظيرة جياد ايليري جرين ويسكرون قليلاً . . . . ويوم ٤ يوليو أذوق أنا قطرة من الشراب . . . ويعرف هذا عني . . . ويوم توزيع الجوائز أيضاً. وبيننا واحد أو اثنان من المدمنين على الشراب، ولكنهما يشعران بتأنيب الضمير كلما جاء مبشر الى البلدة. لا يا سيدتي : ان الخمر المركز لا يوجد عادة في البيوت هنا الا في صندوق أدوية الدار .

رجل غاضب اللهجة في آخر القاعة : أليس في البلدة من يعرف . .

مدير المسرح : تقدم حتى يسمعك الجميع. ماذا تقول ؟

الرجل الغاضب : أليس في البلدة من يستشعر الظلم الاجتماعي والفوارق الاقتصادية ؟

مستر وب : أي نعم. . . الكل يستشعرون ذلك . . . وانه لشيء فظيع . . . انهم يمضون وقتهم في حديث عن الاغنياء والفقراء .

الرجل الغاضب : إذن لِمَ لا يفعلون شيئاً بخصوص هذا الموضوع ؟

(ينسحب دون أن ينتظر جواباً) .

مستر وب : نحن على أتم استعداد لنستمع الى كل فرد يتقدم باقتراحاته عما يمكن عمله ليصل الرجل العاقل المثابر الى القمة، وليهوي الكسول المشاكس الى الحضيض . . . نحن نرحب بكل رأي . . . والى أن يتم هذا، سنرعى أولئك الذين لا يقدرون على رعاية أنفسهم ونترك القادرين وشأنهم . . . أمَا من سؤال آخر ؟

سيدة في لوج : قل يا مستر وب هل في جروفرز كونرز ثقافة أو محبة للجمال؟

مستر وب : ليس فيها الكثير من ذلك يا سيدتي . . . بالمعنى الذي تقصدينه، ولو تأملنا الأمر لوجدنا ان بعض الفتيات يعزفن على البيانو في حفلات توزيع الشهادات بالمدرسة العليا، الا أنهن غير شغوفات بهذا، نعم واني لأذكر ابنتي وقد طلب اليها أن تقرأ «تاجر البندقية» لطالبات مدرستها فكنت ألاحظ بعدهن عما يقرأ لهن، وانك لتفهمين ما أقصد . . لا يا سيدتي ليس عندنا درجة من الثقافة عالية . . ولكن قد يكون هذا مناسباً لأن أحدثكم عن متع أخرى كثيرة قد تمت لهذا بصلة . . . اننا نحب الشمس وهي تبزغ في الصباح من وراء الجبل، والكثيرون منا هنا يبدون اهتماماً بالطيور والأشجار فنحن نهتم بها كثيراً نرقب اختلاف الفصول وكل منا يعرف هذه الفوارق جيداً . . . أما الأمور الأخرى فانك على حق يا سيدتي ليس لدينا الكثير منها . . . كلنا نعرف روبنسون كروزو، والانجيل ولارجو هاندل وصورة «الأم» لويسلر . . كلنا يعرف هذا ولكننا لا نمضي الى أبعد .

السيدة : لقد صدق ظني يا مستر وب .

مدير المسرح : حسن . . . حسن . . . اشكركم جميعاً .

(يتراجع مستر وب) .

ولنعد الآن الى بلدتنا . . . لقد أوشكت فترة ما بعد الظهر على الانتهاء وفرغ الألفان والستمائة والاثنان والأربعون من أهل البلدة من تناول الغداء، وغسلوا أطباقهم جميعاً .

ويسود البلدة كلها سكون العصر . . وان ترامى بعض الضجيج من بناء المدرسة، وليس في الطريق الرئيسي الا بعض عربات صغيرة قليلة . . . وقد نامت الخيول مطمئنة في مرابطها . . . أظنكم تتصورون هذا المنظر . . . أما دكتور جيبز ففي عيادته ينقر بأصابعه على صدور الناس، ويجعلهم يتنفسون تنفساً عميقاً . . . وذهب مستر وب يقطع العشب في حديقته الأمامية . . . وان رجلاً واحداً في كل

عشرة رجال يفخر بأنه يدفع آلة قص العشب بنفسه .

سادتي . . لا لقد اخطأت . . . لقد تقدم الوقت أكثر مما اعتقد . . . انظروا الأطفال يغادرون المدرسة .

(تدخل اميلي وب في خطوات متزنة وقد حملت بعض الكتب وفي مشيتها ما يدل على أنها تظن نفسها سيدة يسترعي جمالها الانظار ... ووالدها وهو يتحرك جيئة وذهاباً بآلة قص العشب قد أصبح قريباً منها) .

اميلي : لا يمكنني ذلك يا لوي . . . ان علي أن أرجع الى المنزل لأساعد أمي فقد وعدتها بذلك .

مستر وب : أميلي . . . سيري ببساطة . من تظنين نفسك اليوم ؟

اميلي : انك شديد علي يا أبت : تقول لي مرة انصبي قامتك، ومرة اخرى تؤنبني. لن استمع لك قط .

(تقبله قبلة خاطفة) .

مستر وب : يا الله ! لم أمنح قبلة من سيدة عظيمة مثلك من قبل .

(يختفي مستر وب وتنظف اميلي بعض الأزهار قريباً من باب المنزل .. ويظهر جورج جيبز في الشارع الرئيسي وقد مال بجسمه وألقى بكرة عالياً وراح ينظر كي يمسك بها من جديد وقد يضطره هذا الى أن يرجع الى الوراء بضع خطوات) .

جورج : معذرة يا مسز فورست .

مدير المسرح : (متلبساً شخصية مسز فوريست)

اذهب أيها الشاب . اذهب الى الحقول والعب هناك . . ليس لك أن تلعب البيسبول في الشارع الرئيسي .

جورج : آسف جداً يا مسز فوريست . . .

مرحباً يا إميلي !

إميلي : مرحباً !

جـورج : لقد القيت محاضرة جيدة بالفصل اليوم .

امـيلي : انني كنت في الواقع على استـعـداد للتحدث عن نظرية منرو، ولكن مـس كـوركـوران طـلـبـت مـني أن أتحـدث عن شراء لويزيانا بدلاً من ذلك، ولقـد قـضيت وقتاً طويلاً في دراسة الموضوعين .

جـورج : من المضـحك يا امـيلي اني اسـتطيع من خلال نافذتي هناك ان أرى رأسك ليـلاً وأنت مكبـة على واجباتك المدرسية بغرفتك في كل ليلة .

اميلي : أحقاً يمكنك هذا ؟

جـورج : انـك مـثـابرة جـداً يا امـيلي ـ الحق اني لا اسـتطيع ان أفـهم كـيف تسـتطيعين الانكباب على العمل طول هذا الوقت . . يخيل الي انك تحبين المدرسة .

اميلي : اشعر انها مرحلة يجب على المرء ان يمر بها .

جورج : حقاً !

امـيلي : وأنا لا أتضايق منها فهي تساعد على مرور الوقت .

جـورج : مـا رأيك يا امـيلي ؟ قد يمكن اقامة نوع من الاتصال التلغرافي بيني وبينك، فـتـسـتطيـعين بين حين وآخر ان ترشديني في حل مسائل الجبر . . . اني لا اقصد أن تعطيني الاجابة يا اميلي، بل اقصد التوجيه البسيط .

امـيلي : أظن ان التـوجـيه مسموح به، فاذا استعصت عليك مسألة يا جورج صفر لي فأعطيك بعض الارشادات .

جورج : يخيل الي يا اميلي انك ذكية بالفطرة .

اميلي : اظن انها الطريقة التي ولد عليها المرء .

جـورج : نعم ! ولكن أتعـرفين اني اود أن أكـون فـلاحـاً . . . ويقول «عمي لـوقـا» انه يمكنني أن أذهب لأعـمل في مـزرعـتـه عندمـا أرغب في ذلك، واذا أثبت جـدارة فاني اصبح مالك المزرعة تدريجياً .

امـيلي : اتقصد منزله والمزرعة كلها ؟

(تدخل مسز وب) .

جورج : نعم . . . شكراً . . . يحسن بي الآن ان اذهب الى ملعب البيسبول . . . شكراً على حديثك يا إميلي . . . طاب نهارك يا مسز وب .

مسز وب : طاب نهارك يا جورج .

جورج : الى اللقاء يا اميلي .

اميلي : الى اللقاء يا جورج .

مسز وب : ارجو ان تساعديني يا اميلي في تجفيف حبات الفول ونظمها في خيط للشتاء . . لقد لاحظت ان جورج جيبز تحدث إليك مدة طويلة . . . أليس كذلك ؟ لقد كبر سريعاً . . . أتعلمين ما عمر جورج ؟

اميلي : لا أدري .

مسز وب : لابد أن يكون في السادسة عشرة الآن .

اميلي : أماه ! لقد القيت اليوم محاضرة في الفصل واجدتها تماماً .

مسز وب : عليك أن تعيديها على أبيك في العشاء . ماذا كان موضوعها ؟

اميلي : صفقة شراء لويزيانا . . . كانت الألفاظ تنساب مني انسياب خيوط الحرير من البكرة . وسأقوم بالقاء المحاضرات طول حياتي . . . أماه ! هل حجم هذا الفول مناسب ؟

مسز وب : حاولي أن تنتقي الكبير منها ما استطعت .

اميلي : اماه ! هل تجيبينني مجدَّة لو سألتك سؤالاً ؟

مسز وب : عزيزتي قولي جدياً ـ لا مجدَّة .

اميلي : جدياً يا أماه ـ هل تجيبين ؟

مسز وب : طبعاً سأفعل .

اميلي : أماه هل أنا حسنة المنظر ؟

مسز وب : طبعاً يا فتاتي ! وأطفالي جميعاً ملامحهم حسنة ولو لم يكونوا

كذلك لخجلت منهم .

اميلي : اوه . . . يا أماه . . . ليس هذا ما أعنيه . هل أنا جميلة ؟

مسز وب : لقد قلت لك قبل ذلك نعم . . و . . وكفى الآن عن هذا الحديث . . ان وجهك صغير جميل، وأنا لم أسمع مثل هذه الحماقة من قبل .

اميلي : أمي لم أسمعك تقولين لنا الحق أبداً .

مسز وب : ولكني أقول الحق .

اميلي : أماه هل كنت أنت جميلة ؟

مسز وب : نعم ! لو صح لي أن أقول هذا . . كنت أجمل فتاة في البلدة بعد مامي كارتريت .

اميلي : ولكن يا أماه عليك أن تقولي لي شيئاً عني أنا . . . هل أنا جميلة . . . بحيث أجد أحداً . . . بحيث أجد أناساً يهتمون بي ؟

مسز وب : اميلي انك ترهقينني . . كفى عن هذا الحديث. انك جميلة بقدر ما تتطلب الحياة العادية . . هيا بنا وهاتي ذات الاناء معك!

اميلي : أوه . . . يا أماه . . . انك لا تقنعيني على الاطلاق .

مدير المسرح : شكراً . . . شكراً . . . كفى! علينا ان نقطع الحديث هنا مرة أخري . . . شكراً يا مسز وب . . . شكراً يا اميلي .

(تنسحب مسز وب واميلي) .

ما زال علينا ان نتعرف على أشياء أخرى في هذه البلدة. وسنحاول في هذه المرة ان نسلك طريقة جديدة، فننظر اليها من المستقبل. ولن أقص عليكم ماذا كان من أمر هاتين الأسرتين اللتين شهدنا افرادهما كثيراً، لأن بقية المسرحية ستتولى أمر ذلك . . ولكن سنعني ببعض الآخرين. فلنأخذ مثلاً جو كرويل الصغير . . كان جو شاباً ذكياً جداً، تخرج بامتياز، ونال منحة دراسية كي يكمل دراسته في كلية الهندسة ببوسطن، الا ان الحرب شبت ومات جو في فرنسا، وهكذا اصبح كل ما حصل عليه من تعليم بلا جدوى. أما هاوي نيوسم فلا يزال يوزع اللبن في

جروفرز كونرز وأصبح الآن هرماً له معاونوه ولكنه لا يزال يوزع اللبن بنفسه . . وهو يقول ان هذا يجعله يشعر بحال البلدة. وهو يحمل حساباته في رأسه، ولم يكتب قط عنها كلمة . . ولم يعد حانوت مستر مورجان الذي يحوِي كل شيء من ادوية الى بقالة، كما كان من قبل، فقد تحول الى ما يناسب مدينة . . . أما مستر مورجان نفسه فقد اعتزل العمل وذهب ليعيش في سان ديجو بكاليفورنيا حيث تزوجت ابنته برجل من ذوي الاملاك اسمه كوبي. ومات مستر مورجان هنالك سنة ١٩٣٥، ودفن بين أشجار النخيل. ويظهر انه غير عقيدته في أواخر حياته، واعتنق شيئاً يسمونه الفكر الحديث أو ما يماثل ذلك . . ولقد قرأوا على جثته شيئاً من الشعر الحديث ثم احرقوها . . ويظهر ان جو تلك البلاد قد اضاع ما فيه من صفات «نيوهامبشير» موطنه الاصلي. أما أسرة كارتريت فقد ازدادت ثراء على ثراء، واصبح منزل الاسرة هنا يكاد يكون مغلقاً طول العام. فالاسرة في سفر دائم، تتناول العشاء الفاخر في الفنادق الآن، وتقضي أيامها حول ينابيع فرجينيا الساخنة أو على شواطيء ميامي. وهي تقول ان الشتاء في البلدة هنا بارد. وشرع حاملو اسهم اسرة كارتريت في انشاء مصرف جديد في جروفرز كونرز، واضطروا، للأسف، ان يحملوا المرمر اللازم للبناء من فرمونت وسألوا صديقاً لي أن يدلهم على ما يضعونه في حجر الزاوية في البناء ، لكي يجده أولئك الذين يقومون بحفريات بعد الف سنة . فاستقر رأيهم آخر الأمر بالطبع على أن يضعوا نسخة من صحيفة «نيويورك تيمس» ونسخة من جريدة مستر وب «الحارس» . وقد اهتممنا جميعاً بهذا الأمر ، إذ استطاع بعض مواطنينا من المشتغلين بالعلم ان يكتشفوا طريقة لتغطية هذه المطبوعات بنوع من الطلاء . . هو غراء السليكا . . يحفظها ألف سنة بل ألفين .

وسنضع نسخة من الكتاب المقدس ودستور الولايات المتحدة . . ونسخة من شكسبير . . . ، ماذا تقولون في هذا ؟ وما رأيكم فيه ؟

انكم تعلمون ان بابل كان فيها مليونان من السكان، ولم يصلنا عنها الا أسماء الملوك وبعض صور من عقود المعاملات في القمح . . وبيع العبيد . . أجل في كل ليلة كانت تلك الأسر تجلس الى العشاء ويعود الأب من عمله الى داره، ويتصاعد

الدخـان من المداخن . . كما يحدث الآن هنا . . . وحـتى في اليـونان وروما . . كل مـا نعـرفـه عن حـيـاة الناس فـيـهما لا يتعدى ما نستطيع ان نستخلصه من القصائد الفكهـة والكوميديات التي كتبت للمسرح في تلك الأزمان .

لذلك سأعـمل على وضع نسـخة من هذه المسرحية في حجر الزاوية، فيستطيع الناس بعـد ألف سنة أن يعـرفـوا بعض الحـقـائق البسيطة عنا أكثر مما سيعرفونه عن معاهدة فرساي أو طيران لندبرج .

أفـهـمـتم مـاذا أعني ؟ فلتـعلموا يا معشر الناس بعد ألف سنة ! ان البشر في الولايات الواقـعـة الى شمال نيويورك وفي مستهل القرن العشرين، كانوا يأكلون ثلاث مـرات في النهـار : مرة بعد شروق الشمس مباشرة، وأخرى في الظهر، والثالثة عند الـغـروب. وفي كل سبـعـة أيام كـان الدين والقـانون يحتمان على الناس ان يستريحوا يومـاً، وان يتـوقـفـوا عن العـمل. وكـان الدين في ذلك الوقت هو المسيحية، واعتقد انكم وجدتم وثائق أخرى عن المسيحية .

أمـا نظام الاسرة فـقـد كـان يقوم على الزواج : وهو رابطة بين ذكر وانثى تدوم مدى الحياة .

وكـانت المسيحية تحرم القتل تحريماً قاطعاً، ولكنها تسمح لك بقتل الحيوانات، وتسـمح لك بقتل الانسان في الحرب. وفي العقوبات التي تفرضها الحكومة .

وأظن أننا لسنا بحـاجـة لأن نخبركم عن الحكومـة وطرق العمل، لأن هذا هو نفس الشيء الذي يتـوارثه الخلف عن السلف قبل أي شيء آخر .

ولأنـظر الآن هل هنالك شيء آخـر أقـوله ؟ أي نعم . . . كـان الناس يدفنون جـثث موتاهم على حالها في التراب .

هذه هي الطريقـة التي كنا نتـبعها أيها الاصدقاء، في شبابنا وزواجنا وفي تطببنا وفي حياتنا ومماتنا .

والآن نعـود الى عصرنا الحـاضر في جروفرز كورنرز .

لقـد مـر وقت طويل . . . ونحن في المسـاء، وتسـتطيع أن تسمع التمرن على

الـترتيل في الكنيسـة الميـثودية . لقـد لزم الأطفـال جميـعـاً بيـوتهم يؤدون واجبـاتهم المدرسـية . . والنهار يمضي منسلاً كالساعة المرهقة .

(وبدأت فـرقـة الغناء القـابعة مكان الاوركسترا تنشد « فلتبارك الصلة التي تربط » وقد وقف سيمون ستيمسون يقودهم ووضع على المسرح سُلَّمان يشيران الى الطابق الثاني في منزلي جيـبـز ووب ، ويصـعـد جـورج واميـلي عليهما ، ويعكفان على أداء واجباتهما المدرسية ويدخل الدكتور جيبز ويجلس في مطبخه ويقرأ) .

سيـمـون ستيمسون : والآن استمعوا لي جميعاً، لقد وجدت الموسيقى في العالم لاسعـادنا . . خـفـضـوا الصـوت ! خفضوا الصوت . . لا تتصوروا ان الموسيقى لا تكون جميلة إلا إذا كـان الصـوت عـاليـاً. اتركـوا الغناء العـالي للمـثـوديين . . فلن تتـفـوقوا عليهم في ذلك حتى لو قصدتم . . والآن من جديد إذن . . اصوات الرجال في الطبقات العالية .

جورج : اسمعي . . . ! اميلي !

اميلي : مرحباً !

جورج : مرحباً !

امـيلي : لا استطيع العمل مطلقاً . . . ان ضوء القمر رائع . .

جورج : اميلي ! هل توصلت الى حل المسألة الثالثة .

اميلي : اية مسألة ؟

جورج : الثالثة .

اميلي : طبعاً . . . نعم . . . انها اسهل المسائل . . .

جـورج : لا ارى ذلك . . هل يمكنك ان تساعديني باشارة صغيرة . . .

امـيلي : سأقول لك شيئاً واحداً . . ان الجواب بالياردات .

جـورج : الياردات . . .؟ ماذا تقصدين بذلك ؟

اميلي : بالياردات المربعة .

جـورج : أوه الياردات المربعة !

اميلي : نعم يا جورج ! هل فهمت ؟

جورج : تقريباً .

اميلي : بالياردات المربعة من ورق الحائط .

جورج : ورق الحائط ! آه . . . فهمت . . . شكراً جزيلاً يا اميلي .

امـيلي : اني ارحب بمـسـاعـدتك . . . انظر ! مـا أروع ضـوء القمر ! وتمرين فـرقـة النشـيـد لا يزال مـسـتـمراً . ولو حبست انفاسك لسمعت صوت القطار على طول الطريق الى «كـونتوكوك» . . . أتسمعه ؟

جورج : آه . . . ما أكثر ما تعرفين ! . .

اميلي : اظن من الأفضل أن أعود فأحاول العمل .

جـورج : طاب مساؤك يا اميلي وشكراً .

اميلي : طاب مساؤك يا جورج . .

سـيـمـون ستيمسون : قبل أن انسى ، من منكم يستطيع الحضور يوم الثلاثاء بعـد الظهـر للغناء في حفلة زواج فريد هيرسي، ارفعوا ايديكم . . . هذا حسن . . . وفـيـه الكفـاية . . سننشـد نفس الموسيقى التي انشدناها عند زواج جين تروبردج في الشـهـر الماضي. والآن ننشـد «هل أنت متعب، هل أنت مرهق» . ان هذه الانشودة سـؤال . . . يا سيداتي وسادتي . . . فدعوا الانشودة تنطق ! هيا !

دكتور جيبز : جورج ! هل تنزل هنا لحظة ؟

جورج : نعم يا أبتاه .

(ينزل السلم) .

دكـتـور جـيـبـز : اجلس ولن أسـتـبـقيك الا دقائق . . . يا جورج . . . كم عمرك ؟

جـورج : عمري ! اني في السادسة عشرة . . . أكاد أبلغ السابعة عشرة . . .

دكـتور جيبز : ماذا تنوي أن تفعل بعد أن تترك المدرسة ؟

جـورج : انك تعلم يا أبي اني أريد أن أكـون مزارعاً افلح أرض عِمي لوقا .

دكـتور جيبز : معنى هذا انك ستكون على استعداد للاستيقاظ مبكراً لتحلب الماشـيـة وتطعمها، وأنك ستكون قادراً على أن تقطع العشب وتجففه طول اليوم ؟

جورج : بالتأكيد . . . سأفعل . . . ماذا ترمي اليه ؟ ماذا تقصد يا أبي ؟

دكـتـور جيبز : الواقع يا جورج اني عندما كنت في عيادتي اليوم سمعت صوتاً غـريبـاً . . . أتعلم مصدر هذا الصوت ؟ كانت امك منهمكة في قطع الخشب . . . وأمك . . . تصـحـو مـبكرة . . . تجـهز الطعام طول النهار وتغسل وتكوي، وعليها بالرغم من هذا كله ان تذهب الى الفناء الخلفي لتـقطع الخشب . . . أظن انها تفعل ذلك لانها تعـبت من تكرار طلبـهـا منك ان تقوم بهذا العمل . . . وقررت أنه اسهل عليـهـا ان تقـوم هي به . . . انك تأكل الطعـام الذي تجـهـزه لك، وترتدي الملابس التي تعـتني بها من أجلك . . وتجـري أنت لتلعب البيسبول كما لو كانت أمك اجيرة اسـتـبقيناها بالمنزل وان كنا نحبها كثيراً . . . اعرف انه كان كافياً ان الفت نظرك لهذا الأمـر. . . اليك المنديل يا ولدي. . . ولقـد عـزمت يا جورج على أن أزيد مصروفك ٢٥ سنتـاً في الأسبوع ، وهذا ليس في مقابل قطع الخشب لأمك. . . فان هذا العمل هدية تقـدمـهـا اليها . . . ولكن لأنك قد كبرت ، ويخيل الي ان هناك اشياء كثيرة ، تريد ان تقضيها بهذا المبلغ .

جورج : شكراً يا أبي .

دكـتـور جـيبز : فلننظر ! ان غداً يوم تسلم مرتبك، ويمكنك أن تعتمد على هذه الزيادة . . . ولاشك أن ربيكا تنتظر زيادة هي الأخـرى . . . اني لاتعجب ماذا حـدث لوالدتك؟ فان التمرن على الترتيل لم يتأخر قط الى مثل هذه الساعة من قبل.

جـورج : ان الساعة لم تتجاوز الثامنة والنصف يا أبتاه !

دكـتـور جـيـبـز : انا لا أدري لماذا انضـمت الى هذه الفـرقة العتيقة . . . ان صـوتها ليس أحـسن من صـوت الغراب الهرم . . . وهكذا تتجول في الشارع في مثل هذه الساعة من الليل . . . لقد حان موعد نومك . . . أليس كذلك .

جورج : نعم يا أبتاه !

(ويصعد جورج الى مكانه على السلم. تسمع ضحكات وعبارات وداع من يسار المسرح ثم تظهر مسز جيبز ومسز سومز ومسز وب قادمات من الشارع الرئيسي . وعندما يصلن الى منتصف المسرح يقفن) .

مسز سومز : مساء الخير يا مارتا . . . مساء الخير يا مستر فوستر .

مسز وب : سأخبر مستر وب بذلك . . . اني أعرف انه سيرحب بنشر هذا الخبر في الجريدة .

مسز جيبز : رباه !! لقد تأخرنا .

مسز سومز : سعدت مساء يا ارما .

مسز جيبز : لقد كان التدريب بديعاً حقاً . . أليس كذلك ؟ انظري يا مرتل الى القمر ! انه لرائع والجو بديع حقاً ؟ صالح لنمو البطاطس !

مسز سومز : أنا بالطبع لم أكن أريد أن احدثك بشيء أمام بقية الناس . . . ولكننا وقد انفردنا . . . في الحقيقة أنها أقبح فضيحة عرفتها هذه المدينة .

مسز جيبز : ما هي ؟

مسز سومز : سيمون ستمسون !

مسز جيبز : دعي هذا يا لويللا .

مسز سومز : ولكن يا جوليا . . . أتتصورين أن يظل عازف الأرغن في الكنيسة هكذا مدمناً للخمر على مر السنين ؟ . . . انه كان مخموراً هذه الليلة .

مسز جيبز : لويللا ! . . . كلنا نعلم هذا عن مستر ستمسون ونعلم المتاعب التي مرت به . . . ويعلم بها الدكتور فرجوسون أيضاً . . . وإذا كان الدكتور فرجوسون يستبقي ستمسون في عمله بالرغم من ذلك فليس علينا نحن إلا أن نتغاضى عن هذا الأمر .

مسز سومز : نتغاضى عنه ! ولكن الأمر يزداد سوءاً .

مسز وب : لا . . . هذا ليس صحيحاً يا لويللا . . . انه يتحسن . . . لقد مضى علي بالفرقة من الزمن ضعف ما مر عليك . . . ان هذا الأمر لم يعد يحدث كثيراً الآن . . . رباه . . . . اني أكره النوم في ليلة مثل هذه الليلة ! . . . ولكن علي أن أسرع فالاطفال لن يناموا كل هذه الساعات . . .

طابت ليلتك يا لويللا .

(تسرع وتدخل منزلها) .

مسز جيبز : هل ترين طريقك الى دارك من غير تعب يا لويللا ؟

مسز سومز : ان ضوء الليل كالنهار تماماً . . . استطيع أن أرى مستر سومز عابساً خلف النافذة الآن . . . ان هؤلاء الرجال غاضبون كما لو اننا كنا نرقص .

(تتبادلان التحيات وتصل مسز جيبز الى منزلها) .

مسز جيبز : لقد قضينا وقتاً طيباً حقاً .

دكتور جيبز : لقد تأخرت بما فيه الكفاية .

مسز جيبز : ولكني لم أتأخر أكثر من أية مرة أخرى يا فرانك .

دكتور جيبز : ثم تقفين للثرثرة مع عدد من الدجاج . .

مسز جيبز : لا تكن غضوباً يا فرانك . . هيا بنا الى الحديقة لنستمتع برائحة زهرة الهليوتروب في ضوء القمر .

(يمشيان متأبطين في خطوات هادئة أمام الأنوار الأمامية) .

أليس هذا بديعاً ؟ ماذا فعلت في المدة التي تركتك فيها ؟

دكتور جيبز : كنت اقرأ كالعادة . . . فيم كانت ثرثرة الفتيات هذه الليلة ؟

مسز جيبز : صدقني يا فرانك . . . لقد كان هناك ما يستوجب الثرثرة .

دكتور جيبز : لقد تمادى سيمون ستمسون في الشراب أليس كذلك ؟

مسز جيبز : لم أره في مثل هذه الحالة السيئة من قبل . ماذا تكون نهايته يا فرانك ؟ ان الدكتور فرجوسون لن يستطيع ان يصفح عنه الى الآن .

دكتور جيبز : اظنني اعلم عن أحوال سيمون أكثر من أي انسان آخر في هذه البلدة . . . هناك أناس لم يخلقوا للعيش في بلدة صغيرة ! لا أدري نهاية هذه المسألة ولكن ليس في وسعنا أن نفعل شيئاً سوى ان نترك الأمور تسير . . . هيا بنا الى الداخل .

مسز جيبز : لا ليس الآن . . . فرانك ! اني قلقة عليك .

دكتور جيبز : ما الذي يقلقك ؟

مسز جيبز : اعتقد انه من واجبي أن اوفر لك الراحة وتغيير الجو . . ولسوف اصر على ذلك اذا ما حصلت على هذا الميراث .

دكتور جيبز : جوليا ! لا فائدة من التحدث في هذا الأمر مرة ثانية .

مسز جيبز : فرانك ! انك عنيد لا تقتنع بالمعقول .

دكتور جيبز : هيا بنا يا جوليا فالوقت متأخر . . . انك تعرفين أولاً انك ستتعرضين للبرد. لقد افضيت الى جورج الليلة بشيء مما في نفسي . . . وافهمته ما يضايقني منه . . . واعتقد انك لن تضطري لقطع الخشب . . . ولو لمدة قصيرة على الأقل . . . لا! لا! هيا بنا نرتقي السلم .

مسز جيبز : رباه! يبدو ان المرء ما زال عليه ان يتعلم اشياء كثيرة . . . أتعلم يا فرانك ان مسز فيرشيلد تغلق بابها الأمامي بالفعل كل ليلة . . . وان معظم الناس في تلك المنطقة من البلدة يفعلون ذلك .

دكتور جيبز : ان عادات المدن قد أخذت تغلب عليهم وهذا سر متاعبهم فالكل يعلم ان ليس لديهم ما هو جدير بالسرقة .

(يختفيان . تصعد ربيكا الى جوار جورج على السلم) .

جورج : ربيكا . . . ابتعدي . . . المكان على النافذة لا يتسع لأكثر من واحد . . . انك تفسدين علي كل شيء .

ربيكا : حسن . . . دعني انظر دقيقة واحدة .

جورج : انظري من نافذتك .

ربيكا : لقد نظرت من نافذتي فلم أر القمر. جورج ! أتعرف ماذا يجول بخاطري . . . افكر في أن القمر ربما يقترب ويقترب ثم يحدث انفجار كبير . .

جورج : ربيكا ! انك لا تعرفين شيئاً . . . لو أن القمر يقترب تدريجياً لرآه الرجال الذين يجلسون طول الليل أمام التلسكوب أولاً فيتحدثون عنه . . . ثم ينشر الخبر في الصحف جميعاً . .

ربيكا : جورج ! أتظن ان القمر يلقي ضوءه أيضاً على أمريكا الجنوبية . . وفوق النصف الآخر من الكرة الأرضية كله ؟

جورج : نعم . . . في الغالب كذلك .

(يظهر مدير المسرح) .

مدير المسرح: الساعة الآن التاسعة والنصف وقد انطفأت أكثر الأنوار . . . لا . . ان الكونستابل وارين ما زال يتأكد من اغلاق بعض الأبواب بالشارع الرئيسي. وهنا يأتي المحرر وب بعد أن فرغ من اعداد جريدته .

مستر وب : مساء الخير يا بيل !

وارين : مساء الخير يا وب !

مستر وب : القمر جميل هنا .

وارين : رائع .

مستر وب : كل شيء هادىء في هذه الليلة ؟

وارين : ان سيمون ستمسون يتجول قليلاً مترنحاً . . . لقد رأيت زوجته الآن تخرج للعودة به . . . ولهذا التفت أنا الى الناحية الأخرى . . . وها هو الآن .

(ياتي سيمون ستيمسون من الشارع الرئيسي في جهة الشمال وفي خطواته شيء من عدم الاتزان) .

مستر وب : مساء الخير يا سيمون . . . لقد هدأت البلدة واستقبل اهلها الليل .

(يصل سيمون إليه ثم يتوقف) .

مـســاء الخير . . . نعم لقد هدأت البلدة وأوى اهلها لبيوتهم في الليل، ويخيل الي يا سيمون انه يجدر بنا ان نفعل مثلهم. هل لي ان اصاحبك في طريقك ؟

(يتابع سيمون طريقه دون أية كلمة ويختفي في الظلام ناحية اليمين) .

مساء الخير . .

وارين : لست أدري الى أين ينتهي الحال به يا مستر وب .

مـستر وب : لقـد مـر به الكثير من الصعاب . . . واحدة بعد الأخرى . . . ارجـوك يـا بيل لو رأيت ابني يدخن سـجـاير فـلا تتردد في ان توجـه اليـه اللوم . . . أتفعل ؟ . . .

انه يحترمك كـثيراً يا بيل .

وارين : لا أظن أنه يدخن السـجـاير يا مـستر وب . . . وعلى اسوأ الفروض قـد يدخن سيجارتين أو ثلاثاً خلال العام . . . فهو ليس من الشبان الذين يتسكعون بجانب النهر .

مـستر وب : آه . . . ارجو الا يكون . . . مساء الخير يا بيل . . .

وارين : مساء الخير يا مستر وب .

(يخرج) .

مـستر وب : من هناك ؟ أهذا أنت يا ميرتل ؟

اميلي : لا! بل أنا يا ابتاه . . .

مستر وب : ولم لم تأو الى فراشك ؟

امـيلي : لا أدري . . . لم اسـتطع النوم بعـد يا أبي . . . ان ضـوء القمر بديع حـقاً . . . ورائحة الهليوتروب تأتي من حديقة مسز جيبز هل تشمها يا أبي ؟

مستر وب : نعم . . . أهناك شيء يقلقك يا اميلي ؟

اميلي : يقلقني ؟ . . . لا يا أبتي .

مستر وب : اذن فلتنعمي بالقمر . . ولكن اياك ان تراك امك . . سعدت مساء يا اميلي .

اميلي : سعدت مساء يا أبي .

(يذهب مستر وب الى المنزل وهو يصفر انشودة «فلتبارك الصلة التي تربط» ويختفي) .

ربيكا : لم أخبرك بالخطاب الذي تلقته جين كروفت من راعي كنيسة البلدة التي كانت فيها قبل أن تأتي الى هنا . . . كتبه لها عندما مرضت . . . وكان العنوان على الظرف مكتوباً هكذا : جين كروفت ، بمزرعة كروفت، بجروفرز كورنرز، بمقاطعة ستون، نيوهامبشير، الولايات المتحدة .

جورج : وما هو المضحك في هذا ؟

ربيكا : استمع الى الباقي فاني لم انته بعد . . . الولايات المتحدة الأمريكية، قارة أمريكا الشمالية، نصف الكرة الارضية الغربي ـ الكرة الارضية، النظام الشمسي، الكون، عقل الله . . . هذا كله مكتوب على الظرف .

جورج : أحقاً ما تقولين !

ربيكا : ولقد أحضره ساعي البريد بالرغم من كل هذا . .

جورج : أحقاً ما تقولين !

مدير المسرح : أصدقائي ، هذه هي خاتمة الفصل الأول ، والآن يستطيع الذين يدخنون ان يذهبوا ليدخنوا .

الفصل الثاني

(لا تزال مائدتنا وكراسي المطبخين على المسرح ، وقد سحب السُّلَّمان . ووقف مدير المسرح في مكانه المعتاد يراقب الحضور، وهم يعودون الى مقاعدهم) .

مدير المسرح : مرت علينا سنوات ثلاث . .

طلعت فيها الشمس أكثر من ألف مرة . .

وأثَّر تعاقب الشتاء والصيف في الجبال فتشققت أكثر مما كانت . . وجرفت الأمطار بعض البقايا الى أسفل .

واكتملت العبارات واستقامت على شفاه أطفال لم يكونوا قد ولدوا بعد . . .

وأدرك البعض ممن كانوا يظنون في أنفسهم الشباب والنشاط ان قلوبهم قد أصبحت ترتجف وتخفق من بضع درجات يرتقونها . .

وتصدر بعض الأبناء الكبار موائد الطعام في بيوتهم . . . واستعصى تقطيع اللحم على آخرين اعرفهم . . . فأصبح يقطع لهم .

وتم هذا كله . . في ألف يوم .

ولكن الطبيعة تعمل وتدبر أيضاً في مجالات أخرى . . فأحب عدد من الشبان وتزوجوا . . .

نعم لقد سقط من الجبل أقل من جزء من البوصة . . . ومرت آلاف من مكعبات المياه بالطاحون، وعلت هنا أو هناك ابنية نشأت تحت سقوفها أسر . . .

الناس جميعاً تقريباً في هذا العالم يتزوجون . . . أظنكم تدركون ماذا أعني ؟ . . . ويندر في بلدتنا من يشذ عن هذه القاعدة . واغلب الناس في هذا العالم يرتقون الى قبورهم متزوجين . .

لقد انتهى الفصل الأول وكان اسمه الحياة اليومية . . .

وهذا الفصل نسميه الحب والزواج . . . وهناك فصل آخر ثالث، أظنكم تدركون جميعاً موضوعه . . .

إذن .

لقد انقضت ثلاث سنوات . . . ونحن في عام ١٩٠٤ .

في السابع من شهر يوليو . . . . على أثر انقضاء حفلات التخرج في المدرسة العليا . . . وهو الوقت الذي يهب فيه شبابنا فجأة . . . ويتزوجون . . فهم لا يكادون ينتهون من امتحاناتهم في الهندسة الفراغية . . . وخطب سيشرون . . . حتى يخيل اليهم أنهم قد اصبحوا صالحين للزواج . .

نحن في وقت مبكر كالعادة، ولكن السماء امطرت هذه المرة . . وتدفق الماء من السماء وقصف الرعد . . .

وهذه حديقة مسز جيبز وحديقة مسز وب غمرهما المطر حتى غرقتا تماماً . . . ونباتات الفول . . . وتكاعيب البازلاء غمرها المطر كذلك .

وكان المطر في الطريق الرئيسي بالأمس كأنه ستائر يحركها الهواء . .

آه . . قد يعود المطر الى السقوط مرة أخرى في أية لحظة . . . هاك قطار الساعة السادسة إلا ربعاً . . . قطار بوسطن . .

وهذا هاوي نيوسم وهو قادم يوزع اللبن . . . وذاك سي كرويل يوزع الجرائد . . كأخيه من قبله . . أتذكرون أخاه . . وكل هذا التعليم الذي سيحصله يذهب هباء . . . وهذه مسز جيبز . . . ومسز وب قد نزلتا لاعداد الافطار . . وكأنه يوم عادي . . ولست في حاجة لأن أقول للنساء بين جمهور المسرح ان هاتين السيدتين ظلتا تعدان وجبات الطعام، احداهن طوال عشرين سنة . . والأخرى طوال اربعين . . ثلاث مرات في كل يوم . . دون أن تحصل واحدة منهن ولو على عطلة صيفية ـ لقد رزقت كل واحدة منهما بطفلين واحد بعد الآخر . . . وظلت كل منهما تغسل . . . وتنظف البيت دون أن تنهار اعصابها مرة واحدة . . . ودون ان تستشعر كل منهما انها ارهقت أو حملت أكثر مما تستطيع . . وما أقرب هذا من قول أحد شعراء الغرب الأوسط من أمريكا : ـ عليك أن تحب الحياة كي تحصل

على الحـيـاة ، وان تحـصل على الحـيـاة كي تحب الحـيـاة . . فهذه دائـرة مغلقـة كما يقولون . .

(وفي هذا الوقت يظهـر على المسرح سي كرويل وكأنه يلقي بالصحف تحت الأبواب. يجيء هاوي نيوسم في الطريق الرئيسي مع فرسه بسي) .

هاوي : بسي ! . . . هيا . .

سي : صباح الخير يا هاوي .

هاوي : صباح الخير يا سي . . هل في الصحف ما يستحق ان اعلمه ؟

سي : ليس فـيـهـا كثير . غير أننا قد نخسر خير لاعبي البيسبول في جروفرز كورنرز .

هاوي نيـوسم : كـان فـعـلاً كما تقول، لقد رأيته يقف وحده في مباراة جنوب هامـبشير . . . وكأنه يلعب دون زملاء .

سي كـرويل : كان يضرب الكرة ويجري بها على الخطوط .

هاوي : نعم . . . كـان لاعباً مجيداً . . . بسي! . . . أظن من حقي أن أقف وأتحـدث . . . اذا اردت . .

سي : أنا لا أسـتطيـع أن أفـهـم أبـداً كـيف يتـخلـى عن مركـزه هذا لمجـرد الزواج . . لو كنت مكانه أتفعل ذلك يا هاوي . .

هاوي : لست أدري يا سي، فلم تكن لي موهبة قط في هذه الناحية .

(يدخل الكونستابل وارين ويتبادلون التحية) .

لقد بكرت اليوم يا بيل . . .

وارين : خـرجت لأرى هل هناك مـا استطيع عمله لوقف الفيضان . . . لقد ظل النهر يرتفع طوال الليل .

هاوي : أمـا سي كرويل فلا يشغله الآن إلا اعتزال جورج جيبز للبيسبول . .

وارين : نعم . . يا سيـدي ـ تلك هي الحياة . . . في عام ١٨٨٤ كان لدينا

لاعب لا يستطيع ان يدانيه حتى جورج جيبز .. وكان اسمه هانك تود ... ولكنه سافر الى مين ... وأصبح قساً .. كان لاعباً عجيباً ... ما رأيك يا هاوي في هذا الجو .

هاوي : ليس رديئاً ... أظنه سيصفو ... ويستمر صافياً .

(ويواصل كونستابل وارين وسي كرويل طريقهما. ويحمل هاوي اللبن الى منزل مسز جيبز التي تقابله بجانب التكعيبة) .

مسز جيبز : صباح الخير يا هاوي ... أتظن السماء تمطر مرة أخرى ..

هاوي : صباح الخير يا مسز جيبز ... لقد أمطرت السماء بشدة وأظنها ستصفو بعد ذلك ..

مسز جيبز : انا لنرجو ذلك ..

هاوي : كم تريدين اليوم .

مسز جيبز : اعتقد اني في حاجة اليوم الى ثلاثة من اللبن واثنين من القشدة ... فسيمتلىء بيتنا اليوم بالأقارب .

هاوي : حملتني زوجتي أمانيها الطيبة لهما بحياة سعيدة .. ولاشك انهما سيكونان سعيدين يا مسز جيبز .

مسز جيبز : شكراً جزيلاً يا هاوي .. قل لزوجتك انني آمل ان تحضر حفلة الزواج .

هاوي : نعم ستحضر ... ان استطاعت .

(يتجه هاوي الى منزل مسز وب) .

صباح الخير يا مسز وب .

مسز وب : صباح الخير يا مستر نيوسم.. كنت قد طلبت منك أربعة ارطال ... ولكني ارجو ان يكون عندك لي رطل آخر .

هاوي : نعم يا سيدتي ... والاثنان من القشدة .

مسز وب : هل ستمطر السماء طول اليوم ؟

هاوي : لا يا سيدتي . كنت اقول لمسز جيبز ان السماء ستصفو بعد قليل . . حملتني مسز نيوسم كل الأماني الطيبة لهما بحياة سعيدة يا مسز وب، ونحن على ثقة من أنهما سيكونان سعيدين .

مسز وب : شكراً لك ولمسز نيوسم . . . نأمل ان نراكم جميعاً في حفلة الزواج .

هاوي : نعم يا مسز وب ! ونحن نأمل ان نحضر فلن ندع هذا يفوتنا . . هيا يا بسي .

(يخرج هاوي. وينزل دكتور جيبز بالقميص ويجلس الى مائدة الافطار) .

دكتور جيبز : ايه ! ايتها الأم ! قد جاء اليوم الذي يطير فيه أحد صغارك .

مسز جيبز : ارجو يا فرانك جيبز ألا تزيد كلمة أخرى، فأني اشعر كل لحظة بأني على وشك البكاء . . . اجلس واشرب قهوتك . .

دكتور جيبز : لقد قام العريس يحلق ذقنه، وهو يصفر ويغني، كأنه سعيد بتركنا . . وبين حين وآخر يقف أمام المرآة ويقول لها «هأنذا» ولكني على نحو ما لست كبير الثقة به .

مسز جيبز : لست أدري في الحقيقة كيف سيكون مسلكه ؟ لقد رتبت له ثيابه وعملت على أن تكون ثياباً يجد فيها الدفء . . انهما صغيران جداً يا فرانك، ولا أظن اميلي تفكر في مثل هذه الأمور سيموت جورج من البرد في ظرف اسبوع . . لقد اعددت لك هذا . .

دكتور جيبز : آه يا جوليا هيرسي ! هذا خبز محمر على الطريقة الفرنسية .

مسز جيبز : ليس من الصعب صنعه . . كان عليَّ أن أفعل شيئاً .

دكتور جيبز : جوليا . . . اني لأذكر صباح يوم زواجي يا جوليا .

مسز جيبز: لا تخض في هذا الموضوع يا فرانك! لقد قلت لك إني لا احتمله.

دكتور جيبز : كنت أكثر شباب نيوهامبشير جهلاً بشئون الحياة . . وكنت واثقاً من أني ارتكبت خطأ . . وعندما رأيتك تهبطين بين المقاعد في الكنيسة ظننتك أجمل فتاة وقع عليها نظري . . ولم يكن يزعجني اذ ذاك الا انني لم أرك من قبل . . نعم لقد كنت في الكنيسة أتزوج من فتاة غريبة عني تماماً . .

مسز جيبز : وماذا تظن كان شعوري أنا ؟ هل سمعت ربيكا وهي تتحرك في الدور الأعلى .

دكتور جيبز : هذا أول صباح في السنة لا تنشغل فيه بأمورنا جميعاً . . لقد اغلقت على نفسها باب حجرتها . . . ويخيل الي أنها تبكي .

مسز جيبز : يا الهي لابد ان تضع حداً لهذا . . . ربيكا . . . ربيكا . . ان طعام الافطار يبرد تماماً هنا .

(ينزل جورج في حركة سريعة ونشاط على السلم) .

جورج : صباح الخير عليكم جميعاً . . . ما زال أمامي خمس ساعات فقط في هذه الحياة . . .

(يمر بيده على رقبته كمن يقطعها) .

مسز جيبز : الى أين أنت ذاهب ؟

جورج : سأخطو خطوة في الحديقة لأرى فتاتي . . .

مسز جيبز : أما أن تحمل المظلة يا جورج . . . والا فلا اسمح بخروجك من هذا البيت .

جورج : آه يا أماه . . . انها مجرد خطوة . .

مسز جيبز : ولكن . . . ما دمت أنت في بيتي . . . فلن أسمح لك إلا بالتصرف المعقول . . شكراً . . . حذاء المطر هناك في البهو وها هي المظلة . .

جورج : آه يا أماه .

دكتور جيبز : جورج ، أفعل ما تطلبه أمك . .

مسز جيبز : قد تكون مسز وب غير معتادة على أن يزورها أحد في السابعة صباحاً، فاشرب قهوتك أولاً .

جورج : لن أغيب غير دقيقة .

(يعبر المسرح قافزاً على وحل المطر) .

سعد صباحك يا مسز وب .

مسز وب : رباه ! . . . قد ازعجتني الآن يا جورج . . تستطيع ان تحتمي هنا دقيقة من المطر . . ولكنني لا استطيع ان ادعوك الى الداخل .

جورج : ولم لا ؟

مسز وب : انت تعرف كما أعرف تماماً . . . ان العريس لا يستطيع أن يرى عروسه في يوم حفلة الزواج الا في الكنيسة .

جورج : أوه ، ما هو إلا اعتقاد بالخرافة فحسب .

(يدخل مستر وب) .

مستر وب : صباح الخير يا جورج .

جورج : مستر وب ـ أتؤمن بهذه الخرافة ؟

مستر وب : ان بعض الخرافات ـ ينطوي على كثير من الحكمة يا جورج .

مسز وب : قد اتبع هذه العادة الملايين من قبل . . اظنك لا تريد يا جورج ان تكون أول من يثور على العادة .

جورج : كيف حال اميلي ؟

مسز وب : لم تستيقظ بعد فاني لم اسمع صوتها .

جورج : اميلي . . . نائمة !!؟

مسز وب : لا غرابة في هذا . . لقد سهرنا الليل نحيك الثياب ونربطها . . استمع الى ما سأفعله : اجلس أنت هنا مع مستر وب واشرب قدحاً من القهوة، وسأصعد أنا كي أحول دون نزولها ومفاجأتها لك. هاك ايضاً شيئاً من اللحم المقدد

. . ولكن اسرع ولا تطل .

(تخرج مسز وب ويسود صمت وارتباك) .

مستر وب : كيف حالك يا جورج ؟

جورج : بخير ! اني بخير .

(صمت) .

قل لي يا مستر وب أية حكمة توجد في مثل هذه الخرافة ؟

مستر وب : حسناً . . أنت تعرف ان الفتاة في صبيحة يوم الزواج . . . يكون ذهنها منصرفاً الى الثياب وما ماثلها، ألا تعتقد هذا ؟

جورج : أي نعم ! . . . لم أفكر في هذا على الاطلاق . .

مستر وب : ولاشك ان الفتاة تكون عادة مضطربة قليلاً في يوم زواجها .

(لحظة سكوت) .

جورج : اود لو أن المرء يستطيع ان يتزوج دون كل هذا السير ذهاباً وجيئة .

مستر وب : ما من رجل . . الا وأحس هذا الشعور في يوم زواجه يا جورج . . . ولكن هذا كله لم يجد، لأن النساء يا بني هن اللاتي صنعن حفلات الزواج، ومنذ هذه اللحظة يصغن الحياة على هواهن . . وعندما يقفن هكذا كتفاً لكتف . . . كل اولئك النسوة الطيبات يتكاتفن ليتحققن من أن الرباط قد ربط بطريقة علنية قوية .

جورج : ولكن . . يا مستر وب . . . انك تؤمن بالزواج . . أليس كذلك؟

مستر وب : نعم . . نعم . . لا تخطيء فهم ما أقول يا بني . . . ان الزواج شيء عظيم . . . شيء عظيم حقاً . . . ولا تنس هذا أبداً . . . يا جورج .

جورج : لا يا سيدي ! وكم كانت سنك حين تزوجت يا مستر وب ؟

مستر وب : سنرى ! كنت في الكلية، ثم مضى على وقت الى أن وجدت الاستقرار في حياتي . . . أما مسز وب . . . فلم تكن حينئذ تكبر اميلي كثيراً . . .

ليس للسن أهمية كبيرة يا جورج .. اقصد اذا ما قارناه بأشياء أخرى .

جورج : كنت تقصد ان تقول شيئاً ... يا مستر وب .

مستر وب : اوه ... لا أدري ... أكنت وأنا على وشك أن أقول شيئاً ؟ (صمت) .

لقد كنت افكر منذ بضعة أيام يا جورج في نصيحة اسداها الى والدي عندما تزوجت . قال لي : ابتدىء يا شارلز بأن تحدد من هو رب البيت، وخير وسيلة لذلك أن تصدر أمراً ولو كان غير معقول، فبهذه الطريقة تتعلم زوجتك كيف تطيعك. وقال لي أيضاً واذا اغضبتك زوجتك في شيء ... في حديثها أو في أي شيء آخر، فانهض مباشرة وغادر البيت .. ان ذلك خير ما يرشدها ... نعم ... وقال ايضاً ... اياك ... ان تطلع زوجتك أبداً على ما عندك من مال .

جورج : ولكن يا مستر وب ... لا أظن اني استطيع ..

مستر وب : ولكني عملت يا جورج بعكس نصيحة أبي تماماً، وعشت سعيداً طول حياتي ... فليكن ذلك درساً لك يا جورج ... لا تطلب النصيحة أبداً من أحد في أمورك الشخصية .. قل لي يا جورج هل أنت عازم على تربية الدجاج في مزرعتك ؟

جورج : ماذا ؟

مستر وب : هل أنت عازم على تربية الدجاج في مزرعتك ؟

جورج : لم يهتم عمي لوقا بذلك أبداً ... ولكني اعتقد اني ..

مستر وب : منذ يومين جاءني كتاب عن طريقة فيلو في تربية الدجاج .. أريد أن تقرأه ... انني أفكر ايضاً في تربية الدجاج في الفناء الخلفي على نطاق ضيق، وسأضع في قبو المنزل صندوقاً للتفريخ ..

(تدخل مسز وب) .

مسز وب : هل عدت يا شارلز للحديث عن صندوق التفريخ. كنت اظنكما تتحدثان فيما هو أهم من هذا ..

مستر وب : اسمعي يا ميرتل . . . اذا كان في نيتك ان تلقي عليه النصائح . . . فسأتركه لك . . واصعد . .

مسز وب : اني آسفة يا جورج . . . ولكني مضطرة ان اطلب منك ان تنصرف حتى تستطيع اميلي النزول للافطار . . . لقد طلبت مني ان ابلغك انها ترسل اليك حبها ، ولكنها لا تريد ان يقع نظرها عليك، فوداعاً يا جورج .

(يعبر جورج المسرح ويختفي في منزله) .

مستر وب : ميرتل . . . هنالك خرافة أقدم من خرافتك تلك ولا اظن انك تعرفينها .

مسز وب : أي خرافة تقصد يا شارلز ؟

مستر وب : هي خرافة قديمة منذ كان الانسان يسكن الكهوف وهي أنه لا يجب ان يترك العريس بمفرده مع والد عروسه في يوم الاحتفال بالزواج . . . أو في يوم قريب منه. لا تنسى ذلك .

مدير المسرح : شكراً لكم . . . شكراً لكم جميعاً . . . على الآن أن أتدخل من جديد مرة أخرى . . . فانتم ترون أنا نريد ان نعرف كيف بدأ هذا . . . هذا الزواج . . . وهذا العزم على أن يقضيا حياتهما معاً . . . اني لأهتم غاية الاهتمام بأن اعرف كيف تبدأ مثل هذه الأمور الكبيرة .

انكم تعلمون كيف يكون ذلك : في الحادية والعشرين أو في الثانية والعشرين تتخذ بعض القرارات ثم ما اسرع ما تجد نفسك في السبعين من العمر . . لقد ظللت خمسين عاماً تعمل محامياً، وهذه السيدة ذات الشعر الأبيض الى جوارك . . وقد جلستما معاً الى الطعام أكثر من خمسين ألف مرة .

كيف تبدأ هذه الأمور ؟

ان جورج واميلي سيعرضان عليكم الآن ذلك الحديث الذي تبادلاه . . عندما أحسا أول مرة ـ كما نقول دائماً ـ ان الواحد منهما خلق للآخر . . ولكني أريد منكم قبل ذلك أن يتذكر كل واحد منكم نفسه حين كان في الخامسة عشرة أو

السادسة عشرة . . لقد يصعب عليكم ذلك : ففي تلك الأيام كانت أتفه أمور الحياة وابسطها تبدو مثيرة لا يكاد يحتملها المرء .

لاسيما أيام صباكم وحبكم الأول . . عندما كنتم تسيرون كالحالمين في الطرقات . . . لا تدرون تماماً في أي شارع تسيرون ، ولا تسمعون كل ما يقال لكم .

كنتم حينئذ كمن مسه شيء . . ارجو ان تتذكروا هذا . . .

والآن يخرج طلبة المدرسة العليا في الساعة الثالثة . . لقد انتخب جورج رئيساً للفصول الأولى ، ولما كنا في شهر يونيو . . . فهذا يعني انه سيكون رئيساً للفصول العليا طول السنة القادمة . .

أما اميلي فقد انتخبت سكرتيرة . . وأمينة للصندوق . . ولا حاجة لأن أذكركم بأهمية هذا كله .

(يضع لوحاً من الخشب يصل بين ظهر كرسيين، موازياً لاضواء المسرح، ثم يضع وراءه مقعداً مرتفعاً. وهذا حانوت مستر مورجان) .

كل شيء جاهز .

(تدخل اميلي من الشارع الرئيسي من اليسار وكأنها متأبطة كتبها المدرسية) .

اميلي : لا استطيع يا لويز ! يجب ان اعود الى البيت . . الى اللقاء اوه . . ارنستين . . . ارنستين . . . هل تحضرين الليلة . . لنحل معاً مسائل الجبر ؟ لقد حللت المسألة الأولى والثانية في قاعة المذاكرة ، وليست فيهما صعوبة . . أما كتاب قيصر هذا . . فصعب جداً . . لست أدري لماذا يلزموننا بحفظ هذا . . يمكنك أن تأتي في الساعة السابعة . . وقولي لأمك أنه لابد من ذلك . . الى اللقاء . . الى اللقاء يا هيلين! .

الى اللقاء يا فريد !

(ويبدو جورج ايضاً حاملاً كتبه ويلحق بها) .

جورج : اميلي . . هل تسمحين لي بأن احمل كتبك الى البيت .

اميلي : «ببرود» شكراً .

(تعطيه الكتب) .

جـورج : لحظة واحـدة يا امـيلي . . . أعـد كل شيء يا بوب ! وسأحضر بعد ربع سـاعـة . . واذا تأخـرت قليلاً فلتبدأوا في التمرين . . وليمرن هيرب على بعض الضربات العـالية، فأن عينيه تحتاجان لمثل هذا التمرين، وسأراك فيما بعد . .

اميلي : وداعاً يا ليزي .

جـورج : الى اللقاء يا ليزي . . لقد سررت جداً انك أيضاً انتخبت يا اميلي.

اميلي : شكراً .

(وكـانا واقفين في الشارع الرئيسي بجوار الحائط الخلفي، وكان جورج على أهبة ان يتقدم خطوات نحو المتفرجين الا أنه يقف ويقول :)

جورج : اميلي ، لماذا أنت حانقة علي ؟

اميلي : لست حانقة عليك .

جورج : ولكنك تعاملينني بطريقة . . غريبة .

امـيلي : اذا كنت ترى من الأفـضل أن أصارحك يا جورج . . . فاني أقول : لقـد تغيرت كـثيراً في هذه السنة الأخيرة . . فلم يعـجبني هذا التغيير . . واني لآسفة اذا كـان هذا سيغضبك. . ولكني مضطرة لأن أقول لك الحق . . واخزي الشيطان.

جورج : آسف جداً يا اميلي ولكن ماذا تقصدين ؟

امـيلي : كنت حتى السنة الماضية اعجب بك كثيراً يا جورج وكنت أحب دائماً ان اراقـبـك وانـت تـصرف أمـورك . . فنحن اصـدقـاء منذ سنين طويلة . . ولكنك بدأت فـجأة . . تمضي وقـتك كله في البـيـسـبـول . . ولم تعـد تكلم أحـداً حتى ولا اسرتك . . وفي الحـقـيـقـة يا جورج انك اصبحت مغروراً . . منتفخ الاوداج، وهذا مـا تـقـولـه البنات جميـعـاً . . قـد لا يواجـهنك به، ولكنهن يعلنه وراء ظهـرك . . ويـسـيئني دائماً ان اسـمـعـهن وان أجد نفسي مضطرة لأن اوافقهن قليلاً . . انا آسفة على ابلاغك هذا .

جورج : انا . . . سعيد يا اميلي لأنك قلت هذا . . فاني لم أكن ادري ان مثل هذا يحدث لي . . ويخيل الي أنه من الصعب ان يتحاشى المرء تسرب الاخطاء الى شخصيته .

(يتقدمان خطوة أو اثنتين الى الامام ثم يقفان وعليهما الوجوم) .

اميلي : اني أتوقع الكمال دائماً في الرجل، واعتقد انه واجب فيه .

جورج : اعتقد يا اميلي أنه من المستحيل أن يكون المرء كاملاً .

اميلي : ان والدي رجل كامل . . ووالدك فيما أعلم رجل كامل ايضاً . . ولا استطيع أن أفهم لم لا تكون أنت أيضاً كذلك . .

جورج : يخيل الي يا اميلي . . ان العكس هو الصحيح . . اي ان الرجال ليسوا هم الخيرين، بل النساء مثلك ومثل والدتك . . ووالدتي .

اميلي : يحسن بي أن أقول لك منذ الآن : ليس من السهل على الفتاة ان تكون كاملة كالرجل، لان اعصابنا نحن الفتيات ضعيفة . . اني الآن آسفة على اني قلت كل هذا الكلام عنك ولست ادري ماذا جعلني أقوله .

جورج : لا . . لا . . يا اميلي . . ما دامت هذه هي الحقيقة فعليك ان تقوليها . . وان تتمسكي بها .

اميلي : انا لا أدري اذا كانت هذه هي الحقيقة أم لا . . بل وأشعر فجأة ان ليس لهذا كله اهمية كبيرة .

جورج : اميلي . . . اتشربين آيس كريم بالصودا قبل ان تعودي الى البيت .

اميلي : شكراً . . . لا مانع .

(يدخلان حانوت مستر مورجان ويجلسان على الكرسيين المرتفعين) .

مدير المسرح : (وقد تلبس شخصية مستر مورجان)

هالو جورج . . . مرحباً يا اميلي . . . ماذا أحضر لكما . .

اميلي وب أكنت تبكين ـ لماذا ؟

جورج : (يحاول ان يجد جواباً)

لقـد . . لقـد فـزعت فـزعاً شديداً يا مستر مورجان . . فقد كادت عربة مخزن الصلب ان تدهمها . . . أنا نعرف جميعاً هنا ان توم هكنس يسوق كالمجنون .

مـدير المسرح : خـذي اذن كـوباً من الماء يا امـيلي . . . ان الذعـر فعلاً يبدو عليك . . والآن ماذا تشربان ؟

امـيلي : عصير الفراولة الفـوَّار . . . شكراً مستر مورجان .

جـورج : لا . . لا خـذي معي آيس كريم بالصودا يا اميلي . . اعطنا كوبين آيس كـريم فراولا بالصودا يا مستر مورجان .

مـدير المسرح : نعم يا سيـدي . . على المرء الآن اذا مـا اراد عـبـور الطريق الرئيسي ان يلتـفت جيـداً يمنة ويسرى . . والحـال يسـوء عاماً بعد عام . . . ان في جـروفـرز كـونرز في هذه اللحظة التي اتحدث اليكما فيها مائة وخمسة وعشرين حصاناً . . ولـقـد كـان هـنا بالأمس مـفـتش الولاية . . وهاهم الآن يأتون بالسـيـارات . . وليس أفـضل الآن من أن يلزم المرء بيـتـه . . أين تلك الأيام التي كـان يرقـد فـيـها الكلب طول النهـار وسط الشـارع الرئيسي فـلا يزعجه شيء . . نعم يا مس «اليس» . . . سأحضر اليك حالاً . . هاكما الصودا . . . تمتعا بها .

(ويخرج) .

اميلي : ان ثمنها مرتفع .

جـورج : لا . . لا . . لا تـفـكري في هذا . . اننا اليـوم نحـتـفل أولاً لأننا انتخبنا، وثانياً أتعلمين بماذا احتفل أيضاً ؟

اميلي : لا .

جـورج : اني احـتـفل بأن قـد وجـدت صـديقاً يقول لي كل ما يجب فعلاً ان اسمعه . .

امـيلي : جـورج . . ارجوك يا جورج ! لا تفكر في هذا . . فأنا لا ادري لماذا قلت . . وهو ليس حقيقياً . . فأنت . .

جورج : اميلي . . . لا ! . تمسكي بما قلته . انني سعيد انك تحدثت الي هكذا . . وسترين . . سترين . . اني اتغير سريعاً . . سأتغير . . اميلي اريد أن اطلب منك شيئاً . .

اميلي : ماذا ؟

جورج : اذا ذهبت في العام المقبل الى كلية الزراعة فهل تكتبين لي خطاباً بين حين وآخر ؟

اميلي : بالتأكيد يا جورج . . . بالتأكيد .

(فترة صمت) .

حقاً يبدو ان غيابك ثلاث سنوات سوف يبعدك عما يجري هنا . .

جورج : لا! لا! يجب ألا يحدث هذا . . . فأنا لن أكون فلاحاً فقط . . ولكنني اطمع في أن انتخب ولهذا فان خطاباتك لي سوف تكون مهمة جداً . . . إذ تقولين لي فيها عما يحدث هنا . . . وتخبرينني بكل شيء . .

اميلي : ولكن ثلاث سنوات على أية حال مدة طويلة . . وقد تصبح الخطابات من جروفرز كورنرز بعد قليل مملة . . . فليست هي بالبلدة الهامة . . اذا فكرت في نيوهامبشير كلها . . غير اني اراها بلدة جميلة .

جورج : لن يأتي اليوم الذي لا أكون فيه حريصاً على أن أعرف كل ما يحدث هنا يا اميلي . . . اني واثق من هذا يا اميلي .

اميلي : حسناً . . سأحاول على كل ان اجعل خطاباتي شيقة .

(صمت) .

جورج : أتعرفين يا اميلي انني كلما قابلت مزارعاً اسأله هل من المهم حقاً لكي أصبح مزارعاً ناجحاً أن أذهب الى المدرسة الزراعية .

اميلي : ما هذا . يا جورج !

جورج : نعم ! ولقد وجدت البعض يقول . . . ان ذلك مضيعة للوقت . .

فان المرء يستطيع على أية حال ان يحصل على المعلومات جميعاً من النشرات التي تصدرها الحكومة . . والعم لوقا يتقدم في السن، وهو على استعداد لأن يسلمني مزرعته من الغد ان استطعت ذلك .

اميلي : أصحيح ؟

جورج : ثم . . كما تقولين . . ان ابتعد كل هذه المدة في أماكن أخرى، وان اقابل أناساً آخرين . . وما دام هذا ممكناً فأني لا أود الرحيل . . انا لا اعتقد ان الأصدقاء الجدد سيكونون أفضل من القدامى . . اراهن يا اميلي انهم لن يكونوا خيراً منهم . . اميلي ! اني أحس بأنك خير ما عرفته من اصدقاء، ولست بحاجة لأن اذهب فألقي اناساً آخرين في بلدان أخرى .

اميلي : ولكن يا جورج قد يكون من المهم جداً لمستقبلك ان تذهب . . وان تعرف كل شيء عن اختيار الماشية وطبيعة الأراضي ومثل هذه الأشياء كلها . . واذا كنت تشتغل بالسياسة فقد يكون من الواجب ان تلقى الناس من ولايات أخرى . . لست ادري تماماً .

(بعد لحظة صمت) .

جورج : اميلي! سأقرر هذا الآن. . لن أذهب. . وسأخبر أبي هذه الليلة. .

اميلي : لماذا يا جورج . . اني لا أرى ما الذي يدفعك الى أن تقرر شيئاً الآن . . . ما زالت أمامك سنة كاملة .

جورج : اميلي . . اني سعيد جداً . . . اذ حدثتني عن . . عن هذا العيب في شخصيتي . . ان كل ما قلته صحيح . . ولكنك اخطأت في شيء واحد . . لقد قلت اني منذ سنة لم أعد اهتم بالناس . . وبك أنت مثلاً . . اصغي الي يا اميلي . . . قلت لي انك كنت تراقبينني في كل أموري . . . وانا أيضاً يا اميلي . . كنت أفعل ذلك معك طول الوقت . . من المؤكد يا اميلي اني كنت افكر فيك دائماً باعتبارك من أهم الذين أفكر فيهم . . كنت دائماً أحب ان أتأكد اين تجلسين في مقاعد المتفرجين . . وان اعرف من الذي يجلس معك . . وكم تبادلنا الضحك والحديث في بهو المدرسة . وكان لهذه الأحاديث قيمة كبيرة عندي . . ولو أنها لم

تكن لذيذة كحديثنا الآن . . . وقد لاحظت في الأيام الأخيرة أنك تعاملينني معاملة غريبة . . وحاولت ثلاثة أيام أن اصحبك في الطريق الى البيت . . كنت أفشل دائماً . . يحدث دائماً شيء يحول بيننا . . وبالأمس انتظرتك مستنداً الى الحائط، واذا بك تعودين مع مس كوركوران .

اميلي : جورج . . ان الحياة حقاً غريبة. . كيف كان يمكنني أن أعرف هذا! لقد فكرت . . .

جورج : استمعي يا اميلي . . سأقول لك لماذا عدلت عن الذهاب الى المدرسة الزراعية . . اعتقد ان المرء اذا التقى بشخص يحبه . . اقصد انه هو الآخر محبوب من شخص على الأقل بالقدر الذي يجعله يهتم بشخصيته . . اعتقد ان هذا يعدل الكلية في أهميته . . ويزيد عليها، هذا رأيي . .

اميلي : اعتقد ايضاً ان هذا أمر هام فعلاً !

جورج : اميلي !

اميلي : نعم يا جورج !

جورج : اميلي . . اذا تحسنت وتغيرت كثيراً فهل تكونين . . اقصد هل تستطيعين ان تكوني . .

اميلي : أنا . . أنا الآن . . وكنت دائماً كذلك .

(صمت) .

جورج : اذن . . كان حديثنا هاماً حقاً .

اميلي : نعم .

(يتنفس عميقاً ويشدُّ قامته) .

جورج : انتظري دقيقة واحدة . . وسأوصلك الى البيت .

(ينهض ويذهب الى مدير المسرح الذي يظهر متجهاً إليه) .

مستر مورجان ، انا مضطر لأن أذهب الى المنزل لأحضر لك ثمن ما شربناه

.. لن أغيب أكثر من دقيقة ..

مدير المسرح : ماذا يا جورج جيبز .. أتقصد أن تقول أنك ..

جورج : كان لدي أسباب يا مستر مورجان .. انظر ! هذه ساعتي الذهبية، احتفظ بها حتى أعود اليك بالنقود .

مدير المسرح : احتفظ بساعتك .. اني أثق بك .

جورج : سأعود بعد خمس دقائق .

مدير المسرح : انني أثق بك لعشر سنوات يا جورج ... لا تزيد يوماً .. وأنت يا اميلي .. هل تغلبت على الصدمة ؟

اميلي : نعم يا مستر مورجان شكراً .. لم تكن شيئاً مذكوراً ..

جورج : (يحمل الكتب من فوق المنضدة)

اني على استعداد .

(ويسيران في صمت الى اسفل المسرح .. ويعبران التكعيبة الى باب مستر وب الخلفي ويختفيان) .

مدير المسرح : شكراً لك يا اميلي ... شكراً لك يا جورج ..

والآن وقبل أن ننتقل الى حفلة العرس، ما زالت هنالك اشياء نريد ان نعرفها عن هذا الزواج .

اريد أن أعرف كيف تلقى الآباء هذه المسألة، ولكن الذي اريد أن أعرفه أكثر من ذلك حقاً هو كما تعلمون رأي سكان جروفرز كونرز في الزواج عموماً .

وانكم لتعلمون كما أعلم أنا ان الناس لا يستطيعون التعبير لأول وهلة عن رأيهم في المال .. أو الموت .. أو الشهرة .. أو الزواج .. ولكي تعرف هذا الرأي عليك ان تقرأه فيما بين السطور، ويجب ان تسترق السمع لتعرف .

أوه ! هذا هو دكتور جيبز ... ومسز جيبز ..

(يظهران من جانب المسرح الذي فيه بيتهما ويتبادلان معه نظرات التفاهم ...)

يلقي مـدير المسرح بقطعـة الخـشب نفـسها بين الكرسيين، وهي التي استعملها من قبل لتكون حـاجـزاً، وقد اصبحت الآن اللوحة التي تستعملها مسز جيبز لكي الملابس عليها. يجلس دكـتـور جيبز على كرسي هزاز ويدخن. تنشغل مسز جيبز لحظة بالكي في صمت ثم تذهب الى أسفل وتنادي) .

مـسز جيبز : ربيكا ! لقد حان الوقت لتطفئي النور . . . ولتنامي . . . وأنت يا جورج يجدر بك أن تنام أيضاً .

صـوت ربيكا : ولكنني لم أنته من مذاكرة اللغة الانجليزية يا أماه .

مـسـز جـيـبـز : مـاذا ! اراهن انك لم تكوني تذاكـرين يا ربيكا بل تتصفحين مجمـوعـة مـعـروضات محل سيرزروبيك، وعلى كل حال أمامك عشر دقائق أخرى، ان لم تنتـهي بعـدها فلن يكون أمـامك الا الرسـوب، وان تصبـحي عاراً لأبيك ولي . . . وماذا تفعل أنت يا جورج ؟

صوت جورج : (متضايقاً)

اذاكر التاريخ .

مـسـز جيبز : يحسن بك أن تأوى للفراش . . لا شك أنك تنام على مكتبك الآن .

(وتلقي بنظرة مرحة الى زوجها ثم تعاود الكي) .

دكتور جيبز : لقد تحدثت اليوم حديثاً طويلاً مع جورج .

مسز جيبز : هل فعلت ؟

دكـتـور جيبز : هل تعرفين يا مسز جيبز . . . ان ليس في العالم ما يزعج أكثر من الابن . . فـعلاقة الأب بابنه هي من أصعب العلاقات وأكثرها احراجاً . . فاني مـا حدثته مرة . . الا وشعرت اني كاسفنجة قذرة تنز نفاقاً . .

مسز جيبز : وليست علاقة الأم بابنتها أمراً سهلاً كذلك .

دكـتـور جـيـبـز : ان جورج يصر على الزواج من اميلي بمجرد انتهاء الدراسة بالمدرسـة، وأن يأخـذها مباشرة الى المزرعة.

(صمت) .

هـو يـقـول ان في اسـتطاعـتـه أن يقضي الليل في دراسـة الزراعـة من النشرات الحكومية، دون حاجة لأن يذهب الى الكلية .

مـسز جيبز : لقد كان دائماً مولعاً بالزراعة . . وورث ذلك عن أهلي . .

دكـتـور جـيـبـز : اعـتـقـد أنه قادر على أن يبدأ عمله في الزراعة مباشرة . . . ولكنني اقسم أنه مـا زال صـغيراً جـداً على الزواج . . انه يا جوليا ما زال غضاً طرياً . . لا يستطيع بعد أن يكون رب عائلة .

مـسـز جـيبز : انه لا يستطيع . . وأنت على حق . . ولكنه شاب صالح . . ولا أحب أن أتصـور أنه يظل وحـيـداً هنالك . . يذهب مـسـاء كل سبت . . كأي فـلاح قح الى البلدة بعـد أن انهكه العـمل ليـبـحث عن التسلية . . فقد يفسده هذا ويدفـعـه في طريق الشر . . . ولاشك أنه لن يكفـيـه عندئذ أن يأتي الى هنا فيجلس مـعنا بجـوار المدفأة . . . ثم أننا لو خطبنا له «امـيلي» مـدة سنة . . فقد لا يكون في هذا كفاية وقد يملها .

دكتور جيبز : هكذا !

مـسـز جـيـبـز : لقـد كنت اراقبها دائماً يا فرانك . . وان جورج لحسن الحظ . . . عندما نفكر في سخافة الفتيات في العالم .

دكـتـور جـيـبـز : ولكن يا جـوليـا هل يتـزوج جـورج . . هذا الصبي الأناني المتهور . . المغرور . .

مسز جيبز : نعم . . نعم . . اعلم هذا .

(تاخذ ياقته وتفحصها) .

فـرانك ماذا تفعل بياقتك . . . هل تقرضها؟ . . لم أر رجلاً تتمزق ياقته على هذه الصورة .

دكـتور جيبز : أتعلمين يا جوليا أحد مخاوفي عندما تزوجتك ؟

مسز جيبز : اوه . . . ماذا . . قل! . .

دكتور جيبز : كنت أخشى ان يعوزنا الحديث بعد اسابيع قليلة فينضب معينه ونتناول طعامنا في صمت . . وقد ظللنا نتحدث عشرين عاماً . . . ولا نجد فترات جدب بارزة .

مسز جيبز : قد يكون الحديث عن الجو وتغيره . . ليس بالحديث المنتقى . . ولكنني استطعت دائماً أن أجد ما أقوله .

(صمت) .

دكتور جيبز : ما رأيك ؟ . . . ما رأيك يا جوليا ؟ هل نقول لابننا : سر في طريقك وتزوج ؟

مسز جيبز : الظاهر ان علينا أن نقرر . . . فان ميرتل وشارلز وب راغبان في ذلك . . وهما يعتقدان ان من الأفضل ان نلقي بالصغيرين في البحر، بمجرد ان يستعدا، وان يتركا لنفسيهما، فاما ان يسبحا أو يغرقا .

دكتور جيبز : ولكن ما معنى هذا ! هل يجب علينا ان نقرر هذا الآن ؟ في هذه اللحظة ؟

مسز جيبز : انك تريد ان تلقي المسئولية علي !

دكتور جيبز : لقد قرب شهر ابريل . . . سأصعد الآن لأحدثه قبل أن ينام.

(وينهض) .

جوليا هل أنت متأكدة ؟ ألا تريدين أن تقولي شيئاً آخر .

(تتوقف عن الكي لحظة) .

مسز جيبز : لا ادري ماذا أقول! . . يبدو أنه من العسير ان تطلب من شاب مثل جورج تعود أن يعيش في الخلاء ان يذهب ويحبس في غرفة الدراسة ثلاث سنوات . . . واذا ذهب الى المزرعة . . فيحسن ان يجد رفيقاً . . وقد عثر على فتاة طيبة كاميلي . . . ان الناس خلقوا ليعيشوا ازواجاً . . . فرانك . . . اذهب يا فرانك وقل له . . . لا مانع . .

دكتور جيبز : (يعبر المسرح ويشرع في النداء عندما تضع يدها على خدها وتحملق في المتفرجين في فزع حاد)

مسز جيبز : انتظر لحظة! . انتظر لحظة !

(ثم تعاود الكي) .

لا ـ اذهب وحدثه .

دكتور جيبز : ولكن . . لماذا أوقفتني يا جوليا . .

مسز جيبز : أوه ! أتعرف ؟ لقد ذكرت تلك الأيام التي مرت بنا في سنواتنا الأولى . . وكان جورج وربيكا طفلين . . ذكرتك في الساعة الثالثة صباحاً تمشي في الغرفة جيئة وذهاباً ـ ذكرت السعال الديكي . . وسقطة جورج من السور . . لقد كنا حينذاك انا وانت في الخامسة والعشرين . . أو أكثر . . ما أسرع ان ينسى المرء متاعبه وما أروع هذا . . نعم يا فرانك . . اصعد وحدثه . . ان الحياة تستحق هذا كله . .

دكتور جيبز : نعم . . سيلاقيان الكثير من المتاعب . . ولكن هذا كله ليس من شأننا . . دعيهما يواجهانها . . فما من شك أن كلاً منا له الحق في متاعبه . . ويجب أن تكوني معنا يا جوليا في مثل هذه المناسبة الهامة . . سأنادي عليه . . جورج . . جورج .

صوت جورج : نعم ـ يا أبي .

دكتور جيبز : هل تنزل دقيقة ؟ أنا وأمك نريد أن نحدثك .

جورج : طبعاً . . . حالاً .

(تضع يدها في يد زوجها) .

مسز جيبز : رباه ! ـ اني لغبية . . . ان جسدي كله يرتعش . . . وليس هناك ما يدعو لذلك .

مدير المسرح : والآن شكراً . . . شكراً لكما . .

لقد أعد كل شيء الآن لمراسم العرس .

(ينقل الممثلون أثناء حديثه المقاعد والمناضد من داري جيبز ووب ويرتبون صفوف مقاعد الكنيسة في مؤخرة المسرح، ينظمونها لكي يجلس الجمع مواجهاً الحائط الخلفي ومحراب الكنيسة في وسط المسرح .

وقد وضعت منصة مسندة للحائط الخلفي يقف عليها مدير المسرح وقد اتخذ دور القس) .

ما أكثر ما يمكن أن يقال عن حفلات الزواج . . وما أكثر الأفكار التي تدور حولها . . ولسنا بالطبع نستطيع ان نجمع هذه الحفلات في وقت واحد، لاسيما في جروفرز كورنرز، حيث تكون دائماً بسيطة غاية البساطة ومختصرة .

في هذا الزواج سأقوم بدور القس! ولذا فان لي بعض الحق في أن اسهب قليلاً في الحديث عنه .

ومنذ قليل ، تطورت المسرحية ودخلت مرحلة جدية .

فأنتم تعلمون ان بعض الكنائس ترى في الزواج رباطاً مقدساً، ولست ادري ماذا يعنون بهذا تماماً، ولكنني استطيع ان اقدر هذا. انني اعتقد ان الأمر انما هو كما قالت مسز جيبز منذ بضع دقائق : لقد خلق الناس ليعيشوا ازواجاً . . . ان هذا العرس موفق ، غير ان الناس قد ركبوا معاً الى حد أنه حتى في العرس الطيب قد لا يسلم الأمر من الاضطراب الذي يجد طريقه الى أعماق نفوسهم، واني اعتقد أن مثل هذا لابد ان يحدث في مسرحيتنا أيضاً .

ان البطل الحقيقي لهذا المنظر لا يظهر على المسرح أبداً ، وانتم تعرفون من اعني . . . فما أصدق قول ذلك الاوروبي : ان كل طفل يولد في العالم انما هو محاولة من الطبيعة لخلق انسان كامل. لقد رأينا الطبيعة بعض الوقت تعمل وتدبر لتحقيق مقاصدها. واننا لنعرف جميعاً ان الطبيعة تهتم بالكم، ولكنني اعتقد ان الكيف يهمها ايضاً . . وهذا ما يجعلني أقف موقف القس الآن ـ أليس من الجائز أنها تحاول ابراز حاكم صالح جديد لنيوهامبشير ؟

ولكن لا تنسوا الشهود الآخرين لهذا العرس، اولئك الاسلاف . . انهم ملايين قد استقر رأي أكثرهم أيضاً على أن يعيشوا أزواجاً . . فعل ذلك الملايين

منهم .. هذه هي موعظتي ولا أظنها طالت عليكم .

(يبدأ الارغن في عزف مقطوعة لارجو لهاندل ويتدفق الجمع الى الكنيسة، ويجلسون في صمت. الا ان مسز وب وهي في طريقها الى مجلسها تستدير وتحدث الجمهور) .

مسز وب : لست ادري ما الذي يحملني على البكاء ... ليس هناك ما يدعوني اليه لكنه غلبني في الصباح عند الافطار .. وكانت اميلي تتناول افطارها كما فعلت دائماً طوال سبعة عشر عاماً ولكنها الآن .. سترحل حيث تأكل في منزل رجل آخر .. لعل هذا هو السبب ..

واميلي أيضاً قالت فجأة : لا استطيع أن أضع في فمي لقمة أخرى، واسندت رأسها الى المائدة ثم .. بكت .

(وتتجه الى مقعدها بالكنيسة ولكنها مرة أخرى تستدير وتضيف) .

أوه .. لابد أن أقول لكم .. أتعلمون ... ان من القسوة ان نرسل بناتنا الى الزواج على هذا النحو ...

أرجو أن تكون بعض صديقاتها قد اسدين لها شيئاً من النصيحة .. انني أعرف أنه من القسوة الا احدثها، ولكنني لم أستطع أن أحمل نفسي على أن أقول لها شيئاً .. لقد سرت في هذا الأمر سيراً أعمى كالخفاش .

ان العالم بأكمله في وضع خاطىء، هذا هو الواقع ... انهم قادمون .

(وتسرع الى مكانها بالمقاعد، ويشرع جورج في النزول من يمين المحراب في وسط المسرح مخترقاً الحضور.

وفجاة يبدو عند العمود الأيمن ثلاثة من اعضاء فريق البيسبول ويأخذون في الصفير والصياح، وقد ارتدوا جميعاً رداء اللعب) .

اللاعبون : ايه ! ... جورج ... جورج ... هست !! .. ياو !! .. اذا لم تسر الأمور على خير وجه نادنا .. نحن نعرف الواجب .. اسمعوا !! .. ياو !! .. جورج .. لا تدعي البراءة أيها الشاب .. نحن نعرفك ونعرف ما تفكر فيه .. لا تخز الفريق يا ولدي ! هو ... وا! ..

مدير المسرح : حسناً . . كفى . . كفى . . كفى . . يكفينا من هذا الآن . .

(ويدفع افراد الفريق وهو يبتسم فينحنون مرة أخيرة ليصيحوا لزميلهم بضع صيحات أخرى) .

كانت حفلات العرس مليئة بمثل هذا في الأزمان القديمة أيام روما وما بعدها . . ويقولون الآن اننا أكثر حضارة.

(وتبدأ الجوقة تغني «الحب الالهي يفوق كل حب» ويكون جورج قد وصل الى المسرح ويحملق لحظة في الحضور ثم يتراجع بضع خطوات نحو مقدمة المسرح الى اليمين.

ويقول في اكتئاب لنفسه) .

جورج : أود لو أعود الى المدرسة . . . اني لا أريد الزواج .

(وتترك امه مقعدها وتتجه ناحيته وتقف وهي تنظر اليه في قلق) .

مسز جيبز : ماذا حدث يا جورج ؟

جورج : اماه . . . لا اريد أن أكبر . . . لماذا يدفعني هكذا كل واحد هنا . .

مسز جيبز : ولكنك . . . يا جورج . . . قد أردت هذا . .

جورج : لماذا يجب أن اتزوج ؟ . . استمعي يا أماه ! اريد أن اسألك لآخر مرة سؤالاً .

مسز جيبز : لا . . لا . . يا جورج . . لقد أصبحت الآن رجلاً . .

جورج : ولكن استمعي الي يا أماه ! انك لا تستمعين الي مطلقاً . . كل ما اردته ان اكون فرداً . . . لماذا . .

مسز جيبز : جورج ! . . . ماذا لو يسمعك أحد . . كفى هذا . . اني لأشعر بالخجل من أجلك .

(يمر بيده على جبهته) .

جورج : ماذا حدث . . . لقد كنت أحلم . . أين اميلي ؟

مسز جيبز : رباه! . . . لقد افزعتني . .

جورج : ابتسمي يا أماه . . لماذا تبدو عليك الدهشة هكذا . . ابتسمي . . . اني أتزوج .

مسز جيبز : دعني استرد أنفاسي لحظة .

جورج : اماه . . فلتحجزي امسية الخميس لنا . . سنحضر في مساء كل خميس، أنا واميلي لنتناول العشاء عندك . . سترين اننا سنفعل . . اماه لماذا تبكين . . هيا بنا، علينا أن نستعد لهذا . .

(وفي هذه الأثناء تكون اميلي قد اخترقت الزحام في ثيابها البيضاء وبنقاب العرس، واعتلت المسرح، ثم تتراجع هي الأخرى عندما ترى الحضور في الكنيسة، وتكون الجوقة قد بدأت تنشد «فلتبارك الصلة التي تربط») .

اميلي : لم اشعر ابداً بالوحدة كما أشعر بها الآن . . وهذا جورج يبدو . . أوه . . . اني اكرهه . . . اني افضل الموت . . . أبي . . . أبي .

(يترك مقعده في الكنيسة ويقوم اليها وهو قلق) .

مستر وب : اميلي . . . اميلي . . . لا تقلقي .

اميلي : ولكني لا أريد أن اتزوج يا أبتاه .

مستر وب : اصمتي يا اميلي . . كل شيء يسير على أحسن وجه .

اميلي : لماذا لا استطيع أن أظل كما أنا بعض الوقت . . . هيا بنا نذهب !

مستر وب : لا . . . لا . . . يا اميلي . . كفي عن هذا وفكري قليلاً .

اميلي : الا تذكر يا ابتاه ما كنت تقوله لي دائماً . . . الا تذكر انك كنت دائماً تقول اني فتاتك . . لابد ان هنالك أماكن كثيرة يمكن ان نذهب اليها . . . فلنذهب وسأخدمك وأهيء لك الدار .

مستر وب : كفى . . . كفى ! يجب الا تفكري في مثل هذه الأمور . . . كل ما هنالك انك قلقة قليلاً يا اميلي . . . اسمعي، انك ستتزوجين الآن أفضل شاب في العالم . . ان جورج شاب طيب .

اميلي : ولكن . . . يا ابتاه !

مستر وب : جورج . . . جورج . .

(تعود مسز جيبز الى مقعدها ويسمع جورج نداء مستر وب فينظر اليه فيومىء اليه مستر وب ويتحركون الى وسط المسرح) .

جورج . . . اني أتنازل عن ابنتي . . . أتظن أنك تستطيع أن ترعاها ؟

جورج : مستر وب ! . . . أريد . . . أحاول . . . اميلي ! سأبذل كل ما في وسعي . اني أحبك يا اميلي، وأنا في حاجة اليك .

اميلي : اذا كنت تحبني فساعدني . . كل ما اريده شخص يحبني .

جورج : سأفعل يا اميلي !

اميلي : اقصد في مرضي . . . وعند الضيق .

جورج : اميلي . . . سأحاول ! سأحاول .

اميلي : اقصد . . . دائماً . . . اتسمعني . . . دائماً . . . دائماً . .

(ويرتمي كل منهما في ذراع الآخر. ويسمع مارش لوهنجرين) .

مستر وب : هيا بنا ! انهم ينتظروننا . . . سيمر كل شيء الآن على خير وجه هيا بنا !

(يتركهما جورج ويأخذ مكانه الى جانب مدير المسرح الذي انقلب قساً .

وتتقدم اميلي الى المذبح معتمدة على ذراع أبيها) .

مدير المسرح : هل تقبل يا جورج . . . هذه المرأة اميلي زوجة لك . .

(كانت مسز سومز تجلس في الصف الاخير بين الحضور في الكنيسة. وهي تلتفت الى جارتها وتقول في صوت مرتفع) .

مسز سومز : عرس بديع . . . أجمل عرس رأيته . . . اني لأسر للعرس الجميل، أليس كذلك ؟ أليست العروس جميلة .

جورج : نعم ! أقبل .

مدير المسرح : هل تقبلين يا اميلي هذا الرجل جورج زوجاً لك . .

مسز سومز : لا أذكر أني رأيت مثل هذا العرس الجميل ، ولكنني دائماً ابكي . . ولست ادري لماذا ، . . . ابكي دائماً كلما أرى الشباب سعيداً ألا تبكين ؟ اوه . . ما أجمل هذا !

(ثم الخاتم .

ثم القبلة .

ويتجمد المنظر فجأة وكأنه لوحة صامتة .

ويلتفت مدير المسرح وقد نظر من بعيد الى الجمهور قائلاً)

مدير المسرح : لقد عقدت الزواج مائتي مرة في حياتي الى الآن .

هل أنا مؤمن بهذا ؟

لست أدري .

هذا يتزوج من هذه . . . ملايين من الناس .

ثم المنزل الصغير، فخطوة الطفل الأول . . فنزهات الآحاد في سيارات فورد . . . فآلام المفاصل أول مرة . . . فالأحفاد . . . ثم عودة آلام المفاصل . . . ففراش الموت . . . فقراءة الوصية ـ قد تكون مهمة مرة في الألف .

فليعزف الآن لحن الزواج لمندلسوهن .

(ويعزف اللحن على الأرغن .

ينزل العريس والعروس من المذبح مشرقين وان كانا يحاولان تصنع الوقار) .

مسز سومز : ما أجمل الاثنين . . ما أجملهما . . . أوه . . . اني لم اشهد عرساً أجمل من هذا . . أنت واثقة من أنهما سيكونان سعيدين . . في رأيي ان السعادة دائماً أهم شيء . . . أهم شيء أن يكون المرء سعيداً .

(ويصل العريس والعروسة الى الدرج المفضي الى أماكن الحضور فيلقي عليهما ضوء مشرق ويهبطان قاعة الجمهور في المسرح، ثم يعودان في مرح) .

مدير المسرح : هذا هو الفصل الثاني بأكمله ، وأمامكم عشر دقائق للاستراحة .

الفصل الثالث

(في فترة الاستراحة يشاهد الجمهور الممثلين وهم ينظمون المسرح وفي الجانب الأيمن. الى اليمين قليلاً من وسط المسرح وضعت عشرة أو أثنا عشر كرسياً عادياً، في صفوف ثلاث متباعده بعض الشيء ومواجهة للجمهور.

هذه المقاعد هي القبور في المقبرة .

وعندما تقارب الاستراحة الانتهاء يدخل الممثلون ويأخذون أماكنهم. في الصف الأول من منتصف المسرح تقريباً مقعد فارغ وبعد ذلك مسز جيبز ثم سيمون ستمسون .

أما في الصف الثاني فنجد بين آخرين مسز سومز وبين الجالسين في الصف الثاني واللي وب. يجلس الموتى هادئين دون جمود، وفي صبر لا يشوبه عدم الاهتمام.

يأخذ مدير المسرح مكانه المعتاد وينتظر انطفاء الأضواء) .

مدير المسرح : انقضت تسع سنوات هذه المرة أيها الاصدقاء، ونحن في صيف سنة ١٩١٣ . . . وقد حدثت تغيرات تدريجية في جروفرز كونرز . . . اخذت الخيول فيها تتناقص، وصار المزارعون يقدمون الى البلدة في سيارات فورد .

على أن أكبر تغيير هو في الشباب. انهم يريدون الذهاب الى السينما في كل حين، ويريدون أن يرتدوا الثياب التي يشاهدونها هنالك . . ويريدون التشبه بأهل المدينة . .

وأصبح الناس جميعاً يغلقون أبواب بيوتهم بالأقفال، على ان البلدة لم ينزل بها لصوص بعد، غير أنه ما من واحد الا وقد سمع القصص عنهم . .

ولكن قد تعجبون ـ على أية حال ـ حين أقول لكم ان الأمور لم تتغير تغيراً كبيراً في جروفرز كورنرز .

واني لأحسبكم تتساءلون الآن عن الغرض من كل هذه المقاعد. وأظن بعض الأذكياء منكم قد أدرك المغزى . . ولا أدري شعوركم نحو هذه الأمور، الا أنني

استطيع أن أؤكد ان هذا المكان جميل حقاً . . . انه واقع على قمة تل . . . تل تكتنفه الرياح وتحيط به السماء والسحب الكثيرة . . . وكثيراً ما تسطع عليه أشعة الشمس والقمر، وتطل النجوم . . ولو صعدتم الى هنا بعد ظهر يوم لرأيتم سلاسل من التلال بعضها وراء بعض . . زرقاء زرقة جميلة . . . هنالك الى جانب بحيرة سونابي وبحيرة ويناباسوكي . . فاذا ما صعدتم وتصادف ان كان لديكم منظار مقرب فانه يمكنكم أن تروا الجبال البيض وجبل واشنطون . . . هنالك حيث تقع كنواي وكنواي الشمالية . . . ثم ترون ولاشك أيضاً جبلنا الحبيب جبل مونادنوك . . . هنا الى اليمين، وحوله ترقد كل هذه البلدان . . جافري الشرقية وبيتربورو ودبلن .

(ثم يشير أسفل عند الجمهور) .

وهناك . . اذا ما انحدر الطريق تقع جروفرز كورنرز . . . حقاً انها لبقعة رائعة في هذا المكان المرتفع. بقعة مملوءة بغار الجبال والزنابق . . . وكثيراً ما عجبت لماذا يحب الناس ان يدفنوا في وودلون أو بروكلين، وهم يستطيعون ان يرقدوا في الوقت ذاته في هذا المكان المرتفع بنيوهامبشير . .

وهنالك في ذاك الركن .

(يشير الى يسار المسرح) .

قبور قديمة . . . منذ ١٦٧٠ و ١٦٨٠ . . . قبور أولئك الرجال ذوي العزيمة الذين قطعوا الطريق الطويل الى الاستقلال . . . وفي الصيف يطوف المصيفون بقبورهم ويضحكون من الكلمات الغريبة التي سطرت على هذه القبور . . . ان هذا . . . لا يضير . . . ويأتي علماء الانساب من بوسطن يؤجرهم أهل المدينة كي يكشفوا لهم عن اسلافهم . تريد النساء أن يتأكدن من أنهن بنات الثورة الأمريكية، وسفينة المهاجرين الأوائل، وأظن . . . ان هذا لا يضير . . وانك كلما اقتربت من الجنس البشري . . تجد طبقات وطبقات من الحماقة . .

وهنالك أيضاً قبور بعض أبطال الحرب الأهلية . . وعلى أجداثهم أعلام حديدية، وهم شبان من أبناء نيوهامبشير . . اعتقدوا أن الاتحاد يجب أن يظل

مترابطاً على الرغم من أنهم هم أنفسهم لم يقطعوا أبعد من خمسين ميلاً فيه. . كل ما عرفوه أيها الاصدقاء هو اسم الولايات المتحدة الأمريكية، الولايات المتحدة الأمريكية . . . ولهذا ذهبوا وماتوا في سبيله .

أما هنا فهو الجزء الحديث من المقبرة . . . هذه صديقتكم مسز جيبز . . . ثم لننظر هنا مستر ستمسون عازف الأرغن في الكنيسة المذهبية . . وهناك مسز سومز تلك التي كانت مسرورة من حفلة الزواج . . . أتذكرونها ؟ اوه . . وكثيرون . . . غيرهم . . . فهنا أيضاً والاس ابن المحرر وب . . . لقد انفجر مصران الأعور في بطنه وهو في رحلة مع زملائه من الكشافة الى كروفورد نوتش .

لقد هدأ هنا آخر الأمر الكثير من الأحزان . . . وصعد الكثيرون من هنا بأقربائهم الى الجبل . . اننا جميعاً نعرف هذا . . ثم مرت عجلة الزمن بأيامه المشمسة . . . وأيامه الممطرة . . وبالجليد أحياناً . . . حقاً . . . اننا جميعاً راضون اذ أنهم استقروا في مثل هذا المكان الجميل . . وانا لنعرف جميعاً . . اننا . . سوف نأتي أيضاً متى حان الوقت وانتهت ادوارنا . .

فلاشك اذن ان هذا المكان هو من أهم اماكن جروفرز كورنرز . . . وكثيراً ما تتجه اليه الأفكار نهاراً وليلاً، ولكن لا يوجد فيه مكتب بريد .

وسأذكر لكم الآن أموراً تعرفونها . . بقدر معرفتي بها . . ولكنكم لا تخرجونها وتفحصونها كثيراً .

اني لا أهتم بما يقوله الناس بأفواههم، ولكن كل انسان يعرف بأن هنالك شيئاً ابدياً . . وليس هذا الشيء بيوتاً أو اسماء، وليس هو الأرض . . بل وليس النجوم . . ان كلاً منا يعرف في قرارة عظامه ان هنالك شيئاً ابدياً وان هذا الشيء ذو علاقة بالانسان . . لقد ظل أكبر العظماء يكررون علينا هذا القول منذ خمسة آلاف من السنين، ولكن من العجب حقاً ان الناس ينسون هذا الشيء، ففي قرارة نفس كل انسان شيء أبدي .

(صمت) .

اعتقد أنكم تعرفون مثلي ان اهتمام الموتى بنا نحن الأحياء لا يبقى طويلاً . .

انهم يتخلون قليلاً . . . قليلاً عن اتصالهم بالأرض . . وما كان لهم فيها من مطامح . . وما ذاقوه من ملذات . . . وما عانوه من آلام . . . ومن أحبوا من رجال ونساء .

انهم يفطمون عن الأرض . . . هذه هي الكلمة التي اعبر بها : يفطمون .

فهم يبقون هنا . . بينما الجانب الأرضي منهم يحترق، ويذهب هباء، وبينما يقل اهتمامهم تدريجياً بمرور الزمن بما يحدث في جروفرز كورنرز .

انهم ينتظرون . . . وينتظرون . . . ينتظرون أمراً يشعرون بأنه سيحدث، وهو أمر كبير الأهمية وعظيم، أليسوا في انتظار أن يبدو الجانب الأبدي منهم واضحاً ؟

لقد يسيء الى مشاعركم بعض ما سيقولون . . ولكن هذا هو الواقع شعور الأم نحو الابنة . . . والزوج نحو الزوجة . . والغريم نحو الغريم . . والبخيل نحو المال، كل هذه الأمور البالغة الأهمية ، تبدو شاحبة فيها حول هذا المكان . . وما الذي يبقى ؟ وما الذي يبقى بعد ذهاب الذاكرة وفقد الشخصية يا مسز سميث ؟ . .

(وينظر الى الجمهور لحظة، ثم يلتفت الى المسرح) .

ومع ذلك ففي هذا المكان بعض الأحياء . . . منهم جو ستودارد القائم على الدفن يشرف على اعداد قبر جديد. وهاك شاباً من جروفرز كونرز كان قد ترك بلدته وهاجر الى الغرب . .

(وكان جو ستودارد قد اخذ يحوم قليلاً في الخلف، ثم يدخل سام كريج من اليسار يمسح العرق من أعلى جبهته، وهو يحمل مظلة ويتقدم في خطوات واسعة الى الامام) .

سام كريج : طاب يومك يا جو ستودارد .

جو ستودارد : طاب يومك . . . طاب يومك . . دعني انظر اليك . . هل أعرف هذا الوجه .

سام كريج : أنا سام كريج .

جـو سـتـودارد : رباه ! . . أهو أنت ؟ كـان علي أن أتوقع عـودتك للاشتراك في الجنازة . . . لقد ظللت بعيداً عنا أمداً طويلاً يا سام .

ســام كريج : نعم . . لقد تركت البلدة منذ اثني عشر عاماً أو أكثر . . . اني أعـمل الآن في بافـالو يا جو . . ولكن كنت في مهمة في الشرق، عندما وصلني خبر مـوت ابنة خـالتي، فـرأيت اني استطيع ان اجمع بين أمـرين، وأحضر لأزور البـيت القديم أيضاً . . . يبدو أنك في صحة جيدة . .

جـو سـتـودارد : نعم . . . نعم . . . ليس لي أن أشكو . . . ان رحلتنا اليوم يا صـموئيل مؤلمة . . . مؤلمة جداً . .

سام كريج : حقاً .

جـو ستودارد : نعم . . نعم . . اني أقول دائماً انني أكره القيام بعملي اذا كان المتـوفي في شرخ الشبـاب، لقـد جئت بمظلتك، يبـدو أنها ستمطر وتزيد الجو حزناً . . . انهم سيصلون الى هنا بعد قليل . . . لقد كان علي أن أحضر هنا مبكراً . . . وتركت ابني يشرف على الأمـر هناك في الدار .

(يقرأ شواهد القبور) .

ســام كـريج : مـا كارثي المزارع القديم . . . لقد تعودت أن انظف له بيته بعد خـروجي من المدرسة . . كان مريضاً باللمباجو .

جـو ستودارد : نعم حملنا ماكارتي الى هنا منذ سنين . . .

(سام كريج يحملق في ركبتي مسز جيبز) .

سام كريج : هذه خالتي جوليا . . لقد نسيت انها . . . طبعاً . . . طبعاً . . .

جـو سـتودارد : نعم. . لقد فقد الدكتور جيبز زوجته منذ عامين أو ثلاثة . . في مـثل هذا الوقت تقريباً . . . وها هو ذا اليوم تصيبه ضربة أخرى شديدة .

(مخاطبة سيمون ستمسون في صوت متزن) .

مسز جيبز : هذا هو سام ابن اختي كاري . . . سام كريج . .

سيمون : اني اشعر دائماً بالضيق عندما يقدم مثل هؤلاء . . . هنا . . .

مسز جيبز : سيمون .

سيـمون : اكرههم. . وأكره حماقاتهم. . وسرورهم بأنهم لا يزالون أحياء. .

مسز جيبز : سيمون كن صبوراً . .

سـام كـريج : وهذه الأشعار. . يا جو. . أهم الذين يختارونها عادة ؟ . .

جـو ستودارد : عادة لا . . في الغالب يختارها أهل الفقيد أنفسهم .

سـام كـريج : مـا أظن خالتي جوليا تترك هذا لهم . . ان اغلب الأخوات من عـائلـة هـيرسي قـد مـاتـوا الآن . . قـل لي . . كـنت أريد أن أرى قبر والدي . . . ووالدتي . .

جـو سـتودارد : هناك مع اسرة كريج . . في الطريق المرقوم «ف» .

(يقرأ الكتابة على قبر سيمون ستمسون) .

سـام كـريج : لقـد كـان عـازف الأرغن في الكنيسة . . أليس كذلك ؟ وكان يشرب الخـمر كثيراً . . وكلنا نعرف ذلك .

جـو سـتـودارد : غير أننا كنا جميـعـاً نتـجـاهل ذلك . . لقـد صادف متاعب كـثيرة. ويخيل الي أن اولئك الموسـيقيين ليسوا مثل بقيتنا .

(في همس) .

أتعرف أنه انتحر ؟

سام كريج : أوه . . أفعل هذا ؟

جـو سـتـودارد : شنق نفسه في غرفة السطح . . وحاولوا أن يكتموا الخبر . . ولكنه انتـشـر . . وقـد تزوجت زوجتـه بعد قليل من باستو عضو مجلس الشيـوخ ، وكـثيراً مـا رأيتـهـا تدور الشـوارع في الحـادية عـشـرة ليلاً . . باحثـة عن زوجهـا . . أتتـصـور هذا . . أمـا الآن فـقـد تزوجت من السناتور بارسـتـو في مـانشـستر. ولقد اختار بنفسه الكتابة على قبره . . يمكنك أن تراها هناك . . أنه ليس شعراً . .

سام كريج : غريب .. انها ليست الا بعض نغمات موسيقية .. ما هي ؟

جـو ستودارد : لا أدري .. لقد نشر ذلك بصحف بوسطن في حينه ..

سام كريج : جو .. ما سبب موتها ؟

جـو ستودارد : من ؟

سام كريج : ابنة خالتي .

جـو سـتـودارد : اوه .. ألم تعـرف ؟ لقـد وجـدت متاعب وهي تضع طفلها .. دعني أتذكر .. اليوم الجمعة .. كان هذا من أسبوع تقريباً .

(يرفع مظلته) .

سام كريج : وهل عاش الطفل ؟

(يرفع قبة معطفه) .

جـو سـتـودارد : لا .. ولكنه طفلها الثاني على أية حال ... ان لها صبياً في الرابعة ..

سـام كريج : وقبرها .. سيكون هنالك ؟

جـو سـتودارد : نعم .. فلم يعد ثمة مكان هنا بين الموتى من أسرة جيبز وقد بدأوا قـسماً جـديداً للأسرة في طريق «ب» ... معذرة أراهم قادمين .

الموتى : (بلا وجوم وفي لهجة اهل نيو انجلند)

ان المطر سيـحـمل خيراً كـثيراً .. نعم فـقـد أصـاب الجـفـاف الأشياء ... ليـمويل.. أتذكر فيضان ١٨٧٩؟ لقد جرف أمامه الجسور. لم يترك غير واحد ..

(في خلف المسرح من اليسار الى اليمين.

يسير الموكب وقـد حمل أربعـة من الرجـال نعـشـاً لا نراه .. أمـا بقـية الجمع فيحملون مظلاتهم مـفتوحة .. وقد نستطيع أن نميز فيهم دون وضوح تام دكتور جيبز، وجورج وأسرة وب . ثم يتجمعون حول قبر في منتصف المسرح الى الخلف، ناحية اليسار قليلاً) .

مسز سومز : من هي يا جوليا ؟

مسز جيبز : (دون أن ترفع عينيها)

زوجـة ابني . . . اميلي وب .

مسز سومز : (في استغراب ـ ولكن بلا انفعال)

لابد ان الطريق الى هنا كـان غاصاً بالأوحال. بماذا ماتت يا جوليا ؟

مسز جيبز : كانت تضع طفلاً . .

مسز سومز : تضع طفلاً .

(تقولها وهي تكاد تضحك) .

لقد نسيت هذا . . ألم تكن الحياة متعبة .

(ثم تتنهد وتقول :)

ورائعة ؟

سيمون : (بنظرة جانبية)

أكانت رائعة .

مسز جيبز : سيمون . . تذكر !

مسـز سومز : اني أتذكر يوم زواج اميلي . . . كم كان جميلاً . . . أذكر اميلي وهي تقـرأ قطعـة من الشعـر استـعداداً لحفل التخرج . . ان اميلي كانت من أذكى البنات اللاتي تخرجن من المدرسة العليـا . . لقـد سـمعت البروفيسور ويلكنز ناظر المدرسـة يردد هذه العـبـارة مـرة بعـد أخـرى . . وزرتها قبل وفاتي بقليل في مزرعتها الجديدة . . مزرعة جميلة حقاً . .

امرأة بين الموتى : انها في نفس الطريق الذي كنا نسكن فيه . .

رجـل بـين المـوتى : نعم بجـوار حـدائق أسرة «الكيس» . . اتذكـر يا جـو ؟ بجـوار البـحيرة حيث كنا نمضي يوم ٤ يوليو دائماً . . أنها مزرعة جميلة حقاً . . .

(يسكتون . تقف الجماعة حول القبر ينشدون «فلتبارك الصلة التي تربط») .

امرأة بين الموتى : لقد أحببت دائماً هذه الترتيلة وكنت ارجو أن يرتلوها اليوم.

رجل بين الموتى : زوجتي ـ زوجتي الثانية ـ تعرف أشعار التراتيل جميعاً ... وهي تفوق الهولنديين في ذلك .. وتستطيع أن ترتلها عن ظهر قلب ..

(صمت .

تظهر اميلي فجأة من بين المظلات وهي ترتدي رداء أبيض .. وقد استرسل شعرها خلف ظهرها وربط بشريط أبيض مثل ما تفعل فتاة صغيرة .. وتتقدم في خطوات بطيئة ثم تنظر في استغراب الى الموتى وقد دهشت قليلاً .. ثم تقف في منتصف الطريق وتبتسم ابتسامة خفيفة) .

اميلي : مرحباً ...

الموتى : مرحباً اميلي ... مرحباً مسز جيبز ...

اميلي : مرحباً يا والدتي جيبز ...

مسز جيبز : اميلي .

اميلي : مرحباً .

(يستمر ترتيل الانشودة وتنظر اميلي خلفها الى الجنازة ثم تقول في صوت حالم) .

ان المطر يتساقط .

مسز جيبز : نعم .. سينصرفون بعد قليل يا عزيزتي .. استريحي أنت ..

(تجلس اميلي على الكرسي الخالي بجوار مسز جيبز) .

اميلي : يبدو كأن آلافاً وآلافاً من السنين قد انقضت منذ أن ... ما أغبى منظرهم جميعاً ... لا حاجة بهم لأن يظهروا في هذا المظهر .

مسز جيبز : لا تنظري إليهم الآن يا عزيزتي .. انهم سينصرفون حالاً .

اميلي : اوه .. كم كنت ارجو أن أكون هنا من عهد بعيد .. فما أحب أن أكون جديدة في هذا المكان .. كيف حالك يا مستر ستمسون ؟

ستمسون : كيف حالك يا اميلي ؟

(وتظل اميلي تنظر فيما حولها وعلى وجهها ابتسامة باهتة حائرة ... ولكنها لا ترجع ببصرها الى جماعة المشيعين .. وتتجه الى مسز جيبز لتحدثها وكانها تريد ان تصرف عن ذهنها صورة هؤلاء المشيعين، فيبدو على صوتها شيء من القلق) .

اميلي : يا والدتي جيبز . . لقد جعلنا أنا وجورج من تلك المزرعة أجمل بقعة رأيتها في العالم . . . وكنا نذكرك دائماً . . وكنا نود لو ترين الجرن الجديد وحوض البهائم العظيم الطويل المصنوع من الأسمنت . . . لقد أقمناها بالمال الذي تركته لنا .

مسز جيبز : تركته أنا ؟

اميلي : ألا تذكرين ذلك يا والدتي جيبز . . . الارث الذي تركته لنا . . كان أكثر من ثلثمائة وخمسين دولاراً .

مسز جيبز : نعم يا اميلي . . . نعم . . .

اميلي : ان في ذلك الحوض حيلة خاصة ، فلا تفيض مياهه ابداً ولا تفور أبعد من حد معين بالذات . . . انه جميل . . .

(يتدرج صوتها في الخفوت وترجع بنظرها الى جماعة المشيعين) .

ما أظن الحياة بالمزرعة تبدو لعيني جورج كما كانت وأنا معه . . ولكنها علي أية حال مزرعة جميلة .

(وفجاة تنظر الى مسز جيبز) .

ان الأحياء لا يدركون . . . هل يفهمون ؟

مسز جيبز : لا يا عزيزتي . . . لا يفهمون كثيراً !

اميلي : انهم يبدون كأنه اغلقت عليهم صناديق صغيرة . . أليس كذلك . . أشعر كأن عهدي بهم منذ ألف سنة . . ان ابني يمضي اليوم لدى مسز كارتر .

(وتلمح مستر كارتر مع الاموات) .

اوه . . . مستر كارتر ! ان ابني الصغير يقضي يومه في منزلك .

مستر كارتر : حقاً !

اميلي : نعم . . . انه يحب المقام هنالك، والدتي جيبز . . . لدينا أيضاً سيارة فورد . . . تسير جيداً ولا تتعبنا، الا انني لم أتعلم ان أسوقها . . والدتي جيبز ! متى يذهب عني هذا الشعور . . . الشعور بأني ما زلت واحدة منهم . . . كم يمر علي من زمن ؟

مسز جيبز : اصمتي يا عزيزتي . . . انتظري . . . واصبري . .

اميلي : (متنهدة)

اعرف ذلك . . . انظري . . . لقد انتهوا . . . انهم يتفرقون .

مسز جيبز : اصمتي .

(تغادر المظلات المسرح . ويقوم دكتور جيبز الى قبر زوجته ، ويقف أمامه لحظة.

وتنظر اميلي الى وجهه. أما مسز جيبز فلا ترفع عينها) .

اميلي : انظري . . ان مستر جيبز يقدم لك شيئاً من أزهاري . . . الا يشبه جورج تماماً ؟ اوه . . لم أكن أعلم يا والدتي جيبز الى أي حد يكتنف الظلام حياة الأحياء . . . فمن الصباح الى الليل ليس في حياتهم غير القلق !

(يخرج مستر جيبز) .

الموتى : لقد تلطف وصار أكثر برودة . . . نعم لقد تحسن الجو بفعل المطر . . وهذه الرياح الشمالية الشرقية تفعل ذلك دائماً . . . أليس كذلك ؟ ان لم تمطر فانها تهب رياحاً ثلاثة أيام متوالية . . أظن الجو سيصفو قبيل الليل . . كما يحدث كثيراً .

(يسود المسرح هدوء صابر، ويظهر مدير المسرح في مقدمة المسرح مدخناً. تعتدل اميلي فجأة في جلستها وكانما قد خطرت لها فكرة) .

اميلي : ولكن يا والدتي جيبز . . . ان في وسع المرء ان يذهب ادراجه، يذهب هنالك مرة ثانية الى الحياة . . . اني أشعر بهذا . . اني اعلم هذا . . منذ لحظة فقط كنت أفكر في . . . في المزرعة . . . ووجدتني في لحظة هنالك، وظهر لي

ابني في حجري . . . بينا كوضوح النهار .

مسز جيبز : نعم يمكنك هذا بالطبع . . .

استطيع ان اعود هناك . . . وأحيا كل تلك الأيام مرة أخرى . . . لم لا ؟

اميلي : اميلي . . . كل ما أقدر أن أقوله . . . ألا تفعلي هذا !

(تقترب بعض خطوات نحو مدير المسرح) .

ولكن هذا حقيقي ـ أليس كذلك ؟ استطيع أن أذهب وأعيش . . . أعود هنالك مرة ثانية .

مدير المسرح : نعم . . . لقد حاول البعض . . . ولكنهم يرجعون سريعاً هنا .

مسز جيبز : لا تفعلي هذا يا اميلي !

مسز سومز : لا تفعلي هذا يا اميلي ! انها ليست كما تتخيلين .

اميلي : ولكني لا أريد أن أعود ليوم حزين . . . سأختار يوماً سعيداً . . . سأختار اليوم الذي عرفت فيه أني أحب جورج . . . فَلِمَ يكون هذا مؤلماً ؟

(يسكت الجميع ... ويتلقى مدير المسرح سؤالها) .

مدير المسرح : انك لن تعيشي فحسب . . . ولكنك تراقبين نفسك وأنت تعيشين .

اميلي : حقاً ؟

مدير المسرح : وعند ذلك وأنت تراقبين ترين أشياء لم يعرفها اولئك الذين يعيشون هنالك. ترين المستقبل . . . وتعرفين ما الذي سيحدث بعد ذلك . . .

اميلي : ولكن هل هذا مؤلم ؟ . . . . ولماذا ؟

مسز جيبز : اميلي . . . ليس هذا فقط هو السبب الذي من أجله يجب الا تفعلي هذا . . . بل عندما تمكثين هنا فترة أطول . . . ستعلمين ان حياتنا هنا هي الأمل في أن ننسى سريعاً ما مضى . . . ناظرين فقط الى ما سيأتي من بعد، ونعد له

عـدتنا، وستفهمين ذلك عندما تمضين هنا فترة أطول .

اميلي : (في صوت ناعم)

ولكن كـيف أنسى تلك الحـيـاة يا والدتي جـيـبز . . . أنها كل ما أعرف . . . انها كل ما كان لي .

مستر ستمسون . . . هل عدت أنت ؟

سيمون : (بحدة)

لا !

اميلي : هل عدت أنت يا مسز سومز ؟

مسز سومز : ليس من الحكمة أن تفعلي يا اميلي . . . ليس من الحكمة حقاً. كل مـا نستطيع ان نفعله هو أن نحذرك . . . ولن تجدي ما تتوقعينه .

اميلي : (ببطء)

ولكنه أمـر يجب أن أعـرفـه بنفـسـي . . . انني على أية حـال سأخـتـار يومـاً سعيداً .

مـسـز جيبز : لا . . . اختاري اذن . . . على الأقل . . . يوماً غير هام . . . اختاري أقل أيامك أهمية . . . سيكون فيه من الأهمية ما يكفي . . .

اميلي : (لمدير المسرح)

إذن لن يكون يومـاً بعـد زواجي . . . أو بعـد مـيـلاد ابني . . . سأختار إذن يوماً من أيام عيد ميلادي على الأقل . . . سأختار عيد ميلادي الثاني عشر .

مـدير المسرح : حسناً. . . ليكن إذن ١١ فبراير ١٨٩٩ . . . يوم ثلاثاء . . . أتريدين وقتاً خاصاً بالذات ؟

اميلي : أوه . . . اريد اليوم كله .

مدير المسرح : سنبدأ بالفجر . . . أتذكرين ان الثلج ظل يتساقط أياماً عديدة . . . ولـكـنـه تـوقـف في الـليلة السـابقـة، وبدءوا ينظفـون الشـوارع . . . وأخـذت

الشمس في البزوغ .

اميلي : (تصرخ)

هذا هو الشارع الرئيسي ! وهذا حانوت مستر مورجان قبل ان يغيره . . . وهذا اصطبل الجياد .

(تمشي متجهة نحو خلف المسرح) .

مدير المسرح : نعم . . . انه عام ١٨٩٩ . . . منذ أربعة عشر عاماً .

اميلي : أوه . . . هذه هي البلدة التي عرفتها وأنا فتاة صغيرة . . . وهذا هو السور الخشبي الأبيض الذي كان حول بيتنا . . . أوه ! لقد نسيته . أوه ! . . . كم أحبه . . . هل هم بالداخل ؟

مدير المسرح : نعم ستنزل أمك حالاً لتعد الافطار .

اميلي : (بحنان)

هل تنزل ؟

مدير المسرح : وتذكرين ان والدك كان غائباً منذ عدة أيام، وقد حضر في قطار الصباح الباكر .

اميلي : حقاً ؟

مدير المسرح : لقد ذهب الى كليته في غرب نيويورك بكلنتون ليلقي خطبة .

اميلي : . . . هذا هو هاوي نيوسم . . . وهذا هو رجل البوليس ولكنه ميت . . . لقد مات . .

(يتراجع مدير المسرح الى مكانه ... وتسمع أصوات هاوي نيوسم وكونستابل وارين وجو كرويل الصغير من يسار المسرح) .

هاوي : هيا يا بسي ! بسي ! صباح الخير يا بيل .

بيل : صباح الخير يا هاوي .

هاوي : لقد بكرت اليوم .

بيل : كنت أنقذ جماعة . . . كادوا يموتون من البرد ويتجمدون ببلدة البولنديين هنالك . . . لقد سكروا ثم ناموا تحت مجرى الثلج المتساقط، وكاد يتجمد احدهم حتى الموت، وظن أنه في سريره عندما ايقظته .

اميلي : أ . . . و . . . . ه . . . . انه جو كرويل .

جو كرويل : صباح الخير يا مستر وارن، صباح الخير يا هاوي .

(تظهر مسز وب في المطبخ، ولكن اميلي لا تراها حتى تنادي) .

مسز وب : هيا يا أطفالي . . . واللي ! . . . اميلي ! . . . يجب ان تستيقظا .

اميلي : انا هنا يا أماه ! . . . اوه كم تبدو أمي شابة ! لم أكن أتصور ابداً ان أمي كانت هكذا شابة !

مسز وب : تعالي والبسي ثيابك بجانب المدفأة هنا . . . بالمطبخ . . . اذا اردت ولكن اسرعي .

(يقوم هاوي نيوسم من الشارع الرئيسي بحمل اللبن الى باب مسز وب) .

صباح الخير يا مستر نيوسم . . . حقاً . . . ما أشد البرد !

هاوي : لقد بلغ العاشرة تحت الصفر في حظيرتي يا مسز وب .

مسز وب : تصور هذا ! . . . لف نفسك جيداً . . .

(تأخذ زجاجات اللبن وهي ترتعش بمجهود) .

اميلي : ماما ! اني لا أجد شريط شعري الأزرق في أي مكان .

مسز وب : افتحي عينيك وستجدينه . . . لقد وضعته لك خاصة على منضدة الزينة . . . هنالك . . . ولو كان ثعباناً لعضك .

اميلي : نعم . . . نعم . . .

(وتضع يدها على قلبها وياتي مستر وب من الشارع الرئيسي حيث يقابل كونستابل وارين) .

مستر وب : صباح الخير يا بيل .

بيل : صباح الخير يا مستر وب . . . لقد استيقظت مبكراً . .

مستر وب : نعم . . . لقد ذهبت الى كليتي القديمة في ولاية نيويورك . . هل هنالك حوادث ؟

بيل : لقد استدعيت هذا الصباح لأنقذ رجلاً بولندياً كاد يتجمد حتى الموت . . .

مستر وب : يجب ان ننشر هذا الخبر في الجريدة .

بيل : ليس شيئاً يستحق الذكر .

اميلي : (هامسة)

بابا !

(ينفض مستر وب قدميه من الجليد ويدخل المنزل) .

مستر وب : صباح الخير . . . ايتها الأم .

مسز وب : كيف حالك يا شارلز . .

مستر وب : في خير . . . على ما اعتقد . . لقد تحدثت اليهم في بعض الأشياء .

مسز وب : أظللت مستيقظاً طوال الليل في القطار ؟

مستر وب : نعم . . . اني لا استطيع استعمال عربات النوم على أية حال .

مسز وب : شارلز ! يبدو لي أننا من الثراء بحيث نستطيع أن تنام في القطار بين حين وحين .

مستر وب : كل شيء على ما يرام هنا ؟

مسز وب : نعم . . . لم يحدث شيء بالذات . . . ولكن الجو كان بارداً جداً . . . ويقول هاوي نيوسم ان البرد كان عشرة تحت الصفر في حظيرته .

مستر وب : نعم . . . ان الجو أبرد منه في كلية هاملتون، وكان البرد يفصل آذان الطلبة هناك . . . ليس في هذا رحمة . . . هل لاحظت خطأ في الصحيفة ؟

مسز وب : لا . . . لم ألاحظ شيئاً . . . قهوتك جاهزة حين تريدها . .

(يبدأ في الصعود) .

لا تنس يا شارلز ان اليوم عيد ميلاد اميلي . . . هل تذكرت وأحضرت لها شيئاً ؟

مستر وب : (وهو يضرب بيده على جبينه)

نعم . . . لقد أحضرت لها شيئاً .

مسز وب : ارجو ان يسرها ما احضرته أنا لها . . . لقد بحثت عنه كثيراً . . . هيا بنا يا أطفالي . . . اسرعا . . . اسرعا . . .

مستر وب : أين ابنتي . . . اين ابنتي صاحبة العيد ؟

(يذهب يساراً) .

مسز وب : لا تشغلها الآن يا شارلز . . . سوف تراها عند الافطار، لقد تأخرت فلا تزدها تأخراً . . . أسرعا يا أطفال ! ان الساعة السابعة ولا أريد أن أنادي عليكما مرة ثانية .

اميلي : (يرق صوتها ويغلب العجب على الحزن)

لا يمكنني أن أتحمل هذا . . . انهما شابان وجميلان . . . لماذا قدر عليهما أن يهرما ؟ ماما ! . . . أنا هنا . . . لقد كبرت . . . أنا أحبكم جميعاً . . . وأحب كل شيء . . . لا استطيع أن احتمل إطالة النظر الى الأشياء . . . تلك هي شجرة الجوز .

(تسير في الطريق الرئيسي) .

هذا حانوت مستر مورجان . . . وهذه المدرسة العليا دائماً كما هي دائماً دائماً . . . وتلك هي الكنيسة التي تزوجت فيها . . . أوه . . . يا إلهي ! يا إلهي ! يا إلهي . . .

(يلفت مدير المسرح نظرها بحركة منه ثم يشير الى المنزل، وتغمغم في صوت خفيض «نعم» وتمضي الى المنزل) .

طاب صباحك يا أماه .

مسز وب : (عند أسفل الدرج تقبلها بطريقتها الواقعية)

حسناً يا عزيزتي . . . عيد سعيد جداً لك يا ابنتي وعود حميد . . . على مائدة المطبخ تنتظرك هدايانا .

اميلي : اوه . . . وه . . . يا أماه ما كان عليك أن تفعلي . . .

(وتنظر الى مدير المسرح في ألم صارخة) .

لا أستطيع ! لا استطيع ! . . .

مسز وب : (وقد واجهت النظارة وهي أمام موقدها)

ولكن سواء أكان عيد ميلاد أو يوماً غيره، فاني اريد أن تأكلي افطارك جيداً وفي بطء . . . اريدك أن تكبري وان تصبحي لي فتاة جميلة قوية .

(تذهب الى الدرج وتنادي) .

واللي . . . واللي . . . اغتسل جيداً . . . انزل سريعاً فالطعام يبرد .

(تعود الى الموقد ملتفتة بظهرها الي اميلي، واميلي تفتح لفائف الهدايا) .

هذا الشيء الذي لف في الورق الازرق هو من خالتك كاري . . . أما مجموعة الصور فأظنك تخمنين من أحضرها، لقد وجدتها على درج الباب وأنا أحضر اللبن . . . انه جورج جيبز ـ لابد انه قد حضر في برد الصباح . . . ما ألطف صنيعه !

اميلي : (لنفسها)

اوه . . . جورج . . . لقد كدت انسى أنه . . .

مسز وب : امضغي اللحم المجفف على مهل . . . انه سيجعلك تحسين الدفء في مثل هذا اليوم البارد .

(وقد بدأ حديثها في صوت حنون على ما فيه من عجلة) .

اميلي : اوه . . . أمي . . . انظري الي لحظة واحدة فقط . . . كأنك حقاً رأيتني . . . أماه ! لقد مرت أربع عشر سنه . أماه لقد مت . . . وأنت اصبحت

جدة . يا أماه . . . لقد تزوجت جورج جيبز . . . ووالدي مات أيضاً . . . لقد انفجر في بطنه المصران الأعور وهو في رحلة الى شمال كنواي . . . وروعنا جميعاً بهذا . . . ألا تذكرين ؟ والآن اجتمعنا من جديد يا أماه للحظة واحدة، ولنكن سعداء لحظة واحدة فلتنظر كل منا الى الأخرى .

مسز وب : لقد لف في الورق الأصفر شيء وجدته في غرفة السطح بين اشياء جدتك . . . لقد كبرت الآن وبلغت حداً يمكنك معه أن تلبسيه وتحبيه . .

اميلي : وهذا منك يا أماه . . انه بديع حقاً ! هذا ما أردته تماماً . . . انه جميل .

(وتلقى بذراعيها حول عنق أمها بينما تمضي أمها في المطبخ. ولكنها لا تستطيع ان تخفي سرورها) .

مسز وب : كنت أرجو ان يعجبك . . . لقد بحثت عنه في كل مكان ، ولم تستطع خالتك نورا ان تجده في كونكورد . . . فأرسلت في طلبه من بوسطن .

(تضحك) .

ولقد أحضر لك والدي شيئاً أيضاً صنعه في مدرسة الصنائع، وهو فخور به جداً . . . فلا تنسي أن تشعريه بسرورك به. وأبوك أعد لك هو الآخر . . . مفاجأة . . . أنا نفسي لا أعرف ما هي . . . اسكتي . . . لقد حضر .

(من خارج المسرح) .

مسز وب : اين ابنتي . . . اين ابنتي صاحبة العيد ؟

اميلي : (الى مدير المسرح في صوت مرتفع)

لا استطيع . . . لا استطيع ان استمر . . . هذا كله سريع جداً . . . ليس لدينا متسع من الوقت لينظر احدنا الى الآخر . . .

(وتنفجر باكية في تشنج وباشارة من مدير المسرح تختفي مسز وب) .

اني لم أدرك ! . . كل هذا كان يقع . . . وأنا لا أدرك شيئاً . . . عد بي الى التل الى قبري . . . ولكن . . . انتظر أولاً ! دعني القي نظرة أخرى . . . وداعاً . . . وداعاً . . . أيتها الدنيا . . . وداعاً يا جروفرز كورنرز . . . وداعاً يا أبي

وأمي . . . وداعاً ايتها الساعات الدقاقة . . . ويا ازهار عباد الشمس التي زرعتها أمي . . . وطعامنا . . . وقهوتنا . . . والثياب المكواة حديثاً، والحمام الدافىء . . . والنوم واليقظة . . . ايتها الأرض ! انك أعجب من أن يدرك أي انسان كنهك .

(تنظر الى مدير المسرح وتسأله فجأة من خلال دموعها) .

هل أدرك انسان معنى الحياة ؟ . . . وهو يعيش فيها ؟ معنى كل دقيقة ! كل دقيقة ! .

مدير المسرح : لا .

(ويصمت) .

ربما يدرك القديسون والشعراء شيئاً من هذا !

اميلي : اني على استعداد لأن أعود .

(وتعود الى المقعد الى جانب مسز جيبز) .

كان يجب ان استمع اليك يا والدتي جيبز ! انني الآن أريد أن اهدأ لحظة . . . لقد رأيت يا والدتي جيبز كل شيء . . . رأيت حديقتنا . . .

مسز جيبز : أحقاً يا عزيزتي ؟

اميلي : ان ما يمكن ان يوصف به البشر أنهم قوم فقدوا أبصارهم .

مسز جيبز : انظري . . . ان السماء تصفو وقد بزغت النجوم .

اميلي : اوه يا مستر ستمسون . . . كان يجب ان استمع اليهم .

سيمون : (في قسوة متزايدة ولهجة لاذعة)

نعم ! لقد عرفت ذلك الآن . . . لقد عرفت ذلك الآن . . . هذا هو معنى الحياة . . . ان يتحرك المرء في سحابة من الجهل . . . ويعدو ويجيء وقد وطىء تحت اقدامه مشاعر اولئك . . . اولئك الذين يحيطون به . . . وينفق الزمن ويضيعه كأنه وهب مليوناً من السنين . . ويكون دائماً تحت رحمة شهوة انانية أو أخرى . . . الآن تعرفين ذلك الوجود السعيد الذي اردت العودة اليه ورؤيته . . . هل صحت بهم ! هل ناديت عليهم ؟

اميلي : نعم !

سيمون : الآن عرفتهم على حقيقتهم . . . في جهالة وعمى .

مسز جيبز : (وقد نشطت)

انك تعلم يا سيمون ستمسون أنك لا تقول كل الحق .

(بدأ الموتى يتحركون) .

الموتى : ليمويل ! . . . يبدو أن الريح ستهب ! يا الهي ما أكثر تصاعد الذكريات الى نفسي هذه الليلة . . . ان الليلة باردة لا تتلاءم مع الجو في شهر يونيو . . . أليس كذلك ؟

مسز جيبز : انظري ماذا فعلت ؟ أنت وروحك الثائرة قد عصفت بنا هنا . . . انظري يا اميلي الى هذا النجم، لقد نسيت اسمه .

الموتى : انني اعرفها جميعاً ولكنني لا اعرف اسماءها . . كان ابني جويل بحاراً . . . يعرفها جميعاً . . . كان يجلس في الأمسيات على مدخل البيت ويسميها جميعاً . . . نعم يا سيدي . . . ما كان أروع هذا . . . وما أطيب النجم من رفيق . . . نعم . . . نعم . . . خير رفيق . . .

سيمون : انظروا واحداً منها يبزغ .

الموتى : ان هذا الشيء عجاب ! ليس هذا وقت بزوغها يا لله .

اميلي : انه جورج يا والدتي جيبز .

مسز جيبز : اصمتي . . . يا عزيزتي . . . اريحي نفسك أنت . . .

اميلي : انه جورج . .

(جورج يدخل من اليسار ويأتي الى ناحيتهم في بطء) .

رجل بين الموتى : ان ابني جويل الذي كان يعرف النجوم . . . كان يقول ان ذرة من الضوء تستغرق ملايين السنين قبل أن تصل الى الأرض، ولا أظن أحداً يستطيع أن يصدق هذا . . . ولكنه كان يقول ذلك . . . ملايين السنين . .

رجل بين الموتى : هذا فعلاً ما يقولونه . . .

(يلقي جورج بنفسه على قبر اميلي) .

الموتى : يا الهي ! ليس هذا بالمسلك اللائق . . . كان عليه أن يكون في البيت .

اميلي : والدتي جيبز !

مسز جيبز : نعم يا اميلي ؟

اميلي : انهم لا يفهمون كثيراً ، أليس كذلك ؟

مسز جيبز : لا يا عزيزتي . . . انهم لا يفهمون الكثير .

(ويظهر مدير المسرح الى اليمين ويده على ستارة داكنة اللون يجذبها في بطء على المنظر .

ويسمع في الظلمة صوت ساعة تدق من بعيد في خفوت) .

مدير المسرح : نام أغلب الناس في جروفرز كونرز، ولم يعد بها الا أضواء قليلة : ولقد راقب هوكنز القصير قطار الباني وهو يمر بالبلدة وعند مرابط الخيل بضعة أشخاص ظلوا يتحادثون في ساعة متأخرة . . . نعم . . . ان السماء تصفو وتقوم النجوم برحلاتها العتيقة وهي تجتاز السماء. ولم يقطع العلماء برأي في الأمر بعد، ولكنهم أقرب الى أن يتفقوا على أن لا حياة في هذه النجوم . . ليس فيها غير الجير أو النار . . . الا نجمنا هذا يحاول جاهداً طول الوقت ان يجعل من نفسه شيئاً؛ وهذا الجهد يصيب كل من عليه بالاعياء حتى ان كل ست عشرة ساعة يرقد كل انسان لينال شيئاً من الراحة .

(ويدير ساعته) .

الساعة بلغت الحادية عشرة في جروفرز كورنرز . . . ولقد آن لكم أنتم أيضاً ان تستريحوا . . . أسعدتم مساء .

(الخاتمة)

جيمس ثيربر
(١٨٩٤ ـ ١٩٦١)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

ولد في مدينة كولومبس في ولاية اوهايو ودرس في جامعتها . قضى عامين (١٩١٨ ـ ١٩٢٠) في باريس بالعمل مع الجيش . ثم عاد الى الولايات المتحدة حيث عمل بالصحافة وتزوج . كانت له عودة الى باريس حيث عمل بالكتابة للصحف . عام ١٩٢٦ وبعد عودته الى نيويورك بدأ عمله مع مجلة **نيويوركر (The New Yorker)** وهنا ازدهرت مواهبه ككاتب ورسام (Cartoonist) وقد ساهم مساهمة فعالة في خلق اسلوب تلك المجلة. ولم يكن في الولايات المتحدة كاتب فكاهي يتفوق عليه في عقدي الثلاثينات والأربعينات. وخلق في قصصه ومقالاته ورسومه أسلوباً فريداً خاصاً به. وبالاضافة الى القصص القصيرة والمقالات والرسوم فقد شارك في كتابة مسرحية نالت نجاحاً كبيراً : **الحيوان الذكر (The Male Animal)** (١٩٤٠) . المقالات التي كتبها كانت إما عامة أو خاصة بذكرياته وشبابه في اوهايو . ومن كتاباته الخاصة كتابه **حياتي وأوقاتي العصيبة My Life and Hard Times** (١٩٣٣) .

كان في حياته الشخصية رجلاً متقلب المزاج كثير الذهول. كان زواجه الثاني ناجحاً ولكن ضعف بصره انتهى به الى العمى التام. ومع ذلك فقد واصل الكتابة بإملاء كتاباته. وقد اتجه نحو كتابات للأطفال في نهاية حياته .

تميز بأسلوب ساخر تبدو عليه البساطة ولكنه في حقيقته يخفي جهداً كبيراً ومراجعة دقيقة. وبالاضافة الى مساهمته هذه فإنه الكاتب الذي أوصل الى حد الكمال مفهوم الرجل العصابي الحديث الذي يعيش في حالة تهيج عصبي وشعور بالاحباط لفشله في تحقيق ما يتوقعه منه الناس من حوله من أقارب وزملاء وأصدقاء. وقصة «حياة وولتر متي السرية» من روائع القصص القصيرة في القرن العشرين التي تمثل هذا الرجل .

مقعد طائر الكاتبرد (١)

ترجمة : د. عصام الصفدي

[من ميزات أدب القرن العشرين بشكل عام الاهتمام الذي يوليه للحياة الداخلية السرية التي يلجأ لها انسان هذا العصر من الضغوط التي يتعرض لها. فالحياة العصرية بماديتها وآنيتها وروتينها تقتل الروح ، وتقطع أوصال العلاقات الاجتماعية. وقد عالج كثير من الكتاب هذا الموضوع في مختلف الأنواع الأدبية من رواية ومسرحية وقصة قصيرة وقصيدة؛ ومن الطبيعي أن يعالج كل منهم هذا الموضوع بطريقته الخاصة. ورغم ان التشاؤم والسوداوية تسيطران على الكثير من هذا النتاج الأدبي، فقد عالجه جيمس ثيربر بأسلوب فكاهي ساخر ولكنه في غاية الجدية والالتزام. في هذه القصة يقدم الكاتب لنا بطله على أنه انسان عادي جداً جفت حياته وصارت مجرد روتين خاصة وانه رئيس قسم الملفات في شركة كبيرة. وهو روتيني حتى في بيته وبعد انتهاء دوامه. وقد صار هذا الروتين جزء هاماً ان لم يكن أهم جزء في حياته. لا عجب إذن ان فكر حتى في قتل مسؤولة جديدة في الشركة بدا له انها تريد تحديث دائرته والقضاء عليه بالتالي . ولكن الكاتب يعالج هذه القصة بأسلوب بارع يجعلنا نرى غباء هذا البطل ولكن لا يسمح لنا بالضحك عليه. فهو باهتمامه بالتفاصيل الدقيقة يهمل الأشياء الهامة فعلاً . يستخدم ثيربر في قصته هذه الاسلوب المسمى بتيار الوعي (Stream of Consciousness) والمونولوج الداخلي (Interior Monologue) . تنتهي القصة بمفاجأة لطيفة، ولكنها تمثل انتصار الروتين الأجوف على محاولات التجديد] .

المحرر

اشترى السيد مارتن علبة سجائر من ماركة الجمل ليلة الاثنين من أحد أشد محلات السجائر ازدحاماً في برودواي. كان موعد بدء العرض المسرحي قد حان وكان هناك سبعة أو ثمانية رجال يشترون السجائر. ولم ينظر موظف المحل الى

---

(١) طائر أمريكي مغرد .

السيد مارتن الذي وضع العلبة في جيب معطفه الخارجي وخرج. ولو كان أي واحد من موظفي شركة إف وَ إس قد رآه يشتري السجائر لذهل، إذ كان معروفاً لدي العموم أن السيد مارتن لا يدخن. ولم يكن قد دخن أبداً. لم يره أحد.

انقضى أسبوع واحد فقط منذ اليوم الذي كان فيه السيد مارتن قد قرر أن يمسح السيدة ألجين باروز. كانت كلمة «يمسح» قد بعثت في نفسه السرور لأنها لم توحي بأكثر من تصحيح غلطة ـ وفي هذه الحالة كانت غلطة السيد فيتوايلر. كان السيد مارتن قد أمضى كل ليلة من ليالي الأسبوع السابق وهو يعد خطته ويتفحصها. وفيما هو الآن يتوجه الى البيت راجعها مرة أخرى. وللمرة المائة كان قد امتعض من عنصر عدم الدقة، هامش التخمين الذي دخل في المسألة. فالمشروع كما كان قد أعده عرضي وجريء والمخاطر كبيرة. وكان يمكن أن يحدث خطأ ما في مكان ما خلال العملية. وهنا يكمن الدهاء في الخطة. فلن يتمكن أحد أبداً من رؤية يد إدوين مارتن الحذرة المتأنية، ومدير دائرة الملفات في محلات إف وَ إس، والذي كان السيد فيتوايلر قد قال عنه مرة: «الإنسان معرض للخطأ أما مارتن فلا». لذا فلن يرى أحد معالم يده إلا إذا تم القبض عليه متلبساً.

وبينما كان السيد مارتن يجلس في شقته ويشرب كأساً من الحليب، راجع قضيته ضد السيدة ألجين باروز، مثلما كان قد فعل كل ليلة على مدى سبع ليالي. وابتدأ من البداية. كان صوتها الذي يشبه صوت البطة وضحكتها التي تشبه النهيق قد دنّسا قاعات الشركة أول مرة في السابع من شهر آذار عام ١٩٤١ (كان السيد مارتن يتمتع بذاكرة قوية لحفظ التواريخ). كان العجوز روبرتس رئيس قسم شؤون الموظفين قد قدمها على أنها المستشارة الخاصة، التي تم تعيينها حديثاً، لرئيس الشركة السيد فيتوايلر. كانت تلك المرأة قد أرعبت السيد مارتن على الفور، لكنه لم يظهر ذلك. مدّ لها يده الجافة يصافحها، وقد نظر اليها بتركيز جاد مبتسماً ابتسامة باهتة. قالت وهي تنظر الى الأوراق على مكتبه: «حسناً، هل تحاول أن تخرج عربة الثور من الحفرة؟» ولما تذكر السيد مارتن تلك اللحظة، وهو يشرب الحليب، تلوى قليلاً. يجب أن يبقي تفكيره منصباً على جرائمها كمستشارة خاصة وليس على هفواتها كشخص. وقد وجد ذلك صعباً، بالرغم من تقديمه اعتراضاً وقبول

اعتراضه (٢) . كانت أخطاء المرأة كامرأة تلح على تفكيره كشاهد عنيد. فمنذ عامين تقريباً كانت تضع له اللغم في القاعات، وفي المصعد وحتى في مكتبه الذي كانت تدخله من حين لآخر صاخبة كحصان السيرك . وكانت تصرخ باستمرار بأسئلتها السخيفة تلك التي توجهها اليه: «هل تحاول أن تخرج عربة الثور من الحفرة ؟ هل تحاول تمزيق رقعة البازيلاء؟ أتصرخ في برميل المطر؟ هل تنظف قاع برميل المخلل ؟ هل تجلس في مقعد طائر الكاتبرد ؟»

كان جوي هارت أحد مساعدي السيد مارتن، قد وضح ما تعنيه هذه البربرة. قال : «لابد أنها من مناصري فريق المراوغين، اذ أن ريد باربر يعلق على مباريات فريق المراوغين في الراديو وأنه يستخدم تلك العبارات التي تعلمها في الجنوب» . واستمر جوي في حديثه يوضح واحداً أو اثنين من التعبيرات . «تمزيق رقعة البازيلاء» تعني الانخراط في حالة هيجان شديد ، و «الجلوس في مقعد الكاتبرد» تعني احتلال مركز جيد. تخلص السيد مارتن من كل ذلك بجهد. لقد كان ذلك مزعجاً وكاد يشتت انتباهه، لكنه كان رجلاً قوي الشكيمة فلا ينساق للقتل لأشياء تافهة كهذه. وعندما انتقل الى التهم الهامة ضد السيدة باروز أحس بأنه كان محظوظاً لأنه تحملها جيداً . لقد حافظ دوماً على الظهور بمظهر خارجي يدل على التسامح المهذب. بل أن مساعدته الأخرى الآنسة بيرد قد قالت له يوماً : «إنني اعتقد أنك تحب تلك المرأة» . فاكتفى بالابتسام .

دقت مطرقة القاضي في مخيلة السيد مارتن واستؤنفت القضية. السيدة ألجين باروز متهمة بالقيام بمحاولات متعمدة ووقحة ومتواصلة لتحطيم كفاءة ونظام شركة إف وَ إس. وانه لمن المناسب والهام ان يتم استعراض ظهورها وصعودها للسلطة. لقد حصل السيد مارتن على القصة من الآنسة بيرد التي تبدو دائماً قادرة على العثور على الأشياء. وحسب روايتها، فإن السيدة باروز كانت قد قابلت السيد فيتوايلر في حفلة، حيث كانت قد أنقذته من معانقة رجل مخمور قوي البنية كان قد ظنه مدرب كرة قدم مشهور متقاعد من منطقة غرب البلاد الاوسط. إقتادته السيدة

(٢) اصطلاحات قضائية إذ يقدم المحامي أو المدعي العام اعتراضاً على سؤال أو عبارة ويعلن القاضي رفضها أو قبولها .

باروز الى أريكة وبطريقة ما مارست عليه سحرها المخيف . وقد استنتج السيد العجوز على الفور أن تلك المرأة ذات إنجازات فريدة، وأنها مؤهلة لأن تبعث كل الخير في نفسه وفي الشركة، وبعد ذلك بأسبوع كان قد أدخلها الشركة على أنها مستشارته الخاصة. وفي ذلك اليوم وجد الاضطراب موطىء قدم. وبعدها طُرد كل من الآنسة تايسون والسيد برنديج والسيد بارتليت . وبعد أن ارتدى السيد منستون قبعته وانسحب بكبرياء وأرسل استقالته فيما بعد بالبريد، فقد استجمع روبرتس العجوز جرأته وتحدث الى السيد فيتوايلر . وقد ذكر أن دائرة السيد منسون قد «تعطلت قليلاً» وأنه ربما يكون من الأفضل إستعادة النظام القديم فيها. وقد أكد السيد فيتوايلر رفضه لذلك . وقال إن له أعظم الثقة بأفكار السيدة باروز . «انهم بحاجة الى بعض التحسينات وهذا كل ما في الأمر . » وتخلى السيد روبرتس عن ذلك. وقد راجع السيد مارتن بالتفصيل كل التغيرات التي احدثتها السيدة باروز. كانت قد ابتدأت بتقطيع أطاريف بنية المؤسسة وهي الآن تضرب بمعولها أساس الشركة .

وصل السيد مارتن الآن في مراجعته الى عصر يوم الاثنين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٢ ـ أي قبل اسبوع فقط. في ذلك اليوم وفي الساعة الثالثة بعد الظهر اقتحمت السيدة باروز مكتبه. صاحت قائلة : «أتنظف قاع برميل المخلل ؟» نظر السيد مارتن اليها من تحت نظارته الخضراء ولم يقل شيئاً. ابتدأت تتجول في مكتبه وتستوعبه بعينيها الكبيرتين الجاحظتين. سألته فجأة : «هل أنت فعلاً بحاجة الى كل خزائن الملفات هذه ؟» قفز قلب السيد مارتن من مكانه. قال وقد حافظ على صوته متزناً : «كل واحد من هذه الملفات يلعب دوراً لا غنى عنه في نظام الشركة. » قالت تخاطبه بصوتها الذي يشبه النهيق : «حسناً ، لا تحاول إذاً أن تمزق رقعة من البازيلاء !» ثم توجهت نحو الباب. ومن هناك صاحت به: «بالتأكيد لديك الكثير من الخردة هنا !» ولم يكن لدى السيد مارتن شك بعد ذلك أن الأصابع كانت تتجه الآن الى دائرته العزيزة. كان معولها مشهراً، ومستعداً لتسديد الضربة الأولى. إنها لم تنزل بعد، فهو لم يتلق مذكرة زرقاء من السيد فيتوايلر المسحور، تحمل تعليمات هوجاء مستمدة من تلك المرأة الداعرة. لكن لم يكن لدى السيد مارتن أي شك بأن

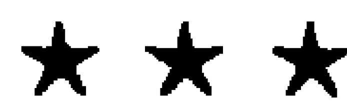
المذكـرة آتيـة . كـان عليـه أن يتصرف بسرعة . سبق وانقضى أسبوع لا يقدر بثمن. وقف السيـد مـارتن في غرفة الجلوس في بيته وهو لا يزال ممسكاً بكأس الحليب. قال محدثاً نفسه: «اعضاء هيئة المحلفين، إنني أطلب بإنزال عقوبة الإعدام بهذا الشخص الكريه» .

في اليـوم التـالي اتبع السيـد مـارتن روتينه المعتاد. نظف نظارته أكثر من المعتاد ثم برى قلمـه الذي كـان مبرياً. لكن حـتى الآنسة بيرد لم تلاحظ ذلك. كان قد لمح ضـحيته مرة واحدة فقط؛ إذ مرت بجانبه سريعاً في القاعة وقد حيّته متعالية قائلة : «مـرحبـاً !» عند السـاعـة الخـامسة والنصف ذهب الى بيته كالمعتاد، وكعادته شرب كأسـاً من الحليب. لم يكن قـد شرب شـيئاً أقوى من ذلك في حياته ـ إلا إذا اعتبرت الزنجبـيل. وكـان المرحـوم سـام شلوسر الشريك الثـاني في الشركة (والذي يشير إليه حـرف إس في إسـمـها) قد امتدح السيد مارتن، في أحد اجتماعات هيئة الشركة قبل عـدة سنوات لما يتـصف به من عـادات مـعتدلة، قائلاً : «إن أكفأ موظفينا لا يشرب الكحـول ولا يدخن والنتـائج تُعـبّـر عن نفـسها. » وكان السيد فيتوايلر يجلس بجواره وهو يهز برأسه موافقاً .

كـان السيـد مـارتن لا يزال يفكر في ذلك اليوم المشهود بينما كان يسير متوجهاً الى مـطعم شرافت في الشـارع الرئيسي الخـامس قـرب الشـارع السـادس والاربعين. وصل الى هناك كـعـادته دائماً في تمام السـاعـة الثـامنة. وكـعـادته أنهى عشاءه وقراءة الصـفـحـة المالية في جريدة «الشمس» عند الساعة التاسعة إلا ربعاً. وكان من عادته أن يتـمـشى بعد العشاء. وهذه المرة مشى في الشارع الرئيسي الخامس بسرعة عادية. شـعـر بأن يديه رطبتـان ودافئتان داخل القفاز. وأحس بالبرودة في جبهته. نقل علبة سـجـائر «الجـمل» من جيب معطفه الخارجي الى جيب جاكتته ولما فعل ذلك تساءل فـيما اذا كـانت السـجـائر تمثل دلالة لا ضرورة لها على التوتر. كانت السيدة باروز لا تدخن إلا سـجـائر من ماركة «لاكي» . وقد خطرت له فكرة أن يأخذ بضعة أنفاس من سـيـجـارة (بعـد أن يمحو السيدة باروز) ، ثم بعد ذلك يطفئها في المنفضة التي تحـوي سـجائرها التي انطبعت عليها آثار أحمر شفاهها. وهكذا يدخل عاملاً مضللاً

في الموقف. ربما لم تكن تلك فكرة جيـدة. إذ أنها تستغرق وقتاً. وقد يشرق بصوت عال .

لم يكن السيـد مارتن قد رأى يوماً البيت الذي تسكنه السيدة باروز في الطريق الثـاني عشر الغـربي، لكن كانت لديه صورة واضحة جداً عنه. ومن حسن الحظ أنها تبـاهت أمـام الجـميع بشقتها الجذابة في الطابق الأول في عمارة رائعة تتألف من ثلاثة طـوابـق مـن الـطـوب الأحمر . ليس هناك بوّاب أو أي حـارس ؛ ولا يوجـد سـوى المستأجـرين في الطابقين الثـاني والثالث. وفيما هو يسير نحو البيت أدرك أنه سيصل الى هـناك قـبل السـاعـة التـاسـعـة والنصف. فكر بالمسير شمالاً في الشـارع الرئيسي الخـامـس مـن مـطـعم شرافت الى نقطة يستطيع منهـا أن يصل الى البـيت السـاعـة العـاشرة. وفي تلك السـاعـة فإن احـتمال حـركـة الناس دخولاً وخروجاً يكون أقل. لكن ذلك التصرف سيكون عـقـدة غير مناسبـة في خط عفويته المستقيم، ولذا فقد تخلى عن الفكرة . وعلى أية حـال ، كـان يستـحيل مـعرفة متى سيدخل الناس أو يخرجـون من المنزل ، اذ كـانت المخـاطرة كبيرة في أية ساعة. ولو حدث وقابل أحداً مـا فإنه سيضع محو ألجين باروز في الملف المهمل الى الأبد. وسينطبق نفس الشيء فيما لو كـان أحـد ما في شقتها. وفي تلك اللحظة فإنه سيقول أنه كان ماراً بالجيرة فتعرف على منزلها الجـمـيل وفكر بزيارة قصيرة .



كـانت السـاعـة التـاسـعـة وثمانيـة عشرة دقيقة عندما انعطف السيد مارتن الى الشـارع الثـاني عشر. مـرّ بجانبه رجل، ثم رجل وإمرأة يتحدثان. لم يكن هناك أحد في مـدى خمسين خطوة عندمـا اقترب من المنزل عند منتـصف مجمـوعة المباني . صعد الأدراج ووصل الى الردهة الصـغيرة بسرعـة . ضـغط على الجـرس تحت بطاقـة كتب عليـهـا «السـيـدة ألجين باروز . » وعندمـا بدأت القـرقـعـة في القفل قفز الى الأمام مـصطدمـاً بالبـاب. دخل سريعـاً مـقـفـلاً الباب وراءه. كان هناك مصباح وضع في

مشكاة تتدلى من سقف القاعة بواسطة سلسلة ، كان يصدر منها ضوء لامع جداً . لم يكن هناك أي شخص على الدرج الذي كان يرتفع أمامه على امتداد الجدار الأيسر. انفتح باب أسفل القاعة في الجدار الأيمن. سار باتجاهه بخفة وعلى أطراف أصابعه.

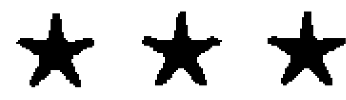
صاحت السيدة باروز قائلة : «ياالله ، انظروا من هنا!» وجلجلت ضحكتها التي تشبه النهيق كدوي انفجار . اندفع باتجاهها كلاعب هجوم في مباراة كرة قدم. وكان قد صدمها بقوة «ما هذا ، كف عن الدفع ! » قالت هذا وهي تغلق الباب خلفهما . كانا في غرفة معيشتها التي بدت للسيد مارتن وكأن مئات المصابيح قد أضاءتها. قالت: «ماذا بك، إنك مهتاج كعنزة». وجد أنه كان عاجزاً عن الكلام. وكان قلبه يئز في حلقه. وأخيراً استطاع أن ينطق قائلاً: «أنا ـ أجل» . كانت تثرثر وتضحك عندما ابتدأت تعاونه في نزع معطفه . قال : «كلا ، كلا ، سوف أضعه هنا.» نزع معطفه ووضعه على كرسي بجانب الباب. قالت: «إنزع قبعتك وقفازيك أيضاً. فأنت في منزل سيدة.» وضع قبعته فوق المعطف. بدت السيدة باروز أكبر مما كان يظن . بقي مرتدياً قفازاته . قال : «كنت ماراً بالجوار وقد أدركت ـ هل يوجد هنا أحد ؟» ضحكت ضحكة أعلى من كل ضحكاتها . قالت : «كلا . إننا لوحدنا . إنك شاحب كالورقة البيضاء. إنك رجل مضحك. ما الذي حل بك ؟ سوف أخلط لك تودي» (٣) . سارت نحو باب في الجهة المقابلة من الغرفة . «هل الويسكي والصودا يناسبك ؟ لكن أنت لا تشرب المسكرات ، أليس كذلك ؟ » استدارت ورمته بنظرتها الضاحكة. استرد السيد مارتن رباطة جأشه. سمع نفسه يقول : «ويسكي مع صودا مناسب.» استطاع أن يسمعها تضحك في المطبخ .

نظر السيد مارتن بسرعة في أرجاء غرفة المعيشة يبحث عن السلاح . . . كان قد اعتمد على أن يجد سلاحاً هناك. كان هناك منصب للنار وقضيب لإذكائها وشيء آخر كان يشبه عصا هندية. لم يكن أي منها يصلح لغايته. ولم تكن الأمور لتسير بتلك الطريقة. بدأ يذرع المكان. وجد مكتباً وكانت عليه سكين معدنية لفتح

---

(٣) شراب مسكر محلى يقدم ساخناً .

المغلفات مزخرفة المقبض. هل هي حادة بما فيه الكفاية ؟ مد يده اليها وأوقع مرطباناً نحاسياً صغيراً. تناثرت الطوابع منه وسقط على الارض محدثاً قعقعة. صاحت السيدة باروز من المطبخ قائلة : «هل تحاول أن تقشر رقعة البازيلاء ؟» ضحك السيد مارتن ضحكة غريبة. التقط السكين وجرّب رأسها على رسغه الأيسر فوجدها غير حادة. لن تصلح .



عندما ظهرت السيدة باروز من جديد تحمل كأسي شراب كبيرين ، والسيد مارتن يقف مرتدياً قفازاته أدرك بشكل مؤلم الوهم الذي كان قد صنع . سجائر في جيبه وشراب أعد له ـ كان الأمر غير محتمل بشكل فاضح، بل كان أكثر من ذلك؛ لقد كان مستحيلاً. وفي مكان ما في مؤخرة دماغه تحركت فكرة غامضة وبرعمت. قالت السيدة باروز : «بحق السماوات، انزع هذه القفازات.» قال السيد مارتن : «إنني دوماً أرتديها في البيت.» ابتدأت الفكرة تزهر ، غريبة ورائعة . وضعت الكؤوس على طاولة القهوة أمام الأريكة ثم جلست على تلك الأريكة. قالت : «تعال هنا أيها الرجل الصغير الغريب.» ذهب السيد مارتن وجلس الى جانبها. كان من الصعب إخراج السجائر من علبة «الجمل» ، لكنه تدبر الأمر . مدت له عود ثقاب وهي تضحك. قالت وهي تناوله الشراب : «حسناً ، هذا رائع جداً . أنت وكأس شراب وسيجارة.»

نفث السيد مارتن الدخان، دون ارتباك، وأخذ جرعة من الكأس. قال : «إنني دائماً أشرب وأدخن» وقرع كأسه بكأسها. قال وقد أخذ جرعة أخرى : «هذه مشكلة لذلك العجوز المتبجح فيتوايلر.» كان مذاق المشروب سيئاً ولكن لم يبد عليه أي اشمئزاز . قالت وقد تغير صوتها وجلستها : «الحقيقة يا سيد مارتن أنك تهين رب عملنا.» كانت السيدة باروز الآن بكليتها المستشارة الخاصة للرئيس. قال مارتن : «إنني أعد قنبلة ستنسف تلك الغنمة العجوز وتطيرها أعلى من

الجحيم.» لم يكن قد تناول إلا القليل من الشراب الذي لم يكن قوياً . لم يكن ذلك هو السبب. سألته السيدة باروز ببرود: «أتتناول المخدرات أو أي شيء من ذلك ؟» قال السيد مارتن : «الهيروين. ولسوف أكون مخدراً حتى أذني عندما أقتل ذلك الأبله العجوز.» صرخت به وقد نهضت واقفة : «يا سيد مارتن. لقد انتهى كل شيء ؛ يجب أن تذهب على الفور.» أخذ السيد مارتن جرعة أخرى من مشروبه . نفض سيجارته في المنفضة ووضع علبة السجائر على طاولة القهوة . ثم نهض . وقفت تحدق به. مشى ثم لبس قبعته ومعطفه. قال وقد وضع اصبعه على شفتيه : «لا تذكري شيئاً من هذا.» كل ما استطاعت أن ترد به السيدة باروز كان كلمة : «حقاً !» وضع السيد مارتن يده على مقبض الباب. قال : «إنني أجلس في مقعد الكاتبرد.» أخرج لسانه لها ثم انصرف. لم يره أحد يغادر .

وصل السيد مارتن الى شقته، سيراً على الأقدام، قبل الساعة الحادية عشرة. لم يره أحد يدخل. تناول كأسي حليب بعد أن نظف أسنانه، أحس بالزهو. لم يكن ذلك من أثر السكر، إذ لم يكن مخموراً. وعلى أية حال فإن المشي كان قد أزال كل آثار الويسكي. ذهب الى فراشه وقرأ مجلة برهة. ثم كان يغط في نومه قبل منتصف الليل .



في صباح اليوم التالي وصل السيد مارتن الى مكتبه في تمام الساعة الثامنة والنصف كالمعتاد. وفي تمام الساعة التاسعة إلا ربعاً دخلت ألجين باروز، وهي التي ما جاءت الى العمل قبل العاشرة أبداً، الى مكتبه . صاحت قائلة : «سوف أُبلّغ السيد فيتوايلر الآن ! وإذا قام بتسليمك للشرطة فما ذلك أكثر مما تستحق !» رمقها السيد مارتن بنظرة كلها ذهول ودهشة. قال : «ماذا قلتِ ؟» سخرت السيدة باروز واندفعت خارجة من الغرفة وقد تركت كلاً من الآنسة بيرد وجوي هارت يحملقان وراءها . سألت الآنسة بيرد : «ما شأن تلك الشيطانة العجوز الآن ؟» قال السيد مارتن وقد واصل عمله : «ليست لدي فكرة.» نظر الآخران اليه ثم نظر كل منهما الى الآخر. نهضت الآنسة بيرد وخرجت. مشت ببطء من أمام باب مكتب السيد

فيتوايلر المغلق. كانت السيدة باروز تصرخ في الداخل، لكنها لم تكن تنهق. لم تستطع الآنسة بيرد سماع ما كانت المرأة تقول. بعد ذلك رجعت الى مكتبها .

بعد خمس وأربعين دقيقة غادرت السيدة باروز مكتب الرئيس ثم دخلت الى مكتبها وأغلقت الباب. لم يستدع السيد فيتوايلر السيد مارتن قبل مرور نصف ساعة. وقف مدير دائرة الملفات أمام مكتب العجوز أنيقاً وهادئاً ومنتبهاً. كان السيد فيتوايلر شاحباً ومهتاجاً. خلع نظارته وأخذ يعبث بها. أخرج من حلقه صوتاً . قال : «يا مارتن مضى على وجودك معنا أكثر من عشرين سنة.» قال مارتن : «إثنتان وعشرون يا سيدي.» تابع الرئيس كلامه : «في تلك المدة، كان عملك و ـ و ـ سلوكك مثاليين.» قال السيد مارتن : «أرجو ذلك يا سيدي.» قال السيد فيتوايلر : «لقد عرفت أنك لم تشرب مسكراً أو تدخن أبداً.» قال مارتن : «ذلك صحيح يا سيدي.» قال السيد فيتوايلر وهو يلمع نظاراته : «أجل. هل لك أن تخبرني بما فعلت بعدما غادرت العمل يوم أمس يا مارتن.» لم يسمح السيد مارتن بمرور أكثر من ثانية على تردده المرتبك. قال : «بالتأكيد يا سيدي. سرت الى البيت. ثم ذهبت الى مطعم شرافت لتناول العشاء. بعد ذلك عدت للبيت مرة ثانية. وأويت الى الفراش باكراً، يا سيدي، وقرأت مجلة لبرهة. ونمت قبل الحادية عشرة.» قال السيد فيتوايلر مرة أخرى : «أجل.» ثم صمت للحظة يبحث في ذهنه عن كلمات ملائمة يوجهها الى مدير دائرة الملفات. وأخيراً قال : «السيدة باروز، لقد عملت السيدة باروز بجد، يا مارتن، بجد بالغ ويحزنني أن أقول أنها أصيبت بانهيار شديد. وقد اتخذ ذلك شكل عقدة الاضطهاد رافقتها هلوسات محزنة.» قال السيد مارتن : «إنني آسف جداً يا سيدي.» تابع السيد فيتوايلر حديثه قائلاً : «تتخيل السيدة باروز أنك زرتها ليلة البارحة وأنك تصرفت بطريقة ـ إيه ـ غير لائقة.» رفع السيد فيتوايلر يده ليسكت صرخة السيد مارتن الصغيرة المتألمة. وقال: «هذه هي طبيعة هذه الأمراض النفسية . التركيز على الجهة الأقل إحتمالاً والأكثر براءة على أنها ـ أنها مصدر الاضطهاد . وهذه الأمور لا يستوعبها ذهن الانسان العادي يا مارتن . لقد تحدثت للتو مع طبيبي النفسي على الهاتف الدكتور فيتش . بالطبع لم يلتزم بالجزم في ذلك ، ولكنه أطلق تعميمات تكفي لدعم

شكوكي. إقترحت على السيدة باروز عندما أنهت قصة هذا الصباح بأن تقوم بزيارة الدكتور فيتش. إذ أنني إشتبهت فوراً بحالة من تلك الحالات . وإنني أقول مستاء بأنها ثارت ثائرتها وطالبت ـ الـ ـ التمست أن أناديك وَأُوَبِخَكَ. وربما إنك لا تدري يا مارتن، ولكن السيدة باروز كانت قد خططت أن تعيد تنظيم دائرتك. وذلك خاضع لموافقتي بالطبع ، إنه خاضع لموافقتي . وقد جعلك ذلك تشغل تفكيرها، أنت نفسك وليس أي أحد غيرك ـ ولكنني أقول مرة أخرى بأن تلك ظاهرة تخص الدكتور فيتش ولا تخصنا . لذا فإنني أخشى يا مارتن بأن فائدة السيدة لنا هنا انتهت.» قال السيد مارتن : «إنني آسف لذلك جداً يا سيدي.»

في تلك اللحظة بالذات إنفتح الباب المؤدي الى المكتب على مصراعيه بفجائية إنفجار أنبوب غاز رئيسي واندفعت السيدة باروز منه. صاحت قائلة : «هل ينكر الجرذ الصغير ذلك؟ لا يمكنه أن ينجو من ذلك دون عقاب !» نهض السيد مارتن وتقدم بحرص الى نقطة بجانب مقعد السيد فيتوايلر. صاحت موجهة كلامها الى السيد مارتن : «أنت شربت ودخنت في شقتي. وأنت تعرف ذلك. ووصفت السيد فيتوايلر بالمتبجح. وقلت أنك ستنسفه بالكامل عندما تكون مخدراً بالهيروين حتى أذنيك !» توقفت عن الصراخ لتلتقط أنفاسها وظهر في عينيها الجاحظتين وميض جديد وقالت : «لو أنك لم تكن هذا الرجل الرتيب العادي الصغير لاعتقدت أنك خططت لذلك كله. لقد أخرجت لسانك وقلت أنك تجلس في مقعد الكاتبرد، لأنك اعتقدت أن لا أحداً سيصدقني عندما أخبر بذلك ! يا الهي، لقد كان ذلك كاملاً جداً !» نهقت بصوت عال وبهستيرية وسيطر الهياج عليها من جديد. حدقت تنظر الى السيد فيتوايلر : «ألا تستطيع أن ترى كيف خدعنا أيها العجوز الأبله ؟ ألا تستطيع أن ترى لعبته الصغيرة ؟» لكن السيد فيتوايلر كان يضغط سراً على كافة الأزرار الواقعة تحت سطح مكتبه وهكذا تدفق موظفو الشركة الى الغرفة. قال السيد فيتوايلر : «يا ستوكتون، ستأخذ أنت وفيشباين السيدة باروز الى منزلها. وستذهبين معهم أنت يا سيدة باول.» أوقف ستوكتون، الذي لعب كرة القدم قليلاً وهو في المرحلة الثانوية، السيدة باروز عندما هاجمت السيد مارتن. إقتضى إخراجها من الغرفة الى القاعة مجهود كل من ستوكتون وفيشباين معاً ؛

كانت القاعة تغص بكتاب الاختزال ومراسلي المكتب . كانت ما تزال تصب لعناتها على السيد مارتن ، لعنات متشابكة ومتناقضة . وفي النهاية هدأ الهرج والمرج في الممر .

قال السيد فيتوايلر : « إنني آسف لحدوث ذلك. إنني أطلب أن تصرف ذلك عن ذهنك يا مارتن. » «نعم يا سيدي؛ سأفعل ذلك،» قال مارتن وهو يتجه نحو الباب متوقعاً أن يقول رئيسه كالمعتاد «هذا هو كل ما في الأمر» . خرج وأغلق الباب ومشى بخطوات سريعة وخفيفة في القاعة. ولما دخل الى دائرته أبطأ مسيره ليصير كالمعتاد، وسار بهدوء عبر الغرفة الى القسم ٢٠ و وهو يتسم بنظرة كلها تركيز متعمد .

★ ★ ★

يـوجـيـن أونـيـل
(١٨٨٨ ـ ١٩٥٣)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

استطاع يوجين أونيل، الرجل المصاب بالسل، والذي أحاطه جو عائلي مشبع بالادمان على المورفين (امه) والمشروبات الكحولية (هو وأخوه) والمحاولات الانتحارية (ابنه) أن يفوز بجائزة نوبل ١٩٣٦ في أول مرة تعطى الجائزة فيها لكاتب مسرحي ، وان يكون أول من حصل على جائزة بوليتزر بعد وفاته . وهو بحق أول كاتب مسرحي جعل المسرحية الأمريكية نوعاً أدبياً جاداً له مكانته في الأدب الأمريكي .

حياته :

ولد يوجين أونيل في غرفة فندق في قلب منطقة المسارح في نيويورك : برودواي. كانت امه ترضعه في غرف تغيير الملابس، وكان أبوه من أشهر ممثلي المسرح في ذلك الحين. تلقى تعليمه في مدارس خاصة وعلى أيدي مدرسين خاصين. أما في جامعة برنستون فلم ترق له الدراسة الجامعية. ثم حاول أن يجرب حياة البحارة وقد ظهرت هذه التجربة الحياتية في عدد من شخوص ومواضيع مسرحياته فيما بعد. وعمل أيضاً في الصحافة . وجرب التنقل مع فرقة والده المسرحية. دخل المستشفى للعلاج من السل ثم أقام في مصحة حيث بدأ في قراءة المسرحيات الجديدة لابسن وسترندبيرج والمسرحيات اليونانية الكلاسيكية .

في جرينتش فيليج اصبح عضواً هاماً في فرقتين مسرحيتين طليعيتين ساهمتا كلتاهما في تأسيس الحركة المعروفة باسم «المسرح الصغير» (Little Theater) .

عـام ١٩٢٠ حصل علـى أول جائـزة بوليتـزر علـى مسـرحيـة **وراء الأفـق (Boyond the Horizon)** . وقد حصل على هذه الجائزة أربع مرات .

كـتب عـدداً كـبيراً من المسرحـيات نالت نجاحاً كبيراً وما يزال معظمها يمثل على المسارح في مختلف أنحاء العالم .

تزوج ثلاث مـرات وتوفي عام ١٩٥٣ .

أعماله وافكاره :

كـتب عـدداً كـبيراً من المسرحيات المنوعة من حيث مواضيعها وعوامل التجديد فيها . وهناك من يصنف مسرحـيـاته في أربع مجموعات : الواقعية وتمثلها **رغبة تحـت شجـر الـدردار Desire Under The Elms** ؛ والمسرحـيات التجريبيـة وتمثلهـا **الامبراطور جونـز The Emperor Jones** و **القرد الكثيـف الشعـر The Hairy Ape** ؛ والملهـاة وتمثلها **يـا للقفـر ! Ah ! Wilderness** ؛ ثم المسرحـيـات الطموحة الأخيرة **رحلة نـهـار طـويـل فـي الليل Long Day's Journey Into Night** .

والمديح الذي يكال لأونيل كـثير كما سـيـبـدو من الجـزء التالي المعنون « مساهمته وموقعـه في الأدب الأمـريكي » ولكن هناك انتـقـادات توجـه له : الاعتماد على الميلودراما الضحلـة السطحيـة ، وإطالـة مسرحـيـاتـه حـتى أصبح بعـضـهـا في طول الروايـات ، والتركيز على المـرض والشيخوخـة حـتى في مسرحيات كتبها قبل شيخوخته ، والمبالغة في الاستسلام للعاطفة والعجز عن فهم الطبقة الوسطـى من المجـتـمـع ، والاعتـماد على فـرويـد للظهـور بمظهر العمق الفكري ، والاعتماد على المسرحـيـات والأسـاطيـر اليـونانيـة للتأثيـر على قرائـه ومشـاهديه . ورغـم أن واحـدة أو اثنتين من هذه الانتـقـادات تكفي لإسقـاط أي كاتب من سجـل العظمـاء ، فإن شهـرة ومكانة أونيل لم تتأثرا بها أبداً .

مـن الضروري الإشـارة الى أن أونـيل تعلم فنون المسرح ومـهـاراته في المسرح نفـسـه بحكم كـون أبيـه ممثـلاً وبالاضافة الى ذلك فان ذلك حصل في فترة كان المسرح فيها يمر بمرحلة تجريبية . ولا يبـزه في هذا المضمار إلا شكسبير .

ان يوجين أونيل يعكس في طفـولتـه وشـبابه التعيسين الكثير من سمات هذا القرن : انعدام الايمان، وعـدم الانتماء، وشـعور جارف بالرغبة في الثورة .

مساهمته وموقعه في الأدب الأمريكي :

يجمع النقاد على أن أونيل هو الذي أحدث ثورة في المسرحية الأمريكية وجعلها نوعاً أدبياً جاداً ونفث فيها الحيوية وتبنى العديد من فنون التجديد في التقنية والمواضيع واللغة . فقد جدد في المواضيع وفي طرق معالجتها ، مثل الزواج بين أجناس مختلفة ، والجرائم العاطفية ، وتعدد الأزواج وسفاح القربى والإدمان. كما أنه عالج مواضيع عديدة جادة . وقد استفاد من تطورات علم النفس فأغنى فنه بذلك وبمعالجة حياة الوعي واللاوعي . كما أنه ذو مهارة خاصة في وضع بنية مسرحياته التي تكاد تكون عضوية احياناً. ومن تجديداته اهمال تقسيم المسرحية الى فصول ومشاهد، واستعمال الأقنعة والأشباح والجوقات، ومخاطبة الممثلين للمشاهدين مباشرة على طريقة شكسبير. وهناك من يعتبر أن أعظم انجازاته هو خلقه لغة مسرحية جديدة تعبر عن عدم امكانية الاتصال والتفاهم بين الناس. كما أن لغته المسرحية تعكس بحساسية بالغة اللغة العامية. ويقول أونيل انه شعر بأن الجانب الأكثر تعرضاً للاهمال من قبل النقاد هو كونه شاعراً حاول أن يطور من لغة التخاطب ايقاعاً جمالياً حيث يبدو أنه لا إيقاع جمالي .

رغبة تحت شجر الدردار (*)

[هذه واحدة من روائع يوجين أونيل. وقد كان استقبالها في بداية الأمر سلبياً من قبل المتفرجين والنقاد والسلطات ـ وذلك في منتصف العشرينات . ولكن في الخمسينات اعيد عرضها ولاقت نجاحاً كبيراً، وما تزال .

المسرحية تعتبر من الأدب الواقعي ولكن فيها تحليل عميق للأشخاص ودوافعهم السلوكية. كما ان فيها رموز عديدة مثل المزرعة (التي تمثل الحياة الجافة الصعبة في ظل العقيدة الطهرانية Puritanism) التي كانت منتشرة في نيو انجلند. وشجر الدردار الذي يعتبر مصدر حماية وسيطرة وتسلط. ولكن في ظل هذه الظروف تنمو رغبة جسدية شهوانية قوية ولكنها سرعان ما تتحول الى حب صاف يثمر ويستمتع بالجمال من حوله .

كما أن في المسرحية تجديد وهو وجود منظر متعدد الجوانب وقد استعمله أونيل ببراعة لكي يستطيع المشاهد رؤية ما يحدث في وقت واحد في مكانين مختلفين.

كما أن المسرحية تكتسب عمقاً باستعمالها لما يسمى في علم النفس بعقدة أوديب، وذلك بالعلاقة التي تنشأ ما بين آبي وايبن .

ومن الأمور التي تثيرها المسرحية نقد التهافت المادي الذي يسيطر على المجتمع الأمريكي. فإن هذا يؤدي الى دمار العلاقات الانسانية] .

المحرر

(*) أخذت هذه المسرحية من كتاب : **أربع مسرحيات من الادب الامريكي** ، ترجمة وتقديم د. عبدالله عبدالحافظ متولي ، مراجعة د. محمد سمير عبدالحميد ، صادرة عن وزارة الاعلام ـ الكويت ١٩٧٩ .

شخصيات المسرحية :

افرايم كابوت

سيمون
بيتر ⎬ أولاده
ايبن

آبي بوتنام

شابة ، فلاحان ، عازف على الكمان ، مأمور ، وأناس آخرون من المزارع المجاورة .

(تقع جميع أحداث المسرحية عام ١٨٥٠ داخل بيت مزرعة كابوت في نيو انجلند أو خارجه مباشرة. يقابل الحد القبلي للبيت حائط حجري في وسطه بوابة خشبية ويفضي الى طريق ريفي. البيت في حالة جيدة، وان كان في حاجة الى طلاء. حوائط البيت رمادية باهتة، كما بهت لون مصاريع النوافذ الاخضر. وعلى كل جانب من البيت توجد شجرتان ضخمتان من الدردار تحنيان اغصانهما المتدلية على السقف ـ كما لو انهما تحميانه وتسيطران عليه في نفس الوقت. وهناك أمومة شريرة في مظهر هذه الاشجار ، واندماج ساحق غيور. وعندما لا يحركها الريح، تكتسب من التصاقها الوثيق بحياة الناس في البيت طابعاً بشرياً رهيباً . وتجثم على البيت، كما لو أنها نساء مرهقات قد اسندن على سقفه اثداءهن المتهدلة ، وايديهن وشعرهن . وعندما تمطر السماء تنزل القطرات بشكل رتيب، وينتهي بها الحال الى العفن على خشب السقف .

وهناك ممر عتيد من البوابة حول الركن الأيمن من البيت الى الباب الأمامي. وعلى هذا الجانب توجد سقيفة ضيقة. وفي الحائط الذي يواجهنا نافذتان في الدور العلوي، ونافذتان اكبر حجماً في الدور الأرضي. وفي الدور العلوي توجد غرفة الأب، وغرفة نوم الاخوة، والى اليسار، في الدور الأرضي، يوجد المطبخ ـ والى اليمين، حجرة الجلوس، التي تبدو ستائرها مسدلة على الدوام) .

☆ ☆ ☆

الجـزء الأول

المنظر الأول

(خـارج بيت المزرعة . وقت الغروب في يوم من أيام أوائل صيف عام ١٨٥٠ . ليس هناك ريح ، وكل شيء سـاكن ، والسماء فـوق السقف تغمرها ألوان داكنة فتلمع خضرة شجر الدردار ، ولكن البيت يبدو غير واضح المعالم ، باهتاً ، ناحلاً، إذا ما قورن بما حوله .

يفـتح الباب، ويأتي ايبن كابوت الى نهاية سقيفة الباب وهو يقف ناظراً الى الطريق المتجه الى اليمين. في يده جرس كبير يلوح به بطريقة آلية، محدثاً صلصلة تصم الآذان. ثم يضع يديه على ردفـيـه ويحملق في السماء. يتنهد في حيرة وخشوع، صائحاً في اعجاب به شيء من التردد) .

ايبن : يا الهي ! يا للروعة !

(يغض بصره، ويحملق حـواليـه في عـبـوس. هو شـاب في الخامسة والعشرين من عمره، طويل القـامـة، مـفـتـول العـضـلات، وجـهـه جميل التقاطيع، وسيم، ولكن عليه سيما الامـتـعـاض والتـحـفـز للدفاع عن النفس. عيناه، بما فيهما من تحد، تذكران الواحد منا بحـيـوان مـتـوحش وقع في المصيدة. ان كل يوم عبارة عن قفص يجد نفسه فيه حبيساً، وان كـانت أعماق نفـسـه لم تقهر، فيه حيوية عنيفة مكبوتة. شعره اسود، وله شاربان، وأثر ضئيل من لحية مجعدة. انه يرتدي ملابس عمال الزراعة الخشنة .

يبصق على الأرض باشمئزاز عنيف. ثم يستدير ويعود الى داخل البيت .

يعـود سـيـمـون وبيتر من عـملهما في الحقول. إنهما طويلان وأكبر سناً من أخيهما غير الشـقيق (سيمون في التاسعة والثلاثين، وبيتر في السابعة والثلاثين) ، وإن كانا من ناحية الشكل الجـسماني ابسط وأعـرض، وأكـثـر بدانة وفي وجهيهما بساطة وبلادة، وان كانا اكـثـر حـصـافة وواقعية. أكتافهما منحنية بعض الشيء من جراء سني العمل في المزرعة. يسيران في خطى مـتـثـاقلة بأحـذية طويلة الرقـبـة، غير متينة الصنع، سميكة النعل قد التـصق بها الطين. وفي مـلابسـهما ، ووجهيهما، وأيديهما، وأذرعهما العارية، ورقبتيهما آثار الطين. ان رائحـة الارض تنبـعث منهما. يقـفـان سوياً برهة أمام المنزل، وكما لو أن

دافعاً يسيرهما، يحملقان في صمت نحو السماء متكئين على فأسيهما. على وجهيهما تعبير ينم على تصميم لا يتزعزع عندما يتطلعان الى السماء، تخف حدة هذا التعبير .

سيمون : (في حسرة) روعة .

بيتر : اي ـ اه .

سيمون : (فجأة) منذ ثمانية عشر عاماً .

بيتر : ماذا ؟

سيمون : جين. زوجتي. توفيت . . .

بيتر : لقد نسيت .

سيمون : انني أذكرها ـ من حين الى حين. ان هذه الذكرى تجعلني أشعر بالوحشة. لقد كان شعرها طويلاً كذيل الحصان، وأصفر كالذهب !

بيتر : ايه ـ لقد رحلت . (يقول هذا بشكل قاطع ودون تأثر ـ ثم بعد برهة يتابع حديثة) هناك ذهب، في الغرب، يا سيم .

سيمون : (لا يزال تحت تأثير الغروب ـ وفي لهجة مبهمة) في السماء ؟

بيتر : ايه، ان جاز لنا القول، ذلك ما وعدوا به . (يزداد انفعالاً) ذهب في السماء ـ في الغرب ـ البوابة الذهبية ـ كاليفورنيا ـ الغرب الذهبي ـ مناجم من الذهب !

سيمون : (منفعلاً بدوره) ثروات فوق سطح الأرض مباشرة تنتظر من يلتقطها ! كنوز الملك سليمان، كما يقولون ! (ينظران الى السماء لحظة . . . ثم يخفضان بصرهما) .

بيتر : (في مرارة وتهكم) وهنا . . . توجد أحجار فوق سطح الأرض . . . أحجار فوق أحجار . . . لاقامة أسوار حجرية . . . عاماً بعد عام وهو وأنت وأنا وايبن نقيم أسواراً حجرية لكي يحبسنا بداخلها !

سيمون : لقد اشتغلنا. لقد وهبنا قوتنا، وسني عمرنا في حرث هذه الأرض

(يضرب بقدمه في ثورة) . . . لقد أصابنا العفن . . . ونحن نعد التربة لمحاصيله ! (بعد برهة) على أية حال . . . ان المزرعة تساوي ثمناً حسناً بالنسبة لما حولها .

بيتر : لو أننا حرثنا في كاليفورنيا، لوجدنا كتلاً من الذهب بين خطوط المحراث . . .

سيمون : ان كاليفورنيا تكاد تقع في الجانب الآخر من العالم. وعلينا أن نفكر في حذر .

بيتر : (بعد فترة صمت) سيكون من الصعب علي، أيضاً، أن أتخلى عما كسبته هنا من عرق جبيني. (فترة صمت. يطل ايبن برأسه من نافذة غرفة المائدة، وهو ينصت اليهما) .

سيمون : اي ـ اه ! (فترة صمت) ربما . . . سيموت في القريب العاجل .

بيتر : (في شك) ربما .

سيمون : ومع هذا وعلى الرغم من كل ما تعرف، قد يكون ميتاً الآن .

بيتر : ينقصك الدليل . . .

سيمون : لقد رحل منذ شهرين . . . . ولا خبر عنه .

بيتر : لقد تركنا في الحقول في مساء كهذا . لقد أعد عدته واندفع بعربته نحو الغرب. انه لأمر غريب للغاية. انه لم يغادر مزرعته قط، اللهم اذا استثنينا ذهابه الى القرية . . . لم يغادر المزرعة . . . في ثلاثين عاماً أو يزيد، منذ زواجه من والدة ايبن (فترة صمت. ثم في خبث) اعتقد أنه في امكاننا أن نجعل المحكمة تعلن جنونه .

سيمون : لقد سلبهم أموالهم في مهارة فائقة، وتفوق على الجميع، فلن يصدقوا أنه صار مخبولاً . (فترة صمت) علينا أن ننتظر . . حتى يوارى التراب .

ايبن : (يقهقه في سخرية) احترم أباك ! (يلتفتان، في فزع، ويحملقان فيه. يبتسم ابتسامة عريضة، ثم يقول في عبوس) كم أتمنى موته ! (يحملقان فيه. ثم يستمر بلهجة من يقرر الواقع) ان العشاء جاهز .

سيمون وبيتر : (سوياً) حاضر .

ايبن : (يحملق في السماء) ان غروب الشمس جميل .

سيمون وبيتر : (سوياً) نعم. هناك ذهب في الغرب .

ايبن : أجل. (مشيراً) أتقصدان المراعي خلف قمة التل ؟

سيمون وبيتر : (سوياً) في كاليفورنيا .

ايبن : آه ؟ (يحملق فيهما بلا اكتراث لبرهة، ثم يقول في بطء) ايه . . . ان العشاء سيبرد. (يستدير عائداً الى المطبخ) .

سيمون : (ينتبه فجأة ـ ويمص شفتيه) انني جائع !

بيتر : (يشم) إنني أشم رائحة لحم الخنزير !

سيمون : (باستحسان الجائع) إن لحم الخنزير طيب !

بيتر : (بنفس اللهجة) ان لحم الخنزير هو لحم الخنزير !

(يستديران وقد تلاصق كتفاهما، واصطدم جسماهما واحتكا ببعض وهما يهرعان في ارتباك لتناول الطعام ، وكأنهما ثوران صديقان يسيران نحو وجبة عشائهما، ثم يختفيان في ركن البيت الأيمن، ويمكن سماع صوتهما، وهما يدخلان الباب) .

ستار

المنظر الثاني

(يفـيض لون السماء ويبـدأ الغـسق. وتبـدو الآن الاشـياء داخل المطبخ واضحة للعيان. يتـوسط المطبخ منضـدة من خـشب الصنوبر، ومـوقـد في أقصى الركن الأيمن، وأربعة كـراسي خـشـبـية ليست دقيقة الصنع. وعلى المنضدة شمعة مصنوعة من دهن الحيوان. ووسط الحـائط الخلفي قـد ثبت اعـلان كبير لسفينة مفروودة القلاع وكلمة «كاليفورنيا» مكتوبة عليه بحروف كبيرة. وتتدلى من مسامير على الحائط أدوات المطبخ. كل شيء مرتب وفي مكانه، وان كان الجو يوحي بمطبخ معسكر للرجال، أكثر منه جو بيت من البيوت .

هناك ثلاثة مـقـاعـد معدة. يأخذ ايبن بطاطس ولحم خنزير من على الموقد ويضعها على المنضـدة، كذلك رغيفاً وجرة ماء . يدخل سيمون وبيتر معاً، ويغوصان في مقعدهما دون أن يتـفـوها بكلمة. ثم ينضم ايبن اليهما. يجلس الثلاثة في سكون لحظة، وقد بدأ الاثنان الأكبر سناً منطلقين كما لو أنهما دابتـان من دواب الحقل، بينما كان ايبن يأكل على مهل، وبلا شهية، وهو يرمقهما بنظرات تنم عن كره محتمل) .

سـيمون : (يلتفت فجأة الى ايبن) اسمع ! لم يكن لك حق في أن تقول هذا، يا ايبن .

بيتر : لم يكن لك حق .

ايبن : ماذا ؟

سيمون : لقد تمنيت موته .

ايبن : ايه . . . الا تتمنيان ذلك ؟ (فترة صمت) .

بيتر : انه والدنا .

ايبن : (في عنف) انه ليس أبي !

سـيـمـون : (في جفاء) انت لا تسمح لأي شخص بأن يقول هذا عن أمك ! ها !

(فجأة يقهقه في سخرية. ويبتسم بيتر) .

ايبن : (شاحباً للغاية) انني قصدت أن أقول . . . إنني لست منه . . . إنني لا أشبهه . . . ولا يشبهني .

بيتر : (بجفاء) انتظر حتى تصبح في مثل سنه !

ايبن : (في حدة) انني ابن أمي . . . كل قطرة من دمي !

(فترة صمت . يحملقان فيه بقليل من الفضول) .

بيتر : (مسترجعاً الذكرى) لقد كانت طيبة معي ومع سيم. ومن النادر أن تجد زوجة أب طيبة مثلها .

سيمون : لقد كانت طيبة مع كل انسان .

ايبن : (يتأثر كثيراً ، فينهض وينحني في ارتباك لكل منهما . . . . ويتلعثم قائلاً) أشكركما. انني ابنها . . . وريثها .

(يجلس في ارتباك) .

بيتر : (بعد فترة صمت . . . في اتزان) لقد كانت طيبة حتى معه .

ايبن : (في عنف) وعرفاناً للجميل قتلها !

سيمون : (بعد فترة صمت) ليس هناك انسان يقتل انساناً آخر. هناك على الدوام شيء . . . هو الذي يقتل .

ايبن : ألم يستعبدها حتى الموت ؟

بيتر : لقد استعبد نفسه حتى الموت. لقد استعبدني وأستعبد سيم حتى الموت . . . لكن لم يمت أحد منا . . . . بعد .

سيمون : هناك شيء ما يدفعه . . . الى أن يدفعنا . . .

ايبن : (في حقد) حسن . . . انني اعتبره مسئولاً ! (ثم بازدراء) شيء ما ! ما هو هذا الشيء ؟

سيمون : لا أدري .

ايبن : (بسخرية مريرة) ما الذي يدفعك الى كاليفورنيا ؟ اذن ؟ (ينظران اليه في دهشة) أوه، لقد سمعت حديثكما ! (ثم بعد برهة) لكن لن تستطيعا الذهاب الى مناجم الذهب !

بيتر : (في اصرار) ربما !

ايبن : أين لكما بالمال ؟

بيتر : في استطاعتنا السير. انها مسافة طويلة جداً . . . الى كاليفورنيا . . . ولكن لو جمعنا الخطوات التي قطعناها في المزرعة لأوصلتنا الى القمر !

ايبن : ان الهنود في السهول سوف ينزعون فروتي رأسيكما .

سيمون : (في دعابة كالحة) اذا ما فقدنا شعرة واحدة فسنطالبهم بشعره مقابلها !

ايبن : (في حزم) ليس الأمر كذلك. لن تستطيعا الذهاب لأنكما ستبقيان هنا انتظاراً لأخذ نصيبكما من المزرعة، لأنكما تظنان دائماً بأنه سيموت عما قريب .

سيمون : (بعد فترة صمت) لنا حق فيها .

بيتر : يخصنا ثلثاها .

ايبن : (يهب واقفاً) ليس لكما أي حق ! لم تكن أمكما ! انها مزرعتها ! ألم يسلبها منها ؟ لقد ماتت ، وأصبحت المزرعة لي .

سيمون : (بسخرية وتهكم) قل هذا لوالدك . . . عندما يحضر ! أراهنك بدولار بأنه سيضحك . . . لأول مرة في حياته . ها ! (يضحك ضحكة واحدة أشبه بالنباح) .

بيتر : (مسروراً بدوره، ويحذو حذو أخيه) ها !

سيمون : (بعد فترة صمت) ما الذي تأخذه علينا، يا ايبن ؟ هناك شيء . . . يبدو في عينيك سنه بعد أخرى .

بيتر : نعم . صحيح .

ايبن : صحيح . هناك شيء ما . (ينفجر على حين غرة) لماذا لم تتدخلا بينه وبين والدتي عندما كان يستعبدها ويقودها الى حتفها . . . وذلك رداً ـ لمعاملتها الطيبة لكما ؟ (تمضي فترة صمت طويلة، ثم يحملقان فيه في دهشة) .

سيمون : ايه . . . هناك القطيع الذي لابد أن نسقية .

بيتر : وهناك خشب لا بد من قطعه .

سيمون : وهناك حرث الأرض .

بيتر : وجمع الدريس .

سيمون : ورش السماد .

بيتر : وقطع الحشائش .

سيمون : وتقليم الأشجار .

بيتر : وحلب الأبقار .

ايبن : (يقاطعهما في عنف) واقامة أسوار ـ حجر فوق حجر . . . ظللتما تقيمان الأسوار حتى أصبح قلباكما حجراً رفعتمانه من طريق النباتات الى سور حجري الى سور قلبيكما !

سيمون : (بلهجة واقعية) لم يكن لدينا وقت لنتدخل .

بيتر : (الى ايبن) لقد كنت في الخامسة عشر عندما ماتت والدتك . . . وكنت ضخماً بالنسبة لسنك . لماذا لم تفعل شيئاً ؟

ايبن : (في عنف) ألم يكن علي شغل البيت ؟ (فترة صمت، ثم يتحدث في بطء) بعد وفاتها فقط بدأت أفكر . لقد كان علي أن أطبخ . . . أقوم بعملها . . . ذلك جعلني أشعر بحالتها ، وأعاني ما عانته . . . وكأني بها قد عادت لتجديد العون ـ عادت لتكوم البطاطس . . . عادت لتحمر لحم الخنازير . . . عادت لتخبز البسكوت . . . عادت لتتلوى من الألم وهي تقلب النار وتحمل الرماد وعيناها تنهمر منهما الدموع وقد أصبحتا بلون الدم من أثر الدخان والرماد مثلما كانت دائماً . انها لا تزال تأتي الى هنا . . . تقف بجوار الموقد في المساء . . . ليس في استطاعتها

أن ترى أنه من الطبيعي أن تنام وترقد في سلام. ليس في استطاعتها أن تعتاد الحرية ... حتى في قبرها .

سيمون : انها لم تشكو من أي انسان .

ايبن : لقد اعتادت على الارهاق . لقد اعتادت على هذا الارهاق الشديد. هذا ما فعله بها . (بحقد وانفعال) سأتدخل ان عاجلاً أو آجلاً. سأقول له الأشياء التي لم أقلها له حينئذ. وسأقولها بأعلى صوتي. وسأعمل على أن تنال والدتي بعض الراحة في قبرها ! (يعاود الجلوس، وقد عاد الى حالة من الصمت الكئيب. ينظران اليه في شيء من الفضول الغريب) .

بيتر : (بعد فترة صمت) الى أين تظنه ذهب، يا سيم ؟

سيمون : لا أدري. لقد ساق عربته الجديدة تماماً بفرشها النظيف المتألق ... وهو يصيح ويلوح بسوطه . إنني أتذكر هذا جيداً. كنت أتم حرث الأرض، وكان الوقت ربيعاً، عند الغروب في يوم من أيام شهر مايو. وكان لون الغروب ذهبياً. وهو يتجه اليه. فصحت متساءلاً «الى أين أنت ذاهب يا والدي ؟» فتوقف لحظة بجانب السور الحجري. وكانت عيناه اللتان تشبهان عيني الثعبان تتلألآن في الشمس، كما لو أنه كان قد تجرع ملء قدح، وقال وهو يبتسم في بلاهة «لا تهربا حتى أعود» .

بيتر : يا ترى هل يعلم برغبتنا في الذهاب الى كاليفورنيا ؟

سيمون : ربما . انني لم أقل شيئاً، ولكنه تكلم وعلى وجهه امارات تدل على توعك المزاج والسقم : «لقد كنت أسمع قوقأة الدجاج، وصياح الديكة طول ذلك اليوم اللعين. ومكثت أصغي لخوار البقر وكل شيء آخر كان يضج بالشكوى، حتى انني لم أعد أقوى على احتمال أكثر من هذا. انه وقت الربيع، وأنا أشعر فيه بأنني هالك ... هالك كشجرة الجوز العتيقة العارية التي لا تصلح الا للحرق» . ثم، على ما اعتقد، لابد أنه قد بدا على وجهي شيء كبير من الأمل، لأنه أضاف في خبث وحيوية حقة : «لا تدخل في ذهنك أي أفكار سخيفة عن موتي. لقد أقسمت على أن أعيش حتى أبلغ المائة، وسأفعل، حتى ولو كان هذا مجرد نكاية من

شرهكما الأثيم ! والآن سأتوجه لأتلقى رسالة الله لي في الربيع، كما فعل الأنبياء من قبل. أما أنت فعد الى حرث الحقل . . . ثم انطلق بعربته وهو ينشد ترنيمة دينية. لقد ظننت أنه مخمور . . . والا لمنعته من الذهاب .

ايبن : (في ازدراء) لن تستطيع ذلك ! أنت تهابه ! انه أقوى . . . نفسياً . . . منكما معاً !

بيتر : (في تهكم) وأنت . . . . شمشون ؟

ايبن : انني ازداد قوة. في امكاني أن أشعر بقوتي . . . تزداد وتزداد . . . حتى تنفجر . . . ! ـ(ينهض ويرتدي معطفه وقبعته. يراقبانه، وبالتدريج يعلو وجهيهما الابتسام) . يتجنب ايبن نظراتهما في ارتباك «انني خارج للفسحة بعض الوقت ـ هناك عند نهاية الطريق» .

بيتر : الى القرية .

سيمون : لترى ميني !

ايبن : (في تحد) فعلاً !

بيتر : (في استهزاء) تلك العاهرة !

سيمون : ان الشهوة . . . . هي التي تزداد نمواً لديك !

ايبن : ايه . . . . انها جميلة !

بيتر : لقد كانت جميلة طوال العشرين سنة الماضية !

سيمون : ان طبقة جديدة من الطلاء تجعل منها صبية صغيرة لا سيدة في الأربعين .

ايبن : انها ليست في الأربعين من عمرها !

بيتر : اذا لم تكن قد بلغت الأربعين، فقد أشرفت عليها .

ايبن : (في يأس) وماذا تعرف . . . ؟

بيتر : الكل يعرفها . . . سيم يعرفها . . . وأنا عرفتها بعده . . .

سيمون : ويمكن لوالدي أن يقول لك شيئاً عنها، أيضاً، لقد كان هو أولنا!

ايبن : أتعني أنه . . . ؟

سيمون : (بابتسامة) نعم ! نحن ورثته في كل شيء .

ايبن : (في حدة) هذا يزيد من قوتي . . . يزيد من نموها حتى تنفجر عما قريب !

(ثم في عنف) سأحطم وجهها بقبضة يدي !

(يدفع الباب الخلفي بعنف، فيفتحه) .

سيمون : (يغمز لبيتر. ثم يقول في بطء) ربما . . . لكن الليل دافىء . . . جميل . . . وحينما تصل اليها. قد تقبلها بدلاً من ذلك !

بيتر : بالتأكيد سيفعل ذلك !

(ينفجر الاثنان بالضحك الفظ. يندفع ايبن الى الخارج ويقفل الباب بشدة . . . ثم يفتح الباب الخارجي . . . ويقبل نحو ركن المنزل ويقف ساكناً بجوار البوابة، يحملق في السماء) .

سيمون : (يلتفت اليه) مثل أبيه !

بيتر : صورة طبق الأصل !

سيمون : كلب سيأكل كلباً !

بيتر : فعلاً . (فترة صمت . . . ثم يقول في شوق) ربما بعد عام من الآن سنكون في كاليفورنيا .

سيمون : نعم . (فترة صمت. يتثاءب الاثنان) فلنذهب الى النوم (يطفىء الشمعة. يخرجان من الباب الخلفي. ويرفع ايبن يديه الى السماء . . . في ثورة) .

ايبن : ايه . . . هناك نجم، وهناك أبي في مكان ما، بينما أقف ها هنا، وهناك ميني عند نهاية الطريق . . . تجمعنا نفس الليلة. وماذا يحدث لو أني قبلتها ؟ انها كالليل . . . ناعمة، دافئة، وعيناها تتلألأ كالنجم، وفمها دافىء، وذراعاها

دافئتـان، ورائحتـهـا كرائحة الحقل المحروث، انها جميلة . . . آه ! بالله العظيم إنها جميلـة ! ولن أبالي اطلاقـاً بالخطايا التي ارتكبـتـهـا قـبلي، ولا مع من ارتكبت هذه الخطايا، فـخطيئتي رائعـة مـثل خطايا أي واحـد منهم ! (يسير بخطوات واسـعـة في الطريق الى اليسار) .

المنظر الثالث

(ظلام دامس قبل بزوغ الفجر مباشرة. يقبل ايبن من جهة اليسار ويستدير نحو الشرفة، وهو يتـحـسس طريقـه، يقـهقه في مرارة . يسب ويلعن بصوت مرتفع بعض الشيء وهو يحدث نفسه) .

ايبن : هذا البـخـيل العـجـوز اللعين ! (يمكن سماعـه وهو يدخل من الباب الخـارجي. تمر فترة صـمت عندما يصعد الدرج، ثم يسمع طرق عال على باب غرفة نوم الأخوين) استيقظا !

سيمون : (فزعاً) من هناك ؟

ايبن : (يدفع البـاب فـيـفـتحه ويدخل، وفي يده شمعة مضاءة. تبدو للعيان غـرفـة الأخـوين. سـقفها هو السقف المنحدر للبيت، فلا يمكنهما الوقوف منتصبين الا بالقـرب من الوسط حيث توجد الحائط التي تفصل بين الغرفة والطابق العلوي. ينام سـيـمون وبيتر في سرير واحد. أما سرير ايبن فالى الخلف. على وجه ايبن خليط من ابتـسامة بلهاء وتكشيرة خبيثة) انه أنا !

بيتر : (غاضباً) بحق الجحيم ماذا حدث . . . ؟

ايبن : لدي أخبار لكما ! (يطلق قهقهة ساخرة) .

سيمون : (غاضباً) ألم تستطع الانتظار حتى ننال قسطاً من النوم ؟

ايبن : لقـد أوشكت الشـمس على الشروق. (ثم منفعـلاً) لقـد ذهب وتزوج ثانية !

سيمون وبيتر : (بانفعال شديد) أبي !

ايبن : لقـد تزوج امـرأة في حوالي الخامسة والثلاثين. . . جميلة، كما يقولون .

سيمون : (في ذهول) انها كذبة لعينة !

بيتر : من قال هذا ؟

سيمون : انهم يهزأون منك !

ايبن : هل تعـتـقـدان أنني أبله ؟ ان كل القـرية تتـحـدث عن واعظ نيودوفر الـذي نقل هذه الأخبـار الى واعظ بلدتنا. ان نيـودوفـر هي المكان الذي تزوج فـيـه . . . وهي البلدة التي تقيم فيها هذه المرأة .

بيتر : (لم يعد يراوده شك بعد هذا . . . ثم في ذهول) ايه . . . ؟

سيمون : (في نفس النغمة) ايه . . . !

ايبن : (يجلس على سريره . . . ويقـول في مقت شديد) أليس هو شيطان قد خرج من الجحيم ؟ انه يفعل هذا نكاية فينا . . . هذا العجوز الأبله العنيد !

بيتر : (بعد فترة صمت) كل شيء سيؤول اليها .

سـيـمون : فعلاً . (بعد فترة صمت . . . يقول في فتور) حسن . ، . . . إذا حدث هذا . . .

بيتر : لقـد خدعنا . (بعد فترة صمت . . . ثم في لهجة اقناع) هناك ذهب في مناجم كاليفورنيا، يا سيم. لا فائدة من البقاء هنا، الآن .

سـيمون : هذا ما كنت أفكر فيه (ثم في عزم) خير البر عاجله ! فلنرحل أول شيء في الصباح !

بيتر : موافق .

ايبن : لابد أنكما تحبان المشي .

سيمون : (في سخرية) لو أنك منحتنا أجنحة لطرنا الى هناك !

ايبن : ركـوب السفينة أفضل . . . أليس كذلك ؟

(يبـحث في جيـبه ويخرج منه فـرخ ورق مكرمش) لو أنكما وقـعتما على هذه الورقـة لأمكنكما السـفـر بالسـفـينة، لقـد كـتبت هذه الورقة وأعددتها في حالة اذا ما رغبـتما في الرحيل. انها تنص على أنه في مـقـابل ثلاثمائة دولار يوافق كل منكما على بيع نصـيبه من المزرعة لي. (ينظران الى الورقة في ريبة. وبعد فترة صمت) .

سـيمون : (متسائلاً) ولكن لو كان قد تزوج ثانية . . .

بيتر : ومن أين لك بهذه النقود، على أية حال ؟

ايبن : (في دهاء) أعـرف المكان المخـبأة فـيـه. لقـد ظللت أنتظر . . . لقد ـ أخبرتني والدتي بمكانها. كـانت تعـرف مكانها لسنوات طويلة، ولكنها كانت تنتظر. ان هذه النقـود ملكهـا . . . انها النقـود التي ادخرها من مزرعتها وأخفاها عنها. إنها ملكي الآن ، بما لي من حقوق .

بيتر : أين تخفيها ؟

ايبن : (في دهاء) لن تجـد مكانها دون مـساعدتي. لقد كانت والدتي تتجسس عليـه. . . والا لما عرفت مكانها . (فترة صمت) ينظران اليه في ريبة، كما ينظر اليهما في ريبة كذلك) حسن، هل توافقان على الصفقة ؟

سيمون : لا أدري .

بيتر : لا أدري .

سيمون : (ينظر الى النافذة) ان نور الفجر قد بدا في السماء .

بيتر : يحسن يا ايبن أن تشعل النار .

سيمون : وتعد بعض الطعام .

ايبن : حـاضر (ثم ببـهـجة متكلفة) سأعد لكما طعاماً طيباً. اذا كنتما تزمعان السير الى كـاليفورنيا فيلزمكما طعاماً يشد من أزركما .

(يستدير نحو الباب، وهو يستطرد بلهجة ذات معنى) ولكن في امكانكما السفر بالسفينة، اذا ما وافقتما على هذه الصفقة .

(يقف عند الباب في تردد، ثم يحملقان فيه) .

سيمون : (في ريبة) أين كنت طوال الليل ؟

ايبن : (في تحد) عند «ميني» ! (ثم ببطء) عند ذهابي اليها شعرت برغبة في تقبيلها، ثم أخذت أفكر فيما قاله كل منكما عنها، وما قلته أنا من أنني سأكسر أنفها! ثم عندما وصلت الى القرية وسمعت الأخبار جن جنوني، وجريت طوال الطريق حتى وصلت الى «ميني» وأنا في حيرة لا أدري ماذا أفعل . . . (يتوقف برهة . . . ثم في ارتباك، ولكن في تحد أكثر) حسن . . . عندما رأيتها . . . لم أضربها . . . ولم أقبلها كذلك . . . وأخذت أخور كالعجل وأسب وألعن في الوقت نفسه . . . لقد جن جنوني . . . لدرجة أنها شعرت بالفزع . . . ثم جذبتها الي وضاجعتها (بفخر) نعم ، يا سادة ، لقد ضاجعتها . ربما كانت ملكاً له . . . وملكك أيضاً . . . ولكنها الآن ملكي أنا !

سيمون : (في جفاء) هل أنت تحبها ؟

ايبن : (بازدراء شديد) حب ! انني لا أبالي بمثل هذه الترهات !

بيتر : (يغمز لسيمون) ربما ايبن يريد الزواج هو الآخر ؟

سيمون : ستكون «ميني» مخلصة . . . للجميع !

(يضحكان ضحكة شبه مكتومة)

ايبن : وما يهمني من أمرها الآن . . . سوى قوامها الملفوف الدافيء. ان المسألة أنها كانت ملكه . . . والآن اصبحت ملكي أنا !

(يتجه الى الباب . . . ثم يستدير . . . ويقول في ثورة) لم تكن «ميني» امرأة سيئة. أؤكد لكما أن هناك نساء أسوأ منها في هذا العالم ! فلننتظر لنرى هذه البقرة التي تزوجها هذا الرجل العجوز ! يراودني احساس بأنها تتفوق على «ميني» (يهم بالخروج) .

سيمون : (فجأة) ربما تحاول أن تمتلكها، أيضاً ؟

بيتر : ها ! (يطلق ضحكة ساخرة وقد اعجبته الفكرة) .

ايبن : (يبصق في اشمئزاز) هي . . . هنا . . . تشاركه الفراش . . . وتسرق مزرعة أمي ! لأهون علي أن أدلل ظرباناً، وأقبل ثعباناً !! (يخرج . يحملق فيه الاثنان في ريبة. فترة صمت. ينصتان الى وقع أقدامه وهي تنحسر شيئاً فشيئاً) .

بيتر : لقد بدأ أشعال النار .

سيمون : أود أن أركب الى كاليفورنيا . . . ولكن . . . .

بيتر : ربما أوحت له «ميني» بخطة ما .

سيمون : وربما كان كل ما يقال عن زواج أبي كذباً. من الأفضل أن ننتظر ونرى العروس .

بيتر : ولن نوقع على أي ورقة حتى نراها . . .

سيمون : وليس قبل التأكد من أن الثمن مناسب (ثم بابتسامة) ولكن اذا كان والدي قد تزوج ، فاننا نبيع ايبن شيئاً لن نحصل عليه ، بأي حال من الأحوال!

بيتر : لننتظر ونرى . (ثم في غضب حقود مفاجىء) وحتى يعود، دعنا لا نعمل شيئاً. دع ايبن يهتم بالأمور اذا كان هذا يوافقه، ودعنا ننام ونشرب، ولتذهب المزرعة الى الجحيم .

سيمون : (في انفعال) والله، اننا نستحق بعض الراحة ! دعنا نلعب دور الأغنياء، على سبيل التغيير، ولن أتحرك عن السرير حتى يتم اعداد طعام الافطار !

بيتر : ويوضع على المائدة !

سيمون : (وبعد فترة صمت . . . يقول وقد سرح فكره) ماذا تظن سيكون شكل . . . أمنا الجديدة ؟ أتعتقد أنها كما يتخيل ايبن ؟

بيتر : من المحتمل جداً .

سيمون : (في حقد) ايه . . . أتمنى ان تكون شيطانة حتى تجعله يتمنى الموت والعيش في قرار الجحيم، حتى يرتاح منها.

بيتر : (في حماسة) آمين !

سيمون : (مقلداً صوت أبيه) ، «انني متوجه لأتلقى رسالة الله لي في فصل الربيع، كما فعل الأنبياء من قبل» هكذا قال. وأؤكد لك أنه كان يدرك تماماً أنه ذاهب ليمارس العهر، ذلك المنافق العجوز النتن !

المنظر الرابع

(نفس مشهد المنظر الثاني ـ داخل المطبخ ، وهناك منضدة عليها شمعة مضاءة نور الفجر الرمادي يبدو في الخارج .

سيمون وبيتر على وشك الانتهاء من طعام الافطار. أما ايبن فيجلس عابساً وهو مطرق مفكر، ولم يمس الطعام الذي في الصحن أمامه) .

بيتر : (يرمقه بنظرة ويقول في غيظ) لا فائدة من الاكتئاب .

سيمون : (متهكماً) انه نادم على انغماسه في شهوة الجسد .

بيتر : (بابتسامة فاترة) أهي أول امرأة عرفتها ؟

ايبن : (في غضب) ليس هذا من شأنك. (فترة صمت) كنت أفكر فيه. انني أشعر بأنه يقترب من هنا . . . انني أشعر بمقدمه كما لو أنك تشعر برعشة الملاريا قبل أن تصيبك .

بيتر : الوقت مبكر جداً لعودته .

سيمون : لا أدري. ولا أحب أن يأخذنا على غرة ونحن نيام . . . حتى يجد عذراً ليوجه اللوم لنا .

بيتر : (ينهض بطريقة آلية. ويفعل سيمون نفس الشيء) إيه . . . الى العمل إذن .

(يمشيان بخطى متثاقلة نحو الباب بطريقة آلية لاشعورية. ثم يتوقفان) .

سيمون : (بابتسامة فاترة) أنت أبله ملعون، يا «بيت» . . . وأنا مثلك ! دعه يرانا ونحن لا نعمل ! إننا لا نبالي به اطلاقاً !

بيتر : (وهما عائدان الى المائدة) إننا لا نبالي به اطلاقاً ! إنه من المفيد أن نريه أن كل ما بيننا وبينه قد انتهى، (يعاودان الجلوس. يحملق ايبن فيهما في دهشة) .

سيمون : (يبتسم له) نحن نريد أن نكون بشائر زهور زنبق الحقل .

بيتر : ولن نضع أيدينا في أي عمل أو فتل حبال ولن نبذل أي مجهود !

سيمون : أنت المالك الوحيد . . . حتى يعود . . . هذا ما كنت تريده. إيه، وعليك أن تكون كذلك العامل الوحيد .

بيتر : ان البقر تخور . يحسن أن نهرع لحلبها !

ايبن : (بانفعال وفرح) أتعني أنكما ستوقعان على العقد ؟

سيمون : (في جفاء) ربما .

بيتر : ربما .

سيمون : اننا نفكر في الأمر (في حزم) يحسن أن نهتم بالعمل .

ايبن : (بانفعال غريب) أنها مزرعة والدتي! انها مزرعتي! وهذه هي أبقاري! سأحلب الأبقار حتى تتقطع أصابعي، لأنها أبقاري !

(يخرج من الباب الخلفي، ويحملقان فيه دون اكتراث) .

سيمون : مثل أبيه .

بيتر : صورة طبق الأصل !

سيمون : ايه . . . دع كلباً يأكل الكلب الآخر !

(يخرج ايبن من البـاب الخـارجي، ويأتي الى ركن البيت. قد بدأت السماء تتوهج بشروق الشـمس. يتـوقف ايبن عند البـوابة ويحملق حواليه بعيون بها بريق لامع وتنم على حب التملك. ان نظراته التي تنم عن التملك تحتوي المزرعة كلها).

ايبن : انها مـزرعـة جميلة ! جميلة للغـاية! انها ملكي ! (فـجأة يدفع برأسه الى الوراء في جـرأة، ويتـوهج وهو ينظر الى السماء نظرة تحـد صارمة) . انها ملكي، هل تسـمعين ؟ ملكي ! (يستدير ويسير بسرعة جهة اليسار نحو مؤخرة المسرح الى شونة الغـلال. يشعل الأخوان غليونيهما .)

سـيـمـون : (يضع حذاءه الملطخ بالطين على المنضدة، وهو يميل بكرسيه الى الوراء، ـ وينفث في غليـونه في تحـد) ايه . . . هذه هي الراحة الحقيقية . . . . لأول مرة في حياتي .

بيتر : فـعـلاً . (يحذو حـذو أخـيـه . فترة صـمـت قـصيرة ، لاشعورياً يتنهد الاثنان) .

سـيـمـون : (فجأة) لم يكن أبداً ماهراً في حلب الأبقار، ايبن لم يكن ماهراً في حلب الأبقار .

بيتر : (وهو يزمجر) ان يديه كـالحـوافر (فترة صمت) .

سـيـمـون : انزل القـارورة التي هناك، دعنا نتناول جـرعة. انني أشعر بتوعك مزاجي .

بيتر : فكرة طيـبة ! (ينفذ ما طلب أخوه . . . ويحضر كوبين . . . ثم يصبان جرعات من الويسكي) لنشرب نخب ذهب كاليفورنيا !

سـيـمـون : ونخب التـوفيق في الحصول عليه ! (يشربان . . . ينفثان الدخان بثبات . . . يتنهدان . . . ثم يزيحان اقدامهما من فوق المنضدة) .

بيتر : لا يبدو أن هذا الشراب من نوع جيد .

سـيـمـون : إننا لم نعـتـد الشراب في هذه السـاعـة المبكرة. (فترة صمت يبدو عليهما القلق) .

بيتر : إن جو المطبخ خانق .

سيمون : (وقد شعر بارتياح كبير) دعنا نخرج لنستنشق بعض الهواء .

(ينهضان في خفة ونشاط ويتجهان نحو مؤخرة المسرح ـ ثم يظهران وهما يتجهان حول المنزل ، ثم يتوقفان عند البوابة . يحملقان في السماء في اعجاب صامت) .

بيتر : رائعة !

سيمون : ان الذهب في الشرق الآن .

بيتر : وستتوجه الشمس معنا نحو الغرب الذهبي .

سيمون : (يحملق فيما حواليه من المزرعة، وهو منقبض الوجه ، وغير قادر على اخفاء مشاعره) ايه . . . ربما كان هذا آخر صباح لنا ـ هنا .

بيتر : (بنفس اللهجة) صحيح .

سيمون : (يضرب الأرض بقدميه ويوجه الكلام اليها في يأس) هيه . . . ثلاثون عاماً من عمري دفنتها فيك . . . انتشرت فوقك دماً وعظاماً وعرقاً . . . وقد تعفن . . . ليبعث فيك الخصوبة . . . ويغذي تربتك . . . بأول سماد . هذا، بالله، ما كنته بالنسبة اليك !

بيتر : نعم ! وأنا كذلك !

سيمون : وأنت أيضاً، يا بيتر . (يتنهد . . . ثم يبصق) هيه . . . لا داعي للبكاء على اللبن المسكوب .

بيتر : هناك ذهب في الغرب . . . وربما نجد حرية أيضاً. لقد كنا هنا عبيداً داخل أسوار حجرية .

سيمون : (في تحد) من الآن فصاعداً لن نكون عبيداً لأحد . . . ولن يستعبدني أي شيء (فترة صمت . . . ثم في قلق) ان الحديث عن اللبن يذكرني بايبن، وهل يا ترى تمكن من أداء المهمة ؟

بيتر : أعتقد أنه تمكن من ذلك .

سيمون : ربما كان من الواجب مساعدته . . . هذه المرة .

بيتر : ربما. ان البقر يألفنا .

سيمون : ويحبنا ، انها لا تعرفه جيداً .

بيتر : وكـذلك الخيل، والخنازير والدجاج. انها لا تعرفه جيداً .

سيمون : أنها تألفنا كأخوتها . . . وتحبنا ! (في مباهاة) ألم نقم بتربيتها بطريقة ممتازة، حتى نالت الجائزة الأولى بين المواشي ؟

بيتر : ولكن لم نعد نقبل هذا . . . ولن نكون بعد الآن .

سيمون : (في فتور) لقد نسيت (في استسلام) حسن، لنذهب لمساعدة ايبن قليلاً، ولنترك هذا الوخم .

بيتر : موافق .

(يهمان بالسير الى اليسار ، نحو مؤخرة المسرح، تجاه شونة الغلال عندما يظهر ايبن قادماً من هناك وهو يهرول نحوهما، ووجهه منفعل) .

ايبن : (لاهثاً) ايه . . . ها قد أقبلا ! البغل العجوز وعروسه ! لقد رأيتهما من الشونة هناك عند المنحنى .

بيتر : وكيف أمكنك معرفتهما على هذا البعد ؟

ايبن : ألست طويل النظر بقدر ما هو قصير النظر ؟ ألا أعرف الفرس والعربة واثنين جالسين فيها ؟ من يكونا غيرهما ثم إني استطيع القول بأنني أشم رائحة قدومهما، ايضاً ! (يتلوى وكأنه مصاب بالجرب) .

بيتر : (وقد بدأ يشعر بالغضب) ايه . . . دعه يفك الفرس بنفسه !

سيمون : (وقد بدأ يشعر بالغضب ايضاً) دعنا نسرع باحضار حاجياتنا ونخرج عندما يدخل. إنني لا أريد أن أدخل هذا البيت بعد عودته .

(يهم الاثنان بالاتجاه الى الخلف عند ركن المنزل، ويتبعهما ايبن) .

ايبن : (في لهفة) هل ستوقعان على العقد قبل رحيلكما ؟

بيتر : دعنا نرى نقود ذاك العجوز البخيل، قبل أن نوقع. (يختفيان جهة اليسار. يهرول الأخوان الى الطابق العلوي لاحضار حاجياتهما. يظهر ايبن في المطبخ، يجري نحو النافذة، وينظر منها ليتأكد من أن أحداً لا يراه، ثم يعود وينزع لوحاً من الأرضية تحت الموقد ويخرج حقيبة من قماش القنب ، ويضعها على المنضدة، ثم يعيد اللوح الى مكانه. بعد لحظة يظهر الأخوان، يحملان حقيبتين من قماش السجاد القديم) .

ايبن : (يضع يده، على الحقيبة في تحفظ) هل وقعتما العقد ؟

سيمون : (يبرز الورقة في يده) نعم. (في شراهة) هل هذه هي النقود ؟

ايبن : (يفتح الحقيبة ويفرغ كومة من النقود الذهبية من فئة العشرين دولاراً).

قطع من فئة العشرين دولاراً . . . ثلاثون قطعة ، قوما بعدها (هيا !) يعد بيتر القطع ، ويرتبها في رصات من خمس قطع ، ويعض واحدة أو اثنتين ليختبرها) .

بيتر : ستمائة (يضعها في الحقيبة التي يضعها داخل قميصه في حرص) .

سيمون : (يسلم العقد الى ايبن) هاك ورقة العقد .

ايبن : (بعد القاء نظرة عليها. يثنيها بعناية ويخفيها تحت قميصه ويقول في امتنان) شكراً لكما .

بيتر : وشكراً لك على أجرة الركوب .

سيمون : سنرسل لك قطعة من الذهب هدية عيد الميلاد. (فترة صمت. يحملقان فيه، كما يحملق فيهما) .

بيتر : (في ارتباك) ايه . . . نحن ذاهبان .

سيمون : هل ستخرج الى الفناء ؟

ايبن : كلا . سأنتظر هنا بعض الوقت . (فترة صمت أخرى، يتقدم الأخوان . . . في ارتباك وشيئاً فشيئاً نحو الباب، الخلفي . . . ثم يستديران ويتوقفان) .

بيتر : وداعاً .

ايبن : وداعاً .

(يخرجان، ويجلس ايبن الى المائدة، مواجهاً الموقد ، ثم يخرج العقد . ينتقل بصره من العقد الى الموقد . وعلى وجهه الذي أضاءه شعاع الشمس الداخل من النافذة تعبير ينم عن النشوة . تتحرك شفتاه . ويقبل الأخوان نحو الباب الخارجي) .

بيتر : (ينظر نحو الحظيرة) انه هو . . . يفك لجام فرسه .

سيمون : (يقهقه) أؤكد لك أنه غاضب !

بيتر : وها هي هناك .

سيمون : لننتظر لنرى شكل أمنا الجديدة .

بيتر : (بابتسامة فاترة) ولنودعه بلعناتنا !

سيمون : (مبتسماً) أشعر وكأنني أريد أن أبعث روح المرح. وأشعر بخفة في قدمي ونشوة في رأسي .

بيتر : وأنا كذلك. أشعر وكأنني أريد أن أضحك حتى أنفجر نصفين .

سيمون : أعتقد أن هذا بسبب الشراب ؟

بيتر : كلا. ان قدماي تتوقان الى السير بعيداً بعيداً . . . والقفز فوق الأشياء العالية و . . .

سيمون : والرقص ؟ (فترة صمت) .

بيتر : (متحيراً) انه لشيء غريب للغاية .

سيمون : (وشعاع من الضوء على وجهه) أعتقد أن ذلك يعود الى أن المدرسة أغلقت أبوابها. نحن في عطلة. ولأول مرة نشعر بأننا أحرار !

بيتر : (مذهولاً) أحرار ؟

سيمون : لقد تحطم الرسن... وانكسر العنان... وانثنت قضبان السور.. وهوت وتقوضت الحوائط الحجرية. سوف ننطلق الى الطريق لا نلوي على شيء !

بيتر : (يأخذ نفساً عميقاً ... ثم بلهجة خطابية) من يريد هذه المزرعة، هذه الكومة من الأحجار العتيقة النتنه، فليتقدم. انها لم تعد ملكنا، أيها السادة !

سيمون : (ينزع البوابة من مفصلاتها ويضعها تحت ذراعه) وبهذا نلغي البوابات المغلقة، والبوابات المفتوحة، وكل البوابات، بحق الرعد !

بيتر : لنأخذ هذه البوابة من باب الفأل الحسن، ثم نلقيها في أحد الأنهار لتطفو فيه بحرية الى هنا .

سيمون : (عندما يسمع أصواتاً قادمة من جهة اليسار، عند مؤخرة المسرح) هاهما قد وصلا !

(يتجمد الاخوان ويتحولان الى تمثالين جامدين . متجهمي الوجه. يقبل أفرايم كابوت وآبي يتنام. كابوت في الخامسة والسبعين من العمر، طويل ونحيل، وذو قوة صلبة مركزة كبيرة، وان كانت كتفاه منحنيتين من مشقة العمل. وجهه صارم كما لو أنه من حجر، الا أنه به نقطة ضعف اذ يبدو عليه شيء من الاعتزاز بما لديه من قوة محدودة. عيناه صغيرتان، ضيقتان، وقصيرتا النظر للغاية، فهما «يبرشان» باستمرار في محاولة للتركيز على الأشياء، وحملقتهما تشير الى الجهد المتزايد الذي يبذله لتبيان الأشياء. يرتدي حلة سوداء قاتمة كالتي يلبسها يوم الأحد. أما آبي ففي الخامسة والثلاثين من العمر ، ممتلئة الجسم والحيوية ، ووجهها المستدير جميل، وان أفسدته شهوة حسية فظة. في فكها قوة وعناد ، وفي عينيها اصرار ، وفي شخصيتها عامة نزعة عدم استقرار ووحشية وتهور ، كالتي نراها بوضوح لدى ايبن).

كابوت : (عندما يدخلان ... يقول بصوت جاف أجش تخنقه عاطفة غريبة) ها نحن قد وصلنا الى البيت، يا آبي .

آبي : (باشتياق الى هذه الكلمة) بيت ! (وقد سبحت عيناها حول البيت دون أن يبدو عليها أنها رأت الشخصيتين المتجمدين عند البوابة) أنه رائع . . . رائع ! لا أكاد أصدق أنه ملكي .

كابوت : (في حدة) ملكك ؟ أنه ملكي ! (يلقي عليها نظرة فاحصة. وترد بنظرة مثلها ، ثم يضيف بلهجة أرق) وقد نقول . . . ملكنا نحن الاثنين ! لقد ظل هذا البيت موحشاً لفترة أطول من اللازم . وإنني أشعر بتقدم السن في فصل الربيع. إن أي بيت تلزمه امرأة .

آبي : (وفي صوتها نغمة تنم عن حب الامتلاك) وكل امرأة لابد وأن يكون لها بيت !

كابوت : (يومىء رأسه في تردد) فعلاً. (ثم في غيظ) أين هم ؟ ألا يوجد أحد هنا . . . يعمل . . . أو يقوم بأي شيء ؟

آبي : (ترى الأخوين . تقوم بالرد على نظراتها الباردة المحدقة فيها بازدراء . . . فتقول في بطء) هناك رجلان يتسكعان عند البوابة ويحملقان في كما لو أنهما خنزيران ضالان .

كابوت : (يشخص بصره نحوهما) أستطيع رؤيتهما ولكني لا يمكنني التمييز.

سيمون : أنا سيمون .

بيتر : وأنا بيتر .

كابوت : (منفعلاً) لماذا لا تعمل الآن ؟

سيمون : (بجفاء) اننا في انتظار الترحيب بمقدمك . . . أنت وعروسك !

كابوت : (في ارتباك) ها ! حسن . . . تلك هي أمكم الجديدة، يا أولاد .

(تحملق فيهما، ويحملقان فيها بدورهما) .

سيمون : (يلتفت بعيداً ويبصق في احتقار) انني أراها !

بيتر : (يبـصق أيضاً) وأنا أراها ، أيضاً !

آبي : (بادراك المنتصر وشعـوره بالاسـتعلاء) سأدخل لأرى بيتي. (تدخل على مهل وتتجه نحو السقيفة) .

سيمون : (بزنخرة تنم على التهكم) بيتها !

بيتر : (منادياً عليـهـا) سـتجدين ايبن في الداخل، يحسن ألا تخبريه بأن هذا بيتك .

آبي : (تنطق الاسم) ايبن (ثم في هدوء) سأخبر ايبن بذلك .

كـابوت : (في لهجـة تنم على السـخـرية والاستهزاء) لا تبالي بايبن. انه مغفل كبير . . . ومثل أمه . . . ضعيف وساذج .

سـيـمون : (وقد انفجر بضحك ساخر) ها ! إن ايبن قطعة منك . . . صورة طبق الأصل . . . صلب ومـرير كشجرة الجوز ! كلب سيأكل كلباً . سيأكلك، أيها الرجل العجوز !

كابوت : (بلهجة الأمر) اذهب الى عملك !

سـيـمـون : (عندمـا تختـفي آبي داخل البيت . . . يغمز لبيتر ويقول في لهجة تقريع ساخرة) اذن، ها هي أمنا الجديدة . . . من أي جحيم أتيت بها ؟

(يضحك هو وبيتر) .

بيتر : ها ! يحسن أن تدخلها الحظيرة مع باقي إناث الخنازير .

(يضحكان بطريقة صاخبة وهما يخبطان على فخذيهما) .

كـابوت : (مندهشاً للغاية لوقاحتهما حتى أنه يتلعثم في ارتباك)

سيمون !

بيتر ! ما الذي جرى لكما ؟ هل أنتما مخموران !

سـيـمون : بل اننا أحرار، أيها الرجل العجوز . . . قد تحررنا منك ومن تلك المزرعـة اللعـينة (يزداد ضحكهما صخباً وانفعالاً) .

بيتر : وستتوجه الى حقول الذهب في كاليفورنيا .

سيمون : وفي امكانك الآن أن تأخذ هذا المكان، وتحرقه ان أردت !

بيتر : وتدفنه . . . فاننا لا نبالي !

سيمون : لقد أصبحنا أحراراً ، أيها الرجل العجوز ! (يرقص مرحاً) .

بيتر : أحرار ! (يضرب الهواء بقدمه) .

سيمون : (في اهتياج شديد) هوب .

بيتر : هوب ! (يرقصان رقصة حرب من رقصات الهنود، حول الرجل العجوز الذي يقف مذهولاً من شدة الغضب ومن الخوف من أن يكون قد أصابهما مس من الجنون) .

سيمون : نحن أحرار ، كالهنود ! ومن حسن حظك أننا لا ننزع فروة رأسك، كما يفعلون !

بيتر : ونحرق شونتك، ونقتل ماشيتك !

سيمون : ونغتصب زوجتك الجديدة ! هوب ! (يتوقفان عن الرقص ويمسكان بجنبيهما، وهما يهتزان من شدة الضحك) .

كابوت : (يبتعد عنهما بخطى ثقيلة) انها شهوة الذهب . . . ذهب كاليفورنيا الملوث بالخطيئة ! لقد أصابتكما هذه الشهوة بمس من الجنون !

سيمون : (في تقريع) ألا تريد أن نرسل لك بعض هذا الذهب الملوث ، أيها الخاطىء العجوز !

بيتر : هناك ذهب يختلف عن ذهب كاليفورنيا ! (يتراجع بعيداً عن مرمى بصر الرجل العجوز، ويأخذ حقيبة النقود ويطوحها في الهواء حول رأسه، وهو يضحك) .

سيمون : وهذا أكثر تلوثاً بالخطيئة !

بيتر : وسنرحل بالبحر ! هوب ! (يقفز في الهواء) .

سيمون : وسنعيش أحراراً ! هوب ! (يقفز في الهواء) .

كابوت : (فجأة يزأر من شدة الغضب) لعنة الله عليكما !

سيمون : ولنبادلك اللعنة ! هوب !

كابوت : سأقيدكما بالسلاسل وأبعث بكما الى مستشفى الامراض العقلية !

بيتر : وداعاً ، أيها البخيل العجوز !

سيمون : وداعاً ، يا مصاص الدماء !

كابوت : اذهبا قبل أن . . .

بيتر : هوب ! (يلتقط حجراً من الطريق. ويفعل سيمون نفس الشيء) .

سيمون : لابد أن الوالدة في حجرة الجلوس .

بيتر : نعم ! واحد !اثنين !

كابوت : (فزعاً) ما الذي تفعلانه . . . ؟

بيتر : ثلاثة ! (يلقيان بالحجارة التي تصيب نافذة حجرة الجلوس ويسمع صوت تحطيم الزجاج، وتزول الظلال) .

سيمون : هوب !

بيتر : هوب !

كابوت : (في غضب عارم، يندفع نحوهما) لو أنني امسكت بكما . . . لكسرت عظامكما !

(يتقهقران، وهما يرقصان ، وتحت ذراع سيمون البوابة. يعود كابوت وهو يلهث من شدة الغضب ولعجزه من أن يفعل شيئاً وعندما يبتعدان تتحول أصواتهما الى أغنية الباحثين عن الذهب وهما يؤديانها بنغمة أغنية «أوه، سوزانا» :

قفزت على ظهر السفينة ليزا ،

وسافرت بحراً ،

وكلما فكرت في العـودة للديار،

تمنين لو أنني لم أسافر !

أوه، كاليفورنيا،

يا أرض الميعاد !

إنني ذاهب الى كاليفورنيا،

وعلى ركـبتي حوض غسيلي .

(في الوقت نفسـه تفتح نافذة غرفة النوم في الطابق العلوي جهة اليمين، وتنظر منه آبي. تنظر الى كابوت ... وقد تنفست الصعداء) .

آبي : ها قـد انتـهـينا من هذين الاثنين، أليس كذلك ؟ (لا يجيب ثم في لهجة تنم عن حب الامتـلاك) هذه هي حـجـرة نوم جميلة، يا أفـرايم ؟ انها جميلة حـقاً. أليست هذه غرفتي، يا أفرايم ؟

كـابوت : (عـابسـاً . . . دون النظر اليـها) انها غرفتنا . (لا تستطيع أن تمنع نفسها من أن تقطب الجبين في مقت، فتدخل رأسها في بطء وتغلق النافذة. يبدو أن خـاطراً رهيـباً استولى على ذهن كابوت) لابد أنهما دبرا شيئاً ما ! ربما . . . ربما سمما الماشية . . . أو أي شيء من هذا القبيل !

(يكاد يعدو نحو الحظيرة. بعد لحظة يفتح باب المطبخ وتدخل منه آبي. تبقى لحظة وهي تنظر الى ايبن الذي لا يلاحظ وجـودها أول الأمـر. تفـحـصـه عـيناها، وهي تقدر قوته بالنسـبـة لها. ولكن وراء هذه النظرة، تتـيـقظ فـيـهـا بشكل غـامض رغبة تثيرها قوته ووسـامـتـه. فـجـأة يدرك وجودها وينظر اليها. تتقابل عيناهما، فيهب واقفاً وهو يحدق النظر فيها دون أن ينبس بكلمة) .

آبي : (بلهجة اغراء تستخدمها طوال هذا المنظر) هل أنت . . . ايبن ؟ أنا آبي . . . (تضحك) أعني ، أنا أمك الجديدة .

ايبن : (بشراسة) كلا ، عليك اللعنة !

آبي : (كما لو أنها لم تسمع ما قاله . . . ثم بابتسامة غريبة) لقد تحدث والدك كثيراً عنك . . .

ايبن : ها !

آبي : لا تبالي بما يقول . أنه رجل عجوز (فترة صمت طويلة. يحدق كل منهما النظر في الآخر) إنني لا أود التظاهر بالقيام بدور الأم معك، يا ايبن (في اعجاب) أنت أكبر وأقوى من ذلك. انني أريد أن أكون صديقة لك . وربما اذا أتخذتني صديقة ستتحسن أحوال معيشتك هنا. وقد أتمكن من تسوية الأمور بينكما. (باستخفاف، وهي مدركة لقوتها) أحسب أنه في امكاني أن أجعله، في معظم الأحيان، يقوم بأي عمل أريده .

ايبن : (باحتقار مرير) ها ! (يحملق كل منهما في الآخر. ينفعل ايبن باحساس غامض، وقد وجد نفسه منجذباً نحو جمال جسدها، فيتحدث بطريقة متكلفة) فلتذهبين الى الشيطان !

آبي : (في هدوء) اذا كان سبك لي يريحك، فسب والعن ما شئت. انني توقعت أن تكون ضدي في بادىء الأمر. ولن ألومك على ذلك، اذ انني أحس بنفس الشعور نحو أي انسانة غريبة تحتل مكانة والدتي. (يرتعش وتراقبه في امعان) لابد أنك كنت متعلقاً بوالدتك كثيراً، أليس كذلك ؟ لقد توفيت والدتي وأنا صغيرة. انني لا أتذكرها بالمرة. (فترة صمت) لكن لا تكرهني لمدة طويلة، يا ايبن. انني لست اسوأ امرأة في الوجود. . أنت وأنا فينا صفات مشتركة كبيرة. يمكنني أن ألاحظ هذا من النظر اليك . هيه . . . لقد كانت حياتي قاسية، كذلك . . . متاعب لا حصر لها ولا شيء غير العمل اذا كنت تريد جزاء. لقد أصبحت يتيمة في سن مبكرة ، وكان علي أن أعمل في . . . بيوت الآخرين . ثم تزوجت شخصاً تبين بعد ذلك أنه سكير عربيد . وهكذا اضطررت للعمل للآخرين ، وعدت للعمل في البيوت. ثم مات طفلي ، وتوفى زوجي بعد مرض ألم به . لقد شعرت حينئذ بالسعادة لأنني شعرت بالحرية لأول مرة . إلا أنه سرعان ما اكتشفت أن حريتي تنحصر في حرية العمل في بيوت الآخرين حتى يئست من أن يكون لي بيت خاص أعمل به. بعد هذا جاء أبوك . . .

(يظهر كابوت وقد عاد من الحظيرة. يأتي الى البوابة وينظر تجاه الطريق الذي سلكه الاخوان. هناك أثر ضئيل لاصواتهم المتقهقرة وهي تغني «أوه، كاليفورنيا ... يا أرض الميعاد» يظل محملقاً، وهو يكز على قبضة يده، ووجهه متجهم من الغضب) .

ايبن : (يقاوم شعور العطف والانجذاب نحوها . . . ويقول في غلظة) واشتراك كما يشتري . . . العاهرة ! (قد تأذى شعورها كثيراً من هذه الملاحظة، فاحمر وجهها غضباً. وكانت قد انفعلت بصدق من سردها لمتاعبها. ثم يضيف في حنق) والمزرعة . . . هي الثمن ؟ إنها كانت مزرعة أمي. لعنة الله عليك ! ومزرعتي الآن !

آبي : (بضحكة باردة تنم عن الثقة) مزرعتك ؟ سنتدبر هذا الأمر ! (ثم في عنف) هيه . . . ما ذنبي اذا كنت في حاجة ماسة الى بيت ؟ أي سبب آخر يدفعني للزواج من رجل عجوز مثله ؟

ايبن : (في حقد) سأخبره بما قلتيه الآن !

آبي : (بابتسامة) سأقول أنك تتعمد الكذب . . . وعندئذ سيطردك من البيت!

ايبن : أنت شيطانة !

آبي : (في تحد) هذه مزرعتي . . . وهذا بيتي . . . وهذا مطبخي . . . !

ايبن : (في عنف) ، كما لو أنه سيهجم عليها (أخرسي، عليك اللعنة !)

آبي : (تقترب منه . . . وفي وجهها وجسدها تعبير غريب فظ بدافع الرغبة . . . ثم تقول) وفي الطابق العلوي . . . حجرة نومي . . . وسريري ! (يحدق في عينيها وهو في حالة فظيعة من الارتباك والتمزق، ثم تستطرد في رقة) انني لست شريرة ولا وضيعة . . . الا مع الأعداء. وعلي أن أناضل لنيل ما أستحقه من هذه الحياة، اذا كان هناك أي أمل في الحصول عليه. (ثم تضع يدها على ذراعه . . . في اغراء) دعنا نكون أصدقاء، يا ايبن .

ايبن : (في بلاهة . . . وكأنه قد وقع تحت تأثير منوم مغناطيسي) نعم . (ثم في عنف وهو يزيح ذراعها بعيداً عنه) كلا، أيتها العاهرة العجوز القذرة ! انني أكرهك ! (ويندفع خارجاً من الباب) .

آبي : (تنظر اليه . . . بابتسامة الرضى. ثم تنطق هذه الكلمات كما لو أنها تحدث نفسها) ايبن لطيف (ثم تنظر الى المائدة في اعتزاز وفخر) والآن سأقوم بغسل صحوني هذه. (يظهر ايبن في الخارج، وهو يغلق الباب بعنف. ثم يقبل نحو ركن البيت، يتوقف عند رؤية والده، ثم يحدق النظر فيه بكراهية) .

كابوت : (يرفع يديه الى السماء في غضب لا يستطيع السيطرة عليه) يا اله، يا رب السموات والأرض والأفلاك، لتصب أقسى لعناتك على الأبناء العاقين !

ايبن : (يقاطعه في عنف) انت لا تعرف ربك ؟ انت دائماً تلعن الناس . . . ودائماً «تنكد» عليهم !

كابوت : (غير منتبه له . . . ثم داعياً الى الله) يا رب، يا معين المسنين . . . ويا مؤنس من لا أنيس له !

ايبن : (في تهكم) انت دائم النق على عباد الله حتى تدفعهم الى الخطيئة ! الى الجحيم بالهك !

كابوت : (غاضباً) لقد تقدم بي العمر، وضعف البصر !

ايبن : (يبصق) هذا ما تستحقه ! (يلتفت كابوت. يحدق هو وايبن النظر الواحد في الآخر) .

كابوت : (في فظاظة) اذن هو أنت ! كان يجب أن أدرك ذلك (يهز أصبعه نحوه متوعداً) أيها المجدف الأبله ! (ثم بسرعة) لماذا لا تؤدي أي عمل الآن ؟

ايبن : ولماذا لا تعمل أنت ؟ لقد رحل الأخوان، ولا يمكنني أن أعمل بمفردي .

كابوت : (في احتقار) ولا تستطيع أن تعمل شيئاً ، على أية حال ! انني أساوي عشرة من أمثالك، رغم كبر سني ! أنت لن تكون أكثر من شبه رجل !

(ثم بطريقـة من يقرر الواقع) هيه . . . فلنذهب الى الحظيرة .

(ينصرفـان . وتسـمع من بعـيد نغمة خافتة أخيرة من أغنية «كاليفورنيا» . آبي تغسل الصحون) .

« ســـتـــار »

الجـزء الثانـي

المنظر الأول

(خـارج بيت المزرعـة، كما في الجـزء الأول ـ عصر يوم أحـد بعـد أحـداث الجـزء الأول بشـهـرين . الجو حار . تبدو آبي ، وهي في أحسن رداء ، جالسة على الكرسي الهزاز عند نهاية السـقـيـفـة . تتأرجح في فتور ، وقد أرهقت أعصابها حرارة الجو ، فأخذت تحملق أمامها بعينين شبه مغمضتين وفيهما سأم .

يطل ايبن برأســه من نافـذة غـرفة النوم . ينظر حواليه خلسة وهو يحاول أن يرى .. أو ينصت ليـتأكـد عما اذا كـان هناك أحـد في السـقـيفة . وعلى الرغم من حرصه على عدم احـداث أي صـوت الا أن آبي تشعر بحركته ... تتوقف عن التأرجح ، وتبدو على وجهها حـيـوية وشـغف ثم تنتظر في يقظة وانتـبـاه . يبدو أن ايبن يحس بوجودها ، فيسترجع أفكاره عنها ويبصق في احتقار مبالغ فيه ، ثم يعود الى غرفته . آبي تنتظر ، وقد أمسكت انفاسها وهي تصغي بانفعال وشغف لكل حركة تصدر من داخل البيت .

يخرج ايبن . تتـلاقي أعينهما . فيشعر بحرج وارتباك ويستدير بعيداً ، ثم يقفل الباب في عنف واسـتـيـاء . عند القـيام بهذه الحركة تضحك آبي في اغراء وينتابها في نفس الوقت خليط من السرور ومن الغيظ . يتجهم ويسير بخطى واسعة من السقيفة الى الممر ، ويهم بالمرور أمـامـهـا نحـو الطريق وهو يختـال في مـشيته ويتجاهل وجودها . يرتدي حلته الجـاهزة ، وتبـدو عليـه الاناقة ، كما يتألق وجهه بعد غسله بالماء والصابون . تميل آبي الى الامـام على كـرسيها ، وقد بدت نظراتها الآن غاضبة صارمة. وعندما يمر من أمامها تطلق قهقهة ساخرة فيها شيء من التوبيخ) .

ايبن : (وقـد تألم من هذه الضـحكة . . . فـيستدير اليها في غضب) على أي شيء تضحكين ؟

آبي : (بلهجة المنتصر) عليك ؟

ايبن : ما بي ؟

آبي : انك تبـدو في منتهى الأناقة وكأنك ثور يعدونه لكسب جائزة !

ايبن : (في سخرية) هيه . . . وأنت لست جميلة جداً، أليس كذلك، (يحملق كل منهما في عيني الآخر . الا أن عينيها تتسلطان على عينيه رغماً عنه ، كما تبرق برغبة التملك . ثم يصبح الانجذاب الجسدي قوة ملموسة تهتز في حرارة الجو) .

آبي : (برقة) أنت لا تعني هذا، يا ايبن. وقد تظن ذلك، لكنك لا تعنيه. ليس هذا في امكانك. انه مناف للطبيعة يا ايبن. منذ اليوم الذي أتيت فيه وأنت تصارع الطبيعة محاولاً أن توحي لنفسك بأنني لست جميلة. (بضحكة ندية خفيضة، دون أن تبعد عينيها عن عينيه. فترة صمت . . . يترعص جسدها في رغبة . . . ثم تتمتم في تراخ) أليست الشمس حارة ودافئة ؟ في امكانك أن تشعر بحرارتها وهي تنفذ في التربة . . . ان الطبيعة تجعل الأشياء تنمو. . . أكبر وأكبر . . . وهي تستقر في داخلك . . . لتبعث فيك الرغبة في النمو . . . حتى تلتحم مع شيء آخر . . . ويصبح ملكك . . . كما تصبح أنت ملكاً له أيضاً . . . وهذا يجعلك تكبر . . . كالشجرة . . . كأشجار الدردار هذه (بضحكة ثانية رقيقة، وهي تثبت النظر في عينيه. ثم يتقدم خطوة نحوها ، رغماً عنه) ان الطبيعة ستقهرك يا ايبن . ومن الخير لك أن تعترف بذلك منذ البداية .

ايبن : (محاولاً التخلص من سحر جاذبيتها . . . ويقول في ارتباك) اذا سمعك والدي وأنت تتحدثين . . . (باستياء) لكنك قد جعلت من هذا الشيطان العجوز شخصاً أبله لعين (تضحك آبي) .

آبي : ألم يكن من الأسهل عليك أن تجعل مني شخصاً أرق مشاعراً ؟

ايبن : (في تحد) كلا. انني سأحاربه . . . وأحاربك . . . وأناضل من أجل حقوق أمي في بيتها ! (يزيل سحر جاذبيتها عليه، فيحدق النظر فيها) وانني سأتصدى لك. لن تخدعيني بأية حال. انت تهدفين الى التهام كل شيء وأمتلاك كل شيء . حسن ، سيتبين لك أنني لست لقمة سائغة ! (يبتعد عنها في تهكم) .

آبي : (تحاول استعادة سيطرتها . . . وتقول في إغراء) ايبن .

ايبن : اتركيني وشأني (يهم بالابتعاد عنها) .

آبي : (بلهجة فيها مزيد من الأمر) ايبن !

ايبن : (يتوقف . . . ثم يقول في استياء) ماذا تريدين ؟

آبي : (تحاول اخفاء انفعالها المتزايد) الى أين أنت ذاهب ؟

ايبن : (بعدم اكتراث وخبث) آه . . . اني ذاهب حتى نهاية الطريق للفسحة بعض الوقت .

آبي : الى القرية ؟

ايبن : (بمرح) ربما .

آبي : (بأنفعال) لترى تلك المرأة التي تدعى ميني، على ما أظن ؟

ايبن : ربما .

آبي : (في تراخ) ولماذا تضيع وقتك معها ؟

ايبن : (منتقماً لنفسه الآن . . . وهو يبتسم في فتور) لا يمكنك قهر الطبيعة، أليس هذا ما قلتيه ؟ (يضحك ، ويهم بالابتعاد عنها ثانية) .

آبي : (ثائرة) تلك السمكة العجوز القبيحة !

ايبن : (بابتسامة فيها شيء من الكيد) انها أجمل منك !

آبي : تلك المرأة التي لا يوجد سكير تافه الا و . . . .

ايبن : (في تقريع) ربما . . . لكنها أفضل منك. انها تعترف بصراحة بما تقوم به من أفعال .

آبي : (ثائرة) اياك أن تقارنني . . . .

ايبن : انها لا تتسلل وتسرق . . . ما هو ملكي !

آبي : (في شراسة وقد أمسكت بنقطة ضعفه) ما هو ملكك ؟ أتعني . . . مزرعتي ؟

ايبن : أعني المزرعة التي بعت نفسك من أجلها ، كأي عاهرة . أعني مزرعتي.

آبي : (في شراسة بعد أن تأذت كثيراً) لن تعيش لترى اليوم الذي تمتلك فيه حتى العشب التتن ! (صارخة فيه) أغرب عن وجهي ! اذهب الى عاهرتك . . . جالباً العار لوالدك ولي ! لو شئت لجعلت والدك يلهبك بالسياط ! ان معيشتك هنا رهن موافقتي ! هيا، اذهب انني لا أريد أن أراك !

(تتوقف، وهي تلهث وتحدق فيه) .

ايبن : (يبادلها نفس النظرة) وأنا لا أريد أن أراك !

(يستدير ويمشي بخطى واسعة في الطريق ... تتبعه بنظراتها التي تنم على مقت شديد وهو يسير بعيداً . يظهر كابوت العجوز آتياً من الحظيرة.)

لقد تغيرت نظراته الصارمة الكئيبة . ويبدو انه قد اصبح ليناً رقيقاً بشكل غريب، وقد اتخذت عيناه نظرة حالمة غريبة لا تنسجم مع شخصيته . الا أنه لا توجد أي دلالة على ضعف بدني ... بل انه يبدو اكثر شباباً وقوة . تراه آبي وتشيح بوجهها في نفور واضح. يتقدم نحوها في بطء) .

كابوت : (في رقة) هل عدتما للشجار، أنت وايبن ؟

آبي : (باقتضاب) كلا .

كابوت : لقد كنتما تتحدثان بصوت عال جداً . . . (يجلس على حافة السقيفة) .

آبي : (بحدة) اذا كنت قد سمعت ما قلناه، فلا داعي للسؤال، اذن .

كابوت : لم أسمع ما كنتما تقولانه .

آبي : (في ارتياح) ايه . . . لم يكن ما قلناه شيئاً هاماً .

كابوت : (بعد فترة صمت) ان ايبن غريب الأطوار .

آبي : (في مرارة) أنه صورة طبق الأصل منك .

كابوت : (باهتمام غريب) هل تظنين ذلك ، يا آبي ؟ (بعد فترة صمت وهو مطرق مفكر) أنا وايبن في شجار دائم.

انني لا أطيقه هذه الأيام. انه طري لدرجة فظيعة . . . مثل أمه .

آبي : (في استخفاف) نعم ! انه طري مثلك !

كابوت : (كما لو أنه لم يسمع ما قالته) ربما كنت قاسياً عليه .

آبي : (في سخرية) ها أنت الآن تبدو طرياً . . . كما الوحل ! هذا ما كان ايبن يقوله عنك .

كابوت : (في الحال يبدو على وجهه التجهم المنذر بالشر) هذا ما كان يقوله ايبن ؟ اياه أن يفعل شيئاً يضايقني، والا فسرعان ما يتبين أن . . . . (فترة صمت . . . يظل وجهها ملتفتاً بعيداً عنه. يرق تعبير وجهه شيئاً فشيئاً. ثم يحملق في السماء، ويقول) جميلة، أليس كذلك ؟

آبي : (في امتعاض) أنا لا أرى أي شيء جميل .

كابوت : السماء . انها تبدو وكأنها حقل دافىء .

آبي : (في تهكم) أتريد أن تشتري قطعة السماء التي فوق المزرعة ، أيضاً ؟ (تحاول كتم ضحكة ازدراء) .

كابوت : (في لهجة غريبة) أريد أن أمتلك مكاناً هناك في السماء (فترة صمت) انني اتقدم في السن، يا آبي. لقد اصبحت ثمرة حان قطافها. (فترة صمت. تحملق فيه في حيرة. ثم يستطرد قائلاً) ان الجو في البيت موحش بارد . . . حتى ولو كان خارج الدار حر شديد. ألم تلاحظي ذلك ؟

آبي : كلا .

كابوت : إن الجو دافىء هناك في الحظيرة . . . دافىء وطيب الرائحة، هناك مع الابقار. (فترة صمت) ان الأبقار غريبة الأطوار .

آبي : مثلك ؟

كابوت : مثل ايبن . (فترة صمت) لقد بدأت اشعر بأنه لابد أن آخذ ايبن على علاته . . . كما فعلت مع والدته. لقد بدأت اعتاد طراوته . . . كما حدث

بالنسبة لأمه . واحسب أنني آنس له . . . لو لم يكن مغفلاً ! (فترة صمت) أعتقد أن كبر السن قد أخذ يدب في عظامي .

آبي : (بعدم اكتراث) هيه . . . لكنك لم تمت بعد .

كابوت : (بانفعال) كلا، لم أمت، وبالتأكيد . . . ولا يبدو هذا قريباً بأية حال . . . اذ أنني قوي وصلب كشجرة الجوز ! (ثم في كآبة) ولكن بعد سبعين عاماً يحذرني الله من عدم التأهب (فترة صمت) ولهذا خطر ايبن ببالي. والآن بعد أن رحل أخواه الملعونان الى جهنم، لم يتبق لي الا هو .

آبي : (في استياء) وأنا، أليس لي وجود ؟ (بانفعال) ما هذا الحب المفاجيء الذي تشعر به نحو ايبن ؟ لماذا لا تقول شيئاً عني ؟ ألست زوجتك الشرعية ؟

كابوت : (ببساطة) نعم . أنت موجودة. (فترة صمت . . . . يحملق فيها في رغبة أخذت تزداد في نظرة عينيه. ثم بحركة مفاجئة يمسك بيديها ويعصرهما في يده، وهو يصيح في لهجة غريبة كما لو أنه واعظ يخطب في معسكر ما) أنت يا وردة شارون ! انظري ، كم أنت جميلة : عيناك كاليمامتين ، وشفتاك كنبات القرمز ، وثدياك كخشفتي غزال ، وسرة بطنك كأنها كأس مدورة ، وبطنك كأنه كومة من القمح . . . (يغرق يدها بالقبل . يبدو أنها لم تهتم بهذا ، اذ أخذت تحملق أمامها بعينين فيهما نظرة غاضبة صارمة) .

آبي : (تزيح يديها بعيداً عنه . . . ثم تقول في فظاظة) اذن خطتك هي ترك المزرعة لايبن، أليس كذلك ؟

كابوت : (في ذهول) ترك . . . ؟ (ثم في اصرار واستياء) لن أتركها لأي انسان !

آبي : (بدون رحمة) ولن تأخذها معك .

كابوت : (يفكر لحظة . . . ثم على مضض) فعلاً لم أقدر هذا. (بعد فترة صمت . . . قائلاً بانفعال غريب) ولكن لو استطعت لأخذتها معي، بحق الله الخالد ! أو اذا استطعت ساعة الموت أن أشعل النار فيها وأراقبها وهي تحترق . . .

هذا البيت وكل سنبلة قمح وكل شجرة وحتى كل قشة من الدريس ! اذن لجلست وأنا أعلم ان كل هذه الأشياء ستموت معي ولن يمتلكها أحد غيري ، اذ هي نتاج عرقي ودمي ! (فترة صمت . . . ثم يقول في حنان غريب) ما عدا الأبقار . . . فأنني سأطلق سراحها .

آبي : (بفظاظة) وأنا ؟

كابوت : (ببسمة غريبة) سأطلق سراحك، أيضاً .

آبي : (غاضبة) اذن، جزاء زواجي منك . . . هو أن تحنو على ايبن الذي يكرهك، وتلقي بي في الطريق .

كابوت : (بعجلة) آبي أنت تعرفين أنني لن أفعل . . .

آبي : (بلهجة تنم على الانتقام) دعني فقط أخبرك بشيء أو شيئين عن ايبن ! أين هو الآن ؟ لقد ذهب الى تلك العاهرة، ميني ! لقد حاولت منعه حتى لا يجلب العار لك ولي . . . وفي يوم الأحد أيضاً !

كابوت : (وقد شعر بالأثم الى حد ما) انه خاطىء . . . بالطبيعة . ان الشهوة تنخر في قلبه .

آبي : (وقد بلغ غضبها حداً يفوق الاحتمال . . . فتقول منتقمة بعنف) واشتهاؤه لي ! أيمكنك أن تجد عذراً له في ذلك ؟

كابوت : (يحملق فيها . . . وبعد لحظة صمت قاتلة) أشتهاؤه . . . لك ؟

آبي : (في تحد) لقد كان يحاول مغازلتي . . . عندما سمعتنا نتشاجر .

كابوت : (يحملق فيها . . . ثم يبدو على وجهه تعبير غضب رهيب . . . فينهض واقفاً وهو ينتفض تماماً) اقسم بالله العظيم . . . انني سوف أقتله !

آبي : (وقد خافت الآن على ايبن) كلا . لا تفعل ذلك !

كابوت : (بعنف) سوف آتي بالبندقية وأجعل مخه الرخو يتطاير على قمة أشجار الدردار !

آبي : (تحيطه بذراعيها) كلا، يا أفرايم !

كابوت : (يدفعها بعيداً عنه) سوف أفعل ذلك ، بالله !

آبي : (بلهجة مهدئة) اسمع ، يا أفرايم . ليس هناك نية شر . . . انها مجرد حماقة صبيان . . . ليس في الأمر قصد سيء . . . انها مجرد مزاح ومداعبة .

كابوت : اذن لماذا قلت كلمة «شهوة» ؟

آبي : لابد أن هذه الكلمة بدت أسوأ مما أقصد . كما أنني جننت عندما خطر ببالي أنك . . . ستترك المزرعة له .

كابوت : (بلهجة أهدأ، وان كان لا يزال عابساً وقاسياً) حسن اذن، سوف الهبه بالسياط حتى يغادر هذا المكان، اذا كان هذا يرضيك .

آبي : (تمد يدها وتتناول يده) كلا. لا تفكر في ! يجب الا تطرده. ليس هذا من الحكمة في شيء. اذ من سيساعدك في المزرعة ؟ لا يوجد أحد حولنا .

كابوت : (يفكر في هذا . . . ثم يومىء برأسه مؤمناً على كلامها) كلامك معقول جداً. (ثم في غيظ) هيه . . . دعيه يبقى (يجلس على حافة السقيفة . تجلس بجواره. ثم يتمتم في ازدراء) كان لا يجب أن أحتد هكذا . . . بسبب هذا الأبله (فترة صمت) لكن هناك مشكلة. أي من أبنائي سأترك له المزرعة. . عندما يناديني الرب ؟ لقد رحل سيمون وبيتر الى الجحيم . . . وها هو ابين سيتبعهما . . .

آبي : أنا موجودة .

كابوت : ما أنت الا امرأة .

آبي : أنا زوجتك .

كابوت : لكنك لست مني . . . أما الابن . . . فهو مني . . . من دمي . وينبغي أن يكون من يحصل على أملاكي أن يكون مني. وحينذاك ستظل أملاكي ملكاً لي، حتى ولو كنت أرقد في أعماق الثرى ؟ أفهمت ؟

آبي : (بنظرة مقت) نعم، فهمت. (تستغرق في التفكير ويبدو على وجهها

الدهاء، وتفحص عيناها كابوت في مكر) .

كابوت : لقد تقدمت بي السن . . . وأصبحت ثمرة ناضجة حان قطافها . (ثم في اصرار عنيف مفاجىء) ليس معنى هذا أنني أصبحت لقمة سائغة . . . ولن أكون كذلك لسنين عديدة قادمة ! بالله الخالد، ان في استطاعتي أن أقصم ظهر معظم الشبان في أي عمل من الأعمال وفي أي يوم من أيام السنة !

آبي : (فجأة) ربما يمنحنا الله إبناً !

كابوت : (يلتفت اليها في لهفة) أتعنين . . . ابناً . . . مني ومنك ؟

آبي : (بابتسامة تنم على التملق) لا زلت رجلاً قوياً ، أليس كذلك ؟ وليس هذا بشيء مستحيل ؟ اننا نعلم ذلك. لماذا تحملق في كهذا ؟ ألم يخطر هذا ببالك من قبل ؟ لقد كنت أفكر في هذا طوال الوقت. نعم . . . وكنت أيضاً أتضرع الى الله أن يتحقق .

كابوت : (يمتلىء وجهه بزهو مفرح، وبشيء من النشوة الدينية) هل كنت تصلين لله، يا آبي ؟ بأن يمنحك ابناً . . . ابناً لنا ؟

آبي : نعم (ثم بعزم شديد) والآن أريد ابناً .

كابوت : (يمسك يدها في يده بانفعال) ستكون هذه نعمة من الله ، يا آبي . . . نعمة لي من الله القوي . . . في الكبر . . . وفي وحدتي ! لن أرفض لك طلباً وقتئذ يا آبي . وما عليك الا أن تطلبي أي شيء تريدينه . . .

آبي : (مقاطعة) هل توصي لي بالمزرعة، عندئذ. . . تتركها لي وللطفل. . . ؟

كابوت : (بحماس) أؤكد أنني سأنفذ كل ما تطلبين ! اقسم لك بذلك ! ولتحل علي اللعنة الأبدية، اذا ما حنثت بقسمي ! (يسجد ويشدها معه في وضع سجود. وينتفض تماماً من فورة الأمل) صلي الى الله ثانية يا آبي، انه يوم الأحد ! وسأصلي معك ! ان صلاتين أفضل من صلاة واحدة «واستمع الرب لراشيل (*)

(*) زوجة سيدنا يعقوب .

فـحـملت وولدت إبناً» . واستمع الرب لآبي . صلي ، يا آبي ! صلي الى الله ليستمع اليك ! (يحني رأسـه وهم يتـمتم . تتظاهر هي بعمل نفس الشيء ، وان كانت ترمقه بنظرة تجـمع ما بين الاحتقار، والفرحة بالفوز) .

المنظر الثاني

(الوقت حـوالي الثـامنة مـساء . يظهر داخل غرفتي النوم في الطابق العلوي) يجلس ابين على جـانب سريره في الغـرفـة اليسرى . ومن شـدة الحـر قـد خلع ملابسه كلها ما عدا الفـانللا والسروال . قـدمـاه عاريتان . ينظر أمامه وهو يفكر في عبوس ، وقد أسند ذقنه على يديه ، وعلى وجهه سيماء اليأس .

وفي الغـرفة الأخرى كابوت وآبي جالسان جنباً الى جنب على حافة سريرهما ، وهو سرير قـديم من أربع أعـمدة وله حاشية من الريش . يلبس جلباب النوم ، وهي كذلك . لا يزال في حـالة الاضطراب الغـريبـة التي أحـدثتها فكرة انجاب ابن . وشموع من دهن الحيوان تبعث في الغرفتين ضوءاً معتمـاً متذبذبـاً) .

كـابوت : ان المزرعة في حاجة الى ابن .

آبي : وأنا في حاجة الى ابن .

كـابوت : نعم . أحـياناً أنت المزرعة وأحياناً أخرى المزرعة هي أنت .

ولهذا أتشـبث بك في وحـدتي الموحـشـة. (فترة صمت، يخبط على ركبته بقبضة يده) أنا والمزرعـة علينا أن ننجب ولداً !

آبي : يحسن أن تنام . انك تخلط بين كل الأشياء .

كـابوت : (بحركة تنم على الضجر) كلا، إنني لا أخلط، بل إن ذهني صافي كالبئر أنت لا تفهميني، هذه هي المسألة. (يحملق في يأس بالأرض) .

آبي : (بعدم اكتراث) ربما .

(في الغرفة الثانية ينهض ايبن ويذرع الغرفة جيئة وذهاباً في شرود . تسمعه آبي. عيناها تتركز في انتباه بالغ على الحائط الفاصل بين الغرفتين . يتوقف ايبن ويحملق. ويبدو ان نظراتهما الحارة تخترق الحائط وتلتقيان . وبطريقة لا شعورية . يمد ذراعيه نحوها ، وهي تقف نصف وقفة . ثم عندما يعي الموقف ، يتمتم ويلعن نفسه وقد ألقى بنفسه على السرير ، وقبضتا يده فوق رأسه وقد دفن وجهه في الوسادة . تسترخي آبي وتطلق تنهيدة خافتة، وان كانت عيناها لا تزالان مثبتان على الحائط ، وتصغي بكل انتباه لاي حركة من ايبن) .

كابوت : (يرفع رأسه وينظر اليها . . . بازدراء) هل ستفهميني يوماً من الأيام . . . وهل سيفهمني أي رجل أو أي امرأة ؟ (يهز رأسه) كلا . لن يحدث هذا ، في تقديري . (يستدير بعيداً . تنظر آبي الى الحائط . يبدو أنه غير قادر على أن يظل صامتاً دون التعبير عن أفكاره ، فيمد يده ويمسك بركبة زوجته ، دون أن ينظر اليها. تفزع بشدة، وتنظر اليه، وعندما ترى أنه لا يراقبها، تركز نظرها على الحائط ولا تولي ما يقوله أي انتباه) اسمعي، يا آبي. عندما قدمت الى هذا المكان منذ أكثر من خمسين عاماً مضت . . . كنت في العشرين من عمري وكنت أقوى وأصلب عوداً من أي شاب رأيته . . . أقوى عشرة مرات وأصلب عشرين مرة من ايبن . . . هيه . . . لم يكن هذا المكان سوى مساحة شاسعة من الحجارة. وسخر الناس مني عندما أخذته. فلم يكن في وسعهم أن يدركوا ما يدور في ذهني. عندما تتمكن من أن تجعل القمح . . . ينبثق من الحجارة، فان روح الله تكمن فيك. ولم يكونوا أقوياء لدرجة كافية ! وقد حسبوا أن الله سهل. لقد سخروا مني، لكنهم لم يعودوا يفعلون ذلك. فقد مات بعضهم في أماكن قريبة من هنا، ورحل البعض الآخر الى الغرب حيث لاقوا منيتهم. كلهم تحت الثرى . . . لسعيهم وراء اله سهل. ان الله ليس سهلاً. (يهز رأسه في بطء) ونشأت صلباً، وأخذ الناس يقولون عني على الدوام «انه رجل صلب» ، كما لو أن الصلابة خطيئة من الخطايا . لهذا أجبتهم آخر الأمر «هيه ، اذن، بحق الرعد سترون صلابتي، وستعجبون بها!» (ثم فجأة) لكني ضعفت في مرة من المرات وكان ذلك بعد مضي عامين على قدومي الى هذا المكان . لقد ضعفت . . . وشعرت باليأس . . . لوجود الاحجار أكثر من اللازم . وكانت هناك مجموعة قد استسلمت وقررت الرحيل الى الغرب . لقد

أنضممت الى المجموعة وأخذنا نسير حتى وصلنا الى مروج شاسعة، وسهول فيها تربة غنية سوداء كما لو أنها ذهب، ولم يكن بها حجر واحد. لقد كانت أرض سهلة ما عليك الا تحرثها وتبذر الحب ثم تشعل غليونك وترقب الزرع وهو ينمو. كان في الامكان أن أصبح ثرياً لولا أن شيئاً ما في اعماق نفسي أخذ يهيب بي . . . انه صوت الله يقول لي «ان هذه لا تساوي شيئاً بالنسبة لي . عد الى بيتك ! » عندئذ شعرت بالخوف من هذا النداء ، وعدت الى بيتي هنا تاركاً محاصيلي وما يخصني لمن يشاء أن يأخذها. نعم، لقد تخليت بالفعل عن استحقاقاتي ! ان الله صلب، وليس سهلاً . ان الله موجود في تلك الأحجار ! لقد قال للقديس بطرس «شيد كنيستي على الصخرة . . . من أحجار وسأكون فيها. (يتنهد في حزن . . . ثم فترة صمت) أحجار ! » لقد جمعتها على شكل أكوام وبنيت منها حوائط . في امكانك ان تقرئي قصة حياتي عبر السنين على هذه الحيطان، ففي كل يوم كنت أرفع حجراً وأصعد وأنزل التلال، وأحيط الحقول بالأسوار ـ الحقول التي ملكي، وجعلت الزرع ينبت فيها من العدم . . . وكأنما أنفذ مشيئة الله وكأني عبد أنفذ إرادته . لم يكن الأمر سهلاً ، بل كان صعباً ، لهذا جعلني الله صلباً من أجل هذا . (فترة صمت) وطول الوقت كانت وحدتي تزداد باضطراد فتزوجت امرأة أنجبت سيمون وبيتر . لقد كانت امرأة طيبة . ولقد كانت مجتهدة . لقد مضى على زواجنا عشرون عاماً ، ولم تفهمني على الأطلاق . لقد كانت تساعد ، ولكنها لم تدرك أبداً ما كانت تقدم العون فيه . لقد كنت دائماً أشعر بالوحدة . ثم توفيت . بعد ذلك لم أشعر بوحدة بالغة لفترة قصيرة . (فترة صمت) لقد فقدت حساب الزمن ، ولم يكن لدي الوقت الذي اضيعه في حساب السنين . وقد كان سيمون وبيتر يساعدان فازدادت المزرعة نمواً . ان كل ذلك كان ملكي ! وعندما كنت أفكر في هذا لم أكن أشعر بالوحدة (فترة صمت) ولكن لم يكن في الامكان أن تركز ذهنك على شيء واحد ليل نهار . لهذا تزوجت امرأة ثانية . . . هي أم ابين. ولقد كان هناك نزاع بيني وبين أهلها حول ملكية هذه المزرعة . . . مزرعتي ! ولهذا السبب تجدين ابين يردد كلامه السخيف بأن المزرعة ملك أمه . . لقد كانت جميلة . . لكن طرية . لقد حاولت أن تكون صلبة ، لكنها لم تستطع . ولم تفهمني على الاطلاق كما لم تفهم أي شيء . وكنت أشعر بالوحشة الفظيعة وأنا أعيش معها . وبعد ستة عشر عاماً ، توفيت .

(فترة صمت) لقد كنت أعيش مع الأولاد، وكانوا يكرهونني لصلابتي وكنت أكرههم لطراوتهم واشتهوا المزرعة دون أن يدركوا ما تعنيه. لقد أشعرني هذا بالمرارة . وتقدم العمر وأخذ ينخر في عظامي . . . ان يشتهوا ما كونته لنفسي. ثم اتى النداء في الربيع . . . صوت الله ينادي في البيداء ، في وحشتي . . . بأن أرحل وأسعى وأجد ! (ثم يلتفت اليها بعاطفة غريبة) لقد سعيت إليك ووجدتك ! أنت وردة شارون ! عيناك مثل . . . (لم يبد على وجهها أي تعبير ، وان كان في عينيها استياء. يحملق فيها لحظة . . . ثم يقول في فظاظة) هل فهمت شيئاً مما قلته لك ؟

آبي : (في ارتباك) ربما .

كابوت : (يزيحها بعيداً عنه.. ثم يقول في غضب) أنت لا تفهمين شيئاً . . ولن تفهمي شيئاً ! فاذا لم تنجبي ولداً يعوض هذا النقص فيك . . . (يقول هذا بلهجة فيها تهديد رزين) .

آبي : (باستياء) لقد صليت الى الله، أليس كذلك ؟

كابوت : (في مرارة) صلي ثانية . . . كي يمنحك الله الفهم !

آبي : (وفي لهجتها تهديد مقنع) سأنجب لك ولداً، أعدك بذلك .

كابوت : كيف تعدين بذلك ؟

آبي : ربما كان في الامكان رؤية الغيب . . . والتنبؤ (تبتسم ابتسامة غريبة) .

كابوت : أعتقد أن لديك هذه القدرة. فأحياناً أشعر بقشعريرة بجانبك. ان هذا البيت بارد ، وغير مريح . وهناك أشياء تتحرك في الظلام . . . هناك في الأركان. (يلبس سرواله، ويحشر جلباب النوم داخله، ثم يلبس حذاءه ذا الرقبة).

آبي : (بدهشة) الى أين أنت ذاهب ؟

كابوت : (بلهجة غريبة) هناك حيث الراحة . . . والدفء . . . هناك في الحظيرة. ـ بمرارة) يمكنني أن أتحدث الى الأبقار . انها تعرفني . تعرف المزرعة وتعرفني. انني أشعر بالراحة معها . (يستدير ليخرج من الباب) .

آبي : (في شيء من الفزع) هل تشعر بأي توعك الليلة، يا افرايم ؟

كـابوت : أشعر بالنمو . كالثمرة التي نضجت على الغصن. (يستدير ويخرج ويسـمع صـوت حـذائه على الدرج. يتنبه ايبن في فزع، ويصغي. تشعر آبي بحركته وتحملق في الحـائط. يخرج كـابوت من المنزل ثم يتـجـه حـول الركن ويقف بجـوار البـوابة، ويطرف بعـينيه وهو ينظر الى السماء. ثم يمد يديه بحركة تنم على ما يشعر به من عذاب . « يا الهي القوي، ارسل نداءك من خلال الظلام ! » ويصغي كما لو أنه يتـوقع اجـابة لهذا الرجـاء . ثم ينزل ذراعـيـه ويهز رأسـه ويسير مـتـثـاقـلاً نحو الحظيرة.

(يحملق ايبن وآبي كل في الآخـر عبر الحائط . يتنهد ايبن في أسى ، وتردد آبي التنهيدة . يصـبح كل منهما عـصـبـياً وقلقاً لدرجة فظيعة . آخر الأمر تنهض آبي وتصغي بعد أن وضـعت أذنها على الحـائط . يتصرف ايبن وكأنه يشـاهد كل حـركـة تقوم بها . فيتعمد السكوت عن كل حـركـة . يبـدو أنها قـد دفـعت الى قـرار ... تخرج من الباب الخلفي في تصـمـيم . عـيناه تتـبعانها . وعندما يفتح باب غرفته برقة ، يستدير بعيداً ، وينتظر في حـالة من الثبات المشوب بالتوتر . تقف آبي لحظة تحملق فيه وعيناها تستعر بالرغبة ثم بصـيـحـة صـغيرة تجـري نحوه وتلقي بذراعها حول عنقه ، وتدفع رأسه الى الخلف ثم تغـمـر فـمـه بالقـبـلات . في بادىء الأمـر يستسلم في صمت ويضـع ذراعيه حول عنقها ويبادلها القبلات . ولكن يدرك آخر الأمر وعلى حين غرة أنه يكرهها ، فيدفعها بعيداً عنه، وقد هب واقفاً . يقفان دون كلام وهما يلهثان ، كما لو انهما حيوانان) .

آبي : (أخـيراً . . . تـقـول في ألم) يجب ألا تفـعل هذا، يا ايبن . . . يجب ألا تفعل هذا . . . سأسعدك !

ايبن : (في فظاظة) لا أريد السعادة . . . عن طريقك !

آبي : (بقلة حيلة) بل انك تريد ذلك، يا ايبن ! أنت تريد ! لماذا تكذب ؟

ايبن : (في خبث) أوكد لك أنني لا أميل إليك ! إنني أكره رؤيتك !

آبي : (بـضـحـكـة تـنـم على الضـيق والحيرة) حـسن ، لقـد قـبلتك وبادلتني القـبـلات . . . لا يمكن أن تكذب في هذا ! (في حـدة) اذا لم تهتم بي، لماذا بادلتني القبلات . . . لماذا كانت شفتاك ملتهبتين ؟

ايبن : (يمسح فمه) لقد كانت شفتاك كالسم على شفتي (ثم بسخرية تثير الغيظ) عندما بادلتك القبلات، ربما كنت أفكر في امرأة أخرى .

آبي : (في شراسة) ميني ؟

ايبن : ربما .

آبي : (في عذاب) هل ذهبت اليها . هل ذهبت حقاً ؟ لقد ظننت انك لن تفعل. الهذا السبب أزحتني بعيداً عنك، الآن ؟

ايبن : (متهكماً) وماذا يحدث لو كان هذا صحيحاً ؟

آبي : (ثائرة من الغضب) اذن، أنت كلب، يا ايبن كابوت !

ايبن : (مهدداً) اياك ان تخاطبيني بهذه اللهجة !

آبي : (بضحكة رنانة) نعم ؟ أتظن انني وقعت في غرامك . . . في غرام انسان ضعيف مثلك ؟ هذا غير صحيح ! لقد أردتك فقط لغرض خاص بي . . . وسأجعلك تقوم به لأنني أقوى منك !

ايبن : (باستياء) كنت أعلم تماماً بأن خطتك ابتلاع كل شيء !

آبي : (بسخرية تثير الغيظ) ربما !

ايبن : (بغضب شديد) اخرجي من غرفتي !

آبي : إنها غرفتي ، وما أنت إلا عامل أجير عندنا !

ايبن : (مهدداً) أخرجي وإلا قتلتك !

آبي : (وقد استردت ثقتها تماماً) انني لا أخافك علي الاطلاق. انت تشتهيني، أليس كذلك ؟ نعم، أنت تشتهيني بالفعل ! وأنت بصفتك ابن أبيك ، لن تقتل أبداً ما تشتهيه ! انظر في عينيك ! ان فيهما شهوة نحوي، تلهبهما تماماً ! انظر الى شفتيك الآن ! انهما ترتعدان وتتوقان لقبلة مني، وأسنانك تتوقان لعضي ! (يراقبها الآن في افتتان رهيب وتطلق ضحكة فيها نشوة الانتصار المجنونة) سأجعل كل هذا البيت بيتي ! هناك غرفة واحدة ليست ملكي بعد، ولكنها ستكون لي هذه

الليلة . سأنزل الآن وأضيؤها تماماً ! (تنحني له في سخرية) هل ستأتي لمغازلتي في أفضل غرفة جلوس، يا مستر كابوت ؟

ايبن : (يحملق فيها . . . في ارتباك فظيع . . . ويقول في فتور) لا تخاطري ! . . . انها لم تفتح منذ توفيت والدتي وكان جسمها راقداً فيها. لا تخاطري . . . (لكنها تركز عينيها عليه في رغبة متقدة حتى أن ارادته تبدو وكأنها تلاشت أمام ارادتها، فيقف يترنح تجاهها في عجز) .

آبي : (تركز النظر على عينيه، وبكل ما لديها من عزم تقول وهي تتراجع حتى تخرج من الباب) منتظرة قدومك، بعد قليل ، يا ايبن .

ايبن : (يحملق وراءها برهة، وهو يسير نحو الباب. يظهر ضوء من نافذة غرفة الجلوس. يتمتم) في غرفة الجلوس. (يبدو أن هذا يثير ارتباطات معينة، اذ أنه يعود ويرتدي قميصه الأبيض، وياقته، ويعقد رباط العنق ولكن بطريقة آلية وبغير احكام، ثم يرتدي سترته، ويتناول قبعته، ويقف حافي القدمين ينظر حواليه في حيرة، وهو يتمتم في تساؤل) أمي ! أين أنت !

(ثم يسير ببطء نحو الباب في مؤخرة المسرح) .

المنظر الثالث

(بعد المنظر الثاني بدقائق. يبدو داخل غرفة الجلوس ـ إنها غرفة كئيبة مكتومة كأنها قبر قد دفنت فيه الأسرة حية .

تجلس آبي على حافة الأريكة المحشوة بشعر الخيل. لقد أضاءت كل الشموع وبدت الغرفة بكل القبح الذي احتفظت به. لقد طرأ على المرأة تغيير ما. إنها تبدو وكأنها تشعر الآن برهبة وخوف، وعلى أهبة الفرار . . . يفتح الباب ويظهر ايبن، وعلى وجهه تعبير ينم عن ارتباك متسلط عليه . يقف محملقاً فيها ، وقد تدلت ذراعاه من كتفيه وكأنهما انخلعتا من مفاصلهما. قدماه حافيتان ، وقبعته في يده) .

آبي : (بعد فترة صمت . . . تقول في أدب يتسم بالعصبية والميل الى الرسميات) هلا تفضلت بالجلوس ؟

ايبن : (في فتور) نعم. (بطريقة آلية يضع قبعته بحرص علَى الأرض بالقرب من الباب ويجلس في جمود بجوارها على حافة الأريكة. فترة صمت. يظل كل منهما في حالة جمود، وكل ينظر أمامه بعينين مليئتين بالخوف.)

آبي : أول ما دخلت . . . في الظلام . . . بدا وكأن شيئاً ما كان هنا.

ايبن : انها أمي .

آبي : إنني لازلت أشعر . . . بأن شيئاً ما . . .

ايبن : انها أمي .

آبي : في بادىء الأمر خفت منها. أردت أن أصرخ وأجري والآن . . . منذ قدومك . . . يبدو أنها أخذت ترق وتعطف علي . (توجه الكلام الى الهواء . . . وتقول في لهجة غريبة) شكراً لك .

ايبن : كانت أمي تحبني دائماً .

آبي : ربما تعرف أنني أحبك، أيضاً، ربما جعلها هذا تعطف علي .

ايبن : (في فتور) لا أدري. أظن أنها تكرهك .

آبي : (في تأكيد) كلا. إنني أشعر أنها لا تكرهني . . . لم تعد تكرهني .

ايبن : تكرهك لأنك سرقت مكانها . . . هنا في بيتها . . . وتجلسي في غرفة الجلوس التي ماتت فيها . . . (يتوقف فجأة، ويحملق في بلاهة أمامه) .

آبي : ماذا بك ، يا ايبن ؟

ايبن : (في همس) يبدو وكأن والدتي لا تريدني أن أذكرك .

آبي : (بأنفعال) كنت أعرف ذلك، يا ايبن . انها تعطف عليَّ . انها لا تحقد عليَّ لسبب لا أدريه وليس لي فيه يد !

ايبن : ان أمي تحقد عليه .

آبي : هيه، وكلنا نحقد عليه .

ايبن : فعلاً . (بعاطفة قوية) انني أحقد عليه ، بالله !

آبي : (تضع احـدى يديها في يده وتربت عليها) لا تزعج نفسك بالتفكير فيه. فكر في والدتك التي تعطف علينا . حدثني عن والدتك، يا ايبن .

ايبن : ليس هناك الكثير الذي أقوله . . . لقد كانت عطوفة ، كانت طيبة .

آبي : (تضع احـدى ذراعـيها فوق كتفه. يبدو أنه لم يلاحظ ذلك . . . فتقول في عـاطفة) سأكون عطوفة وطيبة معك .

ايبن : وأحياناً كانت تغني لي .

آبي : وسأغني لك !

ايبن : لقـد كان هذا بيتها، وكانت هذه مزرعتها .

آبي : هذا بيـتي . وهذه مزرعتي .

ايبن : لقـد تزوجـهـا ليسرقـهـا. كانت رقيقة ومتساهلة، ولم يستطع أن يقدرها حق قدرها !

آبي : ولا يستطيع أن يقدرني حق قدري .

ايبن : لقد قتلها بصلابته .

آبي : انه يقتلني الآن !

ايبن : لقـد مـاتت (فترة صـمت) وقـد اعـتادت احياناً أن تغني لي (ينفجر في نوبة من النشيج) .

آبي : (وقـد احـاطتـه بذراعـيـهـا . . . تقـول في عاطفة جامحة) سأغني لك ! سأمـوت من أجلك ! (ورغم رغـبـتـهـا العـارمـة فـيـه، هناك حب أموي صادق في صـوتها وطريقـة تعـبيرها . . . مزيج صريح رهيب من الشهوة وحب الأم) لا تبك ، يـا ايـبن ! سأحل محل والدتك ! سأكـون مـثلهـا في كل شيء بالنسـبـة لك ! دعني أقـبلك ، يا ايبن ! (تجـذب رأسـه نحـوها. يتظاهر بالمقـاومـة وهو في حـالة ذهول.

تظهـر رقـة وتقـول) لا تخف ! انها قـبلة صافية خالصة . . . كما لو كنت أمك . . . ويمكنك أن تبـادلني القـبلة وكأنك ابني . . . ابني تحـيـيني تحية المساء ! قبلني، يا ايبن. (في تحـفظ يقبل كل منهما الآخر، ثم فجأة تستولي عليهما عاطفة جامحة. تقبله في شـهـوة مـرة بعد مرة، ويحيطها هو بذراعه ويبادلها القبلات. وعلى حين غرة، كما حـدث في غـرفـة النوم، يخلص نفـسه من قبضتها بعنف ويهب واقفاً على قدميه. انه ينتـفض تمامـاً ، وقد استبد به رعب غريب. تمد آبي ذراعيها نحوه في توسل عنيف). لا تـتركـني ، يا ايبن ! ألا تدرك أنه لا يكفي . . . ان أحـبك حب الأم فـقط . . . ألا تدرك أنه لابد أن يكون ذلك وأكـثـر . . . أكثر مئات المرات . . . لي حتى أشعر بالسعادة، ولك حتى تشعر بالسعادة أيضاً .

ايبن : (الى الكائن الذي يحس بوجـوده في الغـرفة) أمي! أمي! ماذا تريدين ؟ ماذا تقولين لي ؟

آبي : أنها تطلب اليك أن تحبني . انها تعلم بأنني أحـبك وأنني سأكون طيبة معك، ألا تشعر بهذا ؟ ألا تعرف ؟ انها تطلب منك أن تحبني، يا ايبن !

ايبن : نعم. انني أشعر. . . ربما هي. . . لكني لا استطيع أن أفسر هذا. . . بينما أنت سرقت مكانها . . . هنا في بيـتها . . . في غرفة جلوسها التي . . .

آبي : (في عنف) إنها تعلم أنني أحبك !

ايبن : (فـجأة وقـد أضـاءت وجـهـه ابتـسامة النصر العنيفة) فهمت ! فهمت السبب ! إنها تريد أن تنتقم منه . . . حتى ترقد في سلام في قبرها .

آبي : (في عنف) انتـقـامـهـا منه ! انتـقـامـهـا مني ! . . . انتقامي منك . . . انتقامك مني . . . وانتقامك منه. فلينتقم الله منا جميعاً ! لماذا نعير هذا أي أهتمام ؟ انني أحـبك، يا ايبن ! يعلم الله أنني أحبك ! (تمد ذراعيها نحوه) .

ايبن : (يلقي بنفـسـه على ركـبتيه بجوار الأريكة ويجذبها بين ذراعيه . . . وقد أطـلق لكل عـواطفـه المكبـوته العنان) وأنا أحـبك ، يا آبي ! . . . يمكنني أن أقـول ذلك الآن ! لقـد كـانت الرغـبـة فيك تجتاحني . . . كل ساعة . . . منذ قدومك ! أحبك ! (تلتقي شفاهما في قبلة عنيفة حارة) .

المنظر الرابع

(خارج بيت المزرعة ... لقد طلع الفجر. يفتح الباب الخارجي جهة اليمين ويخرج منه ايبن الذي يسير نحو البوابة يرتدي زي العمل . يبدو ان تغييراً قد طرأ عليه . على وجهه تعبير ينم على الثقة والجرأة ، وهو يبتسم لنفسه في رضى واضح. عندما يقترب من البوابة ، يسمع صوت فتح نافذة غرفة الجلوس ، ومصراعها وهو يدفع الى الخلف ، ليظهر رأس آبي التي تطل . يسقط شعرها على كتفها في عدم ترتيب ، وقد تورد وجهها ، وتلقي الى ايبن نظرة ناعسة رقيقة وتناديه في لطف) .

آبي : ايبن . (عندما يلتفت . . . تقول مداعبة) قبلة واحدة أخرى قبل أن تذهب. سأفتقدك بدرجة فظيعة طول اليوم .

ايبن : وأنا أيضاً ، اؤكد لك ! (يذهب اليها ـ يتبادلان القبل عدة مرات، ينسحب بعيداً، ويقول ضاحكاً) يكفي هذا، أليس كذلك ؟ لن يتبقى شيء للمرة القادمة .

آبي : لدي ملايين القبل أحفظها لك ! (ثم في شيء من القلق) هل تحبني حقاً، يا ايبن ؟

ايبن : (مؤكداً) انني أميل اليك أكثر من أي فتاة عرفتها من قبل ! أقسم على هذا !

آبي : الميل ليس هو الحب .

ايبن : هيه اذن . . . أحبك . الآن أنت راضية ؟

آبي : نعم. راضية . (تبتسم له في هيام) .

ايبن : يحسن أن أذهب الى الحظيرة. من المحتمل أن يشك الرجل العجوز فيأتي يتلصص علينا .

آبي : (بضحكة الواثق) دعه يفعل ! في امكاني دائماً أن أخدعه. سأترك

مصراع النافذة مفتوحاً لتدخل الشمس والهواء. لقد ظلت هذه الغرفة بلا حياة مدة كافية. الآن ستصبح غرفتي .

ايبن : (عابساً) نعم .

آبي : (في عجل) قصدت أنها ستكون . . . غرفتنا .

ايبن : نعم .

آبي : لقد كانت لنا الليلة الماضية، أليس كذلك ؟ لقد بعثنا فيها الحياة . . . لقد بعث حبنا فيها الحياة. (فترة صمت) .

ايبن : (بنظرة غريبة) لقد عادت أمي الى قبرها. يمكنها أن ترقد الآن .

آبي : فلترقد في سلام ! (ثم توبخه في رقة) ينبغي أن تمتنع عن الحديث حول أشياء محزنة . . . هذا الصباح .

ايبن : إنه خاطر مر بذهني .

آبي : لا تدعه يمر بخاطرك . (لا يجيب. ثم تتثاءب) هيه، سأحاول أن استرق اغفاءة وسأقول للرجل الهرم انني أشعر بتوعك . دعه يعد افطاره بنفسه .

ايبن : انني اراه قادماً من الحظيرة. يحسن أن تصلحي من هندامك وتصعدي الى الطابق العلوي .

آبي : حاضر . مع السلامة . لا تنساني .

(تلوح له بقبلة. يبتسم . . . ثم يقف معتدل الكتفين وينتظر أباه في ثقة. يتقدم كابوت ببطء من جهة اليسار وهو يحملق في السماء بنظرة غامضة) .

ايبن : (مرحا) صباح الخير ، يا والدي. انت تحملق في النجوم في وضح النهار ؟

كابوت : جميلة، أليس كذلك ؟

ايبن : (ينظر حواليه وقد شعر برغبة التملك) انها مزرعة جميلة للغاية .

كابوت : انني اقصد السماء .

ايبن : (مبتسماً) وكيف تعرف أنها جميلـة ؟ أن نظـرك لا يمكّنك أن تصل الى هذا البعد. (يثير هذا روح الفكاهة فيه فيخبط على فخذه ويضحك) هو . . . هو ! هذه نكتة لطيفة !

كـابوت : (في تهكم كئيب) أنت تشـعـر بشيء من المرح، أليس كذلك ؟ من أيـن سرقت الشراب ؟

ايبن : (بروح طيـبـة) إنه ليس شراباً، بل إنها الحـيـاة فـحسب. (فجأة . . . يمـد يده . . في اتزان) لقد تعادل موقفنا، أنا وأنت، فدعنا نتصافح .

كابوت : (في ريبة) ما الذي جرى لك ؟

ايـبـن : اذن لا داعي للمـصـافـحـة. ربما يكون هذا الوضع أفـضل. (لحظة صـمت) . مـا الذي جرى لي ؟ (في لهجة غريبة) ألم تشعر بمرورها . . . بعودتها الى قبرها ؟

كابوت : (في فتور) من ؟

ايبن : أمي. يمكنهـا أن ترقد الآن راضية مطمئنة. لقد سوت حسابها معك.

كـابوت : (في ارتبـاك) لقـد أخـذت قـسطاً من الراحـة. لقـد نمت نوماً طيباً . . . هناك مع الأبقار. انها تعرف كيف تنام. إنها تعلمني .

ايبن : (فـجأة يبـدو عليه البشر) هذا شيء جميل للأبقار ! هيه . . . يحسن أن تذهب لعملك .

كـابوت : (في سرور لا يخلو من الكآبة) أتظن نفسك رئيساً لي، أيها العجل.

ايبن : (يأخـذ في الضـحك) نعم ! إنني رئيسك ! ها ! ها ! ها ! ها ! مـا رأيك في هذا ؟ ها ! ها ! ها ! إنني الديك الممـتـاز في حظيرة الطيور هذه. ها . ها . . . ها . . . ! (يسير نحـو الحظيرة وهو يضحك) .

كـابوت : (يتـابعـه بنظرات فـيـها ازدراء وشفقة) عقلة ضعيف، كأمه. صورة طبق الأصل. لا يرجى منه خير ! (يبـصق في احـتـقـار واشمئزاز) مغفل بالسليقة ! (بطريقة من يقرر الواقع) هيه . . . إنني أحس بالجوع .

(يذهب نحو الباب) .

الجزء الثالث

المنظر الأول

(مساء ليلة من ليالي أواخر الربيع في السنة التالية. يبدو المطبخ وغرفتا النوم في الطابق العلوي. ينبعث من غرفتي النوم ضوء خافت من شمعة من دهن الحيوان في كل منهما. يجلس ايبن على جانب السرير في غرفته، وقد أسند ذقنه على قبضتي يديه، وعلى وجهه امارات الصراع الذي يعانيه لكي يفهم عواطفه المتضاربة. وقد أغضبه وشتت ذهنه الضحك الصاخب والموسيقى الآتية من الدور الأسفل حيث يجري الرقص في المطبخ. ينظر الى الأرض في تجهم .

وفي الغرفة التالية يوجد مهد طفل بجوار سرير مزدوج. أما في المطبخ فالاحتفال على أشده. وقد أنزل الموقد للدور الأرضي ليفسح مجالاً للراقصين. كما أضيفت كراسي ومقاعد، ووضعت الى جانب الحوائط . يجلس على هذه، محشورين بعضهم الى جانب البعض الآخر ، بعض المزارعين وزوجاتهم وشباب من الجنسين قدموا من المزارع المجاورة . كلهم يثرثرون ويضحكون بصوت مرتفع . يبدو أنهم يشتركون في الضحك على نكتة خفية . ولهذا فلا نهاية لغمزاتهم ، ولكزاتهم ولإيماءاتهم ذات الدلالات المعينة نحو كابوت، الذي كان في حالة من الابتهاج الشديد، زادت من حدتها كمية الشراب التي تجرعها. انه يقف بالقرب من الباب الخلفي حيث يوجد برميل صغير من الويسكي يقدم منه الشراب لكل الرجال. وفي الركن الأيسر ، جهة الأمام ، تجلس آبي في كرسي هزاز ، مشاركة زوجها الاهتمام بالمدعوين ، وقد لفت شالاً حول كتفيها. لونها شاحب جداً ، ووجهها نحيل ومسحوب ، وقد تركزت نظراتها القلقة على الباب المفتوح في مؤخرة المسرح وكأنها تنتظر شخصاً ما .

وكان الموسيقي يضبط أوتار كمانه ، وهو يجلس في أقصى الركن الأيمن ، وهو شاب طويل نحيل ، ذو وجه طويل هزيل ، وترمش عيناه باستمرار ، كما

يبتسم في خبث وحقد وشراهة) .

آبي : (تستدير فجأة الى فتاة على يمينها) أين ايبن ؟

الفتاة : (تنظر اليها في ازدراء) لا أدري، يا مسز كابوت. انني لم أر ايبن منذ دهور . (بلهجة ذات مغزى) يبدو أنه يقضي معظم وقته في البيت منذ قدومك .

آبي : (في لهجة مبهمة) لقد أخذت مكان والدته .

الفتاة : نعم، هذا ما سمعته .

(تستدير لتنقل الخبر ليكون مادة للدردشة مع والدتها التي تجلس بجوارها . عندئذ تلتفت آبي الى اليسار الى رجل بدين في متوسط العمر ، يبدو من وجهه المتورد وعينيه الجاحظتين مقدار ما استهلك من شراب) .

آبي : ألم تر ايبن ؟

الرجل : كلا، لم أره. (ثم يضيف وقد غمز بعينه) اذا لم ترينه أنت، فمن رآه اذن ؟

آبي : أنه احسن راقص في المقاطعة. كان يجب أن يحضر ويشارك في الرقص.

الرجل : (يغمز) ربما يؤدي واجبه ويرعى الطفل حتى ينام. هو ولد، أليس كذلك ؟

آبي : (تومىء في ايهام) أجل . . . ولد عمره اسبوعان . . . جميل كالصورة.

الرجل : كلهم كهذا . . . في أعين أمهاتهم. (ثم يهمس في غمز ولكز) اسمعي، يا آبي . . . اذا ما سئمت ايبن، فتذكريني ! لا تنسي ! (ينظر لحظة الى وجهها الذي بدا عليه أنها لم تدرك شيئاً مما قال . . . ثم يزمجر في اشمئزاز) هيه . . . علي بكأس آخر .

(يتقدم وينضم الى كابوت الذي كان يجادل بصوت مرتفع فلاحاً عجوزاً حول الأبقار. الكل يشرب) .

آبي : (هذه المرة لا تلجأ الى سؤال أي شخص معين ماذا يفعل ايبن . تنتقل

هذه الملاحظة من واحد الى آخر بين القهقهة والضحك المكتوم حتى تصل أسماع عازف الكمان. يركز هذا عينيه «المبربشتين» على آبي) .

عازف الكمان : (رافعاً صوته) ولكني، يا آبي، استطيع أن أخبرك بما يفعله ايبن . . . انه في الكنيسة يصلي شكراً لله على ما أعطاه (الكل يضحك ضحكة مكتومة في ترقب لما سيحدث) .

الرجل : ولماذا ؟ (ضحكات مكتومة أخرى) .

عازف الكمان : لأن الله منحه . . . (يتردد لمدة كافية) أخاً !

(ضحك صاخب . الكل ينقل بصره من آبي الى كابوت . هي غير واعية لأي شيء بل تحملق في الباب . اما كابوت الذي وان كان لم يسمع الكلمات ، إلا انه يغتاظ من ضحكهم ويتقدم الى الأمام وهو يحدق النظر فيما حوله . وفي الحال يخيم الصمت على الجميع) .

كابوت : ما هذه المأمأة، وكأنكم قطيع من الماعز ؟ لماذا لا ترقصون عليكم اللعنة. لقد دعوتكم للرقص، والأكل، والشرب والمرح . . . لا لتجلسوا تنقون كمجموعة من الدجاج المبلل أصابها مرض الخناق ! لقد تجرعتم شرابي، والتهمتم طعامي كالخنازير، أليس كذلك؟ اذن، ارقصوا من أجلي، أليس هذا في مقدوركم؟ أليس هذا من العدل والانصاف ؟ (زمجرة استياء من الجميع إلا أنهم، كما يبدو، يرهبونه لدرجة لا تمكن أحداً منهم من الافصاح عن مشاعره بصراحة) .

عازف الكمان : (في خبث) اننا ننتظر ايبن (بضحكة مكتومة) .

كابوت : (في ابتهاج عنيف) فليذهب ايبن الى الجحيم! لقد انتهى ايبن الآن! لقد جاء لي ولد جديد ! (تتحول حالته النفسية فجأة، شأنه شأن السكارى) لكن لا داعي لأن يسخر من ايبن أي منكم . انه من دمي، وان كان أبله أبكم ! انه أحسن من أي واحد منكم . في استطاعته أن ينجز عملاً في يوم واحد، قدر ما أنجز، على وجه التقريب . . . ويثير فيكم الشعور بالخجل ! ايها المساكين !

عازف الكمان : وفي استطاعته أن يعمل ليلاً عملاً جيداً ، كذلك ! (ضحك صاخب) .

كـابوت : اضـحكوا ايها البلهاء الملعونين ! إنك مصيب في هذا، ايها العازف. ففي استطاعته أن يعمل، مثلي، ليل نهار اذا لزم الأمر !

فـلاح عجوز : (من وراء برميل الويسكي حيث كان يترنح من فرط السكر ـ قـائلاً في سذاجة فائقة) ليس هناك من يجاريك، يا أفرايم . . . وينجب ولداً في سن السـادسـة والسبعين . أنك رجل صلب ! لقد كنت في الثامنة والستين، ولم استطع ذلك . (ضـحك صاخب، يشترك فيه كابوت) .

كـابوت : (يضربه بخفة على ظهره) إنني آسف من أجلك . لم أكن أظن أنك ضعيف الى هذه الدرجة !

الفـلاح العجوز : ولم أحسب أنك بهذه القوة، يا أفرايم (ضحكة أخرى) .

كـابوت : (يتـجـهم فـجأة) لدي قـوة كـبيرة ـ فظيـعـة . . . لا يعرفها الناس (يـسـتـديـر الى عـازف الكمان) هيـا، ايها العـازف، لعنة الله عليك ! قـدم لهم لحناً يرقـصـون عليـه ! مـا أنت ، هل انت مجرد حلية ؟ أليس هذا احتفالاً ؟ اذن ، هز مـرفقك ، وهيا للعزف !

عازف الكمان : (يتناول كأساً قد قدمه له الفلاح العجوز ويتجرعه) هيا !

(بدأ في عـزف مـقطوعـة « سـيـدة البـحيرة . » يشكل أربعة شبان وأربع فتيات صفين ويرقصـون رقصـة رباعيـة فيصيـح العازف بتوجيهاتـه لحركـات الرقـص المختلفـة ، جـاعلاً كلماته تتمشى مع الايقاع الموسيقـي ، ومازجـاً مع الكلمـات بعـض الملاحظـات الشـخـصـيـة المرحـة يوجـهـها للراقصين . أما الجالسون بجانب الحائط فانهم يدقون بأقـدامـهم ويصـفـقـون في وحـدة مـتجانسة . وكان كابوت يظهر نشاطاً خاصاً في هذا المضمار . امـا آبي فـتظل عازفة عن كل شيء وهي تحملق في الباب كما لو أنها وحيدة في غرفة ساكنة) .

عـازف الكمان : در بزمـيلتك جـهـة اليـمين ! هكذا، يا جـيم ! ضمها اليك بشـدة ! ان أمها غير ملتفتة ! (ضحك) ليبدل كل منكما زميلته ! هذا أنسب، أليس كـذلك، يا اسي ؟ الآن أمـامك رويب. أنظر الى وجهها يتورد خجلاً. هيه. . الحياة قـصيرة، وكذلك الحب، كما يقولون (ضحك) .

كـابوت : (في نشوة وهو يدق بقدميه) هيا يا فتيان، هيا. يا فتيات.

عـازف الكمان : (يغـمـز للآخرين) أنت، يا أفرايم، أنشط رجل رأيته في سن السـادسـة والسبـعين ! الآن، لو أن نظرك كـان قوياً . . . . ! (ضحك مكتوم. لا يعطي كـابوت فـرصـة للرد عليـه ، ويصيح صاخباً) أنتم في حفلة رقص ! أنت، يا سـارة، تسيرين كما لو أنك عـروس تتـهـادى بين مـقـاعد الكنيسة ! هيه، ما دامت هناك حـياة هناك أمل، كما يقول المثل ! در بزميلتك جهة اليسار ! ياه يا إلهي انظروا الى جـوني كـوك يقـفـز عـاليـاً بقـدميه ! لن تتبقى لديكم قوة للعمل في حقل القمح غداً). ضحك .

كـابوت : هيا ! هيا ! (ثم فجأة يقفز وسط الراقصين، بعد أن عجز عن كبح جماح نفـسـه أكثر من هذا. يزيح الراقصين هنا وهناك ويلوح بذراعيه في عنف) أنتم جميعـاً ترفـسـون بأقـدامكم ! اخلوا الطريق ! أفـسـحوا الطريق لي ! سأريكم كيف يكون الرقص ! كلكم في منتـهى الطراوة ! (يدفـعـهم بعنف بعـيـداً فيتجمعون عند الحائط، يتمتمون وينظرون اليه في استياء) .

عـازف الكمان : (بسـخرية) هيا، يا أفرايم، هيا! (يبدأ في عزف مقطوعة. . . «ها قـد انطلق بن عرس» وهو يزيد من الايقاع في كل فقرة حتى يصل الى درجة من العـزف السريع المحموم) .

كابوت : (يبـدأ بقـوة بالغة الرقص الذي يتقنه. ثم يأخذ في ارتجال خطوات من عنده، فيقفز قفزات مرحة غريبة لدرجة غير معقوله ، ثم يثب ويضرب كعبيه سوياً ، ثم يقفز على شكل دائرة وجـسـمـه قـد انحنى وكأنه يرقص رقـصـة هندية من رقصات الحرب . ثم فجأة يعتدل ويقـفز برجله الى أعلى ما يستطيع ، إنه يبدو وكأنه قرد في سيرك . وطوال هذا الوقت كان يخلط حركاته بصيحات وتعليقات ساخرة) هـوب ! هـكـذا يـكون الرقص ! هوب ! انظروا ! في السـادسـة والسبعين عاماً ، إن لم يكن يزيد ! انظروا إلـيّ . سأدعوكم للرقص في عـيـد مـيلادي المائة ، وستكونون في عداد الأموات حينئذ ! أنتم جيل من المرضى ! قلوبكم واهنة لا حـيـاة فـيـها ! وعروقكم مليئة بالطمى والماء ! لن يكون لي نظير في هذه المقـاطعة ! هوب ! انظرا الى هذه الرقصة ! إنها رقصة هندية ! لقد قتلت جنوداً في الغـرب قـبل أن تولدوا وسلخت فـروة رؤوسـهـم ، كـذلك ! هاكم أثر الجـرح في

جانبي الأيسر، يمكنني أن أريه لكم ! طاردني كل أفراد القبيلة، ولكني سبقتهم جميعاً . . . والسهم مغروس في جسمي ! لقد انتقمت منهم. عشرة عيون مقابل عين واحدة. هكذا كان شعاري ! هوب ! انظروا الي ! يمكنني أن أزيل سقف الحجرة برفسة ! هوب !

عازف الكمان : (يتوقف عن العزف . . . ويقول في اعياء) يا الهي الجبار، كفى هذا. ان لديك قوة شيطانية !

كابوت : (مسروراً) هل غلبتك، ايضاً ؟ هيه . . . لقد عزفت بمهارة . فلتشرب كأساً .

(يصب كأساً من الويسكي له ولعازف الكمان. يشربان. يراقب الآخرون كابوت في صمت، وبنظرات باردة غير ودية. هناك صمت ثقيل. يرتاح عازف الكمان بعض الشيء. ويتكىء كابوت على برميل الويسكي، وهو يلهث، محملقاً فيما حواليه في اضطراب. اما في الغرفة في الطابق العلوي فينهض ايبن ويمشي على أطراف أصابعه نحو الباب الخلفي ثم يظهر بعد ذلك بلحظة في غرفة النوم الأخرى. يتحرك في صمت بل وفي وجل نحو المهد، ويظل واقفاً هناك ينظر الى الطفل وعلى وجهه تعبير غامض، كما ساد الارتباك ردود فعله، وان كان هناك أثر من الرقة ومن الاهتمام بالتعرف على ملامحه. في نفس اللحظة التي يصل فيها ايبن الى المهد، يبدو أن آبي تشعر بشيء ما، فتنهض في ضعف وتتجه الى كابوت) .

آبي : سأصعد لأرى الطفل . .

كابوت : (برجاء صادق) هل أنت قادرة على صعود الدرج ؟ أتريدين أن أساعدك يا آبي ؟

آبي : كلا. في مقدوري الصعود. وسأنزل حالاً .

كابوت : لا ترهقي نفسك ! ان الطفل في حاجة اليك، تذكري . . . ان ابننا في حاجة اليك ! (يبتسم في حنان، وهو يربت على ظهرها. تجفل من لمسته) .

آبي : (في كآبة) لا تلمسني . . . انني سأصعد (تذهب . . يتابعها كابوت بنظراته. يدور همس في الغرفة. يستدير كابوت. يتوقف الهمس. يمسح جبهته التي

كـانت غارقة في العرق. يقول وهو يلهث) .

كـابـوت : ســأخـرج لأسـتنشـق الهواء الطلق . انني أشـعـر بدوار . اعـزف بكمانك!. ارقـصـوا جميـعاً ! هناك شراب لكل من يريد. اقضوا وقتاً ممتعاً ! سأعود. (يخرج ، قافلاً الباب وراءه) .

عـازف الكمان : (في تهكم) لا تسرع من أجلنا. (ضـحكة مكتومة تقلد آبي في سؤالها) أين ايبن ؟ (مزيد من الضحك) .

امـرأة : (في صـوت مرتفع) ما حدث في هذا البيت واضح وضوح الأنف على الوجـه ! (تبـدو آبي عند مـدخل الباب في الطابق العلوي وتظل واقفة تنظر في دهشة وله الى ايبن الذي لا يراها) !

رجل : اش ! من المحتـمل أن يكون يسترق السمع عند الباب. اذ ليس هذا مستبعداً منه !

(تخـف أصـواتهم لدرجـة الهمس الشـديد. وتركـز وجـوههم على التـعـبير عن الشـائعـات التي تتردد. يأتي من الغـرفـة صـوت أشبه بصوت الأوراق ـ الذابلة وهي تتـحـرك مع الريح. لقـد خرج كابوت من السقيفة ووقف عند البوابة، يستند عليها ويحملق في السماء وهو يبربش بعـينيـه. تدخل آبي الغـرفـة في صـمت . لا يلاحظها ايبن الا عندمـا تقترب كثيراً منه) .

ايبن : (مأخوذاً) آبي !

آبي : اش ! (تعانقه . يتبادلان القبل . . . ثم ينحنيان على المهد سوياً) أليس جميلاً ؟ . . . صورة طبق الأصل منك !

ايبن : (مسروراً) حـقاً ؟ لا أستطيع أن أجزم بهذا .

آبي : شبهك تماماً .

ايبن : (عابساً) انني لا أحب هذا. لا أحب أن أترك له ما أمتلك، لقد كنت أفعل هذا طوال حياتي . . . حتى نفذ صبري !

آبي : (تضع اصـبـعها على شفتيه) اننا نفعل كل ما نستطيع. علينا أن ننتظر.

شيء ما لابد أن يحدث . (تحيطه بذراعها) لابد أن أعود .

ايبن : سأخرج. لا أحتمل هذا العزف، وهذا الضحك !

آبي : لا تكتئب. انني أحبك، يا ايبن. اعطني قبلة (يقبلها ويظلان متعانقين) .

كابوت : (عند البوابة ، قائلاً في حيرة) حتى الموسيقى لا تستطيع طرد هذا ... هذا الشيء .... يمكنك أن تشعر به وهو يتساقط من أشجار الدردار، ويتسلق السقف، وينزل خلسة من على المدخنة، ويتحرك في الأركان ... ليس هناك سلام في البيوت. ليست هناك راحة في العيش مع الآخرين. شيء ما يعيش دائماً معك . (بتنهيدة عميقة) سأذهب الى الحظيرة وأرتاح بعض الوقت. (يذهب في اعياء تجاه الحظيرة) .

عازف الكمان : (يضبط النغم) دعونا نحتفي بخديعة الرجل العجوز ! يمكننا أن نمرح ، بعد أن انصرف . (يبدأ في عزف مقطوعة «ديك رومي بين القش.» الآن هناك مرح حقيقي. وينهض الشباب للرقص) .

المنظر الثاني

(بعد أحداث المنظر الأول بنصف ساعة . خارج الدار . يقف ايبن بجوار البوابة ينظر الى السماء، وعلى وجهه تعبير ينم على ألم حائر لا يجد له متنفساً. يظهر كابوت، عائداً من الحظيرة، سائراً في اعياء وعيناه على الأرض. يرى ايبن فتتغير على الفور حالته النفسية. ينفعل، وتفتر شفتاه عن ابتسامة قاسية فيها تشف، فيسرع الخطى ويضرب ايبن بخفة على ظهره. ومن الداخل يسمع عزف الكمان الشاكي، وأصوات الضحك ووقع الأقدام) .

كابوت : أنت هنا !

ايبن : (يفزع ويحملق فيه في مقت لحظة ... ثم يقول في فتور) نعم .

كـابوت : (يتـفـحـصه في سخرية) لماذا لم تأت الى الرقص ؟ لقد كان الكل يسألون عنك .

ايبن : دعهم يسألون .

كـابوت : لقد كانت هناك مجموعة من الفتيات الجميلات . . .

ايبن : ليذهبن الى الجحيم .

كـابوت : ينبغي عليك أن تتزوج واحدة منهن .

ايبن : لن أتزوج أي واحدة .

كـابوت : ويمكنك بهذه الطريقة أن تنال نصيباً في مزرعة ما .

ايـبن : (في تهكم) أتعْني، كما فـعلت أنت ؟ أنني لست من هذا الصنف من الناس .

كـابـوت : (مـتـألمـاً) أنت تكذب ! إن أهل والدتك هم الذين كـانوا يريدون سرقـة مزرعتي .

ايـبـن : الـناس لها رأي آخـر . (بعـد فترة صـمت . . . يقـول في تحـد) لدي مزرعة، على أي حال .

كابوت : (ساخراً) أين هي ؟

ايبن : (يخبط بقدميه على الأرض) هنا .

كابوت : (يميل برأسه الى الخلف ويضحك في فظاظة) هو . . . هو ! لديك مزرعة، حقاً ؟ هيه . . . هذه نكتة لطيفة !

ايبن : (يتحكم في مشاعره . . . ثم يقول في فتور) سترى .

كـابوت : (يحملق فـيـه في ريبـة، وهو يحاول أن يدرك ما يرمي اليه . . . فترة صـمت . . . ثم يقـول في ثقـة وسـخرية) فعلاً. سأرى. وسترى. انك أعمى . . . أعـمى كـحـفـار الأرض ! (يضحك ايبن فجأة، ضحكة ساخرة أشبه بالنباح) : ها (. . . فترة صـمت يحدق كابوت النظر فيها في ريبة من جديد) . . . ما يضحكك ؟

(يستـدير ايبن بعيـداً دون أن يجيب، مما يغضب كابوت) يا الهي الجبار، انك مغفل كـبير ليس هناك في جمجـمتك الغليظة سـوى شوشرة . . . كما لو أنها برميل فارغ ! (يبـدو أن إيبن لم يسـمع . يزداد غـضب كـابوت) مـزرعتك ! يا إلهي الجبار ! اذا لم تكن حماراً بالسليـقـة لعرفت أنك لن تنال منها عصا أو حجراً، وخاصة الآن بعد أن جـاء لي ولد. انها مـزرعتـه، أقـول لك . . . انها ستكون مـزرعتـه بعد مماتي . . . ولكني سأعيش حتى أبلغ المائة تقريباً ! (ايبن يضحك ثانية. هذه الضحكة الساخرة «ها» تدفع كـابوت الى هياج شديد) ها ؟ أتظـن أنك ستجد طريقة للتحايل ، أليس كـذلك ؟ حسناً ، وستكون مـزرعتها أيضاً . . . مزرعة آبي . ولن تستطيع التحايل عليـها . . . اذ أنها تعرف حيلك . انها أكثر من ند لك. وهي تريد المزرعة لها. لقد كـانت تخافك. لقـد قـالت لي إنك كنت تتسلل محاولاً مـغـازلتـها لكي تكسبها الى جانبك . . . أنت . . . أنت أيها المغفل المجنون ! (يرفع قبضتي يديه وقد كز عليهما متوعداً) .

ايبن : (يواجـهـه ، وقـد كـاد يختنق من الغضب) أنت تكذب ، أيها العجوز الخسيس. آبي لم تقل هذا اطلاقاً !

كـابوت : (فـجأة يشـعـر بالانتصار عندما يرى أثر هذا الكلام على ايبن) لقد قـالت هذا. وقلت أنا «سأجـعل مخه يتناثر على قـمـة أشجار الدردار هذه» . عندئذ ردت قـائلـة «ان هـذا كـلام غير مـعـقـول اذ من يأتي الى هذا المكان لمسـاعـدتك في المزرعـة» ثـم أضـافـت «أنـت وأنـا يجـب أن نـنجب ولداً . . . أعـرف أن هذا في الامكان» فـقلت «اذا حـدث هذا، فلن أرفض لك طلبـاً» . فـردت قـائلة «أريد أن تطرد ايبن حـتى تكون هذه المزرعـة لي بعـد مماتك !» «يلقي اليه نظرة رهيبة» هذا ما حـدث ، أليس كـذلك ؟ ان المزرعـة لها، وغبار الطريق لك ! ها ! والآن من منا له أن يضحك ؟

ايبن : (كـان يصـغي وقد تصلب من الحزن والغضب . . . ثم يضحك فجأة في عنف وتأثر) ها . . . ها . . . ها . . . ! اذن، كـانت هذه لعـبتـها الخفية . . . طـوال الـوقـت . . . كما تـصـورت أول الأمـر . . . في أنهـا ستـلتـهم كل شيء ، وتلتـهـمني كـذلك . . . ! (في جنون) سأقـتلها ! (يقفز تجاه السقيفة، ولكن كابوت

كان أسرع منه اذ يقف حائلاً بين وبين أن يمر) .

كابوت : كلا ، لا تفعل هذا !

ايبن : ابعد عن طريقي !

(يحاول ازاحة كابوت جانباً. يتصارعان فيما يبدو على الفور وكأنه صراع قاتل. ان قوة الرجل العجوز المركزة أقوى من ايبن. يدفع كابوت احدى يديه الى عنقه ويدفعه الى الخلف الى الحائط الحجري. في نفس اللحظة تأتي آبي من السقيفة، وبصيحة مخنوقة تهرع نحوهما) .

آبي : ايبن ! افرايم ! (تشد على اليد التي تمسك رقبة ايبن) اتركه، يا افرايم! إنك تخنقة !

كابوت : (يبعد يده ويلقي ايبن جانباً بكل ما لديه من قوة على العشب، وهو يلهث وفي حلقه غصة. تصيح آبي وتركع بجانبه، محاولة أخذ رأسه على حجرها، لكنه يزيحها بعيداً. يقف كابوت ينظر اليها في شراسة وانتصار) لا داعي للانزعاج، يا آبي. لم تكن نيتي قتله. فهو لا يستحق أن يشنق الانسان من أجله ... بأية حال من الأحوال ! (تزداد لهجة الانتصار) أنا في السادسة والسبعين وهو لم يتجاوز الثلاثين... انظري كيف كان يظن والده لقمة سهلة ! انني لست سهلاً! سوف أربي الطفل، هناك في الطابق العلوي، لكي يكون مثلي ! (يستدير ليتركهما) سأذهب للرقص ... أغني وأحتفل ! (يسير الى السقيفة ... ثم يستدير بابتسامة كبيرة) لم أكن أحسب أنه خائر القوة بهذا الشكل. والآن اذا ما أزعجك، يا آبي، ما عليك الا أن تنادي بصوت عال، وعندئذ سآتي على عجل، وبحق الله الخالد، سأضعه على ركبتي وأضربه بالعصى . ها ... ها ... ها !

(يدخل البيت ضاحكاً. بعد لحظة تسمع صيحته العالية «هوب !») .

آبي : (برقة) ايبن ! هل أصابك أذى ؟ (تحاول أن تقبله، لكنه يزيحها بعيداً عنه في عنف، ويحاول الجلوس) .

ايبن : (لاهثاً) لتذهبي ... الى الجحيم !

آبي : (لا تصدق اذنيها) إنني أنا ، يا ايبن . . . أنا آبي . . . ألا تعرفني ؟

ايبن : (يحدق فيها في كراهية) نعم . . . أعرفك . . . الآن . (ينهار فجأة وهو ينشج في ضعف) .

آبي : (خائفة) ايبن . . . ما الذي جرى لك . . . لماذا تنظر الي كما لو أنك تكرهني ؟

ايبن : (بعنف، وبلهجة بين النشيج والشهقات) انني اكرهك فعلاً ! أنت عاهرة . . . عاهرة ملعونة مخادعة !

آبي : (تتراجع في فزع) ايبن ! أنت لا تدري ما تقول !

ايبن : (يهرول واقفاً على قدميه ويتبعها ـ . . . وهو يقول في اتهام) ما أنت الا كومة نتنة من الأكاذيب . لقد كنت تكذبين علي في كل كلمة قلتها، ليل نهار. منذ أول مرة . . . فعلناها، وبقيتِ تقولين لي انك تحبينني . . .

آبي : (بطريقة محمومة) انني أحبك فعلاً ! (تتناول يده ولكنه يزيح يدها بعيداً عنه) .

ايبن : (غير مبال) لقد جعلت مني . . مغفلاً غبياً . . . عن عمد . . . لقد كنت تقومين بلعبتك الخفية طوال الوقت بقصد السرقة . . . تدفعينني لمعاشرتك حتى تنجبي ولداً يظن أنه ابنه فتجعليه يعدك بالمزرعة ولا يبقى لي الا غبار الطريق، اذا ما انجبت له هذا الولد ! (يحدق النظر فيها بعينين فيهما حيرة وعذاب) لابد أن الشيطان يكمن في أعماقك ! اذ لو كان الشيطان بشراً لما كان أسوأ من هذا !

آبي : (في ذهول) . . . (تقول في كآبة) هو قال لك هذا ؟

ايبن : أليس هذا صحيحاً ؟ لا فائدة من الكذب . . .

آبي : (متوسلة) ايبن، اسمع . . . لابد أن تسمع . . . كان هذا منذ وقت طويل . . . قبل أن يكون بيننا أي شيء . . . كنت وقتذاك تحتقرني . . . وتذهب الى ميني . . . بينما كنت أحبك . . . وقلت ذلك لكي انتقم منك !

ايبن : (دون مبالاة، قائلاً في انفعال وعذاب) يا ليتك مت قبل هذا ! يا

لـيـتني مت مـعك، قـبل أن يحدث هذا ! (ثائراً) لكني سأنتـقم، أيضـاً ! سأتوسل لأمي بأن تعـود لتساعدني . . . وتصب اللعنة عليك وعليه !

آبي : (في تـأثـر) لا تفـعل ذلك، يا ايبن ! لا تفـعل ! (تركعَ بجـواره، وهي تبكي، لم تكن نيـتي أن أمسك بسوء ! سامحني ، أرجوك !

ايبن : (يبـدو كأنه لم يسـمع مـا قـالته . . . ثم في شراسة) سأنتقم منك ومن هذا العـجـوز الخـسـيس ! سأقـول له الحـقـيـقـة بشأن ابنه الذي يفخر به ! وعندئذ سأترككما هنا يعـذب كل منكما الآخر . . . وستعود أمي كل ليلة من قبرها . . . أما أنا فـسأذهب الى مناجم الذهب في كاليفورنيا . . . حيث رحل سيم وبيتر . . .

آبي : (فـزعة) لن تفعل هذا . . . هل تتركني ؟ لن تستطيع !

ايبن : (في عـزم شـديد) أقـول لك إني راحل ! وسأصـبح ثرياً وأعود لأحاربه من أجل المزرعـة التي سرقـها . . . وسألقي بكما سوياً الى عرض الطريق . . . حيث تتـسـولان وتنامـان في الأحـراش . . . ومـعكما ابنكما . . . حـتى تموتوا جـوعاً ! (في نهاية كلامه لهجة هستيرية) .

آبي : (وهي ترتعد . . . في ذلة) انه ابنك أيضاً ، يا ايبن .

ايبن : (في لهجـة عـذاب) يا ليـتـه لم يولد ! يا ليـتـه يموت هذه اللحظة ! يا لـيـتني لم أره إطلاقـاً ! إنه هو . . . وانجـابك له . . . بقـصـد السرقـة . . . إنه هو الذي غير كل شيء !

آبي : هل كنت تثق في حبي . . . قبل مجيئه ؟

ايبن : نعم . . . مثل ثور أبكم !

آبي : وأنت لا تصدق هذا الآن ؟

ايبن : أصدق لصة كاذبة ! هَا !

آبي : (ترتعـد . . . وتقول في ذلة) وهل كنت تحبني حقاً قبل ذلك ؟

ايبن : (في تأثر) نعم . . . لكنك كنت تخدعينني ؟

آبي : ولم تعد تحبني الآن ؟

ايبن : (في عنف) أقول لك ، اني أكرهك !

آبي : هل حقاً سترحل الى الغرب ... وتتركني ... وكل هذا بسبب هذا المولود ؟

ايبن : سأرحل في الصباح ... والا فليقذف بي الله في الجحيم !

آبي : (بعد فترة صمت ... بحدة رهيبة حازمة ... ثم ببطء) اذا كان هذا ما يفعله وجودي بي ... يقتل حبك، ويبعدك عني وأنت فرحتي الوحيدة، الفرحة الوحيدة التي عرفتها ... وكأنها الجنة بالنسبة لي، بل أجمل من الجنة ... اذا كان هذا ما يفعله وجوده. اذن أني اكرهه ايضاً ، رغم كوني أمه !

ايبن : (في مرارة) أكاذيب ! أنت تحبينه ! أنه سيسرق المزرعة لك !

(في تأثر) ولكن المزرعة ليست هي كل شيء ... المهم خداعك لي ... ودفعك لي للحب... وقولك كذباً بأنك تحبينني... كل هذا لمجرد السرقة... ؟

آبي : (في شرود) لن يسرق ! سأقتله قبل أن يفعل هذا ! انني أحبك فعلاً ! وسأثبت لك ...

ايبن : (في قسوة) لا داعي للكذب أكثر من هذا، لن أصغي لما تقولين !

(يستدير بعيداً) ولن أراك ثانية، وداعاً !

آبي : (شاحبة من فرط العذاب) ألن تقبلني ... ولو مرة واحدة ... بعد كل الحب الذي كان بيننا ... ؟

ايبن : (بصوت قاس) لا أريد أن أقبلك بعد هذا أبداً ! انني أريد أن أنساك تماماً !

آبي : ايبن ! ... لا يجب أن ... أنتظر فترة قصيرة ... أريد أن أقول لك ...

ايبن : سأذهب لأشرب. سأذهب لأرقص .

آبي : (تتشبث بذراعه . . . وتقول في حماس عاطفي) لو أني استطعت . . . لو أنه أصبح لا يقف حائلاً بيننا . . . لو أني استطعت أن أبرهن لك بأنني لم أتآمر لأسرق المزرعة منك . . . هل يعود كل شيء كما كان بيننا . نحب بعضنا كما كنا، ونقبل بعضنا ونشعر بالسعادة طول الوقت . . . لو استطعت ذلكَ . . . ستحبني ثانية، أليس كذلك ؟ ستقبلني ثانية ولن تتركني أبداً ؟

ايبن : (في تأثر) أجل. (ثم يزيح يدها من على ذراعه . . . ويبتسم في مرارة) ولكنك لست الإله الذي يتحكم في المصائر ، أليس كذلك ؟

آبي : (في ابتهاج) تذكر أنك وعدت ! (ثم في حدة غريبة) ربما أستطيع أن أقوم بعمل يتولاه الله عادة !

ايبن : (يحدق النظر فيها) هي أصبحت مخبولة ! (ثم يتجه نحو الباب) سأذهب للرقص .

آبي : (تصيح منادية في حدة) سأبرهن لك ! سأبرهن لك أنني أحبك أكثر من. . . (يدخل الباب، ويبدو أنه لم يسمع ما قالته. تظل واقفة تتابعه بنظراتها. . . ثم تكمل جملتها السابقة في يأس) . . . أكثر من أي شيء !

المنظر الثالث

(قبل طلوع الفجر. يبدو المطبخ وغرفة نوم كابوت . في المطبخ يبدو ايبن جالساً في ضوء شمعة موضوعة على المنضدة ، وقد أسند ذقنه على يديه ، ووجهه مشدود وجامد لا تعبير فيه . بجواره حقيبته المصنوعة من السجاد . ويبدو كابوت نائماً في غرفة النوم بضوئها المعتم المنبعث من مصباح زيتي صغير . تنحني آبي على المهد، وهي تنصت، وقد ملأ الرعب قلبها، وان كان وراء هذا شعور يائس جارف بالانتصار. فجأة، تنهار وتنشج، وكأنها على وشك أن تركع بجانب المهد، لكن الرجل العجوز يتقلب على سريره ويئن في نومه. ثم تسيطر على عواطفها وتتراجع بعيداً عن المهد بحركة تنم على الفزع، متقهقرة نحو الباب الخلفي حتى تخرج. بعد

ذلك بلحظة تدخل المطبخ، وتهرع نحـو ايبن تعـانقـه وتقبله في عنف. يقف ايبن في جمود ويظل بلا تأثر ولا عـاطفة وهو ينظر أمامه مباشرة) .

آبي : (بلهجة هستيرية) لقد فعلتها، يا ايبن! لقد قلت لك أني سأفعل ذلك ! لقـد برهنت بأن حـبي لك . . . أكـثـر من أي شيء . . . ولهذا لا يمكنك أن تشك اطلاقاً في حبي بعد هذا !

ايبن : (في فتور) مهما فعلت، فلا فائدة الآن .

آبي : (في عـنـف) لا تـقل هذا ! قـبلني، يا ايبن . . . الا تقـبلني ؟ انني في حاجة الى قبلتك، بعد ما فعلت ! انني في حاجة لأن تقول لي اني أحبك !

ايبن : (يقـبلهـا بدون عـاطفـة . . . ويقـول في فـتـور) هذه قبلة الوداع إنني سأرحل قريباً ،

آبي : كلا ! كلا ! لن ترحل . . . ليس الآن !

ايبن : (يسـتـمـر في التـعبير عن أفكاره) لقد كنت أفكر . . . لن أخبر والدي بـأي شيء . . . سـأدع أمي تنتـقم منكما. اذ لو أني أخبرته، لما توقف هذا العـجـوز الخـسيس عن الانتـقام من الطفل. (يبدو في صوته عاطفة لا يقوى على كتمها) وأنا لا أريد أن يلحـقـه أي أذى. لا لوم عليـه هو ! (ثم يضـيف في شيء من الاعـتـزاز الغريب) ثم انه يشبهني ! بالله انه ابني ! ويوماً ما سأعود و . . . .

آبي : (مـسـتـغـرقـة في أفكارها لدرجة أنها لم تسمعه . . . ثم تقول في توسل) ليس هناك مـا يدعـو لسفرك الآن . . . ليس هناك داع . . . كل شيء الآن كما كان في الماضي . ولا يوجـد ما يحول بيننا الآن . . . بعد ما فعلت !

ايبن : (هناك شيء في صـوتها يثير اهتمامـه، فـيـحـملق فـيـها في فزع) تبدين كالمجنونة، يا آبي. ماذا فعلت ؟

آبي : لقد قتلته ، يا ايبن .

ايبن : (مندهشاً) قتلته ؟

آبي : (في كآبة) نعم .

ايبن : (بعـد أن فـاق من دهشـتـه . . . يقـول في شراسـة) إنه يستحق هذا ! لكن علينا أن نقـوم بعمل سريع حتى يبدو أن الرجل العجوز الخسيس قد قتل نفسه وهو مخمـور. يمكننا أن نثـبت ذلك، وسيشهد الكل معنا أنه كان مخَموراً .

آبي : (في عنف) كـلا ! كـلا ! ليس هو . (تضـحك في شرود) لكن هذا مـا كـان يجـب أن أفعـله ، أليس كـذلك ؟ كـان يجب أن أقـتله بدلاً من هذا ! لماذا لم تخبرني؟

ايبن : (فزعاً للغاية) بدلاً من هذا ؟ ماذا تعنين ؟

آبي : ليس هو .

ايبن : (وقـد بدا وجـهـه شاحباً لدرجة مروعة) ليس . . . لا يمكن أن يكون الطفل !

آبي : (في كآبة) نعم !

ايبن : (يركع على ركـبـتـيـه كما لو أنه صـعق . . . ويرتعـد صوته من الفزع) أوه، يا الهي الجبار ! أمي ، أين كنت، لماذا لم تمنعيها .

آبي : (ببـسـاطة) تذكـر أنها عادت الى قبرها تلك الليلة التي جمعنا فيها الحب لأول مـرة ! ومـنـذ ذلك الوقت لم أحس بوجـودها. (فترة صـمت. يخفي ايبن رأسـه بين يديه، وهو ينتـفض كما لو أنه مـصـاب بالحـمى. وتسـتـمـر في كآبة) لقد تركت الوسـادة على وجـهـه الصغير . ثم قتل هو نفسه لقد توقفت أنفاسه (تأخذ في البكاء في هدوء) .

ايبن : (بدأ الغضب يمتزج بالحزن) كان يشبهني. كان ابني ، عليك اللعنة!

آبي : (بـبـطء وتأثر) لم أكن أريد أن أفـعل هذا. لقـد كـرهت نفسي لفـعلتي هذه، كنت أحـبـه. وكـان جميلاً . . . صورة طبق الأصل منك، ولكني كنت أحبك أكـثـر . . . وكنت تنوي الرحـيل . . . بعـيـداً حـيث لا أراك أبداً، ولا أقبلك، ولا أعـانـقـك . . . كما أنك قلت إنك تكرهني لأني أنجبـتـه . . . وقلت إنك تكرهني وتـتـمنى لو أنه مات . . . كما قلت إنه لولاه لاستمر الحال بيننا ، كما كان من قبل .

ايبن : (غير قـادر على احتـمال هذا، فـينهض واقـفـاً في ثورة من الغـضب ، مـهـدداً إياها، وأصـابعـه المرتعـشة تبدو وكأنها تمتد الى عنقها) أنت تكذبين ! لم أقل هذا أبداً . . ولم يخطر ببـالي قط أنك سوف . . . كنت أفضل أن تقطع رأسي قبل أن يمس أصبعه أي أذى !

آبي : (في لهجـة مؤثرة، وهي تخر راكعة) ايبن، لا تنظر الي كهذا. لا تكرهني . . . لا ، ليس بعد ما فعلت من أجلك . . . من أجلنا . . . حتى نعيش سعيدين مرة أخرى . . .

ايبن : (ثائراً الآن) اسكتي، والا قـتلتك ! انني أدرك لعبتك الآن . . . نفس الخـدعة الدنيئة القديمة . . . أنت تهدفين الى إلقاء اللوم عليّ للجريمة التي ارتكبتها!

آبي : (تئن . . . واضـعـة يـديها على أذنيـهـا) لا تقل هذا ، يا ايبن ! لا تقل هذا ! (تمسك بساقيه) .

ايبن : (فـجأة تتحول حالته النفسية الى حالة من الفزع، فينفر بعيداً عنها، لا تلمـسيني ! انت سم ! كـيف استطعت أن . . . تقتلي مخلوقاً صغيراً مسكيناً ؟ لابد أنك قـد بعت روحـك للجحيـم . (يثور فجـأة) ها ! استطيـع الآن أن أدرك سبـب فعلتك ! انها ليست الأكاذيب التي ذكرتها . . . بل لأنك تريدين سرقة أخرى . . . سرقـة آخر شيء تركـته لي . . . نصيبي في الطفل . . . كلا ، بل الطفل كله ! لقد رأيت أنه يشـبـهني . . . وكنت تدركين أنه يشـبـهني تمام الشـبـه . . . فلم تستطيعي احتـمال هذا . . . انني أفـهمك ! لقد قتلته لأنه مني ! (كاد يصيبه كل هذا الحديث بشيء من الجنون، فـيـمرق من أمامها متجهاً نحو الباب . . . ثم يستدير . . . هازاً قـبـضـتي يديه نحـوها في عنف) لكنني سأنتـقم الآن ! سأستدعي المأمور ! وسأخبره بـكـل شيء ! عـنـدئذ سـوف أغني «انني راحل الى كـاليـفـورنيـا» سأرحل . . . الى الذهب . . . الى البـوابة الذهبـيـة . . . الى الشمس الذهبية . . . الى مناجم الذهب في الغـرب ! (قـال العبـارة الأخيرة في شبه صيحة، في شبه دندنة في غير ترابط، ثم ينفـجر منفعلاً) انني ذاهب الى المأمور ليأتي ويقبض عليك ! أريده أن يبعدك عني، ان يسـجنك لتبتعدي عني ! اني لا احتمل النظر اليك ! سواء كنت قاتلة أو لصة أو غير ذلك فـلا يزال اغراؤك شديداً ! سأسلمك للمأمور .

(يستـدير ويجري الى الخـارج، حول ركن البيت، وهو يلهث وينشج، ويعدو بسرعة عبر الطريق المتعرج) .

آبي : (تجـاهد حـتى تقف ثم تجـري نحـو البـاب، وتصيح خلفه) أحبك، يا ايبن ! احـبك (تتـوقف عند البـاب في ضـعف، وهي تترنح وعلى وشك السقوط) لا أبالي بما تفـعل . . . لو أن حبك عاد الي ! (تسقط مترنحة على الأرض في اغماءة) .

المنظر الرابع

(بعـد أحـداث المنظر الثـالث بساعة . نفس المنظر ، أي المطبخ وغرفة نوم كابوت . الوقت بعـد الفـجـر ، وقـد أضاء شروق الشمس السماء . تجلس آبي الى المائدة ، جسمها حائر مـرهق ، وقـد أحنت راسـها على ذراعيها ، وقد أخفت وجهها . في الطابق العلوي لا يزال كـابوت نائمـاً ، ولكنه يصـحو فزعـاً . ينظر نحو النافذة ، ويطلق شخيـراً من الدهشـة والغـيظ ـ يزيح الأغطية من على السرير ، ثم يبدأ في ارتداء ملابسه على عجل . ودون أن ينظر خلفه يأخذ في التحدث مع آبي التي كان يعتقد انها بجواره) .

كـابوت : يا للهـول ! يا آبي ! انني لم أتأخر في النوم كهذا منذ عشرين عاماً ! لقـد أشرقت الشـمس تماماً. لابد أن ذلك من أثر الشراب والرقص. ولابد أن العمر قـد تـقـدم بي. أرجـو أن يكون ايبن قـد ذهب للعـمل. كـان في امكانك أن تكلفي نفـسك مـشـقـة ايقاظي، يا آبي . (يستدير ـ لا يرى أحداً ـ يندهش) هيه . . . أين هي؟ اعـتـقـد أنها تتناول افطارها (يمشي على أطراف أصـابعه نحو المهد يحدق النظر فـيـه . . . ثم يقـول في اعـتـزاز) صـباح الخير، يا بني. انه جميل كالصورة ! انه ينام نومـاً عـمـيـقـاً، ولا يصرخ طول الليل كـمـعظم الأطفال (يخرج في هدوء من الباب الخـلفي ـ ويدخل المطبخ بعـد ذلك بلحظات . . . يرى آبي . . . ويقـول في رضى) ها أنت ها . هل طهوت طعام الافطار ؟

آبي : (دون ان تتحرك) كلا .

كـابوت : (يقترب منها، ويقول في لهجة عطوفة) أتشعرين بمرض ؟

آبي : كلا .

كـابوت : (يربت على كـتفيها، فترتعش) يحسن أن تستريحي قليلاً . (وفي شيء من الدعـابة) سيحتاج اليك ابنك حالاً . لابد أنه سيصحو بشهية مفتوحة، بعد نومه العميق هذا !

آبي : (ترتعد . . . ثم في صوت لا حياة فيه) لن يستيقظ أبداً .

كـابوت : (مـازحـاً) انه مـثلي هذا الصبـاح. انني لن أتأخر في النوم الى هذه الدرجة . . . .

آبي : لقد مات .

كابوت : (يحملق فيها . . . ويقول في ذهول) ماذا . . . ؟

آبي : لقد قتلته .

كـابوت : (يبـتـعـد عنهـا خطوة . . . ويقـول في فزع مروع) هل أنت مخمورة . . . أو مجنونة . . . أو . . . . ؟

آبي : (فـجأة ترفع رأسـهـا وتلتفت اليه . . . وتقول في عنف) أقول لك، لقد قـتلتـه ! لقـد خنقـتـه ! اصـعـد لترى بنفسك، اذا كنت لا تصدقني ! (يحملق فيها كـابوت برهة، ثم يهرول نحـو الباب الخلفي. ويمكن سماع وقع أقدامه على الدرج، وهو يندفع الى غـرفـة النوم مـتـجـهاً الى المهد. أما آبي فقد عادت الى حالتها السابقة التي لا تشـعـر فـيـهـا بأي حـياة . يضع كابوت يده على جسم الطفل في المهد. ثم يطغى على وجـهه تعبير من الخوف والفزع) .

كـابوت : (يتراجع . . . ثم يرتعـد) يا الهي الجـبـار ! يا الهي الجـبار ! (يتعثر وهو يهرول نحـو البـاب . . . ثم يعـود بعد لحظة قصيرة الى المطبخ . . . ويقبل على آبي ولا يزال على وجـهـه سـيماء الذهول . . . ثم يقـول في خشونة) لماذا فعلت هذا ؟ لماذا ؟ (عندمـا لا تجيب، يمسكها بعنف من كتفها ويهزها) انني اسألك، لماذا فعلت هذا ؟ يحسن بك ان تخبريني والا . . .

آبي : (بدفعة شرسة جعلته يترنح الى الخلف، ثم تنهض واقفة وتقول في غضب وكراهية) حذار أن تلمسني ! بأي حق تسألني عنه ؟ إنه لم يكن ابنك ! أتظن أني أنجب طفلاً منك ؟ أنني أفضل الموت على هذا. انني أكره رؤيتك، وكنت دائماً أكرهك. أنت الذي كان يجب قتلك، لو كان لدي حسن ادراك ! انني أكرهك ! انني أحب ايبن ! ولقد أحببته منذ البداية. لقد كان الطفل ابن ايبن . . . ابني وابن ايبن . . . وليس ابنك !

كابوت : (يظل ينظر اليها وهو في حالة دوار . . . فترة صمت . . . يجاهد في البحث عن كلمات . . . ثم يقول في كآبة) هذا اذن . . . ما كنت أشعر به . . . أشياء تتحرك في الأركان . . . بينما كنت تكذّبين علي، ولا تستجيبين لي . . . بحجة أنك قد حملت بالفعل . . . (يعود الى حالة من الصمت الساحق . . . ثم يقول في عاطفة غريبة) لقد مات، بالتأكيد، لقد سمعت قلبه. أيها المخلوق الصغير المسكين! (تطرف عينيه دمعه، يمسحها بكمه من على أنفه) .

آبي : (بلهجة هستيرية) لا تفعل هذا ! لا تفعل هذا ! (تنطلق في البكاء) .

كابوت : (بجهد مركز يجعل جسمه يتصلب ووجهه يتجمد في قالب قناع حجري . . . ثم يدفع الكلمات بمشقة عبر أسنانه مخاطباً نفسه) يجب أن أصبح كالحجر . . . صخرة العدالة ! (فترة صمت . . . يسيطر على عواطفه . . . ثم يقول في قسوة) لو كان ابن ايبن، فإني أشعر بالسعادة لأنه رحل ! ربما كنت أشك في الأمر طوال الوقت. لقد شعرت أن هناك شيئاً غير عادي . . . في مكان ما . . . اذ أن البيت صار موحشاً . . . بارداً . . . مما دفعني الى الحظيرة . . . الى حيوانات الحقل. نعم لابد أني كنت أشك . . . في شيء ما. انه لم يخدعني . . . ليس تماماً، على الأقل. لقد تقدم بي العمر، وأصبحت ثمرة حان قطفها . . . (يدرك أنه قد انساق وراء أفكاره ومشاعره، ثم يعتدل في وقفته، وينظر الى آبي بابتسامة قاسية) اذن كنت تريدين قتلي بدلاً منه، أليس كذلك؟ هيه، سأعيش حتى أبلغ المائة عام ! وسأعيش حتى أراك تشنقين ! وسأسلمك الى حكم الله وحكم القانون ! والآن سأستدعي المأمور . (يهم نحو الباب) .

آبي : (في كآبة) لا داعي لذلك. لقد ذهب ايبن لاستدعائه .

كابوت : (مندهشاً) ايبن . . . ذهب الى المأمور ؟

آبي : نعم .

كابوت : ليبلغ عنك ؟

آبي : نعم .

كابوت : (يفكر في هذا . . . فترة صمت . . . ثم في صوت قاس) هيه، أشكره لأنه لم يكلفني مشقة هذا. سأذهب للعمل (يذهب نحو الباب ثم يستدير . . . ويقول في صوت مليء بعاطفة غريبة) كان يجب أن يكون ابني، يا آبي. كان يجب أن تحبيني. لو أنك أحببتني ، لما بلغت عنك المأمور، مهما فعلت، حتى ولو حرقوني حياً .

آبي : (في لهجة دفاع) وراء تبليغه أشياء أخرى لا تعرفها .

كابوت : (في جفاء) أرجو أن تكون هذه في مصلحتك . (يخرج . . . يصل الى البوابة . . . يحملق في السماء. تتزعزع رباطة جأشه قليلاً. ولبرهة يبدو هرماً منهوك القوى . ثم يتمتم في يأس) يا الهي الجبار ! سأشعر بوحشة أكثر من أي وقت مضى ! (يسمع وقع أقدام آتية من جهة اليسار ، فيتمالك زمام نفسه من جديد . يدخل ايبن وهو يجري ويلهث في اعياء . عيناه جامحتان ، ويبدو عليه الجنون . يدخل البوابة مترنحاً . يمسكه كابوت من كتفه ، فيحملق فيه ايبن في صمت) هل بلغت المأمور ؟

ايبن : (يومىء في بلاهة) نعم .

كابوت : (يدفعه دفعة تجعله ينبطح على الأرض . . . فيضحك في ازدراء قاس) هذا ما تستحقه. أنت مثال الضعف، كما كانت أمك ! (يتجه نحو الحظيرة ويضحك في غلظة، ويهرول ايبن واقفاً. فجأة يستدير كابوت . . . وهو يهدد في تجهم) عليك مغادرة المزرعة عندما يقبض عليها المأمور . . . والا، وأقسم بالله العظيم ، سيعود ليقبض علي لجريمة قتل ، أيضاً (يمشي متثاقلاً . ويبدو أن ايبن لم يسمع ما قاله . يهرع نحو الباب ويأتي الى المطبخ . تتطلع آبي اليه بصيحة فرح وعذاب. يتعثر ايبن ويلقي بنفسه راكعاً بجوارها . . . وهو يبكي في تأثر) .

ايبن : سامحيني !

آبي : (في سعادة) ايبن ! (تقبله وتجذب رأسه على صدرها) .

ايبن : انني احبك ! سامحيني !

آبي : (في نشوة من الفرح) إنني سأغفر لك كل خطايا الجحيم لمجرد قولك هذا ! (تقبل رأسه وهي تضمه اليها بعاطفة عنيفة وكأنها تريد أن تمتلكه) .

ايبن : (في تأثر) ولكني بلغت المأمور. إنه آت للقبض عليك !

آبي : الآن . . . في استطاعتي أن أحتمل أي شيء !

ايبن : لقد أيقظته . . . وبلغته ، فقال «انتظر حتى أرتدي ملابسي» . كنت انتظره عندما بدأت أفكر فيك، وفي حبي لك. لقد عذبني هذا الفكر كما لو أن شيئاً ما ينفجر في صدري ورأسي. فأخذت أبكي وعرفت فجأة انني لا زلت أحبك، كما كنت دائماً !

آبي : (تربت على شعره . . . وتقول في حنان) أنت حبيبي، أليس كذلك ؟

ايبن : ثم أخذت أعدو لاعود اليك، فاخترقت الحقول والأحراش، وظننت أنه قد يكون لديك وقت للهروب . . . معي . . . و . . .

آبي : (تهز رأسها) لابد أن أنال جزاء خطيئتي !

ايبن : اذن، لابد أن أشاركك في هذا .

آبي : انت لم تفعل شيئاً .

ايبن : لقد أدخلت الفكرة في ذهنك. لقد تمنيت موته ! وهذا يعد تحريضاً لك !

آبي : كلا . انها جريمتي وحدي !

ايبن : انني مذنب مثلك تماماً ! انه طفل خطيئتنا .

آبي : (ترفع رأسها كما لو أنها تتحدى الرب) انني غير نادمة على هذه الخطيئة! ولا أطلب حتى من الرب أن يغفرها لي !

ايبن : ولا أنا كـذلك. لكنهـا دفـعت الى الخطيئة الأخـرى . . . الى جـريمة القـتل من أجلي . . . لهذا فـهي جـريمـتي أيضـاً، وسأبلغ المأمـور بذلك. واذا مـا أنكرت فـسأقول إننا دبرنا الخطة سوياً . . . وسيصدقني الجميع لأنهم يشكون في كل مـا قلناه، وسـيبدو لهم هذا الرأي مقبولاً وصحيحاً. وهو صحيح بالفعل . . . فقد ساعدتك . . . بطريقة ما . . .

آبي : (تسند رأسـها على رأسه، وهي تنشج) كلا، أنا لا أريدك أن تتعذب !

ايبن : لابد أن أدفع ثمن نصـيـبي من الخطيئة ! سـوف أتعذب عندما أتركك وأرحل الى الغـرب وأفكر فـيك ليل نهار، وأنا حـر طليق بينما أنت حـبيسة في . . . (يخفض من صـوته) وأنا حي وأنت مـيتة ! (فترة صمت) أريد أن أقاسمك، يا آبي، السـجن أو الموت أو الجـحيم أو أي شيء ! (ينظر في عينيها ويدفع نفسه الى ابتسامة واهنة) اذا مـا قاسمتك، فلن أشعر بالوحشة على الأقل .

آبي : (في وهـن) ايـبن ! لن أدعك تفـعل هذا ! لا أسـتطيع أن أدعك تفـعل هذا !

ايبن : (يقـبلهـا في حنان) ليس في وسـعك أن تفـعلي هذا. لقـد غلبتك لأول مرة !

آبي : (ترغم نفـسـهـا على الابتـسـام . . . وتقول في وله) إنني لن أنهزم . . . طالما أنت لي !

ايبن : (يسـمع وقع أقدام في الخارج) اش ! اصغي ! لقد أتوا ليقبضوا علينا!

آبي : كـلا، انه هو. لا تعطه أي فـرصـة للتـشاجر معك. لا تقل شيئاً . . . مـهما قـال .رولـن أتـكلم، أيضـاً . (إنه كـابوت يقـبل من الحظيرة في حـالة انفـعـال شـديـد، ويـخـطى واسـعـة يدخل البـيت ثم المطبخ. ايبن راكـعـاً بجـوار آبي، وهما متعانقان . . . ويحملقان أمامهما مباشرة) .

كـابوت : (يحملق فـيـهما بوجـه صارم . . . فترة صمت طويلة . . . ثم يقول في حـقـد) انتما تبـدوان كـيـامـتين خـادعتين قاتلتين ! ينبغي أن تشنقا على نفس فرع الشـجـرة وتترك جثتاكما تترنحان في الهواء حتى يصيبهما العفن . . . كدرس للعجازى

المغفلين أمثالي بأن يحتملوا الوحشة بمفردهم . . . ودرس للشبان البلهاء أمثالكما بأن يتحكموا في شهوتهم ! (فترة صمت . يعود الانفعال الى تعبير وجهه، وتغمض عيناه فجأة ، ويبدو وكأن به مساً من الخبل) لم استطع العمل اليَوم . لم أشعر بميل للعمل. فلتذهب المزرعة الى الجحيم ! لقد أطلقت سراح الأبقار والماشية الأخرى ! لقد سقتها الى الأحراش حتى تنعم بالحرية ! وباطلاق سراحها ، فقد أطلقت سراح نفسي ! سأغادر هذا المكان اليوم ! سأشعل النار في البيت والحظيرة وأراقبهما وهما يشتعلان ، وسأترك لوالدتك أن تسكن الرماد ، كما سأوصي بأن تعود الحقول الى باريها حتى لا يمسسها أي بشر ! سأرحل الى كاليفورنيا لأنضم الى سيمون وبيتر. انهما ولدان مخلصان. وان كانا مغفلين. وسيجد آل كابوت كنوز الملك سليمان ! (فجأة يقوم برقصة جامحة) هوب ! ما اسم الاغنية التي كانوا يغنوها ؟ «أوه، كاليفورنيا ! انها أرض الميعاد !» يغني هذه الفقرة . . . ثم يركع بجوار لوح الخشب في أرضية الحجرة الذي كان قد أخفى تحته مدخراته من النقود) وسأسافر على أحسن باخرة أجدها ! فلدي المال ! مع الأسف إنك لم تكن تعرف مكان اخفاء النقود والا سرقتها . . . (ينزع اللوح الخشبي . يحملق . يتحسس . . . ثم يحملق ثانية. فترة صمت ثقيل . يستدير في بطء ، وقد انكمش في وضع جلوس ، وعيناه كعيني سمك ميت ، وعلى وجهه ملامح سقيمة كما لو أنه أصيب بالغثيان . يبلع ريقه في ألم عدة مرات . . . ثم يتكلف ابتسامة واهنة آخر الأمر.) اذن . . . لقد سرقتها !

ايبن : (منفعلاً) لقد دفعتها لسيم وبيتر فنالا نصيبهما في المزرعة ليدفعا أجرة السفر الى كاليفورنيا .

كابوت : (بضحكة ساخرة) ها ! (يبدو عليه أنه بدأ يفيق. ينهض على قدميه ويقول بلهجة غريبة) أعتقد أن الله أعطاها لهما ـ وليس لك ! الله صلب وليس بسهل . ربما هناك ذهب سهل في الغرب، ولكنه ليس ذهب الله ! هذا لا يناسبني. أستطيع أن أسمع صوت ربي منادياً بأن أكون صلباً ، وأن أبقى في المزرعة. استطيع أن أرى يده تدفع ايبن للسرقة ليحول بيني وبين أن أضعف. أستطيع أن أشعر بأني في راحة يده، وأصابعه ترشدني ! (بعد فترة صمت. . ثم يتمتم في حزن) سأشعر

بوحدة أكثر من ذي قبل . وقد تقدم بي العمر ، يا الهي . . . وأصبحت ثمرة حان قطافها . (ثم يعود الى صلابته) هيه . . . ماذا تريد ؟ ان الله وحيد، أليس كذلك ؟ ان الله صلب ووحيد ! (فترة صمت. يقبل المأمور ومعه رجلان من الطريق جهة اليسار. يتحركون في حذر نحو الباب. يطرق المأمور الباب بعقب مسدسه) .

المأمور : افتح باسم القانون (يفزعون) .

كابوت : لقد أقبلوا من أجلكم (يتجه نحو الباب الخلفي) أدخل، يا جيم ! (يدخل الرجال الثلاثة . يقابلهم كابوت عند مدخل الباب) لحظة يا جيم ، لقد تحفظت عليهما هنا. (يومىء المأمور، ويظل هو ورفقاؤه عند المدخل) .

ايبن : (يصيح فجأة) لقد كذبت عليك هذا الصباح ، يا جيم . لقد كنت شريكاً لها. يمكنك أن تقبض علي، أيضاً .

آبي : (في تأثر) لا !

كابوت : اقبض عليهما (يتقدم . . . يحملق في ايبن في شيء من الحقد والاعجاب) هذا ما تستحقه ! هيه، علي أن أجمع الماشية. وداعاً .

ايبن : وداعاً .

آبي : وداعاً .

(يستدير كابوت ويمشي بخطوات واسعة ماراً بالرجال . . . يخرج ويستدير نحو ركن البيت، وقد اعتدلت كتفاه، وأصبح وجهه صلباً كالحجر، ثم يمشي في كآبة في اتجاه الحظيرة. في الوقت نفسه يدخل المأمور والرجلان الى الغرفة) .

المأمور : (في حرج) . . . هيا بنا .

آبي : انتظر . (تتجه الى ايبن) أحبك ، يا ايبن .

ايبن : أحبك، يا آبي . (يتبادلان القبلات، ويبتسم الرجال الثلاثة ويجرون أرجلهم في حرج) .

ايبن : (الى المأمور) هيا . (يتناول يد آبي) تعالي . . .

(يخـرجـان من البـاب الخلفي. ووراءهما الرجـال، ويخرجـان من البـيت وهما يـسـيران يـداً بيـد نحـو البـوابة . يتـوقف ايبن عندها ويشير الى السماء وقـد أشرقت الشمس) الشمس تشرق. جميلة ، أليس كذلك ؟

آبي : نعم. (يقـفان لحظة يتطلعان الى السماء وهما مستغرقان في حالات نفسية غريبة تجمع بين الصد والهيام) .

المأمـور : (يجول بنظره على المزرعـة في حـسد ـ قائلاً لرفيقيه) ، لا أحد ينكر أنها مـزرعة ممتازة، ليتي كنت صاحبها !

« ســتــار »

كـاثـريـن آن بـورتـر
(١٨٩٠ ـ ١٩٨٠)

ترجمة : د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

وُلدت في تكساس وتنقلت في عدد من بلدانها. تلقت تعليمها في عدد من مدارس الأديرة في تكساس ولويزيانا. وقد وصفت تعليمها بأنه كان « زخرفياً وعديم الفائدة» . وقالت أنها تلقت تعليمها ليس في المدارس بل على ايدي هنري جيمس، جيمس جويس، وليم تبلر ييتس، تي. إس. إليوت وعزرا باوند .

تنقلت في مختلف مدن الولايات المتحدة حيث عملت في الصحافة والتدريس فيما بعد. وكذلك زارت عدداً من الأقطار الاوروبية والمكسيك .

تزوجت ست مرات وأحبها ٣٧ رجلاً (في النصف الأول من حياتها) ! وقالت ان الرجال لا يستطيعون العيش معها لأنها كاتبة . وقد صرحت بأنها كانت دائماً تشعر بالوحدة رغم زيجاتها المتعددة ووجود محبيها وأصدقائها .

تتمتع بسمعة فريدة في الأوساط الأدبية وبالاضافة الى ما كتبته من مجموعات القصص القصيرة فقد كتبت عدداً من الروايات القصيرة ورواية واحدة **سفينة المجانين** (١٩٦٢) **(Ship of Fools)** . كما أن لها عدد من المقالات . من مجموعاتها القصصية **البرج المائل** (١٩٤٤) **(The Leaning Tower)** **ونبيذ الظهيرة** (١٩٣٧) **(Noon Wine)** .

تعتبر من أفضل الكتاب أصحاب الأسلوب المميز . وأسلوبها النثري بقلة محسناته البلاغية وببساطته السطحية ذو صفاء ودقة فريدين في الأدب الأمريكي. ورغم ان لها قدرة على السرد التقليدي فانها تستخدم وسائل التجديد المحدثة ببراعة. وقد فازت بعدد من الجوائز : الكتاب الوطني والبولتزر والميدالية الذهبية .

هــو

د. عصام الصفدي

[رغم أن القـصة تحمل عنوان « هـو » الذي يعـود الى ولد ضخم الجثة معوق عقلياً، فانها في الواقع قـصـة أمـه التي تتركـز حياتها فيه. ومن طبيعتها ان تتستر على حياتها وحياة اسرتها خاصة أمـام الجيران وخـاصـة فـيما يتـعلق بوضـعـية الابن المعاق وبفقر الأسرة المتزايد. وهي تحاول دائماً ان تشرح ان ابنهـا المعـاق طبـيـعي وليس مـعاقاً. والواقع ان حياتها كلها تتركز في ابنها هذا. ومما يزيد شـخـصـيـة الأم وضـوحـاً ويبين خـبـايا نفـسـها وجود زوجها الذي يكاد يكون نقيضاً لها. وتظهر الكاتبـة براعـة في رسم شـخـصـية الأم والزوج. كما أن زيارة شقيق الأم للأسرة تزيد وضعية الأسرة ـ بفقرها وبمشكلة ابنها ـ وضوحاً .

ومن بداية القـصـة يلمس القـارىء أنه لا حل لمشكلة الابن ولا لمشكلة الفقر. ويتأكد هذا في النهـاية حين تضطر الأم لمرافـقـة ابنهـا الى مستشفى الأمراض العقلية. ونحن نرى عمق المأساة من مـشاعر الأم والجار وخاصة الابن الذي يمسح دموعه بصمت معبر .

ليس للابن في القـصـة اسم فـالأم تـتحدث عنه بأنه هو وبمشتقات هذا الضمير . فعندما تقـول أنها اعـدت له صـحن طعـامـه فـانها تعني ابنها . ويبدو هذا بوضوح في الأصل الانجليزي باستعمـال الحـرف الكبير He, His, Him الخ . ولكن علـى القـارىء العـربـي أن يـدرك ذلك من السياق] .

المحرر

كـانت حـيـاة عـائلة ويبل قـاسية جداً ، إذ كان من الصعب إطعام كل تلك الأفـواه الجـائعـة، وكـان يصـعب إلباس الأطفال فانيلات دوماً خلال الشتاء رغم أنه كـان قـصيراً. وكانوا يقولون: «يعلم الله ماذا سيكون حالنا لو أننا عشنا في الشمال».

وقـد كـان يصـعب الحـفـاظ على الأطفـال نظيفين بشكل مقبول. وكان السيد

ويبل يقـول : «يبدو وكأن حظنا سيظل عاثراً» . لكن السيدة ويبل كانت تقنع بكل مـا يأتي وتثني على ذلك، لا سيما إذا كـان الجيران على مسـمع منهم. وكـانت دوماً تقـول لزوجـهـا : «لا تدع أي مخلوق يسـمعنا نتـذمر.» فـهي لم تكن تحتمل شفقة الآخـرين عليـهـا. وكانت تقول : «لا، حتى لو وصل الأمر الى حد العيش في عربة وجمع القطن في أرجـاء البـلاد، فلن نسمح لأحد بأن ينظر الينا بازدراء» .

أحـبت السيـدة ويبل ابنهـا الثـاني الذي كـان تفكيره بسيطاً أكـثـر مما أحبت الطفلين الآخـرين مـعـاً. كـانت تردد ذلك دومـاً، وعندما كانت تتحدث مع جيران مـعينين فإنها كانت تعطي زوجها وأمها نصيباً من الانتقاد .

قـال السـيـد ويبل : «لا داعي لأن ترددي ذلك في كل مكان. إنك تجـعلين الناس يعتقدون بأن لا أحد آخر لديه إحساس تجاهه إلا أنت» .

إلا أن السـيدة ويبل كانت تذكره قائلة : «هذا أمر طبيعي بالنسبة لأم. فأنت نفـسك تعلم أنه طبيعي أكثر بالنسبة للأم أن تكون هكذا. فالناس لا يتوقعون الكثير من الآباء بطريقة ما» .

ولم يـمـنع ذلك الجيران من التـحـدث بصراحـة فـيما بينهم. وكـانوا يقـولون : «إننا نسأل رحمة الله الخـالصـة فـيما لو أنه توفي» . وكانوا يجمعون فيما بينهم قائلين : «إنهـا خطايا الآباء . وهنالك دمـاء سـيئة وأفـعـال سـيئة ، وبوسـعنا أن نراهن على ذلك» . كـان ذلك يقـال وراء ظهـر عـائلة ويبل . لكن في حـضـورهم كان الجميع يقـولون: «إنه ليس سيئاً جداً، سيكون على ما يرام فيما بعد. إنظروا كيف يكبر !»

كـانت السيـدة ويبل تكره الحـديث عن ذلك، وكـانت تحاول منع نفسها من التـفكير بذلك ، ولكن كلما دخل أحـد الى المنزل ، كـان الموضـوع يبرز دوماً، وكان عليـهـا أن تتـحـدث عنه أولاً ، وقـبل أن تتمكن من الانتقال للحديث عن أي شيء آخر. بدا أن ذلك يريح ذهنها» . ما كنت أرضى أن يقع له أي شيء فأنا أفديه بكل الدنيـا، لكن يبـدو أنني لا أستطيع إبعاد السوء عنه. انه قوي جداً ونشيط وهو دائماً يخوض غمار كل شيء، وهذا هو حـاله منذ اسـتطاع المشي. وفي الحقيقة يكون الوضع مـضحكاً أحياناً، فهو يستطيع القيام بأي شيء، ومضحك أن تراه وهو يقوم بحيله.

كـانت إمـيلي تتعرض للحوادث أكثر، وانني دوماً أضمد جراحها. أما إدنا فأية وقعة صـغيرة تكسر شيئاً من عظامه. لكنه يستطيع القيام بأي شيء دون أن يخدش نفسه. وقـد قـال الراهب شـيئاً جميـلاً يوماً عندما حضر الى هنا : «يسير الأبرياء مع الرب ـ لذا فإنه لا يصـاب بأذى» . ولن أنسى ذلك إلى يوم مماتي . وعندمـا كـانت السـيدة ويبل تعيـد تلك الكلمات ، كانت تحس بفيض غامر يملأ صدرها ، وكانت الدموع تملأ عينيها، وبعد ذلك يكون بوسعها الحديث عن شيء آخر .

لقـد كَـبُـرَ دون أن يتأذى أبداً. حـدث أن وقع لوح خـشبي من بيت الدجاج وضربه على رأسـه وبدا أنه لم يحس بذلك أبداً ـ كـان قـد تعلّم بضع كلمات لكنه بعد ذلك نسـيـها. لم يكن يبكي لطلب الطعام مثلما كان الأطفال الآخرون يفعلون، لكنه كـان يـنـتـظر حـتى يُعطى له. وكـان يأكل وهو يجلس القـرفـصـاء في الزاوية يتلمظ ويتـمتم. كانت لفائف الدهن تغطيه كالمعطف، وكان يستطيع حمل كمية من الخشب والماء تعـادل ضـعف مـا يحمله إدنا. وكـانت إمـيلي تعـاني من برد في الرأس مـعظم الوقت. وكـانت السـيـدة ويبل تقول : «إنها تشبهني» ـ لذا ففي حالات الجو السيئة كـانوا يعطونها بطانيـة إضافية تؤخذ من سريره. وقد بدا أنه لم يبالي بالبرد أبداً .

ورغم ذلك كـانت حـيـاة السـيـدة ويبل عذاباً خشية أن يقع له شيء ما. كان يتـسلق أشـجار الخوخ أفضل بكثير من إدنا وكان ينزلق على الأغصان كالقرد ، تماماً كـقـرد عـادي «كـلا يا سـيدة ويبل يجب ألا تدعيه يفعل ذلك. فلسوف يفقد توازنه يوماً ما. إنه لا يدري حقاً ما الذي يفعله» .

كـانت السـيـدة ويبل تكاد تصرخ على الجيران قائلة : «بل انه يعرف ما الذي يفـعله ! إن لديه مـقـدرة مثل أي طفل آخر ! أنت، إنزل من هناك !» وعندما وصل الى الأرض أخيراً كـان من الصـعـوبة بمكان أن تبعد يديها عنه لما كان قد قام به أمام الناس ، بينما كـانت إبتـسامة تغمر وجهه كله. أما هي فكانت دائماً تقلق عليه حتى تكاد تمرض .

قـالت السـيـدة ويبل لزوجـهـا : «انهم الجيران. إني أتمنى بحـرقـة أن يدعوننا وشأننا. إنني لا أحـتـمل أن أدعـه يقول أي شيء لأنني أخشى من أن يدسوا أنوفهم

فيه. فانظر الآن الى النحل. إن إدنا لا يستطيع السيطرة عليه. إذ أن النحل قد لسعه، وليس لدي الوقت للقيام بكل شيء، والآن فإنني لا أجرؤ أن أدعه يشتغل بالنحل ولكنه لو تعرض للَّسع فإنه في الحقيقة لا يأبه لذلك» .

قال السيد ويبل : «ذلك لأنه ليس لديه الاحساس الكافي ليخاف من أي شيء» .

قالت السيدة ويبل : «يجب أن تخجل من نفسك فلا تتحدث هكذا عن ابنك. فمن يدافع عنه اذا لم نفعل ذلك نحن، هذا ما أريد معرفته ؟ إنه يرى الكثير مما يحدث وهو يستمع الى الأشياء طيلة الوقت. وأيما شيء أطلب منه القيام به فإنه يقوم به . لا تدع أياً كان يسمعك تقول مثل هذه الأشياء أبداً. إذ سيعتقدون بأنك تفضل الأطفال الآخرين عليه» .

«حسناً ، الآن، إنني لا أفعل ذلك، وأنت تعرفين ذلك، وما هي الفائدة من التشنج بهذا الخصوص ؟ وأنت دائماً لا تظنين إلا الأسوأ في كل شيء . فقط اتركيه وشأنه، وهو سيتدبر أمره بطريقة ما . فهو لديه الكثير من المأكل والملبس، أليس كذلك ؟»

وفجأة أحسَّ السيد ويبل بالإنهاك : «وعلى أية حال ، لا فائدة من ذلك الآن» .

أحست السيدة ويبل بالتعب أيضاً وتذمرت بصوت مرهق قائلة : «ما حدث قد حدث، ولا يمكن تغييره أبداً، إنني أعرف ذلك جيداً كأي انسان، لكنه طفلي، وانني لن أدع الناس يقولون أي شيء. لقد سئمت من الناس الذين يأتون مرددين أشياء طوال الوقت» .

في أوائل الخريف تلقت السيدة ويبل رسالة من أخيها يقول بأنه وزوجته وطفليها سيحضرون في زيارة قصيرة يوم الأحد من الأسبوع القادم. وكان قد كتب في النهاية : «ضعوا القِدر الكبيرة في القدر الصغيرة» . قرأت السيدة ويبل هذا الجزء بصوت مرتفع مرتين وكانت مسرورة جداً. كان أخوها مشهوراً جداً لقوله

مثل هذه الأشياء المضحكة. قالت : «السوف نريه بأن تلك ليست نكتة. وسوف نذبح واحداً من الخنازير الرضيعة.»

قال السيد ويبل : «إن ذلك يعد خسارة، وأنا لا أحتمل ذلك لاسيما في وضعنا الحالي. فذلك الخنزير سيساوي مبلغاً من النقود بحلول عيد الميلاد» .

قالت السيدة ويبل : «إنه لأمر مخجل ومؤسف ألا نستطيع إعداد وجبة دسمة عندما تحضر عائلتي لتزورنا. إنني لأكره أن تعود زوجته فتقول بأنه لم يكن في بيتنا ما يؤكل. يا إلهي إن ذلك أفضل من شراء كمية كبيرة من اللحم من المدينة ، حيث هنالك ينفق المرء نقوده !»

قال السيد ويبل : «حسناً ، إذاً قومي بذلك بنفسك. يا الهي، لا عجب أننا لا نستطيع أن نحسن أوضاعنا !»

كانت المسألة تتعلق بكيفية أخذ الخنزير بعيداً عن أمه، فهي مقاتلة شرسة، وأسوأ من بقرة من نوع جيرسي . ولم يكن ادنا ليحاول ذلك : «تلك الخنزيرة ستمزق أحشائي وتنثرها في كافة أرجاء الحظيرة.»

قالت السيدة ويبل : «حسناً، يا جباني العجوز. هو لا يخاف. انظروا اليه وهو يفعل ذلك» . وضحكت وكأن ذلك كله كان نكتة جيدة ودفعته دفعة صغيرة نحو الحظيرة. تسلل هو الى الداخل والتقط الخنزير مبعداً إياه عن الحلمة وركض به راجعاً متجاوزاً السياج والخنزيرة تجري في أعقابه غاضبة» . ذلك الشيء الصغير الأسود الذي يتلوى كان يصرخ كطفل في نوبة غضب ، ويشد ظهره ويمد فمه لأقصى حد . تناولت السيدة ويبل الخنزير ووجهها متجهم وقطعت حلقومه بضربة واحدة . ولما شاهد هو الدم أصدر نفساً ضخماً مرجفاً وولى هارباً. فكرت السيدة ويبل في قرارة نفسها قائلة : «لكنه سينسى وسيأكل الكثير ، فلا فرق عنده.» وكانت السيدة ويبل عندما تفكر تتحرك شفتاها وتتحدث : «إنه سيأكله كله إذا لم أوقفه. ولسوف يأخذ كل لقمة من الآخرين لو تركته يفعل ذلك» .

أحست بامتعاض تجاه ذلك . كان الآن قد أصبح في العاشرة من عمره ويعادل حجمه ثلاثة أضعاف حجم إدنا الذي اقترب الآن من الرابعة عشرة من

العمر. واصلت القول بصوت منخفض : «يا للأسف ، يا للأسف. إدنا ذو الذكاء الشديد !»

ظلت تحس بامتعاض فيما يتعلق بكثير من الأشياء. ففي المقام الأول كان الذبح من أعمال الرجل، فمشهد الخنزير مسلوخاً بلونه الوردي أصابها بالغثيان. كان سميناً جداً وطرياً ومثيراً للشفقة. وببساطة كانت مخجلة الطريقة التي كان للأمور أن تحدث بها. وعندما انتهت منه، تمنت لو يظل أخوها في بيته .

في صباح يوم الأحد الباكر كانت السيدة ويبل قد تخلت عن كل شيء من أجل أن تجعل هو نظيفاً ، ولم تمض ساعة إلا واتسخ مرة أخرى ، اذ كان يزحف تحت السياج وهو يطارد حيوان الأبوسوم ، أو يتسلق العوارض الخشبية لحظيرة الحيوانات بحثاً عن البيض في مخزن التبن . «يا إلهي ، انظر الى نفسك بعد كل ما فعلته لك ! فهذا إدنا وهذه إميلي هادئان جداً. لقد سئمت من محاولة جعلك تبدو مقبولاً. إخلع ذلك القميص والبس واحداً غيره ، فلسوف يقول الناس بأنني لا ألبسك شيئاً !» ثم صفعته على أذنيه بشدة . طرفت عيناه مرات ومرات ثم مسح رأسه، وقد سبب وجهه الأذى لمشاعر السيدة ويبل . ابتدأت ركبتاها ترتجفان وأحست بضرورة الجلوس وهي تزرر له قميصه . لقد أنهكت تماماً قبل أن يبدأ اليوم .

حضر الأخ وزوجته السمينة المعافاة وأبناهما الجائعان الصائحان. تناولوا غداءً فخماً، اذ تحمّر الخنزير ووضع في وسط الطاولة، كان مليئاً بالحشوة والمقبلات، وقد وضعت دراقة مخللة في فمه. وكان هنالك الكثير من الصلصة للبطاطس الحلوة. قال الأخ : «يبدو هذا بذخاً تاماً. لابد لكم من دحرجتي الى البيت كالبرميل عندما أنتهي من تناول الطعام.»

ضحك الجميع بصوت مرتفع ، كان جميلاً أن يسمع صوتهم وهم يضحكون جميعاً مرة واحدة وهم جالسون حول المائدة . أحست السيدة ويبل بالدفء والرضا على ذلك. «لدينا ستة أخرى من الخنازير الرضيعة. وهذا أقل ما نقدمه اذ أنكم لا تحضرون لزيارتنا الا نادراً» .

لم يقبل هو أن يحضر الى غرفة السفرة، وقد بررت السيدة ويبل ذلك بلباقة فقالت : «إنه أكثر حياء من الآخرين . لابد له من التعود عليكم. إنه لا يتعود على أي كان. أنت تعرفين كيف يكون الحال مع بعض الأطفال. حتى أبناء العم» . لم يقل أحد أي شيئاً غير مألوف .

قالت زوجة الأخ : «إنه تماماً مثل ابني آلفي، فأحياناً اضطر لأن أجلده لأجعله يصافح جدته» .

وهكذا انتهى ذلك، وقد ملأت له السيدة ويبل صحناً كبيراً أولاً وقبل الجميع . «دائماً أقول أنه يجب ألا يتعرض للإزدراء، بغض النظر عمن يبقى بدون طعام» . قالت ذلك وحملت الصحن له بنفسها .

قالت اميلي وهي تقدم مساعدتها : «يستطيع أن يصل بذقنه الى أعلى الباب».

قال الأخ : «هذا جميل، إنه يتدبر أموره بشكل جميل» .

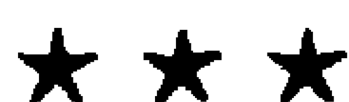
انصرفوا بعد تناول العشاء . جمعت السيدة ويبل الصحون وأرسلت الاطفال الى الفراش وجلست ثم فكت رباط حذائها . قالت تتحدث الى السيد ويبل : «هل رأيت ذلك ؟ هذه حال كل عائلتي . إنها لطيفة وتراعي مشاعر الآخرين في كل شيء . فليست هنالك تعليقات غير لائقة ـ وهي عائلة مهذبة . إني أشمئز من تعليقات الناس. ألم يكن ذلك الخنزير جيداً ؟»

قال السيد ويبل : «أجل ، لقد خسرنا ثلاثمائة باوند من لحم الخنزير ، هذا كل ما هنالك. ومن السهل أن يكون المرء مهذباً عندما يأتي للأكل. ومن يدري ما الذي كان يدور في أذهانهم .»

قالت السيدة ويبل : «أجل، هكذا أنت دوماً . إنني لا أتوقع سوى ذلك منك. وسوف تقول لي بعد ذلك إن أخي سيتحدث الى الآخرين قائلاً بأننا جعلناه يأكل في المطبخ ! يا الهي !» . هزت رأسها وهي تمسكه بيديها، اذ ابتدأ ألم حاد في وسط جبهتها تماماً . «لقد أفسدت كل شيء ، وكان كل شيء لطيفاً وسهلاً. حسناً، أنت لا تحبهم ولم تحبهم في يوم من الأيام ـ حسناً ، وسوف لن يحضروا الى

هنا مرة أخرى قريباً، فلا تقلق بهذا الخصوص ! لكنهم لا يستطيعون القول بأنه لم يكن يرتدي بنفس جودة ملابس إدنا ـ بصراحة، إنني أحياناً أتمنى لو انني ميتة !»

قال السيد ويبل : «أتمنى لو أنك تكفين عن ذلك. فالوضع سيء بما فيه الكفاية» .



كان الشتاء قاسياً . وقد بدا للسيدة ويبل بأنهم لم يعرفوا سوى الأيام العصيبة. والآن شتاء كهذا يتوج كل شيء. كانت المحاصيل أقل بمقدار النصف مما كان يحق لهم توقعه وبعد ما تم الحصول على غلة محصول القمح فإن ذلك لم يفعل أكثر من مجرد تسديد فاتورة ما يشترونه من البقالة. كانوا قد قايضوا أحد خيول الحراثة بحصان آخر ولكنهم تعرضوا للغش ، لأن الحصان الجديد مات بسبب مرض ربو الخيل . وكانت السيدة ويبل تفكر باستمرار أن من المروع أن يكون الرجل غير أهل للاعتماد عليه وأن يتعرض للغش. كانوا قد اقتصدوا في كل شيء، لكن السيدة ويبل ظلت تقول أن هنالك أشياء يمكن الاقتصاد فيها وهي تكلف نقوداً. فقد أنفقوا الكثير على شراء ملابس دافئة لكل من إدنا وإميلي اللذين كانا يسيران مسافة أربعة أميال الى المدرسة خلال فترة الثلاثة أشهر. قال السيد ويبل : «إنه يجلس بالقرب من النار كثيراً ، فهو ليس بحاجة الى مثل ذلك» . قالت السيدة ويبل : «هذا هو الوضع . وعندما يقوم هو بالاعمال اليومية الروتينية خارج البيت فباستطاعته أن يرتدي معطفك المشمع . انني لا استطيع أن أتصرف على وجه أفضل، وهذا كل ما هنالك» .

في شهر شباط كان قد مرض هو مرضاً شديداً واستلقى وقد انكمش تحت بطانيته وقد ازرق وجهه وكان يتصرف وكأنه يختنق. وقد قام كل من السيد والسيدة ويبل بكل ما استطاعوا تجاهه لمدة يومين ، ولكنهما بعد ذلك خافا وأرسلا في طلب الطبيب. أخبرهم الطبيب أنه يجب عليهم أن يدفئوه وأن يعطوه الكثير من الحليب والبيض .

قـال الطبـيب : «أخـشى أنه ليس قـوياً كما يبـدو. ويجب أن تراقبوا أطفالكم عندمـا يكونون كذلك. ويجب أن تضعوا عليه المزيد من الأغطية أيضاً» .

قـالت السيدة ويبل خجلة : «إني للتو أخذت بطانيته لأغسلها. فأنا لا أطيق الأوساخ.»

قال الطبيب : «حسناً، يفضل أن تعيديها اليه فور أن تجف وإلا فإنه سيصاب بذات الرئة.»

أخـذ كل من السـيـد والسـيـدة ويبل بطانيـة من على سريرهما ووضـعا سريره بجـانب النار. قـالت : «ليس بوسـعهم القول أننا لم نفعل كل شيء من أجله. حتى أننا ننام بالبرد لأجله.»

وعندمـا انتـهى الشـتـاء بدا أنه أصـبح بصـحـة جيدة مرة أخرى، ولكنه كان يمشي وكأن قـدمـيه تؤلمانه. وخلال الموسم كان في وسعه تشغيل آلة بذر القطن .

قال السيد ويبل : «لقد اتفقت على جميع الأمور مع جيم فيرجسون فيما يتعلق بتـعشير البـقـرة في المرة القـادمة. وسوف أقوم برعي الثور هذا الصيف وأعطي جيم بـعض الأعـلاف في الخريف. فـذلك أفـضل من إنفـاق الأمـوال لاسـيما اذا لم تكن متوفرة لديك.»

قـالت السيدة ويبل : «آمل أنك لم تقل شيئاً من هذا أمام جيم فيرجسون. إذ يجب عليك ألا تدعه يعرف بأننا نفتقر الى المال الى ذلك الحد.»

«يا الهي، إن مـا قلتـه لا يعني أننا نفتقر الى المال. ويجب على الرجل أن ينظر الى الأمـام أحـياناً. وهو بوسعه أن يقود الثور اليوم. وأنني أحتاج الى إدنا هنا.»

في البـداية أحست السيدة ويبل بارتياح داخلي لارساله مع الثور. لقد كان إدنا كـثير الحـركـة ولم يـكـن بـالامـكـان الـوثـوق به. إذ يجب أن تكون هادئاً وأنت مع الحـيوانات. وبعد أن ذهب هو بدأت تفكر وبعد لحظة لم تستطع احتمال ذلك أكثر. وقـفت في الممـر وأخـذت تراقبه. كانت المسافة التي سيقطعها ثلاثة أميال تقريباً وفي يوم حـار، لكن لم يكن عليـه أن يقضي في ذلك وقـتـاً طويلاً. ظللت عينيها وحملقت

الى أن طفت الفقاعات الملونة في عينيها. كان ذلك كأي شيء آخر في الحياة، اذ كان يجب عليها أن تقلق دوماً وألا تعرف أبداً لحظة سلام بخصوص أي شيء . بعد فترة طويلة رأته وهو ينعطف في الممر الجانبي وهو يعرج . تقدم ببطء شديد وهو يقود هيكلاً ضخماً لحيوان من حلقة في أنفه، وقد كان يدوّر عصا صغيرة، ولم يكن ينظر أبداً الى الوراء أو الى الجانبين، لكنه كان يتقدم كمن يمشي وهو نائم حيث كانت عيناه نصف مغلقة .

كانت السيدة ويبل تخشى الثيران الى حد بعيد؛ فقد سبق وسمعت قصصاً مرعبة عن ثيران كانت تسير وراء المرء بهدوء شديد، ثم فجأة هجمت وجارت بخوارها ومزقت جسد المرء إرباً. وفي أية لحظة الآن يمكن لذلك الوحش الأسود أن يهاجمه، يا الهي، لن يكون لديه الادراك الكافي ليهرب. عليها ألا تصدر صوتاً أو تتحرك، ويجب ألا تثير الثور. نفض الثور رأسه جانباً ونطح الهواء ليهش ذبابة. انفجر صوتها رغماً عنها في صرخة، وصاحت تنادي هو بأن يحضر اليها، من أجل الله. لم يبد أنه قد سمع الضجة التي احدثتها ، لكنه استمر يدور بعصاه ويعرج، وكان الثور يسير وراءه بتثاقل وكأنه عجل لطيف. توقفت السيدة ويبل عن مناداته وجرت باتجاه البيت وهي تصلي لله بصوت خافت : «يا رب، لا تدع أي شيء يحدث له. يا رب، إنك تعلم أن الناس سيقولون أنه ما كان علينا أن نرسله. إنك تعلم أنهم سيقولون أننا لم نهتم به. أوصله الى البيت. الى البيت سالماً، الى البيت سالماً، ولسوف أعتني به أفضل ! آمين» .

كانت ترقبه من خلال الشباك بينما كان يقود ذلك الوحش الى الداخل، ثم قام بربطه في الزريبة. ولم تكن هنالك فائدة من محاولة متابعة ذلك، ولم يكن باستطاعة السيدة ويبل احتمال شيء آخر . جلست وبكت وهي تتمايل ومريولها على رأسها .

كانت عائلة ويبل تزداد فقراً من عام الى آخر. وقد بدا أن المكان كان ينحط من تلقاء نفسه بغض النظر عن الجهد الكبير الذي كانوا قد بذلونه ويبذلونه. قالت السيدة ويبل : «إننا نفقد سيطرتنا فلماذا لا نفعل مثل الآخرين ونترقب فرصتنا ؟ ولسوف ينعتوننا بعد ذلك بالقمامة البيضاء.»

قـال إدنا : «عندمـا أصـبح في السادسة عشرة فإنني سأغادر المكان، وسأعمل في محلات باول للبـقالة. اذ إن ذلك مربح. لا مزارع بعد الآن بالنسبة لي.»

قـالت إمـيلي : «سأصـبح معلمة مدرسة. لكنني يجب أن أنهي الصف الثامن على أية حـال. ثم بعـد ذلك أسـتطيع العـيش في المدينة . إذ انني لا أرى أية فرص هنا.»

قـالت السيـدة ويبل : إن امـيلي تشبه عائلتي. فجميع أفرادها طموحون ولا يقـبلون أن يكونوا في المرتبة الثانية بعد أي كان.»

عندما حل الخريف حصلت إميلي على فرصة في العمل كنادلة في مطعم السكة الحـديدية في البلدة المجـاورة ، وقـد بدا مـؤسـفـاً ألا تقبل العمل إذ أن الراتب جيد ويشـمل طعـامـهـا أيضاً . لذا فقد قررت السيدة ويبل أن تدعها تأخذ العمل، وألا تقلق بشأن المدرسـة حـتى الدورة القـادمـة. قالـت : «لديك الكثير من الوقت. أنت شـابة وبارعة كالسوط.»

وعندمـا ذهب إدنا أيضـاً حـاول السـيد ويبل أن يدير المزرعة بالاعتماد على هو فـقط. بدا أنه يتـدبر جـيداً، إذ كان يؤدي عمله وجزء من عمل إدنا دون أن يلاحظ ذلك. كـانوا يقـومـون بعـمل جيـد جـداً الى أن حلّ عـيد الميلاد، وفي صبيحة أحد الأيام انزلق على الجليـد وهو راجع من زريبـة الحيوانات. وبدلاً من أن ينهض، أخذ يتقلب ويتدحرج . وعندما وصله السيد ويبل كان في نوع من النوبة .

أدخلوه الى البـيت وحـاولوا أن يجلسـوه، لكنه انتـحب وتدحـرج ، لذا وضـعوه في الفـراش وتوجه السيد ويبل الى المدينة لاحضار الطبيب. وخلال ذهابه وإيابه كان قلقـاً يفكر في المصـدر الذي سيحصل منه على النقود : من المؤكد أن الأمر بدا وكأنه لديه كل المشاكل التي يمكنه حملها .

ومنذ ذلك الحين ظل هو طريح الفـراش. تورمت رجـلاه ووصل حـجمهما الى الضـعف، وعـاودته النوبات. وبعـد انقضاء أربعة أشهر قال الطبيب : «لا فائدة ، اعـتـقـد أنه من الأفـضل وضـعـه في نزل المرضى الريفي فوراً لتلقي العلاج. وسوف أرى ما يمكن القيام به. فهناك سيتلقى العلاج الجيد كما أن هذا يريحكم.»

قـالت السيـدة ويبل : «إننا لا نضن عليـه بأية رعـاية ولن أدعـه يغـيب عن نـاظري. ولا أريد أن يقـول أحـد بأنني أرسلت ابني المريض بعـيـداً عني ليكون بين غرباء.»

قـال الطبـيب : «إنني أعـرف كيف تشعرين، وليس بوسعك أن تخبريني بأي شيء عن ذلك يا سيـدة ويبل. فأنا لدي صـبي. لكن من الأفـضل أن تأخـذي بما أقول. إني لا أستطيع فعل أي شيء له، وتلك هي الحقيقة.»

تحـدث كل من السيـد والسيدة ويبل حول ذلك طويلاً في تلك الليلة عندما ذهبا الى النوم.

قـالت السيـدة ويبل : «إن تلك صـدقة، هذا ما وصل اليه حالنا، صدقة ! إنني بالتأكيد لم أتوقع ذلك.»

قـال السيد ويبل : «إننا ندفع الضرائب لدعم ذلك المكان تماماً كأي شخص آخـر. وانني لا أسـمي ذلك بأخـذ صـدقـة. وأعـتقد أنه سيكون جيداً أن نضعه في المكـان الـذي يحصل فـيـه على رعـاية أفـضل . . . وبالاضـافـة الى ذلك، فإنني لا أستطيع تحمل فواتير الطبيب هذه أكثر من ذلك.»

قـالت السيـدة ويبل : «ربما لذلك السبب يريد الطبيب أن نرسله الى هناك ـ فهو يخشى ألا يحصل على نقوده.»

قـال السيـد ويبل وقد شعر بامتعاض شديد : «لا تتحدثي هكذا، وإلا لن يكون بإمكاننا ارساله الى هنالك.»

قالت السيدة ويبل : «لكننا لا نستطيع تركه هنالك مدة طويلة. إذ سيتحسن سريعـاً، ولسوف نرجعه فوراً الى البيت.»

قـال السيـد ويبل : «لقـد أخبرك الطبـيب وأخبرك مراراً وتكراراً بأنه لا يمكن أن يتحسن أبداً، ويفضل أن تكُـفِّـي عن الكلام.»

قـالت السيدة ويبل وهي سعيدة تقريباً : «الاطباء لا يعرفون كل شيء. لكن على أية حـال، فإن بوسع إمـيلي أن تحضر في الصـيف الى البـيت في إجـازة، وبوسع

ادنا أن يحضر أيام الآحاد : ولسوف نعمل سوية لنقف على أقدامنا من جديد، ولسوف يحس الأطفال بأن لديهم مكاناً يأتون اليه.»

في الحال تخيلت الصيف في عزه مرة أخرى، حيث الحديقة جميلة، وفي كل مكان في البيت ستائر بيضاء جديدة وكل من إدنا وإميلي في البيت الذي تملؤه الحياة، والجميع سعيد سوية. أجل، يمكن لذلك أن يحدث ولسوف تهون الأمور عليهم .

لم يتحدثوا أمامه كثيراً . لكنهم لم يعرفوا أبداً كم كان يفهم ، وأخيراً حدد الطبيب اليوم، وعرض عليهم أحد الجيران يمتلك سيارة ذات مقاعد مزدوجة أن يوصلهم. كان بوسع المستشفى أن يرسل سيارة اسعاف، لكن السيدة ويبل لم تستطع احتمال رؤيته وهو يذهب وكأنه شديد المرض وعلى تلك الحالة. كانوا قد دثروه بالبطانيات ثم حمله ذلك الجار والسيد ويبل الى المقعد الخلفي للعربة بجانب السيدة ويبل ، التي كانت ترتدي بلوزة نسوية سوداء . لم تستطع احتمال أن يبدو الأمر كالصدقة .

قال السيد ويبل : «سوف تكون على ما يرام، أعتقد أنني سأظل هنا. فلا يبدو أن على الجميع ترك المكان في نفس الوقت.»

قالت السيدة ويبل للجار : «بالاضافة الى ذلك، لا يبدو الأمر وكأنه سيظل الى الأبد. فذلك كله لن يستغرق إلا فترة بسيطة.»

انطلقوا، وكانت السيدة ويبل تمسك بأطراف البطانيات كي لا تتدلى من على الجانبين. جلس هو هنالك وهو يطرف بعينيه مرات ومرات. أخرج يديه وبدأ يفرك أنفه، ثم بعد ذلك بطرف البطانية. لم تستطع السيدة ويبل أن تصدق ما رأته، كان يمسح الدموع المنسابة من أطراف عينيه. رشف مخاطه وأصدر صوت ازدراء. ظلت السيدة ويبل تقول : «إنك لا تشعر بأنك في حالة سيئة يا حبيبي ، أليس كذلك ؟ لأنها كانت تحس بأنه يتهمها بشيء ما. ربما كان يتذكر ذلك الحين الذي صفعته فيه على أذنيه، وربما كان قد خاف ذلك اليوم وهو يقتاد الثور، وربما كان قد نام بردانا دون أن يستطيع إخبارها بذلك. وربما عرف أنهم مبعدوه بشكل نهائي وكل ذلك لأنهم كانوا فقراء جداً فلا يستطيعون الانفاق عليه. وأياً كان الأمر، فلم

تستطع السيدة ويبل احتمال التفكير بذلك. أخذت تبكي بشكل مرعب وطوقته بذراعيها بشدة . مال رأسه على كتفها : كانت قد أحبته بكل ما استطاعت من حب. ثم إن هناك إدنا وإميلي اللذين يجب التفكير بهما أيضاً . ولم يكن في وسعها عمل شيء لتعوضه عن حياته. أية مأساة قاتلة كان ميلاده .

وصلوا المستشفى حيث لاح أمامهم، وكان الجار يقود السيارة بسرعة كبيرة ولم يكن ليجرؤ على النظر وراءه .

يــودورا ولــتــي
(١٩٠٩ ـ)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

وُلدت في مدينة جاكسون في ولاية المسيسبي لوالدين من الشمال. ومع ذلك فقد اتخذت من جاكسون موطناً لها . تخرجت من جامعة وسكانسن عام ١٩٢٩ ثم درست فترة في كولومبيا وعادت الى موطنها. وعملت في الكتابة للراديو ومحررة لصفحة الاجتماعيات في الصحف، وبقيت طيلة حياتها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بولاية المسيسبي : ارضها وجوها وطبيعتها .

من مجموعات قصصها القصيرة **ستار أخضر** (١٩٤١) **(A Curtain of Green)** ، ثم **الشبكة الواسعة** (١٩٤٣) **(The Wide Net)** . أول رواياتها **العريس اللص** (١٩٤٢) **(The Robber Bridegroom)** . وآخرها **ابنة المتفائل** (١٩٧٢) **(The Optimist's Daughter)** . كما أن لها عدة مجموعات من الكتابات النقدية .

تتمتع ولتي بروح فكهة أو دعابية حادة، ورغم أن قصصها فيها عناصر الموت أو العنف أو المهانة، فإن روحها الدعابية تؤثر في كل مظهر من مظاهر قصصها. وهي تحسن الهجاء ولكن دون أن تسخر من شخوص قصصها ودون رغبة في الهدم. كما أن خصائصها هذه تساهم في إثارة القارىء ومشاركته المرحة فيما يجري في القصة .

وهي تعرف منطقتها جيداً وتستطيع تصوير حياتها السطحية بدقة ومهارة المصور. كما أنها تصور أعماق الواقع حيث يختلط الواقع بالرمز والاسطورة. وعلى هذه الأرضية يتحرك شخوصها ومعظمهم أشخاص غريبون ولكن بشكل محبب وغرتسك Grotesque .

بـاورهـاوس

ترجمة : د. عصام الصفدي

[من قـصص يودورا ولتي الرائعـة وتتركـز حـول شخصية بطـل القصـة المسمـى باورهاوس [ويعني هذا الأسم : شـخص عظيم النفـوذ، أو مـصـدر تأثير أو الهام ، أو محطة توليـد الطاقة. وكل هذه الاسماء ذات دلالة على شـخـصـيـة البطل] . وهو قـائد فـرقة موسيقية من الزنوج تعزف في حـفلة للبـيض وتبـدو مقدرة هذا الموسيقى في تأثيـره في مستمعيـه . ولهذا البطـل تأثير مماثل بل ربما أشـد في عـازفي فـرقـتـه ليس فـقط أثناء عـزفهم بل خارج الحفلات أيضاً . كما أن تأثيره يبدو واضـحـاً أيضـاً في مـسـتمعيه من الزنوج كما يبدو في الحانة التي ذهب اليها باورهاوس وعازفوه أثناء استراحـة الحـفلة الموسـيقية الرئيسية . وفي كل الحالات فإن الحقيقة تختلط بالخيال وبالرموز في هذه القـصـة . ورغم وجـود عنصر الموت والصراع بين باورهاوس وأحـد أشـخاص القصة ، فإن القصة ممتعة .

وتبـدو في هذه القصة براعة الكاتبة في تصوير المكان وأهم من ذلك الجو في مختلف الأماكن التي تدور فـيها أحداث القصة. وكذلك في نقل الحوار باللهجة العامية الزنجية .

وتبـدي الكاتبـة مـوهبـة خـاصـة فـي تحليـل عـواطـف باورهاوس ومشـاعـره وتقلباتها فـي قصته .

وأروع مـا في القـصـة شـخـصـيـة باورهاوس : فـهـو مزيج من الفنان والساحر والمهرج بل والمنـوّم المغناطيـسـي ومـدمن المخـدرات . والقصـة ليسـت سهلـة ، فهي تتطلـب من القارىء أن يعيـد ترتيب أحـداثهـا ، ويفرق ما بين الحقيقة والخيال ، والأهم من ذلك كله ، أن يحاول إدراك معناها] .

المحرر

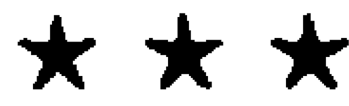
باورهاوس يعزف ! إنه هنا في زيارة من المدينة ـ «باورهاوس وآلته الموسيقية» ـ باورهاوس وفرقته الثمانية ـ «فكر في الاشياء التي يطلقها على نفسه ! لا يوجد أحد في الدنيا يشبهه. ولا يمكنك أن تتكهن بماهيته» . «أهو زنجي ؟» إنه يبدو أقرب لأن يكون آسيوياً ، قرداً ، يهودياً ، بابلياً ، بيروفياً ، متعصباً ، شيطاناً ، عيونه رمادية شاحبة ، جفونه سميكة ، وربما خشنة كجفون السحلية ، لكن عيناه كبيرتان متوهجتان عندما تكونان مفتوحتين . قدماه إفريقيتان ضخمتان تدوسان، كلتاهما معاً، بشدة على الدواسات خلال العزف . إنه ليس أسود فاحم ـ وعندما يكون فمه مغلقاً فإنه يشبه الوعاظ ؛ ولكن عندما يفتحه فإنه واسع وداعر . وفمه يتحرك باستمرار : إنه مثل فم القرد عندما يبحث عن شيء. وفيما هو يرتجل، إذا عزف أغنية خفيفة طفولية ـ إنها القُبلة ـ فإنه يحبها بفمه .

من الممكن أن يكون هو هذا ! وعندما يكون هنالك ويقدم لك عرضاً فإن ذلك هو ما تحس به. أنت تعرف الناس عندما يكونون على المسرح ـ لاسيما أولئك الذين ينتمون لجنس أغمق لوناً ـ فالمحتمل كثيراً أن يكونوا رائعين ، مخيفين .

هذه رقصة للبيض. ان باورهاوس ليس استعراضياً مثل صبيان هارلم، إنه ليس مخموراً وليس مجنوناً ـ إنه في نشوة غامرة، إنه رجل يحب الفرح، متعصب وهو يصغي، بنفس القدر الذي يؤدي فيه أغانيه. وتبدو على وجهه نظرة نشوة قوية شائنة. وحاجباه المقوسان لا يتوقفان عن الحركة أبداً، إنهما كحاجبي اليهودي ـ حاجبا اليهودي المتنقل. وعندما يعزف ينزل بضرباته على البيانو والمقعد فيهتزان. انه في حركة دائبة لا تهدأ ـ فاذا يمكن أن يكون شائناً أكثر من ذلك ؟ فها هو برأسه الكبير وكرشه السمين، وأرجله الصغيرة المستديرة التي تصعد وتهبط باستمرار، وأصابعه الصفراء الطويلة الكبيرة، يعادل حجمها ، وهي مرتاحة ، حجم الموزة. بالطبع إنك تعرف صوته. فأنت سمعته مسجلاً على أسطوانات ـ ولكنك لا تزال بحاجة لأن تراه. إنه يتنقل باستمرار، كمن يتزلج في حلبة التزلج أو كمن يجدف بقارب. إن ذلك يدعو الجميع الى التجمهر حوله ، هنا في هذه القاعة التي دعمها الفولاذ والتي احتوت على ملصقات وردية الشكل لنيلسون إدي وشهادة للحصان

الـذي يقـرأ الأفكار بخط يد مكبر خمسمائة مـرة. ثم بكل هدوء يضع اصـبـعـه على مفتاح بالطريقة الواعدة والهادئة التي تحس بها عـرّافة كتابها .

كـان باورهاوس ذا تأثير هائل بحـيث يجلب النسـيان للجميع. عندما تأتي أية فـرقـة أو ممـثـلـون الى المـدينة ، أفـلا يحضر الناس دائماً ويطوفـون حـولهم ويحاولون اسـتطلاع مـاهيتهم ؟ هذا ما يقومون به. تذكروا كيف كان الأمر مع لاعبي الألعاب البـهلوانيـة. راقـبوهم بعناية . استمعوا الى أدنى كلمة، لاسيما ما يقولونه بين بعضهم البـعض، وبلغـة أخـرى ـ ولا تدعـوهم يغـيـبـون عنكم. فـذلك هو الوقت الوحيد للهلوسـة، الوقت الأخير. اذ لا يمكنهم البـقـاء هنا. فـفي مـثل هذا الوقت من يوم غد سيكونون في مكان آخر .



يوجـد لدى باورهاوس الكثير مما يؤديه باسـتخدام الاشارات. فالجميع، الذين يضـحكون وكأنهم سـيـخـفـون نقطة ضعف ما ، يسلمونه طلباً مكتوباً إن عاجلاً أو آجـلاً . ويقـرأ باورهاوس كل واحـد منهـا ويتأمله بوجـه غامض : أي بذلك الوجه الذي يبـدو كـالقناع ـ قناع أي شـخص ؛ وتمر لحظة ليقرر . ثم ينساب ضوء تحت جـفـونه ويقـول «١٩٢» أو مجمـوعـة ما من الأرقام ـ إنه لا يذكر اسماً على الاطلاق. قـبل ذكـر الرقم تكون الفـرقـة كلهـا هائجة وتتصرف بشكل غير لائق مثل أطفال في غـرفـة الـصف . وهو المعلم الذي يريد الهدوء . وبينما تكون يداه على المفـاتيح فإنه يقـول بقـوة: «جـاهزون ؟ هل أنتم جميـعـاً جـاهزون . هل جميعكم جاهزون للقيام بمـشـوار جـاد؟» وينتظر ـ ثم ضربه بالقـدم. هدوء. ضربة بالقـدم. للمرة الثانية. هذه نهائيـة. ثم مجمـوعـة ضربات ايقـاعية على الأرض لتحديد السرعة. وبعدها، يا إلهي ! هذا مـا تقـوله العـيـون المتـضـخـمة من وراء حدود الأبواق : أهلاً ووداعاً ثم يعـزف الجميع النوتة الأولى مثل شلال الماء .

وتـشـير هـذه الـنـوتـة الى نهاية أي نظام مـعـروف. ويبـدو أن باورهاوس قـد

تجاهلهم جميعاً ـ وبدا هو نفسه ضائعاً في أعماق الاغنية. كان يصرخ كمن هو في دوامة ـ لم يكن يقودهم ـ بل كان ينادي عليهم فقط : لكنه يعرف، في حقيقة الأمر، أنه يصرخ ولكنه يجب أن يعرف بالضبط» . الرحمة ! . . . ماذا أقول . . . . أجل !» ثم ينساب في الأغنية ، يصغي ـ «أين ضارب الطبل ؟» ـ إنه يريد الطبول الآن، ثم تبدأ بصبها والغناء بأشد ما عنده من بهجة ووحشية. وعند الاجزاء نظرة خبيثة للجميع ! كان هو ينظر بكرم الى كل وجوهنا ويهمس إلينا بالكلمات. ولو أنك استطعت سماعه في هذه اللحظة وهو يغني «الفجر يبزغ يا ماري !» كانت أصابعه تتحرك على مفاتيح البيانو بشكل روتيني ساخر، ثم أعلى فأعلى وبعد ذلك ينظر الى نهاية البيانو وكأنه ينظر من فوق جرف شاهق. لكنه لم يكن يفعل ذلك بطريقة استعراضية ـ إذ أن الاغنية هي التي كانت تجعله يقول بذلك .

إنه يحب طريقة عزفهم جميعاً أيضاً ـ كل اولئك الذين هم بالقرب منه. كان كل الجزء البعيد من الفرقة جاداً، وكانوا جميعاً يرتدون النظارات. لم يكن لهم وزن. أما أولئك الذين يعزفون بالقرب من باورهاوس فهم العازفون الحقيقيون. كان لديه عازف كمان شاب من فيكسبرغ ، وكان أسود كالزفت اسمه فالنتاين . كان يعزف وعيناه مغلقتان وكان أثناء ذلك يتحدث الى نفسه وقد كان على باورهاوس أن يشجعه باستمرار. «استمر ، استمر ، اعزف ، دعنا نسمعك !» وعندما تسمعه يصيح هكذا في التسجيلات على اسطوانات فهل تدرك أنه كان فعلاً يناشده ؟ ينادي فالنتاين ويطلب منه أن يؤدي عزفاً منفرداً . «ماذا ستعزف ؟» نظر باورهاوس بلطف من وراء البيانو، فتح فمه وظهر لسانه ، ويستمع. نظر فالنتاين الى الأسفل وقد اصطحب آلته وقال دون أن يحرك شفتيه: «زهرة صريحة الجدي (*) » كان لديه عازف مزمار يدعى ليتل بروذر [الأخ الصغير] وكان يحب الاستماع الى أي شيء يؤديه. كان يبتسم له ويقول : «رائع !» كان ليتل بروذر عندما يعزف يتقدم خطوة الى الأمام ويقف في طرف المقدمة ، وبياض عينيه يشبه الاسماك السابحة . وعندما عزف يوماً نغمة هادئة ، دمدم باورهاوس مثنياً عليه بكلمات نابية : «لقد نزل الى الطابق السفلي ليأتينا بتلك !» .

(*) زهرة برية جميلة كثيرة الرحيق . وهو هنا عنوان أغنية .

وبعـد مـرور فترة طويلة كـان يرفع العدد الذي يريده من أصابعه لكي يعرّف الفـرقـة عدد الجوقات المتبقية ـ عادة خمسة، كان دوماً يعطي توجيهاته بالاشارات .

كـانت ليلة سيئة في الخـارج . المعـزوفـة عـبـارة عن رقـصة للبيض ولم يرقص أحـد. سـوى بضع راقـصين بهلوانيين انتشروا هنا وهناك، وزوجـان كبيران في السن. وقف الآخـرون حـول الفـرقـة ليشاهدوا باورهاوس. وأحياناً كانوا يسترقون النظر الى بعـضـهم البعض. وكأنهم يقولون، بالطبع أنت تعرف كيف هي الأمور بالنسبة لهم ـ الزنوج ـ قـادة الفـرقـة إنهم يعـزفون بنفس الأسلوب ويقدمون لك كل ما لديهم حتى ولو كـان الجمهور لا يتعدى فرداً واحداً . . . وعندما يقدم شخص ما ـ بغض النظر عمن يكون ـ كل ما لديه، فإن ذلك يجعل الناس يشعرون بالخجل منه .



وفي وقت مـتأخـر من الليل يعـزفـون مـقطوعة الفالس الوحيدة التي يقبلون أن يـعـزفـونهـا ـ بـنـاء عـلى طلب الناس . «أغنيـة حب وثني» . كـان رأس باورهاوس يتمايل ويغـوص كأنه كرة معدنية بين كتفيه المتحركين. كان يئن ويجرجر أصابعه على لوحة المفاتيح بتثاقل، ويتمسك بالنغمات. يستعيدها. إنها أغنية حزينة .

قـال باورهاوس : «أتدري ماذا حل بي ؟»

يدمدم فالنتاين رده عليه ، حالاً ممسكاً بكمانه .

قـال باورهاوس وأصـابعـه تعزف : «تلقيت برقية بأن زوجتي توفيت» .

«ماذا ؟»

تشكل فـمـه بصوت «أو» البربري بينما استمرت أصابعه تعزف بخط مستقيم، دون رغـبة، ثلاث نوتات.

«جيبسي ؟ كيف توفيت، ألم تتصل بها في الليلة الماضية بمكالمة خارجية ؟»

«تقـول البرقـية ـ هاك الكلمات : زوجتك توفيت» . وضع ٤/ ٤ على ٣/ ٤ .

قال الطبال وهو صبي، ليست له شعبيه، يدعى سكوت وهو مهووس لا يصدق الأشياء :

«ليست سوى أربع كلمات ؟»

قال باورهاوس ووجنتاه العريضتان ترتعشان : «ما الذي كانت تحاول القيام به يا للجحيم ؟ وما الذي تخطط له ؟»

كان سكوت يعبث بفرشاة معدنية. قال : «اذا كنت قد تلقيت برقية، فبأي اسم موقعة ؟»

كان ليتل بروذر ، عازف المزمار، لا يستطيع الحديث في تلك اللحظة، حدّق بهم ومال الى الوراء. يرفع باورهاوس عينيه ويفتحها : «اسم الموقع أورانوس نوكوود. هل سمعت به قط ؟» تكونت فقاعة على شفته كطبق على منضدة .

كان فالنتاين يدق ببطء براحة يده ويداعب الأوتار بأظافره الزرقاء الطويلة .

إنه يعشق الفالس فيقاطعه باورهاوس .

هزّ فالنتاين رأسه وعيناه مغلقتان : «لا أعرفه ولا أدري من هو» .

«قل ذلك مرة أخرى» .

«أورانوس نوكوود» .

«ذلك ليس من شارع لينوكس» .

«وليس من برود واي» .

«إنني لم أر ذلك الاسم مكتوباً في أي مكان، حتى ولا على أوراق سباق الخيل» .

«اللعنة، ذلك يرتبط بكبار النجوم، أليس كذلك ؟» ثم يسمع صوت الصنجات الصاخب .

«ما الذي كانت تفعله ؟» يرتعش باورهاوس . «قل لي، قل لي، قل لي» . ثم أعطى اشارة وبدأ جوقة جديدة .

هذا فـالتاين صبوراً وناعساً وبادئاً من جديد :

«تقول أنك تلقيت برقية» .

يـعـطي باورهاوس تفـاصـيل : «أجل، حينما خـرجت، نزلت السلم عبر ممر طويل حيث يضعـوننا : وأثناء عـودتي في الممر : [ظهر شخص] وناولني برقية : زوجـتك توفيت» .

كان الطبال كالعنكبوت فوق الطبول : «جيبسي ؟»

صاح باورهاوس : « آآآآآآ !» دفـع بـكـلـتـا يديه القـويتين وأدى ثلاثة ضربات كـاملة لكي يثني عضلاته ثم جبل عجينة من النوتات الجهيرة. لمعت عيناه. أحـيـاناً كان يعزف البيانو وكأنه يضرب على الطبل ـ ولم لا ؟

جـيبسي ؟ راقصة رائعة ؟

«لماذا لا تسـمع ذلك مبـاشرة من وكـيلك ؟ لماذا لا يأتي ذلك من مـركز إدارة أعمالك ؟ مـا الذي كنت تفعله، أتتلقى البرقيات في الممر ولا تحمل توقيع أحد ؟»

ضحك الجميع وكانت تلك نهاية الجوقة .

صـاح باورهاوس قـائلاً : كم السـاعـة ؟ مـا هذا المكان الجـهنمي هذا ؟ أين ساعة يدي وسلسلتي ؟

تذمـر فـالتـاين قـائلاً : «لقـد علقـتها عليك ولا زالت هناك. وهنالك كانت السلسلة تتـدلى إلى الأسـفل على كرش باورهاوس الكبير حتى أنه لم يستطع أن يراها أبداً» .

«من المؤكـد أنني سـمـعت دقـات السـاعـة الثانية عشرة قبل فترة. لابد أننا في منتصف الليل» .

قـال باورهاوس وقـد رفع اصبعه الذي يحمل خاتماً : «ستكون استراحة» .

وضع نهاية للجـوقة. يتناول منشفة الفندق الكبيرة من جيبه العميقة في البنطال الكبير المفصل خصيصاً للسهرة ويدفع بجبهته فيه.

قـال ووجهه مغطى بالمنشفة : «لو أنها قتلت نفسها، لو أنها ألقت بنفسها من

النافـذة !» نهض على قدميه يدور بشكل مبهم، وهو يضع المنشفة على رأسه .

«ها، ها، !» «شيخ ، شيخ !»

«انها لا تفـعل ذلك.» وضع ليـتل براذر مـزماره بهدوء وكأنه مزهرية ثمينة، ثم تحـدث بعـد ذلك. كـان لا يزال يبـدو كـملكة هندية شرقـية، عنيدة ومقدسة ،مليئة بالافـاعي.» إنك لا تتوقع أن يفعل الناس ما يقولون في مكالمة هاتفية خارجية .

زمجر باورهاوس قـائلاً : «هيـا !» كـان قـد وصل الى الباب الخلفي وفتحه على مصراعـيه، وبوجه متجهم ومتوحش كان يستنشق الليل الرهيب .

خـرج كـل من باورهاوس وفـالنتـاين وسكوت وليـتل براذر الى الخـارج حـيث المطر الغزير .

قـال بـاورهـاوس بـصـوت هـادىء : «حـسـناً، إنهم يفـرغـون الدلاء» . وفي الطريق مد يديه الي الأمام وبسط كفيه البيضاوين كالغربال .

تجـمع مـائة من الزنوج السـود ممزقي الثـيـاب. الصـامتين والمسرورين . وكانوا قـد حضروا من تحت أفاريز سقف القاعة ولحقوا بهم الى حيثما ذهبوا .

قـال باورهاوس : «انتـبـه يا ليـتل براذر فـلا تكش. فأنت الآن في حـجـمك الـطـبـيـعي ولا يمـتـصـك المزمـار . إن حلقـك جـاف يا ليـتل براذر ، هل أنت في صـحـراء ؟» وضع يده في جـيبه وأخرج أوراق النعناع : «والآن ضع ذلك في فمك ـ لا تعلكها، فأنا لدي عدد محدود منها» .

قـال سـكوت الذي كـان يسير في المقـدمـة : «إذهب الى ذلك الملهى وأحضر بيرة» .

«بيرة ؟ بيرة ؟ أتدري مـا هي البيرة ؟ مـا الذي يسـمـونه بيرة ؟ ما هي البيرة ؟ أين كنت يا ترى ؟»

وصلوا الآن الى حي الزنوج : «هناك حـيث مـقـهى الورلد ـ أليس كـذلك ؟» تمتم فـالنتـاين وفـتح باب منخل مـفـتـول وكأنه صدفة بحرية. دخلوا جميعهم، كانوا أشـد سـواداً مع وجـود المطر الذي بللهم، وقـد تركـوا آثاراً لأقدامهم على الأرض .

في الداخل كـانت الروائح تنتصب وكأنها ستائر حول طاولة مغطاة بقطعة قماش ذات مـربعـات حمراء، وفي وسطهـا تجمع الذباب على زجاجة كتشاب شكلها كالمسلة. أما الجـدران في ظلمـة منتـصف الليل فـقـد امـتلأت مرة أخرى بمربعات هي عبارة عن لافـتـات تحـذيرية كـتب عليها . «لسنا مسؤولين» . وهناك أيضاً تقاويم عليها رسوم زنوج. كـانت غـرفـة إنتظار هادئة وهي سـاكنة مشوهة. وفيها مسرح يبدو أنه محترق وبجـانبـه آلة جدارية طويلة العنق مكتوب عليها «هاتف عمل، لا تتحدث كثيراً» . وفي كـل مكان كُتبت أرقـام هواتف. وكـانت هنالك ريشـة طاووس متـآكلة تتـدلى بخـيط من مـصباح قديم رفيع وردي اللون عار حيث كانت تدور وتدور ببطء عندما يتنفس أي شخص. كانت هنالك نادلة تراقب .

«تعـالي أيها التـمـثـال الحي وخذي هذا الطلب الكبير من البيرة الذي سنقدمه لك.»

«إنني لم أركم من قـبل أبداً في أي مكان.» تتـقدم النادلة منهم وببطء أظهرت قطعـاً ومـسـاكات ذهبية صغيرة على أسنانها. دفعت كتفيها وثدييها الى أعلى. «كيف لي أن أعـرف من قد تكونون ؟ لصوص ؟ تدخلون قادمين من ظلام الليل وبالضبط عند منتصف الليل ،تجلسون حول مائدتي.»

قـال باورهاوس وهو يفـتح عينيه بصعوبة وكأنه في كهف : «شياطين!»

صـاحت الفتاة من فرط السرور برقة. يا إلهي، انها تحب الحديث والمخاوف .

«هل سـتجدين بيرة كافية لتضعونها على هذه الطاولة هنا ؟»

ركـضت الى المطبخ وقـد ثنت كوعيها وبخطوات سريعة .

«توجـد هنا مليـون قطعـة نقـدية.» قـال باورهاوس ذلك وقـد أخـرج يده من جـيـبـه ونشـر القطع النقـدية على الطاولة، كلها سوى القطعة الأخيرة التي أخفاها كما يفعل ذلك ساحر.»

أخـذ كل من فـالنتـاين وسكوت النقـود وتوجـهـا الى الآلة العازفة، التي بدت كـآلة قديمة، وقرأ كل الأسماء التي تحملها الأغاني المسجلة بصوت مرتفع .

سأل باورهاوس : «لمن أغنيـة «تقاطع لوكسيدو ؟»

«أنت تعرف لمن.»

«أطلب منك أيتها الآلة أن تعزفي من فضلك أغنية زنجية حزينة حمراء فارغة ودعي بيسي سميث تغني لنا.»

صمتوا جميعاً .

قال باورهاوس : «هاتوا لي كل القطع النقدية هنا. انظروا الى هذا ! ماذا تقولون لي إسم هذا المكان ؟»

«رقص البيض، ليالي الأسبوع، مطر، تماسيح، المسيسبي، مسافات بعيدة عن الوطن.»

«صحيح !»

ابتدأت الآلة تعزف : «أرسلت في طلبك أمس وها أنت جئت اليوم.»

أما النادلة التي كانت تضع صينية البيرة على الطاولة الخلفية فقد جاءت قلقة ومشدودة كالدجاجة . «يقولون في المطبخ هنالك حيث يتلصصون بالنظر اليك من ثقب الباب أنك السيد باورهاوس.» . وقد عرفوا ذلك من خلال صورة لك كانوا قد شاهدوها .

قال ليتل براذر : «إنهم يرون جيداً الليلة. هذا هو.»

«أهو أنت ؟»

قال سكوت : «إنه هو بلحمه ودمه.»

سألها فالنتاين : «أتودين لمسه ؟ إنه لا يعض.»

«هل أنت عابر سبيل ؟»

«لقد فهمت كل شيء الآن بشكله الصحيح.»

وقفت منتظرة كالقطرة، ويداها واهنتان أمامها .

«أيتها الصغيرة، ألا تحضرين لنا البيرة ؟»

أحضرت البيرة ، ذهبت وراء الآلة الحاسبة وابتسمت وكانت تدور باتجاهات

مختلفة. لمعت قطعة الذهب الصغيرة التي في فمها .

قالت مرة : «إن نهر المسيسبي هنا.»

والآن فإن كل الزنوج الذين كـانوا ينظرون اليـه قـد اندفعوا برفق وبعيون لامعة عـبر البـاب، ودخل كل من اسـتطاع منهم الدخـول. ومن بينهم كـان فـتى صـغير يلبس قبعة قش مكسيكية قد غطاها دهان لامع بالكامل .

تـنـاول البيرة كل من باورهاوس وفـالنتـاين وسكوت وليـتل براذر وقـد التـقت أجـفـانهم وكأنها سـتائر. وقد أحاط بهم الجدار والمطر والنادلة المتواضعة الجميلة التي تخدمـهم والزنوج الآخرون الذين يراقبون .

همس باورهاوس قـائلاً : «اسـتـمـعـوا !» . كـان ينظر في زجـاجـة الكاتشب وبـبـطء بسط يديه فـوق قطعـة القماش الرطبـة المجـعـدة ذات المربعـات الحـمـراء. «اسـمـعـوا كـيـف الوضع. أن زوجـتي جيبسي تفتقدني. إنها تتجه الى النافذة. وتنظر الى الخـارج فترى مـا تعـرفـون في الشـارع . لافـتـة مكتـوب عليها «فندق» . أناس يسيرون. ينظر أحـدهم الى أعلى . إنه رجل عـجـوز . إنها تنظر الى الأسـفل خارج النافـذة. حـسناً ؟ . . . اصـمتوا ! ما الذي تفعله ؟ إنها تقفز ويتناثر دماغها في كل مكان في العالم.»

فتح عينيه .

قال فالنتاين يوافقة : «إذا أنت تلقيت برقية.»

أضاف ليتل بروذر قائلاً : «من المؤكد أنها تفتقدك.»

«كلا، لقد حل الليل.» إنه يخبرهم بذلك بدقة شديدة .

«من المؤكد أنه حان الليل. إنها تقول، ما الذي أسمعه ؟

وقع خطوات عبر القـاعـة ؟ إنه هو ؟ وقع خطوات تستمر وتبتعد. ذلك ليس أنا. فأنا في بلدة اليـغـادور، في المسيسبي، إنها حمقاء. إنها ترتع وتصغي حتى تصبح أذناها مـثل قـرون الصندوق الموسيقي القديم ولكنها ما تزال لا تسمع شيئاً. فتقول، حـسناً ! سـوف أقـفـز من النافـذة إذاً. فترتدي ثيـاب نومـهـا. أنا أعرف ثوب النوم

ذاك. وأعـرف تفكيرها ، تقول حسناً وتقفز من النافذة . هل هي غاضبة علي ! هل هـي مجنونة ! إنها لا تترك أي شيء !»

«حقاً ! ها !»

«دماغ وأحشاء في كل مكان، يا إلهي.»

كـان كل الزنوج يتـحـركـون ببـهجة، وقال باورهاوس بطريقة عاطفية ليزيدهم بهجة : «استمعوا ! أيها الفئران.»

«لابد وأن تلك هي الطريقة الملائمة أيها الريس.»

«ولكن يا باورهاوس، ذلك ليس صـحيحاً. إذ يبدو ذلك سيئاً جداً.»

صـاح باورهاوس قـائلاً : «أحقاً ؟ إنني أعرف حتى من عثر عليها. إنه ذلك الطفـيلي الذي يمشي ورائي خلسـة وهو يدندن ، الذي يلحق بي حـيثما ذهبت، وهو يقـتـفي أثري ويلوث كل مـا أمـر عليـه. إنه يراهن على ما أراهن عليه ويغني أغانيّ ويتـودد الى وكـيل أعمالي كـالحشرة. وعندمـا أخـرج من مكان يدخل هو. لقد عرفته الآن ! لقد رأيته.»

«أتعرف من هو ؟»

«إنه ذلك العـجـوز أورانوس نوكـود !»

«حقاً ! ها !»

«أجل، إنه قـادم الآن، إنه سـوف يعـثـر على جـيبسي . ها هو، انه يصل الى تلك الزاوية، وأن جـيـبسي تسـقط، انتـبـهـوا ! اصـمـتوا ! إنني أراها في ثوب نومها القـديم الصـغير، واني أرى دماغها وأحشاءها وقد تناثرت في كل مكان.»

ملأت المكان تنهيدة .

«لا تذكـر شـيئاً عن دمـاغـهـا، ولا تذكـر شـيئاً عن أحـشـائهـا ـ يا أورانوس نوكـود، أنظر الى الأسـفل وقل يا يسوع ! وهو يقول انظر هنا ما الذي أسير فيه !»

انفـجـروا جميـعـاً في ضـحك عـال. بدا وجـه باورهاوس وكأنه مدفأة حديدية كبيرة ساخنة .

قال : «إنه يرفعها ويذهب بها !»

«أجل ! ها !»

«إنه يحملهـا راجعاً بها حول الزاوية . . .»

«يـا باورهاوس !»

«أنت تعرفه.»

«أورانـوس نوكـوود !»

«أيوه !»

«إنه يسـتولي على زوجاتنا ونحن غائبون !»

«إنه يأتي عندما نغادر نحن !»

«أيوه !»

«إنه يغادر عندما نأتي نحن!»

«أيوه!»

«إنه يقف مختبئاً وراء الباب !»

«إنه العـجـوز أورانوس نوكوود.»

«أنت تعرفه.»

«إنه رجل مـتوسط الحجم.»

«إنه يلبس قبعة.»

«إنه هو.»

تنهـد كل من في الغـرفة بارتياح. بسط الفتى الصغير الذي كان يرتدي القبعة الفـضية ورقة ووزع قطع حلوى على أتباعه .

ومن خـلال الحلقـة اللاهثـة تقـدم شـخص مـا كالعبد وكان يقود عبداً ضـخماً بليـداً ذا عـيـون بارزة ، وقال : «هذا هو شوجار ستيك تومبسون ، الذي غطس الى

قــاع جـولي كـريل وأخــرج كل البـيض الذين كانوا قد غرقوا لما سقطوا من القارب. وفي الصيف الماضي أخرج أربعة عشر منهم.»

قــال باورهاوس : «مـرحـبـاً.» كـان يدور وينظر اليهم بوجهه الكبير الجريء حتى كادوا يختنقون .

كـان وسـيـلتـهم ذلك الرجل الذي يدعي شـوجـار سـتـيك ولم يكن يسـتطيع الكلام، بل كان ينظر الى الآخرين وراءه.

قـال الشـاب الذي يرافق ذلك البطل : «انه حـتى لا يسـتطيع السباحة . إنما يقوم بذلك بحبس أنفاسه.»

نظر باورهاوس اليـه متأملاً :

قال الشاب المرافق : «أنا أخوه غير الشقيق.»

بعـد ذلك رجعا الى الوراء .

دمـدم باورهاوس مرة أخرى بلطف وهو ينظر اليهم :

«تقول جيبسي : ما الفائدة ؟ إنني سأقفز بعيداً ـ بعيداً جداً اصمتوا !»

قـال ليتل بروذر : «أرجوك أيها الريس، لا تفعل ذلك مرة أخرى.»

قـالت النادلة : «هذا مـروع. إنني أكـره ذلك السـيـد نوكوود. هل ذلك كله حقيقة؟»

«أتريدون رؤية البرقـيـة التي تلقـيـتـهـا منه ؟» غـاصت يد باورهاوس في جيبه الواسعة .

«انتظر، انتظر أيها الريس.» كان الجميع يرقبونه.

قـالت النادلة وقـد عـضت على شـفتها السفلى، وقد تحولت عيناها اللامعة الى حـزينة وهي تنظر الى النوافذ : «لا بد أن تكون تلك هي الحقيقة الفعلية.»

«لا يا صـغيرتي، إنها ليـست الحـقـيـقـة.» ارتفع حاجباه وبدأ يهمس لها بفمه الواسع كـالفـرن. ظلت يداه في جيـبـه. «الحقيقة شيء أسوأ من ذلك، ولم أنطق بها

بعـد. إنها شيء ما لم يحدث معي، لكنني لا أقول أنه لن يقع. وعندما يحدث ذلك، أتريدون أن أخبركم ؟»

تنشق فـجأة، اتسعت عيناه وارتفعت للأعلى أكثر مما ينبغي. إنه يبتسم حالماً .

«لا، لا تفـعل ذلك يا باورهاوس ! يا ريس !»

صاحت النادلة قائلة : «يا إلهي !»

صـاح باورهاوس «اخـرجـوا من هنا» وقـد أخـرج يديه من جـيبه وهو يصفق وراء ثـوبها الأحمر .

تفـرقت حلقة المتفرجين وانصرفوا .

قـال باورهاوس : «انظروا الى ذلك ! لقـد انتهت الاستراحة . »

وضـع نـقـوداً تحـت الكأس ، وبعـدمـا انصرفـوا ، انحنى فـالتـاين الى الوراء وأسـقط قطعـة نقـدية في الآلة العـازفـة وراءهم، فأضاءت وبدأت تعزف أغنية «انهم سـيذهبون». كانت الريشة لا تزال مدلاة .



صـاح بـاورهـاوس فـجـأة تحـت المـطر في الطريق : «خـذوا البرقـيـة ! خـذوا الجـواب . والآن ماذا كان الإسم ؟»

أصبحوا الآن مرهقين قليلاً .

«أورانـوس نوكـورد . »

«يجب أن تعرف ذلك . »

«نعم ، هجته لي . »

هـجـؤوه بـكـل الطرق التي يمكن أن يهجأ بها. وقـد جـعلهم ذلك في مـزاج رائع .

«ها هو الجـواب . إنه هنا معي الآن.» ما الذي تتحدث عنه بحق الرب ؟ لا فـرق أبداً. لقد أمسكت بك. الإسم الموقع : باورهاوس.»

قـال فـالتتاين بصوت حانٍ كصوت الأم : «هل سيصله ذلك يا باورهاوس؟»

«أجل ، أجل.»

كـان الجـميع صامتين وقد كانوا يتبعونه في الطريق المظلم من على بعد، وكأنهم أشـبـاح سوداء بللها المطر، خاف الزنوج أن يموتوا ضاحكين .

ألقى باورهاوس برأسـه الضـخم الى الوراء في المطر الغزير، وبدا أن رغبة مليئة بالأمل تهب في مكان مـا كـبخار من فتحتي أنفه المتوحشتين على وجهه وترسل ضباباً الى عينيه .

«إلحـقوا به واخرجوا من الجانب الآخر.»

«إنه كـذلك يا باورهاوس ، إنه كذلك، لقد أمسكت به الآن.»

أطلق باورهاوس تنهيدة طويلة .

«لكن ألن ترجع الى هناك لتـتـصل بجيبسي بمكالمة خارجية مثلما فعلت الليلة الماضيـة في ذلك المكان الآخـر ؟ لقـد رأيت هاتفـاً . . . فقط لترى فيما إذا كانت في البيت ؟»

كـانت لحظة صـمت. كـان هنالك ذلك الطبال الأبله الذي سيتسبب في كسر عنقه يوماً ما.

صـاح باورهاوس قائلاً : «كلا ! كم ألف مرة علي أن أقول كلا ؟»

بسط ذراعه تحت المطر .

قـال ليـتل بروذر فـزعاً : «إنك بالتأكيد تستطيع إطلاق صوتك بعيداً في بعض الليالي. يكاد يصل اليها هناك.»

سـاروا عبر الطريق ، كانوا ينفضون المطر عنهم كالطيور .

★ ★ ★

وفي صـالة الرقص، بعـد عودتهم، عزفوا أغنية «سان (٩٩)». ابتدأ الراقصون الـبـهلوانيـون بالانطلاق كطواحين هواء مـوضـوعـة على الأرض وفي مـدارهم ـ دائرة، ثم أخـرى ثم صف طويل ثم خط مـتـعـرج ـ كـان يرقص الأزواج المسنون بسلاسة قـديمة ، بوقار وبدون انزعاج .

عـندمـا عـاد باورهاوس من الاستراحـة، كـان بلا شك مليئاً بالبيرة كما قـالوا، أعـاد توازن الفـرقـة مـرة أخـرى بطريقـتـه الخاصة . لم يضرب مفاتيح البيانو لضبط النغـمة ـ بل انه بكل بساطة فتح فمه وصاح بصوت عالي الطبقة فانسجموا معه. ثم استلم البـيـانو وكأنه يراه لأول مـرة في حـيـاته ، وتحـقق من قـوته ، ضرب مختلف النغمات مـرة منهـا بكوعـه ، وفـتـح غطاءه ونظر في داخله ومال عليه بكل قوته ، ثم جلس وعـزف لبـضع دقـائق بقـوة جنونيـة وتحكم به ثم عـزف شـيـئاً فـاتناً ورقـيـقاً ، وابتـسم . ومن يسـتطيع تذكر أياً من الأشياء التي قالها ؟ إنها مجرد ملاحظات موحى بها تتدحرج من فمه كالدخان .

طلب الناس منه أغنيـة «شـخص مـا يحبني» ، وكـان قد عزف إثنا عشر أغنية جماعـيـة أو أربعـة عشر، إنه يجمـعها ولا أحد يدري كيف يفعل ذلك، وسيكون من العـجيب أن ينجح في ذلك . إنه ينادي ويصرخ من حين لآخر قائلاً : «شخص ما يحبني ! شـخص مـا يحبني ، إنني أتسـاءل من يكون !» شـخص مـا يحبني ، إنني أتساءل من يكون !» ويصبح فمه بركاناً ليس إلا. إنني أتساءل من يكون !»

إنه يسـتـخـدم يده اليمنى جميعها وهو يعزف نغماً مرتعشاً : «ربما . . . ربما.» ويسـحب أصـابعـه الممتدة وينظر الى المكان الذي هو فيه. وتزيد وجهه المبتل مهابة تكشيرة واسـعة، غير شخصية ولكنها غاضبة .

« . . . . ربما تكون أنت ! »

كارل ساندبيرج
(١٨٧٨ ـ ١٩٦٧)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

وُلد في بلدة جيلزبيرج Galesburg في ولاية الينوي لوالدين مهاجرين من السويد . كانت اسرته فقيرة واضطر لترك الدراسة وعمره ثلاثة عشر عاماً وعمل في عدد من المهن والأعمال (بائع حليب، عامل في مزرعة، غاسل صحون في فندق، صانع طوب) طلباً للرزق. شارك في الحرب الاسبانية الأمريكية كما أنه عمل كمراسل لجريدة بلدته المسائية أثناء الحرب ذاتها. ثم عمل في عدة صحف كمراسل الى أن حصل على عمل كمحرر لجريدة صغيرة في شيكاغو. ومع عمله الصحفي كان نشيطاً في الحياة السياسية العامة فقد كان المنظم السياسي للحزب الديمقراطي الاجتماعي عام ١٩٠٨ .

كارل ساندبيرج من أوائل الأدباء الأمريكيين الذين ثاروا على أدب الفترة السابقة ولعب بذلك دوراً في نجاح حركة الحداثة (modernism). وهو يعتبر من مدرسة والت ويتمان في الشعر، حيث كتب الشعر المرسل (free verse) وحاول تصوير واقع الحياة الخشنة ومشاهد من حياة الناس العادين اليومية العادية. ومثل ويتمان، فقد كتب ساندبيرج قصائده بابيات طويلة تعتمد على التكرار والتفصيل. ولكن هذا لا يعني أنه لم يكتب قصائد من نوع آخر كقصائد الاحتجاج الاجتماعي الملتزمة وكالقصائد العاطفية التأملية، كما سيظهر في المختارات التالية .

بالاضافة الى كتابة الشعر، كان ساندبيرج مؤرخاً وكاتباً للسيرة ويتجلى ذلك في كتابه عن ابراهام لنكولن المؤلف من ستة أجزاء والذي حصل على جائزة بولتزر للتاريخ. كما أنه كان مطرباً شعبياً ساهم في نشر القصيدة القصصية الشعبية folk ballad والأغاني الشعبية قبل أن يحتل الراديو المكانة التي يحتلها اليوم في مجال الفن والاتصالات . كما أنه كتب عديداً من كتب الأطفال

المتميزة التي تحتوي على قصائد ممتازة . ونتيجة انشطته في هذه الميادين جميعاً فقد أصبح شخصية عامة معروفة . وكان يعتبر ، في ثلاثينات وأربعينات القرن الحالي ، شاعر أمريكا غير الرسمي .

من دواوينه الشعرية ، وعناوينها تدل على نوعية شعره : **قصائد شيكاغو** (١٩١٤) **(Chicago Poems)**، **مقشرو اكواز الذرة** (١٩١٨) **(Corn Huskers)**، **دخان وفولاذ** (١٩٢٠) **(Smoke and Steel)** وغيرها .

شيكاغو

ترجمة : د. عصام الصفدي

[هذه من القصائد التي لفتت انظار القراء حين نشرها (١٩١٤) الى شاعرها ونوع الشعر الذي يكتبه. ولابد أنها بدت غريبة للقراء الذين تعودوا على شعر القرن الماضي. إذ يبدو لأول وهلة ان موضوعها (مدينة شيكاغو وحياة بعض فئات سكانها من عمال وأحداث قادمين من الريف ومومسات) غير شعري. وهي كذلك غريبة، من وجهة النظر تلك، في الصفات التي تمدحها في تلك المدينة (الخشونة والقوة الجسدية وانتشار الجريمة والشراسة وقذارة المراكز الصناعية). ولكن القصيدة تركز على قوة المدينة وحيويتها ومقدرتها على البقاء كالمارد. نرى في القصيدة تأثير ويتمان من حيث استعمال الشعر الحر وتكرار بعض أجزاء الجمل وتكديس التفاصيل.

تمثل هذه القصيدة جانباً آخر من موهبة ساندبيرج الشعرية المتعددة الجوانب كما يتضح من مقارنة هذه القصيدة مع القصيدتين اللتين تليانها] .

المحرر

قصابة الخنازير للعالم
صانعة الأدوات ، مكدسة القمح،
ايتها اللاعبة بالسكك الحديدية ومدبرة شحنات الأمة؛
ايتها المدينة العاصفة، القوية، الهادرة،
يا عريضة الأكتاف :
يقولون لي انك شريرة وأصدقهم، لأنني رأيت نساءك مصبوغات الوجوه
تحت أضواء الغاز يغرين غلمان المزارع .
ويقولون لي أنك غير مستقيمة فأجيبهم : نعم ، هذا صحيح إذ رأيت حامل
المسدس يقتل ويبقى مطلق السراح ليقتل ثانية .

ويقـولون لي انك مـتـوحشة وجوابي هو : رأيت على وجوه النساء والاطفال علامات الجوع المستهتر .

أمـا وقـد أجـبتهم فانني اتوجه الى اولئك الذين يهزؤون بمدينتي هذه، فأرد اليهم هزءهم وأقول لهم :

هلمـوا أروني مـدينة أخرى راسها مرفوع تغني وهي شديدة الاعتزاز بأنها حية وخشنة وقوية وبارعة .

تنثـر لعنات مـغناطيـسـيـة اثناء الكدح في تكديس عـمل فوق عمل، ها هي ملاكمة طويلة جريئة تبدو مفعمة بالحيوية في مواجهة المدن الصغيرة الناعمة؛

شرسـة مـثل كلب يلعق بلسـانه رغـبـة في العـمل، بارعـة مثل المتوحش في مواجهة البـرِّية،

عاري الراس

يضرب بالرفش

يدمر

يخطط

يبني ، يحطم ، يعيد البناء

تحت الدخان، والغبار على فمه، ضـاحكاً بأسنانه البيضـاء

يضـحك تحت عبء القدر المخيف كما يضـحك شاب

يضـحك حتى كأنه مقاتل جاهل لم يخسر قط معركة

يتبجح ويضـحك لأن تحت رسغه نبض الشعب وبين ضلوعه قلب الشعب،

يضـحك !

يضــحك ضحك الشباب العاصف، الضـخم الجثة، الهادر، شبه العاري، الذي يعـرق، مـعـتـزاً بأنه قصاب الخنازير، صـانع الأدوات، مكدس القمح، اللاعب بالسكك الحديدية ومدبر الشـحن للأمة .

ضباب

ترجمة : د. عصام الصفدي

[تختلف هذه القصيدة عن القصيدة السابقة وبذلك تظهر للقارىء جانباً آخر من شاعرية ساندبيرج . فلا يوجد هنا أثر لتكديس التفاصيل أو لمحاولة تصوير واقع الحياة في خشونتها وصعوبتها . والواقع انه في هذه القصيدة قريب جداً من شعر المدرسة التصويرية Imagism . فالقصيدة قصيرة ومركزة ، وصورها ترسم واقعاً يمثل المدينة في صباح يوم كثير الضباب، ثم إن لغتها بسيطة] .

المحرر

يأتي الضباب

على أقدام صغيرة كأقدام هرة .

ويقعي مطلاً

على الميناء والمدينة

على وركين صامتين

ثم يواصل سيره

أعشاب

ترجمة : د. عصام الصفدي

[المتكلم في هذه القصيدة هو العشب، وهو يمثل الطبيعة واستمرارية الحياة. وفي القصيدة نلمس الحيوية والطاقة اللتين يتميز بهما شعر ساندبيرج مثل شعر ويتمان. فالمتكلم هنا، في لهجته، يتحدى الموت لأنه يعرف أنه يستطيع تحويل الموت الى حياة ، فإن جثث الموتى ستصبح تراباً يغذي اعشاباً جديدة . يُلاحَظ في هذه القصيدة اتباع الشاعر لأسلوب التكرار حتى ينتهي به الأمر الى تصوير حي للنظرة التفاؤلية الأمريكية مبنية على تفاصيل واقعية دقيقة وليس على أفكار تجريدية عامة] .

المحرر

كوموا الجثث عالياً في اوسترلتز وواترلو (١) .
ادفنوها برفشكم ودعوني أعمل .
أنا العشب ؛ أخفيها جميعاً .

وكوموها عالياً في جيتسبرج (٢)
وكوموها عالياً في إيبرس وفيروان (٣) .
ادفنوها برفشكم ودعوني أعمل .

عامان، عشرة أعوام، ويسأل الركاب بائع التذاكر :
أي مكان هذا ؟
أين نحن الآن ؟

أنا العشب
دعوني أعمل .

---

(١) اوسترلتز وواترلو : مواقع معارك في الحروب النابليونية .
(٢) موقع معركة في الحرب الأهلية الأمريكية .
(٣) مواقع معارك في الحرب العالمية الأولى .

إي. إي. كمنجز
(١٨٩٤ ـ ١٩٦٢)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

يعتبر شعر كمنجز جزء عاماً من حركة الحداثة. ويثير شعره عدداً من الأسئلة التي تدل على فهم يختلف اختلافاً جذرياً عن المفهوم التقليدي للشعر. أمن الشعر قصيدة لم تُكتب لتقرأ بصوت عال بل لتتأملها العين ؟ هل يمكن ألا يكون البيت الشعري الوحدة الأساسية للقصيدة ؟ ما هو دور الخيال العابث أو اللعوب في الشعر ؟

حياته :

ولد في مدينة كيمبردج في ماساشوستس في عائلة متعلمة ومثقفة. فقد كان أبوه استاذاً في جامعة هارفارد. وقد أبدت أمه اهتماماً كبيراً بموهبته الفنية (كتابة ورسماً) وشجعته على الاستمرار. وقد كان لاحترام الفرد في أسرته تأثير كبير في حياته .

درس في جامعة هارفارد وحصل على البكالوريوس عام ١٩١٥ والماجستير عام ١٩١٦ . وفي هارفارد اكتشف الفن والموسيقى الحديثين وذلك عن طريق اصدقائه المثقفين ، رغم أن ذوقه الفني كان يختلف عن ذوق اساتذته وزملائه من الطلبة .

سنة ١٩١٧ ذهب الى فرنسا للحرب ـ وعمل سائق سيارة إسعاف فتطوع للصليب الأحمر. سجن في معسكر لمدة ثلاثة أشهر هناك . وقد اتخذ من هذه التجربة مادة لكتابة **الغرفة الضخمة** (١٩٢٢) **The Enormous Room** الذي كان أول عهده بالشهرة .

عاش في فرنسا بين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٣ حيث اكتشف الحياة البوهيمية وثقافتها وحاول تقليد ذلك في جرينتش فيليج في نيويورك. تزوج ثلاث مرات .

اعماله وأفكاره :

سبق وذكرت أعلاه ان شهرته بدأت بكتاب **الغرفة الضخمة** وهو وصف نثري لتجربته في السجن في فرنسا . وله كتاب نثري آخر ، **ايمي** (١٩٣٣) ، وهو وصف لأسفاره في روسيا في عهد ستالين . واسلوبه فيه شديد التفصيل للصور الحسية، كما أنه اسلوب ديناميكي. وقد كتب كمنجز مسرحية عنوانها **هو (Him)** (١٩٢٧) ، وسيناريو لباليه بعنوان **توم (Tom)** (١٩٣٥) . أضف الى هذا أنه استمر في ممارسة فن الرسم طوال حياته ولا تزال لوحاته ورسومه تُعرض في المعارض والمتاحف. ولكن شهرته تستند بشكل رئيسي الى أعماله الشعرية. وأول ديوان شعري له صدر عام ١٩٢٣ بعنوان **زنابق ومداخن Tulips and Chimneys** . أما مجموعة أعمال كمنجز فظهرت عام ١٩٣٨ . وقد حصل بشعره على العديد من الجوائز ورموز التقدير والتكريم.

ويتميز شعره بتجديدات بارعة في شكل القصائد. ومن ذلك محاولاته العديدة لتفتيت بيت الشعر الى أجزاء تتألف أحياناً من كلمة واحدة أو حتى مقطع من كلمة واحدة. واستعماله عبارات ناقصة بدلاً من الجمل الكاملة. وفي كثير من الأحيان يدمج أكثر من كلمة في كلمة واحدة مركبة. وقد بعثر أحرف الكلمة الواحدة في أكثر من بيت شعري واحد. كما أنه فعل بعلامات الترقيم ما فعله بالكلمات فكثيراً ما يستعمل علامات الترقيم في داخل الكلمة الواحدة. يتضح من هذا كله أنه لم يتمسك بسلامة القواعد وصحة ترتيب الكلمات في جمل صحيحة. ومن نتائج هذا أن تغير شكل القصيدة بحيث أصبحت موجهة للعين أولاً وقبل كل شيء أي ان قراءتها بصوت عال (كما هو الحال المعتاد في الشعر دائماً) أصبحت مستحيلة. ويتبين هذا بشكل خاص في قصيدة «الجندب» التي لا توجد فيها كلمة واحدة مكتوبة بشكل كامل أو حتى جملة مفيدة ! وهذا كله من مظاهر محاولاته التجديد في شكل ومظهر الشعر. وبعبارة أخرى فإن شعر كمنجز يمثل فكرة راسخة من أفكاره وهي الفردية. فشعره تعبير عن فرديته وتفرده وشخصيته وهو يعتقد أنه ينبغي لكل شاعر أن يحرص على فرديته لا أن يكون من معظمنّاس (Mostpeople) ! من الشعراء في اتباعهم للتقاليد البالية .

ومن أفكاره ضرورة الاهتمام بالطبيعة والمحافظة عليها واحتقاره للقيم المادية والاصطناعية التي بُنيت عليها الحضارة الصناعية الحديثة والمجتمع الاستهلاكي. وواضح ان هذه الفكرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بدفاعه عن الفردية واحتفاله بالفرد في مواجهة المجتمع .

مساهمته وموقعه في الأدب الأمريكي :

تندرج محاولاته التخلص من البيت الشعري كجملة قواعدية واحدة والعبث بالتهجئة وبأصول الترقيم وقواعد استعمال علاماته المذكورة آنفاً جانباً من مساهماته في ميدان الشعر. وهذه المحاولات على اختلافها جزء من مظاهر الحداثة والتجديد في الشعر. وكان لها تأثير في ظهور ما يسمى بالشعر الملموس (Concrete Poetry) وكذلك الفن العامي (Pop Art) .

ومن مساهماته أيضاً تجديده للسوناتا واستخدامها في هجاء مظاهر عديدة من المجتمع الأمريكي .

ومن أهم مساهماته تطعيم الشعر بروح غنائية رقيقة عذبة يلمسها المرء بوضوح رغم كل مظاهر التجديد المذكورة اعلاه .

ان كمنجز بنوعية شعره ومحاولاته التجديدية وخياله اللعوب قد أصبح شاعراً متميزاً رغم أنه مثير للجدل. وهو من أكبر الشعراء في نظر طلبة الشعر في الجامعات ومختلف الأكاديميات .

في فقط

ترجمة : د. عصام الصفدي

[مثل بقية قصائد كمنجز ، ليس لهذه القصيدة عنوان ولذلك يستعمل محررو المجموعات الأدبية الكلمات الأولى في كل قصيدة بل والبيت الأول ـ كعنوان. يتجلى في هذه القصيدة احتفاء الشاعر بالربيع وما يرافقه من بهجة ومرح وألعاب، كما يتبدى فيها حب الطبيعة وجوها الممتع. ويمكن لقارىء القصيدة أن يرى فيها محاولات التجديد التي ذكرت في المقدمة السابقة، وإن كان من الصعب أن تظهر كلها في الترجمة .

يلاحظ القارىء أن الشاعر يدمج ثلاث كلمات في كلمة واحدة اديوابيل (eddieandbill) ويستعملها بدلاً من الكلمات المجردة مثل أولاد وبنات وكذلك الحال في bettyandisbel . أما وصفه لبائع البلالين بأنه ذو قدم الماعز goat-footed فهو إشارة للإله بان (Pan) وهو إله الغابات والرعيان لدى اليونانيين القدماء] .

المحرر

فـي فقط ـــ
الربيع   عندما يكون العالم موحـ
مغرٍ بائع
البلالين الصغير الأعرج
يصفّـر   عن بعد   ونحن (١)
وإديوابيل ناتي
راكضين من لعب الكلة و

---

(١) «نحن» تقابل "we" بالانجليزية ولكن شاعرنا يكتبها هكذا "wee" .

القرصنات والفصل

ربيع

عندما يكون العالم رائع البرك الموحلة
يصفّر بائع البلالين العجوز
الغريب
عن بعد و نحن

وبتيوإيزبيل نأتي راقصين

من لعب الحجلة وقفز الحبل و

إنه الربيع
و
أل

بائع البلالين
ذو قدم الماعز يصفّر
بعيداً
و
نحن

سيدات كيمبردج اللواتي يسكنّ في أرواح مفروشة

ترجمة : د. عصام الصفدي

[في هذه القصيدة يداعب شاعرنا سيدات مدينة كيمبردج وهي المدينة التي تقع فيها جامعة هارفارد وتشتهر بطبقتها المثقفة الراقية وبازدهار الفن والعلم والثقافة فيها ومداعبته ساخرة كما هو واضح. والقصيدة من نوع السوناتا ذات الأربع عشر بيتاً، وكمنجز يستخدم هذا النوع الأدبي في كثير من قصائد الهجاء التي يسخر فيها من بعض أوجه الحياة في أمريكا. يلاحظ القارىء ان كمنجز يقرن اسم المسيح ولونجفيلو، مع ان الأخير شاعر عاش في القرن التاسع عشر وكان استاذاً في جامعة هارفارد وليست له أية صفة تجعله كالسيد المسيح] .

المحرر

سيدات كيمبردج اللواتي يسكنّ في أرواح مفروشة
لا جميلات ولهن عقول مريحة
(أيضاً، بمباركة الكنيسة البروتستانتية
بنات، غير معطرات عديمات الشكل ذوات حيوية)
انهن يؤمن بالمسيح ولونجفيلو، وكلاهما ميت،
وهن دوماً مهتمات بأمور عديدة ـ
في لحظة كتابة هذه [الكلمات] ما يزال المرء يجد
أصابع مبتهجة تحبك من أجل الـ أهو للبولنديين ؟
ربما. فيما الوجوه الدائمة بخفر تتناقل
فضيحة السيدة نون والبروفيسور دي
.... سيدات كيمبردج لا يبدين اهتماماً، فوق
كيمبردج أن أحياناً في صندوقها
السماوي الخزاميّ وعديم الزوايا
خشخش القمر مثل قطعة حلوى غاضبة .

بعد بالطبع الرب يا أمريكا أنا

ترجمة : د. عصام الصفدي

[يوجه الشاعر في هذه القصيدة هجاء لاذعاً للمتطرفين من أدعياء الوطنية وما يستعملونه من كلمات مجردة جوفاء رغم ما لها من بريق. وهي مثال آخر على استعماله للسوناتا كأداة لهجاء ونقد ما لا يعجبه في المجتمع الأمريكي] .

المحرر

بعد بالطبع الرب يا أمريكا أنا
احبك يا أرض الحجيج الى آخره
قولي هل تستطيعين الرؤية في وقت مبكر من الفجر
وطني وهو من قرون تأتي وتذهب
والتي انقضت أي جزء منها نقلق
في كل لغة حتى الصمبكم
أبناؤك يهللون لاسمك بالدماء (١)
باغلظ الأيْمان (٢)

---

(١) بالدماء: by gorry ـ يبدو أن الشاعر يكرر حرف r غير الموجود أصلاً على سبيل التلاعب بها.

(٢) هذا البيت «بأغلظ الايمان» هو ترجمة على سبيل الاختصار والتسهيل للعبارات التالية حسب ترتيبها في الأصل :
تعبير عن الدهشة أو التأكيد ـ والعبارة التي تشبه القسم: by jingo في مبناها ترد في أغنية قتالية انجليزية .

=

لم الحديث عن الجمال أهناك ما هو أجـ
مل من هؤلاء الميتين البطوليين السعيدين
الذين اندفعوا مثل الأسود الى زئير المذبحة
لم يتوقفوا للتفكير بل ماتوا بدلاً من ذلك
بعدئذ أيصمت صوت الحرية ؟
هذا ما قاله . ثم تجـرَّع على عجل كأس ماء .

= الجزء الثاني من العبارة يستعمل لأمر الحصان أو الثور أن : by gee يسير للأمـام أو اليمين (وهي تشبـه كلمـة حي المستـعـملة في العـربية بهذا المعنى) . ولكن الشاعر يستعملها بشكل يوحي أنها قسم استهزائي وخاصة اذا ما اقترنت بالبيت الحادي عشر .
تعـبير عن الدهشـة أو البهجة ـ تحريف لِـ god by gosh لا مجال لفـهم كلمة gum بمعناها العـادي (صمغ by gum أو لثـة) بل يبـدو أن الشـاعـر اضـافـهـا للكلمات السابقة على سبيل الاستمرار في الجناس الاستهلالي حيث ان كل الكلمات السابقـة تبدأ بصـوت الحرف g وذلك ربما يكون للسخرية من هذا التقليد الشعري .

أ (و

تبين هذه القصيدة بشكل واضح سبب تسمية كمنجز بهلوان الكلمات لما يقوم به من تلاعب بها. كما أنها تبين لماذا يعتبر من رواد القصيدة الملموسة Concrete Poem. فهو هنا لا يريد لقصيدته ان تقرأ بصوت عال بل ان ينظر اليها المرء (يجب ان نتذكر ان كمنجز رسام ايضاً) . والقصيدة تتكون من بعشرة لثلاث كلمات : الوحدة وورقة تتهاوى . ويريد الشاعر ان يقرن صورة الورقة (ورقة الشجر) المتهاوية بالشعور الانساني بالوحدة ـ وهو شعور طاغ في حضارة الغرب الحديثة. ولكن عنصراً هاماً جداً آخر لابد من ذكره تتكون منه القصيدة : ألا وهو مظهرها أو طريقة ترتيب الأحرف بها فهي بترتيبها العمودي تشبه الرقم ١ (رمز الوحدة) وحرف اللام وهو بداية كلمة وحدة (Loneliness) بالانجليزية وتشبه شكل ورقة شجر متساقطة . ويحاول الشاعر ـ بشكل غير مباشر ـ ان يربط ما بين الفكرة المجردة (الوحدة) والصورة المادية (الورقة المتهاوية)] .

المحرر

ا (و
رَ
قَةٌ
تَتَـ
ها
وَى)
لو
ح
دة (١)

(١) هذه الترجمة مأخوذة من كتاب إي. إي. كمنجز : شاعر امريكا ، من منشورات الهيئة العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٧١ ، الصفحة ٣٢٣ .

أدب الأقليات العرقية

بقلم : د. عصام الصفدي

انقضى ما يزيد على قرنين منذ ان طرح هكتور سينت جون دي كريفيكر Hector St John de Crévecoeur سؤاله الجوهري التالي : «من هو ، إذن ، الامريكي ، هذا الرجل [الانسان] الجديد ؟» . أهم ما في هذا السؤال هو افتراض وجود شخصية موحدة هي الشخصية الامريكية؛ وبالتالي وجود ثقافة واحدة جديدة ، تتميز عن غيرها من الثقافات ، وهي التعبير عن تلك الشخصية الواحدة. ففي كتابه الذي أورد فيه سؤاله ، وهو يحمل عنوان رسائل من مزارع امريكي Letters form An American Farmer ، وفي معرض رده على سؤاله السابق ، يطلع المؤلف على قرائه بالمقولة المشهورة وهي ان امريكا هي بوتقة ينصهر فيها الافراد من جميع الشعوب والاجناس ليشكلوا امة جديدة . وقد سادت هذه المقولة في الاوساط الفكرية والثقافية دون معارضة تذكر منذ طرحها المؤلف المذكور . وقد ازدادت حديثاً الشكوك والتساؤلات حول مدى صحة هذه المقولة وما يترتب عليها من نتائج . فمن الواضح لكل من يدرس الثقافة الامريكية ان هناك في امريكا ثقافات غير الثقافة الرسمية (المعروفة بالثقافة البيضاء الانجلوسكسونية البروتستانتية : WASP) : مثل ثقافة الاقليات العرقية وخاصة الزنجية - وهي اهمها . ومن هذه الثقافات الثقافة العربية كما سنرى في هذا الفصل من هذه المختارات من الأدب الامريكي . بل ان هناك ثقافات فرعية غير عرقية مثل ثقافة الشباب التي ازدهرت في الستينات. وهذه الثقافات الفرعية ، على اختلاف الأسس التي تقوم عليها ، لا تطابق الثقافة الرسمية بل وكثيراً ما تختلف عنها او تتعارض معها في مفاهيمها وتوجهاتها بل وفي اشكالها الفنية . وقد ظهرت مؤخراً دراسات عديدة تركز على آداب مختلف الاقليات العرقية . ويبدو أن هذا التوجه ينسجم مع طبيعة الولايات المتحدة كقطر / قارة وكأمة ساهمت ، ولا تزال ، مختلف الجنسيات في بنائها السكاني . وتدل احصائيات عام ١٩٩٠ على أن الهجرة من

مختلف انحاء العالم قد رفدت الولايات المتحدة بزيادة نسبتها ٢٥٪ من اجمالي زيادة عدد السكان .



لا مفر من بدء هذا الفصل بأدب الاقلية الزنجية حيث ان الزنوج او الافارقة الامريكيون هم أكبر الاقليات العرقية ويمثلون ما يزيد عن ١٢٪ من عدد السكان . وبما ان المختارات الادبية في هذا الفصل هي بشكل رئيسي جزء من أدب النصف الاول من القرن العشرين ، فلا مجال هنا لتأريخ الأدب الزنجي الامريكي كله . بل سوف تركز هذه المقدمة على الظاهرة الأدبية المعروفة بنهضة هارلم (The Harlem Renaissance) . ولكن لا ضير في إيراد بعض الحقائق الاساسية عن الأدب الزنجي في الولايات المتحدة حتى لا يتكوّن لدى القارىء العربي الانطباع الخاطىء بأن الأدب الزنجي بدأ فجأة في القرن الحالي .

ففي مجال الشعر ، أول شاعرة زنجية هي لوسي تيري Lucy Terry ، من رقيق ولاية ماساشوستس Massachusetts . وفي عام ١٧٤٦ كتبت قصيدة في وصف غارة هندية وعنوانها حرب القضبان (Bars Fight) . أما اول شاعر زنجي ينشر له شعر فهو جوبتر هامون (Jupiter Hammon) وهو من أرقاء ولاية لونج آيلاند (Long Island) . وقد كتب قصيدة دينية مؤلفة من ثمان وثمانين بيتاً نشرت مستقلة سنة ١٧٦٠ . اما أول ديوان شعر لشاعر زنجي من الولايات المتحدة فعنوانه **قصائد في مواضيع دينية واخلاقية متنوعة (Poems on Various Subjects, Religious and Moral)** ، ونشر في لندن عام ١٧٧٣ . وهو من تأليف رقيق من مدينة بوسطن اسمها فيليس ويتلي (Phyllis Wheatley) . وأول شاعر زنجي يحظى بشعبية على نطاق الولايات المتحدة كلها ويلاقي قبولاً كاملاً في أوساط الادب هو بول لورنس دانبار (Paul Laurence Dunbar) الذي عاش من ١٨٧٢ حتى ١٩٠٦ . وبدأت الاغاني الزنجية الروحية (Spirituals) تنتشر بعد ١٨٦٠ .

أما في مجال النثر ، فقد شهد عام ١٧٦٠ (وهو نفس العام الذي نشرت فيه اول قصيدة لشاعر زنجي) ظهور أول كتيب سيرة ذاتية لكاتب زنجي هو بريتون هامون (Briton Hammon) وستكون السيرة الذاتية أول نوع ادبي زنجي ذا أهمية ادبية . وتتالت بعد هذا الكتيب السير الذاتية التي تروي قصص هروب الارقاء من العبودية الى الحرية . وقد بلغ هذا النوع الأدبي ذروته في منتصف القرن التاسع عشر . واول جريدة زنجية في الولايات المتحدة ظهرت في نيويورك سنة ١٨٢٧ بعنوان جريدة الحرية **(Freedom's Journal)** .

ما يهمنا في هذا الفصل هو حركة نهضة هارلم . وهي حركة ازدهرت فيما بين الحرب

العالمية الاولى وانهيار السوق المالي في نهاية العشرينات . وتحظى هذه الحركة باهتمام من لهم علاقة بالدراسات الامريكية على تعدد تخصصاتهم في محاولتهم البحث في ماهية هذه الحركة ، وجذورها وثمارها ، والظروف المتعددة التي ساعدت على انتشارها ، وكيف كانت خاتمة مطافها .

يجدر بنا ونحن بصدد الاطلاع على النتاج الادبي لهذه الحركة ، ان نتعرف على صورة هذه الحركة من منظور الدراسات الادبية والفنية . هناك من الدارسين من ينظر لنهضة هارلم على انها ضرب من ضروب الادب المحلي (Local Color) ، وهو نوع ادبي انتشر في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر . صحيح ان أدب نهضة هارلم مثله مثل الأدب المحلي، يصور حياة منطقة محددة وسكانها وما لهم من عادات وتقاليد ومطامح ومآسي ، ولكن هذه النظرة لا تؤدي الى سبر أغوار تلك الحركة . كما ان الحركة قد تجاوزت في انجازاتها نطاق المحلية واتسمت بمعالم انسانية لا مجال لانكارها .

وهذا الاتجاه الذي يميل الى تضييق نطاق الحركة واعتبارها مدرسة أدبية تنضوي تحت لواء الأدب المحلي يأخذ بعين الاعتبار عاملين أساسيين ساعدا على ازدهار هذه الحركة . أول هذين العاملين انتشار دراسات ماضي الزنوج في افريقيا وذلك في العديد من الجامعات واستفادة هذه الدراسات من الاكتشافات التي احرزها علماء الانثروبولوجيا والفنون الشعبية . أما العامل الثاني فهو ازدهار المدرسة المعروفة باسم الفطرية او البدائية (Primitivism) وما واكبها من محاولات التحرر من قيود المدنية واطلاق العنان للطبيعة البشرية في المسائل المتعلقة بالعلاقات الجنسية . وتتردد أصداء هذه المواقف في كتابات الكاتب الانجليزي دي. إتش. لورنس D. H. Lawrence والقاص الامريكي شيروود اندرسون Sherwood Anderson . ومما اثر في هذا الموقف ايضاً نظريات فرويد في اهمية الدافع الجنسي في حياة الانسان وسلوكه وغير ذلك من النظريات التي طرحها فرويد في علم النفس والتحليل النفسي .

في هذا التوجه نحو حصر نهضة هارلم في النتاج الادبي ومحاولة استقراء طبيعة الحركة كلها من النتاج الادبي مجانبة لشمولية هذه الحركة اذ انها تتجاوز الادب. كما ان في هذا التوجه مخالفة للبعد العالمي للحركة من حيث هي حركة ذات جوانب عالمية لا تتجاوز حدود هارلم ومنطقتها فحسب ، بل وحدود الولايات المتحدة .

لابد والحالة هذه من توسيع المنظور بحيث يتجاوز الضيق والمحدودية اللتين يتسم بهما الطرح الذي تم بيانه في الفقرتين أعلاه . وتوسيع المنظور يقتضي القاء نظرة على بعض

الظروف والعوامل التي مهدت السبيل لظهور حركة نهضة هارلم والتي أثرت في ازدهار الحركة وانتشارها ولنبدأ بالظروف في الولايات المتحدة نفسها.

وأول تلك الظروف هو الهجرة الجماعية التي قام بها الزنوج من الجنوب ، وهو مكانهم الذي ارتبطوا به تاريخياً ، وهو ايضاً مرتبط بالمزارع والاسلوب الزراعي في الحياة . اتجهت تلك الهجرة شمالاً حيث المدن الكبيرة والمراكز الصناعية والتجمعات الحضرية . والشمال في الولايات المتحدة مرتبط بنمط الحياة الصناعية . وقد لعب العامل الاقتصادي دوراً هاماً جداً في تلك الهجرة : رافق الحرب العالمية الاولى تطور صناعي هائل كما رافقها ايضاً توقف في الهجرة من الخارج . وبذلك توفر العديد من فرص العمل مما ادى الى خلق حوافز ومطامح جديدة لدى الزنوج بحياة افضل . اضطر النازحون، تحت ضغط الغلاء وازمة المساكن، الى التجمع في احياء بائسة اطلق على الواحد منها اسم الـغَـيْـت (Ghetto) وهي كلمة كانت تطلق أساساً على الأحياء البائسة التي يسكنها اليهود . ورغم بؤس الحياة في تلك التجمعات وصعوبتها فقد شعر سكانها من الزنوج بأنهم في عالم خاص بهم بعيداً عن مزارع الجنوب ، وكان ذلك الشعور جديداً تماماً لم يعرفوه من قبل . ولابد من التنويه هنا بأن ظهور الصناعة وتمركزها في المدن كان يخلق دائماً حركة هجرة داخلية من الريف الى المدن . حدث هذا في اوروبا في عصر الثورة الصناعية وحدث مؤخراً ولا يزال في العالم الثالث . ثم ان الهجرة الداخلية نحو المراكز الصناعية في الولايات المتحدة شملت البيض الباحثين عن عمل وعن حياة افضل . وهذا كله جزء من نقطة سبقت الاشارة اليها في مقدمة الفصل السابق ألا وهي ان الانتقال من طريقة الحياة الزراعية الى الصناعية هو من أهم التغييرات التي طرأت على الحياة في امريكا بين القرنين التاسع عشر والعشرين ومن أهم المؤثرات الفاعلة في خلق امريكا المعاصرة . ولكن هجرة الزنوج في هذا السياق لها مدلول خاص ، فالشمال بالنسبة للزنوج لم يكن مجرد اتجاه جغرافي بل رمزاً للحرية ؛ كان الأمر كذلك في عهد العبودية وبقي على حاله في عصر الصناعة . إن مجرد انتقال الزنوج من المكان الذي وضعهم فيه النظام العنصري واصبح مكانهم الطبيعي (الجنوب) هو تحد لنظام السيادة البيضاء . اضف الى هذا أن قيم العالم الغربي الابيض قد أخذت بالانهيار بعيد الحرب العالمية الاولى وتاثرت بذلك امريكا كما تاثرت اوروبا .

إضافة الى الهجرة الزنجية الى الشمال الصناعي ، ثمة ظرف آخر ساهم في خلق نهضة هارلم ، ألا وهو مدينة نيويورك نفسها . صحيح أن معظم المدن الصناعية الكبيرة جذبت اليها الزنوج القادمين من الجنوب ؛ وصحيح أيضاً أن الزنوج في العديد منها عاشوا في ظروف مماثلة للظروف التي عاش فيها اخوانهم الموجودون في نيويورك . إلا أن نيويورك

كانت معدة تماماً لميلاد نهضة هارلم . فهارلم نفسها كانت نتيجة حركة التحضر : ضاحية جديدة جميلة من ضواحي نيويورك ، ذات شوارع عريضة معبدة ، وقد تم فتحها حديثاً للزنوج . ثم إن نيويورك كانت عاصمة الثقافة والنشر والفن . وقد كان للزنوج فيها بشكل خاص تاريخ في مختلف الفنون وخاصة في الموسيقى والغناء . يضاف إلى ذلك أن نيويورك تميزت عن بقية المدن الصناعية والمدن الكبيرة الأخرى في الولايات المتحدة بهجرة العديد من الزنوج من خارج الولايات المتحدة كالأقطار الافريقية التابعة للنفوذ البريطاني والفرنسي وكذلك من جزر الهند الغربية . نجم عن هذا كله بعض التغير الايجابي في علاقات الزنوج والبيض .

الحرب العالمية الاولى نفسها كانت الظرف الثالث الذي ساهم في ظهور نهضة هارلم ، وذلك لدور تلك الحرب الفعال في ايقاظ وعي الزنوج بأنفسهم وبقضيتهم لا في الولايات المتحدة فحسب بل وفي المناطق الخاضعة للنفوذ الاستعماري . ساهمت الحرب في زحزحتهم من اماكنهم كما انها زعزعت ثقة الناس على مختلف جنسياتهم بالقيم الحضارية للجنس الابيض . وقد وجد الزنوج في عواصم مثل لندن وباريس ونيويورك منابر للتعبير عن وعيهم بهويتهم وعن ارتفاع معنوياتهم بلقائهم مع زنوج من مختلف أنحاء العالم . وعلى مستوى الولايات المتحدة ، تسببت الحرب في نشوب خلاف حاد بين الزنوج : فمنهم من رأى ضرورة المشاركة في القتال مع البيض فلعل ذلك يساعد على التفاهم ويمهد الطريق لمساواة حقيقية بين العرقين . ومنهم من رأى عكس ذلك .

إن وعي الزنوج بهويتهم وبقضيتهم العرقية وبعلاقتهم مع البيض ، وهو الوعي الذي تمت الاشارة اليه في الفقرة السابقة اثناء الحديث عن اثر الحرب العالمية الاولى ، هو العامل الرابع الذي ساهم في خلق نهضة هارلم . كنت قد ذكرت في بداية هذه المقدمة ، أن بعض دارسي نهضة هارلم يعتبرونها حركة ادبية من نوع اللون المحلي في الأدب . وذكرت ايضاً أن هؤلاء الدارسين يدعمون موقفهم ببعض نتائج دراسات ماضي الزنوج في امريكا وببعض افكار المدرسة الفطرية او البدائية . ولابد لي من العودة ببعض التفصيل الى هذه النقاط لأهميتها في خلق الوعي الزنجي لا في هارلم او الولايات المتحدة فحسب بل وفي العالم بأسره . لا حاجة للتعليق على اهمية الدراسات الافريقية في خلق ذلك الوعي . أما بالنسبة للمدرسة الفطرية في مجالات الادب والفن والثقافة فلابد من بعض التوضيح . الانبهار الغربي بالشعوب البدائية وحياتها الفطرية التي تتميز بالبساطة والشهامة هو موقف اصبح تقليدياً وذا تاريخ طويل . وقد اكتسب هذا الاعجاب بالحياة الفطرية حيوية اضافية بسبب فقدان الثقة بقيم الحضارة الغربية إثر الحرب العالمية الاولى . ولذلك اطلق الغرب العنان لخياله في المبالغة بفضائل الحياة

الفطريـة حـتى انها بدت وكأنها طـريق الخـلاص من مـأزق الحـضارة الغربية وازمتها والبديل للاتجـاه التطهـري (Puritan) بصرامتـه وتزمتـه . وقد اقترن الاتجاه الفطري بنظريـات فرويـد واكـتشافاته في علم النفـس والتحليل النفسـي وخاصة ما تؤدي اليه ضغـوط التقاليد من نتائج نفسـيـة سلبيـة ، وزاد هذا الاقتـران المثال الفطـري جاذبية . ولابد في هذا السيـاق من ذكر ان كتّـاباً أفارقـة مثل ليوبولد سنغـور وزنوجـاً امريكيين مثل كلود مـاك كي (Léopold Senghor, Claude Mc Cay) امـتدحوا الخصائص الفطرية في شخوص كتاباتهم الادبية . وقد ادى ذلك كله الى اخـتفاء اي ارباك او خجل كان يرتبط به اسـم افريقيا بالنسبة للزنوج الامريكيين . وصارت الروح الزنجيـة بالنسبة للزنوج تمثل المزايا الطبيعيـة التي لم يفسـدها التصنع أو المادية او ما الى ذلك من خصائـص تتعارض مع القيـم المتطهـرة والبروتستانتيـة السائدة في امريكا . وبذلك اتيـح للزنـوج الامـريكيـيـن ان يعـيـدوا النظـر بعلاقتهـم بجذورهـم الافريقيـة ، وان يتمتعـوا بكبريائهم العـرقية وبالانتماء لأصـولهم . يتضـح من كل ما سبق ان حركة مثل نهضة هارلم ، تتفاعل فيها كل هذه العوامل، لا يمكن أن تستجيـب بشكل ايجابي لمن يخضعهـا لمنظـور ضيـق كمنظور الأدب المحلي .

يمكن اعتبار عام ١٩٢٥ بؤرة تفـاعـلات العوامـل المذكـورة كلها ، وهو العام الذي نشـر فيـه الكاتـب الزنجـي ألـن لـوك (Alain Locke) مجموعـة أعمـال أدبيـة معاصرة تحت عنـوان **الزنجي الجـديـد (The New Negro)** . ولعل أفضل ما قيل في تعريـف الزنجـي الجديد هو انه الزنجي القديم وقد ظهرت ذاته التي كانت متوارية وتحققـت طاقاته الكامنة . ويمكن تفصيل صورة الزنجي الجديد من الظـروف التي رافقت ظهور نهضة هارلم والتي سبق ذكرها أعـلاه : فـهو حضـري وليس مرتبطـاً بالزراعة في الجنوب . كما انه معتد بنفسـه وبعرقـه وبجـذوره . والزنجي الجـديد قد تخلص من كل بقايا العبودية في عقلـه وروحـه وشخصيتـه . وتمثل بعض القصـائـد الجـديـدة مثل «حديـث الـزنجـي عـن الأنهار» للشاعر لانجستون هيوز (Langston Hughes) وقصيدة «اذا لم يكن من موتنا بد» للشاعر كلود ماك كي الروح الجديدة.

حـاول أدباء وفنانو نهضة هـارلـم ان يعكسـوا هذه الـروح الجديدة في نتاجهـم . وكان لابد لبعضهم من الثـورة على الطبقـة الوسطـى من الزنـوج ـ طبقـة آبائهـم ـ وما لها من قيـم تتلخص في الاسـتقرار الاجتماعي والاستقلال الاقتصـادي . ولذلك ثاروا على كتاب تلك الطبقة من امثال دانبار وتشارلز وادیل تشستنات (Charles Waddell Chestnut) اللذين كانا ، مثل غيرهما من كتاب الجيل السابـق ، يعكسـان مشـاعـر طبقتهما الاجتماعيـة (الوسـطى) وليـس عرقهما (الـزنجـي) . ولذلك التـفت كـتّـاب هذه الحركـة ـ وكانـوا يعرفـون باسم العُشر الموهوب (The Talented Tenth) ـ الى الطبـقات الدنيا يعكسون مشاعرها ومشاكلها ويبحثـون فيها عن معالـم

الزنجي الجديد ويحاولون رسم طريق المستقبل .

كانت نهضة هارلم محاولة من قبل الكتاب والفنانين الزنوج ان يكتشفوا معنى ان يكون المرء زنجياً ، وحقيقة الهوية الزنجية ، وطبيعة الجمال الزنجي . وقد اثبتوا انهم يستطيعون خلق فن زنجي وان يستوحوا تقاليدهم الثقافية والفنية وقيمهم التليدة . وقد انصب اهتمامهم على عدد من الثيمات التي كانت تشغل بالهم كفنانين زنوج : هوية الزنجي الجديد ، وعلاقته بماضيه ، ومعنى السواد : هل هو مجرد لون ؟ أو هو حالة عقلية . هل يمكن للفن الزنجي ألا يكون ملتزماً او دعائياً ؟ أيمكن ان يحافظ الكاتب الزنجي على زنجيته إن عبَّر عن أفكاره في أطر الانواع الأدبية الاوروبية /الامريكية ؟

هذه اذن نهضة هارلم : دفقة خلاّقة عارمة من الأدب والفن والموسيقى الزنجية . لا يمكن اعتبارها مجرد حركة ادبية امريكية لا تتجاوز ادب اللون المحلي ؛ بل هي جزء من حركة عالمية . كما انها بالتأكيد جزء من الادب الامريكي المعاصر وكلاهما نتاج عدد من العوامل المشتركة . وقد احاطتها ظروف ولدت الانطباع بأن الحياة الحضرية مثيرة وخاصة في هارلم ، وتدفق السواح ـ امريكيون وأجانب ـ ليشاهدوا وليشاركوا في مهرجان تلك الحياة ولينعموا بملاهيها وحفلاتها وضروب فنونها وملامحها البوهيمية . ولكن الحياة في هارلم اثبتت فيما بعد أنها مليئة بالمشاكل ولاسيما مشاكل التمييز العنصري ومنها غضب العمالة البيضاء من منافسة الايدي العاملة الزنجية في الصناعة وكذلك انتشار البطالة والفقر . وقد وضع انهيار السوق المالي سنة ١٩٢٩ نهاية لتلك النهضة ؛ وتبين انها كانت أشبه ما تكون بالحلم . فقد أكدت سنوات الركود الاقتصادي الجوانب المظلمة من حياة هارلم . وبدت نهضة هارلم ـ بشكل عام ورغم وجود اصوات غاضبة ويائسة ـ وكأنها حركة ساذجة بالمقارنة مع حقائق الحياة القاسية في الثلاثينات . ورغم خيبة الامل الناتجة عن فشل الهجرة الى المدن ، واخفاق المشاركة بالحرب في التوصل الى العدالة والمساواة ، فإن الصوت العام لكتّاب نهضة هارلم كان ايجابياً رغم بعض الأصوات الغاضبة . وبالمقابل ، فقد كان صوت الكتّاب الزنوج في الثلاثينات صوتاً عارم الغضب ومفعمًا بالقنوط .

★ ★ ★

جيمس بولدوين
(١٩٢٤ -)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

وُلد في هارلم وفي عائلة فقيرة. وقد كتب فيما بعد أنه كان، وهو غلام، يريد أن يصبح غنياً ومشهوراً حتى لا يَطرد أحدٌ عائلته من بيتها. وبالإضافة إلى كبر الأسرة وفقرها فقد كان جيمس يعاني داخل الأسرة من علاقة والده به. وقد اعترف فيما بعد بأن والده كان هو الشخص الوحيد الذي كرهه في حياته كلها! والعلاقة بينهما تظهر في روايته الأولى، وهي التي جعلته كاتباً رئيسياً ، وعنوانها **اذهب وأعلنها على الجبل** (١٩٥٣) **(Go Tell it on the Mountain)** .

كان يطمح أن يصبح كاتباً حتى وهو ولد صغير . وكان أساتذته في المدرسة الثانوية يشجعونه على ذلك.

هجر بيته وهو في الثامنة عشره وذهب للعمل في نيوجيرسي ثم غادر هذه إلى جرينتش فيليج في نيويورك حيث ركز على الكتابة . وفي عام ١٩٤٨ غادر الولايات المتحدة ليعيش في باريس حتى عام ١٩٥٧ حين عاد إلى نيويورك . وبقي في الولايات المتحدة وأصبح من زعماء حركة الحقوق المدنية التي تطالب بإعطاء الزنوج حقوقهم المدنية والسياسية وغيرها.

من المواضيع التي عالجها في كتاباته : معاناة السود وأوضاعهم ، والحب ـ وخاصة في أشكاله غير المقبولة بشكل عام أي بين أفراد الجنس الواحد أو بين رجل وامرأة من لونين مختلفين . ومن أمثلة ذلك رواية **غرفة جيوفاني** (١٩٥٦) **(Giovani's Room)** **واخبرني كم انقضى على ذهاب القطار** (١٩٦٥) **(Tell Me How Long the Train's Been Gone)** .

ويعتقد كثير من النقاد أن أفضل أعمال بولدوين هي مقالاته فهو من أفضل كتاب المقالات . ومقالاته مجموعة في **ملاحظات ابن الوطن** (١٩٥٥) **(Notes of a Native Son)** **ولا احد يعرف اسمي** (١٩٦١) **(Nobody Knows My Name)** .

موسيقى سني الحزينة

ترجمة : د. عصام الصفدي

[في هذه القصة القصيرة، كما يفعل في رواية **تماماً فوق راسي** (١٩٧٩) **(Just Above My Head)** ، يعالج بولدوين العلاقة بين أخ كبير وأخيه الأصغر سناً. الأخ الأصغر موسيقي. وفي كلا العملين يحاول بولدوين الكشف عن العلاقة بين الفن والحياة. ويتوصل إلى نتيجة أن الفن يشكل جسراً بين البشر وأنه قوة تعمل على تحريرهم . والفن من وجهة النظر هذه يشبه الحب، وخاصة الحب في أشكاله الممنوعة كالحب بين أفراد عرقين مختلفين أو بين أفراد من نفس الجنس. ورغم كونه قوة تحريرية فإنه كثيراً ما يسبب الألم والمعاناة. والفن من وجهة النظر هذه أيضاً عكس الدين الذي يعتقد بولدوين أنه يدعم الاضطهاد.

ومن ميزات هذه القصة أنها تصور مشاكل المجتمع الزنجي من فقر ومخدرات بأسلوب فني ونفسي بعيد عن الخطابة والتبشير. هذا بالإضافة إلى العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة .

والقصة إيجابية من حيث كونها تصور في النهاية انتصار قوى الخير والتفاهم بين الناس رغم كل ما يعترض ذلك التفاهم من مشاكل] .

المحرر

قـرأت عـن الخبر في الجـريدة، داخل الطريق النفـقي في طريقي إلى العـمل. قـرأته ولم أصـدق فـقـرأته ثانيـة . ثم انني ربما حملقت في الخبر ، في حـروف اسـمه وتفـاصـيل القـصة في الصحيفة . حملقت فيها تحت الأضواء المتراقصة في عربة القطار النفـقي، وفي وجـوه وأجـسـام الناس وفي وجـهي نفـسـه ونحن في شراك الظلمة التي كانت تزأر في الخارج.

لم يكن أمـراً يمكن تصـديقـه، وقـد كـررت ذلك على نفسي، بينما كنت أمشي من محطة القطار النفـقي إلى المدرسـة الثـانوية. في نفس الوقت لم أستطع التشكك في الأمـر. كنت خـائفـاً، خـائفـاً على سني. أصـبح حـقـيـقـياً مرة أخرى بالنسبة لي. اسـتـقـرت كـتلة ضـخـمة من الجليد في بطني وأخذت تذوب ببطء طيلة اليوم كله، بينما كنت أُعلِّم الجبر. كـان نوعـاً خـاصـاً من الجليـد. استمر بالذوبان مرسلاً سيلاً رقـيـقـاً من مـاء الجليـد صاعداً وهابطاً في عروقي ، ولكنه لم يتضاءل قط. في بعض الأحيان كان يتصلب ويبدو كأنه يتمدد إلى أن أشعر أن أمعائي ستخرج مني أو أنني سأخـتنق أو أصرخ. كـان هذا يحدث دائماً في تلك اللحظات التي تذكرت فيها شيئاً محدداً كان سني قد قاله أو فعله.

عندمـا كـان في مـثل سن الأولاد في الصـفوف التي أدرِّسها، كان وجهه مشرقاً ومنفـتـحـاً ويغلب عليـه اللون النحـاسي. أمـا عـيناه فـبنيتان مباشرتان بشكل رائع، وفـيـهما رقـة بالغـة وخـاصـة . تسـاءلت كـيف يبدو الآن . كان قد اعتقل في المساء السـابق، في غارة على شقة وسط البلدة، بتهمة المتاجرة بالهيروين وتعاطيه.

لم أسـتـطـع أن أصـدق ذلك : أعني أنني لم أسـتطع ايجاد أي مكان لذلك في داخلي. كنت قـد أبقيت على ذلك خارج نفسي لمدة طويلة. لم أكن أريد أن أعرف. كـانت قـد ساورتني شكوك، ولكنني لم أُسَمِّها وتابعت طرحها جانباً. قلت في نفسي إن سني بريء، ولكنه ليس مجنوناً. وقـد كـان دائماً ولداً طيبـاً، إنه لم يتحول قط إلى شـخص صـعب المراس أو شرير أو عـديم الاحترام لغيره، كما يتـحول الأولاد بسرعة كـبيرة بل وكـبيرة جـداً وخـاصـة في هارلم. لم أرد أن أصـدق أنني يمكن أن أرى أخي

يسقط ، يصبح لا شيء ، وإن يتلاشى ذلك الضياء من وجهه على الحالة التي سبق ورأيت عليهـا آخرين عديدين. ومع ذلك فقد حدث ما حدث وها أنذا أتحدث عن الجبر لمجموعة من الأولاد الذين يمكن أن يكونوا، كل واحد منهم على ما أعلم، يتعاطون إبر الهيروين في كل مرة يذهبون فيها إلى المدير. ربما قدم لهم ذلك أكثر مما يستطيع الجبر أن يقدمه.

كنت متأكداً أن المرة الأولى التي تعاطى فيها سني الهيروين لم يكن أكبر سناً بكثير من هؤلاء الأولاد الآن . كان هؤلاء يعيشون كما كنا نعيش آنذاك ، كانوا يكبرون بسرعة وكانت رؤوسهم ترتطم فجأة بالسقف المنخفض لامكانياتهم الحقيقية. كانوا ممتلئين بالغضب. كل ما عرفوه حقاً كان ظلمتين، ظلمة حياتهم، التي كانت الآن تطبق عليهم، وظلمة الأفلام، التي أعمتهم عن الظلمة الأولى، والتي كانوا فيها الآن يحلمون بحقد انتقامي، مجتمعين أكثر من أي وقت مضى، وفي نفس الوقت أكثر وحدة من أي وقت مضى .

عندما قرع الجرس الأخير، وانتهت الحصة الأخيرة، تنفست الصعداء. بدا وكأنني كنت أحبس نَفَسي طوال ذلك الوقت . كانت ملابسي مبتلة ـ ربما بدوت وكأنني كنت أجلس في حمام بخار، بكامل ملابسي طوال ما بعد الظهيرة. جلست وحيداً في غرفة الصف مدة طويلة. استمعت إلى الأولاد في الخارج، في الطابق السفلي، يتصايحون ويلعنون ويضحكون. استوقفني ضحكهم ربما لأول مرة. لم يكن الضحك المرح الذي ـ يعلم الله لماذا ـ نقرنه بالأطفال. كان ساخراً وفجّاً، كان قصده أن يُذل. كان خالياً من السحر، وفي هذا أيضاً، كمنت قوة لعناتهم. ربما كنت أسمع إليهم لأنني كنت أفكر بأخي، ومن خلالهم سمعت أخي. و (سمعت) نفسي.

كان فتى ما يصفر لحناً ، معقداً جداً وبسيطاً جداً في آن معاً . كان اللحن ينساب خارجاً منه وكأنه عصفور، بدا منعشاً جداً ومؤثراً عبر ذلك الجو الصافي، متشبثاً بصوته (فقط) عبر تلك الأصوات الأخرى.

نهضت ومشيت نحو النافذة ونظرت إلى أسفل نحو الساحة. كانت بداية

الـربـيـع وكـان النسغ يرتفع داخل الأولاد. كـان يمـر من بينهم بعض المدرسين بين الحين والحين، مسرعين وكأنهم يستـعـجلون الخـروج من السـاحـة، ليـبـعدوا أولئك الأولاد عن أنظارهم وعن عـقـولهم. بدأت أجمع أغـراضي. قـدّرت أنه من المستحسن أن أعـود إلى البيت وأتحدث مع ايزابيل .

كـانت السـاحـة شبـه خـالية في الوقت الذي وصلت فيه إلى الطابق السفلي. رأيت ذلك الفـتى واقـفـاً في ظل المدخل وهو يبـدو شـبيهاً بأخي سني تماماً . كدت أدعـوه باسـمه . ثم إنني علمت أنه لم يكن سني ، بل شخصاً كنا نعرفه ، فتى من جـوار حـيّـنـا . كـان صديق سني . لم يكن قط صديقاً لي ، حيث كان صغيراً جداً بالنسبة لي ، وعلى أي حال ، فإنني لم أحبه قط. والآن ، مع أنه كان رجلاً بالغاً ، إلا أنه كـان مـا يزال يتـسكع حـول ذلك الحي . مـا زال يقضي السـاعات على زوايا الشـوارع، وكـان دائماً مخدّراً ورث (الشيـاب) . كنت أصادفه بين الحين والحين، وكان عـادة يتـحـايل كي يطلب مني ربع دولار أو خمسين سنتاً. كان دائماً أيضاً لديه عذر جيد حقاً، وكنت دائماً أعطيه، لا أدري لماذا.

ولكن الآن ، وفـجأة ، كـرهتـه . لم أسـتطع أن أحتمل الطريقة التي نظر بها إلـيّ، إلى حد ما مثل كلب، وإلى حد ما كطفل مخادع. أردت أن أسأله بحق جهنم عما كان يفعله في ساحة المدرسة.

تقـدم نحـوي بتـثـاقل نوعـاً مـا، وقال «أرى أنك حصلت على الجريدة. إذن فأنت تعرف الخبر؟ »

«تقـصـد عن سني ؟ نعم ، إنني أعـرف الخبر ، كيف حدث أنهم لم يمسكوا بك؟»

كشر غـاضـبـاً. جعله ذلك منفّراً وأعادإلى الذهن كيف كان يبدو وهو طفل. «لم أكن هناك. إنني أبقى بعيداً عن أولئك الناس. »

«هذا مـفـيـد لك. » عـرضت عليـه سيجارة وراقبته من خلال الدخان. «هل قطعت كل هذه المسافة إلى هنا فقط لتخبرني عن سني؟ »

«هذا صحيح». كان يحرك رأسه بعض الشيء وبدت عيناه غريبتين، وكأنها كانتا على وشك أن تتقاطعا. الشمس الساطعة ابهتت لون بشرته البني الغامق المبتل وجعلت عينيه تبدوان صفراوين وأظهرت الاتساخ في شعره المجعد. كانت رائحته مخيفة. ابتعدت عنه قليلاً وقلت، «طيب، شكراً. ولكنني أعرف الخبر ولا بد من أن أذهب إلى البيت.»

قال . «سأمشي معك قليلاً.» بدأنا نمشي. كان هناك ولدان ما زالا يتسكعان في الساحة وألقى أحدهما تحية المساء عليّ ونظر بغرابة إلى الفتى الذي بجانبي.

سألني «ماذا تنوي أن تفعل؟ أقصد بالنسبة لـ سني؟ »

«اسمع ، إنني لم أر سني منذ أكثر من عام . لست واثقاً أنني سأفعل شيئاً . على أي حال، ماذا أستطيع أن أفعل بحق جهنم؟ »

«هذا صحيح» أجاب بسرعة «ليس هناك شيء تستطيع أن تفعله. لا تستطيع أن تساعد سني أكثر، على ما أظن . »

كان ذلك ما كنت أفكر فيه ولهذا شعرت أنه لم يكن يملك الحق في أن يقوله.

«أنا مستغرب من سني، » مضى قائلاً ـ وكانت له طريقة غريبة في الحديث، كان ينظر أمامه مباشرة وكأنه كان يتحدث إلى نفسه ـ «كنت أظن أنه ولد ذكي، كنت أظنه أذكى من أن يدمن. »

قلت بحدة، «احسب أنه كان يظن ذلك أيضاً، وهكذا أدمن. وماذا عنك؟ أراهن أنك جد ذكي . »

نظر إليّ مباشرة، فقط للحظة. قال «لست ذكياً، لو كنت ذكياً لتناولت مسدساً منذ زمن بعيد. »

«اسمع. لا تحدثني أنا عن قصتك المحزنة، لو كان القرار بيدي لأعطيتك مسدساً. »

ثم شعرت بالذنب ـ ربما لعدم افتراضي مطلقاً أنه كانت لهذا السافل التعس

قصته الخاصة ، بله أن تكون قصة محزنة ، فسألت بسرعة «ماذا سيحدث له الآن ؟ »

لم يجب على هذا السؤال. كان نائياً بنفسه في مكان ما . «شيء غريب،» قالها ومن نبرته بدا وكأننا نتناقش في أسرع طريق للوصول إلى بروكلن . «عندما رأيت الجرائد هذا الصباح ، أول سؤال خطر ببالي كان فيما إذا كانت لي أي صلة بالموضوع، شعرت بنوع من المسؤولية. »

بدأت أستمع بانتباه أكبر. المحطة كانت على الزاوية، أمامنا مباشرة، توقفت، فتوقف هو أيضاً. كنا أمام حانة. انحنى قليلاً، محدقاً في الداخل، ولكن أياً كان الشخص الذي كان يبحث عنه فقد بدا أنه لم يكن هناك. آلة التسجيل كانت تصدح بلحن زنجي مرح، راقبت بنصف انتباه النادلة بينما كانت ترقص في طريقها من آلة التسجيل إلى مكانها خلف المشرب. راقبت وجهها عندما كانت تستجيب ضاحكة لشيء قاله لها أحدهم ، محتفظة رغم ذلك باستجابتها لايقاع الموسيقى . عندما ابتسمت كان يمكن للمرء أن يرى الفتاة الصغيرة، وأن يشعر بالمرأة المقضيّ عليها باللعنة والتي كانت ما تزال تصارع تحت الوجه المسحوق لشبه عاهرة.

«لم أعط سني شيئاً قط. » قال الفتى أخيراً، «ولكن منذ زمن أتيت إلى الثانوية وسألني سني عن تأثير المخدر . » توقف عن الحديث، لم أستطع أن أراقبه، راقبت النادلة، واستمعت إلى الموسيقى التي بدت وكأنها تهز الرصيف ، «أخبرته أن تأثيره رائع. » توقفت الموسيقى ، وتوقفت النادلة وراقبتْ آلة التسجيل حتى بدأت الموسيقى مرة أخرى. «انه رائع فعلاً . »

كل هذا كان يحملني إلى مكان ما لم أرد الذهاب إليه. إنني بالتأكيد لم أرد أن أعرف تأثيره. كان يملأ كل شيء، الناس، البيوت، المرسيقى، (و) النادلة السوداء الزئبقية، بالخطر، وكان هذا الخطر هو واقعهم.

سألت ثانية «ماذا سيحدث له الآن ؟»

«سيرسلونه بعيداً إلى مكان ما وسيحاولون شفاءه. » هز رأسه، «حتى أنه ربما يظن أنه قد تخلص من الادمان. ثم يطلقون سبيله» ـ وأومأ رامياً سيجارته في

قناة المجاري. «هذا كل شيء.»

«ماذا تعني بقولك هذا كل شيء ؟»

ولكنني كنت أعرف ماذا كان يعني.

«أقصد هذا كل شيء.» أدار رأسه ونظر إليّ ساحباً زوايا فمه إلى أسفل. «ألا تعرف ما أعني؟» سأل برقة.

«كيف لي أن أعرف ما تعني بحق جهنم؟» قلتها همساً، لا أدري لماذا.

«هذا صحيح» قالها للهواء، «كيف له أن يفهم ما أعني؟» استدار نحوي مرة أخرى، صابراً وهادئاً، ولكنني على نحو ما شعرت به يرتجف وكأنه سيتداعى. شعرت بذلك الجليد في أمعائي ثانية، الفزع الذي ساورني طوال ما بعد الظهيرة؛ ومرة أخرى راقبت النادلة تتحرك حول المشرب، وتغسل الكؤوس، وتغني. «اسمع. سيطلقون سبيله، وعندها سيبدأ الأمر كرة أخرى. هذا ما أعنيه.»

«تعني ـ سيطلقون سبيله. ثم سيبدأ طريق العودة إليه مرة أخرى. تقصد أنه لن يتخلص من هذه العادة. هل هذا ما تعنيه؟»

«هذا صحيح» قال مبتهجاً. «أنك تفهم ما أعني.»

«أخبرني» قلت أخيراً «لماذا يريد أن يموت؟ لا بد أنه يريد أن يموت، إنه يقتل نفسه، لماذا يريد أن يموت؟»

نظر نحوي بدهشة. لحس شفتيه. «لا يريد أن يموت. يريد أن يعيش. لا أحد يريد أن يموت، أبداً.»

ثم أردت أن أسأله ـ أشياء كثيرة جداً. ما كان يمكن له أن يجيب، وحتى لو استطاع، فما كان باستطاعتي أن أحتمل الأجوبة. بدأت بالمشي. «حسن، أظن أنه لا شأن لي في هذا.» قال «سيكون (الأمر) قاسياً على العزيز سني.» وصلنا محطة الأنفاق. سأل قائلاً «هذه محطتك؟» أومأت. أخذت خطوة إلى أسفل. «اللعنة!» قال فجأة. نظرت نحوه إلى أعلى. كشّر ثانية «اللعنة ها قد نسيت كل نقودي في البيت. ألا يوجد معك دولار؟ فقط لمدة يومين.»

فجأة شيء ما في داخلي بدأ يحدث ويهدد بالخروج متدفقاً مني. لم أعد أكرهه. شعرت أنني في لحظة أخرى كان يمكن أن أبدأ بالبكاء مثل طفل.

قلت «طبعاً، لا تتحرج.» بحثت في محفظتي، ولم أجد دولاراً، كان معي ورقة من فئة خمسة دولارات فقط. قلت «هاك. تكفيك هذه ؟»

لم ينظر إليها ـ لم يرد أن ينظر إليها. ظهر على وجهه تعبير مريع مغلق وكأنه كان يبقي قيمة الورقة النقدية سراً عن نفسه وعني. «شكراً،» قالها وكان الآن يتحرق كي يراني أذهب. «لا تقلق على سني. ربما سأكتب له أو...»

قلت «بالتأكيد. افعل هذا. إلى اللقاء.»

قال «نراكم،» ونزلت الدرج.

لم أكتب إلى سني أو أبعث إليه شيئاً لمدة طويلة. وعندما قمت بذلك أخيراً، كان ذلك بعد وفاة طفلتي الصغرى، فرد عليّ برسالة جعلتني أشعر أنني وغد.

هذا ما قاله:

أخي العزيز،

لا تعرف كم كنت أحتاج إلى أن أسمع منك (شيئاً). أردت أن أكتب إليك عدة مرات لكنني قدرت كم آذيتك ولذا لم أكتب. لكنني الآن أشعر مثل رجل ما لبث يحاول أن يصعد من حفرة عميقة، جد عميقة ومخيفة ثم رأى الشمس مرتفعة في الخارج. لا بد أن أخرج.

لا أستطيع أن أخبرك كيف وصلت إلى هنا. أقصد أنني لا أعرف كيف أخبرك. أظن أنني كنت خائفاً من شيء ما وأنت تعلم أنني لم أكن قط قوي العقل (ابتسامة). أنا سعيد أن أبي وأمي متوفيان ولا يستطيعان أن يريا ما حدث لابنهما وأقسم أنني لو كنت أعرف ما كنت أفعل لما سببت لك الأذى على هذا النحو، أنت والناس الآخريم الطيبين الذين كانوا لطيفين معي ووثقوا بي.

لا أريدك أن تظن أن لهذا علاقة بكوني موسيقياً. الأمر أكبر من هذا. أو ربما أقل من هذا. عقلي لا يستطيع تحليل أي شيء في هذا المكان وأحاول ألا أفكر فيما

سيحدث لي عندما أخرج مرة أخرى. في بعض الأحيان أظن أنني سوف أسقط ولن أخرج أبداً، وفي بعض الأحيان أظن أنني سأعود رأساً. لكنني أؤكد لك على شيء واحد رغم هذا، أنني أفضّل أن أفجّر دماغي على أن أعود إلى هذا ثانية. ولكن الجميع يقول هذا، هكذا قيل لي. إذا أعلمتك عن موعد وصولي إلى نيويورك وإذا تمكنت من لقائي فإنني سأكون ممتناً جداً لذلك . انقل محبتي لـ «ايزابيل» والأولاد. وقد أسفت جداً لسماعي (الخبر) عن الصغيرة (جرسي). أتمنى لو كنت مثل أمي فأقول إن مشيئة الله نافذة، لا أدري، لكن يبدو لي أن المتاعب هي الشيء الوحيد الذي لا يُردّ ولا أدري ما جدوى تحميل مسؤولية ذلك على اللّه. ولكن ربما كان من المفيد أن أومن بهذا .

أخوك

سني

ثم بقيت على اتصال دائم معه وبعثت إليه بكل ما أستطيع وذهبت للقائه عندما عاد إلى (نيويورك). عندما رأيته تدفقت عائدةً إلى أشياء كثيرة ظننت أنني كنت قد نسيتها. كان هذا لأنني بدأت، أخيراً، أتساءل بشأن سني، عن الحياة التي عاشها سني في داخله. هذه الحياة، كائنة ما كانت، جعلته أكبر سناً وأكثر نحولاً كما عمقت ذلك الهدوء النائي الذي طالما كان سني يتحرك بداخله. بدا بعيد الشبه جداً عن أخي الطفل الصغير. لكنه، عندما ابتسم، وعندما تصافحنا ظهر أخي الطفل الصغير، الذي لم أعرفه قط مطلّاً من أعماق حياته الشخصية، مثل حيوان ينتظر من يلاطفه ليخرجه إلى النور.

سألني «ما هي أحوالك ؟»

«جيدة. وأنت ؟»

«حسنة. » كان يبتسم ملء وجهه. «حسن أن أراك ثانية . »

«حسن أن أراك . »

فرق السنين السبع في أعمارنا امتد بيننا كالهوة : تساءلت فيما إذا كانت هذه

السنين يمكن أن تكون جسراً بيننا. كنت أتذكر، وهذا جعل من الصعب عليّ التقاط أنفاسي، أنني قد كنت موجوداً عندما ولد؛ وأنني قد سمعت كلماته الأولى التي نطقها. عندما بدأ يمشي، مشى من عند أمي مباشرة إليّ. أمسكت به قبل أن يسقط بلحظة عندما أخذ أولى الخطوات التي مشاها في هذا العالم.

«كيف حال (ايزابيل)؟ »

«جيدة. إنها تتلهف شوقاً لرؤيتك. »

«والأولاد؟ »

«جيدون أيضاً. إنهم متلهفون لرؤية عمهم. »

«آه، دعك من هذا. إنك تعلم أنهم لا يتذكروني. »

«هل تمزح؟ بالطبع يتذكرونك. »

كشّر ثانية. صعدنا في سيارة أجرة. كان لدينا الكثير ليقوله الواحد منا للآخر، أكثر من أن نعرف من أين نبدأ.

بينما بدأت سيارة الأجرة تتحرك، سألته «هل ما زلت تريد الذهاب إلى الهند؟ »

ضحك. «ما زلت تذكر ذلك. لا وحق جهنم. إن هذه البلاد هندية بما فيه الكفاية بالنسبة لي. »

قلت «لقد كانت لهم فيها مضى. »

وضحك ثانية، «لقد كانوا يعرفون ما يفعلون فعلاً عندما تخلصوا منها. »

قبل سنوات، عندما كان حوالي الرابعة عشرة، كان قد تعلق بفكرة الذهاب إلى الهند. كان يقرأ كتباً عن أناس يجلسون عراة على الصخور في كل أنواع الطقس، السيئة في معظمها بطبيعة الحال، ويمشون حفاة على الحجر ويصِلون إلى الحكمة. اعتدت أن أقول انه يبدو لي أنهم يهربون من الحكمة بأسرع ما يستطيعون. أظنه كان يحتقرني بسبب هذا.

«هل تمانع» قال متسائلاً «إذا سار السائق على امتداد المتنزه أو في الجانب الغربي ـ فأنا لم أر المدينة منذ مدة طويلة. »

أجبت «بالطبع لا أمانع. » كنت خائفاً أن أبدو وكأنني أسرّي عنه، لكنني كنت أتمنى ألا يأخذ كلامي بهذا المعنى.

مضينا بين خضرة المتنزه وأناقة الفنادق والمباني السكنية الحجرية الميتة، باتجاه الشوارع الحية القاتلة لطفولتنا . لم تكن هذه الشوارع قد تغيرت ، مع أن مشاريع الاسكان نتأت من خلالها الآن مثل صخور وسط بحر في حالة غليان . معظم البيوت التي نشأنا فيها كانت قد اختفت ، مثلما اختفت المتاجر التي سرقنا منها، والطوابق السفلية التي جربنا فيها الجنس أول ما جربناه ، وسطوح المنازل التي رشقنا من عليها علب الصفيح والطوب. ولكن رغم هذا فإن بيوتاً من نفس طراز بيوت ماضينا كانت ما تزال تسيطر على المنظر . أولاد ، مثلما كنا تماماً، وجدوا أنفسهم يختنقون في تلك البيوت ، جاءوا إلى الشوارع من أجل الضوء والهواء ووجدوا أنفسهم محاصرين بالكارثة. بعضهم هرب من المصيدة، ومعظمهم لم يفعل. أولئك الذين خرجوا كانوا دائماً يتركون وراءهم شيئاً من أنفسهم، مثلما تبتر بعض الحيونات ساقاً وتتركها في المصيدة . لربما يقال انني قد هربت ، فعلى أي حال ، أنا معلم مدرسة ، أو إن سني قد هرب ، فهو لم يعش في هارلم منذ أعوام. ومع هذا، بينما كانت سيارة الأجرة تتحرك إلى أعلى المدينة عبر شوارع بدت ، في لمحة عين ، تَسْوَدُّ ببشر سود ، وبينما كنت خفية أتفحص وجه سني ، خطر ببالي أن ما كنا كلينا نبحث عنه عبر نوافذنا المنفصلة في سيارة الأجرة كان ذلك الجزء من أنفسنا الذي كنا قد تركناه وراءنا . فدائماً في ساعة المتاعب والمواجهة يؤلمك العضو المبتور.

وصلنا شارع ١١٠ وبدأنا نلحق بجادّة لينوكس. كنت قد عرفت هذه المنطقة طوال حياتي ، ولكنها بدت لي مرة أخرى ، مثلما بدت يوم علمت أول ما علمت عن مشكلة سني، مملوءة بخطر خبيء كان بمثابة النفَس لحياتها.

«لقد وصلنا تقريباً، » قال سني .

«تقريباً. » كنا كلينا أشد انفعالاً من أن نزيد على هذه الكلمات .

إننا نعيش في مشروع سكني. وهو لم يُقَم منذ زمن بعيد. بعد بضعة أيام من اقامته بدا أكثر جدة من أن يُسكن. ولكنه الآن متآكل بالطبع. إنه يبدو مثل محاكاة ساخرة للحياة الطيبة النظيفة التي لا وجه لها ـ ويعلم الله أن الناس الذين يعيشون فيه يبذلون قصارى جهدهم ليجعلوه محاكاة ساخرة. العشب المرهق الممتد في الجوار ليس كافياً لجعل حياتهم خضراء، السياجات الشجرية لن توقف الشوارع أبداً، وهم يعلمون هذا . النوافذ الواسعة لا تخدع أحداً ، فهي ليست واسعة بما يكفي لخلق فراغ من لا فراغ. هم لا يزعجون أنفسهم بالنوافذ، يرقبون شاشة التلفاز عوضاً عن ذلك . ساحة اللعب لها شعبية لدى الأولاد الذين لا يلعبون بحدائد الرمي، أو بحبل القفز، أو مزلجة العجلات، أو الأرجوحة، ويمكن أن تجدهم هناك بعد حلول الظلام. انتقلنا هناك، جزئياً بحكم أنه ليس بعيداً جداً عن مكان عملي، وجزئياً بسبب الأطفال؛ لكنه في الواقع يشبه البيوت التي نشأنا فيها أنا وسني. نفس الأمور تحدث، وسوف يجد (أطفالي) نفس الأشياء ليتذكروها (عندما يكبرون). في اللحظة التي دخلنا فيها أنا وسني البيت، ساورني احساس بأنني ببساطة كنت أعيده إلى الخطر الذي كاد يموت محاولاً الهروب منه.

سني لم يكن قط ثرثاراً . ولهذا لا أدري لماذا كنت واثقاً انه كان يتحرق للحديث إليّ بعد انتهاء العشاء في الليلة الأولى. كل شيء مضى على خير، الولد الأكبر تذكره، والولد الأصغر أحبه، وسني كان قد تذكر أن يحضر شيئاً لكليهما؛ وايزابيل، التي هي بحق ألطف مني، وأكثر انفتاحاً وعطاء، كانت قد أرهقت نفسها بشأن العشاء وكانت بصدق سعيدة برؤيته. لقد كانت دائماً قادرة على مداعبة سني بطريقة لم أكن قادراً عليها . كان لطيفاً رؤية وجهها حيوياً مرة أخرى، وسماع ضحكها ومراقبتها وهي تُضحك سني . لم تكن ، أو على أي حال ، لم يبدُ عليها مطلقاً ، أنها مرتبكة أو محرجة . كانت تتحدث وكأنه لم يكن هناك موضوع يجب تجنبه فمكّنت سني من تجاوز جموده الأوّلي الضئيل. وأحمد الله أنها كانت هناك. فقد كنت مملوءاً بذلك الفراغ الجليدي مرة أخرى. كل شيء فعلته بدا لي أخرق وكل شيء قلته بدا مشحوناً بمعان خبيثة. كنت أحاول أن أتذكر كل شيء كنت قد

سمعته عن الادمان على المخدرات ولم أستطع أن أتفادى مراقبة سني بحثاً عن إماراته . لم أكن أفعل ذلك بدافع من خبث. كنت أحاول أن أكشف شيئاً في أخي. كنت أتحرق لسماعه يقول انه بأمان.

«آمن!» كان أبي يسخر ، كلما اقترحت أمي محاولة الانتقال إلى حي يمكن أن يكون أكثر أماناً للأطفال . «آمن ، اللعنة ! لا يوجد مكان آمن للأطفال ، ولا (يوجد) أحد (آمن). »

كان دائماً يثور هكذا ، لكنه لم يكن فعلاً سيئاً كما كان يبدو ، حتى ولا في عطلة نهاية الأسبوع ، حين يكون مخموراً . والحق أنه كان دائم البحث عن «شيء أفضل قليلاً» ، ولكنه مات قبل أن يجده. مات فجأة ، في عطلة أسبوع مخمورة في منتصف الحرب، عندما كان سني في الخامسة عشرة. هو و سني لم ينسجما جيداً قط. وكان هذا إلى حد ما بسبب أن سني كان قرة عين أبيه. لقد كان بسبب أنه أحب سني كثيراً وكان خائفاً عليه ، أنه كان دائم الشجار معه. ليس من المجدي الشجار مع سني . سني دائماً يتراجع إلى داخل نفسه ، حيث لا يمكن الوصول إليه. ولكن السبب الرئيس في أنهما لم يتوقفا (عن الشجار) هو أنهما كانا يشبهان بعضهما جداً. أبي كان ضخماً وقاسياً وجهوري الحديث، بعكس سني تماماً، ولكن كليهما كان يمتلك ـ تلك الخاصية الانعزالية.

حاولت أمي أن تخبرني شيئاً عن هذا ، بعد وفاة أبي مباشرة . كنت في البيت في إجازة من الجيش.

تلك كانت المرة الأخيرة التي رأيت أمي حية فيها. مع ذلك، تختلط هذه الصورة في ذهني بصور أخرى كنت قد كونتها لها عندما كانت أصغر سناً. الصورة التي أراها عليها دائماً هي نفس الصورة التي كانت تبدو عليها في فترة ما بعد الظهيرة أيام الأحد، أي عندما كان الكبار يتحادثون بعد غداء الأحد العظيم. دائماً أراها ترتدي الأزرق الباهت. تكون جالسة على الأريكة. أما أبي فيكون جالساً في الكرسي المريح ، غير بعيد عنها . وتكون غرفة المعيشة ملأى برواد الكنيسة والأقارب . يجلسون هناك على المقاعد في غرفة المعيشة ، والليل في الخارج يزحف مقترباً، ولكن أحداً لا يعلم ذلك بعد . كنتَ تستطيع أن ترى الظلام يتنامى حيال

زجاج النوافذ وتسمع ضجيج الشارع بين الحين والحين، أو ربما ايقاعاً متنافراً لدفّ من واحدة من الكنائس القريبة، لكن الجو هادىء جداً في داخل الغرفة. للحظات لا يتكلم أحد، ولكن كل وجه يبدو (وكأنه) يسودّ مثل السماء في الخارج. أمي تحرك خصرها قليلاً ، عينا أبي مغلقتان. جميعهم ينظرون إلى شيء لا تستطيع عين الطفل أن تراه. لقد نسوا الأطفال للحظة. قد يكون هناك طفل مستلقياً على السجادة نصف نائم . وربما يكون أحدهم يضع طفلاً في حجره ، ويمسح رأس الطفل دون وعي . وقد يكون هناك طفل هادىء واسع العينين ملفوفاً في كرسي كبير في الزاوية. الصمت والظلام القادم والظلمة التي في الوجوه ترعب الطفل بشكل غامض. إنه يتمنى أن اليد التي تمسح جبينه لن تتوقف أبداً ـ لن تموت أبداً ـ إنه يتمنى ألا يأتي الزمن الذي لا يكون فيه الكبار يجلسون في غرفة المعيشة، يتحدثون عن الأماكن التي أتوا منها، وعما رأوا، وما حدث معهم ومع أقاربهم.

ولكن شيئاً عميقاً ومتيقظاً في داخل الطفل يعلم أن هذا سينتهي، انه بدأ ينتهي. في لحظة ما يقوم أحدهم ويشعل الاضاءة. عندئذ يتذكر الكبار أطفالهم ولا يعودون إلى الحديث مرة أخرى ذلك اليوم. وعندما تمتلىء الغرفة بالضوء، يمتلىء الطفل بالظلام. إنه يعلم أنه في كل مرة يحدث هذا الأمر فهو إنما يقترب أكثر من ذلك الظلام الذي في الخارج. الظلام في الخارج هو ما كان يتحدث عنه الكبار. إنه المكان الذي أتوا منه. إنه ما يعانون. يعلم الطفل أنهم لن يتابعوا الكلام لأنه إذا عرف أكثر من اللازم عما حدث لهم ، فسوف يعرف قبل الأوان أكثر مما يجب أن يعرف عما سيحدث له هو .

آخر مرة تحدثت فيها مع أمي، أذكر أنني كنت متوتراً. كنت أريد الخروج لرؤية ايزابيل . لم نكن متزوجين آنئذ وكان لدينا الكثير لتسويته فيما بيننا.

جلست أمي بجانب النافذة ، مرتدية السواد . كانت تهمهم بأغنية كنسيّة قديمة ، «رباه أنت جئت بي من طرق بعيدة نائية .» سني كان في مكان ما في الخارج . وظلت أمي تراقب الشوارع.

«لا أدري» ، قالت «إن كنت سأراك ثانية بعد أن تذهب من هنا . لكنني أتمنى أنك ستحفظ الأشياء التي حاولت أن أعلمك إياها. »

«لا تتكلمي هكذا، » قلت وابتسمت. «ستظلين هنا لوقت طويل بعد. »

ابتسمت هي أيضاً ، ولكنها لم تقل شيئاً . كانت هادئة لوقت طويل . قلت. «أمي ، لا تقلقي على أي شيء . سأظل أكتب (لك) دائماً ، وستتلقين الشيكات . . . . »

«أريد أن أحدثك عن أخيك، » قالت فجأة. «إذا حدث لي شيء فلن يكون عنده من يعتني به. »

«أمي، » قلت . «لن يحدث شيء لك ولا لـ سني. سني بخير. إنه ولد طيب، ولديه حس جيد. »

«إنها ليست مسألة كونه ولداً طيباً ،» قالت أمي، «ولا بامتلاكه حساً جيداً. ليس الأشقياء فقط، ولا حتى الأغبياء من يسقطون. » توقفت ناظرة إليّ. «أبوك كان له أخ، » قالتها وابتسمت بطريقة جعلتني أشعر أنها تتألم. «إنك لم تعرف ذلك قط، أليس كذلك؟ »

«كلا» قلت «لم أعرف ذلك أبداً . » وراقبت وجهها.

«آه، نعم.» قالت «أبوك كان له أخ. » نظرت من النافذة مرة أخرى. «أعلم أنك لم تَرَ أباك يبكي قط. ولكنني رأيته ـ مرات كثيرة، عبر كل تلك السنين. »

سألتها. «ماذا حدث لأخيه؟ كيف لم يتحدث أحد عنه قط ؟»

كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها أمي عجوزاً.

«أخوه قُتل، » قالت «عندما كان أصغر قليلاً منك الآن. كنت أعرفه، كان فتى طيباً. ربما كان فيه القليل من الأعمال الشيطانية، ولكنه لم يكن يقصد الأذى لأحد. »

ثم توقفت وأصبحت الغرفة صامتة، تماماً مثلما كانت قديماً في فترة ما بعد الظهيرة أيام الأحد. ظلت أمي تنظر خارجاً إلى الشوارع.

«كان يشتغل في معمل، » قالت «ومثل كل الشبان، كان يحب المرح في ليالي السبت. هو وأبوك كانا يتجولان بين أماكن عديدة في ليالي السبت. يذهبان إلى

المرقص، وأشياء من هذا القبيل، أو يجلسان مع معارفهما، وكان شقيق أبيك يغني، كان صوته حسناً، وكان يعزف لنفسه على القيثارة. في ليلة السبت هذه بالتحديد، كان هو وأبوك عائدين إلى البيت من مكان ما، وكانا مخمورين قليلاً، وكانت الليلة مقمرة، وواضحة كالنهار. كان شقيق أبيك منتشياً وكان يصفر لنفسه، وكانت معه قيثارته ملقاة على كتفه. كانا ينزلان منحدراً وكانت تحتهم طريق تنعطف من الطريق السريع. قرر شقيق أبيك، كونه دائم المرح، أن يركض إلى أسفل المنحدر، وفعل ذلك وقيثارته تطن وترن من خلفه، وركض عبر الطريق، وكان يبول خلف شجرة. كان أبوك مغتبطاً به نوعاً ما، وكان ما يزال ينزل المنحدر بطيئاً بعض الشيء. ثم سمع محرك سيارة وفي نفس اللحظة برز أخوه من خلف الشجرة باتجاه الطريق تحت ضوء القمر. وبدأ يقطع الطريق. بدأ أبوك يركض أسفل المنحدر، قال انه لم يكن يعرف السبب. كانت السيارة ملأى برجال بيض. كانوا جميعاً مخمورين، وعندما رأوا شقيق أبيك أطلقوا صياحاً عالياً ونعيقاً ووجهوا السيارة نحوه مباشرة. كانوا يتسلون، أرادوا فقط أن يخيفوه، على الطريقة التي يمارسونها عادة، كما تعلم. ولكنهم كانوا مخمورين. وأظن أن الفتى، كونه مخموراً أيضاً، وخائفاً، قد فقد عقله نوعاً ما. في اللحظة التي قفز فيها كان قد فات الأوان. قال أبوك أنه سمع أخاه يصرخ عندما داسته السيارة، وسمع خشب قيثارته عندما تحطم، وسمع أوتارها تتطاير، وسمع الرجال البيض يصرخون، وواصلت السيارة سيرها ولم تتوقف حتى هذا اليوم. في الوقت الذي وصل فيه أبوك إلى أسفل المنحدر، لم يكن أخوه سوى دم وأحشاء.»

كانت الدموع تلمع في وجه أمي. لم يكن هناك ما أستطيع قوله.

«لم يكن يذكر الحادث، » قالت «لأنني لم أسمح له قط بذكره أمامكم كأطفال. كان أبوك مثل المجنون تلك الليلة ولليال كثيرة بعدها. كان يقول إنه لم ير في حياته قط شيئاً مظلماً مثل تلك الطريق بعد أن غادرتها أضواء تلك السيارة. لم يكن هناك أي شيء، ولا أي أحد على تلك الطريق، فقط أبوك وأخوه والقيثارة المحطمة. آه. نعم. إن أباك لم يعد معافى مرة أخرى. إلى يوم وفاته لم يكن متأكداً من شيء سوى أن كل رجل أبيض كان يراه كان هو الرجل الذي قتل أخاه».

توقفت وأخرجت منديلاً وجففت عينيها ونظرت إلـيَّ .

«أنا لا أخبرك بكل هذا،» قـالت «لأجـعلك خائفاً أو حاقداً أو أجعلك تكره أحـداً. إنني أخبرك بهذا لأن لك أخاً. والعالم لم يتغير. »

أظن أنني لم أصـدق هذا . وأظن أنها رأت ذلك في وجـهي . اسـتدارت عني نحو النافذة مرة أخرى ، باحثة في تلك الشوارع.

«ولـكـنـني أحمد (الله) مخلّصي» ، قـالت أخيراً «على أنه توفّ أباك قـبلي. أنا لا أقـول هـذا لأرش نفسي بالزهور، ولكنني أقـوله لأنه يحفظني من الشـعـور بالحـزن أن أعـلم أنني سـاعـدت أباك على أن يجتـاز هذا العـالم بأمـان. كـان أبوك يتصرف دائماً وكأنه أصلب وأقـوى رجل في العـالم. والجـميع كانوا يأخذونه على هذا المحمل. لكن لو أنني لم أكن هناك ـ لأرى دموعه ! »

كـانت تبكي ثانيـة. مع ذلك لم أستطع الحـركـة. قلت. «يا إلهي، يا إلهي، أمي، أنا لم أكن أعلم أن الأمر هكذا . »

«آه يا حـبـيـبي» قـالت «هناك الكثير مما لا تعلم. ولكنك ستكتشفه. » وقفت تحت النافـذة وأتت نحوي. «يجب أن تتمسك بأخيك، ولا تدعه يسقط مهما كان ما يحدث له ومـهما كنت قـاسـياً معه. ستكون شريراً معه مرات عديدة. ولكن لا تنس ما قلته لك، هل تسمع ؟ . »

«لن أنسى، » قلت «لا تقلقي، لن أنسى. لن أدع شيئاً يحدث لـ سني . »

ابتـسـمت أمي وكأنها كانت مسرورة لشيء رأته في وجهي . ثم (قالت) «قد لا تـسـتـطيع منع أي شيء من الحـدوث له . ولكن عليك أن تشـعـره أنك (مـوجـود) هناك. »

بعـد يومين تزوجتُ ، ثم سـافـرت . كـانت هناك أمـور كـثيرة تشـغـل ذهني فنسـيت تمامـاً وعدي لأمي إلى أن عدت إلى البيت في إجازة خاصة لحضور جنازتها.

بعـد الجنازة، وكنت أنا وسني وحـيـدين في المطبخ الخـالي، حـاولت أن أعرف عنه شيئاً.

سألته «ماذا تريد أن تفعل؟ »

قال «سأصبح موسيقياً. »

لأنه كان قد تحول ، في وقت غيابي ، من الرقص إلى آلة التسجيل ، ومعرفة من كان يعزف ماذا ، وماذا كانوا يصنعون في (المعزوفة) ، واشترى لنفسه مجموعة من الطبول.

«تعني أنك سوف تصبح طبالاً؟ » تملكني شعور ما بأن فكرة أن يكون المرء طبالاً قد تكون مناسبة للآخرين ولكن ليس لأخي سني.

«لا أعتقد،» قال ناظراً نحوي بصرامة شديدة . «أنا لن أصبح أبداً طبالاً جيداً. ولكنني أعتقد أنني أستطيع أن أعزف البيانو. »

عبست. لم أكن قد لعبت دور الأخ الأكبر بهذه الجدية من قبل، والحق أنه ندر أنني طلبت منه أن يقوم بأي عمل . شعرت بنفسي في حضور شيء لم أكن أعرف فعلاً كيف أتعامل معه، أو أفهمه. لذا عمّقت من عبوسي بينما سألت: «أي نوع من الموسيقيين تريد أن تصبح؟ »

سخر قائلاً. «كم نوعاً تظن أنه يوجد منهم؟ »

قلت «كن جاداً . »

ضحك ملقياً برأسه إلى الخلف ثم نظر إليّ. «أنا جاد. »

«حسن ، إذن ، بحق المسيح توقف عن المراوغة وأجب على سؤال جدي . أعني هل تريد أن تصبح عازف بيانو كلاسيكي، تريد أن تعزف موسيقى كلاسيكية وما هنالك، أو ـ أو ماذا تريد؟ » قبل أن أنهي بكثير كان يضحك ثانية. «بحق المسيح يا سني ! »

صحا ولكن بصعوبة. «أنا آسف. ولكنك تبدو شديد ـ الخوف ! » وانطلق ثانية.

«طيب، قد تظن هذا مضحكاً الآن، يا صغيري، لكنه لن يكون مضحكاً إلى هذه الدرجة عندما تضطر لكسب لقمة عيشك منه ، دعني أحطك علماً بهذا . »

كنت مهتاجاً لأنني كنت أعلم أنه كان يضحك مني ولم أكن أدري لماذا.

«كـلا» قالها صاحياً الآن وخائفاً ربما من أن يكون قد آذى شعوري ، «لا أريد أن أكـون عـازف بيـانو كـلاسـيكيـاً. ليس هذا مـا يثير اهتمامي. أقـصد» ـ وتوقف، ناظراً بتركيـز إلّي، وكأن عـينيـه سـتـساعدانني على الفهـم، ثم أومأ بعجز، وكأن يده ستـسـاعـد ربما ـ «أقصد، سوف يكون أمامي الكثير من الدراسة، وسأضطر لدراسة كل شيء، ولكن، أقـصـد، أريد أن أعـزف مع ـ موسيقيي الجاز .» وتوقف. «أريد أن أعـزف الجاز، » قال مستدركاً .

الحق، إن الكلمـة لم تبـدُ ثقيلة وحقيقية مثلما بدت بعد ظهر ذلك اليوم من فم سني. فـقط نظرت إليـه وكنت على الأرجح مقطباً تقطيبة حقيقية هذه المرة. ببساطة لم أستطع أن أفـهـم أنه كـان يريد أن يمضي وقـته متسكعاً في النوادي الليلية، مهرجاً على خـشبات المسارح، بينما الناس يتدافعون على خشبة المرقص. بدا لي الأمر ـ دون مـسـتـواه بشكل مـا. لم أكن قـد فكرت بالأمـر سابقاً، لم أكن قد اضطررت لذلك، لكن أظن أنني كنت قـديماً قد وضعت موسيقيي الجاز ضمن تلك الفئة التي كان أبي يدعـوها بـ «جماعة الترفيه. »

«هل أنت جاد؟ »

«بالطبع نعم ، أنا جاد. »

بدا أشـد عـجزاً مما كان أبداً في حياته، منزعجاً، ومجروحاً بعمق.

اقترحت بنيّة المساعدة : «تعني ـ مثل لويس ارمسترونج ؟»

انغلق وجـهـه وكأنني قـد صـفـعـتـه. «كـلا. أنا لا أتحـدث عن أي من هذه التفاهات السوقية المتخلفة. »

«طيب، اسـمع يا سني، أنا آسف، لا تغـضـب. أنا لا أستطيع فهم الموضوع مطلقـاً، هذا كل ما هنالك. سمِّ واحداً ـ يعني، عازف جاز أنت معجب به. »

« بيرد . »

« من ؟ »

« بيرد ! تشارلي باركر ! ألا يعلمونك أي شيء في الجيش اللعين؟ »

أشعلت سيجارة . كنت مندهشاً ثم منشرحاً لاكتشافي أنني كنت أرتجف . «لقد فقدت القدرة على التركيز» ، قلت «يجب أن تكون صبوراً معي . الآن . من هو باركر؟ »

«هو مجرد واحد من أعظم موسيقيي الجاز الأحياء، » قال سني بكآبة ويداه في جيبه، وظهره إليّ. «وربما الأعظم،» أضاف قائلاً بمرارة . «ولهذا السبب على الأرجح لم تسمع به قط. »

«حسن» قلت «أنا جاهل. أنا آسف. سأخرج وابتاع حالاً جميع أسطوانات الرجل، حسن هكذا؟ »

أجاب سني بأنفه . «لا فرق عندي . لا يهمني ما تسمع . لا تحملني الجميل. »

كنت قد بدأت أعي أنني لم أره قط مستاء هكذا من قبل. بجزء آخر من عقلي كنت أفكر أن الأمر سينتهي على الأرجح كواحد من تلك الأمور التي يمر بها الأولاد وأنه أجدر بي ألا أجعل الموضوع يبدو مهماً بالحاحي عليه. مع ذلك، لم أشعر بضير من أن أسأل : «ألا يأخذ هذا وقتاً طويلاً ؟ هل تستطيع أن تكسب عيشك منه؟ »

استدار نحوي واتخذ نصف انحناءة ونصف جلسة على طاولة المطبخ. «كل شيء يأخذ وقتاً، » قال «و ـ طيب، نعم، طبعاً، أستطيع أن أكسب عيشي منه. ولكن الذي يظهر أنني لا أستطيع إفهامك إياه هو أنه الشيء الوحيد الذي أريد أن أفعله. »

«حسن يا سني ، » قلت برقة ، «أنت تعلم أن البشر لا يستطيعون دائماً أن يفعلوا ما يريدون أن يفعلوه بالضبط ـ . »

«كلا ، لا أعلم هذا ، » قال سني مفاجئاً إياي . «أعتقد أن الناس يجب أن يفعلوا ما يريدون فعله، وإلا فلم يعيشون إذن؟ »

«سوف تصبح فتى كبيراً، » قلت بيأس، «آن الأوان كي تبدأ بالتفكير في مستقبلك. »

«أنا أفكر بمستقبلي» قال سني بشراسة. «إنني أفكر فيه دائماً. »

استسلمت. قررت أنه إن لم يغير رأيه فسيمكن أن نتحدث بالموضوع فيما بعد. قلت، «في هذه الأثناء يجب أن تنهي تعليمك. »

كنا قد قررنا سابقاً أن ينتقل مع ايزابيل وعائلتها . أدري أن هذا لم يكن الترتيب الأمثل لأن أهل ايزابيل ميّالون إلى الحزم والتعالي ، وهم لم يكونوا يريدون ايزابيل أن تتزوج بي. ولكني لم أدر ما أفعل غير هذا. «لا بد من أن ندبر لك مكاناً عند ايزابيل . »

وساد صمت طويل . تحرك من طاولة المطبخ إلى النافذة. «هذه فكرة رديئة. أنت نفسك تعلم هذا. »

«الديك فكرة أفضل؟ »

مشي جيئة وذهاباً لمدة دقيقة. كان بمثل طولي. وكان قد بدأ يحلق ذقنه. وفجأة ساورني شعور بأنني لم أعرفه قط.

توقف عند طاولة المطبخ والتقط سجائري. (قال) ناظراً نحوي بشيء من التحدي المغتبط الساخر، ووضع واحدة بين شفتيه «هل تمانع؟ »

«أنت تدخن منذ الآن؟ »

أشعل السيجارة وأومأ مراقباً إياي من خلال الدخان. «أردت فقط أن أرى إن كنت أملك الجرأة على التدخين أمامك. » ابتسم وأطلق سحابة ضخمة من الدخان نحو السقف . «لقد كان أمراً سهلاً. » نظر إلى وجهي . «هيا. أراهن أنك كنت تدخن في مثل سنّي، قل الحقيقة. »

لم أقل شيئاً ولكن الحقيقة كانت على وجهي، فضحك. ولكن الآن كان هناك شيء منهك جداً في ضحكته. «طبعاً. وأراهن أن هذا لم يكن كل ما كنت تفعله. »

كان يخوّفني قليلاً. قلت «كفى سخافات، لقد قررنا سابقاً أنك سوف تذهب

لتعيش في بيت ايزابيل. والآن ما الذي جرى لك فجأة ؟ »

«أنت الذي قرر ذلك، » قال موضحاً . «أنا لم أقرر شيئاً . » توقف أمامي، مائلاً على المدفأة، وذراعاه مطويتان بارتخاء. «اسمع يا أخي. أنا لا أريد أن أبقى في هارلم بعد الآن ، فعلاً لا أريد . » كان جاداً . نظر إليَّ ، ثم إلى أعلى باتجاه نافذة المطبخ . كان في عينيه شيء لم أكن قد رأيته من قبل ، شيء من تفكّر ، وشيء من قلق وكلاهما خاص به وحده . فرك عضلات ذراعه . «حان الوقت كي أخرج من هنا. »

«أين تريد أن تذهب يا سني؟ »

«أريد أن أنضم إلى الجيش. أو البحرية، لا يهمني. إذا أخبرتهم أنني كبير السن بما فيه الكفاية، فسيصدقونني. »

ثم فُرت غاضباً. كان ذلك لأنني كنت خائفاً. «لابد أنك مجنون، أيها الأحمق الملعون، ولأي سبب بحق جهنم تريد أن تذهب وتلتحق بالجيش؟ »

«لقد أخبرتك لتوّي. لأخرج من هارلم . »

« سني، إنك حتى لم تنه المدرسة بعد. وإذا أردت أن تصبح موسيقياً فعلاً، فكيف تتوقع أن تدرس إذا كنت في الجيش؟ »

نظر نحوي ، كان محاصراً ومكروباً. «هناك طرق. قد أستطيع التوصل إلى صفقة من نوع ما. على أي حال سأكون حاصلاً على شهادة الخدمة العسكرية عندما أسرّح. »

«هذا إذا سرّحت. » حملقنا ببعضنا «سني أرجوك كن عقلانياً. أنا أعلم إن خطتي أبعد ما تكون عن المثالية. ولكن علينا أن نعمل أفضل ما نستطيع. »

«أنا لا أتعلم شيئاً في المدرسة ، » قال . «حتى عندما أذهب. » استدار عني وفتح النافذة ورمى بسيجارته خارجاً إلى الزقاق الضيق. راقبت ظهره . «على الأقل فأنا لا أتعلم شيئاً تريدني أن أتعلمه. » أغلق النافذة بعنف شديد حتى ظننت أن الزجاج سيتطاير، واستدار نحوي. «كما أنني قرفت من نتن صفائح الزبالة هذه!»

قلت «سني، أعلم كيف تشعر. ولكن إن لم تنه تعليمك الآن فسوف تندم فيما بعد على أنك لم تفعل.» أمسكت به من كتفيه. «وليس أمامك سوى سنة واحدة أخرى. هذا ليس شيئاً. وسوف أعود، وأقسم أنني سأساعدك على أن تفعل أي شيء تريد. فقط حاول أن تتأقلم مع الوضع حتى أعود. هل بامكانك رجاء أن تفعل ذلك؟ من أجلي؟»

لم يجب، وما كان لينظر نحوي.

«سني، هل تسمعني؟»

انسحب بعيداً. «أسمعك. ولكنك لا تسمع أي شيء أقوله أنا.»

لم أدر بماذا أجيب على ذلك. نظر عبر النافذة ثم نحوي مرة أخرى.

«طيب،» قالها وتنهد. «سأحاول.»

ثم قلت، محاولاً ابهاجه قليلاً. «إن لديهم بيانو في بيت ايزابيل. تستطيع التمرن عليه.»

وللحقيقة، فقد أبهجه ذلك للحظة. «هذا صحيح،» قال لنفسه. «لقد نسيت ذلك.» استراح وجهه قليلاً. ولكن القلق، والتفكير كانا ما يزالان يتراقصان على وجهه، كما تتراقص الظلال على وجه يحدق في النار.

★ ★ ★

لكنني حسبت أنني لن أخلص من قصة ذلك البيانو. في البداية، كانت ايزابيل تكتب لي متحدثة عن روعة أن يكون سني جاداً بشأن الموسيقى، وكيف أنه حالما يعود من المدرسة، أو من حيثما كان في الوقت الذي يفترض فيه أنه في المدرسة، فإنه يذهب من فوره إلى ذلك البيانو ويبقى هناك حتى العشاء. وبعد العشاء، يعود مرة أخرى إلى ذلك البيانو حتى يأوي الجميع إلى الفراش. كان على البيانو طيلة يوم السبت وطيلة يوم الأحد. ثم اشترى مسجل أسطوانات وبدأ يستمع إلى الاسطوانات. كان يدير الاسطوانة مرة تلو مرة، طيلة اليوم في بعض الأحيان، وربما ارتجل على البيانو بمصاحبتها. أو ربما سمع مقطعاً واحداً من

الاسطوانة، تناغماً واحداً، تنوعاً واحداً، متوالية واحدة، ثم يعزفها على البيانو. ثم عوداً إلى الاسطوانة. ثم عوداً إلى البيانو.

الواقع انني لا أدري كيف احتملوا ذلك . ايزابيل اعترفتَ أخيراً أن الأمر لم يكن مثل العيش مع إنسان على الإطلاق، كان العيش مع صوت. والصوت لم يكن يعني شيئاً، لم يعنِ شيئاً لأي منهم ـ بطبيعة الحال. لقد بدأوا يعانون بطريقة ما من هذا الحضور الذي كان يعيش في منزلهم . كأن سني إله أو وحش . كان يتحرك في داخل أجواء ليست أجواءهم مطلقاً. كانوا يطعمونه وكان يأكل، كان ينظف نفسه، يمشي داخلاً وخارجاً من بابهم، بالطبع لم يكن بغيضاً ولا كريهاً ولا وقحاً، فسني ليس واحداً من هؤلاء ، لكن كأنه كان ملتحقاً بسحابة ما ، بنار ما ، برؤيا ما، وكلها كانت تخصه وحده، ولم تكن هناك طريقة للوصول إليه.

في نفس الوقت ، لم يكن قد أصبح رجلاً بعد ، كان ما يزال طفلاً، وكان لابد من أن يحموه بشتى الطرق . لم يكن بامكانهم أن يطردوه بالطبع . ولا هم تجرؤوا على إثارة مشكلة حول البيانو لأنهم حتى هم شعروا، مثلما شعرتُ أنا، من على بعد آلاف الأميال، أن سني كان يعزف وكأن حياته تتوقف على ذلك البيانو.

لكنه لم يكن يذهب إلى المدرسة. يوماً ما وصلت رسالة من مجلس المدرسة واستلمتها أم ايزابيل ـ من الواضح انه كانت هناك رسائل أخرى ولكن سني كان قد مزقها. ذلك اليوم ، عندما دخل سني أطلعته أم ايزابيل على الرسالة وسألته أين كان يمضي وقته . وأخيراً انتزعت منه اعترافاً بأنه يكون في جرينتش فيلج مع موسيقيين وأشخاص آخرين في شقة فتاة بيضاء. أخافها هذا فبدأت تصرخ في وجهه، وكان مما ذكرتْه بمجرد أن بدأت ـ رغم انها ما تزال تنكره حتى هذا اليوم ـ التضحيات الجسام التي كانوا يقدمونها من أجل اعطاء سني بيتاً محترماً وعن قلة عرفانه بها.

لم يعزف سني على البيانو في ذلك اليوم. بحلول المساء، كانت أم ايزابيل قد هدأت، ولكن بقي الرجل العجوز للتفاهم معه، وايزابيل نفسها. تقول ايزابيل إنها عملت جهدها على أن تبقى هادئة، ولكنها انهارت أخيراً وأجهشت بالبكاء. تقول

إنها راقبت وجه سني فقط. كان باستطاعتها أن ترى بمجرد مراقبته، ما كان يحدث بداخله. والذي كـان يحدث هو أنهم كـانوا يخترقـون سحابته، لقد وصلوا إليه. حتى لو كـانت أصـابعـهم أرقّ ألف مـرة من أرقّ أصـبع بشري، فما كـان بامكانه إلا أن يشـعـر أنهم كانوا يعرّونه ويبصقون على عريه. كان يجب أن يفهم أن حضوره، تلك الموسيـقى، التي كـانت بالنسـبـة له مسألة حياة أو موت، كانت عذاباً بالنسبة لهم، وأنهـم قـد احـتـملوها لا من أجل خـاطره بل من أجلي أنا. وسني لم يسـتطع تحـمل هذا. إنه يسـتطيع تحـمل ذلك اليوم أكثر مما كان يستطيع آنئذ ولكنه ما يزال غير جيد في هذا المجال، وبصراحة فإنني لا أعرف أحداً يستطيع ذلك .

صـمت الأيام القليلة التـاليـة لا بد أنه كـان أعلى من أصـوات الموسيـقى التي عُزفت منذ بدء الزمـان. ذات صبـاح، وقـبل أن تذهب ايزابيل إلى العـمل، كـانت تبـحث عن شيء في غـرفـته لتدرك فجأة أن جميع الأسطوانات قد اختفت . وعلمت علم اليـقين أنه قـد رحل. وهكذا كـان. رحل بعـيـداً بقـدر مـا تستطيع البحرية أن تبـعـده. وأخيراً بعث إليّ ببطاقة بريدية من مكان ما من اليونان وتلك كانت أول مرة أعـرف أن سني كـان ما يزال حياً. لم أره مطلقاً إلى أن عاد كلانا إلى نيويورك وكانت الحرب قد انتهت منذ مدة طويلة.

كان رجلاً آنئذ بالطبع لكنني كنت عـازمـاً على عدم رؤية ذلك. كان يمر على البـيت من حين إلى حين، لكننا كنا نتـشـاجر في كل مرة نلتقي فيها تقريباً. لم أحب الطريقـة التي كـان يتصرف بها ، مـرتخياً وحالماً طوال الوقت ، ولم أحب أصدقاءه ، وبدا أن مـوسيقاه كانت مجرد تبرير للحياة التي كان يحياها. لقد كانت بنفس الغرابة والفوضى.

ثم دبت بيننا مـشـاجـرة، مشاجرة مريعة حقاً، ولم أره لمدة أشهر. بحثت عنه بالتـدريج حيث كان يسكن في غرفة مفروشة في القرية وحاولت اصلاح الأمر. لكن كـان هناك آخـرون كـثيرون في الغـرفـة، وسني كـان مـستلقياً على سريره، وما كان ليرضى أن ينزل مـعي إلى الطابق السـفلي، كـان يعـامل أولئك الآخـرين كما لو كانوا عـائلتـه وكأنني أنا لم أكن كـذلك . غـضبت فغضب هو، قلت له إنه سيان موته أو حيـاته على الطريقة التي يحيا بها . فوقف وقال لي ألا أقلق عليه فيما تبقى من الحياة

بعد الآن ، وإنه قد أصبح ميتاً بالنسبة لي . دفعني نحو الباب والآخرون ينظرون وكأن شيئاً لم يكن يحدث، وصفق الباب ورائي. توقفت في الممر، محدقاً في الباب. سمعت أحدهم يضحك داخل الغرفة فاغرورقت عيناي بالدمع. نزلت الدرج مصفراً لأمنع نفسي من البكاء. أخذت أصفر لنفسي أغنية «سوف تحتاج إليَّ يا صغيري ذات يوم بارد مطير. »



قرأت عن مشكلة سني في الربيع . الصغيرة جريس ماتت في الخريف. كانت صغيرة جميلة لكنها لم تكد تتجاوز السنتين. ماتت بشلل الأطفال وتعذبت . عانت من حمى خفيفة لمدة يومين ولكن الأمر بدا غير ذي بال فأبقيناها في الفراش. لقد كان باستطاعتنا قطعاً استدعاء الطبيب، لكن الحمى خفت، وبدا أنها بخير. ظننا أن الأمر كان مجرد نوبة برد. ثم ذات يوم بينما كانت ناهضة تلعب، وكانت ايزابيل في المطبخ تعد الغداء للولدين لحين عودتهما من المدرسة ، إذ سمعت جريس تقع في غرفة المعيشة. عندما يكون عندك الكثير من الأطفال فإنك لا تنهض راكضاً عندما يقع أحدهم، إلا إذا بدأ يصرخ أو يفعل شيئاً من هذا القبيل . و جريس كانت هادئة هذه المرة. لكن ايزابيل تقول إنها عندما سمعت تلك السقطة ثم ذلك الصمت، ساورها شعور أخافها. فركضت إلى غرفة المعيشة وهناك كانت الصغيرة جريس تتلوى ، والسبب في عدم صراخها كان أنها لم تكن قادرة على التنفس . وتقول ايزابيل إنها عندما صرخت فعلاً ، كان ذلك أسوأ صوت سمعته في حياتها ، وهي ما تزال تسمعه أحياناً في أحلامها . أحياناً توقظني ايزابيل على صوت أنين مختنق مكبوت فأسرع إلى إيقاظها وأضمّها إليَّ وحيث تبكي ايزابيل ملتصقةً بي (أحس) جرحاً قاتلاً.

أظن انني كتبت إلى سني في نفس اليوم الذي دفنت فيه الصغيرة جريس . كنت أجلس في غرفة المعيشة وحيداً في الظلمة ، وفجأة فكرت بسني . جعلت متاعبي متاعبه حقيقية .

ذات سبت في فترة ما بعد الظهيرة، وكان قد مضى على معيشة سني معنا، أو، فلنقل ، وجوده معنا في منزلنا ، ما يقرب من أسبوعين ، وجدت نفسي أتجول

على غير ذي هدي في غـرفـة المعـيـشة وأنا أشرب بيرة من علبة ، وأحاول بناء الجرأة على تفـتـيش غـرفة سني . كان في الخارج ، وعادة ما يكون في الخارج كلما أكون في البـيت ، وكـانت ايزابيل قـد أخـذت الولدين لرؤية جـديهما . فجأة وقفت ثابتاً أمام نافـذة غـرفة المعيشة ، أراقب الجادّة السابعة . فكرة تفتيش غرفة سني جعلتني أقف ساكناً. لم أكد أجرؤ على مـصارحة نفسي بالذي كنت أبحث عنه. لم أكن أدري ماذا سأفعل به لو وجدته. أو إذا لم أجده .

على الرصـيف قبالتي، قرب مدخل مطعم للشواء، كان بعض الناس يعقدون اجـتماعـاً دينياً على الطراز القديم. كان الطباخ واقفاً في المدخل يراقبهم، وهو يلبس مئزراً أبيض وسـخـاً وشـعـره الملبـد محمّر ولامع تحت الشـمس الشاحبة، وبين شفتيه سـيـجـارة. بعض الأطفال وكبار السن توقفوا من مشاويرهم ووقفوا هناك، منضمين إلى بضع رجـال كـبـار ،امرأتين قاسيتي الملامح كانت تراقبان كل ما يجري في الجادة وكأنهما تمتلكانه أو أنه كـان يمـتلكهما. إذن فقد كانتا تراقبان هذا أيضاً. كانت تقيم الاجـتماع ثـلاث راهـبـات يـرتدين السـواد وراهـب . كل مـا يمـتلكنه هو أصـواتهن وأناجـيلهن ودفّاً . كـان الراهب يقدم بينته الشخصية بينما كانت اثنتان من الراهبات تقـفان معاً، كأنهما تقولان آمين، وكانت الثالثة تمشي بالدف ممدوداً، فألقى اثنان قطعاً معـدنيـة فـيـه. ثم انتـهـت موعظة الراهب وأما الراهبة التي كانت تقوم بالجمع فقد ألقت القطع المعـدنيـة في كفها ثم نقلتها لجيب ردائها الأسود الطويل. ثم رفعت كلتا يـديهـا، ناقـرة الدف بالهواء ثم بإحـدى يديها، وبدأت تغني. وانضـمت الراهبـتـان الأخريان والراهب إليها .

فـجأة بدا مـا أراقـبـه غريباً ، مع أنني كنت أرى اجتماعات الشوارع هذه طيلة حـيـاتي. وكـذلك الأمـر بالنسبة لكل من كان هناك . مع ذلك فقد توقفوا ، وراقبوا واسـتـمعـوا ووقفـت أنا ساكنـاً عنـد النافـذة . غنوا (إنها سفينـة صهيـون القديمـة) وكـررت راهبـة الدف قـفلة (لقد أنقذت ألوفاً كثيرة !) لم تكن هناك نفس واحدة في مـدى أصـواتهم تسـمع هذه الأغنيـة لأول مرة، ولم يكن واحد منهم قد أنقذ. كما لم يـروا الـكـثير مما يسـمى بعـمل الانقـاذ يجري حـولهم . كما لم يؤمنوا أيضـاً بقـداسـة الراهبـات والراهب، لقـد عـرفوا عنهم أكثر من اللازم ، عرفوا أين يعيشون وكيف.

المرأة صاحبة الدف ، التي سيطر صوتها على الجو ، والتي كان وجهها مشرقاً بالفرح، لم تختلف إلا قليلاً عن المرأة التي كانت واقفة تراقبها والسيجارة بين شفتيها الثقيلتين المتشققتين، وشعرها كعش الوقواق والندوب في وجهها المتورم من الضرب المتكرر، وعيناها السوداوان تتوقدان كالفحم. ربما عرفت كلتاهما هذه (الحقيقة)، ولهذا فإنهما عندما تتخاطبان ، على ندرة ما تفعلان ذلك ، فإنهما تخاطبان بعضهما بلقب أخت . بينما كان الغناء يملأ الجو ، حدث تغير في الوجوه المراقبة المستمعة ، العيون تركز على شيء في الداخل ، بدت الموسيقى وكأنها تخفّف من سمّ في داخلها ؛ والزمن بدا يبتعد شيئاً ما عن الوجوه المسحوقة العدوانية الكئيبة، وكأنهم كانوا يهربون عائدين إلى حالتهم الأولى، بينما هم يحلمون بحالتهم الأخيرة. الطباخ هز رأسه نصف هزة وابتسم، وأسقط سيجارته واختفى في محله. رجل تلمس جيوبه بحثاً عن قطع معدنية ووقف حاملاً إياها في يده بنفاد صبر ، وكأنه قد تذكر لتوه موعداً ملّحاً على مقربة في الحي . بدا غاضباً . ثم رأيت سني واقفاً على حافة الجمهور. كان يحمل معه دفتر ملاحظات مسطحاً عريضاً بغطاء أخضر ، مما جعله يبدو، من حيث كنت أقف ، شبيهاً بطالب مدرسة. الشمس النحاسية أظهرت النحاس في جلده ، كان يبتسم ابتسامة جد باهتة وهو واقف بسكون . ثم توقف الغناء، وتحول الدف إلى صحن لجمع (النقود) مرة أخرى. الرجل الغاضب أسقط قطعة معدنية واختفى، وكذلك فعلت اثنتان من النساء ، وأسقط سني بعض القطع في الصحن وهو ينظر مباشرة إلى المرأة بابتسامة صغيرة. بدأ يعبر الجادة نحو البيت. إن له مشية متبخترة بطيئة، كتلك التي يمشيها أولاد هارلم إلا أنه أضاف عليها إيقاعه الخاص. لم أكن قد لاحظتها من قبل.

بقيت عند النافذة، مرتاحاً ومترقباً في آن معاً. عندما اختفى سني عن ناظري بدأوا يغنون ثانية. كانوا ما يزالون يغنون عندما دار مفتاحه في القفل.

قال «ها. »

«ها أنت. هل تريد بعض البيرة؟ »

«لا. أو، ربما. » لكنه جاء إلى النافذة ووقف بجانبي ناظراً إلى الخارج. قال «يا له من صوت دافىء. »

كانوا يغنون «لو أنني أستطيع أن أسمع أمي تصلي مرة أخرى ! »

«نعم» قلت، «وهي فعلاً تجيد النقر على الدف. »

«لكن يا لها من أغنية سيئة، » قال ضاحكاً. أسقط دفتره على الأريكة واختفى في المطبخ. «أين ايزابيل والأطفال؟ »

«أظن انهم ذهبوا لرؤية جديها. هل أنت جائع؟ »

«كلا. » عاد من المطبخ إلى غرفة المعيشة حاملاً علبة البيرة. «هل تود الذهاب معي إلى مكان ما هذه الليلة؟ »

شعرت، ولا أدري كيف، انه لم يكن بامكاني أن أقول لا. «طبعاً. أين؟ »

جلس على الأريكة، والتقط دفتره ،بدأ يتصفحه. «سوف أنضم إلى بعض الأصدقاء في محل ما في القرية. »

«تعني انك سوف تعزف هذه الليلة؟ »

«هذا صحيح. » أخذ جرعة من البيرة وانسحب إلى الخلف نحو النافذة. حدجني بنظرة جانبية. « (هذا) إذا كنت تستطيع احتمالها. »

قلت «سأحاول. »

ابتسم بينه وبين نفسه وراقبنا كلانا الاجتماع وهو ينفض عبر الطريق. الراهبات الثلاث والراهب كانوا يغنون «فليبق الله معكم حتى نلتقي مرة أخرى. » كانت الوجوه شديدة الهدوء. ثم انتهت الأغنية. وتفرق الحشد الصغير. راقبنا الراهبات الثلاث والرجل الوحيد يمشون ببطء إلى أعلى الجادة.

«عندما كانت تغني، » قال سني فجأة، «ذكرني صوتها لوهلة بتأثير الهيروين في بعض الأحيان ـ عندما يكون في عروقك. يجعلك تشعر بنوع من الدفء والبرودة في نفس الوقت. ونائياً و ـ و واثقاً. » رشف بيرته، غير ناظر إليّ بتقصد شديد. راقبت وجهه. «إنه يجعلك تشعر ـ بالسيطرة . أحياناً يجب أن تمتلك هذا الشعور. »

«هل تملكه؟ » جلست ببطء على الكرسي المريح.

«أحياناً. » ذهب إلى الأريكة والتقط دفتره ثانية. «بعض الناس يفعلون. »

«من أجل، » قلت متسائلاً «أن يعزفوا؟ » وكان صوتي شديد البشاعة، مليئاً بالازدراء والغضب.

«ربما» - نظر إليّ بعينين واسعتين قلقتين، وكأنه في الواقع كان يأمل أن تخبرني عيناه بأشياء لم يكن باستطاعته أن يقولها بطريقة أخرى - «إنهم يظنون ذلك. وإن هم ظنوا ذلك فإذن - ! »

سألته «وماذا تظن أنت ؟ »

جلس على الأريكة ووضع علبة البيرة على أرض الغرفة. قال «لا أدري. » ولم أستطع أن أعرف إن كان يجيب على سؤالي أم يتابع أفكاره. لم يخبرني وجهه بشيء. «ليس شيئاً عظيماً أن تعزف. بل أن تحتمل ذلك. أن تستطيع فعل ذلك. على أي مستوى. » قطب وابتسم: «كيلا ترتجف فتسقط قطعاً. »

«ولكن أصدقاءك هؤلاء، » قلت «يبدو إنهم يحطمون أنفسهم إلى قطع بطريقة لعينة سريعة. »

«ربما، » كان يعبث بالدفتر. وشيء ما أخبرني أن أعقد لساني، وأن سني كان يبذل قصارى جهده ليتحدث، وإنه يجدر بي أن أسمع. «ولكنك بالطبع تعرف فقط عن أولئك الذين تحطموا. البعض لا يفعل ذلك - أو على الأقل لم يتحطموا بعد، وهذا أقصى ما يستطيع أي واحد منا أن يقوله. » توقف. «ثم هناك من يعيشون في جهنم في واقع الأمر، وهم يعلمون ذلك ويرون ما يحدث ويستمرون. لا أدري. » تنهد وأسقط الدفتر وطوى ذراعيه. «بعض الرجال، تعرف ذلك من طريقة عزفهم، يتعاطون شيئاً طوال الوقت. وتستطيع أن ترى أنه يخلق شيئاً حقيقياً بالنسبة لهم. ولكن بالطبع، » التقط علبته من الأرض ورشفها ثم أعادها مرة أخرى. «إنهم يريدون ذلك أيضاً، يجب أن تفهم هذا. حتى إن بعضهم يقولون إنهم لا يفعلون - البعض وليس الجميع. »

«وماذا عنك؟ » سألته ولم أستطع أن أمنع نفسي. «ماذا عنك أنت ؟ هل تريد ذلك ؟ »

وقف ومشى النافذة وبقي صامتاً لمدة طويلة. ثم تنهد. قال «أنا» ، ثم : «عندما كنت تحت في طريقي إلى هنا أستمع إلى تلك المرأة وهي تغني ، خطر ببالي فجأة مقدار المعاناة التي لا بد أنها مرت بها ـ حتى تغني بتلك الطريقة. من المقرف أن تفكر انك يجب أن تعاني بذلك المقدار. »

قلت: «ولكن ليست هناك طريقة كيلا تعاني ـ أليس كذلك يا سني؟ »

«لا أعتقد ذلك. » قال وابتسم ، «ولكن هذا لم يمنع أحداً من المحاولة. » نظر إليّ «أليس كذلك؟ » أدركت من تلك النظرة الساخرة أنه تحول بيننا وإلى الأبد وخارج سلطة الزمان أو الصفح حقيقة أنني كنت قد لذت بالصمت ـ لمدة طويلة! ـ عندما كان يحتاج إلى حديث انساني يعينه. استدار نحو النافذة. «كلا، لا توجد طريقة لتجنب المعاناة. ولكنك تحاول كل أنواع السبل لكي لا تغرق فيها، لتبقى على سطحها وتجعلها تبدو ـ أعني مثلك أنت . مثل أنك اقترفت أمراً ، فليكن ، وأنت الآن تعاني بسببه . هل تفهم ؟ » لم أقل شيئاً . «طيب ، أنت تعلم . » قال بنفاد صبر . «لماذا يعاني الناس ؟ ربما من الأولى فعل شيء لاعطاء ذلك سبباً ، أي سبب».

قلت، «لكننا اتفقنا لتونا على أنه لا توجد طريقة لتجنب المعاناة. أليس من الأفضل أن نتقبل الأمر هكذا؟ »

«ولكن أحداً لا يتقبل الأمر هكذا. » صاح سني «هذا ما أقوله لك! الجميع يحاولون ألا يعانوا . إنك تحصر تفكيرك بالطريقة التي يحاول بها البعض ـ إنها ليست طريقتك أنت! »

بدأ شعر وجهي يحكني، شعرت بوجهي ندياً. «هذا ليس صحيحاً. » قلت «هذا ليس صحيحاً، أنا لا أقيم وزناً لما يفعله الآخرون. ولا حتى يهمني كم يعانون. يهمني فقط كم تعاني أنت. » نظر إليّ. «أرجوك أن تصدقني،» قلت «لا أريد أن أراك تموت وأنت تحاول ألا تعاني. »

«لن» قال برتابة «أموت محاولاً ألا أعاني. على الأقل ليس بأسرع من أي شخص آخر. »

«ولكن لا حاجة» قلت محاولاً أن أضحك «أليس كذلك؟ إلى قتل نفسك.»

أردت أن أقول المزيد ، لكنني لم أستطع . أردت أن أتحدث عن قوة الإرادة وكيف يمكن أن تكون الحياة ، فلنقل ، جميلة . أردت أن أقول إن الأمر كله داخل (النفس) : ولكن هل الأمر كذلك ؟ أم ـ أوَليست تلك هي المشكلة ؟ وأردت أن أعد بألا أتخلى عنه مرة أخرى. لكن كل هذا كان سيبدو كلمات جوفاء وأكاذيب.

لهذا قطعت الوعد بيني وبين نفسي ودعوت أن أفي به.

«إن الأمر فظيع في الداخل، » قال «تلك هي المشكلة. أنت تمشي في هذه الشوارع، أسود اللون ومخيفاً وبارداً ، ولا يوجد كائن أحمق تتكلم إليه ، ولا يوجد شيء يتحرك، وما من وسيلة لاخراجها ـ تلك العاصفة التي في الداخل. لا تستطيع أن تتحدث عنها، ولا تستطيع أن تغازلها، وعندما تحاول أخيراً أن تعايشها وأن تعزفها، تدرك أنه لا أحد يستمع. ولذلك تضطر أنت أن تسمع. يجب أن تجد الطريقة كي تستمع. »

ثم مشى مبتعداً عن النافذة وجلس على الأريكة مرة أخرى، كأن كل الريح قد خرجت من داخله. «أحياناً يمكن أن تفعل أي شيء كي تعزف، حتى أن تحز رقبة أمك. » ضحك ونظر إليّ «أو رقبة أخيك. » ثم صحا «أو رقبتك أنت. » ثم «لا تقلق. أنا بخير الآن وأظن أنني سأكون بخير. لكنني لا أستطيع أن أنسى ـ أين كنت. لا أعني فقط المكان المادي الذي كنت فيه، أعني أين كنتُ، وماذا كنتُ؟»

سألت «وماذا كنت يا سني؟ »

ابتسم ـ جلس مجانبة على الأريكة، بكوعه مرتخياً على ظهرها وأصابعه تعبث بفمه وذقنه غير ناظر إليَّ. «لقد كنت شيئاً لم أستطع أن أميِّزه. شيئاً (لم أكن أعرف أنني) يمكن أن أكونه. أو أن أحداً يمكن أن يكونه. » توقف، ناظراً في داخله، (كان) يبدو صغيراً عاجزاً ، ومسناً . «أنا لا أتحدث عن هذا الآن لأنني أشعر بالذنب أو شيء من هذا القبيل ـ ربما كان من الأفضل أن أفعل ذلك ، لا أدري. على أي حال، لا أستطيع التحدث عنه. لا لك ولا لأي إنسان آخر ، » الآن استدار وواجهني. «أحياناً، كما تعلم، في معظم الأحيان وأنا خارج العالم، شعرت

أنني كنت فيه ، أنني كنت معه ، حقاً ، وأنه كان باستطاعتي أن أعزف أو أنني لم أضطر حقاً لأن أعزف، كان يخرج مني وحسب. كان هناك. ولا أدري كيف عزفت، بعد أن أفكر بذلك الآن، لكنني أعلم أنني عملت أموراً فظيعة، في تلك الأوقات مع الناس أحياناً. أو ربما أنني لم أفعل أي شيء لهم ـ كأنهم لم يكونوا حقيقيين. » التقط علبة البيرة، كانت فارغة، دحرجها بين كفيه: «وأحياناً أخرى ـ كنت أحتاج إلى تعديل، كنت أحتاج إلى مكان أميل إليه، كنت أحتاج إلى فضاء صافٍ لأستمع ـ ولم أستطع أن أجده ، و ـ جننت ، لقد عملت أشياء مريعة لنفسي كنت مريعاً مع نفسي. » بدأ يضغط على علبة البيرة بين يديه، راقبت المعدن وهو ينثني، كان يلمع وهو يعبث به كالسكين، وكنت خائفاً أن يجرح نفسه، لكنني لم أقل شيئاً. «حسن، لا أستطيع أن أخبرك أبداً. كنت وحدي في قعر شيء ما، منتناً عَرِقاً باكياً ومرتجفاً ، وشممته ، تدري ؟ نتني ، وظننت أنني يمكن أن أموت إن لم أهرب منه، مع ذلك. كنت أعلم أن كل ما كنت أقوم به كان يحبسني معه. . ولم أعلم، » توقف، وما يزال يسطّح علبة البيرة. «لم أعلم، ما زلت لا أعلم، شيء ما ظل يخبرني أنه ربما كان من الأفضل أن أشم نتني، لكنني لم أكن أظن أن هذا هو ما كنت أحاول أن أفعله ـ و ـ من يستطيع احتماله؟ » ثم فجأة أسقط علبة البيرة المحطمة، ناظراً نحوي بابتسامة هادئة صغيرة، ثم نهض ماشياً نحو النافذة كما لو أنها كانت صخرة مغناطيسية. راقبت وجهه، وراقبت الجادة. «لم أستطع أن أخبرك عندما ماتت أمي ـ ولكن سبب رغبتي الشديدة في مغادرة (هارلم) كانت للتخلص من المخدرات. ثم عندما هربت، كان ذلك ما كنت أهرب منه ـ فعلاً. عندما عدت لم يكن شيء قد تغير، أنا لم أتغير، كنت فقط ـ أكبر سناً. » ثم توقف ناقراً أصابعه على زجاج النافذة. كانت الشمس قد اختفت. سيعم الظلام قريباً. راقبت وجهه. «يمكن أن يعود مرة أخرى، » قالها وكأنه يتحدث إلى نفسه. ثم استدار نحوي، «يمكن أن يعود مرة أخرى» أعادها. «أريدك فقط أن تعلم هذا. »

«حسن» قلت أخيراً، «يمكن أن يعود مرة أخرى، لا بأس. »

ابتسم لكن ابتسامته كانت حزينة. «لقد كان يجب أن أحاول اخبارك، » قال.

قلت «نعم، أنا أتفهم هذا. »

«أنت أخي، » قالها ناظراً إليَّ مباشرة ودون أن يبتسم مطلقاً.

«نعم، » كررت، «أنا أفهم ذلك. »

استدار نحو النافذة ، ناظراً إلى الخارج . «كل تلك الكراهية هناك. » قال «كل تلك الكراهية والشقاء والحب. من العجب أنها لا تحطم الحي إلى قطع. »



ذهبنا إلى النادي الليلي الوحيد في شارع مظلم قصير وسط البلدة. حشرنا أنفسنا عبر المشرب الضيق المزدحم نحو مدخل الغرفة الكبيرة، حيث كانت خشبة مسرح الغرفة. وقفنا هناك للحظة، لأن الأضواء كانت خافتة جداً في هذه الغرفة ولم يكن باستطاعتنا أن نرى. ثم قال صوت «مرحباً يا فتى، » وظهر رجل أسود ضخم، أكبر سناً من سني ومني، من كل تلك الإضاءة ووضع ذراعه حول كتف سني. «كنت أجلس هنا تماماً، » قال «منتظراً إياك. »

كان له صوت ضخم أيضاً، فالتفتت الرؤوس نحونا في الظلام.

ابتسم سني وانسحب قليلاً وقال . «(كريول) ، هذا أخي ، لقد أخبرتك عنه. »

صافحني كريول . «سعيد بمقابلتك يا بني، » قال، وكان واضحاً أنه كان سعيداً بمقابلتي هناك، من أجل سني. وابتسم. «إن عندكم موسيقياً حقيقياً في العائلة، » وسحب يده عن كتف سني وضربه بخفة ،محبة، بقفا يده.

«حسن. لقد سمعت كل شيء، » قال صوت خلفنا. كان هذا موسيقياً آخر وصديقاً لسني، رجل مرح المظهر فحميّ السواد، قصير القامة. بدأ فوراً يسّرلي، من أعلى رئتيه، بأشياء مريعة عن سني ، وأسنانه تلمع مثل منارة وضحكته تخرج منه مثل بداية لهزة أرضية. واتضح أن جميع من في البار كانوا يعرفون سني، أو تقريباً الجميع؛ كان بعضهم موسيقيين، يعملون هناك أو قريباً من هناك، أو لا يعملون، بعضهم كانوا مجرد رواد، وبعضهم كان هناك ليسمع سني وهو يعزف. قُدِّمت إليهم جميعاً وكانوا جميعاً مهذبين معي. مع ذلك، فقد كان من الواضح أنني بالنسبة لهم كنت أخاً لسني وحسب . هنا كنت في عالم سني . أو ، بالأحرى :

مملكته. هنا لم تكن المسألة ما إذا كانت عروقه تحمل دماً ملكياً.

كانوا سيبدأون بالعزف فوراً ، وأجلسني كريول وحيداً إلى طاولة في زاوية مظلمة. ثم راقبتهم. كريول والرجل الأسود القصير، وسني والآخرين بينما كانوا يلعبون بخشونة تحت خشبة المسرح. انسكبت إضاءة المسرح دونهم قليلاً، وتملكني شعور وأنا أراقبهم وهم يضحكون ويومئون ويتحركون بأنهم، رغم هذا، كانوا حريصين جداً على عدم التقدم ضمن دائرة الضوء فجأة : كما لو أنهم إن فعلوا ذلك لالتهمهم اللهب . ثم بينما أنا أراقب ، تحرك واحد منهم، الرجل الأسود القصير، إلى الضوء وعبر خشبة المسرح وبدأ يعبث بطبوله. ثم ـ وكونه مضحكاً واحتفالياً للغاية أيضاً ـ أخذ كريول بذراع سني وقاده إلى البيانو. صوت امرأة نادى باسم سني فصفقت بضع أيادٍ. وسني، كونه أيضاً مضحكاً واحتفالياً، ومتأثراً جداً، كما أظن، بحيث أنه كان من الممكن أن يبدأ بالبكاء . ولكنه لم يخفِ ذلك ولم يظهره بل تجاوزه كرجل، ابتسم ووضع كلتا يديه عند قلبه وانحنى من الخصر.

عندها ذهب كريول إلى كمانه ، وقفز رجل نحيل بني لامع البشرة إلى خشبة المسرح والتقط بوقه . إذن فقد أصبحوا هناك والجو على الخشبة وفي الغرفة بدأ يتغير ويتكاثف . أحدهم خطا نحو المذياع وقدمهم . ثم كانت هناك كل أنواع التمتمات . بعض الناس على المشرب طلبوا الهدوء من البعض الآخر . النادلة كانت تركض بارتباك بعد أن تجلب الطلبات الأخيرة، الفتيان والفتيات اقتربوا من بعضهم البعض، والأضواء على الخشبة، على الرباعي، تحولت إلى نوع من الأزرق الداكن. بدوا جميعاً مختلفين هناك. نظر كريول حوله للمرة الأخيرة، كأنما ليتأكد من أن جميع دجاجاته في القن، ثم قفز وضرب الكمان. وهناك ابتدأوا.

كل ما أعرفه عن الموسيقى هو أنه لا يوجد الكثير من الناس الذين يستمعون إليها فعلاً. وحتى عندئذ، في المناسبات النادرة عندما يتفتح شيء ما في داخلهم، وتدخل الموسيقى فإن ما نسمعه بشكل رئيسي ، أو بشكل معزّز ، هي إثارات شخصية خاصة سريعة التلاشي. لكن الرجل الذي يخلق الموسيقى يسمع شيئاً آخر. إنه يتعامل مع الزئير الخارج من العدم ويفرض عليه النظام بمجرد أن يلامس الهواء. ما يثار إذن في داخله هو من نظام آخر أشد رعباً لأنه بلا كلمات، وانتصاريّ

أيضاً لنفس السبب. ونصره هذا، عندما ينتصر، هو نصرنا. راقبت وجه سني، كان وجهه مهموماً، كان يعمل بجد، لكنه لم يكن مع الجو . وشعرت بطريقة ما، أن الجميع على الخشبة كانوا بانتظاره ، كانوا ينتظرونه ويدفعونه إلى الأمام في آن معاً . ولكن عندما بدأت أراقب كريول ، أدركت أنه هو الذي يلجمهم. كان يربطهم بلجام قصير. هناك على الخشبة، كان كريول يستمع إلى كل شيء لكنه كان يستمع إلى سني . محتفظاً بالإيقاع بكامل جسمه ، وهو يعول على الكمان وعيناه نصف مغلقتين . كان يُجري حواراً موسيقياً مع سني . كان يريد من سني أن يترك الشاطىء وأن يضرب في المياه العميقة. كان شاهداً أمام سني على أن المياه العميقة والغرق ليسا نفس الشيء ـ لقد وصل كريول هناك وعلم ذلك. وأراد لسني أن يعلم. كان ينتظر أن يفعل سني أشياء على مفاتيح البيانو تجعل كريول يعلم أن سني قد أصبح في الماء.

وبينما كان كريول يستمع ، كان سني يتحرك ، في عمق داخله تماماً مثل شخص يتعذب. لم أكن قد فكرت قط برهبة العلاقة التي يجب أن تتكون بين الموسيقي وآلته. يجب أن يملأها، هذه الآلة، بنفس الحياة، بنَفَسه نفسه. يجب أن يجعلها تفعل ما يريدها أن تفعل. والبيانو ليس سوى بيانو. إنه مصنوع من الكثير من الخشب والأسلاك والمطارق الصغيرة والكبيرة، والعاج. وفي حين أنك تستطيع أن تفعل بها الكثير، فإن الطريقة الوحيدة لاكتشاف ذلك هي المحاولة، تحاول وتجعلها تقوم بكل شيء.

وسني لم يكن قد اقترب من بيانو من أكثر من عام . كما لم يكن أفضل حالاً في حياته، الحياة التي امتدت أمامه الآن. تلعثم هو والبيانو، بدأ بطريقة، خاف، توقف؛ بدأ بطريقة أخرى، فزع، قاس الزمن، بدأ ثانية، ثم بدا أنه وجد اتجاهاً، فزع مرة أخرى ، عَلِقَ . وجه سني الذي رأيته لم أكن قد رأيته من قبل قط. كل شيء قد احترق خارجاً منه، وفي نفس الوقت، أشياء خبيئة عادة كانت تحترق في الداخل، بنار وغضب المعركة التي كانت تجري داخله على المسرح .

مع ذلك، وبمراقبة وجه كريول عند اقترابهم من إنهاء الوصلة الأولى، تملكني شعور أن شيئاً ما قد حدث ، شيئاً لم أسمعه. ثم انتهوا . كان هناك تصفيق

متـقطع، ثم، ودون لحظة تمهيـد، بدأ كـريول شيئاً آخر، كان شيئاً تهكمياً تقريباً. كـان مقطوعـة «كم أنا حـزين.» وكأنما قـد أمـر سني بذلك، بدأ العزف. بدأ شيء يحدث، وأطلق كـريول اللجـام. الرجل الأسـود القـصير الجاف قال شيئاً فظيعاً على الطبـول، وأجـاب كـريول، وردت الطبـول . ثم دخل البوق، لذيذاً ومرتفعاً، ونائياً قليـلاً ربما ، واسـتـمع كـريول مـعلقـاً بين الفنيـة والفنية جافاً ودافعاً ، جميلاً وهادئاً ومسناً. ثم اتحدوا معاً ثانية وعاد سني جزءاً من العائلة مرة أخرى. كان باستطاعتي أن أرى ذلك من خـلال وجـهـه. بدا أنه قـد وجـد هناك تحت أصـابعـه تمامـاً بيانو جـديداً جـداً. بدا أنه لم يستطع التغلب على ذلك. ثم ولبرهة، ولفرحهم بسني، بدا أنهم كـانوا يوافقونه على أن آلات البيانو الجديدة شيء عظيم بالفعل.

ثم خطا كـريول إلى الأمـام ليـذكـرهم أن مـا يعـزفـونه كـان أغنيـات حزينة، فضرب عـلى شيء في داخـلـهـم جميـعـاً، ضرب عـلى شيء في داخـلي أنا، وتكـشـفت الموسـيـقى وتعـمـقت وبدأ الترقب ينقـر الهواء. بدأ كـريول يعلمنا ما تعني الأغنيات الحـزينة. لم تكن تعني شـيئاً جديداً جداً. كان هو وفتيانه يجعلونها جديدة، مخاطرين بـالـكارثة ، والدمـار والجنون والموت من أجل أن يجدوا طرقـاً جـديدة لاجـبـارنا على الاسـتـمـاع . ذلك لأنه رغـم أن قصـة معاناتنـا وفرحنـا وانتصارنـا ليسـت بالقصـة الجـديدة ، إلا إنها يجب أن تُسـمع دائماً . ما من حكاية أخرى لتُحكى ، إنها النور الوحيد الذي نملكه في هذا الظلام.

وهذه الحكاية بمـوجب ذلك الوجـه، وذلك الجسم، وتلك الأيدي القوية على الأوتار، لها جـانب آخـر في كل بلد وعـمقٌ جديد في كل جيل . استمعوا ، بدا كأن كـريول يقـول، اسمعوا. الآن تأتي موسيقى سني الحزينة. أخبر بذلك الرجل الأسود القـصير على الطبول، والرجل البني اللامع على البوق. لم يعد كريول يحاول أن يدفع سني إلى الميـاه . كـان يدعو له بالسلامة . ثم تراجع إلى الخلف ببطء شديد ، مالئاً الجو بذلك الايحاء القوي بأن سني يتحدث عن نفسه.

ثم تجـمـعـوا جميـعاً حول سني، وعزف سني. بين الحين والحين كان يبدو كأن أحـدهم يقول آمين . ملأت أصابع سني الهواء بالحياة، حياته هو. ولكن تلك الحياة احـتـوت آخـرين كـثيرين. عـاد سني إلى الوراء، بدأ فـعلاً بالجملة الممتدة الرتيبة في

الجملة الافتتاحية للأغنية. ثم بدأ يجعلها ملكه الخاص. كانت جميلة لأنها لم تكن سريعة ولم تعد نادبة. كدت أسمع بأي احتراق مرّ من أجل أن يجعلها معزوفته الخاصة، وبأي احتراق يجب أن نمر من أجل أن نجعلها معزوفتنا، وكيف نتوقف عن الندب. كانت الحرية لائبة حولنا وفهمت أخيراً أنه كان يستطيع مساعدتنا على أن نتحرر إذا استمعنا، وأنه لن يتحرر إلا إذا تحررنا . مع ذلك لم تكن هناك معركة في وجهه الآن . سمعت ما مر به ، وما سيمر به إلى أن يرتاح تحت التراب. لقد جعله ملكه الخاص ، ذلك الامتداد الطويل الذي عرفنا منه أبي وأمي فقط. وكان يعيده كما يجب أن يعاد كل شيء من أجل أن يعيش إلى الأبد في طريقه عبر الموت. رأيت وجه أمي ثانية وشعرت للمرة الأولى كيف أنه لا بد أن حجارة الطريق التي مشت عليها قد جرحت قدميها. رأيت الطريق المنارة بضوء القمر حيث مات شقيق أبي. كما أعادت إلى شيئاً آخر، وحملتني عبره، رأيت ابنتي الصغيرة ثانية وشعرت بدموع ايزابيل مرة أخرى وأحسست دموعي ترتفع. لكنني كنت واعياً أن تلك كانت مجرد لحظة، أن العالم كان ينتظر في الخارج، جائعاً مثل نمر، وأن المتاعب امتدت فوقنا أكثر من السماء.

ثم انتهى الأمر. أطلق سني وكريول أنفاسهما وكانا مبتلين جداً، ومبتسمين. كان هناك الكثير من التصفيق وبعضه كان حقيقياً. جاءت الفتاة تحت الظلمة وطلبت منها أن تأخذ مشروباً إلى خشبة المسرح. كانت هناك وقفة طويلة، بينما كانوا يتحدثون في الضوء الأزرق الداكن، وبعد لحظة رأيت الفتاة تضع كأس ويسكي وحليب على البيانو من أجل سني. لم يبد أنه لاحظها، ولكن قبل أن يبدأ العزف مرة ثانية رشف منها ونظر نحوي وأومأ. ثم وضعه ثانية على البيانو. بالنسبة لي عندئذ، وبينما كانوا يبدؤون العزف مرة ثانية، كانت الكاس تلمع فوق رأس أخي تماماً مثل كأس الارتعاش.

لانجستون هيوز
(١٩٠٢ ـ ١٩٦٧)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

هو أعظم الكتّاب الزنوج أثراً في تاريخ الأدب الأمريكي، وأول كاتب زنجي يبني سمعة عالمية . شاعر ، وكاتب مسرحيات ، وروائي ، وكاتب أغاني وسير ، ومحرر للصحف وللمجموعات الأدبية ، ومترجم ومحاضر . عمل في بداية حياته مساعد نادل في فندق، ومساعد طاه، ورئيس طهاة، وتاجراً بحرياً.

حياته :

ولد في بلدة جوبلن في ولاية ميسوري (Joplin, Missouri) ، وانفصل والداه وهو صغير . قضى معظم صباه مع والدته وجدته . كانت والدته تكتب الشعر أحياناً وتصحبه لمشاهدة المسرحيات . وقد أصرت على أن يتلقى ابنها تعليمه في مدارس ليس فيها تفرقة عرقية . أما علاقته مع والده فكانت مشحونة بالتوتر . التحق بجامعة كولمبيا ولكن الدراسة لم ترق له . عاد للدراسة الجامعية فيما بعد وتخرج من جامعة لنكولن في ولاية بنسلفانيا عام ١٩٢٩ . تنقل في كثير من بلدان العالم في أوربا وأسيا وافريقيا وذلك لأغراض مختلفة وفي فترات مختلفة من حياته . وقد اتخذ من حياته وأسفاره مادة لبعض مؤلفاته : **البحر الكبير** (١٩٤٠) **(The Big Sea)** **وأتأمل وأنا أتجول** (١٩٥٦) **(I Wonder as I Wander)** . أول دواوينه الشعرية **أغان زنجية كئيبة مرهقة** (١٩٢٦) **(The Weary Blues)** وتبع ذلك **ملابس أنيقة لليهودي** (١٩٢٧) **(Fine Clothes to the Jew)** . ومما هو جدير بالذكر أن أولى قصائده التي

حققت شهرة واسعة «الزنجي يتحدث عن الأنهار» (The Negro Speaks of Rivers) قد نُشرت وهو في المدرسة الثانوية.

أعماله وأفكاره :

يتضح مما سبق أن هيوز كان كاتباً مكثراً في عدد كبير من الأنواع الأدبية . فبالإضافة للعديد من دواوينه الشعرية هناك رواية بعنوان **ليس بدون ضحك** (١٩٣٠) (Not Without Laughter) وهي عن الحياة اليومية العادية للزنوج ؛ ثم مسرحية **مُوَلَّد** (كُتبت عام ١٩٣٠ وانتجت في برودواي عام ١٩٣٥) (Mulatto) . وهناك سلسلة من القطع النثرية الفكاهية حول زنجي بسيط يتحدث إلى راوٍ أسود متعلم، ولكنه على بساطته يستطيع النفاذ إلى جوهر الأمور ، أولها **ابوالبساطة يعبر عن أفكاره** (١٩٥٠) (Simple Speaks His Mind).

عام ١٩٢٥ كوّن هيوز مع كتاب زنوج آخرين مجموعة في هارلم وكان هدفها تبادل الأفكار والتشجيع المتبادل وقد لاقت أعمالهم نجاحاً كبيراً. كان هيوز الناطق بلسان المجموعة . وفي مقالته المعنونة «الفنان الزنجي والجبل العرقي» (The Negro Artist and the Racial Mountain) بيّن أهداف المجموعة في بدء توجه جديد في الأدب الزنجي . وقد اعتبر هؤلاء الكتاب هارلم وسكانها مصدر وحي للكثير من أعمالهم الأدبية . ومن الطبيعي أن يهتموا في كتاباتهم ، كما هو الحال في أعمال هيوز المذكورة أعلاه ، بحياة الزنوج وعرضها عرضاً واقعياً وكذلك بمشاكل التمييز العرقي وما يسببه من معاناة للزنوج . ومن ناحية أخرى فقد كان يؤمن بالجمال الأسود وبما في حياة الزنوج من ايجابية وأصالة.

مساهمته وموقعه في الأدب الامريكي

كان هيوز مركز الحركة الأدبية بنهضة هارلم ، حتى إنه كان يدعى في الثلاثينات بلقب شاعر هارلم. وقد أدخل في شعره إيقاع الجاز والأغنية الزنجية الكئيبة «Blues» ، واستخدم لغة الحديث الزنجية التي سمعها في مختلف مناطق الولايات المتحدة ، كما أنه استفاد من تقاليد الشعر الشفوي الزنجي، بالإضافة إلى أنه استمد مواضيعه من حياة الزنوج وآلامهم وآمالهم. ورغم أنه كان يعتبر طليعياً في العشرينات والثلاثينات، فقد انتقده الطليعيون في الستينات.

ولا شك أن مكانته الرفيعة في الأدب الزنجي والأمريكي وقد توطدت بالشهرة العالمية التي أحرزها وبترجمة أعماله إلى العديد من لغات العالم ـ أكثر من ٢٥ لغة.

وبالإضـافـة إلى مكانتـه التي بُنيـت على روعة أعماله فقد كانت له مسـاهمة كبيرة في تشجيع عـدد مـن الـكـتـاب الزنوج وكـذلك في جمع ونشر أعمال غيره من الكتـاب. ومن الأمـثلة على ذلك **شـعر الـزنـوج ١٧٤٦ ـ ١٩٤٩** (نشر عـام ١٩٤٩) **(The Poetry of the Negro : 1746 - 1949)** **ومجمـوعـة افـريـقـيـة** (١٩٦٠) **An African Treasury** وقـد ساعدت هاتان المجموعتان على توسيع دائرة قـارئـي ومحبـي الأدب الزنجـي . كما أن قـراءاته الشـعرية المختلفة (وأحياناً بمصاحبة الموسـيـقى) وفي العديد من مناطق الولايات المتحدة وخارجها أدت إلى نتائج مماثلة.

تحيا الأقدام حياتها الخاصة

ترجمة : د. عصام الصفدي

[بالاضافة إلى دواوين الشعر العديدة والروايات والمسرحيات وكتب الأطفال والتاريخ ، فقد كتب لانجستون هيوز عدداً من القصص القصيرة أو الحكايات. وأهم ما يميز هذه الحكايات شخصية بطلها أبو الطيب. وقد نمت هذه الشخصية وتطورت خلال الحكايات التي ظهرت فيها. فقد بدأت بداية متواضعة في عمود في صحيفة **المدافع عن شيكاغو (Chicago Defender)**، ثم تطورت في عدد من المجلات والكتب. وقد بلغ عدد الكتب التي ظهرت فيها هذه الشخصية ثلاثة : **ابو الطيب يعبر عن أفكاره (Simple Speaks His Mind) وابو الطيب يتزوج (Simple Takes a Wife) وابو الطيب يتقدم بطلب (Simple Stakes a Claim)** .

وأبو الطيب كما يبدو في الصفحات التالية وفي بقية كتبه زنجي بسيط ولكنه خبر الحياة حلوها ومرها وعرف حقائق الأمور . وهو يتحدث لمستمعه الذي يوجه له أسئلة محرجة أحياناً ولكن أبا الطيب مسلح بخبرة في الحياة لا يجدي معها الاحراج نفعاً .

وإن كان أبو الطيب زنجياً يتعاطف معه الملايين من الزنوج فهو أيضاً يمثل الانسان البسيط الذي ان قست عليه الحياة فهو يعرف كيف يكتسب منها خبرات تغنيه عن التعليم . وهو شخص مضحك ولكنه يعرف ذلك والجانب الهزلي فيه ثري بالحكمة] .

المحرر

«إذا شئت أن تعرف شيئاً عن حياتي» قال أبو الطيب وهو ينفخ على الرغوة على سطح كأس من البيرة مُلئت مرة أخرى ووضعها النادل أمامه ، «فلا تنظر في وجهي، ولا تنظر إلى يدي. أنظر إلى قدمي لترى ما إذا كنت تستطيع أن تعرف المدة التي قضيتها واقفاً عليهما . »

أجبت: «لا أستطيع أن أرى قدميك خلال حذائك. » «لا حاجة بك لأن ترى خلال حذائي . » قال أبو الطيب . «ألا تستطيع أن تعرف من الحذاء الذي

أرتديه ـ وهو غير دقيق الطرف، ولا كرسي هزاز، ولا فرنسي الاصبع، ولا شيء سوى حذاء كبير، طويل، عريض، ومنبسط ـ أنني وقفت على هذين القدمين مدة طويلة حاملاً أعباء ثقيلة ما؟ إنها ليست منبسطة بسبب وقوفي في الخمارة، لأنني دائماً أجلس في الخمارة. أليس في وسعك أن تدرك ذلك؟ إنك تعرف أنني لا أتسكع في الحانات إن لم يكن فيها كراسي عالية، أليس كذلك؟»

فقلت: «لقد لاحظت ذلك، ولكنني لم أفكر بصلة ذلك بحياتك في الماضي.»

أجاب أبو الطيب: «كل ما أفعله مرتبط بحياتي في الماضي. من فرجينيا إلى جويس، من زوجتي إلى زاريتا، من حليب أمي إلى كأس البيرة هذا، كل الأمور مترابطة.»

قلت: «آمل أن تربط [حياتك في الماضي] بذلك الدولار الذي أقرضتك إياه قبل قليل عندما تقبض. ومن هي فرجينيا؟ لم يسبق لك أن حدثتني عنها أبداً.»

«فرجينيا هي المكان الذي ولدت فيه. شئت أن أولد في ولاية تحمل اسم امرأة. ومنذ ذلك اليوم لم تمنحني النساء أية راحة.» قال أبو الطيب.

«أخشى أنك لو كانت النساء تطاردك بمقدار ما تطاردهن لما استطعت أن تجلس هنا على هذا الكرسي في حانة بسلام. لا أرى أية نساء آتيات لتناديك للذهاب إلى البيت، كما تفعل زوجات هؤلاء الأشخاص الجالسين هنا.»

«من الأفضل لجويس ألا تأتي إلى أي خمارة بحثاً عني» قال أبو الطيب. «ذلك السبب أنني وزوجتي تمشكلنا ـ أحد الأسباب. أنا لا أحب أن تستدعيني أنثى من أية حانة. إنه لمن امتيازات الرجل أن يجلس ويشرب أحياناً.»

سألته: «وكيف تربط ذلك الإمتياز بماضيك؟» قال أبو الطيب: «عندما كنت طفلاً صغيراً؛ لم يكن لي مكان أجلس وأفكر فيه، فقد ربيت مع ثلاث اخوان وأختين وسبع أبناء وبنات أعمام، وعمة متزوجة، وخال بالعرف، وحفيدين ـ وكانت الدار تتألف من غرفة واحدة. ما كان لي قط مكان أجلس فيه وأفكر. حتى ولا أجلس فيه وأشرب ـ حتى ولو حليب أمي إلا ويخطفه من يدي طفل جائع. لم أكن أصغر الأطفال، ولا طفلة، ولا الأكثر جاذبية. لا أظن أن أحداً كان يحبني

كثيراً ولا أعرف سبباً لذلك. وهذا هو السبب أنني كنت أخشى أن أحب أحداً لمدة طويلة. وعندما فعلاً أحببت شخصاً ما، كنت قد اكتمل نموي وعندئذ اخترت المرأة غير المناسبة لأنه لم أكن قد تدربت على حب أي كان قبل ذلك. لم نكن منسجمين.»

«وهل كان ذلك حين بدأت تدمن على الشراب؟» قال أبو الطيب: «لقد أدمن الشراب عليّ. إن الويسكي بطبيعته يحبني ولكن البيرة تحبني أكثر. وعندما حان وقت زواجي كنت قد وصلت الحد الذي أصبحت فيه الزجاجة الباردة تكاد تكون كالفراش الدافيء، خاصة إذا كانت الزجاجة لا تستطيع الكلام بينما تستطيع ذلك مدفئة الفراش. أنا لا أحب أن تحدثني المرأة كثيراً (أكثر من اللازم) - أعني أن تحدثني عن نفسي. ولهذا السبب أحب جويس. أكثر ما تتحدث جويس بشكل عام عن نفسها.»

قلت: «أنا ما أزال أنظر إلى قدميك. أقسم أنها لا تكشف لي عن حياتك. قدماك ليستا كتاباً مفتوحاً.»

قال أبو الطيب: «لك عينان ولكنك لا ترى. لقد وقفت هاتان القدمان على صخرة العمر حتى تقاطع شارعي المائة والخامسة والثلاثين ولينوكس. لقد دعمت هاتان القدمان كل شيء من بالة قطن إلى إمرأة جائعة. لقد مشت هاتان القدمان عشرة آلاف ميل في العمل مع البيض وعشرة آلاف ميل أخرى تحاول اللحاق بالسود. لقد وقفت هاتان القدمان أمام المذابح، وطاولات القمار، وشبابيك الرهان، وعيادات المستشفيات، وفي مقاعد إدارة مشاريع الأعمال، وأمام حواجز الضمان الإجتماعي، وفي جميع أنواع الطوابير من طوابير الشوربة حتى طوابير قرعة الخدمة العسكرية الإلزامية. فقط لو كانت لي أربع أقدام، لوقفت مدة أطول في أماكن أكثر. أما والحال على ما هو عليه، فقد هريت سبعمائة زوج من الأحذية، وتسع وثمانون حذاء رياضة، اثني عشر صندل، وكذلك ست أحذية خفيفة. أما الجوارب التي إشترتها هذه الأقدام فيمكن أن تبني مصنع غزل وتكفي المسامير التي قطعتها أن تفسد موسى ألمانية. وتؤلمك الآن حتى يوم القيامة الأورام التي نسيتها. لو كان لأحد أن يكتب سيرتي فسيبدأ بقدمي.»

قلت: «ليست قدماك على تلك الدرجة من التميز . أضف إلى ذلك ، كل ما قلته عام. أخبرني بالتحديد شيئاً ما واحداً فعلته قدماك ويميزهما عن أية أقدام أخرى في العالم. شيئاً واحداً.»

سألني أبو الطيب: «هل ترى تلك النافذة في دكان ذلك الرجل الأبيض على الجانب الآخر من الشارع؟ إن قدمي اليمنى هذه قد حطمت تلك النافذة في منتصفها أثناء اضطرابات هارلم. لم تكسر تلك النافذة أي قدم في العالم سوى قدمي. وقدم حملتني هذه القدم اليسرى ركضاً فور نزول قدمي اليمنى. لم تنقذني قدم أي شخص آخر من الشرطة في تلك الليلة سوى هاتين القدمين هنا. لا تقل لي إنه لم تكن لهاتين القدمين حياتهما الخاصة.»

قلت: «يا عيبك. داير تحطم الشبابيك بقدميك . لماذا ؟ » قال أبو الطيب: «لماذا؟ عليك أن تسأل جد جدي الأعظم. لا بد أنه كان ساذجاً - وإلا لماذا سمح لهم أن يأسروه في أفريقيا ويبيعوه عبداً لينجب جدي الأعظم في العبودية لينجب جدي في العبودية ولينجب والدي ولينجبني لكي أنظر لتلك النافذة وأقول «إنها ليست لي! بم! ثم أحطمها؟ »

قلت: «كأس الخمارة هذه أيضاً ليست لك ، فلم لا تحطمها ؟ » قال أبو الطيب: «لأن بيرتي فيها. »

وفي تلك اللحظة دخلت زاريتا مرتدية معطف سهرة الخميس المصنوع من جلد الأرنب. لم تتوقف عند الكاونتر، حيث أنها كانت مرتدية ملابس رسمية، بل اتجهت نحو إحدى الحجيرات. ارتفعت يد أبو الطيب، وأفرغت كأس البيرة، وعادت الكأس إلى مكانها المبتل على الكاونتر.

قال ، نازلاً عن كرسيه : «عن إذنك دقيقة .» ومن أجل أن أوقفه قليلاً خطرت ببالي لعبة الدزينات اللفظية التي تصيب قريبات الصديق (الذي تداعبه). فقلت: «انتظر لقد حدثتني عما أسأل جد جدك الأعظم . ولكني أريد ما الذي أسأله لجدة جدتك العظمي.»

«إنني لا ألعب لعبة الدزينات إلى ذلك المدى البعيد» . قال أبو الطيب ذلك وهو يتبع زاريتا داخل زرقة غرفة الموسيقى الخلفية التي ينبعث منها الدخان.

الزنجي يتحدث عن أنهار

ترجمة : د. عصام الصفدي

[هذه القصيدة من أول ما كتب هيوز من شعر وقد لفتت الأنظار بروعتها . والمتكلم فيها ليس مجرد فرد أو حتى الشاعر، بل هو شخص يجسد تاريخ الزنوج في العالم كله ودورهم في بناء الحضارة الانسانية . وهو بهذا يوسع دائرة المعنى . فهو غير معنيٌ بوضع الزنوج في الولايات المتحدة ـ رغم أنه مدرك لذلك ـ بل بوضعهم في العالم كله وبوعيهم بزنجيتهم وإنسانيتهم في آن واحد. وصوت المتكلم ونبرته يعبران عن جدية في فهم دور الزنوج في تاريخ الحضارة وعن ثقة مبنية على ذلك الفهم] .

المحرر

لقد عرفت أنهارا :
لقد عرفت أنهاراً قديمة قدم الكون وأقدم من سريان الدم في عروق البشر.

لقد أصبحت روحي عميقة كالأنهار.

لقد اغتسلت في الفرات عندما كان الفجر فتيّاً.
وبنيت كوخي قرب الكونغو فهدهدني لأنام.
وأطللت على النيل ثم شيدت الأهرام فوقه.
وسمعت غناء المسيسبي عندما ذهب ابراهام لنكولن جنوباً إلى نيو اورليانز،
ورايت صدره الموحل يصبح ذهبياً عند الغروب.

لقد عرفت أنهارا :
أنهار قديمة داكنة.

لقد أصبحت روحي عميقة كالأنهار.

كاونتي كالن
(١٩٠٣ ـ ١٩٤٦)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

وُلد في نيويورك وكانت حياته سعيدة وتلقى تعليمه في مدارس نيويورك ثم في جامعة نيويورك وحصل على شهادة الماجستير من هارفارد . (تبناه وهو في الخامسة عشرة من عمره أحد القساوسة) . وقد عرف بموهبته الشعرية وبتفوقه في الدراسة منذ صغره. وكان يسمى «كيتس الزنجي» لاعجابه بالشاعر الانجليزي كيتس.

يختلف كالن عن لانجستون هيوز في أنه كان يحاول الكتابة ضمن التراث الأدبي الانجليزي والأمريكي والأشكال الأدبية التقليدية وكذلك اللغة الرسمية. ولكن هذا لم يمنعه من اتخاذ حياة الزنوج موضوعاً لشعره ويظهر هذا في عناوين مؤلفاته : **لون** (١٩٢٥) **(Color)** ، **الشمس النحاسية** (١٩٢٧) **(Copper Sun)** ، **أقصوصة شعرية للبنت البنية** (١٩٢٨) **(The Ballad of the Brown Girl)**، **والمسيح الأسود** (١٩٢٩) **(The Black Christ)** . ومع أنه استعمل اللغة الانجليزية والأمريكية فإن انتشار شعره لدى القراء البيض قد ساهم في تعريف البيض بالوضع العرقي في بلادهم.

مات في سن مبكرة كما أن انتاجه الشعري قل في سنواته الأخيرة . ولذلك فهو يعتبر من الشعراء الذين لم يعيشوا مدة تكفي لتحقيق ما كانت مواهبهم تعد به في شبابهم.

ومع ذلك فإني أعجَب حقاً

ترجمة : د. عصام الصفدي

[موضوع هذه القصيدة يتعلق بواقع حياة الزنوج وهويتهم. يبدأ الشاعر قصيدته بإعلان إيمانه بالله وطيب نواياه رغم ما يراه شاعرنا من مفارقات لا يكاد المنطق السليم يقبلها . ومن هذه المفارقات الجوهرية بالنسبة للانسان : كيف يمكن أن يموت الانسان وهو الذي خُلق في صورة الرب ـ حسب العقيدة المسيحية ؟ ورغم هذه المفارقة وغيرها ، ويرتبها الشاعر ببراعة، فإن هناك أمر يجعله يعجب وهو أمر يتعلق بالفنان ، وخاصة الشاعر ، الزنجي: إذ كيف يخلقه الله زنجياً ومع ذلك يطلب منه أن يغني. ويبدو أن الشاعر يعتقد أن الفنان الزنجي في أمريكا لن تمكنه ظروفه ومعاملة البيض له من أن يجد ما يغنيّه. ولكن لا يخفى على القارىء أن المتكلم في هذه القصيدة استطاع، رغم كل شيء، أن يكتب أغنية، أي أن يغني !

يتضح في هذه القصيدة ميل كاونتي كالن لاستعمال القوالب الشعرية الموروثة والمتداولة في الشعر الانجليزي والأمريكي إذ يستعمل هنا السوناتا (Sonnet) لمعالجة موضوع عرقي . وهذا يختلف عن هيوز] .

المحرر

لا شك أن الله طيب، وحسن النوايا ورحيم،
ولو أنه تنازل وراوغ لأخبرنا لماذا
يبقى الخلد الدفين أعمى،
ولماذا لا بد للحم الذي خلق على صورته أن يموت ذات يوم،
ولأوضح السبب الذي من أجله يتعذب تانتالوس (١)

---

(١) حُكم على تعذيب تانتالوس في مملكة الموت بالجوع والعطش. وكلما حاول الوصول إلى الفاكهة المتدلية فوقه ابتعدت عنه.

باغراء الفاكهة اللعوب المتقلبة، ولأعلن
ما إذا كانت مجرد نزوة وحشية قد قدّرت لسيزيف (٢)
أن يجاهد في صعود سلم ليست له نهاية.
مبهمة أساليبه، وممتنعة
على الايجاز المبسّط من قبل عقل شتّته
هموم صغيرة بحيث لا يكاد يدرك
أي دماغ رهيب يتحكم في تلك اليد الرهيبة.
ومع ذلك فلا بد من أن أعجب لهذا الأمر الغريب :
أن يخلق شاعراً أسود ويأمره أن يغني !

---

(٢) كُتب على سيـزيف، في مملكة الموت، أن يرفع صخرة ضخمة إلى قمة جبل لتسقط إلى أسفل الوادي ويعيـد رفعها وهكذا. وهاتان القصتان من الأساطير اليونانية.

حـدث طـفـيـف

ترجمة : د. عصام الصفدي

[تبين هذه القـصـيـدة السـهلة الواضـحـة مدى المعاناة التي يسببها التمييز العرقي ضد السود] .

المحرر

ذات مرة وأنا راكب (قطار) بلتيمور القديم،
وقلبي ورأسي مفعمان بالبهجة،
رأيت شخصاً من بلتيمور
يمعن النظر فـيَّ مباشرة.

وحيث أني كنت في الثامنة من عمري وصغيراً جداً
ولم يكن هو أضخم مني مثقال ذرة،
ابتسمت، ولكنه مد
لي لسانه وقال لي «يا عبد» .

رأيت بلتيمور كلها،
من أيار حتى كانون الأول؛
ومن كل ما حدث لي فيها
كان ذلك كل ما أتذكره.

رتشارد رايت
(١٩٠٨ ـ ١٩٦٠)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

هو أول كاتب زنجي يتمكن من الوصول إلى جمهور أبيض واسع. ومن ناحية أخرى فقد استطاع، كما قال الكاتب الزنجي المعروف رالف إليسون ، أن يحوِّل ما لدى الزنجي الأمريكي من دافع نحو إبادة الذات والاختفاء إلى «إرادة لمواجهة العالم . . . وقذف ما يجده دون استحياء في ضمير أمريكا المذنب» .

ولد قرب ناتشز Natchez في ولاية مسيسبي في أسرة فقيرة. كان أبوه مزارع محاصصة وقد هجر أسرته ورتشارد في سن الخامسة . عملت أمه كخادمة إلى أن فقدت المقدرة على العمل وعمر رتشارد ١٢ سنة . وتنقل بين أقاربه في ولايتي المسيسبي وتنسي وبذلك كان تعليمه الابتدائي غير منتظم ولم يتجاوز الصف التاسع. وقد عاش حياة صعبة عرف فيها قسوة الشوارع وحياتها وخاصة التمييز ضد الزنوج. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت جدته متدينة متطرفة ولم تسمح له بقراءة شيء لا يتناسب مع عقيدتها. أما أمه فكانت تصر على الانصياع لمقتضيات سيادة العرق الأبيض. وكانت القراءة هي متنفسه الوحيد. ونشر أول قصة له وعمره خمسة عشر عاماً في جريدة للزنوج في ممفيس.

غادر أهله إلى شيكاغو عام ١٩٢٧ حيث عمل في عدد من الأعمال المؤقتة لكسب عيشه . ثم ذهب إلى نيويورك عام ١٩٣٧ . انضم للحزب الشيوعي عام ١٩٣٢ وتركه عام ١٩٤٢ . وأثناء انتمائه له كتب العديد من المقالات وساهم في تحرير عدد من الصحف اليسارية . عام ١٩٤٧ غادر وعائلته إلى فرنسا ليقيم فيها بشكل دائم وليصبح ناقداً للشيوعية.

له عـدة كتب في الأسفـار والمقالات السياسيـة منها **الـقـوة الـسـوداء (١٩٥٤) Black Power** ، **ستـــار اللـون (١٩٥٦) The Color Curtain** ، **اصـغ أيـهـا الـرجـل الابـيـض (١٩٥٧) White Man, Listen** وقـد حـاول فـيهـا الـتـأثير في سيـاسـات الـدول الناميـة في آسيـا وافـريقيا . أما أروع كتبـه فهما **ابـن الوطـن (١٩٤٠) (Native Son)** و**غـــلام اســود (١٩٤٥) Black Boy** . تفـضـح الروايـة الأولـى الاسـتـغـلال الرأسمالي للزنوج وتحالفـه مع ما يدعـى بروح الإحـســان والشـفقة عليهم . أما الثانية فهي من طراز السيـرة الذاتية وتعكس حياته الصعبـة فـي صـباه. والواقع إن كتاباته فيما بعد لم تكن على مستوى هاتين الرائعتين.

مقتطفات من

صبي أسود

ترجمة : د. عصام الصفدي

[لم يكن الفقر الذي يعانيه الزنوج في جنوب الولايات المتحدة يؤثر في حياتهم جسدياً بل أيضاً نفسياً وعقلياً وروحياً. وفي قصة هذا الصبي الأسود، وهي تمثل حياة المؤلف، نرى عدداً من الأمور الشائعة في حياة الكثير من الزنوج الذين يعيشون في الجنوب. فهي جزء من موضوع عام وهو هجرة الزنوج من الجنوب إلى الشمال طلباً للعمل وللحياة الأفضل، من الجنوب الزراعي إلى الحياة الحضرية في الشمال. وفيها نرى أيضاً السيطرة النسائية في العائلة، وخاصة الجدة والأم اللتين غالباً ما تكونا ممثلتين لتطرف ديني وأخلاقي صارم يشعر معه الأبناء بالإضطهاد، إذ غالباً ما يكون الأب قد هجر عائلته. وإذا ما حاول هذا الصبي الأسود أو غيره الافلات من هذا الفخ (البيت) أو السجن الكبير (الجنوب) والتخلص من محاولات اخضاعه اخضاعاً تاماً للتسلط الأبيض فإنه يدخل في صراع مرير مع السلطة وهذا يقودهم إلى ثورة تعتبرها السلطة جريمة. ويقعون عندئذ تحت طائلة العقوبات اللاإنسانية الصارمة ويصبحون منبوذين.

ينجح الصبي الأسود في هذه القصة في كسر الطوق والارتحال إلى الشمال بعد أن اضطر لإرتكاب جرائم ما كان يفكر في ارتكابها لو كانت ظروفه مختلفة. والقصة تحليل دقيق ومتعمق للصبيان السود وهم مقبلون على طور الرجولة ونفسياتهم ومحاولاتهم اتخاذ مواقف من قضايا العرق والبيض والثورة] .

المحرر

أجَّرت جدتي غرفة في البيت لمعلمة زنجية اسمها إيلا حتى تساعدها الأجرة في الإنفاق على الأسرة ، كانت تلك إمرأة يافعة اتسمت شخصيتها بالعمق والهدوء والخيالية . وقد كنت أخشاها وأنجذب إليها على حدٍ سواء. منذ مدة طويلة أردتُ أن أسألها لتخبرني عن الكتب التي كانت تقرؤها دوماً، لكنني لم أستجمع الشجاعة الكافية للقيام بذلك. وفي أصيل أحد الأيام وجدتها تجلس وحيدة تقرأ في الشرفة الأمامية للبيت. توسلت إليها قائلاً: «أرجوك يا إيلا، قولي لي ماذا تقرئين. »

قالت وهي تتجنب النظر إليّ بل تلفتت حولها بخوف: «إنه مجرد كتاب. »

سألتها قائلاً: «ولكن ماذا يحكي الكتاب؟ »

أخبرتني قائلة: «لو قصصت عليك الروايات فلن تحب جدتك ذلك. »

لمست نغمة عطف في صوتها. قلت بصوتٍ مرتفع وشجاعة: «هذا لا يهمني. »

قالت: «إصمت ـ يجب ألا تقول شيئاً كهذا. »

«لكنني أريد أن أعرف. »

وضَّحت لي قائلة: «عندما تكبر، فلسوف تقرأ كتباً فتعرف ما يدور فيها. »

«ولكنني أريد أن أعرف ذلك الآن. »

فكرت برهة ثم أغلقت الكتاب. قالت: «تعال هنا. »

جلست عند قدميها ورفعت وجهي أرنو إليها.

بدأت تسرد قصة بصوت منخفض: «في يوم من الأيام كان هنالك رجل عجوز جداً إسمه بلوبيرد. »

همست لي بقصة بلوبيرد وزوجاته السبع. لم أعد أرى ساحة البيت الأمامية، أو ضوء الشمس أو وجهها أو أي شيء. فبينما كانت كلماتها تسقط على مسامعي، كنت أضفي عليها واقعيةً كانت تتفجر من مكانٍ ما في داخلي. أخبرتني كيف كان بلوبيرد قد خدع وتزوج زوجاته السبع، كيف كان قد أحبهن وذبحهن، كيف كان قد شنقهن من شعورهن في خزانةٍ مظلمة. كانت القصة قد جعلتني أحس بأن العالم من حولي ينبض بالحياة. فيما كانت تتكلم، كان الواقع يتغير، ويتبدل شكل الأشياء ويصبح العالم مأهولاً بأشياء سحرية. إزداد عمق إحساسي بالحياة وتغير إحساسي بالأشياء بطريقة ما. كنت مسحوراً ومفتوناً، لذا فقد أوقفتها باستمرار لأسأل عن بعض التفاصيل. لقد توهج خيالي فالأحاسيس التي أثارتها القصة فيَّ لم تكن لتفارقني أبداً. وعندما كانت على وشك أن تنهي القصة وعندما كان إهتمامي بذلك على أشده وعندما كنت قد غبت عن العالم من حولي، دخلت جدتي مندفعة إلى الشرفة.

صاحت قائلة: «توقفي عن ذلك أيتها الفتاة الشريرة فأنا لا أريد أيَّ شيء من تلك القصة الشيطانية في بيتي!»

لقد هزني صوتها فكتمت أنفاسي وللحظة لم أدرِ ماذا كان يجري. تلعثمت إيلا ونهضت قائلة: «إنني آسفة يا سيدة ويلسون. لكن هو الذي طلب مني ـ»

قالت جدتي مهتاجة: «إنه مجرد صبي أحمق وأنت تعرفين ذلك.»

طأطأت إيلا رأسها ثم دخلت للبيت.

إحتججتُ على ذلك، وأنا أعرف أنه كان عليّ أن أظل صامتاً، قائلاً: «ولكنها لم تكمل يا جدتي.»

كشرت عن أسنانها وصفعتني على فمي بظهر يدها. صاحت بي بصوت محشرج غاضب: «إخرس، إنك لا تعرف ما الذي تتحدث عنه.»

صحتُ باكياً ومتفادياً صفعة أخرى إعتقدت أنها كانت قادمة: «لكنني أريد أن أسمع ما حدث.»

صاحت قائلة: «ذلك من عمل الشيطان!»

كـان لون بشرة جـدتي يمـيل إلى البـيـاض إلى أقصى حدٍ يمكن أن يقترب فيه لون السـود من البيـاض. لذا كـان يمكن أن يُنظر إليـهـا على أنها بيـضـاء مـقـارنة بالزنوج. إرتعش وجـهـهـا المترهل ونظرت إليّ بعـينيـهـا الواسـعة السوداء الغائرة وقد أطبـقت شـفـتيها حتى أصبحتا خطاً واحداً. وكانت جبهتها البارزة متجعدة. وعندما كـانت تغـضب كـان حـاجـبـاها ينحـدران إلى بؤبؤي عـينيـها فيعطيها ذلك ملمحاً مشؤوماً.

قلت لها : «ولكنني أحببتُ القصة» .

قـالت بقناعـة مـتـقـدة لدرجـة أنني صـدقـتها للحظات : «إنك ستحترق في الجحيم.»

مـلأني عـدم إتمام القـصـة بإحـسـاس بالفـراغ والضياع. كنت متعطشاً للإثارة الشـديدة المخـيفة والمؤلمة التي تحبس أنفاسي من تلك القصة. وأقسمت على أنني فور أن أصـبح كـبيراً بما فـيه الكفاية فلسوف أشتري كل الروايات فأقرؤها لأغذي ما كان فيّ من عنف ومن رغـبـةٍ في التـآمـر وعـمل المكائد والغموض وجرائم القتل الدموية. كـانت القـصـة قـد مـست فـيَّ وتراً حـسـاسـاً فلم أعبأ أبداً بأيٍّ من تهديدات جدتي ووالدتي. فـهما كـانتـا قد فهمتا إصراري على أنه مجرد عناد وغباء وأنه شيء عابر، ولم تدركـا مـدى الجـدية البالغة التي أحسست بها بعد القصة. وما كان لهما أن تعرفا بأن قـصـة الخـداع وجرائم القتل التي همست لي بها إيلا قد كانت أول تجربة لي في الحياة تثير فـيَّ إسـتـجـابة عاطفية شاملة. فلم تكن هناك أية كلمات أو عقوبات يمكن أن تجـعلني أشك. فلقد تذوقتُ ما كان بالنسبة لي هو الحياة. ولا بد لي أن أحصل على المزيد من ذلك بطريقـةٍ مـا. أدركت أنهما لم تسـتطيـعا أن تفهما بماذا كنت أحس ولذا فـقـد التـزمت الصـمت. ولكن عندمـا لم يكن أحـدٌ يراني كنت أنسلُّ إلى غرفة إيلا وأسرق كـتـابـاً ثم آخـذه إلى خلف حظيرة الماشـيـة وأحاول قراءته. وفي العادة لم أكن أفـقـه كلمات كـافية لجعل القصة ذات معنى. كنت أتحرق لتعلم قراءة الروايات وقد عـذبت والدتي لتـقول لي معنى كل كلمة غريبة رأيتها ، ليس لأن الكلمة نفسها ذات قـيـمة ما ، بل لأن ذلك كان البوابة إلى الأرض المسحورة المحرمة.

* * *

شيء ما كان يدور في بيتنا في الخفاء. وكان قد وصل إلى مرحلة خطيرة قبل أن أعرف به . ففي كل ليلة وفيما أنا أتهيأ للنوم ، كنت أسمع دقاً خفيفاً على زجاج نافذة العمة ماجي ، ثم صرير بابٍ يُفتح ، ثم همسات ثم لحظات صمت طويلة . وفي إحدى المرات نهضت من الفراش وزحفت إلى باب الغرفة الأمامية واسترقت النظر. كان هناك رجل أسود مهندم يجلس على الأريكة ويتحدث بصوت ناعم إلى العمة ماجي. لماذا لم يكن بإمكاني لقاء ذلك الرجل؟ زحفت راجعاً إلى الفراش، ثم أيقظتني فيما بعد أصوات منخفضة تقول مع السلامة. وفي الصباح من اليوم التالي سألت والدتي عمّن كان في البيت، فأخبرتني بأن لا أحد كان في البيت.

قلت: «ولكنني سمعت رجلاً يتحدث. »

قالت: «كلا، إنك كنت نائماً. »

«لكنني رأيت رجلاً. كان في الغرفة الأمامية. »

قالت والدتي: «إنك كنت تحلم. »

عرفت جزءاً من سر الزيارات الليلية في صبيحة أحد أيام الأحد عندما نادتني العمة ماجي أنا وأخي إلى غرفتها وقدمتنا إلى الرجل الذي كان سيصبح «عَمَّنا» الجديد، إنه البروفيسور ماثيوس . كان يرتدي قميصاً ذا ياقة طويلة ناصعة البياض كالثلج ويضع نظارات ليس لها إطار. كانت شفتاه دقيقتان وقد بدا وكأن جفونه لا ترمش. أحسست بأن هناك شيئاً بارداً ودفيناً في داخله، وعندما نادى عليَّ لم أقبل أن أذهب إليه . أَحَسَّ بارتيابي فلاطفني بأن أهداني عشر قروش ، ثم جثى على ركبتيه وصلى من أجلنا ونعتنا «بالرجال الصغار المساكين الأيتام». وبعد الصلاة قالت لنا العمة ماجي أنها والبروفيسور ماثيوس سيغادران في القريب العاجل إلى الشمال. حزنت لذلك، فقد تعودت أن أشعر بأن العمة ماجي كانت لي أماً أخرى.

لم ألتق «العم» الجديد مرة أخرى. رغم الأدلة التي رأيتها كل صباح على أنه كان موجوداً في البيت. احترت أنا وأخي وتساءلنا عما يقوم به «العم» الجديد. لماذا يحضر دوماً في الليل ؟ لماذا يتكلم دائماً بصوت منخفض لا يكاد يكون أعلى من الهمس ؟ وكيف استطاع الحصول على المال ليشتري تلك الياقات البيضاء وتلك

البـذلات الـزرقـاء الجـمـيـلـة؟ ومما زاد مـن حـيرتـنا أن أمنا نادتنا في يوم من الأيام وحـذرتنا من أن نخبر أي أحـد بأن «العم» قـد زارنا أبداً، وبأن أناسـاً كـانوا يبحثون عن «العم» .

سألت قائلاً: «أي أناس؟ »

قالت أمي: «البيض. »

إعترى القلق جسدي. ففي مكان ما وفي عالم المجهول كان تهديد البيض يحوم حولنا من جديد.

سألت: «وماذا يريدون به؟ »

قالت أمي: «لا تأبه لذلك أبداً. »

«ماذا اقترف؟ »

حذرتني قائلة: «لا تنطق بأي شيء وإلا فسيطاردك البيض أيضاً. »

أمـا وقـد عـرفت أمي أننا كنا خـائفين ،محتـارين فـيما يتعلق «بالعم» الجديد، فإنني أعـتـقـد أنها حَثَّت العـمـة مـاجي على أن تقـول «للعم» أن يرشونا مقابل أن نصـمت وأن نثق به. صـار كل صـباح الآن يشبه عيد الميلاد؛ فكنا ننزل من السرير ونتـسـابق نحـو المطبخ وننظر إلى الطاولة لنرى ماذا ترك لنا «العم». في صبيحة أحد الأيام وجـدت أنه قـد جلب لي جـروة صغيرة أطلقت عليها اسم بتسي وقد أصبحت حـيواني الأليف ومرافقتي.

والغـريب أن «العم» قـد ابتـدأ يزورنا في النهـار الآن، ولكنه عندما كان يحضر كـانت كـافـة السـتـائر تُسدل وكنا نمنع من الخروج إلى أن يذهب. همست إلى أمي بآلاف الأسئلة عن «العم» الأسـود الصـامت المتـعلم وقـد كـانت تجيبني دائماً : «إنه شيء لا تسـتطيع أن تعـرفه. والآن إلتزم الصمت وانصرف للعب. »

وفي إحـدى الليـالي أيقظني صـوت نشـيج. نهضت وتوجهت بخفة إلى الغرفة الأمـامـيـة واسترقت النظر من حـول اطار البـاب، كـان «العم» جـالسـاً على الأرض قـرب النافـذة ، ينظر إلى الظلام من تحت السـتـارة المرفوعة . كانت أمي قد انحنت

فـوق صندوق صـغير وهي ترتب ما فيه على عجل. تملكني الخوف. فهل كانت أمي ستغادر؟ ولماذا كانت العمة ماجي تبكي؟ هل كان البيض يلاحقوننا؟

قال «العم» : «أسرعـوا، يجب أن نخرج من هنا. »

قالت أمي: «لا أدري يا ماجي إذا كان ينبغي أن تذهبي. »

قال «العم» وهو لا يزال ينظر إلى الشارع المظلم: «لا تتدخلي في هذا. »

سألته العمة ماجي: «ولكن ماذا فَعَلْت؟ »

قـال «العم» : «سأحدثك فيما بعد. أما الآن فيجب أن نخرج من هنا قبل أن يأتوا! »

قـالـت الـعـمـة مـاجي: «ولكنك اقترفت أمـراً مـروعـاً. وإلا لما كنت تهرب هكذا. »

قـال «العم» : «إن البيت يحترق. وعندما يرونه فسيعرفون من فعل ذلك. »

سألتـه أمي قائلة: «هل أضرمت النيران في البيت؟ »

قال «العم» وقد نفذ صبره: «لم يكن هناك خـيار. أخذت النقود بعد أن كنت قـد ضربتـهـا . لقد كانت فاقدة الوعي . ولو عثروا عليها فستخبرهم وسأضيع أنا . لـذلك أضرمت النيران. »

قالت العمة ماجي وهي تبكي ووجهها بين كفيها: «ولكنها ستحترق. »

قال «العم» : «مـاذا كـان باسـتطاعتي أن أفعل . كنت مضطراً لذلك . فلم أسـتطع أن أتركـها هناك ليجدها شخص ما . إذ سيعرفون أن أحداً ما قد ضربها . ولكنهـا لو احترقت فلن يعرف ذلك أحد أبداً. »

إمـتـلأت نفسي خوفاً. فما الذي كان يجري؟ هل كان البيض يلاحقوننا جميعاً؟ هل كانت أمي ستتركني؟ بكيت وجريت عبر الغرفة صائحاً: «ماما! »

قـفـز «العم» واقـفـاً ، وكان في يده مسدس وقد صوبه نحوي . حَـمْـلَـقْـتُ بالمسدس، شعرت بأنني سأموت في أية لحظة.

همست أمي بوحشية: «ريتشارد! »

صرخت: «إنك ستتركينني! »

إندفعت أمي إلـيَّ ووضعت يدها على فمي.

سألتني وهي تهزني : «أتريدنا أن نقتل جميعاً؟ »

هدأني ذلك.

قـالت لي: «والآن إرجع إلى النوم. »

قلت: «إنك ستتركينني. »

«كلا» .

قلت منتحباً: «بلى، إنني أرى الصندوق! »

قـالت: «كُفَّ عن ذلك الصـوت. » ثم أمـسكتني من ذراعي بشـدة وغـضب فـتوقفت عن البكاء لشدة الألم. قالت : «والآن ارجع إلى فراشك. »

اقتادتني إلى الفراش حيث استلقيت مستيقظاً، مستمعاً إلى همسات وإلى وَقْـع خطوات، وإلى صرير أبوابٍ في الظلام وإلى نشيج العـمـة مـاجي. وأخيراً سـمـعت صـوت حـصـانٍ وعـربة يقترب من البيت ؛ سـمـعت صرير الصندوق عندمـا كان يسـحب عبر أرض الغـرفـة. دخلت العـمـة مـاجي إلى غـرفـتي وهي تبكي بهدوء، قـبلتني وهمست لي مودعة. قبلت أخي الذي لم يشعر بها أبداً. ثم انصرفت.

في صـبـيـحـة الـيـوم الـتـالي نـادت علـيَّ أمي من المطبخ وتحـدثت إلـيَّ لفترة طويلة. وحـذرتني ألا أذكـر مـا قد شاهدت أو سمعت، فالبيض سيقتلونني لو أنهم ظنوا مجرد ظن أنني أعرفه. لم أكن أستطيع مقاومة سؤالي : «أعرف ماذا؟ »

قالت : «لا تأبه بذلك الآن. إنس ما رأيت الليلة الماضية. »

«ولكن مـا الذي اقترفه «العم» ؟ »

«لا أستطيع إخبارك بذلك. »

قلت بوجل: «إنه قتل شخصاً ما. »

قـالت أمي: «لو سمعك أحد تقول ذلك فلسوف تموت. »

ذلك أنهى الأمـر بالنسبـة لي فلن أذكـره أبداً. بعد ذلك بأيام قليلة حضر إلى المنزل رجل أبيض طويل يضع نجـمـة لامعـة على صـدره ومـسـدسـاً على خاصرته. تحـدث إلى والدتي مـدة طويلة ،كل مـا استطعت سماعه كان صوت أمي: «لا أدري ما الذي تتحدث عنه ، فتش البيت إن شئـت . » نظر الرجـل الأبيض الطويل إلـيَّ وإلى أخي، ولكنه لم يقل لنا أي شيء. تسـاءلت لعـدة أسابيع عما فعله ذلك «العم» ولكن كـان مكتوباً علـيَّ ألا أعرف أبداً، حتى ولا في كل السنوات اللاحقة.

* * *

بعـد مـا كبرت وازددتْ طولاً، أصـبـحت أختلط بصبيان أكبر وكان علـيَّ أن أوافق على مـشـاعـر عرقية معينة لقاء قبولهم لي في صحبتهم. أما محك الأخـوة لديهم فـهـو شـعـوري تجاه البيض ومقـدار العداء الذي أحمله لهـم . ومـدى القيمـة والنبل اللذين أعـزوهما للعرق. لم يكن أي من ذلك متعمداً بل كان ينبع تلقائياً من حديث الصبيان السود الذين يلتقون عند تقاطع الطرقات.

كـان اللعب مع الفـتيات يحط من قدرنا وفي حديثنا كنَّا ننفيهن إلى جزيرة نائية من الحـيـاة. لقـد أدركنا بطريقـة مـا روح ودور الذكـر لذا فـقـد تجمّعنا من أجل أن نتلقى التعليم الخلقي العام . تحدثنا بتباه وبأصوات جهورية ، إستعملنا كلمة «عبد» (nigger) لنثبت مـتـانة شعـورنا ، وتشـدقنا بالتجـديف الشـديد كدليل على رجولتنا المقـبلة ، وتظاهرنا بالقـسـوة تجاه وصايا آبائنا وأمهاتنا ، وكُـنَّـا نجاهد أن يقنع أحدنا الآخـر بأن قـرارتنا كانت نابعة من أنفسنا ومن أنفسنا فقط. إلا أننا أخفينا بشدة عن أنفسنا كم كان الواحد منا يعتمد على الآخر.

وفي عـصـر أحـد الأيام عندمـا انتـهى دوام المدرسـة سرت في الشـارع ، أركل صـفـيحة فارغة، أو أضرب بعصاتي أوتاد سياج خشبي، أو أصفر إلى أن أعثر بواحد أو أكـثـر من العـصـابة يتسكع في إحدى الزوايا أو واقفاً في حقل أو جالساً على عتبة بيتٍ ما.

«مرحباً. » بصوت وجل.

صوت يحاول بصعوبة الدخول في حديث: «ألم تأكل بعد؟ »

«بلى يا رجل. لقد انتهيت من حشو فمي. » بطريقة عرضية .

«أكلت ملفوفاً وبطاطا. » بثقة.

«أنا تناولت المخيض واللوبيا المجففة. » بلهجة إخبارية ضعيفة.

«اللعنة، لن أقف بجانبك أيها العبد! » بيان رسمي.

«لماذا؟ » ببراءة مصطنعة.

«لأنك ستملأ المكان برائحة كريهة خلال دقيقة! » اتهام صارخ.

الجميع يضحكون.

«عقلك منحط أيها العبد. » وعظ ترفيهي.

قال أحدهم معلناً وقد خلق تشويقاً: «منحط، لا بأس! أيها العبد، سوف تخرج ريحاً في أية لحظة! » بيان رسمي ظافر يخلق ترقباً.

«أجل ، عندما تقول حبات اللوبيا الجافة للمخيض أن يتحرك ، فلن يقبل المخيض أن يتحرك فتنشب حرب في أمعائك وسوف تنتفخ معدتك ثم تنفجر ! » الذروة.

يضحك الجميع طويلاً وبصوت عال.

قال أحدهم مدخلاً الموضوع في ميدان أوسع :

«يا رجل ، ينبغي على البيض أن يقبضوا عليك ويرسلونك إلى حديقة الحيوانات محتفظين بك للحرب القادمة! »

تم تقبل الموضوع وازداد تطوراً . «ثم عندما يبدأ ذلك القتال ، فينبغي أن يطعموك مخيضاً ولوبيا مجففة ثم يدعونك تخرج ريحاً! »

«وستكسب الحرب بنوع جديد من الغاز السام! » ذروة صارخة.

ضحك عال يهدأ ببطء.

«ربما يكون من الخير إمتلاك الغاز السام.» يدخل موضوع البيض في مدار الحديث عن طريق الترابط.

«أجل، فلو حصلت اضطرابات عرقية هنا فسوف أقتل كافة البيض بسمي.» كبرياء ومرارة.

ضحك بهيج ثم صمت، وكل واحد ينتظر أن يقول شخص آخر شيئاً ما.

قال أحدهم عبارة متزنة تلخص مشكلة قديمة: «البيض يخافوننا بالتأكيد.»

«أولئك البيض يخافوننا بالتأكيد.» عبارة متزنة حول مشكلة قديمة.

قال أحدهم بتباه وتذمر على حد سواء: «أجل، فهم يرسلونك إلى المعركة ويجعلونك تقتل أولئك الألمان ويعلمونك كيف تقاتل وعندما ترجع يخافون منك، ويريدون قتلك.» شيء من التباهي وشيء من التذمر.

«تقول أمي إن تلك العجوز البيضاء التي تعمل عندها تحدثت عن صفعها فقالت أمي: «يا سيدة غرين إذا صفعتني فلسوف أقتلك ولأذهب إلى الجحيم وأدفع ثمن ذلك!» إضافة وتطوير وتباهي بالتضحية.

«يا للجحيم، لو قالت ذلك لي لقتلتها.» صرخة غاضبة فيها تأكيد عرقي شديد.

صمت.

«يا رجل، البيض حقاً دنيئون.» شكوى.

«ولذا غادر الكثير من السود الجنوب.» إخبار.

«يا رجل، هم بالتأكيد يكرهون أن تغادر.» كبرياء بقيمة الفرد والعرق.

«فعلاً. يريدون إبقاءك هنا وتشغيلك حتى الموت.»

«سأحفرُ ثقباً في رأس أول ابن قحبة يضايقني.» ثورة ساذجة.

«لن يكون في ذلك خير لك. يا للجحيم. سوف يقبضون عليك.» رفض

للثورة الساذجة.

«ها ـ ها ـ ها ـ . . . نعم، عليهم اللعنة سيقبضون عليك. » إعجاب بدقة روح البيض القتالية.

«يجلس البيض على مؤخرتهم البيضاء ليل نهار . ولكن إذا عمل عبد شيئاً فإنهم يحضرون كل كلب دام عاش على هذه الأرض ليقتفي أثره. » كبرياء مريرة لأنهم يدركون كم تكلف هزيمتهم.

«أتظن أن هؤلاء البيض سيتغيرون أبداً؟ » أمل وَجِل وتساؤل .

«لا والجحيم! إنهم مولودون على تلك الشاكلة. » رفض للأمل خوفاً من عدم تحقيقه .

«لا حول ولا ، يا رجل . سأذهب للشمال عندما أكبر . » ثورة ضد الأمل الذي لا جدوى منه وإعتناق لفكرة الهروب.

«لا بأس على الملونين في الشمال. » تبرير الهروب.

«يقولون إن رجلاً أبيضاً ضرب رجلاً ملوناً في الشمال. وإن ذلك الرجل الملون ضرب ذلك الرجل الأبيض حتى فقد وعيه ولم يفعل أحد شيئاً ضده! » رغبة ملحة للإيمان بالهروب.

«هناك رجل برجل» استجداء للإيمان بالعدالة.

صمت.

«اسمعوا، أتظنون تلك البنايات في الشمال عالية كما يقولون؟ » الإنتقال عن طريق الترابط إلى شيء ملموس ومحاولة جعل الإيمان حقيقي.

«يقال بأن لديهم بناية في نيويورك إرتفاعها أربعون طابقاً ! » شيء لا يمكن تصديقه.

«يا رجل ، سأخاف من تلك البنايات. » استعداد لنبذ فكرة الهروب التي أصبحت الآن مكتومة.

«أتدرون. يقال إن هذه البنايات تتأرجح وتهتز في الهواء. » إعلان معجزة.

«لا أيها العبد! » دهشة تامة ورفض.

«أجل يقـولون أن ذلك يحدث. » إصرار على المعجزة.

«أتظن ذلك ممكناً؟ » أمل وتساؤل.

«كـلا والجـحيم ! لو تأرجـحت بناية واهتزت في الهواء لانهارت ! » أي إنسان أبله يعـرف ذلك ! لا تسـمحوا لأحد أن يستسخفكم بإخباركم بهذه الأشياء ! » قال هذا وهو يحرك جسـمه بعصبية، ويدق قدميه على الأرض بنفاذ صبر، ويسرع عائداً إلى الواقع المأمون .

صمت. يتناول أحدهم حجراً ثم يلقي به بعيداً عبر الحقل.

«يـا رجـل، مـا الـذي يجـعـل البـيض بهذه الدناءة؟ » عـودة لمقـارعـة المشكلة القديمة.

«كلما رأيت واحـداً منهم فإنني أبصق. » رفض عاطفي للبيض.

«يا رجل، أليـسو قبيحين؟ » رفض عاطفي متزايد.

«يا رجل ، هل اقتربت من رجل أبيض كـثيراً بحـيث تسـتطيع شم رائحته ؟ » توقع تصريح.

«هـم يـقـولـون إن رائحـتـنـا نـتـنة ، ولكن أمي تقـول إن البـيض لهم رائحـة الأمـوات. » تمني موت العدو .

«تفـوح رائحـة العـبيد بسبب العرق ، بينما تفوح رائحة البيض دائماً . » العدو حيوان ينبغي قتله فور رؤيته.

كان الحديث يتموج ويتدحرج ويصخب ويتعاظم ويميل وينتفخ إذ لم يكن له هدف أو إتجاه محدد. كـان يتـعـرض لمجـالات واسـعـة من الحـيـاة معبراً عن دوافع الـطـفـولة المترددة . المال ، والله ، والعـرق ، والجنس ، واللون والحـرب والطائرات والآلات والقطارات والسبـاحـة والملاكـمـة وأي شيء . . . وهكذا فإن ثقـافة بيت ما من بيـوت السـود تنتـقل إلى بيت آخـر. وكذلك تنتقل التقاليد الشعبية من جماعة إلى أخـرى. كـانت مـواقـفنا تتـشكل وتتحدد وتترسى أو تصحح. كما كان يتم إكتشاف

أفكارنا وإهمالها وتوسيعها وتمزيقها وقبولها . كان الليل يحل وكانت الخفافيش تئز مندفعة عبر الهواء . كانت الصراصير الليلية تصدر أصواتها الحادة بين الأعشاب. وكان يُسمع نقيق الضفادع. كما كانت النجوم تظهر. وكان الندى يبلل الأرض. كانت مربعات الأضواء الصفراء تتلألأ من بعيد عندما تُضاء مصابيح الكاز في بيوتنا. وأخيراً ومن بين الحقول أو في أسفل الشارع كان يأتي نداء طويل بطيء:

«يـ يـ يـ يا د يـ يـ يـ يفـ ى ى ى ! »

ضحك بين الصبية ولكن لا جواب.

«نداء الخنازير. »

«اذهب إلى البيت أيها الخنزير. »

ثم ينطلق ضحك مرة أخرى. يسلخ أحد الأولاد نفسه ببطء عن الشلة.

«يـ يـ يـ يـ ا يـ يـ يـ يـ فـ ى ى ى ! »

إنه لا يجيب نداء والدته، إذ سيعتبر ذلك إشارة على اعتماده عليها.

ويقول الصبي: «سأفعل بكم جميعاً مثلما يفعل المزارع بالبطاطا. »

«كيف ذلك. »

«أزرعكم الآن وأقلعكم فيما بعد! »

ثم يغادر الصبي بخطى بطيئة إلى البيت ويكون خلال ذلك مزيد من الضحك العادي. ومزيد من الحديث. كان يتم النداء علينا الواحد تلو الآخر للذهاب إلى البيت حتى نجلب الماء من الصنبور في الساحة الخلفية، ولنذهب إلى المتجر لنشتري الخضار ووجبة اليوم التالي، ولنقطع الخشب لإشعاله.

وفي أيام الآحاد إذا كانت ملابسنا مقبولة كانت أمي تأخذني وأخي إلى مدرسة يوم الأحد. لم نكن نعترض على ذلك لأن الكنيسة لم تكن المكان الذي تعلمنا فيه عن الرب وأساليبه، بل المكان الذي التقينا فيه أصدقاء المدرسة. ثم كُنّا نتابع أحاديثنا الطويلة المتنوعة. كانت بعض قِصص الإنجيل ممتعة بحد ذاتها، لكننا

كنا نحـرفها دائماً لتصبح دنيوية ومتلائمة مع مستوى حياتنا في الشارع ، رافضين كل المعـاني التي لا تتـلاءم وبيئتنا. وفـعلنا ذلك الشيء نفـسه مع الترانيم الجميلة. عندما كان الواعظ يرنم قائلاً:

«أيها الرب البديع ، ما أجمل ذلك ؟ »

كـان الواحد منا يغمز بعينهِ للآخر ثم ندندن بصوت خافت:

كلبٌ ضخم دهس جدتي.

أصبـحنا الآن مجمـوعـة كبيرة لدرجة يخشانا معها الصبية البيض. وابتدأنا الآن صـبـيـة بيض وسـود نمـثل الدور العـرقي التـقليدي وكأننا ولدنا لهذه الأدوار، وكأنها تجري في دمنا. وكأن الفطرة هي التي كـانت توجـهنا. فكل الأوصـاف المخيفة التي سـمـعناها عن بعـضنا البعض، وكل تعبيرات الكره والعداء العنيفة التي تسربت إلينا مما حـولنا ـ هذه كلهـا طفت الآن على السطح لتـوجـه أفـعالنا . كان البيت الدائري يمـثل الحـد العـرقي بيننا وبين جيراننا. وقـد كـان هنالك إتفـاق ضـمـني بين الصبية البـيض والصـبـية السود بأن على البيض أن يلتزموا بالجانب البعيد من البيت الدائري وأننا نحن السـود نلتـزم بجـانبنا . وإذا حـدث أن شـاهدنا صبياً أبيض في جهتنا كُنَّا نرمـيـه بالحجارة، وإذا تعدينا حدودنا إلى حدودهم كانوا يرموننا بالحجارة.

***

من خـلال راتبي (كـعـامل نظافة في فندق رخيص) كنت قد بدأت أُوفِّر بضعة دولارات، لأن إصراري عـلى الـرحـيـل لم يـنقص. لكنني وجـدت أن التـوفير بطيء بـشـكـل يـثـير الحنق. فكرت باسـتـمـرار بطرق جمع المال، والطرق الوحـيـدة التي استـطعت التـفكير بها انطوت على خرقٍ للقانون . كلا يجب ألا أفعل ذلك، هذا ما قلتـه لنفسي. فالذهاب إلى السجن في الجنوب سيعني نهايتي. وكان هناك احتمال أنه لو ألقي علـيَّ القبض فإنني لن أصل السجن.

كـانت تلك أول مـرة في حـيـاتي فكرت فـيـها عن وعي بخرق قوانين البلاد. شـعـرت أن ذكائي واجتهادي يستطيعان التعامل مع كل الحالات، وحتى ذلك الحين

لم أكن قد سرقت فلساً واحداً من أي إنسان. وحتى الجوع لم يجبرني على امتلاك ما ليس لي. فمجرد فكرة السرقة كانت بغيضة. لم تكن أمانتي نتيجة دوافع متعمدة، ولكن لم يكن عدم الأمانة قد خطر لي على الإطلاق. ولكن كان الزنوج من حولي يسرقون. وقد حدث أكثر من مرة أن سماني الصبية السود «بالعبد الأبله» عندما اكتشفوا أنني لم أغتنم فرصة لأخذ شيء بسيط من ممتلكات البيض كانوا قد تركوه أمامي دون أن يأبهو له.

سئلت عندما قلت إن على المرء ألا يسرق : «كيف بحق السماء ستتقدم بحياتك؟ »

عرفت أن الصبية في الفندق يسرقون ما يستطيعون. وعرفت أن صديقي غريجز الذي عمل في متجر الجواهر في شارع الكابتول كان يسرق باستمرار وبنجاح. وعرفت أن جاراً أسود لنا كان يسرق أكياساً من الحبوب من مخزن للبيع بالجملة حيث كان يعمل، بالرغم من أنه كان شماسا مخلصاً في كنيسته. وكان يصلي ويقرأ الترانيم أيام الأحد. وعرفت أن الفتيات السوداوات اللاتي كن يعملن في بيوت البيض كن يسرقن الطعام يومياً لدعم أجورهن الضئيلة. وعرفت أن طبيعة علاقات السود والبيض نفسها قد غذت هذه اللصوصية الدائمة.

لم يفكر الزنوج في منطقتنا أبداً ، ولا بطريقة من الطرق المنظمة ، في الطلب من أصحاب العمل البيض أن يرفعوا أجورهم . مجرد الفكرة نفسها كانت مرعبة، وقد كانوا يعرفون أن البيض سينتقمون بوحشية فورية. وهكذا كان السود يتظاهرون بانصياعهم لقوانين البيض وكانوا يبتسمون ويحنون هاماتهم، وكانوا يتركون أصابعهم تأخذ ما تستطيع الوصول إليه. وقد بدا أن البيض أحبوا ذلك.

لكن أنا الذي لم يسرق شيئاً والذي أراد أن يضع عينه في عيونهم مباشرة ، والذي أراد أن يتحدث ويتصرف كرجل، فقد أثرت الخوف فيهم. فقد كان البيض الجنوبيون يفضلون أن يكون لديهم زنوج يسرقون ويعملون لديهم على أن يكون لديهم زنوج يعرفون ولو بشكل بسيط قيمة إنسانيتهم . وهكذا فقد وضع البيض مكافأة على الغش الذي يقوم به السود ، وشجعوا انعدام المسؤولية . وكانت مكافآتهم تمنح لنا نحن السود بمقدار ما كُنّا نجعلهم يشعرون بالأمان وبالتفوق.

لم يكـن اعـتراضي عـلى السرقـة ذا طابع أخـلاقي ؛ لم أكن أوافق عليـه لأنني عـرفت بأنه على المدى البـعيد أمر عديم الجدوى وأنه لم يكن طريقة فعَّالة ليبدل المرء عـلاقتـه بمـحيطه. إذن فكيف أسـتطيع تبديل علاقتي بمحيطي؟ كان كامل راتبي تقـريبـاً يُنفق على إطعـام الأمـعاء الجائعة دوماً في البيت. فلو أنني وَفَّـرتُ دولاراً كل أسـبوع لاحـتـجت إلى عامين لجمع مائة دولار. وهو المبلغ الذي قررت لسبب ما أنه كـان ضرورياً لدعـمي في مـدينة غريبة. ويعلم اللّه أن أي شيء يمكن أن يحدث لي خلال عامين.

لم أعـلم مـتى يمكن أن أوضع في مـوقف أقـول فـيـه الكلام الخطأ إلى الرجل الأبـيـض الخـطأ فأجـد نفسي في ورطة. وقـبل كل شيء، أردت أن أتجنب المشـاكل، لأنني خـشـيت أنه لو اصطدمت مع البـيض فـقد أفقد السيطرة على عواطفي فتنزلق مني كلمات تكون بمـثـابة الحكم علـيَّ بالإعـدام . لم يكن الوقت في صـالحـي وكان علـيَّ اتخاذ خطـوة مـا . وغـالبـاً ، عندمـا كنت أضطرب كنت أتمنى أن أكـون مثل الصـبـيـان السـود البـاسـمين والكسالى وغير المبالين الذين لا يقلقون لشيء ، والذين يعـملون في قـاعات الخزائن المغلقة المليئة بالضجيج في الفندق ، والذين ليست لديهم صراعـات جـارفـة تحـتـاج إلى حلول . وفي أحـيان كثيرة أُصبت بالإرهاق بسبب ثقل السر الذي أحمله وتمنيتُ أن أتخلص منه إمـا بالعـمل أو بالإسـتسلام . لكن ما كنت رجـلاً إسـتـسلامياً ولم يكن لدي سوى خيارات محدودة من الأفعال وقد كنت أخشاها جميعاً.

وَلَّـدَت لدي رغـبـتي في المغـامـرة السريعـة قلقـاً جديداً . لقد رأيت الآن عن قـرب الرجـال البـيـض المتعجـرفين الذين وضعوا القوانين ، رأيتُ كيـف يتصرفون ، وكيـف ينظـرون إلى السـود ، وكـيـف ينظرون إلـيَّ . وتوقـفـت عن الشعـور بأنني محكوم بالقـوانين التي كـان يُفترض في البـيض والسـود أن يطيعـوها على حدٍ سواء . كنت خـارج نطاق تلك القـوانين؛ وقد قال لي البيض ذلك. والآن عندما كنت أفكر بطرق الفـرار من بيئتي لم أجـد شعوراً بالضبط الداخلي الذي يجعل السرقة مستحيلة. وقـد جعلتني هذه الحرية الجديدة وحيداً وخائفاً.

لقـد تشـتت مـشـاعري. كنت أحلم دائماً رغماً عني بخزانةٍ مغلقة في بيت جار

قـريب كـان فيها مسدس مخبأ. فلو أنني سرقتهُ فبكم سأبيعه؟ عندما كان الشوق إلى المغـادرة يزداد قـوة بداخلي لم أسـتطع أن أبعد من ذهني صورة مخزن في إحدى كليات الزنوج المجـاورة توجـد فـيـهـا كـمـيات هائلة من علب الفواكه المحفوظة. رغم ذلك فـقـد منعني الخـوف من القيام بأي حركة؛ لقد طافت فكرة السرقة في مخيلتي بشكل متردد. إن عـدم مقدرتي على التكيف مع البيض قد حطمت جزء من كيان شخصيتي كما حطمت الحـواجـز الداخليـة بيني وبين الجريمة . الشيء الوحيد الذي كان حجر عـثـرة في الطريق هو عـدم وجـود الفـرصة السانحة ، دفعة نهائية من الظروف . ثم حصل هذا.

حـصلت على ترقـيـه فأصـبـحت خادم الفندق ، وهذا يعني زيادة في الدخل بسيطة . ولكن سرعـان مـا عـرفت أن مـصـدر المال الحقيقي هو تهريب المشروبات الروحيـة إلى العـاهرات البـيض في الفندق. وقـد كان الخدم الآخرون يقومون بتلك المخـاطرة، وفـعلت مـثلهم. تعلمت كـيف أمـر بشرطي أبيض والمهربات على وركي فأسير بتـؤده وأُصـفِّر مثلما ينبغي للعبد أن يصفر عندما يكون بريئاً. كانت الدولارات الإضـافـيـة تأتي ولكن ببطء. كيف، كيف، كيف أستطيع وضع يدي على المزيد من النقـود قـبل أن يلقى علـيَّ القـبض فأُبعث إلى السجن بسبب جنحة تافهة؟ إن كنت سـأخـرق الـقـانـون فـيـجـب أن أحـصـل على شيء مـا من وراء ذلك . إن أهدافي اللصـوصـيـة كـانت مـتواضعة. فمائة دولار ستمنحني مؤقتاً من حرية الحركة أكثر مما كنت قـد عرفت طوال حياتي. لقد ترقبت وانتظرت وعشت على الفكرة.

وبينما كنت أنتظر فـرصـتي فأغـتنمـهـا وأهرب ، إعتدت على رؤية العاهرات البـيض عرايا في فراشهن، أو يجلسن عرايا في حجراتهن ، وقد تعلمت طرقاً جديدة من السلوك، وقـواعد جديدة في كيفية التعايش مع التمييز ضد العبيد . كان يفترض أننا نحن الصبيان السود نأخذ عريهن على أنه شيء طبيعي، فلا يدهشنا ذلك أكثر مما تدهشنا مـزهرية زرقـاء أو سـجـادة حمراء . فـوجـودنا لا يوقظ فـيـهـن أي إحـسـاس بالخـجل أبداً، لأننا نحن السـود لم نعـتبر بشراً على أية حـال . وإذا ما كُنَّ لوحدهن كنت أسترق نظرات جـانبـية إليهن . ولكن إذا كان عندهن رجال ، فيجب ألا تبدو رفة جفن لي.

نزلت في غرفة في طابقي امرأة ضخمة بيضاء كالثلج. وفي إحدى الليالي قرعت الجرس تطلب خدمة فذهبت لأقوم بخدمتها. كانت في الفراش بصحبة رجلٍ غليظ البنية. كانا كلاهما عاريين وليس عليهما غطاء. قالت أنها تريد بعضاً من المشروب ، ونزلت من الفراش وسارت ببطء عبر الغرفة لتحضر النقود من درج الملابس . فراقبتها دون أن أدرك ذلك.

سألني الرجل الأبيض وقد رفع جسمه متكئاً على كوعيه:

«ما الذي تنظر إليه أيها العبد؟ »

أجبتهُ وقد نظرت فجأة نظرة عمقها أميال في جدار الغرفة العاري : «لا شيء يا سيدي. »

«لا تنظر إلى مالا يعنيك إذا أردت الحفاظ على نفسك سليماً! »

«أجل يا سيدي. »

كنت سأستمر في الفندق حتى مغادرتي لو لم تتح لي طريق مختصرة. ذات ليلة همس لي أحد الصبية في الفندق بأن دار السينما المحلية الوحيدة للزنوج بحاجة إلى صبي ليأخذ التذاكر عند الباب.

سألني قائلاً: «أنت لم تدخل السجن أبداً، أليس كذلك؟ »

أجبته قائلاً: «ليس بعد. »

قال: «إذاً يمكنك الحصول على العمل. كنت سآخذه لكنني أمضيت ستة أشهر في السجن وهم يعرفونني. »

«وما هي الخدعة؟ »

وضح لي قائلاً: «الفتاة التي تبيع التذاكر تستخدم نظاماً معيناً. إذا حصلت على العمل يمكنك الحصول على مالٍ جيد.»

لو أنني سرقت فستكون لدي الفرصة للذهاب إلى الشمال سريعاً ؛ ولو أنني بالكاد بقيت شريفاً مكتفياً بمال تافه يأتي من تهريب كميات صغيرة من المسكرات فذلك يعني إطالة فترة بقائي وزيادة فرص إلقاء القبض عليَّ ، وتعريض نفسي

لقول الكلمة الخطأ أو عمل الشيء الخطأ فأدفع عقوبة لم أجرؤ على التفكير بها. كانت الإغراءات بالمخاطرة في الجريمة قوية جداً، وقد قررت العمل سريعاً، فآخذ كل ما يلوح لي وأجمع مبلغاً من المال وأهرب. كنت أعرف أن آخرين حاولوا ذلك من قبلي وفشلوا، لكنني كنت آمل أن أكون محظوظاً.

كانت فرصتي في الحصول على العمل جيدة. لم يكن لديَّ سوابق في السرقة أو خرق القوانين. عندما قدمت نفسي لصاحب دار السينما اليهودي قبلني على الفور. وفي اليوم التالي ذهبت لإستلام عملّي وبدأت آخذ التذاكر. حذرني الرِيِّس قائلاً:

«والآن إسمعني جيداً. سوف أكون صادقاً معك إذا كنت صادقاً معي . فأنا أعرف من الأمين هنا ومن هو غير الأمين . ولكن إذا كنت أنت صادقاً فحينئذٍ لا بد للباقين أن يكونوا كذلك. فالتذاكر جميعها ستمر من بين يديك. ولن تكون هناك سرقات إلا إذا أنت قمت بذلك. »

عاهدته على أن أكون أميناً ولم أشعر على الإطلاق بأي وخزٍ للضمير فيما يتعلق بما كنت أنوي القيام به . لقد كان أبيض ، ولن أستطيع أبداً أن أفعل به ما كان هو وأبناء عرقه قد فعلوه بي . وهكذا ، حسب تفكيري في الأمر بطريقة منطقية ، فالسرقة لم تكن خرقاً لقيمي الأخلاقية بل خرقاً لقيمه هو . أحسست أن الأمور كانت تجري لصالحه لذا فإن أي عمل أقوم به لأحتال على نظام حياته كان مبرراً. رغم ذلك فإنني لم أقتنع بذلك.

في ظهيرة أول يوم راقبتني الفتاة الزنجية في مكتب التذاكر بدقة، وعرفت أنها كانت تقيمني محاولة أن تقرر اللحظة التي نكون فيها بمأمن عندما تدخلني في مخططاتها. إنتظرت تاركاً لها أمر القيام بالخطوة الأولى.

كان يفترض مني أن ألقي كل تذكرة آخذها من الزبون في وعاء معدني. وفي بعض الأحيان كان الريس يذهب إلى شباك التذاكر وينظر إلى رقم التسلسل الموجود على لفافة التذاكر غير المباعة ثم بعد ذلك يقارنه بالرقم الذي تحمله آخر تذكرة كنت قد ألقيتُ بها في الوعاء. إستمر الريس في مراقبته عدة أيام، ثم بدأ يراقبني عبر

الشـارع، وأخيراً كان يغيب فترات طويلة.

عاد يمتلكني ذلك التوتر الذي كنت قد عرفتهُ عندما طردني البيض من العمل لدى صـانعي النظارات. لكنني تعلمت الآن السيطرة على الكثيرَ من التـوتر؛ فـقـد طـورت بـبـطء وبعـنـاء مـقـدرة عـلى إحـتـوائه بداخلي ودون إظهـاره بأي حـالٍ من الأحـوال. ولو لم يكن ذلك صـحيحاً فإن مجرد فكرة السرقة والمخاطر التي تحف بها، والتـوتر الداخلي كانت ستسبب لي اضطراباً بحيث لا أكون في حالة عقلية تمكنني من إجـراء حسـاباتي بهدوء، ولأصـابني ذلك بالرعب لدرجة ألا أقدر على السرقة أبداً. لكن مقاومتي الداخلية كانت قد نُسفت . لقد شعرتُ بأنني من الناحية العاطفية قد أُبعـدت عن العـالم، وأنني قـد أُرغمت على الحياة خارج دائرة الحياة العادية وأنني قد تكيـفتُ بشعوري ضـد شـيء ما يومياً ، وأنني اعتـدت على العيـش في جهـة أولئك الذين يراقبون وينتظرون.

وفي إحـدى الليـالي وبينما كنت أتناول طعـام العشاء في أحد المقاهي المجاورة، دخل زنجي غريب وجلس إلى جانبي.

قال: «مرحباً يا ريتشارد.»

قلت: «مرحباً ولكن لا أعتقد أنني أعرفك.»

قال مبتسماً: «لكنني أعرفك.»

هل هو واحد من جواسيس الريس؟

سألته قائلاً: «وكيف عرفتني؟»

قال وقد ذكر لي اسم الفتاة التي تبيع تذاكر السينما: «أنا صديق تيل.»

نظرت إليـه نظرة فـاحـصة. فهل كان يقول الحقيقة؟ أم كان يحاول الإيقاع بي لدى الريس؟ أصبحت أفكر وأشعر كالمجرم فلا أثق بأحد.

قال: «لنبدأ هذه الليلة.»

سألتـه وكنت لا أزال أنكر معرفتي عمَّـا كان يتحدث: «ماذا؟»

قـال لي: «لا تخـف. فـالريس يثق بك. فلقـد ذهب لزيارة بعض الأصـدقـاء

وهنالك من يراقبه. ولو رجع إلى السينما فسوف يهاتفوننا. »

لم أستطع تناول طعامي . فقد ظل بارداً في الطبق، وتصبب العرق من تحت إبطيَّ .

أوضح لي بلهجة منخفضة وناعمة: «سوف يكون الأمر كالتالي. يأتيك شخص ما ويطلب منك علبة ثقاب . فتعطيه خمسة تذاكر . تخرجها من الوعاء ، واضح ؟ وسوف نعطيك الإشارة لتبدأ . وسيعطي ذلك الشخص التذاكر لتيل ، وهي بدورها تقوم بإعادة بيعها على الفور عندما تكون الجموع تشتري وقت الإزدحام. هل هذا مفهوم؟ »

لم أرد عليه . عرفت أنه لو ألقي عليَّ القبض فسوف أوضع مع العصابة المتسلسلة (*) . لكن ألم تكن حياتي نوعاً من السجن؟ العصابة المتسلسلة؟ وما الذي سأفقده فعلاً؟

سألني: «هل أنت معنا؟ »

لم أعطه جواباً . نهض وضرب على كتفي ثم انصرف . كنت أرتعد عندما رجعت للمسرح. كان يمكن أن يحدث أي شيء، لكنني كنت معتاداً على ذلك. أولم أشعر بنفس الشعور عندما استلقيت على الأرض والرجال البيض من حولي وهم يقولون لي بأنني كنت عبداً محظوظاً؟ أولم أشعر بذلك عندما عدتُ إلى بيتي من شركة البصريات ذلك الصباح وقد فقدت عملي؟ أولم أشعر بذلك عندما سرت عبر مدخل الفندق وكان الحارس الليلي يوجه مسدسه إلى ظهري؟ أولم أحس بذلك مليون مرة من قبل؟ تناولت التذاكر وأصابعي مبللة بالعرق. إنتظرت. كنت أُقامر: الحرية أو السجن . مرت لحظات شعرت خلالها أنني لم أستطع التنفس . نظرت أعلى وأسفل الشارع . لم يكن الريس موجوداً . هل كانت تلك مصيدة ؟ لو كانت كذلك فإنني سأسبب العار لعائلتي . ألن يقولوا جميعاً بأن موقفي كان سيؤدي إلى هذا ؟ ألن يبحثوا في الماضي فيعثروا على أدلة قادت إلى قدري ؟

(*) العصابة المتسلسلة : عدد من المجرمين يقيدون بسلسلة واحدة (المحرر) .

عبر الرجل الذي كنت قد لقيتهُ في المقهى من خلال الباب ووضع تذكرة في يدي.

همس قائلاً : «هناك ازدحام عند شباك التذاكر . إحتفظ بعشرة وليس بخمسة . إبدأ بهذه. »

فكرت لنفسي ـ حسناً، هذه الليلة هي البداية. أعطاني التذكرة وجلس ينظر إلى الظلال المتحركة على الشاشة. أمسكت التذكرة وقد توتر جسدي، ساخناً كالنار؛ لكنني كنت معتاداً على ذلك أيضاً. زحف الوقت إلى داخل خلايا دماغي، أصبحت عضلات جسمي تؤلمني. إكتشفت أن الجريمة تعني المعاناة. تقدمت الجموع وأعطتني المزيد من التذاكر. إحتفظت بعشرة منها في راحة يدي الرطبة. وما كادت الجموع تتناقص حى تقدم نحوي صبي في فمه سيجارة. «هل معك ثقاب؟ »

وبحركة بطيئة ناولته التذاكر. خرج بعد ذلك وقد تركت الباب موارباً أراقب الوضع. توجه إلى مكتب التذاكر ووضع قطعة نقدية ثم شاهدته يمرر التذاكر إلى الفتاة. أجل لقد كان الصبي صادقاً. رمت إليَّ الفتاة بإبتسامة سريعة فعدت بعدها إلى الداخل. وبعد ذلك بعدة لحظات سلمني زبائن آخرون نفس التذاكر.

عملنا بهذا الأسلوب مدة أسبوع . وبعد ما تم توزيع النقود بيننا الأربعة حصلت على خمسين دولاراً. كانت الحرية في يدي تقريباً. أيجب عليَّ أن أخاطر أكثر؟ ألمحت إلى صديق تيل أنني قد أترك العمل . كانت تلك إشارة عابرة حتى أختبره. غضب لذلك غضباً شديداً فسارعت إلى الموافقة على البقاء، إذ خشيت أن ينقلب عليَّ أحد بقصد الإنتقام، أو التخلص مني بحيث يستطيع فتى أكثر تكيفاً مني أخذ مكاني. كنت أتعامل مع أناس حذرين لذا وجب عليَّ أن أكون حذراً.

تابعت العمل أسبوعاً آخر ، وفي وقت متأخر من إحدى الليالي قررت أن يكون ذلك الأسبوع هو الأخير . ولاح في بالي المسدس الذي كان في بيت جارنا وكذلك لاحت لي علب الفواكه المحفوظة والموجودة في مخزن الكلية . فلو أنني سرقت ذلك وبعته لحصلت على ما يكفي للتغلب على المصاعب في ممفيس حتى

أستطيع الحصول على عمل، فأشتغل وأوفر ثم أذهب إلى الشمال. وزحفت من سريري فوجدت بيت جارنا خالياً. نظرت حوله فكان كل شيء هادئاً. دق قلبي سريعاً فآلمني . إستخدمت مفكاً لأفتح النافذة عنوة ودخلت وأخذت المسدس؛ ووضعته داخل قميصي ورجعت إلى بيتي. عندما أخرجته لأنظر إليه، كان عرقي قد بلله. بعد ذلك قمت برهنه تحت اسم مستعار.

في الليلة التالية جمعت إثنين من الصبيان عرفت أنهما مستعدان للمغامرة. اقتحمنا مخزن الكلية وسرقنا علب الفواكه المحفوظة ثم بعناها للمطاعم. خلال ذلك اشتريت ملابساً وحذاءً وحقيبة سفر من الكرتون وأخفيت كل ذلك في البيت. وفي ليلة السبت بعثت إلى الريس أخبره بأنني مريض. كان العم توم في الطابق العلوي. وكانت جدتي والعمة آدي في الكنيسة. كان أخي نائماً. جلست أمي في كرسيها الهزاز وهي تردد ترنيمة لنفسها. حزمت حقيبتي وتوجهت إليها.

همست قائلاً: «أمي، إنني ذاهب.»

اعترضت أمي قائلة: «لا، لا.»

«لا بد لي يا أمي، فأنا لا أستطيع العيش هكذا.»

«هل أنت هارب من شيء ما اقترفته؟»

«سوف أرسل في طلبك. وسوف أكون على ما يرام.»

قالت: «إعتن بنفسك. وأرسل في طلبي سريعاً. فأنا لست سعيدة هنا.»

«إنني آسف على تلك السنين الطويلة يا أمي. لكن لم يكن بيدي حيلة.»

قبلتها فبكت.

«إهدئي يا أمي. فأنا بخير.»

خرجت من المعبر الخلفي وسرت ربع ميل إلى خطوط سكة الحديد. بدأت السماء تمطر عندما إجتزت نقطة ربط خطوط السكة الحديدية متوجهاً نحو البلدة. وصلت إلى المحطة وقد بللتني الأمطار حتى الجلد. اشتريت تذكرة ثم أسرعت إلى زاوية المنطقة حيث توجد دار السينما. أجل كان الريس هناك بنفسه يأخذ التذاكر.

رجـعت إلى المحطة وانتظرت قطاري وعـيوني ترقب الجموع.

بعـد ذلك بسـاعـة كنت أجلس في عـربة فيها تمييز عرقي ، متجهة بسرعة إلى الشمال، في بداية أول مـرحلة من رحلتي إلى مكان أسـتطيع العيش فيه بخوفٍ أقل. وببطء فـقـد انزاح إلى حـد مـا الحمل الذي حملته لعدة أشهر. كانت وجنتاي تحكاني وعـنـدمـا حـكـكـتـهما وجـدتُ دُمـوعـاً. فـي تلك اللحظة أدركت الألم الذي يرافق الجـريمة. وقد تمنيت ألا أشعر بذلك مرة أخرى. ولم أشعر بذلك مرة أخرى. لأنني لم أسرق ثانية. وما منعني من ذلك هو معرفتي بأن الجريمة نفسها تحمل عقوبتها.

حـسناً، إنها حـيـاتي، هذا مـا قلتـه لنفسي. سـوف أرى الآن ماذا أستطيع أن أفعل بها . . .

رالــف إلـســـن
(١٩١٤ ـ)

د. عصام الصفدي

لمحـة عـامـة :

بدأ حـياته الفنية بالإهتمام بالموسيقى وبالرغبة في أن يصبـح مؤلـف مقطوعـات موسيقيـة . والتـحق بمعـهـد توسكيـجي لذلك الغرض. ولكن فقر الأسرة (توفي أبوه وعمره ٣ سنوات وكانت أمـه تعمل خادمة) اضطـره لترك الدراسـة . ذهـب إلى نيويورك حيث التحق بأعمال مختلفة لكسب رزقـه . في نيويورك تعرف على كتابات مدرسة الحداثة.

ظهرت روايته الرائعة **الـرجـل الخـفـي** (١٩٥٢) (**The Invisible Man**) بعد أن كان قد كـتب عـدداً من المقالات والقصص القصيرة. يبدو أنه وجد في الرواية ضالته لأنها تمكنه من التعبير عن مجتـمع الزنوج المعقد. وفي استفتاء أجرته مجلة **أسـبـوع الكتـاب** (**Book Week**) لمائتي كاتب وناقـد ومحرر ، اختيرت هذه الرواية «كأكـثـر الأعمال تميـزاً» بين الكتب المنشورة في الولايات المتحدة بين ١٩٤٥ و ١٩٦٥ .

وفي عام ١٩٦٤ ظهر له كتاب **الظـل والفعل** (١٩٦٤) (**Shadow and Act**) وهو مجمـوعة مقالات متفرقة متميزة.

مقتطفات من

الرجل الخفي

المعركة الكبرى

ترجمة : د. عصام الصفدي

[تروي هذه القصة حكاية غلام أسود يحاول إيجاد مكان لنفسه تحت الشمس. وتبدأ القصة بكلمات سمع جده المحتضر يتفوه بها. لم يفهمها جيداً حين سمعها ولكنها بقيت دوماً جزء لا يتجزأ من حياته.

بطل القصة متفوق في دراسته الثانوية ويتم اختياره لإلقاء كلمة التخرج من المدرسة. ثم يقع عليه الاختيار ليلقي كلمته تلك في حفل للمدينة يضم وجهاءها ومتنفذيها وأغنياءها ورجال الأعمال فيها . ولكن عليه قبل إلقاء كلمته أن يساهم في المعركة الكبرى . ويحلل الكاتب نفسية الغلام ومشاعره وهو يراقب البيض في تصرفاتهم وهم يحتفلون ويأكلون ويشربون ولكنهم دائماً واعون للخط الفاصل بين البيض والسود والذي لا يحق للزنوج تخطيه. ويكاد الغلام يتخطاه فيدفع الثمن. أترك للقارىء متابعة الأحداث والتحليلات الدقيقة لتقلبات مشاعر الغلام الأسود خلال الأحداث. ينتهي الأمر بأن يستلم جائزة وهي بعثة للالتحاق بجامعة للزنوج. وخاتمة المطاف في القصة حلم يرى الغلام فيه جده فيتذكر أقوال ذلك الجد ويتأمل في ما سيؤول إليه أمره وهو على أعتاب مستقبله] .

المحرر

حـدث هذا منذ زمن بعـيـد ، قبل عشرين سنة مضت . أمضيت عمري وأنا أبحث عن شيء مـا، وحـيـثـما التـفت وجدت من يحاول إرشادي إليه. كثيراً ما كنت أقـبل نصـائح الآخـرين مع أنهم كـانوا يناقـضـون بعـضـهـم، بل ويناقضون أنفسهم أيضـاً. فـقد كنت ساذجاً في تلك الأيام. كنت أبحث عن نفسي سائلاً الآخرين عن أجـوبة أسئلة كنت أعلم أنني الوحـيد الذي يعرف إجاباتها. استغرقت وقتاً طويلاً. وكـانت توقـعـاتي على عكس ما أريد ـ مؤلمة جداً ـ للتوصل إلى حقيقة يظهر أنها تولد مع الآخـرين: وهي أنني لست إلاّ نفسي. لكن كـان عليّ أن اكتشف أولاً أنني رجلٌ خفي.

في الحقيقة لست فَلتْه من فَلَتَات الطبيعة أو التاريخ، فقد كنت كالآخرين. أنا لا أخـجل من حـقيقة أن جـدّايَ كانا من الأرقـاء . بل أخجل الآن من نفسـي لأني كنت قـد خـجلت منهم في يوم من الأيام . قـبل حـوالي خمسـة وثلاثين سنة قيل لهم انهم أصـبـحـوا أحـراراً متحدين مع الآخرين من بلادنا في كل ما هو للمنفعة العامة وللمـجـتـمع ، منفصلين كأصابع اليد . لقد آمن جـدّاي بذلك إيمانـاً راسخـاً ، بل وابتـهـجـوا به. ظلوا في بيتهم وعملوا بجد ، وربوا أبي على ذلك . البداية كانت عند جـدي. لقـد كان شخصاً غريباً ذلك العجوز، ويقولون لي أنني أشبهه. كان هو من بدأ المشـاكل. عندمـا كـان على فـراش الموت، نادى أبي وقـال له: «بعـد أن أرحل، أريدك أن تتابع النضال . أنا لم أخبرك بهذا من قبل، لكن الحقيقة هي أن حياتنا هي حـرب وكـفـاح. وأنا كنت خـائناً، جاسوساً في بلاد الأعداء منذ أن وضعت بندقيتي جـانبـاً بعـد الحـرب الأهليـة. عِشْ وكأن رأسك بين فكي أسـد. أريدك أن تقهرهم بكلمـة «نعم» ، أن تغلبـهم بابتـسـامـتك، حاربهم حتى الموت حتى الهلاك، دعهم يبلعـونك حـتى يلفظونك أو تنفجر أحشاؤهم فيك على إتساعها». في تلك اللحظة، ظنوا أن العـجـوز قـد فـقـد عـقله. لقـد كان في الماضي أكثر الناس اعتدالاً ورزانة. اقـتـادوا الأطفـال الصـغـار من الغرفة وأسدلت الستائر ونُوِّست شعلة الفانوس حتى أخـذت تـتـأرجح على الفـتـيلة وكأنها أنفـاس الرجل العـجـوز . «علم مـا علمـتك

لأطفالك» همس بقوة ومات.

لكن أهلي تأثروا بكلماته الأخيرة أكثر من تأثرهم بموته . كان الأمر وكأنه لم يمت إطلاقاً لأن كلماته كانت تعيش مسببة خوفاً وقلقاً بين الناس . قيل لي مراراً وتكراراً أن أنسى ما سمعت. وفعلاً هذا ما حصل. فهذه أول مرة تروى القصة خارج نطاق العائلة. لكن تأثيرها فيَّ كان كبيراً ، إلا أني لم أدرك معناها قط. كان جدي عجوزاً مسالماً ، لا يثير المشاكل ولا يسببها. ومع ذلك كله ادّعى أنه خائن وجاسوس وتحدث عن حلمه وهدوئه وكأنهما سابقة خطيرة. منذ ذلك اليوم والأمر لغز يحيرني، يعيش في باطن عقلي بلا جواب. وفي كل مرة كانت أموري تسير بشكل جيد، كنت أتذكر جدي وأشعر بالذنب وعدم الراحة. كنت أنفذ نصيحته رغماً عني. ومما زاد الأمر سوءاً أن الجميع كانوا يحبونني بسبب ذلك. كنت أُمْتَدَحُ حتى من قبل أكثر الرجال عنصرية في المدينة، فقد كنت مثالاً يحتذى بالسلوك والأخلاق ـ تماماً مثل جدي . ومما زاد في حيرتي أن العجوز سمى ذلك خيانة . عندما كان الآخرون يمتدحون تصرفي كنت أشعر بالذنب لأنني بطريقة أو بأخرى كنت أتصرف بعكس رغبات البيض ولو أنهم أدركوا ذلك في قرارة أنفسهم لتمنوا أن أفعل عكس ما أفعل، لتمنوا أن أكون لئيماً وعابساً طوال الوقت. لو فهموا لكان هذا ما أرادوه، ولكنهم كانوا مخدوعين وظنوا أن هذا هو التصرف السليم. كنت أخاف أن يأتي يوم وينظرون إليّ نظرة الخائن وعندها ستكون نهايتي. وبنفس الوقت لم أستطع أن أتصرف بطريقة أخرى لأني كنت أعلم أنها لن ترضيهم. لقد كان تأثير كلمات الرجل العجوز فيَّ كاللعنة . وفي يوم تخرجي، ألقيت خطاباً بينت فيه أن التواضع هو السر، لا بل الجوهر في التقدم والنجاح . (طبعاً هذا لا يعني أنني كنت أعني ما أقول، وكيف لي ذلك وذكر جدي وكلماته أبداً حاضرة في عقلي؟ كل ما في الأمر أنني أعتقد أن التواضع طريقة فعالة للوصول). كان الخطاب ناجحاً. الجميع امتدحني، ودعيت لألقي كلمتي في تجمع لقادة المدينة من الرجال البيض. بالنسبة لي كان هذا يعني الكثير، إنه يشكل إنتصاراً لجماعتي.

كان الإحتفال في القاعة الرئيسية لفندق معروف . اكتشفت لاحقاً أنه يقام إحتفاءً بيوم المدخن . وسئلت : ما دمت مشاركاً في الحفل ، لماذا لا أشترك في

المسابقة الكبرى للملاكمة والتي ستقام بهدف التسلية. المشاركون في هذه المسابقة كانوا بعضاً من زملائي في المدرسة وكانت معدة لتكون أول فقرة في البرنامج.

كل وجهاء البلدة كانوا هناك بملابس السهرة، يتكالبون على الطعام، يشربون البيرة والويسكي ويدخنون السيجار الأسود. كانت الغرفة التي يقام فيها الحفل قاعة كبيرة بسقف عالٍ. رُتبت الكراسي فيها بصفوف أنيقة لتلتف حول ثلاث جهات من حلبة ملاكمة متحركة، بينما تُركت الجهة الرابعة خالية تكشف عن مساحة ملساء ولامعة. كانت الهواجس والظنون تساورني كلما فكرت بمسابقة الملاكمة، ليس لأني أكرهُ الملاكمة، بل لأني لم أكن أميل إلى الشبان الآخرين الذين سيشاركون في القتال. كانوا رجالاً أشداء لا أحد يستطيع أن ينكر ذلك، لكنهم لم يكونوا مثلي، يعانون من لعنة جد تشغل عقولهم طوال الوقت. بالإضافة إلى هذا وذلك، فقد رأيت أن مبارة ملاكمة قد تنتقص من هيبة الكلمة التي سألقيها. في تلك الأيام، وقبل أن أصبح خفياً، كنت أنظر لنفسي على أنني بوكر ت. واشنغتون محتمل. لكن الآخرين في الحلبة، وكانوا تسعة، لم يكونوا يعيروني ذلك الإهتمام الذي أعيره لنفسي. شعرت أنني أجدر منهم، كما أنه لم تعجبني فكرة أن أوضع معهم في مصعد الخدم. وكذلك هم لم يستريحوا لوجودي. ليس هذا فحسب بل عبروا عن ذلك عندما ظهرت الصالة المضيئة أمام باب المصعد، بقولهم إنني بدخولي المبارة أخذت مكان أحد رفاقهم وحرمته من كسب عيشه لليلة كاملة.

خرجنا من المصعد، وتقدَّمَنا أحدهم عبر ممر مزخرف إلى غرفة الانتظار وطلب منا أن نلبس ملابس الملاكمة. أُعطي كل منا قفازا ملاكمة ومشينا إلى صالة كبيرة مليئة بالمرايا. دخلنا ونحن ننظر حولنا بحذر ونهمس حتى لا يسمع صوتنا. كان الجو في الصالة مليئاً بضباب، دخان السجائر. ثم إن الويسكي كان قد بدأ يأخذ مفعوله. لقد ذهلت عندما رأيت بعضاً من أهم رجال البلدة يترنحون سكراً: مدراء بنوك، محامون، قضاة، أطباء، رجال إطفاء، معلمون، تجار، حتى أحد القسس المتحررين كان هناك. لم نستطع أن نرى ما كان يجري في الصفوف الأمامية. فقد كان صوت مزمار يصدح في الأجواء، ووقف الرجال وابتدأوا يتقدمون إلى

الأمام بحماس. أما نحن، فقد كنا جماعة صغيرة ملتفة على بعضها البعض، تتلامس الأجزاء العلوية من أجسامنا العارية وتلمع بعرق الأهبة والاستعداد، بينما ازداد حماس الآخرين في الصفوف الأمامية عند رؤيتهم لشيء لم نستطع نحن أن ندرك ما هو. فجأة سمعت صوت ناظر المدرسة، والذي كان قد دعاني لحضور الحفل، يصرخ : أحضروا البلهاء الصغار.

فدُفع بنا إلى الأمام حيث كان الجو يعبق برائحة الدخان والويسكي الحارقة . وُضعنا في مكان رأيت منه منظراً جعلني أكاد أبلل سروالي. كان هناك حولنا بحرٌ من الوجوه بعضها عدائي وبعضها مسرور . وفي الوسط ، وبمواجهتنا تماماً ، وقفت شقراء ساحرة ـ عارية تماماً . كان الصمت يخيم تماماً على المكان . شعرت بنفحة هواء بارد يخترق عظامي . حاولت التراجع للوراء ، لكنهم كانوا يحوطونني من كل جانب. بعض الرفاق وقف برأسٍ متدلٍ وجسم يرتجف. أحسست بخوف ويذنب لم أعرف سببهما يعتصراني . أخذت أسناني تصطك ببعضها ، وجسدي يقشعرّ وركبتاي ترتجفان . رغم ما كنت أشعر ، كنت مأخوذاً بما أرى وجعلت أراقب وأنظر بالرغم عني. ففي تلك اللحظة لو كان ثمن مشاهدتي لذلك المنظر هو فقدان بصري ، لنظرت . كان شعرها أشقر كشعر دمى السيرك ، ووجهها ملطخ بأنواع البودرة والمساحيق وكأنه قناع لاصق ، عيناها غائرتان ، مكسوتان بلون أزرق بارد كلون مؤخرة قرد. وبينما كانت عيناي تجولان على جسدها تتفحصانه ببطء، شعرت برغبة في أن أبصق عليها. كان صدرها صلباً ومكتنزاً كقباب معابد الهند الشرقية، وكنت أقف قريباً منها لدرجة أنني استطعت رؤية حبات العرق تلمع كاللآليء حول حلمات صدرها المنتصبة. وددت لو أستطيع أن أندفع هارباً من الغرفة ، أو أن تنشقّ الأرض وتبتلعني ، أو أن أذهب إليها وأستر جسدها بجسدي وأخفيه عن عيوني وعيون الآخرين. أردت أن ألمس جسدها الناعم ، أن أعانقها ، أن أدمرها. أردت أن أحبها وأن أقتلها ، وأن أختبىء منها وأن أمرر يدي على الوشم تحت العلم الأمريكي الذي ارتسم على بطنها ، حيث شكل فخذاها حرف V . من بين جميع من كانوا في الغرفة ، شعرت أنها تنظر إليّ وحدي بعينيها المجردتين من أي تعبير.

ثم بدأت ترقص بحركات حسّية بطيئة، الدخان المتصاعد من مئات السجائر أحاطها وكأنه وشاح رقيق. بدت لي كطائر محاط بالستائر يناديني من على سطح بحر هائج مخيف. كنت أعيش في لحظة نشوة. ثم بدأت أدرك صوت المزمار يعزف وكبار البلدة يصرخون بنا . بعضهم أخذ يهددنا إذا نظرنا إليها والبعض الآخر إذا لم نفعل. نظرت إلى يميني فإذا بأحد الشبان قد أغمي عليه. فتقدم أحدهم وأمسك إبريقاً فضياً من إحدى الطاولات ورماه بماء مثلّج، ثم أوقفه على قدميه وأجبر اثنين منا أن نسنده بينما تدلى رأسه بين كتفيه وتصاعد الأنين من شفتيه الزرقاوين . ثم أخذ شاب آخر يناشدهم بأن يَدعوه يذهب إلى البيت. كان أكبر شبان المجموعة حجماً ، يلبس ثياب ملاكمة أصغر من أن تخفي انتصاب ذكره الذي بدا وكأنه تجاوب مع عزف المزمار. كان يحاول إخفاء ذلك عن الآخرين بقفازي الملاكمة لكن دون جدوى.

وخلال ذلك، تابعت الشقراء رقصها، مبتسمة ابتسامة صفراء لكبار رجال البلدة الذين أخذوا يراقبوها باعجاب وذهول، مبتسمين سخرية من خوفنا. أخذت أراقب أحد التجار الذي أخذ ينظر إليها بنهم وشفتاه متدليتان تكشفان عن سيل لعابه. كان رجلاً ضخماً يضع أزراراً من الماس على قبة قميصه الذي ينتفخ عند كرشه. وفي كل مرة كانت الشقراء تتمايل ويتمايل معها وركها، كان التاجر يمرر يده على الشعر القليل المتبقي على رأسه الأصلع، ذراعاه مدفوعتان للأعلى، وجلسته البلهاء كدب مخدر يحرك كرشه بطريقة قذرة . لقد كان ذلك المخلوق منوماً مغناطيسياً . ثم بدأ إيقاع الموسيقى يسرع ، واندفعت الراقصة هنا وهناك يعلو وجهها تعبير بعدم الاكتراث ثم بدأ الرجال يمدون أيديهم محاولين الوصول إليها. رأيت أصابعهم الغليظة تغوص في الجسد الناعم. حاول آخرون منعهم وراحت هي تدور حول الغرفة بحركات رشيقة، بينما أخذوا هم يطاردونها على الأرض الملساء، يخلعون ثيابهم ويتزلقون. كانوا كالمجانين. كُسرت كراسٍ واندلقت كاسات الشراب وركضوا نحوها يضحكون ويعوون كالكلاب . نجحوا بالإمساك بها لحظة وصولها للباب، ورفعوها عن الأرض وتقاذفوها بالهواء . وعلى ابتسامتها الحمراء المثبتة على شفتيها بإحكام رأيت الخوف والإشمئزاز في عينيها ، تماماً مثل الخوف الذي شعرت

به ورأيتـه على وجـوه بعض الشبـان الآخرين. أخذ الرجال يرمونها في الهواء وفي كل مـرة كـان نهداها يتـمهدان ورجلاها ترفسان في الهواء وهي تدور. كان بعض الرجال مـن غـير الشـملين يحاولون مـسـاعـدتها على الهرب وهربت أنا مع زمـلائي الآخـرين متجهاً إلى غرفة الانتظار.

بعـضـهم كان لا يزال يبكي بكاء هستيرياً. وعندما حاولنا الخروج مُنعنا وأُمرنا أن ندخل حلبـة الملاكـمـة. لم يكن أمـامنا سـوى أن نفـعل مـا يقولون. دخلنا نحن العشرة الحلبـة وعـصـبوا أعيننا بشريطة بيضاء كبيرة. وقفنا نستند بظهورنا إلى الحبال. شـعـر أحـد النظارة بالشفقة علينا وحاول أن يدخل البهجة إلى قلوبنا. حاول بعضنا مجاملتـه بابتسامة عريضة . ثم قال لي أحد الرجال : «أترى ذلك الفتى هناك؟ حالما يقـرع الجـرس أريدك أن تركض إلى حيث هو وتمزق أحشاءه ، إذا لم تفعل سأمزقك أنـا ، فـأنا لا أحب شكله على الإطلاق». قـيل لكل منا نفس العـبـارة. ثم أخـذوا يعـصـبـون أعـيننا. حتى في تلك اللحظة كنت أراجع خطابي في عقلي وكل كلمة فيه كانت تلمع أمامي مثل اللهب. شعرت بقطعة القماش تشد على عيني فقطبت جبيني حـتى ترتخي قليلاً عندما تسترخي عضلات وجهي.

وفـجأة بدأ خـوف أعـمى يمـتلكني ، فأنا لم أكن مـعـتاداً على الظلام . كنت وكأنني وجـدت نفسي فـجأة في غـرفـة مظلمة مليئة بأفاعٍ سامة. ثم بدأت الأصوات تعلو من حولي تطالب باصرار بأن تبدأ المعركة .

«هيا ابدأوا! »

«سأنال من ذلك العبد الضخم! »

جـاهدت محاولاً أن التـقط ذبذبات صـوت ناظر المدرسة وكأني أحاول أن أجد بعض الطمأنينة في صوت مألوف بعض الشيء في تلك المعمعة .

«سـوف أنال من أبناء القحبة السود هؤلاء» صرخ أحدهم .

«لا ياجـاكـسـون! » صرخ آخـر «أرجـوكم ليساعدني أحدكم على تهدئة جاك» فصرخ الرجل الأول :

«اتركني أريد أن أحطم ذلك العبد الأسود كلون الزنجبيل، أريد أن أمزقه إرباً، دعني» .

وقفت ممسكاً بالحبال ترتجف مفاصلي من الخوف. ففي ذلك الوقت كنت ممن يسمونهم بالعبيد بلون الزنجبيل . بدا صوته مخيفاً ، عرفت بأنه سيسحقني بأسنانه كما يسحق قطعة من كعك الزنجبيل.

دار قتال عنيف. كنت أسمع صوت مقاعد تتحطم وأصوات نعيق تخرج بصعوبة من أفواه أصحابها. تمنيت لو أني أستطيع أن أرى أكثر من أي وقت مضى لكن العصبة التي كانت على عيني كانت أشد وأقسى من أن تتزحزح، كانت ملتصقة كالجَرَب. حاولت أن أزيح طبقات القماش قليلاً بقفازي لكني سمعت صوتاً يصرخ: «لا تحاول أيها الحقير، اترك العصبة في مكانها» ثم صرخ أحدهم في وسط السكون: «هيا اقرع الجرس قبل أن يقتل جاكسون أحد الزنوج». فقُرع الجرس وبعده سمعت صوت أقدام تنطلق بسرعة واهتياج.

شعرت بقفاز يصفع رأسي، فدرت حول نفسي وأخذت أضرب الهواء من حولي. فشعرت بضربة اهتزت بها ذراعي حتى الكتف. وفجأة تراءى لي أن تسعتهم قد اتفقوا عليّ مرة واحدة. كنت أتلقى الضربات من كل اتجاه. حاولت أن أتصدى لها بكل ما أوتيت من قوة وعزم. كانت اللكمات تحط على رأسي من كل حدب وصوب لدرجة أنني بدأت أتساءل إن كنت الوحيد المعصوب العينين في الحلبة ، أو ربما ذلك الرجل المدعو بجاكسون قد نجح في الوصول إليَّ والنيل مني.

لم أعد أستطيع السيطرة على حركات جسدي وعيناي معصوبتان. كنت كمن فقد كرامته، أتعثر كطفل . أترنح كالسكران . أصبح الجو مثقلاً بدخان السجائر ومع كل ضربة كنت أتلقاها ، كان الدخان يزداد كثافة ويحجب الهواء عن رئتي. وراح لعابي يسخن ويصبح طعمه مراً كالصمغ. وكنتيجة لضربة على رأسي من قفاز أحدهم، إمتلأ فمي بدم ساخن. أما عن بقية جسمي، فلم أعد أعرف أكان مبللاً بالعرق أم بالدم. ثم استقرت ضربة حادة على عنقي، شعرت بعدها بدوار شديد

وسقطت على الأرض . وامتلأ العالم المظلم خلف عصبة عيني بخيوط زرقاء . بقيت ممدداً منكباً على وجهي أتظاهر بأني أصبت بضربة قاضية وبأني غبت عن الوعي . لكن ذلك لم ينجح ، فقد شعرت بيدين تنتزعاني من الأرض وتوقفاني على قدمي وصوت يقول «قم يا زنجي، تقدم» . كانت ذراعاي كالرصاص ، ورأسي يؤلمني من أثر اللكمات المبرحة . استشعرت طريقي إلى الحبال ونجحت في الوصول إليها والإمساك بها ، محاولاً إلتقاط أنفاسي عندما فوجئت بضربة تهبط على منطقتي الوسطى جعلتني أشعر بالدخان وكأنه سكين يقطع أحشائي . أخذت أتخبط يميناً ويساراً أحاول تجنب أرجل من حولي حتى استطعت أن أقف منتصباً . وعندها اكتشفت أنني أستطيع رؤية أشياء سوداء تتأرجح أمامي بأجساد مبللة عرقاً وفي جو ضبابي أزرق ، كانوا كراقصين سكارى يتمايلون على أنغام طبول اللكمات.

كان جو الحلبة مفعماً بالهيستيريا . فوضى لا مثيل لها . الجميع كانوا يتقاتلون فيما بينهم . لم يكن هناك إثنان يقاتلون في صف واحد لفترة طويلة . كان إثنان أو ثلاثة أو أربعة يتفقون على واحد ، ثم ينقلبون ليتشاجروا فيما بينهم ثم يهاجموا آخرين. راحت لكماتهم تتجه تحت الحزام ، في الكلى ، بقفازات مفتوحة أو مغلقة. لكن خوفي أصبح أقل الآن لأني أستطيع الرؤية ولو جزئياً. مشيت بحذر أحاول تجنب اللكمات لكن بحرص حتى لا يتنبه أحد لذلك. أخذت أنتقل من مجموعة لأخرى أقاتل هنا وأضرب هناك. راح الشبان يتلمسون طريقهم كالعميان، مُنْحَني الظهور في محاولة لحماية أجزائهم الوسطى ، يدفعون رؤوسهم بين الكتفين بينما امتد الذراعان بعصبية إلى الأمام. وأخذت الأكف تشق طريقها في جو يعبق بضباب الدخان. بدت أكفهم كقرون استشعار حساسة لحلزون. وفي إحدى زوايا الحلبة لمحت ولداً يضرب الهواء بعنف، ثم يصرخ بألم بعدما ارتطمت يده بأحد الأعمدة. للحظة رأيته ينحني ممسكاً بيده التي تؤلمه ثم هوى أرضاً فجأة تحت سطوة ضربة استقرت على رأسه العاري بلا حماية. أما أنا فرحت أناور الملاكمين المجموعة تلو الأخرى فأرمي بلكمة هنا ثم أهرب دافعاً آخرين لتلقي ضربات كانت أصلاً موجهة لي . وبقي الدخان يعذبني . وأسوء ما في الأمر أنه لم يكن هناك جولات ولا

أجراس تدق كل ثلاث دقائق معلنة انتهاء جولة وفترة استراحة يلتقط فيها الملاكم أنفاسه. بدأت الغرفة تدور من حولي، كدت أغرق في دوامة من الأضواء والدخان والأجساد التي ترشح عرقاً ، محاطة بوجوه بيضاء متوترة. كان الدم ينزف من أنفي وفمي ويلطخ صدري ببقع حمراء.

استمر الرجال بصراخهم المعهود «اضربه أيها الفتى الأسود ، أخرج أحشاءه!». «وجه لكمتك إلى ذقنه ، اقتله ، اقتله ، حطم ذلك الولد الضخم» . فتصنعت السقوط ، وسقط معي شاب بقوة وكأننا أصبنا بضربة واحدة . نظرت فرأيت الرجلين اللذين أوقعاه أرضاً قد تعثرا وسقطا عليه واخترقت رِجْلُ أحدهم المتعلة حذاء رياضة أعضاءه التناسلية . تدحرجت بعيداً وأنا أشعر بالغثيان.

كلما ازداد القتال عنفاً ازداد الرجال توحشاً. وعدت لأقلق بشأن خطابي. ترى كيف ستسير الأمور؟ هل سيعترفون بموهبتي، بماذا سيكافؤونني؟

كنت أقاتل وأضرب بشكل آلي لا إرادي عندما لاحظت أن الشبان كانوا يخْلُون الحلبة الواحد تلو الآخر . دهشت وابتدأ الرعب يدُبُّ في مفاصلي وكأني تُركت وحيداً مع خطر مجهول الهوية. ثم بدأت أفهم، كان الشبان قد اتفقوا على ذلك فيما بينهم. كانت العادة في هذا النوع من الملاكمة أن آخر رجلين ممن بقي في الحلبة يتقاتلان في أمل الحصول على الجائزة الكبرى . لكن ، وللأسف ، عرفت هذه الحقيقة بعد فوات الأوان. قُرع الجرس، فقفز رجلان بملابسهما الرسمية ونزعا أغطية أعيننا، فوجدت نفسي أواجه تاتلوك ، أضخم المجموعة جسماً . شعرت بالغثيان. ما كاد صوت الجرس يتوقف عن الطنين في أذني للمرة الإولى حتى عاد يقرع مرة ثانية ورأيته يتجه نحوي بخفة ولأني لم أكن أعرف ما كان عليّ أن أفعل، فقد ضربته في أنفه بقوة. لكن ذلك لم يمنعه من الإستمرار في التقدم إلى الأمام يجلب معه رائحة كريهة لعرق متعفن نتن . كان وجهه أسود خال من أي تعبير . لكن عيناه كانتا تنبضان بالنشاط والحيوية والكراهية لي . كانتا تشعان بانفعال وقلق من كل ما حصل لنا في ذلك اليوم . بدأت أقلق ، كنت أريد أن ألقي خطابي أكثر من أي شيء آخر . لكنه كان يتقدم نحوي وكأنه يحاول أن يأخذه مني . فقذفته بضربة تلو الأخرى وتلقفت ضرباته المتتالية. وفجأة وفي لحظة اندفاع أمسكت به

وثبّته هامساً في أذنه: «تظاهر بأني أسقطك وسأعمل على أن تكون الجائزة من نصيبك» فرد عليّ بصوت أجش «سوف أحطم عنقك.»

«ألأجلهم تفعل هذا؟»

«بل من أجلي أنا أيها الوغد.»

كان الجمهور يصرخ طالباً أن نفترق. ثم قام تاتلوك بضربي ضربة فتلت رأسي. رأيت العالم من حولي كما ترى عين الكاميرا منظراً يلتف حولها، رأيت وجوهاً حمراء وأفواهاً تعوي تزيد الجو الضبابي توتراً. في لحظة أصبح العالم من حولي يتذبذب، يهتز، ينحلّ، يتدلى. ثم عدت إلى رشدي وانتصب أمامي تاتلوك. رأيت خيالاً يتراقص أمام عيني، فأدركت أنه ليس سوى يده اليسرى التي كانت تكيل لي اللكمات المتتالية. ووقعت إلى الأمام تاركاً العنان لرأسي ليسقط على كتفه الرطب. قلت له:

«سأزيدك خمسة دولارات.»

«فلتذهب للجحيم» ثم ارتخت عضلاته قليلاً تحت ثقل رأسي «ما رأيك بسبعة دولارات إذاً؟»

«لماذا لا تعطيها لأمك؟» قال ساخراً ممزقاً ضلوعي تحت قبضته. وبينما كنّا ملتحمين مع بعضنا البعض نطحته عني وهربت فما كان منه إلاّ أن قذفني بوابل من قنابل لكماته الحارقة. قاومت مقاومة اليائس. كنت أريد أن ألقي خطابي أكثر من أي شيء في العالم لأني أحسست أن هؤلاء الرجال هم الوحيدون الذين يستطيعون إعطاء حكم عادل على مقدرتي، وها هو هذا الأحمق يأتي ليضيّع عليّ فرصتي. منذ تلك اللحظة فصاعداً بدأت أضرب بحذر، أتقدم خطوة لألكمه وأتراجع بسرعة متفادياً لكماته. وبضربة حظ استطعت أن أصيبه بذقنه، كانت ضربة موفقة. ثم سمعت صوتاً جهورياً يصيح «لقد راهنت بمالي على الرجل الضخم». هذه الكلمات جعلتني أفقد اتزاني وصوابي، أصبحت مشوشاً. هل أحاول أن أفوز بالرغم مما قاله ذلك الصوت، ألن أكون بفوزي قد ناقضت نفسي وأقوالي؟ أليس هذا هو الوقت

الذي عليَّ أن أطبق فيه ما أعظ عن التواضع واللاعنف ؟ وفيما كنت أفكر في هذه الأمور، هوت ضربة على رأسي جعلت عيناي تجحظان عن مكانهما وأنهت مشكلتي في نفس الوقت. احمّرت الغرفة كالدم. كنت وكأني أحلم أنني أهوي من مكان عالٍ أحاول أن أجد مكاناً أسقط فيه حتى نفذ صبر الأرض واندفعت نحوي لتلتهمني. عندما عدت لوعيي سمعت صوتاً مغناطيسياً يقول مؤكداً «خمسة» . كنت ممداً على الأرض أراقب كالنصف نائم بقعة دمي الحمراء وهي تنزف على الأرض على شكل فراشة تتلألأ ثم تغرق مختفية بين طيات أرض الحلبة.

عندما صرخ الصوت « عشرة » حمُلت وجررت على الأرض ووُضعت على كرسي . جلست وأنا أحس بدوار . كانت عيناي تؤلماني ، ويزداد تورمهما مع كل خفقة من خفقات قلبي . بدأت أسأل نفسي : - ترى هل سيدعوني الآن أتكلم ؟ كنت أتصبب عرقاً وفمي ما يزال ينزف. ثم وضعنا في صف واحد على طول الحائط. أخذ الآخرون يهنؤون تاتلوك متجاهلينني وبدأوا يفكرون في كم ستكون اجرتهم. أحد الزملاء كان يئن من ألم في يده المحطمة . نظرت أمامي فرأيت خدماً يلبسون سترات بيضاء يدفعون بحلبة الملاكمة بعيداً ، ويضعون مكانها بساطاً مربعاً التفَّتْ حوله الكراسي والمقاعد . ففكرت : ربما وُضع البساط لأقف عليه عندما ألقي كلمتي.

ثم نادانا عريف الحفل قائلاً : «تعالوا إلى هنا يا شباب لتحصلوا على نقودكم». ركضنا مسرعين إلى الأمام حيث كان الرجال يجلسون على مقاعدهم يتضاحكون ويتحدثون. كان شكلهم الخارجي يومي بالرضا والود الآن. قال: «ها هي على البساط» نظرت إلى البساط فإذا هو مغطى بالقطع النقدية من كل حجم ولون وبعض الأوراق النقدية المجعدة. لكن الذي استأثر على اهتمامي بالفعل كان بعض القطع الذهبية المبعثرة هنا وهناك. «يا شبان، كلها لكم» قال الرجل: «كل ما تستطيع أيديكم التقاطه» . فرد عليه رجل أشقر «هذا صحيح يا سامبو» ، قال هذا وهو ينظر إليّ غامزاً بثقة.

ارتجفت لشدة الاثارة ناسياً ألمي . سوف أحصل على قطع الذهب والأوراق النقدية، قلت لنفسي، سوف أستعمل كلتا يدي . وفي اللحظة الحاسمة سوف ألقي

بجسدي أمام هؤلاء الشبان القريبين مني حتى أمنعهم من الوصول إلى الذهب.

«هيا اصطفوا حول البساط الآن» قال الرجل بلهجة آمرة «ولا أريد أحداً منكم أن يلمسها حتى أعطيكم الإشارة». سمعت أحد الجالسين يقول «سيكون هذا مسلياً» وكما أُمرنا، إلتففنا حول البساط راكعين على ركبنا. ثم رفع الرجل يده المنمّشة عالياً ببطء بينما تابعناها نحن بأعيننا بلهفة. ثم سمعت أحدهم يقول: «هؤلاء العبيد يبدون وكأنهم سيصلون.»

«استعداد» قال الرجل. «انطلقوا.»

اندفعت بقوة باتجاه الجزء الملون بالأزرق من البساط حيث كانت قطعة ذهبية بانتظاري وأطلقت صرخة انبهار لتنضم لصرخات من حولي. ثم صرت كالمسعور أحاول نزع يدي من على البساط لكن دون جدوى. قوة عنيفة أخذت تسري في عروقي، انتفض جسمي معها وكأنه جرذ مبلل. كان البساط مكهرباً. انتصب شعر رأسي بخشونة وأنا أحاول التحرر من قيدي اللئيم. جفلت عضلات جسمي وتنافرت أعصابي وتلوّيت ألماً. لكن هذا لم يمنع الآخرين من متابعة ما يفعلون. كان بعضهم يضحك خوفاً وخجلاً من نفسه عندما كان ينحني ليلتقط النقود التي سقطت من زملائه بتأثير الصدمة الكهربائية. وبينما نحن نكافح ونتصارع للحصول على المال، كان صوت ضحكات الرجال الجالسين يصدح من خلفنا.

«هيا التقطوها، عليكم اللعنة، التقطوها» صرخ صوت غليظ وعميق كصوت الببغاء من خلفي. زحفت على الأرض بخفة التقط القطع المعدنية محاولاً تفادي النحاسية منها لأظفر بالذهبية والأوراق الخضراء. حاولت أن أتجاهل الصدمات الكهربائية بالضحك. أثناء جمعي للنقود بسرعة، اكتشفت أنني أستطيع تحمل الكهرباء. قد يبدو الأمر غريباً لكنه حصل. ثم بدأ الرجال يدفعوننا إلى داخل البساط. حاولنا التملص من قبضتهم في هيستيريا من الضحك المرتبك وتابعنا بحثنا عن النقود. كان من الصعب عليهم الإمساك بنا لأن أجسامنا كانت رطبة وزلقة فاستطعنا الفرار. وفجأة رأيت صبياً يُرفع في الهواء. كان جسده يلمع بعرق كثير وكأنه فقمة سيرك. ثم تُرك ليسقط أرضاً وحط ظهره المبلل على البساط المكهرب. سمعته يصرخ ورأيت ظهره يرقص على البساط. أخذت أكواعه تضرب

الأرض بجنون ، وعضلاته تنتفض كجلد حصان تجمع عليه الكثير من الذباب . وعندما نجح أخيراً في التدحرج بعيداً عن البساط ، كان وجهه أسود . لم يوقفه أحد عندما اندفع هارباً عن البساط وسط ضحكات وقهقهات الآخرين . «التقطوا النقود هيا»، صرخ عريف الحفل «فهذه نقود أمريكية جيدة . » فرحنا نتخاطف النقود ونتنازع عليها . أصبحت أكثر حذراً بعد ذلك حتى لا أقترب كثيراً من البساط . وكلما شعرت برائحة الويسكي الخانقة تهبط عليَّ كغيمة ملوثة فاسدة مددت يدي وتمسكت برجل أحد المقاعد . كانت يداي مملوءتان بالنقود ، ومع ذلك تعلقت بالمقعد تعلق اليائس . «أتركني أيها العبد ، اذهب من هنا» . كان وجهه الضخم مضطرباً عندما حاول أن يبعدني عن كرسيه. لكن جسدي كان زلقاً وهو سكراناً فلم يستطع شيئاً. اسمه السيد كولكورد ، الذي كان يملك سلسلة من صالات السينما و «أماكن التسلية». في كل مرة حاول أن يمسكني انزلق جسمي من بين يديه. ثم أصبحت المقاومة أصعب لكني كنت أخاف البساط أكثر من ذلك السكران، مما جعلني أتمسك بقوة. ولدهشتي وجدت نفسي أحاول أن أطيح به لينقلب على البساط. كانت فكرة هائلة لدرجة أنني وجدت نفسي أنفذها. حاولت بألاّ ألفت أنظار الآخرين إلى ما أحاول فعله، لكني عندما أمسكت برجله أحاول طرحه أرضاً بعيداً عن كرسيه، بدأ يزأر ويهدر ضاحكاً. ونظر في عيني برصانة ثم ركل صدري بشراسة ووحشية، فطارت رجل الكرسي من يدي ورحت أتدحرج على سرير من الجمر. بدا لي وكأن قرناً بأكمله سوف يمضي قبل أن أتحرر مما أنا فيه، قرناً كاملاً أُحرق في كل دقيقة منه من أعمق نقطة في جسدي حتى نَفَسي الذي يتردد في صدري ويسخن حتى درجة الانفجار. لن يطول الأمر، أخذت أطمئن نفسي، سوف ينتهي كل شيء في طرفة عين. وأخيراً ابتعدت عن البساط.

لكنها لم تكن نهاية متاعبي. فقد كان الرجال بانتظاري على الجانب الآخر من البساط بوجوههم الحمر المنتفخة يحدقون بي وكأنهم يعانون من سكتة دماغية. وعندما رأيت أصابعهم تتجه نحوي ، تراجعت إلى الخلف ككرة قدم [أمريكية] تائهة تنزلق من بين أصابع ماسكها وسقطتُ في الجمر ثانية. ولحسن حظي في تلك المرة تمكنت من أن أقذف بالبساط بعيداً فسقطت القطع النقدية على الأرض ترن

وتطـن ، فأسـرع الشـبـان نحوها محاولين الاستيلاء عليها . ثم ناداهم عريف الحفل قـائـلاً : «حـسنـاً يا شـبـاب ، يكفي الآن . اذهبـوا لتلبـسـوا ثيـابكم وتحصلوا على نقودكم . »

كنت منهك القـوى وجـسمي مترهل وضعيف كخرقة بالية. كان ظهري يؤلمني وكأنه جُلد بسياط من أسلاك معدنية .

عندما فـرغنا من لبس ثيابنا، دخل علينا عريف الحفل وأعطى كلاً منّا خمسة دولارات ، مـا عـدا تاتلوك الذي أخـذ عشرة لكونه آخر من بقي في الحلبة. ثم طلب منّا المغـادرة. فأطرقت مفكراً : لن يعطوني فرصة لألقي خطابي . بدأت أسير بيأس في الممـر المعـتم المؤدي إلى الخارج عندما ناداني أحدهم وقال لي أن أرجع. فعدت إلى الصـالة حيث كـان الرجـال يصـفـون كـراسيهم على شكل مجموعات ليتحدثوا مع بعض.

ضرب عـريف الحـفل على الطاولة بيـده ليلفت الإنتـبـاه قـائلاً: «أيها السادة: كـدنا أن ننسى جـزء هامـاً وجـدّياً من برنامج اليـوم. يا سادة: أُتي بهذا الشاب اليوم ليلقي كلمة كان قد ألقاها في يوم تخرجه. »

«برافو ! »

«يقـولون إنه أذكى صـبي عندنا في جرينوود. ويعرف مفردات معقدة أكثر مما يحويه قـاموس جيب». فصفق الجمهور وضحك كثيراً .

«لذا أيها السـادة، أريدكم أن تمنحـوه آذاناً صـاغـيـة». عندما وقفت أمامهم، كـان البـعض لا يزال يضـحك . كـان حلقي جافاً وعيناي ترتجفان . بدأت أتحدث ببطء لكنه كـان من الصـعب إخـفـاء حـقـيقة أنني مضطرب لأنهم بدأوا يصرخون: «أعلى، تكلم بصوت أعلى. »

فرفعت صوتي قائلاً: «إن الجيل الجديد، الذي ننتمي إليه، يثمّن حكمة ذلك القـائد والمعلم الذي كان أول من نطق بهذه الكلمات المشتعلة بالحكمة: «سفينة تائهة في البـحـر لأيام عـدة، أبصرت فجأة مركباً صديقاً. وعلى شراع تلك السفينة المنكوبة كـان مكتـوباً : «مـاء، مـاء، سنموت من العطش. » فجاءهم جواب المركب قائلاً:

ألقـوا بدلوكم في المكان الذي أنتم فـيه. وعندما سمع قبطان السفينة المشؤومة النداء، لبّاه ودلّى الدلو إلى الميـاه، فـعـاد إليـه الدلو مملوءاً بمياه نهر الأمازون العذبة النقية». ومـثل هذا الحكيم، أقـول لكم وعلى لسانه إلى هؤلاء من بني جنسي الذي يأملون أن يتـحـسن حـالهم في بلد غريب ويقللون من شأن السعي لمصادقة الرجل الأبيض من الجنوب والذي هو جـارهم السـاكن بالمنزل الملاصق لمنزلهم ، إلى هؤلاء أقـول : ألقوا بدلائكم حيـث أنتم . ألقـوا بها بأن تجـعلوا من كل الشعـوب المحيطـة بنا أصـدقاء لكم. »

كنت أتحـدث بطلاقـة وحماس لدرجـة أنني لم ألحظ أن بعض الرجـال كانوا لا يزالون يتـحـدثون ويتـضـاحكون فـيما بينهم. ثم امـتلأ فمي الجاف بالدم الذي أخذ ينزف من الجـرح حـتى كـدت أخـتنق. رحت أسـعل وأسعل، أردت أن أتوقف عن الحـديث للحظة لأذهب إلى إحـدى المبـصـقـات النحاسية لأريح نفسي، لكن بعض الرجـال، كناظر المدرسـة مثلاً، كانوا يستمعون لي فخفت. لذا بلعت ما في فمي من دم ولـعـاب وكل شيء وأكـملت حـديثي (كم أتعـجب الآن من قـوة تحـملي في تلك الأيـام ! أتـعـجب من حماسي ! من إيماني بضرورة سير الأمـور كما يجب أن تسير !) وبالرغم من ألمي، تكلمت بصـوت جـهور . لكنهم استمروا بالحديث والضحك مع بعـضـهم البعض وكأنهم صمّ بآذان قذرة محشوة قطناً . فرحت أتحدث بعاطفة أكثر. أغلقت آذاني وابتلعت الدم حـتى أصـبت بالغـثيان. بدا الخطاب لي وكأنه أطول بمئة مـرة مما كـتبته. لكنني لم أستطع ترك كلمة واحدة. كان عليّ أن أقول كل حرف، أن أراعـي كل نبرة من نبرات صـوتي وأؤديها بالشكل المطلوب. ليس هذا فـحـسب، بل في كل مـرة كنت أنطق فـيـها بكلمة من ثلاث مقاطع أو أكثر كانت مجموعة أصوات تصرخ طالبة أن أعيدها. أثناء حديثي استعملت كلمة «المسؤولية الإجتماعية» .

فصرخـوا بي «ما الذي قلت يا ولد؟ »

«المسؤولية الإجتماعية»

«ماذا؟ »

«المسؤولية . . . »

«ارفع صـوتك»

«. . . الإجتماعية»

«إرفعه أكثر»

«المسؤو . . . »

«أعد مرة أخرى»

« . . . لـيـة.»

امتلأت الغرفة بصخب ضحكاتهم. وبسبب ابتلاعي المستمر للدم المتجمع في فمي، فقد سهوت وارتكبت خطأ بأن قلت جملة لطالما رأيتها تُشجب في افتتاحيات الصحف، وتثير الجدل في المجالس الخاصة.

«المساواة . . . »

«ماذا قلت؟ » صرخوا .

«. . . الإجتماعية»

فتوقف الضحك فجأة في جو من السكون. نظرت إليهم مندهشاً. وامتلأت الغرفة بأصوات تنم عن عدم الرضا. أسرع عريف الحفل وتقدم إلى الأمام. أخذوا يصرخون بعبارات عدائية لي ، لكنني لم أفهم ما القصة . دوّى صوت رجل قصير جامد الهيئة وشارب كبير يجلس في الصف الأمامي قائلاً : «هلا أعدت ذلك مرة أخرى ببطء يا بني! »

«ماذا أعيد يا سيدي؟ »

«ما قلته الآن! »

«المسؤولية الإجتماعية يا سيدي»

فرد ببرود «ألم تكن تحاول أن تتحذلق يا ولد؟ »

«لا، أبداً يا سيدي! »

«أمتأكد أنت أن قصة المساواة تلك كانت غلطة؟ »

«نعم يا سيدي، أؤكد لك ذلك فقد كنت أبتلع دماً.»

«حسناً. من الأفضل من الآن فصاعداً أن تتكلم ببطء حتى نفهم ما تقول. نحن نريد لك الخير، لكن عليك أولاً أن تتصرف بحسب منزلتك . حسناً . أكمل خطابك. »

كنت خائفاً . أردت أن أخرج ، لكني في نفس الوقت أردت أن أكمل كلمتي. ثم انني خفت أن يمسكوا بي. قلت له: «شكراً يا سيدي» وبدأت حديثي حيث توقفت. وعادوا هم يتجاهلونني كما من قبل.

لكن عندما انتهيت، اهتزت القاعة بالتصفيق والتشجيع وفوجئت بالناظر يتقدم نحوي حاملاً رزمة ملفوفة بورق أبيض . أومأ للرجال بالهدوء ، ثم خاطبهم قائلاً: «أيها السادة ، الآن تدركون أنني لم أكن أبالغ في مدح هذا الصبي، إنه ينظم كلاماً جيداً ، ويوماً من الأيام سوف يقود شعبه إلى الطريق الصواب. غنيٌّ عن الذكر أهمية أمر كهذا في أيامنا هذه. إنه شاب طيب وذكي، وكتشجيع له على المضي في الإتجاه السليم، وباسم مجلس التعليم، أود أن أقدم له جائزة وهي: . . . » .

توقف وهو ينزع الورق عن الرزمة لتظهر محفظة جلدية لامعة مصنوعة من جلد البقر «هذا الصنف الأول من منتوجات شاد وايتمور». ثم خاطبني قائلاً: «خذ هذه الجائزة وحافظ عليها . إعتبرها شارة تقدير منّا وتذكيراً لك بدورك ومهمتك. قدسها واستمر في تقدمك واجتهادك. ويوماً ما ستملؤها بأوراق مهمة سيكون لها شأن في صنع قدر شعبك ومستقبلهم» .

تأثرت كثيراً بما قال لدرجة أنني بتُّ عاجزاً عن الشكر. سال خيط من اللعاب الممزوج بالدم على جلد المحفظة وسقط عليها على شكل قارة غير مكتشفة بعد، فمسحته بسرعة. في تلك اللحظة شعرت بأهمية كبيرة لم أحلم بها في حياتي.

«افتحها وانظر ما بداخلها».

وبيد مرتعشة استجبت للنداء. وراحت رائحة الجلد الجديد تصعد إلى أنفاسي وأنا أفتحها لأجد شيئاً كالوثيقة الرسمية . كانت منحة إلى جامعة ستيت كوليدج للزنوج . اغرورقت عيناي بالدموع وركضت بشكل مربك مبتعداً عن المنصة.

كانت الفرحة تغمرني حتى عندما عرفت أن القطع الذهبية التي جمعتها لم تكن

سوى عملة رمزية مصنوعة من النحاس الأصفر تستخدم كدعاية لنوع من السيارات.

عندما رجعت إلى البيت، كان الجميع مبتهجين. وفي اليوم التالي جاء الجيران ليهنئونني. لأول مرة شعرت بالأمان حتى من جدي الذي كانت لعنته على فراش الموت كثيراً ما تفسد عليَّ انتصاراتي. وقفت تحت صورته وحقيبتي في يدي، وابتسمت ابتسامة المنتصر وأنا أنظر لوجهه الأسود المتبلد الاحساس الذي يشبه وجوه المزارعين. كان وجهاً لطالما سحرني وأخافني. بدت عيناه وكأنها تلاحقني حيثما ذهبت.

في تلك الليلة، حلمت أنني ذهبت بصحبته إلى السيرك. كان يرفض أن يضحك على المهرجين مهما فعلوا. بعد فترة من الزمن طلب مني أن أفتح حقيبتي وأقرأ ما فيها، وفعلت. وجدتُ فيها مغلفاً رسمياً مختوماً بختم الدولة. داخل المغلف وجدت مغلفاً آخر وبداخله آخر وآخر وهكذا إلى ما لا نهاية. فكرت في نفسي:ـ سوف تنهار قواي إذا استمر الحال هكذا. قال جدي «هذه هي سني عمرك، الآن افتح ذاك المغلف هناك». وفعلت وبداخله وجدت ورقة منقوشاً عليها رسالة قصيرة بأحرف من ذهب. «اقرأها» قال جدي «وبصوت عالٍ».

«إلى من يهمه الأمر» قرأت أنا بصوت مرتل:

ابقوا على هذا الولد العبد يركض

صحوت وصدى ضحكة ذلك العجوز تطن في أذني.

(كان حلماً سأبقى أذكره وأحلم به لعدة سنوات قادمة. في ذلك الوقت لم أدرك معناه. كان عليَّ أولاً أن أذهب إلى الجامعة).

جوندولين بروكس
(١٩١٧ -)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

لم تقض إلا أقل من عام واحد من عمرها في توبيكا، كانساس، ولكنها نشأت وتعلمت في مناطق مختلفة من شيكاغو التي تعتبرها موطنها ومسرح قصائدها وكتاباتها. ووجدت في سكان شيكاغو من الزنوج الطاقة والحيوية والمشاكل التي تستمد منها شعرها . نشرت بعض قصائدها في مجلات الأطفال وهي في طفولتها . وبدأت الكتابة الجدية في عشرينات وثلاثينات القرن بتشجيع من جيمس ولدون جونسون (James Weldon Hohnson) ولانجستون هيوز (Langston Hughes) .

مر شعر بروكس في مراحل متعددة . تقول عن ديوانها الأول الذي صدر عام ١٩٤٥ : «رغم أني أعطيت أول ديوان لي عنوان **شارع في برونزفيل (A Street in Bronzville)** فقد كان أملي أن يدرك الناس فوراً أن الزنوج تماماً مثل الآخرين : لهم ما لغيرهم من أهل الأجناس والديانات والقوميات الأخرى من مشاعر البغضاء والمحبة والخوف.» ولكن منذ المؤتمر الثاني للكتاب الزنوج عام ١٩٦٧ أصبح شعرها أكثر استجابة لقضايا التمييز العرقي وقضايا المرأة . فقصائد ديوان **في مكة (In the Mecca)** (١٩٦٨) و**شغب (Riot)** (١٩٦٩) تعالج بشكل مباشر العنف والبؤس في أحياء الزنوج الفقيرة (ghetto) .

وبالإضافة إلى الشعر فقد كتبت رواية قصيرة عنوانها **مود مارثا (Maud Martha)** (١٩٥٣) وهي قصة حب فتاة سوداء في شيكاغو . كما نشرت قصيدة طويلة تروي قصة حياة فتاة زنجية . كتبت ديوان شعر للأطفال عنوانه **صبيان وصبايا برونزفيل** (١٩٥٦) **(Bronzville Boys and Girls)** .

حـصلت على جـائزة البـولتـزر للشـعـر عام ١٩٥٠. وقد حصلت على عدد كبير من جوائز الشعر والشهادات الفخرية.

أمـا بالنسـبـة لأسلوبها فقد استهلت حياتها الأدبية باتباع مثال نهضة هارلم وكتابها مثل هيوز وكـالن. وكـان جمهـور القـراء البـيض أهم مصدر لدعم شعرها. وبعد المؤتمر الثاني للكتاب الزنوج الذي عقد في جامعـة فيسـك (Fisk) عـام ١٩٦٧ فـقد أخذت تعمل مع الكتاب الزنوج المتطرفين وتدعـمـهم ومن أهدافـهم توجيـه كتاباتهم للقراء الزنوج. ومن الطبيعي أن يواكب هذا التغير تحول في مـواضـيع شـعـرها إلى العنف الثـوري ويسـتـمـد أسلوبها عناصره من لغة الشوارع الزنجية ولغة الكتـاب المقـدس المنمـقـة التي يسـتـعـملها الوعاظ البروتستانت، ومن التراكيب اللغوية الانجليزية والأمـريكيـة الموروثة. وهي من أكثر الشعراء استعمالاً متواصلاً للسوناتا Sonnet .

الفصل ١٨ من رواية

مود مارثا

نحن الشخصان الوحيدان الملونان هنا

ترجمة : د. عصام الصفدي

[موضوع هذه الرواية هو قصة حب فتاة زنجية في شيكاغو. ومسرح الرواية هو مدينة شيكاغو كما هو الحال في الكثير من أشعار بروكس. وفيها تركز على شخوص عاديين في ظروف معيشية عادية وتبحث فيها، وليس فيما هو استثنائي أو درامي، عن لحظات ولقطات تحللها وتميز فيها ما هو مثير للدهشة أو المفاجأة . وقد حددت بروكس مهمتها في كتاباتها ـ وهذا ينطبق بشكل واضح على المقطوعة التالية ـ كشاعرة أن تعطي الحقائق حيوية ، لا حيوية الزمن الحاضر بل حيوية الحقيقة العالمية. وهي تحلل مشاعر وعواطف شخوصها في تقلبها وتغيرها وتتسلل إلى أعماق تلك الشخوص في محاولاتها هذه] .

المحرر

عندما خرجا إلى السيارة لم يكن هناك سوى أدق قطع المسحوق الأبيض وهي تتساقط بعجرفة أثيرية تكاد تكون مضحكة، وتضيف نفسها إلى الكتل المتراكمة من نوعها ـ تلك الهامة حقاً .

ولم يكن الجو بارداً .

ضحكت مود مارثا لنفسها وهي سعيدة. الجو لطيف في الخارج، وهي وبول حميان الليلة.

وبدلاً من أن يدور إلى مقعد القيادة ويتركها تدخل من ناحيتها على أفضل وجه ممكن لها، فإنه بقي ممسكاً بالباب مفتوحاً. وعندما كان يتبع هذا الأسلوب

بمناداتها «سيدة» وإعلامها بحبه فإنها كانت تشعر أنها عزيزة، محمية، لذيذة. منحته نظرة امتنان مثارة، فابتسم مغتبطاً.

«أتريدين الذهاب إلى سينما الآول ثانية؟ »

«لا ، لا يا بوب. دعنا لا نذهب هناك الليلة. إنني أشعر أكثر سعادة داخلية من أن أفعل ذلك. لنذهب إلى وسط المدينة ؟ » كان لا بد لها من اقتراح ذلك مع علامة استفهام في النهاية - دائماً. وكان له دوماً ثلاث اعتراضات على ذلك. صعوبة ايجاد موقف للسيارة. نقود أكثر مما ينبغي. عدد أكبر من اللازم من البيض. خشيت الليلة أن لا يكاد يكون بد من الرفض لأنه جاء بقميص العمل الأزرق. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت على قبته بقعة من عصير المشمش. ولم يكن حذاؤه ملمعاً . . . . غير أنه أومأ بالموافقة !

قالت بحذر: «نحن لم نذهب أبداً إلى دار سينما الورلد. إن فيها فيلم جيد. سأشعر أنني غنية هناك. »

«هل تريدين ذلك حقاً؟ »

«من فضلك؟ »

«بالتأكيد. »

لم تكن مثل دور السينما الأخرى. وكان رواد مسرح ستوديبيكر يتمشون جيئة وذهاباً في الردهة، ضاحكين بنعومة، ومدخنين برشاقة دقيقة. وكما همست لبول، فإن ذلك المسرح متصل بدار سينما الورلد.

وهمست مود ثانية: «لا بد أن مسرحية تُعرض هناك وقد يكون الآن وقت الاستراحة. »

«لا أدري لماذا تشعرين أن عليك أن تهمسي . لا أحد يهمس هنا سواك. » قال بول ذلك همساً. نظر حوله غاضباً وهو يرغب في رؤية عدد قليل، عدد قليل فقط من الوجوه الملونة. لم يكن ثمة سوى وجهيهما.

ضحكت مارثا ضحكة تحد صغيرة بعصبية. ثم قالت بصوت عال. «بالتأكيد

ليس هناك من سبب للهمس. سخافة. »

كانت السيدات اللاتي يتمشين مرتديات ثيابهن بطريقة ذكية. وضعت بعضهن زهوراً أو زينات براقة في شعورهن. بدا عليهن أنهن ـ مطبوخات. كأنها أُحسِنت العناية بهن. وكأنهن لم يرين صرصوراً أو فأراً في حياتهن، أو أمضين أسبوعاً دون تدفئة. وكانت حواف الرجال ملساء. كانوا رجالاً لا يمكن أن يتنازلوا إلى مستوى القلق بشأن مبلغ يقل عن ألف دولار. جال هذا في خاطر مود.

قال بول، «نحن الملونان الوحيدان هنا. »

أبغضته قليلاً. «يا للعنة. ومن ذا يهتم بذلك. »

«ما أريد أن أعرفه هو أين يدفع المرء التعرفة اللعينة. »

«ذلك مكتب التذاكر. إذهب إليه. »

ذهب إليه. كان مغلقاً.

تنهدت مارثا: «أظن أنه سبق للفيلم أن بدأ. ولكن من غير الممكن أن يكون قد فاتنا الكثير. اذهب إلى تلك الفتاة في ركن الحلويات واسألها أين يمكن أن ندفع النقود. »

لم يرغب في عمل ذلك. كانت الفتاة جميلة وشقراء وذات عيون باردة، يداها على خاصرتيها؛ كما أن وضعية رأسها كانت بليغة. لم يكن في الركن سواها.

«حسناً. سننتظر دقيقة. ثم نرى ـ »

كرهته مود مرة أخرى. «جبان، ينبغي أن تندفع بنفسها نحو الفتاة وتريه» . . . .

حاول الموجودون في الردهة تجنب النظرات باستغراب إلى زنجيْين خجولين يريدان بلهفة ألا يبدوا خجولين. نظرت النساء البيض إلى المرأة الزنجية في طقمها الذي لا يوجد فيه عيب خاص، ولكنه جعلهن يفكرن بغرف حبيسة الهواء، وبحياة ضئيلة وصغيرة. ونظرن إلى شعرها. وَدِدْن لو يشاهدن فتاة غامقة اللون ذات شعر طويل طويل. كن دائماً يدهشن قليلاً ولكن دهشة مرغوبة، عندما يرين ذلك.

وافترضن أنه لا بد أن شعرها هو الذي أتاح لها الحصول على ذلك الزنجي الوسيم ذي الشعر الضارب للصفرة.

حاول الرجال البيض ألا ينظروا إلى الزنجي المرتدي قميص العمل الأزرق، الزنجي بدون ربطة عنق.

فتح بوابٌ أحد أبواب دار السينما وركض مسرعاً نازلاً الدرجات القليلة التي تؤدي إلى الردهة. فتح بول فمه.

«قل لي يا صاح. من أين نحصل على التذاكر للفيلم؟ »

نظر البواب إلى قدمي بول قبل أن يجيب. ثم قال ببرود، ولكن دون أن يكون بغيضاً. «سآخذ النقود. »

وتمكنا من الدخول .

يا للفيلم! كانت مود مارثا شديدة الفرح لأنهما لم يذهبا إلى سينما الآول. الفيلم هنا ملون، وقصة الحب جميلة. ووجدت الموسيقى الكلاسيكية طريقاً فِضِّياً إلى المرء وجعلت ظهره بارداً. ويا للمسرح نفسه! لم يكن قصراً ولم يكن عادياً مثل مسرح التيفولي في الجنوب، على سبيل المثال (حيث كان يذهب الكثير من الملونين كل مساء .) ولكنك تشعر شعوراً طيباً وأنت تجلس فيه . نعم شعور طيب . وتشعر ، حين تغادره ، بأنك ستعود لبيت يفوح منه العطر الحلو وتوجد على طاولاته اللامعة زهور وفضيات رائعة على مخمل غامق الزرقة في صناديق ؛ وشراشف رقيقة؛ وأغطية مقصبة على فرشات كالتي تراها في مخازن مارشال فيلد. بدلاً من الذهاب إلى شقتك الصغيرة حيث توجد نفايات العائلات التي تسكن في نفس الطابق في حاوية كبيرة عند بابك بالضبط، والصوت الرمادي من الأقدام الرمادية الصغيرة يخدش مبتعداً عنها فيما أنت تجرجر نفسك صاعداً درجات تلك السلالم الضيقة المحتجة.

شد بول على يدها وقال : «لا بد لنا من تكرار هذا. »

ومرة أخرى. «ينبغي أن نفعل هذا مرات كثيرة. وأن نذهب لمسرحيات، أيضاً. أعني مسرح بلاكستون وستوديبيكر. »

ردت بضغطة من يدها ، مبتسمة لنفسها في الظلمة ابتسامة حلوة . كانت تدرك أنه حينما ينتهي السحر فسوف تمضي سنة، أو سنتان، أو أكثر، قبل أن يعود إلى دار سينما الورلد. ومن الممكن ألا يذهب أبداً إلى مسرحية حقيقية. ولكنها كانت تعلم أن تحب اللحظات، أن تحب اللحظات لِذاتها.

وعندما انتهى الفيلم، وكشفتهما الأضواء على حقيقتهما، وقف الزنجيان بين الفراء والملابس الجيدة والعطور الخفيفة، ونظرا حولهما بلهفة. كانا يأملان ألا يبدو على أحد أن عالمه قد اقتُحم. لقد استمتعا بالفيلم كثيراً، وكانا سعيدين جداً، أرادا أن يضحكا، أن يقولا بحرارة للمغادرين الآخرين، «جيد؟ ألم يكن رائعاً؟ »

هذا ، بالطبع ، لم يمكنهما عمله . ولكن فقط لو لم يظهر على أحد أن عالمه قد اقتُحم.

الرباعية الأخيرة من قصيدة إمت تيل (١)

ترجمة : د. عصام الصفدي

بعد الجريمة،
وبعد الدفن

أمُّ إمت شيء حسن الوجه؛
مسحة من لون التوفي المشدود.
تجلس في غرفة حمراء،
تشرب القهوة السوداء.
تقبّل ولدها القتيل.
وهي حزينة.
فوضى في زي رمادي
تعصف عبر نجد قاحل أحمر.

---

(١) عام ١٩٥٥ اختُطف امت تيل، وهو صبي من شيكاغو عمره أربعة عشر عاماً، من بيت في ولاية مسيسبي وقُتل بوحشية. أتهم بالقتل رجلان من البيض ثم أُطلق سراحهما من قِبَل محلَّفين كلهم من البيض. وقد نبّه الحادث البلاد كلها إلى حركة الحقوق المدنية التي كانت آخذة في الظهور. كما أن الأغاني الشعبية اتخذت منه موضوعاً لها.

أدب الأقلية العربية

بقلم : د. عصام الصفدي

الاقلية العرقية الثانية التي يمثلها هذا الباب من هذه المجموعة هي الأقلية العربية . وهي ممثلة بنوعين من الأدباء . النوع الأول والأديب الوحيد فيه الممثّل في هذه المجموعة هو جبران خليل جبران ، وهو من مجموعة تدعى أدباء المهجر . وجبران هو رئيس الرابطة القلمية التي كان مركزها نيويورك . معظم نتاج هذه الرابطة أدب عربي كتب بلغة الضاد. ومهما قيل عن اختلاف هذا الأدب عن الأدب العربي في الوطن الأم، ومهما كتب عن كون بعض أوجه الاختلاف تلك ناتجة عن تأثره بأدب الغرب، فانه أدب عربي أولاً وآخراً. والقليل القليل من أدب هذه الرابطة كتب بالانجليزية وهو عبارة عن بعض اعمال جبران وأمين الريحاني . لم يحظ الريحاني باهتمام القارىء او الدارس او الأديب الامريكي. أما جبران فوضعه يختلف تماماً . فرغم انتشار اعماله في العالم كله وترجمتها الى العديد من لغات العالم ، ورغم شعبيته الواسعة في الولايات المتحدة (يتجاوز عدد النسخ المباعة من كتاب النبي **(The Prophet)** عدد النسخ المباعة من كل دواوين كل الشعراء الامريكيين مجتمعين!)، فانه مهمل تماماً في عالم الأدب الامريكي والدراسات الأدبية الامريكية. ليس لكتاباته بالانجليزية مكان في الادب العربي بطبيعة الحال ، وهي مرفوضة في الأدب الامريكي الجاد . والواقع انه يكاد يكون معبوداً لدى القراء الشبان ومن هم في سن المراهقة ، وهذا ما يأخذه عليه بعض من تعرض لأعماله من الدارسين الجادين . فهو في نظرهم يهوم في عالم ضبابي ويدغدغ العواطف . والحق ان اعماله بالانجليزية بحاجة الى دراسة جادة موضوعية تصلح أساساً لاحكام نقدية وتقييم نزيه .

الفريق الثاني من الأدباء هم الكتاب المعاصرون وهم إجمالاً من الجيل الامريكي الثاني . بعض هؤلاء شعراء لهم مكانتهم مثل صاموئيل هزو (Samuel Hazo) . وغالبيتهم من الشعراء الشبان الذين حصلوا على جوائز تدل على تقدير كبير ويتنافس عليها الشعراء

الشبـان كـثيراً . وقـد حصل الشعراء الثلاثة الممثلـون في هذه المجموعـة الادبيـة على مثل هذه الجـوائـز ، وهـم نعـومـي شـهـاب نـاي (Naomi Shihab Nye) وجـريـجـوري اورفـلـي (Gregory Orfalea) ولـورنـس جـوزيـف (Lawrence Joseph) . ثلاثتـهم نشروا دواوين شعر وكلهم ممثلـون في العـديد من مجمـوعـات الشـعـر الامـريكي المعـاصر . ويكتب هؤلاء جميعـاً باللغـة الانجليـزيـة التي هي لغـتـهم الأم . كما ان مـواضيع قصائدهم هي نفس المواضيع التي يتناولها الشـعراء الامريكيون عادة . أضف الى ذلك انهم يستعملون الانماط الشعرية التي يتكون منها الشعر الانجليزي والامريكي .

غير أنهم يتـمـيـزون عن الشعراء الامريكيين المعاصرين الآخـرين باهتمام خاص يبدونـه بمـوضـوع العـائلـة ومـتـانـة انتمائهم لها . كما ان لهم اهتمام خـاص بمـوضـوع الوطن الأم الذي يسـمعون عنه كثيراً في بيوتهـم (بيوت آبائهم وأمهاتهم) التي تكاد تكون قطعة روحية من ذلك الوطن . ولقـضـية فلسطين والاجتياح الاسرائيلي للبنان في أوائل الثمانينات اهمية خاصـة في شـعـر هؤلاء الشعـراء . ويبدو ان هاتين القضيتين فتحتا عيون شعرائنا على اصـولهم العربيـة وكـشـفـت وعـيـهـم بتلك الأصـول . ومـع اهتمامهم بموضوعـي الأسـرة والوطن الام يبدو من الطبـيـعـي ان يحتل البـحـث عن الذات وعن الهوية مـساحة هامة في شعر هؤلاء الشعراء . هذا مـوضـوع يشتركون فيه مـع شعـراء امريكيين كثيرين آخـرين يهمهـم هذا الموضـوع الذي هو في الواقـع من خـصـائص أدب القـرن العشرين وخـاصـة المعـاصر منه . غير ان ما يميزهم عن غيرهم في هذا المجال هو الصراع الذي يعانوه جراء شـعورهم بقوتي جـذب شـديدتين : احداهما تشـدهم باتجـاه الوطن الأم والأخرى باتجاه الوطن الحـالي . ويشتد هذا الصـراع اذا كان البحث عن الذات يرد في سياق سيـاسي يكون للشاعر فيه رأي يختلـف عن الـرأي الشـائع في امريكـا . ويبـرز هذا بوضـوح في القصـائد المتعلقـة بموضوع فلسطين ولبنان .

★★★

جبران خليل جبران
(١٨٨٣ ـ ١٩٣١)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

يزيد مجموع ما بيع في الولايات المتحدة من نسخ **النبي (The Proghet)** عن عدد ما بيع من دواوين جميع الشعراء الأمريكين مجتمعين . ولكن مؤلف هذا الكتاب لا يجد له مكاناً في الأدب الأمريكي. وهناك من يقول أن كتبه ، وخاصة **النبي** ، تنتشر بشكل خاص بين المراهقين وتصلح أكثر ما تصلح كهدايا في المناسبات.

ولد في قرية بشرّى في لبنان وهاجر إلى الولايات المتحدة مع أمه وأختيه وأخ له غير شقيق. وقد بدأ الكتابة باللغة العربية للمجلات والجرائد العربية التي تصدر في الولايات المتحدة. ولكنه كان يطمح دائماً للكتابة باللغة الانجليزية وقد تم له ذلك بمساعدة صديقة (حبيبة؟) عمره وولية نعمته ماري هاسكل (Mary Haskell) وذلك في كتاب **النبي** (١٩٢٣) . وبعد ذلك توالت كتبه الانجليزية.

ولكن يبدو أن سمعته الأدبية الحقيقية ترتكز إلى الثورة التي أحدثها في الأدب العربي (رغم وجوده في أمريكا) : لغة ومواضيع وروحاً. وقد بدأ ذلك بتشكيله الرابطة القلمية مع مجموعة من الكتاب من بينهم أمين الريحاني وميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي. وقد احتلت قضايا الوطن العربي الأم ومشاكله جانباً كبيراً من اهتمام جبران والرابطة.

هناك اختلاف كبير بين دارسي جبران حول حياته وأفكاره. فمن الثابت أنه كان يختلق الكثير من الأحداث ويصفها بأنها جزء من حياته. كما أن أفكاره وفلسفته تثيران الجدل. فهو لدى البعض صوفي ولدى غيرهم مادي أبعد ما يكون عن الصوفية . وفيما يعتبره البعض نبياً يعتبره آخرون مارقا يدعو إلى تمييع الأخلاق وسلاحه العبارة الجميلة الساحرة.

مثقلة بحملها روحي

ترجمة : د. عصام الصفدي

[تمثل القصيدتان التاليتان جانباً جيداً من شعر جبران من حيث مواضيعه وأسلوبه. ففي القصيدة الأولى «مثقلة بحملها روحي» يبين الشاعر موقفه من الغيرية والعطاء وأهميتهما في خلق التواصل والترابط بين البشر. وفي القصيدة الثانية، «الحب»، مديح للحب والأنَفة ومقدار ما يضفيانه على المرء من إنسانية. وفي كلتا القصيدتين يستخدم الشاعر التشبيه والطرف أو الحكايات ذات المغزى الأخلاقي. ويستمد صوره من عالم الطبيعة والحيوانات بغرائزها الطبيعية والفن وذلك لتوصل معناه للقارىء بصورة حسية واضحة] .

المحرر

مثقلة بِحِملها روحي بفاكهتها الناضجة؛
مثقلة روحي بفاكهتها.
من يأتي الآن ويأكل ويقنع؟
تفيض روحي بنبيذها.
والآن من يصب ويشرب ويستبرد من حر الصحراء؟

ليتني كنت شجرة بلا أزهار ولا ثمار،
فإنَّ ألَمَ الوفرة أكثر مرارة من الجدب
وحزن الغنيّ الذي لا يأخذ منه أحد
أعظم من حزن المتسول الذي لا يعطيه أحد.
ليتني كنت بئراً جافة وظامئة

يلقي الناس حجارة فـيَّ
فهذا أفضل وأسهل احتمالاً
من أن يكون مصدر ماء حي
يمر به الناس ولا يشربون.

ليتني كنت قصبة تدوسها الأقدام،
فذلك أفضل من أن أكون قيثارة فضية الأوتار
في بيت ربه بلا أصابع
وأطفاله صم.

الحب

ترجمة : د. عصام الصفدي

يقولون إن ابن آوى والخلد
يشربان من نفس الغدير
حيث يأتي الأسد ليشرب.

ويقولون إن العقاب والنسر
يأكلان من الجثة نفسها،
وهما في سلام، فيما بينهما،
في حضرة ما هو ميت

أيها الحب، يا من يده الوقورة
قد كبحت جماح رغباتي
وسَمَتْ بجوعي وعطشي
إلى النبل والكبرياء ،
لا تدع ما هو قوي فـيَّ ودائم
يأكل الخبز ويشرب النبيذ
اللذين يغويان نفسي الأضعف .
أفضل أن تدَعني أموت جوعا ،
وأن يجف قلبي ظمأً ،
وأن أموت وأفنى
قبل أن أمد يدي
إلى كأس لم تملأها أنت
أو وعاء لم تباركه .

صامـوئـيـل هـزو
(١٩٢٨ـ   )

د. عصام الصفدي

لمحـة عـامـة :

من شـعـراء أمريكا المعاصرين المتميزين ، كما إنه في طليعة الشعراء العرب الأمريكين. وُلد في مدينة بتسبـرج Pittsburgh في ولاية بنسلفـانيـا لوالدين مـهاجـرين من أصول آشورية ولبنانية . يعـمل الآن أستاذاً للأدب الأمريكي في جامعة دوكين Duquesne في مدينـة بتسبـرج ؛ ولكنـه قبل ذلك مـارس أعمالاً كـثيرة منهـا فقد عمل مدربـاً في كـرة القـدم والبيسبـول Baseball وضابطـاً في مشاة البحرية.

لصـاموئيل هزو باع طويل في ميدان الأدب. فقد نشر اثني عشر ديواناً شعرياً (منها **حقوق الـدم Blood Rights** (١٩٦٨) **إلى باريس** (١٩٨١) **To Paris**) وروايتـيـن آخرهما **هواء الصيف المطلق العنان** (١٩٨١) **The Wanton Summer Air**. كما نشر مجمـوعـة من القصص القصيرة. ثم إن له كـتـاب في النقد الأدبي وهو دراسة للشاعر الأمريكي هارت كرين Hart Crane .

أسس ويرأس منتـدى الشعـر العـالمي وهو منتـدى مـتميز في بتسبرج يستقطب العديد من الشـعـراء والفنانين. وقـد رُشِّح لجائزة الكتاب الوطني National Book Award ، كما أختير ليكون فنان بتسبرج لعام ١٩٨٤.

لا بد من لفت نظر القـارىء إلى قلة المعلومات عن الشعراء الأمريكين المنحدرين من أصل عـربي. ويكاد يكون المصدر الوحيد للمعلومات عنهم هو مجموعة **Grape Leaves : A Century of Arab American Poetry** الـذي حـرره وقـدم له الشـاعـران جـريجـوري اورفـالـي Gregory Oefalea وشـريف الموسـى Sharif Elmusa (١٩٨٨) .

إلـى أمـي

ترجمة : د. عصام الصفدي

[يحاول الشاعـر في هذه القصيـدة أن يبث الحياة في ذكرى أمه خاصة وأنه لا يذكر يوماً قضاه معها أو أنه سمعها تناديه باسمه. وهو يحاول ذلك عن طريق صور قديمة وذكريات والده وكتابات أمه في مفكرتها. ولكنه في النهاية يجد حياتها تتجدد في أعماق نفسه.

وإذا نظرنا إلى هذه القصيدة في إطارها الاثنيّ (ethnic) فإنه يمكن قراءتها كمحاولة للبحث عن الهوية أو الذات فأمه من أصل غير أوروبي ويدرك المتكلم في النهاية أن جذوره العرقية حية فيه وهي جزء من هويته، كأمريكي من أصل عربي، ومن وعيه] .

المحرر

لو انك سَلِمتَ عصر ذلك اليوم في آب
ذي المهدئات، لكنت في الثالثة والستين،
ولما كنت أبحث عن كلمات
تُحبِكُ أو تُقَفِّي ما سأقوله لك.

وجدت الليلة مفكرة كنتِ تحتفظين بها
في عام ١٩٢٨، وفيما أنا اقرأ
كتاباتك بالانجليزية والعربية واليونانية،
حقدتُ على تلك السنوات التي اندثرت وكدتُ أبكي

ولعنت ايَّ إله العنه عادة

لأنني لم أكد أعرف يوماً واحداً معك
وما سمعتك تغنين أو تنادينني باسمي.
أعرف أنك كنت معلمة وممرضة

وأنك غنيت في كل احتفالات الصيف.
وعملتِ تسجيلاً مخدوشاً لأغنية
كثيراً ما أستمع إليها عندما لا يكون في البيت أحد،
ولكن ذلك هو كل ما لدي مما يبقيك حقيقية.

أما ما تبقى فيوجد في صور مهترئة،
وذكرى مفاجئة في عيون أبي
وكل طُرف السنوات الثلاثين
إذ تستعيدها الذاكرة كصورة ممزقة نصفين

ومرة أخرى إلى نصفين إلى أن تتصل كلمة
فُـكّـت مغالقها في مفكرة
بتلك المهترئة في ذهني لـتُـكَـوِّن وجهك
بنفس سحر موسيقى تُسمَع عَرَضا

فتتمكن من أن تستحضر وتجمعَ كل شيء
عن يوم كنا نظنه قد ولّـى إلى الأبد.
وللحظة مُستعادَة واحدة تكونين قريبة.
وأكاد أسمعك تناديني وتغنين

قبل أن يرتد العالم ويعود ...
ليس لدي يا جميلتي نصب تذكاري
أقدمه لك سوى هذه الأبيات المقولبة
إنها لا تستطيع أن تسبر غور الصمت الذي يحترق

ويحترق رغم أني أحاول أن أقول أخيراً
إنه ثمة وراء خيانة الكلمات هذه
حياتك فــيٌ تتجدد وفي تلك السكينة
حيث لا شيء سيأتي ولا شيء انقضى .

☆ ☆ ☆

لورنس جوزيف
(١٩٤٨ ـ   )

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

ولد في مدينة ديترويت في ولاية مشجن. وتظهر هذه المدينة كثيراً في شعره كمسرح للعنف والصراع العرقي. أجداده من أصول لبنانية وسورية كاثوليكية. حصل على تعليمه الجامعي في جامعة مشجن ثم في جامعة كيمبردج في انجلترا ثم في مدرسة الحقوق في جامعة مشجن. وهو يعمل الآن أستاذاً للقانون في جامعة سينت جون في نيويورك .

حصل على عدد من الجوائز التي تمنح للشعراء الشبان وكان أولها وهو ما زال طالباً في جامعة مشجن . أول دواوينه الشعرية **صراخ على لا احد** (١٩٨٢) **(Shouting at No One)** ثم **سيرة علمية وعملية** (١٩٨٨) **(Curriculum Vitae)** .

لستُ من يصرخ على لا أحد

ترجمة : د. عصام الصفدي

[يمثل المتكلم في هذه القصيدة إنسان القرن العشرين في وحدته الغامرة وعزلته المخيفة. وهو هنا يحاول اغراق نفسه في ذاته هرباً من العنف الذي يعيشه في مدينته. حتى الله في داخله يزأر ويزمجر خشية الوحدة والعزلة] .

المحرر

قبل الفجر، وفي الشارع مرة أخرى،
تحت السماء التي تغسلني
بالجليد والدخان والمعدن
لا أريد أن أفكر
أن الرصاصة اخترقت كتفي،
ضحكت أسنان مدمن المخدرات النتنة
وتجمد شعره الأصفر.
أنا حريص : أدخن أعقاب سجائر التبغ التركي
اشرب كثيراً لأبول كثيراً،
أقلي لحم الخنزير بدهنه ذاته
آكل عظم المفاصل والدماغ والمعدة؛
ولا آكل العيون !

دائمًا أربع مداخن

تحرق العظام في مكان ما

دموع لا تنقطع

في كل مكان يصبح الدم

لحمًا يريد أن يقول شيئاً.

لست من يصرخ على لا أحد

في ميدان كاديلاك : بل هو الله

يزأر في داخلي خشية

الوحدة.

☆ ☆ ☆

ناعومي شهاب ناي
(١٩٥٢ -)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

وُلدت في مدينة سينت لويس بولاية ميسوري لأب فلسطيني وأم أمريكية ولكنها نشأت في ولاية تكساس . تلقت تعليمها الجامعي في جامعة ترنتي Trinity في سينت انتونيو بولاية تكساس . وقد حازت على عدد من الجوائز الخاصة بالشعر المتميز . وهي تعالج في شعرها مواضيع عديدة كباقي الشعراء ولكن شعرها يعكس اهتماماً واضحاً بقضية الاثنيةّ أو العرق . وقد قرأت شعرها في عدد من بلدان العالم وخاصة فلسطين والأردن . وقد أقامت مع أسرتها لمدة عام في القسم الشرقي من القدس .

وهي من أبرز الشعراء الأمريكين المنحدرين من أصل عربي ، وقد وجدت قصائدها مكاناً في العديد من المجموعات الشعرية التي تضم قصائد من الشعر الأمريكي المعاصر. كما أنها تساهم في مشروع ترجمة الأدب العربي.

وبالإضافة إلى كتابة الشعر فإنها مطربة تغني وتلحن أغان من لون الشعر الشعبي.

دم

ترجمة : د. عصام الصفدي

[تعالج الشاعرة في هذه القصيدة موضوع العرق . ويدل عنوان القصيدة على انها تعالج الجانب المأساوي من معاناة الشعب العربي الفلسطيني. والمتكلم في القصيدة يتعاطف مع ذلك الشعب من خلال صور العنف التي رآها في العناوين الرئيسية للصحف . وفي القصيدة نوع من الغموض الايجابي الموحي ـ ذلك النوع الذي يشجع القارىء على إثرائها بتفسيرات مختلفة. هل ترمز صورة الطفل إلى ضحايا العنف أم إلى مسببه ؟ أهي صورة عربي من ضحايا الانتفاضة أو الاجتياح الاسرائيلي للبنان من المنظور العربي أم هي صورة العربي كإرهابي من منظور الغرب عامة بما في ذلك أمريكا ؟ ولابد من الإشارة أيضاً إلى أن المتكلم في القصيدة نفسه يشعر بالضياع ما بين الصورتين] .

المحرر

«يعرف العربي الحقيقي كيف يمسك ذبابة بيديه. »
هذا ما كان أبي يقوله، ويثبت ذلك،
مكوباً (يديه) على الذبابة الطنانة فوراً
فيما المضيف ينظر مبهوراً ومعه مضرب الذباب.

في الربيع كان نخيلنا يتقشر كالأفاعي.
كان العرب الحقيقيون يعتقدون أن البطيخ يشفي بخمسين طريقة.
وكنت أغيِّـر هذه حتى تلائم المناسبة.

قبل سنوات، قرعت الباب فتاة،

أرادت أن تشاهد العربي.
قلت ليس لدينا عربي.

بعد ذلك أخبرني أبي عن هويته،
«شهاب» ـ «نيزك» ـ
اسم جيد ، مستعار من السماء.
قلت ذات مرة: «عندما نموت، هل نعيده؟ »
قال إن ذلك هو ما يقوله العربي الحقيقي.

تتجمد اليوم في دمي العناوين الرئيسية (للصحف).
فلسطيني صغير يتدلى من سيارة شحن على الصفحة الأولى.
أيتها التينة المشردة، هذه المأساة ذات الجذر المخيف
أكبر من أن نتحملها. أيَّ علم نلوِّح؟
أنا الوِّح علم الحجر والبندورة،
غطاء طاولة مطرز باللون الأزرق.

أهاتف أبي، ونتحدث حول الأنباء.
إنها فوق ما يطيق،
لا تستطيع ايٌ من لغتيه أن تصلها.
أقود سيارتي في الريف لأجد الأغنام والأبقار،
لكي أناشد الهواء:
من يدعو أيّاً كان متمدناً؟
أين يستطيع القلب الباكي أن يرعى؟
ماذا يستطيع عربي حقيقي أن يفعل الآن؟

أبي وشجرة التين

ترجمة : د. عصام الصفدي

[أما القصيدة الثانية «أبي وشجرة التين» فهي ـ دون شك ـ من عيون وروائع الشعر الأمريكي الحديث . وإذا كانت تتخذ من حياة الأقلية العرقية العربية موضوعاً فهذا الموضوع قد تمت صياغته في قالب فني محكم رائع. ولابد ان يلاحظ القارىء البساطة المتناهية التي تتصف بها القصيدة . ولكن هذه البساطة تخفي معان ومشاعر انسانية دافئة وعميقة . وأهم ما يميز هذه القصيدة ، معنى ومبنى ، هو استعمال الرمز والايحاء . فشجرة التين ـ التي لا تقاس جمالاً ـ بشجرة الكرز ـ ترمز للوطن الأم ـ فلسطين . وشجرة الكرز ـ بجمالها وروعة ألوانها ـ تمثل الوطن الثاني . وشجرة التين تبرز أثناء القراءة كشجرة حقيقية كأية شجرة تين حقيقية أخرى . ولكن ما ان ينتهي القارىء من القراءة حتى يدرك ان هناك شجرة تين أخرى حرص الأب على غرسها في مخيلة ابنته ووجدانها . وفي الأسطر الأخيرة من القصيدة تجد فرحة الأب ـ وهو راوي القصص الفنان ـ صداها في نفس الابنة ـ وهي الشاعرة الأصيلة . أرجو أن تجد ، عزيزي القارىء ، في نفسك صدى الفرحتين معاً] .

المحرر

بثمار أخرى ما كان أبي يبالي.
كان يشير إلى أشجار الكرز ويقول،
«أترين هذه؟ ليتها كانت تيناً. »
في الأمسيات كان يجلس إلى سريري
ناسجاً حكايات شعبية مثل مناديل صغيرة زاهية.
وفي حكاياته دائمًا شجرة تين.
حتى حين لا تكون مناسبة، كان يدسها.

ذات مرة كان جحا يسير فرأى شجرة تين.

أو، ربط جمله إلى شجرة تين ونام.

أو، عندما امسكوه والقوا عليه القبض فيما بعد كانت جيوبه ملآى بالتين.

في السادسة أكلت تينة جافة وهززت كتفي.

«ليست هذه ما أتحدث عنه! » قال

«ما أتحدث عنه هو تينة من الأرض مباشرة ـ

هبة من اللّه! ـ على غصن مثقل بحيث يلامس الأرض.

إن ما أتحدث عنه هو قطف أكبر واسمن وأحلى تينة

في العالم ووضعها في فمي. »

(وهنا كان يتوقف ويغمض عينيه.)

مضت سنوات، وعشنا في بيوت عديدة، وليس في أي منها شجر تين.

كان لدينا فاصولياء وكوسى وبقدونس وشمندر.

«ازرع واحدة! » قالت أمي، ولكن أبي لم يفعل ذلك أبدا.

كان يهتم بالحديقة اهتماماً فاتراً، كان ينسى أن يسقيها،

ويدع البامية تكبر أكثر مما ينبغي.

«يا له من حالم. انظري كم من الأشياء يبدؤها

ولا يكملها. »

آخر مرة انتقل فيها إلى بيت جديد تلقيت مكالمة هاتفية.

وإذ أبي، باللغة العربية، يغني اغنية ما سمعتها قط.

«ما هذا؟ » قلت.

«انتظري حتى ترين! »

أخذني إلى الحديقة الخلفية الجديدة.

وإذا هناك في قلب دالاس، تكساس،

شجرة تحمل أكبر وأسمن وأحلى تين في العالم.

«إنها أغنية شجرة التين! »

قال وهو يقطف ثمراته وكأنها امارات ناضجة،

رموز، تأكيد

لعالم كان دوماً عالمه الخاص.

☆ ☆ ☆

جريجوري أورفالي
(١٩٤٩ -)

د. عصام الصفدي

لمحة عامة :

ولد في لوس أنجلوس في عائلة تعمل في صنع الثياب النسائية . وجداه مهاجران من أصل سوري / لبناني . وقد ظهرت كتاباته في عدد من المجلات المعروفة . وهو مؤلف كتاب **أمام ألسنة اللهب : البحث عن تاريخ العرب الأمريكيين** (١٩٨٨) **(Before the Flames : A Quest for the History of Arab Americans)** . أول دواوينه الشعرية **عاصمة العزلة** (١٩٨٨) **(The Capital of Solitude)** . وهو يعمل في الصحافة والتدريس والتحرير . ولا بد من ذكر أنه أحد محرريّ **أوراق العنب : قرن من الشعر العربي الأمريكي** (١٩٨٨) **(Grape Leaves : A Century of Arab American Poetry)** وهو مصدر القصائد والمقدمات الموجودة في هذا الجزء من هذه المجموعة الأدبية .

وردة بـــروكـــلـــيـــن

ترجمة : د. عصام الصفدي

[هذه قصيدة نادرة تتخذ موضوعاً لها ظاهرة غريبة في مجال العلاقة بين الموت والحياة. ويعتمد فهم هذه القصيدة إلى حد بعيد على مخيلة القارىء] .

المحرر

صلاة أخرى، ورود منثورة ولاذعة
وقطعة أخرى من خشب البلوط تنتظر المفصلات.
مسمار آخر ـ وجسم مستنزف آخر ـ
زهرة قُطِفَت من فترة الكساد العظيم
لقد وُلِدَتْ فوق بيت الجنائز.

توقفت التوابيت عن الامتلاء بالساتان.
وأوقف الحانوتي غرزته.
عندما سمع صرخَتَك. اهتزت أضلاعه
للحياة التي تصرخ من فوق، الحياة
التي تسببت في تراخي القوائم.
وقعت علبة مسحوق على الساتان
ويد ذابلة. لم تكوني بحاجة
للمسكرة التي تَجُمِّل الميت

وما كنتِ بحاجة منذئذ . ذَرَفَـت الثريا
دموعاً جافة على المحنّـط.

هل تذوقت اللوز المحلَّــى
الذي مُــرِّرَ على لسانك؟ كان ذلك
الرجل الذي سيصبح زوجك. هل أحسست
بزيت الزيتون يُمــرَّر على العظم الغشائي
لراسك؟ قفزت صرختك أميالاً بحرية
عبر المحيط حاملة فلذة من العنب
وعروقاً مسدودة، وألسنة تلدغ
بالانجليزية. لم تكن صرختك انجليزية ولا عربية، ولكن حياة
من بيت جنائز، دموعاً
أكثر وفرة من الثريات، وبشرة
صافية كثلوج لبنان، ورغم
أنك كنت عمياء فقد كنت ترين
بعيون لمعت مثل العقيق اليماني، وكنت توقظين
الأحياء من بغضهم بصرخة
كان يمكن أن
أو تغني لابنك، الذي ضاق تنفسه، كي ينام

ليست شجرة، بل وردة
تفتحت في بروكلين
في بيتنا الأول، بيتنا الأخير.

☆ ☆ ☆

أصوات حديثة

بقلم : د. نبيل الشريف

شـهـد عقد العشـرينات من هذا القـرن اتجاهـات وانجـازات جـديدة في كافـة الفنـون . وتم افـتـتـاح العـديـد من المتـاحـف للفن الحـديث ، وأصـبـحـت ناطحـات السحاب من أبرز انجـازات الهندسـة المعمارية في القـرن العشرين. بينما فـرضت صناعة السينما الأمريكية نفسها على العـالم. وانتشرت مـوسيقى الجاز التي طورها الزنوج الأمريكيون ـ وهي إحدى الفنون التي ولدت في أمـريكا والأشـد تأثيراً ـ في العـالم. ومع الإختفاء أو التراجع التدريجي للمظالم القديمة التي كـان يتـعـرض لها الزنوج أتت (نهضـة هارلم) على شكل فيضان من الانجازات الأدبية في العشرينات كـتـبها شعراء ومسرحيون وروائيون زنوج سبروا من خلالها غور التجربة الأمريكية وبذلك مهدوا الطريق لظهور عدد كبير من الكتاب الزنوج بعد منتصف القرن.

وقـبل نهاية العـقـد حـدث مـا يعـرف بانهيار سوق الأوراق والأسهم المالية عام ١٩٢٩ والكسـاد العظيم في الثـلاثينات وهي أحـداث كـارثيـة كان من شأنها أن هزت المجتمع الأمريكي وبددت الشعور بالراحة والإطمئنان . ومن الطبيعي أن يؤدي التوقف المفاجيء للإزدهار ومن ثم الكسـاد الاقـتـصادي إلى اضعاف ثقة الأمة بحكومتها وزعمائها السياسين . وهكذا بدأ المبدعون الأمـريكيون في كافة الفنون ينتجـون أعمالاً تنطـوي على نقد سياسـي واجتماعـي . فالرسامون صـوروا الحـيـاة الأمـريكيـة في المزارع والمدن بصـورة قاتمة بينما سجل المصورون بكاميراتهم بؤس الشرائح بالغـة الفقر. ووصف جون شتاينبيك وغيره من الكتاب حياة عمال المصانع الذين يتـصـبـبـون عـرقـاً . والمزارعين الذين اضطـروا للهـجـرة ، سـواء في التـقـارير الصـحفية أو القصص القصيرة أو الروايات مثل رواية (كروم السخط) .

وانتـهت سنوات المتـاعب الاجتماعية وتلك التوجهات الأدبية في مرحلة الكساد العظيم مع عـودة الانتـعـاش والازدهار الاقـتـصـادي من جهة والمشاكل والاهتمامات التي أفرزتها الحرب

العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) من جـهـة أخـرى . وظهـر بعد الحرب جيل جديد من الكتاب الأمـريكيين أخذوا يكتبون بأسلوب ينطوي على الشك والسخرية مثل الكتاب الواقعيين والطبيعيين الذين ظهـروا قبلهم. وفي الخمسينات لجأ الكتاب إلى أسلوب نثري يحاكي أسلوب كل من ارنست همنغـواي وسكوت فـيـتـز جيرالد وتكنيك روائي (سردي) مقتبس عن ويليام فولكنر وتحليلات واسـتشرافـات سـيكولوجـيـة مـقـتـبسة عن كتابات سيجموند فرويد وأتباعه. أما في الستينات والسـبـعـينات فـقـد تحـول الكتاب الامريكيون وعلى نحو متزايد إلى التكنيك التجريبي والفكاهة العابثة والسخرية من تجربة اللامعقول والفوضى.

كـان من بين أشـهـر الكتـاب الأمريكيين في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية. الروائي نورمـان مـيلر الذي صـور الحـرب في قصته (العارية والميت) عام ١٩٤٨ كـتضحية بلا معنى أشـعلهـا وقـادها ضـبـاط قساة وتخللتها فواحش وقذارات روحية وفيزيائية. وقد واصل ميلر الكتـابة في العـقـود التـاليـة مـسجلاً تجربته كمراقب ومشارك في أحداث العصر الفاجعة. بينما نلاحظ أن الروائيين وكـتـاب القصة القصيرة في الجنوب الامريكي ومنهم ايدورا ويلتي وفلانرى أوكـونور قـد تأثروا بفـولكنر والتـقـاليـد الادبيـة المحليـة وهي الكتـابة عن النزوات والفكاهات والمفـارقـات، والعنف والمخـاطر التي تنطوي عليها الحياة في بلدة صغيرة أو في الريف الأمريكي. أمـا شـاؤل بيلو وبرنارد مـالامود وفيليب روث فقد صوروا الأبطال غير المنسجمين مع أنفسهم ولا مع مجتمـعـاتهم الذين يتوقون إلى حياة لها معنى وإلى تجدد وانبعاث أخلاقي. بينما أصبح الإنسان العادي (أي غير البطل) شخصية شائعة في الروايات الأمريكية سواء كضحية أو ثائر أو فاشل.

وإذا فكر البـاحث باخـتـيـار أعظم خمسـة روائيين في الثـلاثين سنة الماضية . فلن يجد صـعـوبة في ذلك وسيختار بلا تردد بيلو وميلر ونابوكوف وأبدايك وبنشون ، ورغم اختلافهم عن بعـضـهم في عـدة جـوانب لكنهم مـتشابهون في اشراق العبارة والوضوح والاسلوب المتميز . وقـد اختفت الأصوات التي كانت تنعى تراجع الفن الروائي بل أن المرء لا يسعه إلا الإعجاب بهذا العدد الكبير من الروايات والقصص الجيدة التي غمرت المكتبات منذ نهاية الحرب الفيتنامية. كما أن الحـركة النسائية التي أصبحت حقيقة ثقافية راسخة في أواخر الستينات اضطلعت بدور بارز في تهيئة الظروف والشروط الموضـوعية لظهور عدد متزايد ـ أكثر من أي وقت مضى في التاريخ الأمـريكي ـ من الأديبـات اللواتي يكتـبن الروايات والقـصص القـصيرة والمذكـرات والنقد الثقافي والإجـتماعي بعـدة أساليب لها خصوصيتها ومن وجهات نظر متعددة. لكن لم تستطع أي كاتبة أن تفـرض أسلوبها وخـيـالها كالادباء الكبار أمثال بورتر وويلتي وأوكونور أو ماري ماكارثي رغم جـدارة أعمال سـوزان سـونتـاغ بالإطراء والإعـجـاب وتأتي بعدها مباشرة جويس كارول

أوتس . وقد لا يكون تقسيم الكتاب حسب الجنس مفيداً. لأننا نستطيع على الأقل ملاحظة أن ثمة مواضيع جديدة ومواداً جديدة للقصص والمذكرات. بينما ساهم الحوار حول ما إذا كان ثمة ضرورة للنقد (الأنثوي) في الأدب بإحياء وإثراء الموقف الأدبي بشكل عام.

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالإهتمام وهي أن معظم الإنتاج النثري الجيد قد صدر في السنوات التي أعقبت الحرب ونجده في مؤلفات أرموند ويلسون ومالكولم اكس وميلر وأبدايك وبالدوين وسونتاغ وخاصة مؤلفاتهم غير الخيالية. كذلك نلاحظ أن معظم افضل الروايات في الثلاثين سنة الماضية اقل تجهمًا وصعوبة ولم يطمح مؤلفوها في جعلها من الروائع كما كان يطمح بكل تاكيد الروائيون العصريون مثل جويس وفولكنر . وهذا لا ينفي حقيقة أن كتاب بنشون (جاذبية قوس قزح) صعب واشكالي وكان له أثر على أساتذة وطلاب الأدب. لكن روايات أواخر الستينات اتسمت بمزيج من الواقعية والخيال كما هو الشأن في رواية جون غاردنر (حوارات أشعة الشمس) عام ١٩٧٢ و (ضوء أكتوبر) عام ١٩٧٦ ورواية دكتوروف (موسيقى الراغتايم Ragtime) عام ١٩٧٥ ورواية روبرت ستون (جنود الكلب) عام ١٩٧٥ ومعظم هذه الروايات عالجت المواقف المختلفة من الحرب الفيتنامية عن طريق الحوار.

* * *

المسرح

وتأثر المسرح الأمريكي بارتفاع الاسعار والمنافسة التي تعرض لها من شبكات التلفزيون ففقد زخمه بعد الحرب. لكنه على أي حال حافظ على شيء من نشاطه السابق في مسارح برودواي والعروض التجريبية في المسارح الإقليمية والجامعات. وكانت أعمال أشهر كتاب الدراما في تلك المرحلة تتراوح بين الواقعية الأمريكية التقليدية والسيريالية السيكولوجية المبهمة. وقد عكست مسرحيات أرثر ميلر الواقعية جوانب من صراع الأفراد في المجتمع وفشل نموذج النجاح الأمريكي. وألف تنيسي ويليامز مسرحيات درامية يتمتع ابطالها بأرواح مفرطة الحساسية يكتبها ويقمعها القدر من جهة وأوهامها الارستقراطية من جهة أخرى. وكانت مسرحيات ويليامز مدججة بالرموز مثل مسرحيات ويليام ألبي التي تمتاز أعماله فضلاً عن الرمزية بالحوارات الطويلة وغموض المعنى.

* * *

الشعر

منذ الحرب العالمية الثانية طبع عدد كبير من القصائد ودواوين الشعر لم تشهدها أمريكا في أي مرحلة سابقة من تاريخها. ومع ظهور شعراء جدد وازدياد الاقبال على مطالعة الشعر وتذوقه، تغيرت المعايير النقدية وأصبح شعراء الماضي العظام مثل تي. إس. إليوت وروبرت فروست موضة أو تقليعة قديمة. وظهرت اتجاهات شعرية جديدة تسترشد وتستلهم أساليب ومضامين قصائد والت ويتمان ووليام كارولز ويليامز وولاس ستيفنز وايزرا باوند. ولعل أحد أكثر الشعراء حضوراً في هذه المرحلة هو الن غينسبرغ الذي برز من ظاهرة ما يسمى (الجيل المسحوق) أو (جيل الصعاليك) بعد الحرب ويصور في قصائده أمجاد ومباذل أمريكا. ورغم أن الشاعر ثيودور روثكه مسكون بالريبة ، لكنه يتغنى في قصائده بأسرار وغموض الحياة. كما سجل الشاعر روبرت لويل مشاكله ومعاناته بأسلوب اعتراف شاعري متميز ركز فيه على فظائع الحياة في هذا العصر. وظهر عدد متزايد من الأديبات. روائيات ومؤلفات قصص قصيرة مثل جوليس كارول أوتس وشاعرات مثل سيلفيا بلاث وآن سكستون وأدريان ريتش ودينيس لفرتوف. أمددن الأدب الأمريكي بقوة وآفاق جديدة. وأصبح الشعر الأمريكي في الستينات والسبعينات أهم جانب في الأدب الأمريكي. ونتيجة لما أفرزته الحرب القذرة في فيتنام والمتناقضات في المجتمع الأمريكي المتعدد الاتجاهات والميول والاعراق والأديان فقد واصل الكتاب الأمريكيون - والشعراء منهم على نحو خاص - تجديد اللغة الأمريكية لمجابهة التساؤلات الكبيرة حول الحياة الأمريكية وسبر أغوار حياتهم ونظراتهم ومفاهيمهم في محاولة لإيجاد نظام في الحياة الأمريكية التي تتسم بالتباين والتنوع. وإعادة صياغة تجاربهم في أسطورة غير محددة الزمن كما فعل قبلهم أجدادهم الذين استوطنوا أمريكا.

وكانت بعض قصائد الاربعينات سياسية محضة اتجهت مضامينها في الخمسينات إلى الاحتجاج العام بينما ركزت في الستينات وبشكل محدد على انتقاد الاوضاع السائدة . وكان المسحوقون أو الصعاليك في الخمسينات قد اتخذوا قصيدة (الصرخة) بياناً لهم ولم يكن لديهم موضوع معين للاحتجاج بل كانت قصائدهم تصور وتدعو إلى أنماط من الحياة أكثر حرية وقد ربطتهم كلمة (الانسحاق) أو الصعلكة (بيتس). التي تنطوي على تورية ، بتجمعات مسحوقة تتعاطى المخدرات والشذوذ الجنسي والتطرف السياسي من جهة وإلى صعلكة جديدة وفرتها طقوس الديانات الشرقية التي اعتنقها أعضاء كثيرون من هذا الجيل. ويعتبر غاري شنايدر الذي

كـان في الخـمـسينات مع الصعاليك في سان فرانسيسكو نموذجاً عنهم وقد امتدت احتجاجاتهم وركزت على العقود التالية. وكانوا يدعون للعودة إلى الحياة البسيطة.

وفي الستـينـات التـحـق كـثيرون من الشـعـراء بحـركات الاحتجـاج وبعـض الحركات الاصـلاحـيـة وكـانت قـصـائد دينيس لفـرتوف وأدريان ريتش وروبرت لويل وغيرهم تهاجم مـشاركة أمريكا في الحرب الفيتنامية ودعمها للنظام الفاسد في جنوب فيتنام. وقد رفض روبرت لويل علناً دعوة الرئيس جونسون لتناول العشاء في البيت الأبيض وشارك في المسيرة التي نظمت عام ١٩٦٧ ضـد البنتـاغـون . ووصف نورمان ميلر تلك المسيرة في قصته (جيوش الليل) كما اسـتـغل روبرت بلاي وآخـرون مناسـبات استلام جوائز الشعر لإلقاء بيانات مناهضة للحرب. وكـان لدى حـركـات التـحـرر المهمة في الستينات ـ التي تدعو إلى القوة السوداء وتحرير النساء وحـقـوق الشـاذين جنسـيـاً ـ ناطقـون رسـمـيون باسمها. أما الشعراء السود مثل غويندولين بروكس و لو روي جـونز (التي غيرت اسـمـهـا بعـد ذلك إلى ايما موباراكا) الذين حققوا نجاحاً ملحـوظاً في أوسـاط الجماهير البيضاء فقد تحولوا إلى الجماهير السوداء بشكل حصري. وظهرت مطابع صـغيرة وعلى نحـو خـاص مطبـعـة برود سايد لطباعة دواوين وقصائد الشعراء السود وغيرهم من الشعراء الذين كرسوا أنفسهم للكتابة في الشؤون النسائية.

كـانت بعض قـصـائد أواخـر السـتـينات تتـسم بالإصرار والإلحـاح والعزيمة التي تميز الكراسـات السـيـاسـيـة، لكن ابرز آثار هذا الاحتجاج السياسي على الحركة الشعرية هو توسيع نطاق الأصـوات المتـوفـرة في النثـر والشـعـر وهو مـا أدى إلى زيادة مأزق الأفراد والتأكيد على الرغـبـات وعـوامل الغضب والسخط الكامنة. واهتم الشعراء السود بالقافية وقيمة اللفظ وقابلية الشعر للغناء.

ويمكن القـول أن مـعظم قـصـائد السـتينات والسبعينات كانت سياسية المضمون. ومع سـيطرة التلفـزيون أصبح الشعر يوفر مصدراً خاصاً للتعبير الشخصي من جهة ومقاومة ضغط اللغة الرسمية الدارجة من جهة ثانية وامكانية الوصول إلى مناطق اللاشعور من جهة ثالثة.

واسـتـجـابة للضغوط الداخلية والخارجية في الخمسينات والستينات ظهرت أنواع جديدة من القـصائد إلى جانب القصائد التي كانت مفضلة في أواخر الأربعينات. وصار الشعراء يلجأون إلى أشكال أكـثـر انفـتـاحاً لعرض تقلب الأهواء واضطرابات الدماغ بدل المباشرة والتلقائية وهكذا أصـبـحـوا لا يعـتمدون كثيراً على القافية أو المقاطع المنتظمة بل بدأوا يركبون ويوزعون المقاطع بطريقـة جديدة على الصفحة. ولعل أفضل من يمثل هذا الإتجاه بيانات ما يسمى (مدرسة الجبل الاسـود) وهم مجمـوعـة من الشعراء اجتمعوا في كلية الجبل الأسود في ولاية كارولينا الشمالية

وتأثروا برئيسها شارلز أولسون الذي نشرت تصريحاته عن (الشعر الاسقاطي) لأول مرة عام ١٩٥٠ وكان يركز على أهمية شكل القصيدة وتركيب مقاطعها على الصفحة . وهدفه وضع الشعر قيد اللمس ـ كما هو الشأن في بعض أشكال التأمل واليوغا ـ ولو أدى ذلك إلى التضحية بالقافية. ويتعين على الشاعر برأيه ألا يستعد عقلياً أو أن يختزن مشاعر مكثفة قبل قرض الشعر لأن الشعر ينبغي أن يصور حقيقة وصدق المشاعر في لحظات قرضه . وكان ألين جينسبرغ وأدريان ريتش يؤرخان قصائدهما للإشارة بأن المشاعر التي صوراها قابلة للمراجعة في تجاربهما اللاحقة.

وظهرت مدرسة أخرى موازية بين جماعة من الشعراء الذين تأثروا بالفنانين التجريديين والانطباعيين في نيويورك. وأطلقوا على أنفسهم اسم (مدرسة نيويورك الجديدة) وكان من بينهم جون أشبيري وكينيث كوخ وجيمس شويلر وفرانك أوهارا الذي كان يتزعمهم ومن أقواله: «لقد أصبح الشعر في النهاية بين شخصين بدل أن يكون بين صفحتين وأنا أعترف بكل تواضع أن ذلك قد يعني موت الأدب الذي نعرفه» .

وفي الستينات وما تلاها ازداد الشعر الأمريكي ثراء وتعددت المواضيع التي يعالجها وصارت كافة المدارس الشعرية على اختلافها تسعى للإقتراب من القراء وذلك بالإبتعاد عن التعقيد . ولذلك نجد قصائد السبعينات ليست أكثر تجديداً وإبداعاً من قصائد الستينات لكن الحوافز السياسية التي كانت وراء الشعر الراديكالي قد بهتت وخف تأثيرها والإستثناء الوحيد هو الشعر النسائي الذي استمر استجابة لقصائد أدريان ريتش واكتشاف واستشراف جوانب خاصة بالإناث.

لقد غير عقد الستينات وجه الشعر الأمريكي. وبدا كان مهمة شعراء السبعينات ليس التجديد بمقدار ما هي ترسيخ وربما ترجمة وتفسير الانجازات الشعرية في العقود الثلاثة السابقة. ولعل أكثر ما يميز عالم الشعر الأمريكي الآن تعدد وظائفه وقدرة الشعراء الأمريكيين على امتصاص المؤثرات المختلفة. ولم يهجر الشعراء الشعر التقليدي بل أن هذه القصائد استمرت بين عدد آخر من المدارس الشعرية لكن القافية لم تعد إلزامية وصار بعض الشعراء يستعيضون عن القافية بالموسيقى الداخلية للقصيدة.

☆ ☆ ☆

جون تشيفر
(١٩١٢ -)

فخري صالح

لمحة عامة :

ولد جون تشيفر في نيو انجلاند ، التي كانت البيئة التي استل منها مادة قصصه ورواياته التي تتخذ من انهيار اللحمة العائلية في مسقط رأسه مادة لها. نشر مشاهده القصصية في الـ «نيو ربيلك» New Republic وفي الـ «نيويوركر» New Yorker .

يعد تشيفر المؤرخ الفعلي للشريحة العليا من الطبقة المتوسطة في أمريكا وذلك من وجهة نظر الكاتب الهجائي الذي يتخذ من مشكلات هذه الطبقة وسلوكياتها مصدراً لتأليف هجائية ساخرة. والمشاهد الساخرة التي كتبها حول السكان المحليين والمهاجرين من أبناء نيويورك ونيو انجلاند تقترب به من التقليد الأدبي الذي يعتني بتصوير العادات والسلوك أكثر من اعتنائه بالمسائل الأخلاقية . ويمكن أن نستنتج اهتماماته الفعلية ككاتب من العنوان الذي أعطاه لمجموعته القصصية الأولى **«الطريقة التي يعيش بها بعض الناس»** (١٩٤٣) ، وقد واصل تصوير مشكلات سكان ضواحي مدينة نيويورك في أربع مجموعات قصصية تالية **«المذياع الضخم»** (١٩٥٣)، و **«لص المنازل في شيدي هيل»** (١٩٥٨) ، و **«عالم التفاحات»** (١٩٧٢)، و **«البازدار»** (١٩٧٧) .

في عمل تشيفر تعيش النساء في عالم من الزيجات المضطربة ومشاعر الضجر التي يتغلبن عليها بأن يعشن قصصاً غرامية متخيلة . أما الرجال في قصصه فهم غالباً رجال في منتصف العمر تهاجمهم خيالات وعفاريت تدفعهم إلى ارتكاب سلسلة من الجرائم أو السفر ، بصورة طقسية تعبدية ، عبر المقاطعة سابحين عبر البرك المنتشرة في الضواحي ، كما نرى في قصته **«السابح»** .

السـابـح

ترجمة : فخري صالح

كـان يوماً من أيام آحاد منتصف الصيف عندما يجلس كل امرىء ويقول «لقد أفـرطت في الشرب البـارحـة» . لربما تكون سـمعت واحداً من أبناء الأبرشية يهمس بهذه العـبـارة وهو يغـادر الكنيـسة ، أو سمعتها تسقط من بين شفتي القسيس نفسه وهو يصـارع رداءه الكنسي في حـجرة الاجتماعات، أو سمعتها في حلقات الغولف أو مـلاعب التنس ، أو قـد تكون سمعتها من قائد مجموعة اودوبون الذي يصارع الآثار الرهيـبـة لشراب البـارحـة . قـال وسترهيـزي : «لقـد أفـرطت في الشراب» . قالت لوسـيندا ميريل «نحن جميـعـاً أفـرطنا في الشراب» . أما هيلين وسترهيزي فقالت «أنا أفرطت في شرب الكلاريت» (١) .

كـان هذا الكلام يدور على حـافـة بركة وسترهيزي. كانت البركة، التي يغذيها بئر إرتوازي ذو محتـوى كـبير من مـادة الحديد، تبدو كظل شاحب من الخضرة. كان يوماً جميـلاً، وفي الغرب لاحت كتلة ضخمة من الغيوم المتراكمة تشبه مدينة ترى من بعيـد ـ من مقدمة سفينة تقترب. قد يكون لها اسم ما. لشبونة. هاكينساك. وكانت الشـمس حـارة. جلس نيـدي ميريل قـرب الماء الأخضر، يد في الماء واليـد الأخـرى تحيط بكأس من الجن. كـان رجـلاً نحـيـلاً ـ ونحافته تبدو وكأنها تنتسب إلى نحافة الشبـاب ـ وإذ كـان بعيـداً تمامـاً عن أن يكون شـاباً فقد انزلق عن الدرابزين ذلك الصبـاح وصـفـع قفـا افروديـت البرونزي الذي كان منتصبـاً على طاولـة الردهـة ، وهرول باتجـاه رائحة القهوة في غرفة طعامه.

قـد يكون قـارن ذلك اليوم بيوم من أيام الصيف، خصوصاً بالساعات الأخيرة من ذلك اليـوم، وحـيث إنه كـان ينقـصه مضرب تنس أو حقيبة بحرية فإن الإنطباع المتـولد كـان بالتأكـيـد شـيئاً متعلقاً بالشباب والرياضة والجو المعتدل. كان قد أمضى

الوقت يسبح والآن ها هو يتنفس بصوت عميق، بصوت كأنه الشخير كما لو كان يستطيع أن يتجرع في رئتيه مكونات تلك اللحظة، حرارة الشمس وكثافة سعادته. كان ذلك يبدو وكأنه يتدفق في صدره. منزله ينتصب في ميدان بوليت على بعد ثمانية أميال باتجاه الجنوب حيث كانت بناته الأربع الجميلات قد تناولن طعامهن وقد يكن يلعبن التنس الآن. خطر بباله إنه إذا أخذ مساراً متعرجاً باتجاه الجنوب الغربي فإنه قد يستطيع أن يصل بيته سباحة.

لم تكن حياته مقيدة ، والسرور الذي خامره لايراد هذه الملاحظة لم يكن من الممكن تفسيره باقتراح الهروب. بدا وكأنه يرى، بعين رسام الخرائط، ذلك الخيط من برك السباحة، الجدول شبه السري الذي يسير في مسار متعرج عبر المقاطعة. لقد حظي باكتشاف ، بمساهمة في الجغرافية الحديثة ؛ سوف يدعو الجدول لوسيندا على اسم امرأته. لم يكن صاحب نكتة ولم يكن رجلاً أحمق بل كان بالتحديد شخصاً أصيلاً ولديه فكرة غامضة ومتواضعة عن نفسه بوصفه شخصية أسطورية. كان اليوم جميلاً وبدا له أن شوطاً من السباحة يمكن أن يزيد من الاحتفال والاحساس بهذا الجمال.

خلع سترة كانت مرمية على كتفيه وغطس في الماء. إنه يكن ازدراء لا تفسير له للرجال الذين لا يندفعون بقوة إلى برك السباحة. سبح سباحة سريعة متقلبة ورأسه مخفوض في الماء متنفساً بعد كل ضربة أو بعد كل أربع ضربات عاداً في مكان ما من رأسه وبصورة جيدة واحد ـ اثنان ـ واحد ـ اثنان لركلة مرتعشة. لم تكن ضربة نافعة للمسافات الطويلة بل إن التعود على السباحة زود هذه الرياضة ببعض العادات وفي الجزء الخاص به من العالم كانت السباحة السريعة ورأسه مخفوض في الماء عادة مألوفة. فأن يكون المرء محاطاً ومسنوداً بالماء الخفيف الخضرة هو شيء أقل بهجة من العودة إلى الظرف الطبيعي، وبالنسبة له كان يفضل أن يسبح دون بنطال، ولكن ذلك لم يكن ممكناً آخذين بعين الاعتبار المشروع الذي أخذه على عاتقه. ارتفع بجذعه فوق الافريز ـ لم يستعمل السلم أبداً ـ وسبح بمحاذاة المرج. وعندما سألته لوسيندا إلى أين هو ذاهب قال لها إنه يسبح باتجاه البيت.

كانت الخرائط والرسومات التي عليه أن يهتدي بها أشياء متذكرة أو خيالية

ولكنهـا واضـحـة بدرجـة كـافـيـة. في البداية كان هناك عائلة غراهام ثم عائلة هامر وعـائلـة لير وعـائلة هاولاند ثم عـائلة كـروسكب. سـوف يقطع شـارع ديتهار باتجـاه عـائلة بنكر، ثم يتـوجـه لمسـافـة قـصيرة براً إلى عائلة ليفي ثم إلى عائلة ولتشر باتجاه بركـة السـبـاحـة العامة في لانكاستر. ثم ستأتي عائلات هالوران وساتشسي وبيزوانغر وشيرلي ادامـز وغـيلمارتن وكـلايد. كـان اليـوم جميـلاً، وعيشه في عالم زود بالماء بكرم لا مـثـيل له بدا نوعـاً من الرحمة، نوعـاً من الاحـسـان. كان مبتهجاً إلى الحد الذي جعـله يركض عبر العـشب . فأن يشق طريقـه إلى بيتـه بصـورة غير مألوفـة أعطاه شعـوراً بأنه حـاج ، مكتـشف ، رجل مـوعـود ، وقد عرف انه سيجد أصدقاء عبر مـسـافـة الطريق ؛ أصدقاء سوف يتواجدون على هيئة صفوف طويلة على ضفتي نهر لوسيندا.

مـشـى عبر سيـاج يفـصـل أرض عـائلة وسترهيـزي عن أرض عـائلة غـراهام قـاطعـاً المسافة تحت أشجار التفاح المزهرة ماراً بالسقيفة التي تؤوي المضخة والمصفاة الخاصتين بهم، متجهاً إلى بركة عائلة غراهام. قالت السيدة غراهام «لم يا نيدي. أية مـفاجأة عظيمة، لقد حاولت أن أتصل بك طيلة الصباح. دعيني أعد لك شراباً. » رأى حـينذاك، كـمكتـشف، إن عادات وتقاليد الضيافة لدى أهالي المنطقة ينبغي أن تعـالج بصـورة دبلومـاسـية إذا كان راغباً في الوصول إلى هدفه. لم يكن يريد أن يبدو غـريب التصرف أو رجـلاً وقـحـاً أمام عائلة غراهام ولكن لم يكن لديه الوقت الكافي للتـسكع هناك. قطع المسـافـة الخـاصـة ببركـتهم وانضم إليهم تحت الشمس ، لكن وصـول سيـارتين مليئتين بأصـدقـاء من كونيكتكت بعد بضع دقائق أنقذه ، فخلال اهتـيـاج اجتماع الشمل استطاع أن ينزلق من بينهم . هبط إلى أسفل أمام بيت عائلة غـراهام وخطا فـوق سيـاج مليء بالأشـواك قـاطعـاً الأرض الفضاء المؤدية إلى أملاك عـائلة هامـر. السـيـدة هامر رأته، وهي تنظر من بين أزهارها، يسبح على مقربة رغم إنها لم تكن مـتأكدة من هويته. عائلة لير سمعته ينثر رشاش الماء عبر النوافذ المفتوحة لغـرفـة جلوسـهـا . أما عائلتا هاولاند وكوسكب فكانتا غائبتين عن بيتيهما . بعد أن غـادر أمـلاك عائلة هاولاند قطع شارع ديتهار وتوجه إلى أملاك عائلة بنكر حيث كان يستطيع سماع ضجة حفلة من مسافة بعيدة.

انكسرت الأصوات والضحكات في الماء وبدت وكأنها قد تعلقت في الهواء. كانت بركة عائلة بنكر في حالة مد وقد صعد هو بضع درجات إلى الشرفة حيث تجمع ما بين خمسة وعشرين أو ثلاثين رجلاً وامرأة يشربون. الشخص الوحيد الذي كان في الماء هو رستي تاورز، الذي طفا هناك فوق طوف مطاطي. كم كانت ضفتا نهر لوسيندا جميلتين ومخضوضرتين! الرجال والنساء الأثرياء تجمعوا بمحاذاة المياه التي بلون الياقوت المزرق حيث كان مستخدمو متعهدي تقديم الطعام الذين يرتدون معاطف بيضاء يوزعون عليهم كؤوس الجن المثلج. فوق الرؤوس تماماً كانت طائرة تدريب هافيلاند حمراء اللون تحوم وتحوم وتحوم في السماء بشيء من بهجة طفل يركب أرجوحة. شعر ند بتأثر عابر بالمشهد، بتعاطف مع الجمع وكأنه كان شيئاً يمكن له أن يلمسه. من بعيد سمع صوت رعد. وحالما رأته اينيد بنكر بدأت بالصراخ: «أنظروا من هناك! أية مفاجأة عظيمة! عندما قالت لوسيندا إنك لا تستطيع المجيء ظننت أنني سأموت.» شقت طريقها إليه من بين الجمع، وعندما انتهيا من تقبيل بعضهما قادته إلى البار، وهو تقدم أعاقته حقيقة كونه توقف في طريقه إلى البار ليقبل ثماني إلى عشر نساء أخريات ويصافح العديد من الرجال. أحد السقاة الذي رآه من قبل في مئات الحفلات ناوله مبتسماً كأساً من الجن والتونيك، فتوقف للحظة بجانب البار متهيباً من التورط في أية محادثة قد تعيق رحلته. وعندما بدا وإنه سيصبح محاطاً بالناس غطس في الماء وسبح بمحاذاة حافة البركة متجنباً الاصطدام بطوف رستي. على الطرف البعيد للبركة تجاوز الزوجين توملنسون بإبتسامة عريضة وعدا باتجاه ممر الحديقة. جرح الحصى أقدامه لكن ذلك كان المنغص الوحيد. كانت الحفلة محصورة حول البركة وكلما توجه باتجاه البيت كان يسمع الأصوات المائية البارعة تخفت وتتلاشى، ويسمع ضجة عالية تنبعث من مذياع في مطبخ عائلة بنكر حيث كان هناك شخص ما يستمع إلى لعبة كرة. إنها ظهيرة يوم الأحد. شق طريقه بين السيارات الهاجعة في المرآب ثم شق طريقه إلى أسفل باتجاه الحافة العشبية لمخرج السيارات ومن ثم إلى مجاز ايلوايفز. لم يكن يرغب أن يرى وهو يرتدي بنطال السباحة القصير في الطريق ولكن لم يكن هناك أية إشارات ضوئية فقطع المسافة القصيرة باتجاه مخرج السيارات في بيت ليفي الذي تشير إليه إشارة ملكية خاصة وأنبوب أخضر يشير إلى النيويورك تايمز. كانت أبواب

المنازل ونوافذه جميعاً مفتوحة لكن لم يكن هناك أية علامات لوجود حياة في الداخل؛ ولم يسمع حتى نباح كلب. استدار حول المنزل باتجاه البركة ورأى أن عائلة ليفي كانت قد غادرت منذ فترة وجيزة. أكواب وزجاجات وصحون من البندق كانت مصفوفة على الجهة البعيدة من الطاولة، حيث يوجد حوض استحمام أو مبنى مطل على منظر خلاب وقد علقت عليه فوانيس يابانية.

بعد أن قطع البركة أخذ كأساً وكرعها. كانت تلك الكأس الرابعة أو الخامسة ولم يكن قد سبح سوى نصف مسافة نهر لوسيندا. شعر بالتعب والنظافة وبأنه سعيد لكونه وحيداً تلك اللحظة؛ شعر بالسعادة لكل شيء.

سوف تهب العاصفة. كانت الغيوم الضخمة المتراكمة ـ تلك المدينة ـ قد ارتفعت وأصبحت أكثر سواداً، وبينما كان يجلس هناك سمع قرع الرعد ثانية. كانت طائرة التدريب من نوع هافيلاند لا تزال تحوم فوق الرؤوس وبدا لند إن باستطاعته أن يسمع ضحك الطيار وسعادته في تلك الظهيرة؛ ولكنه إذ سمع صوت قصف الرعد ثانية انطلق باتجاه البيت. انطلقت صافرة قطار فتساءل عن الوقت. الرابعة؟ الخامسة؟ فكر في محطة المنطقة في تلك الساعة حيث ينتظر نادل يرتدي سترة سوداء تختفي تحت معطف مطري، وقزم يحمل بعض الأزهار الملفوفة داخل صحيفة، وامرأة كانت تبكي، القطار الذي سيتوقف في المحطة. زحفت العتمة فجأة؛ كانت تلك اللحظة هي التي تبدو فيها الطيور ذات الرؤوس المدببة وكأنها تدوزن أغنيتها على إيقاع التعرف الذكي الدقيق على العاصفة التي تقترب. ثم سمع صوتاً رقيقاً لإندفاع الماء من قمة شجرة بلوط على ظهره وكأن سدادة حنفية أزيلت واندلق الماء منها. ثم سمع ضجة نوافير تهطل من قمم الأشجار الطويلة جميعها. لم أحبّ العواصف، ما هو المعنى الذي يختفي وراء انفعاله عندما ينفتح الباب بعنف وتدخل الريح الماطرة بوقاحة صاعدة الدرج، لم بدت مهمة بسيطة كإغلاق نوافذ بيت قديم ملائمة وملحة ، لم كانت العلامات المائية الأولى لهبوب ريح العاصفة تحمل بالنسبة له الصوت الذي يصعب عدم تمييزه للأخبار الحسنة والفرح والأنباء السعيدة ؟ ثم سمع صوت إنفجار ، وفاحت رائحة كورديت (٢) ، وضرب المطر الفوانيس اليابانية التي اشترتها السيدة ليفي السنة قبل الماضية من

كيوتو، أم إنها في السنة التي سبقتها؟

استراح في مبنى عائلة ليفي المطل على المناظر الخلابة حتى مرت العاصفة. برد الهواء بسبب هطول المطر وجعله ذلك يرتعد. قوة الريح جردّت شجرة القيقب من أوراقها الحمراء والصفراء ونثرتها على العشب وفوق الماء. وبما أن الوقت كان منتصف صيف فإنه من الواضح أن الشجرة كانت مصابة بإحدى الآفات، وشعر لذلك بحزن خاص لعلامات مقدم الخريف. استجمع قواه، وأفرغ كأسه، واتجه نحو بركة عائلة ويلتشر. وهذا يعني قطع حلبة ليندلي لسباق الخيل، وقد استغرب أن يجدها مغطاة بالعشب ويجد الحواجز وقد فككت جميعاً. تساءل فيما إذا كانت عائلة ليندلي قد باعت الجياد أو إنها سافرت في الصيف وصرفت الجياد إلى مكان ما لإطعامها. بدا وكأنه يتذكر إنه سمع شيئاً عن عائلة ليندلي وجيادها لكن الذاكرة لم تكن صافية تماماً. مضى حافي القدمين على العشب الرطب باتجاه أراضي عائلة ويلتشر حيث وجد إن بركتها كانت جافة.

هذا الصدع في سلسلته المائية خيب أمله على نحو مضحك، وشعر مثل مكتشف كان يبحث عن بداية جدول غزير الماء ووجد جدولاً راكداً. كان مخيب الأمل ومتحيراً. إن من المألوف بصورة كافية أن يسافر الناس في الصيف ولكن لا أحد قام بتجفيف بركته قبل أن يسافر. بالتأكيد إن عائلة ويلتشر رحلت. كان أثاث البركة مطوياً وملفوفاً ومغطى بقماش مشمع. حوض الاستحمام كان مغلقاً. نوافذ البيت جميعها كانت مغلقة، وعندما دار حول المنزل باتجاه مخرج السيارات في الواجهة الأمامية رأى إشارة « البيع » مثبتة على شجرة . منذ متى لم يلتق عائلة ويلتشر ـ ومنذ متى اعتذر هو ولوسيندا عن دعوتهم لتناول طعام الغداء. بدا وكأن الوقت لا يتجاوز أسبوعاً أو ما يقرب ذلك. هل خانته ذاكرته أم إنه دربها على كبت الحقائق غير السارة بحيث دمر احساسه بالحقيقة ؟ فيما بعد وخلال المسافة التي قطعها سمع صوت لعبة التنس. جعله ذلك يشعر بالفرح، وطرد كل مخاوفه وجعله يحدق بالسماء الملبدة بالغيوم ويواجه الهواء البارد بنوع من اللامبالاة . إن هذا هو اليوم الذي سبح فيه نيدي ميريل عبر المقاطعة. كان ذلك اليوم يومه ! ثم استعد لأكثر المراحل صعوبة.

لـو إنـك كنت ذهبت لركـوب الخـيل ظهيرة يوم الأحـد لربما كنت رأيتـه ذلك اليـوم ، عارياً تقريباً ، واقفاً على أكتاف طريق ٤٢٤ ، ينتظر الفرصة المناسبة ليقطع الطريق. لربما كنت ستـتساءل إن كان ضحية لعبة قذرة، أو إن سيارته تعطلت، أو إنه كـان شـخـصـاً مـعـتـوهاً. بدا مثيراً للشفقة وهو يقف حافي القدمين بين مخلفات الطريق السريع ـ علب البيرة، والاسهال، وقطع عـجـلات السـيـارات ـ معرضاً لكل أنواع السـخـرية. لقـد عرف منذ بدأ ذلك الشيء إن هذا الوضع كان جزءاً من رحلته ـ كـان ذلك مـرسـومـاً على خرائطه ـ ولكنه في مواجهة صفوف السيارات التي تتلوى في ضـوء الصـيف، وجـد نفـسـه غير مستعد لذلك. لقد ضحكوا لدى رؤيتهم له؛ وسـخـروا منه، ورمـوا علبـة بيرة باتجاهه، ولكن لم يكن لديه أية كرامة أو روح مرحة ليـتـعامل مع الموقف. كان باستطاعته أن يعود القهقرى، إلى بيت عائلة وسترهيزي، حـيث كـانت لوسـيندا لا تزال جـالسـة في الشـمـس. لم يوقع على أية ورقة، لم يقسم بشيء، ولم يتـعـهـد بشيء حـتى لنفـسـه. و إذ آمن أن قـسـوة الفـؤاد البشري يمكن تفـسيرها منطقياً، أفلم يكن قادراً على أن يعود القهقرى؟ لم كان مصمماً على استكمال رحلتـه حـتى ولو عـرض ذلك حـيـاته للخطر؟ إلى أي حـد كان يمكن لهذه المزحة، هذه النكتـة، هذا المزاح الخـشن، أن يصبح أمراً جدياً؟ لم يكن بمقدوره أن يعود، لم يكن قـادراً على أن يتـذكـر بوضوح خضرة الماء في بركة عائلة وسترهيزي ، الاحساس بتنشق عناصر اليـوم، الأصـوات الصديقة المسترخية التي قالت إنها شربت الكثير من الخـمـر. في غضون ساعة، أكثر أو أقل، كان قد قطع مسافة جعلت العودة بالنسبة له مستحيلة.

رجل مـسن، يسـوق بسرعـة خمسـة عشر مـيـلاً في السـاعـة، سـمح له بقطع الطريق إلى منتـصـفـه حـيث كـان هناك عـشب يفـصل جـانبي الطريق. هنا أصبح معرضاً لسخرية المسافرين باتجاه الشمال، ولكنه بعد عشر أو خمسة عشر دقيقة أصبح قـادراً على قطع الطريق . من هناك كـان عليـه أن يمشي مـسـافـة قـصيرة إلى مـركز الاسـتجمام على حافة قرية لانكستر حيث توجد بعض ملاعب كرة اليد وبركة سباحة عامة.

كـان تأثير الماء على الأصـوات، وهـم الاشراق والترقب، هو الأثر نفـسـه الذي

شـعـر به في بركـة عـائلة بنكر لكن الأصـوات هنا كانت أكثر علواً ، أكثر خشونة ، أكـثـر نضـجـاً وحـدَّة ، وكلما تقـدم باتجاه الحلقـة التي يتجمع فيها الجمهور واجهه الـنظام. «على جميع السـابحين أن يأخـذوا حمامـاً قـبل اسـتـعمال البركـة. على جميع السـابحين أن يسلكوا الطريق المعدة للمشاة. على جميع السابحين أن يرتدوا الأقراص التي تعـرف هوياتهم. » أخـذ حمامـاً، وغـسل قـدميه بسائل مر ذي لون داكن وشق طريقـه باتجاه حـافـة الماء. كـانت رائحة الكلور تفوح منها وبدت له تشبه البالوعة. اثنان من المنقـذين في برجين اثنين أطلقـا صـافـرتين كـصافرات الشرطة فيما يبدو إنه فترات زمنيـة مـتـعـاقبة تعود عليها السابحون في نظام التوجيه العام. تذكر نيدي الماء ذا اللون اليـاقـوتي المزرق في بركـة عـائلة بنكر بنوع من الاشـتياق والتأمل إلى الدرجة التي كـان سـيلوث بها نفسـه ـ يدمر ازدهاره وسعادته ـ بالسباحة في هذا الضباب، لكنه ذكَّـر نفـسه إنه كان مكتشفاً، حاجاً ، وإن ذلك كان مجرد انحناءة راكدة في نهر لوسـيندا. غطس في الكلور، مـقطباً جبينه بسبب الطعم المنفر في فمه، وكان عليه أن يسـبح ورأسـه إلى أعلى كي يتـفادى الاصطدام بالآخرين، ولكنه رغم ذلك لم يستطع أن يتـجنب آثار رشـاش الماء والاحـتكاك والارتطام مصادفة بالآخرين. وعندما وصل إلى الطرف الضـحل من البركة كان إثنان من المنقذين يصرخان عليه «يا هذا ، أنت، أنت هناك الذي لا يحمل قـرصـاً للتـعريف على نفسه، اخرج من الماء. » استجاب لندائهما، ولكن لم يكن بامكانهما مـلاحـقـتـه إذ شق طريقـه عبر بخـار زيت التسفع والكلور وعبر السـيـاج الحـامي من الاعـصـار وخرج مجتازاً ملاعب كرة اليد. بعد أن اجـتـاز الـطـريق دخل في الجـزء المشـجـر من أمـلاك عـائلة هالوران. لم تكن الأيكة لتـمـسح بالمرور خـلالها وكـان المشي بين الأشـجـار غداراً وصعباً إلى أن وصل المرجة وسـياج الشجيرات الذي يطوق الشاطىء ويستدير حول البركة.

كـان الزوجـان هالوران بمـثـابة صـديقين، زوجين مـسنين يملكان ثروة كـبيرة ولكنهما ينعمان بالشك بأنهما شـيـوعيان. لقد كانا مصلحين متحمسين ولكنهما لم يكونا شـيوعيين، ومع هذا فإنهما عندما كانا يتهمان بالتخريب، كما كان يحصل أحياناً، كان يـبـدو إن ذلك يرضـيـهما ويثيرهما. كـان سـيـاج الشـجيرات خـاصـتـهما الذي يحيط الشـاطىء أصـفـر اللون وحـدس إنه قـد أصيب بآفة مثله مثل شجر القيقب الخاص

بالزوجين ليفي. صاح قائلاً مرحبا، مرحبا، لينبه الزوجين هالوران لقدومه، ويخفف من وطء اقتحامه عزلتهما. كان الزوجان هالوران لا يرتديان، لأسباب لم يستطع هو تفسيرها أبداً، ملابس السباحة. لم تكن هناك تفسيرات مناسبة في الحقيقة. كان عريهما تفصيلاً صغيراً من تفاصيل حماستهما العنيدة للإصلاح، فنزع بأدب بنطاله القصير قبل أن يعبر الفتحة التي في السياج.

كانت السيدة هالوران، وهي امرأة قوية بيضاء الشعر بوجه هادىء الملامح، تقرأ التايمز، أما السيد هالوران فكان يلتقط الأوراق التي يحملها مد الشاطىء معه من الماء بمجرفة. لم يبد عليهما أنهما تفاجآ أو استاءا لرؤيته. لربما كانت بركتهما هي الأقدم في المقاطعة، ذلك المستطيل من الأرض الصخرية التي يغذيها جدول صغير. لم يكن لها أية مصفاة أو مضخة وكان ماؤها بلون ماء الجدول الذهبي غير الشفاف.

قال ند: «إنني أسبح عابراً المقاطعة.»

هتفت السيدة هالوران: «لماذا، إنني لا أعرف أحداً باستطاعته أن يفعل ذلك.»

قال ند: «حسناً، لقد قطعتها بادئاً من بركة عائلة وسترهيزي، وهي مسافة تزيد عن الأميال الأربعة.»

ترك بنطاله القصير إلى جانب الطرف العميق للبركة ومشى نحو الطرف الضحل ثم سبح قاطعاً المسافة بينهما. وبينما كان ينتزع نفسه من الماء سمع السيدة هالوران تقول: «لقد انزعجنا كثيراً لدى سماعنا عن المحن التي مررت بها يا ندي».

سأل ندي: «المحن التي مررت بها. لا أعرف ما الذي تتكلمين عنه.»

«لقد سمعنا إنك بعت المنزل، وإن بناتك المسكينات . . .»

قال ندي: «لا أتذكر إنني بعت المنزل، والبنات في المنزل.»

تنهدت السيدة هالوران قائلة: «بلى، بلى . . .». ملأ صوتها الهواء بكآبة ليس هذا أوانها فتكلم ند بسرعة قائلاً: «شكراً لكما على اتاحتكما الفرصة لي للسباحة في بركتكم.»

قـالت السيدة هالوران: «حسناً، رحلة سعيدة.»

خـلف سيـاج الشـجيرات ارتدى بنطاله القـصير وثبت حـزامـه . كـان يحس ببنطاله واسـعـاً قليـلاً فـتـسـاءل إن كـان فـقـد بعض وزنه خلال فترة زمنيه قصيرة لا تتـجـاوز ظهيرة واحـدة. لقـد شـعـر بالبرد والتعب وقد جعله منظر الزوجين هالوران العـاري وبركتهما المعتمة يشعر بالكآبة. كانت المسافة التي سبحها متعبة بالقياس إلى قـوتـه الجـسـمـانية ولكن أنَّـى لـه أن يعـرف ذلـك عندما انزلـق عن الدرابزين ذلك الصـبـاح وجلس تحت أشـعة الشمس على حافة بركة عائلة وسترهيزي؟ كانت ذراعاه ضـعـيـفـتين. شعر بأن ساقيه مصنوعتان من المطاط وإنهما تؤلمانه عند المفاصل. أسوأ مـا في الأمـر كـان ذلك البرد الذي يشـعر به في عظامه والشعور الذي خامره بأنه لن يحس بالدفء ثانيـة. كـانت أوراق الشـجـر تتساقط حوله واشتم رائحة دخان خشب يحترق تحملـهـا الريح. من ترى يكون هذا الذي يحرق خـشـبـاً في هذا الوقت من السنة؟ أحس بأنه بحـاجـة إلى كأس من الشراب. إن كأسـاً من الويسكي يمكن أن يشعره بالدفء، ينعشه، يسعفه خلال المسافة المتبقية من رحلته، ينعش لديه الشعور بأنه كـان شـيئاً أصـيـلاً وباسلاً أن يقوم بالسباحة عابراً المقاطعة . إن السابحين على مجرى النهـر يتناولون البراندي . كـان بحـاجـة إلى شيء ينبهه . قطع المرجة التي تقع أمـام بيت الزوجين هالوران واتجـه في مـسار قصير إلى حيث ابتنيا بيتاً لابنتهما الوحيدة هيلين وزوجـهـا ايريك سـاكس. كانت بركة الزوجين ساكس صغيرة وقد وجد هيلين وزوجها هناك.

قالت هيلين: «أوه، ندي، هل تناولت طعام الغداء عند أمي؟»

قـال نـد: «لـيس بالضـبط، لقـد توقـفت لرؤية والديك.» بدا ذلك تفـسيراً كـافـياً. «أنا آسف جداً أن أقتحم عليكما خلوتكما بهذه الصورة، ولكنني أخذت برداً وأتساءل إذا كان بالإمكان أن تتكرما علي بشيء أشربه.»

قـالت هيلين: «طبـعـاً، إنه لمن دواعي سروري، لكن ليس لدينا شيء للشرب منذ أجرى ايريك عمليته. كان ذلك منذ ثلاث سنوات.»

هل فـقـد ذاكـرته، هل كـانت موهبته في اخفاء الحقائق المؤلمة قد أنسته إنه باع

بيته وإن بناته في خطر وإن صديقه كان مريضاً ؟ انزلقت عيناه على وجه ايريك إلى بطنه حيث كان باستطاعته أن يرى آثار ثلاثة جروح مخيطة شاحبة اللون، اثنان منها كانا على الأقل بطول قدم واحدة. كانت سرّة ايريك قد اختفت. وفكر نيدي ما الذي يمكن أن تعثر عليه يد طوّافة تبحث عن هبات الرجل في الثالثة صباحاً في بطن بلا سرة، بلا رباط ميلاد، ذلك الصدع الوراثي؟

قالت هيلين: «أنا متأكدة أنك ستجد شراباً لدى عائلة بيزوانجر. إن لديهم حفلة رائعة، وأنت تستطيع أن تسمع الأصوات من هنا. انصت! »

رفعت رأسها وعبر الطريق، عبر المرجات الخضراء، عبر الحدائق، والأراضي المكسوة بالأشجار، عبر الحقول، سمع ثانية الضجة الرائعة للأصوات فوق الماء. قال، وهو ما زال يشعر بإنه لا خيار لديه فيما يتعلق بوسائل رحلته: «حسناً، سوف أبلل نفسي. » ثم ألقى بنفسه في ماء بركة الزوجين ساكس البارد لاهثاً، شاعراً بإنه قريب من الغرق، شاقاً طريقه من طرف البركة إلى طرفها الآخر. «إنني ولوسيندا مشتاقان لرؤيتكما» قال، وهو يرفع رأسه من فوق كتفه ووجهه متطلع باتجاه بركة الزوجين بيزوانجر. «إننا آسفان لأننا لم نزركما منذ وقت طويل ولكننا سنهاتفكما قريباً جداً. »

قطع بعض الحقول باتجاه بركة الزوجين بيزوانجر وأصوات القصف والعربدة هناك. سيشعرون بالفخر إذ يقدمون له كأساً، سيشعرون بالسعادة إذ يقدمون له كأساً، سيكونون محظوظين إذ يقدمون له كأساً. لقد دعاه الزوجان بيزوانجر هو ولوسيندا للعشاء أربع مرات في السنة، قبل ستة أسابيع مقدماً. كانا دائماً يرفضان الدعوة ولكن الزوجين بيزوانجر كانا يستمران في إرسال الدعوات غير مستعدين لادراك الحقائق القاسية غير الديموقراطية لمجتمعهما. كانا من ذلك النوع من الناس الذين يتحدثون عن سعر الأشياء في حفلات الكوكتيل، ويتبادلون المعلومات عن مضاربات السوق على العشاء، ويروون القصص البذيئة لجمع غير متجانس من المدعوين بعد تناول طعام العشاء. لم يكونا من ذلك النوع الذي ينتمي إليه ندي - ولم يكونا حتى على قائمة لوسيندا لبطاقات عيد الميلاد. توجه إلى بركتهما بشعور من

اللامبالاة، والصدقة، وبعض القلق، إذ أنه بدا وكأن الظلام بدأ يحل فهذه الأيام هي أطول أيام السنة. كانت الحفلة عندما انضم إليها صاخبة وكبيرة، وكانت غريس بيزوانجر من نوع المضيفات اللواتي تدعون فاحص البصر والطبيب البيطري وبائع الأراضي وطبيب الأسنان. لم يكن أحد يسبح وكان للشفَق، المنعكس على ماء البركة، وميض شتوي. كان هناك بار فشق هو طريقه باتجاهه. وعندما رأته غريس بيزوانجر اتجهت نحوه، دون محبة كما كان من حقه أن يتوقع، ولكن بسيماء الشخص الميال للقتال.

قالت بصوت عال: «طبعاً، هذه الحفلة فيها كل شيء بما في ذلك المتطفلون على الحفلات.»

لم تكن تستطيع أن تسدد إليه ضربة اجتماعية ـ إذ لم يكن هناك من خلاف حول ذلك وهو لم يجفل اطلاقاً. سأل بأدب: «بوصفي متطفلاً على الحفلة هل أستحق كأساً من الشراب؟»

قالت: «تصرف على هواك، فلا يبدو إنك من الناس الذين يعيرون اهتماماً للدعوات.»

استدارت معطية ظهرها له وانضمت إلى بعض الضيوف، وذهب هو إلى البار وطلب كأساً من الويسكي. ناوله الساقي الكأس ولكنه عامله بوقاحة. في عالمه كان متعهدو اقامة الحفلات يحافظون على المسافة الاجتماعية الطبقية، وأنْ يصده ساق، يعمل عملاً إضافياً، يعني إنه فقد احترامه الاجتماعي. أو لربما إن الرجل كان حديث العهد بالعمل وليس لديه أية معرفة. ثم سمع غريس خلفه تقول: «لقد افلسوا بين ليلة وضحاها ـ لا شيء لديهم سوى دخلهم ـ ثم أتى يوماً وهو سكران وطلب منا أن نقرضه خمسة آلاف دولار....» كانت دائماً تتكلم عن المال. كان الأمر أسوأ من أن تأكل البازلاء بسكين. ألقى بنفسه في البركة، وسبح قاطعاً إياها مبتعداً عن المكان.

كانت البركة التالية على قائمته، والتي لم يتبق بعدها سوى بركتين، هي بركة عشيقته السابقة شيرلي آدامز. وإذا كان قد عانى من أية جروح في بيت الزوجين

بيزوانجر فإنها ستشفى هنا. الحب ـ لعب الجنس الخشن الصاخب في الحقيقة ـ كان الاكسير الأسمى، مسكن الآلام، حبة الدواء ذات اللون الزاهي التي ستعيد إلى خطوته حيويتها، ستعيد الفرحة إلى قلبه. كانا قد مارسا الغرام في الأسبوع السابق، الشهر الماضي، السنة الماضية. إنه لا يستطيع أن يتذكر. كان هو من قطع العلاقة، إذ إنه هو صاحب اليد العليا في العلاقة، وقد خطا داخلاً من باب السور الذي يحيط بركتها دون أن يكون لديه شعور يمكن أن يسمى ثقة بالنفس. بدت البركة بصورة من الصور بركته هو، العشيق، وبخاصة العشيق غير الشرعي، الذي يتمتع بممتلكات عشيقته بحق لا يعرفه الزواج المقدس. كانت موجودة هناك، شعرها بلون النحاس الأصفر، لكن مظهرها، على حافة الماء اللازوردي المضاء، لم يثر فيه أية ذكريات عميقة. فكر، لقد كانت علاقة خالية من الهموم، رغم إنها بكت عندما قطع علاقته بها. بدت مشوشة ومضطربة لدى رؤيته وتساءل فيما إذا كانت لا تزال تشعر بالحرج الذي سببه لها. ليسامحني الله، هل ستبكي ثانية؟

سألت: «ماذا تريد؟ »

«إنني أسبح عابراً المقاطعة. »

«يا إلهي. ألا تكبر أبداً؟ »

«ما الأمر؟ »

قالت: «إذا كنت أتيت هنا لتطلب مني مالاً فلن أعطيك سنتاً واحداً. »

«تستطيعين إعطائي كأساً من الشراب. »

«أستطيع ولكنني لن أفعل. لست وحيدة. »

«حسناً، أنا خارج من هنا. »

ألقى بنفسه في البركة وسبح، ولكن عندما حاول أن يغير اتجاهه ويتجه نحو الحاجز شعر إن قوة ذراعيه وكتفيه قد تلاشت فجذف باتجاه السلم وصعد. وإذ نظر من فوق كتفيه رأى في غرفة غيار الملابس رجلاً شاباً. وعندما اتجه إلى المرجة

الخضراء شم رائحة اقحوان أو قطيفة ـ بعض شذا خريف عنيد ـ في هواء الليل، قوياً مثل رائحة غاز. ونظر إلى أعلى فوق رأسه رأى النجوم وقد بزغت، ولكن لماذا بدا وكأنه يرى آندروميدا (٣) وقيفاوس (٤) وذات الكرسي (٥) ؟ ما الذي جرى لكوكبات نجوم منتصف الصيف؟ بدأ يبكي.

على الأرجح كانت هذه هي المرة الأولى التي يبكي فيها خلال فترة نضجة، وبالتأكيد كانت المرة الأولى التي يشعر فيها بأنه تعيس جداً وينتفض من البرد وإنه متعب ومذهول. لم يستطع أن يفهم وقاحة الساقي أو وقاحة العشيقة التي جاءت إليه زاحفة على ركبتيها وأمطرت بنطاله بالدموع. لقد سبح لمسافة طويلة، انغمر في الماء لفترة طويلة بحيث شعر بأن أنفه وحلقه يؤلمانه بسبب الماء. إن ما كان بحاجة إليه إذن هو كأس من الشراب، بعض الصحبة، بعض الملابس النظيفة الجافة ، وإذ كان بمقدوره أن يقطع الشارع باتجاه بيته خطا بدلاً من ذلك باتجاه بركة الزوجين غليمارتن. هنا، ولأول مرة في حياته، لم يلق بنفسه في الماء بل نزل الدرجات في الماء المثلج وسبح مستخدماً ضربة جانبية ملتوية لربما يكون تعلمها في شبابه. ترنح من التعب في طريقه إلى بركة الزوجين كلايد وجذف على طول بركتهما، متوقفاً مرة بعد مرة ويده على الافريز ليستريح . صعد السلم وتساءل فيما إذا كانت لديه القدرة للوصول إلى منزله. لقد فعل ما رغب فيه، لقد اجتاز المقاطعة سابحاً، ولكنه كان مخدراً من التعب والانهاك إلى الدرجة التي بدا فيها انتصاره غامضاً مبهماً. وإذ انحنى ممسكاً بالأعمدة التي تسند الباب أشرع بوابة منزله.

كان المكان مظلماً. هل كان الوقت متأخراً إلى هذه الدرجة ليذهبوا إلى النوم؟ هل بقيت لوسيندا لدى الزوجين وسترهيزي لتناول العشاء؟ هل انضمت البنات إليها أم إنهن ذهبن إلى مكان آخر؟ ألم يوافقن، كما يفعلن أيام الآحاد عادة، على رفض كل الدعوات ليمكثن في البيت؟ حاول أن يفتح بوابة المرآب ليرى السيارات الموجودة هناك ولكن الأبواب كانت مغلقة وقد لوّث الصدأ الذي يعلو مقابض الأبواب يديه . وإذ خطا باتجاه المنزل رأى أن قوة العاصفة الرعدية قد جعلت أحد المزاريب يفلت من مكانه . لقد كان المزراب يتدلى فوق البوابة الأمامية مثل دعامة مظلة، لكن كان بالامكان إعادة تثبيته في الصباح . كان المنزل مقفلاً ، وفكر إن

الطباخة البلهاء، أو الخادمة الغبية، قد أغلقت المكان إلى أن تذكر إنهم منذ وقت طويل لم يستخدموا خادمة أو طباخة. صرخ، دق الباب، حاول أن يدفعه بكتفه، ثم، وإذ نظر إلى الداخل من الشبابيك رأى أن المكان كان فارغاً.

١٩٦٤



(١) خمرة بوردو الفرنسية.

(٢) متفجر لا دخان له يصنع على شكل حبال.

(٣) آندروميدا : أميرة حبشية شدت بالسلاسل إلى جرف عال لكي يلتهمها غول، ولكن بيرسيوس أنقذها وتزوجها، المرأة المسلسلة (فلك).

(٤) الملتهب (فلك).

(٥) (فلك).

إمامو أميري بركة (لو روي جونز)
(١٩٣٤ـ   )

فخري صالح

لمحة عامة :

وُلد لو روي جونز في نيووورك ، نيوجرسي . عام ١٩٦٦ ، وفي سن الثانية والثلاثين، عاد إلى نيووورك وعمل مرشداً في «بيت الروح»، وهو مركز ثقافي افريقي، تحت اسم امامو اميري بركة. التحق جونز بجامعة رتجرز في نيووورك، ثم انتقل إلى جامعة هوارد في واشنطن دي. سي. حيث حصل على الشهادة الجامعية الأولى في الأدب الانجليزي . خدم لمدة عامين في سلاح الجو الأمريكي وأمضى معظم مدة خدمته في قاعدة جوية أمريكية في بورتوريكو. وبعد عودته إلى الولايات المتحدة التحق بجامعة كولومبيا وبالمعهد الجديد للبحث الاجتماعي في نيويورك حيث حصل على شهادة الماجستير في الأدب الألماني.

درّس جونز في جامعة كولومبيا وفي المعهد الجديد للبحث الاجتماعي ، وكتب مقالات للصحف والمجلات . عام ١٩٦١ نشر مجموعته الشعرية الأولى «**مقدمة لملاحظة انتحار تتكون من عشرين مجلداً**». وبعد ثلاث سنوات نشر مجموعته الشعرية الثانية «**المحاضر الميت**» . نشر أيضاً مسرحيات وروايات وكتباً تضم مقالاته ، ومن ضمن مجلداته المنشورة: «**نظام جحيم دانتي**» (١٩٦٥)، «**الوطن ، مقالات اجتماعية**» (١٩٦٦) ، «**حكايات**» (١٩٦٧). إضافة إلى كتب عن الموسيقى السوداء في أمريكا وموسيقى البلوز .

في أشعار جونز الأولى نلمح تأثير شعراء مثل ازرا باوند ووليامز كارلوس وليامز. لكنه في مجمل أشعاره أراد أن يقرب شعره من الإيقاعات المألوفة في الانجليزية المحكية . لكنه وإذ ازداد اهتمامه بثورة الزنوج في أمريكا خلال عقد السبعينات أصبح شعره أقل شكلية وأقل تقليدية، وهكذا سعى للكتابة بصيغ أكثر قرباً من حديث الشارع متحرراً من القاموس الشعري والصور والأفكار المتداولة في الشعر الأمريكي المعاصر ، ورافضاً في الوقت نفسه ما أسماه «**التراث الشعري الأبيض**» .

ألم مبرح ، مثلما هو الآن

ترجمة : فخري صالح

ها أنا أقبع داخل شخص ما
يكرهني . اتطلّع
من داخل عينيه . أشم
الأنغام الكريهة التي تنبعث
مع أنفاسه . وأحب
نساءه البائسات

شقوق في المعدن ، من أجل (استقبال) الشمس. حيث
تدور عيناي في محجريهما ، وفي الهواء البارد
ومضة الضوء ، أو اللحم الخشن
يحتكان واحد منهما بي ، امرأة ، رجلاً ،
بدون ظل، أو صوت ، أو معنى .

هذا هو السياج (اللحم ،
حيث تكون البراءة سلاحاً. تجريداً
اللمس. (ليس لي.
أو لك، إذا كنت أنت الروح التي أضم عليها جوانحي
ولكنني أهملتها عندما كنت أعمى وجعلت

أعدائي يحملونني كرجل ميت
(لا يهم فيما إذا كان جميلاً أو إنه يدعو إلى الشفقة.)

قد يكون ذلك ألماً. (كما هو الآن، فلحمه كله
يؤلمني.) قد يكون ذلك. أو
ألماً. كما كان في المرة التي هربت مني فيها
إلى تلك الغابة.

أو ألماً، العقل

مثل لولب من الفضة دار بعكس
الشمس، أعلى حتى مما ظن البشر القدماء
إنه ارتفاع الله . إنه الألم . والآخر . كلمة
نعم . (في كتبه ، في أصابعه . إنها
أزهار صفراء ذابلة ولم تكن يوماً
جميلة.) كلمة نعم. سوف تقولين، انت أيتها الروح المضيّعة،
«الجمال». الجمال، في صيغته العملية، كشجرة. النهر
البطيء الجريان. شمس بيضاء تقضي عقوبة الرطوبة.

أو الرجال الذين يشعرون بالبرد في نوبة انفعال. النشوة والبهجة الغامرة.
اللحم
أو الروح. كلمة نعم. (أرديتهم منتفخة. أمعاؤهم
فارغة. إنهم ينشدون في أعقابي، وليس في أعقابك.) اللحم
أو الروح، مثل شيء فاسد ومحطم. حيث ينتقل السؤال بسرعة كبيرة.
حيث اللّه ذات، برغم كل شيء.)

الهواء البارد ينفخ عبر العيون العمياء الضيقة. اللحم،
المعدن الأبيض البارد. يتوهج مثل النهار بشمسه.
إنه الحب البشري ما أقبع في داخله. هيكل عظمي
تتعرف عليه على صورة كلمات أو شعور بسيط.

لكن ليس لديه هو نفسه أي شعور. إنه، مثله مثله المعدن الحار،
ليس ممنوحاً للحب.

إنه يحرق الشيء الذي
في داخله. وذلك الشيء
يصرخ.

١٩٦٤

★ ★ ★

سيرة ذاتية

ترجمة : فخري صالح

مشنوقون.
دم
مضروب بالسياط
بالعصي
لحم مسحوب
ثياب ممزقة
لعاب يسيل
أقدام مدلاة
تشير (في اتجاه ما)
ضوضاء عالية
أصوات هياج واضطراب
وجه
سماء سوداء
وقمر
ليلة من الجلد
أحمر
ينزف
سائلاً يقطر

الأرض تتشربه
الدم / مشنوقون
الحياة ترطًب
الطين
اللزج

ضحكات
قلنسوات
قمر ذئب
أسنان مجنونة

مشنوقون

مشنوقون

جدّي
جدّي، إنهم يمزقون

عنقه

١٩٦٩

★ ★ ★

صـــول بـــيـــلـــلـــو
(١٩١٥ -)

فخري صالح

لمحة عامة :

الشخصية الرئيسية في عمل صول بيللو هي شخصية الانسان الهامشي الذي يحس باغترابه عن العالم ويكونه عالقاً بين النقص الفعلي في شخصيته والنقص الذي يسبغه عليه المجتمع والأصدقاء. الثيمات الرئيسية في عمل بيللو واضحة منذ روايته الأولى **«الرجل العالق»** (١٩٤٤) ، التي كانت مبنية بصورة جزئية على تجربته الحياتية الشخصية . وتتضح لنا شخصية الانسان الهامشي أكثر فأكثر في روايته **«عش يومك»** التي نترجم هنا بضع صفحات منها تمثيلاً على عمل صول بيللو.

ولد بيللو لوالدين مهاجرين من أصل روسي في بلدة صغيرة في كويبك ، كندا. عاش سنوات طفولته في شيكاغو ، الينوي، ضمن عائلة تتكلم لغات عديدة (الانجليزية، الفرنسية، الايدش، العبرية)، وقد كانت عائلة يهودية متعصبة، وبالتالي فإن الأجواء التي يستعيدها في روايته هي أجواء عائلة متدينة إلى درجة الإيمان بالخرافات. تخرج بيللو من جامعة نورثويسترن عام ١٩٣٧ بتخصص في الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع ثم التحق بجامعة ويسكونسن التي سرعان ما تركها ليتفرغ لاهتمامه الأساسي وهو كتابة الرواية. ولقد أعال نفسه لمدة أربع سنوات بالعمل مدرساً في كلية المعلمين ؛ ثم خدم خلال الحرب العالمية الثانية في البحرية التجارية وعمل فيما بعد في هيئة التحرير الإضافية في الموسوعة البريطانية.

عام ١٩٤٧ نشر بيللو روايته الثانية **«الضحية»** ، وعام ١٩٥٣ روايته **«مغامرات اوجي مارتش»** التي فازت بجائزة الكتاب الوطني . ظهرت روايته **«عش يومك»** عام ١٩٥٦ ، ثم ظهرت روايته **«هيرتزوج»** (١٩٦٤)، و **«كوكب الدكتور ساملر»** (١٩٧٠) ، إضافة إلى روايات أخرى ومجموعات قصصية وعدد من المسرحيات.

فاز بيللو بجائزة بوليتزر عام ١٩٧٦ ، وفي العام نفسه أصبح سابع أمريكي يفوز بجائزة نوبل للآداب.

عش يومك

ترجمة : فخري صالح

عندما كان الأمر يتعلق باخفاء مشاكله فإن تومي ويلهيلم لم يكن أقل قدرة من زميله الآخر على فعل ذلك. لقد فكر على الأقل، وكان هناك كمية لا بأس بها من الأدلة لصالحه. لقد كان في يوم من الأيام ممثلاً ـ لا، ليس تماماً، بل إنه عمل في مشهد جماعي يضم حشداً كبيراً من الممثلين ـ وقد عرف لذلك ما يعنيه التمثيل. لقد كان يدخن السيجار، وعندما يدخن المرء السيجار ويرتدي قبعة، فإن الأفضلية تكون له؛ ومن الصعب التكهن بمشاعره. لقد هبط من الطابق الثالث والعشرين إلى البهو الذي يقع في الطابق دون الأرضي ليتسلم بريده قبل الفطور، وقد اعتقد ـ آملاً ـ إنه كان يبدو في حالة جيدة وعلى نحو مقبول : أي أن يكون تصرف على نحو حسن . كان الأمر من قبيل الأمل الخالص ، إذ لم يكن لديه الكثير ليضيفه إلى جهده الحاضر . في الطابق الرابع عشر تطلع إلى أن يدخل أبوه المصعد ؛ كانا يلتقيان غالباً في هذه الساعة وهما في طريقهما لتناول طعام الافطار . وإذا كان قد قلق على مظهره فإن ذلك القلق كان من أجل أبيه بصورة أساسية . لكن المصعد لم يتوقف في الطابق الرابع عشر ، وقد هبط المصعد وهبط ، ثم انفتح الباب الصقيل وتدحرج البساط الأحمر الغامق غير الممهد الذي يغطي أرض البهو نحو قدمي ويلهيلم . في صدر البهو كان يخيم الظلام والنوم . لقد حجبت ستائر فرنسية تشبه الأشرعة الشمس لكن ثلاث نوافذ عالية وضيقة كانت مفتوحة ، وفي الهواء الأزرق رأى ويلهيلم حمامة تكاد تضيء السلسلة العظيمة التي تسند سرادق دار عرض السينما التي تقع مباشرة تحت البهو . وللحظة واحدة سمع الأجنحة تخفق بقوة.

معظم الضيوف في فندق غلوريانا كانوا قد تجاوزوا سن التقاعد . وفي

برودواي ، في السبعينات والثمانينات والتسعينات ، كان يعيش جزء كبير من سكان نيويورك من الرجال والنساء المسنين. وما لم يكن الطقس بارداً أو رطباً فإنهم كانوا يملأون المقاعد التي تحيط بالحدائق المسيجة الصغيرة والمقاعد التي تمتد على طول النفق عبر حواجزه المشبكة من ميدان فيردي إلى جامعة كولومبيا؛ إنهم يحتشدون في المحلات والكافيتيريات والمخازن الصغيرة ومحلات شرب الشاي والمخابز وردهات الفنادق وقاعات القراءة والنوادي . بين هؤلاء البشر المسنين في غلوريانا شعر ويلهيلم بإنه ليس في المكان المناسب . لقد كان شاباً بالمقارنة معهم ، إذ كان في منتصف الأربعينات ضخم الجثة أشقر بكتفين عريضين ؛ أما ظهره فكان عريضاً أيضاً قوياً رغم انه محني قليلاً وغليظ . بعد الافطار جلس الضيوف المسنون على المقاعد والأرائك الجلدية الخضراء ذات الذراعين في الردهة وبدأوا في الثرثرة والنظر في الأوراق ؛ لم يكن لديهم شيء يفعلونه عدا الانتظار طيلة اليوم . لكن ويلهيلم كان معتاداً على حياة النشاط وقد أحب دائماً أن يخرج في الصباح لينشط نفسه. وهكذا ولشهور عديدة ، ولإنه لم يكن لديه أية وظيفة ، حافظ على معنوياته بالاستيقاظ مبكراً ؛ كان يحلق وينزل إلى الردهة في تمام الثامنة . يشتري الصحيفة وبعض السيجار ويشرب كأساً أو اثنين من الكوكا كولا قبل أن يذهب لتناول الافطار مع والده. وبعد الافطار ـ كان يخرج ليعنى بشؤون العمل. كان الخروج نفسه قد أصبح عمله الرئيسي ، لكنه أدرك إنه لن يستطيع أن يستمر في ذلك مدة أطول ، وقد كان هذا اليوم خائفاً (فعلاً). كان متخوفاً من إن الروتين الذي اعتاد عليه أصبح على شفا انهيار واستشعر وجود مشكلة كبيرة تنذر بالخطر منذ وقت طويل، معالمها لم تتضح بعد ولكنها على وشك الحدوث. لسوف يعلم قبل حلول المساء.

ومع ذلك فقد حافظ على مسلكه اليومي وعبر الردهة.

كان لروبين، الرجل الذي يجلس في كشك بيع الصحف، عينان ضعيفتان. لربما لا تكونان ضعيفتين حقاً لكنهما كانتا ضعيفتي التعبير بغطائي جفنين يبدوان مخرّمين ويلتفان إلى أسفل عند زاويتي العينين. كان أنيق المظهر. لم يكن ذلك ضرورياً ـ إذ كان يقف وراء النضد طوال الوقت ـ لكنه كان أنيقاً بصورة واضحة.

كـان يرتدي حلة بنيـة غـاليـة الثـمن ؛ وكـان الكمّـان يضـايقـان الشـعـر على يديه الصـغيرتين. كـان يرتدي ربطة عنق من نوع الكونتـيسـة مـارا. وبينما كـان ويلهيلم يقترب لم يكن روبين قـادراً على رؤيتـه ؛ لقـد تطلع حـالماً باتجاه فندق انسونيا، الذي كـان بالامكان رؤيتـه من الزاوية التي يقف هو فيها على بعد عدة عمارات . لقد بني انسـونيـا، وهو مـعلم مميـز مجاور، من قـبل سـتـانفـورد وايت. كـان يبدو مثل قصر بـاروكي من قـصـور براغ أو مـيـونيخ ازداد حـجـمـه مئات المرات، بأبراج وقـبـاب وفـجـوات وفـقـاعـات مصنوعة من المعدن الذي تحول إلى اللون الأخضر بسبب كثرة تعـرضـه للهـواء، وزخـارف مـعـدنيـة وفـسطونات. كانت أنتينات التلفزيون السوداء اللون مـزروعـة بكثـافـة حول قممه المستديرة. وبتأثير التغيرات في الطقس كان يبدو بلون الرخـام أو بلون مـاء البـحـر، أسـود بلون الاردواز في الضـبـاب، أبيض مـثل حـجر التوفة في ضوء الشمس. هذا الصباح بدا بلون ظله المنعكس في المياه العميقة، أبيض ومـتـقزعاً في قسمه العلوي، وتشوهات مسامية الشكل في قسمه السفلي. ومعاً حدق الرجلان باتجاهه.

ثـم قـال روبـين : «أبـوك في الـداخـل الآن يـتناول طعـام الافطار ، السـيـد العجوز» .

«آه، نعم؟ لقد سبقني اليوم؟ »

«إنه قـميص جميل جداً ذلك الذي ترتديه»، قال روبين. «من أين لك به، يا ساكس؟ »

«إنه من عند جاك فاغمان، من شيكاغو. »

وحـتى في أسـوأ حالاته المعنوية كان ويلهيلم قادراً على أن يجعد جبهته بطريقة تظهـره مـبـتـهجاً . ولقد كانت حركات وجهه البطيئة الصامتة جذابة جداً . تراجع خـطـوة إلى الخلف وكأنه يرغب في أن يقف على مـبـعـدة من نفـسـه ويحدق مليـاً في قـمـيصه. كانت النظرة التي ظهرت على وجهه هزلية ، تعليقاً على الفوضى التي هو فـيـهـا. كـان يجب أن يرتدي مـلابس جيدة ومتسقة ، ولكنه بعد أن يكمل ارتداءها

كـانت كل قطعـة تبـدو لوحـدها . ضـحك ويلهيلم مما جعله يلهث قليلاً ؛ وبدت أسنانه صـغيرة ؛ أمـا خـداه فـقد بديا عندما ضحك وانتفخ وجهه مستديرين ، وبدا أكـثـر شـبـاباً من عـمـره. في الأيام الماضية وبينها كان في السنة التحضيرية في الكلية يرتدي مـعطفـاً من فـرو الراكون وقبعة على رأسه الأشقر اعتاد أبوه أن يقول إن رجلاً في مـثل حـجـمه يمكن أن يسحر طائراً على شجرة . ولقد كان لويلهيلم سحر كبير إلى هذه اللحظة.

«أنـا أحب هذا اللون الأبيض ـ الرمـادي الذي بلون حمامـة»، قـال بلهـجتـه الاجتماعية ذات المزاج الحسن. «ليس بامكانك غسله. عليك أن ترسله إلى المغسلة. إن رائحـته تغدو جميلة لدى غسله. لكنه قميص جيد. إنه يكلف ستة عشر أو ثمانية عـشر دولاراً» .

لم يـكن ويلهـيلم هو من اشترى القـمـيص؛ لقـد كـان هدية من مـسـؤوله ـ مـسـؤوله السـابق، الذي تشاجر معه. لكن لم يكن هناك أي سبب يدفعه إلى إخبار روبين بتـاريخ القـمـيص. ورغم ذلك فليس بعـيـداً أن يكون روبين قد عرف ـ لقد كـان روبين من النوع الذي يعـرف ويعـرف ويعـرف أما ويلهيلم فكان أيضاً يعرف أشـيـاء كـثيرة عن روبين، بهذا الخـصـوص، عن زوجـة روبين وعمله، وصحته. ولم يكن أحـدهما ليـتـفـوه بشيء واحد من هذه الأشياء، وقد ترك لهما الثقل العظيم لما لم يتفوها به القليل ليتحدثا عنه.

«حسناً، إنك تبدو أنيقاً جداً هذا اليوم»، قال روبين.

فـقـال ويلهـيلم بسعادة، «حقاً؟ هل تعتقد ذلك حقاً؟ » لم يستطع أن يصدق ذلك. رأى انعكاس صـورته في الخـزانة الزجـاجـية الممتلئة بعلب السيجار، بين صور الرجـال المشـهـورين المرسومة على ورق الدمقس والمختومة بأختام كبيرة والمزخرفة بماء الذهب ، غـارسـيـا ، ادوارد السـابع ، سايرس العظيم . كان عليه أن يقر بما تفعله العـتـمـة والتشوهات التي يحدثها الزجاج، لكنه اعتقد إن صورته المنعكسة في الزجاج لم تكن حـسنة المنظر. كـانت تجـعـيـدة كـبيرة تشـبـه قوساً كبيراً مفتوحاً مرسومة على جـبـهـته في تلك النقطة التي تقع ما بين حاجبيه ، كما كان هناك بقع بنية اللون على

بشرته الشقراء الغامقة . بدا وكأنه شعر بالتسلية قليلاً إذ شاهد ظل عينيه المندهشتين، المرتبكتين، الراغبتين، وفتحتي أنفه، وشفتيه. فرس نهر بشعر أشقر! ـ هكذا تصور نفسه. لقد رأى وجهاً كبيراً مستديراً، فماً أحمر واسعاً مزدهراً، وأسناناً مشذّبة. وتلك القبعة أيضاً ؛ والسيجار كذلك . قال لنفسه ، كان علي أن أعمل عملاً شاقاً طيلة حياتي ، عملاً شاقاً فعلاً يجلب إلى جسدك التعب ويجعلك تخلد إلى النوم سريعاً . أتمنى لو إنني قد استنفدت طاقتي وبدأت أشعر بأنني أحسن . لكن بدلاً من ذلك كان علي أن أتعرّف على نفسي ـ قبل ذلك كله.

كان قد بذل الكثير من الجهد، لكن ذلك لم يكن بديلاً للعمل الشاق، هل كان كذلك فعلاً ؟ وإذا كان كشاب قد بدأ بداية سيئة فقد كان ذلك بسبب هذا الوجه نفسه. في سنوات الثلاثينات ، وبسبب ملامحه المدهشة ، كان يعد شخصاً مناسباً ليصبح نجماً، ولهذا توجه إلى هوليوود. ولقد حاول بعناد ولمدة سبع سنوات أن يصبح من نجوم الشاشة. ولكن قبل ذلك بوقت طويل كان طموحه، أو وهمه، قد انتهى ولكن بسبب من الكبرياء والفخر، ولربما بسبب الكسل. ومع ذلك ظل مقيماً في كاليفورنيا. في النهاية تحول إلى أشياء أخرى، لكن هذه السنوات السبع من الإصرار والمثابرة والهزيمة قد جعلته غير مناسب للتجارة والأعمال، وهكذا أصبح الوقت متأخراً للبدء بواحد من هذه الأعمال. كان بطيء النضج، كما إنه فقد اعتباره، ولهذا لم يستطع التخلص من الطاقة التي يمتلكها والتي أقنع نفسه أنها سببت له الكثير من الأذى.

«لم أرك في لعبة الجن (١) الليلة الماضية» ، قال روبين.

«لقد فاتتني. كيف كانت؟ »

طيلة الأسابيع الماضية لعب ويلهيلم الجن كل ليلة تقريباً، لكنه شعر البارحة إنه لن يستطيع الخسارة مرة أخرى. لم يربح أبداً. ولو لمرة واحدة. ورغم أن الخسارات لم تكن كبيرة لكن المهم إنها لم تكن ربحاً ، أليس كذلك ؟ لقد كانت

---

(١) الجن : لعبة ورق .

خسـارات . كـان قـد تعب من الخسارة ، وتعب أيضاً من الصحبة ، ولذلك ذهب لوحده إلى السينما.

«آه»، قـال روبين، «لقـد كـانت اللعبـة جيـدة. لقـد جعل كارل من نفسه أضـحوكـة وأخـذ يصرخ على الشبـاب . هذه المرة لم يتركـه الدكتـور تامكين ينفذ بجلده. وقـد أخبره السبب النفسي لذلك» .

«ماذا كان السبب؟ »

قـال روبين: «لا أستطيع استـعـادة ما قال. من لديه القدرة على ذلك؟ أنت تـعـرف الطريقـة التي يتـحـدث بها تامكين. لا تسألني عن ذلك. هل تريد الهيرالد تريبيون؟ هل تريد أن تلقي نظرة على أسعار الاغلاق؟ »

«ليـست لدي رغبـة كـبيرة في ذلك. أعـرف ما كانت عليه أسعار الاغلاق في السـاعـة الثـالثـة البـارحـة»، قال ويلهيلم . «لكنني أفترض ان من الأفضل أن آخذ الصحيفة». كان يبدو ضرورياً بالنسبة له أن يرفع واحداً من كتفيه لكي يضع يده في جيـب مـعطفـه. وهناك، بين الأقـراص وأعـقـاب السـجـائر المسـحـوقـة وخـيطان السـيلوفـان وأشرطة الـرّزم التي كـان يسـتعملها أحياناً لتنظيف أسنانه ، تذكر انه قد أسقط بعض القروش.

«لا يبـدو هذا شـيئاً جـيـداً»، قال روبين. أراد أن يكون صوته مازحاً ولكنه لم يطاوعـه بينما استدارت عيناه، اللتان كانت مرتخيتين وتشبهان عيني الأعمى، في اتجاه آخـر . كـان الأمـر سيان بالنسبة له. لربما يكون قد عرف ، إذ إنه من النوع الذي يعرف ، ويعرف.

لا ، لم يكن ذلك جيداً. لقد اشترى ويلهيلم ثلاث دفعات من شحم الخنزير بسـعـر السوق . لقد اشتـرى هو والدكتور تامكين هذا الشحـم بسعـر ٩٦و١٢ قبل أربعـة أيام وبدأ السـعـر بعـدها بالانخفاض وما زال مستمراً بالانخفاض. في البريد هذا الصباح لا شك انه سيجد دعوة لتمويل إضافي على الهامش.

الطبـيب النفسي، الدكتور تامكين ، ورطه بذلك. كان الدكتور تامكين يسكن

في غلوريانا ويشارك في لعب الورق. وقد شرح لويلهيلم إن باستطاعته أن يضارب على السلع في بعض فروع الشركات الجيدة في وول ستريت في أعلى البلدة دون أن يكون مضطراً لدفع المبلغ المطلوب إيداعه على الهامش . لقد كان ذلك يعتمد على مدير الفرع إذا كان يعرفك ـ وقد كان كل مدراء الفروع يعرفونِ تامكين ـ وسوف يسمح لك عندها أن تعقد صفقات لمدة زمنية قصيرة تحتاج بموجبها أن تفتح حساباً صغيراً فقط.

«السر الكامن في هذه المضاربات»، أخبره الدكتور تامكين، «هو أن يكون المرء متيقظاً. عليك أن تتصرف بسرعة ـ أن تشتريه وتبيعه؛ بعه واشتره ثانية. لكن بسرعة ! تقدم باتجاه النافذة ودعهم يتصلون بشيكاغو في اللحظة المناسبة . ضارب وضارب مرة أخرى وأخرى! ثم اخرج من العملية في اليوم نفسه. في وقت قصير سوف تبيع من السلع ما قيمته خمسة عشر ألفاً ، عشرين ألفاً من الدولارات ثمناً لفول الصويا والقهوة والذرة والجلد المدبوغ والقمح والقطن». كان من الواضح ان الدكتور يفهم السوق جيداً، وإلا لما كان قادراً على جعل الأمر يبدو بسيطاً للغاية. «يخسر الناس لإنهم طماعون ولا يستطيعون أن يبيعوا عندما تبدأ الأسعار بالإرتفاع. إنهم يقامرون، ولكنني أفعل ذلك بطريقة علمية. ليست المسألة مجرد تحزير. عليك أن تربح بعض النقاط ثم تبيع. لِمَ أيتها الآلهة ! » قال الدكتور تامكين بعينيه الجاحظتين ورأسه الأصلع وشفته المتدلية. «هل سألت نفسك مرة كم يكسب رجال المال في السوق؟ »

قال ويلهيلم وقد تغيرت ملامحه العابسة وضحك ضحكة لاهثة غيّرت معالم وجهه تماماً: «ها ها، هل فكرت بذلك حقاً! ماذا تظنني؟ من منا لا يعرف إنها تبدأ بتسعة عشر ـ ثمانية ـ عشرين ـ تسعة ثم تبدأ في الصعود؟ من منا لم يقرأ تقرير فولبرايت ؟ هناك مال في كل مكان . كل واحد يجرف المال بالمجرفة . المال هو ـ هو ـ » .

«إذن هل تستطيع أن تجلس مرتاحاً ـ هل تستطيع أن تفعل ذلك وكل هذا يحصل؟ » قال الدكتور تامكين . «أنا أعترف لك بأنني لا أستطيع . أنا أظن بأن الناس ولأنهم يملكون بعض الدولارات قاموا بتوفيرها يستطيعون أن يحققوا

أربـاحـاً. لـيس لديهم أية فكرة، ليس لديهم أية مـوهبـة، إن لديهم مـالاً زائداً وهذا المال يجـرّ لهم مالاً آخر. إن ذلك يثير مشاعري ويعذبني ويجعلني قلقاً، قلقاً للغاية! لم أستطع حـتى أن أمـارس مـهنتي. فـبهذا المال كله حولك فأنت لا تريد أن تكون غـبـياً وكل الناس من حولك يكسبون. أعرف أشخاصاً يكسبون خمسة، عشرة آلاف دولار في الأسـبـوع بمـجرد تسكعهم هنا وهناك . أعرف شخصاً في فندق بيير . إنه لا يلفت الانتـباه ولكنه يطلب صندوقاً كاملاً من شمبانيا «مـمّ» على الغداء . أعرف شـخـصـاً آخـر في فندق سنترال بارك ساوث ـ لكن ما فائدة الحديث. إنهم يكسبون مـلايين. إن لديهم محامين أذكـياء يجعلونهم قادرين على التهرب من الضرائب بمليون طريقة» .

جون بارث
(١٩٣٠ -)

فخري صالح

لمحة عامة :

ولد جون بارث في كامبريدج ، ميريلاند ، ودرس في معهد الموسيقى في جويليارد ، نيويورك، وكذلك في جامعة جون هوبكنز ، بالتيمور . وقد درّس الأدب الانجليزي في جامعة بنسيلفانيا ستيت وجامعة نيويورك ستيت في بافالو ، كما عمل منذ عام ١٩٧٣ أستاذاً للانجليزية والكتابة الإبداعية في جامعة جون هوبكنز . حصل عام ١٩٦٥ على منحة روكفلر ، وفي عام ١٩٦٦ حصل على منحة المعهد الوطني للفنون والآداب ، كما حصل عام ١٩٧٣ على الجائزة الوطنية للكتاب.

يتميز عمله القصصي والروائي بالتركيز على الألعاب الميتافيزيقية وعلى تفحص الوعي الذاتي. وقد تدرج في عمله من كتابة الروايات الواقعية الموضوعية الأسلوب إلى الكتابة الروائية التي تعمل على تخليق الأسطورة والحكايات المروية على ألسنة غير بشرية . روايتاه **«الأوبرا العائمة»** (١٩٥٦) و **«نهاية الطريق»** (١٩٥٨)، اللتان يقول إنهما بحث في المظاهر الهزلية والمأساوية للعدمية الفلسفية ، هما روايتان واقعيتان بالمعنى المدرسي للكلمة . في **«غايلز راعي البقر»** (١٩٦٦) يقوم بجدل الأسطورة بالامثولة والهجائية والمحاكاة الساخرة وتقاليد قصص الخيال العلمي مما ينتج نسخة معدّلة جديدة من العهد الجديد تكشف عن مصادر كل الأساطير في الوقت الذي تعمل فيه على تخليق أساطير جديدة. أما في أعماله التالية ، مثل **«ضال في حديقة الملاهي (١٩٦٨) »** و **الكمّير** [1] (مجموعة قصصية ، ١٩٧٢) فإنه ينسحب إلى أسلوب في

---

(١) الكمّير، كائن خرافي له رأس أسد وجسم شاة وذنب حية.

القص أكثر تجريداً وذهنية مركزاً على عملية القص نفسها بوصفها موضوعاً للعمل السردي، أو لربما بديلاً لسرد الحكاية.

قصته التي نختارها للترجمة هنا مروية على لسان حيوان منوي هو الناجي الوحيد من رحلة ليلية في البحر ليتحد في النهاية بالبويضة ، ولكن لغة القصة وإيحاءاتها واللعب اللغوي فيها والموتيفات المستمدة من العهد الجديد والفلسفة الماورائية تجعل الحيوان المنوي رمزاً للوجود البشري نفسه ، ويثير القاص على لسان الحيوان أسئلة متعلقة بالوجود البشري وامكانية اتحاد الانسان بالله ، ومعنى الوجود نفسه، وامكانية الخلاص عبر رفض المشاركة في لعبة الحياة؛ أسئلة كثيرة تجعل من القصة أكثر من مجرد حكاية حيوان منوي يندفع إلى الأمام وإلى أعلى دون أن يدري على أي شاطىء سيرسو.

رحلة ليلية في البحر

ترجمة : فخري صالح

«بطريقة أو بأخرى ، لا تهم أية نظرية لرحلتنا ستكون هي الصحيحة ، إنها نفسي من أخاطب ؛ نفسي التي أعيد التمرن أمامها ، كما لو كانت شخصاً غريباً ، على تاريخنا وظرفنا، وسوف أفشي سر أملي رغم إني أغوص باحثاً عنه.

«هل الرحلة هي اختراعي؟ هل الليل، البحر، موجودان حقاً، أسأل نفسي، بمعزل عن اختباري لهما؟ هل أنا نفسي موجود فعلاً، أم إن ذلك مجرد حلم؟ أحياناً أتساءل. وإذا كنت موجوداً، فمن أنا؟ الميراث الذي يفترض إنني أحمله؟ لكن كيف يمكن أن أكون محتوٍ ومحتوىً في الآن نفسه ؟ هذه هي الأسئلة التي تقلق فترات راحتي.

«مشكلتي إنني أفتقد الايمان الراسخ . العديد من التفسيرات الخاصة بوضعنا مقبولة وجديرة بالتصديق بالنسبة لي ـ أين نحن ومن نحن ، لِمَ نسبح ثم نتلاشى. لكن هناك تفسيرات غير مقنعة كذلك، خصوصاً تلك التي ينبغي أن أقر بأنها يمكن أن تكون صحيحة. حتى ولو كانت على الأرجح كذلك. في بعض الأحيان، في بعض حالات المزاج الصافي ـ إذ اجذف بانسجام، لنقل، مع جيراني وننشد قائلين «إلى الأمام! إلى أعلى! ـ افترضت بإن لنا، برغم كل شيء، صانعاً واحداً، لربما لا نعرف طبيعته ودوافعه، ولكنه أنشأنا لحكمة عجيبة وأطلقنا لهدف ليس معروفاً لسواه ـ إذا كنت (ولطول البال) قد استطعت أن أعلل النفس بهذه الأفكار، الشائعة في بعض الأماكن، فذلك لأن رحلتنا الليلية في البحر تسهم في بعض سخافة هذه الأفكار. لربما يقول المرء أيضاً : أستطيع أن أصدقها لأنها سخيفة.

«هل قيل هذا الكلام سابقاً ؟

«هناك مـفارقة أخرى: يبدو إنها تلك الفجوات في المسافة التي أسبحها هي ما يسـاندني ويطيل أسـبـاب بقائي. ضربتان إلى الأمام وإلى أعلى، ثم أداس في المسافة الباقية، فأطفو منهكاً مثبط الهمة ، أحتضن الليل ، البحر ، الرحلة ، بينما الطوفان يعـيـدني خطوة إلى الخلف وخطوة إلى أسـفل : أبطىء من تقـدمي ، لكني أعيش ، أعـيش، وأشق طريقي ، نعم ، مـاراً ببـعض رفاقي الغرقى في النهاية ، الذين كانوا أكـثـر قوة ، أكثر جدارة واستحقاقاً مني ، أولئك الذين كانوا ضحايا ابتهاج السباحة الذي لا ينقطع . لقـد رأيت في جـيلي أفـضل السـابحين يغـرقـون . عـدد الموتى لا يحصى ! الآلاف يغـرقون في هذه اللحظة التي يعرض فيها هذا الخاطر لي ، وملايين يمـوتون خـلال فترة راحتي قبل مواصلة السباحة . عدد لا حصر له ، مئات الملايين نفـقـوا منذ ابتـدأنا اندفـاعـتنا ، شجعاناً نتحدى ببراءتنا ، في طريقنا المليء بالرعب. «الحب ! الحب !» غنينا بعـد اندفـاعنا ، ربع بليـون من الأقـوياء ، وخـضنا البـحر الدافىء الذي أصـبح أبيض من بهجـة السـبـاحـة ! والآن اتجـه الجـمـيع إلى أسفل ـ الطافـون، والمخـضلون بالماء ، القـدوة والاتبـاع ، الكل أصـبح تحت الماء ، بينما أنا التـعـيس أسبح ماضياً إلى الأمام . ومع ذلك فإن فترات التأمل هذه التي مكنتني من أن أطفـو قـادتني إلى التـساؤل ، الشك ، اليأس ـ وهي عواطف غريبة على سابح ـ لقـد قادتني، حتى، إلى الارتياب . . . بأن رحلتنا الليلية في البحر هي بلا معنى.

«وفي الحـقـيـقة فإذا كان عليّ أن أنضم إلى جمهور المنتحرين، وذلك لأني (ودع التعب جانباً) وجدت إن إغراق نفسي هو أقل منطقية من أن استمر في السباحة.

«أعـرف أن هناك من يبـدون وكأنهم يسـتـمـتعون بالبحر ـ الليلي؛ من يدعون إنهم يحبـون السـباحة من أجل السباحة نفسها، وإنهم يؤمنون بنزاهة إن «الوصول إلى الـشـاطـىء»، «نـقل الارث» (ارث من، أريد أن أعـرف؟ وإلى من؟) يسـتـحق هذا الثـمن المذهل. أنا لا أومن بذلك. لم أجـد السـباحة، في أحسن الأحوال، بغيضة، لقـد وجـدتها في أكـثـر الأحـوال متعبة، وفي حالات قليلة تعذيباً. إن حجج الوظيفة والهدف لا تثير الانطبـاع لدي : كـوننا قـادرين على السـبـاحة وإننا نمارس السباحة، وبأن ذيولنا الطويلة ورؤوسنا الانسـيـابيـة هي ، بصـورة من الصـور ، «مـصـمـمة» للسـباحة؛ إن ذلك لا يؤدي بالنتيجة إلى القول ـ بالنسبة لي ، على الأقل ـ بأن علينا

أن نسبح ، أو أن علينا أن نسعى إلى «انجاز قدرنا» . وهذا يعني ، انجاز قدر شخص آخر ، لأن قدرنا ، بقدر ما أعلم ، هو الفناء ، بطريقة أو بأخرى ، الآن أو فيما بعد . إن حماسة قادتنا (الراحلين) التي لا تعرف الرحمة، مثلها مثل الطموح الأعمى والبهجة الخاصة بالشباب الذين مثلي ، ترعبني الآن ؛ فلا عزاء لي بموت رفاقي. فإذا كان للرحلة الليلية في البحر أي تبرير فليس باستطاعتنا نحن السابحين اكتشافها.

«آه، ولكي نتأكد من ذلك، فباستثناء كلمة «الحب» التي نسمعها في كل زاوية : «الحب الذي يحركنا ويبقينا أحياء! » اشرح: «إننا لا نعلم ما يحركنا وما يبقينا أحياء، كل ما نعلمه هو إننا مدفوعون، بصورة غير مرئية ومثيرة للشفقة، في اتجاه ما وذلك كي نبقى أحياء. الحب هو تلك الكلمة التي نطلقها على جهلنا بما سيحدث (على المضي قدماً). » «أن نصل إلى الشاطىء»، ولكن: ماذا لو كان الشاطىء موجوداً في خيالاتنا نحن السابحين ، ما نحلم به كتفسير للحقيقة المرعبة لكوننا نسبح ، وإننا كنا ولا زلنا نسبح ، وإننا نواصل السباحة دون راحة (وأنا أستثني نفسي من ذلك) إلى أن نموت ؟ ولنفترض أن هناك شاطئاً ، كما تخيل مرافق ساخر لي مرة ، فإننا إذ نعلو فوق الغمر نكتشف أن كل هذه الخرافات المبتذلة والاستعارات الرفيعة ليست سوى حقائق حرفية : الصانع العملاق الذي أوجدنا ، شواطىء النور التي تلوح في نهاية رحلتنا الليلية في البحر! ما الذي سيفعله سابح هناك؟ والحقيقة إن ما يرد على أذهاننا، عندما نتخيل الشاطىء، مناقض تماماً لظرفنا الحالي: لم يعد هناك من ليل بعد، لم يعد هناك من بحر، لم تعد هناك رحلة. باختصار، لم يعد هناك إلا الحالة السعيدة للغريق.

«علينا أن لا نتوقف ونفكر، علينا أن نسبح ونغرق . . . » لأن التفكير لحظة يكشف عن لاغائية السباحة. «لا يهم»، سمعت البعض يقول، حتى وهم يغصون بأنفاسهم الأخيرة: «لربما تكون الرحلة الليلية في البحر بلا معنى، ولكن ها نحن هنا نسبح، سواء أكان لذلك معنى أم لم يكن، ضد التيار، إلى الأمام وإلى أعلى، باتجاه الشاطىء الذي قد لا يكون موجوداً وقد لا نصله إذا كان موجوداً». خيار السابحين المتأملين ، يقولون ، واحد من اثنين : التوقف عن تقليب المسألة على

وجـوهـا والهلاك من أجل غـاية نافـعة، أو احتضان العبث واللامعنى: التأكيد على الرحلة الليليـة في البـحـر من أجل ذاتها؛ وأن نسبح دون دافع أو انتظار لنهاية، من أجل السـبـاحـة نفـسـها، وأن نكون متعاطفين مع رفاقنا السابحين لأننا متساوون في وجـودنا في الظلام. لقـد وجـدت الخـيـارين غير مـقـبـولين. فإذا لم يكن الشـاطـىء المفترض الوجـود قـادراً على تبرير هذا البـحـر المليء برفاقنا الغرقى، فإن الحديث عن السـباحة كغاية لذاتها يبدو لي أمراً فاحشاً. إنني أواصل السباحة ؟ ـ لكن لأن العادة العـمـيـاء، الغـريزة العـمـيـاء ، الخـوف الأعمى من الغرق لا زالت أقوى من رعب الرحلة نفـسـهـا . وإذا كنت قـد سـاعدت رفيقاً من الذين يُقَلّبون الأمر على وجوهه أحـيـاناً ، وانضـممت إلى المبتهجين والمنشدين ، وحتى أنني تجاوزت الغرقى العظماء بضربات مـاهرة، فإنني أنفـر بطبيعتي من أن أظهر مهارتي وموقعي البارز. أن يجذف المرء في طريقـه، أن يشـدد على طريقـته المستقلة، أن يسبق زملاءه دون أي احساس بوخـز ضـمير في مـسـعاه للوصول إلى أهدافه الأنانية، أن يكرس نفسه بصورة كاملة لـلـمسرات والمتـع دون وخـز ضـمـير ـ لـكنني في النهـاية لا أسـتطيع أن أدين من يسلكون بهذه الطريقـة في رحلتـهم؛ إنني في بعض حـالاتي النفسية أحسدهم وأزدري حـيـويتي الضـعـيـفـة التي تمنعني من أن أحـذو حذوهم. لكن في اللحظات الأكثر منطقـيـة أذكـر نفسي بأن حـريتـهم نفـسـهـا وإحـساسهم بالمسؤولية هي ما أرفضه، بوصفها أكثر ابتذالاً عاطفياً، كما في لحظاتنا التي بلا معنى، من المضي قدماً بالطريقة المعـهـودة نفـسـهـا. أمـا حالات الانتحار، والثورات، وحالات الاصرار على المفارقة ـ من يزعـمـون ذلك ومن لا يزعـمـون في الحـال سواء ـ فإنني أهز رأسي ساخراً منها. ثم إنني أجـذف مـاراً بجـثـثهم، المصفوفة واحدة إلى جانب الأخرى، كما أمر بمئات من الحـالات الأخـرى: أصـدقاء، أعداء، أخوة، بلهاء، حكماء، عجماوات ـ ولكن بلا أسماء، مليون فوق مليون. إنني أحسدهم جميعاً.

«إنها لمفـارقـة فـقيرة: أن أكـون أنا الذي أجـد مـذهب البـقـاء للاصلح مـثيراً للاشـمئزاز وحـشوا لا معنى له (إن كون المرء صالحاً للبقاء، حسب خبرتي، لا يعني شـيئاً سـوى أن لديه القـوة على العـيش، وهي مـوهبـة يكون التـمثيل عليها بممارسة فـعل البـقـاء نفـسـه. إن عناصرها الأسـاسـية هي القوة، كما يبدو، والمكر والخداع،

وقسوة الفؤاد)، أن أكون السابح الوحيد الباقي! لكن المذهب فاسد ومنفر كذلك: إن الحظ يغرق الذي يستحق والذي لا يستحق، يدفع بالصالح وغير الصالح بأي معنى أخذنا هذا الصلاح، ويجعل من الرحلة الليلية في البحر مجرد مصادفة بل واجرامية وغير عادلة.

«عليك أن تسبح مرة واحدة فقط»، لماذا نحن أخوة إذن ؟

«وإذا غرقت فلن تبلغ شط الحياة أبداً» ، هراء.

«أحد شركائي النافقين ـ ذلك الساحر ذو الخيالات الغريبة، الذي كان من بين أول من غرقوا ـ أمتعنا بحزازير غريبة بينما كنا ننتظر بدء الرحلة. إحدى نظرياته المفضلة كانت إن الأب موجود، وإنه هو من صنعنا وصنع البحر الذي نسبح فيه ـ لكنه لم يفعل ذلك لهدف بعينه أو لأنه كان واعياً لذلك؛ لقد صنعنا وكأن ذلك كان رغماً عنه، بالطريقة نفسها التي نصنع بها موجات بكل ضربة ذيل، وإنه قد يكون غير شاعر بوجودنا. وآخر يعلم بوجودنا لكنه لا يأبه بما يحدث لنا، حيث إنه يصنع (بصورة إرادية أو غير إرادية) بحاراً أخرى وسابحين آخرين على فترات متعاقبة. وفي اللحظات الأكثر مرارة ، كتلك التي سبقت غرقه ، اقترح صديقي أن صانعنا قد يكون تمنى لو لم يصنعنا؛ كان هناك بالتأكيد شاطىء ، جادل صديقي ، قد ينقذ بعضنا من الغرق، وقد كانت مهمتنا هي أن نجاهد من أجل ذلك ـ لكن لأسباب لا نعلمها أراد أن يمنعنا بصورة يائسة من الوصول إلى المكان السعيد لتحقيق مصيرنا. كان «أبونا»، باختصار ، هو عدونا ويمكن أن يكون قاتلاً ! لم يكن هناك شيء شائن أكثر ، شيء يبعث على الازعاج بالنسبة للرأي التقليدي الدارج من تأملات زميلنا في طبيعة خالقنا : من أنه هو نفسه قد لا يكون قادراً على السباحة على الاطلاق، إنه نوع من الهولة الضخمة، ولربما يكون بلا ذيل؛ وإنه قد يكون أبله عديم الحس، ماكراً، لا مبالياً، ضالاً مشاكساً، أو إنه يغط في النوم يحلم (على الدوام)؛ وإن الغاية التي خلقنا من أجلها وأطلقنا، والتي سلحنا من أجلها بالذيول، لربما تكون غاية غير أخلاقية، بل إنها قد تكون غاية قذرة. إلى آخره، إلى آخره : لم يكن هناك نهاية لحدوس ذلك الفتى ، أو لبذاءة خيالاته ؛ إن لدي سبباً لأشك إن موته المبكر، سواء كان مخططاً له من قبل «خالقنا» أم لم يكن، كان قد

عجل به من قبل بعض زملائنا السابحين الناقمين على تجديفاته.

«وعلى كل حـال فقد بدا لي، في بعض حالاته عندما يكون مزاجه مختلفـاً (لقد كـان مـزاجياً مثلي)، إن تنظيره يصبح نصف جدي، خصوصاً فيما يتعلق بموضوعات القـدر والخلود ، وهي الموضـوعـات التي كانت تستحوذ على مناقشات شباب مثلنا . ثم أصـبـحت خطبـه تتـحـول لتكون أكـثـر رزانة وغـموضاً ، إن لم يكن أكثر غرابة وبـعـداً عـن الـواقـع . ومع إنه ظل يحرضنا فإن حماسـتـه كـانت تبـدد النكتـة . إن اعتراضـه على الآراء الشـائعة عن الحياة الأخرى ، الذي كان يعلن عنه ، كان منصباً على ادعـاء هذه الآراء امـتلاك الحقيقة العامة . لم يتمسك المؤمنون بالقول إن الغرقى سـوف يقـومـون من مـوتهم ويحاسبون في نهاية الرحلة، كما إن غير المؤمنين يتمسكون بالقـول إن الغـرق هو نهاية الرحلة بلا أي اسـتثناء ؟ في رأيه (وقد كان من عادته أن يصرح بذلك على الأقل)، إن مـصير كل امـرىء هو الموت الدائم؛ لقـد كـان يحس بالسـعـادة الغامرة إذ يفترض إن كل «خالق» قد صنع الآلاف من البحار المنفصلة في زمـان خلقـه، وكل واحـد من هذه البحار مأهول مثل بحرنا بالملايين من السابحين، وإن البـحـر والسابحين فيه يؤولون، في كل لحظة تقريباً، إلى العدم تماماً، سواء كان ذلك بمـحض الصـدفـة أو بتـصميم حاقد. (ولا شيء ينتسب أكثر إلى الإيمان بمبدأ التـعددية من تخيلـه إنه قد يكون هناك ملاييـن أو بلاييـن من « الآبـاء » لربما في ليل ـ بحـري خـاص بهم !) وعلى كل حال فقد صرح ـ وهذا ما حوله إلى شخص كافر في عـيـون المـؤمـنـين ـ بـأنه يؤمن أنه من بين ألف ليلة ـ بحـرية، لنقل، توجـد ليلة واحـدة يسـتطيع سابح واحد من بين الربع بليون سابح فيها (أي سابح واحد من بين مـائتين وخمسين مليـوناً من السابحين) أن يحقق خلوداً فعلياً. وفي بعض الحالات فإن المعـدل قـد يكون أعلى بقليل؛ وفي حـالات أخـرى فإنه قد يكون أقل بكثير، فبما إنه يوجـد سـابحـون بدرجـات براعة ومهارة مختلفة، بمن فيهم أولئك الذي يغرقون قبل أن تبـدأ الرحلة، سـابحـون غير قـادرين على السـبـاحـة باطلاق، وآخـرون خلقـوا غـرقى، فـقـد تخيل زمـيلنا مـا يمكن أن نطلق عليـه صـانعين عنّينين، صانعين غير قـادرين على الخلق، وكـذلك صـانعين لديهم خـصوبة غير معتادة، إضافة إلى جميع الدرجـات التي تقع بين هذين النوعين. وقـد كـان مـبـهـجـاً له أن ينكر أية عـلاقـة

ضرورة بين خصوبة الخالق ومزاياه الأخرى ـ بما في ذلك، حتى، نوعية مخلوقاته.

«أستطيع أن أواصل (وقد فعل هو ذلك فعلاً) الحديث عن تطويره وتوسيعه لهذه الأفكار المجنونة ـ من قبيل إن السابحين في ليل بحري آخر ليسوا بالضرورة من جنسنا؛ وإن الصانعين أنفسهم لربما ينتسبون إلى أنواع أخرى، إذا جاز التعبير؛ وإن صانعنا نفسه قد لا يكون خالداً، وإننا قد لا نكون رسله فقط بل «خلوده» أيضاً، نواصل حياته وحياتنا، في نوع من التحول الذي يتجاوز موتنا الفردي. وحتى هذا النوع من الخلود المعدّل (الذي لا يعني شيئاً بالنسبة لي) كان يفهمه على إنه نسبي وعارض، وإنه معرض لنهاية عارضة أو مدبّرة: فرضيته الأثيرة كانت إن الصانعين والسابحين كل منهما يولد الآخر ـ وعلى عكس ما هو متوقع، فإن عددهم سيكون كبيراً جداً ـ وإن أية «سلسلة خلود» يمكن أن تنتهي بعد أي عدد من الدورات، وبالتالي فإن ما نسميه «خلوداً» (ولا زلنا نتحدث بلغة النسبية) ليس إلا عملية «التجسيد» الدورية، التي يمكن أن تكون هي نفسها بداية ونهاية في الوقت نفسه. بالمقابل أحب (صاحبي) أن يتخيل وجود دورات ضمن دورات، بعضها متناه وبعضها غير متناه: فعلى سبيل المثال فإن الليل ـ البحري، في حد ذاته، حيث «يسبح» الصانعون ويصنعون ليلاً ـ بحرياً وسابحين مثلنا، قد يكون من صنع صانع أكبر، هو نفسه واحد من صانعين عديدين، الذين بدورهم، الخ. أما الزمن نفسه فقد عدّه نسبياً فيما يتعلق بتجربتنا، مثله مثل الجِرم: الذي كان يعرفه قائلاً أنه مع كل ضربة من ذيولنا فإن البحار والسابحين الصغار جداً، والكينونات الكاملة التي تتولد ـ كما هو كينوناتنا وكينونات صانعينا وصانعي صانعينا ـ كانت أيضاً بفعل ضربات ذيل ضخم في نظام زمني أكثر بطأً؟

«لقد سخرت مثل الآخرين من هذا الكلام الذي لا معنى له. كنا وقتها شباباً وليس لدينا أية فكرة عما ينتظرنا في المستقبل؛ ولجهلنا كنا نتخيل الرحلة الليلية في البحر مغامرة بطولية ايجابية. ولم نتساءل أبداً عن معناها أو قيمتها؛ ولغاية التأكد فإنه كان على البعض أن يسقط في الطريق، وليس في ذلك شك للأسف، لكن ليربح المرء السباق فإن آخرين كان يجب أن يخسروا، ومثلي مثل زملائي جميعاً سلّمت بأن عليّ أنا أن أكون الرابح. لقد اندفعنا بدون انتظام، بلا أي صبر

للوصـول إلى النهـاية، لا يهم أين ولماذا، فـقط من أجل أن نجـرب شبابنا ضد واقع الليل والبـحـر، ولو أننا أطلقنا العنان لشكوكنا فإن الأمـر كـان سـيـبدو لنا مضحكاً تافـهـاً جـديراً بالازدراء. وعندمـا مـات (صـاحـبي) في المذبحـة الأولى لم يهتم بذلك أحد.

«وحـتى الآن فأنا لا أقـر بجـميع وجهات نظره ـ لكنني لم أعد أسخر منها أو أهزأ. لقـد طهّرني رعب تاريخنا من (التـمـسك) بوجهات نظر معينة ، من الخيلاء ، والثـقـة بالذات، والروح العـاليـة، والصـدقـة والاحـسـان، والأمل، والحيوية، وكل شيء ـ عـدا الخـوف البـلـيـد ونـوع مـن الســوداوية والكآبة، والمثـابرة المذهلة. ومـا يدعـوني إلى تذكـر خيالاته هو شكّي المتنامي بأنني من بين جميع السابحين، قد أكون الناجي الوحـيد في هذه الرحلة المهلكة، حامل حكاية جيل. هذا الشك، إضافة إلى التـغير الراهن في البـحـر ، أوحى لي الآن أنه لا شيء مـسـتـحـيل ، ولا حتى رؤى زميلي الجـائحة الأخيرة . وقـد قـادني ذلك إلى قرار يائس بعينه ، وهو ما ستأتي عليه حكايتي.

«من المرجـح أنني قـد فقدت حواسي. المجزرة التي حصلت في بداية انطلاقنا؛ هلاك القـسم الأعظم منا في الدوّامـة ، إعـتـام عـدسـة العين الذي يسبب العمى ، ونوبات التشنج التي يتسبب بها البحر؛ الذعر الجماعي ، احداث التمرد ، المذابح ، حـالات الانتـحـار الجماعي؛ الدليل القـاطع بأنه لا أحـد سينجو من هذه الرحلة ـ أضف إلى ذلك الاحـسـاس بالكرب والتـعب؛ إنها لمعجزة أن يحافظ المرء على عقله. وهكذا فإنني أعترف، من بين امكانيـات أخـرى، أن حلاوة البحر وهدوءه الحاليين، ومـا يبـدو إنه نوع من الحـضـور الغـامر، الأغنية، الدعوات من أعلى النهر القريب، قـد تكون هلوسات ادراك معتل . . .

«لربما أكـون غـارقـاً الآن. فـبـالتأكـيـد لم أكن أنا مـعـداً لهذه السباحة الخشنة المتقلبة؛ وليس مستحيلاً أن أكون قد نفقت منذ البداية وإنني أتخيل الرحلة الليلية في البـحـر من بعض الأعماق السحـيـقة . بأي حال من الأحوال لم أعد شاباً ، ونحن السـابحـون المسنون المنهكو القـوى ، المتـحـررون من أي وهـم ، أكثر الناس عرضة للأحلام.

«في بعض الأحيان أظن أني أنا زميلي الغريق.

«على عكس ذلك: بدأت أومن أنها ليست موجودة فقط، ولكن بأنها ليست بعيدة أبداً، إنها هي البحر، وهي تسحبني باتجاهها! مذعوراً تذكرت أكثر أفكاره جنوناً: محطتنا الأخيرة (التي كانت موجودة في ليل - بحري من مئات أو آلاف البحار) لم تكن شاطئاً، كما كنا نعتقد عادة، بل وجود غريب، لا يمكن وصفه إلا باستخدام لغة المفارقة والمجاز الغامض؛ إنه مختلف عنا تماماً نحن السابحين، ولكنه مع ذلك من يُكمِّلنا ، هو خلاصنا وانبعاثنا ؛ وفي الوقت نفسه هو نهاية رحلتنا ، نقطة الوسط، ونقطة البدء؛ إنه ليس واحداً من بين عدد كبير ولا يجذف سابحاً مثلنا، ولكنه كتلة مستديرة غير متحركة أو إنه كتلة ضخمة متدحرجة لا يمكن تخيل حدودها؛ إنه مكتف بنفسه، ولكنه غير مستقل قطعاً ويعتمد بنوع من الفطنة على فرصة (غير محتملة الحدوث بصورة مرعبة) أن ينجو واحد منا من الرحلة الليلية في البحر ويصل . . . ها ! يصلها، ادعُها هو، أو هي، أي لنقل إنها شيء مختلف عن هو. أهز رأسي؛ إنه أمر مناف للطبيعة والعقل؛ إنها نفسي من أكلم، لاحافظ على المنطق في هذا الظلام الرهيب . ليس هناك شيء اسمه هي ! ليس هناك شيء اسمه أنت ! إنني أهذي لنفسي ؛ وحده الموت من ينصت ويدعو إليه . في عيون الغرقى البحار كلها هادئة . . . .

«اسمع: لقد أكد صديقي إنه في كل نظام من أنظمة الخلق هناك نوعان من الخالقين، يناقض أحدهما الآخر ولكنهما يكملان بعضهما في الوقت نفسه، أحدهما يوجد في البحار والسابحين، والآخر في الليل الذي يحتوي البحر وما ينتظر (الناجي الوحيد) في نهاية الرحلة: الأول، باختصار، هو من يوجد الرحلة والثاني يوجد نهاية الرحلة (وكلاهما يفعل ذلك باسراف، بصورة غير إرادية، ولربما بلا مبالاة أو عن غير دراية). يستطيع صديقي أن يحدد «الغرض» من الرحلة الليلية في البحر - ولكن ليس بالضرورة غرض من يقوم بالرحلة أو من يصنعها! - بكلمات مجردة: هو التكامل مع الآخر ، التجلّي ، اتحاد الأضداد، تسامي الأصناف والفئات. وعندما كنا نضحك كان يهز كتفيه ويقر إنه لا يفهم المسألة مثله مثلنا، ويظن أنها أمر سخيف، وموحش، وربما فاحش. «ولكن واحداً منكم»، كان يضيف بابتسامته

الموارية، «قد يكون البطل الذي قيض له أن يكمل الرحلة الليلية في البحر ويتحد معها. إنكم لا تصنعون الحظوظ بالطبع»، وقد أعلن إنه هو نفسه لم يكن ليحاول أن يكون ذلك البطل؛ إن الفكرة بكاملها كانت مُنفِّرة بالنسبة له؛ ولو كان باستطاعتنا أن نرفضها بوصفها خيالاً بشعاً فإن ذلك سيكون أفضل بالنسبة لنا؛ جذّف، اضرب الماء بذيلك، وابتهج ، فلسوف نغرق جميعاً بعد قليل. لم يكن هناك ما يقوله، ولم يستطع أن يخبرنا كيف عرف ذلك أو لِم اهتم أن يخبرنا به، أكثر مما استطاع اخبارنا به فيما يتعلق بما حدث بعد أن تصبح هي والبطل، الشاطىء والسابح، «الكينونتان المتحدتان»، يصبحان الاثنين معاً وشيئاً مختلفاً عنهما. لقد اتفق معي تماماً أنه إذا كان ناتج الاتحاد السحري لا يتذكر الرحلة الليلية في البحر، على سبيل المثال، فأنه سيتمتع بنوع فقير من أنواع الخلود؛ وسيكون ذلك الخلود أكثر فقراً، تخيّل صاحبي أيضاً، فيما إذا ساوى مجموع البطل ـ السابح وهي معاً، أو إنهما أصبحا، مجرد صانع آخر في المستقبل لرحلات ليلية أخرى في البحر إضافة إلى ما تبقى، وذلك على حساب حياة لا تصدق. وبما أن الأمر كان كذلك ـ لقد كان مقتنعاً إنه كذلك ـ فإن الشيء الرحيم الذي ينبغي أن نفعله هو أن نرفض المشاركة؛ إن الأبطال الأصيلين، في رأيه، هم المنتحرون، وبطل الأبطال سيكون السابح الذي يرفض «خلودها» المعروض عليه ، رغم الحضور الذي لا يقاوم لها ، وبالتالي يضع حداً لواحدة على الأقل من حلقات الكارثة.

«كيف هزئنا به ! لقد جاءت ساعتنا ، اندفعنا إلى الأمام متظاهرين بالتألق والبهاء في مغامرتنا ، مجذفين ، صادحين بالغناء ، لاعنين ، مختنقين ، محاولين أن نعقلن المسألة، منقذين بعضنا، قاتلين بعضنا، مخترعين قواعد وقصصاً وعلاقات، مستسلمين، مجاهدين، ولكننا نموت في النهاية جميعاً، ونحن لا زلنا نقبع في الظلمة، إلى أن بقيت قلة قليلة تقاتل بضراوة وتنعب مثل الغراب قائلة «إلى الأمام! إلى الأمام! »، مثل صدى محتشد بالمرارة. ثم يسقطون أيضاً في الصمت ـ ضحايا، هذا ما أستطيع أن أسلم به ، الموجة الأخيرة المرعبة ـ وتأتي اللحظة التي أضرب فيها ، وأنا شاعر بالبؤس والكآبة منهك القوى ، ضربتي الأخيرة وأسلم نفسي للتيار ، لأغرق أو أطفو لا فرق ، ولكنني لن أسبح ثانية . وعندئذ ، وإنه لأمر

مدهش ذلك الذي سأحكي عنه، يصبح البحر هادئاً في لحظة! ثم يصبح المد العظيم دافئاً، نـاعماً ، ثـم يحملني ، كما يفـعل الآن ، إلى الأمـام وإلى أعلى سـواء شئت أم أبيت، مـثل طوفان من البهجة ـ وتذكرت بفزع تعاليم صديقي الميت.

«لم أخـدع. إن هذه العـاطفـة الجـديدة هي من صنعها؛ الرغبة التي تتملكني هـي سـحـرها. الوضـوح وبعـد النظر يسلبـان مني؛ في لحظة سـوف أصرخ فـيـهـا «الحـب! »، وأدفن نفسي في خـاصرتها، و «أتجلّ»، ومـعنى ذلك إنني أمـوت الآن؛ هذا الشـخص الذي تستخفه العاطفة ليس أنا؛ إنني أنا من يشجب ويرفض الرحلة الليلية في البحر! أنا . . . . .

«أنا كلي حب. «تعـال! » تهمس، وأنا لا إرادة لدي.

«أنـت يـا مـن ربما سـأكـونه، كـائناً من كنت؛ بالارتعـاشـة الأخيرة من نفسي الحـقيقية أناشدك أن تسمعني. ليس الحب هو ما يحافظ على وجودي ! لا ؛ رغم إن سـحرها يجعلني أحترق لأنشد بعكس ذلك، ورغم أنني مسوق حتى إلى التجديف، سـوف أقـول الحقيقة. إن ما ساقني إلى هذا البحر المرعب هو أمل وحيد، هدية من رفـيـقي المسكين: إنك قـد تكون أقـوى مني إرادة، وأنني بقـوة التركـيز المجردة أنقل إلـيـك، بما يتـفق مع ارثك الرسـمي، إرثاً خـاصـاً من الذكـريات المرعبـة والقـرار الـسـلبي. ومـهما كـان ذلك الحلم مجنوناً فإن حلمي هو أن يجد تجسـيـد مـعين، لا أستطيع أن أتخيله الآن، لنفسي (أو تجسيد نفسي ولها إذا كان ذلك ما ينبغي أن يكون عليـه الأمـر)، القـدرة على التعبير، ولتكن الترجمة جيدة أو خاطئة لا فرق، عن تأمل هذه التأمـلات. وإذا كـان لهذا الأمـر أن يحدث، على عكس جميع التـوقعات، فهل تفـعل، يا من أتكلم إليه ومن خلاله، ما لا أستطيع فعله: أن تنهي هذا الأمر الذي بلا غـاية، الأمر الوحشي! أن تتوقف عن سماع أغنيتها! أن تكره الحب !

«لا زلت حـيـاً ، طافياً ، مشتعلاً. وداعاً إذن يا أملي قبل الأخير: إن المرء قد يغـوص في أبشع حـالات التـجـديف وهو على حـافـة الشاطىء. أليس ممكناً (سوف يـبـتـسم صـديقي القـديم) أن يكون الذين يقـولون لا هم وحـدهم الناجين من هذا الـلـيـل ؟ إن هذا منسـجم مع المنطق ، لكن ليس هناك من منطق ، هناك حب بلا

منطق ، موت بلا منطق . من إذن يرجِّع صدى التأملات : كن أكثر شجاعة من مؤلفها ! (ضع) نهاية للرحلات الليلية في البحر ! لا تصنع المزيد ! وأقسم قسماً كاذباً عندما أقسم قسماً كاذباً لنفسي، أنكر نفسي ، وأغوص فيها تلك التي تنادي منشدة . . . «الحب! الحب! الحب! »

جـون ابـدايـك
(١٩٣٢ ـ   )

فخري صالح

لمحـة عـامـة :

وُلـــد جـون ابـدايـك فـي شلنغـتـون ، بنسلفـانيـا ، ودرس فـي هـارفـارد وكـامـبـريـدج ومـاسـاتشـوسـيتس. يرتبط نجاحه بعمله في «النيويوركر» التي كان في وقت من الأوقات واحداً من محرريها ، كما ظل من المسـاهمين بالكتابة لها . تعكس رواياته شكـاً دائمـاً ، وهي تعالج مشكلات الانسان الحديث بعين حادة تلتقط المعنى والنظام المفتين لعالم هذا الانسان.

تحـتـشد روايات ابدايك وقصصه القصيرة باقتباسات من العهد الجديد وباسكال، ويكثر في عـمله ذكـر القـديسين وفـلاسـفة اللاهوت، ومناقشة القضايا الخاصة باللاهوت ، كما نرى في قصة **«المنقـذ»** . والسـؤال الأسـاسي في عمل ابدايك هو فيما إذا كان الفنان هو الحلقة الأخيرة في سلسلة تمتـد في الزمن لتـتـصل بالتـجربة الدينية ـ الأخلاقية. لكن السؤال رغم تردده كثيراً في عمل ابدايك لا يجاب عليـه بصـورة واضـحـة ، ومن هنا يسـتمر هذا السؤال ليشكل موتيفاً مركزياً في عمل هذا القـاص والروائي المميز.

يتـمـيز عمل ابدايك بقدرته الواضحة على الانتقال من الحكي إلى التأمل ممازجاً بينهما بصورة تجـعل من عمله ممثلاً فعلياً للسرد القصصي المعاصر.

من روايات ابدايك : **«أيهـا الأرنـب، أهـرب»** (١٩٦٠) ، **«ريـش الحمامـة»** (قصص، ١٩٦٢) ، **«القنطـور»** (١٩٦٣) ، **«شهـر من الآحـاد»** (١٩٧٥) ، **«الانقـلاب»** (١٩٧٨) .

المنقذ

ترجمة : فخري صالح

دون أي شك فأنا شخص بارع. ففي الخريف والشتاء والربيع قمت بانجاز واجبات طالب لاهوت ؛ وفي الصيف تنكرت وأصبحت منقذاً . صدري النحيل قليلاً ، القاسي الشعر بلون الزنجبيل ، ولكنه ليس بالضرورة صدر شخص لم يبلغ بعد سن الرجولة، أصبح بني اللون . ظهري الناعم أصبح بلون السكر المحروق، مما منحني ، بالاقتران مع خوذتي البيضاء التي تدل على الأهمية ورفعة الشأن، والتي بلون القشدة المخفوقة ، وهو ما أكدته لي بعض أقمار مراهقتي ، مظهراً مبهجاً صالحاً للأكل . ساقاي ، اللتان كان باستطاعتي دراستهما بنفسي ، تبخترتا أمامي مثل ديك وأنا أضطجع على عرشي الخشبي العالي ، واكتستا بلون خشب الجوز البراق مما أبرز قوتهما الواضحة . انسجاما مع ذلك كان الشعر على جسدي أشقر قد بيضته الشمس ، بحيث أصبح لساقي الجمال البارز للمئبر (١) البني المصفر المعفر بغبار الطلع داخل الزهرة.

طوال شهور تسعة من السنة كنت أعدو بيدي الشاحبتين وعيني الملتهبتين عبر الصفحات التي لا تعد من النص المقدس المحتشد بالتفسيرات الملفقة ؛ وذلك في كتب ، متعددة الأجزاء تنافح عن المسيحية ، مصوغة بصوت فكتوري ودود زائف ومجلدة ببراعة بورق مقوى حاد الحواف وذات كعب جميل ذي لون أحمر باهت؛ مروراً بكتب علم الطقوس الدينية وتاريخ العقائد ؛ مروراً بالازدواجية المحيرة لانهماك تيليك (٢) المقدس في النقاش السياسي؛ مروراً بحديث المائدة المهذب المصقول للأب دارسي (٣) واتيين غيلسون وجاك ماريتان وآخرين من العصر الحديث حشروا خطأ وتركوا على راحتهم مع الأثاث العتيق الطراز الذي اختير بعناية ومع البرّاد المزدحم للقديس توماس (٤) المضياف حسن الوفادة؛ مروراً بالمحاولات المرعبة

لكيركغارد (٥) وبيرديائيف (٦) وبارث لجر الله بالسوط إلى الوجود . كنت أتأرجح مرعوباً على سلم العلامات السالبة التي تمكن علماء اللاهوت من التغلب على الفراغ. مشيت على رؤوس أصابعي مثل لص لأدخل بيت المذهب الطبيعي لأسرق الفضة. مثل لاعب أكروبات تأرجحت من خيط لخيط. بيوت عنكبوت نيومان (٧) المتقزحة اللون تحطمت بين يدي. رياضيات باسكال على اللوح الأسود مسحتها كتف عابرة. رسومات الكهف، التي تصبح حية بصورة مذهلة في ضوء الشموع، وتعود إلى هؤلاء السحرة البدائيين ، تتلاشى في ضوء النهار وتصبح مجرد انثروبولوجيا. التاجات المحوّرة للعابثين الأدبيين مثل تشسترتون واليوت واودن وغرين (٨) ـ سواء أكانوا يعدون المسيحية غابة مرسومة بالباستيل ومصممة لتكون أرض عبقر أو لتكون حفرة مستنقع ينبعث منها بخار عفن حيث يمكن استخراج الضياء والعتمة بدلاء ميكانيكية ـ فهي في النهاية سوف تتصادم بالتأكيد رغم التنوع الهزلي للأجراس والمضارب، بدليل الشاب الغني في شاطىء يهودا الذي رفض برعب أن يبيع كل ما عنده.

ثم، وفي الربع المتبقي من الثورة الشمسية، أرحت عيني على صفحة لامعة من الرمل مطبوعة بحروف الأجساد البشرية العارية. وعدم وجود تعارض بين هذا وبين دراستي، إذ إن نصوص اللحم تكمل نصوص العقل، هو العبء البسيط الذي يثقل موعظتي.

على المسند الخلفي لكرسي المنقذ الذي أجلس عليه رسم صليب ـ صليب حقيقي أحمر، يدل على وجود الضمادات والجبائر والأمونيا والمراهم المستعملة لمعالجة حروق الشمس. ومع ذلك فإن ذلك يريحني فعلاً. في كل صباح، عندما أصعد إلى كرسي، فإن أصابع قدمي المجعدة الرياضية الشابة تتشبث بمهارة بالأضلاع الخشبية التي يتكون منها السلم ، وكأنني أصعد داخل ثوب كهنوتي عظيم واسع صلب محكم الانطباق على جسدي.

للمرة الثانية (أقول) إنني في كل دور من أدواري أجلس جاثماً بانتباه على حافة (الكون) الواسع . لم يعد البحر ، بساكنيه المتعددي الأشكال والشديدي الغرابة، بثوراته البربرية الحمقاء التي لا معنى لها، يخدم كاستعارة تشير إلى الخراب

العميم الذي سببه المذهب الانساني لتفاحات عقيدتنا المقدسة. إننا نبحث عن الله الآن في الأزهار والأعمال الحسنة، والمساحات الواسعة من الزرقة التي تحيط بالقطع الجرباء الصغيرة من الأرض، التي نستخلص عبر حياتنا غير المقنعة منها، مغمورة، حسب العلم ، برعب الفراغ . أنا نفسي لا أستطيع تحمل التفكير بالنجوم ، أو أن أبدأ بعدّ الهياكل العظمية للحيوانات البحرية الميتة. لكن ومن موقعي فوق كرسيي يلوح البحر، الذي يقرر مصيره إلى حد ما منظوري المتعالي، سيداً عجوزاً مغطى بالضباب الرقيق يتمدد على راحته فوق كرسي هائل مسنده هو الشاطىء وغطاء ظهره السماء المغسولة والمكوية للتو. الزوارق الشراعية تطفو على سطحه مثل أفكار لا قيمة لها ولا رابط بينها ولكنها خيّرة نافعة. أنين القارب الشراعي هو الارتفاع المتواتر لصدرته المخيطة بالموجات الصغيرة عندما يتنفس. خذ ذلك في الحسبان. إننا ندخل البحر مصدومين ، جلدنا ودمنا يصرخان محتجين . لكن ، على ماذا نعثر في تلك اللحظة ، في تلك القفزة ، في تلك اللحظة الماضية ؟ النشوة والاحساس بالطفو . إن السباحة تعرض لنا حكاية رمزية ذات مغزى . إننا نقاتل ونهزم ، ونغرق ؛ نستسلم، يائسين ، ثم نطفو ، وننقذ.

أي جبان أنا، أية صيغة من صيغ الخطيئة أختار، لأطلق العنان لهذه الفكرة الرسمية على نحو ملتو ! سامحني. لست مرسماً ككاهن؛ أنا في حالة فوضى ذهنية تمنعني من التعامل مع النص الرئيسي. قدرتي هامشية، وسوف أحصر نفسي بحاشية اللحم التي يزدحم بها هذا الهامش بالذات، هذا الشاطىء نفسه ، كل يوم.

هنا سينما الحياة تدور عجلتها إلى الخلف. الكبار في السن يصلون أولاً . إنهم غير نافعين، فقدوا نعمة النوم. كل جسد من أجسادنا ساعة تضيّع الوقت. شاباً في مثل سني، أستطيع أن أنصت للأحماض البروتينية وهي تتكتك؛ أستيقظ في ساعات غريبة في الظلام والصمت المروعين شاعراً بموتي يهرع باتجاهي مثل قطار سريع. كلما تقدمنا في السن ، وقلّت الصباحات المتبقية لنا، أكثر الفجر من غرس طعناته فينا لنستيقظ.

النساء الكبيرات في السن يرتدين قبعات عريضة من القش ، وفي ظلال قبعاتهن، يبتسمن ابتسامات عريضة يهبنها لبعضهن البعض، للقواقع المالحة التي

يكتشفنها في رمل الصباح الناعم ، وكذلك لي ، أنا الذي أتطلع من عل من ليالي المبددة. الرجال غالباً لا يتمتعون باللياقة ؛ إن لهم سيقاناً ذابلة بيضاء تسند صدوراً برميلية نحاسية اللون ، أقوياء على نحو مناف للعقل ، يصخبون لاعبين بالزبد الأبيض. كيف تسوّي هذه الديوك المسنة أمر (شرطها) (الانساني) ! بأية خبرة بلهاء يسبحون في الماء المثلج ـ دائماً ، وعلى كل حال، موازين بحذر للشاطىء، على عمق لا يزيد عن طول الواحد منهم.

ثم يأتي الذين في منتصف العمر، مثقلين بالأطفال والكراسي المصنوعة من الألومنيوم. الرجال معلمون بعلامات صنعتهم ـ الذراعان الأحمران لعامل محطة البنزين، علامة × الباهتة التي يصنعها البنطال الفضفاض ذو الحمالتين على ظهر البنّاء أو النجار، الكاحلان المثلمان لجامع البطلينوس (٩) . الشعر على أجسادهم ذو أشكال متعددة تعدد أشكال العشب المتلبد. النساء مجعدات الجسم لكنهن يتمتعن بالخصوبة ، مثل أنهار العراق التي هدهدت بذور حضارتنا. أطفالهم كريهون. من وجوههم الكالحة تطل النظرة الشزراء لكل الشرور والأطماع والحاجات الملحاحة، التي تسبب الضيق، تلك الخاصة بالكبار، الحاجات التي لم يضعفها التحفظ الذي يتسم به سن النضج والتعب. باستثناء ذلك هنا وهناك، تمشي البنت الكبيرة، التي ترتدي لباساً مشدوداً مقلماً بخطوط أفقية خضراء وقرنفلية وبنية، ببطء وحذر مبهور بالفجر الذي يغلف جسدها الناعم الملزوز، حقواها لم يبرزا بعد ولكن رقبتها استطالت.

أخيراً يأتي الشبان. الزوجات الشابات يحضرن معهن أطفالاً سمينين يحدثون جلبة ويلتهمون الرمل وكأنه سكر، الأطفال الذين يدرجون بسعادة على الشاطىء ويسددون نحو عرشي سهاماً مستقيمة. صفارتي تسقسق مثل طائر صغير. الأم تستيقظ. الكثير من هؤلاء النسوة يكن في حالة حمل مجدداً، وهن يستلقين بكسل بملابسهن الفضفاضة مثل بقرات منتشيات في المرج الأخضر . إنهن يثرثرن في السياسة ، ويدخن بشراهة ، ويرفعن عيونهن القلقة باستغراب عندما تمر ثلاث حوريات هضيمات البطون ماشيات باعتداد . تلكم العذراوات يشددن عيوننا باتجاههن. تلك المفعمة بالحيوية ذات الشعر الأحمر، ذات الأقدام البيضاء والجسد

الأنمش التي تدفع فتاها وتستجدي أن يسمح لها بالصعود على المركب؛ السمراء الوقورة الهادئة التي تحمل زهريتها بأنفاس مكتومة؛ الشقراء ذات الغمازة بالمايوه البكيني ذي القطعتين، والزغب اللامع الذي يكسو حجابها الحاجز يومض كبطن قطة. الرغبة تدوّخني مثل (ضربة) شمس.

هل أنتم آثمون لأن طالب لاهوت يحس بالرغبة؟ أي متزمتين أولئك المحرومون من الكنيسة. أليس هجومنا على الدعارة فوق الطبيعية نوعاً من عدم الاحتشام ؟ إذا كنتم تعرفون فقط أي تحلل سادي (١٠) (يوجد في هذا العالم) ، أية مغاور نفسية مرعبة ، التي أعدّنا لمواجهتها أساتذتنا المتسامون اللطفاء ، كنوع من الاعداد لعملنا، الذي ينبغي أن يلمع في الظلام.

أشعر أن رغبتي تجعلني أشتعل؛ أحس بالبرد في مقعدي، مثل مشعل مصنوع من الثلج، وأنا أدرس الجمال. لقد درست الكثير منه، الجمال الذي يرتدي كل أنواع ملابس السباحة وتعبيرات الوجوه، وانتهيت إلى هذا الاستنتاج: إن جمال المرأة يكمن، لا في الافراط في إظهار الأماكن الخاصة، ولا في التناسق العام الذي يمكن التوصل إليه عبر نوع من التقسيم الجمالي للجام الفرس sectio aurea أو نوع آخر من الخرافات الجمالية المشابهة؛ بل في أرابيسك الفقرات. المنحنى الذي يلتقي فيه الظهر مع الأرداف. هنا في هذه النقطة يكمن الجمال ويرسو على جسد المرأة.

أنا أراقب من عرشي الأبيض النساء المسكينات، أستهجن الحكم المعتوه الذي يسوقهن باتجاه القوة العضلية المتبجحة التي للميزومورف والرضا الذاتي المزدهر للاندومورف بينما نحن الاكتومورف نتوفر في قوانا العجفاء وأعصابنا المشدودة على نعمة العاطفة، على أكرم ملاذ، على الحب. وأن ترغب في المرأة يعني أن ترغب في انقاذها. إن أي شخص تحمّل الجماع، ولم يكن ذلك الجماع من النوع النهّاب أو المتسرع، يعرف كيف إننا نهبط فيه، بصحبة شريك، إلى عالم من الغرابة والخيال والظلال الرقيقة الناعمة التي تكون إلى ذلك الوقت مقفلاً عليها في الفجوة التي تشدد عليها الحراسة في روحنا؛ إلى هذا الملاذ نقودها. الأرض الغريبة الغامضة تصبح مأهولة ؛ كل ظل تلمسه عملية الاستكشاف يتحول إلى زهرة فعل . وكأننا جزيرة تطير فيها المرأة، التي يتقاذفها زهوها وخيلاؤها اللذان يثقلانها والتي تبحث

عن ذاتها بصـورة عمياء عادية إلى حد اللهاث، وهناك تشعر بالأمان، في لحظة تسبق تماماً الهبوط المفاجىء، الطبيعة تنفخ في بوقها وتختفي الجزيرة في قاع البحر.

هناك حـقـيـقة عظيمة تكمن في تلك الصور المتحركة التي تحرم من الانتساب إلى حـقيقة الكتاب المقدس أو حقيقة الحياة . فهي ، رغم إنها تكتب بأقلام سكارى وأرواح شـيطانيـة، تمثل الحقيقة بالنسبة لكليهما. إننا جميعاً سليمان الذي يتوق إلى أن يخلص سبأ. إن المرء المملوء قلبه بحب الله مـسكون بالبراري والقفار التي تتوق أن تصـبح عـامـرة ومسكونة . التجاويف الصخرية بحاجة إلى جواهر وفراء لكسوتها ، إلى بعض الكسـاء واللحم ، رغم إن المعبد ، كما في مثال سليمان ، آخذ في الانهيار. الـنـسـاء سـلالة وثنيـة تعـيش بين ظهـرانينا ، وكل اغـواء هو تحـول واعـتناق لديانة جديدة.

مـن أحـب ولم يجـرب ذلـك النوع من الانقـاذ؟ ليس صـحـيـحـاً أن دوافـعنا البـيـولوجـيـة تسـتـثيرها أخـلاق الفـروسـيـة ؛ فبالأحرى فإن دوافعنا الفروسية تشرع بالصلصلة عندمـا يثقل عليها سلاحها البيولوجي. الخصيان يحبون، الأطفال يحبون، أنا أرغب في أن أحب.

تمريني الأسـاسي، وأنا أجلس مشرفـاً على الجموع ، هو أن أرفع الجماهير كلها إلى (سـدة) الأبدية . ليـست هذه مـهـمـة بسـيطة ! فالحشد كبير جداً ، وأفراده في مـعظمـهم لا يستحقون. ليس هناك من لحظة حمقاء أكثر تأثيراً من صورة جمع زائل، جمع يحيي روزفلت، يحتـفل بالهدنة، هناك هم، يرتدون عشرات الآلاف من قـبـعات القش واليـاقـات الصلبة، وجه صاخب خشبي لا يخاف من وجوه الحياة: لقد ذهب هذا الوجـه واختـفى. تموت الحـشـود في الشـارع مـثل الأشـياء المهملة المهجورة؛ لا تترك وريشاً لها، لا أثر، لا تترك لها اسماً. إن من السـهل تخيل مـشـابرتي الخـاصة فيما يتـعـدى الحافة المتبقية للزمن؛ ففي الحقيقة إنه في محاولة اطلاق العنان للخيال تكمن الطريقـة الأخـرى ـ لادراك حـقـيـقـة كـوني متوقفاً (أو زائلاً) . ولكنني عندما أدرس الورطة الهائلة للانسـانيـة التي تسـوّد الشاطىء، إلى النقطة التي ينتهي عندها الرمل، تحـتـشـد السـخـافات والتوافه وتجثم فوقي . أتكون صورة الأنثى هي صورة العذراء، أم المتـزوجـة، أم الحيزبون؟ ما الذي سيفعلنه دون أطفال يراقبنهم ودون ثرثرة يدرنها

فيما بينهن؟ ماذا عن موت آلاف الذكريات والتغيرات الجسدية التي تصيبنا ـ هل يمكن أن يستعاد ذلك في ضربة قاضية أخيرة؟ الأعداد المجردة المتضمنة نفسها تجعل العقل يصرخ. السلالة نفسها لم تعد عشيرة صغيرة من القرود الارستقراطية ترعى محيطاً من العشب؛ البشرية طاعون يطارد مثل النار فوق القارات المستنزفة. هذه الكتلة المحتشدة على الشاطىء، ذلك الجزء من الجزء ـ ألا نستطيع أن نقول أن هذا السرب المتكاثر من النحل هو أبديته الخاصة ونهاية القلق والحيرة؟ قفير النحل يصارع ليفوز بالبقاء. أو ليس كل واحد منا نحلة، مجرة من الخلايا التي تصلي كل منها بلا أي شك، من أظفر الاصبع إلى المريء، من أجل الخلاص؟ في الحقيقة إن السرطان ربما يبدو بالنسبة للخلايا نفسها احياء للإيمان . لا ، ففيما يتعلق ببعض البشر فإن النسيان معقول وصحي. بحر الآخرين يغضبني ويتعبني أكثر في صباحات أيام الآحاد. أنا لا أدري لِمَ لَمْ يعد الناس يذهبون إلى الكنيسة ـ فيما إذا كانوا قد فقدوا قدرتهم على الغناء أو رغبتهم في الاصغاء. فهم من الثامنة وثلاثين دقيقة وما بعدها يحتشدون في المواقف، نهال تحمل فتات عفشها، إلى أن تحل الظهيرة، أي عندما تخلي الكنائس البعيدة سبيل الأقلية الأنيقة المبتهجة التي ترتادها، يكون البحر نفسه مزدحماً بالرؤوس الفارغة والأذرعة المحمومة مثل النفاية المتناثرة بفعل ضربة مجداف. مذياع في مكان ما على الرمل يذيع بصوت عاطفي متحمس ولهجة اعتذارية نبأ اغلاق خدمة مسجلة . وهنا تماماً، هنا في قمة الحذر والتشوش، أهبط، عيناي مشقوقتان، والأشكال المبهمة للقطيع البروتستانتي الضال تبدو وكأنها تتجمع على حافة الماء بأوضاع من الورع والتقوى مثيرة للعواطف. أبدو كأنني متسلق أحلم بصخرة الفراغ اللانهائي قبل الخلق، والمنظر الفعلي الذي أراه هو رؤية المستحيل: الفردوس. فلو أننا وجدنا قبل تلك الإيماءة التي شقت القبة السماوية أكان بامكاننا أن ندرك أكثر تلك النعم التي نحوزها وضوحاً، أكثر النعم المسبغة علينا تفاهة وابتذالاً، اللحظة، اللحظة المفردة الدائمة الحضور التي نغريها بالظهور على شفاهنا مترعة وطافحة بصورة أبدية؟

إذن : ابتهجوا . ابتهجوا بأمري . هذه هي الرسالة التي قرأتها في اهتزازات أجسادكم. مدّوا أجسادكم التي تتعافى بمعجزة لحظة الشمس. ابتهجوا بسيقانكم

التي تشبـه المقص ، بخصـوركم التي تشبـه المرود . اصخبوا ؛ كلوا الزبد ؛ كونوا أطفـالاً. أنا هنا فـوق رؤوسكم؛ لقـد راهنت بشبـابي علكم تفـعلون ذلك. ها أنا أنتظر. أمـواج الزمن تخبىء تيـارات تحتية. أنتم مدفوعون باستمرار باتجاه الأفق. لقد أعـددت نفسي ؛ عـضـلاتي مطبـوعـة بكل شيء يجب عمله. في يوم من الأيام سوف تعطي يقظتي أُكُلَهـا ؛ غير بعـيـد في الأفق سـوف تعلو ، حلوة نصف شفافة ، مثل جـرس أخضر فـوق الماء، دعوة الاستغاثة، الدعوة، الدعوة، التي تدفعني بحزن إلى الاعتراف بأن علـيّ أن أنصت على الرغم من ذلك.

---

(١) المئبر. جـزء من السُداة في الزهرة.

(٢) Tillich

(٣) D'Arcy

(٤) St. Thomas

(٥) Kierkegaard : فـيلسوف ألماني، من الفلاسفة الوجوديين.

(٦) فـيلسـوف روسي من التيار المسمى بالوجودية المؤمنة.

(٧) Newman

(٨) أدباء بريطانيون.

(٩) حـيوان من الرخويات أو السمك الصدفي يستخدم الصيادون لصيده أداة على شكل ملزمة.

(١٠) نسبة إلى الماركيز دو ساد.

جـويـس كـارول أوتـس
(١٩٣٨ ـ)

فخري صالح

لمحة عامة :

جـويس كـارول اوتس واحـدة من أكـثر الكتاب المعاصرين غزارة انتاج، فمنذ ظهور كتابها «قرب البـاب الـشـمـالـي» (١٩٦٣) ، وهو مجموعة قصصية ، أصدرت حتى الآن أكثر من ثلاثين كتاباً ، بين مجموعات قصصية ومجموعات شعرية ومسرحيات ومقالات . وقد حازت روايتها « هـم » (١٩٦٩) على جائزة الكتاب الوطني بوصفها أفضل رواية أمريكية صدرت ذلك العام.

ولدت كارول اوتس في لوكبورت ، نيويورك ، ونشأت في كنف عائلة من الطبقة الوسطى . درست في جامعة سيراكوز بموجب منحة دراسية ، وبعد أن أنهت دراستها الجامعية الأولى درست بموجب منحة دراسية أخرى في جامعة وسكونسن وحصلت منها على شهادة الماجستير. عملت مدرسة للأدب في جامعة ديترويت، ثم انتقلت إلى كندا حيث عملت في جامعة وندسور، اونتاريو.

يكتسب عملها أهميته من قدرتها على تصوير العذابات والتشوشات التي تصيب الانسان المعاصر. وهي تكتب ، للتعبير عن ذلك ، عن عمال المصانع وفتيات المدارس ورجال الأعمال والمدرسين والوعّاظ في الكنائس عاكسة بذلك عالم الطبقة الوسطى بصورة خاصة . تبدو شخصيات عمل كارول اوتس عادية في مظهرها الخارجي حيث يمكن أن نحزر ردود فعلها ، لكنها معقدة من الداخل ومرعوبة من الآخرين ومن القدر الغاشم . إنها تعيش رعباً ومخاوف لا حصر لها . ومن هنا يبدو عالم روايات اوتس محتشداً بحالات القتل والاغتصاب والانتحار

والضرب المبرح. ينتمي وصفها للرعب المفاجىء الذي يهاجم شخصياتها إلى عالم الرواية القوطية، التي تعد أعمال واشنطن ارفنغ وادغار الن بو، وآخرين من معاصريهم الذين يكتبون عن المقابر والاطلال الدارسة وقوى الشر الشيطانية الغريبة، أمثلة واضحة عليها. لكن العالم القوطي لروايات اوتس وقصصها لا يدور في الأجواء نفسها بل إنه يصور الحيوات الشبحية في المدن الحديثة المدمرة. ولقد قورن عملها لذلك بعملي فلانري اوكونور ووليام فوكنر اللذين تحتشد قصصها ورواياتها بالشخصيات التي تواجه أقداراً مروعة وعنفاً لا نظير ولا تفسير له. وبسبب من هذا الاحساس بالرعب الذي يجتاح شخصياتها لقبت جويس كارول اوتس بـ «السيدة المظلمة في الأدب الأمريكي».

كيف تأملت العالم من اصلاحية أحداث ديترويت وبدأت حياتي ثانية

ملاحظات ماخوذة لكتابة مقالة لدرس اللغة الانجليزية

في مدرسة بولدوين الريفية النهارية ؛

تسكع وبحث بين الأنقاض ؛ احساس بالإشمئزاز والفضول ؛

اكتشاف لمعنى الحياة ؛

نهاية سعيدة ...

ترجمة : فخري صالح

I الأحـــداث

١ . الفتـاة (أنا) تتـمـشى في براندن ، ذلك المخـزن الممتـاز . ضـاحية مدينة كبيرة وشـهـيرة، وهـي رمـز المدن الأمـريكيـة الكبرى الشـهيرة. تتـسلل الأحـداث إلى الفتـاة التي تؤمن إنها تسـوق هذه الأحـداث مثل قطيع بإبتسامة صغيرة ثابتة ، فتـاة في الخـامسـة عشرة بريئة من بعـد التـجـربة . تبدد الوقت بأسلوب معين بجـانب نضـد عليـه قطع مجوهرات للزينة . خـواتم ، أقراط ، قلائد . تتراوح الأسـعـار بين الخـمسـة دولارات والخـمسين دولاراً ، وجميعها في متناول اليد . جميـعها بشعة. تتحرك محررة نفسها باتجاه نضد القفازات ، حيث كل شيء بشع أيضـاً. بمـعطفـهـا الملائم لمقـاييس جسـمها وياقته السوداء المصنوعة من الفرو

تتأمل أسباب الرفاهية والنعيم لدى براندن ، الذي عرفته لسنين : أضواءه الشاحبة ، المريحة للعين والروح ، زخارفه وزينته الرنانة المتقنة ، نساءه اللواتي يتسوقن بأحذيتهن ومعاطفهن الجميلة وشعرهن المصفف بعناية ، وكلهن يتسكعن برشاقة دون أي احساس بالعجلة.

من كان على عجلة من أمره هنا؟

٢. الفتاة جالسة في البيت . مكتبة صغيرة ، جدران مصنوعة من خشب البلوط . أحدهم يتحدث إليّ . صوت امرأة صارم أبح يسوق نفسه باتجاه أذني عصبياً، خائفاً يتلمس طريقه إلى قلبي، يقول، «إذا كنت تريدين قفازات فلماذا لم تقولي ذلك؟ لِمَ لَمْ تطلبي شراءها؟ ». ذلك المخزن، مخزن براندن، يملكه ريموند فوريست الذي يسكن في درب دو موريبه. أما نحن فنسكن في درب سيوكس. ريموند فوريست. رجل وسيم؟ بشع الخلقة؟ رجل في الخمسين أو الستين، بشعر رمادي، أو إنه رجل في الأربعين بعينين صارمتين كريمتين، لعبة غولف جيدة؛ من هو ريموند فوريست، هذا الرجل الذي هو فعلاً خلاصي؟ كان أبي يتحدث إليه. أبي ليس طبيبه؛ الدكتور بيرغ هو طبيبه. أبي والدكتور بيرغ يحولون المرضى إلى بعضهم البعض. هناك علاقة ما. أمي تلعب البريدج مع.... أيام الاثنين والأربعاء خادمتنا تعمل لدى . . . الخيطان تتجمع في مهد القطة، صانعة شبكة لإنقاذك عندما تسقط . . . .

٣. محل هارييت ارنولد. محل صغير. أفضل من مخزن براندن. أمي في معطفها الأسود، أنا في معطفي الأزرق الضيق. نتسوق. والآن أنظري إلى هذا، أليس ناعماً ، هل تريدينه ، جربي هذا ، خذي هذا معك إلى غرفة القياس، خذي هذا أيضاً، ما حكايتك، ما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك، لم تبدين غريبة بهذا الشكل . . . ؟ » «أردت أن أسرق لا أن أشتري» ، لم أقل لها ذلك. الفتاة تخفض رأسها وتنكمش داخل معطفها وقفازاتها وحذائها الجلدي ، عيناها تمسحان الأفق، ذا اللون القرنفلي الباستيلي والمزين مثل مخزن براندن بجدران مزينة بذوق وسقوف حديثة ذات أضواء رشيقة وامضة.

٤ . بعـد أسـابيع، الفـتـاة واقـفة في محطة باصات. وقت ما بعد الظهر، الجو يصبح أكـثـر برودة. ديترويت. الرصـيف والمخـازن مـغلقـة؛ الشواء يبدو واضحاً من شبابيك أحد مكاتب الرهن. ما هو مكتب الرهن بالضبط ؟

II الشـخـصـيات

١ . طول الفـتـاة خمس أقدام وخمس بوصات. طول طبيعي. مدرسة بولدوين الريفية النهـارية ترتب الطالبـات بناء على ذلك الطول. الفتاة تحلم في الممرات وتضغط وجـهـهـا على الزجاج المضفور بالحرارة. لا صقيع أو بخار يمكن أن يتكون على ذلك الزجـاج . لطخـة من الدهن من جبهتها . . . هل يمكن أن تغلي وتتحول (إلى مجرد كتلة) من الشحم؟ شعرها متحرر من أي رباط، طويل، سبط، على طريقة المراهقات في ضواحي المدينة ، عام ١٩٦٨ . العينان مكحلتان بلون بني غـامق . شـعـر بني . عـينان خضراوان قليـلاً . فـتاة جميلة ؟ فتاة بشعة ؟ إنها تغني لنفـسـهـا بصـوت خـفـيض غير مـسـمـوع، وهي تعبث في الممـر، تفكر بـأسرارها الكثيرة (الدولارات الثـلاثين التي أخـذتها مـرة من محفظة والدة إحـدى صـديقاتها، من أجل المتعة فقط، نافذة التسوية التي حطمتها في منزلها من أجل المتـعـة فـقط) وتفكر بأخيها الذي يدرس في أكاديمية سسكيهانا للفتيان، مدرسة اعـدادية ممتـازة في مين، إنها تتـذكره بصورة غير واضحة. . . إن له شعراً رجولياً طويلاً وصـوتاً حـاداً ويبدو مثل المغنين المراهقين المعروفين عام ١٩٦٨ ، واحـداً من هـؤلاء الذين يغنون كـمـجـمـوعـات. القـوى الأكـيـدة ، طريق الخروج ، المهـوسـون هم المسـؤولون. الفـتـاة بدورها تبـدو مـثل الفـتـيات اللواتي يملأن الـسـاحـة ويـسـتـمـعن إلى الفـتـيـان وهم يغنون يحلمن ويحلمن دون انقطاع ، وينفجرن بضحكات غاضبة عالية ، فتيات بلا تجربة.

٢ . الأم. امـرأة من الغـرب المتوسط لديترويت وضواحيها. عضو في نادي ديترويت للرياضـيين. وكـذلك نادي ديترويت للغـولف. وأيضـاً في نادي تلال بلومـفيلد

الريفي. نادي نساء القرية حيث تلقى محاضرات كل شتاء عن جينيه وسارتر (١) وجيمس بولدوين (٢) ، من قبل مدير برنامج تعليم الكبار في جامعة الولاية في وين. . . . جمعية بلومفيلد للفن. وكذلك جمعية مؤسسي معهد الفن في ديترويت. وكذلك. . . يا إلهي، إنها في حركة دائمة لا تتوقف، هذه المرأة، بشعرها الذهبي المنفوش، شعرها الذي يبدو أكثر لمعاناً من الذهب، شعر وأصابع وجسد بجمال لا يوصف. ثقيلاً يستقر الذهب على ظهر فرشاة شعرها وعلى مرآتها اليدوية. ثقيلة ثقيلة تستقر الشموع في غرفة الطعام. السيارة الكبيرة الثقيلة جداً، من نوع لينكولن، طويلة وسوداء، تلك التي مزقت جسم سنجاب إلى نصفين غير متساويين في أحد الأيام الخريفية الباردة.

٣. الأب. طبيب . عضو في النوادي نفسها التي تنتسب لها #٢ . لاعب سكواش وغولف ؛ لديه مظلة غولف مخططة. سكرية. في فمه لا شيء يتحول إلى سكر، وعلى كل حال ؛ فاللعاب لا يحدث المعجزات هنا. وهو يعالج المرضى الذين يشكون من أمراض بسيطة . المرضى فعلاً يرسلون إلى مكان آخر (إلى الدكتور بيرغ ؟) ، أما المرضى على شفا الموت فإنهم يعادون ليجروا مزيداً من الفحوص وترسل الفواتير إلى منازلهم، أما الذين ليسوا مرضى فيرسلون إلى الدكتور كورونيت (ايزابيل ، سيدة) ، طبيبة نفسية ممتازة لمن لا يعانون من مرض جسماني ولكنهم يعتقدون غاضبين إنهم مرضى وينبغي أن يعالجوا . أما إذا احتاجوا إلى طبيب نفسي ذكر فإن الدكتور (أبي) يرسلهم إلى الدكتور لوفنشتاين ، طبيب نفسي ذكر ، ممتاز ولكن علاجه مكلف ، خبرته محدودة.

٤. كلاريتا. إنها في العشرين من عمرها، الخامسة والعشرين، الثلاثين أو أكثر؟ جميلة، بشعة، أي منهما لا أدري ؟ إنها امرأة تتسكع في إحدى الطرق ، مرتدية بنطال جينز وسترة ، تسافر باستيقاف السيارات وتركب مجاناً ، أو إنها تجلس على مقعد إلى جوار النضد في مطعم صغير على قارعة الطريق . فك قوي. عينان فضوليتان . عينان لاهيتان . خلف عينيها تتحرك المواكب ، موكب جنازة ، صور كرتونية . تقول : «لا أستطيع أن أفهم لم تتسكع فتيات مثلك

هنا. عم تبحثين على أي حال؟ » فاحت رائحة توباكو منها. ملابس داخلية غير نظيفة، أم إنها لا ترتدي ملابس داخلية، جسم غير نظيف، أصابع أقدام خشنة، شعر طويل ويسقط (على جانبي وجهها) في جدائل، لم يغسل حديثاً.

٥. سايمون. في هذه المدينة يتغير الطقس بصورة مفاجئة، وكذلك طقس سايمون يتغير بصورة مفاجئة. إنه ينام بعد الظهر. ينام في الصباح. وعندما يصحو، يتلمس طريقه إلى شيء يمكنه من مواصلة طريقه، إلى سيجارة أو قرص يجعله قادراً على الخروج إلى الشارع ، حيث تكون درجة الحرارة حول ٣٥ درجة. لم لا تنخفض درجة الحرارة؟ لم، لم لا يهبط الهواء البارد النظيف قادماً من كندا؛ هل ينبغي أن يصعد باتجاه كندا ليحصل على ذلك الهواء؟ هل ينبغي عليه أن يترك مسقط رأسه ويغوص في حقول كندا الجليدية . . . . ؟ هل تطارده الإف. بي. آي. (التي يحلم بها بصورة ثابتة) إلى هناك على الحدود مشياً على الأقدام، محاطاً هناك بعاصفة من الزجاج المكسور والقرون الحادة. . . ؟

يقول سايمون: «كنت مرة هكلبري فن، أما الآن فأنا رودريك اشر (٣) . وإذ أحدقت بي نوباته ومخاوفه جعلني هذا الرجل أشعر بالبرد يتسلل إلى عمودي الفقري، إنه يتعاطى أقراصاً خضراء، وأقراصاً صفراء، وأقراصاً بيضاء وكبسولات ذات لون أزرق غامق وذات لون أخضر. . . إنه يتعاطى أشياء أخرى لا أستطيع ذكرها، فماذا لو بحث عني سيمون وصعد إلى غرفة نومي هنا في تلال بلومفيلد وخنقني، ما الذي سيحصل بعدها. . . . ؟ (عندما كتبت الكلام السابق أخذ بدني يرتجف، لماذا أرتجف؟ أنا الآن في السادسة عشرة، والسادسة عشرة ليست سن الارتجاف). إنها عدوى من سايمون الذي يشعر بالبرد على الدوام.

III أحداث العالم

لا شيء .

IV الناس والوقائع التي تؤدي إلى هذا الانحراف

لا شـــيء .

V شارع سيوكس

جـورج ، كـلايد جي. ٢٤٠ سيـوكس . ممثل للمصانع ؛ أطفال ، كلب ، زوجـة . من جـورجـيـا بالأعـمدة المعهودة نفسها . إنك تفكر بالبيت الأبيض ، ثم بتـومـاس جيـفـرسون ، ثم يصبح عقلك صفحة بيضاء عندما تتوقف عند الأعمدة البيـضـاء ولا تعـود تفكر بشيء . نوريس ، رالف دبليو. ٢٤٦ سيوكس . علاقات عـامـة. من المستـوطنين. مشربية، قرميد، حجر، باطون، خشب، مصاريع نوافذ خضراء، ممشى جـانبي، مـصابيح إنارة، عـشب، أشجار، طريق مسفلتة، طفلان، أحـدهما هو زمـيلي في الصف ايسـثر (ايسـثر نوريس) في مدرسة بولدوين. زوجة، سيـارات. رامـزي، مـايكل دي. ٢٥٠ سيـوكس. من المسـتـوطنين. غرفة معيشة كـبيرة، ثلاثين بخـمس وعشرين (قـدماً)، مدافىء حائطية في غرفة الجلوس، مكتبة، غـرفـة استـجمام، جدران مكسوة بالخشب مشرب للخمر خمسة حمامات خمس غرف نوم مـرحـاضـان تكيـيـف مـركـزي مرشـة أوتوماتيكيـة باب مرآب يفتـح أوتوماتيكياً ثلاثة أطفـال زوجـة سيـارتان غـرفـة طعام باحة مرصوفة قطعة أرض واسعة مسيجة أربع عشرة شـجـرة بوابة أمـامية بمطرقة من النحاس الأصفر لم تستخدم للطرق يوماً مـن الأيام. المنزل المجاور هو منزلنا . له (مظهـر) كـلاسيـكي مـعـاصر . حـديث تـقـليـدي. مـرآب ملحق بالمنزل ، غـرفـة من نوع فلوريدا ملحـقـة بالمنزل ، باحـة مـرصـوفـة ملحـقـة بالمنزل ، مـسبح ملحق بالمنزل وكوخ ، عليّـة ملحقة بالمنزل . صندوق بريد على البـاب الأمـامي ذو شق صـغير يسـمح بتـمرير التايم ماغازين ، فـورتشن ، بيـزنس ويك، الوول ستريت جـورنال، النيـويورك تايمـز، النيويوركر ،

الساتاردي ريفيو ، ام. دي. ، المودرن مديسن، ديزيز اف ذا منث. . . وأشياء أخرى أيضاً. . . وبالإضافة إلى كل هذا، رسالة هادئة مختومة من بولدوين تقول: ابنتكم لا تحقق في المدرسة مستوى يلائم نتيجتها في فحص ستانفورد بينيه (٤) . . . . وابنكم أيضاً لا يحقق نتائج دراسية مرضية، نتائجه غير مرضية على الاطلاق، إنه لأمر محزن. أين ابنكم على أي حال؟ عندما كان يسرق حلوى trick - and - treat من أطفال في السادسة من عمرهم كان هو نفسه ولداً قوياً في العاشرة. كانت تلك البداية. والآن ابنتكم أيضاً تسرق . في صيدلية القرية سرقت ، نعم لقد فعلت ذلك، لا تنكروا ذلك، لقد سرقت نسخة من مجلة المهرجان (٥) دون أي سبب، لقد سرقت لفة من منقذ الحياة مغلف بورق أخضر ولم تكن بحاجة إلى إنقاذ حياتها أو حتى بحاجة إلى مص الحلوى؛ لقد سرقت ولم تكن قد بلغت سن الثامنة، لا ينبغي أن تحمر وجوهكم، لقد سرقت رزمة من الـ Tums لمجرد إنه كان موجوداً على النضد في متناول يديها، والسيدة اللطيفة التي كانت خلف النضد (وهي ميتة الآن) لم تنطق بكلمة. . . درب سيوكس. أشجار قيقب، أشجار بلوط، أشجار دردار. أشجار الدردار المريضة مقطوعة. درب سيوكس يفضي إلى درب روزفلت. مجازات تنعطف ببطء ، لا شوارع، كلها دروب وطرق وممرات. قوة شرطة خاصة. شرطة خاصة هادئة، بسيارات لا علامات عليها. إنهم يتجولون في المنطقة في أمسيات أيام السبت بإبتسامات أبوية يوجهونها نحو المقيمين في المنطقة الذين ينتشرون داخل وخارج المنازل، يذهبون إلى الحفلات أو يعودون منها، آلاف الحفلات، وهم يترنحون قليلاً، النساء في معاطف الفرو يترجلن من السيارات المبتاعة من فورد وجنرال موتورز وكرايزلر ، تلك السيارات الثقيلة الوزن . ليس هنا سيارات أجنبية. ديترويت. في سيوكس ٢٧٥ ، هناك في أسفل صف البيوت في ذلك القصر المذهل الفرنسي ـ النورماندي الطراز، يسكن هو نفسه، ذلك الرجل الذي يملك الحساب رقم ج ، تصوروا ذلك ! أنظروا إلى حيث يسكن وأنظروا إلى الأشجار والمداخن الهائلة، تخيلوا المدافىء العديدة التي لديه، تخيلوا زوجته وأطفاله، تخيلوا شعر زوجته، تخيلوا أظافرها، تخيلوا حوض استحمامها الناعم النظيف ذا اللون القرنفلي المتوهج ، تخيلوا عناقهما ، جيوب بنطاله المليئة بالقطع النقدية المعدنية والمفاتيح الغريبة والغبار والفستق، ، تخيلوا نشوتهم وابتهاجهم في درب سيوكس ،

تخيلوا العوائد الضريبية على دخلهم، تخيلوا تفاخر ابنهم الصغير في سيارته التجريبية ، ج مخفضة ، وهو يزأر في الجوار في المماشي الجانبية مروعاً الكلاب والخادمات الزنجيات ، آه تخيلوا هذه الأشياء ، تخيلوا كل شيء، دعوا عقلكم يزأر فوق دروب سيوكس ودي كوربيه وروزفلت وممر تايكونديروغا وطريق بيرننغ بوش وممر لنكولنشاير ومجاز لويس.

عندما يحل الربيع فإن رياحه لا تحمل في هبوبها إلى درب سيوكس شيئاً، لا روائح الخطميات أو الفورسيتية، لا شيء مما يوجد في درب سيوكس، فكل شيء مزروع هناك ويقوم بدوره. دوارات الرياح، هل لديهم دوارات للرياح، أليس عليها أن تدور مع الرياح، أليس عليها أن تتبارى مع الطقس. ليس هناك (في الحقيقة) من طقس.

VI ديترويت

هناك على الدوام طقس في ديترويت. درجة الحرارة في ديترويت هي على الدوام ٣٢ درجة مئوية. درجات حرارة سريعة الانخفاض، درجات حرارة بطيئة الارتفاع. رياح تهب من الشمال باتجاه الشمال الشرقي بسرعة تتراوح من أربعة إلى أربعين ميلاً في الساعة، تحذيرات صغيرة بارعة، الجو غائم بصورة جزئية اليوم ويوم الأربعاء ويتحول إلى مشمس جزئياً يوم الخميس. . . تحذيرات صغيرة من الصقيع، تحذيرات من السناج، تحذيرات من حركة السير، تحذيرات من الأحوال الخطرة للبحيرة وتحذيرات للسابحين، عصابات الزنوج لا تهدأ، عمليات تشكل للغيوم لا تهدأ، درجات حرارة تجاهد لتصل إلى قاع ميزان الحرارة أو تصعد إلى قمته وتغلي كل شيء في الزئبق الأحمر.

درجة حرارة ديترويت ٣٢ درجة مئوية. درجات حرارة سريعة الانخفاض. درجات حرارة بطيئة الارتفاع. رياح تهب من الشمال باتجاه الشمال الشرقي بسرعة تتراوح من أربعة إلى أربعين ميلاً في الساعة. . . .

VII الأحـــداث

١ . قلب الفتـاة يخفق بعنف . في جيبها زوج من القفازات ! في حقيبة بلاستيكية ! حـقـيـبـة مـانعـة لدخول الهواء واختراق الأنفاس، قفازات تباع بخمسة وعشرين دولاراً على النضـد في مخزن براندن ! في جيـبها ! نشلتها من المحل ! . . . . في محفظتـهـا مـشط أزرق، ليس نظيـفـاً تمامـاً. في محفظتـهـا حـافظة أوراق نقـدية مـصنوعـة من الجلد (هدية عـيـد مـيـلادها من جـدتها في فـيـلادلفـيا) وصور فـوتوغـرافـيـة للعـائلة مـوضـوعـة في جيوب بلاستيكية نظيفة، في حافظة النقود هناك أوراق نقـدية لا تعلم كم منهـا مـوجـود هناك . . . . في محفظتـها ملاحظة مـشـؤومـة من صـديقـتـهـا تايكي ما هذا الذي يقولونه عن جو اتش . والأولاد والبنات الذين يتـسكعـون لدى لويز مساء السبت؟ هل سمعت شيئاً عن ذلك؟ . . . لقـد مـررت هذه الملاحظة لها في حـصة اللغة الفرنسية. في محفظتها الكثير من المناديل الورقـيـة الصـفراء المتسخة، لسوف يتوقف قلب والدتها عن الخفقان لو رأت مـثل هذه المناديل الورقـيـة الشـديدة الاتسـاخ، وفي قـاع محفظتها هناك دبابيس شـعـر بنيـة اللون ودبابيس افـرنجـيـة وقلم رصـاص مكسـور وقلم حبر جـاف (أزرق) سرقته من مكان ما لم تعد تذكره علبة تجميل لفتاة بحجم حافظة النقـود، وردية بلون العـاج. . . . طلاء شـقـيـقتها من نوع بروكن هارت، بلون قـرنفلي فـاسـد؛ أصـابعـهـا ترتجف كأصابع الممسوس؛ أسنانها بدأت تصطك؛ أحـشـاؤها متقدة؛ عيناها تتقدان في رأسها؛ إنها تقول لوجه أمها المصعوق أريد أن أسرق لا أن أشتري.

٢ . في نهار كـلاريتـا أو ليلها ؟ أية غرفة هذه ؟ سرير ، سرير عادي ، وحشية على الأرض بالقـرب منه. ورق الجـدران المتـقشر يتـدلى. تقـول كـلاريتـا إنها مـزقته بأسنانها هكذا . كـانت تقـاتل قـبـيلة بربرية تلك الليلة ، شـاعرة بأنها تطير في الأعـالي بسـبب تناولها بعض الأقـراص ؛ كـانت تقـاتل دفـاعاً عن النفس ضد رجـال يرتدون خـوذات مـصنوعـة من الحـديد الثـقـيل وليس يبين من وجوههم

سوى صلبان مسيحية يتنفسون من خلالها ، جميع الأوغاد هؤلاء يبدون مثل عشيقها سايمون، الذي يبدو أنه يتنفس بصعوبة من شقوق فمه ومنخريه المثبتة في وجهه. لم تسمع كلاريتا أبداً بدرب سيوكس. لم يمزج ريموند فوريست معها الخمر بالثلج ، ولم يفعل الحساب ج ولا الملايين المودعة فيه ؛ قد تكون كلية هارفارد للأعمال على زاوية شارع فيرنور والشارع الثاني عشر (٦) وهذا كل ما تهتم به، وقد تكون فيتنام غرقت الآن في البحر الميت تحت أطنان أنقاضها، بكل الذهول الذي تستطيع ابداءه . . . وجهها المجعد ، مرهق ، في سن العشرين (الثلاثين؟) إنه منهك على الدوام ولكنه غريب وجاهز للضحك.
تقول كلاريتا بنغمة حزينة عزيزتي أحدهم سوف يطردك دعيني أحذرك. في فلم عرض في آخر الليل في التلفاز لا تبدو كلاريتا بحالة الفوضى هذه ولكنها ممرضة ، بشعر قصير مرتب ونظرة مكرسة ، تحب الطبيب الذي تعمل معه ومرضاه وأمراضهم ، متيمة بالإبر وضمادات الشاش والكحول المستخدم لتطهير الجروح. . . . أو إنها شيء آخر : إنها سكرتيرة خاصة . روبرت كمنغز هو رئيسها . إنها تساعده في خطط عجيبة ، الجمهور السكران يضحك ، لا ، الجمهور لا يضحك لأنه لا يوجد شيء يدعو للضحك ، بدلاً من ذلك فإن رئيسها هو روبرت تيلور وهما لا يمثلان صاحب عمل وسكرتيرته بل زوجاً وزوجته، إنها مهددة من قبل نجمة شابة، إنها شرسة، وسيمة، تقوم بدورها كزوجة وفية، شريكة جيدة لرجل فاضل. . . . إنها كلوديت كولبرت. أختها أيضاً هي كلوديت كولبرت. إنهما توأمان، توأمان سياميان. زوجها تشارلز بوير رجل غني ووسيم وأختها، كلوديت كولبرت، تخطط لموتها لتأخذ مكانها زوجة للرجل الغني، ولا أحد يستطيع أن يعرف لأنهما توأمان . . . . قد تكون كلاريتا عاشت كل هذه الحيوات المدهشة ، ولكنها سقطت إلى القاع في سن الثالثة عشرة. في السن الذي كنت أحزم فيه متاعي لرحلة ننام فيها خارجاً عند توني ديشيلد كانت هي تمزق أغطية السرير القذرة وتحك الطفح الجلدي على ذراعيها . . . . سن الثالثة عشرة ليس سن النضج بالنسبة لفتاة بيضاء في ديترويت ، قالت الآنسة بروك من اصلاحية ديترويت في مقابلة حزينة مع صحيفة ديترويت نيوز؛ سن الخامسة عشرة والسادسة عشرة مناسبة أكثر.

الحادية عشرة، الثانية عشرة، الثالثة عشرة ليست مستغربة بالنسبة للملونين . . إنهن أكثر حذراً . ما الذي نستطيع أن نفعله نحن ؟ الضرائب ترتفع والحد الأدنى للضريبة يهبط. درجة الحرارة ترتفع ببطء ولكنها تهبط بصورة مفاجئة. كل شيء يهبط إلى القاع ، جادة وودوورد قذرة ، جادة ليفرنوا (٧) قذرة ! قطع الورق ترفرف في الهواء مثل الحمائم ، القذارة تطير وتضربك في وجهك ، يا إلهي ديترويت تتمزق وتتحول إلى مزق من الصحف والأوساخ تهددنا ، أنظروا. . . .

تقع شقة كلاريتا فوق مطعم. يتسلل عشيقها سايمون من الشقوق في الظلام. السيدة اوليسكو، جارة كلاريتا، امرأة نحيلة مسنة بيضاء، لا تتذمر بل تتشمم برضا على حياة كلاريتا الصاخبة ولا تخبر الشرطة ، التي تكرهها ، عندما تصل . عليّ أن أعطي أسماء غير حقيقية ، علامات فراغ أكثر ، بدلاً من أن أروي الأسرار جميعها؛ فأنا قاصر.

٣. أبي يقرأ ورقة عمل في الجمعية الطبية في لوس انجيلوس . إنه هناك على طرف القارة الأمريكية الشمالية، عندما وضع المحقق، الذي لا يلبس شارة المحققين، يده برفق على ذراعي في جناح مخزن براندن وقال: «يا آنسة، هل تسمحين بالقدوم هنا لدقيقة؟ »

أين كان هو عندما وضعت كلاريتا يدها على ذراعي، في ذلك اليوم الشتائي الكبريتي المظلم في ديترويت، أمام محلات حلاقة مغلقة، مطاعم مغلقة، دور سينما مغلقة، بيوت، نوافذ، تسويات، وجوه مغلقة. . . . وضعت يدها على ذراعي وقالت: «عزيزتي، هل تبحثين عن أحد هنا؟ » هل كان أبي في البيت ليهتم، كان قد ذهب في رحلة لمدة أسبوعين متواصلين عندما أخذوني بالقوة. . . . ؟ كان على ثلاثة منهم أن يحملوني إلى سيارة الشرطة، هكذا قالوا، وقد وضعوا أشياء أخرى على يدي غير أيديهم.

٤. إنني أعمل على هذا الدرس. مدرس الانجليزية هو السيد فوريست، وهو من ولاية متشيغان . السيد فوريست ليس وسيماً ، إنه واضح هو واسمه ، على النقيض من ريموند فوريست، لكنه لطيف ويشبه القوارض، لقد تشاور مع

المدير ومع والدي، وكل شيء سوّي. . . . عاملوها وكأن شيئاً لم يحدث ، بداية جديدة ، ابدأوا معها من جديد ، إنها لا زالت في السادسة عشرة ، أي عار ، كيف حدث ذلك ؟ ـ لم يحدث شيء ، لم يكن ليحدث شيء ، مجرد تغيير فسيولوجي بسيط يعرفه أخصائيو الأمراض النسائية أو الدكتورة كورونيت. إنني أعمل على درسي. أجلس في غرفتي ذات اللون القرنفلي. أنظر في أرجاء الغرفة بعيني القرنفليتين الحزينتين. أتنهد، وأبدد الوقت، وأتوقف عن العمل ، أقرض الوقت ، أنا منهكة وسعيدة لأنني عدت إلى البيت، لقد بلغت سن السادسة عشرة فجأة، رأسي يرقد بين كتفي ثقيلاً مثل يقطينة ، وشعري قصصته للتو عند السيد فاي في الصالون الكريستالي وقالوا إنه جذاب جداً.

(سايمون أيضاً وضع يده على ذراعي وقال : «عزيزتي ، ينبغي أن تذهبي معي»، وفي غرفته الستة أقدام بستة أقدام تعرفنا على بعضنا البعض. هل ينبغي أن أعود ثانية إلى سايمون؟ هل أنام معه وسط كل تلك القذارة والجنون؟ مرة بعد مرة بعد مرة.

إن كلاريتا يغرر بها كما في واجهة مخزن أدوية في كنغهام، إنها تراقب رجلاً ملوناً قد يكون معه مال أو لا يكون، أو فتى عصبياً أبيض في العشرينات له شوارب خديّة ونظرة Appalachian ، قد يكون أو لا يكون معه سكين مخبأة في جيب معطفه ، أو رجل أبح الصوت أحمر الوجه بملامح ودودة قد يكون أو لا يكون عضواً في فرقة مكافحة الرذيلة خارجاً ليتمشى باكراً وقت الغروب) .

إنني أعمل على درسي من أجل السيد فوريست. لقد سودت إحدى عشرة صفحة. الكلمات تفيض ولا تتوقف. أريد أن أروي كل شيء. . . ما هي الأغنية التي كان سايمون يدندن بها على الدوام ، ومن كان صديق سايمون الذي يرتدي معطفاً جديداً واقياً من المطر ويضع خاتم تخرج قديماً من المدرسة الثانوية. . . . ؟ صديق سايمون الملتحي ؟ عندما أصبحت رخيصة جداً في نظر سايمون ركلني ورماني له لثلاثة أيام ، أظن ، إن ذلك كان في الشارع الرابع

عشر في ديترويت ، غرفة طلقة الهواء بتيارات هوائية قاسية وصحف على الأرض. . . هل أتذكر ذلك كله أم إنني أقوم بضم الأشياء إلى بعضها البعض مما أخبروني به؟ هل قالوا الحقيقة؟ هل يعرفون الكثير عن الحقيقة؟

VIII الشخصيات

١ . يوم الأربعاء بعد المدرسة، في الساعة الرابعة؛ أيام السبت صباحاً في العاشرة. أمي تأخذني بالسيارة إلى الدكتورة كورونيت. هناك خنشاريات في المكتب، بلاستيك أم أنه حقيقي ، إنه لا يختلف سواء كان حقيقياً أم مصنوعاً من البلاستيك . الدكتورة كورونيت ذات مظهر ملكي ، سيدة أنيقة ملطخة بالنيكوتين كان يمكن أن تدرس مع فرويد لو أن الظروف لم تحل دون ذلك، كاثوليكية إلى حد ما، جاهزة لتريك بعض الأسرار إذا كانت أسنانك ستؤلمك كثيراً بدونها. وهي مزكاة إلى حد بعيد من قبل أبي! أربعون دولاراً في الساعة، أربعون دولاراً من مال أبي ! إننا نتحسن ! ترفع صوتها ! قالت الدكتورة كورونيت قصة الشعر الجديدة جذابة جداً ، مظهرة كم هي طبيعية مع امرأة بقياس ذكاء قدره ١٨٠ درجة ودرجات أخرى متقدمة في المدرسة.

٢ . أمي. سيدة ترتدي معطفاً سويدياً بني اللون. حذاءٌ عالي الساق مصنوعاً من مادة سوداء لامعة، قفازات سوداء ، قبعة فرو سوداء . سوف تشعر بالمهانة لو علمت إنه من بين الناس جميعاً في العالم فإن عشيقي السابق سايمون يمشي تقريباً مثلها . . . واعياً لذاته، غير حقيقي، يستمع إلى موسيقى بعيدة، محني الساقين قليلاً ببراعة. . . .

٣ . أبي. يقوم بعقد ربطة عنق. يبدو في عجلة من أمره. في الليلة الأولى لي في البيت وضع يده على ذراعي وقال: «عزيزتي، لننس كل ما حدث» .

٤ . سايمون. في الخارج ، طائرة تعبر السماء ، نحن هنا في عجلة من أمرنا . الصباح . من المؤكد أنه الصباح . الفتاة فقدت عقلها تقريباً ، تئن وتشعر أن

الابهام يلفها؛ سايمون صديقها الحميم تعيس هذا الصباح. . . إنه تعيس بسبب الصباح نفسه. . . إنه يجبرها على إعطائه حقنة بواسطة تلك الإبرة التي تعلم أنها ملوثة ، إنها تخاف الإبرة والأدوات الجراحية ورائحة الأشياء التي تحقن في الدم ، مفكرة بشكل من الأشكال بأبيها. . . . إنه صباح سيء ، يقول سايمون إن عقله قد انفتل وخرج من موضعه، وبالتالي استسلم للإبرة التي يزدريها عادة وعض شفته بأسنانه الصفراء، وأصبح وجهه شاحباً جداً. آه يا صغيرتي! قال بصوته الناعم الخادع، الذي يمارس به خداع الحب مع النساء، أدخليها هكذا ـ ببطء ـ وكادت الفتاة الفزعة تسقط الإبرة الثمينة ولكنها تدبرت أمرها واستدارت بها نحو ضوء النافذة. . . هل هي امتداد لها إذن؟ تستطيع أن تعطيه تلك الهدية إذن ؟ قالت ، أود لو أنك لا تفعل ذلك بي ، مظهرة الحكمة من رعبها ، لأنه بدا لها إن خطر سايمون ـ الذي قد يكون ميتاً خلال دقائق ـ هو طريقة لدفعها إلى صدره بقوة أكبر بكثير من أي عناق. عليها أن تتدبر مع ذراعه، الذراع المحتشدة بالأوردة المتشابكة، جبينها مخضل بالعرق وهي تدفع الإبرة وتخرجها، محدقة بمزيج السائل الملطخ بدم سايمون الوضّاء. . . . عندما يأخذ العقار مفعوله تستطيع أن تشعر بتأثيرها هي نفسها، إنها تشعر بذلك السحر الذي يفوق أي سحر يمكن أن تمنحه إياه أية امرأة، صافعة رأسه من الخلف وجاعلة وجهه يتقلص وكأنها من أثر سقوط أشعة شمس مزعجة. . . . تحاول أن تحتضنه ولكنه يدفعها جانباً ويقف مترنحاً على قدميه. يقول، يا إلهي. . . .

٥. برنسيس. فتاة زنجية في الثامنة عشرة من العمر. ما هي تهمتها؟ إنها لا تتفوه بكلمة عن ذلك، عنيفة وصامتة، لا أحد تصارع معها على الرصيف وأجبرها على المجيء إلى هنا؛ لقد حضرت بكرامتها. في غرفة الاستجمام تجلس وتقرأ «نانسي درو وسر صندوق المجوهرات»، التي تثير في تجاعيد وجهها الصغيرة الحذر والاهتمام: أي وجه! جسد بني فاتح، عينان مظللتان بلون قاتم، رموش ثقيلة، حاجب أسود شرير تظهر عليه علائم الجد، أصابع جميلة، عظام رسغ جميلة، سيقان جميلة، شفتان، لسان، صوت حلو كالسكر، انفراجة

ساقين أكثر قوة من تلك التي لسايمون ولأمي، تلبس قميصاً فضفاضاً أبيض قذراً وبنطالاً واسعاً أبيض قذراً أيضاً؛ ملابس برنسيس تشبه قليلاً ملابس البحارة. . . . على الفطور هي مكلفة بتنظيف الطاولة وتنحني فوقي قائلة: عزيزتي، هل أنت متأكدة انك أكلت كفايتك؟

٦ . الفتاة تستلقي شاعرة بالأرق، مستغربة. لماذا هنا، لماذا ليس هناك؟ لم في تلال بلومفيلد وليس في السجن؟ لم في السجن وليس في غرفتها القرنفلية اللون؟ لم في قاع ديترويت وليس في درب سيوكس؟ ما الفرق؟ هل سايمون هو الفرق؟ رأس الفتاة مهرجان للشك والحيرة. أنها الآن في السادسة عشرة تقريباً، نفسها عابق بالشك والحيرة، منذ وقت ليس ببعيد كانت تلون بالأقلام والآن تلطخ أرضية اللوحة بألوان لا تمسح ولا تزول عن أصابعها أيضاً. تقول للقيّمة على المكان، لن أتحدث عن شيء أبداً، تقول ذلك لا بسبب أنهم حذروها جميعاً من الحديث بل ببساطة لأنها لن تتحدث؛ لأنها لن تقول شيئاً عن سايمون، الذي تعده سرها الخاص. وقالت للقيّمة، لن أذهب إلى البيت، إلى أن تغير كل شيء في المرحاض تلك الليلة. . . . « لا، لن أذهب إلى البيت أريد أن أبقى هنا»، تقول وهي تستمع إلى كلماتها باستغراب مفكرة أن الأعشاب الضارة يمكن أن تتسلق ذلك البيت الذي يساوي ١٨٠٠٠٠ دولار والديناصورات قد تعود لتلطخ الأرضية، المغطاة بالسجاد البيج، بالطين، ولكنها لن تبادل أبداً أبداً فطور الساعة الرابعة صباحاً في ديترويت بفطور الساعة الثامنة في تلال بلومفيلد . . . . آه ، إنها لا تزال تتوق بوجع إلى يدي سايمون وأنفاسه الملاطفة، فرغم أنه منحها القليل من المتعة إلا أنه أخذ منها كل شيء (أوراق فئة الخمسة دولارات، أوراق فئة العشرة دولارات، التي انزلقت بين يديها المخدرتين من قبل الرجال واستقرت في يدي سايمون) حتى استقرت هي نفسها في أيدي رجال آخرين، شرطة، عندما تعب سايمون نفسه منها ومن جنونها. . . لا ، لن أعود إلى البيت ، لا أريد أن يطلق سراحي بكفالة . كانت الفتاة تفكر مثل طفل عنيد متمرد (وهي واحدة من التهم التي وجهت ضدها)، والقيّمة تفهم عينيها المجنونتين المؤطرتين بالأبيض اللتين تبحثان عن

عنف جديد يتسبب في استبقائها في السجن، إذا هدد أحد بإخراجها من السجن. إن أطفالاً مثلها قد يحاولون خنق القيّمات، الخدم، أو أي شخص آخر. . . إنهم يرغبون أن تظل الأقفال مغلقة إلى الأبد، والأبواب مسمرة إلى الأبد. . . وهذه الفتاة لم تكن تختلف في ذلك إلى أن قررت تغيير رأيها في تلك الليلة. . . .

IX تلك الليلة

برنسيس ودولي، فتاة بيضاء صغيرة لربما تكون في الخامسة عشرة، وقوية مثل ضابط وهي في اصلاحية الأحداث بسبب سطو مسلح ، حشرتها برنسيس في المرحاض في أقصى نقطة عند آخر مغسلة والفتيات الاخريات أدرن وجوهن واتجهن إلى أسرتهن تاركات الفتاة. يا إلهي، كم ضربتها! لماذا ضربتها إلى هذا الحد؟ لماذا سحقوها، لم كل هذا الحقد؟ لقد صبت برنسيس كل حقد شتاءات ديترويت الصامتة على جسدها، تلك الفتاة التي ينتسب جسدها إلى جسدي ، ركبت (برنسيس) عبر سهول الغرب المتوسط على جسد تلك الفتاة المجرّح الضعيف. . . انتقام من الأقليات المقموعة في أمريكا! انتقام من الهنود المذبوحين! انتقام من جنس النساء، انتقام من جنس الرجال، انتقام من تلال بلومفيلد، انتقام انتقام. . . .

X ديترويت

في ديترويت يثقل الطقس على صدر الجميع. السماء تلوح واسعة من بعيد. الأفق يومض من خُلَلِ الدخان. في قاع المدينة تبدو المباني غير واضحة في الضباب. الضباب الأبدي. الحركة الأبدية في الضباب. وإذ يعبر المرء النهر المتلاطم الموجات يصل إلى مدينة وندسور في كندا . جزء من القارة تجمّع هنا وهو يتنأ إلى الخارج ، على الجزء العلوي من ديترويت ؛ مطر شديد بارد يسقط إلى الأبد

على طرق النقل السريع. . . . المتسـوقـون يتسوقون وهم متجهمو الوجوه، سياراتهم ليست مـصطفـة في أمـاكن أمينة، مظلاتهم قد تكون تحطمت ولربما تستدرجهم أيد جمـيـلة بلون الأبنوس من تحت مظلاتهم التي قـد تكون تحطمت، وهـم يصرخـون من داخل مظلاتهم المحطمـة المقـاومـة للتـمزق، انتقموا للهنود ! آه ، إنهم جميعاً يخافون أن يغـادروا مخازن هدسـون (٨) وهم يستـدرجـون إلى أعلى نقطة في المدينة مـقـذوفين باتجاه الطابق الأعلى من مرآب كوبو هول (٩) ، ذلك القبر الغالي، إلى النهر. . . .

XI الشـخـصيات التـي نـحـن ، و إلـى الأبـد ، مـضـفـورون معـهـا

١ . جـرني سـايمون ما بين ذراعيه الواهنتين المتعفنتين ونفخ في داخلي الجاذبية. عدت إلى الأرض وأنـا أشـعـر بـالارهـاق. قـال، أنـت فـتـاة صـغيرة جـداً، وأرهقني ببـهـجـته. في راحتي كفيه كان هناك علامات أسنان من تجارب حياته السابقة. كـان في الخـامـسـة والثـلاثين، قـالوا. تخيلوا سايمون في هذه الغرفة، في غرفتي القـرنفليـة اللون: طوله سـتة أقدام وهو محدودب قليلاً، بطريقة السنّور الحذرة، دائماً يفكر، دائماً في وضـعـيـة دفـاع، بحـذائه السويدي الخفيف البالي وملابسه التي قـد تكون مـلابس أي شـخـص، الملابس العـادية المغـضنة قليـلاً التي قـد يرتديها الرجـال العـاديون للأعمال غير الطائشـة. لسـايمون شعر طويل جميل، شـعر مجعد، تجعدات خفيفة تشبه. . . إنها تشبه بالضبط تجعدات نشارة الخشب حـال لمسـها، إنني أرغب في أن أكون دقيقة. . . ورائحته تفوح بالصباحات غير الحـارة والـقـهـوة والـكثير من الأقـراص التي تغلف لسـانه بزبد أخضر ـ أبيض خـفـيف. . . . عـزيزي سايمون، الذي يمكن أن يصاب بالذعر في هذه الغرفة وفي هـذا المـنـزل (الآن تقـوم بيلي بتنظيف غـرفـة والدي المجـاورة ؛ إن صـوت المكنسـة الكهـربائيـة الذي يزأر هو عـلامـة على كل الأشياء الحسنة) ، سايمون الذي قـيل إنه أتى من منزل ليس مختلفـاً عن هذا المنزل، لسنوات خلت، هارباً

من الأرضيـات المغطاة بالسـجـاد الدرابزين الملمع . . . . لسـايمون وجه كوجه الموت ، الأشـخـاص اليائسـون فـقط يقـعـون في حـبه . وجهه عظمي وشديد الحـذر ، عظام وجنتيـه بارزة وكأنها من صلابة تفكيره الذي لا يتوقف، مخططاً، إذ إن عليه أن يكسب المال من الفتيات اللواتي لا يهمهن المال، فلقد كن غنيات إلى درجـة لم يعـدن فيها قادرات على عده، وبمعنى من المعاني فإن المال أيضاً لا يعني له شـيئاً إلا كـوسيلة للاستمرار في الحياة التي يعيشها. كل يوم هو صراع يدعـو إلى الفـخـر، عنوانه رواية يمكن لنا قـراءتها في السجن. . . . كل يوم هو بحـاجـة إلى قـدر من المال. إنه يفترس المال افتراسـاً. لم يكن الحب هو مـا فك وثاقـه داخلي بعـينيـه الغـائرتين وابتـسامته الكريمة، تلك المتبقية من ماضي العز والـغنى، بل الخـوف الأسـود الذي يجعلني ألتـصق مـذعـورة بصـدره أو بصـدر رجل آخـر. . . لكنه كـان الأول ، لقـد توجـه نحـوي وأمسك بذراعي ، كنوع من الاسـتـحـقـاق . تعاركنا على الدرج وقلت له، دعني، إنك تؤلم رقبتي، تؤلم وجـهي ، كـان شـيئاً مـسـتـغرباً أن جلدي يؤلمني في الموضع الذي يلمسه فيه ، وبـعـدهـا نمنا وجـهـاً لوجـه ونفث كل شيء في داخلـي . أخيراً أظن أنه بـلّـغ الشرطة عني.

٢. ريمـوند فـوريست. قـرأت للتـو هذا الصـباح أن والد ريموند فوريست، رئيس مجلس الادارة مـات بسكتـة قلبيـة في طائرة كـانت مـقلعة إلى لندن . أرغب أن أرسل برقـيـة تعـزية إلى ريمـوند فوريست. أريد أن أشكره لأنه لم يوجه إليّ تهماً منذ مـائة عـام، منقـذاً حيـاتي، ولكونه كان كريماً معي. . . حسناً، إن الرجال من طراز ريمـوند فـوريست هم رجـال كـرمـاء، ليسوا مثل سايمون. أرغب أن أرسل له برقـيـة أخبره عن حـبي، أو عن عـاطفـة أخـرى أكثر ايجابية وصحية. ليس مـثل سـايمـون وشـعره، الذي كان يخربشه وهو في قمة احساسه ويرفض تغـيير كلمـة واحـدة فـيه. . . ولكن عندما أفكر بشيء أقوله، فإنها لغة سايمون التي تجيء على لساني، إنها عالقة في دماغي مثل أغنية رديئة، إنها لغة سايمون:

ليس هناك واقع هناك أحلام فقط

رقبتك قد تكون معضوضة عندما تستيقظ

حبي يتحرك باتجاه نهاية عنيفة
إنها ترغب على الدوام أن تهرب بعيداً
حبي يتجه إلى أسفل
وأنا أتجه إلى أعلى
سوف تتحطم على الرصيف
وسوف أذوب أنا في السحاب

XII الأحـــداث

١. خـارج المستشفى ، جسمي مليء بالكدمات وأنا حزينة ومتغيرة ، وصراخ برنسيس الذي يشبه صوت الخنزير لا زال عالقاً بشعري. . . وأبي في معطفه يشبه أميراً هو نفسه ، يأتي ليأخذني بعيداً . باتجاه الشارع السريع ثم شمالاً إلى البيت. يا إلهي ، لكن الهواء أرق وأنظف هنا . البيوت التي تشبه النصب . الأرصفة التي تجعل القلب يخفق، إنها نظيفة جداً.

٢. تبكي في غرفة الجلوس . السقف بارتفاع طابقين وثريتان اثنتان تتدليان منه. تبكي ، تبكي ، رغم أن بيلي الخادمة قد تكون مصغية. لن أغادر البيت ثانية. أبداً لن أفعل ذلك . أبداً لن أغادره . لن أغادر هذا البيت ثانية ، أبداً لن أفعل.

٣. كعك محلى بالسكر للفطور. محمصة الخبز الكهربائية تلمع ووجهي مشوه على سطحها. هل هذا هو وجهي؟

٤. السيارة تستدير في الدرب. أبي يعود بي إلى البيت. أمي تحتضنني. أشعة الشمس تتكسر بقعاً صغيرة، كما في شريط سينمائي، على سطح بيتنا التقليدي ـ المعاصر، الذي صمم خصيصاً من أجل مصمم السيارات الشهير الذي لو أخبرتكم باسم سيارته الشهيرة التي صممها فسوف تعرفونه ، ولذلك لا أستطيع أن أخبركم لأن أسناني تصطك عندما أفكر إنني مثلت أمام القضاء. .

أو إن شخصاً صعد إلى غرفة نومي ليخنقني . . . . السيارة تستدير باتجاه الدرب المسفلت . البيت يفتح لي وكأنه بيت الدمية ، جميلاً وهو مغمور بأشعة الشمس ، حجرة الجلوس الكبيرة تومىء لي بجدرانها التي تنشق من الانفعال فرحة بعودتي . بيلي الخادمة لا شك تتسمع من المطبخ وأنا أنفجر بالبكاء ونوبات الاهتياج التي كان سايمون مريضاً بها. وأنا أعبر نوبة من التشنجات بين ذراعي والدي، أقول إنني لن أغادر ثانية، أبداً لن أفعل، لم غادرت، أين ذهبت، ما الذي حدث لي، لقد ذهب عقلي، جسدي كدمة واحدة كبيرة، عمودي الفقري كان قد جف، لم يكن الرجال هم من سببوا لي الأذى ولم يؤذني سايمون أبداً بل كن تلكم الفتيات من سببن لي الأذى. . يا إلهي، كيف استطعن أن يسببن لي الأذى. . . لن أغادر البيت أبداً. . . . السيارة تستدير في الدرب باستمرار وأنا أنهار باستمرار في غرفة الجلوس ونحن نختار المخرج الصحيح في الشارع السريع (طريق لاشر) وجدار الغرفة الأخرى يقرع رأسي باستمرار ويدا سايمون تجوسان باستمرار جسدي وتزيدان الأمر سوءاً كما هما يدا والدي على ظهري المرتجف المليء بالكدمات، بعيداً عن سطح جلدي على سطح معطفي الكشمير الأزرق (المغسول والمكوي بمناسبة خروجي من السجن). . . . أبكي من أجل كل المال هنا، من أجل الذهب والسجاد البيج، من أجل جمال الثريات ومعجزة محمصة الخبز الكهربائية النظيفة الملمعة المضيئة والحنفيات التي تأتي بالماء الساخن والبارد وأقول لهم، لن أغادر البيت أبداً، هذا بيتي، أحب كل شيء هنا، أعشق كل شيء هنا. . . .

لقد عدت إلى البيت.

١٩٧٠

---

(١) جان جينيه مسرحي وكاتب فرنسي، وجان بول سارتر فيلسوف وروائي فرنسي.

(٢) جيمس بولدوين: روائي أمريكي.

(٣) رودريك اشر: شخصية في «سقوط بيت اشر» لادغار الن بو.

(٤) فحص ذكاء.

(٥) Pageant Magazine

(٦) قاع المدينة في ديترويت.

(٧) الشوارع الرئيسية في ديترويت.

(٨) مخازن البيع بالتجزئة في ديترويت.

(٩) صالة عرض في ديترويت.

ثيودور روثكه
(١٩٠٨ ـ ١٩٦٣)

فخري صالح

لمحة عامة :

رغم أنه مات في أوج تألقه الابداعي فإن ثيودور روثكه ترك نتاجاً شعرياً يؤهله أن يكون واحداً من أفضل الشعراء الأمريكيين في القرن العشرين . ولقد تلقى روثكه اعتراف الأوساط الشعرية عندما حصل على زمالة غوغينهايم عامي ١٩٤٦ و ١٩٥٠ ، وعندما فاز بجائزة بوليتزر عام ١٩٥٤ على مجموعته الشعرية «**اليقظة : أشعار**» ، «١٩٣٣ ـ ١٩٥٣» والمنشورة عام ١٩٥٣. أما مجموعته الشعرية «**كلمات إلى الريح**» (١٩٥٨) فحصلت على جائزة بولينغن عام ١٩٥٨ وجائزة ادنا سينت فينست ميلاي عام ١٩٥٩ . ورغم وفاته فإن الاحتفال بعمله الشعري لم يفتر منذ ذلك الوقت ، فـ «**الحقل البعيد**» ، التي طبعت بعد وفاته ، نالت جائزة الكتاب الوطني عام ١٩٦٤ . ولد روثكه في ساغينو ، متشيغان ، حيث جاورت المصانع البحيرات والجداول الغابات والمزارع الجميلة مما جعل هذه المشاهد توقظ فيه الاحساس بالتبجيل والحب الصوفي للطبيعة. كان والد روثكه بائع زهور، والمفارقات الضدية الغريبة التي ترد في شعره مستوحاة من البيت الزجاجي الذي كان يملكه والده ويستنبت فيه الأزهار، حيث يمتزج الموت بالحياة مولّداً نوعاً من الجمال الغريب الذي تتسم به أشعار روثكه.

بعد أن حصل روثكه على شهادته الجامعية الأولى عمل في التدريس الجامعي متنقلاً بين عدد من الكليات والجامعات الأمريكية ، وبعد أن نال شهادة الماجستير من جامعة متشيغان عام ١٩٣٦ عمل في كلية ولاية بنسلفانيا إلى عام ١٩٤٣ . عام ١٩٤٧ عمل في جامعة واشنطن ، سياتل حيث استمر في التدريس هناك طيلة حياته.

تطور عمل روثكه الشعري بعد تخرجه من الجامعة ، ولكن نضجه الفعلي تحقق عندما نشر

مجلده الشعري الأول **«بيت مفتوح»** عام ١٩٤١ . ويمكن أن نقسم أشعاره إلى قسمين : القسم الأول يتضمن قصائد تتمسك بالتقاليد الشكلية الشعرية بصورة مفرطة ، وهي ذات نزعة عقلانية واضحة ومحتشدة بالمفارقات ؛ والقسم الثاني يتضمن القصائد التي تستفيد من الشكل الحر الذي نلاحظ فيه تأثير والت ويتمان، إضافة إلى الرومانسية المتعالية على الوجود الواقعي التي ترجّع صدى عمل والدو اميرسون الشعري. أما تأثير تي. إس. اليوت على روثكه فكان شكلياً تقنياً.

يشارك روثكه اميرسون إيمانه بحلول الروح في الطبيعة . فلقد رأى روثكه الجانب المعتم في الطبيعة، ذلك الجانب الذي حاول اميرسون أن يعلله، لكن هذا اللقاء بينه وبين اميرسون لم يفقد عمله الشعري تفرده.

شـتـلات

ترجمة : فخري صالح

عيدان مدلاة بكسل فوق طُفال رملي سكري الطعم
سيقانها المتقاطعة المكسوّة بالفرو تجف ؛
لكن الشتلات الرقيقة تواصل ملاطفتها لوجه الماء ؛
الخلايا الصغيرة تنتفخ ؛

نتوء صغير ينمو
دافعاً برفق كتلة رقيقة من الرمل ،
مبرزاً من خلال غشاء عفن
قرنه اللولبي الرفيع الشاحب اللون.

١٩٤٣ ـ ١٩٤٤

١٩٤٨

شتلات

(فيما بعد)

ترجمة : فخري صالح

هذا الالحاح، الكفاح، انبعاث العيدان الجافة،
السيقان المقطوعة التي تجاهد لتثبت أقدامها،
أي قديس جاهد أكثر،
ناهضاً على مثل هذه السيقان المقطوعة ليحيا حياة جديدة؟

أستطيع أن أسمع، تحت التراب، ذلك الامتصاص والنشيج،
في عروقي، في عظامي أشعر بذلك، ـ
المياه القليلة تنز إلى أعلى،
الحبوب المخفاة عميقاً تشق طريقها في النهاية.
وعندما تشطأ البراعم الصغيرة،
منزلقة مثل سمكة،
اذبل، متحدراً نحو البدايات، بغمد رطب.

١٩٤٣ ـ ١٩٤٤

١٩٤٨

الابـن المـفـقـود

ترجمة : فخري صالح

١ . الطيران

في وودلون سمعت الموتى يصرخون:
هدهدني انصفاق الحديد،
تساقط قطرات بطيء فوق الصخور،
ضفادع الطين تتكاثر في الآبار.
الأوراق جميعها أخرجت ألسنتها؛
نفضت عني طباشير عظامي الطرية،
قائلاً،
أيها الحلزون، أيها الحلزون، تقدم بي إلى الأمام متلئلئاً،
أيها الطائر، تحسر علي برفق في البيت،
أيتها الوردة، كوني معي
فهذا أصعب أوقاتي.

وإذْ اصطاد في جرح قديم،
بركة الرقاد الناعمة؛
لا شيء يقضم صنارتي،
المنوة نفسها لم تقترب منها (١)

(١) سمك أوروبي صغير الحجم.

جالساً في بيت فارغ
أراقب الظلال وهي تزحف،
تخمش بالأظافر.
كان هناك ذبابة واحدة.
أيها الصوت، أخرج من رحم الصمت.
قل أي شيء.
اظهر على شكل عنكبوت
أو على شكل عثة تقضم الستارة.

أخبرني :
أيّ طريق آخذ؛
من أي باب أخرج، إلى أين أذهب وإلى من أتوجه؟

قالت الحفر المظلمة، لذ بالريح،
قال القمر، ظهر انقليس،
قال الملح، أنظر باتجاه البحر،
دموعك ليست تسبيحاً كافياً،
لن تجد راحتك هنا،
في مملكة الضجيج والثرثرة.

راكضاً بخفة فوق أرض اسفنجية،
متجاوزاً عشب الصخور المنبسطة،
الدردارات الثلاث،
الخراف التي تغطي وجه الحقل،

فوق جسر واهن
باتجاه المياه الجارية تتغضن وتتموج.
إذ اصطاد عبر النهر،
عميقاً بين النفاية، عميقاً بين أوراق النبات التي خرّمتها الحشرات،
قرب حافة البركة الطينية، قرب حفر المستنقع،
قرب البحيرة التي تجف، اصطاد في حرارة الصيف.

شكل جرذ؟
إنه أكبر من ذلك.
أقل من حجم ساق
وأكبر من حجم أنف
تماماً تحت سطح الماء
يجري كالعادة.

إنه ناعم كفأر؟
هل يستطيع أن يجعّد أنفه؟
هل يقدر أن يأتي إلى البيت
على رؤوس أصابعه؟

خذ جلد قطة
وظهر انقليس،
ثم قلبهما في الشحم، ـ
على هذه الهيئة سيبدو.

أملس مثل ثعلب الماء

باصابع جليدية (٢) عريضة
تماماً تحت سطح الماء
يجري كالعادة.

٢ . الحفرة

في أي اتجاه تذهب الجذور؟
انظر أسفل الأوراق.
من وضع الطحالب هناك؟
الصخور كانت هنا منذ مدة طويلة جداً.
من الذي روّع البذاءة وحولها إلى مجرد ازعاج؟
أسأل الخلد، فهو يعرف.
أشعر بأنني ألمس قذارة عش رطب.
احذري يا أم العفن الفطري.
اقضمي ثانية، أيها الأعصاب السمكية.

٣ . المهذار

في فم الغابة،
قرب بوابة الكهف،
أنصت لشيء سمعته من قبل.

كلاب الأربية (٣)
نبحت وعوت،

(٢) نسبة إلى الجليدة التي تصل بين الأصبعين لدى طيور الماء.
(٣) أصل الفخذ.

كانت الشمس قبالتي،
والقمر لم يكن ليشتملني.

الأعشاب الطفيلية أنّت،
الحيات بكت،
الأبقار والورود البرية
قالت لي: مت.

يا لها من أغنية تافهة. يا لها من غيوم بطيئة. يا له من ماء معتم.
هل للمطر أب؟ كل الكهوف جليد. الثلج وحده هنا.
أشعر بالبرد يشتملني. أدفئاني يا أبي وأمي.
كان الخوف أبي، الأب الخوف.
نظرته تنشّف الحجارة.

أي شكل ينسل وينزلق
يومىء عبر الردهات،
يقف باتزان ورباطة جأش على الدرج،
ويسقط حالماً إلى أسفل؟

من أفواه الأباريق
الجاثمة على رفوف كثيرة،
رأيت مادة تسيل
في ذلك الصباح البارد.

مثل انزلاق الانقليسات
ذلك الخلد المائي
إذ قبله لساني
أيقظته شفتاي.

هل هذا هو قلب العاصفة؟ الأرض نفسها ليست ثابتة.
عروقي تجري باتجاه لا مكان. هل تطرد العظام نارها؟
هل تترك البذرة مهجعها القديم؟ هذه البراعم حية مثل الطيور.
أين، أين هي دموع العالم؟
دع القبل تدوي، منبسطة مثل كف جزار؛
دع الايماءات تتجمد؛ لقد تحدد مصيرنا.
النوافذ جميعها تشتعل! ما الذي بقي من حياتي؟
اريد أن يعود إليّ غضبي وحماسي القديمان، اندفاعة الحليب البدائي!
وداعاً، وداعاً، أيتها الأحجار العتيقة، نظام الزمان يمضي في طريقه،
لقد زوجت يدي للاهتياج السرمدي،
إنني أركض ، أركض باتجاه صفير المال.

المال المال المال
الماء الماء الماء

كم هو بارد العشب.
هل غادر الطائر؟
الساق لا زالت تترنح.
هل للدودة ظل؟

ما الذي تقوله الغيوم؟

هذه الضربات الضوئية تفككني.
أنظر، أنظر، الخندق يفيض بلون أبيض!
لدي عروق تزيد عن عروق شجرة!
قبلني، أيها الرماد، إنني أسقط في دوامة معتمة.

٤ . العودة

كانت المسافة إلى المرجل معتمة،
معتمة طوال الطريق،
فوق الجمرات الزلقة
عبر البيت الزجاجي الطويل.

الورود واصلت التنفس في العتمة.
لها أفواه كثيرة تتنفس منها.
أخرجت ركبتاي ريحاً
حيث تنام الأعشاب الطفيلية.

كان هناك ضوء وحيد
يتأرجح قرب حفرة النار،
حيث كان رجل النار يستل وروداً،
الورود الكبيرة، المصنوعة من خبث المعادن اللعين.

إذ بقيت طيلة الليل.

طلع ضوء النهار على الثلج
الأبيض.
كان هناك أنواع عديدة من الهواء
البارد.
ثم اندفع البخار.

ضربة أرغن
الدفء يعدو فوق النباتات الصغيرة.
النظام! النظام!
أبونا جاء!
حرك ضباب رقيق الأوراق؛
ذاب الصقيع على الزجاج البعيد ؛
الوردة، الأقحوانة استدارتا باتجاه الضوء.
حتى الأشكال المطموسة الساكنة، الأعشاب الطفيلية المصفرة المحنية
تحركت متأرجحة ببطء إلى أعلى.

٥ . «كان الوقت بداية الشتاء»

كان الوقت بداية الشتاء،
وقت ما بين بين من الأوقات،
المنظر الطبيعي كان لا يزال بنياً إلى حد ما:
ظلت عظام الأعشاب الطفيلية تتأرجح في الريح،
فوق الثلج الأزرق.

كان الوقت بداية الشتاء،

تحرك الضوء ببطء فوق الحقل المتجمد،
فوق اكليل البذور الجافة،
العظام الحية الجميلة
تتأرجح في الريح.

سافر الضوء فوق الحقل الواسع؛
واستقر هناك.
توقفت الأعشاب الطفيلية عن التأرجح.
تحرك العقل، ليس وحيداً،
بل عبر الهواء النظيف غير الملوث، في الصمت.

هل كان ذلك هو الضوء ؟
هل كان ذلك هو الضوء الذي في الداخل ؟
هل كان الضوء الذي يسكن في الضوء ؟
السكون يصبح مفعماً بالحياة ،
ومع ذلك يظل ساكناً ؟
روح مفعمة بالحياة يمكن أن تدركها
حالماً عللت النفس بها .
سوف تعود ثانية .
ابق ساكناً .
انتظر .
١٩٤٦

١٩٤٨

راندال جاريل
(١٩١٤ ـ ١٩٦٥)

فخري صالح

لمحة عامة :

اشتهر راندال جاريل كأستاذ جامعي وناقد وشاعر، وقد قضى معظم سني حياته العملية كأستاذ للأدب.

أمضى جاريل السنوات الأولى من عمره في كاليفورنيا إذ كان يعيش في كنف جده وجدته من جهة أبيه. في جامعة فاندربلت حرر جاريل مجلتها الأدبية وتتلمذ على يدي الشاعر والناقد الأمريكي الشهير جون كرو رانسوم . وقد حصل على شهادة الماجستير من جامعة فاندربلت عام ١٩٣٩ ، وانتقل ليعلم في كلية كينيون في جامعة تكساس، ثم خدم من عام ١٩٤٢ في القوة الجوية للولايات المتحدة. ومن خبرته الحربية تغتذي أفضل كتاباته وأشعاره التي تدور حول عالم الطيران ومخاطر الحرب الجوية (وهذا ما نلاحظه في قصيدته «**موت قاذف المدفعية..**»)

عام ١٩٤٥ ، وكان لا يزال يكمل خدمته في الجيش ، أصدر مجلده الشعري الأول «**أيها الصديق الصغير، أيها الصديق الصغير**». عام ١٩٤٦ ، وبعد تسريحه من الجيش، عمل ولفترة قصيرة محرراً لمجلة الشعب Nation ، وعام ١٩٤٧ عمل أستاذاً في كلية النساء في جامعة كارولاينا الشمالية، حيث مارس التدريس طيلة حياته.

أصدر جاريل ستة مجلدات شعرية ، ورواية : **صور ماخوذة من مؤسسة** (١٩٥٤)، وثلاثة مجلدات من المقالات النقدية : **الشعر والعصر** (١٩٥٣) **وقلب حزين في السوبر ماركت** (١٩٦٢) والكتاب الثالث **في النقد** (١٩٦٩) الذي نشر بعد وفاته.

يتميز شعر جاريل بانتقائه للمظاهر المؤلمة للواقع، ولكنه رغم هذه السمة الواقعية في كتابته

الشعرية إلا أن شعره يبدو أحياناً عصياً على التأويل. إن الثيمة الرئيسية في عمله هي التغيير - التغيير الذي يصيب النساء والأطفال والرجال في الحرب والسلم؛ كما أن الموتيفات المتكررة في عمله الشعري هي : الرحلة والأحلام والمخاوف والانسان والموت . لقد وصف حيوات البشر الذين عجزوا عن تحقيق مثلهم ، وكتب عن البشر المتوحدين الذين يقضمون خساراتهم ويعجزون عن تحقيق أحلام حياتهم.

قصيدته **«موت قاذف المدفعية في برج الطائرة»** تستل موضوعها واستعاراتها من عالم الحرب، وبالتحديد من عالم المعارك الجوية التي يعرفها جاريل أكثر من غيرها، وهي تقيم توازيات داخل النص الشعري بين برج مدفعية الطائرة ورحم الأم كما يشرح جاريل نفسه في ملاحظة يوردها أسفل القصيدة. أما قصيدته **«المرأة في حديقة الحيوان في واشنطن»** فإن الصوت المتكلم هو لامرأة عاملة تحكي عن تحولها إلى آلة صماء تذوي يوماً بعد يوم. إن شكواها وحدها هي التي تجأر في القصيدة إذ لا أحد يشكو غيرها ، وصرختها التي نسمعها في القصيدة يغمرها الصمت نفسه الذي يغمر صاحبتها. ثمة في القصيدة تطابق بين الثوب والجسد، وكل وصف يرد بخصوص الثوب هو أيضاً وصف للجسد. من ناحية أخرى فإن المرأة التي تتجول بين أقفاص الحيوانات ترى ذاتها في الحيوانات المحبوسة في الأقفاص، وكذلك في الأقفاص نفسها، مما يفسر وجهة القصيدة ووجهة عمل راندال جاريل الشعري بعامة.

موت قاذف المدفعية في برج الطائرة [1]

ترجمة : فخري صالح

من رقاد أمي سقطت في الولاية،
احدودبت في بطنها إلى أن تجمد الوبر الرطب على جسدي.
بعيداً عن الأرض ستة أميال، متحرراً من حلم الحياة فيها،
اسـتـيـقظت على النيران السـوداء لمدفـعـية الطائرات، على كابوس المقاتلات الحربية.
وعندما مت أخرجوني من برج الطائرة وغسلوني بخرطوم ماء.

١٩٤٥

(١) برج المدفـعـيـة هو قـمـرة دائرية مضفورة من الزجاج مثبتة في قلب طائرة البي. ١٧ أو البي. ٤٢ ويوجـد بداخلهـا مدفعيتان قاذفتان بقطر ٥٠ . ورجل واحد ، رجل قصير صغير الحجم. وعندمـا تعـقب هذا المدفـعي بمـدفعيتيه طائرة مقاتلة هاجمت قاذفته من أسفل، أطلق النار من مـدفـعـيتـه؛ احدودب منقلباً من أعلى إلى أسفل داخل قمرته، وبدا مثل الجنين في رحم أمه. المقـاتلات الحـربيـة التي هاجمتـه كـانت مـزودة بقذائف متفجرة . الخرطوم كان خرطوماً ينفث البخار.

ملاحظة كتبها راندال جاريل

المرأة في حديقة الحيوان في واشنطن

ترجمة : فخري صالح

أثواب الساري (١) تمر بي قادمة من السفارات.

قماش من القمر. قماش من كوكب آخر.
إنهن يلتفتن إلى النمر مثل النمر.
وأنا...
هذا القماش الذي يدل علي، الذي أحتفظ بلونه
رغم غسله مرات عديدة؛ لباس البحرية الأزرق
هذا الباهت اللون العديم القيمة الذي أرتديه في العمل، وأعود به من العمل،
ثم آوي إلى النوم، وأحمل به إلى القبر، دون
أي تذمر، دون أي تعليق: من رئيسي،
من نائب مساعد الرئيس، ولا من رئيسه هو ـ
الوحيد الذي يتذمر هو أنا؛ هذا الجسد
المتين الذي لم تلونه أشعة الشمس، لم تغمره أية يد
لكنه، مظللاً بالقباب، يذبل بين الأعمدة،
يتموج تحت النوافير ـ صغيراً، قصياً، يلمع
في عيون الحيوانات، هذه الكائنات الواقعة في الشرك مثلي، ولكنها ليست هي نفسها الشرك،
تشيخ، دون أن تعرف شيئاً عن عمرها،

---

(١) الساري هو ثوب ترتديه النسوة الهندوسيات يتألف من بضع ياردات من النسيج الرقيق يلف بها الجسم بحيث يشكل أحد طرفيها تنورة ويشكل الآخر غطاء للرأس أو الكتف.

إنها تبقى هنا بانتظار الموت ، دون أن تعلم شيئاً عن الموت
ـ آه ، يا قضبان جسدي ، تباعدي ، تباعدي !

العالم يمر قرب قفصي ولا يراني.
وهو لا يأتي إلي، مثلما يأتي إلى هذه،
هذه الحيوانات المتوحشة، عصافير الدوري التي تنقر ظهر حيوانات اللاما،
الحمائم التي تستـقر على خبز الدب، الصقور التي تنهش اللحم الذي غطاه الذباب مثل غيمة...
النسر،
عندما يأتي من أجل الجرذ الأبيض الذي تركته الثعالب،
انزع خوذتك الحمراء عن رأسك، أيها الأجنحة
السوداء التي ظللتني، أخط نحوي كانسان،
الأخ المتوحش الذي بصبصت الذئاب البيضاء بأذنابها عند قدميه،
نحو من تطارد اللبؤة العظيمة باتجاه سلطانه
وقوته، وهي تهر...
أنت تعلم ما الذي كنته،
وأنت ترى ما أنا عليه الآن: غيرني، غيرني!

روبـرت لـويـل
(١٩١٧ ـ ١٩٧٧)

فخري صالح

لمحـة عـامـة :

يعـد روبرت لويل من أعظم شـعـراء أمـريكا في العـصـور الحديثة. وهو يتحدر من عائلة عـريقـة في نيو انغلاند خرج من بين ظهرانيها رجال الدولة والمحاربون والشعراء مثل الشاعرين آمي لويل وجيـمس راسل لويل. درس في جـامـعـة هارفـارد ولكنه انتقل بعد سنتين إلى كلية كينيون في اوهيـو حيث درس تحت اشراف الشـاعر والناقد الأمريكي الشهير جون كرو رانسوم.

في الأيام الأولى من قـيـام الحـرب العـالمية الثانية تطوع لويل للمشاركة في الحرب لكن طلبه رفض. وقـد أصبح منذ عـام ١٩٤٣ مناهضـاً لضرب الأهداف المدنيـة حـتى إنه رفض المشاركة في الحـرب عندمـا طلب منه الالتـحاق بالجيش ، وقد حكم عليه نتيجة لذلك بالسجن مدة عام ويوم واحـد ، قـضى منها خمسة أشهر في السجن. وبعد أن أطلق سراحه أصدر مجموعته الشعرية الأولى «**ارض البغض**» .

حـصل لويل على جائزة بوليتزر عن مجموعتـه الشعرية «**قلعة اللورد ويري**» عام ١٩٤٦ . يعـتني لويل في مجمـوعـاته الأولى باكـتـشـاف الذات ووضعها في دائرة الاعتراف في نوع من الوصف الشـعـري للاضطرابات العـقليـة الشـخـصـية والتفحص الذاتي وتعريض شخصيـة الشـاعر لعملية تعرية داخليـة كانت واضحـة في مجلـده الشعري «**دراسـات في الحياة الشخصيـة**»، الذي يعده النقـاد من أفـضل المجـمـوعـات الشـعرية التي أنجزها جيل روبرت لويل على الاطلاق. في شعره التـالي انتقل لويل من شعر الاعتراف الشخصي إلى اهتمام أكبر بالمشكلات السياسية ، حتى إنه بدأ يسـهم في الفـعـاليـة السـيـاسية بصورة مباشرة ، وقد احتج على السياسة الخارجية الأمريكية وقبض عليـه في تظاهـرة أمـام البنتاغـون عام ١٩٦٧ . في أواخـر أيامه عمل لويل على إعادة تنقيح أعماله

الشعرية وطبعها في سلسلة من المجلدات أظهر في واحد منها **«تاريخ»** (١٩٧٣) أستاذيته في شكل الشعر الحر ، خصوصاً شكل السونيتة، وقد طبع مجلده الشعري الأخير **«يوماً بيوم»** عام ١٩٧٧ ، قبل وفاته بوقت قصير.

يتضمن شعر لويل خصيصتين من خصائص الشعر الحديث: البحث عن غير الشخصي (باللجوء إلى الأقنعة ، واعتماد الاشارة البعيدة والترجمة واستخدام المرجعيات المختلفة) ، وعملية الكشف عن الذات والتعبير عنها ، وهما أسلوبان متباينان شعرياً ولكنهما حاضران في شعره.

من أجل موتى الاتحاد

ترجمة : فخري صالح

«لقد منحوا كل ما يملكونه لخدمة الجمهورية (١)
ينتصب الآن الحوض المائي لبوسطن الجنوبية العتيقة
وسط صحراء من الثلج. نوافذه المحطمة مغطاة بالألواح الخشبية.
سمك القد الذي يستعمل بمثابة دليل لإتجاه الرياح سقطت معظم حراشفه.
الأحواض المهوّاة جفت.

في يوم من الأيام زحف أنفي على الزجاج مثل سلحفاة؛
يدي استشعرت ألماً خفيفاً
عندما حاولت فقء الفقاعات
المندفعة من خياشيم السمكة البقرية (٢) المذعنة.

يدي تراجعت إلى الخلف. وكثيراً ما كنت أتحسر بصمت
على مملكة النبات المظلمة السفلى
للسمك والعظاءات. وفي أحد الصباحات خلال آذار الماضي،
ضغطت على سياج الأسلاك الشائكة

المكهرب في حديقة بوسطن العامة. خلف قضبان أقفاصها
كانت الجواريف البخارية العملاقة الصفراء اللون تصدر أصواتاً كأصوات
الخنازير

---

(١) هذه العبارة واردة باللاتينية.

(٢) السمك البقري: سمك صغير من النجميات ذو نتوءات فوق العيون شبيهة بالقرون.

وهي تحصد أطناناً من العشب والأشكال الهلامية الطرية
لتحفر مرآب عالمها السفلي.

أماكن وقوف السيارات المتوالدة مثل البشر
تتراكم كالرمال في قلب بوسطن.
حزام برتقالي، عوارض خشبية بلون اليقطين
تحيط كقوس مبنى المجلس التشريعي للولاية الذي يستشعر البرد،

ترتجف فوق الحفريات، إذ تواجه الكولونيل شو (٣)
وفوجه الزنجي بأفراده المزينة وجوههم بالأجراس
في (نصب) نجدة الحرب الأهلية المرتجف لسانت غودن (٤)
تسنده صفيحة خشبية لتحميه من الهزة الأرضية في المرآب.

شهران بعد عبور بوسطن،
نصف الفوج أصبح في عداد الأموات؛
في احتفال التكريس،
كان وليام جيمس (٥) بالكاد يسمع أنفاس الزنوج البرونزية.

نصبهم التذكاري عالق كعظمة سمكة
في حلق المدينة.
قائد الفوج يميل

---

(٣) الكولونيل روبرت شو (١٨٣٧ ـ ١٨٦٣) ، قائد فوج الجنود الزنوج ، الـ ٥٤ في ماساشوسيتس في الحرب الأهلية.

(٤) نصب للنحات الأمريكي اوغستس سانت غودن (١٨٤٨ ـ ١٩٠٧) ، في الميدان العمومي في بوسطن في الجانب الآخر من مبنى ولاية بوسطن.

(٥) فيلسوف أمريكي (١٨٤٢ ـ ١٩١٠)، شقيق الروائي هنري جيمس.

مثل إبرة البوصلة.

يملك احتراس الصعو (٦) الغاضب،
قوة السلوقي (٧) الرقيق وتوتره؛
يبدو وكأنه يجفل لدى شعوره بالسعادة،
ويختنق لنيل بعض العزلة.

إنه خارج الحدود الآن. مبتهج بقوة الانسان
المميزة الرائعة وقدرته على اختيار الموت أو الحياة ـ
وعندما يقود جنوده السود إلى الموت،
لا يقدر أن يحني ظهره.

في آلاف المروج في البلدات الصغيرة في نيو انغلند،
الكنائس البيضاء العتيقة تحبس هواءها
الخفيف، العصيان الصادق؛ الرايات المنسولة
تخيط مقابر جيش الجمهورية العظيم إلى بعضها البعض.

التماثيل الحجرية لجندي الاتحاد
تصير أكثر نحافة وشباباً كل عام ـ
مزنرة الوسط بالدبابير، تهوم (التماثيل) المتكئة على البنادق في النعاس
وتستغرق في التفكير من خلال شواربها الخدّية القصيرة...
لم يرغب الوالد بإقامة نصب لإبنه
لم يرغب إلا (برؤية) الخندق،
حيث رمي جسد ابنه

(٦) الصعو أو النمنمة، طائر صغير الحجم.

(٧) السلوقي، كلب من كلاب الصيد.

وضاع مع «زنوجه» .

الخندق أكثر قربا.
لا تماثيل للحرب الأخيرة هنا؛
في شارع بويلستون، إعلان تجاري
يصور هيروشيما وهي تحترق

في مخبأ موسلر، توجد «صخرة العصور»
التي سلمت من الانفجار، الفضاء أكثر قرباً.
عندما أجثم أمام تلفازي،
تبزغ وجوه الأطفال الزنوج الجافة مثل البالونات.

الكولونيل
يمتطي ظهر فقاعته،
ينتظر
فرصته المباركة.

لقد اختفى الحوض المائي. وفي كل مكان،
تدفع السيارات الضخمة الزعانف بأنوفها إلى الأمام مثل الأسماك؛
خنوع بربري
ينزلق على الشحم.

١٩٥٩ ، ١٩٦٤

هوارد نيميروف
(١٩٢٠ -)

فخري صالح

لمحة عامة :

في رواياته وقصصه القصيرة وشعره يمثل هوارد نيميروف التجويد في الصنعة الشعرية والأسلوب الواضح . موضوعه الشعري الثابت هو التاريخ ، العام والخاص ، مرئياً بعيون القرن العشرين . ولقد ضمت قائمة الموضوعات أيضاً في مجموعته الشعرية ، بدءاً من مجموعة **«الصورة والقانون»** (١٩٤٧) وصولاً إلى مجموعته **«امثال سائرة ومناسبات»** (١٩٧٣) : الطبيعة، الحياة المدينية، والأحداث المعاصرة، وعلم النفس، والانثروبولوجيا، وعلم الفلك، والفيزياء.

في شعره يعثر المرء على صيغ اللعب الشعري والتوريات والمزج بين الرومانسية والواقعية ، والايمان والشك، واليقين واللايقين.

تخرج نيميروف من جامعة هارفارد وحارب في الحرب العالمية الثانية. وهو أستاذ للأدب الانجليزي في جامعة واشنطن في سانت لويس.

الـفـراغ

ترجمة : فخري صالح

البيت هادىء تماماً الآن
المكنسـة الكهربائية التي تعمل بتفريغ الهواء تقطب جبينها وهي تقبع داخل الخزانة الجانبية
كيسها المترهل مثل رئة متوقفة، فمها
يكشر عن أسنانه على الأرض، لربما بسـبب حـيـاتي القـذرة، شـبابي الذي يشبه كلباً ميتاً.

لقد عشت بهذه الطريقة فترة طويلة كافية،
ولكن عندما ماتت أمي العجوز دخلت
روحها في تلك المكنسة الكهربائية، فلا أستطيع أن أحتمل
أن أرى ذلك الكيس ينتفخ مثل بطن، آكلاً الغبار
والفئران الصوفية، ثم يبدأ بالعواء

لأن هناك قذارة عتيقة في كل مكان
لقد اعتادت أن تزحف، في الزاوية وتحت الدرج.
أعرف الآن كم هي الحياة رخيصة مثل الوسخ،
لكن القلب الجائع، الغاضب
لا زال يرفض التخلي عاوياً، عاضّـاً الهواء.

١٩٥٥

سمكة أبو شص (١)

ترجمة : فخري صالح

على الشاطىء الطويل، المضاء بأشعة القمر
ليظهر بوضوح أنهما وحيدان،
عاشقان فجأة تعانقا
بحيث أصبح ظلاهما ظلاً واحداً.
كانت الليلة المعتادة نعمة
بالنسبة لهما بسبب هبوب الدم المفاجىء
الذي اجتاحهما بصمت مثل فيضان،
ولفترة قصيرة شعرا وكأنهما
في النعيم.

ثم، وكأنما خضهما رعب المنصة
تحت أشعة القمر العظمية القاسية،
وقفا معاً على الرمل
محرجين من رؤية أحدهما للآخر
لكنهما لا زالا واقفين يداً بيد،
إلى أن رأيا، هناك تحت أقدامهما،
وكأن العالم قد اكتشفهما،

---

(١) سمك أبو شص ، سمك بحري ذو رأس ضخم مسطح وفم عريض ، على رأسه شبه طعم يغري به صغار السمك.

سمك أبو شص يستدير، رغم أنه ميت،
برأسه الضخم المبتسم إبتسامة عريضة.

هناك في الضوء الصيني كان يستلقي،
عتيقاً ومتفسخاً ورمادي اللون.
شعرا بالتردد لرؤية إبتسامته،
متسائلين عما يمكن أن تقوله هذه الإبتسامة
لعاشقين ظنا لوهلة سابقة
أنهما فهما،
بالعنف على الرمل،
الطريقة التي يمكن
أن يجعلا بها العالم ملكهما.

كانت إبتسامة عريضة وقمرية
مسالمة وداعرة؛
لم يعرفا ما الذي يريد أن يعبر عنه،
ممثل هزلي منته
وقد يعني بذلك الفشل أو النجاح،
لكنهما فسراها كعلامة على
حبهما المفاجىء، الجديد، الآثم
بان يشاهدهما، عندما قبلا بعضهما،
ذلك المتفائل الأبدي.

وهكذا أصبح بطريركهما،

لطيفاً بصورة مرعبة في شبه الظلام.
حلقومه الذي غصّ بالرمل،
أسنانه التي تشبه الأوتاد، تركت علاماتها
على الرمل لكنها لم تفسر النكتة
التي أضحكته، وهو مستلق هناك
والقمر يقارب على الاختفاء
في مساره الثابت والمغطّى
الذي يقوده إلى دائرة البروج.

١٩٥٥

رتشارد ولبور
(١٩٢١ ـ   )

فخري صالح

لمحة عامة :

ولد رتشارد ولبور في مدينة نيويورك ، وتخرج من كلية امهيرست ، ماساشوسيتس ، كما حصل على شهادة الماجستير من جامعة هارفارد . عمل في التدريس الجامعي في هارفارد وويليسلي وجامعة ويسليان في كونيكتيكت.

ينتسب شعر رتشارد ولبور ، بصنعته الماهرة وبراعته اللفظية واستخدامه للأشكال التقليدية، إلى عالم روبرت فروست وروبرت لويل من الشعراء الأمريكيين أكثر من انتسابه إلى قصيدة النثر بنموذجها الذي حققه مواطنه النيويوركي والت ويتمان . كما إن اهتمام ولبور بالمظهر المحير والمدهش للواقع ، وإيمانه بقدرة الخيال على إدراك الواقع وخلقه ، واستغراقه في حب الطبيعة ، تقربه جميعاً من التراث الشعري لنيو انجلاند وتربطه بعلاقات قرابة مع والدو اميرسون وهنري ثورو واميلي ديكنسون.

إن ما يلفت الانتباه في شعر ولبور هو طزاجة صوره وتنوع ثيمات عمله الشعري.

من مجموعاته الشعرية : **«التحولات الجميلة»** (١٩٤٧) و **«الطقس»** (١٩٥٠) و **«أشياء من هذا العالم»** (١٩٥٦).

حصل ولبور على جائزة بوليتزر والجائزة الوطنية للكتاب.

لوحة في متحف

ترجمة : فخري صالح

حراس الفن الرماديون الصالحون
يذرعون القاعات بأحذية اسفنجية مثل العسس،
لمجرد الحماية، ولكنهم
قد يكونون مرتابين بتولوز (١)

هنا قرب الحائط يغالب أحدهم النعاس،
متهالكاً على كرسي جنازات.
راقصة ديجا (٢) على قدم واحدة
تتدلى فوق حافة كرسيه.

أنظر إليها كيف تدور وتدور كالمغزل! الفتنة والرشاقة واضحة هنا،
لكن الجهد باد أيضاً أمام أعيننا.

---

(١) هنري دي تولوز لوتريك (١٩٦٤ ـ ١٩٠١)، رسام فرنسي كان قصير القامة جداً، لإنه كسر ساقيه في طفولته، وقد أولع برسم راقصات السيرك. تأثر برسومات ادجار ديجا وبتقنيته في الرسم.

(٢) ادجار ديجا (١٨٣٤ ـ ١٩١٧) رسام فرنسي شارك في المعارض الانطباعية الأولى. اهتم برسم راقصات الباليه والفتيات العاملات وراقصات الكباريه . سجل عادات المجتمع وحركته بطريقة تجعلها تبدو وكأنها من عالم آخر. أحد المجددين في الفن.

لقد أحب ديجا الاثنين معاً:
الجمال مقترناً بالحيوية.
لقد اشترى ادجار ديجا مرة
لوحة جميلة لآل غريكو (٣) ، واحتفظ بها
على الحائط بجانب فراشه
ليعلق بنطاله عليها عندما ينام.

١٩٤٨ ، ١٩٥٠

(٣) آل غريكو (١٥٤١ ـ ١٦١٤)، رسام اسباني من مواليد كريت تأثر بمايكل انجيلو ورافاييل وتيتيان ورسامين آخرين من عصر النهضة.

الكاتب

ترجمة : فخري صالح

في غرفتها، في القسم الأمامي من البيت
حيث يطلع ضوء النهار، وحيث تخفق غصون الزيزفون وتضرب النوافذ،
كانت ابنتي تكتب قصة.

توقفت صامتاً في بئر السلم، أنصت،
من خلال بابها الموصد، إلى اهتياج مفاتيح الآلة الكاتبة
مثل سلسلة تسحب على حافة مركب.

في شبابها الذي تتمتع به،
فإن متاع حياتها يبدو حمولة كبيرة، بعضها ثقيل:
وأنا أتمنى لها رحلة موفقة.

ولكنها هي الآن من يتوقف صامتاً،
وكأنها تريد أن ترفض خواطري البسيطة الرخوة،
وها هو الصمت يزداد، حيث

يبدو البيت كله وكأنه يفكر،
ثم ها هي تحدث جلبة عالية بحزمة من
الضربات على الآلة الكاتبة، ثم تعاود صمتها.

أتذكر الزرزور الذي داخ
بعد أن علق في الغرفة نفسها، من سنتين خلتا؛
كيف إننا انسللنا، رفعنا اطار النافذة

وانسحبنا، لكي لا نروعه؛
وكيف إننا، وطيلة ساعة، راقبنا عاجزين عبر شق الباب
الكائن الأملس، البري، الأسود

المتقزح اللون
يخفق بعنف في اشراقة الضوء، ويسقط مثل قفاز
على الأرض الصلبة، أو على الطرف الأمامي للمكتب،

ثم، مجهداً ومكللاً بالدم، انتظر
دهاء الحواس ليساعده على المحاولة مرة ثانية؛ وكيف إن روحنا المعنوية
ارتفعت عندما تيقنا فجأة

أنه ارتقى ظهر كرسي،
وخفق بجناحيه طائراً باتجاه النافذة المفتوحة
متحرراً من عتبة العالم.

إنها، على الدوام يا عزيزتي، مسألة
حياة أو موت، لكن يبدو أنني قد نسيتها.
أتمنى لك ما سبق أن تمنيته، ولكنني أتمناه لك الآن أكثر.

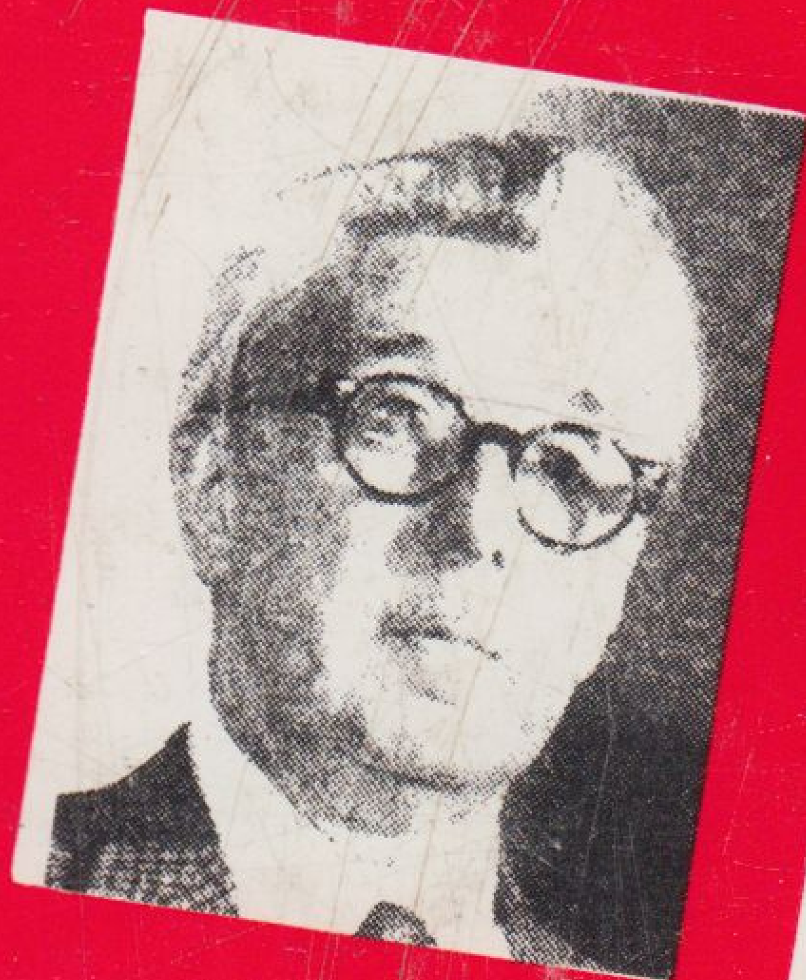
١٩٧١

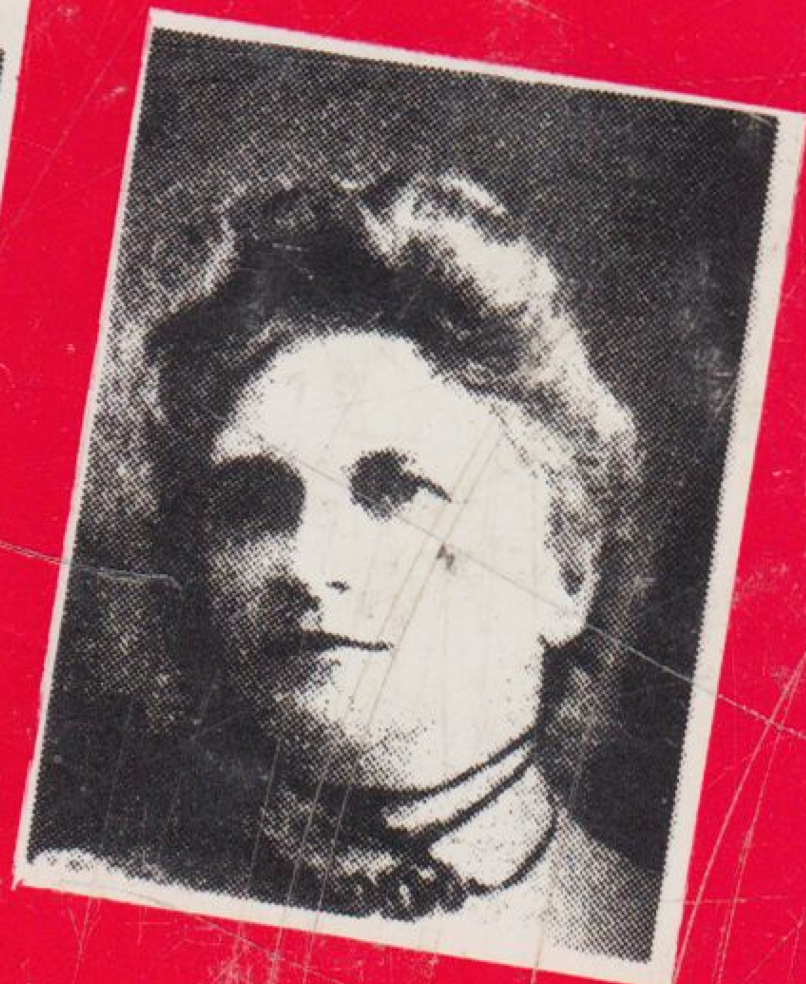
المحتويات

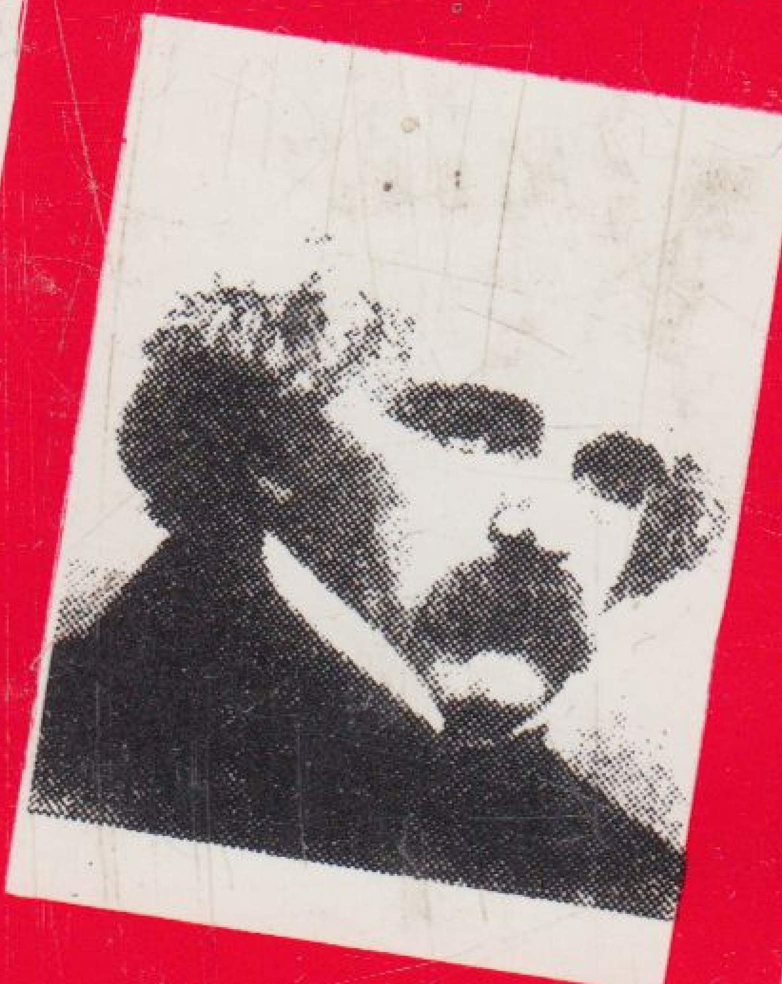
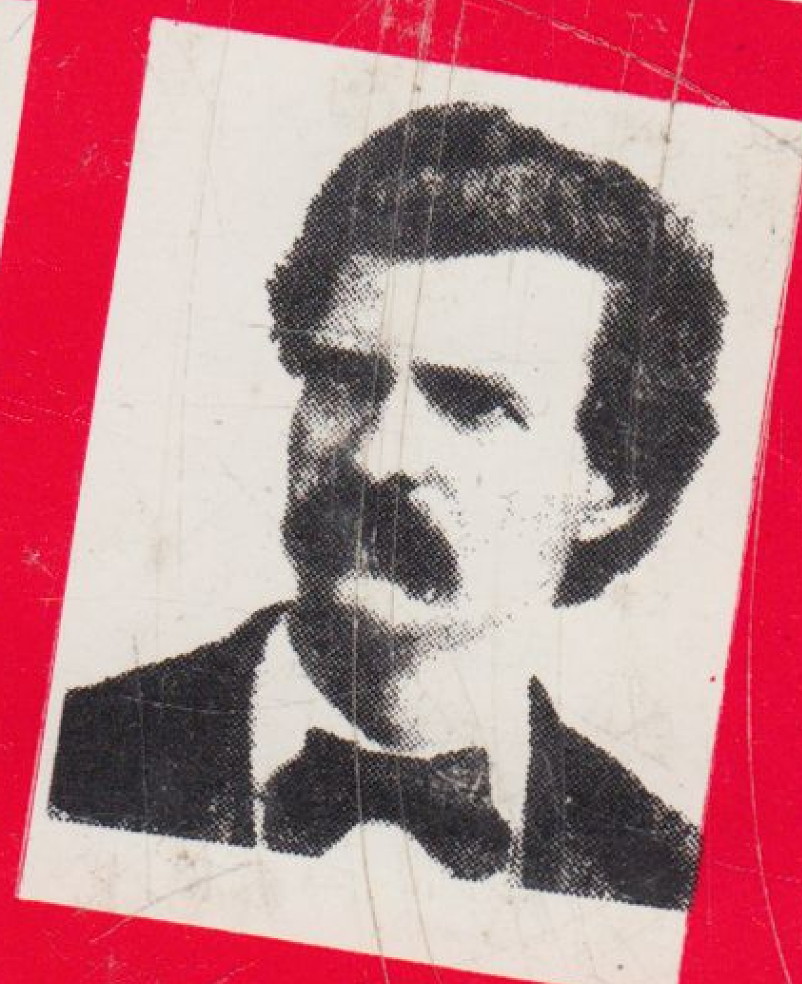
روائع الأدب ال سريكي ر ئع الأدب الأمـريكي رواً

الأمـريكي روا ع الأدب الأمـ يكي روائع الأدب الأمـريك

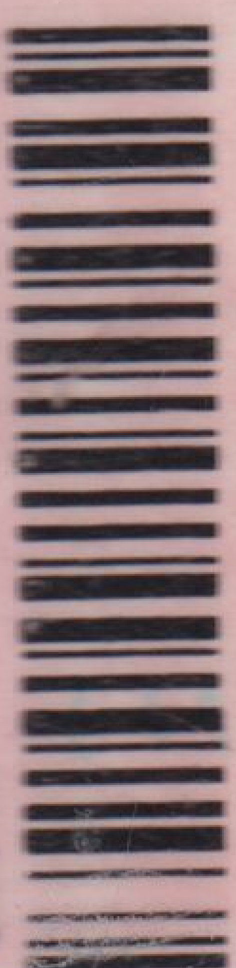
الأدب الأمـريك روائع الأدب لأمريكي روائع الأدب الأ







رقم الايداع (٤١٦/٤/


مركز الكتب الأردني